المهدية والسودان المصرى

Mahdism & The Egyptian Sudan

بقلم

الميجر إف. أر. ونجت



ترجمة

محمد المصطفى حسن





دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم - السودان
ناشرون وموزعون ووكلاء دور نشر

المهديـة

والسودان المصري

Mahdism & The Egyptian Sudan

المهديـــة
والســـودان المصري

Mahdism & The Egyptian Sudan

بقلم

الميجر إف. آر. ونجت

(١٨٩١)

قام بتقديم الطبعة الثانية

بي. إم. هولت

(١٩٦٨)

قام بنقله إلى العربية

محمد المصطفى حسن عبد الكريم



دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم - السودان

الكتـــاب : المهدية والسودان المصرى

المــؤلــف : محمد المصطفى حسن

رقم الإيـداع : ١٦١١٩ / ٢٠٠٩

تاريخ النشـر : ٢٠٠٩ الطبعة الأولى

ردمـــك : ١٥٥ - ٥٤ - ٩٩٩٤٢

الناشـــر : دار عـــزة للنشـــر والتـــوزيع

الإدارة : شارع الجامعة - الخرطوم - جنوب وزارة الصحة.

ت: ٨٣٧٨٧٢٠٠ فاكس : ٨٣٧٩٧٠٨٤ (١ - ٢٤٩+)

التـــوزيـــع : دار عزة للنشر والتوزيع ت : ٨٣٧٨٧٢٠١

السودان - الخرطوم . ص.ب : ١٢٩٠٩

بريد إلكترونى azzaph@yahoo.com

مقدمة الطبعة الأولي

بقلم/ الميجر جنرال إف . جرنفل

سردار الجيش المصري

أغسطس ١٨٩٠

لقد قيل الكثير وكتب عن المهدية. ولكن من المشكوك فيه أن تكون الطبيعة المعقدة لهذه الحركة الدينية، مثلها مثل الحركات الدينية الأخرى كالسنوسية والمرغنية، مفهومة وواضحة لدي جمهور الشعب.

لكن ضوءاً معقولاً قد جاء لإيضاح بعض ما غمض من الأمور، وذلك عندما تم الاستيلاء في توشكي علي دفتر يحتوي على عدد من القرارات والقوانين وخطابات من الراحل المدعو بالمهدي – محمد أحمد – ومن خليفته عبد الله التعايشي، وكذلك من المعلومات التي تم الحصول عليها من الأعداد الكبيرة من الأسرى الذين قبض عليهم في تلك الموقعة.

من هنا جاءت فكرة لجمع أهم ما جاء في تلك الوثائق ووضعها بصورة مقروءة، ثم تقديمها حسب تدرجها الزمني شاملة تلك الأحداث التاريخية التي جرت مؤخراً في السودان ولنحصل، حسبما يتاح لنا، على سرد شامل لها.

ومؤلف هذا الكتاب هو رجل مؤهل تماماً للقيام بهذا العمل. فعن طريق معرفته باللغة العربية تمكن من استجواب الأسرى بنفسه وكذلك استجواب اللاجئين وكل من أتي من السودان، مثلما تمكن من التأكد من صحة ترجمة تلك الوثائق العربية، التي أتيحت له بصفته مديراً للمخابرات الحربية بالجيش المصري، والتي شكلت معظم ما جاء بهذا الكتاب.

ولقد تم نشر أحداث الكثير مما جري في الحملات الأخيرة وتسجيلها للتاريخ لكن الهدف من وضع هذا الكتاب هو وصف الحوادث التي جرت في مختلف أنحاء السودان، والتي أصبحت الآن جزءاً من التاريخ. ورغم أن الحالة الراهنة في السودان تجعل من الصعب التأكد من صحة الأحداث التي وردت هنا، إلا أن الاهتمام الكبير بمقارنة أقوال الشهود والأسرى بما جاء في الوثائق الرسمية هو الذي أدى للحصول على سرد أمين للحقائق ولتاريخ الأحداث في السودان منذ قيام المهدية وحتى وقتنا الحالي.

وليس من الصعب علي من له خبرة ببلاد الشرق أن يفهم ما جاء بالكتاب. فلقد جرت تلك الحوادث علي مدي عشر سنوات، كما أنها جرت في أنحاء شاسعة من البلاد كان معظمها مقفلاً أمام تأثير الحضارة وأمام الرحالة والسواح. ولقد قام المستر ستانلي، في كتابه الأخير، بوصف ما جرى

في الأقاليم الاستوائية. ولقد تم إدخال ملاحظاته، التي أوردها، في صفحات الكتاب الحالي مما يعطي صورة متكاملة لهذا السرد. فقد كان هناك, علي ما نذكر, ما بين ٣٠,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ من جنود الحكومة بالسودان عندما بدأت حركة المهدي في الظهور. ولكن لم ينجح من بين هؤلاء في الوصول لمصر غير بضعة آلاف فقط. أما الباقون فقد صرع الكثيرون منهم في محاولتهم لتثبيت سلطة صاحب السمو الخديوي في السودان. وعن مصير الأخيرين, في حاميات كسلا والأبيض وغيرها، تـم إدراج تقارير صادقة عما حدث لهم, مما سيدعو المصريين للامتلاء بالفخر لما قام به مواطنوهم هناك من أعمال بطولية، وخاصة أثناء حصارهم, وهو الأمر الذي كان غير معروف لديهم حتى وقت قريـب. كما لم يكونوا مدركين لمدي بطولتهم التي أبدوها.

أما ما جري من الخرطوم, وخاصة في الأيام البطولية الأخيرة للجنرال غـردون ودفاعـه الشجاع عنها, فلن نعرف عنه بدقة الشيء الكثير. ولكن من المعتقد إن الوصف الذي جاء في هـذا الكتاب، والذي جمع من عدة مصادر، يمكن اعتباره صحيحاً من ناحية عامة.

وربما نجد أن كثيراً من المعارك التي خاضتها القوات المصرية في السنوات الأخيـرة قـد نالت حظاً من الاهتمام قد لا تستحقه. ولكن السبب في ذلك الاهتمام ربما يعود إلى الوضع الفريد الذي كانت تحتله القوات المصرية في السودان. فقبل سبعة سنوات تم إعادة تنظيم تلك الجيوش بواسـطة حفنة من الضباط البريطانيين، تحت رعاية لا تفتر للجنرال السير إيفلين وود، مما لا يسـع أولئـك الرواد الذين قاموا بهذا العمل سوي الشعور بالفخر من جراء النتائج التي تمخضت عن جهودهم تلك.

وعند وصف الحملات الأخيرة لم تدرج بوضوح خدمات الضباط المصريين وقد تم حـذف أسماؤهم من باب الاختصار، وليس من باب التهوين من شأن ما قاموا به من خدمات كانت بـارزة للعيان في كثير من المواقف.

كذلك، ولأسباب واضحة، تم حذف المسائل السياسية، التي تظهر من وقت لآخر, ولم يـتم بحثها هنا.

وقد هدف هذا الكتاب إلي إدراج الحقائق بأكبر قدر متاح مـن الدقـة التـي تسـمح بهـا المعلومات التي توفرت. ومن ثم سيتمكن القارئ من الوصول للإستنتاج الصحيح.

وبهذه الملاحظات الموجزة فأنني آمل أن تلقي الصفحات التالية الضـوء علـى التـاريخ الحربي للسودان منذ إخلائه, وتربط حلقاته ببعضها البعض, وبأنها ستكون, في الوقت الراهن علـى الأقل, مصدراً مفيداً ومرجعاً للمعلومات في غياب أي مصدر شامل وموثوق به.

ميجر جنرال ف. جرنفل
سردار الجيش المصري
أغسطس ١٨٩٠

مقدمة

أراد المؤلف من كتابه هذا تقديم سرد متصل للأحداث المرتبطة بتلك الثورة العامة والهامة التي قامت ضد الإسلام التقليدي، وضد السلطة الحكومية المعترف بها في السودان، والتي يمكن أن نطلق عليها أسم المهدية عموماً. من هنا جاءت رغبة المؤلف لتوضيح هذا الأمر الشائك المعقد وجعله شيئاً مفهوماً للقارئ العادي.

لقد ساعده مركزه الوظيفي الرسمي في مصر، من ناحية، على الوصول لمعلومات خافية عن الجمهور في ذلك الوقت ولا يجد إليها سبيلاً. ومن الناحية الأخرى، فقد أستطاع أن يعرف تماماً مدي الغموض، وحجم وكمية المعلومات المغلوطة التي شابت أفكار الكثيرين من الناس، وهي الخاصة بطبيعة تلك الحركة وتفاصيل الأحداث المتصلة بها.

إضافة لذلك، فأن السؤال الهام المتعلق بمستقبل هذه الأقاليم الشاسعة في السودان لا بد أن يؤخذ في الاعتبار يوماً ما. لذا فأن من المؤمل بأن متابعة دقيقة للأحداث، خلال السنوات القليلة الأخيرة، ستمكن الجمهو من الوصول لرأي سليم عن الوضع الحقيقي للبلاد وهو الرأي الذي يمكن البناء عليه للوصول للقرار الصحيح.

لقد بنيت المعلومات التي ستجيء في الكتاب من مصادر متعددة كما يلي:

١- عن تاريخ المهدية – من العديد من الرسائل الأصلية والمكاتبات والتي تجد طريقها من وقت لآخر لداخل مصر، ومن الحوارات التي عقدت مع عدد من قادة المذاهب الدينية الإسلامية في البلد، ومن أقوال الرجال الذين كان لهم دور في أحداث الثورة السودانية ممن لهم معرفة تامة بما حدث.

٢- عن الحوادث المبكرة المرتبطة بنشوء الثورة – وذلك من إفادات الضباط وغيرهم من الذين تمكنوا من الهرب، ومن الإفادات والتقارير الرسمية التي تم نشرها من قبل.

٣- عن الحصار الطويل للخرطوم وسقوطها – جاءت المعلومات من: (أ) دفتر يوميات وإفادات بعض من حوصروا. (ب) من التقارير الرسمية لحملة الإنقاذ لعامي ١٨٨٤/٨٥ . (ج) من إفادات بعض كبار الأمراء وغيرهم من الذين اشتركوا في الحصار. (د) ومن وقائع المجلس العسكري الذي أنعقد لمحاكمة ذلك الضابط الذي كان مسئولاً عن الدفاع عن ذلك الجزء من الاستحكامات الذي تمكن الثوار من الدخول خلاله للخرطوم[**].

[**] من المثير للاهتمام أن نلاحظ أن تقريراً مفصلاً عن حصار وسقوط الخرطوم، كتبه نصحي باشا بمساعدة عدد من الضباط الذين تمكنوا من الهروب من الخرطوم أواخر عام ١٨٨٥، قد وصل ليد المؤلف، بعد حصوله على إذن خاص من سمو الخديوي.

٤- عن الحوادث التي جرت في السودان بعد سقوط الخرطوم وبعد موت المهدي – من إفادات الضباط وغيرهم الذين كان لهم دور في تلك الأحداث، ومن المعلومات التي حصلت عليها إدارة المخابرات في سواكن ووادي حلفا، ومن العديد من الوثائق الأصلية التي حصلنا عليها من أم درمان.

٥- عن أحداث دارفور – من إفادات الضباط وغيرهم ومن خطابات أصلية لسلاطين بك...الخ.

٦- عن أحداث بحر الغزال – من إفادات أدلي بها أحد الضباط الذين كان حاضراً أثناء الثورة في ذلك الإقليم والذي استسلم مع لبتن بك.

٧- عن أحداث مديرية الاستوائية – من اليوميات المبكرة (باللغتين العربية والإنجليزية) لأمين باشا وضباطه, ومن كتابات المستر هـ. أم. ستانلي, ومما كتبه العديد من الضباط الوطنيين والموظفين الذين عادوا من تلك المديرية.

٨- عن أحداث الجبهة الحبشية وإنقاذ الحاميات المصرية – من الضباط المصريين الذين أشرفوا على عملية الإخلاء للحاميات, ومن خطابات عدد من أمراء تلك الجهة.

٩- عن إخلاء هرر – من مذكرات رضوان باشا.

١٠-عن أحداث جبهة النيل وسواكن ودور الجيش المصري الذي لعبه هناك – من التقارير الرسمية الخاصة بهما ومن خبرة شخصية.

١١-عن السنوسي والمذاهب الدينية الأخرى – من علماء بارزين للدين لهم ارتباط وثيق بتلك المذاهب, ومن مكاتبات أصلية.

إن صعوبة إعداد عمل بهذه الصورة، وليعطي فكرة واضحة عما جري من أحداث في مختلف أنحاء السودان، سنة بسنة، وفي نفس الوقت ليظهر بوضوح بأن الثورة قد قامت في كل مديرية علي حدة لما لها من خصائص تنفرد بها عن غيرها من المديريات، إلا أن الثورة في مجملها كانت تعتمد على نجاح أو فشل الحركات التي قامت في أنحاء البلاد المختلفة والتي تبعد عن بعضها البعض بمئات الأميال. وحتى يتمكن القارئ من متابعة ما جرى عموماً في أي فترة زمنية معينة فأننا عرضنا الوضع العام سنة بعد سنة رغم ما في ذلك من قطع لسرد الأحداث في المنطقة المعنية. ولتسهيل الأمر فقد أوضحنا الوضع في مختلف المديريات عن طريق إيراد خرائط مفصلة للوضع بنهاية كل سنة، والتي منها يتضح الانتشار التدريجي للثورة المهدية. وإنني آمل في أن تساعد هذه الطريقة علي تسهيل فهم الأحداث المتصلة ببعضها البعض للقارئ العادي.

لقد قام المستر فلوير, زميل الجمعية الملكية الآسيوية, بتقديم مساعدة قيمة وتعاون طيب في إنجاز الأبواب الأولي لهذا العمل. فله من المؤلف كل العرفان والشكر.

وكذلك للميجر ماريوت (من مخابرات الأدميرالية) والقائمقام دالتون (مخابرات مكتب الحرب) واللذان قاما, عند غياب المؤلف عن إنجلترا, بتقديم مساعدة قيمة له: الأول بتصحيح

مسودات المطبعة، والثاني بمراجعة الخرائط. وتحت إشرافهم الدقيق ثم تصحيح كتابة كـل الأسـماء المحلية للأماكن المختلفة وللأشخاص وقد بنيا ذلك علي الطريقة التـي يتبعهـا مجلـس الجمعيـة الجغرافية الملكية بلندن.

وإذا ما تم اعتبار هذا الكتاب مكملاً أو متماشياً مع بقية الأعمال التاريخية التي كتبت عـن هذا الموضوع, فأن الكاتب على ثقة من اعتبار عمله هذا إسهاماً بسيطاً عن تاريخ السودان يسـاعد على وضع تاريخ كامل له إن عاجلاً أم أجلاً بواسطة مؤرخين آخرين. أما في الوقت الحالي فأنه قـد يكون مفيداً كمرجع للأحداث.

مقدمة آر. ونجت،
القاهرة
أول يناير ١٨٩١

ملحوظة :

بعد كتابة هذا المؤلف، فقد تمت استعادة إقليم طوكر من أيدي المهدويين وتمركزت فيه الآن حامية عسكرية مصرية. وسنجد في الملاحق بعض التفاصيل المتعلقة بهذه الحملة عليها مثلما سنجد بعض مقتطفات من الحجم الهائل للمراسلات العربية التي تم الاستيلاء عليها في معسكر عثمان دقنة والمتعلقة أساساً بالأحداث التي جرت في عامي ١٨٨٣ و ١٨٨٤.

وقد تم عقد معاهدة رسمية مع الإيطاليين تحدد مناطق نفوذهم وأوضحت هذه الحدود في الخريطة المرفقة باسم " خريطة حوض النيل ".

آر. ونجت،
القاهرة،
أول مايو ١٨٩١.

مقدمة الطبعة الثانية

بقلم:

الدكتور / ب.إم. هولت – ديسمبر ١٩٦٦

ولد فرانسس رجنالد ونجت في يونيه ١٨٦١, وكان أصغر أبناء أحد رجال الأعمـال فـي جلاسجو المتخصص في تجارة المنسوجات. وتوفي والده عندما كان في السنة الأولي مـن عمـره, وقامت والدته بالإشراف عليه في جيرسي حيث تلقى تعليمه فيها. ولرغبته في سلك العسكرية فقد التحق بالأكاديمية العسكرية الملكية في وولوتش بنهاية عام ١٨٧٨. وبالتالي سار على خطي اثنين من الرجال الذين سيرتبط اسميهما باسمه وهما الجنرال غردون واللورد كتشنر، وقد كان كلاهما من خريجي وولوتش.

وفي عام ١٨٨٠. أدرج أسمه في الغازيتة كملازم ثاني في المدفعية الملكية, وخلال الثلاثة أعوام التالية خدم في الهند وعدن.

بدأت صلاته الطويلة بمصر والسودان عندما عرض عليه السير إيفلين وود في أبريل من عام ١٨٨٣ وظيفة لدية، فقد كان السير وود, كسردار للجيش المصري، يبني جيشاً مصرياً جديـداً ليحل محل ذلك الذي قام الاحتلال البريطاني لمصر بتسريحة في العام السابق. وكان الملازم ونجت قد تعلم شيئاً من العربية عندما كان في عدن، فواصل الآن ما كان قد بدأه بتحسين قدرته اللغوية ومـن ثم أرسي قواعد مستقبله في المخابرات الحربية. وبعد إجازة مرضية قضاها في إنجلترا عـاد إلـي القاهرة في ديسمبر ١٨٨٣. حيث عمل ضمن فريق السردار.

كان هذا وقت الثورة المهدية وحروباتها في السودان. وفي يناير ١٨٨٤. مـر الجنـرال غردون بالقاهرة قبل توجهه في مهمته الغامضة والتي انتهت بكارثة الخرطـوم. وعنـدما حوصـر الجنرال غردون، بعد بضع شهور من وصوله للخرطوم, في العاصمة السـودانية بواسـطة قـوات المهدية, وعندما قامت الحكومة البريطانية، على مضض، بالتصديق بإرسال حملة لإنقاذه, قام ونجت بمصاحبة وود, الذي كان مسئولاً عن خطوط لإمراء والاتصال بالحملة. تلي ذلك تولي وود مسئولية رئيس الأركان للجنرال بولر, الذي قاد فريقاً للتعزيز, وأصطحب معه ونجت في فبراير ١٨٨٥ حتـى الجقدول في الطريق المقرر للتقدم نحو الخرطوم. لكن مصير تلك الحملة كان تعسـاً. فقـد وصـلت البواخر المرسلة لإنقاذ غردون متأخرة لثلاثة أيام (كان قد قتل قبلها)، أما القـوات الأرضـية فقـد هرسها الأنصار هرساً. وعند تراجع القوات البريطانية – طابور الصحراء – فقد إنهارت كل ترتيبات النقل والترحيل لها. ومما لا شك فيه أن القوات البريطانية التي كانت معسكرة بمصـر قـد شـعرت بإهانة عظيمة لما لحق بهم على أيدي الأنصار.

وفي هذه الأثناء حل السير فرانسس جرنفل محل الجنرال وود كسردار للجيش حيث أصبح ونجت (بعد فترة قصيرة قضاها في إنجلترا) مساعداً للسكرتير العسكري في مايو ١٨٨٦.

وكان قد انغمس في عمل المخابرات قبل ذلك, عند اتصاله بحملة الإنقاذ. وفي بواكر عام ١٨٨٧ تم تعيينه كمساعد للقائد العام للاستخبارات. ثبتت الحدود بين مصر والدولة المهدية, التي صار يحكمها الخليفة عبد الله, في ضواحي وادي حلفا, أما ميناء سواكن فقد أستمر كمنطقة معزولة تابعة للخديوي على ساحل البحر الأحمر. وقد قام ونجت بتنظيم عمل المخابرات على الحدود بإقليم النيل ودمج عمله في المخابرات بعمله كمساعد للقائد العام للتجنيد.

وفي عام ١٨٨٩ حظي ونجت بلقب "مدير المخابرات الحربية" وظل يعمل بتعاون وثيق مع السلطات الإدارية والعسكرية, وكان يقضي وقتاً طويلاً في كل عام بالأقاليم الحدودية، وقد كان حاضراً عندما قامت قوات المهدية، تحت قيادة عبد الرحمن النجومي، بعبور الحدود (المصرية) وهزمت في معركة توشكي في ٣ أغسطس ١٨٨٩. شكلت هذه الهزيمة نقطة التحول للتاريخ العسكري للمهدية، فقد تلتها في فبراير ١٨٩١ حملة ناجحة تحركت من سواكن ضد عثمان دقنة، قائد قوات المهدية بساحل البحر الأحمر، وشتتت شمل قواته واستولت على رئاسته بالقرب من طوكر. وكان ونجت حاضراً أيضاً هنا.

وفي عام ١٨٩٢تم تنظيم الإدارة التي يرأسها ونجت, المخابرات الحربية, رسمياً وحددت القاهرة كرئاسة لها مع مكاتب وإدارات فرعية ومحلية لها في إقليم الحدود وفي سواكن. ومن قبل كانت هناك سلسلة من تقارير المخابرات السرية التي تأتي من قوات الحدود الميدانية ومن سواكن. ولكن وابتداء من أبريل ١٨٩٢ تم دمجها في وحدة واحدة.

وفي السنوات الأخيرة للدولة المهدية إستخلص ونجت, في ثلاثة مناسبات مختلفة، معلومات إستخبارية هامة من أسري الأوروبيين بالسودان الذين تمكنوا من الفرار عن طريق تدبيره وإشرافه. كان أولهم القس النمسوي الأب جوزيف أور فالدر, والذي تم تداول المعلومات التي جاء بها في التقرير السري للغاية " تقرير عسكري شامل عن السودان المصري، ١٨٩١" والذي شكل الأساس لكتاب ونجت الثاني" عشرة سنوات من الأسر في معسكر المهدي". وفي عام ١٨٩٤ أشرف على هروب قس ثاني هو الأب باولو روزينولي. ومرة أخري قام ونجت بأعداد كتاب عن الموضوع لكنه ترك طباعته عند وصول الهارب الثالث, وأميزهم جميعاً, ودلف فون سلاطين, في مارس ١٨٩٥ والذي كان يشغل وظيفة مدير دارفور لدي الخديوي. ومثلما فعل مع أور فالدر, قام ونجت باستخدام المعلومات التي جاء بها سلاطين بطريقتين هما: الأولى في تقريره السري عن تقرير شامل عن أحوال السودان المصري, مارس ١٨٩٥"، والثاني في الكتاب المنشور (الذي نال شهرة كبيرة وانتشار واسع) وهو كتاب "النار والسيف في السودان" والذي رغم ظهوره باسم سلاطين كمؤلف له، إلا أن ونجت تدخل كثيراً في تحريره. وقد تم تعيين سلاطين بعد ذلك كمساعد لمدير المخابرات الحربية، وكان عليه أن يعمل مع ونجت بدون انقطاع تقريباً حتى اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى.

وعندما بدأت حملة استعادة السودان بدنقلا عام ١٨٩٦ قام كل من ونجت وسلاطين بمرافقة كتشنر. والذي خلف جرنفل كسردار قبل أربعة سنوات. وبعد اشتراكه في البعثة الدبلوماسية. بقيادة السير رنل رود. التي توجهت إلي الإمبراطور منليك الثاني. إمبراطور إثيوبيا، عام ١٨٩٧، عاد ونجت إلي كتشنر. والذي كان يعد للمرحلة الثانية للغزو. والتي ستقود القوات البريطانية والمصرية إلي قلب الدولة المهدية. وبعد معركة كرري الحاسمة (تسمي عادة بمعركة أم درمان) في الثاني من سبتمبر ١٨٩٨، أصبح الخليفة مطارداً وتوقفت دولته عن الوجود. تم احتلال عاصمة المهدية أم درمان، وعندها وجه ونجت مساعده اللبناني نعوم شقير لجمع وثائق المهدية ومراسلاتها وكافة الأوراق الرسمية للدولة المهزومة. تم شحن الأرشيف الضخم الذي حصلوا عليه إلي القاهرة وشرع أعضاء مصلحة المخابرات الحربية في دراسته، وللحصول على ما يمكن من معلومات تساعد الإدارة الجديدة في عملها. وفي الوقت الراهن فقد تم إعادة معظم تلك الوثائق للسودان حيث أخذت موقعها كأقيم ما تحتويه إدارة الوثائق المركزية بالخرطوم.

تم تعيين اللورد متشنر كأول حاكم عام للسودان المصري الإنجليزي. وخلال فترة حكمه القصيرة قام ونجت. والذي نال رتبة الباشويه من الخديوي، ورتبة فارس من الملكة، بقيادة حملة عسكرية ضد الخليفة، والذي كان مع من تبقي من أتباعه وجنوده علي الغرب من النيل الأبيض. وفي أم دبيكرات، في ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩، تم خوض أخر معركة ضد المهدية حيث قتل فيها الخليفة عبد الله، وبعدها عاد ونجت للقاهرة. وبعد شهر من ذلك خلف كتشنر كحاكم عام للسودان.

وصل ونجت الآن إلي قمة النجاح. وقام كحاكم عام، في سنوات الهدوء التي سبقت الحرب العالمية الأولي، بمواصلة العمل، والذي لم يجد كتشنر وقتاً لبدايته، بإرساء دعائم إدارة مقتدرة بالسودان المصري الإنجليزي. وعندما نشبت الحرب العالمية عام ١٩١٤، وبالذات بعد دخول الإمبراطورية العثمانية فيها، ووجه بمشاكل عاجلة كان أولها وأهمها العمل على تأمين حياد وهدوء المسلمين السودانيين، وقد نجح في ذلك. وسرعان ما انغمس في المسائل المتعلقة بأهداف الحلفاء العسكرية والسياسية في الشرق الأدنى وعلي رأسها تنظيم ثورة الشريف حسين في الحجاز.

وعند بداية انفجار الثورة تم تعيينه كقائد عام حيث تمكن من توجيه وإدارة التعاون البريطاني مع الشريف وابنه الأمير فيصل. وفي أغسطس ١٩١٧ تم تحويل فيصل وقواته لتصبح تحت سيطرة الجنرال اللنبي قائد عام الحملة العسكرية المصرية. وأثناء ذلك. وفي عام ١٩١٦، قام ونجت بتدبير وتنظيم الحملة العسكرية ضد السلطان علي دينار. سلطان دارفور. والتي انتهت بهزيمته ومقتله وضم سلطنته إدارياً للسودان. والأسباب التي أدت لما حدث عديدة ومعقدة ولكن تم تبرير ذلك، وقتها، على أساس أن على دينار كان على اتصال بالعثمانيين وأنه كان ينوي القيام بثورة ضد الحكم الثنائي.

وفي أوائل عام ١٩١٧ حل ونجت محل السير هنري مكما هون كمندوب سامي في مصر. وبحلول الهدنة عام ١٩١٨ – نوفمبر – انطلقت كل القوي التي كانت مكبلة في ذلك القطر أثناء

سنوات الحرب الأربعة وشرعت في سلسلة من الأفعال وردود الأفعال. وبرز سعد زغلول كناطق باسم القومية المصرية وكقائد لها. وأثناء الأزمة التي نشبت وتصعدت بين الوطنيين، الذين يطالبون بالاستقلال، وبين الحكومة البريطانية، التي سعت لتوطيد حمايتها التي أعلنتها عام ١٩١٤ على مصر، أصبح ونجت في موقف لا يحسد عليه كوسيط عالم تماماً بمشاعر المصريين وفي نفس الوقت عاجز عن إقناع رؤسائه بالخطر الكامن. وفي يناير ١٩١٩ غادر مصر متوجهاً لأوروبا ليشرح للحكومة البريطانية آراءه حول الوضع، لكنه لم يعد ثانية لمصر. وبعد نشوب الثورة وإنتشارها في أنحاء مصر في مارس من ذلك العام تم تعيين ألنبي مندوباً سامياً خاصاً لمصر. وبذلك وضعت النهاية لسيرة حياته العملية. هذا وقد توفي ونجت بعد أن بلغ من الكبر عتياً وذلك في يناير من عام ١٩٥٣.

المهدية والسودان المصري:

لعبت معركة توشكي دوراً في دفع ونجت لوضع كتابه "المهدية والسودان المصري". وكما أشار الجنرال جرنفل في مقدمته للكتاب، فقد بني ونجت كتابه معتمداً علي المخطوط الذي غنم في المعركة والذي أحتوي على رسائل ونصوص وكتابات وتقارير من المهدي والخليفة. وهذا المخطوط محفوظ اليوم بدار الوثائق المركزية لجمهورية السودان.[١] ومعظم الوثائق التي ترجمها ونجت، وجاءت في كتابه، أخذت من هذا المخطوط والذي وصف وصفاً غير دقيق باسم "دفتر رسائل النجومي". لم يقم ونجت بترجمة الوثائق بنفسه، بل أوكل المهمة للكتبة السوريين (اللبنانيين) العاملين في إدارته، رغم أن جرنفل قد ذكر بأن ونجت كان قادراً علي إختبار دقة ترجمتهم.

ولابد من الإعتراف بأن تلك التراجم جاءت مخيبة للآمال سواء في الشكل أو في المضمون ولا تعطي نفس المقصود من الأصل العربي.

ويبدو أنه قد تم طباعتها مباشرة من المسودة الفجة التي قدمت لونجت. فبعض العبارات جاءت مضغوطة مكثفة، أو بعد تعديل صياغتها، فجاءت مضطربة غير متجانسة ولا مترابطة وتختلف تماماً عن الأسلوب البليغ الذي اشتهرت به كتابات المهدي. وقد تم شرح بعض المصطلحات الفنية الإسلامية. أما بقية التراجم وخاصة الأحاديث فقد تم وضعها بدرجة أخلت بالمعني. ويبدو أن مغزى تلك الأحاديث لم تكن معروفة لدي مساعدي ونجت من نصارى لبنان وبالتالي أسهمت تلك التراجم، ولو بدون قصد أو تعمد، في إفهام الرأي العام البريطاني بأن المهدية ما هي إلا انتكاسة طفوليه مبنية علي الخرافة والجهل والبربرية الفجة.

ولم يكن "دفتر الوقائع" المصدر الوحيد لكتاب ونجت، رغم أنه شكل المكون الأساسي للمعلومات المتاحة عن المهدية حتى ذلك الوقت. فقد أورد أيضاً عدداً من الخطابات التي كانت قد أرسلت للجنرال غردون أثناء حصار الخرطوم. وقد وصلت هذه الرسائل لإنجلترا مع ما تبقي من

---

[١] قام الدكتور محمد إبراهيم أحمد بوضع دراسة مفصلة عن المخطوط تحت عنوان "مخطوط النجومي" وكان عبارة عن رسالة دكتوراة باللغة العربية عام ١٩٦٦م ولم تنشر (وقتها).

يومياته وتم نشرها كملاحق (ليوميات غردون) بواسطة هيك عام ١٨٨٥ وكل من اليوميات والرسائل تلك محفوظة الآن في المتحف البريطاني. وهناك عدد من الوثائق – الإنذارات – التي أرسلها الخليفة لمصر عام ١٨٨٧ بواسطة مبعوثين, وأيضاً في أبريل ١٨٨٩ لكنها كانت عبارة عن إنذارات للمصريين والإنجليز والسلطات العثمانية تدعوهم فيها للتسليم للمهدية أو مواجهة الحرب الدينية الجهادية عليهم.

أكمل ونجت مسودة هذا الكتاب في رأس السنة ١٨٩١. وفي الشهر التالي ساهم في جزء من الحملة ضد عثمان دقنة والتي كان من نتائجها سقوط أرشيف هذا القائد المهدوي في يده. وكانت إحدى الرسائل المطولة، التي استولوا عليها، عبارة عن وقائع تصف المراحل الأولي لمهمة عثمان دقنة في شرق السودان، وانتصاراته الأولي علي القوات الخديوية والبريطانية، في خطاب مرسل منه إلي المهدي، وسيتم إيراد الرسالة مع الملاحق.

وقد يتساءل المرء عن مغزى أو أهمية كتاب "المهدية والسودان المصري" في هذا اليوم. أما ونجت فقد كانت أمامه عدة مزايا يحققها من كتابه هذا. فقد تمكن من استخلاص، ليس فقط ما توفر من معلومات عن المهدية في ذلك الوقت، بل سخر التقارير التي كتبها هو ومساعدوه، من الإفادات التي تلقوها من مخبريهم، ومن اللاجئين، مثلما أعتمد علي السجلات الحربية لكل من الأجهزة المصرية والبريطانية. وكان هو نفسه مساهماً نشطاً في بعض الأحداث التي وصفها. ومن هنا جاءت أهمية الكتاب كمصدر مفيد, وكمقدمة للتاريخ الحربي للمهدية منذ نشأتها وحتى عام ١٨٩١، وخاصة فيما يتعلق بمجري أحداث جبهة النيل وجبهة ساحل البحر الأحمر.

أما عند ما تناول ونجت خلفيات الأحداث أو خلفيات الشئون الداخلية للمهدية فأنه لم يحقق نجاحاً يوثق به لأن عدم المعرفة الكاملة هي التي كبلته وأعاقت درجة الوثوق بما جاء به. فتجميعه للبيانات المتعلقة بالإسلام والمهدية والسنوسية التي إفتتح بها كتابه ربما جاءت كيفما إتفق على أحسن الإفتراضات ومن ذلك على سبيل المثال قوله بأن محمد أحمد الدنقلاوي قد أخذ المهدية من وجهة نظر الشيعة, أو أنه هو الإمام الثاني عشر الغامض والذي أختفي منذ زمن طويل. فهذا خطأ جسيم. وقد كان الشكل الذي تصوره ونجت عن الإحداث التاريخية المتعلقة بتطور المهدية السودانية سطحياً للغاية. فقد كتب مثلاً " من السهل على المرء أن يري كيف أن ذلك البعث الديني قد غذته الجماهير الكردفانية المشبعة بالخرافات وتعاليم الفقراء, وجماهير القرى المدقعة البائسة في وادي النيل. وكيف استغل البقارة, ذووا الكبرياء ذلك كسلاح, بعد أن إمتلأت نفوسهم بكراهية وإستنكار منع تجارة الرقيق". وهناك تبسيط مبالغ فيه, تردد في كثير من الكتابات البريطانية بعد ذلك, عندما علق قائلاً: " وعندما غادر غردون, بطاقته العارمة التي أحيتهم بعد موات, السودان, إنهار المصريون وأصبحوا كماً خاملاً لا أمل فيه".

ولم ينشأ القصور, في تقديم ونجت للمهدية, من مداركه المحدودة فقط, فقد أظهر كراهية عاطفية قوية ضد قادتها. لكنه رغم ذلك قد قال حقاً, عن المهدي عند بداية ظهوره, بأنه "يحمل في

مظهره الخارجي كل ملامح السيد الحسن التربية" لكنه عندما مات المهدي قال بأن المهدي أصبح " النبي المتنسون الجاري وراء الملذات والفسق". أما عن خليفته عبد الله فقد قدمه بدرجة من الصدق بأنه"رجل شجاع ويضارع الثعالب ذكاء" لكنه في نهاية كتابة يصفه بأنه " أحمق وفارغ وتافه وخليع..... وحاكم طاغية مستبد, شديد الجهل ولا يعرف شيئاً عن قوانين ونظم الحكم".

ورأي ونجت عن المهدية ملتبس مختلط المعاني والمقاصد لدرجة تدعو للتساؤل. فقد تحدث عنها بأنها وليدة ظلم وقهر الإدارة التركية المصرية: " كانت القاعدة العامة لدعوى المهدي وتحريضه متمثل في الظلم والقسوة بكافة أنواعها والتي ظهرت بوضوح بعد غياب النظام الشامل الذي أرساه غردون" ثم يصف ونجت بشئ من البلاغة مضمون تعاليم المهدي ومدي تأثيرها على جمهرة السودانيين. لكنه عند نهاية كتابه أدان الحركة ووصمها بأنها: " بدلاً عن إقامة مملكة دينية يعيش فيها المواطنون في سلام وتكون الثروة فيها مشاعة والفقر غير معروف بها, فقد وجدنا البلاد وقد إنحدرت إلي حالة من الطغيان والإستبداد وملأت أرضها أشكال من سفك الدماء والسلب والنهب والرعب الشامل".

وبينما قدم ونجت المهدية بأنها البربرية والطغيان, قال عن نظام الخديوي الذي أطاحت به الثورة بأنه نظام إتسم بالظلم والجور والقهر. فما الذي نستنتجه من كل هذا؟ لقد ألمح ونجت في ختام كتابه إلي " أنه لو قدر لهذه البلاد أن تعود مرة أخري جزءاً من أملاك الخديوي فلا شك أن الدروس التي تعلموها خلال تلك السنوات العشرين لن ننسي ولأبد أن ينهض سودان جديد وأفضل من فوق رماد غردون ورماد أولئك الضباط والرجال الشجعان الذين هلكوا في سبيل أداء واجبهم ولولائهم, وهذا هو الأمل الوهاج الذي يملأ أفئدة كل محبي الخير لمصر".

وقد وضحت هذه النقطة تماماً في الكتاب الثاني الذي إشترك فيه ونجت. فقد قال على لسان أورفالدر في كتابه (عشر سنوات من الأسر في معسكر المهدي): " إلي متي ستظل أوروبا – وفوق كل شئ تلك الأمة ذات المصالح في مصر والسودان – والتي تقف عن جدارة في طليعة من يعمل على تمدن الأجناس الهمجية: إلي متي ستظل أوروبا وبريطانيا العظمي تنظر بدون حراك إلي إنتهاكات الخليفة ونزعاته لتدمير الشعب السوداني؟ ".

إذن كان ونجت في كتابه (المهدية) ناطقاً بلسان العسكرية البريطانية في مصر وداعية لها, وهي الممتعضة والمستاءة لفشلها في إنقاذ غردون و لانتصارات المهدية الباهرة.

ومن المؤكد أن المسودة الأصلية للكتاب قد جاء فيها: " نقداً شديداً للأحداث التي سبقت والتي حدثت خلال بعثة غردون للخرطوم", وأن تلك الفقرة قد أعيدت صياغتها, بناء على نصيحة جرنفل, وهذا ما أتضح في مقدمته التي كتبها, حيث أوضح بجلاء أنه قد تم حذف" كل ما يشير إلي الوضع السياسي, والتساؤل الذي يظهر من وقت لأخر بشأنه".

لقد لعبت الكتب الثلاثة: المهدية والسودان المصري – عشر سنوات من الأسر في معسكر المهدي – النار والسيف في السودان، دوراً في المحافظة على إستمرار إهتمام الرأي العام البريطاني بالسودان وخاصة أثناء سنوات الانسحاب منه والتي تلت موت غردون. ولكن القول بأن ذلك تسبب في إعادة فتح السودان، أو للحكم الثنائي المصري الإنجليزي، فليس صحيحاً. لكن مما لاشك فيه أن تلك الكتب قد لعبت دوراً هاماً في تهيئة الرأي العام البريطاني لتلك التطورات اللاحقة. بل كان لها أثراً قوياً في ترسيخ صورة السودان وتاريخه في فترتي الحكم التركي المصري والمهدية بحيث يبرر الحكم البريطاني له من ناحية أخلاقية وفي نفس الوقت ظلت تلك الصورة عنه هي المقبولة والسائدة لدي الرأي العام وحتى وقت قريب.

ب. م. هولت
ديسمبر ١٩٦٦

مقدمة المعرب

كتاب "المهدية والسودان المصري"، الذي كتب في صدر الدولة المهدية، بالغ الأهمية لإنفراده بعدة خصائص:

الأولى: أنه كتب في خضم أحداث الثورة المهدية وحركتها المحمومة في كل أنحاء السودان وخارجه. هذه الخاصية نفسها هي التي تقود كاتبها إلي محاولة إستقراء الأحداث التي سترد فيما بعد والوصول لإستنتاجات بشأنها، مثلما قد تقوده إلي مسار خاطيء كل الخطأ، وهذا ما أوضحه مقدم الطبعة الثانية للكتاب.

الثانية: لإحتوائه على سجل طويل لوثائق المهدية لم يشر إليها أحد قبله وأهمها مجموعة الوثائق المسماة مجازاً "بدفتر النجومي" والتي عثر عليها، بمعسكر ذلك البطل المغوار بعد تدمير جيشه في توشكي عام ١٨٨٩. وهذا الدفتر هو الذي بني عليه البروفسر محمد إبراهيم أبو سليم رسالته للدكتوراة عام ١٩٦٦.

هذا إضافة لنشره "لدفتر وقائع ومراسلات عثمان دقنة"، والذي عثر عليه في معسكر أمير أمراء الشرق عند سقوط عفافيت وطوكر عام ١٨٩١.

الثالثة: نشره لخرائط جغرافية عن السودان وحدوده وقبائله، رسمت قبل عام ١٨٩٠. نجد فيها الكثير الذي يوضح ما نحن عليه الآن من خلاف حول تلك الحدود والديار والتي تتسم بالضبابية والبلبلة.

الرابعة: السرد لأحداث الثورة المهدية سنة بسنة منذ نشوئها عام ١٨٨١ وحتى سقوط طوكر في أوائل ١٨٩١. وقد بني المؤلف معلوماته تلك من جواسيسه أو من التجار الوافدين لمصر أو من الوثائق المهرية إليه أو التي غنمتها الجيوش الإنجليزية المصرية وخاصة في واقعتي توشكي وطوكر. هذا إضافة إلي تمكنه من الوصول لكافة الوثائق والمستندات التي بحوزة المخابرات المصرية التي كان مديراً لها، وخاصة تلك المتعلقة بتكوين الجيش المصري الجديد، بعد هزيمة عرابي واحتلال بريطانيا لمصر، أو المتعلقة بالحاميات المصرية في السودان ووثائق أحداث غردون وستيوارت وبيكر وصمويل بيكر وحملة وولسلي (حملة إنقاذ غردون) وأحداث سواكن وغيرها.

وأخيراً: للمعلومات الطازجة التي أدخلها في كتابه، بعد الإنتهاء منه، والمتعلقة بأحداث طوكر وبدء تدهور نفوذ عثمان دقنة بالشرق. هذا النفوذ الذي كان كالعلقم في حلوق الترك والإنجليز، والذي تسبب في حرمانهم من دخول السودان عبر بوابته الشرقية وذلك عند إستعار حوجتهم لذلك للحاق بغردون ونجدته وفك الحصار عن الخرطوم، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فقد كفاني البروفسور هولت مؤونة الحديث عن مثالب الكتاب ومخازيه (التي سار سلاطين فيما بعد – عام ١٨٩٦ – على منوالها)، والتي أورد بعضاً منها وسكت أو فات عليه البعض الآخر.

فونجت كان في بداية محاولاته لأن يكون أديباً أو مؤرخاً عندما وضع هذا الكتاب. فقد كان شاباً في أواخر العشرينات من عمره ولم يكن قد مضي عليه أكثر من بضع سنوات في الخدمة العسكرية, أو في خدمة الإستخبارات الحربية, أو بالعيش في أجواء الشرق المتسمة بالغموض والإبهام, التي يحتاج المستشرق لعشرات السنين لفهم وإستيعاب بعض ما يمكنه من الحديث عنها. من هنا كان ذلك الحشد الهائل للوثائق والملاحق المطولة والتفاصيل التي لا مبرر لها أو لا تدخل في صميم موضوع مؤلفه, وانصرافه في عشرات الصفحات لشروح لا تستحق سوي بضعة أسطر, مثل زاوية السنوسية بجغبوب, أو تطويله الباعث علي الملل عن الفرق بين طابية المجرم وطابية المقرن. وهل هما شيء واحد أم لا؟, كذلك توسعه في أصول الألقاب التركية من باشا وبك أو تاريخ سك النقود منذ ظهور الإسلام قرناً بقرن وخليفة بخليفة.

في الكتاب أيضاً تزييف لبعض الحقائق خاصة عندما تحدث عن انتشار الجدري في أم درمان وحصده للأرواح, وأغفل دور الجنرال غردون، ومساعده في الجرم إبراهيم فوزي باشا, والذين صنعوا وركبوا جراثيم الجدري (فيروساته) ووضعوها بداخل القنابل التي يقذفون بها الأنصار (أنظر عبد المحمود أبو شامة، من أبا إلي تسلهاي، حيث به دراسة مطولة موثقة خاصة بحرب الجراثيم والميكروبات التي إستخدمها المستعمر ضد الأنصار).

كما إمتلأت صفحات الكتاب بالفحش أو الخلط الذي لا يليق بالمؤرخ.وهناك عشرات الأمثلة لذلك منها ما قاله "أن سبب ترحيل العاصمة، من الخرطوم لأم درمان, هي لكي يتفرغ الحاكم المكروه والذي يرتقب منه الناس، لملذاته الخاصة بعيداً عن أعين الخرطوميين!". أو تقريره بكل ثقة بأن وفاة المهدي نجمت عن سم دسته له إحدى زوجاته، أو أن المهدي قد خلف بعد وفاته ثلاثة أبناء وثلاثة بنات بينما الواقع كان أنه قد ترك عشرة من البنين وعشرة من البنات!

من مثالبه أيضاً القفز من موضوع لأخر بدون مقدمات وفي نفس الفقرة. فمثلاً يتحدث عن فسوق الحكام الجدد وإنصرافهم للملذات ثم يدخل مباشرة في صناعة الذخيرة وتوريدها لأم درمان.

وهناك خلط متكرر من المؤلف، لم يصححه البروفسور هولت, ومن ضمنه الإشارة لصالح بك شنقه التكروري على أنه صالح بك الكباشي (الهامش في القسم العاشر). أو أن الرأس عدل (الأمهرى الحبشي) هو عربي متصلب حاد المزاج!. ولا أدري سبباً لهذا الخلط سوي لتسرعه أو لجهله الفاضح لخلفيات بعض الأحداث والقبائل وتوزعها وغير ذلك.

ولكن الكتاب لم يخل من بعض الطرافة والملح والتي تجعل أمر قراءته ومتابعته شيئاً ممتعاً غير ممل. ومن هذه الطرائف (الرسمية) ما جاء حول محاكمة حسن بك البهنساوي, الضابط المصري المسئول عن الثغرة التي أقتحمها الأنصار عند دخولهم للخرطوم، والجدل الدائر بين كل الجهات المختصة حول إدانته بتهمة الخيانة "وبهذا توفر الخزينة المصرية المنهكة معاشه وحقوقه" أم تتم براءته مما سيفتح باباً لن يسد من طلبات التعويض من الضباط والجنود الذين نجوا بأرواحهم ووصلوا لمصر.

أكتفي بهذا وأترك القارئ للكتاب.

محمد المصطفي حسن - سنار
فبراير ٢٠٠٦.

محتويات الكتاب

القسم الأول
(عمومي وأحداث عام ١٨٨١)

الملخص:

" المذاهب الدينية الشرقية عموماً – مهدي السنة ومهدي الشيعة – السنوسي والإخاء الديني – الوردة الصغيرة – تعاليم المذهب – وضعه الجغرافي – جغبوب – محمد السنوسي وسلطان واداي – السنوسي المهدي المنتظر – مهدية محمد أحمد الدنقلاوي – خرافة الإمام الثاني عشر – المهدويون السابقون في مصر – سبب بداية الثورة في السودان – خمسة "تحت أقسام" عرقية في السودان – العرب الأبالة، الأول – القبائل الزنجية في دارفور، الثاني – سكان المدن والقرى، الثالث – البقارة العرب أصحاب المواشي، الرابع – الزنوج أو المتزنوجون من أصحاب المواشي، الخامس – تجارة الرقيق وإخمادها بواسطة غردون – أسباب إستعداد البقارة للثورة – محمد أحمد يبدأ رسالته المقدسة – حياته الأولي – تعليمه وتربيته الدينية – بداية قيامه بالتبشير"

خرج من كل من النصرانية والإسلام رجال مفكرون ركزوا على جوانب من دينهم لدرجة جعلت الكثيرين من الناس، من الذين وجدوا صعوبة في إستيعاب التعاليم الدينية المتشعبة، يتبعون تلك الجوانب المحددة التي أرسي أولئك المفكرون قواعدها لهم. من هنا يمكن مقارنة البيورتانيين المتطهرين في النصرانية بالوهابيين في الإسلام، أو اللوثرية بالسنوسية. فهم على العموم رجال مسالمون وضعوا أسس تلك التعاليم، ولكن نادراً ما تم نشرها بالوسائل السلمية.

فالبابيون، الذين اتخذوا من (عكا) رئاسة لهم بسوريا، والذين كتب قائدهم رسالة عام ١٨٦٨ إلي صاحبة الجلالة الملكة (فكتوريا) يهنئها فيها ويمتدحها لجهودها النبيلة في قمع تجارة الرقيق، ظلوا، وحتي الآن، مسالمين تماماً في دعوتهم رغم أنهم عانوا من النفي لقبرص والخرطوم، بل حتي من الاستشهاد، الذي يسبغ الإسلام صفته علي المضطهدين في الدين.ورغم ذلك فلم يحدث حتى الآن ما يدفعهم للعدوان على من أعتدي عليهم*.

أما ديانة السيخ، والتي تتسم اليوم بطبيعة حربية ومتشددة، فقد كانت في الأصل ثمرة جهود نانا شاه، وهو رجل فقير كان يعيش على حدود البوذية والإسلام، لإيجاد وسيلة سلمية للتعايش والإنسجام بين الدينين وإستمر ذلك لمدة ٢٣٠ سنة من وفاته حينما بلغ الاستبداد الإسلامي، مثلما قام به أورونجزبي، حداً دفع بالمحارب الشهير قورو قوفند إلي الثورة ضده وبعدها قام بدمج كل

---

* إيضاح من المعرب:البابية هي ديانة أسسها ميرزا على محمد (١٨١٩–١٨٥٠) والمعروف باسم الباب وهو مواطن إيراني من شيراز كان مسلماً ولكنه جاء بتعاليمه التي تنص على أن الإسلام ليس بآخر الرسالات، وجاء بتعاليم جديدة ذات شرائع تبطل بعض ما جاء بالقرءان. قامت الحكومة الإيرانية بإعدامه رمياً بالرصاص وطاردت أتباعه بشدة بالغة. انتقلت رئاستها بعد ذلك إلي الشام وتطورت لما يعرف اليوم بالبهائية (المعرب: عن موسوعة هتشنسون الأمريكية).

الفرق الدينية لعبادة إلهة الشجاعة درقا بافاني، وظل لسنوات عديدة سوط عذاب للمسلمين، وظل اسمه بعدها مرادفاً للحرب اليائسة.

أما المهدية، التي سنتحدث عنها هنا، فأن لها جانبين متعارضين: فهناك المهدي الذي ينتظر السنة الطيبون ظهوره مثلما ينتظر اليهود ظهور المسيح. وهناك المهدي الغائب والذي ينتظر الشيعة المخلصون معجزة ظهوره في أي لحظة. ومن الغرائب الفريدة في تاريخ الأديان أن نجد أن لمصر، في وقت واحد، وبها أو بجوارها، مهديان منتظران كل منهما مختلف عن الآخر، وهناك عدد كبير من جماعات الأخوة الدينية (الطرق الصوفية) في بلاد المشرق. وكلها تفرعت من واحدة أو أخرى من مدارس القاهرة ومكة وبغداد وغيرها، وكلها تتلقي إلهامات سماوية، لا غني عنها، مثلها مثل النبوءات. أما المعجزات فليست بالكثيرة لكنها في وضع أفضل منها عن الأيام الأولي للنصرانية حينما أحجم الآباء الأوائل عن استخدامها لإثبات صحة دينهم.

وتتميز كثير من الطرق في إفريقيا بنوع من الوجد الصوفي الرياضي ويتم هذا بهز الرأس بقوة وعنف قد تزلزل كيان الرجل المتعلم. وينتج عن هذا الهز شعوراً مرغوباً فيه يشبه حالة السكر، ولكنه سكر لا يعقبه صداع.

ويرجع تاريخ السنوسية، أحد فروع المدرسة الشاذلية، إلي عام نشأتها في ١٨٣٧. وقد أطلق عليها هذا الاسم لبدايتها في جبل سنوس بالجزائر. وقد نالت السنوسية دفعة قوية بما أسبغه عليها السلطان العثماني عبد المجيد من رعاية عام ١٨٨٢. ففي هذه السنة قام الغازي مختار باشا بتوجيه الشيخ محمد أبو زيد بالقاهرة ليقوم بطباعة ألف من كتاب الصلاة للطريقة وكما يلي:

تجليات شيخ إدريس: هدية من مختار الغازي إلي سيدي محمد السنوسي، ليوزع بين الإخوة، طالباً منهم صالح الدعوات عند الصلاة".

والآتي صورة طبق الأصل مما أسماه السنوسي (بالوردة الصغيرة) أو الطريق الذي يسلكه غير المتعلمين من العرب لإدخالهم كإخوة في الطريقة السنوسية. والمكتوب التالي هو صورة طبق الأصل مما كتبه المهدي الشيخ محمد السنوسي وترجمته كما يلي:

"أستغفر الله". تقال مائه مرة"

"لا إله ألا الله محمد رسول الله في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله ".

تقال ثلاثمائة مرة

"اللهم صلي على سيدنا محمد النبي الأمي وعلي آله وصحبه وسلم" .

تقال مائة مرة.

"The Tagaliat Sheikh Idris, a present from Mukhtar el Ghazi to Sidi Mohammed es Senussi, to be distributed among the brethren, and asking their help in prayer."

The following is a facsimile of what is termed by the Senussi the "little rose," *i.e.* the Tarikh or way by which illiterate Arabs are admitted as brethren to the Senussi confraternity. The writing is the facsimile of that of El Mahdi Sheikh Mohammed es Senussi.

The translation is as follows :—

"God pardon me" to be said one hundred times. "There is no God but God, and Mohammed is His prophet; every glance and every breath is known to Him," to be said three hundred times. "O God, pour Thy blessings on our prophet Mohammed, he who could neither read nor write, and bless us his followers and friends," to be said one hundred times.

أستغفر الله — مائة مرة

لا إله إلا الله محمد رسول الله في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله — ثلاثمائة مرة

اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم — مائة مرة

The first chief, Sidi Mohammed Ben Ali es Senussi, founded some three hundred lodges in the north of Africa, of which the head centre is at Jorhbub, a little to the west of Siwa.

خريطة لزاوية السنوسي في جغبوب

To face page 4

Rough Plan of E.S SENUSSI'S ZAWIA *at* JERHBUB

Drawn by a Native from memory

(رسمها أحد المواطنين من الذاكرة)

WEST

استراحة
RESTHOUSE
SIWAN GUESTS
ضيوف سيوة

FLOUR MILL
طاحونة

HOUSES OF THE TEACHERS
بيوت المعلمين

SHEIKH ABU SEIF'S
شيخ أبو سيف

GATE
بوابة

Well
بئر الماء

GATE

RESTHOUSES FOR MOGHRABIEH
استراحات المغاربة

SENUSSI'S HOUSE
بيت السنوسي

شمال
NORTH

GATE
بوابة

SOUTH
جنوب

ROOMS OF SENUSSI'S COUNCILLORS
غرف المستشارين

SENUSSI'S ROOM
غرفة السنوسي

ANTE ROOM

المقابر
TOMB OF SENUSSI & CHILDREN

DOME
القبة

VISITORS ROOMS
غرف الزوار

COURT YARD
حوش

القبلة
KIBLEH

MOSQUE
المسجد

HOUSE OF SENUSSI'S WAKIL
منزل وكيل السنوسي

GATE

ROOMS OF STUDENTS

ROOMS OF STUDENTS
غرف الطلاب

ROOMS OF STUDENTS

BATH
حمام

Well
بئر ماء

WIND MILLS
طواحين هواء

GATE
بوابة

EAST
شرق



وكان أول زعيم للطائفة، سيدي محمد بن على السنوسي، قد أسس حوالي ثلاثمائة (خلوة) في شمال إفريقيا رئاستها في جغبوب على الغرب قليلاً من سيوة. وهناك، وعلى قطعة أرض وهبها له السلطان، بني زاوية ضخمة محاطة بسياج. والزاوية في الإسلام تماثل الدير عند نصارى الشرق. والخريطة التالية لزاوية جغبوب توضح طبيعة المبني والذي يضم الآن مائة تلميذ من التونسيين والبدو ورجال من الفيوم، بينما يقوم بخدمة المنشأة حوالي ثلاثمائة من العبيد. وهنا يقيم محمد السنوسي، البالغ من العمر أربعين عاماً تقريباً، والموصوف بالسماحة واللطف والذكاء والذي لا يمتنع عن قراءة الصحف. وهو يغطي وجهه دائماً بقطعة من قماش الموسلين الناعم ويتلثم بها.

وتعارض معتقداتهم الرئيسية كل المستحدثات الغربية، ويعتمدون تماماً علي الزراعة. ففي كل واحة صغيرة تجد زاوية لهم وزراعات مختلفة وكان السنوسي يختار دائماً الواحات التي توجد بها الخرائب والآثار الرومانية القديمة، لأن وجودها يعطي مؤشراً بأن الماء الجوفي كان موجوداً بها من قبل وأنهم سيجدونه مرة أخري. وحني تلك الأماكن القريبة من البحر (الأبيض المتوسط)، وحيث تهطل الأمطار الشتوية بكمية كافية لإنجاح زراعة محصول الشعير، فأنها تزرع بعناية حتي تكفي لمئونة زاويتين أو ثلاثة، مثلما في برنجي مربوط بالقرب من الإسكندرية.

ويتم الحصول على المؤن، وبعض بارود البنادق، من ميناء طبرق القريب، وهو ميناء عريق لكنه مهمل، وقد زاره شفاين فورث عام ١٨٨٣. ووصفه بأنه أفضل ميناء في شمال إفريقيا بعد ميناء بيزرتا. وهو يقارب ميناء الإسكندرية في أتساعه وعمق مياهه وأكثر أماناً منه.

وهناك مركز ثاني لهم جنوب واحة الكفرة هو زاوية الإستات، بينما أقيم مركز ثالث، له بعض الأهمية، في تايزربو. ولقد تصعدت أهمية هذه الطريقة بسبب من الدهاء والفطنة. فقد قام سلطان واداي، الذي سعي السنوسي لاستقطابه للطريقة منذ وقت طويل، بإرسال قافلة من العبيد للشمال ولكن تم أسرهم بالقرب من الحدود المصرية. قام أتباع السنوسي بمهاجمة اللصوص وحرروا أسري العبيد منهم وساقوهم معهم، حيث تلقوا على أيديهم تعاليم الطريقة. ثم أعادوهم إلي السلطان علي، سلطان واداي، محملين بالهدايا. من هنا لم يلبث السلطان طويلاً حتى إعتنق الطريقة وتبعه عدد كبير من أتباعه وحاشيته، حتى أنه عندما توفي عام ١٨٧٦. ونشأ النزاع حول من يخلفه في الملك، فأن السنوسي هو الذي عين مرشحهم يوسف لاعتلاء العرش. وبنظرة إلي الخريطة سنرى أهمية هذا المكان بالنسبة لهم. فرجال واداي مشهورون بالصلابة والاعتماد على النفس، وهم متحدون تحت رابطة حققت لهم أربعين سنة من الأمن والسلام، وتزداد قوة، إلا إذا ما واتتهم فرصة آمنة للنهب تحول شرارة حماسهم إلي لهيب وهاج.

ولازال جزء من القصة يستحق أن يحكي. فقد مات مؤسس هذه الطريقة الإصلاحية قبل بضع سنوات. وأثناء احتضاره قام بحذر بالتلميح بأن إبنه سيكون المهدي ا لمنتظر. ولما سئل أن يوضح لهم ذلك رد عليهم بطريقة مبهمة بأن " الله أعلم" وألمح أن ذلك سيكون معروفاً في العام الهجري ١٣٠٠ (١٨٨٢ ميلادي).

لكن الشروط التي يجب أن تتوفر للمهدي تختلف حسب الذين وضعوا قواعدها. وحسب معتقدات السنوسية فأن زعيمهم الحالي تنطبق عليه شروطها كما يقال. ومن ثم أستخدم لقب المهدي، وسمي بمحمد المهدي.

وربما بسبب من ظهور الحركة في السودان، الأمر الذي أزعج السنوسي كثيراً، فـأن تنصيبه كمهدي قد تأجل، بعد نبوءة متأخرة، حتى عام ١٨٩٢ عندما قرر فريقهم اتخاذ موقف محدد من الأمر. وحتى إذا لم يتم ذلك فأن نبوءة ثالثة يمكن أن توجد. فالمهدي السنوسي رجل مقتدر وله وكلاء شجعان متحمسون للقتال. كذلك كانت معجزاته وكراماته ممتازة. وفي صراع نشب حديثاً بين أنصار المهدية وبعض السنوسيين بغرب السودان، قيل أن لدي الأخيرين خيمة سحرية مليئة دائمـاً بما يلزم من الطعام وقد بلغت شهرتها حتى آسيا.

أما رجل دنقلا محمد أحمد فقد أخذ المهدية من وجهة نظر المسلمين الشيعة* فهو الإمـام الغامض الثاني عشر الذي أختفي طويلاً. نصب محمد أحمد نفسه مهدياً، وبعد أن اسـتخدم خرافـة شائعة وسط شيعة فارس، وأطلق على أتباعه الإسم الفارسي (دراويش)**، فأنه والمهديون الآخرون قد أظهروا ذكاءاً ودهاءاً كان بدون شك ذي فائدة عظيمة لهم.

وأسطورة الإمام الثاني عشر هي غريبة حقاً ويبدو أنها تلبي حاجة ما في كثير من أنحـاء العالم. إذ أن أسطورة مماثلة توجد عند اليهود الشرقيين، وعندهم أن إلياس يلعب دور محمـد أبـو القاسم المهدي. وتستحق هذه الأسطورة أن يلقي عليها بعض الضوء لأنها كانت، وستكون، نقطـة انطلاق مهمة لكثير من المغامرين المسلمين.

فقد كان هناك أثني عشر إماماً، أو بالآحرى، ولعدم اليقين من عددهم، فقد كان هناك أحـد عشر أو أثني عشر إماماً. وكلمة الإمام تعني الذي يسبق الآخرين ويقودهم، وفي الإسلام تعني الذي يؤم الناس للصلاة في المسجد . أما الإمام الأكبر من الجميع فهو الرسول الأعظم محمـد، واسـمه الكامل محمد أبو القاسم إبن عبد الله. لكنه لا يحسب ضمن الأئمة الإثني عشرة لأن مكانته هـي لـه وحده. ومسألة من يخلف من في الإمامة هي السبب الرئيسي للانقسامات التي ظهرت في الإسلام بعد وفاة الرسول محمد. فلقد أعلن الفرس وكل الشيعة بأن هذا المركز السامي يجب أن يكون وراثياً بينما أصر السنة على مبدأ الانتخاب. ولما كان الفرس قد دعموا وجهة نظرهم تلك بأساليب شديدة الحـدة والغلو فقد وجد محمد أحمد في الكثير من كتبهم القديمة مخزوناً ضخماً من السباب والاتهامات موجهة لكل الذين لا يعترفون بقدسية مقام الإمام الحقيقي لهم. وأعتبر الفرس أن على، أبـن عـم الرسـول، والخليفة الرابع، هو الإمام الأول. وزعموا بأن الخلفاء الثلاثة الأوائل قد اغتصبوا المنصب من علـى. كان الإمام الحادي عشر هو الحسن العسكري وكان إبنه المسمي، مما يزيد غموض الأمر، محمد أبـو القاسم المهدي، هو الأمام الثاني عشر. وعند ميلاده أراد والده أن يقتله فقامت أمه بإخفائه في أحـد الكهوف ومنع أي أحد من رؤيته. ومن معز له ذلك قام بإرسال تعاليمه المقدسة بواسطة الرسل.

لم يمت. لكنه أختفي مرتين إحداهما لفترة قصيرة والأخرى طويلة. فبعد الإختفاء القصـير الأمد جاء منه رسول مع نبوءة منه باختفاء طويل قادم وبموته بعد ستة أيام، وقد حدث ذلك بالفعل. وكان من المفروض أن يظهر المهدي ثانية، بعد غيابه الطويل، مع النبي أليا‌س وذلك عنـد العـودة الثانية للمسيح. ويعني هذا عودته المنتظرة في أي وقت.

---

* أنظر تعليق البروفسور هولت على هذا الجهل في مقدمته للكتاب (المعرب).

** لم يستخدم المهدي قط لفظ الدراويش لأتباعه، بل حظر استخدام هذه الكلمة (انظر المنشـورات للـدكتور أبـو سـليم) المعرب.

ومن هنا نري مدي ما تتيحه هذه الأسطورة للمغامرين من فرص مثلما هو واضح من مدي رفض المصلحين من السنة في مصر وتركيا لهده الأسطورة الفارسية. أما في السودان، حيث لا يعرف الكثير عن الشيعة، فقد تم قبول هذه الفكرة على ضوء ما سيلي. فقد ظهر قبل ذلك بوقت طويل مهديان في إفريقيا نجحا في دعوتهما وأقاما عروشاً فيها. وكان أخرهما، وهو عصر الفاطميين قد تأسس عام ٩٠٨ على يد محمد عبيد الله الذي أطلق على نفسه أسم المهدي وقام بطرد سلالة إبراهيم بن الأغلب (الحاكم الهاروني لإفريقيا) من مصر وأسس فيها عهداً للخلافة (الفاطمية). وكان أول هؤلاء الخلفاء قد حكم في (سيجل ماسا) شمال مراكش حيث نصب المهدي نفسه فيها. أما الثاني فحكم في القيروان، والثالث في المهدية. أما الرابع فهو المعز وهو الذي حكم مصر، ومن بعده سلالته الأربعة عشر. من عام ٩٧٢ وحتي ١١٧٢.

وقد تحدثت كثير من الكتب العربية، وأهمها ما كتبه الأسيوطي في كتابه (تاريخ الخلفاء) عن تفاصيل وحظوظ ذلك المهدي مما كان متاحاً لمحمد أحمد والذي كتب علي رايته فيما بعد كلمة(القيوم) المشتقة من كلمة (قائم) وهو أحد الأسماء التسعة والتسعين لله.

ومن الملاحظ أن موقع (سيجل ماسا) ينطبق بشكل غريب على موقع آخر بسنار. (فقد ذكر المؤرخ في كتابه أن):" هذه المدينة تقسم مراكش. أي منطقة العرب الأفارقة، عن تلك الأقاليم التي يطلق عليها العرب أسم السودان. وهناك نهر عظيم يمر تحت حوائطها ينبع من الجبال......." الخ.

وكانت حركة محمد أحمد في المقام الأول حركة دينية – الحماس الطاغي، والبلاغة (في الخطاب) والآفاق الدرامية لمدارك أحد المتدينين التي تفوق، ما لدي أتباعه. لقد ألهتبها رغبة عارمة لكل الأهالي، وخاصة لدي الجماهير المتطيرة بكردفان، للانتقام من ظلم وقسوة المصريين والباشبوزوك * وتحولت الحركة إلي قوة عند أنسحاب وتراجع أي شكل كان للحكومة، وهي القوة الوحيدة المعارضة لها، وأصبحت آله في يد المستبدين ذوي النزعة الحربية من البقارة والذين تمكنوا من اغتصاب ذلك العرش الخاوي.

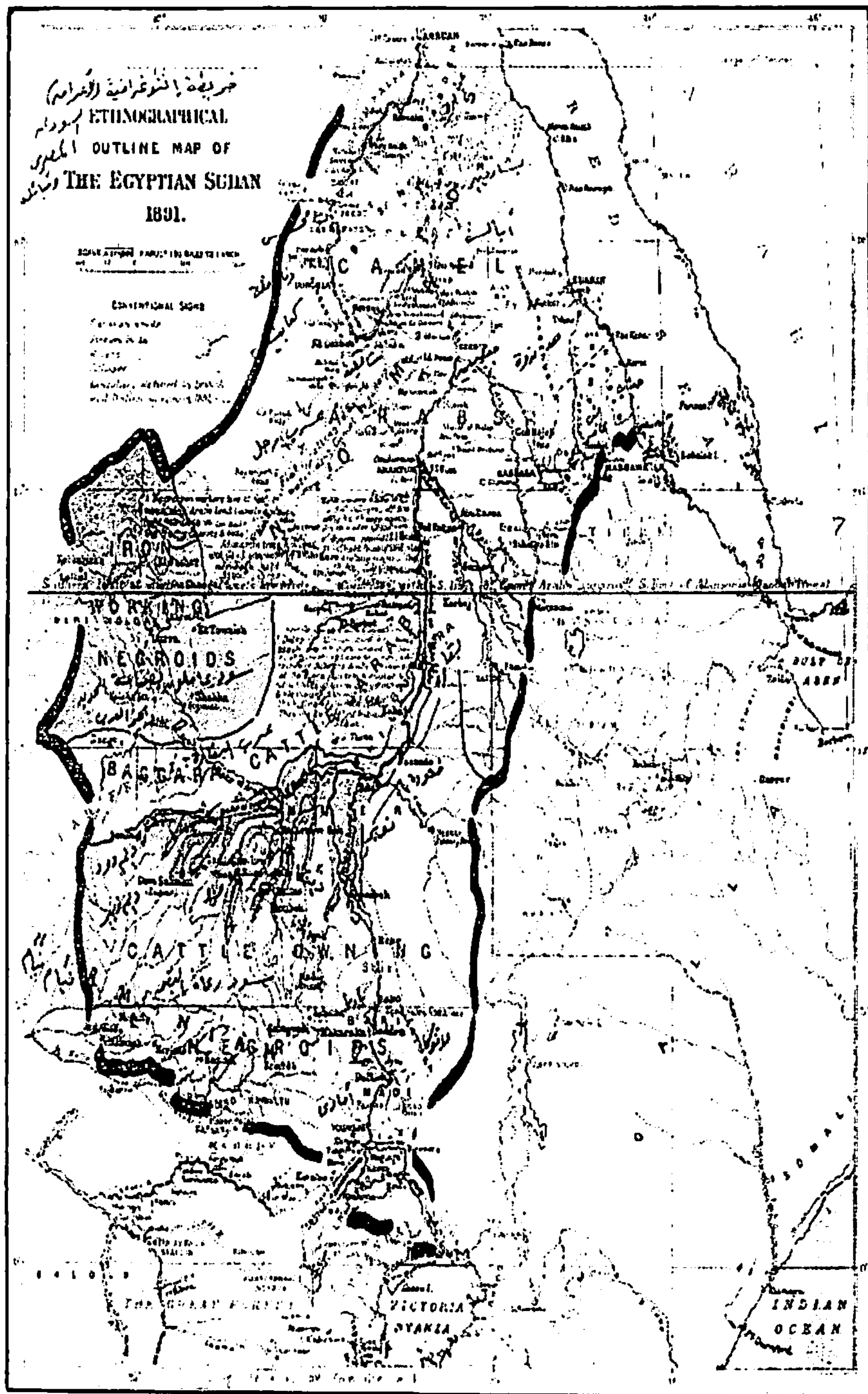
عمل الدين على رتق النسيج الاجتماعي لدي مختلف الأعراق. والذين يحمل كل منهم أحزانه ومشاكله الخاصة، وضمتهم تحت رايات لأمراء يبحثون عن القوة والمجد، وعن حقهم في التجارة بالرقيق.

وحتى نتناول هذا الموضوع المعقد بوضوح فعلينا الرجوع للخريطة التالية. وبعد أن نتفحص توزيعات السكان في هذا القطر الشاسع فسنتمكن من فهم مجريات المهدية وستتبين أن احتمالات نجاحها يبدو معقولاً ويمكن تقسيم السودان لأغراض هذه الدراسة، إلي قسمين يفصل بينهما خط العرض ١٣ درجة. هذا الخط هو الفاصل بين المناطق ذات الأمطار الكافية والمناطق

---

* الباشبوزوق هو الاسم الذي أطلق على القوات التركية غير النظامية، وكذلك أطلق على الجنود غير النظاميين في السودان، لكن الأخيرين ليسوا من الأتراك بالرغم من أن عدداً منهم من جذور تركية. وقد تم ضم السودان بواسطة محمد علي قبل قرن من الزمان (٧٠ سنة وليس قرن – المعرب) أو أكثر بواسطة القوات التركية غير النظامية والذين إستقرمنهم عدد كبير في السودان فيما بعد وتزاوجوا مع الأهالي ونشأ من ذريتهم الذين تم تجنيدهم في القوات السودانية غير النظامية، مع بعض الاستثناءات.

الشحيحة أي بين العرب البقارة والعرب الأبالة.فجنوب هذا الخط لا تترعرع الأبل أو تزدهر. أما في شماله فلا توجد الأبقار. وفي شمال هذا الخط نجد سهولاً واسعة بها شجيرات أشواك هزيلة مبعثـرة وآبار شحيحة. وهنا يتجول العرب أصحاب الإبل من كبابيش وعبابدة وهدندوة وشـكرية وغيـرهم. وهم ذوو طبيعة مسالمة ربما بسبب أن حيواناتهم تلك لا تحبس داخل زرائب، أو ربما لأنهم يربحون مالاً من جراء استخدامها في نقل البضائع. وهؤلاء الأبالة هم أول الأقسام الخمسة للسكان. أما فـي الجنوب الغربي فنجد أن الجزء الجبلي منها تقطنه قبائل زنجية يسكنون بداخل القرى. وحتـى عـام ١٨٧٤ كانوا يكونون مملكة عريقة. وهم يسكنون في سفوح الجبال ويشتغلون بصناعات الحديد من حراب ومحاريث. وعندما يداهمهم خطر من العرب الماردين للنعام, من أجل الريش، والذين يجوبون مناطقهم كثيراً فأنهم يتراجعون إلي جبالهم حيث يجدون فيها الأمن والسلامة.


ETHNOGRAPHICAL
OUTLINE MAP OF
THE EGYPTIAN SUDAN
1891.
CONVENTIONAL SIGNS
CAMEL
WORKING
NEGROIDS
BAGGARA
CATTLE OWNING
NEGROIDS
INDIAN
OCEAN
VICTORIA
NYANZA

كانت مملكة دارفور العتيقة، قبل استيلاء الزبير عليها، مثل مملكة واداي اليوم. ويمكن تتبع السلالات الملوكية، على عرض إفريقيا، ومن الغرب إلي الشرق، كما يلي: السنجامبيا، البامبرا، المسنا، القندو، السكوتو، البرنو، الباقر مي، واداي، دارفور، سنار فالحبشة. وأهالي دارفور من جنس قنوع ومسالم وهم ينظرون بازدراء للنشاطات الكريهة للعرب. وهؤلاء يكونون القسم الثاني من السكان.

القسم الثالث هم سكان القرى والمدن. وهم خليط تقريباً من كل الأجناس الشرقية. ونتج عن التزاوج المختلط بين تلك الأجناس من المصريين والباشبوزوق والتجار الأجانب نوعاً من السكان لا يمكن مقارنته بسكان الموانئ الشرقية. فهم خاملون فاسقون، سكارى وليس لهم عرق محدد، ويؤمنون بالخرافات وبالتطير لأبعد الحدود. وفي بربر والخرطوم وسنار نجدهم يشكلون القاطنين بها. أما أواسط سهول كردفان فأن بها ملا يقل عن ٨٠٠ – ٩٠٠. قرية تتفوق كل منها على الأخرى في الدناءة، وتمور في عقولهم الخرافات والمعتقدات المتخلفة وأساليب الخداع. وقد أكتنز فقهاؤهم شحماً ولحماً على حساب جهلهم الفاضح بشئون الدين. وبالتالي نجد أن مركز الفكي لديهم يعتبر مؤشراً على درجة خضوعهم وطاعتهم العمياء. لذلك الرجل الذي يعتاش على خرافاتهم.

وفي اللغة العربية نجد أن لله تسعة وتسعين إسماً. ويعتقد الأهالي أن كل قسم من تلك الأسماء يحرسه عدد من الملائكة. وأنهم بتكرار ترديد واحد من تلك الأسماء، مصحوبة بالصلاة والصيام، فأن الله سيرسل لهم ملاكاً حارساً لخدمة ذلك المتعبد. هؤلاء المتعبدون هم من (الفقراء) الذين، كما يعتقد العامة، لهم طاقات روحية خارقة للطبيعة تجعلهم قادرين على الإتيان بالمعجزات. ومن هنا فقد جمعوا أموالاً عظيمة من أتباعهم العمي مكنتهم من قيادتهم ودفعهم إلى أي طريق يشاؤون. يسكن هؤلاء الناس في القرى، ويزرع كل مهم قطعة أرض صغيرة بالدخن، ويشربون من آبار يتراوح عمقها ما بين ٩٠ – ١٠٠قدم، وعندما يأخذون حاجتهم من المياه منها فأنهم لا يقومون بعمل شئ بعد ذلك ولا ينتجون شيئاً. ولا يحتاجون أبداً للقتال لأنه ليس لديهم ما يدافعون عنه. وهم لا يطرقون الأسواق إلا للثرثرة وتبادل الإشاعات إذ ليس لديهم ما يبيعونه فيها. من هنا فلم ينهض من بينهم رجل ذو شأن، إذ لا يوجد لديه ما يقوله أو يبشر به. وقد وجد المبشرون من الرومان الكاثوليك (الذين نذروا أنفسهم للتبشير) بأن السكان هنا هم في حدود ١٣٠,٠٠٠ شخص والذين قد يعتبرون أقل سكان العالم قيمة. وهم يشكلون القسم الثالث من السكان.

أما ما وراء خط العرض الثالث عشر، حيث الأمطار الطيبة، فنجد فيها المراعي الجيدة والجبال التي تكسوها الغابات. وهنا تحل الماشية محل الإبل. وهنا، في الجنوب لكردفان، بامتداد جنوبي غربي وشمالي شرقي، نجد قبائل وفروع لها من البقارة لا عد أو حصر لها، وهم ممن يعتبرون الهنود الحمر للسودان.

هؤلاء هم المتعاملون بالرق ويعتبرون أقوي الرجال شكيمة في السودان. ولوجودهم على ضفاف النيل الأبيض، ولتماسهم مباشرة بالمستودع الزنجي الضخم على الجنوب منهم، وللسوق العظيم على الشمال منهم بالخرطوم، فأنهم يعتبرون من أكبر وكلاء توريد الرقيق في العالم.

هذا هو القسم الرابع من السكان. وهم يتغذون جيداً على اللحوم، ومعتادون على الدفاع عن قطعانهم, وميالون للحرب ولهم إستعداد مزمن للسلب. جنوب حزام البقارة نجد أصحاب المواشي من الزنوج وأشباه الزنوج والذين يشكلون القسم الخامس. وهم أناس معتدلوا المزاج وجنس ميال للسلام، والذي يحفظه لهم طبيعة بلادهم الموبوءة بالملاريا. وقد كانوا يشكلون لمدة ثلاثين عاماً سوق الرقيق الرئيسي بالخرطوم. وبعض القبائل، كالبونقو مثلاً، قد رحلت تقريباً من مناطقها. أما الدينكا فهم يغطون مساحة ستين ألف ميل مربع، هي التي خصصتها لهم الطبيعة, ولديهم أعداد هائلة من الماشية. وتجوب الأفيال تلك الغابات، التي ترسل أحطا بها وخشبها للخرطوم لبناء المراكب. وهنا كان وطن الزبير وإبنه سليمان واللذان تمكنا من بناء جيش من هؤلاء الزنوج. هؤلاء الزنوج وثنيون، ولم يدخل في قلوبهم أي فكر يحظى بقبول معظمهم. فهم مقيمون حيثما أقامت ماشيتهم، ويسكنون في قري من الأكواخ ويعملون، مثل القبائل الشبيهة إلي الشمال منهم، في صناعة الحديد. وهؤلاء هم هذا القسم من السكان، الذين وصفهم لبتن بك كأناس" معتدلوا المزاج، ميالون للسلم" والذين أظهروا كفاءة حربية ممتازة عند تدريب الإنجليزي لهم. والدينكا والشلك، والذين يشكلون معظم الألوية السوداء في الجيش المصري، يكنون إحتراماً كبيراً لكل من شارك معهم في العمليات. وهناك الآن آلاف منهم يعملون، بدون إرادتهم، تحت رايات الخليفة، وربما يكون لهم دور كبير في تقرير مصير الحرب التي ستنشب عند القيام بأي زحف نحو السودان. ومن المعتقد أن السود الذين عملوا مع السير صمويل بيكر والجنرال غردون سيتحولون للخدمة تحت قيادة أي رجل أبيض عندما تحين الفرصة لذلك.

من الملخص السابق يمكن أن نري كيف نشأت صحوة دينية، غذتها الجماهير المتشبعة بالخرافات في بوادي كردفان الموبوءة بالفقهاء، وفي القرى البائسة بوادي النيل. وكيف أستغل البقارة ذوي الكبرياء هذه الثورة وإستخدموها كسلاح لهم، وهم في غمرة سخطهم على منع تجارة الرقيق، بينما أيدها رعاة الإبل بفتور تعوزه الحماسة، وهم الذين سيكونون أول من يرحب بعودة الحكومة.

أما سكان القرى والمدن، والذين هم في متناول يد العساكر الذين أنهكوهم، فقد ظلوا لوقت طويل ضحية لأنواع من الظلم والقسوة الوحشية وسوء المعاملة. ومنذ لحظة مغادرة غردون في عام ١٨٧٨ للسودان، قام الجنود والموظفون المتنفذون بالانتقام منهم بعد صبر طويل على حسن المعاملة التي أجبرهم غردون عليها، وقاموا بتسوية الحساب معهم بربح عظيم. لكن هؤلاء التعساء سيواصلون تحملهم لذلك القهر إذ لا تملأ أفئدتهم أفكار للصحوة الدينية، وربما ماتت فيهم، رغم أنها تشكل السلاح للبقارة الذين أعطوا الثورة قوتها وزخمها. فهم الذين وطأوا لها الطريق بحماس، وهم الذين إستغلوا نقطة الضعف لدي الولي فأشبعوا رغباته غير الطبيعية وافتتانه بالنساء، وهم الذين قدموا بناتهم كزوجات وبأعداد لا تحصى، وهم الذين تسلموا بعد ذلك بقليل أعنة السلطة وحولوا تلك الحركة تماماً لمصلحتهم. وكما هو واضح من لقب البقارة الذي يطلق عليهم، فهم أصحاب أعداد ضخمة من الماشية ويعيشون في أفضل مناطق السودان. وهم في سعة من العيش بمنظور الثروة التي يمتلكونها والتي لا يعرفون سواها والممثلة في المواشي والذرة وتجارة الرقيق. وبلادهم عموماً هي إمبراطورية سنار العريقة، والتي كانت تشكل، حتي الغزو المصري لها، واحدة من سلسلة من

الممالك المزدهرة التي تمتد عبر أفريقيا على طول خط العرض ١٣ درجة، أي في المنطقة المعتدلة الواقعة بين حزام الجفاف وحزام الأمطار الغزيرة، بين الشاربين للبن والعائشين على أكل اللحوم. هؤلاء هم الذين وجدوا فجأة أن تجارة الرق قد أوقفت، وأن التجارة على النيل الأبيض بكافة أشكالها قد أوقفت بأمر من الحاكم. وبدأوا يتساءلون في عام ١٨٨١، وبجدية بالغة، عن طبيعة ذلك الرجل الذي أصدر مثل تلك الأوامر. لقد غادر الحاكم الإنجليزي الجنرال غردون السودان ومعه زالت آخر المعالم للحكم الرشيد. وبقي في الحكم من بعده لابسو الطرابيش المهندمين والذين كانوا، رغم صفاقتهم وغطرستهم، كالأضحوكة في مسرحية هزلية. ورغم ما لديهم من بنادق ومدافع إلا أن محاولة تحدي سلطانهم كانت تستحق التجربة.

كان وجود غردون كارثة بالنسبة لهم. وإذا ما وقع في يده أي تاجر رقيق فلن تجدي أي محاولة لإنقاذه من بطشه، إذ لم يكن هناك أي شيخ له قوة أو نفوذ يستطيع ذلك منه أو من اليد اليمني الصاعقة لغردون ، وهو جيسي. حتي الزبير نفسه الذي كان يمثل تيبوتيب السودان قبل عشرين عاماً كان علي وشك أن يقبض عليه. وقد تم إعدام إبنه سليمان مع أحد عشر رجلاً آخر، مع تعليق من غردون قال فيه:" وهكذا يفتح الله ثغرة في صفوف أعدائه". والآن ذهب غردون وغرق بعده، في لجة رديئة من الحكم الردئ كل تلك الألوية والمدراء والمفتشين القائمين علي إيقاف تجارة الرقيق بعد أن كانوا قد خرجوا منها لفترة. وقد كتب ستيوارت:

"في عام ١٨٧٧. تم تعيين الكولونيل غردون حاكماً عاماً على السودان، بما في ذلك هرر والمديريات الاستوائية. وقضي معظم الوقت في الترحال. وتم في عهده إخماد ثورة هارون في مديرية دارفور وكذلك ثورة سليمان الزبير في مديرية بحر الغزال وقبض علي سليمان الزبير وأعدم بالرصاص. وتم بذل جهود عظيمة للقضاء علي تجارة الرقيق.

وفي عام ١٨٨٠ عين رؤوف باشا حكمداراً للسودان. لكنه كان آخر من يصلح لركوب العاصفة التي أطلقها غردون بيقظته التي لا تكل ولا تمل. وخلال حكمه بذل جهوداً كبيرة لخفض النفقات. وفي أغسطس ١٨٨١ بدأ محمد أحمد المهدي رسالته المقدسة:*

كان غردون مخلصاً في نواياه لمقاومة تجارة الرقيق. وأضاف لهذا الإخلاص قدرة وحيوية لم تترك إلا شيئاً قليلاً من عمله بدون إنجاز. وتم إيقاف تجارة الرقيق مؤقتاً أينما حل. لقد أشعل النيران التي لم ير رؤوف باشا وعبد القادر باشا، اللذان خلفاه في وظيفته، أن بمستطاعهما عمل شيء سوي التفرج على لهيبها. وعندما زالت طاقات غردون المانحة للحياة، تراجع المصريون ككتله خاملة لا حياة فيها. كانت سلامتهم في التكتل. وجعلت أعدادهم الكبيرة منهم وقتها كتلة يصعب

---

* يقال أنه قبل ذلك التاريخ، وفي أوائل ١٨٨٠. سافر محمد أحمد من الجزيرة أبا إلي الأبيض حيث بدأ نشر دعوته سراً. وذات يوم، عقب صلاة الجمعة قام على رأس مئة من أتباعه الذين يحملون الرايات ويهتفون:" مرحباً بالإمام العظيم مهدي الله"، ثم توجهوا لمسجد سوار الذهب حيث قام ضابط مصري بإلقاء القبض عليه وإرساله للمدير الذي أمر بسجنه. ولكن بعد وساطة من ألياس باشا (مدير كردفان السابق) وود العريق (سر التجار) وسوار الذهب (من كبار رجال الأبيض) تم إطلاق سراحه بزعم أنه مصاب بلوثة عقلية وعاد إلي أبا.

مهاجمتها. لقد قام رووف باشا بتوفير النفقات وأرسل ألوفاً من الجنود العرب والسود غير النظاميين للبحث عن قائد وكأنه كان يعمل على تجنيد قوات محمد أحمد لصالحه.

عدة عوامل ساعدت على تمهيد الأرض له. لكن القاعدة العريضة لدعوى المهدي تمثلت في الظلم والبطش بكافة أشكالهما والتي ظهرت على السطح عندما زال النظام الشامل الذي أرسى قواعده غردون. وأصبح المسرح ممهداً الآن، بعد أن توطدت أركانه، لظهور محمد أحمد بن السيد عبد الله*. ولا يوجد أي شك في أن هذا الرجل، قبل أن تتغلب عليه شهواته الحسية، هو صاحب أصفي رؤية عقلية وأقوي ذهن في مساحة المليوني ميل مربع والتي أصبح، بدرجة أو بأخرى، سيداً عليها قبل وفاته.ومما يدعو للأسف أننا لا نعرف عن نشأته الأولي أكثر مما سنورده الآن:

فقد ولد في دنقلا عام ١٨٤٨. من أسرة إشتهرت بصناعة المراكب وتميزت في ذلك حيث أن مراكبها، وحني يومنا هذا، تشتهر بدقة الصناعة. وقد تميز وسط عائلته، ومنذ باكورة أيامه، بالذكاء الشديد وبالتالي أرسل لتلقي دروس الدين. وعندما بلغ الثانية والعشرين من عمره كان في رتبة شيخ له سمعة عظيمة في الطهارة ونظافة اليد وإنتشرت مواعظه في كافة الأصقاع. وكان الرجال يزرفون الدموع بكاء ويضربون صدورهم تأثراً بأقواله المثيرة التي تحرك الأشجان. وحني زملاؤه الفقهاء لم يكونوا يخفون إعجابهم به.

وبدايات المسار الذي درج فيه المهدي مثيرة للإهتمام حقاً. فهو رجل طويل القامة، يميل للنحافة، متين البنيان، وله مثل الكثيرين من الدناقلة عيون واسعة وقسمات جميلة. كان محمد أحمد في مظهره الخارجي يحمل كل سمات السيد (الجنتلمان) النبيل التربية.

كان يتحرك في كبرياء وهدوء. لكنه لم يظهر عليه أي شئ غير عادي حني بدأ في إلقاء مواعظه علي الناس. وهنا ظهرت كوامن القوة التي تكمن فيه والتي أطاعه الناس بسببها. كان يحرك مشاعر مستمعيه بكلماته الصادقة فتهتز أفئدتهم ويحنون رؤوسهم وكأنهم أعواد الذرة التي تهب عليها الرياح. ويا للمواضيع التي كان يطرقها! فإذا ما قارناه بخطباء الثورة الفرنسية عام ١٧٩٢ الذين ينددون بالظلم فأننا نجده يتحدث عن ضعف ذلك الظلم الواقع على السودانيين. وإذا ما خاطبوا الجماهير المستعبدة طويلاً في فرنسا وأستولوا على مشاعرها فأن المهدي كان يثير مشاعر البؤساء ويحرك عواطفهم بقوة تزيد عن ثلاثة أضعاف تأثير خطباء فرنسا. لم يكن يلجأ لوصف معاناة الناس فقط بل يقوم بشجب وتوبيخ الذين تسببوا فيها. كان يمد ذراعه الطويل للأمام ويشير غلي جباة الضرائب الذين "مرة ومرتين وثلاثة مرات، ثم كرة أخري، لينتزعوا منكم آخر معزة وآخر قصبة ذرة، منكم أنتم أيها البائسون الذين تستمعون لي بأعين مفتوحة!".

ثم يحثهم بلهجة محذرة حادة، مثلما حث وايتفيلد ويسلي (الإنجليز والأمريكان*) من قبل بأن كل هذا الشقاء والقهر ما هو إلا تعبير عن غضب الله عليهم وعلي شرور أفعالهم. وأنه، ومنذ

---

* تتشابه كلمة (سيد) مع (سعيد) في اللغة الإنجليزية ويجب عدم الخلط بينهما... (المؤلف). (شرح المؤلف معني كل منهما والفرق بينهما – المعرب).

* إضافة من المعرب، مأخوذة عن موسوعة هتشنسون (المعرب).

أن توفي الرسول، فقد أنحدر العالم نحو الخطيئة والجهالة. لكن الوقت قد حان لوضع نهاية لكل ذلك. فسيرسل الله مخلصاً يزيل الغشاوة عن أعينهم، والجنون من عقولهم، وسيزول الكابوس إلى أبد الآبدين. ولقوة عقيدتهم في قائدهم الولي، فأن هؤلاء الرجال الذين صنعوا من جديد، وبعد أن صفت الرؤية لديهم، ووضعت الخطط الدقيقة أمامهم، سينهضون ويستولون على الأرض وسيلقي بجباة الضرائب في الأجحار والكهوف وسيتم طرد الموظفين المرتشين من الأرض التي إغتصبوها وسيلقي بالترك, ليمارسوا هذيانهم، في المستنقع الآسن الذي يستحقونه. فبظهور المهدي فأن الحق سينتصر وسيتم وضع نهاية لكل القهر والإستبداد. فمتي يظهر هذا المهدي؟ لا عجب في أن كل كوخ وكل دغل كان يردد صدي الحنين والشوق لظهور المنتظر. كانت الرياح الحارة تهب من الصحاري للسهول بحشائشها الهزيلة, ومن سلاسل الجبال إلي الوديان الرملية، وهي تهمس في هبوبها: المهدي! المهدي! كل الطبيعة أدلت بدلوها. ومهما كان ذلك طفولياً كما يبدو إلا أنه كان ذو فعالية لا تنكر. كانت النسوة يجدن منقوشاً على بيض الدجاج أسماء: محمد، عيسي، المهدي. حتي أوراق الشجر، عند سقوطها على الأرض، تحمل نقش تلك الأسماء المقدسة. امتلأت الأرض بفكي من بعد فكي وكثير منهم متمكنون من إثارة مشاعر الجماهير وتحريكها. كانوا يجيئون ويستمعون لما يقول وسرعان ما أيقنوا أنهم وجدوا زعيمهم هنا. إنتشر الخبر بينهم وتفشي حتي جاء إلي الجزيرة أبا, علي بعد مائة وخمسين ميلاً جنوبي الخرطوم, مجموعة من الرجال ذوي العزيمة الذين استمعوا الكلماته اللاهبة وشاهدوا هيئة الرجل الطويل النحيف الجاد فقالوا له:" إنك أنت قائدنا المنتظر". فقال لهم بسرية ووقار:" نعم. أنا المهدي"*

وهكذا بدأت مواعظه بين قري ضفاف النيل. كان خطابه مركزاً علي ظلم جباة الضرائب. ثم تحرك نحو السهول والوديان من حول قدير. وهنا تحدث عن الأتراك الجبناء الذين شوهوا الدين العتيق وعن صعاليك الأجانب الذين طردوا أصحاب الأرض الأصليين. وكانت أول القبائل التي ألهبت شرارته نيرانها هي قبائل سليم من العرب البقارة والذين يقطنون الديار جنوب جبال تقلي والداير والنوبة.

***

* يعني أسم (المهدي): الذي هدى إلي طريق الخلاص الحق. من هنا يمكن أن يسمي (المرشد) أيضاً. ونجد في تعاليم كل الفرق الدينية الإسلامية صلة وثيقة بين المهدي وبين عيسي المسيح. ويعتقد البعض بأن المسيح سيكون هو المهدي أي يتوقعون مجيئه مرة ثانية. والبعض الآخر يشارك إبن خلدون في فكرته التي جاءت في مقدمته عن تاريخ العرب والفرس والبربر عندما قال:" إعتقد المسلمون في كل الأوقات بأنه سيأتي في آخر الزمان رجل من نسل النبي ليعيد للدين مكانته، وسيقود المؤمنين واسمه المهدي, ثم يظهر بعد ذلك المسيح الدجال، وبعد ظهوره سينزل عيسي المسيح من السماء نيدمره وسيكون المهدي إماماً لعيسي.

ملحق القسم الأول

(مقتطفات من تقرير الكولوفيل ستيوارت حول السودان)

(كتب في الخرطوم في ٩ فبراير ١٨٨٩)

نبذة تاريخية:

يقال بأنه بين القرنين الأول والثاني من ظهور الإسلام بدأ العرب الأمويون*، بعد أن ضيق العباسيون الخناق عليهم** بالهجرة من جزيرة العرب بأعداد صغيرة إلي الشاطئ المقابل من البحر الأحمر، ليستقروا في المناطق المجاورة لسنار علي النيل الأزرق. ولكن من المستحيل أن نجزم إن كان بنو أمية هم الذين قادوا طليعة التدفق العربي الكبير(للسودان)، أو أن نقرر بأن كل القبائل قد إختارت طريق البحر الأحمر لوصولها (للسودان)، فبعض المراجع تشير علي ما يبدو بأن كثيراً من المهاجرين قد جاءوا للسودان من مصر ومراكش.

ومهما كانت حقيقة الأمر فأن بني أمية قد إستقروا شيئاً فشيئاً في تلك الأقاليم السنارية والتي كان سكانها الأصليين من الزنوج التابعين لقبائل الفنج والهمج وغيرهم***

وبعد أن قويت شوكة بني أمية تدريجياً، أفلحوا في السيطرة على كل أقاليم سنار وأدخلوا الزنوج في دين الإسلام.

وشيئاً فشيئاً ذابت الفوارق بين العرب والزنوج وعندما حل عام ١٤٩٣ لم يعد هناك من يسمع باسم بني أمية وبدأت أسماء قبائل الفنج والهمج وغيرها في الظهور.

وفي تلك السنة أفلح عمارة دنقس، وهو شيخ لفرع من قبيلة الفنج، وسواء لحظوظه في الحرب أم لقدراته الخارقة، في جعل نفسه ينصب ملكاً علي كل قبائل الفنج. ثم تحالف مع عبد الله جماع القرين، الزعيم القوي لإقليم قري (بشرق النيل الأزرق*) وإفتتحا كل المناطق الواقعة على جانب النهر بين فازوغلي والخرطوم.

تلك المناطق المفتتحة كانت تابعة لقبائل نوبية. بقي بعضهم بعد الفتح بينما هاجر البعض الأخر إلي جبال فازوغلي وكردفان. إعتنق الذين بقوا الإسلام وتزاوجوا مع الفاتحين وإندثرت لغتهم ورعويتهم وذابوا في الكيان الكبير المسمي بالفنج.

---

* أسماهم الكاتب (عرب قبيلة بني عمر) وصححناه (المعرب).

** أسماهم الكاتب (قبيلة بني عباس) وصححناه (المعرب).

*** تعج هذه النبذة التاريخية بالخلط والإضطراب والتشوية. ونقلنا معظمها، كما جاءت، بدون تصحيح (المعرب).

* الصحيح أن قري شرق النيل الرئيسي، وليس النيل الأزرق، على بعد بضع أميال شمال شرق الخرطوم (المعرب).

ومن تلك القبائل (العربية) من استقر في المدن, بينما احتفظ البعض الآخر بعاداتهم البدوية مثل الخمير وربيعة وقحطان وكنانة والكواهلة وجهينة وبني شكر وبني ذبان وبني عباس. ومن القبيلة الأخيرة أنحدر الكبابيش والفزارة وبني سليم والأحامدة. والقبيلتين الأخيرتين من البقارة أصحاب المواشي والخيول.

والآن توجد كل تلك القبائل على جانبي النيل الأبيض.

وفي عام ١٥٢٣ تولي عبد القادر الملك خلفاً لأبيه عمارة دنقس.

وفي عام ١٥٣٩ تولي نول الملك خلفاً لأبيه عبد القادر.

وفي عام ١٥٤٥ خلف نول إبنه عمارة.

وكان عمارة يلقب ب (أبو سكاكين). وفي عهده توفي الشيخ عبد الله جماع تاركاً ولاية قري لابنه.

وفي عام ١٥٥٣ توفي عمارة. وبين ذلك التاريخ وعام ١٥٩٦ تولي أربعة ملوك من عائلة دنقس الملك خلفاً لبعضهم البعض.

وفي عام ١٥٩٦ وفي عهد عدلان, تمرد الشيخ عجيب, سليل الشيخ جماع وحاكم قري وهزم في ألتي أمام عدلان, بينما هرب أبناؤه لدنقلا. فأرسل عدلان الشيخ إدريس لهم حاملاً عفواً تاماً عنهم مع دعوتهم للقدوم إليه بسنار. جاءوا لسنار وقام عدلان بتنصيب كبيرهم حاكماً على قري.

كان هذا المبعوث لعدلان, الشيخ إدريس, مشهوراً بقدراته. ويقال بأنه قد عمر حتى وصل إلي سن ١٤٧سنه. وخلال ذلك العهد جاء عدد كبير من العلماء من مصر وبغداد لسنار.

وفي عام ١٦٠٣ خلف بادي والده عدلان.

وفي عام ١٦٠٦ خلف رباط والده بادي.

وفي عام ١٦٣٥ خلف بادي أبو دقن والده رباط. وقام هذا الملك بمقاتلة الشلك وأخذ منهم عدداً كبيراً من العبيد. يسكن الشلك ضفتي النيل الأبيض جنوب الكوة.

ثم قام بغزو جبل تقلي ودمر كردفان وأخذ عدداً كبيراً من العبيد مرة أخري. وأثناء عودته لسنار بني لعبيده عدداً من القرى في الإقليم أسكنهم فيها.

وقد أسمي العبيد تلك القرى بأسماء القرى التي خرجوا منها. ومن هنا فأن القرى العديدة التي بالقرب من سنار تحمل أسماء شبيهة بتلك التي بجبال النوبة وتقلي وبقية القرى بأنحاء كردفان.

وعلى مر الوقت كانت قرى العبيد تلك هي التي تغذي جيوش المملكة بالمجندين.

وإضافة لأعماله الحربية بني بادي المسجد القائم الآن بسنار وذود نوافذه بقضبان من النحاس.

وفي عام ١٦٧١ توفي الملك وخلفه إبنه أنسة. وفي عهده حلت مجاعة عظيمة بالبلاد مصحوبة بوباء الجدري.

وفي عام ١٦٨٣ خلف بادي الأحمر والده أنسة. وفي عهده تمرد عدد من قبائل الفنج وسكان قرى بقيادة أميرهم. لكنهم هزموا بعد مذبحة عظيمة قتل فيها أمير قرى. وقد عاش الشيخ حمد ود الترابي المشهور في ذلك العهد, وقبره الآن في سنار* وفي عام ١٧١٠ خلف بادي إبنه أنسة الثاني. وقد سبب هذا الملك باسرافه وفسقه وفجوره استياءاً عاماً، وثار عليه الفنج الجنوبيون وأطاحوا به ونصبوا أحد علية القوم، واسمه نور، في مكانه على العرش. وقد جرى ذلك عام ١٧١٤.

وفي عام ١٧١٩ خلف نور أبنه بادي أبو شلوخ. وفي عهده غزا ملك الحبشة، قدم باسو، سنار بجيش عرصرم. لكنه هزم على كل حال بعد مذبحة عظيمة على يد شيخ الأمين وذلك بالقرب من قرية التكية على نهر الدندر. ويقال أن سبب هذا الغزو أن الملك بادي كان قد صادر بعض الهدايا التي أرسلها ملك فرنسا لملك الحبشة.

وبعد ذلك النصر طارت شهرة سنار في كافة الأمصار ووصلت حتى إلى استانبول. وجاءت زرافات من العلماء ومشاهير الرجال إلى سنار، قادمين من الجزيرة العربية ومن مصر والهند. وبالرغم من كل هذا فقد أطيح ببادي عام ١٧٥٨ لسوء إدارته وأرسل للمنفى ثم خلفه إبنه ناصر عام ١٧٥٨.

وتحت حكم ناصر أصبحت قبيلة الهمج في غاية من القوة. وفقد الفنج قدراً كبيراً من نفوذهم وهيبتهم. وقد قتل ناصر عام ١٧٦٥ بيد أحد أتباعه الثائرين، وخلفه إبنه إسماعيل.

وأطيح بإسماعيل عام ١٧٧٤ ونفي إلى سواكن ونصب إبنه عدلان مكانه. وفي عهده نشبت عدة حروب قبلية في سنار وكردفان وازداد نفوذ الهمج لدرجة رهيبة حتى تمكنوا من السيطرة على الملك نفسه. وفي عام ١٧٨٦ أطاح الهمج بالملك وبدأت مملكة الفنج في التلاشي وساد الطغيان أرجاء البلاد واصبح الملك ينتقل من يد إلى يد بسرعة بالغة لدرجة أن عام ١٧٨٨ شهد وحده تنصيب أربعة ملوك على التوالي. وخلال الثلاثة وثلاثين عاماً التالية التي اتسمت بالطغيان والقهر وسفك الدماء كانت السيادة الفعلية للهمج. وبقيادة الشيخ ناصر إستباحوا السودان الشمالي والشرقي وحكموه بالسيف والنار.

وفي عام ١٨١٩ قام محمد علي (باشا)، بعد أن سمع بما يسود السودان من القهر والطغيان، ولرغبته في إدخال منافع الحكم المنظم والحضارة إليه، وفي نفس الوقت ليجد شيئاً يشغل به جيوشه، بأمر إبنه إسماعيل (باشا) بغزو السودان وذوده بجيش كبير من القوات النظامية وغير النظامية, كما أمده بعدد من العلماء والفنيين من أرباب الصناعة والحرف.

وصل إسماعيل للخرطوم بدون أن يلقي أي مقاومة ومنها توجه نحو سنار. وهناك جاءه أخوه إبراهيم باشا وتوجها سوياً إلي فازوغلي. وبعد ذلك بقليل رجع إبراهيم إلي مصر ولكن إنتشرت أقاويل بأنه كان قد قتل في جبال فازوغلي, فقام العرب البدو بثورة أخمدها إسماعيل بعد أن عاد بسرعة وبعدها قام بتعيين شيوخ جدد. ثم توجه بعد ذلك إلي شندي على النيل. وقام المك نمر، مك تلك المنطقة، ورغبة منه في الإنتقام لكل القسوة والبربرية والجرائم التي أرتكبها إسماعيل، بدعوة إسماعيل وأتباعه إلي حفل كبير في شندي. وأثناء الحفل, وبينما كان كل الضيوف في سكر وثمل قام بإحراق المنزل وهلك إسماعيل وكل من معه.

* من المعروف أن قبره في حلة ود الترابي بريفي الكاملين وليس بسنار (إلا اذا كان الكاتب يقصد الإقليم) المعرب.

وعندما وصلت أنباء تلك الكارثة لكردفان قام أحمد بك الدفتردار، والذي إنتزع تلك المديرية من سلطان دارفور، بقيادة جيش كبير وتوجه به نحو شندي. وعندما بلغ المتمة، المقابلة لشندي، أرسل سكانها إليه طالبين العفو، وقد منحه لهم. لكن واحداً من الأهالي تصادف أن ألقي حربة على الدفتردار فألغي عفوه عنهم وأحدث بهم مذبحة عامة. ونجا المك نمر وتمكن من الهرب للحبشة.

وبعد ذلك توجه الدفتردار إلي جزيرة توتي، المقابلة للخرطوم، حيث هزم الثوار مرة أخرى وأحدث بهم مذبحة عظيمة ثم توجه إلي ود مدني (بالقرب من المسلمية) وبعدها رجع إلي كردفان.

ويقال أن كردفان عندما تم غزوها كان حاكمها يلقب بالمقدوم وهو لقب لا يعطي إلا لخصيان القصر. ويبدو أن سلاطين دارفور إعتادوا علي إرسال الخصيان لحكم الأقاليم والمديريات التابعة لهم.

وفي ١٨٢٢ سمي عثمان بك حاكماً للسودان بينما عاد أحمد بك الدفتردار إلى مصر. وكان ذلك العام عاماً للمجاعة والثورات.

وفي ١٨٢٤ عين محو بك حاكماً.

وفي ١٨٢٦ عين خورشيد باشا حاكماً. وهو رجل أشتهر بعفته وإستقامته. وقد قاد بعض الحملات على النيل الأبيض ضد قبيلة الدينكا الزنجية، في منطقة مواجهة لفشودة، وكذلك قام بحملة على جبال تقلي. وفي عام ١٨٣٤ توجه لمصر لبضعة شهور. وبنهاية ذلك العام توجه إلى الحدود الحبشية السودانية لصد هجوم للحبش الذين جاءوا لمساعدة متمردي سنار. تمت هزيمة الأحباش وقبض على زعيمهم عدلان وتم إعدامه بالخازوق. وفي هذه السنة إنتشرت الكوليرا وغيرها من الأمراض في أرجاء البلاد. وفي عام ١٨٣٦ هجم الأحباش على مديريات القلابات ثم تراجعوا إلى جبالهم.

وخورشيد باشا هو أول حاكم يعلم أهالي الخرطوم كيف يبنون بيوتهم بالطوب ويتركوا أكواخهم المصنوعة من الجلود والبوص.

وقد استدعي لمصر عام ١٨٣٧ وخلفه أحمد باشا أبو ودان. وقد قام محمد علي باشا بزيارة للسودان أثناء حكمه ومضي بعيداً حتى فازوغلي ومكث بها حتى نهاية عام ١٨٣٧ يراقب الكشف عن مناجم الذهب. وفي ١٨٣٨ ذهب أحمد باشا إلي شندي للقبض على المك نمر، الذي كان قد عاد إليها، لكن المك إستطاع مرة أخرى الفرار بعد أن قتل أحد ملازمي الباشا.

وفي ١٨٤١ نشبت ثورة في كسلا وتم إخمادها. وتم تقسيم السودان إلى سبعة مديريات هي (١) فازوغلي، (٢) سنار، (٣) الخرطوم، (٤) التاكا، (٥) بربر، (٦) دنقلا، (٧) كردفان.

وفي سنة ١٨٤٢ عين أحمد باشا منكلي حاكماً عاماً (حكمداراً). وفور وصوله، ونظراً لسوء الإدارة وعدم كفاءة الموظفين، نشبت ثورة أخري في كسلا. توجه الباشا إليها وأخمد الثورة وساق معه عدداً من السجناء إلي الخرطوم حيث قطع رؤوسهم.

وفي ١٨٤٥ حل خالد باشا محله. وأمضي هذا الحاكم معظم وقته يجوب أنحاء البلاد.

وفي ١٨٤٩، أصبح عبد اللطيف باشا حاكماً عاماً. وأمضي وقته في إصلاح الأخطاء والظلم التي أرتكبها أسلافه وفتح مدارساً بالخرطوم وشيد قصر الحكومة (السراية).

وفي ١٨٥٠ حل محله رستم باشا والذي أنشأ ونظم محكمة بالخرطوم، وأحضر لها قضاة ومستشارين من القاهرة. لكنه توفي في العام التالي لوصوله (١٨٥١) وحل محله سليم باشا والذي كان قد غادر القاهرة مرغماً على غير إرادته.

وفي ١٨٥٣ أصبح علي باشا سري حكمداراً.

وفي ١٨٥٤ عين علي باشا شركس حكمداراً. وبعد زمن قصير من توليه قام عبد الحليم باشا، إبن محمد علي باشا، بزيارة للسودان ومكث به حتى نشبت الكوليرا فيه فرجع. وفي عام ١٨٥٦ قام الخديوي محمد سعيد باشا أيضاً بزيارة السودان. وبعد أن نظر في شئونه كاد أن يتخذ قراراً بالتخلي عن السودان. ولم يعدل عن رأيه آلا بعد توسط الشيوخ والأعيان والذين أوضحوا له الطغيان الحتمي والشر الذي سينجم عن خطوة كهذه. لذلك أصدر أوامره للقيام بعدة إصلاحات مثل (١) منع جمع الضرائب بواسطة العساكر، ووجه بأبعادهم من تلك المناطق، (٢) بأن على القرى أن تدفع ضرائبها في المستقبل عن طريق الشيوخ. (٣) تخفيض كل الضرائب على مياه الري. (٤) وألا تجمع ضرائب المزروعات آلا بعد حصادها. (٥) وأن يعقد مجلس سنوي للأعيان للنظر في شئون البلاد...... وغير ذلك.

وفي ١٨٥٦ أصبح أراكل، الشهير بالفرنساوي، حكمداراً على السودان. وقد أشتهر بعدله وبقدراته الإدارية.

وفي ١٨٥٨ عين حسن بك حكمداراً.

وفي ١٨٦١ عين محمد رازق بك حكمداراً.

وفي ١٨٦٢ خلفه موسي باشا حمدي. فأعاد النظر في نظام الضرائب وأمد الأهالي بورق مختوم محدد فيه مقدار الضريبة على كل منهم. ثم توجه (بجيشه) نحو الحدود الحبشية ولكن الحبش، كالعادة، تراجعوا إلي جبالهم. وقبل عودته على كل حال، وجه بنهب وتخريب إقليم ولكايت، وهو إقليم تابع للحبشة ويقيم فيه لاجئاً الملك نمر. كان هذا الباشا موظفاً سودانياً قديماً وقد خدم في كثير من الأماكن من بينها كردفان وتقلي حيث قام بإخماد العديد من الثورات بقسوة ووحشية متناهية. وقد مات بالخرطوم عام ١٨٦٤ وحل محله عمر بك فخري.

وفي عام ١٨٦٥، وبمجرد ما كان هذا الحكمدار في طريقه للقاهرة، تمردت حامية التاكا بكسلا. تسبب في هذا التمرد الجنود الزنوج الذين لم يتسلموا أي مرتبات لعدة شهور طويلة. وبعد ثمانية عشر شهراً من عدم الصرف لهم بدأوا في التذمر. ورفع هذا الأمر للقاهرة بدون إبداء سبب ذلك التذمر وجاءت التعليمات من القاهرة بإرسال أولئك الجنود لمصر وإحلال مصريين محلهم. ومن ثم إنفجرت الثورة علناً. كان عدد المتمردين يصل إلي ٨٠٠٠ رجل. ولما لم يكن لهم أي قائد أو حتى ذخائر فقد كان أثر تمردهم ضعيفاً وتوفر لدي الحكومة الوقت لإرسال تعزيزات لإنقاذ مدينة كسلا.

ووصل جعفر باشا عام ١٨٦٥ كحكمدار للسودان، وجاء معه عدد كبير من الجنود عن طريق كروسكو. وفي نفس الوقت تم إرسال جعفر باشا مظهر من مصر، ومعه عدد أخر من القوات أيضاً، عن طريق سواكن، إلي التاكا، وقد نجح في إخماد التمرد. ومن كسلا توجه إلى الخرطوم حيث

عين حكمداراً بالنيابة عن جعفر باشا صادق, الذي عاد للقاهرة. وتم إرسال الجنود السود إلى مصر وحل محلهم جنود مصريون.

وفي عام ١٨٦٦قام جعفر باشا برحلة تفتيش بأنحاء السودان المختلفة.وعندما عاد للخرطوم أرسل لمصر لإعادة الجنود السود من هناك. ثم توجه للقاهرة بعد أن ترك وراءه حكمداراً بالإنابة.

وفي ذلك العام تم تنازل سلطان تركيا عن أقاليم مصوع وسواكن لمصر.

وفي ١٨٦٨ عاد جعفر باشا مرة أخرى للسودان وعلى الفور أمر بإرجاع القوات المصرية لمصر.

وفي عام ١٨٧٠ بارحت الخرطوم حملة السير صمويل بيكر لإستكشاف مناطق خط الإستواء, كما تم في نفس العام إرسال حملة أخرى, بقيادة هلالي, وهو أحد مواطني دارفور, لبحر الغزال لإحتلال مناجم النحاس, في حفرة النحاس. وهذه الحملة كانت المؤشر الأول للتفكير في غزو دارفور.

وفي نفس السنة أيضاً قام الألماني مونزنجر بضم إقليم سنهيت لمصر. ورغم أن سنهيت كانت تدفع الجزية للحبشة, إلا أنها كانت مستقلة من ناحية عملية, يقودها شيوخها تحت حماية الحكومة الفرنسية. وتقدم مونزنجر, الذي كان قد أقام هناك لعدة سنوات, وإكتسب نفوذاً عظيماً، باقتراح للحكومة المصرية ليسلمها ذلك الإقليم. تم قبول أقتراحه، وأنعم عليه برتبة البكوية، وعين مديراً لمديريات البحر الأحمر، وضمت المنطقة بهدوء إلى مصر. لكن الأحباش لم يعترفوا أبداً بهذا الضم وواصلوا جباية الضرائب من الأهالي. وواقع الأمر يشير إلى أن المنطقة حبشية، ولم تمتد حدود الأقاليم المصرية لما وراء حدود قلعة كرن. وأهالي المنطقة يعانون من البؤس والفقر الشديدين ولم يتمكنوا أبداً من دفع الجزية المقدرة عليهم, والبالغة ٦٠٠ ريال, إلى المصريين.

وفي عام ١٨٧١عين ممتاز باشا حكمداراً وقام بتشجيع وترقية زراعة القطن. لكن لامبالاة, وقد نقول غباء إدارته، أدت إلى تكرار التظلمات والشكاوى منه حتى أنه طرد من الخدمة وألقي به في السجن بالخرطوم، في إنتظار التحقيق معه، حتى مات فيه عام ١٨٧٥.

وفي عام ١٨٧٣ اسمي إسماعيل باشا أيوب حكمداراً. وشرع فوراً في إزالة السدود (التي تعترض مجري النيل الأبيض). وفي هذه السنة عاد السير صمويل بيكر من الإستوائية بعد أن ترك في القيادة هناك رؤوف باشا.

وفي ١٨٧٤ عين الكولونيل غردون مديراً للمديريات الإستوائية. وفي عام ١٨٧٥ بدأ الزبير باشا, مع جنوده البازنقر والدناقلة, غزو دارفور بأوامر من إسماعيل باشا أيوب والذي دعمه (ببعض) القوات والبنادق...الخ.

وفي هذه السنة أيضاً إقترح منزنجر باشا ضم الإقليم الواقع إلى الجنوب من مصوع، لكنه قتل غيلة. وفي نفس السنة توجهت حملة أخرى, بقيادة رؤوف باشا، لفتح هرر. وأفلحت الحملة في مهمتها وتم ضم مساحة كبيرة من الإقليم (لمصر).

وفي عام ١٨٧٦، وبسبب من الصراعات الحدودية، نشبت الحرب بين مصر والحبشة. هزم فيها المصريون. وتمكن الأحباش من أسر عدد كبير من الرجال بمن فيهم حسن باشا، إبن الخديوي.

وفي عام ١٨٧٧ تم تعيين الكولونيل غردون حكمداراً على السودان. بما في ذلك هرر والمديريات الإستوائية. قضي معظم وقته في الترحال. وأثناء حكمه تم إخماد ثورة السلطان هارون في مديرية دارفور. وكذلك تمرد سليمان الزبير في مديرية بحر الغزال. وقد أخذ سليمان الزبير، إبن الزبير باشا، وأعدم رمياً بالرصاص. كما قام غردون بجهود كبيرة لكبح تجارة الرقيق.

وعام ١٨٨٠ تم تعيين رؤوف باشا حكمداراً. وفي فترة حكمه بذلت جهود كبيرة للحد من النفقات. وفي أغسطس ١٨٨١ بدأ محمد أحمد المهدي رسالته المقدسة.

وفي ١٨٨٢ عين عبد القادر باشا حكمداراً.

المناطق التي تسيطر عليها الحكومة المصرية وحدودها المختلفة

المناطق التي يسيطر عليها المصريون الآن، تحت أسم السودان، تغطي مساحات شاسعة. ويبلغ طولها من الشمال للجنوب، أي من أسوان حتى خط الاستواء، حوالي ٢٤ درجة (من خطوط العرض)، أي حوالي ١٦٥٠ ميلاً. وعرضها من مصوع (حوالي ٤٠ درجة شرقاً) إلى الحد الغربي الأقصى لمديرية دارفور (حوالي ٢٢,٥ درجة شرقاً) ما بين ١٢٠٠ إلى ١٤٠٠ ميلاً.

وتبدأ حدود السودان من قرب برنيس (راس بناس) على ساحل البحر الأحمر، ثم تسير مع خط العرض ٢٤ إلى نقطة غير محددة في الصحراء الليبية، خط طول ٢٨ درجة مثلاً، ومنها تتبع خطاً جنوب غربي حتى تلتقي بالركن الشمالي الغربي لمديرية دارفور، في حوالي خط الطول ٢٣ درجة. ومن تلك النقطة تتجه الحدود جنوباً تقريباً حتى خط العرض ١١ أو ١٢ درجة ثم تتبع مساراً جنوبي شرقي يمر بمونبوتو وبحيرة ألبرت نيانزا وحتى يتصل بمدخل بحيرة فكتوريا نيانزا. ومن هذه النقطة تتجه الحدود للشمال الشرقي وتدخل فيها مديرية هرر حتى تلتقي بالمحيط الهندي في منطقة رأس جاردافوي ومنها تمضي شمالاً مع ساحل البحر الأحمر حتى رأس بناس (بيرنيس).

ملحوظة: "وجدت أن من الأفضل إدخال مديرية هرر ضمن حدود السودان، ليس لأن هرر تابعة للحكومة السودانية فقط، بل لأن قليلاً جداً هو ما يعرف عن تلك البلاد وأن من المستحيل أن نقول من أين تبدأ حدود إحدى المديريات وأين تنتهي".

وكل تلك الأصقاع الشاسعة، التي تبدأ من جنوب الحبشة وتمتد من بحيرة فكتوريا نيانزا إلى المحيط الهندي، غير معروفة، بل مجهولة، في واقع الأمر. وسكانها إما من الجالا أو من الصوماليين وغيرهم. وهم لا يشجعون الرحالة (الذين قد يجوبون مناطقهم).

طبيعة البلاد (السودانية)
والفوارق بين الأجناس، وحالة الطقس وغير ذلك

في القسم الشمالي، بين أسوان والخرطوم، فأن المنطقة – ما عدا الشريط الضيق المزروع بطول النيل – تكاد تكون صحراء لا يقطنها سوي البدو الذين يقال أنهم من أهل البلاد الأصليين. ويفصل وادي النيل عن الساحل (البحر الأحمر) سلسلة من التلال والأراضي الوعرة غير المرتفعة والجرداء. وهناك سهل منخفض إلى الغرب يفصل النيل عن صحراء بيوضة.

والطقس جاف مثير للوهن. وحرارة الصيف زائدة عن الحد. وتهطل الأمطار بانتظام حتى شندي شمالاً, بين خطي عرض ١٦ و ١٧ درجة، وذلك خلال الشهور يونيه ويوليه وأغسطس. وفي الشتاء, أي ما بين أول سبتمبر وحتى نهاية نوفمبر, تهطل أحياناً أمطار ثقيلة علي المنحدرات الشرقية للتلال المطلة علي البحر الأحمر أما في المناطق غرب النيل الأبيض, بين الخرطوم وكاكا, (على خط عرض ١١ درجة) وإلى القرب من النيل الأزرق تظهر الجبال ويزداد إرتفاعها حتى الوصول للحدود الحبشية.

وسكان كل هذا القسم من العرب الخلص تقريباً وكثير منهم من البدو الرحل. والاستثناء الوحيد هو (بعض القبائل) علي حدود الحبشة الشمالية والتكارير من سكان القلابات, وهم زنوج هاجروا من المناطق الواقعة إلى الغرب من مديرية دارفور.

وكل الإقليم الواقع شرق وغرب النيل الأبيض، بين جبال النوبة والمرتفعات الحبشية, ومن خط عرض ٨ درجة وحتى مسافة قصيرة من الخرطوم، موبوء بذبابة التسي تسي. وهذه الذبابة، المدمرة للمواشي، تظهر وتختفي مع موسم الأمطار. وهي تلعب على كل حال دوراً مفيداً للحكومة كجامعة للضرائب، لأن كل قبائل الرحل تضطر للهجرة شمالاً باتجاه النقاط والمراكز الحكومية.

ومن كردفان ودارفور وبعض أقاليم بحر الغزال، وأثناء وبعد موسم الأمطار مباشرة، تنتشر بالقرب من المياه بويضات ميكروسكوبية للفرنديت. وهذه (الديدان) تستقر بين جلد وعضلات جسم الإنسان مسببة آلاماً لا تطاق. وقد إختلفت الرؤى حول كيفية دخولها للجسم. فالبعض يقول بأن ذلك يتم أثناء الإستحمام بينما يصر البعض الأخر على أنها تصيب الإنسان عند نومه على الأرض العارية الجرداء.

ومن خط عرض كاكا (١١ درجة شمالاً) إلى غندوكرو (٥ درجة شمالاً) فأن الأرض عبارة عن سهل مستو تسوده المستنقعات الواسعة على ضفتي النيل الأبيض وبحر الغزال. وإلى الجنوب من غندوكرو وحتى خط الإستواء تتحول المنطقة بالتدريج لتكون جبلية تنتشر فيها الغابات الضخمة في كل مكان، وذات الأشجار المتنوعة، وأشجار الفواكه.

وتتواجد المياه في كل مكان بوفرة ولهذا السبب فأن طقس المنطقة في جهات غرب النيل تلك يعتبر غير صحي كما أن الحرارة غاية في الارتفاع.

ويبدأ موسم الأمطار في غندوكرو في أبريل ويستمر حتى سبتمبر. والأمطار فيهـا غزيـرة وتستمر أحياناً لعشرة أو اثنتي عشرة ساعة. ومن غندوكرو وجنوباً وحتى خط الإستواء يطول فصـل الأمطار، حتى يمكن أن يقال أن الأمطار وظهور الشمس قد يتعاقبان بصفة مستمرة طوال السنة في خط الإستواء لكن شهور يناير وفبراير ومارس هي عموماً أكثر الشهور غزارة في معدل الأمطار بها.

ويعود لهذه الأمطار الغزيرة والحرارة البالغة الشدة الفضل في وفرة النمو للنباتات وكثافتها لدرجة أن الأنهار قد تسد تماماً بكتل من النباتات التي يقتلعها التيار ويدفعها نحو المناطق الضيقة من النهر لتشكل حاجزاً صعب الإختراق يزداد انتشاراً حتى يكون ما يسمى بالسد على النهر.

وفي تلك الأصقاع توجد أنواع من الخفافيش والطيور الخضراء التي تمـتص دم الخيـول والحمير وبقية الحيوانات.

الطـرق:

هي عبارة عن طرق قوافل الجمال والتي توجد بها آبار قليلة متباعدة. ولإعطاء فكرة عن إتساع هذه البلاد ولتوضيح سبب التأخير والبطء الشديد في التواصل بين الوسط والأطراف, فـأنني سأورد بعض المسافات بين بلد وآخر هنا:

(١) الخرطوم إلى الأبيض: ١٢ مسيرة للقوافل و ٥ مسيرة للبريد.

(٢) الخرطوم إلى الفاشر: ٣٢ مسيرة للقوافل و ٢٢ مسيرة للبريد.

(٣) الخرطوم إلى غندوكرو: ١٨ يوم بالباخرة.

(٤) الخرطوم إلى قوز رجب: ٦ مسيرات للقوافل. هذا وتسود الزراعة في السهول خلال فصل الأمطار.

(٥) الخرطوم إلى دنقلا: ٨ مسيرات، وعدة آبار.

(٦) الخرطوم إلى أبوحراز ثم القضارف: ٣ يوم بالباخرة ثم ٥ يوم بالابل.

(٧) الخرطوم إلى قوز رجب ثم كسلا: ٨ يوم بالإبل.

(٨) القضارف إلى القلابات: ٤ يوم بالإبل.

(٩) القضارف إلى الجيرة: ½١ يوم بالإبل.

(١٠) القضارف إلى كسلا: ٥ يوم بالإبل.

(١١) قوز رجب إلى سواكن: ١١ يوم بالإبل.

(١٢) مصوع إلى سنهيت: ٧ يوم بالإبل.

(١٣) سنهيت إلى كسلا: ٧ يوم بالإبل

(١٤) غندوكرور إلى دوفيللي: ٩ يوم مشياً على الأقدام.

(١٥) غندوكرور إلى مونبوتو: ٣٤ يوم مشياً على الأقدام.

(١٦) غندوكرور إلى فويرا: ١٨ يوم مشياً على الأقدام.

(١٧) غندوكرور إلى لاتوكا: ٧ يوم مشياً على الأقدام.

(١٨) غندوكرور إلى مكراكا: ٧ يوم مشياً على الأقدام.

(١٩) الفاشر إلى أسيوط: ٤٠ يوم بالإبل خلال الصحراء.

وخلال فصل الأمطار، ولطبيعة الأرض الإسفنجية وكثافة النباتات، فأن من المستحيل السفر من مكان لمكان (في أغلب المناطق).

ولكن في مناطق غرب النيل الأبيض، ولأن الأرض صلبة ورملية، فأن الأمطار لا تعيق الترحال.

خطوط التلغراف الحالية:

١- القاهرة – دنقلا – بربر – الخرطوم.

٢- الخرطوم – أبو قراد- كردفان – فوجة.

٣- الخرطوم – أبو حراز – المسلمية – سنار – فازوغلي.

٤- المسلمية – الكوة.

٥- أبو حراز – القضارف – كسلا – سنهيت – مصوع.

٦- كسلا – قوز رجب – بربر.

٧- سواكن – كسلا.

٨- القضارف – دوكة – القلابات.

٩- القضارف – الجيرة، على نهر ستيت.

الأجناس والقبائل وخلافه:

بجانب التقسيم الرئيسي للسكان إلي عرب وزنوج، فهناك أيضاً (تحت أقسام) تتمثل في عدد كبير من القبائل وفروعها (تحت القبائل)، والتي بعضها يعيش في الحضر (مستقرة) وبعضها الآخر على البداوة. وكل القبائل الزنجية مستقرة تعمل بالزراعة. أما العرب فأن معظمهم بدو رحل متجولون، ولكل قبيلة مجال معروف ومحدد لها. وكل تلك القبائل العربية من أصحاب المواشي والإبل والخيول والعبيد. وهؤلاء العبيد هم الذين يقومون مع نساء العرب بزراعة حقول الذرة أو الحبوب والتي تكفي حوجة القبيلة. أما العربي نفسه فيعتبر العمل اليدوي أو ممارسته لأي مهنة مما يحط من كرامته ولذلك لا يعمل إلا بالصيد أو السرقة أو بممارسة القتال. وبعد الإعتناء بمواشيه فأنه يكرس كل جهده إما للقتال أو لإصطياد الرقيق.

ومن بين هؤلاء العرب من يطلق عليهم إسم البقارة لكنني لم أتمكن من التمييز بين البقاري وأي بدوي عادي. ويقول البعض أن كل القبائل التي لا تمتلك الإبل تعتبر من البقارة.

وبجانب هؤلاء، فأن هناك سكان شمال السودان, وفي مديرية دنقلا خاصة، يقال بأنهم يمثلون العنصر النوبي القديم، وهم، بجانب العربية، يتحدثون بلغتهم الخاصة.

والأراضي الصالحة للزراعة في تلك المديرية محدودة جداً. وبالتالي فأن معظم سكانها من النواتية (يعملون على المراكب النيلية ويصنعونها) أو من صغار التجار (الجلابة). وهؤلاء الجلابة يوجدون في كل أنحاء السودان. وكثير منهم كانوا، أو لا يزالون، يمارسون تجارة الرقيق.

وبين النيل والبحر الأحمر، في خط العرض الذي يشمل بربر، نجد قبائل البشاريين والهدندوة وغيرهم. ويقال بأن تلك القبائل هي أيضاً من القبائل العريقة المقيمة في تلك المناطق، وبأنهم ينتمون لجنس مختلف عن العرب، وبأن لهم لغات خاصة بهم وبعضهم لا يفهم العربية إطلاقاً.

الأديــان:

كل العرب، من دناقلة وزنوج وغيرهم، المقيمين في حزام العرب، مسلمون يتبعون المذهب المالكي. لكن ممارسة الدين، ونظراً للجهل المتفشي وسط الأهالي، لا يتخذ سوي شكل ممارسات عاطفية ذات طبيعة تمتلئ بالخرافة.

من هنا كان النفوذ الكبير(للفكي) أو القائد الروحي، والذي يوصف بأنه ذو مقدرات فوق الطبيعة وربما يوقر أكثر من الأنبياء. وشبيه بذلك التقدير الذي يحظى به الدراويش وقوة المعجزات التي تعزي لتكرارهم لكلمات معينة مثل (بسم الله)، وتأثير الأحجبة وعين الحسود... الخ.

أما القبائل الزنجية، ورغم أنهم يندرجون تحت الدين الإسلامي رسمياً، إلا أنهم جميعاً من الوثنيين أو لا يوجد لديهم أي معتقد ديني.

الأقسام الإدارية :

قبل عام ١٨٨٢. كان السودان مقسماً إلي عدد من المديريات، كل منها تحت إمرة حاكم أو مدير أو مدير عموم ويتبعون جميعاً لحاكم عام (حكمدار) مقيم بالخرطوم. وفي أوائل ذلك العام تقرر تعيين وزير للسودان يكون مقيماً بالقاهرة مع تقسيم البلاد إلي ثلاثة أقسام كبيرة، بكل قسم عدة مديريات، وكل قسم من الثلاثة برأسه حاكم عام أو حكمدار.

تقرر أن يكون كل من تلك الأقسام مستقل عن الآخر, وأن تكون معاملاته مباشرة مع القاهرة. هذه الأقسام هي:

- القسم الأول – حكمدارية غرب السودان، وعاصمتها الفاشر. وتشتمل على مديريات دارفور وكردفان وبحر الغزال ودنقلا.
- القسم الثاني – حكمدارية وسط السودان, وعاصمتها الخرطوم. وتشتمل على مديريات الخرطوم وسنار وبربر وفشودة والاستوائية أو خط الإستواء.

- القسم الثالث – حكمدارية شرق السودان, وعاصمتها مصوع. وتشمل مديريات التاكا (وعاصمتها كسلا) وسواكن ومصوع وتمتد حتى باب المندب.
- وهناك قسم رابع تشكله حكمدارية هرر وعاصمتها هرر. وهي مقسمة لمديريات زيلع وبربرة وهرر، وتم ضمها إلى وزارة شئون السودان.

بدأ تنفيذ هذا المخطط وتعيين عدد من الحكمدارات, وكذلك تم إنشاء وتنظيم الهياكل والوظائف في الوزارة بالقاهرة. لكن الظروف الضاغطة أجبرت الوزير على الإقامة بالخرطوم.

وكل حكمدارية من المشار إليها أعلاه قسمت إلى عدد من المديريات كل منها بقيادة (مدير). كما قسمت كل مديرية بدورها إلى عدد من الأقسام أو المراكز يقود كل مركز منها (ناظر). وكل قسم تتبعه عدة أخطاط (مفردها خط)، أو وحدة إدارية صغيرة (كميون) يرأس كل منها (حاكم).

أما العرب الرحل فأن من الصعب بالطبع أن يدخلوا في هذا التقسيم. ويحكمهم شيوخهم. الذين هم بدورهم مسئولون لدي الحكومة.

أما المديريات التالية فأن نظامها مختلف لحد ما. وهي:

١- مديرية دارفور: وهي، نظراً لإتساعها، فأنها تحكم بواسطة (مدير عموم) ومهامه تكاد تكون مماثلة (لمفتش عام متجول).

والمديرية مقسمة إلي مديرية الفاشر وإلي المأموريتين الإداريتين في كلكل ودارا واللتين تحكم كل منهما بواسطة (مأمور إدارة) يقيم في كلكل وفي دارا. وفيما عدا ما يتعلق بالسيطرة على الشئون المالية, فأن هذين المديرين مستقلان تماماً عن مدير الفاشر.

بعد ذلك تأتي (تحت الأقسام).

٢- بحر الغزال: تحكم هذه المديرية بواسطة (مدير عموم) وله مساعد مقيم في ديم إدريس.

ولأن سكان المنطقة من قبائل الزنوج, وكل قبيلة لها شيخها الخاص, فأنها لم تقسم لتحت أقسام أو غيرها. ولا تدفع فيها ضرائب منتظمة. وبعض أهم واجبات المدير هي (أ) جمع العاج والمطاط (الكاوتشوك) وغيره (ب) منع تجارة الرقيق.

٣- مديرية خط الإستواء (الإستوائية): يحكمها (مدير عموم). وسكانها مكونون من عدة قبائل ولا يدفعون أي ضرائب.

وقد قسمت المديرية إلي تحت أقسام أو ما موريات هي:

(أ) لاتوكا، (ب) بور, (ج) مكراكا، (د) مونبوتو، (ح) وادلاي، (و) فويرا.

٤- مديرية سنار: تحت مدير عموم أيضاً، وتتبع له مأمورية إدارة فازوغلي.

٥- مديـرية التاكا: وعاصمتها كسلا. وهي تحت إدارة مدير عموم وتتبع لها مأمورية إدارة القلابات. هذا والمديرية مقسمة إلى عدة تحت أقسام أيضاً.

٦- ولأن مديريتي سواكن ومصوع لا تسكنهما إلا قبائل الرحل فأنهما لم يقسما إلى تحت أقسام.

***

القسم الثاني
أحداث عام (١٨٨٢م)

الملخص:

" محاولة رؤوف باشا إلقاء القبض على المهدي بأبا - فشل المحاولة - إنسحاب المهدي لجبال جنوب كردفان - إرسال محمد سعيد باشا للكوة مع قوة عسكرية - هزيمة راشد بك أمام المهدي في قدير - تمكن محمد أحمد من تحقيق التحالف مع البقارة - رؤوف باشا يقوم بتجنيد قوات غير نظامية - تململ قبائل كردفان وسنار وشرق السودان - إستدعاء رؤوف باشا - جيقلر باشا يقوم مقام الحاكم العام - إرسال يوسف باشا الشلالي للكوة - دخول أحمد المكاشفي لسنار وتغنيمه لها - حصار القوات بالمديرية - صالح بك ينقذ سنار - القوات المصرية تهزم الثوار في كركوج - الثوار يهزمون المصريين في المسلمية - إنتصار جيقلر باشا في أبو حراز - عبد القادر باشا يخلف رؤوف باشا كحاكم عام - هزيمة يوسف باشا الشلالي الساحقة أمام المهدي في ماسا - عبد القادر باشا يقوم بصيانة وإصلاح أستحكامات الخرطوم ويجند قوة من ١٢٠٠ رجل - إبادة حامية شات وسحقها صد الثوار عن الدويم وتكبدهم خسائر جسيمة - حصار البركة في كردفان - الإمدادات المرسلة من الأبيض تهزم الثوار بالقرب من كاشقيل - مذبحة أهالي أسحق - القوات المصرية تشتت الثوار في أولاد مروج - الهجوم على بارة - القتال في شاطورة - حصار بارة - قصة الأب بونومب - دعوة ألياس باشا المهدي للحضور للأبيض - مغادرته جبل قدير - حصار المك عمر لإرسالية جبل الدلنج وإستيلائه عليها - هجوم الفكي المنا على الطيارة - الإستيلاء على البركة - المهدي يحاصر الأبيض - السكان يهجرونها - الحامية تتخندق بقوة - هجوم المهدي عليها وصده بخسائر جسيمة - إرسال عبد القادر باشا الإمدادات وهزيمتها الرهيبة في الكوة - قيام حامية بارا بانسحاب ناجح - إنضمام النور عنقرة للثوار - عبد القادر باشا- يبرق القاهرة طالباً إمدادات - جيقلر باشا يحرز إنتصاراً محدوداً بالدويم - الأحداث في دارفور - إستيلاء الأمير مادبو على شكا - صده في المعاليا - مادبو يهاجم لكن سلاطين بك يهزمه في إنجليلا - يهزمه مرة أخري في دارا - هزيمة الثوار بالقرب من أم شنقة - الأحداث في بحر الغزال - وصف المنطقة وقبائلها - لبتن بك حاكم لها - السدود على النيل - أقسام ومراكز المديرية - أسباب الثورة - أول صدام في تل قاونا - ثورة قبيلة الجانقي - الأحداث في التوج - هزيمة شيخ جانقو بالقرب من قاونا - الأحداث في الإستوائية - وصف المديرية - أمين بك حاكماً عليها - قبائلها - المحطات والحاميات - أسباب الثورة المحلية - كباريقا, ملك أنيورو- عودة إلى الوضع في السودان بنهاية ١٨٨٢ - ولاء الشكرية".

كان أول صدام مع السلطة، محك النجاح أو الفشل، على وشك الحدوث, إذ أن التشكك في الأمر لمن يدوم طويلاً.

وقد حدث الأمر بهذه الطريقة: فلقد دار نقاش طويل في الخرطوم عندما وصلت الأنباء بظهور المهدي. وأراد ماركوبولي بك، وهو إغريقي يعمل خازناً للحكومة, أن يتم إحضار محمد أحمد للخرطوم لاستجوابه. أما أبو السعود. صاحب السمعة الرديئة كوغد شرير, حتى في الخرطوم، فقد ألح على رؤوف باشا ليرسله لأبا مع أربعة من العلماء. كان أبو السعود من أسرة غطاس المعروفة وقد عمل طويلاً في المديريات الاستوائية, ومن المحتمل أن يكون قد حصل على رخصة للتجارة (تجارة الرق) في تلك المناطق عند ما كانت تحت إدارة السير صمويل بيكر, والذي ظن أنه سيعمل على مكافحة تلك التجارة.

توجه هؤلاء إلى الجزيرة أبا على ظهر باخرة. وعندما هبطوا منها نادوا بصوت عال على المهدي. جاءهم المهدي بمسكنة شديدة، وقد أخفي يديه بداخل ثوبه وأجلس نفسه على عنقريب بجانب أبي السعود. ثم خاطبه أبو السعود بلهجة عنيفة: ما الذي يجري هنا؟"

فأجابه النبي الجديد بكل لطف:" إنني أنا المهدي".

- عليك أن تأتي معنا إلى الخرطوم
- لا أرغب في الذهاب للخرطوم
- ولكن يجب عليك الذهاب

فرد عليه المهدي وقد أخرج يده الممسكة بسيفه :" أيجب علي؟!".

تراجع أبو السعود وأخذ معه العلماء وصعد على الباخرة.

وعندما وصلوا للخرطوم أيقظوا رؤوف باشا من نومه أثناء الليل. وقال له أبو السعود: "أعطني خمسين رجلاً وسأحضر لك ذلك المدعي".

لم يكن أبو السعود جندياً, لكنه وضع في اليوم التالي على رأس مئتي جندي عاد بهم إلى أبا، وعندما وصلها ظل في الباخرة بينما كان الضباط يتجادلون حول جدوى مباغتة المهدي بهجوم ليلي. إنقض عليهم أتباع المهدي وذبحوهم. وربما كان هذا الفشل قد إتفق عليه من قبل, فأي شئ جائز مع أبي السعود, وفي هذه الحالة يمكن أن يرجع الفضل لحضور ذهن محمد أحمد ولقدراته التنظيمية العالية. من هنا فقد أطلقت الإشارة، في أغسطس ١٨٨١, للقضاء على الدخلاء, الذين حملوا على عاتقهم مهمة القضاء على تجارة الرقيق.

وعلى الرغم من نجاح محمد أحمد في هزيمة أول محاولة لإقتلاعه من أبا, إلا أنه أيقن سريعاً بأن بقاءه بالقرب من مركز السلطة في الخرطوم أمر غير حميد العواقب. وبالتالي, وبعد أن أمن لنفسه أتباعاً في مديرية سنار, وأوكل شئونها لأخوين من المكاشفية, فقد تحرك غرباً نحو ماسا بجبال النوبة. ويشير إلى تحركه هذا في مخاطباته على أنها الهجرة, تقليداً لما فعله الرسول العظيم والذي كانت هجرته من مكة للمدينة بداية للعصر الإسلامي. وهنا طارده محمد سعيد باشا بعد أن

جمع حوالي ١٤٠٠ من الجنود في الكوة على النيل الأبيض. لكن محمد أحمد كان قد غادر في ذلك الوقت أبا إلى البلاد الجبلية جنوبي كردفان. وبعد أن تأخرت قوات محمد باشا سعيد لمدة شهر تراجعت بدون إحراز أي شئ.

قام زعيم إقليم تقلي الصغير بأبعاد المهدي عن جبال النوبة تلك, فتحول إلى جبال قدير وتحصن فيها. ومن قدير، التي تقع على الجنوب من تقلي، تمكن المهدي في ٩ ديسمبر ١٨٨١ من هزيمة راشد بك، مدير فشودة, حيث بقى بعدها هادئاً في انتظار نجاح مبعوثيه, الذين أرسلهم لمختلف القبائل. وأنهمك في تمتين حلفه مع البقارة, وعمل على الزواج من بنات زعمائهم. ومن هنا بدأت الشراكة بين القوة الروحية للمهدي والقوى الزمنية لأمراء البقارة الذين عانوا من هزائمهم أمام غردون, والذين كانوا على وعي, في نفس الوقت, بقدرتهم على سحق المصريين بعد أن غادر قائدهم الإنجليزي البلاد.

وعندما بلغته أنباء هزيمة راشد بك، شرع رؤوف باشا فوراً بتجنيد قوات غير نظامية من مناطق دنقلا وبربر والشايقية. لكن الثورة كانت تحرز نجاحات سريعة. فقد هدد الشلك، الذين تكبدوا خسائر كبيرة عند هزيمة راشد الأخيرة، بالثورة، بينما كان الكبابيش في شمال كردفان، والرفاعة في سنار، والبشاريين في الشمال من طريق بربر – سواكن، لا زالوا مترددون في إعلان موقفهم.

وفي مارس ١٨٨٢ تم إستدعاء رؤوف باشا. وفي إنتظار وصول خلف له، قام جيقلر باشا، القائم بأعمال الحاكم العام، بإرسال يوسف باشا الشلالي لمحاربة المهدي لكن رجاله هجروه وتركوا الباشا جانحاً في الكوة على بعد خمسين ميلاً شمالي أبا.

أطلق غردون على أتباع محمد أحمد لفظ (العرب) وبهذا الاسم ستشملهم الصفحات التالية.

وعند نهاية مارس، قام أحمد المكاشفي, الذي كما تذكرون، كان المهدي قد تركه على مقربة من سنار عندما بارح الجزيرة أبا، بحصار تلك المدينة. وفي السادس من أبريل شن عليه حسين بك شكري، مدير سنار, هجوماً لكن تم صده. وتمكن العدو من دخول المدينة وسلبها بعد أن قتل أكثر من مائة من رجال حاميتها وعدداً من تجارها. لكن القوات إستعادت السيطرة على المديرية وتمكنت من مقاومة الحصار لبعض الوقت.

وعندما وصلت هذه الأنباء لجيقلر باشا قام بإرسال صالح بك من الكوة مع خمسمائة رجل من الجنود النظاميين حيث تمكن صالح بك، بعد مواجهة صعبة مع قوات المهدي، من دخول المدينة وفك الحصار عنها. تراجع العدو بعدها إلى كركوج، على النيل الأزرق وجنوب شرق سنار، لكن القوات المصرية، التي تم تعزيزها في هذه الآونة بألفين وخمسمائة من رجال الشكرية لابسي الدروع، قامت بمطاردتهم إنطلاقاً من أبي حراز. كان الشكرية تحت قيادة زعيمهم المشهور عوض الكريم باشا أبو سن. انقض الثوار على تلك القوة في المسلمية وهزموها بعد مذبحة عظيمة.

تولى جيقلر باشا بنفسه القيادة الميدانية الآن. وفي الثالث من مايو أحرز نصراً على أعدائه في أبي حراز. وفي الخامس والعشرين في مايو أحرز نصراً آخراً بالقرب من سنار ثم عاد بعدما للخرطوم حيث وجد أن الحكمدار الجديد، عبد القادر باشا، قد وصلها في الحادي عشر من مايو.

خلال هذه الفترة تم تعزيز قوات يوسف باشا الشلالي في الكوة بقوة كبيرة وأخذ يستعد للزحف على المهدي في جبل قدير. تحرك من مايو بقواته البالغة ٦٠٠٠ رجل إلى فشودة ثم توغل بعده للداخل باتجاه قدير وتوقف لبضعة أيام في جبل تنجر – في منتصف المسافة بين فشودة وجبل قدير – وفي الحادي والعشرين من مايو بدأ زحفه النهائي مخترقاً المستنقعات والأدغال. وفي السابع من يونيه وصل إلى مشارف العدو. وبينما كان منهمكاً في بناء زريبة فاجأه العدو, الذي انقض على جنوده وهزمه هزيمة تامة كاد أن يستأصله فيها. واستولي الثوار على كل السلاح والذخيرة والتعيينات.

وقد كان هذا النصر أعظم ما حققه المهدي حتى الآن وسبب قلقاً عظيماً للحكومة وجعلها في موقف حرج أكثر من ذي قبل, في الوقت الذي أعطي هذا النصر للثوار زخماً كبيراً.

شرع عبد القادر باشا بعد ذلك في إصلاح وصيانة تحصينات الخرطوم، التي حافظت عليها حتى السادس والعشرين من يناير ١٨٨٥، كما قام بعرض جائزة قدرها جنيهان لكل من يقتل أحد العرب، وثمانية عشر جنيها علي رأس كل زعيم. ثم قام بإرسال نداءات للعرب داعياً لهم للبقاء على ولائهم للحكومة, وبذل كل ما في وسعه من جهود, ما عدا محاولة الهجوم على المهدي نفسه. ولم يضع عبد القادر باشا وقتاً في تجميع القوات من كل الأنحاء وسحب ثلاثة كتائب من القلابات وسنهيت والجيرة، وكون كتيبتين من الجنود السود, وجمع حوالي ٨٠٠٠ رجل من الباشبوزوق. وفي نهاية يولية كان قد تمكن من حشد قوة تتراوح ما بين ١٢٠٠٠ – ١٣٠٠٠ رجل، وفي نفس الوقت قام بتعزيز حامية الأبيض بألف رجل.

وبعد ذلك بوقت قصير, في الثامن من أغسطس، قام المكاشفي بالهجوم على محطة شات والاستيلاء عليها وأعمل السيف في رقاب حاميتها المكونة من مائتي جندي. وفي الثامن والعشرين من الشهر هاجم الدويم بعزم وتصميم لكن الحامية صدته بخسائر في صفوفه بلغت ٣٠٠٠ قتيل.

وظل المهدي طوال ذلك في قدير بدون حراك لكن أنصاره كانوا يحرزون النصر تلو النصر في مختلف أنحاء البلاد.

وفي كردفان تم حصار مدينة البركة الصغيرة بواسطة الأمير عبد الله ود النور، الذي كان قد جمع قوة كبيرة من رجال البديرية والحوازمة والغديات والحمر. فقام محمد باشا سعيد بإرسال قوة مؤلفة من ١٢٠٠ رجل من الأبيض, تحت قيادة الصاغ نظيم أفندي, لرفع الحصار عنها. اصطدم الأخير بالعرب بالقرب من كاشقيل في الثالث عشر من مايو. وبعد ثلاثة أيام من القتال الضاري تمكن من هزيمتهم ورفع الحصار مؤقتاً عن البركة. وبعد إستدعاء القوات للأبيض، لوجود قلاقل بجوارها, عاود الثوار حصار البركة من جديد.

وفي التاسع عشر من مايو هوجمت قرية أسحف, بالقرب من بارا وتم قتل من فيها ونهبها. وعندما أرسلت قوات من بارا لنجدتها تمت هزيمتها وتدميرها وقتل قائدها. وهذه المناسبة هي التي فقد فيها النور عنقرة،* الذي كان قد جاء لأسحف مع القوات القادمة من بارا لحماية منزله هناك, فقد فيها نحاسه الشهير ونجا بالكاد بحياته.

---

* كان النور عنقرة فيما سبق مديراً لكلكل وكبكابية وكان يحظى بتقدير غردون حيث أنه كان مشهوراً بالشجاعة والإقتدار. وعندما قام أحد الموظفين بكلكل باتهامه بمصادرة أمواله بدون وجه حق, ثم إستدعاؤه للتحقيق في الأبيض. وفي إنتظار

وفي أوائل يونيه تم إرسال حملة من بارا بقيادة البكباشي سرور أفندي بهجت، إلـى أولاد مزوج, بالقرب من بارا، حيث تجمع فيها عدد من الثوار بقيادة شيخ رحمة، وبعد قتال عنيف استمر لثلاثة ساعات تمت هزيمة العرب وتشتيتهم والإستيلاء على معسكرهم ومواشيهم وتحرير عدد كبير من الأسري لديهم.

وبالرغم من هذه الهزيمة عاود الثوار تجمعهم بأعداد كبيرة حول بارا. وفي صبيحة الثالث والعشرين من يونيه قاموا في عزم وتصميم بالهجوم على حاميتها والتي كانت مكونة مـن قـوات مختلطة بلغت ألفي رجل تحت قيادة على بك شريف، والذي كانت لديه ثمانية مدافع. تم صد الهجوم وفقد الثوار عدداً كبيراً من رجالهم حول سور المدينة ثم أثناء مطاردة فرسان الحامية بعد ذلك لهم.

وبعد أسبوعين من ذلك, تجمع الثوار مرة أخرى في شاطورة التي تبعد مسافة يومين من بارا حيث كانت بها قوة تحت قيادة الصاغ محمد أفندي حسن. وفي الحادي عشر من يوليه هوجمت تلك القوة بواسطة عدد كبير من العرب يقودهم الأمير النور. تم صد ذلك الهجوم. لكن العرب، بعد أن تجمعوا في أعداد أكبر من ذي قبل، اعترضوا طريق رجوع تلك القوة المصرية لبارا. تمكـن حسـن أفندي من إرسال مبعوث لطلب النجدة من الأبيض فقام قائد حامية المدينة بإرسال نظيم أفندي لإنقاذ قوات شاطورة. وعندما أقترب منهم هاجمه العرب لكنه تمكن من الالتفاف من حولهم وانقض علـى مؤخرتهم بجنوده وشتتهم واستطاعت قواته, التي التحقت بقوات شاطورة من العودة إليهـا. وبعـد مناوشتين بسيطتين في فرشاحة وأبو سنون استدعيت تلك القوات للأبيض.

تراجع شيخ رحمة، بعد هزيمته في بارا يوم ٢٣ يونيه, لجمع الرجال والتعزيـزات وفـي السابع عشر من يوليه توجه مرة أخرى وأطبق الحصار تماماً على بارا.

***

ويجب علينا ألا نتجاوز عن القصة المؤسفة للأب بونومي.* فقد استقر على رأس إرسالية كبيرة في جبل الدلنج وسط النوبة في جنوب كردفان. وقام, في منزل الأخـت سـيبريان, بزراعـة الأرض وأشتري بعض الأولاد الصغار وبدأ يعلمهم حقائق ديانة النصارى. وهكذا, ولو جوده الخطر بالقرب من المهدي بقدير, كان من أول الأوروبيين الذين عانوا الأمرين على يديه. فقد تم حصارهم من أبريل ١٨٨٢ حتى سيتمبر وظل جنودهم السود, على قلة عددهم, مخلصـين لهـم حتـى تلـك اللحظة. ولكن, وفي يونيه عندما تمكن المهدي من سحق يوسف باشا والاستيلاء على مستودعاته, تسلم رسالة من ألياس باشا* أحد أقارب الزبير, ومن بعض كبار أهالي الأبيض, فيهـا نـداء حـار ودعوة للحضور للأبيض واستلام زمام الأمور فيها. وبعد تردد قليل، وافق الخليفة عبد الله، والـذي

تسوية الموضوع توجه لبارا للإقامة بها. وقد قام هذا الرجل بلعب دور هام بعد ذلك في شئون السودان. ومن المثير أن نتابع ما قام به من أدوار بعد ذلك في صفحات هذا الكتاب.

* هرب الأب بونومي من الأبيض في ٥ يونية ١٨٨٥, ووصل, عن طريق بارا – كجمر والصفية, إلي القاهرة فـي يوليـة ١٨٨٥.

* ألياس باشا من قبيلة الجعليين وهي قبيلة تقطن في منطقة سنار (!! علامات من المعرب).

صار مسيطراً على الأمور، على القبول وذلك عندما يتمكن من التحرك واثقاً من النصر. أصبح سقوط البركة بعد ذلك حتمياً، وفي أغسطس زحف المهدي باتجاه الأبيض. وعند مروره جنوب البركة أرسل المك عمر للقبض على المبشرين البؤساء. كان مع المك عمر قوة صغيرة عندما تحرك نحوهم لكنه واجه مقاومة عنيدة. وفي سبتمبر تم تعزيز قواته وعندها إنضمت حامية الإرسالية للقوات المحاصرة لهم وأسر المبشرون والراهبات وأخذوا, بعد معاملة قاسية للمثول أمام المهدي, والذي كان قد وصل إلي مشارف الأبيض في ذلك الوقت.

وفي هذه الفترة قام الفكي المنا، من قبيلة الجمع البقارة بحشد أعداد من البديرية والبني جرار وأولاد أحمد والحوازمة, وقام بهجوم على نقطة الطيارة والتي كانت تعسكر بها كتيبتين من الباشبوزوق بقيادة اليوزباشي محمد أفندي شافعي. تم صد الهجوم لكن الطيارة ظلت تحت الحصار الشديد. وعندما أرسلت لها التعزيزات من الأبيض قام الأنصار باعتراضها وتدميرها. وسرعان ما سقطت المدينة واستسلمت حامياتها.

وفي هذه الفترة أيضاً تم إقتحام مدينة البركة الصغيرة ووضع السيف فوق رقاب جنودها الألفين بينما فر ألف ثالث منهم ووصلوا للأبيض. واستعد المهدي وقد تولى عدة وظائف هامة في السودان، إحداها مديراً لكردفان. لكنه إتهم بالتورط في ثورة سليمان الزبير فقام غردون لفصله. توجه للأبيض للإقامة بها، وعندما وصل المهدي لجبل قدير أرسل ألياس باشا أحد أبنائه الخمسة لتقديم الولاء له. وسرعان ما ألقى بثقله وراء الزعيم الجديد وتم تعيين كل أبنائه أمراء في المهدية. ولوقت طويل حظيت السرة بانعامات المهدي وخليفته من بعده. لكن الأخير، وعندما أحس بأنهم أصبحوا في غاية القوة، قام بمصادرة كل أملاكهم وخفض درجة الأبناء من رتبتهم السامية تلك، وحدد إقامة السرة بأم درمان حيث يعيشون الآن في فقر مدقع. وقد فقد ألياس باشا بصره أخيراً. الآن للزحف على الأبيض, كما أرسل في نفس الوقت قوة لحصار بارا. وعندما بلغت محمد باشا سعيد هذه الأنباء, أرسل طالباً التعزيزات (من الخرطوم) وتم إرسالها له تحت قيادة محمد باشا أمام. احتفظ مدير بارا, على بك شريف، بقسم من تلك التعزيزات وواصل الباقون طريقهم نحو الأبيض، حيث وصلوها بنهاية شهر أغسطس.

وفي الثالث من سبتمبر وصل المهدي مع قوة كبيرة إلى مسافة بضعة أميال من الأبيض, وحرر مكتوباً في الحال لمحمد باشا سعيد طالباً منه تسليم المدينة. وعند إستلام الباشا للخطاب قام باستدعاء مجلسه، الذي قرر عدم الرد على الخطاب، كما أمر بشنق المبعوثين الثلاثة الذين أوصلوا الخطاب. وفي تلك الليلة التحق كل سكان المدينة تقريباً بالثوار كما انضم إليهم أيضاً محمد باشا إمام وبعض رجال الحامية. أما بقية قوات الأبيض فقد نزلوا في خنادقهم ووراء حصونهم التي كانت، على غير العادة, في منتهي القوة. ثم تحصين رئاسة الحكومة والمخازن بأربعة حلقات من الخنادق وتم بناء ثمانية طوابي على الحوائط. كان لمحمد باشا سعيد قوات تصل لحوالي ٨٠٠٠ رجل من النظاميين والباشبوزوق, وقام زيادة على ذلك بتجنيد عدد كبير من غير النظاميين تحت قيادة أحمد بك دفع الله، وكان معظمهم قد فصلوا من الخدمة قبل وقت قريب لدوافع إقتصادية.

كان عدد أتباع المهدي جسيماً وأحتشدوا بألوف مؤلفة مع عوائلهم ونسائهم. وكان من بينهم ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ من الذين يستخدمون البنادق التي غنمت من راشد باشا ومن البركة. وكان كثيرون غيرهم مسلحين ببنادق ذات ماسورتين. أما الباقون فسلاحهم السيوف والرماح والدروع. قام المدافعون عن المدينة, بعد خروج السكان منها, بتدمير جزء منها، وفي الثامن من سبتمبر قام المهدي بهجـوم عارم عليها إستمر من السادسة صباحاً وحتى الحادية عشرة قبل الظهر، إنتهي بصد العرب عن المدينة بخسائر جسيمة, وتم الإستيلاء على ٦٣ راية من ضمنها راية المهدي المسماة براية عزرائيل ملـك الموت. ويقال أن أكثر من عشرة ألف من المهاجمين قد قتلوا بينما لم تفقد الحامية سوى ٣٠٠ مـن القتلى والجرحى* وقام ألياس باشا، الذي كان قد انضم للمهدي, بنصح المهدي للإنسحاب للجنـزارة، على بعد ميل من المدينة, وفيها عسكر المهدي في انتظار إرسال المزيد من السلاح والذخيرة إليه من قدير. ووصلت هذه المعدات بعد فترة قصيرة وتم ضرب حصار محكم على المدينة.

وعند ما علم عبد القادر باشا بحصار الأبيض وبارا, قام بإرسال طابور من فصيلين مـن القوات النظامية وسبعمائة وخمسين من الباشبوزوق, تحت قيادة على بك لطفـي لنجـدة حاميـات المدينتين. كان ذلك في الرابع والعشرين من سبتمبر, وبعد أن عانت تلك القوات المرسلة من العطش الشديد, فقد ردم العرب كل الآبار في طريقها، وصلوا إلى الكوة حيث هجم علـيهم العـرب بنهايـة سبتمبر وقتلوا أكثر من ١١٠٠ رجل منهم وإستولوا على عدد كبير من البنادق وكل الذخيرة. تمكنت باقي القوة من الفرار والوصول إلى بارا، حيث تمكنوا من دخول المدينة بعد أن شنت حاميتها غارة ناجحة, بواسطة ٦٠٠ رجل يقودهم النور عنقرة. ثم إنضمت قوة النجدة إلى الحامية حيث تمكنوا من شن غارة مفاجئة على الثوار يوم ٢٥ أكتوبر ألحقوا فيها بهم هزيمة قاسية.

تم تشديد الحصار ثانية على بارا وبعزم أكيد. وفي نوفمبر قام أحمد ود الملك, وهو مـن أعيان المدينة الذين إنضموا سراً للمهدي, بإشعال النيران في المدينة في الوقت الذي هاجمهـا فيـه الثوار. أحترق معظم أجزاء المدينة لكن الهجوم قد صد وفر ود الملك للثوار. كانت النيران قد دمرت معظم مخزونات الحبوب ولم تجد الحامية ما تأكله سوى الخيول والكلاب وغيرها, وحتى هذه لم تعد متوفرة أمامهم. كان النور عنقرة قد ظل موالياً (للحكومة) حتى هذه اللحظة لكنه تراجع أخيراً وكتب للمهدي بأنه على إستعداد للتسليم لأي أمير بارز, ولكن ليس للمنا الذي يخشى من انتقامـه منـه. واستجابة لذلك قام محمد أحمد بإرسال الأمير ود النجومي لبارا، حيث تمكن النور عنقرة، مصـحوباً بالسر سواري* محمد الخير، من الفرار من المدنية حيث تم استقباله من قبل النجومي.

وانقضى عام ١٨٨٢، وكل من مدينتي الأبيض وبارا في حالة رهيبة من المعاناة من نقص الطعام ومن وطأة حصار أعداد لا تحصى من العدو.

---

* بعد هذه الهزيمة أصدر المهدي تعليمات مشدده لقادته بعدم الهجوم على أي مدينة عند بداية الحصـار. وإنمـا علـيهم الإنتظار حتى تعمل المجاعة والأمراض على إنهاك: قوات الحامية.

* السر سواري لقب عسكري تركي وتعني قائد الفرسان أو ما يعادل رتبة القائمقام.

وفي سنار، كانت قوات الثوار تزداد يوماً بعد يوم وأبرق عبد القادر باشا للقاهرة طالبا إرسال قوات إضافية من عشرة ألف رجل، وبدون ذلك فقد ذكر لهم أن من المستحيل القضاء على الثورة. وأضاف أيضاً أنه إذا لم تصل هذه القوات في الحال فأن أربعة أضعافهم على الأقل سيحتاج إليهم لإعادة سلطة الحكومة في السودان.

وفي نوفمبر بدأ حفر أخدود طويل (يربط بين النيلين الأبيض والأزرق) جنوبي الخرطوم وإنشاء التحصينات الدفاعية. لكن هذه الإجراءات لم تتخذ إلا من قبل من لا علم لهم، إلا قليلاً، بأعمال الحفريات. كانت القناة والمتاريس قد أنجزتا بشكل جيد ولكن خطأ قاتلاً كان يكمن في عدم إقامة أجنحة دفاعية عليها.

وفي نفس الشهر، أحرز جيقلر باشا بعض النجاح في الدويم على فريق من الثوار بقيادة الأمير عبد الباسط، الذي تم أسره.

***

دارفـــور

سنتناول الآن الأحداث في دارفور وفي أقسامها الثلاثة: الفاشر ودارا، وشكا.

فمباشرة بعد هزيمة يوسف باشا الشلالي، في يونيه ١٨٨٢، أمر المهدي الأمير الشيخ مادبو، شيخ قبائل عرب الرزيقات، وهم قسم من البقارة يقيمون بين شكا وبحر الغزال، بإخضاع شكا. قام الأمير بحشد شيوخ المعاليا وقبائل أخري من الذين سلمهم نداءات المهدي وتقدم بهم نحو شكا. وفي العلالي هجم على قوة من مائتين من رجال الحامية، الذين خرجوا لجمع الذرة، ودمرهم تماماً في يوليه. ثم ضغط على شكا التي كانت حاميتها المكونة من ٦٠٠ جندي قد نجحت في الفرار ليلة وصول مادبو. تابع مادبو زحفه ودارت معركة بينه وبينهم في قوز المعاليا هزم فيها وواصلت الحامية فرارها باتجاه دارا. وفي الطريق إليها قابلهم سلاطين بك* في إنجيلية، حيث كان قد وصل إلى علمه، كمدير عموم دارفور، أنباء الأحداث الأخيرة. تحصل سلاطين على تعزيزات من الفاشر وحصن نفسه في ذلك المكان. قام مادبو بالهجوم على زريبة سلاطين لكن تم صده عنها مرتين وعرف سلاطين أن وضعه لا يحتمل، خاصة في قابل الأيام، وأن الثوار غالبا ما يزدادون قوة ودعماً فقرر الرجوع لدارا. وقد تم ذلك بصعوبة بالغة حيث كان العدو يطارده ويضربه بلا هوادة.

---

* كان سلاطين بك نمساوياً بالمولد وكان عام ١٨٨٢ في نحو الثانية أوالثالثة والثلاثين من عمره. وكان قد ذهب للسودان سائحاً في عام ١٨٧٦. ومكث فيه حوالي ثمانية عشر شهراً. بعد ذلك رجع إلي النمسا وتطوع للعمل في حملة الهرسك التي خدم فيها كملازم ثاني. ثم عاد للسودان عام ١٨٧٩ حيث عينه غردون مفتشاً عاماً لسنار وشرق السودان. وفي يولية من نفس العام نقله غردون إلي دارا كمدير لها، وفي عام ١٨٨٢ عينه رؤوف باشا مديراً لعموم دارفور.

وعندما وصل لدارا قام بالزحف مع كل القوة التي تحت سيطرته على مادبو والذي أخذ في اللجوء للمناورات والخدع. فقد قام مادبو بإخفاء نصف قواته في أحدى الغابات. وبالنصف الأخر أخذ يستدرج سلاطين حتى مر من وراء الغابة ثم هجم عليه من الأمام ومن الخلف. لكن سلاطين وبالرغم من مفاجأته بالهجوم، تمكن من الهرب وقتل منهم حوالي ألفين من رجالهم أما هو فجرح برصاصة أطارت أصبع السبابة من يده اليمنى. إنسحب مادبو بعد ذلك بينما عاد سلاطين إلى دارا وقام بتحصينها ووضعها في حالة دفاعية كاملة. ثم وصلته معلومات بأن المعالية والوضحة وقبائل أخرى في شمال غرب دارا قد أعلنت الثورة فقام بتوجيه سيد بك جمعة، مدير الفاشر، بإرسال قوة صغيرة إلى عرفة، في منتصف الطريق بين الفاشر ودارا، بينما قام هو بالتحرك نحو نفس المنطقة مع قسم من حامية دارا. استسلمت له معظم القبائل الثائرة فتوجه سلاطين نحو الفاشر، ثم عاد بعد ذلك مباشرة لدارا.

في تلك الفترة نشط مبعوثوا المهدي في إثارة القبائل حول أم شنقة. وكان البقارة الحمر قد قاموا بهجوم غير ناجح عليها ثم عادوا وألقوا الحصار عليها. ثم وصلت للقوات نجدة من الفاشر بقيادة السر سواري عمر أغا واخترقوا الحصار وأنضموا للحامية. وبعد ذلك بقليل قاموا بهجوم ناجح شتتوا فيه شمل العرب وطاردوهم حتي العصيفر على حدود كردفان.

وهذا ما كان عليه سلاطين حتى نهاية عام ١٨٨٢.

* * *

بحر الغزال

وسنتناول الآن الأحداث التي جرت خلال تلك الفترة في المناطق الجنوبية لبحر الغزال والإستوائية.

تشتمل مديرية بحر الغزال على القسم الأكبر من الحوض المائي الذي يتغذى من بحر الغزال. ومع روافده في بحر العرب والجور والرول والروا، فأنه يمتد في مساحات شاسعة مكوناً شبكة من النهيرات. وتربتها خصبة للغاية وبها أعداد ضخمة من الماشية، بينما يقدر عدد سكانها بين ثلاثة إلي أربعة ملايين نسمة.

وأهم القبائل التي تقطن تلك المناطق قبيلة الدينكا والبنقو والمورو والجولو والشير لكن الدينكا والبنقو هما أكثرهما عدداً وقوة. والبنقو عموماً يعملون بالزراعة ويشتغلون بصناعات الحديد ونحت الخشب. ورجالهم متوسطوا القامة، وحتى الوقت الحالي فلم تظهر عليهم سوى مظاهر بسيطة للتخلص من قبضة حكامهم. وعلى الشمال من أرض البنقو نجد الجور. وأكبر زرائب الجور هي زريبة جور غطاس. أما على الشمال منهم فنجد الدينكا، وهم أكثرهم عدداً وأطولهم قامة وربما كانوا من أقوي الأعراق الزنجية في جنوب السودان. ويعتبر الدينكا من كبار أصحاب المواشي.

وميناء بحر الغزال، إذا جاز أن نسميه ميناء، هو مشرع الرق. وإلى هذا المكـان كانـت البواخر النهرية تجئ بانتظام من الخرطوم.

كان أول مدير لبحر الغزال جسي باشا، الذي قام عام ١٨٧٨ بإخماد ثورة سليمان الزبير، أبن الزبير باشا، وطهر المنطقة، في سلسلة من الحملات الرائعة، من جماعات تجار الرقيق.

وقد حول جسي باشا معسكر ديم سليمان إلى عاصمة المديرية. وسرعان ما أصبحت أكبـر مدينة في النيل الأعلى. ثم خلف فرانك لبتن جسي باشا كمدير، عام ١٨٨١ وهو مواطن من الفورد في إسكس (بانجلترا) وكان قد إلتحق بالبحرية التجارية عام ١٨٧٨ ثم أصبح كبيراً لضباط باخرة بـالبحر الأحر تعمل بين سواكن وجدة. ولما كانت لدية رغبة حارة لزيارة أواسط إفريقيا، فقد عرض خدماتـه على الجنرال غردون والذي، عند وصوله للخرطوم، سلمه قيادة أسطول من المراكب للعمل على نجدة أمين بك وجسي باشا واللذان كانا قد حبستها السدود، تلك الأعشاب الغريبة، التي تتكاثر علـى النيـل لتكون سداً يقفل مجرى النهر من وقت لآخر. وإذا ما قمنا بمتابعة مجـري النيـل الأبـيض جنـوب الخرطوم، فسنجد، وحوالي خط العرض ١٠ درجة، مباشرة على الجنوب من فشودة، أن النهر يخرج مما يمكن أن نسميه مهداً لبركة قديمة. وفي هذا المستنقع الواسع تصب أعداد كبيرة مـن الوديـان والنهيرات المتعرجة والتي يتم غالباً قفلها بالنباتات الطافية. وخلال تلك الحواجز الكثيفة من الأعشاب والنباتات، يقوم المسافرون بالمراكب، من وقت لآخر، بشق طريقهم مستخدمين السيوف والفئـوس. وعندما كان جسي الهمام عائداً، بعد انتصاراته على جيوش تجار الرقيق، فقد حصر هنا لفترة طويلة كلفته حياته. وأيضاً تسببت تلك السدود بتعطيل بعثة السير صمويل بيكر (١٨٧٠ - ١٨٧٤) لعام كامل. كان لتبن، قبل أن يخلف جسي باشا كمدير، يعمل نائباً لأمين باشا في المديرية الإستوائية.

ويمكن أن توصف مديرية بحر الغزال بأنها أكبر بخمسة أضعاف من إنجلترا. وهـي إقلـيم مغطي بالغابات والجبال وتشقه وديان غير عميقة تتعرض للفيضانات من وقت لآخر. كان مديرها ساتي بك وكان كلاهما (هو ولبتن) موجوداً أثناء الثورة في ديم سليمان، والتي هي عاصمة المديرية.

تم تقسيم هذه المديرية الشاسعة إلي ثمانية أقسام،كل قسم منها تحت حكم ناظر (أو كبيـر مراقبين). وهذه الأقسام هي:

نمرة	القسم	الناظر
١	ليفي	حسن أغا
٢	بيكو	محمد اغا كتمبور
٣	الدمبو	طه اغا
٤	كواكي	محمد اغا ودعالم
٥	البصيلية	على أغا إدريس

٦	سابي	عبد الله ود عبد الصمد
٧	جور كرشكالي	عثمان أغا بدوي
٨	جور غطاس	حسن أغا ود مساعد

ومعظم هؤلاء النظار كانوا من الدناقلة ما عدا الأخير، الذي كان جعلياً. وبكل قسم من تلك الأقسام كانت توجد حامية من ٢٠٠ - ٣٠٠ رجل.

ولوقت طويل كان أهالي تلك الأقسام يعانون من ظلم وقسوة حكـامهم الدناقلـة. وعنـدما وصلت أول أنباء عن ظهور الثورة لبحر الغزال، فسرعان ما تحولت شرارة العصيان إلى لهب ضاري وقام عدد من كبار الشيوخ بإرسال رسائل الولاء للمهدي وبدون أي تردد. ولـبعض الوقـت نشـط المبعوثون في المنطقة، وعندما أبلغوا بأن البلاد ناضجة للثورة إذدادت أعدادهم كثيراً وسرعان مـا نالت التعاليم الجديدة قبولاً عظيماً عند الجماهير. وكانت أول الأحداث في نشبت في محطة تل قاونا، في قسم ليفي، عندما قام شيخ جانقو، الذي عاد لتوه من المهدي بعد مبايعته، بالهجوم على بعـض الباشبوزوق وقتلهم واستولى على ممتلكاتهم وفي نفس الوقت دان له بقية الأهالي. حدث هذا في ١٨ أغسطس ١٨٨٢، عندما كان حسن أغا غائباً في العاصمة. وعندما بلغ النبأ لبتن بك، تقدم بقوة من حوالي ٦٠٠ رجل إلى ليفي، ومن ثم أرسل حسن أغا إلي تل قاونا لكن شيخ جانقو كان قد فر قبلها ولجأ إلى الأمير مادبو والذي، كما نذكر، كان يحاصر شكا في ذلك الوقت. كانت مطاردته مسـتحيلة فقد كانت الأرض ممطرة موحلة. لذلك عادت القوة إلى ليفي مثلما عاد لبتن إلى رئاسته بعد إصـدار تعليماته لمطاردة شيخ جانقو فور تحسن حالة الطرق وسماحها للمرور. وهنا علم بأن فريقاً من ٧٥ من رجاله البازنقر* الذين كانوا يرحلون العاج لمشرع الرق قد هوجموا من قبل قبيلة الجانقي، وهم قسم من الدينكا الذين إعتنقوا المهدية، وقتلوهم جميعاً.

وكان المدير، ساتي بك، قد تحرك قبل ذلك من جور غطاس ومعه قوة من الجند إلى التوج، حيث هاجم بعضاً من أهاليها وقتل عدداً منهم وإستولى على ٦٠٠ رأس من الماشية.

ثم تقدم لبتن نحو المشرع ومنها إلى التوج حيث هزم الجانقي مرة أخرى وعاد بكمية من الأسلاب إلى جور غطاس.

وفي هذه الأثناء رجع شيخ جانقو إلى تل جانقو ومعه إمدادات من مادبو، بنيـة مهاجمـة ليفي. لكنه لما علم بالإستعدادات الكبيـرة لمقابلة أي محاولة كهذه فقد تفرقت قواته. وقـام لبـتن بإرسال قوة من ٢٠٠٠ رجل، بقيادة الصاغ محمد عبد الله المحلاوي للتوجه إلى تل جاونا. وعندما وصلـوا إليها وجدوها مهجورة تماماً، لكنهم على أي حال واصلوا مطاردتهم لشيخ جانقو وهزموه وقتلـوا حوالي ٦٠٠ من رجاله واستولوا علي معسكره.

وهكذا كان مجرى الأحداث في بحر الغزال حتى نهاية عام ١٨٨٢.

* * *

---

* البازنجر في الأصل أسم لقبيلة كان الزبير يجلب منها جنوده المطاردين للرقيق. وكل حملة البنادق السود في جانب الثوار الأن يعرفون بالبازنقر.

الإستوائية

على جنوب وجنوب شرق بحر الغزال تقع مديرية الإستوانية أو كما يطلق عليها بالعربية "خط الاستواء".

تمتد الحدود الأصلية لهذه الولاية من (بحيرة) ألبرت نيانزا وحتى اللادو شمالاً وتقع على الشمال منها مديريات بور والرول والتي كانت أحياناً تعتبر من أجزاء مديرية بحر الغزال، ولكن تم ضمها للاستوائية عام ١٨٨١.

وتشتمل أقسام هذه المديرية, جنوب اللادو، على المورو والمكاركا واللاتوكا والباريا والمادي والشولي واللوري, وعلي القسم الشمالي من مملكة. كاباريقا، أنيورو.

وتوصف هذه المديرية من قبل الرحالة بأنها رائعة المناظر, خصبة, كثيرة السكان وذات جو صحي، وبأنها إقليم واعد له مستقبل طيب. ويشق النيل مديرية الاستوائية من جنوبها لشمالها وفي الطريق تصب عليه نهيرات (أسوا) على اليمين وياي على اليسار منها ومن البحيرة، بعيداً حتى دوفوللي فإن عمق المجرى يتراوح بين ١٥-٢٠ قدماً وتتيسر الملاحة فيه طوال السنة. أما بين دوفوللي واللادو فهناك عدد من الشلالات مثل شلال الفولة ويربورا وقوجي وماكيو وتريمو غرب وجنقلي غرب والتي يستحيل عبورها عند انخفاض النيل. وهناك بعيداً على الغرب نجد الجبال الزرقاء والتي تشكل الحدود بين النيل وحوض الكنغو والتي ينبع من منحدراتها الغربية نهر الوللي.

وأهم القبائل هناك المكاركا والمادي غرب النيل والباريا واللاتوكا على شرق النيل. والمكاركا هم فرع من قبيلة النيام – نيام القوية، والمشهورة بأكل لحوم البشر في السودان. وهم مزارعون جيدون ويشتهرون بالشجاعة والإقدام ويتم تفضيلهم كجنود على رجال أي قبيلة أخرى تقريباً. أما الأمادي, فأن لهم كثيراً من خصال وسمات المكاركا. وهم يزرعون التباكو والسمسم والذرة. والباريا, مثلهم مثل الدينكا في بحر الغزال, رعاة للمواشي لكنهم يشتهرون مثلهم بالشجاعة والشراسة في القتال ربما أكثر من أي قبيلة أخرى. ولقد قام الدناقلة البغيضون بجلب أعداد كبيرة من الأرقاء منهم, لكنهم كانوا, من دون بقية الأرقاء الاخرين, على إستعداد دائم للانقلاب على قاهريهم.

ونجد اللاتوكا هناك بعيداً إلى الشرق ويعتقد أنهم ينتمون لأصل الجالا. فهم طوال القامة على غير المعتاد ولهم مزاج مريح بهيج ومثلهم مثل الدينكا والباريا يعتبرون من كبار مربي الماشية.

ولادو هي عاصمة الإستوائية. وهي مدنية حسنة البنيان. أما على ضفة النيل اليسري, إلى الجنوب منها، فنجد مدناً أصغر منها مثل الرجاف وبدين وكيري. وأكبر مدينة للأمادي هي دوفيللي أما جنوب منحدرات النهر وشلالاته الصغيرة فقد أقيمت بعض القلاع في لابوريه رموجي. والمدينة الرئيسية لإقليم اللوري هي وادلاي أما إلى الداخل فنجد فادييك وفالورو وفاتيكو.

وكانت قد أقيمت محطة للجنود في فويرة بأنيورو لكنها هجرت بينما تم الإحتفاظ بمحطة ماقونقو. وهذه المحطة تطل على شلالات ميرشسون حيث تنحدر مياه نيل فكتوريا إلى بحيرة ألبرت.

وعلي الشاطي الغربي للبحيرة توجد محطة مهاجي. أما بعيداً إلى الداخل وإلى الشـمال قليلاً فنجـد المحطات الخارجية للواندي ومكاركا صغير.

ويعزي وجود كل هذه النقاط والمحطات إما إلى السير صمويل بيكر أو إلى الجنرال غردون. وعند مغادرة الأخير للسودان عام ١٨٧٩ سلم زمام مديرية الإستوائية إلى أمين بك. وكانـت قـوات المديرية في ذلك الوقت قد وصلت إلى كتيبتين من الجنود النظاميين. عددهم حـوالي ١٣٠٠ رجـل. وحوالي ٣٠٠٠ من غير النظاميين الموزعين على ما بين أربعين إلي خمسين من النقاط.

ولد إدوارد شنتزر، الذي يعرف بأسم أمين بك، في أوبلن في سليزيا البروسية، وذلـك فـي الثامن والعشرين من مارس ١٨٤٠ ودرس في فيينا وباريس حيث نال درجة الدكتوراه، ثـم إلتحـق بخدمة العثمانيين في سكوتاري وبعد بضع سنوات، عندما أصبح غردون حكمداراً على السودان، ذهب معه كطبيب مرافق. ثم أرسل في مهمة لمقابلة كاباريقا، حاكم أنيورو. وموتيسا، ملك الأوغندة. وإضافة لمواهبه فقد كان من علماء النبات المميزين.

وفي مارس ١٨٨٢ توجه أمين بك إلي الخرطوم لمقابلة رؤوف باشا، الحكمدار وقتها. وفي ١٥ يونيه عاد راجعاً إلى مديريته حيث سمع لأول مرة، وعند وصوله لفشودة، بهزيمة يوسف باشـا الشلالي الماحقة أمام قوات المهدية في قدير.

تفشت هنا أيضاً مظاهر الحكم المخزي الكريه، وإنتشار الرشوة والظلم، والتي كانـت الأسـباب الرئيسية للثورة ضد السلطة المصرية، مثلها مثل بقية أنحاء السودان، ووجدت تربة خصبة مهيأة لها هنا.

ولعل وصف أمين باشا للأحداث في رمبيك هو خير ما ينطبق على ما كان يحدث في المنطقة غداة وصوله لها. قد كتب قائلاً:

"لم تقم الإدارة هنا، ومنذ عام ١٨٧٧ بالإحتفاظ بأي حسـابات أو إرسـالها للسـلطات. ورغم أن الحاكمين (الذين عملوا هنا) يتسلمون الأموال اللازمة لدفع المرتبات إلا أن أحداً لـم يتلق أي قرش لعدة سنوات. وربما كان الحاكمون يشترون بضائعاً وسـلعاً بـأموال الحكومـة ويبيعونها بثلاثة أضعاف قيمتها. ويظهر العبيد في ما وجد من دفاتر الحسابات على أنهم إمـا أبقار أو حمير أو غيرهم. وتكتمل الصورة عند ما نعلم مـدي تزويـرهم للأختـام وفبـركتهم للإيصالات، التي كانت تجري هنا. ومع هذا كله فقد ملأوا المنطقة بمحلات الصلاة (وبالفقراء)"

ثم لخص أمين بك جملة الوضع عند نهاية عام ١٨٨٢ كالآتي:

"وأثناء غيابي جرت بعض المشاكل في إقليمي. فقد كنت بعيداً وكانت المواشي مغرية. لذا فقد قام الناس ببعض غارات للنهب. ولكن من المدهش أن نعلم أن من قاموا بذلك دفعوا الثمن غالياً مـن أرواحهم. إذا أن الزنوج قد تعلموا أخيراً إلا يستكينوا لسوء المعاملة بدون ثمن. وأتمنـي أن يتـذكر رجالي هذا الدرس في المستقبل. أما بقية الأحداث فلاشئ جديد فيها وكل شئ هادئ. أما الأنباء التـي تلقيتها من الجنوب من بحيرة ألبرت، ومن الشرق، من لاتوكا وفاديك، ومن الغرب والجنوب الغربي من مكراكا ومونبوتو، فكلها تتحدث عن الهدوء العظيم. لقد أرسل لي كباريقا، ملك أنيورو، مرة أخرى

يدعوني لزيارته. ولكن لسوء الحظ فلن أتمكن في الوقت الراهن من الاستجابة لطلبه حيث أن شـئوناً أخرى في منتهى الأهمية تتطلب إهتمامي بها وبالتالي فلا وقت لدي للقيام بمثل تلك الزيارة".

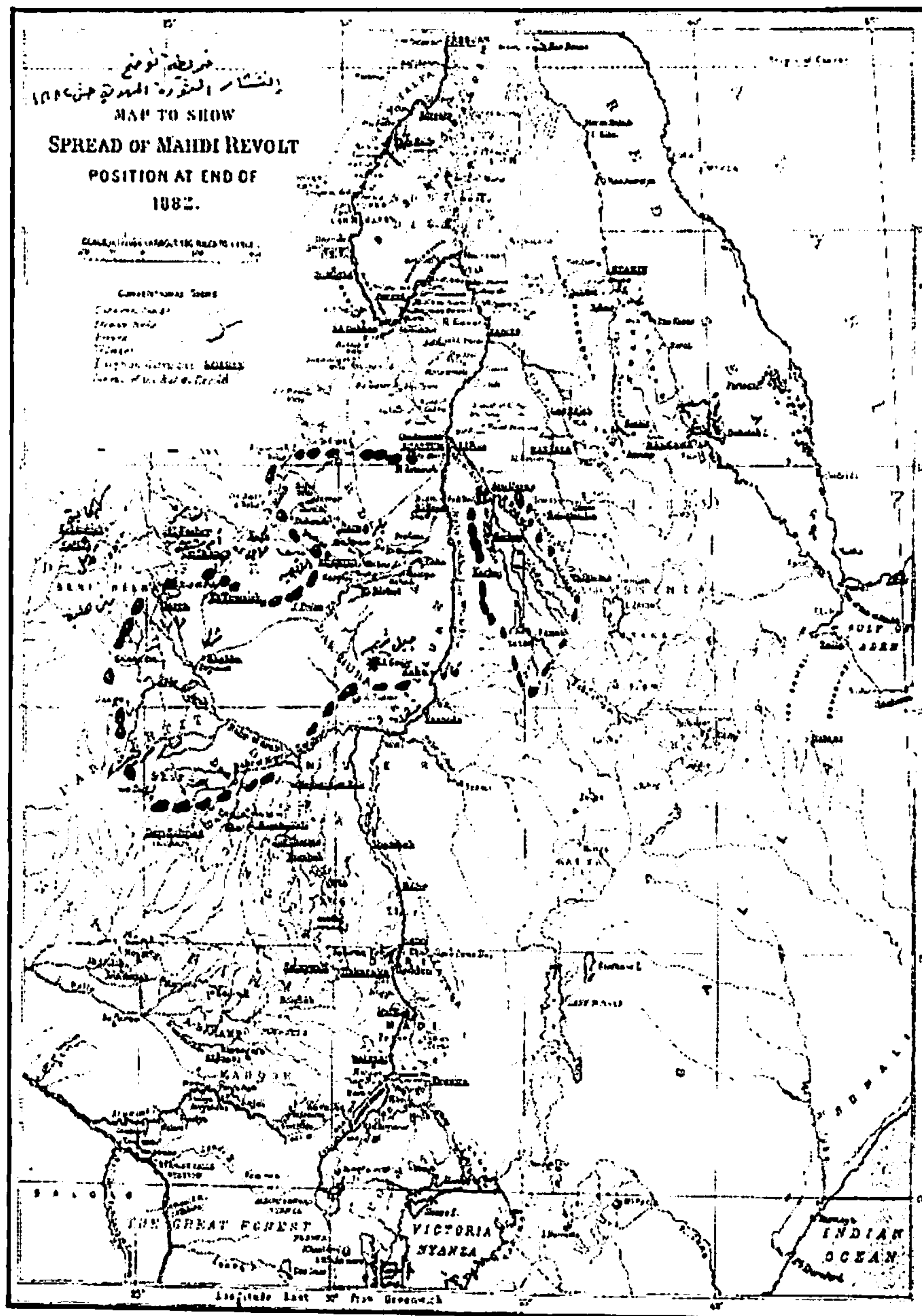
والآن، باستثناء المديرية الإستوائية, فأن كل المنطقة جنوبي الخرطوم تقريبا قـد أعلنـت الثورة. وعلينا أن نتذكر أن كل تلك الإشتباكات قد حدثت بين رجال اعتادوا على الوقوف في صـفوف وإطلاق النيران من بنادقهم التي تحشي بالرصاص من الخلف، وبين رجال متوحشين غير مسلحين في معظمهم إلا بالسيوف والرماح.

***

وحتى الوقت الراهن (١٨٨٢) فأن القبيلة الوحيدة الهامة التي وقفت بجانب الحكومة هـي الشكرية والذين اضطروا, نظراً للموقع الذي يقطنون فيه, إلى المداراة ومسايرة التيار في الوقت الحالي لأن دارهم تقع بالضبط إلى الشمال الشرقي والجنوب الشرقي للخرطوم, وهذه المدينة تقع بينهم وبين المخلص المنتظر.

وما يحدث حني الآن هو التردد والتذبذب من جانب, والإستعداد الصبور لما هو قادم حتماً من الجانب الأخر. وما علي محمد أحمد إلا أن ينتظر حتى تنضج الثمرة ثم تسقط في فمه.

***



خريطة توضح انتشار الثورة
المهدية حتى نهاية ١٨٨٢م

القسم الثالث
رسائل المهدي

الملخص:

"الإستيلاء على دفتر رسائل المهدي في توشكي – ملاحظات توضيحية – هيكل الخلافة – نبذة مختصرة عن المهديين السابقين – الخطابات والنداءات – توبيخ من لا يؤمنون بالمهدية – منشور يحث على التواضع في الملبس وغيره – ما يقال من الدعاء عند الزحف علي العدو – منشور عما يراعي عند الركوب – رؤية قام فيها النبي والأولياء بتنصيب محمد أحمد مهدياً – تعليمات حول كتابة الرسائل وتجويد الخط العربي – أطروحة حول الفضيلة والجهاد (الحرب المقدسة) – إعلام من المهدي علق علي باب المسجد الجامع عند بداية شهر رمضان – خطاب قصير – إنذار للمتشككين – خطاب إلى شيخ الإسلام يوضح فيه المهدي أدلة رسالته الدينية – رؤية سلم فيها النبي تاج النصر الدائم الخضرة ووعد فيها من يموت في الجهاد بالسعادة الأبدية – إلغاء كلمة (درويش) وإستبدالها بكلمة (الأنصار) لتطلق على أتباعه".

كنا نحصل من وقت لأخر، خلال الثمان سنوات السابقة, على ملامح للنظام الديني ونظام الحكم لمحمد أحمد وخليفته وذلك من خلال الرسائل التي وجدت طريقها لخارج السودان. ولكن, وفي معركة توشكي عام ١٨٨٩, وجد وسط أكداس من الرسائل التي كانت قد غنمت من معسكر قائد الجيش, ود ألنجومي, دفتر لمخطوطات تشتمل على خطابات وقرارات للمهدي وخليفته عبد الله كان يحتفظ بها ذلك القائد العربي. ومن بين الكم الهائل للخطابات والمنشورات تم تلخيص البعض منها وخاصة التي توضح نشأة المهدية وماهيتها. أما للفهم الكامل لهم فلابد من إدراج بعض التفسيرات والشروح.

فقد كان بالمدينة, عند وفاة النبي محمد, طائفتين مميزتين. الأولى تسمى (بالمهاجرين), وهم الذين فروا من مكة أو هاجروا منها, والثانية هي الطائفة التي رحبت بهم وبالنبي المهاجر وتسمى (بالأنصار).

كان الإبن الوحيد للنبي، وهو قاسم* قد توفي أثناء طفولته. أما علي، المتزوج من فاطمة بنت النبي، فلم يقدم نفسه بنجاح لخلافة النبي بعد وفاته, رغم تأييد فرقة كبيرة (من المسلمين) له وحثه على ذلك. وبالتالي تولى أبو بكر خلافة النبي محمد.

* غني عن الذكر أن قاسم لم يكن الإبن الوحيد للنبي صلى الله عليه وسلم (المعرب).

كان الرجال الأربعة العظماء, الذين نقشت أسماؤهم على رايات المهدي, والذين حددت (الحضرات) كراسيهم لأربعة من قادة المهدي, هم الراشدون: أبو بكر، وهو الخليفة الأول – عمر وهو الخليفة الثاني – عثمان الخليفة الثالث وعلي (الذي يعتبره الشيعة الخليفة الأول الشرعي) وهو الخليفة الرابع. وعندما تم إنتخاب علي أخيراً، فقد تم ذلك على يد المصريين المتورطين في مقتل عثمان.

أختار أبو بكر لقب (الخليفة) وهو (خليفة رسول الله). وهذا اللقب استغله كثير من المغامرين فيما بعد باستخدامهم للقب إما كمهدي أو على أساس أنه من نسل الرسول وهو الأمر الذي يحظى بأهمية كبيرة لدي العرب. لكن شمال إفريقيا هي الوحيدة التي إحتفظت بالمعني الأصلي للكلمة والتي تعني كبير الخدم.

كان عبد القادر الجيلاني عالماً ومؤسساً لإحدى الفرق. وكان قد جاء من ولاية جيلان في فارس وتوفي في بغداد عام ١١٦٦٠ وهناك مقطع من أوراد وأدعية الجيلاني، يسأل الله فيه أن يبعثه يوم القيامة أعمى حتى لا يشعر بالخجل أمام المؤمنين. واحدي أدعيته كانت كما يلي:

في كل صباح جديد يولد،

فأنني أسجد وأعفر وجهي بالأرض،

وأسأل رب السماوات أن يجلي لي بصيرتي.

ولأنني دائم الذكر لله،

فأسأله أن يشملني بذكر منه".

أما الخضر, فأن غموض شخصيته قد أفاد الذين وظفوا ذلك عندما يريدون الحصول على ولاء أعمى من أتباعهم. وقد يوصف الخضر عموماً بأنه القائد, أو المرافق الدائم لذي القرنين, والذي لقب الإسكندر الأكبر نفسه به, أو قد يوصف بأنه مسلم معاصر لإبراهيم, أو بأنه النبي ألياس. والإسم نفسه يعني الخضرة، أو الذي يعيش أبد الدهر. أما بين السودانيين فأنه يمثل نبياً ذا قوة غير محددة أو نبياً للرعب كان المهدي على صلة وثيقة به بالضرورة (وخاصة في الحضرات) حتى لا يفتح مجالاً للنقد حول أوصاف كرسي الرسول.

وقد وضع الطحاوي كتاباً للحديث أسماه بالآثار. فقد وجد أن القرآن كان رفيع المستوى، ويتناول كثيراً من العموميات التي تحتاج إلى إيضاح وتفسير مما دعى المؤمنون لطلب المشورة والنصح في كثير من شئون حياتهم اليومية والإجتماعية. وهذا ما توفر في الأحاديث التي أوضحت ما قاله النبي أو فعله في مختلف المجالات والتي تشبه ما جاء به (بوسول) في كتابه.(جونسون).

وقد حمل كثيرون من العلماء لقب محي الدين (الذي جاء من الإحياء, عندما عملوا على تبسيط فهم الدين للعامة).

كان الحسين وأخوه الحسن أبناء لعلي وقتلا بواسطة يزيد* في ظروف تثير ذكراها السنوية حتى اليوم أحر عواطف الشيعة. ويطلق على الحسين لقب الشهيد (من أجل الدين) كما أنه يلقب أيضاً

---

* المعروف أن الحسين هو الذي قتل بواسطة قوات يزيد. أما الحسن فقد مات على فراشه قبل الحسين وفي عهد معاوية. وربما مات مسموماً (المعرب)

بالسيد وخاصة لدى الآلاف من العائشين على الصدقات المتدينين في فارس, والذين يشكلون أهم بؤرة للتعصب في ذلك البلد, والذين يدعون أنهم من سلالته.

وكما أعلن المهدي الذي ظهر في (الهاجرة) عام ١١٢٦ وأسس عصر (محي الدين)، الذي تولي الحكم في إفريقيا لمائة وأربعة وأربعين عاماً فقد حذا محمد أحمد حذوه.

وفي عهد الخليفة عمر الثاني (الخليفة الأموي الثامن) إزداد العباسيون قوة على أساس أنهم منحدرون من السلالة الحقة للنبي. وعلى هذا الأساس بدأوا عام ٧١٨ عهد دولة خرج منها ٣٧ خليفة اشتهروا بغزارة نسلهم.

كانت الآلية التي بدأ بها الحكم في الإسلام بسيطة وسهلة التركيب. وكان نكران الذات هو الشعار الذي طولب به الجميع وكان الزعيم (النبي) ملتزماً وبحرص شديد على توصيل الأوامر والتعاليم المنزلة من الله. وفي المقام الثاني كان الشعار بأن الدنيا باطلة, وأن جمع المال والثروات عمل تافه جدير بالإزدراء.

وعمل محمد أحمد مثل النبي، وأحاط نفسه بأربعة من أقدر رجاله وأكفئهم وهم (الراشدون). وخصص كرسي أبي بكر لعبد الله التعايشي، أشهر زعماء البقارة والذي يعتبر من الرجال الشجعان، والذي يفوق الثعلب في ذكائه.

وفي مقعد عمر أجلس ود الحلو. أما مقعد عثمان فقد عرضه على السنوسي المهدي. وبعد أن رفض ذلك الزعيم الكرسي قام بتعيين آدم ود العويسر في مكانه.

أما كرس علي فقد منح لمحمد شريف والذي كان رجلاً شاباً مثيراً للإهتمام، والذي تزوج ابنة المهدي, لكونه جزءاً من النظام الجديد. وبهذا الترتيب تم تدبير أمر خلافته بواسطة أربعة رجال, قاموا بأدوار طليعية أثناء حياته, وحددت أسبقية كل منهم في الخلافة في حضرة دينية.

شكل المبدأ القائل بأن الفقراء والمساكين هم الذين يقبلهم الله، زريعة للقضاء على كل الأغنياء لعدم ميلهم للقضية. لذلك كانت المذابح التي سلطت عليهم شاملة وعديمة الرحمة. ولم يبدأ العمل في إقامة حكومة مدنية إلا بعد سقوط الخرطوم وكسلا. ومنذ ذلك التاريخ لم يجرؤ إثنان على الظهور معاً. وساد البلاد نظام مرعب مثل محاكم التفتيش وكان من يشك في عدم حماسه للقضية أو في إستقلالية تفكيره يشهد ضده عبيده أو حتى صغار الصبيان. وإذا ما إحتج بعدم قبول شهادة ذلك العبد فأن احتجاجه يؤخذ على أنه إستنكار لأمر الله بجعل كل الناس سواسية, وبالتالي يستحق عقوبة الموت.

وعلي نفس الشاكلة، فقد كان لمبدأ " إحتقار متاع الدنيا" ما يبرر أجبار كل الناس على إيداع ثرواتهم في بيت المال, والذي كان على رأسه أحد خلصاء المهدويين الذي يتولى مهمة توزيع تلك الأموال والممتلكات حسبما يرى محمد أحمد من وقت لآخر.

إذن فقد أقيمت الخلافة على قاعدة تدمير كل المعارضين وتجميع الثروة في نفس الوقت. وكان نجاحها يعتمد أساساً على سذاجة الجماهير, وهي في الشرق ظاهرة متفشية. وكانت العملية من السهولة لدرجة أنها تتكرر مرة بعد أخري حتى أنه, في عام ٩٣٧, كان هناك من الخلفاء بقدر ما

كانت هناك دول. ففي ذلك الوقت كان العباسيون يحكمون في بغداد والبويهيون في البصرة وفي فارس والحمدانيون في بلاد ما بين النهرين والإخشيد في مصر وسوريا والفاطميون من سلالة المهدي في إفريقيا والأمويون في إسبانيا والسمانيد في خراسان وأخيراً الدلماطيون في جورجيا.

والمتأمل في تلك الممارسات التي يقومون بها ونقاط الضعف فيها يري الأسباب الوجيهة التي يبرر بها المهدي إعلان ظهوره. وأن المزايا والمؤهلات اللازمة لإطلاق العاصفة الثورية لا تتوافق مع القدرة على السيطرة عليها. فالمسكنة والتقشف (في المأكل والملبس تقريباً. ولكن. وفي الشرق بالذات. ليس مع النساء) والخلوة وعزلة المتصوفة. كلها تجبر المهدي لإيكال معظم الشئون لكبير خلفائه.

ومن اللحظة التي تتأسس فيها بنية النظام الديني الجديد. فأن الولي تنتهي مهمته ولا يحتاج إليه بعدها. حتى مجرد وجوده يعتبر خطراً. فقد ينكشف القناع عنه في أي لحظة. وفور وفاة الولي وتمجيده ودفنه في قبره وتنظيم الحج إليه، فأن الخرافة التي قام على أساسها النظام الجديد تظل في أرض ثابتة ومن ثم تنطلق يد الخليفة النشط ليفعل ما يشاء. ودور الخليفة هنا في غاية البساطة. إذ لا يحتاج للتظاهر بحدوث إلهامات مقدسة أو حضرات له. وما هو إلا. ببساطة، رجل تم تعيينه بواسطة الولي الملهم كخليفة له بعد أن وصل الأمر إلى بر السلامة. لذلك يشتد إستعجال الخليفة للصعود إلي السلطة وتولي زمام الأمور.

وتاريخ الأحداث في الشرق عادة ما تكون أقل دقة عن الأحداث في أوروبا. وتاريخ الخلافة السابقة لا يحمل ما يدل على تمام صحته. لكن الخلافة الأخيرة قد قامت تحت رقابة أوروبية. وقد تم دراسة أساليبها ودعايتها بعناية. والتي قد تتلخص في عبارة "إما مالك أو حياتك".

ولم يكن المهدي أو خليفته التعايشي يدركان أي معني لكلمة "حكومة". بل حتى كلمة "التجارة" لم تكن تعني بالنسبة لهما سوي وجود ثروة يمكن الإستيلاء عليها عندما كشف صاحبها الغبي عن المخبأ الذي وضعها فيه أو حاول نقلها لمكان آخربخلاف بيت المال.

وفيما يلي. وبعد ذلك التوضيح المطول. فأن الخطابات والرؤى والخطب. التي سنوردها، ستتيح فهماً أفضل وأصدق للمهدية.

"بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الوالي الكريم

والصلاة علي سيدنا ونبينا محمد مع التسليم"

والأتي كنية الإمام (المهدي) بعد الديباجة:*

* لأن الترجمة تفسد البلاغة في خطابات المهدي. نحيل القارئ للنص الوارد عن هذا الخطاب في كتاب الدكتور أبو سليم (الآثار الكاملة)، النص ١٦٠ صفحة ٤٣٤ من الجزء الأول بعنوان "يا علماء السوء". أما بقية النصوص ففي الأجزاء الأربعة الأولي "المعرب.

"إلى العلماء الذين عارضوا المهدية وتحدثوا ضدها، والذين لن أذكر أسماءهم هنا. يا علماء السوء: تتظاهرون بالصلاة وبأداء الصدقات ودراسة الدين. ولكن من الذي لا يقوم بذلك؟ فيا لفساد ما تتخيلونه! إنكم تتظاهرون بالتوبة وبالرجوع إلي الحق لكنكم حقيقة لا تتبعـون إلا أهواءكم ومتاع دنياكم. لماذا تتطهرون وتغتسلون بينما قلوبكم مليئة بالخطايا والخبائث؟.

إنني أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل الذي يغربل به الدقيق ويبقي الردة والنخالة به. تنطـق كلماتكم بالحكمة لكن قلوبكم هي قلوب الخبثاء. لا أمل يرجى مـن أحـد تكـون رغباتـه وطموحاته مركزة على حاجيات هذه الحياة الدنيا. إنني أقول لكم بأنكم عنـدما تنشـغلون بمتاع الدنيا فأنكم تدمرون أملكم في الآخرة. أنكم حقاً أكثر الناس خبثاً.

فهل تدركون الأذى الذي تلحقونه بأنفسكم من جراء خبث أساليبكم للحياة. ربما ترغبون في تغيير ذلك لكنكم عمي. فمهلاً مهلاً. فماذا يجدي وضع مصباح على سقف بيـوتكم بينمـا داخلها يسود الظلام والغموض. وماذا يجدي حديثكم بالحكمة والمعرفة إذا كانـت قلـوبكم مليئة بالخبث والشر؟ فما أنتم إلا عبيداً للدنيا وسينقلب العالم عليكم وسيلقي بكـم أرضـاً. وستحملون خطاياكم وستجركم من شعر رأسكم حفاة عراة إلي حضرة القاضـي الأعظـم والذي سيعاقبكم عقاباً أبدياً على أعمالكم الشريرة".

والآتي هو منشور يحث على التواضع في الملبس...الخ

"بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الوالي الكريم*والصلاة على سيدنا محمد وعلي آله مع التسليم.

من عبد الله الإمام المهدي إبن السيد عبد الله إلي كل الإخوان الذين هجروا ديارهم لإتبـاع دين الله. فليكن معلوماً لديكم جميعاً بأن أتباع خليفة الله** ورسوله، والذين أتبعوه في أيام العسرة, والذين وهبوا أرواحهم في سبيل إحياء دين الله وإقامة شرع رسوله, والذين بتواضـعهم وفقـرهم سلموا أنفسهم لله وتعهدوا إما بإقامة دين الله أو الموت دون ذلك، هؤلاء هم الذين يقـبلهم الله مـن الأصحاب ويغفر لهم خطاياهم ويمدهم بالقوة لإتباع نهجه ولرفع الصوت بحمده.

لقد صب الله علي خليفته روح الطمأنينة حتى لا (يخشون) قوة الكفرة أو عددهم.

واللباس الذي يرتدونه هو علامة أعطاها الله والرسول والخلفاء لهم. وفي إرتدائهم لهـذا اللبس ينالون أربعة فضائل: الأولى، أنها تجعل الذين يرتدونه أنقياء ومتواضعين, الثانية, أنها تجعل الأعداء يخشونهم, الثالثة, أنها تجعلهم مكرمين من أصحاب الحضرة (الله ورسوله وبعض الملائكـة المقربين). وأنها تدرأ عنهم الشبهات.

* للاختصار فيما بعد فسيتم تجاوز الديباجة في خطابات المهدي ومنشوراته (المؤلف).

** خليفة الله) لم ترد في أي من منشورات المهدية. ولعلها كما أشار هولت من فبركة المترجمين الشوام (المعرب).

هؤلاء الأصحاب هم الذين قاتلوا في سبيل دين الله أعداءه, الذين أساؤا المسلمين وقهروهم وظلموهم في شتى أنحاء العالم, لذا نصرهم الله في كل ما قاموا به. أما المهدي، فقد وقف كمهدي وحيداً معهم حتى قمتم، عند سماعكم بأنباء إنتصاراتنا، بالحضور إلينا والانضمام معنا للقتال في سبيل نفس القضية. وأصحابي هم الأوائل في هذا العالم. وسيكونون الأوائل في العالم الأخر. فقد قال الله أن هؤلاء (الأبكار) الأوائل سيتم تكريمهم في الجنة. لذا عليكم توقير أصحابي الأوائل, أيها (الأنصار)، وأطيعوا أوامرهم. أما أنتم يا أصحابي فعليكم محبة الذين من دونكم وأن تعاملونهم كأخوانكم. نسأل الله أن يمنحنا القوة لفعل ذلك كله. آمين".

ومرة أخرى يقول: (قولوا, عندما تزحفون على العدو, اللهم أمطر علينا روحك وثبت أقدامنا عند لقاء العدو). وعندما تلاقون العدو قولوا (اللهم أنت ربنا وربهم ونواصينا ونواصيهم بيديك. لكنك أنت الذي تقتلهم) وعندما تبدأون القتال تقولون (الله أكبر! إلى الأمام!).

ثم يقول الإمام المهدي أيضاً:

"قولوا عند لقاء العدو (يا الله، إياك نعبد وإياك نستعين. نشهد بأنك الله وحدك ولا نشرك بك شيئاً. هؤلاء أعداؤك الذين لا يؤمنون بك ولا بكتابك الكريم. إنهم يشركون معك إبناً. فيا الله أقهرهم وأملأ قلوبهم بالرعب. وأمنحنا يا الله (نفحات) روحك وأنجنا من العقاب وأكتب لنا النصر. لقد قلت في كتابك الكريم: أن نؤمن جميعنا بالله ونثق به فهو ربنا وهو الذي يساعدنا".

* * *

منشور عن قواعد الركوب

"بسم الله الرحمن الرحيم....."

من محمد المهدي بن عبد الله إلي كافة إخوانه وأحبابه في الله ورسوله.

يا إخوتي: لقد أمرنا الله في كتابه الكريم بالتقوى. أي أن نقوم بكل ما يرضيه وأن نتجنب كل ما (نهي عنه) ولا يرضيه. فالرجل العاقل يطيع أوامر أبيه, فلماذا إذن لا نطيع أوامر الله الذي هو ربنا وسيدنا وهو العلى والحاكم الوحيد؟

فإذا أردتم الانتقال من مكان لأخر داخل المدينة فأنكم ترضون الله عندما تسيرون على الأقدام, لا راكبين. على أي رجل ألا يركب إلا إذا كان غير قادر على المشي. وإذا ما إضطر للركوب فعليه ركوب حمار. وإذا مشيتم فامشوا بهدوء وتواضع ولا تعجبكم أنفسكم أو تمشوا بخيلاء. لأنه يقال "إذا أكلت فكل لله, وإذا شربت فأشرب لله. وما تلبس فألبسه لله وما تركب فأركبه لله". وإذا ما فعلتم شيئاً من هذا بدافع التكبر فأنكم ترتكبون خطيئة. أما من يتواضع أمام الله فأن الله سيعليه. وفي كل ما في السماوات والأرض نجد الأدلة على عظمة الله، وعليكم ألا تمروا بأي مكان بدون أن

تتأملوا في عظمة الله وحكمته، وفي ضعفكم ومسكنتكم. وقد قال الله في كتابه العزيز أن على عباده أن يسيروا متواضعين في الأرض.

لا يركبن أحدكم فرساً إلا وقت الحرب أو في ساحة الإستعراض وتدريب الجنود. وفي هذه الحالة عليه ألا يظهر عجب النفس وإنما عليه أن يتحلى بتواضع النفس. وهناك بعض الرجال يقومون, من أجل التباهي والتفاخر, بأمر خدمهم بالسير وراءهم وهم يمتطون الحمير. وأحياناً يمسكون بلجام الحمار (وهو راكب). إن هذا الأمر ممنوع تماماً. فقد إعتاد النبي وصحابته، عندما يركبون, أن يسير خدمهم وراءهم ولكن إذا ما تعبت الحمير فأنهم يترجلون ويمشون مع خدمهم كأخوة. وإذا ما كان الخادم مريضاً فأنه يمتطي حمار سيده ويمشي السيد معه حتى يرتاح الخادم. فأتبعوا هذا النهج يا إخواني. وإذا ما أكرمكم الله فعليكم قبول إكرامه بالتواضع والمسكنة. أما إذا قابلتم نعم الله بالبهجة وإظهار الانشراح فأنها ستؤخذ منكم. وعندما ينعم الله عليكم بشئ فاسجدوا له شاكرين وأعلموا أنه لم ينعم عليكم لخصائصكم, بل لأنه رحيم كريم. وهذا هو النهج الذي وضعه لنا النبي وصحبه فأتبعوه ولا تتبعوا نهج الترك* الذين ينعمون بالعيش الهنيء والرفاهية، والذين يطلقون نيران مدافعهم وبنادقهم من شدة الفخر والغطرسة. وقد جاءنا ما يلي من الحديث عن النبي محمد "اخبروا إخواني ألا يعيشون مثلما يعيش أعداءنا ولا يلبسون مثلما يلبسون. وإذا لم تفعلوا ذلك فأنكم تصبحون إعدائي مثلما هم أعدائي".**

"بسم الله الرحمن الرحيم".

من الإمام المهدي إلى حبيبي المكرم وأستاذي الموقر, خليفة جدنا, الشيخ محمد الطيب البصير, حماه الله من كل الشرور.

بعد السلام والتحية, فانك تعلم تمام العلم بأن الذين يثقون في الله لا يخشون شيئاً وهو منتصر على كل أعدائه, والله يحميه من كل شر.

وحيث أنك وكيل عني وصديقي الحميم فأن عليك, مثلي, أن تعمل على تشجيع كل من له صلة بي للحضور إلي ومبايعتي. وإذا لم يتمكن أحدهم من الحضور فعليه أن يبايعك أنت, إذا لم يتمكن أحدهم من الحضور فعليه أن يبايعك أنت, إذ أن مبايعتك مثل مبايعتي. فأنت مأمون على حقوق الله وإن من واجبك إقناع كل أصدقائك والمحبين والمريدين لهجر أوطانهم وأموالهم وأن يصرفوا نفوسهم لخدمة الله.

وبعد مغادرتك, حصلت لي رؤية سأسردها عليك كما يلي:

---

* علينا أن نتذكر أن عرب السودان يطلقون لفظ (الترك) كمرادف للطغاة المكروهين مهما كانت جنسياتهم. وأطلق نفس اللفظ على الجنود البريطانيين.

** النص الكامل لهذه الرسالة البليغة، التي كتبها الامام المهدي في بواكير الدعوة، وقبل معركة الجزيرة أبا، موجودة في (الآثار الكاملة) النص رقم ١٥ بالجزء الأول الصفحات ٧٦ – ٨١ مع حواشي وشروحات كاملة للدكتور أبو سليم. كتبت في ٣٠ يونيه ١٨٨١. لكن المترجمين الشوام العاملين مع ونجت حذفوا واضافوا اليها (المعرب).

رأيت النبي في الرؤيا. وقد جاءني بصحبة أخينا الفكي عيسى. ثم جلس بجانبي وقال للفكي عيسي:" المهدي هو زعيمك" فقال الأخ: "إنني أصدقه" فقال له النبي مرة أخرى: "إذا لم يصدق أي أحد به، فأنه لا يصدق بالله ولا بنبيه" وكرر قوله هذا ثلاثة مرات. ثم قال الأخ المذكور له:"يا سيدي، إن بعض العلماء يسخرون منا، وإننا نخشى من الترك" فأجابه النبي:" إذا ما توكلت على الله فـأن بامكانك أن تفعل ما تشاء حتى لو إستعنت بقشة" ثم قال الشيخ عبد الله لي:"يا سيدي- شيخ الطيب - إننا نؤمن برسالة مهدينا لكن الناس لا يؤمنون" فيقول الشيخ الطيب: "إن شيخك حين ولادته عرفه الأولياء وعندما أكمل أربعين يوماً عرفته كل النباتات والجمادات. والطريقة المهدية بنيت على ستة فضائل هي: التواضع والمسكنة وقلة الطعام والشراب والصبر وزيادة السادات*. وكذلك بنيت المهدية على ستة فضائل هي:" الحرب والحزم والعزم والتوكل على الله والاستسلام له واتفاق الرأي. فهذه الفضائل الإثنتي عشرة لا توجد في رجل آخر سواك". ثم قال الشيخ الطيب:" أخبر أتباعك لتجنب ثلاثة شرور هي الحسد والكبرياء وإهمال الصلوات. وإذا ما أتصف أي واحد بهذه الصفات فأنه لن يكون من جنود الله".

لذلك، وعند وصولك لقدير فلا تترك أي شخص بهذه الصفات يدخل المدينة وأمر النساء بتغطية رؤوسهن ووجوههن. وفي طريقك بين كردفان وتقلي فأمتحن رجالك وتأكد من أن لا أحد منهم متوجه سوي في سبيل الله أما إذا وجدت من هو غير ذلك فلا تدعه يمشي معك. صلوا أيضا للملك ادم**

ثم جاء الشيخ التوم وحياني بتحية المهدية وقال:" أعمل على أن يعيش أتباعك ورجالك مع بعضهم البعض بالود والصداقة ويكون الرجل الغني أباً للفقير والمتساويين في الطبقة كأخوة. وفي شهر رمضان ادخل خلوة (الأربعين) وستجد فيها كشفاً للدسائس والغوامض.

ثم أتي جدنا الشيخ البصير وحياني بتحية المهدية وخاطبني بكلمات فهمت أنها تعني الآتي: "كن دائماً مخلصاً وناذراً نفسك لسنة النبي".

وبعده جاء الشيخ القرشي، وبعد أن حياني قال لي: " كن متفكراً ودافع عن مبدئك وأحمي ناسك".

ثم قال الشيخ عبد الله عند ذلك:" لكن الناس لا يعتقدون في المهدي يا سيدي" فيرد عليه قائلاً: " لقد أعلمني النبي قبل مماتي بأن شيخي هو المهدي وقال لي الشيخ الطيب قبل وفاته إنك ستعيش حتى ترى المهدي وهو شيخك".

ثم أتي النبي وبصحبته الشيخ عبد القادر الجيلاني لابساً جبة عليها رقع. وعندما رآه الشيخ عبد الله قال له: " يا سيدي رسول الله. إن بعض الناس لا يؤمنون بالجبة" فرد عليه:" أي إنسان مكون من رقع. ففي الرأس بقعة زرقاء وجلد شفته من الداخل حمراء والأسنان رقعة بيضاء وأظافره رقعة صفراء. ولولا خشيتي من أن يغشى عليك لأريتك جبب الخلفاء الأربعة".

* هذه هي خصائص الطرق الصوفية ككل وليس المهدية. وهي من أخطا المترجمين الشولم العاملين مع ونجت (المعرب).

** في الرسالة الأصلية (ولازم أن تصلوا إلي الملك آدم بهيلة حسنة) فترجمت إلي (صلوا أيضاً للملك ادم!) (المعرب).

ثم أمر الملاك عزرائيل ليكون دائماً بصحبتي وصحبة أتباعي وليعمل على حراستي وحمايتي دائماً.

وقد حصلت هذه الرؤيا لي ليلة الأربعاء الأول من شهر شعبان. وفي تلك الليلة وجهني الرسول بما أقوم به عند دخول مكة وأنني سآخذ البيعة أولاً من الناس العاديين ومن بعده (بيعة) الملك وكبار قومه.

***

إرشادات حول الكتابة

بسم الله الرحمن الرحيم....

من عبد ربه محمد المهدي بن عبد الله إلي كل الكتبة في حكومة المهدية. عليكم الحرص والدقة في كتاباتكم ولا تغيروا شكل الحروف لأن الله سيهلك الذين يغيرون شكل حروفه فلا تكنبوا كأولئك الذين أهلكهم الله. وأظهروا السين (س) في (بسم الله) والشين (ش) في الشيطان الرجيم وحرف الكاف (ك) وحرف الهاء (هـ).

اجتنبوا تقليد كتابة الترك وخطهم وأعطوا الحروف أشكالها الأصلية كما أنزلت إلينا وعودوا أنفسكم الكتابة الضبط كالكتابة في القرءان الكريم *

***

عن الفضيلة والحرب الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم....

من محمد المهدي بن عبد الله إلي حبيبه وصديقه عبد الله ود النور.

صديقي العزيز، لقد قال الرسول أنني جربت فضيلتين في هذه الدنيا ومن يحبني يحب إتباعهما ومن يكرهني يكره إتباعهما. هاتان الفضيلتان هما الفقر والحرب في سبيل الله. والذين يتبعون تلك الفضائل هم من السعداء في أنفسهم وسينزل الله نوره عليهم. وإن مقصدهم هو أن يفعلوا كل ما يقربهم إلى الله في كل يوم. أما الذين لا يتمسكون بتلك الفضائل فهم دائماً في شقاق ولا يرضون بشئ أينما كانوا. ولقد قيل:" إذا ما كان للرجل واديان من ذهب فأنه يرغب في ثالث ولا يكفيه شئ سوى التراب". لذا عليك يا صديقي أن تتمسك بتلك الفضئل وأن تبشر بها بين الإخوان والانتباه لما فيه مرضاة الله.

***

---

* النص رقم ١٦١ صفحة ٤٣٦ من (الآثار الكاملة)(المعرب).

عن القضاء والقدر

تم تعليـق هذا المنشور على باب المسجد الجامع في الليلة التـي سـبقت بدايـة شـهر رمضان:

بسم الله الرحمن الرحيم.....

يقول عبد الله محمد المهدي أن الشهر القادم هو شهر رمضان. وهو شهر الاقتراب من الله وأن نرضي ببعضنا البعض للعيش بمخافة الله. كرسوا الشهر بكامله لله وعودوا أنفسكم على التقشف والابتلاء. فأن المصاعب والابتلاءات لا تأتي إلا بمشيئة الله ليمتحن صبرنا وإيماننا. لذا فثقوا بـالله وأنذروا نفوسكم إليه. ومهما يحدث فأعلموا بأنه ما حدث إلا لصالحكم وراحتكم حتى لو بدأ غير ذلك. فالله واسع الكرم ولن يسمح بأن تقع الشرور علينا إذا ما توكلنا عليه حق التوكل.

وقد قال أحد الحكماء: " عندما أيقنت بحتمية القضاء والقدر، وضعت كـل ثقتـي فـي الله وأوكلت نفسي لعنايته في كل شئون الحياة". فلماذا تسألون عن حقيقة القضاء والقـدر؟ ألا يكـون الرجل منا دائماً في موقف لا يتوقعه؟ فلماذا يشغل الإنسان نفسه ليستفسر عن هذا الأمر أم ذاك؟ فإذا ما شاء الله أن يمنحه شيئاً ما فأنه سيناله سواء سأل أم لم يسأل. وإذا لم تكن مشيئة الله، فلو قضي كل حياته في السؤال فلن تمنح له. بجانب ذلك ففي كلا الحالتين فهناك عدم التوكل على الله. لـذلك كونوا دائماً بجانب الله وأوكلوا إليه شئونكم ولا تتضجروا مما يصيبكم وأصبروا عن المحـن مهمـا كانت قاسية عليكم.

لا إله إلا الله ولا قوة إلا به. فكونوا على ثقة من هذا يا إخوتي وتوكلوا عليـه وأسـألوه حاجاتكم لأننا جميعاً عبيد الله. وفي هذا الشهر لا تشغلوني بشئ من شئونكم ودعـوني لأتفـرغ لله والصلاة والعبادة. وإذا ما أعوز الصبر أحدكم ولم يرضي فعليه أن يرفع موضـوعه إلـي خلفـائي ووكلائي وإلى القاضي ولا يشغلني به. وإذا لم يرض بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه"*

***

موعظة قصيرة

بسم الله الرحمن الرحيم.....

الحمد لله فاطـر السموات الذي خلق الإنسان من طين ثم أنشاه في أحسن تقـويم والـذي دعاه إلى الطاعة والمعرفة والعبادة، ووعد الذين يتقون والذين يصبرون على الإبتلاءات والمحـن، بالجزاء الأوفى.

---

* ربما كان هذا المنشور آخر ما كتبه الإمام المهدي، قبل دخوله في خلوة للتعبد خلال رمضان ثم مرضه السريع ووفاتـه في التاسع من رمضان ١٣٠٢ هجرية.

والنص البليغ الكامل تجده في (السودان عبر القرون) لمكي شبيكه صفحة ٣٦٧ من طبعة بيروت(المعرب).

فالحمد والحمد الجزيل لله الذي أنار بقوى الحق طريق عباده المخلصين بعد أن كانوا في عمية الظلمات. والحمد لله على نعمه المتواصلة علينا والذي علمنا أن الحياة الدنيا ما هي إلا دار البوار وأن النعيم الأبدي مدخر في الآخرة. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي منه جاء النور وانتشر شعاعه وأنار السبيل للذين يؤمنون. وكونوا شاكرين لذلك وصلوا عليه كثيراً لأن كل النعم جاءت منه. ومنه علم الناس أن الله قادر على كل شئ وأنه غفور رحيم وأن لا ملجأ إلا إليه. وعندما يموتون فأنهم يموتون في سبيله بعد أن تحرروا من كل المصاعب والمحن. رضي الله عنهم. نعم رضي الله عنهم وبارك فيهم فقد سادوا العالم وحصلوا على نعيم الآخرة. وهؤلاء المكرمون أعني بهم صحابة النبي فقد وهبوا أنفسهم وأموالهم للدفاع عن شرع الله وعاشوا من أجله وحده.

لذا عليكم أيها المخلصون المؤمنون العابدون لله أن تنظروا لهذه الدنيا بعين فاحصة، وتأكدوا من خوائها، ووجهوا قلوبكم نحو السماء، نحو الطريق للحياة الأبدية. كرسوا أنفسكم لله وتجنبوا متاع الدنيا ومباهجها وقد قال الله في القرآن الكريم أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا لهو ومتاع وأن الآخرة هي الأبقى. فاعتبروا هذا يا أولي الألباب. فلن تستطيعوا تغيير هذا العالم إلى عالم يدوم للأبد. لذا فأتركوه وكرسوا نفوسكم للعالم الآخر القادم قبل فوات الأوان حين لا ينفع الندم ولا التوبة. أعملوا لخلاص أنفسكم وتوبوا إلى الله وأسالوه أن يغفر لكم ما إقترفتم من اللمم والمباهج الدنيوية. ولا تشتهوا وتجروا وراء المتع التي استمتع بها القياصرة والفراعنة والأكاسرة ولكن أسألوا الله ما سأله الأنبياء والرسل ألا هي الفقر والمسكنة. وقد قال النبي أن هذا العالم في سبيله للزوال وأن العالم الآخر قد اقترب. فكونوا أبناء العالم القادم ولا تكونوا أبناء هذا العالم الفاني. وقال أيضا أن علي الناس ألا يتركوا أبناء هذه الدنيا ليصرفوهم عن الدار الآخرة. وألا يشبعوا رغباتهم وشهواتهم بل يكونوا طائعين لله. وعليهم ألا يخدعوا أنفسهم وأن يكونوا يقظين متنبهين وألا يقولوا(أننا سمعنا) عندما لا يسمعون.

وكل نفس بما كسبت رهينة لذا عليكم ألا تهملوها. فليس لكم نصيب من هذه الدنيا بل أن نصيبكم هو في الدار الآخرة. فهذا العالم هو للكفرة. ولتكن لكم عظة في حديث النبي عندما قال بأن هذا العالم إذا كان لا يسوى إلا جناح بعوضة فإن بعض الرياح لن تكون معادلة لنصيب الكفار منها.

لذا فإن هذا العالم هو نصيب من لا نصيب لهم (في الآخرة) لآن عباد الله المؤمنين قد نبذوه.

ولذا فعليكم أن تنبذوه وأن تختاروا ما أراده الله لكم ولا تختاروا ما إختاره الكفار. فليغفر الله لي ولكم وأن يجعلنا من عباده الصالحين. آمين.

***

تحذير للمتشككين

بسم الله الرحمن الرحيم......

من عبد الله المهدي إبن السيد عبد الله إلى شيخ الإسلام الموقر، محمد الأمين، بـارك الله فيه. آمين.*

لا يخفى عليك أن البيان لا يهدي وإنما الهداية من الله. وقد أعلم الله نبيه لتبليغ رسـالته وأنه لا يهدى من أحب. إن رجائي فيك هو الذي دفعني للكتابة إليك لأخبرك بحقيقة الرسالة التي أقوم بها والتي ليس فيها كذب ولا أباطيل. فأنا لست بالمتخيل ولا بالمتصنع، لكن ما أقوله إنما هو الحق من الله ونبيه.

لقد أيد الله مهديتي ودعمني الرسول فيها. فمن المعلوم لديك أن لا أحد يجرؤ علي الشـك في الله والرسول** إلا أولئك الذين حرموا من السعادة بالله. فمن يعلم أن متاع الدنيا لا يسوى شيئاً وأنه في الميزان لا يزن جناح حشرة فإنه لن يختارها على نعيم الله (وإلا) فستختفي ثروته الدنيوية وكأنها لم تكن وستعقب عليه حسره وندامة لانهاية لها. فلن يختار أحد مباهج هذه الدنيا ويفضـلها على المنافع التي تعود عليه من إتباع نهج الأنبياء والأولياء إلا إذا كان فاقد العقل حقاً. أما أنا فإنني عبد فقير غير قادر على أداء أدنى شي ولولا أني على نور من الله وتأييد من رسوله فلن أسـتطيع قول أي شي أو فعله وما قلت وما قلت إلا ما أمرت بقوله كرسول الله***.وما قلته ليس معلوماً لدي الأولياء ولا لدى العلماء. وقد قال الله "ويخلق ما لا تعلمون". وقد جمع الرسول أرواح الذين أنكـروا مهديتي. ومن بينهم الأولياء والعلماء العارفين ووبخهم وعدد عليهم النعم الدنيوية والروحية، والبلايا الظاهرة والباطنه والحسية والعقلية قائلاً لهم"لقد أنكرتم نعمة الله بأنكاركم للمهدية. وبعدم تصـديقكم بالمهدية فقد ظهر جحودكم لنعم الله عليكم. أما الذي كان حامداً لله شاكراً لنعمه فقد ولاه زعيماً عليكم ولقبه بالمهدي. فلماذا تنكرون المهدية التي أعطيت له" فصاحوا قائلين:" يا نبي الله إنك حقاً رسـول الله* فقال لهم أن يطلبوا مني العفو ففعلوا ذلك. فالذين صدقوا منهم بمهديتي جعل الله لهـم السـعادة ولكن الذين أنكروني هم الذين لا نصيب لهم من نعم الله. وقد دلت أعمالي الجليلة على صدق حـديثي فيما يختص بالرسول لكن لا الأعمال الجليلة ولا الكرامات ستنفع الذين أراد الله أن يحرمهم من نوره. وقد قال لي النبي عدة مرات بأن من شك في مهديتي فقد كفر بالله ورسوله وأن من عاداني فهو كافر وأن من يحاربني فلن يفوز في هذه الدنيا ولا في الآخرة وستصبح أمواله وعياله غنيمة للمسلمين.

وليكون معلوماً لديكم بأن كل ما أفعله إنما بأمر من رسول الله والحرب ضد التـرك إنمـا كانت بأمره وقد أخبرني بأسرار كثيرة وإحداها أن كل تلك البلاد ستخضع للدين والسنة وحدثني بمـا

---

* النص البليغ للمهدي في الجزء الأول من (الآثار) صفحة١٥١. وقد كتب الخطاب بتاريخ ١٥ يوليه ١٨٨٢(المعرب).

** جاء في الأصل:" ومعلوم أنه لا يكذب على الله ورسوله إلا من لا خلاق له عند الله تعالي". فأنظر ضحالة ما جـاء فـي الترجمة أعلاه (المعرب) وغير هذا كثير!

*** الصحيح:" وما أخبرت بما أخبرت إلا بأمر من رسول الله صلي الله عليه وسلم" (المعرب).

* فصاحوا قائلين:" تبنا يا رسول الله. (المعرب).

سيحدث بعد ذلك في تلك البلاد وأنني سأنتصر دائماً على كل أعدائي. وأوضح لي في رؤية عن يوم القيامة وأن الترك الذين قتلتهم قد شكوني لله عز وجل قائلين:" يا ربنا وإلهنا لقد قتلنا الإمام المهدي بدون إنذارنا" فأجبته" يا سيدي لقد أرشدتهم وأنذرتهم لكنهم لم يستمعوا لقولي وإنما إتبعوا أقوال العلماء وشنوا علي الحرب" فقال لهم سيد الوجود الذي كان حاضراً:" إن ذنبكم علي رؤوسكم فقد أنذركم الإمام المهدي لكنكم رفضتم ذلك وإتبعتم أقوال علمائكم" بعد ذلك أقبل هؤلاء الترك على بعضهم البعض يتلاومون ويقولون" لو لا أنتم لكنا مؤمنين" فقال قادتهم رداً علي أتباعهم" إننا لم نمنعكم المهدية** بعد أن بشرتم بها وبالتالي فانتم الملومون"

وأما عدم تسليم القائمين بالدولة من البداية فأن هذا سؤال يترك لإرادة المولي ووقت تسليمهم هو بيد الله. فما يحدث لي هو مثل ما حدث للرسول إذ لم يسلم له الملوك مبدأ الأمر وقد حصلت له ولصحابته مشاق ومصاعب كثيرة وحروبات عديدة ضد العلماء وحكام اليهود والنصارى والذين كان يفترض أن يكونوا أول من يتبعونه. ومشيئة الله هي التي قضت أن يعاني الرسول من تلك المشاق. فأنني مقتف أثره واسترشد بهدى نوره.

ويقال أن الترك قد تصلحهم النصائح والمواعظ لكنهم لن يطهرهم إلا السيف إلا إذا رحم الله البعض منهم. وقد أخبرني الرسول بأن كل الأمم ستهتدي بواسطتي بدون المشقة التي حصلت له ولصحابته وأنني خلقت من نور قلبه. وأخبرني بأن أصحابي كأصحابه وأقلهم رتبة هو في نظر الله في درجة الشيخ عبد القادر الجيلاني. فالفضل بيد الله ويؤتيه من يشاء. وأنتم مدركون تماماً بأن العلماء ينكرون كثيراً من أمور المهدية والتي لا تنسجم، حسب إعتقادهم، مع ما يؤمنون به لكن الإشارات كثيرة من الله المؤيدة لمهديتي. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. وأقول لكم أيضاً بأن المهدية الحقة ليست بمعروفة لدي مختلف العلماء. فهناك الكثير من الأحاديث التي جاءت عن هذا الأمر من وقت لآخر منها المقطوع والموضوع والضعيف. والحديث الصحيح ينسخه حديث صحيح (والمعجزات تنسخها المعجزات)* والتصديق بالمهدية أمر صعب لا يصل إليه إلا الذين أعطاهم الله حظاً من السعادة. ولا يفهم حقيقتي إلا من لم يحجب عن رؤية الرسول من الأولياء.

أما عما جاء بخطابك من أسئلة فأن الإجابة عليها واضحة ومعلومة تماماً لمن كان له عقل. وكان بامكاني أن أجيبك على كل سؤال من أسئلتك بالتفصيل لكنني أدركت أن الإصلاح لا يأتي من البيان فإذا ما قمت أنت، بعد تصديقك بمهديتي، بتفحص تلك الأسئلة بإمعان فستجد أن الأجوبة عليها هي واضحة كضوء النهار. وكل العلماء الذين اتبعوني، والذين هم أقل علماً منك في الظاهر، يوافقونني تماماً علي ما قلت. فإذا ما كنت رجلا عاقلاً حقاً لما كتبت لي ما كتبت**لذلك فأنني أنصحك بتدارك حياتك وإنقاذها طالما كان هناك وقت لذلك وأن تترك مالك وأهلك وتتبعني وستكون مشاركاً لنا في النصر العظيم. ولا تبقي بعد هذا في الظلام. فهل تجهل ما حدث للإسلام والذي حدث به الرسول في عدة أخبار؟ فمثلك تكفي مجرد الإشارة.

** ترجمة خاطئة للآية" أنحن صددناكم عن الهدي بعد إذ جاءكم بل كنتم قوماً مجرمين". (المعرب).

* الصحيح" والآيات تنسخها الآيات" (المعرب).

** الصحيح " ولو علمت حقيقتي لما كنت كتبت لي ما كتبته"(المعرب).

نموذج لرؤيا

بسم الله الرحمن الرحيم.....

لقد حدثت رؤيا عظيمة رؤى فيها النبي وخلفاؤه الأربعة العظام والمهدي واقفين مع بعضهم. ثم هبط ملاك من السماء حاملاً في يده تاجاً أخضراً. قام بتحية النبي وخاطبه كما يلي: " يقريك ربك السلام ويرسل إليك بركاته ويخبرك بأن هذا هو تاجه للنصر وهو هديته للإمام المهدي. وهو علامة على النصر ويأمرك أن تقدمه له بيدك أنت" بعدها قام الرسول بتقديم التاج للمهدي وقال:" ما النصر إلا من عند الله". وعندما سلم النبي تاج النصر للمهدي هدية من الله تعالى خاطبة قائلاً:" لقد حرسك الله بملائكته وأنبيائه. ولن تستطيع أية دولة أن تواجهك في الحرب سواء كانت دولة الإنس أم الجن. وأما أولئك المحاربون الذين بذلوا أنفسهم لدين الله فسيرحب بهم الله في يوم القيامة وسيدخلون الجنة التي فيه القصور الجليلة والأزواج المطهرون والنعيم والسعادة والعظمي. تلك القصور التي تتلألأ بالنور. لكن بعضهم سيترك في الظلام وهؤلاءهم الذين أخفوا الغنائم أو استولوا عليها لمنفعتهم الشخصية بدون إذن من المهدي أو خليفته.

كتب بواسطة المهدي وبيده هو.

***

منشور بعدم استخدام كلمة (درويش) وإستبدالها بكلمة (الأنصار)

بسم الله الرحمن الرحيم ......

من محمد المهدي إلى كافة الإخوان. لقد تم تحذير كل المخلصين بألا يطلقون على أنفسهم لفظ (دراويش) بل (الأنصار). فالأنصار هم الذين قد ست قلوبهم وتفرغت تماماً لله والذين استنارت أرواحهم بإرادة الآخرة ما فيها من نعيم، والذين تركوا متاع هذه الدنيا، والذين أوكلوا ثقتهم بالله وبقدرته الذي خلق الجنة لأولئك الذين أخلصوا له تمام الإخلاص.

ونعيم الجنة هو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر بقلب بشر. فالذي يسعى لحيازة مثل هذا النعيم يجب إلا يسمي بدرويش قط. وهو الرجل المعدم. بل علي العكس فيجب أن يسمى بالرجل الذكي البعيد الرؤية والمدافع عن دين الله والمتبع لمشيئة الله والمبتعد عن كل ما لا يرضي الله. كل هذه المزايا لا تنبع إلا من النور الذي يضئ البصيرة. وأي واحد يطلق علي مثل ذلك الرجل لقب الدرويش فيستحق أن يجلد سبعة مرات وفي كل مرة يجلد كثيراً من الجلدات.

وليكن معلوماً لديكم أنه ممنوع منعاً باتاً أن تنادوا محمد البدوي بن أحمد الكنان أبو صفية بالدرويش. ومن الآن فصاعداً سيسمى بالصادق أي الرجل الذي يسير في طريق الصدق. وأي من يخالف هذا الأمر فسيجلد مائة جلدة بالكرباج وعليه صيام ثلاثة أيام.

سيقرأ هذا المنشور لثلاثة أيام في أنحاء البلاد*

***

وإضافة للخطابات السابقة، والتي تركز على شئون الدين بوضـــوح ومقومـــات المهديـــة الدينية، فقد أدرجنا ملخصات أخرى وستورد بقدر الإمكان، وعلى حسب ترتيبهم الزمني في ســـياق السرد التاريخي التالي متلازمة مع الأحداث المختلفة التي دعت الولي الملهم لإصـــدار توجيهاتـــه وملاحظاته عليها.

***

* المنشور الكامل (غير المختصر أو المشوه) موجود في المجلد الثاني من (الآثار) بالنمرة ٢٨٧ صفحة ٣١٠ (المعـــرب). صدر المنشور في ١٨٨٤/٤/١٧.

ملحق القسم الثالث
(رسائل المهدي)
دفتر النجومي

عبارة عن قائمة برسائل ومنشورات محمد أحمد المهدي والخليفة عبد الله التعايشي، والتي وجدت في دفتر مخطوطات الرسائل، والذي غنم في معركة توشكي في ٣ / ٨ / ١٨٨٩.

مع ملخص موجز لمحتويات كل رسالة ومنشور

الصفحة في الدفتر	من	إلي	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي	المحتويات
٣	المهدي	أتباعه	....	....	ألا تختلط النساء مع الرجال في الأسواق وغيرها
٣	المهدي	أتباعه	....	....	أن تتشوقوا للحرب المقدسة والتأكد من جزائها الأوفى
٤-٦	المهدي	أتباعه	٢٩ذو الحجة ١٣٠٠هـ	٨٣/١٠/٣١	أن تنسوا هذا العالم (الغاني) وتتجهزوا لدار البقاء.
٥-٦	المهدي	أتباعه	١٢ ذو الحجة ١٣٠٠هـ	٨٣/١٠/١٤	(نفس ما سبق)
٧-٨	المهدي	أتباعه	.....	....	يدعو أصحابه إلي المقارنة بين حالتهم تحت حكمه مع حالهم أيام الحكومة التركية. ويحذر الذين هربوا بالغنائم بأنهم إن لم يعودوا بها فسيدمرون.
٨	المهدي	أتباعه	١٢٩٩	١٨٨٢	تخفيض نفقات وإحتفالات الزواج.
٨-٩	المهدي	أتباعه	١٣٠٠	١٨٨٣	يصف لهم صفات وسلوك المسلم الحقيقي.
٩-١٠	المهدي	أتباعه	١٣٠٠	١٨٨٣	يحذر الذين هربوا بالغنائم

					بأنهم إن لم يعيدوها كاملة فسيتم اعتبارهم من الأعداء.
١٠	المهدي	أتباعه	٥ محرم ١٣٠١هـ	نوفمبر٨٣	إذا ما خبأ أي أحد الغنائم فإنه سيعتبر، ويعامل، كأنه من الأعداء.
١٠	المهدي	أتباعه	١٣٠٠	١٨٨٣	إذا كان لدى أي أحد شئ ضده أو ضد خلفائه أو أمرائه فليعلن ذلك، وسيتم تعويضه عن أي خطأ أرتكب بحقه.
١٠	المهدي	أتباعه	....	....	الانتباه لواجباتهم الدينية
١٠-١١	المهدي	الأشراف	١٥ ربيع أول ١٣٠٢هـ	٨٥/١/٢	أن يطيعوا الله والرسول وأمرائهم وأن يقدموا أرواحهم وأموالهم في سبيل الله والجهاد.
١١	المهدي	أتباعه	٦ رمضان	....	الصبر علي المصاعب والبلاء
١١	المهدي	أتباعه	....	....	ألا يتحدثوا في المساجد إلا عن الدين وشئونه.
١١-١٣	المهدي	أتباعه	١٣٠٠	١٨٨٣	على الجميع النهوض والإنضمام لصفوف الجهاد وهو أمر ملزم وواجب وأن الله سيساعدهم بمعجزاته. ويطلب منهم في نفس الوقت أن يطيعوا ويتابعوا عثمان دقنة والذي أرسله إليهم.
١٣	المهدي	الحكومة في الخرطوم	١٣٠٠	١٨٨٣	أن يسمعوا له ويطيعوا.
١٣-١٤	المهدي	حملة الرايات	١٢٩٨	١٨٨١	ألا يضربوا النحاس إلا عند الضرورة وألا يقلدوا أياً من عادات الترك.
١٤	المهدي	العلماء الذين أنكروا مهديته	١٧ ذو الحجة ١٣٠٠	٨٣/١٠/١٩	يوبخهم ويصفهم بالمنافقين

١٤-١٥	المهدي	أتباعه	....	....	يستدعيهم لجبل الداير للبيعة والإتحاد في محاربة الكفرة أعداء الله
١٥	المهدي	أتباعه	٢٣ رجب	١٩/٥/ ١٨٨٤	أغبياء هم الذين لاعشم لهم في الله ويتمسكون بمتاع الدنيا.
١٥-١٦	الخليفة عبد الله	أتباعه	٢٠شعبان ١٣٠١	١٥/٦/ ١٨٨٤	بين الله والإنسان تسعة صعاب عليه أن يجتازها وأهونها الموت أما أصعبها فهو اليوم الأخر. وأن الشهداء لا يحاسبون في ذلك اليوم.
١٦-١٧	المهدي	أتباعه	١٣٠٠	١٨٨٣	أن الخليفة عبد الله هو خليفته ويجب طاعته مثل طاعتكم لي.
١٧-١٨	الخليفة عبد الله	عبد الرحمن كنجومي وحمدان أبو عنجة وعبد الرحمن أبو دقل وموسى محمد حلو ويونس الدكيم	....	....	أنه تسلم خطاباتهم وقد سر لنجاحهم وأن عليهم دائماً الإتحاد في الله.
١٨	المهدي	أتباعه	....	....	يجب تركهم للترف والبهرجة مثل الترك. بل عليهم أن يتعقلوا ويتواضعوا في الملبس والطعام وغيره.
١٨-	المهدي	أتباعه	....	....	لا تطلق النار في المعسكرات وسيعاقب من يطلق النار دون سبب.
١٩-	المهدي	أحبابه	....	....	التوكل علي الله والسعي لرضائه
٢٠-	المهدي	أتباعه	....	....	الفضائل الأربعة للبس الجبة المرقعة (زى المهدي).
	المهدي	أتباعه	....	....	ماذا يقولون عند لقاء العدو.

٢١-٢١	المهدي	كل القبائل	....	....	أن يكونوا مقاتلين في سبيل الله أفضل من أي شئ غيره.
٢٢-٢١	المهدي	لأتباعه	....	....	أن يبنوا مسجداً في كل قرية للصلاة، وأن يتجنبوا الخمر والفواحش، وألا يحدوا على الموتى، ويحدد مهور الزواج.
٢٣-٢٢	المهدي	أتباعه	....	....	حكاية رمزية عن الحياة الدنيا
٢٣-٢٢	المهدي	يوسف حسن الشلالى ومن معه	....	....	إنه تلقي رسالته، وأنه لا ينوي مواصلة التخاطب معه، إذا ما استمر في إنكاره لمهديته، إلا بالسيف.
٢٦ -٢٤	المهدي	غردون باشا، عزيز بريطانيا والخديوية	١١ جمادى الأول ١٣٠١*	٩ مارس ١٨٨٤*	أنه تلقى رسالته والتي وعده فيها بجعله سلطاناً على كردفان إذا ما أطاع الحكومة. وأنه لا يقبل بذلك أبداً. ولكن إذا ما استسلم غردون باشا له ولمن بمهديته لأن المهدي لا يهتم بمباهج هذه الحياة الدنيا، بل بالآخرة فقط.
٢٨-٢٦	المهدي	غردون باشا، عزيز بريطانيا والخديوية	جمادي الأول ١٣٠١	مارس ١٨٨٤	يطلب منه التسليم قبل فوات الأوان وأنه إذا ما استسلم فلن يلحق به أي أذي، وليطمئن على ذلك.
٢٩-٢٨	المهدي	أتباعه	....	....	القوانين المتعلقة بالطلاق.
٣٠-٢٩	المهدي	أتباعه	....	....	أوامر خاصة بصيام رمضان
٣٠	المهدي	أتباعه	٣٠ شعبان ١٣٠١*	يونية ١٨٨٥	أوامر خاصة بصيام رمضان
٣٢-٣١	المهدي	أتباعه	١٣٠٢	١٨٨٥	موعظة دينية. أن التوبة لا

* أحد التاريخين خطأ (المعرب).

					تجـدي إلا إذا أعقبهـا عمـل صالح, مع وصف للجنة.
	الصفحات من ٣٢ حتى ٣٨ مفقودة				
٣٩-٤٠	الخليفة عبد الله	أتباعه	....	....	إبطال الطريقة التيجانية وكل الطرق ما عدا المهدية.
٤٠	المهدي	عامله في الجزيرة	....	....	يجيبه على بعض الأسئلة الشرعية والتي استفسر العامل عنها.
٤٠-٤٣	المهدي	أتباعه	....	....	على من يبايعه أن ينبذ الدنيا وأن يتطلع فقط إلي نعيم الآخرة.
٤٣-٤٧	المهدي	أتباعه المحاصرين للخرطوم .	رجب ١٣٠٠	يونية ١٨٨٣	يثني عليهم لإتحادهم ويشجعهم على الصمود حتى لو ضحوا بأرواحهم ويذكر بجزاء الشهداء في الآخرة.
	ملحوظة من المعرب: هذه الرسالة، كما جاءت في الوثائق للدكتور أبوسليم مؤرخة رجب ١٣٠١هـ الموافق أبريل ١٨٨٤ إذ أن حصار الخرطوم لم يكن قد بدأ في التاريخ أعلاه.				
٤٧	المهدي	أتباعه المحاصرين للخرطوم	....	....	يحذرهم من العقوبات المترتبة على التعدي على بعض القوانين الأخلاقية.
٤٧	المهدي	أتباعه	....	....	القوانين الخاصة بالطلاق ووضع النساء المتزوجات من الترك.
٤٧-٤٨	المهدي	أتباعه	....	....	أن يتبعوا نهج صحابة رسول الله في التواضع والعفو وتجنب كل الشرور والعمل لله وللدين.
٤٨-٤٩	المهدي	أتباعه المحاصرين للخرطوم	١٣٠٠	١٨٨٣	(مكرر مثل الخطاب نمرة ٤٣-٤٧ وكلا التاريخين خطأ (المعرب))

٥٠-٥١	المهدي	أتباعه	....	....	أن يواجهوا الموت بفرح وسرور
٥١-٥٣	المهدي	أتباعه	نهاية ربيع الآخر ١٣٠٢	١٥ فبراير ١٨٨٥	يناشدهم للاقتناع بخطورة تكديس الأموال. وبأنهم إذا توكلوا علي الله فإنه سيغنيهم من فضله ويوفر ضروريات حياتهم.
٥٣-٥٤	المهدي	الشيخ محمد الطيب البصير	....	....	بأن عليه ترغيب الناس للهجرة إليه لمبايعته. وبأنهم إن لم يتمكنوا من السفر إليه فعليهم مبايعة الشيخ الطيب. رؤيا.
٥٤	المهدي	أهل الجردة (جيش هكس باشا)	أول شعبان ١٢٩٩هـ*	يوليه ١٨٨٢*	بأن مدافعهم وأسلحتهم لا تجدي لأن المصائر بيد الله.وأنه ينصحهم بالانضمام للمهدية وألا يستمعوا لأقوال علمائهم و إلا فسيدمروا جميعهم.
٥٤	المهدي	كتبته	....	....	توضيح الخط وإبراز الحروف وعدم تقليد الترك في خطهم لأنهم اعتادوا علي خلط الحروف وتغيير المعاني.
٥٤-٥٦	المهدي	أتباعه	....	....	حديث لترغيبهم للجهاد في سبيل الله والجزاء العظيم للذين يقاتلون في تلك الحروب ويقتلون.
٥٦-٥٨	المهدي	الأمراء والكبراء بإمرة محمد الخير	....	....	عليهم التوجه دون إبطاء مع محمد الخير إلي دنقلا ولن يكونوا جميعهم على رأي رجل واحد. ويوضح لهم نعيم الجنة التي سيدخلونها لو وقفوا مخلصين حتى النهاية.
٥٨-٥٩	حياتو بن سعيد ابن محمد بن بلبوا ابن عثمان	المهدي بكردفان	١٣٠٠	١٨٨٣	بأنه تسلم خطابه وأنه يؤمن به من صميم قلبه.

* كلا التاريخين خاطئ. وقد أورد الدكتور أبو سليم تاريخ المنشور في الجزء الأول من (الآثار على أنه حرر في ١٩ ذو الحجة ١٣٠٠هـ) أول نوفمبر ١٨٨٣ (المعرب).

	أبن قودي بدار فلاته				
٥٩-٦٥	المهدي	أتباعه	....	....	خطاب مطول يبين فضيلة الصلاة وأهميتها وفي نفس الوقت تشرح لهم كيفية أدائها.
٦٥-٦٦	المهدي	أتباعه	....	....	حمداً لله أن جعلنا مسلمين ولعمل الخير في هذه الحياة الدنيا وذلك عشماً لنيل الجزاء في الآخرة.
٦٦-٦٨	المهدي	أتباعه	٨ ذو الحجة ١٣٠١	٢٩/٩/ ١٨٨٤	بأن الله قادر على تدمير أعدائه بدون حرب. ولكن لكي يتم تشريف أتباعه فأنه يفضل لهم القتال.
٦٨-٦٩	الخليفة	عبد الرحمن النجومي والأمراء تحت رايته	....	....	عليهم الإتحاد في فكرهم وأن يكونوا يداً واحدة, مما يعتبر أمراً ضرورياً للغاية. وأن على الأتباع طاعتهم.
٦٩	المهدي	عبد الله ود النور	....	....	أن يعظ أتباعه بفضيلة الفقر والجهاد في سبيل الله.
٧٠-٧١	الخليفة علي ود حلو والخليفة محمد شريف حامد وكل الأشراف من عائلة المهدي	محمد الخير وأتباعه أهل رايته	٨ رمضان ١٣٠٢	٢٢/٦/ ١٨٨٥	يخبرونه بوفاة المهدي في صباح الاثنين ٨ رمضان ١٣٠٢هـ
٧١	الخليفة عبد الله	أتباعه	٦ رمضان ١٣٠٢هـ	١٨/٦/ ١٨٨٥	حديث موجه من المهدي (في فراش المرض) وقبل وفاته. بأن الموت هو من طبيعة الكون وسنته وأن على الجميع أن يتزودوا للرحلة إليه قبل فوات الأوان.

٧٢/٧١	المهدي	أصحابه	....	....	أن هذا العالم لا يسوى شيئاً وأن على الجميع أن يستعدوا للعالم الآخر.
٧٤/٧٢	الخليفة عبد الله	محمد عبد الله خوجلي وأمراء راياته	١٧ ذو القعدة ١٣٠٢	/٨/٢٧ ١٨٨٥	أن يعملوا صالحاً مع الصبر علي المكاره ومحبة الجهاد. ثم وصف للجنة
٧٤- ٧٥	الخليفة عبد الله	أهالي مديرية بربر وخاصة العباسين الجعليين	....	....	حب الجهاد والانضمام لمحمد الخير والقتال تحت إمرته.
٧٥-٧٧	المهدي	أهالي مديريتي بربر ودنقلا	١ رجب ١٣٠٢هـ	/٤/١٦ ١٨٨٥	أن يسود الوئام بين الواحد والآخر والإتحاد في الجهاد. وأضاف بأن تقديم البيعة له يعادل نبذ الدنيا والتطلع للدار الآخرة.
٧٧-٧٩	الخليفة عبد الله	أهالي دارفور	٢٩ جمادي الآخر ١٣٠٣		بأنه قبل موته. فقد أوصى المهدي في شهر رجب بأن أكون خليفته وأعطاني علامة حرف (ب). ثم أخبرني برؤيا جاءته يوم الاثنين. ليلة وفاة المهدي. قامت يده فيها برفع يد الخليفة اليمني وسلمه المسئولية.
٧٩-٨٤	المهدي	أتباعه	....	....	موعظة طويلة توضح مسئوليات المهدية. وأن على أتباعها تقديم أرواحهم لله والدين. وعليهم عدم التفكير في أنفسهم لأن الله سيعطيهم ما يحتاجون إليه.

٨٤	المهدي	الطاهر أبن الولي الطيب أبن قمر الدين المجذوب	....	....	إجابة رقيقة عن بعض الأسئلة المتعلقة بالصلاة. ويخبره أيضاً بأنه ليس من الضروري أن يحضر بنفسه لمبايعته ويكفي أن يبايع أي أمير من أمرائه.
٨٤-٨٨	المهدي	أتباعه	....	....	الدلائل التي تبرهن على ضرورة الجهاد وعقاب الذين يتخلفون عنه والجزاء الأوفى للذين يموتون شهداء.
٨٨	المهدي	أتباعه	....	....	يشرح ويفسر معني كلمات "بسم الله".
٨٨-٩٣	المهدي	أتباعه	....	....	بأن روح الدين الحقيقية قد ماتت، وأنه بصفته خليفة الرسول فأن عليه إعادة الدين لحيويته الأصلية لذا عليهم السمع له والطاعة.
٩٣-٩٤	المهدي	الشيخ المنا إسماعيل	١٣٠٠هـ	....	بأنه عين أميراً آخراً مكانه، وعليه ألا يحزن لذلك، لأن عليه ألا يسعى ليحوز المجد والفخار في هذه الدنيا بل عليه أن يتوق فقط لنعيم الآخرة.
٩٤	المهدي	وكلائه وأتباعه	١٣٠٠هـ	....	بأنه عين أحمد سليمان كأمين لبيت المال لأنه وجده أكثرهم أمانة ويوثق به.
٩٤	المهدي	وكلائه وأتباعه	....	....	ألا يطلقون على أنفسهم لقب "الدراويش" بعد هذا، ولكن لقب "الأنصار". وأن لقب محمد البدوي إبن أحمد الكنان أبو صفية هو "الصادق"
٩٤-٩٦	المهدي	وكلائه وأعوانه	١٦ شوال ١٣٠١	١٨٨٤/٨/٩	أن يبذلوا نفوسهم وكل أموالهم لله
٩٦-٩٨	الخليفة عبد الله	وكلائه وأتباعه	....	....	يخبرهم برؤيا رآها ليلة الثلاثاء وأيضاً بالشعرة التي أبتلعها

					والتي ائتمنه عليها المهدي.
٩٨-٩٩	المهدي	أعوانه	....	....	يحذرهم من أن ينشغلوا بشئون الدنيا خلال شهر رمضان وأن عليهم تسوية قضاياهم فيما بينهم وإن لم يستطيعوا فعليهم تقديمها لوكلائه وخلفائه. ويعلمهم معنى "القدر".
٩٩	إبراهيم، صديق المهدي	المهدي	....	....	يسأل عن أشياء تتعلق بالصلاة.
٩٩	المهدي	صديقه إبراهيم	....	....	رد على ما جاء أعلاه.
٩٩-١٠١	المهدي	أتباع محمد الخير ببربر	١٩ شعبان، ١٣٠٢هـ	١٨٨٥/٦/٣	بأن دنقلا قد أصبحت محطة هامة لأن العدو كان متقدماً, وبالتالي فأن عليهم التوجه لدنقلا مع من يرسله محمد سعد لهم. أما محمد سعد فعليه البقاء في بربر مع محمد الخير.
١٠١-١٠٢	المهدي	وكلائه وأتباعه	١رجب	....	على الوكلاء أن يعدلوا في حكمهم مع الاستقامة. وعلى الأتباع طاعة أمرائهم ووكلائه.
١٠٢-١٠٦	المهدي	أتباعه	١٣٠١	١٨٨٤	التوكل على الله والعمل فقط من أجله.
١٠٦-١٠٧	المهدي	أتباعه	....	....	الاستعداد للآخرة – موعظة.
١٠٧-١١٠	المهدي	محمد الخير ابن خوجلي	١٣٠٢	١٨٨٥	بأن الخليفة عبد الله، قائد جيوشه، وأحمد سليمان، أمين بيت المال يؤديان واجباتهم بأفضل صورة.وأنه يتوقع منه أن يكون أكثر حماساً منهما لنصرة الدين والعمل علي إرضائه. ثم يضيف بأن أي أحد يخفي شيئاً من الغنائم التي تؤخذ في الحرب فيجب إرساله إليه لعقابه.

١١١-١١٢	المهدي	محمد الخير إبن عبد الله خوجلي	....	....	رؤيا يحدث فيها بأنه شاهد لصوص الغنائم وهم يعذبون بالنار.
١١٢-١١٣	المهدي	محمد الخير إبن عبد الله خوجلي	....	....	بيان بخط المهدي يتعلق ببعض الأحداث في المستقبل التي رواها له أحد الأولياء والتي إتضح صحتها فيما بعد.
١١٣	المهدي	....	....	....	رؤيا حكاها المهدي بأن الله أخبر محمداً النبي ثلاثة مرات بأنه خليفته.
١١٣	المهدي	أهالي بارا والأبيض	٣ ذو القعدة ١٣٠٠	١٨٨٣/٩/٥	تعليمات بخصوص الزوجات
١١٣-١١٤	المهدي	فخر الدين	....	....	يشرح له كلمة خليفة
١١٤-١١٥	المهدي	الشيخ محمد الأمين	٢٨ شعبان ١٢٩٨	/٧/١٥ ١٨٨٢	بأن الجدال قد لا يقود بالضرورة للحقيقة. بل أن الله هو الهادي، وأضاف بأن عليه الإيمان به والإسيحل به النمار.
١١٥	عبد الله النور	المهدي	....	....	فيما يختص بالنساء اللاتي غاب أزواجهن.
١١٥	المهدي	عبد الله النور	....		الإجابة عما جاء أعلاه.
١١٥-١١٦	المهدي	الشيخ محمد جبارة وصديقه	....	....	يعزيه في وفاة إبنه الذي مات شهيداً. وأضاف بأن عليه ألا يحزن بل يفرح لذلك.
١١٦	المهدي	أتباعه	....	....	ألا يركبوا الخيل إلا عند القتال وأن عليهم التواضع والمسكنة.
١١٦-١١٨	المهدي	أتباعه	....	....	أن يحبوا بعضهم بعضاً ولن يتحدوا

					ضد أعداء الله ، مع التمسك بالدين
١١٨-١١٩	المهدي	أتباعه	....	....	إرشادات لجعل الصلاة مقبولة والمحظورات التي تجعلها غير مقبولة
١١٥	المهدي	أتباعه	....	....	خيبة الأمل في الذين لا يتوكلون على الله.
١١٩-١٢٠	الخليفة عبد الله	أتباعه	٢١ربيع الآخر ١٣٠٥هـ	١٨٨٨/١/٦	أنه رأى(في رؤيا) أن النبي الكاذب عيسي وأتباعه يعذبون في النار، وأنه سأل الله العفو عنهم بدون طائل.
١٢٠-١٢١	الخليفة عبد الله	أتباعه	شعبان ١٣٠٥هـ	أبريل ١٨٨٨	في رؤيا جاءه النبي وأيده فيما فعله وأنه كشف له كثيرا من أحداث المستقبل.
١٢١-١٢٢	الخليفة عبد الله	أتباعه	....	....	أن كل القضايا سواء الجنائية أم المالية، السابقة ليوم ٨ رمضان ١٣٠٢هـ(يوم وفاة المهدي) ستشطب ماعدا قضايا١) الديون ٢) الودائع ٣) اليتامى٤) الأملاك ٥) والعتق
١٢٢-١٢٣	الخليفة عبد الله	وكلائه الذين يحصلون الزكاة	....	....	ألا يطلبوا إلا الذكاة المقررة، وإذا أرغم أحدهم الأهالي على دفع أكثر مما هو مستحق فسيعاقب عقاباً عسيراً.
١٢٣-١٢٦	الخليفة عبدالله	أتباعه	....	....	أن يلتزموا بعهدهم وأن يكونوا دائماً جاهزين للجهاد. ثم يضيف وصفاً للجنة التي يمضي إليها الشهداء.
١٢٦-١٢٧	المهدي	الشيخ دفع الله	١٢٩٨	١٨٨١	أن الله ورسوله قد سماه المهدي وبشراه بالنصر على كل الأعداء.

١٢٧-١٢٩	المهدي	الخليفة محمد المهدي ابن الولي السنوسي	١٣٠٠ هـ	١٨٨٣	مثل أعلاه. وأضاف بأنه في إنتظار إجابة مرضية منه.
١٢٩	الخليفة عبد الله	الأمراء والأتباع	....	....	مثلما جاء في ١٢١-١٢٢
١٢٩-١٣٠	عبد الله المحجوب ابن أحمد، وكيل المهدية	قاضي الإسلام أحمد ود علي	....	....	يسأله رأيه في ١٢ مسألة فقهية
١٣٠	قاضي الإسلام أحمد علي	عبدالله المحجوب وآخرين	....	....	إجابة عما سألوا(أعلاه)
١٣١	قاضي الإسلام أحمد علي	الوكيل القاضي محمد مدني	٢٣ ذو الحجة ١٣٠٢هـ	٥/١٠/ ١٨٨٥	شرحه
١٣١	"	للجميع	....	....	إعلان بخصوص قضايا الطلاق
١٣١	الخليفة عبدالله	للجميع	....	....	إعلان للكافة لقبول العملة (الجديدة) وألا يعترضوا على قبول(الريال الناعم)أو القروش.وأن تباع كل ٤ باردات من الدمور بربع ريال في كل مكان.
١٣٢	الخليفة عبدالله	الوكلاء والأمراء	....	....	ألا تفرض ضرائب على الأنصار إلا إذا صدق لهم بذلك.
١٣٢-١٣٣	المهدي	أتباعه	....	....	تعليمات بخصوص صوم رمضان
١٣٤	المهدي	أتباعه	....	....	موعظة: أن يبذلوا أرواحهم تماماً للجهاد. وأن التضحية بالنفس فيه

					ستقابل بالجزاء الأبدي في الجنة
١٣٥-١٣٤	المهدي	القضاة والعملاء والأمراء	....	....	أن يعدلوا في أحكامهم ويتحلوا بالاستقامة وأن يقضوا بشرع الله. وأيضا إلغاء كل القضايا التي نشبت قبل ١٢ رجب ١٢٩٨ (معركة ماسة) ماعدا قضايا ١) الديون ٢) الوديعة ٣) مال اليتامى ٤) العتق
١٣٥	المهدي	الخليفة عبد الله	....	....	أن يعاقب بشدة كل من يعصي أمره، ثم أضاف بأنه إذا كانت أوامر غردون باشا تطاع فور إصدارها فلماذا لا تطاع أوامره هو؟
١٣٥	المهدي	....	....	....	تدخين التبغ أكثر شراً من شرب الخمر.
١٣٦-١٣٥	المهدي	محمد الخير عبدالله خوجلي	....	....	تعليمات خاصة بقضايا الأراضي، ويلفت نظره لما وجهه به من قبل في ١٦ ذو القعدة ١٣٠١هـ (١٦ سبتمبر ١٨٨٤) حول نفس الموضوع.
١٣٦	المهدي	إبراهيم مصطفى	....	....	أجابة عن أربعة أسئلة خاصة بتدخين التبغ ولبس الحلي الذهبية.
١٣٦	المهدي	أتباعه	١٤ شعبان ١٣٠٢	٢٩/٥/ ١٨٨٥	أوامر بخصوص النساء والأراضي.
١٣٧	الخليفة عبدالله	أتباعه	....	....	يذكرهم بتعاليم المهدي الخاصة بالطلاق ومنع النساء من النواح على الموتى.
١٣٨-١٣٧	المهدي	لعماله	....	....	إرشادات بخصوص الزواج والطلاق.
١٣٨	المهدي	لعماله	....	....	أن ينشروا كلمة الله بين كل الناس وتعميم كل أوامره ومنشوراته عليهم.
١٣٩-١٣٨	المهدي	أحبابه	....	....	بأنه تسلم خطابهم، وأنه يحمد الله الذي هداهم لطريق الحق، وأضاف

					بأن عليهم فور استلامهم لخطابه هذا أن يختاروا قائداً لهم وأن يتوحدوا ثم يتجهوا لحصار الخرطوم.
١٣٩	المهدي	....	....	....	رؤيا كتبها بخط يده
١٣٩-١٤٠	المهدي	لأتباعه	....	....	الصبر على المكاره وسيجزون خيراً عميماً.
١٤٠	المهدي	لأقاربه وأحبابه	....	....	يوبخهم لضعف إيمانهم.
١٤٠	المهدي	....	....	....	ألا يغرهم حال الدنيا فما هي إلا سراب، بل أن يسلموا أمرهم لله.
-	المهدي	أتباعه	....	....	أن يتوحدوا، مع أوامر للخلفاء والأمراء لمساعدة الخليفة عبدالله لامداد بيت المال بالمون. ثم أضاف بأن بيت المال يمد كل الأصحاب باحتياجاتهم، وإذا ما كان فارغاً فان الله كفيل بهم.
-	المهدي	أتباعه	....	....	رؤيا ينبئه فيها الرسول بمهديته ويحدثه عن أشياء تحدث في المستقبل.
-	المهدي	أتباعه	....	....	بأن عليهم أن يحمدوا الله، لأنه يسر لهم أن يدافعوا عن الدين، وليكونوا مقاتلين في سبيل الله

*** لذا فإن دفتر الخطابات هذا قد اشتمل على ١٣٣ رسالة: ٩٩ من المهدي

١٩ من الخليفة عبداله

<u>١٥</u> من أشخاص مختلفين

الجملة ١٣٣ رسالة

القسم الرابع
وضع المصريين في السودان حتى نهاية عام ١٨٨٣

الملخص:

"القوات المصرية في السودان عام ١٨٨٣ - تجارة الرقيق، والتجارة عموماً -مسببات الثورة - بعثة الكولونيل ستيوارت - سقوط بارا - حصار وسقوط الأبيض - المهدي يوطد مركزه في الأبيض ويسمي خلفاءه - قوانين محمد أحمد وأوامره - توبيخ الذين يهربون بالغنائم - قوانين للأخلاق وللطاعة وللاعتدال - تعاليم المهدي العشرة- إلغاء كل الممارسات والعادات المتصلة بالترك- رؤيا بشرفيها المهدي بالنصر على كل العالم - ذم عدم الطاعة واستعمال التمباك والتدخين وشرب الخمر- منشور للكافة للنهوض والالتحاق بالمهدي - خطابه إلي المنا إسماعيل - بيان لأهالي الخرطوم - مبعوث من السنوسي يصل لكردفان - خطاب المهدي للسنوسي - الثوار يهزمون المصريين في القراصة - انتصار عبد القادر باشا في معتوق - هزيمة ألمكاشفي في مشرع الداعي - فك الحصار عن سنار - هزيمة الثوار في جبل سقدي - سليمان نيازي يخلف عبد القادر - تعيين علاء الدين باشا حاكماً عاماً - إرسال هكس باشا للسودان على رأس قوة عسكرية- هزيمته للثوار في المرابيع - المؤامرات في الخرطوم - قيام هكس باشا بجيشه نحو كردفان - وصف المنطقة التى مر بها - آخر رسائل هكس باشا ما حدث أثناء زحفه ومعركة شيكان من إفادة خادم هكس باشا وأحد الكتبة لأحد كبار الأمراء المهدويين - خيانة الأدلاء - الشقاق والخلاف بين هكس باشا وعلاء الدين باشا - نزع سلاح المدنيين - هروب رجال قناوي بك - هجوم العدو وتدميره للجيش المصري في شيكان - موت هكس باشا - تأثير انتصار المهدي على انتشار نفوذه - تأكيد الوقائع - الأحداث بضواحي سواكن - المهدي يرسل عثمان دقنة بنداءاته إلي شرق السودان- وصول عثمان، إرساله مصطفي هدل لحصار كسلا - هجومه على سنكات - هزيمته هناك وفي هندوب - تدمير التعزيزات المصرية بالقرب من سنكات - حصار سنكات - تدمير تعزيزات أخرى - الرعب في سواكن - قرار الحكومة بفتح طريق من سواكن لبربر - بيكر باشا يجهز لحملة عسكرية - هزيمة قاسم أفندي في تماتيب - استبدال الحاكم محمود باشا طاهر بسليمان نيازي باشا - محاولة بيكر باشا إنقاذ طوكر - كادت قواته أن تدمر تماماً في التيب - حماية سواكن برجال الحرب البريطانيين - البحث في أمر إخلاء حامية هرر - تصرف الشكرية- الأحداث في دارفور عام ١٨٨٣ - حصار الفاشر ودارا وكبكابية- هزيمة السعيد بك جمعة. لم تصل لسلاطين بك الأوامر التي تأمره بالانسحاب - سلاطين يضع أم شنقة في وضع الدفاع - مظاهر عدم الولاء وسط الضباط - لجوئه للتحايل والخداع -

إرسال زقل بخطابات للمهدي ولهكس باشا – انضمام زقل للمهدي عندما علم بهزيمة هكس – تعيينه أميراً على دارفور – إستسلام أم شنقه بدون قتال – استسلام سلاطين في دارا – سلاطين وزقل يطلبان من الفاشر أن تسلم وكذلك من حامية كبكابية – المهدي يكتب لرابح الزبير والذي يرفض الانضمام إليه – الأحداث في بحر الغزال – هزيمة العرب بالقرب من تل جوانا – العرب ينهبون فروجا – تشتيت شملهم قرب ليفي – الحملة ضد الجانقي – الجانقي يدمرون قوات رفاعي أغا – الدينكا يقفلون الطريق إلى مشرع الرق عند ثورتهم – مقتل الرحالة شوفر – لبتن يحذر يونكر, الذي كان يستكشف ألويلي, من الخطر – يونكر وكابتن كاساتي يتقدمان نحو الاستوائية – لبتن يحصن نفسه داخل زريبة ويصد هجمات العرب – أحداث الاستوائية عام ١٨٨٣, سلوك الدناقلة – أمين يرسل التعزيزات لمديرية الرول – الدينكا والأجار يذبحون حاميات رمبيك وشامبي – إحتلال رمبيك – الزعيم لورو يغري قبيلة الباريا للثورة – تناقص إمدادات الذخيرة".

قبل مائة عام لم يكن هناك سودان ولم يكن أساس الخرطوم قد وضع. وكانت هناك معدية على النيل في كرري تنقل المسافرين من أسيوط إلي العاصمة المشهورة سنار, والتي كان عاهلها الهمجي على رأس عرش فخيم مترف ينافس في القوة والترف مملكة الحبشة العريقة. قامت مصر بتأسيس الخرطوم وحملت إليها كل مثالب الحكم الشرقي وأخطائه والتي إذدهرت وترعرعت بشدة في تربة خصبة. وقامته عائلات بأكملها من الأقباط الكتبة, باتياسات أفريقيا, بحفظ حسابات الباشبوزوق وحصيلة غاراتهم للنهب والسلب والمدعومة بواسطة الجنود المصريين. ما كانت تلك إلا حكومة لجمع الضرائب.

لقد حدد اللورد دوفرين ألا يتجاوز حجم الجيش المصري الجديد* الستة ألف رجل. وأن هذا العدد, بغض النظر عما يحدث في السودان, لا تخفي دلالته على أحد. فقد تم حل الجيش المصري القديم ولكن بقي منه في الأقاليم الخارجية الأعداد التالية:

في هرر.......................... ٣٥٩٥ رجلاً

الجيرة.......................... ٥٠١ رجلاً

زيلع .... ٢٨٠ رجلاً

بربرة .... ١٩٦ رجلاً

مصوع .... ٢٤٤٢ رجلاً

سواكن.......................... ١٨٠٠ رجلاً

على الحدود الحبشية بالسودان.......... ٤٣٠٤ رجلاً

* حددت هذا العدد السلطات البريطانية عقب احتلالها لمصر عام ١٨٨٢. وبدء إنشاء الجيش المصري, بعد ما تم حل الجيش القديم, من جديد (المعرب)

في كل أنحاء السودان الأخرى .... ١٩٤٩٢ رجلاً
الجملة (خارج مصر) .... ٣٢٦١٠ رجلاً

ورغم ما يقال بأن تلك القوات هي قوات احتلال لتلك المناطق إلا أن هـذا التعبيـر، عنـد استقصائه والتمعن فيه، يصبح مضللاً. فالمصريون المسالمون الكادحون هم آخر من يصلح للغزو أو الفتوحات في العالم ولا يمكن تغيير ميولهم المهلكة في المبالغة فـي شـئونهم البينيـة والمحليـة والاستغراق فيها. وكانت تلك القوات يكثر بها الرجال من ذوي العوائل الكبيرة العدد والذين تم جلبهم، بطريقة أو بأخرى، للعمل والتوطن في بلاد غريبة عنهم. ولو كانوا قـد جـاءوا مسـالمين، بـدون السلاح، فربما تحولوا إلى مستوطنين جيدين ولربما كانوا قد أدخلوا لهذا البلد أنماطـاً معقـدة مـن الزراعة. ولكن الميزة والتفوق الذي أتاحته لهم الأسلحة المتقدمة والتعليم النسبي ما قادتهم إلا إلـى الطغيان والتسلط. ولم يكن أداؤهم إلا كأداء الريفيين البسطاء، الذين تجري في دمائهم موروثات أهل الشرق وآسيا الوسطى، والذين ينتزعون المال والنساء والشراب من جمهرة الأهالي البائسين (عندما تتاح لهم الفرصة).

وإذا نظرنا إلى المسائل الخاصة بالسودان نجد أن الغموض يحـيط بموضـوعين لا تـتم مناقشتهما غالباً إلا بحماس وانفعال. الأول هو السؤال الخاص بالتجارة في عمومها، والثـاني هـو تجارة الرقيق والتي كتب الكثير عن مكافحتها، ولكن بنوع من المشاعر والعطف أكثر من المعرفـة الموضوعية للأمر.

ويعلمنا التاريخ على الأقل شيئاً واحداً عن التجارة في الأقاليم غير المكتشفة وهو أن هذه التجارة لا تختار إلا أقصر الطرق المؤدية للبحار. وبنظرة إلي خريطة السودان نجد أن أي منتجات قد تكون به لا تتخذ طريقها على النيل أبداً وإنما تمر عبر الطرق الصحراوية التي تسير موازية للنيل إلا في الحالات التي تتخذ فيها بعض الوسائل التي تسهل استخدامه. وحتـى وقـت حـدوث الإحـتلال المصري للسودان كانت التجارة تمر من كردفان ودارفور إلى أسيوط ومن بربر إلى سواكن. وكانت رطوبة الأعشاب ووجود الآبار على الطرق المجاورة للنيل تتعرض للجفاف عندما ينحسر النيل ولكن الطريق الصحراوي، إذا ما كان طبيعياً وعادياً، فهو أنسب لجمال القوافل من غيره. ويمكن تشـبيه قافلة من ألف جمل، جاءت إلي بربر عبر وادي أتولا من قنا، بأنها مثل أسطول من المراكب سـائرة في نهر من الرمال.

ويكتسب تعبير "سفينة الصحراء"، رغم عدم تطابقه تماماً، حيوية لأنه تعبير مناسب تماماً. فقد كانت الطرق الصحراوية هي التي تنقل التجارة ولأسباب ملائمة تماماً. فقد كانت أعداد لا تحصي من ألوف الجمال تجوب السهول الواقعة شمال خط العرض ١٣ درجة. وهي ثروة مأمونـة تعطـي لمالكها الطعام والمزيد من الإبل بتوالدها ولا تحتاج لنفقة تذكر. ولا أحد سوى أصحابها يمكنه التجول معها خلال تلك الفيافي. ومن الناحية الأخرى فلا يمكن بناء المراكب بدون رأسمال وفي نفس الوقت فأن الاستثمار فيها غير مضمون، ولا توجد أي وسيلة لحمايتها أو إخفائها عن العيـون. ثـم جـاء المصري، وهو رجل مراكب ممتاز، مصطحباً رعباً لازمه لألف سنة من الصحراء ومـن قاطنيهـا،

وقال:"مهما نفعل فأننا سنشق طريقنا إلى النيل" ثم قام ببناء الخرطوم وعمل على تسهيل الملاحة خلال الشلالات وجلب البواخر والسكك الحديدية مع الرجال الأجانب. لكن رغم ذلك لم يحقق هدفه. فلا زالت هناك أربعمائة ميل من الشلالات أمامه ولازالت الملاحة لا تصلح إلا للتحركات المحلية المحدودة أو على المجاري المفتوحة.

أما تجارة الرقيق فيمكن القول أن كبحها قد بدأ حتى قبل أن تفهم طبيعتها. فمنذ عام ١٧٩٤ وحتى الوقت الراهن كنا نحاول بالتدريج أن نعرف ماهيتها حتى عرفنا الكثير عنها ما عدا شئ واحد. هذا الشيء هو أنه ليس من السهل على الجيوش المصرية, مثل التي كانت بالسودان عام ١٨٨٣, أن توقفها أو تكبح جماحها. ولقد كانت من أسباب الثورة التي قامت بالسودان ثلاثة أسباب أهمها فساد الموظفين المصريين وتسلطهم وقابليتهم للرشوة, والضعف العسكري, ثم قمع تجارة الرقيق. فأناس صفاتهم الرئيسية هي الوهن العسكري والرشوة والطغيان, أناس مشتتون في مساحات شاسعة, ثم يوكل إليهم قمع تجارة الرقيق, هذه المهمة التي لم تنجح إلا بالكاد في دولة عالية التمدن, تسندها الديانة المسيحية, وبعد حرب أهلية طاحنة وبعد صرف أكثر من ثلاثين مليوناً من الجنيهات. فكيف يمكن لمثل هذه المستعمرة الضعيفة المرتشية أن تقمع تجارة الرقيق والتي هي الديانة والحرفة ومصدر الدخل الأساسي لأكثر القبائل شراسة بتلك البلاد؟ لقد حارب بيكر, وحكم غردون البلاد, وتم تحقيق نجاح كبير. ولكن, وعندما غادرا المنطقة, أنطلق تجار الرقيق بعزيمة وعنف من جراء كبتهم السابق, ومنذ اليوم الذي أطاحوا فيه بأول طربوش, وأطلقوا فيه أول رصاصة رمنجتون على الجسد الهامد المتسلط, انتهت بعده السيادة المصرية على السودان.

لقد كان عام ١٨٨٢ في السودان, مثله مثل مصر, عاماً من الفوضى والاضطراب. وكان هناك جمعاً متعجلاً للمفصولين من القوات غير النظامية رغم الاحتجاجات على مدى إخلاصهم أو عدم فهمهم للكلمة, وهؤلاء هم الذين قدر عليهم عند نشوب الثورة أن يموتوا متشبثين بمواقعهم.

ويمثل تمرد السودان حلقة من سلسلة طويلة من الكوارث. وما عدا في بعض الحالات القليلة لم يكن هناك أي عمل مدهش طوال الفترة التي اتسع فيها مد الثورة ببطيء وشيئاً بعد شئ, ذلك المد الذي أغرق قلاع مصر الحصينة.

ولكن ذلك الثبات والجلد, رغم اتسامه بالبلاهة وتبلد الحس, أعطانا مثالاً من الصعب أن نجد مثيلاً له. فقد أبيدت الحاميات, بعد أن أنهكتها المجاعة, وهي تقاتل حتى آخر رجل.

لقد كانت الرابطة غير الواقعية, بين الوطن الأم مصر وبين ممتلكاتها النائية في إفريقيا, قد توترت وتهرأت خيوطها الواهية المتآكلة عند نشوب أحداث العامين ١٨٨١ و ١٨٨٢، وفي السادس عشر من ديسمبر وصل الكولونيل ستيوارت إلى الخرطوم بعد أن تم تكليفه باستقصاء شئون البلاد من كافة نواحيها.وجد أن دخل البلاد ومنصرفاتها, بقدر ما استطاع الوصول إليه في ظروف تلك الفوضى, قد بلغ نصف مليون من الجنيهات كمرتبات سنوية – رغم مضي عدة شهور من المتأخرات التي لم تصرف, ووجد أن الضرائب المفترض تحصيلها سنوياً هي حوالي ٤٠٠,٠٠٠ جنيه وأن متأخرات التحصيل قد استمرت لعدة سنوات. وعدد الكولونيل ستيوارت واحدة بعد الأخرى من

الأسباب المختلفة لفشل الإدارة (المصرية) وأقترح الوسائل المختلفة لعلاج ذلك الوضع. ومن ثم طلب اللورد جرانفيل من اللورد دوفرين أن يلفت إنتباه الحكومة المصرية لتبني تلك العلاجات المقترحة. لكن الإصلاح كان جاهزاً من الداخل. إذ لم يجدي تصميم بيكر وعزمه ولا الطاقات المُلهَمَة لغردون في إنقاذ أولئك البؤساء المضللين الذين انتشروا في كافة أنحاء البلاد. يسرقون بدون أن يكونوا من الأقوياء، ويحملون السلاح بدون أن يكونوا من الشجاعة كي يستخدموه. ويعتنقون الدين بدون العمل بفضائله.

وفي انعزاله ووحدته بالخرطوم. أرسل الكولونيل ستيوارت مذكرة توضح المخاطر التي تحدق به ويحذر منها. وكان قد كتب رسالة قبل ذلك. في يناير ١٨٨٣. إلى السير إدوارد ماليت. قال له فيها: "لقد بدأت السنة الجديدة وهي تحمل كل ما لا يناسب المصالح المصرية". ولم يتمكن أي رجل آخر من توضيح صورة الحقائق من بدايتها إلى نهايتها في سلسلة من التقارير الواضحة والمضنية سواه. وقد كان التلغراف. أطول خط في العالم. يحمل مختلف التقارير يوماً بعد يوم.

***

وشهدت نهاية عام ١٨٨٢. كما نذكر. إحكام الحصار على مدن بارا والأبيض بواسطة المهدي.

وكانت مدينة بارا قد شهدت فرار الرجل النافذ. النور عنقرة. منها. وكانت قد حلت بها ضائقة شديدة في الطعام. وقام النور عنقرة. الذي أنضم الآن إلى المهدي. بالاتصال بالقمندان سرور أفندي ونصحه بتسليم المدينة. لكن سرور أفندي. الذي صدق بأن التعزيزات قادمة إليه. رفض باستمرار الإصغاء لتلك النصائح. لكنه. بعد لأي. اقتنع بنصيحة النور عنقرة واقتنع بألا أمل في إنقاذه وقام في الخامس من يناير بتسليم المدينة لود النجومي وبعدها إنضمت حاميتها البالغة ٢٠٠٠ رجل إلى الثوار والذين استولوا على كميات كبيرة من السلاح والذخيرة.

ثم عاود الثوار حصار الأبيض بعزيمة متجددة. وقد جاء في كلمات أحد الضباط. الذي كان موجوداً أثناء شهور الحصار الستة الطويلة. ما يلي:

"كان إطلاق النار متصلاً وتوفرت لنا الإمدادات في الشهرين الأولين وبعدها لجأنا إلى أكل الجمال والخيول والكلاب والقطط وغيرها. وقبل سقوط المدينة بشهر كنا قد وصلنا لدرجة أكل ألياف النخيل والصمغ والجلود وحتى جلود عناقريبنا.

ثم كتب المهدي لمحمد سعيد باشا للاستسلام لكنه رفض وقال إنه يفضل الموت على ذلك وأراد أن ينسف الحصون والقلعة حتى لا تسقط ما بها من نخائر في أيدي المهدي. وكنا نخسر يومياً عدداً من الرجال من جراء نيران العدو ولكن. وبنهاية الحصار كان يموت من الجوع يومياً ما بين ثلاثين إلى أربعين رجلاً وهم بمواقعهم. لقد حارب الرجال جيداً. لكننا كنا مشطوري الأفئدة من جراء نقص أو انعدام ما نأكله إضافة لذلك فقد أنضم رجال حامية بارا. بعد إستسلامهم. للعدو وظلوا ينادوننا من خارج الحصن بأن من الأفضل لنا أن نسلم. وهذا ما ضعضع معنويات الحامية أكثر من ذي قبل. وفي النهاية عقد محمد سعيد باشا. قائد القوات. وعلي بك شريف. وكيل المديرية. والقائمقام إسكندر بك. مجلساً حضره كل كبار الضباط والموظفين ومن ثم تقرر كتابة خطاب إلى المهدي يقترحون فيه التسليم بشرط الإبقاء على حياتهم.

أرسل ذلك الخطاب عصر يوم السادس عشر من يناير ورد عليه المهدي بعد بضع ساعات وقال بأنه سيدخل المدينة صباح اليوم التالي وأن أحداً منا لن يؤذي أو يمس. لكنني أظن أنه لم يتمكن من السيطرة على العرب الموالين له والذين اقتحموا الحصون تلك الليلة. لم نقم بأي مقاومة لهم ولم يقتل أو يجرح منا أحد لكنهم نهبوا كل شئ. وصباح اليوم التالي استلم محمد أحمد رسمياً زمام الأمر في المدينة وأرسلت كل الحامية لتعسكر في مكان منفصل. أما محمد باشا سعيد وعلي بك شريف وإسكندر بك وأحمد بك دفع الله ومحمد أغا ياسين فقد وضعوا في خيام منعزلة تحت حراسة البقارة.

وقد أرسل محمد باشا سعيد إلى علوبة بعد ذلك حيث تم إعدامه بواسطة الأمير المنا إسماعيل. وأرسل علي بك شريف إلى البركة حيث أعدم أيضاً. أما أحمد بك دفع الله ومحمد أغا ياسين فقد أرسلا لشكا, التي تبعد مسافة خمسة عشر يوماً, وقتلا هناك.

أما بقية رجال الحامية وعددهم حوالي ٣٥٠٠ رجل فكان عليهم أن ينضموا لقوات المهدي كما أجبر اسكندر بك للعمل في وظيفة تحت إشراف المهدي".

وسقطت في أيدي محمد أحمد حوالي ٦٠٠٠ بندقية وخمسة مدافع وكمية من الذخيرة بجانب ١٠٠,٠٠٠ جنيه نقداً. وأقام المهدي بمنزل الحاكم وقام بتدمير كل الكتب والأوراق الحكومية. وبعد أن نصب نفسه سيداً على كردفان بدأ يؤسس نظام حكمه. وربما كانت المراسلات التالية التي سنوردها قد تعطي صورة حقيقية للنظام الحكومي الفج الذي تم إنشاؤه الآن.

أما عمليات النهب والسلب العنيفة التي تلت سقوط المدينة فقد استدعت قيام المهدي بتوبيخ الذين قاموا بها بشدة. فقد رأى أن هذه الاستباحة العامة ستؤدي إلى عواقب جسيمة وستعرض الطبيعة الدينية لحركته لخطر شديد ما لم يتم إيقافها على الفور. ومن ثم أصدر المنشور التالي:

من محمد المهدي إلى كافة أحبابه في الله :

"بسم الله الرحمن الرحيم ...... (يبدأ المنشور بعدد من آيات القرءان تتحدث عن الموضوع, مما لا نرى داعياً لا يراده هنا. ومن ثم يواصل....) إن لم يكن أمامكم مثالاً تحتذوه أفضل من مثال الترك فبنس المثال. فقد أعطاهم الله الثروة والعمر الطويل والصحة والعافية, ولكنهم بدلاً عن تقبل هذه (النعم) منه كهدية وعطية فقد نسوا أنفسهم تماماً وإعتبروا أن العالم صار ملكاً لهم وحدهم وعصوا أوامر الله ورسوله وقد أمهلهم الله حتى يرجعوا إليه لكنهم لم يعودوا.

وأخيراً دمرهم الله وسلب ملكهم ومنحكم له. لكنكم, وبعد أن حزتم على ما كانوا يملكونه شرعتم في السير على دربهم وبالتالي فأن الله سيدمركم كما دمرهم. توبوا إلى الله وتذكروا ما كان يفعله الترك برجالكم حين يلقون بهم في السجون ويقيدونهم بالجنازير ويستولون على نسائكم وأولادكم ويقتلون الناس مما يخالف أوامر الله. لم تأخذهم شفقة على أطفالكم الصغار ولا رحمة وتوقير لرجالكم الكبار السن. لذا فما يدهشني كيف نسيتم ذلك ولماذا لم تنضموا (معنا) في حربهم. فكم قهروكم ورغم ذلك أطعتم أوامرهم. لقد أرسلني الله الآن لخلاصكم وعليكم الانضمام إلى في حربهم وستحترق أجسامهم بالنار وسيقتلون حتى آخر رجل منهم.

ولقد نما إلى علمي أنكم بعد النهب والسلب تركتم القتال ورفضتم الانصياع لأوامر خلفائكم وأمرائكم. فاحذروا عقاب الله. وإذا ما أصررتم على فعلكم هذا فستدمروا وسيحرقكم الله بالنار وستفتح الأرض فمها وتبتلعكم. لقد حذرتكم حتى لا يكون لكم أي عذر. فتوبوا وأطيعوا أمري وأرجعوا كل الغنائم التي نهبتموها. فقد أخبرني الرسول بأن أي رجل يحتفظ بالغنائم سيدمر وإن الرسول باق علي كلامه. مرة أخرى أقول لكم توبوا فأن الذي دمر الترك لقادر على إخضاعكم. ولقد أخبرني الرسول أنني عند ما أقتل الكفار وأستولى على هذه المديرية فأن على أن أرجع لمعاقبة الذين رفضوا طاعة أوامري. وهذا العقاب هو الموت. فانتبهوا وأطيعوا أوامر الرسول".

وسرعان ما تلي ذلك منشورات أخرى توضح أسس الأخلاق والطاعة والإعتدال مما سنورده هنا بالتفصيل حتى نوضح النوايا العشوائية والطغيان الذي أسسه الحاكم الجديد. والمنشور التالي يوضح السلوك الذي يجب أن تتبعه النساء عموماً:

من محمد المهدي إلى أحبابه في الله:

"بسم الله الرحمن الرحيم ....."

أيها الأحباب: لقد حظر الله في كتابه الكريم على النساء أن يظهرن أمام الرجال (وأورد هنا عدة آيات من القرآن). لذا، وطبقاً لأوامر الله، فأن على النساء ألا يظهرن في الأماكن العامة مثل الأسواق والطرقات العامة وغيرها. أما صغار النبات، أي اللاتي لم يبلغن مبلغ النساء، فيمكنهن ذلك.

وإذا ما ظهرت أي امرأة ورؤيت في تلك الأماكن، بعد ثلاثة أيام من إعلان هذا المنشور، فتجلد مائه جلدة وسيكون ذلك درساً للأخريات حتى لا يسرن على منوالها.

يسلم هذا الأمر لأمير السوق وللأمراء حتى يتم تعميمه على كافة الناس. وإذا خالفت أي امرأة هذا الأمر فيجب أخذها للقاضي. وعلى الخليفة عبد الله والخليفة محمد شريف والخليفة على قراءة هذا المنشور في كافة المساجد والأماكن العامة لمعلومية الجميع".

أما المنشور التالي فقد كتب بشكل وصايا للجميع:

من محمد المهدي إلى أتباعه:

بسم الله الرحمن الرحيم....."

هذا العالم، يا إخوتي، هو عالم الكفار وسجن المؤمنين. والعالم الآخر هو عالم المؤمنين. فعليكم بالتالي نبذ نعم هذه الدنيا واتركوها للكفار يستمتعون بها. وأوامري لكم هي أن تعملوا على:

١) تجنبوا شرب الخمر أو بيعها أو شرائها، سواء كان ذلك في الأسواق أم في بيوتكم، وطهروا أنفسكم منها ولا تكون في منازلكم قط.
٢) أوصوا أولادكم وأطفالكم لأداء الصلوات الخمسة وتشددوا في مراقبة أدائهم لها.
٣) تجنبوا الزنا والسرقة وعاقبوا من يقوم بذلك.
٤) أن تؤدي العوائل الصلوات في البيوت وأيضاً أثناء السفر.

٥) أن تكونوا أمناء وصادقين وألا تخفوا غنائم الحرب.

٦) أن تأمروا نساءكم وبناتكم بتغطية رؤوسهن وأجسامهن وإذا رأيتم أي إمرأة سافرة فعليكم معاقبتها.

٧) أن تمنعوا نساءكم من البكاء والنواح على الميت أو المشي وراء الجنازة نحو المقابر.

٨) أن يتم خفض مهور النساء فأن كانت بكراً فيكفي مهراً لها عشرة ريالات وإن كانت أرملة فخمسة ريالات.

٩) أن تمنعوا نساءكم وبناتكم من رعي البهائم بصحبة الرجال أو الأجانب وأن تمنعوا عدم التحشم بينهن.

١٠) إذا وجدتم عبداً ضالاً أو حيواناً ضالاً فلا تخفوه, بل حاولوا معرفة صاحبه. فأن لم تجدوا صاحبه فخذوه إلى بيت المال.

كونوا صادقين ومطيعين لتنفيذ هذه الأوامر فهي من الله ومهديه وإلا دمركم الله.

المنشور التالي يشير بالتفصيل إلى الإعتدال في نفقات الزواج. فحفلات الزواج في الشرق هي واحدة من أهم أحداث الحياة. ويتحدد الوضع الاجتماعي للأسر المتعاقدة بحسب كمية المال الذي يتمكنون من صرفه على الحفل الباذخ والمراسم المرفهة التي ترتبط دائماً بالزواج.

فإذا كان الدخل السنوي لرجل ما هو ١٢ جنيه فلن يفكر أبداً في صرف خمسين أو ستين جنيها على زواجه وإلا أدخل نفسه في الديون لعدة سنوات.

لذا عمل المهدي على إختصار تلك النفقات الباهظة وأن يتم تحويل الفائض لصالح الخزينة أو بيت المال.

والمنشور هو كما يلي:

(أمـــر)

"حيث أنكم الآن أتباع الله فلا يجب أن تكون مراسم الزواج من أجل المباهاة. والذين يودون الزواج منكم عليهم ألا يسرفوا في الصرف ويجب أن يكون الزواج بسيطاً مثل زواج فاطمة بنت الرسول. وقد غضب الرسول بشدة على ما يجري حالياً من تجاوزات ومبالغات (في الصرف).

يجب ألا يذبح سوى خروف واحد وألا يزيد مهر الأرملة على خمسة ريالات ومهر البكر على عشرة ريالات. وألا تكون الكسوة أكثر من لبستين. إذ أن المال يجب أن يحفظ ليصرف على حروبنا الدينية ويجب أن يقسم بين المقاتلين.

وأي رجل لا يطيع هذه الأوامر سيعتبر من اللصوص وسيعاقب تلقائياً على هذا".

والنداء التالي موجه للذين يشعرون بأن ظلماً قد حاق بهم وأن عليهم أن يتقدموا له فوراً لتعويضهم:

"يا أحبابي,

إنني وباسم الله ورسوله، ألتمس من أي أحد منكم، إذا ما ظلمته ونسيت ذلك، أن يطلب التعويض الفوري على ما حاق به. ولا تنتظروا حتى اليوم الآخر، يوم القيامة.

إنني سأتحمل أي خطأ ولا أريد أن ألقي اللوم على الآخرين. وإنني ألتمس منكم هذا، ليس باسمي فقط، بل باسم الخلفاء والأمراء والأشراف. عليكم بالتالي التقدم بمظالمكم الآن ولا تتأخروا حتى ضياع الوقت".

ومن الواضح أن الأمر التالي موجه ضد السلطات الدنيوية التي يمارسها الأشراف المنحدرين من نسل النبي. فقد كان معلوماً لدي المهدي أن كثيرا من هؤلاء الأشراف ما انضموا إليه إلا لدواعي الحال لكنهم في قرارة نفوسهم يحيدون عن المهدية. وبالتالي يشكل هؤلاء الرجال خطراً وسط الجماهير المتحمسة والتي تكون القوات المقاتلة للمهدية. أصبح ضرورياً بالتالي أن يجبروا على الطاعة لقادة المهدية وزعمائها ومن ثم خاطبهم قائلاً:

"يا أحبابي: أوجه هذه الرسالة خصيصاً لكم لأنكم من سلالة النبي. عليكم أن تنبذوا نعيم هذه الدنيا وأن تكرسوا أنفسكم لعبادة الله. عليكم طاعة الأمراء وتنفيذ أوامرهم ولا تجادلوهم وإلا تم اعتباركم من الكافرين (وبعد هذا أورد عدة آيات من القرءان). أحذروا مخالفة الأمراء لأنهم قد عينوا لقيادتكم في الحرب الدينية "وبعد هذا يورد عدداً من الآيات القرآنية التي تحث على القتال في سبيل الله".

ومن المدهش أن نجد أن المهدي قد صمم وبعزم شديد على الإطاحة بكل التقاليد العسكرية للقوات الحكومية وأستبدلها بأحياء التقاليد السودانية (العسكرية) القديمة.

وتستخدم الطبول النجاسية (النقارة) الآن بواسطة عموم قبائل البقارة ومعلوم سحر صوتها ورتابته لكل من دخل في قتال ضد السودانيين. وقد أصدر المنشور التالي:

"من محمد المهدي إلى كل خلانه من أصحاب الرايات يا أخوتي، أحمدوا الله في كافة الأحوال وتأملوا في خلق السماوات والأرض. تجنبوا كل المتع الزائلة مثل ضرب النحاس والطبول الصغيرة والكبيرة. فالطبول يجب ألا تضرب إلا عند الضرورة ويجب عدم استخدام الطبول (الدفوف) أو الأبواق بعد هذا وعليكم التخلص من كل العادات التي أدخلها الترك.

أيها الأصحاب والمقاتلون في سبيل الدين: تذكروا أن الله قد قال عند ما خلق السماوات والأرض:" إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب". فكل الناس يرغبون في أن يوصفوا (بأولي الألباب) ويكرهون أن يوصفوا بالبلادة.

ولأنكم يا أحبابي تدركون معني أحاديثه وتسبحون له في وقوفكم وفي جلوسكم وفي رقادكم، فعليكم أن تنظروا بالإعجاب لخلق السماوات والأرض، فهذه هي إرادة الله والذي أظهر هذه العلامات لعباده. وكانت تلك عادة الصحابة وكانوا يتفكرون في معجزاته سواء كانوا في الحرب والقتال أو في غدوهم ورواحهم. فسارعوا للسير في دربهم وواظبوا على الصلاة سواء أقمتم أم ظعنتم أو كنتم مع أصحابكم. وتجنبوا كل وسائل اللهو فهذا الكون لا يعيش في سلام إلا بالصلوات وابتعدوا عن مباهج الموسيقي ولا تنشغلوا بضرب الطبول صغيرها أو كبيرها. أما في المستقبل فلا تضرب طبول النحاس أو النقارة إلا عند الضرورة مثل استدعاء المقاتلين للجهاد أو لتجميع أولئك الذين في مكان بعيد وإحضارهم.

وواظبوا على ذكر الله. فهذه شيمة العباد الصادقين والمقاتلين في سبيله. وهي تضئ القلوب وخاصة قلوب الجهلاء، وهي الطريق إلى الله وهي تاج النصر للمهتدين.

ودعوا جانباً أي شئ حتى لو له أقل شبه لأخلاق أو عادات الترك والكفار. وقد قال الله في حديث (قدسي) "أن على عباده ألا يتخذوا سبيل أعدائه أو يتشبهون بهم في لباسهم" فكل ألبستهم، مثلها مثل طبولهم وأبواقهم وأشيائهم الأخرى، يجب أن نبتعد عنها وأن نلتصق ونتبع فقط عادات الصحابة وطباعهم رضي الله عنهم. حان الآن وقت الرجوع إلى الله وإقامة العهد معه فلا تضيعوا هذه الفرصة وتنغمسون في الطرب والموسيقي.

صلوا بقلوب نقيه طائعة وسبحوا الله ومجدوه والصلاة والسلام على سيدنا البشير* محمد.**

وكان من عادة كبار رجال الدين في البلاد الإسلامية أن يعزلوا أنفسهم (في خلوة) لفترة من الزمن وينغمسون في الرؤى والأحلام التي تواكب بالطبع تلك الظروف الخاصة التي تستدعي التدخل الروحي والإلهامات والإرشاد. وكان المهدي، من أجل التأثير على أتباعه السذج وإقناعهم بطبيعة رسالته المقدسة، كثيراً ما ينغمس في مثل تلك الرؤى والتي يتناقش فيها مع الرسول وصحابته ويتلقى منهم الإرشادات الضرورية التي تقوده إلى إكمال مهمته بنجاح. والرؤيا التالية، التي حدثت له بعد سقوط الأبيض مباشرة، توضح ذلك كما سنلخصها:

١- ظهر لي النبي ومعي عبد القادر الجيلاني وأشار الله إلي*** ثم قال للرسول: أن هذا هو خليفتك وكررها.

٢- أن الله قد أمدني بعشرة من الملائكة بجيوشهم مع الأنبياء والرسل وسبعين ألفاً من أصحابهم.

٣- أن يحارب الترك وأن يرتدي المرقعة هو وأتباعه.

٤- أن يذبح ثلاثة من الثيران بعد فتح الأبيض وأن عليه بعد ذلك أن يحرق المدنية.

٥- أنه سيصلي في مساجد الخرطوم ثم بربر ثم مكة فالقدس فالعراق والكوفة.

٦- الابتعاد عن سرقة الغنائم وأن من يسرقها سيحرم من الأكل من شجرة الحياة.

والمنشور التالي موجه للذين لم يطيعوا أوامر المهدي:" من محمد المهدي إلى صديقه:

١- بحث على طاعة الله ورسوله والمهدي. والويل لمن يعصى.

---

* أضاف المؤلف لفظ (القادر أو القدير) بعد (البشير) وهي ليست من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم.(المعرب).

** سنلجأ لتلخيص بقية الخطابات التي ملأ المؤلف بها الكتاب بعد هذا. (المعرب).

وعلى من يريد التوسع فيها الرجوع إلى (الآثار الكاملة للإمام المهدي) للدكتور محمد إبراهيم أبو سليم وخاصة الاجزاء الأربعة الأولى (المعرب).

*** لم نجد هذا النص المكذوب في (الآثار) ولم نسمع قط أن المهدي قد ذكر أن الله قد ظهر له وهو (جل جلاله) لم يظهر حتى للأنبياء والرسل أو يتحدث إليهم مباشرة (المعرب).

٢- عدم أخذ النساء من رجالهن بالفقرة وأن هناك حالات حدثت وتم إرجاعهن لأزواجهن.

٣- لماذا لا يطيعون أوامره بينما كانوا من قبل يطيعون أوامر الباشوات وأوامر غردون شارب الخمر؟ لذا يجب معاقبة العصاة بالجلد بالسياط.

٤- معاقبة من يستولي على امرأة غيره وأن هذا شئ غير أخلاقي وسيعاقب مرتكبه بشدة ثـم يعذب في نار جهنم.

٥- يعاقب شارب التمباك بأشد من عقاب شارب الخمر.

وإنشغل المهدي الآن بإرسال الوفود لكافة أنحاء البلاد وقد أضاف استيلائه على أهم مـدن غرب السودان زخماً ودعاية للرسل والوفود. وكان قد تنبأ قبل وقت طويل من سقوط الأبيض بوقوعها بين يديه, لذا فما الذي يمنع الخرطوم من نفس الشئ. لقد إذداد عدد أتباعه كثيراً ومن ثم تتابع إرسال الإنذارات والمنشورات للقاصي والداني من البلاد ووجد بعضها سبيله للخرطوم وفيها تم تحذير أهاليها من أن يلاقوا نفس مصير أهالي الأبيض إلا إذا ما سارعوا للالتحاق بالركب الجديد للمهدية.

وفيما يلي (ملخص) لواحد من العديد من المنشورات الموزعة:

"من محمد المهدي إلى كافة أحبابه:

"يذكرهم بأن الدنيا لا تسوي جناح بعوضة وأن النعيم هو نعـيم الآخـرة. وأن علـيهم ألا يخشوا من الترك لأن الأرواح بيد الله. ثم يحذرهم من تكديس الأموال والثروات أو السعي لجمعها. ثم يطلب منهم التجمع وراء أي قائد يثقون فيه ويلقوا الحصار علـى الخرطـوم لأن الله يحـب الـذين يقاتلون في سبيله وأنه في النهاية لا يهدي من أحب بل الله هو الهادي لمن يشاء.

أما الخطاب التالي فقد كتبه المهدي إلى الشيخ المنا إسماعيل, والذي كما نذكر, قد قـام بـدور بارز في الاستيلاء على بارا والأبيض. ويبدو أنه فقد حظوته، وغالباً بسبب حيازته لـبعض غنـائم المعارك, ومن ثم أقيل من الأمارة وعين أخاه بدلاً عنه وبعد ذلك بقليل تم إرساله (للعالم الآخر):

"من محمد المهدي إلى حبيبه المنا إسماعيل: يعلمه فيه بأنه من المتقدمين وبالتالي يعرف غرور الدنيا وفنائها وأن عليه ألا يأسف على ما فاته من الأمارة لتحويلها لأخيـه وينصـحه بالتواضـع لله وأن يحمده على نعمه الظاهرة والباطنة وأن يشمر لجهاد أعداء الله وأعداء نفسه ويبشره بالفوز العظيم" *

وكان هذا الخطاب بمثابة التصديق بموته. فقد أعدم بعد بضعة أيام من كتابة ذلك الخطاب**

* النص الكامل في (الآثار), الجزء الأول, صفحة ٢٧٣/٢٧٢ (المعرب).

** الإنذار بقرب تصفيته ليس في هذا النص, بل في الخطاب الأخير الذي وجهه إليه المهدي منذراً بتسـليم والديـه مـن الغنائم بعد هذا بثلاثة أسابيع (الآثار ص ٢٩٠ (المعرب).

إعلام من المهدي لأهالي الخرطوم:

"يطلب منهم هجر المال والولد والوطن للدفاع عن الدين ويخبرهم بأن الرسول (ص) هـو الذي نصبه مهدياً بحضور الخلفاء والصحابة والخضر. وأن الله دعمه بالملائكة والأولياء وبالجن المؤمنين في ساعات الحرب وحذرهم من حب الدنيا ومن النفاق. وحدثهم عن الأمر بهجرته إلى جبل قدير بالقرب من ماسا وكتابته لكل شيوخ الدين وأن الصالحين منهم أجابوا دعوته أما الخبثاء فقد امتنعوا. وأشار لمفهوم المهدية عند العلماء والمتصوفة والأحاديث الدالة عليها وكيف أن الرسول قد أخبره بأن من شك في مهديته فقد كفر. ثم طلب منهم الهجرة إليه وقتل الكفرة المجاورين لهم(ثم أورد عدداً من الأحاديث والأقوال الدالة لمراده)- أشار لنسبه الشريف وانتمائه للحسن من جانب والده ووالدة والدته ولأجداده العباسيين وأن العلم لله أن له نسباً إلى الحسين. وأخيراً يوصيهم بتقوى الله ومعاونتهم لبعضهم البعض في شئون الدين والخوف من الله وفي الجهاد وعدم التعدي على حدود الله لأن كل شئ بيده".

****

وبعد وقت قصير من الاستيلاء على الأبيض، حضر عن طريق واداي مبعوث من السنوسي. لم يكن ذلك المبعوث محتاجاً للبحث في مسار الأمور لما كان قد شاهده. فالتربية الأخلاقية والسلوك الجاد للسنوسي جعله ينفر من سفك الدماء ومن السلب والنهب الذي شاهده فيما حوله. فقد كانت المشاعر الوجدانية المتملكة لفؤاد ذلك المبعوث من واداى تتمثل في الإيمان بأن التجديد وإحياء العالم بواسطة مهدي يقود الآخرين لحياة شاملة في الاعتدال والقصد، ولكرامة العمل الشريف وضبط النفس. لكنه لم يشاهد سوى المدينة المدمرة المنهوبة. ورأى الخزينة المليئة بالمسروقات والحلي المحطمة. وحتى الذرة، رآها ملطخة بالدم. ورأى رجلاً ذكياً حلو الحديث مستغرق في أشد حالات الفجور يقوده رجل أمي لا يعرف حداً لرغباته إلا بالسيطرة التامة التي لا يحدها حد.

ولكن، بالنسبة للسنوسي، لم تكن المهدية هدية تسقط بمعجزة من السماء وتؤسس بالنار والسيف. وكان يرى أن إحياء الدنيا بالكدح والصبر وبالسلوك الذي لا شائبة فيه هو الذي سيؤدي إلى انتشار نفوذه وتوسعه ويؤدي إلى المناداة به مهدياً ولو ربما بعد موته. لكنه لم يجد ما يجسد تلك الأفكار بعد كل ما شاهده من حوله في الأبيض، ولا في المعلومات التي نقلها مبعوثوه لأنحاء السودان. حتى المصريين الذين جاء هذا المهدي ليجدد حياتهم، لم يبح عليهم أنهم رأوا الحياة والدين مثلما يراها السنوسي.

وهناك مظاهر كثيرة وعلامات تدل على ظهور أصحاب الرسالات. ولابد أن يكون السنوسي، إضافة إلى تكدره من تلوث أسم المهدي بمستنقع ذلك المنغمس في الشهوات، قد تعجب من كون ذلك الرجل قد أصبح سيداً على إقليم يعج بجيوش لا حصر لها تحت إمرته.

ثم رجع مندوب السنوسي من مهمته وتوجه لبلاد سلطان واداي. ولابد أنه قد شعر بأن تنصيب سيده (لمقام المهدية)* قد تأجل لأجل غير محدود, إذ أن للخرافة قوة تزداد كلما ابتعدنا عن مركزها وتزداد أهدافها غموضاً. وأنه طالما تركزت الثروة والقوة في يد أحدهم فأن الباقي يصبح سهلاً غير عسير. وبمضي الوقت ووفاة المهدي في تطابق تام مع ما سلف من سوابق, فلابد أنه قد شعر بأن الخلافة الجديدة التي أعقبت وفاته ستستمر لوقت طويل بعد ذلك. ورغم ذلك فقد وجد شعاعاً من الأمل بأنها ستنتهي بعد ذلك الوقت.

وبسبب من وضعهم الجغرافي وأيضاً للضرورات السياسية فقد أصبح التواصل المستمر مع مكة أمراً بالغ الخطورة. فقد كان ذلك المدعي في عز الشباب وكانت عمليات المهدي الحربية قد أوقفت طريق الحج من أفريقيا لمكة. فالبحر الأحمر هو. بمثابة نهر يفصل بين إفريقيا ومكة وكانت منطقة عبوره, التي ترسخت منذ عهود طويلة, هي في سواكن. بالتالي كان الأمر يحتاج لشئ كالعتلة ليزحزح تلك العقبة وسرعان ما أنطلق الصراخ بأن طريق الحج قد سد. وعلى ذلك الأساس تصاعدت موجة الحماس والتعاطف الشديد في واداي مع الذين لم يتمكنوا من أداء الفريضة, مثلها مثل الممالك المجاورة. وقد ظهرت ثمار ذلك التعاطف فيما بعد.

ومن جانب محمد أحمد, فأنه لم يستسلم لعدم ورود رد على خطابه للسنوسي, بل فسر ذلك وعزاه إلى أن خطابه إليه لابد قد ضاع وفقد. وكان يدرك تماماً أهمية تعاون ذلك الشيخ القوي معه. فقام بالتالي بإرسال خطاب ثان له ورجاه مرة أخرى لتولي مقعد الخليفة الشاغر. وكتب له على النحو التالي:

"بسم الله الرحمن الرحيم..........

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وأله مع التسليم وبعد, فمن عبد ربه الفقير إليه محمد المهدي بين السيد عبد الله إلى حبيبه في الله الخليفة محمد المهدي بين الولي السنوسي كان الله في عونه, آمين.

فيا أيها الحبيب القريب, الواقف على سنة النبي الأديب,المرقي العباد إلى مقام التقريب: لا يخفاكم تغير الزمن وترك السنين ولا يرضي بذلك ذووا الإيمان والفطن, بل يترك لذلك الأهل والأوكار والوطن لإقامة الدين والسنن, ولا يتوانى عن ذلك لكون غيره الإسلام للمؤمن تجبره*......"

ثم بين أنه بلغه حسن سيرته وأنه كان يعتزم السفر للانضمام إليه والانخراط في سلك أصحابه لإقامة الدين. يذكر له أن المفاسد كثرت وأن الدين صار إسماً وأن غيرة المسلم لا تقبل ذلك. ثم يذكر إنه حاول أن يصلح الدين بالإرشاد والوعظ فلم ينجح إلا في إقناع بعض الفقراء. ويذكر أنه كلف بأمر المهدية ووعد بشائر كثيرة وأنه (أي السنوسي) قد اختير ليملأ منصب الخليفة الثالث (عثمان). ثم يبين أمر مهديته واتجاهاتها وأنه هاجر إلى قدير وجاهد الترك وأنتصر عليهم في عدة مواقع. ثم يخيره بين الجهاد في جهاته ومنها إلى مصر أو الهجرة إليه".

---

* المعرب.

* أورد ونجت هذه الديباجة كاملة (مع بعض التحريف) وكذلك كل الخطاب المكون من نحو أربعة صفحات. لكننا بعد ذلك أوردنا الملخص الذي كتبه الدكتور أبو سليم في (الآثار) الجزء الأول صفحة ٣٣٤ بالرقم ١١٥ (المعرب).

لم يكلف السنوسي نفسه عبء الرد على هذا النداء الأخير لكن مبعوثوه نشطوا في العمـل بالممالك البعيدة، مثل واداي والبرنو وغيرها, بقيامهم بتحذير الناس من إتباع النهج الجديد. لكن ثمار عملهم لم تظهر إلا بعد ثلاث سنوات حيث بدأ صراع عنيف بين المهديين المتنافسين. وقد تبنى بعض أعداء المهدي الفكرة السنوسية مظهريا ليضيفوا زخماً لحركتهم ولكن لا مجال للتســاؤل أو الشـك إطلاقاً في أن للسنوسي يداً في دفع الأحداث العدائية التي نشبت بعد ذلك في السودان. ولكن, وفـي الوقت الحالي, بدأت أمواج الثورة المهدية في التحرك تدريجياً نحو شمال السودان والانتشار فيه.

***

كان عبد القادر باشا يبذل كل ما في وسعه لقمع الثورة بين النيلين الأبيض والأزرق. غادر الخرطوم في الثاني من يناير متوجهاً نحو المسلمية وتولي قيادة القوات العاملة في ذلك الإقليم. جرت بعض الإشتباكات غير الهامة وكان للثوار اليد العليا فيها حيث قاموا بهزيمة القوات المصرية التـي كانت بمنطقة القراصة في ١٨ يناير.

وفي السابع والعشرين التقى عبد القادر بالثوار في منطقة معتوق وهزمهم وقتـل مـنهم حوالي ٦٠٠ كما أحرز نجاحاً صغيراً في الطريق إلى الكوة. ثم قام بتركيز قواته في الكوة وغادرهـا عائداً إلى الخرطوم.

لم تصل أنباء سقوط بارا والأبيض إلى الخرطوم حتى الحادي عشر من فبراير. وبعد يومين التحق عبد القادر بقواته بالكوة وعلى رأس قوة مكونة من ثلاثة كتائب إضافة لستمائة من القـوات غير النظامية, بقيادة رجل القلابات صالح بك شنقه, وبعض فرسان الشكرية زحف نحو سنار والتي كان يحاصرها الأمر أحمد المكاشفي. وعند ما سمع الأخير باقتراب القوات المصرية تقدم نحوهم بقوة من ١٠٠٠٠-١٢٠٠٠ من العرب. ونشب بينهما قتال عنيف في الرابع والعشرين من فبراير بمشرع الداعي هزم فيه المكاشفي بعد أن خسر مئتين من رجاله وتم فك الحصـار عـن سـنار وأعيـدت الاتصالات بينها وبين الخرطوم وفي هذه المعركة جرح عبد القادر باشا جرحاً خفيفاً.

تفرقت قوات الثوار في تلك المنطقة إلى ثلاثة أقسام, استسلم قسم منهم للمصـريين فـي سنار, أما الثاني فقد أتخذ موقعاً له بجبل سقدي بقيادة أحمد المكاشفي حيث تمت هزيمته التامة على يد صالح بك, الذي كان يرأس قوة من ١٢٠٠ جندي, في الرابع من مارس. أما ألقسم الثالث بقيادة عبد الغفار فقد عاد إلى كركوج.

كان عبد القادر باشا يجهز نفسه للتوجه نحو القسم الأخير عندما تم استبداله, في العشرين من فبراير, بسليمان باشا نيازي كقائد عام للقوات بينما تولى أحد ضباط الفرسان الأتـراك, عـلاء الدين باشا, الإدارة المدنية للحكومة. وفي السادس والعشرين من مارس أعلن الأخير حاكمـاً عامـاً (حكمداراً) للسودان.

ونعود الآن لنرى تأثير تلك الإضطرابات على مصر. فعندما تسلمت السـلطات المصـرية رجاء عبد القادر باشا وطلبه للتعزيزات فقد تقرر إعادة تجميع فلول جيش عرابـي باشـا المحلـول وإرسالهم كتعزيزات للسودان. ولم تكن هناك مشكلة في القيادة لهـذه القـوات – فسـيكونون مـن

الإنجليز بالطبع – لأنها كانت مغامرة يائسة. لكن تجنيد تلك القوة, من الضباط والجنود, لـم يحـظ بالشعبية أو القبول. فقد كان المجندون يكون وهم مقيدون بالسلاسل. ولكن، وبحلول ديسمبر ١٨٨٢ كان قد تم صب خمسة آلاف منهم بداخل مرجل الثورة الملتهب. وفي الرابع من مارس ١٨٨٣ وجد الرجل المشئوم, الجنرال هكس, نفسه مع تسعة آخرين من الضباط الأوروبيين, في الخرطوم علـى رأس ١٠٠٠٠ من الجنود المنتحبين الباكين, مع النسبة المعتادة من الضباط, والذين كان كثيـرون منهم جهلة وعاجزين. ولإضافة المزيد من التشويش والارتباك بينهم فقد انتشرت الغيرة حتى بـين كبار المسئولين.

كان هكس باشا رجلاً مقتدراً شجاعاً. وقد شرع في الحال ليخلق جيشاً من بين هذا الجسد الخامل الذي أمامه. وسرعان ما وضحت أمامه نقطة هامة. فقد كان جنوده غرباء في هـذه الأرض. ولأنهم غرباء تماماً, فقد شكل ذلك ميزة فارقة على أولئك الجنود الآخرين الذين كان قد قادهم مـن قبل عبد القادر وجيقلر وراشد ويوسف شلالي في الميدان. فقد كانت للنظاميين منهم, الذبن طالـت إقامتهم بالسودان, علاقات وثيقة وصلات عديدة مع العرب. أما غير النظاميين, والذين كونوا القسم الأكبر من القوات, فقد كانوا أنفسهم سودانيين. وبينما قام رؤوف باشا بطردهم فجأة توفيراً للنفقات, فقد أعيدوا فجأة للخدمة أيضاً. كانوا من نفس طراز المهدويين غير النظاميين. وعند القتال فقد كانوا دائماً, أو كقاعدة عامة, مع الجانب الأقوى. أما الآن فالوضع جد مختلف.

ففي كل حملات جسي باشا العسكرية في بحر الغزال لم يكن هناك شيئاً اسـتثنائياً مثيـراً للغرابة غير السهولة التي كان يتنقل بها المحاربون من صـفوفه إلـى صـفوف سـليمان الزبيـر وبالعكس. فقد يكون لجسي يوماً خمسة عشر ألفاً في صفوفه. ولكن, وبمجرد العلم بأن قـوة أكبـر ستواجههم, أو لمجرد معرفة أن سليمان قد أحرز قدراً من النجاح, فأن عشرة ألف مكنهم يتحولـون تلقائياً لجانبه ويقاتلون ضد جسي. وبنفس الطريقة, فأنه إذا ألحق هزيمة بسليمان, وأحياناً قبل ذلك, لأنهم يراقبون الكفة الراجحة بحذق, فقد يجد كل الجيش وقد أنقلب ضد سليمان.

ورغم أن حملات جسي باشا ضد تجار الرقيق تستحق أن تكتب بقلم حاذق, إلا أننا نكتفـي حالياً بمجرد الإشارة لملامح ظروف الحملات العسكرية في السودان.

وهناك صورة معروفة تماماً لتلك الظروف تستحق أن تذكر. فعندما كـان غـردون, عنـد تكليفه الأول بالحكمدارية, على وشك القيام بحملة لمعاقبة القبائل التي تقطن حدود الحبشة الغربيـة, فقد بدأ بعقد معاهدة مع الملك يوحنا لمرور تلك القبائل لداخل الحبشة. فقد قال بأنهم إذا لم يتمكنـوا من الهرب للداخل فأنهم سيقاتلونه كالمردة من الجن ويهزمون قواته.

لذلك فقد حازت قوات هكس, رغم كل المثالب التي بهم, على هذه الميزة: وهي أنهم غرباء بأرض السودان، وبالتالي فلا سبيل أمامهم للوصول إلى تسوية مع المهدي.

ثم شرع هكس, بعد شهر من التدريب العسكري العنيف، في التحرك نحو سنار في مهمـة إستطلاعية مصحوباً بجيشه. وبعد بضع مناورات وإشتباكات خفيفة إلتقي بالمكاشفي فـي المرابيـع وذلك في التاسع والعشرين من أبريل. كانت القوتان متساويتين تقريباً حيث كان هنالك خمسـة آلاف

رجل تقريباً من كل جانب. وقد لعبت مدفعية هكس وبنادقه التي يتم حشوها من المؤخرة دوراً حاسماً في صد العرب الذين لم يتجاوز تسليحهم الرماح إلا بالكاد. كان انتصاره حاسماً رغم افتقاره للفرسان وقد قتل المكاشفي ومعظم قادته في المعركة. وقد أدى نصره إلى تطهير المنطقة ما بين الخرطوم وسنار وأعادت كثير من القبائل ولاءها للحكومة ومن ثم أصبح هكس قادراً على تحويل اهتمامه إلى مركز التمرد في كردفان.

وقد انشغل في مبدأ الأمر في مقاومة المؤامرات التي كانت تحاك ضده على قدم وساق, بواسطة كبار الموظفين بالخرطوم, في اللحظة التي زال الخطر المباشر على العاصمة. واستمرت مقاومته تلك خلال مايو ويونيه ويوليه ولم تتوقف إلا عندما تقدم هكس باستقالته عن القيادة حيث بعدها تحركت القاهرة وأبعدت عنه زعيم المعوقين – سليمان نيازي باشا- وأكدت تعيين هكس كقائد عام للحملة المقررة على كردفان.

وخلال أغسطس ازدادت مظاهر السخط والنفور في الخرطوم وإتضح أن كثيراً من الأهالي, بل معظمهم, على إتصال دائم بالمهدي في الأبيض.

وتحرك هكس في التاسع من سبتمبر وتقابل مع علاء الدين باشا, الثاني في القيادة, في الدويم يوم عشرين. وقد صحبه من الضباط الأوروبيين الآتية أسماؤهم:

الكولونيل فاركار, رئيس الأركان.

الصاغات سكندورف ووارنر وماسي وإيفانسي.

اليوزباشيان هيرلث وماتيوجا.

الملازم موريس برودي (فيما بعد أصبح صاغاً بمدفعية الفرسان الملكية) طبيب الحملة الجراح جورجس بك والجراح الصاغ روزنبرج.

المستر ف. باور مراسل جريدة التايمس (ولإصابته بالدوسنتاريا فقد اضطر لمبارحة الحملة والعودة من الدويم).

المستر دونوفان مراسل الديلي نيوز.

والمستر فزتللي رسام الجرافيك.

أما الكولونيل دي كوتلوقون فلم يصحبهم, لأنه كان مشغولاً بدوريات تجوب أنحاء النيل لمنع مرور المزيد من الثوار وتحركهم صوب كردفان. وكان الكولونيل كولبورن والميجر مارتن والكابتن فوريستير ووكر غائبين في اجازات مرضية.

تشكيل قوات هكس باشا عند مغادرته الخرطوم:

وقد تم استعراض تلك القوات بالخرطوم

يوم السبت ٨ / ٩ / ١٨٨٣. المشاة ٧٠٠٠

الباشبوزوق الراكبين ٤٠٠ مع عشرة مدافع

جبلية و ٤ مدافع كروب و ٦ مدافع نورد نفلت.

الفرسان ٥٠٠ والفرسان المدرعين ١٠٠ مع ٢٠٠٠ من الخدم والأتباع.

والشكل التالي يشير:

((تشكيل جيش هكس باشا عند مغادرته للخرطوم))

FORMATION OF HICKS PASHA'S ARMY ON LEAVING KHARTUM.

Paraded at Khartum on Saturday, 8th September 1883:—Infantry, 7000; Bashi-Bazuks, mounted, 400; with 10 mountain guns, 4 Krupp, and 6 Nordenfelts; Cavalry, 500; 100 Cuirassiers; 2000 camp followers.

TWO GUIDES — دليلين

SCOUTS — طلائع (كشافة)

GENERAL STAFF — هيئة الأركان العامة

ONE BATTALION — كتيبة واحدة

INFANTRY — مشاة

ARTILLERY — المدفعية: مدافع جبلية، ٤ كروب، ٦ نوردنفلت [illegible]

INFANTRY — المشاة ٧٠٠٠ رجل

ONE BATTALION — كتيبة واحدة

CAVALRY — الفرسان ٥٠٠ فارس

TRANSPORT OF 5500 CAMELS UNDER BASHI-BAZUKS — حملة الترحيل والنقل

٥٥٠٠ جمل بقيادة رجال الباشبوزق و ٢٠٠٠ من الأتباع

IRREGULAR CAVALRY — فرسان غير نظامية (٤٠٠ باشبوزوق)

ساروا على هيئة مربع. وقد وضعت المدفعية في الوسط وقاد كل القـوات هكـس باشـا وضباطه ومن حولهم خمسون من فرسان الحرس المختارين.

وحتى نتابع خط السير فمن الضروري أن نقدم وصفاً مبسطاً للمنطقة التي مرت بها تلـك الحملة التعسة. فعلي الجنوب من خط عرض ١٣ درجة تبدأ السهوب المقفرة فـي إفسـاح المجـال للمزيد من الأراضي المتماسكة والطينية. وهناك على طول الحدود الجنوبية لكردفان ثلاثة سلاسـل جبلية ضخمة تسمي من الشرق للغرب جبال تقلي تم جبل الداير ثم جبال النوبة. وتشكل مياه الفيضان شمال تلك الجبال النهر الوحيد، أو ما يشبه النهر, في كردفان. إذ أن خور أبو حبـل يجـري أثنـاء موسم الأمطار, من يونيه حتى سبتمبر, لمسافة تصل إلي١٩٠ ميلاً نحو الشرق إلى أن يتلاشى فـي الأراضي الرملية التي تمتصه. لكنه يقال أنه في مواسم الأمطار الغزيرة فأنه يستمر حتى يصب فـي النيل. وخلال مجراه فأنه يكون ثلاثة برك ضحلة على مسافات من بعضها البعض تبلغ حوالي ثلاثين ميلاً. وهي من الشرق إلى الغرب: بركة شركيلا ومساحتها حوالي ٣٩٠٠ فدان، وبركة الرهد, التي بحوارها مدينة صغيرة والتي تقترن فيها سيول كاشقيل بأبي حبل, وتبلغ مسـاحتها حـوالي ٣٠٠٠ فدان, ثم البركة، والتي فيها مدينة صغيرة أيضاً ومحطة عسكرية، ومساحتها حوالي ١٣٥٠ فـداناً. وقد يحتفظ الرهد أحياناً بمياهه طوال السنة لكن باقي البرك تجف ومن ثم لابد من حفر آبار لأعماق ستة أو سبعة أقدام فيها للحصول على المياه. هذا وتحفر تلك الآبار عادة في مجرى السيول ابتـداء من أكتوبر وحتى موسم الأمطار التالي.

وتسكن في السلاسل الجبلية أقوام من الزنوج يمتهنون حرفة الحدادة وقد كانت مقاومتهم الصلبة في معاقلهم المنيعة مصدر إزعاج وخطر دائم على المهدي. وقد مكثت قوات العـرب لعـدة شهور من الحصار غير المجدي في سفوح تلك الجبال والتي كانت مأوى أيضاً لكل الذين يقـاومون إرادة المهدي. وقد هزم الملك أدم, ملك تقلي, محمد أحمد أكثر من مرة. كما تحدي الملك كمبو بجبل الداير, حتي النهاية, محاولات أبو عنجة اليائسة للهجوم عليه.

تبعد الرهد بحوالي ثلاثين ميلاً عن ملبس وبينهما طريق لامياه فيه يمر خلاله العرب فقـط ولكن لا تمر به القوات العسكرية. وملبس هذه تبعد عن الأبيض بعشرة أميال, وهي بدايـة المنـاطق المستقرة. وهناك طريقان معروفان من الرهد وحتي الأبيض. أولهما يسير غرباً بطول مجرى سـيول كاشقيل ومنها يمتد لمسافة ثمانية وعشرين ميلاً عابراً عدة قرى حتى يصل إلى الأبيض. أما الثـاني فهو يمر عبر مناطق قاحلة عديمة المياه تقريباً لنحو أربعة وثلاثين ميلاً حتى البركة. وبينما تقع قرية علوبة على بعد ستة عشر ميلاً من الرهد نجد أن البركة تقع جنوب معبر كاشقيل لثمانية عشر ميلاً.

وقد كان في نية هكس باشا أن يتحرك مباشرة من الدويم إلى بارا بالطريق الشمالي, وهي مسافة ١٣٦ ميلاً, ومن هناك يتجه نحو الأبيض. وفي أثناء الطريق ينشي نقاطاً عسكرية يتم إمدادها من مستودعات الدويم. لكنه غير رأيه بعد إلحاح علاء الدين باشا بأن الطريق الجنوبي وأفر المياه, وهو طريق غير مباشر يمر بخور أبو حبل, وهي مسافة ٢٥٠ ميلاً. من ثم قرر هكس الزحف خلال الطريق الجنوبي وخاصة لما أكده علاء الدين باشا بأنهم سيجدون الماء بين الدويم ونورا بي علـى مسافة ما بين ثمانين إلى تسعين ميلاً, وهذه المعلومة لم يكن يعرفها هكس باشا.

ثم تحركت طليعة من الجيش مكونة من الفوج الرابع بقيادة رجب بك، وسرية من خيالـة الباشبوزوق تحت السنجك يحي أغا، مع بعض المدفعية، من الدويم واحتلت آبار شات، على مسـافة ستة عشر ميلاً منها، وذلك في الرابع والعشرين من سبتمبر. ثم تقدم باقي الجيش على أثرهم. وبعد إقامة بشات لثلاثة أيام تقدموا بطريق جنوبي غربي نحو زريقة واستراحوا فيها لخمسة أيام.

وبدأ خلاف الآن بين هكس باشا وعلاء الدين باشا. فقد أراد الأخير إلغـاء فكـرة إقامـة سلسلة النقاط التي كان متفقاً عليها. لكن هكس، لأسباب واضحة، لم يوافق على هـذا الـرأي. ثـم شرعوا في سؤال المرشدين، وعددهم خمسة عشر، أهمهم كانوا:

أحمد أبو أصبع

أحمد أبو كشوة

حاكم المحسي

ومحمد البقارى

سألوا كلاً منهم على حدة عن الطرق التي فيها أفضل المياه.

وكان الأدلاء المحس قد أكدوا لهم في الدويم بأنهم سيقودون الجيش حتى سراكنة وأنهم لن يعانوا أي نقص في المياه أثناء الطريق. أما البقارة فقد ضمنوا لهم باقي الطريق من سراكنة وحتى الأبيض. وعندما سئل الأدلاء المحس وشدد في إستجوابهم، أعترفوا بأن المياه لن تكون كافية حتى سراكنة وبالتالي تم حبسهم. وتطوع دليل يسمى أحمد أبو دومة للذهاب بنفسه حتى سـراكنة ليـرى الوضع بنفسه. تم منحه الإذن بذلك فذهب ليعود في اليوم التالي ومعه عينة من المياه إلا أنه لم يقل بأنها قد تكفي أو لا تكفي كل القوات. لذا تحرك هكس بنصف القوة إلى آبار دريفيسة. وبعد أن تأكد من أن هناك مياهاً كافية أرسل لإحضار بقية الجيش. وقد قام حامل هذه الرسالة، البلك باش محمـد أغا، بالفرار بعد توصيل رسالته. أما الرجال الخمسة الذين صحبوه فأنهم إتهموا، بعـد أن عـادوا، بالتواطؤ مع محمد أغا وأمر علاء الدين بحبسهم.

وكتب هكس باشا، عندما كان بالقرب من هذه المحطة، وعلى بعد ثمانية وعشرين ميلاً من سراكنة، قائلاً:

"وصل الجيش حتى مسافة ثمانية وعشرين ميلاً من سراكنة، والتي تبعد بأثنين وعشـرين ميلاً من نورابي. وكنا نرتوي من الحفائر والبرك التي خلفتها مياه الأمطار والتي وجدناها متـوفرة لحسن الحظ. وقد تأكدنا عن طريق الطلائع من وجود الماء حتى سراكنة. أما المعلومات التي جـاء بها الأدلاء فكانت غامضة. إنني لا آسف إلا لإلغاء فكرة أقامة محطات عسكرية وخطوط اتصال مـع قاعدتنا بالدويم. فقد أكد لي الحاكم العام بأن العرب سيحتلون المواقع، التي يخليهـا الجـيش عنـد تقدمه، بقوات تكفي لمنع أي إمدادات من الوصول إلينا. وبالنسبة لميـاه الحفـائر والبـرك، وهـي المصدر الوحيد للمياه، فأنها ستجف ومن الصعب الحصول على مياه أخرى بحفر الآبار. كما أنه ليس لي علم بخصوص وجود مياه بين سراكنة ونورابي ولا أي معلومات يعتمد عليها. وهذا ما يسبب لي قلقاً كبيراً. وكنت أتوقع أن يكون العدو قد أحتل سراكنة، لكن استكشافاتنا التي قمنا بها اليوم أكـدت

خلو المكان منهم فقد غادرها العرب هذا الصباح. وفيما يختص بالحالة الصحية للجنود فأنها جيدة عموماً لحسن الحظ لأنه ليس بحوزتنا مركبات خاصة بالمرضى. أما الحرارة فشديدة الوطأة".

ويقول في رسالته العاجلة، وهي آخر رسالة تستلم منه، والمؤرخة بتاريخ ٣ أكتوبر . وكان قد كتبها من معسكره بالقرب من سراكانة الآتي:

"كنت قد قررت عند مغادرتي للدويم، على النيل الأبيض، للتحرك عن طريق خور النيل إلى ملبس والأبيض، أن تكون لي خطوط إمداد في نقاط عسكرية مؤمنة بقوة مائتين جندي لكل منها وبعد تحصينها بقوة وذلك في الأماكن التالية:"

النقطة	المسافة بالأميال	النقطة	المسافة بالأميال
شات	١٦	عبلي	٢٨
زريقة	١٦	بلياب	٢٢
سراكنة	٣٢	أم شيخ	١٢
نورابي	١٦	الرهد	١٤
عجيلة	٢٤	كاشقيل	١٤
جوهان	٣٢	ملبس	٢٥

وقد تم إخطاري بأنه يمكن الحصول على الماء في كل تلك النقاط. وهناك كميات كبيرة من الخبز الجاف ستصل إلى الدويم. ولأننا لا نستطيع ترك أي جمل وراءنا بالقاعدة فقد أمرت بشراء ألف جمل وإرسالها للدويم. ولدى سعادة علاء الدين باشا ٣٠٠ جمل بالخرطوم وأصدر أوامره بشراء السبعمائة الأخرى وإرسالها على وجه السرعة للدويم. وسيتم ترحيل الخبز، مع الذخيرة والمخزونات الأخرى، إلى الجبهة من نقطة لأخرى. وسيتم إنشاء مستودع بكل نقطة حتى إذا ما أصابتنا نكسة فسيكون طريق الانسحاب مؤمناً لنا وستتحول القوات المتراجعة نحو تلك النقاط حيث سنجد فيها ما يكفي من إمدادات الطعام والذخائر والمياه.

تحركنا نحو شأت وأقمنا أول محطة عسكرية ومستودع فيها. وقبل أن نصل إلى زريقة أخبرني حاكم عام السودان بأنه لا يمكن توقع وصول أي إمدادات من الدويم إلينا لأن الجنود الذين سنتركهم في المحطة لن يحرسوا القوافل، بل سيكونون في الواقع في خوف شديد من القيام بذلك. وبالتالي، ولكي نضمن وصول الإمدادات والتعيينات لنا فأننا نحتاج لجيش يتحرك لحماية كل قافلة. ورغم أن العرب غير متواجدين في خط سيرنا إلا أنهم سيعودون بعد مغادرتنا لأي موقع وسيكون عددهم كبيراً وبالتالي لن يتمكن جنودنا بالنقاط من إرسال الإمدادات لأنهم لا يعتبرون أنفسهم أقوياء بما فيه الكفاية حيث سيكون الوضع خطيراً ولا أعتقد بأنهم سيواجهون تلك المخاطر.

وقد طلب مني الحاكم العام أن أترك فكرة إقامة تلك النقاط وأن ألغي فكرة خطوط الإمدادات وخطوط الإنسحاب وأن نتقدم بالجيش كله دفعة واحدة ومعنا مؤونة خمسين يوماً من الطعام، مع أن العرب يقتربون من مؤخرتنا ويكادون أن يطبقوا علينا.

وأنا بالطبع شيد الكراهية لهذا الرأي. ولكن، وإذا ما أكد لي سعادته وجهة نظره، وهي أن النقاط لن يتم تزويدها بالإمدادات من الدويم، وأن التعيينات لن تمر من خلال تلك النقاط، فأنني إذا ما قمت بإقامتها ووضع الجنود بها فلن أحصل على شئ سوى إضعاف قواتي المقاتلة وبدون إحراز أي تقدم. من هنا فقد عقدت مجلساً للتشاور وأوضحنا فيه مختلف وجهات النظر وطلبت من المشاركين أن يسجلوا آراءهم كتابة.

توقيع

الجنرال و.هكس

والتالي هو آراء الضباط المشاركين في المجلس:

"أوضح سعادة علاء الدين باشا بأنه يشعر بأنه مقتنع بأن العرب سيتجمعون بأعداد معتبرة على الطريق الذي سيخليه الجيش عند مواصلة تحركه لدرجة أن الحاميات بتلك النقاط لن تقوم بترحيل أي مواد أو إمدادات، وأننا لا نستطيع الاعتماد إطلاقاً على الدويم للحصول عليها، وأن النقاط لن تكون سوي مصدر للضعف لنا حيث سنترك بها ٢٥٠٠ رجل ممن نحتاج إليهم في مهمتنا. أيضاً فأن بعض النقاط ستهاجم وسيتم احتلالها ولا يمكن الاعتماد على حامياتها للصمود والحفاظ عليها وأنه لا يمكن دفع أي جندي للقيام بحراسة أي قافلة.

أما سعادة حسين باشا مظهر فقد رغب في إقامة النقاط حتى نورابي (أومنتصف الطريق للأبيض) لكن على الحكومة في هذه الحالة أن ترسل الجنود من القاهرة وأثناء ذلك على الخرطوم أن ترسل كتيبة لحراسة الإمدادات والمستودعات.

(علي الهامش: ملحوظة – الوقت لا يكفي لوصول القوات من القاهرة كما أن حامية الخرطوم أضعف من أن ترسل أحداً).

أما رجب بك فقد رأى أنه، وبالرغم من وجاهة الاحتفاظ بخطوط الإتصال من وجهة النظر العسكرية، إلا أنه يرى ضرورة ترك فكرة إنشاء تلك النقاط في الظروف الحالية.

عباس بك يوافق رجب بك على رأيه، الكولونيل فاركار، رئيس هيئة الأركان، يرى أنه تحت ظروفنا هذه فيجب أن نلغي فكرة إنشاء خطوط اتصال أو نقاط عسكرية.

ملحوظة:

عندما تسقط الأبيض، وبالتالي تستقر الأحوال في المنطقة، فمن المتوقع أن نقوم بإرسال قوة صغيرة من الأبيض لتذهب من أقصر الطرق إلى شات حيث تلتقي بالقافلة القادمة من الدويم حاملة الإمدادات.... الخ. وستكون المياه، بالنسبة لقوة صغيرة، سهلة الحصول عليها وذلك بفتح الآبار.

الجنرال و. هكس :

لقد دخل قرار هجر وترك إقامة النقاط حيز التنفيذ. وما عدا بضع سطور كتبها المستر أو دونوفان، مراسل الديلي نيوز, كتبها من سانجا همفريد، التي تقع على بعد خمسة وأربعين ميلاً جنوب غرب الدويم، والتي قال فيها:

"لقد توقفنا للأيام الثلاثة الأخيرة بسبب عدم تأكدنا من وجودنا من وجود المياه أمامنا. وهنا نعتمد تماماً على البرك السطحية. وقد أكدت فرقة إستكشافية قام بها الكولونيل فاركار أمس حتى مسافة ثلاثين ميلاً بأن البرك والحفائر لا تكفي إلا بالكاد لجيش سيزحف بسرعة نحو قرية سراكنة، التي أخليت الآن من سكانها, وحيث لا توجد سوى بضع آبار للمياه. والعدو لا يزال يتراجع وقد نظف كل المنطقة من أي أثر للأبقار والماشية"

لم يتم استلام أي رسائل أخرى من أي من الأوروبيين الذين رافقوا هذه الحملة المشئومة والتي أبيدت عن بكرة أبيها بعد حين.

ولقد ظهرت، من آن لآخر، عديد من الروايات لكن ربما كان أكثرها مصداقية ما جاء به محمد نور البارودي, والذي سنعطي فكرة موجزة عن سيرة حياته. فلقد رافق هذا الشخص المرحوم غردون، عند أول قدومه للسودان, كطباخ. وتجول معه خلال المديريات الاستوائية حتى يوغندا والحبشة وغيرها. ثم عمل على التوالي مع الحكام الذين تعاقبوا علي الحكمدارية بعد غردون. ثم عمل أخيراً كطباخ للجنرال هكس باشا ورافقه في حملته الأخيرة وحتى معركة شيكان وقد أصابته رصاصة في جسمه وضربة سيف خلال يده أثناء المعركة. وعندما جرجروه من الأجمة التي سقط فيها، وقد ظنوا أنه قد مات, شاهد بعض العرب ينهبون مخازن الأدوية ومنعهم من أكل بعض المراهم والتي غطي جراحه بها. ورغم إعلانه بأنه مجرد طباخ آلا أن أولئك الذين اعتادوا على قيام النساء بالطبخ لم يصدقوه. قادوه إلى المثول أمام ود النجومي ومن ثم رافقه لخمسة سنوات كان يعمل فيها كبيراً للأطباء لقواته. وقبل أيام من موقعة توشكي في أغسطس ١٨٨٩ هرب من المعسكر وتوجه إلى معسكر الجنرال قرنفل وقدم مساهمات ملموسة لقسم المخابرات. وقد تأكدت إفاداته التي قدمها من شهادات عدد من الأمراء الذين إشتركوا في معركة شيكان، والذين قدموا أيضاً معلومات عن تحركات العدو خلال توجه هكس باشا نحو كردفان والتي أدمجناها في الوصف التالي، من محطة دريفيسة, والتي منها جاءت آخر الأخبار الحقيقية:

توجه الدليل أحمد أبو دومة إلى المحطة التالية، ومعه خمسة وعشرين فارساً، ليتأكد من وجود ما يكفي من المياه. وعاد الفرسان بعد بضع ساعات وأبلغوا بأن الدليل قد ترك بندقيته سهواً أمام الحفيرة ثم عاد للبحث عنها. انتظروه لبعض الوقت لكنه لم يظهر وبالتالي تحرك الجيش نحو المحطة التالية وعند وصولهم وجدوا الدليل تحت شجرة وقد بترت يديه. وأفاد بأنه قد هوجم من قبل بعض الثوار, عند ابتعاده عن الفرسان، والذين قاموا بقطع يديه. استراح الجيش هنا ليومين. وفي السابع من أكتوبر عاودنا التحرك نحو النقطة التالية، نورابي أو سانجاها مفريد، وكان يقودنا الأدلاء

المحس والذين كانوا راسفين في القيود حتى لا يفروا. وفي العاشر من الشهر استؤنف الزحـف صـوب المحطة السادسة (قليبن حار) وهنا تم القبض على احدى نساء البقارة والتي أخبرت بأن البلـك باشـي الذي هرب من الجيش في زريقة قد أنضم إلى الأمير أبو قرجة، والذي كان يجوب المنطقة لتجنيد البقارة الجوامعة. وقد سلمت هذه المرآة خطابات تدعو القبائل للالتحاق بقوات الحكومة ثم أطلقوا سراحها.

وفي الحادي عشر من أكتوبر توجه الجيش نحو عجيلة. وأثناء الطريق أمسك الثوار بثلاثة من الجمال التي كانت وراء الجيش وقتل قائد الجمل ومن ثم تأكد لأول مرة بأن مجموعة من الثـوار تتابع تحرك الجيش وتسير علي أثره. وهنا تم هجوم على بعض رجال قناوي بك*. الذين كانوا يجمعون الحطب وقتل منهم رجلان. فقام هكس باشا بانتداب ألف جندي مع ثلاثة مدافع لمواجهتهم لكن الثوار تراجعوا عندما شاهدوهم. في تلك الليلة أمطرت السماء بغزارة وسمعنا صوت رصاص بالقرب منـا. أصاب الرعب كل الجيش وشرع في إطلاق النار لمدة نصف ساعة بدون أن نشاهد أي شئ.

وفي الرابع عشر من أكتوبر وصل الجيش إلى شركيلا والتقينا هناك برجل تظاهر بأنه أبكم وأصم ولذا تم إطلاق النار عليه بواسطة جنود الطليعة الذين أسروه, بعد أن لم يدلي إليهم بأي شئ. غضب هكس باشا جداً لهذه العملية وأمر بأن يتم إحضار كل الأسرى في المستقبل أمامه.

وفي اليوم التالي، وأثناء توجهنا نحو جوهان حدث إشتباك بين الفرسان غير النظاميين في ميسرة الجيش من الخلف وبين مجموعة من العدو. وقد نجح العرب في أسر ثمانية عشـر حصـاناً. وعندما تم تدعيم القوة أرغم العرب علي الفرار وتم استعادة حصانين من التي سلبت. وهنا ثار الخلاف مرة أخرى بين هكس باشا وعلاء الدين باشا حول وضع الجنود غير النظاميين. فقد أراد هكس إبقائهم داخل المربع، فقد كانوا غير موثوق بهم. أما علاء الدين فقد كان قد أبقاهم على الأجنحة بدون أمر من هكس باشا. وأخيراً تم الاتفاق على أن يكونوا بالقرب من المربع ولكن ليس بداخله.

ومكث الجيش هنا ليومين وتحرك في السابع عشر ثم عند حلول الليل بات في الصـحراء وتقدم صبيحة اليوم التالي صوب عبلي. ومن هذا المكان غادرنا أثنان من الشيوخ اللذان رافقانا من الخرطوم, وكانا من أبناء هذه المنطقة، لحشد بعض رجال قبيلتهم لدعمنا ووعدا بأن يقابلا الجـيش ثانية عند الرهد ومعهم من جمعوه من الرجال.

وكان الدليل كوة منتمياً لقبيلة أولئك الشيوخ. وفي اليوم التالي تحركنا نحو البلياب ومررنا خلال غابة واسعة. لكن الدليل ضل الطريق لذا أقمنا معسكرنا فوق أحد التلال ثم وصلنا البلياب صباح اليوم التالي. ثم تقدمنا نحو أم شيخ والتي بها خور كبير. وقد شاهدنا على الجانب الآخر من الخور فرقة من جنود العدو معسكرة فيه وتبادلنا معهم إطلاق النار ثم رميناهم بالصواريخ.

وفي العشرين توجهنا نحو بركة الرهد. وعندما غادر أخرنا المعسكر شاهدنا جنود العـدو يدخلونه. أطلقنا عليهم قذيفة من أحد مدافعنا ثم استأنفنا السير ووصلنا عند الظهر إلى الرهد. أقمنا زريبة كبيرة وحفرنا خندقاً حولها ودخل كل الجيش في الزريبة. وفي ذلك اليوم كـان خـادم لأحـد

* قناوي بك هو أحد قطاع الطرق، ومن تجار الرقيق، والذي كان قد ساعد جسي كثيراً من قبل. وقد رافق حملة هكس باشا مع خمسين من رجاله. وقد كان في نية الحاكم العام تعيينه مديراً لبحر الغزال بعد أعادة إحتلال الأبيض.

الضباط الأوروبيين, يسمى كلوتز.* يجمع الحطب من خارج الزريبة فأسرته طلائع قوات العدو. وسمعت فيما بعد بأنه أرسل للأبيض وأصبح من المهدويين وتم تغيير اسمه لمصطفى.

وظن هكس باشا بأنهم قد ضلوا الطريق فقام بإرسال مجاميع من الخيالة إلى كافة الاتجاهات ولكن بدون أي نجاح. مكثنا بالرهد لستة أيام. وكنا في اليوم الخامس قد شاهدنا مجموعة من العرب، على الجانب المقابل للبركة, يلوحون بأعلام بيضاء. وظن علاء الدين باشا بأنهم قد يكونون الرجال الذين وعد الشيخان بإحضارهم كما اتفق من قبل. لذا قام بربط منديل على طرف عصا. لكن العرب لم يلتفتوا إليه، بل أخذوا بعض الماء من البركة وذهبوا بعيدا. أرسل هكس باشا وراءهم فصيلة من خمسين فارساً ولكنهم, بعد برهة قصيرة، شاهدوا عدداً كبيراً من رجال العدو متعسكرين تحت ظلال الأشجار".

لكننا سنرجع للحظة لخطط وتحركات المهدي: وهنا سنجد أن ما أورده كبير الكتبة (الباشكاتب) حسن أفندي حبشي مثير للاهتمام لأنه مطابق تماماً لما ذكره البارودي في التقرير السابق. فقد أرغم حسن حبشي, وهو موظف حكومي في الأبيض قبل سقوطها, على الانضمام للثوار بعد سقوط المدينة وأصبح كبيراً لكتبة الأمير عبد الحليم واستمر في خدمته حتى أغسطس ١٨٨٩، وقبل بضعة أيام من معركة توشكي فر هارباً وقدم معلومات هامة للجنرال قرنفل عن قوة ود النجومي وتحركات جيشه وأثبت أنه ذو فائدة عظيمة خلال العمليات الأخيرة على النيل.

فلقد ذكر بأن محمد أحمد, عند ما سمع بتحرك جيش هكس باشا من الخرطوم، قد قام بإرسال جواسيس لمراقبة تحركات الجيش الزاحف نحوه. وعندما علم بقدومه إلى الدويم، وأنه ينتوي التقدم نحو الأبيض فقد قام بإرسال قوة من ٣٠٠٠ رجل بقيادة الأمير عبد الحليم والأمير أبو قرجة للمتابعة اللصيقة لمؤخرة الجيش المصري ولردم الآبار عقب مرورهم حتى يجعلوا من إنسحابهم شيئاً مستحيلاً. وقد صحب حسن حبشي قوات عبد الحليم والتي شاهدت جيش هكس باشا لأول مرة بالقرب من أبو قوي في بلاد البقارة الجوامعة عندما كانوا يجمعون الرجال من القبائل لتدعيم قواتهم. ومن هنا قام (الأمير) عبد الحليم بإرسال حسن حبشي للأبيض لاستفسار المهدي إن كان عليه أن يهاجم الجيش. لكن جاء الرد لعبد الحليم بأن لا يقوم بأي هجوم مهما كانت الأسباب، وإنما عليه متابعة الجيش حتى الرهد حيث سيتسلم هناك تعليمات واضحة وشاملة (بما عليه القيام به). لكن حبشي لم يكن من حمل هذا الرد, فقد بقي في الأبيض. وفي تلك الأثناء كان أبو قرجة قد تمكن من جمع عدة آلاف من البقارة الجوامعة بقيادة شيخهم عساكر أبو كلام* وقام، بصحبة عبد الحليم، بمتابعة جيش هكس باشا حتى الرهد، وكانوا يحتلون المعسكرات التي يخليها الجيش (أثناء تحركه غرباً).

وعندما وصل عبد الحليم للرهد ركب في الحال للأبيض وأخبر المهدي بنفسه عن مدى قوة الجيش المصري والتحركات المحتملة له. وعندما تسلم محمد أحمد هذا التقرير قام بإرسال كل

---

* أدولف كلوتز. كان رقيباً سابقاً بالجيش البروسي ومن بعدها أصبح خادماً للميجر سكندورف.

* خلط ونجت بين الجوامعة بوسط كردفان (جماعة المنا إسماعيل) وبين قبيلة الجمع القريبة من النيل الأبيض نسبياً والتي كان يقودها عساكر أبو كلام (المعرب).

رجاله المحاربين نحو الرهد للانضمام لقوات عبد الحليم، وقابلوا أثناء الطريق الأمير عبد الحليم راجعاً من علوبة. وعندما إنضموا له بلغ مجموع القوات حوالي أربعين ألف ثائر. وقد عسكروا في غابة شيكان التي تبعد بحوالي ثمانية وعشرين ميلاً إلى الشمال الغربي من علوبة. وهنا مكثوا في إنتظار قدوم الجيش المصري. أما الخدم والأتباع والنساء والأطفال، الذين جاءوا مع العرب من الأبيض، فقد توجهوا نحو البركة.

"وفي تلك الأثناء (نستمر في إفادة البارودي)، وبعد توقف لستة أيام في الرهد، تقدمنا في السادس والعشرين من أكتوبر نحو الجانب الغربي للبركة، حيث شوهد العرب وهم يأخذون الماء، وعندما نظرنا خلفنا نحو معسكرنا السابق وجدنا أن العدو قد احتله من قبل. فتحنا عليهم النار وتراجع العرب مرة أخرى. وفي اليوم التالي (٢٧) سرنا لمسافة قصيرة، حوالي خمسة أميال. أما في الثامن والعشرين فقد صدرت الأوامر بالتوقف في مكان يبعد ثمانية أميال من علوبة.

وفي تلك الليلة وجد أحد التجار الأغنياء، ويدعي عبد الرحمن أبو النجا يكتب خطاباً لوالده، الذي كان يعرف أنه مع الثوار، يسأله النصح إن كان له أن يهجر الجيش. وعندما إكتشف هكس هذا الأمر استدعي مجلساً للضباط حيث تقرر نزع سلاح كل المدنيين المرافقين للقوة. وكان من بين الذين (نزع سلاحهم) قناوي بك وحمد بك التلب وبساطي بك ودكتور جورجس بك ومحمد بك أحمداني (المدير السابق للخرطوم).

ومن هذه المحطة تم إرسال الدليل، شيخ محمد، وهو أحد مواطني جبل الداير، بصحبة خادمه الأسود كوة، إلى الأبيض ليحاول الكشف عن مدى قوة جيش العدو هناك. وصبيحة اليوم التالي (١٠/٢٩) وصل الجيش إلى علوبة. كانت القرية مهجورة لكن المياه بها متوفرة بغزارة. وتقرر أن يبقى الجيش بها حتى حضور الجواسيس وعودتهم لهم. وقد شوهدت قوة للعدو بين الأشجار على مسافة غير بعيدة وسرعان ما تم بناء زريبة، بينما أرسلت قوة كبيرة من الجيش لطرد العرب. وقد نجحوا في طردهم ولم يشاهدوا مرة أخرى لمدة خمسة أيام. وتم إرسال دليلين أحدهما كنزي والآخر بقاري باتجاه البركة لمعرفة قوة العدو هناك. وفي اليوم الرابع من مكوثنا بعلوبة عاد الخادم الأسود، الذي كان قد ذهب مع سيده للأبيض، حاملاً الرسالة التالية من المهدي إلى هكس وعلاء الدين وآخرين، مع بضع آلاف من قطع صغيرة من الورق كتب عليها اسم المهدي مع حث الجميع لإتباع الدين الصحيح. وقد وجه الدليل لتوزيع هذه المنشورات حول المعسكر لكن علاء الدين باشا قام بجمعها وحرقها.

وجاء الخطاب إلى هكس ولآخرين كما يلي:*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد. فمن عبد ربه الفقير المعتصم بمولاه محمد المهدي بن السيد عبد الله إلى من يسمع من أهل الجردة ممن له عقل.

---

* يقول الدكتور أبو سليم (الآثار- الجزء الأول صفحة ٤٠٤) "في الواقع أن المهدي لم يكتب إلا خطاب معنون(لأهل الجردة ممن له عقل) وأنه لم يكتب لهكس مباشرة بل عنون بعض نسخ هذا المنشور – كما يحسب – لهكس وكبار أعوانه ووجه بقية النسخ للعموم (المعرب)"

فأنه لا يخفي على ذي عقل أن الأمر بيد الله ولا يشركه في ذلك بنادق ولا مدافع ولا صواريخ. ولا عصمة لأحد إلا من عصمه الله.

فإذا فهمتم ذلك فاعلموا أن الله واحد فلا تغتروا بأسلحتكم ولا بجنودكم التي تريدون أن تقاتلوا بها جنود الله. فأنه لا قوة لشئ دون الله. وإن قلتم أن مهديتنا مكذوبة فاعلموا أن التكذيب إنما يصدر ممن يحب الدنيا ويخاف المخلوق**ويستعجز قدرة الله. فإذا فهمتم ذلك فلا تغرنكم أقوال علمائكم. فأن الترك الذين قتلتهم شكوا للحق عز وجل وقالوا:"يا إلهنا ويا مولانا. إن الإمام المهدي قتلنا من غير إنذار" فأقول أنذرتهم يارب فلم يسمعوا. وحضر على ذلك شاهداً سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وقال لهم: الإمام المهدي أنذركم فلم تسمعوا له وسمعتم قول علمائكم فذنبكم عليكم. فأقبلوا على بعضهم بعضاً يتلاومون. فقال الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين. وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدي*** بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين. فإن كان لكم نور تؤمنون بالله ورسوله والدار الآخرة وتصدقون لمهديتنا وتخرجوا إلينا مسلمين. ومن سلم يسلم وإن أبيتم إلا الجحور والاغترار بالمدافع والبارود فأنتم مقتولون كما أخبر سيد الوجود صلي الله عليه وسلم وأسوتكم ما سبقكم من الجنود والسلام.

وقد ذكر الدليل بأن شيخ محمد قد قتل بأمر من المهدي، والذي كان قد أرسل قواته للبركة وبعدها سار على أثرهم.

وبعد وقت قصير رجع بقية الأدلاء المرشدين وأكدوا تلك الأنباء.

وقد كانت نيتهم الأصلية هي الزحف نحو الأبيض عن طريق البركة لكنهم لما علموا بأن المهدي موجود بالبركة مع قوة ضخمة من أتباعه، تشاور هكس مع علاء الدين إن كان من الأفضل العودة إلى الرهد ومن ثم التحرك نحو الأبيض عن طريق وادي كاشقيل ومنها إلى ملبس.

تم استدعاء المرشدين الأدلاء. وقد نصحهم كوة. والذي أظهر معرفة جيدة بالطرق المختلفة. بأنه بدلاً عن الرجوع إلى الرهد فأن عليهم الاندفاع مباشرة نحو كاشقيل ومنها للأبيض بعد حمل مؤونة يومين من سياه علوبة. لكن بقية الأدلاء. الذين تأثروا بأفكار قناوي بك والذين كانوا على جهل كبير. فقد أشاروا بأن ينقسم الجيش إلى قسمين. يتوجه قسم منه حسبما أشاركوة بينما يعود الآخر إلى الرهد ومنها إلى هدفه عن طريق ملبس. وقد كان علاء الدين باشا مؤيداً لهذا الاقتراح لكن هكس باشا صمم بقوة على عدم تقسيم الجيش. وبعد نقاش طويل تقرر العمل باقتراحات كوة* وبالتالي وفى صبيحة السبت الثالث من نوفمبر تقدم الجيش من علوبة باتجاه كاشقيل وبعد مسيرة عشرة أميال خلال غابة كثيفة توقف وتم إقامة زريبة. وبمجرد حلول الليل قام العدو بإطلاق بعض النيران بعدها صدرت الأوامر بإطفاء كل الأنوار. وفى اليوم التالي (الأحد) استؤنف الزحف

** جاء في ونجت (ويخاف (الخالق.) وقد صححناه (المعرب).

*** استبدل ونجت عبارة(صددناكم عن الهدي، وهي آية قرءانية، بجملة (صددناكم عن المهدي) وقد صححنا العبارة من المأثورات، الجزء الأول صفحة ٤٠٥ (المعرب).

* كان كوة من عرب قبيلة الغديات، والتي انضم معظمها للمهدي. لذا فأن من المحتمل جداً أن تكون نصائحه تلك ناجمة عن خيانته وبنية إلقاء الجيش في قبضة المهدي. وقد هرب بالفعل فور بدء معركة شيكان وانضم لقوات الثوار.

باتجاه غابة شيكان. وقبل مرور ساعة قام العرب فجأة بالهجوم على المربع من الخلف. في ذلك الوقت كان بالمؤخرة الكتيبة رقم ١٤ أما الكتيبة الأولى فكانت في مقدمة المربع والكتيبة الثانية والثالثة كانتا على اليمين واليسار. أما كل المخزونات والذخائر فقد احتفظ بها في وسط المربع. تمكن قلة من العرب من اختراق المربع لكن الكتيبة الأولى استدارت لنجدة الكتيبة الرابعة ونجحت في طردهم تاركين أربعه منهم قتلى بداخل المربع ومن بينهم فوزي أفندي, كاتب المهدي, والذي كان من قبل موظفاً حكومياً بالأبيض، وقد تم التعرف عليه. وقد قتل من الجيش رجب بك قائد الكتيبة الرابعة وبعضاً من جنوده مثلما قتل عدد من الجمال. لكن الأخطر من ذلك هو أن كثيراً من الجمال التي تحمل قرب المياه قد سقطت خارج المربع وقد منعت نيران العدو الحامية أي محاولة لاستنقاذ قرب المياه واستعادتها.

وقد توقف الجيش الآن في مكانه, وطبقاً للمرشدين فأن شيكان كانت على مسافة ميلين فقط عنهم. تم إنشاء زريبة وأتضح الآن أن للعدو قوات ضخمة من حولهم.

تجمع كل التجار في خيمة علاء الدين باشا وسألوه عما ينوي القيام به بعد هذا. قام علاء الدين بإرسالها إلى هكس والذي أعادهم بدوره إلى علاء الدين. لكنهم بدلاً عن رجوعهم إليه رفعوا أصواتهم متذمرين من سوء المعاملة التي يجدونها وقالو أنهم بصراحة قد أحضروا هنا ليقتلوا.

أثناء ذلك استمر العدو في إطلاق نيرانه نحو الزريبة متستراً بالأشجار. وهنا جرح الدكتور جيورجس في بدنه ومات بعد نصف ساعة.

استدعى هكس باشا كل قادته من الضباط والتجار وغيرهم لمناقشة الوضع. وسألهم إن كان لديهم أي مقترحات. لكن أحداً منهم لم يتفوه بكلمة. ثم سأل قناوي بك عما تبقى من الذخيرة وأتضح أن كل رجل سيكون لديه ٢٤٠ طلقة. لكنه قال بأن هذه الكمية غير كافية حيث عليهم شق طريقهم بالقوة نحو الأبيض, على بعد ثلاثين ميلاً. وعندما سمع التجار بهذا إضطربوا وإقترح بعضهم الوصول إلى كاشقيل بالقوة, بينما توسل البعض الآخر بأنه يمكن التراجع والانسحاب إلى علوبة. إضطر هكس باشا لإنهاء الإجتماع وطلب منهم التفكير في الأمر وأن يعودوا في المساء لإخطاره بما يتفقون عليه. رجع التجار إلى خيمة قناوي بك. وبناء على نصيحته قرروا أن يحاولوا الإستيلاء على بعض الأسلحة التي كانت قد أخذت منهم وأنهم، تحت قيادة قناوي بك, سيخرجون من الزريبة متسللين ليعودوا من حيث أتوا. تم تنفيذ هذا القرار صبيحة اليوم التالي. لكن أحد التجار المدعو بساطي بك كان قد حذر علاء الدين باشا قبلها بما سيقومون به. وعندما وصل الخبر لمسامع هكس باشا قام بإرسال أحد ضباط أركانه الإنجليز لإرجاعهم. وقد نجح الأخير في إرجاع قناوي بك لكن بقية رجاله, وعددهم خمسين رجلاً، رفضوا الرجوع* قرر هكس باشا أن يعاود الزحف. وفي العاشرة من صباح الإثنين الخامس من نوفمبر خرجت القوات من الزريبة وشكلت ثلاثة مربعات كالمثلث. كان كل مربع يضع ذخائره وجماله وأحماله في الوسط. وقاد هكس باشا مع رجال أركانه الطريق ومن ورائه أربعة مدافع وبعدهم المربع الأول والذي يدعمه من اليمين ومن الشمال المربعين الآخرين. وكان كل منهم يبعد عن الآخر بثلاثمائة ياردة. قاد علاء الدين باشا المربع الأيمن وقاد سليم بك المربع الأيسر. وكانت الفرسان تحمي الأجناب كما أن فصيلة من الخيالة كانت تحرس المؤخرة.

---

* ربما كان هذا الحادث هو أساس التقدير, الذي ظلوا لزمن طويل يعتقدون في صحته, بأن قسماً كبيراً من الجيش قد أنفصل عن الجسم الرئيسي وأنه قد هرب خلال المناطق الجبلية متوجهاً للجنوب.

وبهذا التشكيل تقدمت الحملة بانتظام. وبعد نصف ساعة وصلت إلى وادي شبه مفتوح تتناثر عليه هنا وهناك بعض الشجيرات. أما على الجانب الآخر فكانت هناك غابة كثيفة الأشجار مليئة بالقوات الثائرة.

ولنعد الآن قليلاً لنرى تحركات محمد أحمد. فعندما علم من جواسيسه بأن هكس قد قرر التوجه نحو كاشقيل، قام بإرسال الأمير أبو عنجة، مع معظم مقاتليه، غلي شيكان، التي تبعد بستة أميال شمال البركة (وقد قام هذا الأمير بهجوم الرابع من نوفمبر). أما محمد أحمد، ومعه ما تبقى من قواته، ومصحوباً بالخلفاء عبد الله التعايشي وعلي ود حلو ومحمد شريف وبالأمراء يعقوب (أخو عبد الله) وآدم وود النجومي، فقد توجهوا نحو الوادي، والذي لابد أن يمر بـه الجيش، وأضـفوا أنفسهم على جانبي الغابة بينما أختفي قليل منهم بداخل منخفض ملئ بالأشجار في وسط السهل، والذي تشير كل الاحتمالات على أن قوات الجيش ستمر من خلاله.

تم إرسال النجومي مع قواته ليقود الهجوم بينما كلف أبو قرجه وعبد الحليم، اللـذان لـم يتوقفا أبداً عن هرس مؤخرة الجيش التعس الحظ، بمهاجمة المؤخرة.

صار كل شئ جاهزاً. ومكث محمد أحمد، في صبر شديد، في انتظار قدوم الجيش، والـذي لاحت مقدمته في الأفق. استدعي أمراءه لتسليمهم أوامره النهائية ثم نهض من صلاته وجرد سـيفه وكبر الله مرات ثلاث وقال لهم:" عليكم ألا تخشوا شيئاً لأن النصر لنا*".

ثم وصلت المربعات الثلاثة: وصل الأول على المنخفض الملئ بالأشجار فقفز العرب، وهم يصيحون بوحشية، نحوه. فوجئ المربع وامتلأ رعباً وسرعان ما تحطم المربع في لحظـات. قامـت مربعات الجناحين بإطلاق النار بجنون على العرب الذين كانوا يحاربون المصريين يداً بيد ولابـد أن نارهم هذه قد قتلت عدداً من رفاقهم. وفي نفس الوقت تقريباً قام العرب بهجوم من داخل الغابة على جانبي المربعات وعلى المؤخرة. وتلي ذلك مشهد لفوضى عظيمة. فقد كانت المربعات تطلق نيرانها على بعضها البعض، على الصديق وعلى العدو. وبينما كانت أمواج العرب الهادرة المتدفقة قد أطبقت الآن تماماً علي قوات الجيش وأحاطت بها (قافلة أي سبيل للنجاة أمامها). بدأت مذبحـة مريعـة لا يمكن وصفها وفي أقل من ربع ساعة كان كل شئ قد أنتهى.

ولما رأي هكس باشا وأركانه أنه ليس بوسعه عمل أي شئ، فقد اتخذ طريقه نحو اليسار ووصل إلى أرض مزروعة حيث أحاط به بعض فرسان البقارة. ولوقت ما إستطاع إيقافهم، فقد قاتل ببسالة حتى فرغت ذخيرة مسدسه ثم عمل بسيفه فيهم وقتل منهم عدداً من المحـاربين. لقـد كـان هكس آخر من سقط من الأوروبيين ولازالت إحدى هجماته الشرسة التي شنها على المغيرين عليـه محفوظة في ذاكرة السودانيين إلي يومنا هذا حتى أن البقارة الذين هربوا أمام هجمته الرهيبة عليهم أسماهم أفراد قبيلتهم (ببقر هكس)، أي أنه طردهم كالبقر من أمامه. لكنه سقط أخيراً بعد أن اخترقته حربة رماها عليه الخليفة شريف* قاتل حرسه الشخصي من الفرسان ببسـالة. ورغـم النـداءات

---

* أقيم مسجد صغير على البقعة التي ركع فيها المهدي للصلاة (المؤلف).

* ساد هذا الاعتقاد حيناً من الدهر، رغم معارضة الكثيرين له. وربما كان ذلك سبب الانتقام الدنئ مـن الخليفـة شـريف بالشكابة، بعد ستة عشر عاماً من مقتل هكس (المعرب).

المتكررة لهم بالإستسلام إلا أنهم أجابوا:" لن نستسلم أبداً, لكننا سنموت مثلما مات ضباطنا بعد أن نقتل منكم عدداً مثلهم" وسرعان ما قتلوا جميعاً.

أما علاء الدين فقد قتل أثناء محاولته اتخاذ طريقه من يمين المربع للحاق بهكس باشا.

وسقط قناوي بك وسط المربع بجانب حصانه. وقد قيل بأنه عندما سقط مضرجاً بجراحه المميتة تمكن من قطع عرقوب حصانه بسيفه قائلاً: "لن يركبك أحد من بعدي أبداً".

تم تدمير كل الحملة ما عدا حوالي ٣٠٠ سقطوا جرحي. أما من الثوار فلم يقتل أكثر من ٥٠٠ رجل وعادت كل قواتهم. وقد إنتشت بخمر النصر. وبعد أن حملت كل ما أمكنها من الغنائم والمنهوبات من كافة الأنواع, إلى مختلف مضاربها وعاد مع المهدي إلى الأبيض نحواً من ١٢٠٠٠ رجل منهم. وكان من بين الأسري عبد الرحمن بانقا وإثنين من المرشدين المحس"... انتهى.

إنتشرت أنباء إنتصار المهدي إلى كافة الأصقاع. وإذا ما كانت هناك أي شكوك من قبل, سابقة لما وصف الآن بالمعجزة بعد إبادته لجيش كامل، فقد زالت سريعاً الآن. وعم الاعتقاد بظهور المهدي الحق كافة المناطق, من دنقلا إلى خط الاستواء, ومن البحر الأحمر إلى تخوم واداي, ولم يعد هناك شك فيه.

أما في القاهرة, التي حدثت تلك المذبحة المذهلة بعيداً جداً عنها, فلم يستوعب حكامها ما حدث أو يقتنعوا بصحته. فقد دبج الوزراء المصريون مذكرة يقولون فيها بأنه لتمكين السيطرة المصرية على السودان فأنهم يحتاجون، مؤقتاً, لإستخدام عشرة ألف من الجنود. لكن المستشارين الأوروبيين الذين معهم ملأوا أسماعهم بأخبار الحدث وصحته التامة ونصحوهم بإخلاء السودان على الفور*

وتأييداً لما سبق سرده فأن الملخص التالي, الذي أخذ من خطاب أرسله مدير الخرطوم, مع بعض الإيضاحات، إلي الجنرال غردون, له دلالة مثيرة للإهتمام:

الملحق (ف) (من يوميات الجنرال غردون) (شخصي)

من مدير الخرطوم إلى الحاكم العام للسودان

"وضع هذا التقرير حسين باشا، مدير الخرطوم، عندما كان بالقرب من علوبة في كردفان. وظل يتنقل من يد إلى يد بين الثوار حتى علمنا بوجوده. بحثنا عنه حتى تسلمنا النسخة التالية التي أنقلها لكم كما هي:

"ففي يوم السبت، الثاني من محرم ١٣٠١هـ (٣ نوفمبر ١٨٨٣) إكتمل وصول مفرزات الجيش إلى ضواحي علوبة, الواقعة على القرب من رئاسة الحكومة في كردفان، بمشيئة الله.

* لقد جاء التأييد لما سبق ذكره في السرد السابق عن الإبادة الكاملة للجيش المصري بقيادة هكس باشا في إفادة الصاغ محمود عبد الله المحلاوي, والذي كان موظفاً سابقاً في مديرية بحر الغزال, والذي تم إرساله بعد سقوطها, مع لبتن بك, إلي الأبيض. وبعد وصوله لها, بعد حوالي ستة أشهر من معركة شيكان, أمره المهدي بالذهاب لمكان الموقعة, بصحبة لبتن بك، ومعاينة المكان.وقد جاء وصفه مطابقاً, في كافة الجوانب، مع إفادة البارودي. وقد قيل بأن لبتن بك قد رسم تخطيطاً للموقع، لكنه، ولأنه مات بعد ذلك، فأن من غير المحتمل أن يكون ذلك الرسم محفوظاً حتى الآن.

وبالتفتيش عليهم (على القوات) أتضح بأنهم عانوا من العطش الشديد لأنهم لم يجدوا ما يكفي الجيش من المياه لشربه بسبب من فقدان الدليل، الذي كان معيناً للقيام بقيادتنا في الطريق الصحيح، قبل ستة أيام، وبسبب الجهل التام للأماكن التي قد توجد بها المياه.

ترتب على ذلك اضطراب شديد في المربع لدرجة وصلت الفوضى فيها أن الجنود لم يستطيعوا التعرف على فرقهم وحتى الضباط لم يعرفوا رجالهم. حتى حيوانات النقل تبعثرت – وأعني بأنها تشتتت فرادي – بدون أي سيطرة عليها. من هنا أمر المسيو هكس، قائد التجريدة، الضباط والجنود للتجمع حسب النظم. لكن، ولأن أحد كبار الضباط بالحملة رفض ذلك الأمر فقد أحال الأمر لعلاء الدين باشا حتى يعيد الإنضباط والنظام بين القوات. لكن معاليه أجابه بأنه هو نفسه القائد والمسئول. وترتب على هذا التصرف ضعف وشلل عام.

إلتقينا ببعض القوات وقد أحيط بنا في مكان واحد وعلى حسب ما سبق أن قلته -- ولفقدان أي مياه حتى يوم الأحد، لأننا لم نجد ما يكفينا حتى ذلك الوقت – أصبح من المستحيل النجاة من التدمير والهلاك.

ولكن: أوه! ويا حسرتاه على السلطات الحكومية والمسئولين الذين هم بمنأى عن الخطر. فإذا ما شاءت إرادة الله القدير أن نموت – الموت الذي تأخر حتى الآن – فأن السبب هو من العطش وليس لشئ آخر.

أنني، كاتب هذا التقرير، أدعي حسين باشا، المدير، والموظف في إدارة الشئون المدنية بالحكومة وأنا من أهالي مصر، من الذين تدرجوا في الرتب منذ أن كنت جندياً. وأنني أستحلفكم بالله، بأن على من يرى خطابي هذا، إن كنتم تؤمنون بالله وبرسوله، أن تجعلوا ما جاء فيه معلوماً لدي السلطات الحكومية.

فلتكن مشيئة الله، حيث لا مهرب من إرادة الله الذي يسمع ويعلم كل شئ. أطال الله عمرك.

كتب بالجمعة ١٩ / ٩ / ١٨٨٤.
الساعة الثامنة و ١٢ دقيقة

ملحق القسم الرابع (مسار حملة هكس)

عندما كان هكس يشق طريقه وسط أحراش كردفان، كان أحد أشهر تجار الرقيق محاصراً لسواكن وللحاميات المجاورة لها في طوكر وسنكات. كان هذا الرجل المشهور هو عثمان دقنة. كان من أصل تركي، فلقد جاء أسلافه من القسطنطينية قبل ٣٠٠ عام وتزاوجت أسرته مع قبيلة الهدندوة واتخذ عثمان جنسيتهم. وعاش هو وأخوه أحمد لعدة سنوات يعملون في التجارة وفي تجارة الرقيق في سواكن وكان من عادته التوغل في قلب السودان من أجل تجارته. ولكـن المعاهـدة المصـرية الإنجليزية كانت عائقاً خطيراً لتجارة الرقيق. وفي عام ١٨٨٢ توجه عثمان إلى الخرطوم ومنها إلى كردفان حيث ألقي بثقله مع المهدي، والذي نصبه أميراً عام ١٨٨٣. من ثم أرسله المهدي إلي شرق السودان بمنشور هذا نصه:

"من محمد المهدي إلى كافة أحبابه، المؤمنين بالله وكتابه أعلموا أيها الأحباب أن الخيـر كله في طاعة الله وفي السير على درب الذين هداهم الله..........**

والسعيد من إتعظ بغيره والأحمق من اتبع نفسه في هواه..........

هذا وقد أظهر الله هذا الدين..... وجعل عزه في الجهاد. فمن أخذ من حظه في زمانه كان كمن شاهده كله وشارك من مضي قبله من الغزاة. ومن تباطأ عنه في زمانه فقد شارك المتخلفـين عن رسول الله في إثمهم وعارهم (وهنا وردت عدة آيات من القرآن ومن الحـديث)....... فلمـاذا التخلف والقعود عن طاعة الملك لمعبود؟....... ألم تروا كيف انتصرت علي التـرك والكفـار...... والذين حرقت النار أجسادهم من طعنات الحراب؟......

أنه أمر خادق للعادة وفيه عبره لمن يعتبر.........(وهي مثل كرامات الأنبياء)، مـع مـا عند الترك من القوة العددية والأسلحة النارية والمواقع الحصينة لكنهم لم يهزموا فقط بـل دمـروا تدميراً. وما سبب دمارهم إلا لأنني هدي من الله وقد خلفني الرسول بالمهدية وأجلسني عدة مـرات في كرسيه بحضرة الخلفاء والأقطاب* والخضر. وأيدني الله بالملائكة المقربين** وبالأولياء جميعـاً من لدن آدم إلى زماننا هذا....... وفي ساعة الحرب يحضر معهم أمام جيش سيد الوجـود (ومـن ذكرت من قبل). وقد أتاني سيف النصر من حضرته وأعلمت أنه لا ينصر علي معه أحد ولـو كـان الثقلين الجن والإنس. وأخبرني الرسول بأن الله قد وضع شامة على خدي الأيمن علامة على أننـي المهدي وكذلك جعل لي علامة أخرى هي راية من نور يحملها عزرائيل (ملك الموت) والذي يمشـي

---

* النص الكامل في (الآثار)الجزء الأول برقم ١٠٩ صفحة ٣٠٩. وقد عدل مترجموا ونحت بعض العبارات وحذفوا كثيـراً من الآيات والأحاديث الواردة في الأصل (المعرب).

** النقط .... تعني ترك المؤلف سطر أو عدة سطور (المعرب).

* بدلاً عن (الأقطاب)كتب المترجم (الأنبياء) وقد صححناه (المعرب).

** جاء في الترجمة خطأ أن الملائكة كانوا حاضرين جلسة التنصيب (المعرب).

معي ساعة الحرب......... وبهذا قد حصل الظفر التام والفتح العام لجميع كردفان ونواحيهـــا.......
وسيعم الفتح إنشاء الله بلادكم وجميع الأرض........ ويسلمون لي ويقرون بـــأنني علـــي المهـــدي
الحق. فالويل لمن لا يصدق بمهديتي لأنهم سيدمرون .... فلماذا لم تبادروا بالهجرة لنا عنـــدما
سمعتم عني وذلك نصرة للدين؟ هل خشيتم سطوة الترك وقوتهم؟ أما تعلمون بأن جيوشهم لابـــد أن
تسقط في يدي وأن جموع الكفار مكسرة! أما تعلمون بأنني المهدي المنتظر؟ أولاً تصـــدقون قـــول
البشارات التي جاءت عني؟ (ثم تلي ذلك عدة آيات من القرآن.. الخ). فإذا فهمتم ما ذكرنا فأعلموا
أني قد جئتكم بأمر من الله ورسوله فأطيعوا أمري. وأخبرني سيد الوجود أن من شك في مهديتي كفر
بالله ورسوله. هكذا بلفظه الشريف وكررها ثلاثة مرات. وأني من نسل الرسول من جهة أبي (لأمـــه
وأبيه) وأن والد أمي وأمها من العباسيين. فأنا من نسل الحسين. لقد هاجرت إلى ماسا بجبل قـــدير
بأمر من الرسول. وبأمره أيضاً حضرت لكردفان وكاتبت الجهات منها كذلك ومن الجملة أنتم. فـــإذا
بلغكم جوابي هذا فدعوا طاعة الترك (فوراً) ولا تترددوا في هجر الأموال والأولاد. بل هاجروا ولـــو
لأقرب بلد منكم وقاتلوا الترك بكل ما لديكم من قوة (وهنا يكتب عدة آيات من القرآن)***

وإني موجه إليكم الشيخ عثمان دقنة, من سواكن, كأمير عليكم لأجل إقامة الـــدين ....
فإذا حل بدياركم فاجتمعوا عليه وأطيعوا أوامره, وأخرجوا معه للغزو والجهاد وطهروا الأرض مـــن
الشرك والفساد* فقد خرج قبلكم رجال الله, بعد أن تركوا أوطانهم وأولادهم, لنصرة دين الله وتطهير
البلاد من المشركين ولم يكترثوا بالموت أو بالإرهاق........** فهذا امتحان مـــن الله لكـــم ليميـــز
(الخبيث من الطيب). فمن أمتثل أمر الله رضي الله عنه*** ومن تخلف........ فالسيف من ورائـــه
وهو أجره وجزاه.....(وسيكون مصيركم مثل مصير الذين عصوا أمرنا من قبل).............."

وعندما وصل عثمان إلى أركويت أرسل مصطفي هدل للاستيلاء على كسلا بينما تفرغ هـــو
للمناطق المجاورة لسواكن.

وفي الخامس من أغسطس تم الهجوم على سنكات لكنه صد. وفي التاسع من سبتمبر هزم
حاكمها توفيق بك العدو في هندوب على طريق أركويت. وفي السادس عشر من أكتـــوبر هوجمـــت
تعزيزات مصرية, كانت في طريقها لسنكات, وفي ممر ضيق, بواسطة القبائل الثائرة وقد أبيدت القوة
بأكملها ما عدا خمسة وعشرين منهم نجوا بأنفسهم. وبهذا قطعت سنكات تماماً عن س اكن. وجعـــل
هذا النجاح الأخير عثمان دقنة يمتلئ بالثقة بعد أن كسب رجال القبائل لصـــفه. فتـــركهم يواصـــلون
الحصار بينما إلتفت هو إلى طوكر والتي حوصرت تماماً الآن. وفي الرابع من نوفمبر تم إرسال قوة
واهنة العزم من سواكن, مكونة من ٥٥٠ رجلاً بقيادة محمد باشا طاهر, قائد قوات شرق السودان,
لفك الحصار عن ذلك المكان. غادروا سواكن في الثامنة صباحاً وما أن مـــرت ســـاعة حتـــى لاذوا
بالفرار المهين أمام ١٥٠ من رجال عثمان دقنة, تاركين ١٤٨ من القتلى فـــي الميـــدان، وعـــادوا
لسواكن ناشرين فيها الرعب والهلع.

*** هي جزء من آيه (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) وليس عدة آيات (المعرب).

* استبدل كلمة الشرك (بالترك) – المعرب.

** هنا ترك الم.لف عدة. أسطر من الآيات القرءانية والنصائح والعظات (المعرب).

*** استبدل المؤلف أمر الله بأمر المهدي (المعرب).

وفي تلك الكارثة فقد الكوماندر لندوخ مونكريف حياته مثلما فقدها هكس، قبلـه بيـوم ، ولنفس القضية، على بعد ٦٠٠ ميل منه.

ثم تقرر الآن فتح طريق سواكن – بربر. وإذا ما كان لمصر أن يكون لها جيش أبدا فيجب أن يتم تدريب رجاله على استخدام الأسلحة ولغرس الثقة في ضباطهم فيهم وذلك قبل أن يتم إرسالهم للقتال في بلاد متوحشة من أجل أرواحهم.

ولم يكن بمقدور من جندهم السير إيفلين وود, قبل أحد عشر شهراً, القيام بمثل تلك المهمة كحملة بربر. لكن رجال الشرطة المكونة أساساً من قدامي المقاتلين, والذين يقودهم الجنرال فلانتين بيكر باشا، صاحب النجاحات الجيدة في تركيا، كانوا ممتلئين بالثقة تماماً.

وفي السادس والعشرين من نوفمبر قام صاحب السمو الخديوي باستعراض رجال الشرطة الذين تم أختيارهم للخدمة في سواكن. وبعد الاستعراض قام الضباط الأتراك جميعهم بالتوجه إلى بيكر باشا وأخطروه برفضهم للذهاب معه.أجابهم بيكر بأنه سيتوجه بنفسه إلى هناك ونـادي مـن يريـد التطوع أن ينضم إليه وسرعان ما لقي نداءه استجابة طوعية فقد كان لبيكر اعتبار واحترام كبيرين.

وفي تلك الأثناء حدثت كارثة أخرى في سواكن. فقد واصل رجال عثمان دقنة إنهاك المدينة بهجماتهم الليلية اليومية وفي الثاني من ديسمبر تقدم قاسم أفندي بقوة من ٢٠٠ باشبوزوق و ٥٠٠ من السود لطرد العدو بعيداً عن المدينة. لكنهم هوجموا في ممر ضيق بالقرب من تماتيـب. هـرب الباشبوزوق والتحقوا بالسود وهم في فزع رهيب لكن السود حاربوا حتى النهاية وتم تمزيقهم إرباً من قبل ٣٠٠٠ من العرب.

وساد الهلع أرجـاء سواكن. لكن بعضاً من الحظ الحسـن، وسـط هـذه السلسـلة مـن الكوارث, جاءهم بوصول أول مفرزة من جنود بيكر باشا, وفي الوقت المناسب قبل سقوط المدينـة واستئصال سكانها.

تم إبعاد محمد باشا طاهر عن عمله كمدير وحل محله سليمان نيازي باشا, والـذي، كمـا تذكرون, كان قد أبعد من قبل من قيادة جيوش هكس حتى تؤول القيادة العليا للأخير.

كانت قوات بيكر باشا, عندما غادر القاهرة، مكونة من ٢٠٠٠ من المشـاة و٥٢٠ مـن الفرسان إضافة إلى ١٠٠ متطوع أوروبي من قوات الشرطة. وكان من ضباطه الإنجليز الكولونيـل سارتوريوس والكابتن هارنجتون والكابتن هولرويد والكابتن جايلس وموريس بك والدكتور لسـلي والكابتن فوريستير ووكر إضافة إلى أركان حربه الكولونيل هاى والكابتن هـارفي. أمـا الكولونيـل بيرنابي فقد تطوع بنفسه للذهاب مع الحملة.

وفي يوم الميلاد استعرض الجنرال بيكر كل قواته بسواكن وفرض عليهم تـدريباً صـارماً على الطوابير العسكرية استعداداً للمهمة الكبيرة الملقاة على عاتقه. وفي السابع عشر مـن ينـاير ١٨٨٤ وصلت الأخبار بإخلاء السودان فما لبث القاضي, وهو أكثر الرجال نفوذاً في سواكن, أن لحق في الحال بعثمان دقنة*

* هذا القاضي هو زوج أخت عثمان دقنة.

التزم بيكر الآن بفك الحصار عن طوكر وإنقاذها من السقوط. فتحرك في الرابع من فبراير ١٨٨٤ من ترنكتات بعد أن شيد حصناً من قبل على مسافة ثلاثة أميال من مكان نزوله، وترك فيه ٣٠٠ من رجاله ثم زحف بقوة من ٣٧٠٠ رجل نحو طوكر هادفاً لانقاذها.

والتشكيل التالي هو الذي تحرك به:

* ثلاثة كتائب من المشاة، في صفوف متوازية مفصوله عن بعضها البعض ومتحركة من طوابير عسكرية.

* المدفعية والفرسان في المقدمة وعلي الأجناب.

* ديدبانات وفرسان على بعد ميل أمامهم

* بالمؤخرة جاءت الأحمال عى ظهر ٣٠٠ بعير.

واشتبك الفرسان بمجموعة صغيرة من رجال العدو وشتتوهم. وعندما كانوا على مقربة من آبار التيب التقوا فجأة بعدد من حملة الرماح واضطروا للتراجع بينما تتبعهم حملة الرماح متابعة لصيقة.

حاول الجنرال بيكر تشكيل مربع عسكري. لكن كتيبتين من المشاة الذين غمرهم الرعب والهلع رفضوا التحرك. وأخيراً تم تشكيل مربع لكن مؤخرتهم كانت في فوضي عارمة وفقدت السيطرة على الجمال والخيول والبغال. وفي خضم هذا الإضطراب زاد الفرسان المتراجعون الطين بلة باندفاعهم مرتعبين نحو المربع وأضافوا إليهم هلعاً بعد هلع.

واندفعت أعداد كبيرة من العدو، التي كانت مختفية بين الأشجار، نحو المربع العسكري فتحطمت الكتائب المصرية على الفور ودفعت الحيوانات إلى الوراء، حيث الجنود السودانيون غير النظاميين، وسرعان ما نفرط عقد النظام بين القوات.

وأصابهم رعب عظيم. وهربت القوات بعد أن ألقت سلاحها لكن عدداً منهم تجمع في حشد متدفق وسط الجمال والبغال والخيول المضطربة ولم يتمكنوا من إستخلاص أنفسهم من وسطها فذبحوا عن بكرة أبيهم دون إبداء أي مقاومة من جانبهم. أما الأوروبيون فقد قتل منهم أحد عشر بعد أن قاتلوا ببسالة وهم يحاولون لم شعث رجالهم. ولم يتبق من قوات بيكر باشا سوي ١٤٠٠ رجل تمكنوا من الوصول إلى ترنكتات وكان معظمهم بدون سلاح أو ملابس. ولما وجد بيكر أن أي محاولة للمقاومة هي في حكم المستحيل صعد هو ومن تبقي من جنوده إلى السفن التي أعادتهم لسواكن.

سقط في يد العرب أربعة من مدافع الكروب ومدفعي جاتلنج ونصف مليون رصاصة وثلاثة ألف بندقية وقربينة (بندقية قصيرة) رغم أن كل قوتهم لم تتجاوز ١٢٠٠ رجل.

وأصبحت سواكن الآن ولا يحميها سوي قوة صغيرة من الجنود الذين تدهورت معنوياتهم، مع مساعدة من رجال البحرية الحربية البريطانية بقيادة الأدميرال هيوت.

أما في الجنوب، فقد كانت مدينة هرر، المحاطة بالأسوار، والواقعة وسط جنائن البن مثل جزيرة وسط بحر من قبائل العيسي والقادو برسى الصومالية من مربي الإبل. فقد كانت هادئة برغم ما دار من بحث حول سحب حاميتها.

أما حصار كسلا الطويل، والذي امتد لعشرين شهراً، فقد بدأ في نوفمبر ١٨٨٣. وأقام مصطفى هدل، القائم بمقام عثمان دقنة، والمتحالف مع شيخ أحمد أبن شيخ موسي ومن معهم من الهدندوة* رئاسته في قوفتام على بعد أربعة ساعات إلى الشمال من كسلا. وكان مدير كسلا (وهي مدينة مسورة يقطنها ١٣٠٠ نسمة قد حصل على مساعدة من عرب بني ريد في مبدأ الأمر وكدس كميات كبيرة من الذرة بها. وقام في يناير ١٨٨٤ بغارة خلال الإقليم الذي يقطنونه لكنهم وقعوا على مؤخرة جيشه ومزقوا ٩٠٠ من جنوده إرباً أرباً. أقفل الحاكم أبواب مدينته عليه وأعاد توزيع ١٨مدفعاً جبلياً ومترليوز. وكان لديه ١٦٠٠ من الجنود النظاميين و٢٣٠٠ من غير النظاميين إضافة غلي كميات كبيرة من المؤن والتي كانت تضاف إليها، من وقت لآخر. كميات أخرى يأتي بها إليه عرب الشكرية الأوفياء. وقد كانت هذه واحدة من حالتين، منذ سقوط أول حامية إلى سقوط أخرها، التي تلقي فيها المصريون أي مساعدة أو تعاطف من السودانيين. لكن الشكرية. في النهاية. لجأوا إلى بيع الذرة للمحاصرين (وجني الأرباح منهم). لكن جمود الحكومة واستكانتها أقنعتهم بأنهم إنما يدعمون الجانب الخاسر وأنهم لا يقومون إلا بجهود كيشوتية* لدعم قضية كان أصحابها الأصليون قد هجروها وبالتالي غيروا اتجاه ولاءهم. رغم أن ذلك قد يكون إسمياً أكثر منه واقعياً. نحو المد المتدفق العارم للعرب المتعصبين. وهكذا بدأ عام ١٨٨٤ بداية سيئة لحامية كسلا.

وفي هذا الوقت قدر أن لدى المهدي ما يزيد على ٢٠٠٠٠ بندقية و١٩مدفع ومخزونات ضخمة من الزخائر.

دارفور , ١٨٨٣ :

بنهاية عام ١٨٨٢ كان مادبو قد ضايق سلاطين بك في دارا وأنهكه. وفي نفس الوقت تمكن سلاطين من إيقاف مد الثورة بالقرب من الفاشر والتي كان قد ألهبها السلطان دود بنجة وسلطان جادو. ولكن. وفي أوائل ١٨٨٣ ,تجمعت القبائل من جديد وانتشر سريان الثورة ووصل إلى أقصى مناطق هذه المديرية. وسرعان ما أصبحت مدن الفاشر ودارا وكبكابية في حالة حصار وانقطعت الاتصالات تقريباً بين تلك المناطق.

وحاول سيد بك جمعة، مدير الفاشر. لمرتين أن يطهر الضواحي من الثوار وفي المحاولة الأخيرة كادت قوات الحكومة التي أرسلها لهذا الغرض أن تباد ولم يرجع منهم سوى تسعة وتسعين رجلاً وقد حدثت هذه الهزيمة في أغسطس ١٨٨٣.

وفي وقت مبكر من العام صدرت من الخرطوم أوامر لسلاطين بك لتركيز قواته بالفاشر. ولترشيح أحد السلاطين. الذين أطيح بهم، ليتولى الملك وبعدها عليه أن يعود للخرطوم. لكن هذه

---

* الإسم القبلي (هدندوة) مشتق من الكلمات البجاوية (هدا) بمعني زعيم أو سيد و (أندوا) بمعني الناس. من هنا فأن الإسم يعني الزعيم أو رؤساء الناس مما يرضي غرور أولئك البدو.

* كلمة كيشوتيه دخلت اللغة الإنجليزية كرمز للمتحمس لقضية وأهية أو غير واقعية – أو وهمية – بدافع النخوة والشرف. وهي مأخوذة من بطل رواية سيرفانتيس. دون كيشوت (كويكزوت) والذي اشتهر بمناطحة طواحين الهواء ظناً منه بأنهم أعداء (المعرب).

الرسالة لم تصل أبداً لسلاطين لأنه كتب في يونيه خطاباً من دمتالا إلى الخرطوم يتحدث فيه عن في كرب وخطر شديدين. فلقد قاتل في سبعة وعشرين معركة وقتل الأمير بكر لكن رجاله هم الذين قوضوا سلطته وقاموا بنشر أنباء تقول بأن عرابي قد طرد كل الإنجليز من مصر.

وعند حلول فصل الأمطار تحول سلاطين إلى أم شنقه ووضعها في حالة دفاع ثم أمر حامية فوجه لتعزيز هذا المكان ومن بعدها عاد إلى دارا.

ثم عمت ضباطه وجنوده الآن روح الثورة وانتشرت عدواها بينهم. فقام باعتناق الإسلام إسمياً مؤملاً بان نفوذه سيزداد بذلك بينهم. وقد أجدى ذلك لبعض الوقت حيث إضطر بعد ذلك بفترة قصيرة لإلغاء أي إحتمال لدفع جنوده للوقوف أمام المد المتزايد دائماً للثورة. لجأ إلى الحيل والخداع بعد ذلك كسباً للوقت فقد جاء أكتوبر ١٨٨٣ ووصلته أنباء تقدم هكس باشا بجيوشه نحو الأبيض وأمل في أن يتمكن من منع المهدي من إرسال المزيد من التعزيزات للمحاصرين له. وأن يتمكن من تهدئة الأخير لبعض الوقت مؤملاً بأن قدوم هكس قد يمكنه مرة أخرى من أخذ المبادرة حيث سيتوقع وصول نجدة عاجلة له. لهذا إستدعي مجلساً للمشاورة حيث تم فيه مناقشة الوضع الحالي. لكن المجلس, وبالإجماع, أتخذ قراره بتسليم المديرية طوعاً للمهدي وفي نفس الوقت يكتبون خطاباً لهكس باشا يطلعونه فيه على الوضع ويترجونه بأن يهب لنجدتهم بكل ما أمكن من السرعة. سلموا خطاب التسليم للمهدي, وكذلك الخطاب المعنون لهكس, لمحمد خالد زقل, مدير دارا, والذي كان في نفس الوقت مرتبطاً برباط القرابة مع محمد أحمد. وغادر زقل دارا ونجح في المرور بسلام خلال خطوط العدو لتسليم الخطاب. ثم واصل الرحلة إلى الأبيض حيث سلم للمهدي خطاب التسليم. وكانت خطابات مماثلة قد كتبت بواسطة سيد بك جمعة من الفاشر, ومن آدم أفندي أمير من كبكابية, مما ترتب عليه أن تراخي المحاصرون عن إحكام الحصار وتلي ذلك فترة من الانتظار المشوب بالقلق. فمن ناحية كان سلاطين يأمل في وصول النجدة له سريعاً. أما المحاصرون من الناحية الأخرى فقد مكثوا في انتظار التعليمات النهائية من المهدي حتى يتولوا زمام الأمور.

وبعد وقت قصير من وصول زقل للأبيض, حدثت الكارثة الرهيبة بشيكان والتي أبيدت فيها قوات هكس باشا وبالتالي, ومهما كانت نوايا زقل الأصلية، فقد أصبح مهدوياً بكل جوارحه. وحقيقة، لقد كان متحمساً بشدة لإبداء ولائه للزعيم الجديد لدرجة أن الأخير أرسله على الفور، مع قوة مناسبة, لتولي زمام الأمر في دارفور باسمه.

وبعد أن سمي أميراً على دارفور, تحرك زقل من الأبيض في بداية ديسمبر ووصل أم شنقه في أواسط الشهر وأبلغ حاميتها بخبر هزيمة هكس باشا وبأنه أصبح الآن الحاكم باسم المهدي على دارفور. استسلمت له الحامية بدون أي طلقة رصاص وبعدها واصل تحركه نحو دارا وتوقف على مسافة قصيرة منها حيث أرسل خطاباً إلى سلاطين أفاده فيه بالتغيير الذي حدث بعد هزيمة هكس باشا. ولتأييد ما جاء بخطابه أرسل مع الخطاب ثلاثة من الجنود المصريين الذين كانوا من جرحى شيكان مع بعض وثائق هكس وبعض ملابس للضباط لأوروبيين. وقد نصح في خطابه بشدة أن يستسلم سلاطين، حيث أن المقاومة لم تعد ذات جدوى له, وبأن البلاد كلها حتى نواحي الخرطوم قد أصبحت في قبضة المهدي وأن عليه ألا يأمل في وصول أي نجدة له.

وبعد أن استلم سلاطين هذه الأدلة الموثقة على الهزيمة الأخيرة, جمع مجلساً من الضباط والموظفين حيث تقرر بالإجماع تسليم المدينة لزقل. وفي اليوم التالي دخلها زقل حيث سلم لسلاطين منشور المهدي الذي أخبره فيه بأن يتبدّ اسم سلاطين ويستخدم بدلاً عنه اسم عبد القادر وأضاف: "أن شيخ عبد القادر رجل صالح ويجب معاملته بكل إعتبار وإحضاره للأبيض مع توفير كل مظاهر التكريم له".

وتحولت المدينة بسلام من أيدي الحكومة إلى يد المهدي. ثم كتب سلاطين بعدها خطابات لكل من سيد بك جمعة بالفاشر. ولآدم أفندي أمير بكبكابية ناصحاً لهما بالتسليم لأن وصول أي تعزيزات بعد إبادة قوات هكس باشا صارت ميئوساً منها، وأن عليهما تسليم مفاتيح الخزينة لزقل.

وفي نفس الوقت كيف سلاطين هذين السطرين التاريخيين إلى لبتن: " إنني موفد إليك هذا الرجل، الحاج مصطفي كرم الله". وكرم الله هذا ما لبث أن صار حاكماً على بحر الغزال.

وهذا ما صارت عليه أحوال دارفور حتى نهاية عام ١٨٨٣ وفي تلك الأثناء, كان المهدي مشغولاً في الأبيض بتثبيت دعائم سلطته على أنحاء البلاد المجاورة. ومن بين الذين كتب لهم الخطابات رابح الزبير طالباً منه التسليم له. كان هذا الشخص من عبيد الزبير باشا السابقين, وقد فر, عقب موت سليمان الزبير, مع عدد كبير من أتباعه إلى دار برقو حيث اشتبك في معركتين مع سلطان تلك المنطقة. وقد قدر السلطان بأن منافسه هذا رجل مرهوب الجانب وفضل, من باب السياسة, أن يجنح للسلم معه وأن يسمح له بالإستقرار على حدوده الواقعة على الشمال من أم شنقه.

طالب محمد أحمد سلطان برقو بأعلان ولائه أيضاً. لكن الأخير, مثله مثل رابح الزبير, رفض بعناد أن تكون له أي صلة بهذا المغامر. ولأنهما كانا بعيدين جداً عن مواقع العمليات الراهنة فلم يتم إزعاجهما بعد ذلك إلا بعد سنوات عدة.

بحر الغزال, ١٨٨٣ :

ونعود للأحداث في بحر الغزال. فقد كان لبتن بك, كما نذكر, يقاوم حتى نهاية عام ١٨٨٢ الموجة المتصاعدة للمهدية, والتي كانت تصب في مديريته منذ أن ثبت محمد أحمد نفسه في جبل قدير وبعد سقوط الأبيض, فقد أصبح دناقلته أكثر استعداداً من أي وقت مضي لأتباع قائد يسمح لهم بحرية التعامل في تلك التجارة المحرمة التي كانت تجري في دمهم. ثم تلقت الثورة قوة دافعة جديدة زادت من انتشارها.

فعلي الشمال الغربي كان الصاغ محمود أفندي عبد الله قد تعامل بنجاح مع تحركات مادبو على تل جاونا. وبعد نجاحه بالقرب من ذلك المكان, تقدم باتجاه شيخ شقيره, شيخ قبيلة بشات, والذي بعد أن تحالف مع أقسام من الدمبو والبونقو واللوا، أعلن بوضوح عصيانه للحكومة وعداءه لها ونجحت تجريده من النظاميين بقيادة على أغا بشارة, ومعه ٢٠٠ من البازنقر بقيادة محمد أزرق, في مفاجأة معسكر العرب واستولوا عليه بعد مقاومة قصيرة كما أسروا ٤٠٠٠ معظمهم من النساء والأطفال.

وفي السابع والعشرين من يناير ١٨٨٣ عاد الصاغ محمود أفندي مريضاً إلى لبتون، والذي كان وقتها في دمبو، تاركاً القيادة في يد رفاعي أغا.

وبعد وقت قصير بعدها تلقي رفاعي أغا أنباءاً عن هجوم متوقع على ليفي يقوده الشيخ جانقو، والذي كان قد عاد مع عدد كبير من رجال مادبو إلي المنطقة. من هنا توجه رفاعي أغا على وجه السرعة نحو ليفي برجاله. وأثناء الطريق علم بأنهم قد هاجموا ونهبوا قرية بالقرب من فوروجا فأسرع في تحركه والتقي بالعرب في الأول من فبراير على بعد بضعة أميال من ليفي وهاجمهم وشتت شملهم، بعد خسارة قليلة، ودخل ليفي. وفي ليفي تلقى أوامر من لبتن للتحرك ضد قبيلة الجانقي، والتي كانت، مع بعض النوج، تهدد دمبو بالهجوم. غادر رفاعي أغا ليفي بدون إبطاء لكنه، عندما إقترب من دمبو، وسمع بأن العدو يحتشد بقوة كبيرة، قام بتحصين نفسه بداخل زريبة وتخندق بها. لكن العدو لم يظهر فأستمر رفاعي أغا في زريبته تلك لعدة أشهر كان يقوم أثناءها بغارات مستمرة على القبائل المجاورة له. وبينما هو في ذلك الوضع زاره لبتن بك للتفتيش وكال له اللوم على إقامته لعلاقات ودودة مع القبائل وحذره لإتخاذ الحيطة اللازمة. لكن العرب، طيلة ذلك الوقت، كانوا يتجمعون سراً وقاموا في سبتمبر بهجوم جرئ على الزريبة، غير عابئين بالرصاص المنصب عليهم، واندفعوا نحو عوائق الزريبة وأوتادها وأشواكها وهم يتسلقون على أجساد الموتى الذين سقطوا من قبل، ونجحوا في اختراقها وذبح كل القوات التي كانت متحصنة بها بمن فيهم رفاعي أغا.

وأرادت القوات الظافرة بعد ذلك الهجوم على ديم زبير لكن الأمطار المنهمرة عليهم لم تمكنهم من تنفيذ عزمهم.

أثناء ذلك كان سلاطين بك يواصل الكتابة إلى لبتن طالباً منه الدعم، والذي لا يستطيع الأخير تلبيته.

وفي يوليه قفل الطريق نحو مشرع الرق تماماً نتيجة لثورة الدينكا وانقطعت كل سبل الإتصال مع الشمال. وفي الخامس عشر من أغسطس وصلت باخرة للمشرع لكن الرسائل التي جاءت بها لم تصل إلى لبتن في الحال لأنه كان في ذلك الوقت في جور غطاس. لكنه تحرك عائداً إلى مشرع الرق وأفرغ الأحمال من الباخرة وأعادها للخرطوم بعد أن كلف ساتي بك، المدير، للتوجه معها لإحضار أسلحة وذخائر إضافية.

وكان هناك رحالة هولندي، يدعى شوفر، حاول شق طريقه بالقوة بين مشرع الرق وجود غطاس. لكن الدينكا إعترضوه وقتلوه.

وكان لبتن قد حذر الدكتور يونكر، الذي كان يستكشف مناطق الوللي، من قبل وأوضح له الحالة المضطربة للبلاد. وطبقاً لنصائحه وتحذيره له فقد ترك ما كان ينتويه للذهاب نحو الشمال وكر راجعاً للمديريات الاستوائية ووصل اللادو في ٢٣ يناير ١٨٨٤. أما الكابتن كاساتي، والذي كان يستكشف مناطق المديرية الغربية، فقد رجع عنها ووصل إلى اللادو قبل بضعة شهور، وكتب لبتن إلى أمين بك، في أغسطس ١٨٨٣، قائلاً:" لقد صمم العرب، كما علمت، بالتضامن مع الجلابة،

للهجوم علينا في ديم الزبير* وصار العبيد الآن يباعون ويشترون من أجل الذخيرة. ثلاثة علب يمكن أن تشتري صبياً وخمسة لتشتري فتاة. أما فتاتين فيمكن أن تجلبا بندقية رمنجتون".

وكان لبتن قد رجع إلى عاصمته قبل وقت قصير من هزيمة رفاعي أغا. لكن الأمطار منعته من الانتقام للمقتلة والمذبحة التي حدثت ولم يتمكن من الخروج إلا في نهاية ديسمبر حيث تقدم، بكل ما استطاع جمعه من القوات، إلى موقع الكارثة الأخيرة. أحاط نفسه بزريبة قوية معززة بالأوتاد الحادة وبخندقين وطلب من القبائل المجاورة تسليم الأسلحة والذخائر التي كانوا قد غنموها. لكن الأخيرين ردوا عليه بأنهم سيهاجمونه في اليوم التالي. وقد نفذوا ما قالوا لكنهم صدوا ببعض الخسائر.

ثم انسحب العدو لحشد المزيد من التعزيزات. ووجد لبتن أن ذخائره بدأت في الانخفاض ورأى أن من الأجدى له الرجوع إلى ديم زبير (ديم سليمان أيضاً)*. وكان معه وقتها أربعة فصائل من الباشبوزوق بجانب عدد كبير من البازنقر.

وهكذا كانت الأحداث ببحر الغزال حتى نهاية ١٨٨٣.

المديريات الاستوائية, ١٨٨٣ :

مضى الجزء الأول من هذه السنة بدون أحداث تذكر. وقد وصلت آخر باخرة في السادس عشر من مارس وعادت في الرابع عشر من أبريل. وحتى هذا الوقت لم تتسلل إضطرابات بحر الغزال للمديريات الاستوائية رغم أنها لا تخلو من بعض المشاكل المحلية.

وكان الدناقلة هنا، مثلهم مثل دناقلة بحر الغزال، هم المتسببين في القلاقل. وجعلوا من بعض فروخهم**, أو حملة البنادق من الصبيان, قطاع طرق استطاعوا بما لديهم من أسلحة أن يغتصبوا السلطة من الزعماء الحقيقيين الذين شكلوا بدورهم سلسلة من مراكز اللصوصية غرباً بين أنسيا وواندي, وسلسلة أخرى بطول خط الدنقو وبهذا قطعوا الطريق إلى مونبوتو. لقد سمع هؤلاء المغيرون المستقلون, بدون شك، بالحالة المضطربة على الشمال منهم وشرعوا على الفور في النهب وقطع الطرق عن طريق غاراتهم خلال المنطقة. ولكي يضع حداً لهم قام أمين بك بنفسه بزيارة تلك المناطق المضطربة ونجح في إعادة الهدوء إليها لحد ما. لكنه أثناء رحلاته أخبر بثورة الدينكا في الأجزاء الشمالية من مديريته فأسرع عائداً إلى عاصمته لأدو ماراً في طريقه خلال مكاراكا والتقى بالمأمور إبراهيم محمد أغا حيث وجهه, من نفس المكان, للتحرك فوراً إلي مديرية الرول, وبعد أن يجمع التعزيزات من أمادي عليه القيام بما في وسعه لتهدئة وقمع الإضطرابات الناشبة هناك.

ووصل إلى اللادو في ٢٣ أغسطس حيث داهمه مرض شديد. وكانت الثورة التي نشبت أثناء غيابه في غاية الخطورة. فقد كانت المحطات المقامة هناك, كما نذكر, تعتمد غالباً على الغارات التي يقومون بشنها على القبائل المجاورة, واعتادوا على ذلك. وإنتقاماً منهم, قام دينكا أقار, الذين

---

* يسمى أيضاً ديم سليمان.

** كلمة فروخ هي التي كانت تطلق على حملة البنادق من الصبية العاملين مع التجار. كما يسمى بها أيضاً الجنود غير النظامين المستأجرين (كمرتزقة) والذين يعملون مع القوات بالخرطوم.

شنت عليهم الغارات العنيفة الأخيرة, بمفاجأة حامية رمبيك في السابع والعشرين من يوليه وتمكنوا من ذبح رجالها البالغ عددهم السبعين, بمن فيهم القمندان اليوزباشي عبد الله أغا السوداني. وبعد فترة وجيزة تم الهجوم على شامبي ووضعوا السيف على رقاب رجال حاميتها المائة والخمسون.

سببت هذه الأحداث ذعراً وسط حامية إياك فأرسلو لبحر الغزال طالبين النجدة، كما أن أمين بك, عند وصوله إلى اللادو, ترجاهم أيضاً لإرسال قوات لتعزيز محطاته الشمالية.

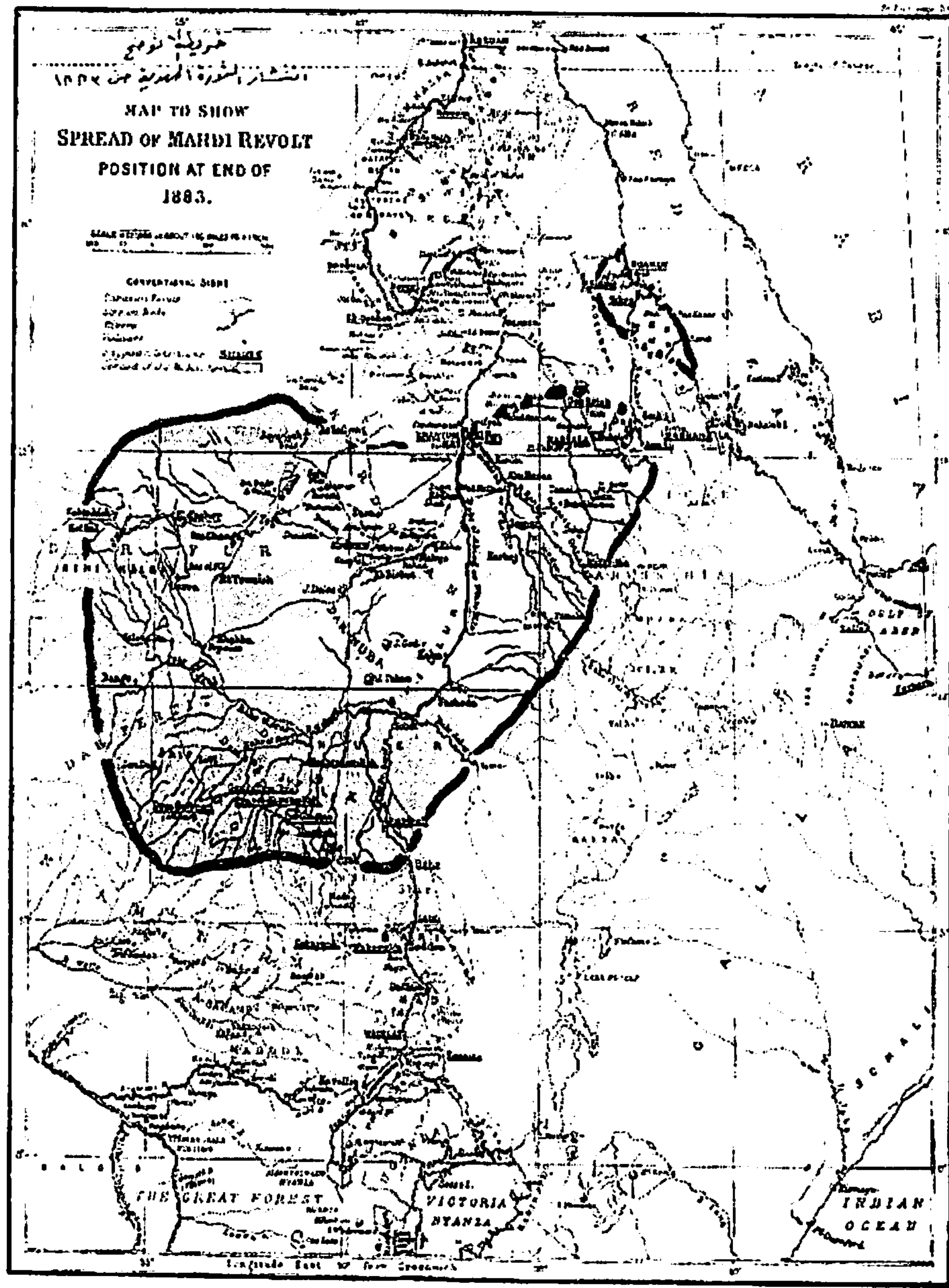
أثناء ذلك وصل مأمور ماكراكا إلى الرول وأوضح في تقرير له بتاريخ السادس من أكتوبر بأنه يعتقد أن ١٥٠ رجلاً سيكونون قادرين تماماً على إعادة الهدوء في المديرية كما أفاد بأن شامبي وما جاورها من مناطق هادئة لا مشاكل فيها.

وفي الخامس عشر من ديسمبر نجح في إعادة إحتلال رمبيك ورفع علم الحكومة على السارية. كما أرسل كميات كبيرة من الذرة إلى شامبي.

وقرب نهاية العام أوضح أمين بك بأنه ليست بحر الغزال وحدها التي أصبح زنوجها الساخطين غير موالين, بل سرى ذلك أيضاً إلى مديريته. فقد كان الزعيم لورون غارقاً في التآمر. كما لم يعد هناك شك بأن تيار الثورة كان يسري بالتدريج نحو الجنوب. فقد دعى لورون (لورو السير صمويل بيكر), كما يبدو, زعماء البهمان واللوكويا, من قبيلة الباري, للاشتراك معه في هجوم على اللادو, والتي كان معروفاً بأن ما لديها من سلاح وذخيرة في غاية القلة.

ومضى عام ١٨٨٣, وأمين بك في قلق عظيم بالنسبة للمستقبل. إذ لم تصله أنباء من الخرطوم منذ الباخرة الأخيرة التي وصلت في مارس. وقد سمع بسقوط الأبيض ولكن نكبة هكس وابادته مع جيشه لم تصل أخبارها بعد إليه. وكان يعلم بالمصاعب التي تحيط بلبتن, وأن بعض رجاله قد هجروه, وكان يعلم بأن ما لديه من سلاح وذخيرة لا يكفي لأي عمليات طويلة. ولكن, ورغم كل هذه المشاكل, فقد ظل مشغولاً بجمع العينات (النباتية والحيوانية) من أجل علم التاريخ الطبيعي.

وفي الخريطة التالية سنجد وضع الجيوش المصرية وقوات العرب حتى نهاية عام ١٨٨٣.



خريطة توضح مدى انتشار الثورة المهدية
حتى نهاية عام ١٨٨٢

القسم الخامس
وضع المصريين في السودان حتى نهاية عام ١٨٨٤ وحصار الخرطوم خلال تلك السنة

الملخص:

بداية حصار الخرطوم – هلع المواطنين – دي كويتلوقون يقيم خطوطاً للدفاع – حصار سنار – اتخاذ القرار بإخلاء السودان – وصول الجنرال غوردون للقاهرة مكلفاً بالذهاب للسودان لسحب الحاميات منه – وصول غردون للخرطوم – إلغاء وقف تجارة الرقيق – تجمع القوات بالخرطوم – غردون يطالب بحضور الزبير باشا – الرأي العام يقف ضد إرساله – غردون يستعد لمواجهة حصار – معركة ١٦ مارس – إعدام أثنين من الباشوات بالخرطوم – المهدي يطالب الخرطوم بالتسليم – خطابه لغردون – رد غردون – قرار المواطنين بالثقة في غردون وقراره بالمقاومة – أسر صالح باشا مع باخرة في المك – تشديد الحصار على الخرطوم – أحداث شرق السودان – قرار الحكومة البريطانية بالدفاع عن سواكن – محمد توفيق, حاكم سنكات, يقوم بالهجوم لكنه يمزق إرباً إرباً – إرسال الجنرال قراهام مع ٤٠٠٠ جندي بريطاني لإنقاذ طوكر – تطوع السير إيفلين وود بإرسال بعض قوات الجيش المصري الجديد – معركتي التيب وطماي – التفكير في فتح طريق بربر/ سواكن – نهوض الهدندوة والأمرار بالثورة – حصار بربر – الكابتن كتشنر والملازم رندل يرسلان للسودان – إيقافهم في أسوان – أخذوا في تجنيد العرب الموالين للدفاع عن المنطقة بين النيل والبحر الأحمر – الهلع في أسوان – الإجتماع بشيوخ البشاريين – الدوريات البريطانية من لابسي السترات الزرقاء تجوب النيل على بواخر ببدالات خلفية – مهمة استكشافية بطول درب الأربعين – سقوط بربر – الأمير الهدي يتقدم نحو دنقلا – وصف مدير دنقلا – الشكوك في مصر حول ولائه – هزيمة الهدي في الدبة – تراجعه نحو الصحراء وطلبه للإمدادات – الكابتن كتشنر يتطوع للذهاب لدنقلا – وصوله لها – تقريره عن سلوك المدير – المهدي يرسل الأمير محمود لمساعدة الهداي – خطاب المهدي لمدير دنقلا – معركة كورتي – مقتل الهدي ومحمود – انتصار المدير – الكابتن كتشنر يبحث مع صالح الكباشي (الوضع في المنطقة) – حملة النيل بقيادة اللورد ولسلي لإنقاذ الخرطوم – غردون يهزم الأمير أبو قرجة – المناطق الجبلية في كردفان لا زالت تقاوم المهدية – الأحداث في دارفور – تصميم سيد بك جمعة على المقاومة بالفاشر – وصول زقل وفشله لثلاث مرات في إقتحام المدينة – سلاطين ينصح بتسليمها – سقوط الفاشر – خطاب سلاطين للجنرال غردون – زقل يرسل قوة من الفاشر لإخضاع السلطان دود بنجة – هزيمة قاسية لقوات المهدية – محاصرة دود بنجة في جبل مرة – إستسلامه– زقل, الحاكم الأعلى لدارفور– الأحداث في بحر الغزال – لبتن يطلب دعماً من سلاطين

- بدأ يجمع في الذرة ويخزنها - وصول الأمير كرم الله للحدود - يطلب من لبتن التسليم - قرار القوات والموظفين بعدم المقاومة - لبتن يكتب ثلاثة خطابات يائسة إلى أمين - سقوط بحر الغزال كما يرويه ضابط كان شاهد عيان لما حدث - أخو كرم الله يصف ظروف سقوطها - الخطاب الرسمي الذي أرسله كرم الله للخليفة عبد الله التعايشي يصف فيه ما حدث - الأحداث في الاستوائية - مقابلة الدكتور يونكر وأمين بك - القلاقل في مديرية الرول - أمين يتسلم خطابات لبتن - فشل محاولة إنقاذ شامبي - أمين يقرر تسليم مديريته عند ما علم بسقوط بحر الغزال وبتدمير قوات هكس باشا - النيران في اللادو وتأثيرها على نوايا أمين - وصفه للحالة - وفد التسليم يتوجه إلى بحر الغزال - تعليمات القاضي لأمين - هروب حاكم مكراكا وقتله - إخلاء رمبيك وأياك - إعادة توزيع الحاميات - كرم الله يهاجم أمادي - أمين يرسل التعزيزات - إبادة شبه تامة لحامية بور - هدوء الحال في مكاراكا - خلاصة ما توصل إليه أمين بنهاية عام ١٨٨٤ - حصار سنار - الغيرة والشقاق بين المدير وقائد القوات بها - المدير يكتب لغردون - الأمير المرضي يحاصر سنار - الأحداث في شرق السودان بعد معركة طماى - سواكن في حالة حصار - الميجر جيرمساليد يتفق مع الملك يوحنا، ملك الحبشة، على إنقاذ الحاميات المصرية على الحدود الحبشية - معاهدة هيوت - حصار كسلا - تسليم بوغوص للحبشة - سقوط القضارف - الأحداث في مديرية هرر - بعثة الميجر هنتر ورضوان باشا وصول رضوان باشا - والملازم بايتون إلى هرر - يبدأون في إخلائها - تسليم حكومتها لمحمد عبد الشكور - تنصيب الأمير الجديد - وصول كل القوات وعوائلهم إلى الساحل بسلام.

جاء في "تاريخ حروب الإمبراطور جوستنيان*" الذي كتبه باللغة اليونانية فوكو بيوس السيسيري، وتمت ترجمته للإنجليزية عام ١٦٥٣ في لندن بواسطة هنرى هولكروفت، ما يلي:

"من أوكسومس** التي ذكرناها إلى الحدود الرومانية في مصر رحلة مقدارها ٣٠ يوماً: وهناك أعداد كبيرة من البليميين والنوباتيين*وغيرهم. والبليميون يعيشون في وسط المنطقة أما النوباتيون فيعيشون على النيل. لم تكن هذه من قبل حدود الرومان والتي كانت على مسافة سبعة أيام فقط. لكن ديوكلشيان عندما وجد أن جزيتهم هزيلة، وأرضهم ضيقة تملؤها الصخور على النيل، وأن الحاميات بها والكثيرة العدد تكلف خزينته الكثير: وكيف أن النوباتيين الذين كانوا من حول مدينة أوسيس ينهبون المدن من حولهم، قام بإجلائهم من تلك المناطق حتى لا يحدثوا أي إزعاج للمناطق من حول أوسيس مرة أخرى، وأسكنهم مدناً رومانية جميلة ومناطق واسعة تمتد من الفنتاين (جزيرة

* الإمبراطور جوستنيان الأول (٤٨٣ - ٥٦٢ ميلادية)كان حاكماً لبيزنطة ومناطق شاسعة من شمال إفريقيا جنوباً حتى ايطاليا وأسبانيا وغيرها من بلاد البحر الأبيض المتوسط. كما حارب الفرس. وهو الذي بنى كنيسة أيا صوفيا في القسطنطينية ووضع القانون الروماني الذي لعب دوراً كبيراً في صياغة الدساتير الأوروبية.(المعرب - عن قاموس هتشنسون)

** يقصد أكسوم الحبشية (المعرب).

* البجة والنوبة (المعرب).

فيلة جنوب أسوان الحالية - المعرب) وعلي ضفتي النيل حيث أعتبر أنهم بهذا سيقومون بحماية الحدود وحراستها والعمل على دفع البليميين بعيداً عنها وكل الأمم البربرية الأخرى (على اعتبار أن الأرض أصبحت لهم). وأعطاهم أيضاً، وكذلك أعطي البليميين. تعويضاً من الذهب حتى لا يهاجموا الحدود الرومانية (مثل جوارح الطير)، ورغم أنهم لا يزالون يتسلمون هذا التعويض إلا أنهم لم يتوقفوا عن إجتياح المديرية. لذا فمن المستحيل على البرابرة الاحتفاظ بعهدهم مع الرومان إلا لخوفهم من الجنود".

كانت الخرطوم في حالة من الحصار الفعلي منذ يوليه ١٨٨٣، وقد انهمك حسين باشا سري والكولونيل دي كوتلوجون. وهو أحد ضباط هكس الذين خلفهم وراءه ليتولى مسئولية المستودعات. بترتيب الدفاعات اللازمة. وبقدر الإمكان، لمثل هذه المسافة الشاسعة والتي ذاد من صعوبتها إمتدادها لدرجة بالغة. واهتم كوتلوجون شخصياً بعمل في غاية الأهمية."فقد حفر خندقاً عميقاً وممترساً لمسافة ١٥٣٠ ياردة، عبر السهل الفسيح الذي جف بعد انسحاب النهر منه". وأضاف باور، الذي أدرك تماماً عدم الأمان أو الاطمئنان لهذا العمل:"ولكن بالنسبة له. فأن هذا المدخل العريض للمدينة ربما تم تركه مفتوحاً أو بغير حماية". ومما لاشك فيه أن كل ما ذكره باور من شكوك كان صحيحاً. فالبوابة أو المدخل لأي منطقة مصرية مسورة لا توضع أبداً إلا في المكان الذي لا يسهل إلا منه اختراق تلك المسورة.

أحدثت أنباء المذبحة التي حلت بهكس وجنوده هلعاً وسط الأهالي. وأسرع القناصل والأوروبيون بمغادرة المكان ما عدا القنصل النمساوي هانزل. والذي له أملاك واسعة بالخرطوم. كما بقي بها أيضاً القنصل البريطاني والمراسل الصحفي باور. أيضاً دي كوتلوجون. لكن عائلتين نمساويتين كانوا من شظف العيش والبؤس ما منعهم من المغادرة ومكثوا يكملون الدور المنوط بالأوروبيين الذين بقوا في المدينة المشئومة. وكانت رؤيتهم للأحداث. كما يعبر عنها التلغراف التالي. الذي كتب في نوفمبر:

(ليس لنا من طعام يكفي لأكثر من شهر ولا بدافع عن أربعة أميال من الخطوط سوي ٢٠٠٠ رجل. من العبث محاولة الحفاظ على هذا المكان المكتظ بالسكان الذين يشبهون البركان الساكن. ولقد سد الآن خط الرجعة براً وربما يقفل خط الرجعة النهري غداً).

وبذلت الآن جهود كبيرة (لإحتواء الموقف) وبعد ثلاثة أسابيع توفرت إمدادات تكفي المدينة لعام كامل. ووصلت حامية فشودة البالغ عددها ١٣٠٠ جندي نظامي في السادس والعشرين من ديسمبر. ونهاية العام تم إدخال عدد صغير آخر من (جنود) المحطات الخارجية إلى المدينة. وأقفلت مدينة سنار الأبواب عليها وقبعت داخل أسوارها. أما خارج المدن فقد كان أتباع المهدي هم المسيطرون وخاصة في ضواحي الخرطوم. وظل عزمهم ونواياهم للتقدم نحو الشمال مصدر خطر لاستقرار مصر وهدوئها. وتقرر أن تبقى القوات البريطانية في مواقعها أما السودان فيجب التخلي عنه. وكان على مصر التخلي عن السودان لأنها لا تستطيع البقاء فيه. وقد وافق صاحب السمو الخديوي على هذا القرار. أما وزراءه. الذين تقمصتهم روح البطولة. فقد استخرجوا فرماناً منسياً من سلطان تركيا وتقدموا باستقالاتهم من مناصبهم لأنهم"منعوا من ممارسة حقهم في الحكم طبقاً

للدستور". أما الذين جاءوا من بعدهم فقد اقترحوا أن يتوجه عبد القادر باشا إلى الخرطوم ليتولى إرجاع ما بها من قوات. لكن ذلك الضابط رفض ذلك وبدون أي تردد. أما شيخ الميرغني، وهو زعيم لطائفة للإخاء الديني الواسعة الانتشار في السودان، فقد توجه لسواكن معتبراً المهدي (خارجاً على الدين)* وقد دعاه عثمان دقنة لاجتماع خصوصي بينهما لكن الشيخ أسرع عائداً للقاهرة (دون أن يستجيب لدعوته).

بدا أن شيئاً لن يفلح في الحل. وكل التوقعات كانت كئيبة مظلمة لأولئك الذين ينظرون للسلام على أنه الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تؤدي إلى نمو وتطور مئات الملايين* المحاصرين في البلاد. وكان هنالك اعتبار آخر أشد إلحاحاً يوماً بعد يوم. فمئات الآلاف من العرب المتعصبين قد لا يتوجهون شمالاً ويدمرون الأخضر واليابس.ولكن ما هو مصير الثلاثين ألف جندي عاجز الموجودين هناك. وكيف يمكن إنقاذهم؟ لقد صاروا كالحملان وسط قطيع من الذئاب وإن لم يتم إنقاذهم فسيذبحون عن بكرة أبيهم. من هنا كان لظهور غردون على المسرح مصدر راحة للوزراء ولدافعي الضرائب وللحكومة المصرية.

واتسمت مغادرة غردون للندن بنفس الطابع الذي إتسم به وصوله للقاهرة. فحقيقة كان دوق كامبردج واللورد ولسلي في وداعه بمحطة السكة الحديد بلندن ولكن الأمر بدأ للجمهور وكأن اثنين من السادة كانا يرافقان ثالثاً لحفل عشاء. وعندما وصل القطار الخاص لمحطة القاهرة، هبط منه راكب وحيد ضئيل الحجم مرتدياً معطفاً أسوداً. ولم يكن معه خادم ولا حقائب سفر.

كان غردون قد غادر لندن في مهمة خاصة بكتابة تقرير عن الأحوال في السودان. وعندما كان على ظهر الباخرة التي أقلته أخرج ورقة وكتب عليها برقية معنونة للحكومة بلندن أوضح فيها ما يرغب فيه من الترتيبات، والسلطات التي يرغب في توليها، والقرارات والأوامر التي ينوي إصدارها. وعندما وصل للقاهرة وجد أن كل برقياته تلك قد وصلت ليد السير إيفلين بيرنج.

كان عليه أن يجمع الحاميات من السودان ويؤسس أي حكومة ممكنة هناك ثم يعود ومعه القوات المنسحبة وهذا كان كل ما نزر نفسه له وتعهد به. وذات مساء بارد توجه إلى محطة قطار بولاق. وفي الضوء الخافت للمركبة التي أقلته ظهر الوجه المنشرح لغردون ولستيوارت وجراهام بينما تدحرج القطار واختفي بعيداً في الظلام. وكان بيرتون قد ودعهم بتحية حارة موجهة لرجال وطنه الشجعان.

وهكذا أسرع غردون في رحلته الطويلة نحو الخرطوم، مصحوباً بالكولونيل ستيوارت، ليفكك روابط كل الجهاز الذي كد بشدة لإقامته، وليقنن تجارة الرقيق التي حارب في عدة مواقع من قبل لكبحها، وليعمل على تجميع الأغنام المبعثرة وليقودها للوطن ولمراعيها الخاصة بها.

---

* استخدم ونجت كلمة (Excommunicated) وهي تعبير مسيحي يعني أمراً بابوياً بالحرمان الكنسي. ولا يستخدم هذا التعبير في الإسلام عادة (المعرب).

* فلته قلم من ونجت (المعرب).

فارقه الجنرال جراهام في كروسكو وعاد لمقاتلة عثمان دقنة في الساحل الشرقي (للبحر الأحمر). أما الجنرال غردون والكولونيل ستيوارت فاستمرا في طريقهما للخرطوم حيث استقبلوا كما يستقبل ركاب الباخرة الغارقة سفينة النجاة.

كان حكمدار الخرطوم السابق، حسين باشا سري، قد غادر السودان قبل وصول غردون. وبدأ الآن في إقامة نوع من العدالة المعقولة مع إبداء الرحمة بشكل واسع. ثم صدر إعلان بإلغاء الوسائل المصرية لكبح تجارة الرقيق للأبد وتلاه إعلان بان البلاد قد صارت الآن مملكة مستقلة حاكمها العام الآن هو الجنرال غردون. وبدأ بعد ذلك سيل من المهاجرين في طريقهم للشمال وقام الكولونيل دنكان، في حلفا، بتمرير عدة آلاف من المهاجرين إلى أوطانهم.

وتم تجميع فرق الجنود السود في الخرطوم أما القوات البيضاء فقد جمعوا في قلعة أم درمان المجاورة استعداداً للزحف الطويل نحو الشمال فور أن يوجد الحاكم الذي يتسلم أمور البلاد (بحزم) عندما يديرون ظهورهم إليه. وكان من رأي غردون أنه لا يوجد سوى رجل واحد بمكانه تسلم أزمة الحكم. ورغم أنه كان بمقدور إنجلترا إرسال عدد كبير من الرجال للقيام بما كلف به غردون، إلا أنه كان من الأفضل إذا ما كان بالسودان رجل يمكنه الحكم ومواجهة الإضطرابات والفوضى التي ستتلو مظاهر الانضباط تلك والتي ستتلاشى عقب رجوع غردون (من السودان).

وكان الزبير هو ذلك الحاكم الوحيد. فهو رجل هادئ عميق التفكير ذو إرادة حديدية. رجل ولد ليحكم الرجال!*

رحب أهالي الخرطوم بوصول غردون في الثامن عشر من فبراير. وكان الحماس عظيماً لتسنمه السلطة، ولنبذه للماضي، ولتخفيض الضرائب في المستقبل. واستمر ذلك لتسعة أيام. وكان كل الذين لم ينضموا للمهدي في حالة من البلبلة وهم يبحثون عن البديل. وعندما جاءهم، أخذ الذين لديهم ما يخشون فقدانه في التحري عنه بدقة. حاكم عام إنجليزي، ولكنه جاء وحده. إنه مستقل عن مصر لكنه متقطع عنها. حاكم لا يهتم بالإيرادات وبانشراح وحبور يقنن تجارة الرقيق ويعيدها مرة أخرى.

أنتشرت الإشاعات بأن الإنجليز قد استلموا مصر وقد قرروا هجر السودان. وقد قيل أن إعلانات بهذا الخصوص قد كتبت.وقد استنتج السودانيون بأن الإشاعات المنتشرة هي أخبار صحيحة وأن الحاكم العام الإنجليزي ما هو إلا وسيلة لكسب الوقت. ثم: من الذي سيحل محله؟ فالقائد الطبيعي للسودانيين هو الزبير. فإذا ما جاء فأن كل شئ سيكون على ما يرام. لكن القبائل قد فرغ صبرها وأصبحت تهدد الوضع الراهن (بالخرطوم). لقد تذوقوا طعم الدم من قبل وطعم النصر وهم يتطلعون الآن للمزيد. لابد إذن للزبير من القدوم على الفور. لكن حقيقة أن الزبير كان متعاملاً خطيراً في الرقيق وقفت عقبة في الطريق ووقف ضده خاصة أولئك المهتمون بشأن الرق واعترضوا على إرساله. لذلك لم يذهب الزبير وهذا ما تسبب في عواقب وخيمة فيما بعد.

---

* الزبير، كما نذكر، كان قد افتتح دارفور وصعد إلى أعلى قمم السلطة في السودان وهو من فرع الجميعاب من قبيلة الجعليين وقد انحدر من أعرق عائلاتها، والتي تدعي أنتسابها لقبيلة قريش النبيلة المحتد، عن طريق العباس عم النبي.

هذه العواقب كانت مؤكدة وسريعة. ففي الخرطوم تم استدعاء القوات علي عجل وحشد القلاع بها وألغيت كل الاستعدادات لعودتهم المبكرة لبلادهم. وأصبح الوضع بالنسبة لغردون وستيوارت، بعد رفض إرسال الزبير, في غاية الحرج.

وتباري الشيوخ, شيخاً بعد شيخ, في إرسال الإنذارات للخرطوم للتسليم إليهم. وقد تجمع حول الخرطوم محمد إبن البصير والشيخ العبيد والفكي قاو والأمير الفكي مضوى, ووراءهم الألوف من الأتباع. لقد كان سباقاً حول من منهم سيستولى على المدينة التي لا صاحب لها.

ورغم أن غردون قد فقد الأمل في الرجال الملتفين من حوله, إلا أنه أستعد للقتال. وفي السادس عشر من مارس غامر بالخروج محارباً. لكن رجاله هربوا كالأرانب البرية وتم ذبحهم. أما الناجون منهم, وهما القائدان, فقد تم إعدامهما بتهمة الخيانة*.

وبعد أسبوع من ذلك رفض الباشبوزق"إذا لم يحاربوا فمن بالخرطوم سيحارب؟" رفضوا إطاعة الأوامر وتم تجريدهم من السلاح. إن المرء ليبحث عبثاً عن أي شئ يبعث غردون على الأمل. وعندما تتجول العيون حول هذا السودان الشاسع والمعادي, فأنها تلاحظ تلك الحاميات الصغيرة, الشبيهة بروؤس الدبابيس, وكل حامية منها مختنقة بسحائب من الرماح والنصال العربية ثم يتذكر كيف أن غردون وستيوارت تقدما لحكم هذه الإمبراطورية والتي أعطيت لغيرهم قبل ذلك, فلا يسع المرء إلا أن يشعر بأن وجهات نظر السودانيين ذات إدراك وحس سليم حقاً. وعندما يتذكر المرء بأن واحداً من هؤلاء الإنجليز قد أصر علي البقاء عمداً هناك, ولمدة أحد عشر شهراً، وأن لا أحد يستطيع اقتلاعه منها, فأن المرء يشعر فعلاً بالفخر الذي لا مزيد عليه.

وقبل هزيمة السادس عشر من مارس وإعدام الخونة, فقد تم بشكل رسمين وباسم المهدي، الطلب بالتسليم، والذي قدمه الشيخ عبد القادر، قاضي الكلاكلة، وهي قرية على النيل الأبيض تقع على بعد خمسة أميال جنوب الخرطوم. استدعي غردون مجلساً من وجهاء المدينة ورجالها للبحث في شأن ذلك الطلب, والذي نورده هنا بالتفصيل:-*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد, فمن عبد ربه محمد المهدي بن السيد عبد الله إلي عزيز بريطانية والخديوية غوردون باشا:

الملخص:

يخبره بأن جوابه وصل ثم يفند النقاط التي أوردها. ويفصل له أمر دعوته, ويسرد عليه ما حصل بينه وبين الحكومة. ويذكر أن إنشغال الترك بالدنيا هو الذي صدهم عن إتباعه. ويطلب منه أن ينيب إلى الآخرة وأن يشفق على نفسه قبل أن يشفق على الآخرين وذلك بإعلان إسلامه. يخبره بأنه

---

* هما اللواء السعيد باشا واللواء حسين باشا إبراهيم الشلالي (المعرب).

* أورد المؤلف خطاب المهدي كاملاً, والمكون من سبعة صفحات (أنظر الآثار، الجزء الثاني, صفحة ٢٤٦ -٢٥٣) وقد أوردنا، كملخص له، التصدير الذي وضعه الدكتور أبو سليم، مع الديباجة والتحشية بأكملها (المعرب).

قادم إليه ويعده بالعفو إذا سلم وإلا فسيحل به الدمار. يرفض السلطنة المقترحة, ويرفض تسليم المسلمانيين لأنهم أسلموا. يرد له هديته, ويرسل له هدية ترمز إلى إتجاهه الديني. يذكر أنه سيعتني به إذا سلم ويعطيه مقاما كبيراً أسوة بما فعله بمشاهير الترك الذين سلموا) ١٣ جماد الأول ١٣٠١(١٠ مارس ١٨٨٤).

حاشية

إلى غردون باشا

بإطلاعك على ما تدون بالجواب إليك تعلم باطنه، وبه كسوة الزهاد وأهل السعادة الكبرى الذين لا يبالون بما فات من المشتهيات طلبا لعالي الدرجات، وهي جبة ورداء وسراويل وعمامة وطاقية وسبحة. فان أنبت إلي الله وطلبت ما عنده لا يصعب عليك أن تلبس ذلك وتتوجه لدائم حظك. وهاهو الرسول الذي أتي منك واصل إليك مع رسل من عندنا كما طلبت والسلام".*

ورداً على هذين الخطابين فقد أرسل الجنرال غرد ون الإجابة التالية:

من غرد ون باشا إلى محمد أحمد

لقد تسلمت الخطابات المرسلة بواسطة مبعوثيك الثلاثة وقد فهمت ما جاء بهما. لكنني لا أستطيع أن استمر في التواصل معك بعد ذلك.**

---

* لم يورد ونجت ما كتبه المهدي علي مظروف الخطاب (المرشد، الجزء الثاني، صفحة ٢٥٥) والذي نصه كالآتي: سألتك بحق الله ونبيه عيسي عليه السلام أن تقف على أجوبتنا هذه بالحرف. وقد أبلغني محمد سعيد المسلماني، الذي يسمي جورجي إسلامبولية, أن رجلاً يسمي السيد أفندي نعيم الأجزاجي له معرفة بلغتكم وبالخط العربي. وما دام أنه يعرف الخطين واللغتين نرغب منكم الوقوف علي ما في هذا الظرف جميعه حرفياً علي يد المذكور أو ما هو مثله. وقد سألتك السؤال المذكور لما سألته. والسلام.(المعرب)

** غير المؤلف وبدل في الرد الذي أرسله غردون للمهدي واختصره اختصاراً مخلاً لغرض في نفسه. وذلك الرد الذي لا يصدر من حاكم عاقل هو الآتي، كما أورده الدكتور أبو سليم في الآثار، الجزء الثاني، صفحة ٢٥٨ عن تاريخ نعوم شقير صفحة ٧٥٣: (من غردون باشا, وإلى السودان، إلى محمد أحمد المتمهدي.

وصلني كتابك الركيك العبارة، العاري عن المعني، الدال علي سوء نيتك وخبث طويتك. وعن قريب ستبلي بجيوش لا طاقة لك بها وتكون أنت المسئول أمام الله عما يسفك من الدماء. كما أنك أنت المسئول الآن عمن أعميت قلوبهم وغشيت بصائرهم ويتمت أطفالهم وخربت ديارهم. وكنت لا أري حاجة لمخاطبة رجل مثلك جاحد النعمة عديم الذمة. لكني تعلقت بأذيال الأمل راجياً من الله عز وجل أن يتجلى على فكرتك الخامدة فتلقي النصيحة بيد القبول. وتعلو متن سلطنة مكنتك منها وكان دون نيلها خرط القتاد. وها أنذا مستعد لقدومك ومعي رجال أقطع بهم أنفاسك. والعاقل من تدبر والسلام) (المعرب).

وعن كيفية وصول هذه الرسالة للقاهرة, أضاف ونجت قائلاً:

"من المثير للإهتمام أن نعرف أن هذه الرسائل, بالعربية, وصلت للقاهرة في أبريل ١٨٩٠. فقد سلم غردون (نسخة منها)إلى رجل يثق فيه ليأخذها لبربر ومن ثم يبرقها تلغرافياً للقاهرة. لكنه عندما وصل بربر كانت المدينة قد سقطت وتم أسره لكنه قبل أن يؤسر تمكن من إخفائها في جدار بحائط منزل. وبعد بضع سنوات من الأسر تمكن من الفرار وعاد لبربر واسترجع الرسائل من مخبئها وسلمها بعد بضعة أسابيع كاملة إلي مدير سواكن".

وصوت الحاضرون بالإجماع على الثقة في غرد ون وعلى المقاومة. وقالوا بأن هذا المهدي دجال وإن الله سيظهر الحق ويدافع عنه. وقد قبل غردون تلك الثقة فيه، وإليها (الثقة) كان كثيراً ما يشير إليها عندما قرر ألا يغادر المدينة وهذا ما دفع جنوده المتمردين غير الموثوق بهم للثبات وخدمته بإخلاص وصدق في دفاعه الطويل (عن المدينة).

وقد بعث غردون روحاً من الإخلاص والثقة والمودة بين سكان المدينة الذين كانوا على استعداد للبقاء معه. أما الآخرون، والذين كانوا كثراً، فقد نظروا إليه كما ينظر سكان طروادة لتمثال بالاس. ولم يسمح لغردون إطلاقاً بمغادرة الخرطوم. وحتى إثناء رحلاته القليلة بالباخرة فقد كان مصحوباً دائماً برجال يقظين من رجال المدينة.

ثم إذداد دعم العرب بعد وصول البحار القديم المشهور أبو قرجة . وفي الخامس عشر من إبريل تمكنوا من أسر صالح باشا وباخرته المسماة (محمد على) ونقطته التي يحرسها ١٤٠٠ من رجاله الشايقية وذلك في منطقة المك على النيل البيض، على بعد ٢٢ميل جنوب الخرطوم. وقد حصلوا علي نصرهم هذا باستخدام الحيلة والخداع بعد أن أكدوا للباشا بأن الخرطوم قد سقطت. ولم يتمكن غردون أبداً من معرفة كيفية خداع صالح باشا، رغم قلة ثقته في قوات الشايقية.* وعند نقطة المك قام العرب ببناء قلعة كانت تسيطر على النيل غير العريض هنا. وسرعان ما جاء شيخ الفضل من النيل الأبيض وانضم إلي قوات عبد القادر وقام الاثنان معاً ببناء قرية أخري جنوب خطوط الخرطوم (الدفاعية) ونصبوا بها مدافع كروب والصواريخ. كانوا قريبين جداً لدرجة أن عدداً من قذائفهم سقطت داخل المدينة.

عودة إلى الأحداث في شرق السودان:

فبعد هزيمة الجنرال بيكر، تولت إنجلترا بنفسها مهمة إنقاذ الحاميات بشرق السودان. وقرر مجلس الوزراء في السادس من فبراير الدفاع عن سواكن وتولى الأمر في الحال الأدميرال هيوت. ومن بين الحاميتين المحاصرتين سجلت سنكات موقفاً بطولياً للمقاومة. وأبدي محمد توفيق (وهو اسم يدل على الفأل الحسن في مصر) عزما شديداً وثبت لمدة ستة أشهر حيث تدهور الوضع لديه لدرجة تقارب ما وصلت إليه الحالة في الخرطوم بعد ذلك، فأشرع أسلحته ووضع السناكى على البنادق وشق طريقه خارجاً (من سنكات). واشتبك في قتال يائس بطول ميل ونصف إلى أن تم تمزيقه وجيشه مزقاً في اليوم الثامن (من الشهر).

وعندما بلغت هذه الأخبار إنجلترا عقد مجلس أخر للوزراء وأتخذ قراراً بإنقاذ طوكر وتحريرها إن أمكن ذلك وثم تجهيز حمله عسكريه جيدةالعتاد، من ٤٠٠٠ جندي بريطاني تحت قيادة الجنرال السيد جرالد جراهام ووصلت إلى سواكن. وفي السابع والعشرون من فبراير ثم استدعاء الشيوخ والزعماء. وأخبرهم جراهام بأنه من الأفضل لهم، بدلاً من محاولة قتال الإنجليز، أن يرسلوا وفداً منهم إلى الخرطوم لبحث قضاياهم ومظالمهم مع غردون.

---

* يقطن الشايقية ضفتي النيل بين كورتي وبرتي(دار الشايقية) وجزءاً من سهوب البيوضة. وهي قبيلة سامية تدعي إنتسابها للعرب عن طريق الشيخ شايق إبن حميدان.

وطلب السير إفلين وود (سردار الجيش المصري) والذي كان حريصاً على منح القوات المصرية الناشئة الفرصة للمشاركة في الدفاع عن أملاك سمو الخديوي، السماح له بإرسال كتيبة للانضمام للحملة. لكن اللورد جرانفيل أوضح له بأن الجيش المصري، الذي نظم حديثاً، مخصص فقط للخدمة داخل مصر، وليس في السودان. واقترح بدلاً عن ذلك إرسال قسم منه إلى أسوان لحماية الحدود.

وقد تم السماح لقليل من الضباط الإنجليز والمصريين، العاملين في جيش السير إيفلين وود، بالالتحاق بالحملة وتم تزويدهم بكل ما يمكن من الدعم من المدافع والخيول والجمال من الجيش المصري، وقد نشبت معركة التيب، في ٢٩فبراير، وجرى فيها قتال عنيف يداً بيد عندما ألقى ستة ألف من تجار الرقيق بأنفسهم علي المربعات البريطانية بشجاعة وعناد يائسين وخلفوا وراءهم على الرمال ١٥٠٠ من القتلى. وعندما وصلوا إلي طوكر وجدوها قد إستسلمت، أو الأحرى (لأن وسائل وأساليب حروب المصريين فريدة من نوعها) وجدوا أن الحامية قد توصلت إلي نوع من التسوية مع المحاصرين لهم بأن يسيطروا جميعاً على قلعتها .كان ذلك وضعاً غريباً من نوعه بل مضحكاً، إذ لم يقم المحاصرين، ربما متأثرين بتردد رجال الحامية بابادتهم بعد. وقد تم إخراج ستمائة من الرجال والنساء والأطفال منها وإعادتهم إلى القاهرة.

وبعد ذلك بقليل في الثالث عشر من مارس، اصطدم جراهام بالعرب في قوة أكبر، ١٢٠٠٠ طبقاً لتقديرات دقيقه، وبعد قتال عنيد وشرس في طماى قتل منهم ٢٠٠٠ وشتت البقية في الجبال.

وبعد النصر في طماي فكروا في محاولة لمساعدة غردون، الذي كان يبرق بحرارة من الخرطوم حاثاً لهم بإبقاء الطريق مفتوحاً. كان الجو بارداً والآبار التي علي الطريق مليئة بالمياه، وكان كل شئ يشير إلى التقدم نحو بربر. لكن جدلاً كبيراً ثار حول جدوى ذلك التحرك وما لبثت تلك الفكرة أن خمدت.

وأنقطع كل أمل في وصول النجدات من سواكن. وأصبحت قبائل الهدندوة والأمرار. وعلى طول الطريق من سواكن إلى بربر في حالة من الثورة الواضحة وإنقطع أي تواصل مع الشرق تماماً*.

---

* كانت الصعوبات التي واجهت الحملة التي جاءت بعد ذلك. من كورتي إلي المتمة. لا تعطي إلا فكرة بسيطة عن المخاطر التي كانت ستنجم إذا ما تم إرسال قوات من سواكن إلي بربر وخاصة بعد سقوط الأخيرة.

ففي حملة صحراء البيوضة كانت المياه متوفرة طوال الطريق. وكانت الآبار الأخيرة في أبو طليح لا تبعد إلا بأربعة وعشرين ميلاً من النيل بالمتمة. أما في طريق سواكن/ بربر فأن آخر الآبار تقع في منطقة أو باك. علي بعد ثمانية وخمسين ميلاً من النهر ومع ذلك فأنها لا تحتوي إلا علي مياه قليلة. وفي ما حوبي هناك بئر تبعد سبعة أميال عن بربر لكنها لا تكفي لأكثر من ٣٠٠ من الرجال والحيوانات. وعندما تم البحث في خيارات الطرق التي ستسلكها حملة إنقاذ غردون كان الوضع قد تغير تماماً بين شهري مارس ويونيه. ففي أوائل يونيه كانت بربر قد سقطت في أيدي العدو والذين تحصنوا فيها بقوة. وكان بمقدورهم المعرفة المبكرة لأي تحرك بريطاني من سواكن.باتجاههم وسيتمكنون من حشد أعداد ضخمة من المقاتلين في بربر أو بالقرب منها مما يهدد بالويل والثبور أي قوة بريطانية متوسطو تتقدم نحو النيل بعد رحلة مضنية شاقة حتى لو لم تواجه مشكلة المياه. ويجب أن نتذكر أن قبائل الهدندوة والأمرار. التي تسيطر علي طريق سواكن / بربر كانت في ذلك الوقت متشبعة بروح المهدية وربما كانوا سيعيقون تقدم الحملة ويسيطرون على الآبار ويهددون خطوط الإمداد الطويلة الممتدة لأكثر من ٢٤٠ ميلاً.

لم يتم تجاهل أهميه بربر أبداً. وكان الجنرال غردون، عندما وصلها في طريقه للخرطــوم، قد توقف فيها وأجبر مديرها حسين باشا خليفة بالمنشور الخاص باخلاء السودان. وكان حسين باشا خليفة قد تولى وظيفة مدير بربر لبعض الوقت، وكان زعيماً لقبيلة العبابدة, التي تمتد حتى كروسكو وأبعد من ذلك أيضاً. لذلك كان من مصلحته الحفاظ على المدينة والــدفاع عنهــا وإن يؤكــد ولاءه للحكومة. ولكن وبعد الاستيلاء على المك، إنتشرت روح الثورة خلال المنطقة شمال الخرطوم وقد ثار الآن رجال قبيلة الشايقيةــ بين بربر والخرطوم وإستعدوا, تحت قيادة الأمير الهدى, للهجــوم علــى بربر. وكان المسئولون في مصر يعرفون تماماً أهمية الاحتفاظ ببربر لتأمين الإتصال بين القــاهرة والخرطوم. ومن ثم تقرر إيفاد الكابت كتشنر, يرافقه الملازم رندل , إلى بربر ليسدي النصح لحسين باشا خليفة. غادر الضابطان القاهرة في أوائل مارس, لكن الأحداث بالقرب من أبو حمد قد صارت في منتهي الحرج نتيجة لثورة الرباطاب العرب بين ذلك المكان وبربر. لذلك صدرت أوامر مضادة إلــى أسوان تمنعهما من التقدم لداخل البلاد (السودانية). لكن تم استغلال خدماتهما في تجنيد قوة من عرب الفقرا والعاشياباب والعبابدة. وكانوا يأملون أن يتمكنوا, بمساعدتهم, من فتح الطريق إلى بربر. ولكن بعد إنهيار تلك الخطة فقد تم نشر هذه القوات من العرب، على طول الصحراء الشــرقية، كمحطــات خارجية تمتد حتى البحر الأحمر. إذا أنه بإنتشار الثورة للشمال تصبح ســلامة كروســكو وأســوان مهددة. وبالفعل كان الرعب والهلع, الذي يصل لمرحلة الفزع الشديد, قد حدث في المدينة الأخيــرة. وكان رسل المهدي, ناشطون في دفع عرب العبابدة والبشاريين للثورة فقام الكــابتن كتشــنر بعــدة حملات داخل الصحراء, مصحوباً بالعبابدة الموالين, لمحاولة اعتراض زعيم المتمردين – رجــل يســمي الفكي الشمامي (السماني؟), كما تسلم أيضاً فرماناً من سمو الخديوي يفوضه فيه الدخول فــي مباحثــات مع قبيلة البشاريين, التي تقطن على الشرق من مناطق العبابدة, والتي تمتد مناطقها من قــرب ســواكن وشمالاً حتي خط العرض الذي تقع فيه قنا, والذين, إذا ما إنضموا للثوار, فأنهم سيهددون سلامة مصــر وأمنها الذي سيهدد من جناحه الشرقي. وقد ساعد تأسيس المحطات الصحراوية, والإجتماع الناجح مــع شيوخ البشاريين، والحملات الاستكشافية العديدة التي قام بها الكابتن كتشنر والملازم رندل في الصحراء الشرقية, كلها ساعدت في طمأنة القبائل وأضعفت من انتشار روح الثورة وتمددها نحو الشمال.

وكانت الدوريات النهرية تجوب بأستمرار نهر النيل. وعلى البواخر المدرعة كان الجنود من لابسي السترات الزرقاء, يقودهم ضباط البحرية يبحرون على الشمال والجنوب من أسوان ويبثــون الطمأنينة في قلوب السكان على ضفتي النهر.

وتقرر في أوائل أبريل أن يتم تحصين وادي حلفا وكروسكو وأن يتمركز الجزء الرئيســي من القوات في أسوان. وكان يعسكر في وادي حلفا في ذلك الوقت الكتيبة الثالثة المصرية. أما فــوج سسكس الملكي, والذي كان قد أرسل من قبل إلى أسيوط, فقد أرسل في السادس والعشرين من يونيه إلى أسوان. وبعد بضعة أسابيع توجهت مشاة دوق كورنوول الخفيفة إلى قنا.

وأرسلت حملة أيضاً على الصحــراء الغربية يقودها الملازم ســتيوارت وورتلــي ومعــه خمسمائة من بدو الجوازي. فقــد ظنوا أن من الممكن أن تتم محاولة لغزو مصر عن طريــق, درب

الأربعين * ولم تتوفر معلومات مؤكدة عن كميات المياه بالطريق, لذا تم إرسال الكولونيل كولفيل ليرافق الملازم ستيوارت وورثلي وليكتب تقريراً عن حالة الطريق.

هذا الطريق المزمع يمر (بواحتي) سليمة وبريس وإلى ساقية العبد على النيل ومنها إلى حلفا. وكان الاستنتاج الذي توصل إليه هذان الضابطان هو أن الطريق لا يصلح لمرور قوات تزيد علي ألف رجل.

خلال ذلك كانت بربر محاصرة بشدة بواسطة الشايقية بقيادة الهدي. وقد حاول بعض الموظفين التسلل شمالاً لكن قبيلة الرباطاب إعترضت طريقهم وأرغمتهم على العودة. وأثبتت هذه العملية لحسين باشا خليفة أن مواصلاته مع الشمال قد إنقطعت تماماً. من هنا فقد قرر الدفاع عن المدينة بقدر إمكانياته وقام بتنظيف المناطق المجاورة للمدينة حتى يؤمن مجالاً مفتوحاً لنيرانه. لكنه لسوء الحظ لم يقم بإزالة وتنظيف جنينة لأحد شيوخ الدين والتي تقع وراء السور مباشرة. وفي هذه الجنينة تجمع المحاصرون. وقد علموا بأن ذلك الجزء من الاستحكامات المجاور للجنينة محروس بواسطة العبابدة والذين كانوا من لحمهم ودمهم. توقعوا بالتالي مقاومة ضئيلة. وبهجوم ضار تم شنه في صباح السادس والعشرين من مايو إستلموا المدينة وصارت في أيدي الثوار. وقد وصف شاهد عيان ما حدث قائلاً:

"جمع حسين باشا خليفة عدداً من رجال قبيلته وأوكل لهم مهمة حماية ذلك القسم من المدينة المسمى بشيخ زين العابدين. وقبل شروق شمس السادس والعشرين من مايو سمعنا صوت رصاصة إنطلقت من تلك الجهة. وفي الحال إندفع المتمردون داخل التحصينات وإقتحموها. وقد قاتل بكباشينا قتالاً بطولياً وقتل منهم الكثير. لكنه, عندما أيقن استحالة النصر قام بقتل خادمه وفرسه وحماره ثم أنتحر بعدها.

وأخيراً أمرنا الضابط المسئول عن الفرسان بتشكيل مربع على ضفة النهر ومكثنا هناك لحوالي الساعتين ولم يقم أحد فيها بمهاجمتنا. وقد شاهدنا باب غرفة الخزينة مفتوحاً وسمعنا العرب يسألون عن مكان الأموال*وتم إخطارهم بأن حسين باشا قد أخذها بعيداً. ثم أرسل لنا حسين باشا أوامر بإلقاء سلاحنا وقد فعلنا ذلك. كانت خسائرنا قد بلغت ١١٠٠رجل إضافة لعدد كبير من التجار والأهالي وقد قتلنا بدورنا عدداً من رجال العدو".

لكن الوصف الذي جاء أعلاه لا يفصل المذبحة الرهيبة التي إستمرت ليومين بعد سقوط المدينة. ويبدو أن قلوب المدافعين, مع حسين باشا, كانت واهنة رغم أنه لاشك في أنه وقف موقفاً صلباً. فيدون أن يفقد أعصابه عند علمه بالإعلان القاتل, الذي يتخلون به عن السودان, إلا أنه بدا

---

* درب الأربعين هو الطريق الصحراوي الذي يبدأ من كردفان ودارفور ويمر بواحتي سليمة والخارجة إلى أسيوط.

* كان الجنرال غردون قد أرسل مطالباً بمبلغ ٦٠,٠٠٠ جنيه توضع تحت تصرفه. وقد وصل المبلغ لبربر. ولكن لانقطاع الاتصال بالخرطوم فقد ظل في خزينة بربر ثم ما لبث أن استولي عليه محمد الخير, شيخ الرباطاب.**. والذي عين فيما بعد أميراً علي بربر(المؤلف).

** الصحيح ربما كان شيخ الميرفاب أو شيخ الغبش (المعرب).

واضحاً يأسه من النجاح. وقد جرح أثناء الهجوم في ساقه وخلال اليومين التاليين أقفل على نفسه باب أحد المنازل حتى سمح له فيما بعد بالبقاء في المدنية.

وبعد سقوط المدينة, تم تعيين محمد الخير أميراً على المديرية, أما الهدي، مع قواته الظافرة، فقد تولي أمارة دنقلا بتفويض من المهدي، ومن ثم تقدم لاستلام هذه المنطقة الكثيفة السكان والمزدهرة بالموارد.

وكان مدير دنقلا في ذلك الوقت رجل يدعي مصطفي باشا ياور, وهو رجل شركسي المولد تقلب في عدة ظروف أثناء حياته. فقد جلب إلى مصر كعبد من العبيد وتم بيعه للخديوي عباس باشا. وقد تلقي تعليماً طيباً حتى كان عام ١٨٦٤ عندما بذل إسماعيل باشا كل ما أمكنه من جهد لتحرير بلاده من طبقة المماليك وتم إرسال مصطفى ياور للسودان.

كان في رتبة الملازم عندما توجه للسودان. وبوصوله للخرطوم رقي لرتبة اليوزباشي وبعدها عمل لعدة سنوات في كردفان في وظيفة مدنية. وفي عام ١٨٧٧ عين مديراً لدنقلا. وعن وصول الجنرال غردون تم دمج مديريتي بربر ودنقلا تحت إدارة حسين باشا خليفة* ومن ثم الإستغناء عن خدمات مدير دنقلا. لكنه أعيد للخدمة بعد فترة وجيزة.

وقد شغل نفسه بالدراسات الدينية وصارت له شهرة عظيمة في التصوف والتقوى ورغم هذا فقد كان رجلاً ذا قدرات إدارية ودبلوماسية شرقية ملحوظة.

وعندما ثبت المهدي نفسه بالأبيض, كان مصطفى ياور بين العديدين الذين تلقوا رسائل من المهدي للتسليم للنظام الجديد. ويبدو أن طهارة يده المعروفة هي التي دفعت المهدي ليخطره بالاحتفاظ بمنصبه كأمير على المديرية وأنه لا يطلب منه سوى إبداء الولاء له قبل ذلك.

ولكن لا يبدو على مصطفى ياور, رغم أنه ربما كان متعاطفاً مع المهدي وخاصة في ما وصل إليه الدين من تدهور، وضرورة إحيائه، أنه كان على استعداد للقبول بمحمد أحمد كداعية إلهي جاء لإكمال الرسالة التي يحتاج إليها العالم بأشد الحوجة. لكنه على كل حال أرسل له رداً ملطفاً فقد كان واضحاً لديه أن جنسه (الشركسي) فقط يكفي لحرمانه من الحفاظ على وظيفته الكبيرة في مجتمع شعاره هو " الموت للترك".

عاش حسين باشا في بربر بعض الوقت, بعد سقوطها, ثم ذهب إلي أم درمان حتى نجح فيما بعد بالفرار. فقد تمكن من خداع المهدي بأن تظاهر بأنه رأي رؤيا تم حثه فيها للتوجه لقبيلته – عبابدة كروسكو – وإحضارهم لتلقي الدين الصحيح. وقد اقتنع المهدي بصحة الرؤيا لدرجة السماح لحسين باشا بالذهاب إلي مبتغاة. وفي نفس الوقت سلمه منشورات موجهة لسمو الخديوي وللعبابدة ولآخرين، إضافةللفرمان بتعيينه أميراً وقائداً للعبابدة.قام أيضاً بحمل رسائل معه من أساري الأوروبيين بالخرطوم ولكن كان واضحاً أنها قد أمليت عليهم من قبل قائدهم وأنهم ما كتبوها إلا قسراً لأن قيمتها التوثيقية لا تسوي شيئاً.

وصل حسين باشا للقاهرة في ١٢ يوليه ١٨٨٥. وقدم نفسه للسلطات لكنه حوكم أمام محكمة عسكرية وتمت تبرئته. وقد توفي بعد ذلك بشهور في القاهرة

وقد انتشرت روح الثورة ونشطت في ذلك الجزء من دنقلا الواقع على حدود مديرية بربر. فقد قام الشيخ الطيب من كورتي مع ود كنكين * من مروي بإثارة سكان تلك المناطق والتي سرعان ما خرجت من الأيدي. لهذا تم إرسال نائب المدير، جودت بك، مع قوة صغيرة لإستعادة النظام لكنه هزم وطرد حتى الدبة حيث تم فيها تعزيز قواته مما مكنه من إلحاق بعض الخسائر وسط الثوار.

رغم ذلك كانت مناطق الإضطرابات محلية محدودة. وقد كانت لسلسلة البرقيات المعقدة التي يرسلها مصطفى باشا ياور إلى القاهرة، شارحاً فيها الأحداث في مديريته, ما سبب بلبلة بين السلطات هناك لدرجة جعلت من المستحيل عليهم القول إذا ما كان مصطفى باشا مخلصاً في ولائه لهم أم أنه مجرد عميل للمهدي يعمل علي تلطيف الوضع وتهدئته حتى يتمكن الثوار المتمردون من السيطرة على كامل المديرية. وتزايدت هذه البلبلة يوماً بعد يوم. وصدرت الأوامر للمدير لمغادرة المديرية مع كل من يود العودة إلى مصر. لكنه كان يرفض بإصرار بحجة أنه إذا ما تم إخلاء دنقلا فأن طريق إنسحاب غردون من الخرطوم سيقطع حتماً.

وفي تلك الفترة وصل الهدي إلى جوار مروي وشرع في التقدم، مع مجرى النهر، مخترقاً حدود دنقلا، جامعاً في طريقه لعدد من الرجال من ذلك الإقليم المكتظ بالسكان. لكن البلبلة وعدم اليقين التي إنتشرت وقتذاك في مدينة دنقلا أخذت تسود في كل أنحاء الإقليم. وكان الاعتقاد الشائع لدي السكان، الذين أصبحوا من أتباع الهدي، هو أنهم في طريقهم للعاصمة لحضور مهرجان أو استقبال يتم فيه قراءة فرمان من المهدي يثبت فيه مصطفي ياور كأمير وحاكم للمديرية. لكن نوايا الهدي الحقيقية، والتي كانت خاصة بجعل نفسه سيداً على المديرية، لم تعد خافية الآن على أحد. وقام أحد الأهالي الموالين للحكومة، والذي كان قد أنجرف في تيار أتباع الهدي، بالفرار إلى الدبة وحذر الحامية المكونة من الباشبوزوق باقتراب الهدي نحوهم ومن نواياه تجاههم. من هنا قام جودت بك، نائب المدير, ونور الدين بك، قائد القوات، باتخاذ كل الاستعدادات اللازمة لإعطاء الغزاة استقبالاً ساخناً. ووصل الهدي بقواته أمام الدبة في الثالثة بعد الظهر يوم الخامس من يوليه واستقبله رصاص منهمر إنصب عليه من أسوار القلعة. فقد كان الجنود، الذين أجرموا من قبل بشن العديد من الغارات على الأهالي، يعرفون جيداً بألا يتوقعوا أي رحمة من أنصار المهدي إذا ما وقعوا في أيديهم.

وقام رجال الهدي بمذبحة رهيبة ولكن تم صدهم رغم ذلك. وبعد أن فقدوا كثيراً من رجالهم أجبروا على التقهقر مرة أخرى إلى مروي. وقام جورت بك بمطاردتهم على ظهر الباخرة والتقى بالأنصار المتراجعين بالقرب من الحتاني ودفعهم نحو الصحراء بعد أن شتت شملهم*.

وعاد الأهالي إلى بيوتهم بعد ذلك وعادت السلطة الحكومية مرة أخرى للإقليم الثائر. تراجع الهدي نحو مناطق التلال في صحراء بيوضة. ومن هناك كتب للمهدي عن الفشل الذي أصابه وترجاه بأن يرسل له تعزيزات على وجه السرعة.

---

* تم أسره في معركة توشكي في ١٨٨٩/٨/٣.

* الحتاني تسمي أيضاً(تاني). وكانت القوات البريطانية معسكرة بها قبل استدعائها عام ١٨٨٥.

وفي تلك الأثناء كانت أخبار عمليات مصطفى باشا تزداد غموضاً يوماً بعد يوم بالنسبة للسلطات في القاهرة، وحتى نتائج القتال الذي دار في الدبة كان مصدر تساؤل. وتطوع كتشنر باشا** من كورسكو للتوجه إلى دنقلا للتحري فيما جرى من أحداث بنفسه وكتابة تقرير بذلك للسلطات. تم منحه الإذن بالذهاب ومن ثم تحرك في الحال (الدنقلا) تاركاً مسئولية القبائل البدوية والإهتمام بأمرها إلى الملازم رندل. وصل إلى دنقلا في الأول من أغسطس واستقبل بحفاوة من قبل المدير. وجاء في تقريره الاعتراف أخيراً بأن المدير, ومهما كانت ميوله السابقة, فإنه الآن من الموالين تماماً (للحكومة) وأن الأهالي يقفون معه، وأن الانتصارات التي أحرزها مؤكدة لاشك فيها. وبعد بضعة أيام توجه الميجر كتشنر نحو الدبة وتفقد بنفسه أرض المعركة التي دارت بها مما أكد له, بدون أي مجال للشك, نجاح المدير في كسبها. وبعد قليل من ذلك قام بتفقد المنطقة حتى أم بكول بصحبة المدير، والذي إنتهز هذه الفرصة لتنبيه السكان للابتعاد عن الثورة، وقام في نفس الوقت بالمعاقبة الفورية لأولئك القرويين الذين تورطوا في الأحداث الأخيرة.

وأثناء ذلك تلقى المهدي رسالة الهدي التي يترجى فيها إرسال التعزيزات له. وقام بالتالي بإرسال الأمير محمد محمود مع ٨٠٠ رجل للتوجه من الرهد إليه ومساعدته. كما قام في نفس الوقت بإرسال الخطاب التالي لمدير دنقلا والذي، لما تلى ذلك من أحداث، لم يتم إستلامه إلا بعد فترة من الوقت.

"ليس خافياً أنني خليفة الرسول. ولقد كتبت لك من قبل مرتين داعياً لك إلى الله وراغباً لك في حيازة نعمة في الدنيا وفي الآخرة. لقد وضعتك في درجة عالية وقيادة علي كل أهل منطقتكم ولن بشرط أن توالوني ظاهراً وباطناً. أنزع نفسك من حكومة الكفرة الترك وقابلهم بالعداوة وأقطع كل صلة أو صداقة بهم وأعمل بما يوافق رعاياك من أهالي دنقلا وكن معي في شأني فهو الطريق إلى الله ورسوله.

ولقد أنقضي وقت طويل منذ ذلك وكنت عبثاً أنتظر وصول إجابة منكم تفيد بتنفيذ أوامري وآمالي. لكنكم لم ترسلو لي ولو رداً شفوياً باستلام كتابي. ولقد علمت بأنك لا زلت مستمراً في خدمة أعداء الله الأتراك وأنك تقوم بتدعيم مركزك السابق وإنك مستمر في الاتصال بهم عن طريق التلغراف، والذي لازال خطه سليما، وفي هذا تناقص تام مع ما قام به أولئك الأهالي الذين التفوا من حولي لنصرة دين الله جل جلاله. وإضافة لذلك فأنك تفرض الضرائب على المسلمين في مديريتك. ورغم إنك لم تقم بتنفيذ شروطي عليك, ورغم كل ما أسمعه عنك، فأنني لم أستجب للرأي القائل بقطع الصلات بيننا ولم يختمر في ذهني أي فكر شرير بشأنك, بل احترمت العهد الذي بيننا واحتفظت برأيي الطيب نحوك وأملت في أن أجد عذراً لصمتك. ولم استمع للاتهامات الموجهة إليك والتي تتحدث عن خبثك وخيانتك وذلك بدافع الشفقة عليك رغم علمي بأن وكيل أحمد الهدي قريب من حدودك، بعد أن زحف بجيوشه من بربر والذي يخشى، من أجلك، من نشوب عمليات التحريض على الفتنة والعصيان والخيانة والتي قد تنتهي بسفك الدماء بينكم, وأنتم إتباعي.

** في ذلك الوقت كان كتشنر برتبة صاغ (ميجر) ولم يحصل على الباشوية بعد (المعرب).

ولقد عينت حامل هذه الرسالة، محمود بن محمد، ليكون أميراً عليك وعلى الهدي وليرفع يد الأخير عنك. وسيمتحن مدى صدق إخلاصك وولاءك. لقد تحرك بأوامري. وهو رجل يتميز بذكائه الشديد وصفاته السامية بين أصفيائي وزملائي. لذا فعند وصوله، وإن كان تسليمك صادقاً وأنك حريص علي مرضاه الله وواثق به، وإن سلمت لي وتابعتني بالصد وبالصدق وإخلاص وتجنبت الخداع فأنك ستطيع مبعوثي في الحال وتسلم له أعمال الحكومة والسلاح والجنود. أما فيما يختص بشأنك فعليك الإلتزام بالعقد الذي سبق بيننا وقم بكتابة قائمة مفصلة وسلمها للأمير محمود واستخرج منها نسخة وأحضر لي بنفسك هنا ومعك أكبر عدد من الأهالي وعوائلهم وثرواتهم التي تقدر على حملها وأن تعتبر ذلك هجرة في سبيل الله وعمل من أعمال الصلاح. ثم أترك ما لم تستطع حمله وأوكل عليه من يقوم بشأنه. ولقد أمرت محمود بحماية كافة حقوقك. إن غرضي من استدعائك ليس فقط لإثبات أهميتك، بل لإضفاء الشرف عليك حيث تعود بعدها ممجداً محترماً ولتكون شاكراً لي ذلك الفضل وحامداً لذلك. من هنا فعليك الإسراع بالحضور لي وكن مخلصاً في طاعتك لي. وتجنب الانقياد للمكاسب الدنيوية وزينتها والتي لا يسعى إليها إلا الذين ابتعدوا عن درب الله*

وكان محمد محمود قد التحق بالهدي بالقرب من مروي في أوائل سبتمبر وقاما معاً بالنزول مع النهر حيث كان المدير قد حشد قواته في كورتي وهناك ألحق هزيمة تامة بالثوار.

والوصف التالي لأحداث القتال، والمثير للإهتمام، قد قام به نور الدين بك وبعض الضباط الذين كانوا حاضرين:

"١٢ سبتمبر ١٨٨٤

لنا الشرف أن نقرر الآتي:

بعد المعركة التي دارت في الحتاني بين القوات (الحكومية) وعصابة أحمد الهدي، أجبر الأخير على الفرار لما وراء المديرية. وقام أولئك الأهالي من مروي وأم بكول، والذين كانوا قد انضموا للزعيم، بهجره والابتعاد عن دعوته وبالتالي تمكنت قوات المديرية من العودة لمختلف النقاط التي كانت إحتلت قبل القتال.

لكن هذا الثائر تمكن، على كل حال، من جذب السكان إليه وهم الذين كانوا سمعوا بوصول محمود حاج محمد، والذي عين أميراً على دنقلا بواسطة النبي الزائف.

وعندما سمع المدير بذلك، أسرع بجمع كل القوات التي تحت تصرفه وتوجه إلى أبو قسي ومنها أرسل العيون لمعرفة عدد الثوار ومكانهم.

وقد تباحث أحمد الهدي مع المبعوث الأخير ووصلا لاتفاق لضم قواتهما سوياً لمواجهة الحاكم.

وعندما سمع المدير بهذا الاتفاق توجه إلى الدبة ومنها ذهبنا معه مع قسم من القوات المواليه للحق والعدل ومعنا أيضاً فصيل من القوات النظامية.

---

* وجد هذا الخطاب في جسد الأمير محمود عقب مقتله. وكان قد سمي حاكماً على دنقلا وقتل في معركة كورتي. والخطاب معنون إلى مدير دنقلا بواسطة محمد أحمد المهدي ومؤرخ بالتاسع من رمضان (٢ يوليه ١٨٨٤).

تقدم الزعيمان المتمردان نحو كورتي حيث جمعوا حوالي ٣٠٠٠ رجل. وهناك تلقوا زيارة من حسن العبادي, من قبيلة حسين خليفة، المدير السابق لدنقلا وبربر, والموجود حالياً مع النبي الزائف قائداً لمجموعة من المتمردين.

كان حسن العبادي مبعوثاً من النبي الزائف، والذي عينه حاكماً عامــاً علـــى كــل مصـــر وملحقاتها. وقد أصطحب معه عدداً من الأشخاص، الذين كان مقرراً توليهم لمناصب رفيعة في مصر, وكان منهم أمير على إسنا وآخر على قنا، وبالطبع واحد على كل مركز هام في مصر. كما كان معـــه أيضاً حاكم لطرابلس.

وبعد أن إلتقوا وتباحثوا قرروا بالإجماع ذبح كل القوات الموجودة هنا وبعد ذلك الزحــف شمالاً لتنفيذ أوامر النبي الزائف لهم. وقد أقسموا جميعاً على القرآن بالهجوم علينا وعدم الآبقاء على أي أحد منا. وعند وصولنا إلي التقر, المقابلة لأم بكول، في الثاني عشر من ذي القعدة ١٣٠١هـ ، الموافق ٣١ أغسطس ١٨٨٤، ترك المدير القوات بذلك المكان ثم تسلم المركب التي وجدت بالمديرية وأخذ معه نور الدين بك وبعض القوات وانقض ليلاً على المتمردين الذين تعسكروا بكورتي والـــذين كان معهم, كما سمع، عدد من الأهالي الذين أجبروا على إصطحابهم. وعند المساء استجوب المـــدير بعض هؤلاء الأخيرين,بغرض الحصول علي معلومات عن الحالة العامة, ولتقرير الخطـوات الـلازم إتباعها لمواجهة العدو.

ثم عاد المدير بعدها ليصل إلى معسكره في التكر قبل ساعتين من إنبلاج الصبح. ثم تحرك نحو الغرب حيث وجد كل شئ جاهزا قبل شروق الشمس – المراكــب, الجنـــود, الجمـــال العربيـــة, وخمسين جواداً كانت قد صودرت من مختلف الجهات بالمديرية.

ثم أصدر المدير أمره بالهجوم. وبعد أن خاطب قواته قام بوضع نفسه فـــي مقـــدمتها. دار الاشتباك في أقصى طرف جزيرة العود التي تقع بين أم بكول وكورتي.

وكان عدد الجنود الذين تلقوا أمراً بالنزول من المراكب أربعمائة تم توزيعهم كما يلي: علـــى الجناح الأيمن الفرسان والهجانة. وفي الوسط المشاة. وعلى الجناح الأيسر جنود العرضي الرابـــع.. وكان المدير في الوسط مع المدفع. أما العدو فقد إنحدر إلى درو شمالاً من قواتنا.

كانت قواتهم تتكون جزئياً من جنود مديرية برر والذين تسلحوا ببنادق الرمنجتون، إضافة للرجال الذين سلحهم الشريف محمود, الذي عين أميراً على دنقلا, وحسن العبادي، الذي عين أميـــراً على مصر وملحقاتها. لكن المدير أمر قواته, بحصافة، بعدم إطلاق النار عليهم وركـــزوا إهتمـــامهم علي الهجمات الصغيرة المركزة لجنوده والذين ألقوا بأنفسهم على أجناب العدو وقلبهم وذلك إلى أن تلقي الفرسان الأمر بالهجوم. بعد ذلك قامت قواتنا بصب النيران عليهم وقام الأمراء الذين ذكرتهم من قبل بالقاء أنفسهم وسط جيوشنا حتى يستولوا على مدفعنا ويأسروا أو يقتلوا المدير. أمهلهم المدير حتى صاروا على بعد ١٥٠ ياردة ثم أمر القوات والمدفعية التي في الوسط للرمي بالقذائف المتناثرة* كما أمر الجنود الذين بالجناح الأيسر لإطلاق النار على الذين تحصنوا في المنازل والأسطح.

* تسمي قريب شوط. وهي قنابل محشوة بالعديد من الكرات الفولاذية أو النحاسية التي تتناثر عند إطلاقها محدثة أثراً ماحقاً على المهاجمين (المعرب).

شكراً لمديرنا! فقد أحرزنا النصر رغم قلة عددنا, وكثرة العدو، وشراسة هجومهم, والقسم الغليظ الذي تعهد به زعماؤهم. كان مديرنا يبث روح الحماس ويشجع الجنود في كل مكـان وكانـت طاقاته وشجاعته خارقة للعادة.

ثم هرب العدو تاركاً على أرض المعركة كل الأمراء الذين أشرنا إليهم من قبل: محمود أمير دنقلا، حسن العبادي أمير مصر، وأمير طرابلس وغيرهم. وقد فقد بابكر كوكز حياته أيضاً. قام رجال أحمد الهدي بحمل جثمانه ودفنه في أسلي مع بابكر.

وقامت قواتنا, بعد أن حثها المدير من على ظهر حصانه، بمطاردة العدو حتى نال الإرهاق منهم ومن خيولهم فعادوا بعد ذلك.

بلغت خسائرنا جندياً واحداً من الفصيل الرابع, كما جرح كل من الصاغ حسن أغا والصاغ سليمان أغا مع خمسة آخرين من الجنود وسبعة من الهجانة. وكانت جراح حسن أغا خطيرة لكنها لم تكن مميتة.

وهذه هي قصة ما دار في المعركة."

وعندما جرى ذلك الإشتباك كان الميجر كتشنر في الدبة، بعد أن أمر بالبقاء فيهـا بينمـا توجه مصطفى ياور ضد الثوار.

وفي تلك الأثناء كان السير إفلين وود, سردار الجيش المصري, في حلفا. وبعـد أسـابيع قليلة من المعركة وصلت جماعة من الجنود إلى حلفا حاملة معهـا رأسـين بشـعين علـى رؤوس الحراب، وتحت كل منهما ورقة معلقة توضح أن تلك الرؤوس كانت لأمير طرابلس وأميـر مصـر، واللذان قتلا في معركة كورتي.

وقد ترجي المدير، في خطاب منه إلى السردار، أن يرسل أحد الرؤوس لجلالـة السـلطان والآخر إلى سمو الخديوي. لكن السير إفلين وود رد على ذلك بخطاب مهذب قال فيـه بأنـه رغـم البطولة التى أبداها صاحب السعادة وقواته إلا أنه لم تجر العادة على إرسـال مثـل تلـك الأشـياء لهم.ومن ث تم دفن الرؤوس في أحدى مقابر حلفا.

بعد ذلك دخل الميجر كتشنر في مباحثات مع (زعيم) الكبابيش الشيخ صالح، والذي تنتشر قبيلته من دنقلا وحتى كردفان، لضمان كامل التعاون مع هذه القبيلة القوية, إضافة لإيجـاد وسـيلة للاتصال بالسودان.

لكن نتائـج هـذه المباحثات لم تثمر إلا فيما بعد. أما حالياً فقـد وجـه الميجـر كتشـنر اهتماماته للاستعدادات لمعاونة الحملة البريطانيـة، والتي تقرر بعد لأي إرسـالها لأنقـاذ الجنـرال غردون في الخرطوم.

ولقد وصفت الأحداث المتعلـقة بهذه الحملة التاريخيـة في غير هذا المكان لذا لا أنتـوي التوسـع فـي هـذا الأمـر الآن, لأن أي حـدث متعلق بهـذا الأمـر محفور في ذاكرة الجميع.

وفي الفقرة التالية، من التقرير الأخير للورد ولسلي، خير وصف للبطولة التي واكبت عملية محاولة الوصول لتلك المدينة المحاصرة والتي سقطت قبل يومين من وصول النجدة. فقد قال:

" وفي الختام لابد أن أضيف. ورغم أن الحملة لم تتوج بالنصر. إلا أن معنويات وسلوك الجنود الذين لعبوا دوراً في هذه العملية، سواء على النيل أو في سواكن، لا ينظر إليها من قبل أي إنجليزي إلا بعين الرضا. لم يستطع الجيش الذي أقوده من إنجاز المهمة التي أوكلت إليه أو إنقاذ حياة الجنرال البطل غردون أو رجال حامية الخرطوم. لكن هذا لم يكن نتيجة تقصير منهم أو لنقص في شجاعتهم أو إنضباطهم أو عزمهم أو تحملهم للمشاق. فلقد تغلبوا على مصاعب جسيمة لاحد لها وأزاحوا عن طريقهم، عند أي إشتباك، عدواً نداً لهم في الشجاعة ويتفوق عليهم في العدد. وقد وصلت طلائعهم ضواحي الخرطوم يومين بعد فوات الأوان. ولا أحد يأسف أكثر مني لسقوط ذلك المكان. لكنني، ومعي كل مواطنينا، أنظر بعين الفخر للنضال البطولي الذي قامت به قواتنا في محاولتها إنقاذ الخرطوم والبطل المدافع عنها"

ويمكن القول عموماً، وبكل إنصاف، أنه لم يحدث في تاريخ العالم كله أن قامت حملة عسكرية بالاندفاع قدماً، مع الإجهاد الرهيب، ولمسافة ١٥٠٠ ميل داخل بلاد لا توجد عنها معلومات مؤكدة وخاصة المتعلقة بتحركات تلك الأعداد الضخمة، التي لا تهاب شيئاً، للعدو، والتي تكاد تكون عديمة الموارد والإمدادات من كافة الأنواع. لقد قام الجندي البريطاني، في هذا المقام، بأداء خدمة لا نظير لها في الوقت الراهن أبداً.

ولا أود هنا متابعة التقدم الناجح للحملة عبر الشلالات أو الصحاري. وسينحصر السرد على ما حدث بعد أن وصلت القوات على مسافة قريبة من العدو. ولكن، وبينما هي تكابد الأمرين عبر النيل العظيم، فسنتابع سير الأحداث التي تجري في هذا الوقت بالضواحي المباشرة للخرطوم.

فبسقوط بربر في العشرين من مايو قطعت كل خطوط التلغراف وخيمت غلالة على غردون وستيوارت وباور والذين لم يتوانوا في العمل، بحبور، وعلى الصمود حتى تنقذهم المشيئة الإلهية. وكانت بعض اللمحات تصل منهم لبعض الوقت."هل سيحاول غردون تسوية الأمور شخصياً مع المهدي؟" "ربما لا يقوم بذلك""هل يستطيع بيكر سؤال الأغنياء (من مواطنيه) لإمداده بالمال لاستئجار القوات؟"-" قد لا يستطيع ذلك".

وبينما ساد الإرتباك كل النواحي، إنصرف للعمل مع قواته التي عانت طويلاً للصمود في وجه الحصار بشجاعة حازت على إعجاب الجنود في كل بلاد العالم.

وفي أوائل مايو واتت غردون أول فرصة لحظ سعيد. لم يكن التاريخ محدداً لكن الخطاب المنشرح الذي كتبه غردون لم يصل إلى المهدي إلا في حوالي الثالث عشر من مايو. فقد كتب فيه: " لقد مات أبو قرجة، الذي أرسلته لاستلام الخرطوم. ارسل جنرالاً آخر غيره". لكن أبو قرجة لم يكن قد مات، بل عاش حتى يستلم الخرطوم. فقد غادر الأبيض في مارس وكان يأمل في دخول الخرطوم بدون مصاعب تذكر. وعندما وصل ضفاف النيل الأبيض بدأ جيشه الضخم في عبور النهر في الكلاكلة حتى يتخذ موقعاً له في الجبهة الجنوبية. وقد انتهز غردون الفرصة. فبالرغم من إنخفاض منسوب النيل فقد كان بمقدور بواخره الإبحار بحرية حتى الكلاكلة. وفي ليلة الثاني أو الثالث من مايو غادرت قوة كبيرة، بالبر وبالنهر، الخرطوم سراً. وعند الفجر انقضوا على العدو في حمأة عمليات عبوره للنيل. وكان

نجاح العملية تاماً، فقد تم قتل كل الذين وصلوا للضفة الشرقية للنيل. وعادت القوات للخرطوم ولم تخسر إلا أربعين رجلاً. وبهذا النصر البهيج تم الانتقام لهزيمة السادس عشر من مارس.

وخلال مايو ويونيه ويوليه لم يتلق غردون أي أنباء من الشمال وأخذ يتطلع بحرارة لوصول النجدة القادمة والتي ستدفع العدو للخلف وتعيد لقوة بواخره حيويتها وقدراتها القتالية. وهكذا مضت الأيام تباعاً إذ أن الإستعدادات لحملة الإنقاذ لم تبدأ إلا في أوائل أغسطس.

***

الأحداث في مناطق السودان الأخرى حتى أوائل عام ١٨٨٥

وبينما كانت الخرطوم تحت الحصار، وقد انتشر مد الثورة المهدية وغمر تلك البلاد الشاسعة الممتدة من حدود وداي حتى البحر الأحمر، ومن دنقلا وحتى خط العرض العاشر، اصطدم ذلك التيهور المندفع، وبقوة عنيفة، السلاسل جبال جنوب كردفان حتى تلاشى في المستنقعات الشمالية للمديريات الاستوائية، لكنه سرعان ما عاود اندفاعه نحو الشمال وبطول وادي النيل.

بدأت مصاعب (المهدية) في جبال جنوب كردفان عقب هزيمة هكس مباشرة. فقد فر بعض الجنود الزنوج إلى جبل الداير ونجوا من المذبحة. تم استدعاء المك كمبو وأمر بتسليمهم لكنه أفاد بأن هناك جنوداً آخرين (متحصنين) بجبال تقلي، وبأنه سيستجيب لذلك إذا ما قام الملك آدم بتسليم الذين لجأوا إليه. وكان محمد أحمد يعلم تماماً بأن عليه أن يتعامل هنا، ليس فقط مع اثنين من صغار الملوك المستقلين ولكن مع من يتحكون في جبال عصية حصينة تعارض المهدية تماماً. بذل كل جهد ممكن لأقتلاع المتحصنين بالجبال المنيعة ولكن ثلاثة جيوش، واحد بعد الاخر، عادت بدون طائل مرتبكة ومشتتة. لكن نجاحاته في دارفور سرعان ما عادت التوازن وغطت على تلك النكسات.

***

الأحداث في دارفور خلال عام ١٨٨٤

في نهاية ١٨٨٣ كان الأمير (محمد خالد) زقل يجهز نفسه للتوجه نحو الفاشر والتي كانت قد أعلنت اسمياً ولاءها له. وفي الوقت المناسب وصلت الردود على رسائل سلاطين التي كان قد بعضها السيد بك جمعة (بالفاشر) ولعامر أفندي بكبكابية. ومع تلك الردود أرسلت مفاتيح الخزائن إضافة لمعلومات تتعلق بأن الرجلين (سيد بك وعامر أفندي) قد لبسا زي المهدية الرسمي وتهندما به.

وتحرك زقل في أوائل يناير بقواته صوب الفاشر. وقبل أن يصل إليها طرأ تحول غريب. فقد كان الرجل الذي نقل رسائل سلاطين إلى سيد بك (فكي) يرعى الفكي خليفة عبدالرحمن، وهو من أتباع زقل. وكان من قبل فكياً بالفاشر وصديقاً لسيد بك جمعة. لكنه الآن، وبعد أن تشرب تعاليم

المهدية، لم يتردد في إعلام سيد بك بضرورة الامتناع عن تدخين السجاير. ورغم ضئالة التضحية إلا أن ذلك قد ضايق المدير العنيد لدرجة أنه أمر بإعدام الفكي رمياً بالرصاص، مثلما أمر رجال حامية الفاشر بإعادة ارتدائهم للزي الرسمي القديم والاستعداد لمحاربة هذه الديانة التي تفرض مثل ذلك التشدد على أتباعها. ويبدو أن ما أثر على قراره ذاك هو إدراكه بما حل بحاميتي دارا وأم شنقة من إهانات فظيعة ومن المعاملة القاسية رغم وعود زقل لهم بأنهم، إذا ما استسلموا، فلن يجدوا إلا أطيب المعاملة. لكن الفكي عبدالرحمن لم يعدم، بل أطلق سراحه فيما بعد حيث كتب لزقل بما جرى من أحداث. أسرع زقل عندها إلى الفاشر ليجد أن الحامية قد استعدت لمقاومة تسليم المدينة بالقوة. هاجم زقل المدينة ثلاثة مرات وكان يتم صده عنها في كل مرة فقام باستدعاء سلاطين من دارا وآدم أفندي عامر من كبكابية، كما طلب منهما إرسال تعزيزات وإمدادات له من تلك الجهات. وفي نفس الوقت شرع في تجميع العرب المحليين وضمهم إليه وبهذا اصبحت المدينة تحت حصار محكم. كانت الحامية مكونة من حوالي ١٠٠٠ رجل وقتها، معهم عشرة مدافع ومدفع مكنة واحد. أتخذ زقل موقعاً له على الجبل الذي كان به قصر السلطان إبراهيم القديم ومنه أخذ يقصف المدينة بالمدافع. لكن مدافع المدينة سرعان ما أسكتت مدافعه. لكن الحصار أشتد عليهم لبضعة أيام. وفي الرابع عشر من يناير تمكن زقل من ردم الآبار التي كان يأخذ منها سكان المدينة ورجال الحامية حاجاتهم من المياه. لم تعد كميات المياه بالآبار التي داخل المدينة تكفي حاجتهم. وقد قيل بأن سلاطين قد متب لسيد بك ناصحاً له بالتسليم حيث لا جدوى من المقاومة. وفي اليوم التالي، الخامس عشر من يناير استسلمت المدينة. عومل العديد من الضباط معاملة قاسية وانتحر ضابطان منهم هما اليوزباشي سعيد أغا الغولي والصاغ إبراهيم أغا بنول عندما هددا بالجلد بالسياط إذا لم يكشفا عن مخابئ نقودهم التي افترض وجودها لديهم. أما الفكي، والذي كان المسبب الأساسي للحصار فقد تم إعدامه. أما سيد بك جمعة فقد أنقذت حياته بسبب من تدخل سلاطين. ثم بعد ذلك توزيع رجال الحامية على القبائل العربية بينما نصب زقل نفسه في الفاشر أميراً على المديرية وقام بعدها بإرسال سلاطين بك وسيد بك جمعة إلى المهدي بالأبيض.

والخطاب التالي، الذي أرسله سلاطين بك إلى الجنرال غردون، والذي استلمه الأخير في السادس عشر من أكتوبر عندما كان محاصراً بالخرطوم، ربما يوضح بجلاء الظروف التي وجد سلاطين نفسه فيها قبل أن يقوم بتسليم مديريته:

"لا أجد أمامي غير أن أبلغكم بمجرى الأحداث كما هي عليه الآن، وكما كانت قبل ذلك، ولألتمس من سيادتكم أن تكون فكرتك عني طبقاً لها.

فمنذ تعييني حاكماً لدارفور وجدت نفسي مشتبكاً في حرب مع السلطان هارون دود بنجا. وعندما انفجرت الثورة التي أشعلها محمد أحمد وجدت نفسي وحيداً في دارفور بدون ضباط – فبعضهم قتل والبعض الآخر كان قد طرد من الخدمة بواسطة الحكومة. أما القليلون الذين تبقوا معي فكانوا عديمي الكفاءة وغير قادرين على القيادة. وعند أندلاع الثورة (المهدية) والذي تزامن مع ما قام به أحمد العرابي في مصر، وجدت نفسي مضطراً لقيادة الجيوش بنفسي. وبعد عدة معارك، والتي كان معظمها خاسراً بطريقة أم بأخرى، قام الضباط العرب،

والذين كانوا يحقدون علي والذين اعتقدوا حقاً بانتصارات العرابي على الأوروبيين، ببث رؤاهم تلك وسط الجنود وبأن أسباب هزائمنا لا تعود إلا لكوني نصرانياً، ولكي أتغلب على تلك الأفكار المدمرة أعلنت لهم بأنني، ومنذ بضع سنوات، كنت أمارس الشعائر الدينية الإسلامية وقمت بالتالي بإعلان إسلامي رسمياً أمامهم. وبهذه الخطوة تمكنت من استعادة ثقة جنودي وبثثت فيهم روح الأمل وملأتهم بالثقة والابتهاج مثلما اقتلعت جذور الفتنة والتآمر. وبعد ذلك تمكنت من الظفر في العديد من المعارك حتى علمنا بالنكبة التي حلت بجيش هكس في قيافي كردفان.

فإذا ما كان ارتدادي عن ديني يعتبر عملاً مخلاً بالشرف فهذا أمر خاضع لمختلف وجهات النظر. لقد كان ذلك أمراً سهلاً بالنسبة لي. وربما زاد في سهولته هو أنني، ربما لسوء حظي، لم أكن قد تلقيت تعليماً دينياً جاداً في وطني.

لقد قدت الجيوش في دارا وقاتلت القبائل التي تعرفونها سعادتكم باسم الرزيقات. وبالرغم من خسائرنا الجسيمة وقلة الذخيرة فقد كنا ننتظر المدد من احتياطي هكس وكانت قلوبنا تتوق لذلك. ولكن بعد تدمير الأخير فقج رفضت قواتي المتضعضعة المعنويات أن تخوض أي معركة أخرى. لدي الآن حوالي ٧٠٠ جندي بمن فيهم الجرحى والمرضى، كما أن لدى كل بندقية حوالي عشرة أو اثنتي عشرة دستة من الطلقات. ضبطي وجنودي أصروا على ضرورة استسلامنا. ووجدت أنا نفسي، وحيداً وأوروبياً، مجبراً للسير مع رأي الأغلبية وعلى الاستسلام. فهل يصدق سعادتكم بأن هذا التسليم كان بالنسبة لي، كضابط نمساوي، أمراً سهلاً؟ لقد كان ذلك اليوم من أصعب ما مر علي في حياتي"*.

أما زقل، والذي رسخ أقدامه بقوة في الفاشر، فقد كان معه الآن قوة من حوالي ١٤٠٠ جندي سوداني وبازنقر تحت قيادة الأمراء بابكر وود الحاج وعمر ود الياس (ابن الياس باسا مدير كردفان السابق وشقيق محمد باشا إمام) وعلى النور إمام. وإضافة لذلك فقد كان معه قوات كبيرة من العرب قدرهم البعض بحوالي عشرين ألف رجل. وبهذه القوات شرع زقل في قمع مختلف الاضطرابات المحلية، التي كان سلاطين يتعامل معها بدرجات مختلفة من النجاح في الأعوام السابقة، والتي كما نذكر كانت بعيدة تماماً عن أي من تحركات المهدويين.

بدأ أولى حملاته ضد السلطان دود بنجة ابن السلطان أبكر وشقيق السلطان إبراهيم. وقام بإرسال حملة تحركت من الفاشر باتجاه جبل مرة بنهاية يونيه ١٨٨٤ تحت قيادة المدير (أصبح أميراً

---

* صحب سلاطين بك، بعد ذلك، محمد أحمد إلى الخرطوم وكان حاضراً عن سقوط تلك المدينة. وعندما توفي المهدي في يونيه ١٨٨٥ أصبح ملازماً، أي واحد من أفراد الحرس الخاص بالخليفة، عبدالله التعايشي، ولا زال في منصبه حتى الآن ملتزماً بإقامته في أم درمان والتي لم يسمح له أبداً بمغادرتها. أما سيد بك جمعة فقد سجن لبعض الوقت لكنه عمل، أثناء حصار الخرطوم، في توجيه وتصويب مدافع الثوار الموجهة نحو الخرطوم. ويقال أن القذيفة التي عطلت الباخرة الحسينية، التي كان غردون قد أرسلها لمحاولة نجدة حامية أم درمان، في ١٢ نوفمبر ١٨٨٤، وكانت من تصويبه. ولهذا السبب تم ترفيعه قائداً لمدفعية المهدي. ويقال أنه لا زال بأم درمان.

الآن) آدم عامر. وعندما طولب السلطان بالاستسلام رد عليهم، كما يقال بالآتي: "لقد صمدت أمام الحكومة المصرية والتي هي أقوى كثيراً منكم وذلك منذ موت السلطان عارون عندما لم يكن أميركم زقل سوى خادم أيام والدي. لن يكون سوى السيف، حكماً بيننا". ثم شرع في التجهيز لمقاتلة الغزاة، كان موقعه الحصين يقع فوق جبل عال. وحاول آدم الآن أن يقتحمه لكن تم ضده بخسائر تجاوزت نصف قواته. قام بجمع شتات قواته وكتب لزقل طالباً التعزيزات منه والتي وصلت إليه في الوقت المناسب. وبعد حصار استمر لشهرين تم القبض على دوج بنجة وأرسل للفاشر (سبتمبر ١٨٨٤) حيث منها أرسله زقل للمهدي.

وبإخضاع مقاومة جبل مرة لسلطة المهدية، توقفت أي مقاومة لها هناك لبعض الوقت. ووصلتنا تقارير بأن زقل قد أقام نظاماً عادلاً للحكم شمل كل المديرية وذلك على الرغم مما يقال بأنه كدس لنفسه ثروة معتبرة.

كان لبعد المسافة بين دارفور ورئاسة المهدي، والتي تحولت الآن لتصبح بجوار الخرطوم، ما جعل زقل حاكماً مستقراً على تلك المديرية بدون زعزعة وذلك حتى وفاة محمد أحمد في يونيه ١٨٨٥. أما بعد ذلك فقد اصبحت دارفور مسرحاً للعديد من المعارك الطاحنة. وأن ما كان ينطبق على جبال جنوب كردفان اصبح الآن مماثلاً لما يجري في تلك المديريات الغربية. وبالرغم من أن العرب الذين يرعون قطعانهم في كل وديان الجبال وأركانها كانوا مهدويين قلباً وروحاً إلا أن الزنوج واشباه الزنوج بالجبال لم يترددوا قط، في أي لحظة، من إظهار عدائهم لها. كان العنصران (العربي والزنجي) مثل الخل والزيت. وأثبتت أحداث السنوات السابقة بأنهم ما لم يقهروا بالحيل البارعة أو بالأعداد المتفوقة عليهم من الرجال فإن أولئك الزنوج الأشداء لم يتخلوا أبداً عن نقمتهم وإذدرائهم للعرب.

وعند الإنذار بالخطر فسرعان ما يلجأ الزنجي للسلاح. إذ أن أعدادهم التي قلصتها غارات صيد الرقيق عوضتهم بتجارب وخبرات قيمة لدى الباقين منهم. وفي عام ١٨٨٥، وعندما كان محمد أحمد سيداً على الخرطوم، وقد اختفت أخر آثار للمصريين ولنفوذهم، فقد ظلت صخور كدرفان ودارفور وكبكابية رافعة رؤوسها فوق طوفان المهدية وعلى رأسها رجال "كالحيوانات التي تقاتل وتأكل وتشرب لكنها لا تركع للصلاة أبداً".

***

بحر الغزال في ١٨٨٤

بنهاية عام ١٨٨٣ عاد لبتن بك إلى عاصمته ديم زبير. وبعد بضعة ايام من عودته وصلته أنباء تدمير هكس باشا وجيشه. ألقت هذه الأخبار الرعب في أنحاء المديرية. وشرع لبتن، والذي تحاصره المشاكل مع القبائل المحلية غضافة إلى تأكده من حتمية غسراع الذين دمروا هكس نحوه، مشرع في بذل كل جهد ممكن لمواجهة أي حصار طويل قد يتعرض له وهو الأمر الذي كان يدرك حتمية حدوثه. لم يكن لديه سوى القليل من السلاح والذخائر. وكان من قبل قد أرسل المدير إلى الخرطوم على الباخرة الإسماعيلية والتي وصلت هناك في الرابع عشر من يناير لكنها لم تعد إليه بعدها أبداً. لكن لبتن لم يفقد الأمل في وصول تعزيزات إليه. وكان يدرك بأن سلاطين قد يكون في

ضائقة أشد منه ولذلك لم يكن يتوقع سوى مساعدة ضئيلة منه. أما إلى الجنوب منه فقد كان أمين يواجه نفس الاضطرابات في مديريته، بل أنه أرسل إلى لبتن يرجوه دعمه بأي مساعدة تمكنه من إخماد تلك الاضطرابات. كان الخطر يحيط به يوماً بعد يوم. فقام بإرسال كبار موظفيه لجمع الذرة من مختلف المناطق: الفحل أفندي إلى كواكي، ومحمد أفندي كركساوي إلى ديم قوقو، وأبوجريو إلى بيكو. لكنه، وقبل أن يعودوا إليه، تلقى خطاباً من حسن أغا ناظر ليفي يفيد بأن شخصاً يدعى الشيخ كرم الله محمد قد وصل إلى حدوده ومعه قوة من ٥٠٠٠ رجل وفرمان من المهدي يعينه أميراً على بحر الغزال، وبأنه قد أرسل إليه للإستسلام، لذلك فهو يسأل لبتن عن تعليماته له.

وفي نفس وقت وصول هذا الخطاب جاءه خطاب آخر من محمد أغا كتمبور يحمل نفس المضمونز وبوصول تلك الرسائل المزعجة قام لبتن باستدعائهما وباستدعاء نواب الحكام الآخرين إلى العاصمة مع أوامر لهم بأن يجلبوا معهم كل الحاميات الموجودة في أطراف الإقليم. لكن الأنباء التي وصلته بعد ذلك أوضحت له بأن حاكمي ليفي وبيكو، مع كل رجالهم، قد أنضموا للثوار. تلى ذلك وصول رسائل من كرم الله إلى لبتن بك ولوكيله ولموظفين آخرين. وقد جاء في رسالته إلى لبتن طلباً بالاستسلام مصحوباً بمنشور المهدي المعنون إلى كرم الله والذي يعينه فيه أميراً على بحر الغزال. قام لبتن بك باستدعاء كل كبار الموظفين لعقد اجتماع لتدارس الوضع. وأوضح لهم بأن لديهم الآن بالمدينة حوالي ١٢٠٠ جندي نظامي وأربعة مدافع وأربعة صواريخ بأنابيبها ورجاهم بالصمود أمام حشود المهدي القادمة نحوهم. لكن القوات أعلنت له بوضوح بأنهم لا ينتوون القيام بأي مقاومة. أما نواب الحاكم، والذين كانوا جميعاً من الدناقلة، فقد أوضحوا له بأن اثنين من زملائهم قد انضموا من قبل للثوار وبأنهم يرغبون في أن يحذوا حذوهم. كان لبتن وحيداً في عزمه على الصمود. لكن لم يكن أمامه خيار سوى التوقيع على الوثيقة التي كتبها الضباط وغيرهم وأن يقوم بتسليم المديرية لكرم الله ثم اعتناق المهدية.

ولعل الخطابات التالية، التي أرسلها إلى أمين بك، توضح الحالة البائسة والقلق الذي عاناه لبتن خلال تلك الأيام العصيبة. وجاء الخطاب الأول، الذي كتبه من مشروع الرق في ١٢ أبريل، كما يلي:

عزيزي أمين. إن جيوش المهدي تعكسر الآن على بعد ستة ساعات مننا. لقد جاءني درويشان وطلبا مني تسليم المديرية إليهما. سأقاتل حتى النهاية. وقد نصبت المدافع في قلعة حصينة. وإذا ما نجحوا في الاستيلاء على المدينة فإنني آمل، من قلعتي، أن أقوم بطردهم. أما إذا ما خسرت المعركة فيستحولون نحوك. لذلك كن على حذر* ربما يكون هذا أخر خطاب مني إليك إذ أن وضعي يائس لأن رجالي قد تحولوا برمتهم إلى الأعداء. أعرف الآن باسم عبدالله لكنني عقدت العزم على كسب المعركة أو أن أموت. لذا أودعك وأرجو إبلاغ تقديري للدكتور بتكر. وإذا ما وصلت إليك أي بواخر فأرجوك أن تكتب لصدقائي وأن توضح لهم بأنني لاقيت حتفي مثل الطريدة. المخلص لك

(امضاء) ف. لبتون

أما الخطاب التالي، والذي كتبه بعد ثمانية ايام بعد ذلك فيوضح إذدياد مصاعبه وسرعة الأحداث:

---

* كان ذلك الأمير (كرم الله) تاجراً معروفاً في بحر الغزال من قبل. وهو رجل دنقلاوي كان قد اعتنق المهدية، لا عن قناعة دينية بل من أجل مصالحة في تجارة الرق. وكان قد شارك في معركة شيكان ومن بعد ذلك تم اختيار المهدي له لإخضاع تلك المديرية نظراً لمعرفته الوثيقة بها وبموظفيها.

٢٠ أبريل ١٨٨٤

عزيزي أمين بك، لقد هجرني معظم رجالي وانضموا لقوات المهدي. لقد ذهب إليهم الناظر بوكو والناظر ليفي، بكامل رجالهم، وأخذوا معهم ذرة الحكومة. لا أدري كيف سينتهي كل هذا. لقد أرسلت وازي اللر إلى معسكر المهدي. ولا أدري إن كنت أنا لبتن بك أم الأمير عبدالله. سأكتب لك عند عودة وازي اللر. العدو مسلح بالرمنجتون ومعه أربعة أو خمسة فرق من القوات النظامية وحوالي ٨٠٠٠ أو ١٠,٠٠٠ من العربان والجلابة وسأفيدك بقوتهم بالضبط عندما أتأكد من الأمر. لقد كتب لي سلاطين خطاباً من سطرين وقال فيهما أن "حامله هو الحاج مصطفى كرم الله وأنه يحمل الآن اسم عبدالقادر". المخلص لك

(امضاء) ف. لبتون

أما الخطاب الثالث فاشار إلى الوصول للنهاية الحتمية مما سبب حزناً عظيماً لأمين بك، والذي كن بدوره قد قطع الأمل في وصول أي مساعدة له:

٢٨ أبريل

عزيزي أمين. نتهى كل شيء بشأني هنا. كل من معي قد أنضم للمهدي وسيقوم جيشه باحتلال المديرية بعد غد ولا يمكن تصور ما مررت به في تلك الأيام القليلة الماضية. أنني وحيد تماماً. وسيخبرك حامل هذه الرسالة بكل التفاصيل. لقد سمعت بأن جيشاً لم يلاق هزيمة تامة مثلما لقيها الجنرال هكس. فمن بين ١٦٠٠٠ رجل لم يبق على قيد الحياة سوى ٥٢ منهم، وجميعهم من الجرحى. انتبه لنفسك، فهناك ما بين ٨٠٠٠ إلى ١٠,٠٠٠ رجل في طريقهم إليك وهم جيدوا التسليح. آمل في أن القاك. المخلص

(امضاء) فز لبتن

وهكذا تلاشت أخر بقايا للسلطة الحكومية في بحر الغزال

***

وقد حكى دكتور ينكر، والذي كان بالجوار منهم كما تذكرون، كيف أن سلوك لبتن كان مثيراً للإعجاب في تلك الظروف الحرجة. فقد كانت رسائله، والمؤرخة واحدة بعد الأخرى من كافة أنحاء المديرية تشهد بأنه كن مشغولاً دائماً، وفي كل مكان، بطراده لمعارضيه الأبقين. وكانت حربه التي استمرت لثمانية عشر شهراً مع الدينكا أكثر شراسة وتهوراً ودموية عن اشتباكاته التي جرت بعد ذلك مع المهدويين في المديريات الاستوائية. وقد وصف الصاغ عبدالله أفندي المحلاوي الظروف التي وأكبت الاستسلام كما يلي:

"بعد يوم من إرسال الخطاب الخاص بتسليم المديرية (٢١ أبريل ١٨٨٤)، وفي الثامنة صباحاً، وصل على مسافة قريبة منا كرم الله والذي كان في بيري على بعد أربعة

ساعات من العاصمة. توجهت ومعي كل رجال الحامية لمقابلته وتوقفنا على بعد ميل من المدينة. قام فرسان الثوار، وعلى رأسهم كرم الله، بالاندفاع نحونا بخيولهم وهزوا سيوفهم في الهواء فوق رؤوسنا ثم اندفعوا عائدين باتجاه حملة الرماح الذين كانوا بالمؤخرة. كرروا ذلك لثلاثة مرات ثم ترجل كرم الله من فرسه وترجلنا بدورنا وتبادلنا التحايا كالأصدقاء. لكن الفرسان واصلوا هز سيوفهم فوق رؤوسنا فقد كانوا في نشوة عارمة من جراء نجاحهم. ثم مبنى الحكومة بينما اصطف بقية رجاله حول المبنى. ثم استدعى لبتن ك وكل الضباط والموظفين ثم أخرج الخطاب الأصلي الخاص بتعيينه من المهدي وناوله له ثم دعاه للدخول في دين الإسلام وأن يتخذ (عبدالله) اسماً له، حسب تعليمات المهدي المكتوبة. رد عليه لبتن بأنه قد أعتنق الإسلام قبل ذلك لكن كرم الله لم يقتنع وأصر على إعلان إسلامه أمامه وأن يكرر وراءه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وبينما كان لبتن يكرر الشهادة قام الأمراء بسل سيوفهم وصاحوا في وجهه بصوت واحد (تمسك بدينك الجديد فأنت الآن واحد منا نحن الأنصار، كما أننا منك. ونحن الآن أخوة في الدين).

نفس الشيء تكرر مع الكاتبين من ألقباط، جبرائيل أفندي وصالح أفندي شنودة. ثم سأل لبتن كرم الله أن يأذن له بأخذ البيعة من المهدي وتقديم فروض الولاء له. وبعد ثلاثة ايام، وبعد أن ودعنا كرم الله قمت أنا ولبتن بك وعدد من الموظفين وعائلاتهم بالتوجه إلى شكا ومعنا حرس منهم. وصلنا غلى شكا بعد خمسة عشر يوماً وظللنا به لأحد عشر يوماً ثم توجهنا نحو الأبيض والتي وصلناها بعد عشرين يوماً. وهناك قابلنا الأمير عبدالقادر والذي توجه بنا إلى مكان موقعة شيكان حيث شاهدنا آثار المذبحة التي جرت هناك، وقام لبتن بك برسم كروكي عن مواقع المعركة. كان المهدي قد تحرك قبلنا صوب أم درمان لذلك ذهبنا وراءه بعد ثلاثة اسابيع ووصلنا إلى معسكره بالقرب من أم درمان حوالي الأول من أغسطس".

أما الخطاب التالي، الذي كتبه المعاون السابق كركساوي، شقيق كرم الله، إلى صديقه أحمد، فيلقي الضوء على الأحداث التي سبق وصفها ولكن من وجهة نظر أحد الثوار:

"بخصو المعلومات التي يجب أن أوضحها لك: ففي يوم وصول الأمير كرم الله شيخ محمد لنواحي بحر الغزال والمناطق المجاورة لسركوا، فقد تم تكليف خادمك في وظيفة (جامع المحاصيل) ولم نكن قد تسلمنا أبناءاً عن وصوله إلا من الخطاب الذي جاءنا من الأمير عبدالله، الذي يكني باسم بلتين* والذي طلب فيه مني المثول أمامه بمكتبه بالمديرية. وعند وصولي للمكتب المذكور كان يجب على التأكد مما سيجري لأنني بعد ذلك حاولت، ومعي الأمير عبدالله، الحصول على موافقة من هناك على الاستسلام بدون تأخير. وأثناء ذلك

* اسم لبتن بك المفترض.

حضر اثنان من الدراويش من قبل الأمير كرم الله وفي أيديهم عدة خطابات لنـــا ولــبعض الأخوان وللأمير عبدالله.

وبعد أن قرأنا تلك الخطابات بعناية، أوقف الأمير عبدالله تنفيذ عملية التسليم للأمير كرم الله لأنه لم يتلقى أي خطاب بعنوانه هو من صاحب السمو. لذلك قمنا ببذل كل ما في وسعنا لحثه على كتابة خطاب منه للأمير كرم الله ليرجو فيه منه أن يرسل خطاب سموه غليه حتى يــتم الخذ به وللأنتهاء من تسوية عملية التسليم. وهذا ما قد تم. فعندما كتب الخطاب تم تسليمه لي وتوجهت به لصحبة الدرويشين المشار غليهما أعلاه كما جاء معنــا الشــيخ وقيــع الله إدريس ومحمد سالم الشريف والحاج عمر، وكلهم من المقيمين في المركز وقد قــام الميــر عبدالله بتكليفهم للذهاب معي للغسراع باحضار المنشور الذي كتبه صاحب السعادة المهدي.

وعند وصولنا لمكان إقامة كرم الله، وبعد قراءته لخطاب الأمير المذكور (عبــدالله)، أمــر بنسخ صورة من المنشور وسلمه لي. وكذلك قام أولئك الذين جاءوا معي مــن المديريــة بكتابة رسالة بينما بقوا مع الأمير كرم الله. وعند استلام الخطاب المحرر من المــذكورين أعلاه عدت راجعاً إلى الأمير عبدالله والذي، وبعد قراءته بتمعن، وفي حضــور الأخــوان كلهم، غمرهم السرور وابتهجوا بهجة لا مزيد عليها.

وقد أطاع الأمير عبدالله خاصة ما جاء بالمنشور الوارد من سموه وبذلك تمت نعمة اللهن الذي لا معبود سواهن علينا.

كل الاخوان مشتاقون لرؤية صاحب السمو. لذلك تمت كتابة رسائل مــن الأميــر عبــدالله والأخوان، في صورة بيان بإعلان التسليم من جانبهم وبإبداء الطاعة والولاء للأمير كــرم الله، المعين بواسطة صاحب السمو المهدي. واستلمت الرسائل وذهبت إلى مدينة ياتيكا التي كان يعسكر بها الأمير المشار إليه أعلاه وسلمته الرسائل وبعد أن قرأها وقمها ظهر الحبور على وجهه وقام بتحرير رسالة للأمير عبدالله يفيده بأنه على وشك مغادرة مدينــة ياتيكــا وبأنه سيصل لرئاسة المديرية يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من جمادى الآخر ١٣٠١هــ والتزم فيه باتباع أفضل ما يمكن عمله تجاه الجميع وعوائلهم وأملاكهم. والحمد لله العلــي الكبير فأننا في اليوم المذكور فأننا وصلنا ومعنا الأمير كرم الله والقوات المنصــورة إلــى مسافة ساعة من مركز المديرية. وجاء الأمير عبدالله وكل كــرام المــواطنين والعــاملين والأخوان لمقابلتنا خارج الحصن الخشبي الذي يحيط بالمديرية. كان اللقاء حميماً مثل لقاء الأخوة والصدقاء والأعزاء وكان يوماً مشهوداً غمرنا الفرح فيه جميعنا.

وعند دخولنا للمحكمة بالمديرية، وبعد جلوس الأمراء والأصدقاء، نهض الأميــر عبــدالله وانتصب واقفاً ونطق بالشهادتين "اشهد ألا إله إلا الله واشهد أن سيدنا محمداً رســول الله، صلى الله عليه وسلم، وبأن السيد محمد ابن السيد عبدالله هو المهدي وخليفة الله ورسوله" ومن ثم قام القبطيان جبرائيل وصالح شنودة بإعلان إسلامهما ونطقا بالشهادتين أمام الأمير كرم الله (والذي قبل اشتهارهما للإسلام).

بعد ذلك اصبحت كل البضائع والمخزونات والثروات التي بالمديرية أو خارها من أملاك خزينة الغسلام وتم إدراج ذلك في رسالة الأمير كرم الله الموجهة لصاحب السمو.

نسأل الله العلي القدير أن يمنحنا سريعاً شرف الهجرة إلى المكان الشريف وأن يمتع أبصارنا برؤية صاحب السعادة المهدي وأن يشملنا بالانضمام إلى المحاربين في سبيل الله.

ومن هنا فأنني أرسل لصحاب السعادة الحنفاء والسادة والأمراء والصدقاء وكل معارفنا المجاهدين في سبيل الله، آلاف السلام من الله طالما كنت على قيد الحياة.

(امضاء) محمد شيخ محمد

كتب في ١٧ رمضان ١٣٠١

١١ يوليه ١٨٨٤

أما الخطاب التالي المحرر من كرم الله إلى كبير خلفاء المهدي، عبدالله التعايشي، فيصف الأحداث في بحر الغزال بعد سقوطها. وهو خطاب مثير للاهتمام ويدل على غبطة كاتبه لتحرره من القيود التي طالما كبلت تجارة الرق*:

بسم الله ... إلخ

من عبدربه الفقير كرم الله شيخ محمد ببحر الغزال إلى صاحب المهدي وأمير جيوشه الخليفة عبدالله ابن السيد محمد أدام الله عزه. وبعد تقديم احر السلام وأجل الاحترام، فإذا سألت عنا فنقول الحمد لله جل جلاله، فكل شيء على ما يرام ولي الشرف لإبلاغكم بأنا استلمنا عدداً كبيراً من الأرقاء الاناث ضمن الغنيمة وأننا أرسلنا حوالي ١٣٦٠ رأساً منهم إلى شكا بمن فيهم ٢٠٠ عبد من قناوي (من عليو) وقد تم ذلك على ثلاثة دفعات فالمرة الأولى كانت في قافلة يقودها الفقير أحمد محمد الشايقي. أما المجموعة الأكثر عدداً فقاد قافلتها شقيقنا محمد شيخ محمد كركساوي. والثالثة بقيادة المرشد محمد محمد صالح التوم الذي احتجنا له ليقوم بشراء خيول (بقيمتهم أو بالمقايضة) لقواتها وذلك بمعرفة أخينا محمد كركساوي. أما الذين سيتم إرسالهم إلى معاليكم بالمعسكر الشريف فبمعرفته أيضاً لأنه عين أساساً لهذا الفرض. كذلك تم توزيع من معنا من الفقراء والعساكر لمختلف الزرايب لجمع الغنايم. وبإذن الله سيتم إرسال كل ما تتسلمه إلى شكا. هذا ومحمد شيخ محمد كركساوي هو أخي لأمي وأبي وهو أكبر مني سناً وهو الذي ساعدنا لاستلام مدينة بحر الغزال. ونظراً لحسن إدارته فقد قمنا بتعيينه للقيام الشكا لمقايضة العبيد بالخيولز أما الذين سنرسلهم لسعادتكم فسيتم ذلك بمعرفته وطبقاً لتعليماته. ولأن العبيد الذين عنمناهم كثيرون جداً في هذه الجهة، ويتوارد وصولهم باستمرار إلى معسكر المدير، فإننا نعاني ضغطاً شديداً للقيام برعايتهم ومن بعد توزيعهم.

---

* تخبط المؤلف عند سخريته من (غبطة كاتبه) حيث ذكر بنفسه أن أولئك الأرقاء كانوا غنيمة، أي تابعين للبتن بك ولقناوي، كما لم يشر إلى إباحة غردون للرق عند قدومه.

فإن كان ذلك موافقاً لسعادتكم فأرجو الكتابة إلى شـيخ منـزل حامـد ولأولاد حمـد دودو لتعاونهم الكريم معنا ولقيامهم بتسليم الغنايم لأخينا شيخ محمد كركساوي. ونحن الآن فـي انتظار تعليمات سعادتكم إما للبقاء هنا أو للحضور إليكم أو الانتظار حتـى جفـاف ميـاه الأمطار وذلك من باب الشفقة على المؤمنين العبيد الذين لديهم أطفال صـغار. نسـأل الله العلي القدير، الذي نحمده، لاحضارنا سريعاً إليكم ولقاء سعادتكم.

والسلام

(امضاء) كرم الله محمد

مؤرخ ٢٢ شعبان ١٣٠١

١٧ يونيه ١٨٨٤

***

سنترك الآن مديرية بحر الغزال والتي، بعد الحادي والعشرين من أبريل، اصـبحت جـزءاً أصيلاً من أملاك المهدي المتزايدة باستمرار. ففي هذه المديرية الشايعة، التي تبلغ مساحتها خمسـة أضعاف مساحة انجلترا، لم يعد هناك اي أثر للنفوذ المصري. فقد غرق كـل شـيء تحـت أمـواج المهدية، والتي تنداح الآن شيئاً بعد شيء لتغمر سهولها الواسعة، حاملة معها في طريقهـا أعـداداً كبيرة من الأرقاء لإشباع الحوجة الماسة لهم في بيوت محمد أحمد وخلفائه وأمرائه.

***

المديريات الاستوائية

(١٨٨٤)

حتى نهاية عام ١٨٨٣ كان أمين بك لا زال في اللادو، يراقب بقلق شديد العصيان المتزايد في بحر الغزال والذي شعر بأنه من المحتم، وقبل مرور وقت طويل، سيهبط علـى مديريتـه. وفـي الثالث والعشرين من يناير وصل دكتور ينكر إلى لادو حيث رحب به أمين بك بسرور وبفرح لا حـد له. كانت الأحوال في مديرية الرول لا بأس بها رغم الخلاف الذي نشأ بين المـأمور وبـين كاتبـه بخصوص الاضطرابات الأخيرة في رمبيك. فقد عزا الأخير السبب في انتقام الأهالي الأجار لتعليمـات المأمور للقوات بالقيام بشن الغارات عليهم للاستيلاء على أبقارهم وذلك بالرغم من أن الاجار كانوا حتى تلك اللحظة من الموالين تماماً للحكومة. ازدادت حدة الخلافات واضطر أمين بـك إلـى أرسـال اليوزباشي الحم أفندي لتسوية المسألة. لكن الأخير تضامن مع الكاتب. لذلك اتصل المأمور بأمين بك لتسوية الأمر فقام بارسال نائب المامور عثمان أفندي لطيف والذي، بعد قيامه بالتحري في المسألة، أبلغ فقط بأن احتكاكات ليست بالسهلة كانت تنشب بين مختلف الموظفين لتقود بعدها إلى نتائج فـي غاية الخطورة.

ففي ١٨ فبراير كتب نائب المأمور، من الرول، إلى أمين بك وذكر له بأنه تلقى تعزيـزات من حوالي ٤٥٠ رجلاً من بحر الغزال وبأنه يأمل أن يقوم بهم لفتح الطريق من رمبيك إلـى جـوق الحسن. وعند تلقي أمين بك لهذه الأنباء أمر نائب المدير للتحرك فوراً نحو رمبيك ومنها إلى شامبي بعد أخذ كل ما يمكنه أخذه معه من القوات. لكن الضابط الذي كان يقود فصيل الدعم من بحر الغـزال رفض أن ينضم لهذه المهمة إلا إذا تسلم أوامر من الحاكم (لبتن).

ولما تواترت الإشاعات بأن القبائل المجاورة لشامبي قد أعلنت الثورة فقد عـاد مسـاعد المأمور إلى رمبيك وشرع فوراً في استعداداته للدفاع عنها.

أثناء ذلك تلقى أمين بك رسائل من لبتن في السابع والعشرين من مارس يبلغه فيها بـأن مديريته قد أصبحت في حالة من الثورة والعصيان وأن كثيراً من محطاته كانت تعاني الأمرين. لـذلك قام بإرسال تعليماته لضابط فصيل بحر الغزال بالعودة فوراً وأن يأخذ معه عدداً من الأبقـار لإمـداد الحاميات بها. وفي نفس الوقت أمر نائب المأمور التابع له للعمل على مساعدة بحر الغزال ودعمهـا بالطعام بقدر الامكان.

وفي ٢٨ مارس وصله خطاب آخر من لبتن يحمل نبأ الكارثة التي حلت بجيش هكس باشا، وباستسلام سلاطين بك، وبأنه هو نفسه يعمل ما في وسعه للدفاع عن مديريته. كانت تلـك الأنبـاء الخطيرة بمثابة ضربة موجعة لأمين حيث قام في اليوم التالي بإرسال تعليماته إلـى كافـة محطاتـه الخارجية للانسحاب نحو مراكز محددة. كان على حامية اللاتوكا أن تنسحب إلى أيو، وحامية فـويرا إلى وادلاىن وحامية فاديبك إلى دوفيللي. كذلك أرسل تعليماته إلى حامية فاديبك إلى دوفيللي. كـذلك أرسل تعليماته إلى حامية بور لبذل كل ما يمكن لاستمرار فتح الطريق إلى السوباط.

وأثناء تلك الفترة قام مأمور الرول بمحاولة ثانية للتقدم نحو شامبي لكن ثورة القبائل هنـاك أعاقت أي امكانية له للوصول لذلك المكان. عاد مساعد المدير الآن إلى اللادو. وخلال الطريق، فـي اياك، تسلم عدة رسائل من كرم الله/ كتبها من بحر الغزال، يطلب فيها من أمين تسليم المديرية وأبلغه فيها باستسلام بحر الغزال ودارفور وكردفان. كانت الرسائل الخمسة موجهة لأمين بك، ولمـأمور مكراكا، ووكيل شامبي، ووكيل رمبيك، ولمساعد المدير. وقام الأخير بإرسال كل الخطابات فوراً لأمين بك، بينما توقف هو في أياك. وكان أمين بك قد تسلم قبل ذلك خطابات لبتن بك الثلاثة والتي أخبـره فيها باستسلامه المرتقب. لذلك، وبعد تلك الرسائل الأخيرة من كرم الله والتي تسلمها أمين بك في ٢٧ مايو، تبين له أن محاولة المقاومة لقوات المهدي تبدو في حكم المستحيل. ومن المستحسن هنـا أن نشير غلى مقتطفات من رسائله التي تصف الأحداث التي تلت مباشرة تسلمه لرسائل كرم الله (التـي تدعوه للاستسلام). فقد قال أمين:

> لقد استسلمت مديرية بحر الغزال لجيوش المهدي بعد هجران كل رجال لبتن له. وقد كتب لي كرم الله قائد جيش الاحتلال، بأن كل السودان قد ضاع، وبأن الخرطوم تحت الحصار، وبـأن هكس وعلاء الدين و ٣٦٠٠٠ من رجالهما قد سقطوا، وبأنه يدعوني للحضور إليـه علـى الفور واستسلامي له.

سيكون من الحماقة أن أقاتل بدون أن تكون لدي بنادق أو ذخائر أو رجال يعتمد عليهم بينما الدناقلة من أمامي ومن خلفي. لذلك سأتوجه للبحر الغزال يوم الأثنين.
لقد قرر يونكر أن يحاول (الخروج(عن طريق زنجبار، مروراً بمركز إقامة موتيسا. وفقه الله. إنني أرسل هذا الخطاب معه وأرجو أن تجدوا مكاناً لي في أفكاركم وتذكروني.

المخلص لكم

دكتور أمين بك

٢٧ مايو ١٨٨٤

ويبدو مؤكداً أن هذا الخطاب ق كتب بعد انفضاض الاجتماع مع المسئولين، والذي كان قد عقده للبحث في الوضع الراهن. لكنه كتب في الرابع عشر من أغسطس، بهدوء ورباطة جاش، خطاباً يوضح فيه ما دار في الاجتماع وكيف أنهم منعوه من الذهاب إلى كرم الله. وقال:

تصور وضعي الآن. فلأربعة عشر شهراً لم يتم أي اتصال بيني وبين الخرطوم أو تصلني اي أخبار منها. لقد صارت المخازن والدكاكين وغيرها. ورغم أنني كررت مراراً في رسائلي لهم أمدادي بشحنة من بضع مئات من بنادق الرمنجتون، مع كمية كافية من الذخيرة، فانني لم اتسلم شيئاً منها. كل مناطق وكاراكا والرول وأقسام من مونبوتو مكتظة بالدناقلة المسلحين. أما في اللادو نفسها فحدث ما تشاء عن السكارى والمقامرين، والذين في معظمهم من أقارب الثوار ومن كتبة ديواني الحكومي. لا تبدو الاحتمالات مشرقة. فجنودي، الذين لا قيمة لهم بأي حال، مبعثرين في أنحاء شاسعة من الإقليم ولن يتم سحبهم إلا باتخاذ الحيطة والحذر الشديدين.

تبعاً لذلك فقد سألت ضباطي هنا، في اجتماع مفتوح، إذا ما كان من المرغوب فيه أن نستسلم أو أن نستعد للقتال. ولكن لا يشك أحد فيما سيكون ردهم. وخلاصته هو الاستسلام. لذلك كتب خطاب بهذا المعنى ثم تشاورنا فيمن يوصله. وقع الاختيار علي أنا ومعي القاضي وناظر المدرسة وبعض الرجال الذين معنا، ومنهم أحد الكتاب العاملين معي والذي لعائلته نفوذ عظيم بيد الدناقلة.

إنني إدرك الآن تماماً بأن أبعادي سيفتح الطريق للفوضى والطغيان، وبأن نزول دناقلة وكاراكا إلى اللادو سيحول المديرية كلها إلى خراب. ومن الناحية الأخرى فإن من الحماقة ألا أقوم بالمهمة الموكلة إلي أو برفضها رغم أن من الواضح بأنني لن أعود ثانية إلى هنا إذا ما توجهت للبحر الغزال، بل سيتحتم علي أن اذهب غلى كردفان مثل لبتن. ووسط كل هذا التشويش، والذي ذاد من حدته ندرة الذرة، نشبت الحرائق في بونيه، بالقرب من المستودعات، وفي وقت وجيز دنرت النيران عدداً كبيراً من المنازل والأكواخ وخاصة التي يقطنها الكتاب الأقباط. وفي الماضي كان كل واحد يمد يد المساعدة في مثل تلك الظروف، ولكن التعصب أظهر وجهه القبيح هذه المرة وكان لابد لي من اللجوء للعساكر لإطفاء النيران. وعندما سألت أحد الكتبة المسلمين لماذا

لم يساعدنا أجابني "لأنهم نصارى فليحدث ما يحدث لهم". وفي مواجهة ذلك قررت عقد اجتماع آخر حضره الجميع وأوضحت فيه حقائق الوضع وأكدت لهم بأن غيابي عنهم سيكون سبباً للأذى ولتردي الوضع واقترحت أن يكون القاضي رئيساً للوفد بدلاً عني. والغريب في الأمر أن هذا الرجل دعم ما اقترحته ووافق عليه ومن ثم سافر الوفـد. كانت التعليمات التي حملوها كالآتي:

"يجب الحفاظ على الوضع الراهن في المديرية حتى تصل المراكـب والبـواخر التـي ستحملنا للخرطوم. ويجب ألا يتم غذو المديرية بأي حال. وفوق كل شيء يجب عـدم ممارسة أي عنف أو السماح به ضد الجنود السودانيين" ولقد تم وضع هـذا الشـرط على ضوء وصول رسائل معينة تلقي الضوء على الوضوع القـادم. فلقـد وصـلت الرسائل في نفس الوقت مع خطاب من كرم الله إلى الدكتور ينكر دعاه فيه إلى العودة فوراً إلى واو واستلام مجموعاته هناك، والتي تركها بوندورف، إذا لم يرغـب فـي إعطائها للزنوج. كما كانت هناك رسائل من كرم الله غلى مختلف المسئولين (الدناقلة) وكانت عبارة عن نسخ من الرسالة التي جائتني، لكنها موجهة لهم. كان فحواها دعوة لهم لتجاهل السلطة الحكومية الرسمية والفرار مع رجالهم إليه. ثم كان هناك خطـاب آخر باللغة الإنجليزية من لبتن بك إلى ينكر جاء فيه أن الحكومة قد سلمت فشـودة. وأخيراً جاء خطاب رسمي من قائد محطة أياك قال فيه أن ثلاثـة جنـود سـودانيين شجعان قد هربوا إلى ذلك المكان. كما أنهم أحضروا بنادقهم معهم. كان أحدهم فوني، مراسلة لبتن السابق، وهو رجل يوثق به ويبدو أنه ينتمي لهذه المديرية لكنه كان قد تابع لبتن ومضى معه إلى بحر الغزال. حسناً. فقد ذكر هؤلاء الجنود، فـي حضـور المسئولين، بأن لبتن ما خانه إلا رجاله الذين كانوا على اتصال وتواثق مع الثوار منذ وقت طويل، وبأن الدناقلة وفور احتلالاهم للمديرية، قد قاموا باحراق كل المسـتندات والدفاتر الحكومية واقتحموا المخازن وسلبوا محتوياتها واستولوا على كـل السـلاح والذخائر التي كانت بها أو التي كانت عند الجنود وباعوها لمن يدفع أكثر أما نقـداً أو مقابل العبيد ثم ما لبثوا أن وضعوا قيود العبيد على كل الجنود وكبلوهم بهـا وكـانوا يلقون الطعام الشحيح لهم في حفر نبشوها في الأرض. وفي خلال بضعة ايـام قـاموا ببيعهم علناً أو بتسليمهم لمن أدعى ملكيتهم من الدناقلة باعتبار أنهم كانوا من عبيدهم السابقين. ولك أن تتصور كيف أنني غبطت نفسي لقراري بعدم الذهاب إلى بحر الغزال".

كان الانطباع الذي ساد الحاضرين لذلك الاجتماع، أو توصلوا إليه، هو أن يقوم أمين بمسايرة كرم الله حتى يتسنى له كسب الوقت لتجميع قواته. وما التوضيحات التي جاءت أعلاه إلا توضـيحات تؤكد هذا الرأي. وفي الثالث من يونيه غادرت البعثة، التي ستقوم بالتسليم للكرم الله، اللادو. وكانت مكونة من التالية أسماؤهم:

القاضي، عثمان حاج حمد

الباشكاتب، عثمان أرباب. وهو ابن عم للمهدي

الكاتب، محمد بابا

المأمور السابق للاتوكا، إبراهيم أغا

وتوجه معهم لحراستهم فصيل من الجنود السودانيين بقيادة الملازم ثاني موسى أغا حمد. وقد قيل بأن القاضي، قبل مغادرتهم، قد "وجه أمين بك كتابه، بأنه طالما آلت كل ممتلكات المديرية للمهدي فإن عليه إلا يصرف منها أي شيء بخلاف الذرة والعسل والزيت".

وتم توجيه أمر لنائب المأمور، الذي لا يزال في أياك، لسحب حامية رمبيك إلى أمادي، إذا ما رأى أنه من المستحيل عليها الصمود أمام كرم الله، والذي أفادت تقارير بأنه يتقدم نحوها الآن. أما إبراهيم أغا، مدير وكاراكا، والذي كما نذكر كان قد أرسل إلى رمبيك وشامبي عند باكورة الاضطرابات، فقد عاد الآن إلى لادو ومنها حصل على إذن للتوجه إلى مكاراكا. وعند وصوله إليها توجه إلى واندى وقام بنهب المستودعات ثم أغرق المركب في (نهر) ياي وتحرك مع مجموعة من الدناقلة، عبر مكراكا الصغيرة وكباينديى، إلى كدورما حيث توقف فيها لبرهة تمهيداً للفرار إلى بحر الغزال للانضمام لكرم الله. وفيما بعد توجه نحو دوجورو في إقليم لتونج حيث يبدو أن الفروخ (الصبيان حملة البنادق) قد ثاروا على الدناقلة والعرب بجور غطاس. وكان الأخيرون، يقودهم برنجي زبير، وهو سنجق كان يعمل مع الزبير باشا، قد قاموا بنهب التونج وقاموا الآن باعتراض طريق إبراهيم أغا في دوجورو وقتلوه (لكن البعض زعم بأن الذي قتل إبراهيم أغا هم رجال حامية قوزا والذين كانوا يعلمون بفراره). أثناء ذلك تم طلب التعزيزات من دوفيللي ولابوري وموجي وكيري ومكراكا إلى أمادي. وأمرت حاميات رمبيك وأياك أيضاً بالانسحاب إلى أمادي بينما أرسلت التعليمات للحاميات الطرفية في قورقورو (مونبوتو) للتجمع في مكراكا*. والآن أكتملت كل الاستعدادات للقيام بمقاومة عنيدة لجيوش كرم الله المتقدمة نحو أمادي. وبلغت أعداد القوات من تلك المحطات حوالي ١١٠٠ رجل معهم أربعة مدافع وبطارية صواريخ. وكانوا جميعاً بقيادة مرجان أغا الديناصوري.

أما حاميات ما تبقى من المحطات فكانت قوتها تقريباً كالآتي:

في اللادو ١٠٠

في مكراكا ٢٠٠

بقيادة اليوزباشي فرج أغا يوسف.

في دوفيللي ٢٠٠

بقيادة الأدجوتانت ميجر (صاغ) حواش أفندي منتصر. أما بقية المحطات البعيدة إلى الجنوب فكانت حامياتها مكونة من ثلاثين إلى خمسين رجلاً لكل منها.

اعترت شامبي الآن كالضائعة ولم تصل أي أخبار عن حامية بور لأكثر من عام. ولكن، وفي الرابع والعشرين من أغسطس، انفرج كرب أمين بك بوصول ثلة من جنود تلك المحطة والذين قدموا له أنباء طيبة عما يحدث هناك وذكروا له أن الصندل، الذي كان أمين قد أرسله بالمؤن لفك الضائقة عن شامبي، قد وصل بدون خسائر إلى بور. وبأن قسماً من حامية شامبي قد تمكن من الانسحاب إلى تلك المحطة. وقد أفاد قائد حامية بور بأن هناك شائعات بقدوم عدة بواخر على النيل لكنها أضطرت إلى الرجوع لفشودة من جراء قفل المجرى بالأعشاب (السد).

---

* لوجود اضطرابات في مونبوتو فلم تصل هذه الحامية إلى مكراكا إلا بعد عدة شهور.

وأسرع أمين بك للاستفادة من هذه المعلومة وقام بتعميم إعلانات وزعها في أنحاء المديرية، تفيد بأن الامدادات هي في طريقها إليهم قادمة من الخرطوم.

وأثناء ذلك وصلت حامية رمبيك، التي كانت قد انسحبت إلى أمادي، إلى أياك. وعندما علمت بأن قوة من الثوار تتواجد في صيادين، قاموا بمحاولة لطردهم منها خسروا أثناءها قسماً كبيراً من عتادهم الحربي. وبالرغم من هذه النكسة الخفيفة فقد وصلت حاميتي رمبيك واياك إلى أمادي سالمين بحلول التاسع عشر من نوفمبر.

وفي هذه الفترة أرسل كرم الله قسماً من قواته إلى أمادي تحت قيادة عبدالله عبدالسلام (المأمور السابق لبحر لغزال) والطاهر أغا وقد سار معهم عدد كبير من البازنجر كانوا جميعهم مسلحين ببنادق الرمنجتون. قاموا بهجوم على المدينة في الحادي عشر من الشهر ولكن تم صدهم عنها. عاودوا الهجوم كرة أخرى في الرابع عشر لكنهم تكبدوا خسائر جسيمة هذه المرة وقتل منهم الضابطان العجب أغا صالح وسرور أغا إبراهيم الذان كانا قد فرا من المديرية قبل ذلك (وانضما إلى الثوار). وفي السابع عشر من الشهر قاموا بهجوم ثالث لكنه فشل أيضاً. وفي الثاني من ديسمبر قامت الحامية بشن غارة على العدو واقتحمت معسكره وكبدته خسائر كبيرة. لكن الأعداد الكبيرة من الثوار أجبرتهم على التراجع وكبدتهم خسائر بلغت ١٢ ضابطاً قتلوا و١٨ جندياً جرحوا.

وقد تكبد زنوج الأجار، الذين كانوا قد انضموا للدناقلة، خشاسر كبيرة في تلك المعركة لكن الحامية تمكنت من الانسحاب إلى قاعدتها في أمادي وأحضرت معها كل الجرحى بسلام. وقام أمين، الذي كان يأمل في طرد الثوار الذين كانوا يحيطون بأمادي، بالعمل على أرسال تعزيزات، في أواخر ديسمبر، مكونة من ١٦٥ بازنجر وغيرهم من الجنود المسلحين بالبنادق ومعهم حوالي ٨٠٠ محارب من البومبي والمورو والمكاركا المسلحين بالرماح والتروس وذلك انطلاقاً من أمادي نفسها. كما أنه تلقى في حوالي تلك الفترة رسالة من كرم الله اشتملت على جبة المهدية والطاقية. لكن ضبط الحامية، الذين ظنوا أن هذا الزي مسحور، قاموا باحراقه قبل وصوله لأمين.

ومن السادس والعشرين من ديسمبر وصلت الأنباء المخيفة التي تفيد بأن حامية بور تم استئصالها تقريباً عقب غارة عنيفة وقام أمين على الفور بإرسل مركبين شراعيين محملين بالجنود وبالذرة والذخيرة مع ملحوظة منه بأنه من المشكوك فيه أنهم سيصلون إليهم في الوقت المناسب لانقاذ المحطة.

وحتى اللحظة فإن إقليم مكاراكا لا زال هادئاً نسبياً وهو الأمر الذي قد يعزى لحد كبير لوجود الكابتن كاساتي هناك، والذي كان متجولاً في مونبوتو. ولكن عندما نشبت الاضطرابات هناك قام أمين بنصحه بالعودة بالقرب من رئاسة المركز.

وعند أواخر العام نلاحظ أن أمين لا زال يأمل في "رغم كل الأحداث الماضية فأنه، ورغم كل شيء، سيتحرر من مشاكله تلك فور وصول الباخرة من الخرطوم". لقد حول لادو إلى قلعة محترمة ذات خنادق عميقة ومتاريس مرتفعة ومزاغل وقناطر متحركة .. إلخ. وقد علق قائلاً: "إذا ما كان علينا أن تموت بعد كل هذا، فأننا على الأقل سنموت ميتة الجنود المشرفة وأنني اعتقد بأن ذلك لن يكون بعيداً".

***

سنار، ١٨٨٤

لابد هنا من الإشارة السريعة للأحداث التي مرت بالمناطق المجاورة لسنار، والتي كما نذكر، كانت محاصرة بأحكام بطريقة أو بأخرى منذ عام ١٨٨٣. وفي مايو ١٨٨٤ قام عدد من القبائل التي تجاور المدينة بالتجمع والحشد تحت راية الأمير أبو الحسنة وحاولت قطع الإمدادات عنها. وفي يوليه قام المدير حسن بك صادق بمهاجمة الثوار وطهر المناطق المجاورة منهم لبعض الوقت وتمكن من جمع كمية كبيرة من الذرة. وفي ٧ أغسطس وصل إلى جادين، التي تبعد ١٢ ميل شمال سنار، بخيت بك بطراكي، الذي كان غردون قد أرسله للحصول علي مؤن، حيث قابل المدير. وبعد أن ملأ بواخره تماماً عاد إلى الخرطوم.

وفي أواخر سبتمبر وصل نصحي باشا إلى نفس المنطقة وتم إمداده أيضاً بكميات من الذرة. وفي هذه الأثناء تلقي غردون شكاوى ضد المدير وقام بالتالي بإرسال تعليمات مع بطراكي بك إلى النور بك، الذي كان قائداً للقوات وأحد ضباطه السابقين، بأن يتسلم القيادة العليا للجيش هناك. وأضاف لتعليماته بأنه إذا ما أبدى المدير أي شعور بعدم الرضا فأن عليه إحضاره للخرطوم

وبنهاية أكتوبر تلقي غردون الرسالة التالية من حسن صادق:

"من مدير سنار

إلى حاكم عام السودان وملحقاته، إلى سعادة صاحب المقام الرفيع لقد ذكرنا لسعادتكم بأننا في السادس من أكتوبر قد تشرفنا باستلام أوامر سعادتكم، المؤرخة ٢٤ سبتمبر، والتي تشير إلى وصول تسعة أفواج من شجعان الجيوش الإنجليزية ومسلمي الهند – مدفعية وفرسان ومشاة الجيش – المدربين على عبور الجبال والسهول والأماكن الوعرة ومعهم مدافع جديدة وخيول قوية. وعند قراءتنا ذلك للجمهور ونشره في الأنحاء حدث سرور عظيم وسعادة للجميع وتنبأوا بكل خير وكل منفعة وكلهم يصلون ليكتب الله الظفر والنجاح لك وللجيش. والحمد لله أنهم وصلوا بربر واستلموها ووصلوا الخرطوم. وكل الناس في سنار وما جاورها، من العلماء والتجار والمواطنين وذوي النفوذ والضباط والجنود، يقبلون أيدي سعادتكم. وأننا نتمنى لسعادتكم، بعون الله وتوفيقه، وعون رسوله عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام، أن تتوقف إضطرابات السودان وإدعاءات المهدي وألا يبقى بعد ذلك منها إلا اللمم في بعض المناطق، وأن يخضع الجميع لسيف الحكومة.

ومن الله النجاح وبه التوفيق

(إمضاء) حسن صادق

مدير عموم سنار

مؤرخ في ١٨ ذو الحجة ١٣٠١هـ

(٩ أكتوبر ١٨٨٤)

حاشية:

إلى معاليه:

ترجو من سعادتكم الأمر بسرعة إرسال باخرة لإحضار ما سألناكم له بخطابنا المقدم لكم بالنمرة ١٤/٣٩".

ورغم الحالة المرضية التي وصفناها، فلازالت الغيرة تعمل عملها. وفي نوفمبر ١٨٨٤ عمل النور بك على حبس المدير في منزله.

وفي هذا الشهر تجمع حشد آخر للثوار تحت قيادة الأمير المرضي أبوروف* وبنهاية الشهر قام النور بك، مع قوة من ٧٠٠ رجل، بالهجوم علي المرضي. لكنه أجبر على التراجع نحو سنار بعد أن فقد عدداً من الضباط والجنود. وقام الأمير المتمرد بالزحف نحو سنار واتخذ موقعاً له في كبوش وقطع كل الإتصالات بين سنار والخارج وعادت المدينة مرة أخرى تحت الحصار.

***

سواكن بعد أحداث التيب وغيرها

عودة إلى مجرى الأحداث في شرق وجنوب شرق السودان.

فبعد سحب القوات البريطانية، بقيادة الجنرال قراهام، تم تعيين الميجر شيرمسايد حاكماً على سواكن وذلك في ١٠ مايو ١٨٨٤. وكان عثمان لازال نشطاً بالمناطق المجاورة بينما كانت القلة من القبائل الصديقة عاجزة بالفعل عن الوقوف أمام تحالف الهدندوة. وكانت حامية سواكن تتكون من الكتيبة الأولى للجيش المصري الجديد الذي أعيد تنظيمة، وبعض الفرسان والمدفعية تدعمهم البحرية البريطانية الحربية. وكانوا كافين بالكاد للدفاع عن المدينة.

ولعدة شهور كان الحال صورة للإزعاج الليلي المستمر, والذي أبلت فيه القوات المصرية الجديدة بلاءاً حسناً وأظهرت مقدرة على الدفاع وضح جلياً في ما سبق من أحداث.

وبعد بضع شهور أظهرت أحدى أهم القبائل المجاورة (لسواكن)، وهم الأمرأر, عداءاً ضد الهدندوة وحدثت عدة نزاعات قبلية بدرجة أو أخرى من النجاح. لذلك، ورغم أن سواكن استمرت في حالة من الحصار إلا أن عثمان دقنة لم يستفق من تأثير أحداث التيب وطماي بما يمكنه من مهاجمة المدينة بالقوة.

وأثناء ذلك إنغمس الميجر شيرمسايد في مهمة ذات صعوبة وحساسية وتحتاج للكياسة. كانت هذه المهمة هي في حث ملك الحبشة يوحنا للقيام بإنقاذ الجنود المسلمين في الجيرة وكسلا وأماديب والقلابات. وبعد أن أشتكى له الملك من المصاعب, التي يعلم بأنها لانهاية لها, تقدم له بالتماس للحصول على ١٠٠٠٠ بندقية وذخائرها مع ٣٠٠٠٠٠ دولار. كان راغباً حقاً في قتال

---

* هو زعيم العرب الرفاعة. وكان إسمه الأصلي (المهدي) ولكن بعد أن أعلن محمد أحمد رسالته المقدسة أمر ذلك الشخص المرموق بتغيير اسمه إلى المرضي.

العرب. وبعد تبادل واسع للرسائل, وصبر من جانب الميجر شيرمسايد, بدا علـى الـرأس ألـو لا, الجنرال الحبشي، أنه مستعد للقتال.

وقد أنبني دور الميجر شيرمسايد في هذا الأمر على ما يمكن تسـميته بمعاهـدة، أبرمهـا الأدميرال هيوت وما سون بك مع الملك يوحنا. فقد غادر الأدميرال مصوع يوم السابع مـن أبريـل ١٨٨٤ إلى داخل الحبشة.

ونصت المعاهدة, التي وقعت في عدوة يوم ٣ يونيه ١٨٨٤، على أن يتسلم الملـك إقلـيم بوغوص، التي تقع فيه حامية سنهيت أوكرن, والذي كان من قبل إقليماً حبشياً. فهو سيتسـلم هـذا الإقليم والمباني والمخازن في سنهيت عندما يعمل على تسهيل إخلاء حاميات كسلا وأماديب, وكـان معلوماً أن حرصه على إعادة ضم بوغوص سيعجل بعملية الإخلاء.

***

كسلا خلال ١٨٨٤

في تلك الفترة قام مدير التاكا, أحمد بك عفت بكتابة طلب مـن كسـلا، فـي ٢٩ مـارس ١٨٨٤, يستعجل فيه بشدة إرسال تعزيزات له، وموضحاً بأن غردون باشا قد أخبره بـأن القـوات البريطانية قادمة إليه. وكان هو والأهالي في غاية السرور بذلك الخبر. بل أنه أبلغ قائلاً بأن بخيـت بك, زعيم البني عامر, قد قام مع أعرابه بتقديم أقصي مساعدة، له وبإخلاص شديد.

وكتب المدير مرة أخرى في مايو بأن الحصار قد شدد عليه, وأنه يكاد أن يفقـد الإتصـال بالخارج تماماً, وأن الخزينة خاوية، وليس معه أي مال ليدفع إستحقاقات قواته. وفي ٢١ يونيه قام الثوار بالهجوم على الختمية, إحدى ضواحي كسلا, لكن الحامية، بقيادة الشـيخ عثمـان الميرغنـي والشيخ عجيل, شيخ قبيلة الحمران، صدتهم. واستولي الشيخ عجيل على بوارق العرب وقتل حامـل الراية. وفي أغسطس تسلم المدير تعليمات له للأنسحاب بواسطة ماسون بك, حاكم مصوع آنـذاك, والذي أوضح بأن صعوبة تنفيذ إخلاء كسلا نجمت عن وجود ١٠٠٠ من الباشبوزوق، والـذين لـن يرضخوا للتسليم. وبعد شهرين من ذلك كتب الكابتن سبيدي، والذي عاد ثانية لهذه المنطقة المألوفة لديه، والذي جيء به للعمل على تنفيذ المعاهدة الحبشية، بأن نصف عدد الحامية مكون مـن أهـالي المنطقة وبالتالي لن يتمكن حاكمها من تنفيذ الإخلاء.

وفي ١٢ سبتمبر ١٨٨٤، وطبقاً للاتفاقية الموقعة،تم تسليم بوغوص للحبشة لكن إنسحاب حاميات أما ديب وسنهيت تأخر, إذ قد يمكنهم تقديم المساعدة والعون لحامية كسلا عنـدما يكونـون عابرين لطريقهم خلال الأراضي الإثيوبية.

أثناء ذلك وصل الشيخ بخيت، البني عامراوي، إلى مصوع قادماً من كسلا وأبلغ بأنه يعتقد بعدم إمكانية إخلاء كسلا بدون مساعدة عسكرية من القوات. لقد قدم هذا الزعيم، حتى ذلك الوقـت, مساعدات قيمة للغاية للمدير بكسلا. لكن الإضطراب السائد في المنطقة, والإشـاعات القائلـة بـأن جيرانه من الحباب والرشايدة قد بدأوا يتململون, دفعته للعودة لرعاية مصالح وشئون قبيلته الخاصة.

وفي نوفمبر، عبر الملك يوحنا عن رغبته في إرسال قواته لنجدة كسلا. لكنه أبلغ بأن إنقاذ حامية القلابات هو الذي له الأهمية القصوى. وبالتالي اتخذ استعداداته طبقاً لذلك.

القضارف

في أبريل ١٨٨٤، أبلغ المدير بأن حامية القضارف، أو سوق أبوسن*، والتي هي بقوة ٢٠٠ رجل بقيادة محمد باشا أغا واليوزباشي موسى أفندي حسن، قد عقدت إتفاقاً مع الثوار، وأن خمسة من التجار النصاري، والذين كانوا بها في ذلك الوقت، قد أرغموا على اعتناق الإسلام. كان قواد العرب في هذه المنطقة محمد أفندي والشيخ عبد الله، إبن وشقيق عوض الكريم باشا، زعيم الشكرية، على التوالي. وقد ظل الأخير محتفظاً بولائه للحكومة باستمرار ومات فيما بعد، مقيداً بالأغلال، في أمدرمان.

هرر

في القصة الطويلة للكارثة التي واكبت إخلاء السودان، كان لإعادة نفوذ وسلطة إبن الوالي الأسبق، على هذه الحديقة الواسعة للبن، والمحاطة بالحوائط والأسوار، أثر كبير وسار على ما لازمها من هدوء. وكان للمراقبة والاشراف الوقور والمهاب للقنصل البريطاني أثر كبير في أن عملية التسليم كانت كمجرد تبادل للتحايا والود. تم تسليم مدينة هرر لمحمد عبد الشكور وأعطاه القنصل البريطاني إيصالاً عن الميناءين بربرة وزيلع.

تبعد هرر ١٥٠ ميلاً من الساحل وهي مربوطة بخط (تلغرافي) يمتد بين بربرة وزيلع وهرر بشكل مثلث ذاويته اليمني في زيلع.

تحرك رضوان باشا من السويس في الثالث عشر من سبتمبر ١٨٨٤، ومعه مبلغ خمسة ألف جنيه لنفقات السفر الضرورية. ووصل ميناء عدن في الثالث والعشرين من الشهر حيث التقى بالميجر هنتر، من هيئة أركان قوات بومبي.

وقد كان إرتياح الباشا لآراء الميجر هنتر الخاصة بالإخلاء، معادلاً لما أصابه من إندهاش، فقد كانت آراؤهما متطابقة تقريباً، وأن التعليمات التي تلقياها، كل على حدة، متناغمة حتى أخر حرف فيها. أبحر رضوان باشا لبربرة في اليوم التالي وقرأ أوامر صاحب السمو الخديوي للحامية التي ابتهجت بأفاق العودة للمدنية. من هناك توجه إلى زيلع حيث أودع المال بخزينتها وحدد أوامره لحاكم هرر بما عليه القيام به ثم عاد إلى بربرة.

وهنا شرع في بيع الممتلكات الحكومية المنقولة بالمزاد وبعدها سلم المباني للقنصل البريطاني، بعد إستلامه إيصالاً بذلك.

---

* هي المدينة الرئيسية والسوق التابع للشكرية. وقد سميت بذلك الاسم تبعاً لاسم عائلة شيخ القبيلة، أبوسن. وهو لقب لحق به لوجود سن طويل وقبيح أشتهر به ذلك الشيخ. والقضارف في حد ذاتها هي اسم للمديرية كلها لكن الإسم يستخدم كثيراً للعاصمة، سوق أبوسن.

وفي الثاني عشر من أكتوبر كان كل شئ جاهزاً لرحيلهم لهرر. وانتدب الميجر هنتر الملازم بايتون للتوجه بصحبة الباشا، ثم مضى الاثنان نحوها على مراحل مريحة. وعند الوصول لهرر استقبلتهما القوات والأعيان بكل مظاهر الفرح. وهنا أخرجا فرمان صاحب السمو وقرآه لهم، ثم تفحصوا الحسابات، ودفعوا للجنود متأخرات خمسة شهور، وأطلقوا سراح بعض السجناء العرب، ثم شرعوا في العمل على الحصول على أي جمل بالمنطقة وما جاورها. بعد ذلك تم بيع المتاجر والمخازن والآليات الحكومية ثم وضع تقدير بقيمة البيوت (الحكومية) وجنائن البن على عجل. وبنهاية أكتوبر كان ١٠٠٠ من القوات في طريقهم (لميناء) زيلع. وحتى منتصف نوفمبر كان قد تم ترحيل ٢٧٠٠ منهم، ومعهم الإرشيف الحكومي والمستندات والتي، بسبب إحتفاظ الكتبة الأقباط بها (وقيامهم بأمرها) كانت متضخمة للغاية وملأت، في هذه الحالة، سبعة وأربعين صندوقاً ضخماً.

وتزايدت في ذلك الوقت مطالبات الأهالي على الموظفين وقاموا بضغوط شديدة (على السلطة القائمة). تم تكوين لجنة مستعجلة للتقصي وقامت بأنصافهم. ووصل الميجر هنتر.. وبصحبته الميجر هيث إلى هرر في ٣ نوفمبر ومعهما ٤٠٠٠٠ روبية. وبينما كانت عملية الإخلاء تجري على قدم وساق قام هؤلاء الضباط بالإلتفات نحو تأسيس الحكومة الجديدة. وقاموا ببناء حصن وجمعوا قوة من ٣٠٠٠ صومالي سلحوهم بالبنادق وبمدفعي كروب وعلموهم، بقدر ما أمكن، كيفية استخدامها.

وفي ديسمبر، وبينما كانت تجري عملية الإخلاء وتأسيس حكومة جديدة جنباً إلى جنب، جاءت إفادة من القبائل المحلية المجاورة لهم، عن طريق بعض الباشديم والوارافوسو، الذين تظلموا لرضوان باشا بأن قبيلة البابلي قد هاجمتهم وذبحت بعضاً من رجالهم. نهض رضوان باشا على الفور، ومعه خمسة كتائب من الجند وبعض المدفعية والخيالة، وتوجه إليهم. هرب رجال البابلي وتركوا وراءهم أكواخهم عرضة للنهب والإحراق. وبعدها لم يحدث ما يعكر توجه التيار المستمر للقوات في طريقهم للساحل.

وبحلول فبراير ١٨٨٥ عاد الميجر هنتر إلى زيلع وأصبحت كل هرر جاهزة لإقامة الحكومة الجديدة. تم استدعاء ستة وخمسين من قادة المنطقة لحضور إجتماع خاص بذلك ووافق الحضور بالإجماع على إنتخاب عبد الله محمد عبد الشكور، إبن الحاكم الذي أطاح به المصريون، كحاكم عليهم. وانتخبوا أيضاً مجلساً من عشرة من (الوجهاء) للدفاع عن حقوق الجماهير وأربعة وجهاء آخرين لإدارة الشئون المالية والجمارك والشرطة والجيش الصغير.

وفي ذلك الوقت وصل إلى المنطقة رحالتان ألمانيان هما الدكتور هاردي وبول دكسي وشرعاً في إطلاق العديد من الأسئلة الصعبة. ولكن حبهما للاستطلاع لم يقف عن حد أو يتم إشباعه، إذ أن رضوان باشا، مراوغاً، أوضح لهما أنهما لا يحملان تفويضاً من أي جهة رسمية (تخول له الإجابة الشافية على استيضاحاتهما). وبعد ذلك، وفي يوم ٢٣ فبراير قدم التجار الأوروبيون إحتجاجاً قوياً ضد سحب الحاميات وخروج الحكومة، والتي كانوا قد أنشأوا أعمالهم المختلفة تحت ظل حمايتها. لكنهم رضوا بعد أن تم إخطارهم بأنهم إن لم يكونوا على استعداد لمغادرة المنطقة في ظرف شهرين، أي في الفترة التي سينتهي فيها الحكم المصري، فأن بامكانهم البقاء لشهرين آخرين تحت حماية من الملازم بايتون.

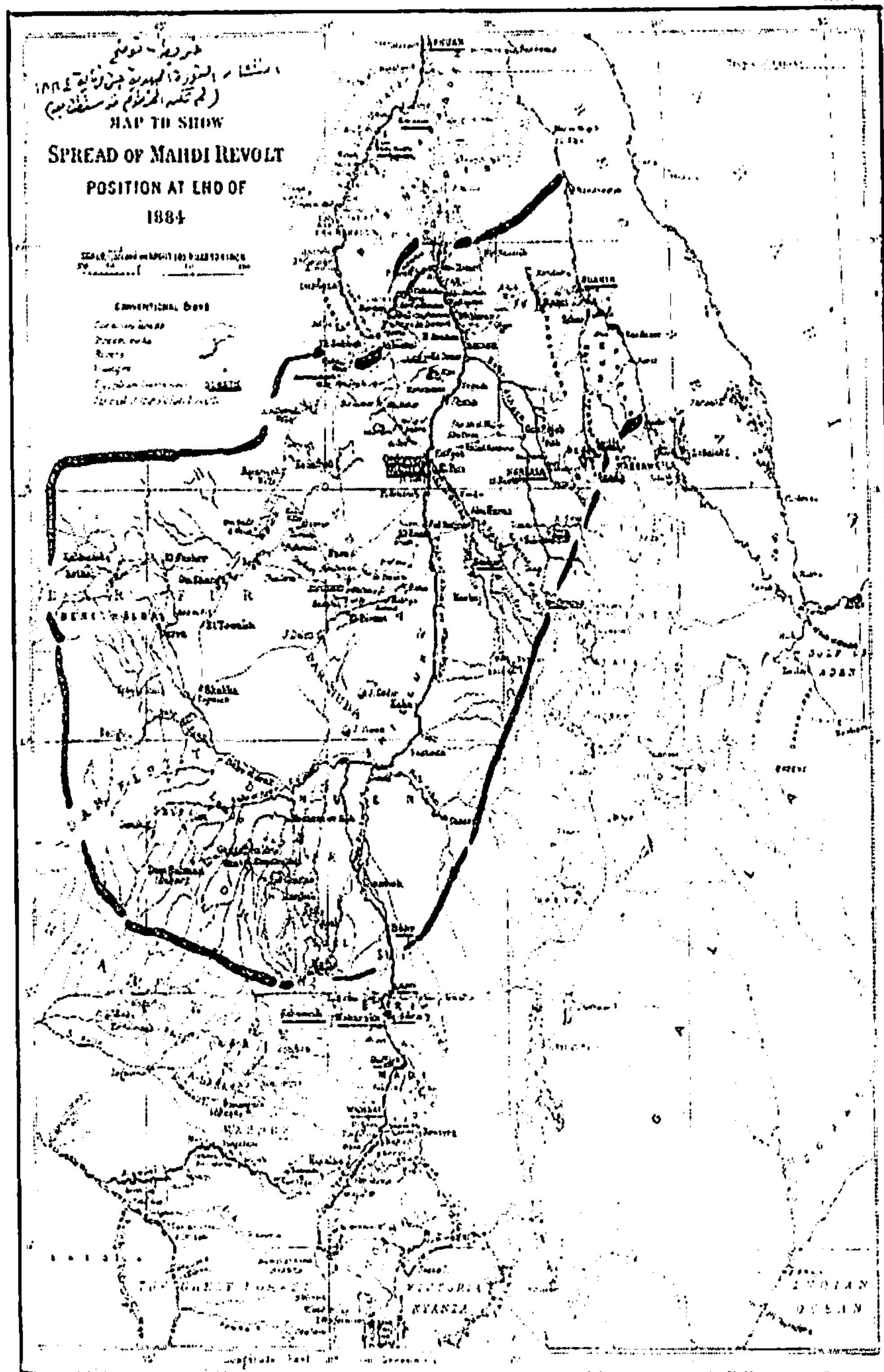
وفي الخامس والعشرين من أبريل أقيمت آخر الإحتفالات الخاصة بتنصيب الأمير الجديد, وقرئ فرمان الخديوي الخاص بذلك على الجمهور, ثم تلي ذلك تبادل الأعلام، من المصري لعلم الأمير، ثم تحية من إحدى وعشرين طلقة مدفع. وأعطى البريطانيون إيصالاً بذلك أيضاً.

وفي اليوم التالي غادر رضوان باشا هرر, وسط مشاعر عميقة لعواطف الأهالي المحزونون لرحيله, ومعه آخر من تبقي من ٦٥٠٠ رجل, وصلوا كلهم بسلام إلى الساحل وركبوا البواخر لمصر.

وفي الثالث عشر من مايو ١٨٨٥ سلم الملازم بايتون للحاكم الجديد المباني الحكومية، التي بلغت قيمتها ٧٠٠٠ جنيه، وجناين للقهوة قدرت قيمتها بحوالي ٤٠٠ جنيه ثم توجه لشاطئ البحر, على درب الباشا.

ما أوردناه سابقاً عن إخلاء هرر أخذ من مذكرات رضوان باشا. وهي يوميات لطيفة وسهلة السرد حتى أن المرء يتمني أن لو كان هناك المزيد منها.

ولكن بالرجوع إلى المراسلات البريطانية الرسمية فسنجد فيها شيئاً مختلفاً تماماً. ففي هذه المراسلات نجد ذكراً، بالتأكيد, لرضوان باشا، لكنه يظهر فقط كمشاهد, غير مهتم، للولائم الدبلوماسية التي أقامها الوكلاء السياسيون البريطانيون. ولكن ومهما كانت البراكين المتفجرة للعلاقات المتوترة المشدودة، وللطغيان وسفك الدماء والحرب الأهلية التي كان هذا الباشا الطيب يمشي فوقها، فأن التاريخ لن يأبه به كثيراً.


خريطة – توضح
انتشار الثورة المهدية حتى نهاية ١٨٨٤
MAP TO SHOW
SPREAD OF MAHDI REVOLT
POSITION AT END OF
1884
INDIAN
OCEAN
GULF OF ADEN

ملحق القسم الخامس
(وضع المصريين في السودان حتى نهاية عام ١٨٨٤
وحصار الخرطوم خلال تلك السنة)
تصريحات الجنرال غردون

(١)

..... وأعطيكم أيضاً الحق في الإحتفاظ بالعبيد لخدمتكم، وبدون أي تدخل من الحكومة أو من أي إنسان آخر......

غردون،

حاكم عام السودان

(٢)

.... في حين أن رغبتي الخالصة كانت في اتخاذ طريق يقود إلي رضاء الناس جميعاً، ولأنني مدرك لمدي أسفك على الوسائل القاسية الصارمة التي إتخذتها الحكومة لكبح تلك التجارة، وعلى عمليات القبض على كل من لهم علاقة بتجارة الرقيق وعقابهم، طبقاً لما جاء في الميثاق والقرارات، فأنني هنا أعطيك الحقوق التالية:"أنه من الآن فصاعداً فلن يتدخل أحد فيما تملك. وأن كل من يمتلك عبيداً في خدمته فأن له مطلق الحرية في الاستفادة من خدماتهم. والسيطرة عليهم. بدون تدخل من أي شخص كان.

غردون،

حاكم عام السودان

(وفي ٢١ فبراير أبرق الجنرال غردون (قائلاً):

لقد وصلتني عدة تلغرافات من الصحافة تسألني عما قلته فيما يختص بالرقيق. وكان السؤال الموجه لي هو كلتالي: هل ألححت بالفعل على تحرير كافة الأرقاء بحلول عام ١٨٨٩ طبقاً لمعاهدة ١٨٧٧؟ فأجبتهم بأن تلك المعاهدة لن يتم تطبيقها عملياً عام ١٨٨٩ بواسطتي وخاصة إذا ما أخذنا في الإعتبار قرارات حكومة صاحبة الجلالة الخاصة بالسودان فالسؤال خاص (بالاحتفاظ بالرقيق) وليس (باصطياد الرقيق). وفي تقديري فأن معاهدة ١٨٧٧ لن تنفذ أبداً في القاهرة وخاصة فيما يتعلق بملكية العبيد والإحتفاظ بهم.

توضيح من السيرهنري غوردون

(٢٣ فبراير ١٨٨٤)

... الإشارة إلى الإحتفاظ بالعبيد، وليس صيدهم.

ففي عام ١٨٠٧ تم إعتبار صيد الرقيق بمثابة عملية قرصنة في بريطانيا العظمي, ورغم ذلك لم يتم تحرير العبيد فيها إلا عام ١٨٣٣ وبعد أن تم عتقهم حصل المزارعون أو الملاك على تعويض مالي قدره عشرين مليوناً من الجنيهات الإسترلينية.

وفي عام ١٨٧٧ صدر مرسوم عال في مصر يعاقب صائد الرقيق بالإعدام. أما بيع الأرقاء من شخص لآخر في مصر السفلى فتحدد له عام ١٨٨٤ ليتوقف تماماً (أي في ١٤ أغسطس من هذا العام), ويتوقف في السودان عام ١٨٨٩. لذا يمكنك ملاحظة إستمرار العبيد في بقائهم (مع مالكيهم) ولكن بيعهم أصبح ممنوعاً. ويمكنهم البقاء مع الأسر التي هم معها الآن إلى أن يتم تطبيق المرسوم العالي. فالعبيد هم بمثابة الأموال. وإذا ما حررتهم بدون تعويض الملاك (مثلما حدث في إنجلترا عندما دفعت الحكومة عشرين مليوناً من الجنيهات) فأن هذا يعتبر بمثابة السرقة. بالتالي, وطبقاً للقوانين السارية فأن ملاك العبيد في السودان يمكنهم التجارة في أملاكهم (بيعاً وشراء) حتى عام ١٨٨٩, وهذا ما قاله الجنرال غردون للناس.

مجرد ما قاله لهم هو أنه لم يحضر للسودان ليخرق القوانين أو يصادر أموالهم.

هـ . دبليو . غردون

نسخة في ١٣/١٠/١٨٨٤،

في تكنات إيستنى،

الملازم و.س. غردون

***

القسم السادس (أ)
سقوط الخرطوم

الملخص:

مقارنة بين حملة الإنقاذ الحبشية وحملة إنقاذ الخرطوم – تاريخ الحصار – إرتفاع منسوب النيل – حملة محمد علي باشا على النيل الأزرق – هزيمته للأمير عبد القادر في الجريف – غردون يهنئه – " الباشا المحارب" يطهر كل المناطق المجاورة من الثوار – هزيمته للشيخ العبيد في الحلفاية – تطهيره للنيل حتى شندي – لكنه هزم وقتل في أم ضبان – الكولونيل ستيوارت يغادر الخرطوم بالباخرة عباس لمقابلة البريطانيين – تحطم الباخرة عباس – ستيوارت ومن معه ينزلون في الهبة – قتلوا غدراً بواسطة سليمان ودقمر – التراسل بين الخرطوم والمهدي – مناقشة ردود العلماء – غردون يكتب لسنار – إرساله لثلاثة بواخر بقيادة نصحي باشا للمتمة لانتظار قدوم الإنجليز – ما قامت البواخر بعمله – التصرف البطولي للسيدتين فاطمة ونفيسة في المتمة – وصول أخبار موت ستيوارت للخرطوم. بحث من أربعة وجهات نظر عن أسباب سقوط الخرطوم – رواية المحاصرين – المراحل المبكرة للحصار – ندرة الذرة – تفتيش الخرطوم بحثاً عن ذرة – أم درمان تحت حصار قوي من أبي عنجة – غردون يحاول إنقاذها – فرج الله باشا – القمندان يتسلم أوامر من غردون بالتسليم – إستسلام أم درمان – المجاعة بالخرطوم – الموتى يملأون الشوارع – فرار السنجك عمر ابراهيم – غردون يرسل للمهدي كل الأهالي الراغبين في مغادرة الخرطوم – المهدي يطلق ١٠١ قذيفة مدفع تحية – البلبلة وسط المحاصرين – غردون ينبئهم بأن الإنجليز قادمون على الفور – يأس المحاصرين – جيش ود ألنجومي يقتحم المتاريس والخندق الذي دمرته مياه النيل – سقوط الخرطوم ومقتل الجنرال غردون – تحركات حملة الإنقاذ – تقدم السير تشارلس ولسون يوم ٢٤ يناير بالباخرتين بوردين وتل حوين – صعوبة الملاحة – حادث يؤدي للتأخير – العدو يطلق النيران – تقرير عن مقتل الجنرال غردون – الاستعدادات لاختراق الحصار – أول رؤية للخرطوم – جزيرة توتي في يد الأعداء – إنسحاب البواخر بعد أن وجدوا أن الخرطوم سقطت – جنوح الباخرة تل حوين لوقت قصير – نار كثيفة تطلق على البواخر – البحارة يظهرون التذمر – صعوبة الوضع – تحطم تل حوين – خطابات من المهدي – الإجابات على خطاب المهدي – سخط القوات الوطنية – عبور السبلوقة – عبور الشلال الأخير – تحطم البوردين – جزيرة ميرنات – الملازم ستيوارت ورتلي يتوجه للقبة – ترتيبات السير س. ولسون – هجرو فرار – رؤية الصافية – السير تشارلس ولسون يغادر جزيرة ميرنات متجهاً نحو الباخرة الصافية – رحلة الصافية – قلعة في ود الحبشي – إصابة المرجل – الوضع الخطير للصافية – إصلاح المرجل – إنقاذ جماعة السير تشارلس ولسون.

الحملة التي وجهت (من قبل) للحبشة أنقذت ثمانية رجال وكلفت ثماني ملايين (جنيه). كانوا رجالاً إنجليز تم سجنهم, أثناء أدائهم لواجبهم, في بلد نائي ومعادي. ويعزي نجاح الحملة, من وجهة نظر إنسانية، للصدفة. إذ أنها إعتمدت على نزوة لملك شرس، أثارتها ما قام به أولئك السجناء من إبداء للمهارات، أو سلوك للمؤامرات،أو أساليب للباقة، في مكانهم النائي،لذلك الشرير. وبعد أن تم إختيار الموسم الملائم من السنة، لم يعد للتأخير أثراً في كونه أو عدم كونه قاتلاً. فقد عاش بيرد ورفاقه تحت ظروف مماثلة, ولحوالي أربعة سنوات, في سجن سيرنجاباتام التاريخي.

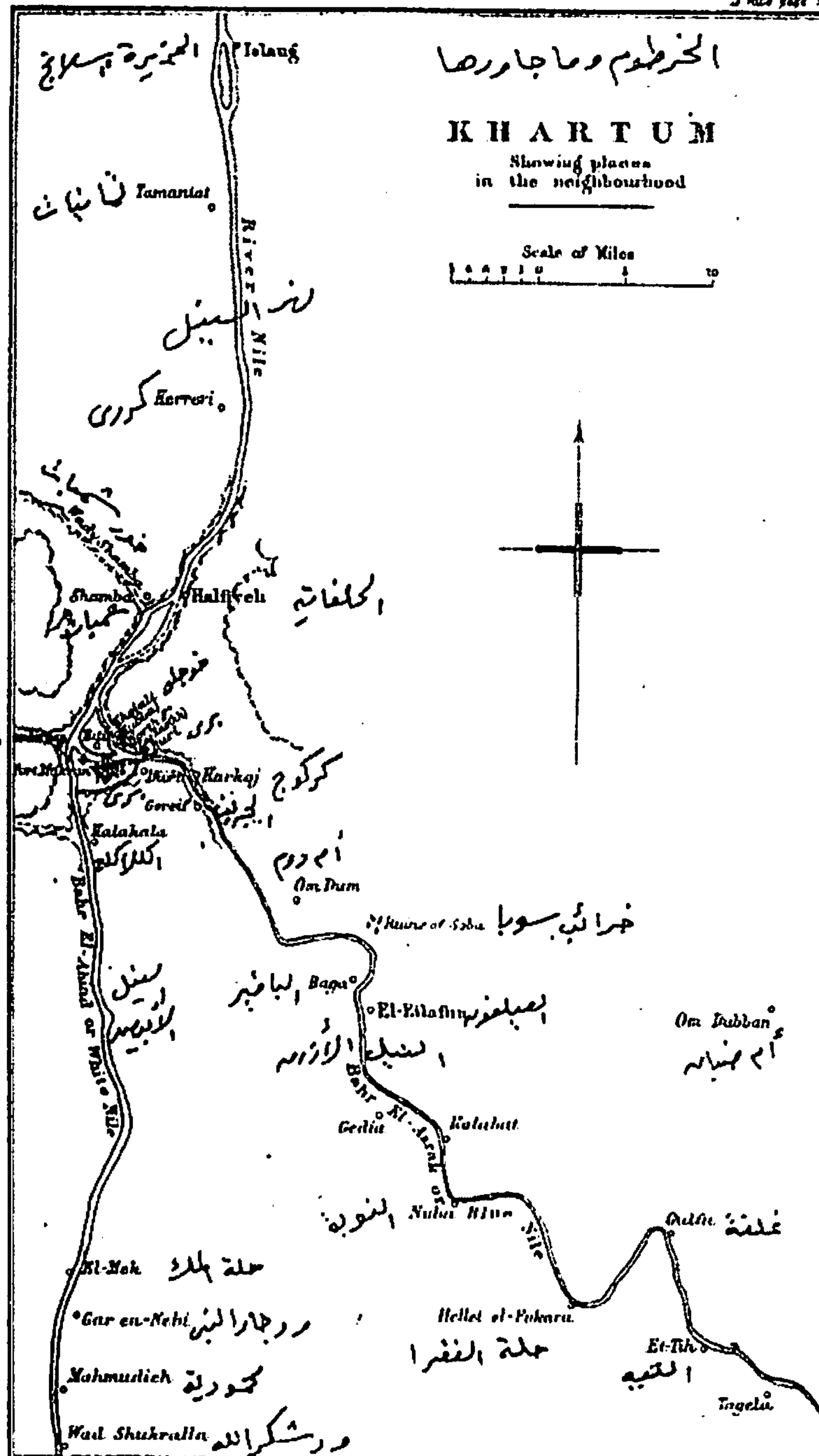
أما الظروف التي عاشها الجنرال غردون في الخرطوم فقد كانت مختلفة تماماً. فأمام أعداد لا حصر لها من الأعداء, المنتشين بالنصر, والذين يغمرهم التعصب, واجه غردون حرباً لا نظير لها في التوحش بمهارة وخبرة. ورغم وجوده في مكان هش ضعيف من الناحية الطبيعية أو الصناعية وبدون موارد أو تموين يذكر, إلا أنه, ولعدة شهور, حافظ على جبهته بشجاعة وبسالة. ولم يكن للخيانة بين المحاصرين ولا ضروب الحيل التي استخدمها المحاصرون دوراً في سقوط الخرطوم. ولكن سقطت الخرطوم بسبب المجاعة, واليأس (الذي خيم عليهم) من طول الإهمال والتجاهل.

ولم تكن هناك أي عوامل تساعد الحملة على إنقاذ الجنرال غردون. فقد تم التصديق بها بعد فوات الأوان. ولما طال انتظار قدوم الإنجليز يوماً بعد يوم, ولم يصلوا، كذلك يوماً بعد يوم أخذت معنويات الجنود وأفئدتهم في التدهور والانحدار لأعمق الأعماق, إلى حالة من الكآبة والظلامية. ويوماً بعد يوم أخذت قواهم في الاضمحلال حتى رفضت أجسامهم, في نهاية الأمر, تناول الصمغ، والذي كان حتى وقتها طعامهم الوحيد. ويوماً بعد يوم أخذ النيل في الانحسار عن الخندق الذي ملأه الطين والطمي، وعن المتاريس التي انهارت, وخلف ذلك ممراً عريضاً لمن يجرؤ على الدخول.

ويمكن إعادة تلخيص تاريخ الحصار في الآتي: فالفيضان الذي طال انتظاره وصل أخيراً. وأخذ النيل في الارتفاع بعض الشئ في يونيه, وإزداد سرعة في يوليه وإستمر في الارتفاع طوال شهر أغسطس. والخريطة التالية تظهر التغيير الذي أحدثه الفيضان تدريجياً على ضواحي المدينة. فعند ارتفاع منسوب النيل، تصبح الخرطوم شريطاً يمتد بطول النيل الأزرق تتوسطه السراية والترسانة.

وقرب نهاية أغسطس كان كل شئ جاهز لتوجيه ضربة قوية ضد قوات الحصار التي تحيط بالمدينة. وتحرك محمد علي باشا (باشا غردون المحارب) على النيل الأزرق بقوة كبيرة جيدة التجهيز، على البر والنهر. وأصطدم في الجريف بالعرب والحق هزيمة تامة بعبد القادر وغنم منه ١٦٠٠ بندقية وعدداً كبيراً من السيوف والحراب. وتوجه غردون بنفسه على باخرة خاصة لمقابلته عند عودته وهنأه بالنصر من أعماق قلبه ورقاه إلى رتبة اللواء. وفي اليوم التالي, الثلاثين من أغسطس, عاد محمد على باشا (ثانية للهجوم). وبعد اشتباك قتل فيه أخ الشيخ قام بتطهير كل المثلث جنوبي الخرطوم (من الثوار) وهو مثلث قاعدته الخط بين الكلاكلة على النيل الأبيض والجريف على النيل الأزرق.

وفي اليوم التالي تقدم الباشا، الذي أثمله النصر, نحو الشمال. واصطدم في الحلفايا بالشيخ العبيد وأحرز نصراً باهراً عليه. فقد هزم الشيخ تماماً ونظف النهر, على الضفتين, حتى شندي شمالاً.



KHARTUM
Showing places in the neighbourhood
Scale of Miles
River Nile
Islang
Tamaniat
Kerreri
Shambat
Halfiyeh
Kararj
Gereif
Kalakala
Om Dum
Ruins of Soba
Baqa
El-Eilafun
Om Dubban
Bahr El-Azrak or Blue Nile
Bahr El-Abiad or White Nile
Gedid
Kalalat
Nuba
El-Mek
Gar en-Nebi
Mahmudieh
Wad Shukralla
Hellet el-Fukara
Et-Tih
Tagela

وتدفقت العيوش والماشية والمأكولات من كافة الأنواع على الخرطوم، وهبطت الأسعار إلى مستوياتها العادية. غمرت الفرحة الضارية أنحاء المدينة ولكن.. واحسرتاه! فقد ولدت هذه النجاحات شعوراً بالثقة تمخض بعدها عن كارثة ماحقة بهزيمة العيلفون. وهذا ما عبر عنه غـردون عنـدما أوضح أسباب إرساله الكولونيل ستيوارت وباور وهيربن مع بعض الأوروبيين لبربر، بعد أن كـانوا قد عادوا للمدينة في فبراير. بأن الوضع كان يائساً بالخرطوم بعد أن دهمتهم كارثة العيلفون. وبعـد إحرازهم للنجاحات التي سبقتها.

تقع العيلفون على الضفة الشرقية للنيل الأزرق، وعلى بعد حوالي عشرين مـيلاً جنـوب الخرطوم. وفيها جمع الشيخ العبيد والأمير مضوي قواتهما، التي كانت قد حطمت في الحلفاية، وهنا قام محمد علي باشا، في الرابع من سبتمبر، بالهجوم عليهما. هزم الشيخان وإنسحبا لأم ضبان وقام محمد باشا، بعد أن ترك نائبه فرج الله باشا متمترساً على النهر. وبعد تلقيه لإمدادات جديـدة مـن الزخائر، بمطاردة الشيخ حتى أم ضبان. ويقول غردون بأنه كان يرغب في نهب الشـيخ وتغنيمـه. وكان قد أرسل له تعزيزات (وقوات) من بينها بخيت بك بطراكي وستيوارت. لكن محمد علي باشا لم يتمهل حتى تصله التعزيزات، بل شرع في حملته القاتلة على الفور. فعند الفجر. وبينما كان رجالـه منهكين من التعب وبدون نظام. بعد أن ضلوا الطريق في ظلام الليل، إنقض عليهم الشيخ إنقضاضـاً ساحقاً. حاربوا ببسالة. لكن اللواء الفخور برتبته الجديدة وبنجاحاته الأخيرة رفض أن يتراجع بوصة واحدة بل "جلس على فروته" كما يقولون. أي أنزل فروته من علي ظهر حصـانه وفرشـها علـى الأرض وجلس عليها رافضاً أن يتزحزح. تم تمزيقه إرباً هو و ٨٠٠ من رجاله، أي نصف عـدد قواتـه، وغنمـت منه ٩٨٠ بندقية رمنجتون في نفس الوقت. وعادت باخرة الإمدادات ومعها فرج باشا (للخرطوم).

وكان غردون قد عاهد نفسه بأنه، عندما يرتفع منسوب النهر، فسيرسل باخرة عبر النيـل إلى القاهرة. وستحمل هذه الباخرة معها تفاصيل ما حدث في الفترة الماضية، وللعمل على إزالـة أي شك في ذهن الحكومة عن الخطوات التي يجب اتخاذها. وترتب على هزيمة العيلفون أن تقرر إرسال الباخرة "عباس" على الفور. وتطوع القنصل الفرنسي، هيربن، لقيادة المهمة، بعد أن روي ما سيكون لقيام أوروبي من منافع هامة قد لا يصلح غيره لأدائها. فإذا ما ذهـب أوروبـي، فـأن الكولونيـل ستيوارت. وهو ضابط بريطاني، سيتمكن من الحديث مع الضباط البريطانيين بفعالية أكثر مما يمكـن لغيره. طبقاً لذلك فقد صعد الكولونيل ستيوارت. بعد تردد من جراء رأيه في عدم ترك غردون وحيداً، إلى ظهر الباخرة بصحبة هيربن وباور وحرس شخصي من الأغاريق. قام بحراسة "العباس". حتـى وصولها لبربر عبر شندي، بعض البواخر الأخرى. ولم يخضع العرب هناك لإغراءات الهجوم علـى الباخرة، لأن بمقدور آمر الدفة أن يصطدم بها (على أي صخرة بالنيل) ويؤمن بالتالي استسلاما بدون سفك للدماء، وهكذا تقدموا بسلام وتجاوزوا بربر عابرين ميلاً بعد ميل من التيار المندفع وسلسـلة الممرات الصخرية المتشابكة وسط النيل. وكان رجال الدفة يتبادلون القيادة وقلوبهم مفعمة بالأمل. ثم أشرقت وجوههم وإزدادت ضربات قلوبهم عندما وصلوا لجزيرة مقرات المألوفة لديهم واقتربوا مـن أبي حمد، ثم فصلوا المراكب الأربعة، التي كانت مربوطة بالباخرة، وواصلوا التقدم.

وفي الثامن عشر من سبتمبر, وبعد ثمانية أيام من مغادرتهم للخرطوم، شاهدوا بعيون مستغربة أعداداً ضخمة من الأهالي مندفعين بطول ضفتي النيل وبعد ذلك, وكان الوقت لا زال في باكورة الصباح، إصطدمت باخرتهم بصخرة وأخذت في الغرق. نزل الكولونيل ستيوارت (ومعه رفاقه) في قرية صديقة, لكنها مسلحة تماماً. وهنا في "الهبة" تمت دعوتهم لدخول أحد المنازل حيث قتلوا جميعاً تقريباً. ولم تصل اليوميات أو التقارير التي حملوها إلى وجهتها، بل سقطت في يد المهدي ومن بعده إلى خليفته. لكن قيمتها تناقصت تدريجياً عندما تجاوزها تاريخ الأحداث.

أثناء ذلك جرى تبادل متقطع للرسائل بين غردون من جهة وبين عبد القادر إبراهيم وود النجومي من جهة أخرى. قام الأخيران بعمل ما في وسعهما لتحقيق استسلام المدينة قبل وصول المهدي. لكن غردون والأهالي الذين معه لم ينحرفوا قيد أنملة عن تصميمهم على الصمود والحفاظ على المدينة، مهما كلف الأمر، في انتظار وصول الإنجليز لهم.

ووسط الكم الهائل من الرسائل التي تبودلت، كانت ردود علماء الخرطوم على المهدي تتميز بإبداء وجهات نظر المسلمين الأصوليين في مقابل وجهات نظر المصلح الديني (المهدي). كتب شيخ علماء الجامع، السيد حسين المجدي, رداً أرسل في الحال لعبد القادر.

نقب العالم السيد حسين المجدي في مراجعه وكتبه وأشار إلى أن، المهدي (الأصلي) هو إبن الحسن العسكري, والذي ولد عام ٢٥٥ هجرية وبالتالي يكون عمره الآن أكثر من ١٠٠٠ سنة. أما محمد أحمد فلا يصل عمره حتى إلى عشر ذلك العمر. ثم ألقي بما إستشهد به محمد أحمد بعيداً وبغيظ وحنق. " إن بأمكانك أن تشير للكتب القديمة وتقنع بها الجهلة. لكننا نعلم بأنه لم يرد فيها أي ذكر للمهدي. إما إذا كان هذا هو المنتظر, فأين إذن الخرساني والذي سيملأ الأرض عدلاً؟ وأين الملك السفياني الذي سيحكم قبل ظهوره؟ وأين جفاف نهر الفرات وإكتشاف جبل الذهب؟" كانت الحجج الدينية التي تعلل بها الأول معادلة للحجج الروحية للثاني. ولكن متى كانت أسباب المحاصرين موافقة لأسباب المحاصرين؟ ومتى منع الجدل والنقاش الديني الحرب؟. فما جاء به ملالي الخرطوم من حجج لا يمكن إلا أن يثير العقول المفكرة النيرة وأن يقدم لها نموذجاً للإسلام في السودان. فقد كان أولئك الرجال يتجادلون، حتى إن لم يكن لإنقاذ أرواحهم، فأنهم كانوا يفعلون ذلك في ظروف تملي عليهم أن يقوموا بما في وسعهم (للدفاع عما يرونه صائباً).

ومن المفيد أن نستعرض خطابهم. فالمصري عادة غير قادر على التفكير المتوازن. ومن الصعوبة ألا تجد في خطابه تعبيراً لا يفهم إلا بأكثر من وجه. وإذا وضعنا جانباً الجمل والتعابير التي لا معنى لها, فأن حججهم يمكن أن تؤخذ على النحو التالي:

"يذكر القرآن أن الدين مكتمل. لذلك لا يمكن أن تكون هناك رسالة جديدة.

"إذا كانت هنالك رسالة جديدة فيجب نبذها إذا ما تضمنت نكثاً للطهارة والعفة، أو حافزاً للقتل، أو ارتدادا عن العقيدة.

"أن إتباع طريق المهدي يقود لكل تلك الأشياء.

"أن على المهدي أن يكون له عدداً من الوزراء الفرس أو الأجانب. وهذا المهدي ليس عنده منهم أحد.

"خوطب غردون في خطاب المهدي هذا بلقب (السادات). وفي نفس الخطاب سمي (بالكافر). فالكاتب إذن غير مترابط منطقياً ومتضارب في رأيه. وبالتالي لا يمكن أن يكون هو المهدي الحقيقي.

ويكتب بعد إسم المهدي جملة (عليه السلام). لكن عبد الغني يقول أن هذا اللفظ لا يطلق إلا على الأنبياء.

"لا يوجد أي ذكر للمهدي في الكتب القديمة. لكن الشيعة عموماً يدعون بأن مهدياً سيظهر. فإذا كان هو المقصود فأين أولئك الذين سيمهدون له الطريق وأين الذراع الذي سيقوده؟ وأين سيجف الفرات ليكشف عن جبل من ذهب؟."

"المهدي لن يسفك الدماء أو يوقظ النائمين.

"هذا المهدي يقوم بالعملين معاً.

"ثم التفتوا للكتب القديمة وإقتبسوا منها التالي:

"لقد أعلن لي النبي عليه السلام بأن هذا الكتاب باق حتى ظهور المهدي عليه السلام. وسينتفع أتباعه به. وبه سيتمكنون من الاتكال على نصائح المهدي في معظم أمور الدين. لأنه، عليه السلام، عندما يجيء فإنه سيزيل التناقص واختلاف الآراء لذلك لن يتبقى في أيامه سوى الدين الخالص. أما جماعة العلماء، في أيامه، فسيكونون معادون له سراً.

"ويدعون أنه كتب في الأحاديث أن المهدي لن يقوم بفعل شئ لم يقم النبي به، وأنه سيقهر كل الأئمة. ثم يضيفون. أن هذا المهدي يجهل تماماً العلوم الستة التي لا تكتمل المعرفة الحقة إلا بها.

"تقول الشريعة بأن المهدي سيولد في سنة ٢٥٥هـ أي قبل ١٠٤٦ سنة. لكن هذا المهدي لا يلغ عمره عشر معشار هذا العمر.

"وسينادي المهدي بنفسه ملكاً لأن الناس سيتبعونه. لكن هذا المهدي لا يتبعه الناس إلا لأنه يقتل من خالفه.

"على المهدويين ألا يوردوا، كمصداق لصحة عقيدتهم، المذبحة التي قاموا بها في كردفان. إذ أنها لا تقارن بما ورد في الكتب المقدسة من مذابح.

وكان لدي القائد، ذات مرة، ثلاثة عشر سبباً لعدم أحصار مدافعة. والسبب الأول هو أنه ليس لديه مدافع. إذن فأن أول حجة على المهدي هي أنه لا يوجد هناك مهدي إطلاقاً.

تلك الحجج تتسم بالتردد وتناقض نفسها بنفسها. لكن الإسلام يكون. مثلما كان من قبل. في موقف صعب وجهاً لوجه مع نبي جديد. سواء كان مهدياً أم غيره. إذا لم يطرح أي شيء يوضح. وبعد مرور مائتي عام على وفاة النبي... قل من كان يؤمن بالإسلام. وحتى ذلك الوقت كان مظهره غامضاً من خلال الضباب الذي أحاط بمئتي عام لم يسجل عنها شيء.

وأثير خلال تلك الفترة العديد من الأسئلة الصعبة والتي تركت بدون حسم مثلما لم تتمكن من استقطاب عقول قادرة على النقاش الواضح الموضوعي. ولأن أرسطو وأقليدس وصلا إلينا من خلال اللغة العربية، فقد حظي العرب بالفضل لفهمهم لتلك الأعمال، رغم أن التراجم كان قد قام بها السوريون الذين كان الخلفاء يعتبرونهم، رغم تحملهم وقبولهم لهم، موصومين باللقب المذري (فلسوف) أو الفلاسفة.*

وهناك القليل من الأعمال الأصلية باللغة العربية التي يمكن قراءتها للإهتداء بها. كما لا يوجد من العرب من يمكنه تحديد صورة العلاقة ما بين الإسلام والمهدية على أسس واضحة جلية. فنجاح أو فشل أي مهدي لا يعتمد بأي حال على الأسانيد والحجج التي تستخرج من الدين.

***

وحتى لا ننحرف عن الموضوع (فسنعود إلى الخرطوم وأحداثها): ففي سبتمبر كتب غردون إلى حسن صادق، مدير سنار، بأن حملة بريطانية هي في طريقها لنجدة الحاميات. وفي ٢٧ أكتوبر جاءه الرد والذي علق غردون عليه قائلاً:" إذن، فحتى سنار تعتمد علي للنظر في شئونها".

وبعد ثلاثة أسابيع من مغادرة الكولونيل ستيوارت للخرطوم، وبينما كان غردون جاهلاً بما آل إليه مصيره، قام بإرسال ثلاثة بواخر جيدة التسليح، بقيادة نصحي باشا، مع أوامر بأن عليها أن تجوب النيل حول شندي والمتمة، وأن تلاقي الحملة الإنجليزية، التي أخطأ غردون في تحديد سرعة وموعد وصولها (المتوقع) والتي كان في أشد القلق على معرفة مكان وجودها. وفي التاسع والعشرين من سبتمبر تحركوا نحو شندي. كانت شندي* هي المعقل الحصين لقبيلة الشايقية** والتي

---

* من الغريب أن يبحر المؤلف في مياه عميقة يبدو أنه يجهلها كل الجهل، رغم إدعائه العلم والمعرفة. فكيف يغيب تاريخ ٢٠٠ سنة من وفاة الرسول (ص) وهي الفترة الموثقة، حتى في أدق تفاصيلها، والتي شهدت دولة الخلفاء الراشدين وتحطيم إمبراطورتي الفرس والروم ثم الدولة الأموية وصدراً من الدولة العباسية. تلك الفترة، التي اعتبرها مغيبة من التاريخ، هي التي شهدت علاقات الرشيد بشارلمان والإمبراطورية الرومانية المقدسة، وشهدت انتشار النفوذ الإسلامي حتى غمر مده كل شمال أفريقيا وجزءاً هاماً من أوروبا، ومعظم جنوب ووسط وغرب أسيا وكل بلاد العرب. ويكاد أن يكون تاريخ ما حدث في كل يوم من تلك الأيام مسجلاً بدءاً من ابن اسحق وابن هشام والطبري والبخاري ومسلم وحتى تاريخ الحافظ بن كثير وغيرهم. ويكفي للرد علي هرطقة المؤلف أن نرجع للمقدمة التي سجلها البروفسور هولت في صدر هذا الكتاب والتي قال فيها:- "عندما يتطرق ونجت للخلفيات التاريخية، أو لطبيعة وتاريخ المهدية فهو بعيد كل البعد عن المصداقية والدقة. جاء قصوره هذا من جراء جهله، أو معلوماته غير المكتملة. أما تجميعه للبيانات والحقائق المتعلقة بالإسلام أو المهدية أو السنوسية، التي يفتتح بها هذا الكتاب، فقد وضعها على أحسن الفروض كيفما إتفق".
وأضيف أنه خبط بها في سياق الكتاب خبط عشواء الليل فلا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقي (المعرب).

* بعد مطاردة المك نمر ومن معه من الجعليين من شندي عام ١٨٢٢، سكنت أعداد كبيرة من الشايقية بمناطق الجعليين، وخاصة شندي، والعيدلاب، والحلفاية. لكن شندي كانت في ٨٤ / ١٨٨٥ لا زالت معقلاً للجعليين وليس للشايقية (المعرب).

** الشايقية هم جنس سامي ويدعون انتسابهم للعرب عن طريق الشيخ شايق بن حمدين وهم يسكنون ضفاف النيل بين كورتي وبرتي مع جزء من هضبة البيوضة.

رغم غدر أهلها إلا أن وجهاً ناصعاً لأحد أفرادها تجلى في السلوك الشجاع لخشم الموس, أحد قادتهم, والذي بقي موالياً لصيقاً بالسير تشارلس ولسون والملازم ستيوارت ورتلي عند إنسحابهم وتراجعهم من الخرطوم. كانت المدينة (شندي) في يد الأمير أحمد حمزة والذي وقفت ضده سيدتان بطلتان هـن فاطمة ونفيسة (والدة وإبنة سيدي عثمان المرغني، رجل التاكا) وعارضتاه بتصميم وإصـرار. لقـد ابتهجتا بوصول البواخر وبذلتا كل جهد ممكن لاستنفار المواطنين للوقوف بجانب الحكومـة. لكـن الأمير كان بالقرب جداً منهن، والبواخر بعيدة عنهن لدرجة منعت الشايقية من القسم بالولاء للسيدتين ومن التوجه في نفس الوقت للإنضمام لقوات الأمير.

ثم وصلت باخرة رابعة. ودارت إشتباكات متقطعة بين البواخر والمدينة حتى العاشـر مـن أكتوبر حيث وصلت أنباء موت ستيوارت لهم فتم إرسال باخرة للخرطوم لإيصال تلك الأنباء. ثم عادت الباخرة ثانية ومعها أربعة صنادل وعادت الإشتباكات مرة أخرى بين المدينة والبواخر. استمرت تلك الإشتباكات لثلاثة أشهر تم خلالها نهب الجزر والقرى للحصول على التموين. وكانت البواخر تمضي للخرطوم وترجع منها وتتعرض في كل ميل على الطريق للعقبات والتحديات, ولكل أنواع الضرر من صخور النيل، ومن ضفاف النهر، ومن مدفعية العدو. وكان رجالها يسقطون في العمليات كل يـوم, لكنهم رغم ذلك لم يقصروا في أداء واجبهم. كانوا لا يحصلون على الحطب, لمراحل البواخر، إلا بعد تضحيات وخسائر في الأرواح. ولكن، ورغم رحلاتهم نحو الشمال بحثاً عن الأخبار, إلا أن شيئاً منها لم يرد. وأخيراً وصلت الخطابات وحملتها البوردين للخرطوم حيث وصلتها في الخامس والعشرين من نوفمبر. وقد وصف غردون وصولها كما يلي:

"لاحت للأعين باخرة واحدة. ووجه العرب مدفعهم بالحلفايا ضدها. وفي النصـف سـاعة الأخيرة كان إطلاق النيران من جانب العرب, على الباخرة المتقدمة, شديداً وشرساً مستخدمين المدافع والبنادق, ونحن نرد عليهم. إنني ممتن للغاية لأن أقول بأنها، مع كل هذا الاسـتقبال السـاخن، قـد وصلت بسلام للمجرم (المقرن). وإذا ما قدر لأحد ضباط حملة الإنقاذ أن يكون على ظهرها فسيعرف معنى أن تكون في مثل تلك الباخرة الضعيفة وسط نيران المدافع".

لم يكن على ظهرها أحد من ضباط الحملة. لكن القوات المصرية لم يعكر ذلك صفوها, بـل عادت الباخرة إلى شندي، ومعها رسائل أخرى، عندما تم تجهيزها. كانت الخطابـات التـي حملتهـا الباخرة، وسط تلك المخاطر (قذيفتين من مدفعية الحلفايا انفجرتا بالبـاخرة وجـرح سـبعة رجـال بسببها), مكتوبة بالشفرة والتي كان مفتاحها قد أرسل مع ستيوارت, ومع الرسائل تلغـراف بالغـاء المنشور القاتل الخاص بإخلاء السودان وهجره. وكانت تلك ما قام به نصحي باشا ببـواخره. وفـي الخامس عشر من ديسمبر تلقت (الصافية) قذيفة في مرجلها ولكن تم إصلاح الضرر وسـط نيـران حامية. ونفس سوء الحظ واجه (تل حوين) لكن تم الحافظ على كل البواخر طافية وفي وضع قتالي ما عدا ما أصاب الباخرة (المنصورة) والتي أغرقتها قذيفة مدفع في عرض النهر.

وبنهاية ديسمبر انخفض منسوب النيل. وحتى يتم عبور صخور (ود) بشارة بسلام، قاموا بتصرف حسن بإنزال القوات على البـر وبهذا تمكنوا، للمرة الأخيرة, من الوصول للمتمـة. وفـي التاسع من ينايـر شاهدوا العرب بقيادة أبي صفية والأمير ود موسي[*] زاحفين في طريقهم للهزيمـة في أبي طليح.

---

[*] موسي ود حلو (المعرب).

والآن عوده للخرطوم وللهزيمة الماحقة في العيلفون. ولنترك الرواية ليوميات أحد سكان الخرطوم ليحكيها** وسيتم وصف سقوط الخرطوم أولاً بواسطة إفادات من كانوا بداخل المدينة، وثانياً من أولئك الذين اشتركوا في الحملة لإنقاذها، وثالثاً من إفادات الذين حاصروا المدينة وأستلموها.

والتالي هو مقتطفات من مذكرات بور ديني بك، أحد تجار الخرطوم المشهورين، والذي، وبكامل إرادته، سلم كل مخزوناته الضخمة من العيوش لغردون لتموين الحامية بها. فهو يقول:

"أبرق عبد الحميد بك، الذي أرسله غردون ككشاف، إليه معلناً هزيمة العيلفون. وعندما علم غردون بذلك أبرق كل الأجزاء والمناطق ذات التحصينات باليقظة التامة وعدم الإهمال. وفي ذلك اليوم، قبل ساعة من غروب الشمس، وصل فرج الله باشا مع البواخر وإنتشرت أخبار الهزيمة في أنحاء المدينة. عم اليأس والحزن المواطنون وبكوا على حالهم. ولما رأى غردون باشا مدى حزنهم بكى معهم أيضاً. كانت تلك أول وآخر مرة أرى فيها غردون باشا يبكي بالدموع. لكنه حاول أن يشجعهم ويهدئهم بكل ما في وسعه من قوة. وعين أشخاصاً لهذا الغرض".

"وفي اليوم التالي عقب الهزيمة* أرسل المهدي عبد الرحمن النجومي مع ١٠٠٠٠٠ رجل ومصحوباً بأخيه حسن النجومي وعبد القادر وود مدرع، أمير قبيلة الحسنات، وعبد الله ود النور وعبد السلام وود حسب الله وعدداً من أمراء الثوار. إلى الكلاكلة وعمم منشوراً على كل القبائل في المدن والصحاري، شرقاً وغرباً، مستدعياً لهم للحضور لحصار الخرطوم ومهدداً، في نفس الوقت، المتأخرين بمصادرة كل ممتلكاتهم.

إستجابت كل القبائل لندائه وهرعوا بالجملة للاشتراك في الحصار. كانوا يطلقون قذائف البنادق والمدافع والصواريخ والأسلحة النارية من كافة الأنواع والتي كانت تسقط على المدينة من كافة جوانبها. كانت القوات تقوم من وقت لآخر بغارات خارج المدينة لطردهم عنها ولكن كانت كل جهودهم عديمة الفائدة وكانوا يعودون لحامياتهم وسط قذائف الثوار الكثيفة عليهم.

وبالرغم من كل هذه المخاطر التي تحيط به، إلا أن غردون باشا كان غير خائف. وأتذكر ذات ليلة أن أحد أعيان الخرطوم جاء لمنزلي ورجاني أن أطلب من غردون باشا عدم إضاءة غرف القصر، لأنها تشكل هدفاً لا تخطئه قذائف الثوار. وعندما ذكرت ذلك لغردون باشا تملكه الغضب وقال لي: "من الذي قال بأن غردون قد خاف أبداً؟" . وبعد بضع ليالي من ذلك كنت مع غردون في السراية. ولما كانت الغرف لا تزال مضيئة اقترحت عليه وضع صناديق مملوءة بالرمل أمام النوافذ حتى تحميها من الرصاص. غضب غردون باشا هذه المرة أكثر مما غضب من قبل فأستدعى الحراس

** وصفت يوميات غردون الأخيرة وصفاً تاماً كل الأحداث التي جرت حتى الرابع عشر من ديسمبر (١٨٨٤) والتي سنمر عليها، في الإفادة التالية، مروراً سريعاً. لكن للوصف الذي جاء من وجهة أحد المدنيين مثير للإهتمام بل، أكثر من ذلك، يملأ ويغطي الفراغ ما بين الرابع عشر من ديسمبر وحتى يوم ٢٦ يناير المميت الذي سقطت فيه المدينة. وقد وصفت الأحداث التي جرت أثناء الهجوم وصفاً تاماً في محاضر جلسات المحكمة العسكرية والتي إنسجمت تماماً مع ما ذكره بور ديني بك. ولذلك، وللإختصار، فسنحذف هذا الجزء من يومياته الخاص بتلك الأحداث.

* يقصد المؤلف هزيمة العيلفون (المعرب).

وأمرهم بإطلاق النار على إذا ما تحركت. ثم قام بإحضار شمعدان ضخم جداً يسع أربعة وعشرين شمعة وبدأت معه في وضع الشموع في تجاويفها ووضعنا الشمعدان على مائدة مقابلة للشباك ثم أو قدنا الشموع وجلسنا على المائدة. ثم قال الباشا: "عندما كان الله يقسم الخوف على كل البشر بالعالم، جاء دوري أخيراً عندما لم يتبق أي خوف ليعطيه لي. أذهب وأخبر كل سكان الخرطوم بأن غردون لا يخشى شيئاً لأن الله قد خلقه بدون خوف".

وأخيراً جاء كبير الثوار، محمد أحمد، مع قواته لمكان يدعى أبو سعد، في ضواحي أم درمان وقام بتعزيز المحاصرين بقوة.

وقبل وصوله، كان محمد أحمد قد أرسل لغردون باشا طقماً من الملابس بينما أعاد إليه البذلة التي كان غردون قد أرسلها له من قبل. ومعها خطاب يدعوه فيه إلى تسليم مدينة الخرطوم. كانت الملابس التي أرسلها محمد أحمد إلى غردون باشا عبارة عن جبة من الدمور (الذي يصنع في السودان) وحزام من الليف وطاقية من الليف وصندلين* إستفزت الملابس والخطاب غردون باشا فنهض على قدميه ورفس الكسوة بقدمه ثم أمر إبراهيم بك رشدي لكتابة رد عليه مضمونه ألا يتم أي إتصال بينهما مرة أخرى إلا بالرصاص وعاد رسل المهدي حاملين الرد، بعد أن أوصلهم حتى التحصينات أحد الضباط وأربعين جندياً.

ثم أقترب الثوار أكثر فأكثر ونصبوا مدافعهم في بطاريات بالقرب من مكان يدعي حلة حمد ومنه أخذوا يقصفون القلعة والسراية والمدينة نفسها.

وحتى يعمل على صدهم أمر غردون باشا الجنود لإطلاق النار عليهم من على سطح السراية وإعتاد أن يقوم في بعض الأحيان بحمل ألغام معه ويتوجه بأحد المراكب ليدفن الألغام في مكان إعتاد الثوار ارتياده وكان يقوم بوضع أعلام حمراء عليها. وعندما يحضر الثوار لأخذ الأعلام ينفجر اللغم قاتلاً لهم جميعاً. لكن هذه الحيلة اكتشفت أخيراً وبالتالي توقف القيام بها. قام العدو أيضا بتشييد حصن في خوجلي وضعوا فيه مدفعاً إعتادوا أن يطلقوه علي السراية. وكان القذائف تصيبها أحياناً وأحياناً أخري تسقط علي النهر بالقرب منها.

وعندما أنتهى كل ما لدي من ذرة، لأنني كنت قد بعته كله لغردون، أمر بتوزيع كميات من الذرة على المساكين من مخازن المديرية كما كان يأمر أحياناً ببيع ألف، وأحياناً ألفين، أردب من القمندانية للأهالي مقابل أوراق النقد (التي قام بإصدارها). وكان من وقت لآخر يأمر أقساماً من القوات ومن المدنيين لتفتيش المدينة وإحضار ما يجدونه بها من ذرة إلى القمندانية.

في ذلك الوقت قام قمندان أم درمان بإبراق غردون باشا طالباً منه مدفعاً لتقوية حصنه. أرسل إليه غردون باشا للحضور وسلمه مسئولية قيادة قسم من حصون الخرطوم بينما أمر فرج الله باشا لتولي قيادة أم درمان في مكانه وأخطره باستخدام بطارية الصواريخ الموجودة هناك بدلاً عن المدفع.

---

* الدمور نسيج قطني متين، يعرف أيضاً بالتوب، وكان في وقت من الأوقات يستورد من سنار. ويكاد كل سكان السودان الآن يلبسون الدمور. ويقال أن البذلة التي كان غردون يرتديها عند مقتله من ذلك القماش. إذ أن بذلته الرسمية. التي كان قد تركها في بربر. قد سقطت في أيدي الثوار.

تم بعد ذلك حصار أم درمان بقوة أرسلها المهدي بقيادة سوداني فارع الطول يسمي حمدان أبو عنقر** مصحوباً بأخيه وبعدد من الأمراء، وتم قطع كل إتصال مع الخرطوم. وعندما اكتشف غردون ذلك، باستخدام الإشارة، قام بإرسال ثلاثة بواخر مع قوة كبيرة لنجدة حامية أم درمان. لكن الثوار اصطدموا بهم ودارت معركة شرسة، استمرت عدة ساعات، من الصباح حتي الظهر، وذلك في الثاني عشر من نوفمبر. خسر الثوار خسائر جسيمة. أما من جانبنا فقد فقدنا الباخرة (الحسينية) بعد أن أصابتها قذيفة مدفع وغرقت بالقرب من جزيرة الشيخ أبو زيد وكان قد فقد معها اليوزباشي مصطفى أفندي وبعض الجند وبعض الجرحى من الخدم. لكن الثوار تمكنوا من الاحتفاظ بمواقعهم بعد المعركة حول أم درمان وأقاموا حصناً بين أم درمان والخرطوم وضعوا فيه مدافع مكنة وكروب وصواريخ وظلوا يواصلون قذف أم درمان والخرطوم. كما أقاموا محطات مراقبة على ضفة النهر لإطلاق النار علي البواخر. وقام غردون باشا من جانبه بعمل حصون على ضفة النهر المقابلة وأقام محطات للمراقبة أيضاً. كما قام ببناء حصن في جزيرة توتي وأستمر تبادل القصف المدفعي بين الجانبين لمدة أربعة وخمسين يوماً. وفي اليوم الخامس والخمسين إتصل قمندان أم درمان، بالإشارة، بالخرطوم مفيداً بأن المؤن والذخائر قد استنفذت. ورد عليه غردون باشا بالإشارة بأنه سيرسل إليهم كل ما يحتاجون إليه. وصباح اليوم التالي أرسل باخرتين محملتين بالمؤن والذخائر. تحت قيادة محمد بك إبراهيم. وفي هذه الأثناء فر جندي ليلاً من أم درمان إلى الثوار وأطلعهم على الوضع هناك وعن نية غردون باشا لإرسال المساعدات لهم. تحرك الثوار على الفور وأرسلوا قوة لإرهاق الوابورات وشغلها بينما قام القسم الرئيسي منهم بمهاجمة القوات، التي خرجت من أم درمان، ودحروهم متراجعين نحو الحصن وطوقوهم تماماً. قاتل محمد بك إبراهيم الثوار لكنه لم يتمكن من اختراقهم (والتقدم نحو أم درمان) واضطر للرجوع للخرطوم.

خلال هذه الأزمة إستدعي فرج الله (باشا) كل ضباطه للنظر في أمر إستسلامه من عدمه. فقرروا سؤال غدرون باشا ولما خاطبوه بالإشارة يوم ٥ يناير أجابهم بأن من الأفضل أن يستسلموا. قام فرج الله باشا بالتالي بالكتابة للمهدي حول ما استقر عليه الرأي وأرسل الخطاب بيد إمام الكتيبة مصحوباً بأحد الحرس.

رد عليهم المهدي بإرساله خازنه أحمد سليمان لهم ومعه يوسف منصور (المأمور السابق لكردفان والذي أصبح قائداً لمدفعية المهدي) وقائلاً لهم بأنه يضمن سلامة رجال الحامية هم وممتلكاتهم. ومع الخطاب أرسل جبة من الدمور لفرج الله باشا.

سلم الأخير نفسه ورجاله للعدو. وقام خازن المهدي ويوسف منصور باستلام كل ما كان بالحامية ثم أخذ كل الجنود، مصريين وسودانيين، كاسرى. وأصبحت الخرطوم الآن في وضع خطير. كان الثوار يحاصرونها من كل جانب وقطعوا عنها كل الإمدادات. وكانت محاصيل جزيرة توتي تزرع وتحصد تحت القصف، ثم تحمل المحاصيل إلى القمندانية. تم إنتاج ٢٠٠ أردب من الذرة وأشترى غردون باشا كل أردب باثني عشر جنيهاً. تم توزيع هذه الذرة على الجنود وعندما انتهت وانتهي كل

** حمدان أبو عنجة (المعرب).

الخبز الجاف المحفوظ أمرني غردون باشا، ومعي القنصل اليوناني واثنين من الضباط وأربعين جندياً، للقيام بتفتيش المدينة بيتاً بيتا بحثاً عن الذرة وقمنا بتخزين كل ما وجدناه في القمندانية. كنا قد وجدنا القليل من الذرة في مخازن بعض التجار كما وجدنا بعضاً آخراً مدفوناً في المطامير وأخذناها كلها للقمندانية. وتم تسليم إيصال لكل من أخذنا ذرته. وكنا نقوم بالتفتيش يومياً لحوالي ثلاثة أيام حتى تأكدنا من أنه لم تعد هناك أي ذرة لدي الأهالي. ولكن سرعان ما نضب كل ما كان بالقمندانية وبعد ذلك بدأ الأهالي والجنود في أكل الكلاب والحمير وجلود الحيوانات والصمغ وجمار النخل وأليافه ثم انتشرت المجاعة. كان الجنود يقفون كقطع الخشب عند التحصينات. أما المدنيون فكانت حالتهم أسوأ ومات الكثيرون منهم جوعاً وبدأت الجثث تملأ الشوارع إذا لم يعد هناك من لديه القوة على دفنهم. أمر غردون باشا أربعة من جنود الحرس للقيام بدفن الموتى، كل جندي مسئول عن أحد أرباع المدينة لكنهم لم يستطيعوا القيام بهذه المهمة. لذلك أصدر أمراً بأن كل من يدفن جثة سينال جائزة قدرها ريالان. ولكن حتى هذا الحافز لم يجدي. عاني الجنود من الجوع لدرجة بشعة وهرب بعضهم وانضم للثوار. ثم عقد غردون اجتماعا، كنت أحد أعضائه، للبحث في خطة نواجه بها هذا الوضع القاتم. وتم في الاجتماع اتخاذ قرار بالإجماع بالحصول على كل الماشية الموجودة داخل المدينة وخارجها لإطعام القوات. وتم تكليف مجموعة من النافذين لتنفيذ هذا الأمر. وهذه المجموعة مكونة مني ومن المدير أحمد بك على ونيكولو ليونتيدس (القنصل اليوناني) وإبراهيم بك فوزي وفتح الله الجهمي، من الترحيلات، ونيكولا بك، المفتش الطبي العام للسودان.

قمنا سوياً بجمع كل الماشية الموجودة بالمدينة وذبحناها ووزعناها على الجنود كجراية مرة كل ثلاثة أيام. وكان كل ما ذبحناه هو ثمانية وعشرين بقرة. وكان غردون باشا راضياً عن خدماتي وأنعم على برتبة سنية.

وأثناء ذلك، وفي التاسع عشر من يناير. هرب وإنضم للثوار سنجق يدعى إبراهيم، وصاغ من الباشبوزوق يسمي محمد عبد الله، مع بعض رجالهم، وكان معهم أيضاً تاجر يسمى محمد التوم. علم الثوار منهم الحالة في الخرطوم وضعف الجنود وحالتنا نحن جميعاً.

وقبل أيام من هذا الفرار كان غردون باشا، بعد أن رأى الحالة البائسة للأهالي، قد أمر المسئولين عن الترسانة النهرية بتجهيز باخرة وبعض المراكب ووضعها تحت تصرف الأهالي حتى يقوم من يرغب منهم في الخروج أن يعبر النهر للجانب الآخر حيث المهدي. بالتالي صار يخرج كل يوم مئات، وحتى آلاف منهم وينضمون للعدو.

وفي العشرين من يناير أطلق الثوار القذائف من ١٠١ مدفع تحية، وهي إشارة لإحرازهم نصراً. لكننا لم نصدق إمكانية هزيمتهم للإنجليز. لقد شاهد غردون باشا من خلال منظاره المكبر، حشوداً من النساء الباكيات وعلم بأن تلك التحية ما هي إلا حيلة من جانب محمد أحمد. وكان غردون قد درج على إستخدام إحدى نساء الشايقية كجاسوسة له. لذلك قامت بعبور النهر، على مركب صغير، ليلاً من الخرطوم لأم درمان وأخذت تتحدث مع الثوار وتستشف الأخبار. وكانت هي التي جاءت بالأنباء حول هزيمة الإنجليز للعرب في أبي طليح، وأن المهدي قد أطلق قذائف التحية تلك لبلبلة الحامية وتضليلها. وفي تلك الليلة عقد غردون باشا مجلساً من فرج باشا الزيني، قمندان الجنود،

ومحمد باشا حسن، مدير المالية، وإبراهيم بك فوزي ومحمد بك إبراهيم، نائب المدير، ونيكولو ليونتيدس، القنصل اليوناني، ودكتور نيقولا بك ومني، وذلك في منزل فرج باشا. أرسل غردون كبير كتبته، جيرياجس بك، لينوب عنه ولم يحضر بنفسه. وعند بداية المجلس خاطبنا جيرياجس بك وقال أن غردون باشا قد أنتدبه ممثلاً عنه، وأنه يريدهم أن يعرفوا بأنه تسلم معلومات باقتراب الإنجليز، وأنهم خلال يومين أو ثلاثة سيصلون للحلفاية, ولكن عليهم أن يتذكروا بأن قائد القوة البريطانية هو ضابط كبير الرتبة لدرجة أن رتبة غردون تبدو صغيرة أمامه. وقال أنه ربما لا يكون في نية القوة البريطانية دخول الخرطوم، بل قد يقوم بعض كبار ضباطهم بالحضور بباخرة لترسي بجوار القصر ثم يأمرون غردون للصعود إليها لزيارة قائد القوات الإنجليزية. لذلك يود غردون باشا من كل الضباط الحاضرين أن يرتدوا أزياءهم الرسمية، عندما تقترب الباخرة، وأن يحضروا للقصر. وعندما يسأل الضباط الإنجليز غردون للذهاب معهم فأن على الضابط المصريين أن يحتجوا على مغادرة غردون للمدينة. وإذا ما أصر الضباط الإنجليز على رأيهم فإن على كبار الضباط أن يصعدوا على ظهر الباخرة معهم ولتوجهوا لمقابلة القائد العام ويقدمون احتجاجاً عنيفاً في وجهه مصرين على أنهم لن يسمحوا لغردون بمغادرة الخرطوم. أما إذا ما رفض الإنجليز الحضور للخرطوم فأن على الحامية وأهالي الخرطوم أن يطمئنوا تماماً بأنه (غردون) لن يتخلى عنهم، بل سيبقى معهم ليموت مع جنوده. كان الانطباع الذي خرجت به من ذلك الإجتماع هو أن غردون ما قال لنا ذلك إلا لنستمر في الصمود, لكننا لم نشك قط في صحة المعلومات بأن الإنجليز قادمون وقد غمرنا السرور العظيم لذلك. وامتلأنا بالأمل وصرنا نتوقع يومياً وصول الإنجليز. ولكن مر يوم وراء يوم ولم نشاهد أو نسمع أي شئ عنهم وأخذ اليأس يملأ قلوبنا مرة أخرى. وقد اعتاد غردون باشا أن يقول لنا كل يوم "لابد أنهم سيحضرون غداً" لكنهم لم يحضروا أبداً وبدأنا نظن بأن الثوار لابد أن يكونوا قد هزموهم. تحطمت قلوبنا لذلك. وإستنتجنا بأن جيشاً لن يحضر لنجدة الخرطوم. فإذا ما جاءت باخرة، وعرفنا الحقيقة، وأن النجدة قد صارت قريبة جداً فلا شك في أننا كنا سنتزود بشجاعة جديدة وبعزم أكيد على المقاومة الفعالة رغم تضورنا بالجوع. وكنا نعلم بأننا لن نلاقي من العدو, إذا ما وقعنا في أيديهم, إلا أسوأ المعاملة. فقد سمعنا بما فعلوه بالأسري في الأبيض.

بجانب ذلك، كان غدرون باشا قد وعد الضباط والجنود والمدنيين. بجوائز عظيمة إذا ما صمدنا حتى وصول النجدة. من هنا كان لدينا كل الدافع للصمود إلى أن خيم اليأس على قلوبنا. وحتى النهاية، استخدم غردون كل ما في جعبته من حيل لإبقاء شعلة الأمل فينا, وحوالي يوم ٢٣ (يناير), وعندما كنا جميعاً في غمرة اليأس, سرت إشاعة بالمدينة بأن جاسوساً قد وصل ومعه رسائل. وقد تلقى أحمد أفندي بدوي خطاباً من مصطفى باشا ياور من دنقلا وبداخله بعض النقود. ووجد أحد التجار قطعة من جريدة على الطريق جاء فيها أن قوة الحملة الإنجليزية تصل إلى ١٥٠٠٠ جندي. أثارت فينا تلك الأنباء أملاً جديداً. لكنني علمت فيما بعد بأن كل هذا كان من تخطيط غردون، وأنه بنفسه الذي عمل على أن تكتب تلك الخطابات وأن ترفق بها بعض النقود وأن تطبع الجريدة.

وقبل فترة من الزمن كان غردون باشا قد أمر بترحيل كل البارود والذخائر وغيرها من المخازن والترسانة لتحفظ بداخل الكنيسة الكاثوليكية, التي لا تبعد كثيراً عن السراية، حيث أن بناءها

كان بحجارة متينة. وكانت أهم أسباب ذلك القرار هو ضمان سلامة الذخيرة وخاصة من قصف الأعداء ونيرانهم. كما أراد غردون بجانب ذلك أن تكون الذخيرة في متناول يده حتى يفجرها عند الضرورة وخاصة إذا ما استولي العرب على المدينة وليحرمهم من الحصول عليها. وبينما كان ذلك الهدف ماثلاً أمامه قام بتجهيز لغم ضخم ملأه بالمتفجرات ووضعه وسط الذخيرة، مثلما قام بعمل الترتيبات لمد شريط طويل من الكبريت البطئ (الإشتعال) بين الكنيسة والسراية. ولكن، وحتى يوم سقوط الخرطوم، لم يكتمل ذلك الخط إلا في محيط القصر. كما أبقى أيضاً على الباخرة الصغيرة (محمد علي) راسية وراء حائط حديقة القصر ووضع فيها حوالي ٥٠٠ قة من الخبز الجاف. وعلى حسب علمي، فقد أنتوي غردون الصمود بالخرطوم حني ينقطع آخر أمل في إنقاذها، وبعدها يقوم مع بعض المقربين له بالفرار عليها، رغم أنني اشك في أن غردون باشا سيفعل ذلك بنفسه. فقبل وقت مضي كان قد أعلن في أحد المجالس بأنه لن يستسلم أبداً وضرب الأرض بشدة بقدمه لتأكيد عزمه. لكني أظن أنه كان يحاول تأمين فرار أكبر عدد من ذوي النفوذ والأهمية على ظهر محمد علي. وتم الإحتفاظ بكل تلك الترتيبات، تفجير الذخائر أم الباخرة، سراً مكتوماً (ما عدا للقلة).

فقد كان غردون قد عمل علي قيام كل اليونانيين بالذات بالحراسة وبالتالي كانوا هم، وقنصلهم، عالمون بالسر، والذي كتموه تلقائياً لأن حياتهم أصبحت معلقة به. وكان المصري الوحيد الذي أخبروه هو طبيبهم أحمد أفندي فهمي. كما أخبرني غردون باشا بخططه وأيضاً أخبر محمد باشا حسن وإبراهيم بك فوزي وسليمان أفندي وكشارول والقنصل هانزل. وكان على حسن باشا أيضاً أن يذهب معهم ولكن كتم عنه هذا الأمر إلى اللحظة الأخيرة للتنفيذ. وتم تحذير مهندس الباخرة ليكون جاهزاً للإبحار فور تسلمه إشارة بذلك من غردون باشا. ولكن، ورغم كل هذه الترتيبات، إلا أن غردون باشا كان يقوم بكل ما في وسعه للحفاظ على الأمل. وقبل حوالي أسبوع من السقوط أصدر أمراً بأن يتم اعتبار كل يوم يمر بحسبانه سنة للخدمة وللأجر، حتى وصول الإنجليز. ولكنني كما ذكرت من قبل، فأنه عندما مرت ثلاثة أيام منذ عقد ذلك المجلس الأخير ولم تظهر أي أشارة بقدوم الإنجليز، بدأنا مرة أخري في الشعور باليأس. لقد تحطمت قلوبنا وبدأ الجنود والأهالي في فقد الثقة في وعود غردون وكانوا في أشد حالات الضعف من المجاعة. وأخيراً حل صباح الأحد، ولاحظ غردون باشا، الذي درج دائماً على مراقبة تحركات العدو من سطح القصر، لاحظ حركة محمومة في الجنوب وكأن العرب كانوا يحتشدون بالكلاكلة. فأرسل في الحال إلينا، نحن الذين حضرنا الاجتماع السابق، وللقليل من بعض الآخرين للحضور للقصر في الحال. جئنا كلنا لكن غردون لم يقابلنا. ومرة أخرى خاطبنا جريا جس بك والذي ذكر لنا أن غردون طلب منه أن يخبرنا بأنه لاحظ حركة شديدة في خطوط العدو وأنه يعتقد بأن هجوماً علي وشك أن يقع على المدينة. من ثم أمرنا بجمع أي ذكر بالمدينة من سن الثامنة وحتى آخر رجل عجوز وأن نحرس كل التحصينات وأن علينا، إن دعى الأمر، أن نستخدم القوة لتنفيذ الأمر. وأخبرنا جيرياجيس بك برجاء غردون للمرة الأخيرة لأن نقف وقفة عزم وتصميم لأنه، وفي خلال أربعة وعشرين ساعة، فلا يشك أبداً في قدوم الإنجليز. أما إذا اخترنا الاستسلام فقد أعطي القمندان الحرية لفتح البوابات والسماح للجميع بالانضمام للثوار. لم يكن لديه شئ آخر ليقوله. ثم طلبت السماح لي برؤية الباشا حيث مثلت في حضرته. وجدته جالساً على الديوان

وعندما اقتربت منه نزع طربوشه وألقى به بعيداً وقال:"ماذا بمقدوري أن أقول أكثر من ذلك، فليس لدي ما أقوله، ولم يعد الناس يصدقونني أكثر من ذلك، فقد حدثتهم مرة بعد الأخرى بأن النجدة ستصلنا لكنها لم تأت قط وما عادوا يرون الآن إلا أنني أكذب عليهم. فلو فشل وعدي الأخير هذا فلن يعد بمقدوري القيام بشئ آخر. أذهب وأجمع كل من تقدر عليه لملئ الخطوط وقفوا وقفة قوية. أتركني الآن لأدخن تلك السيجارات (كان هنالك صندوقان مليئان بالسيجاير على الطاولة).

كنت أرى أنه يائس وقد تحدث لي بنغمة لم أسمعها منه قط من قبل. وعرفت وقتها أنه كان مضطرباً لدرجة لا يستطيع معها مخاطبة الإجتماع وفكرت في نفسي أن مشاهدته بهذا اليأس سيثبط من هممنا. لقد أحال كل القلق الذي مر به شعر رأسه تدريجياً إلى لون أبيض كالجليد. غادرته وكانت تلك آخر مرة أراه فيها حياً. وكان قد حذرني للبقاء في منزلي إذا وقع الهجوم وإلى أن يرسل لي. ثم بارحت القصر وشرعت في جمع كل من إستطعت أن أجده من الناس القادرين على الوقوف ووضعناهم على خطوط الدفاع. لم نتوقع أن يأتينا الهجوم من جانب المتراس الذي تهدم, لأن الأرض هناك كانت هشة, وكان الخندق مليئاً بالطين والطمي اللين، بل ظننا أن الهجوم غالباً ما يتم بين بوابتي بري والمسلمية وبالتالي حشدنا فيهما عدداً من الرجال أكثر مما في أي مكان آخر. لكنني كنت أري اليأس المخيم على وجوه كل الناس، وكنت أسترق السمع للناس وهم يقولون:"لقد خدعنا الباشا أخيراً مع أننا إستمعنا إليه وإلى كل ما قاله لنا لسنة كاملة" وتذكرت غردون باشا عندما كان يقول كثيراً لي:" لو أن بضعة جنود إنجليز من القوة المتقدمة جاءت وإستعرضت نفسها حول خطوط دفاعات الخرطوم، فأنني لن أخشي أبداً من هجوم العدو". لكن هذا لم يحدث وغمر يأس ثقيل نفوسنا جميعاً. كان يوماً كئيباً، ذلك اليوم الأخير في الخرطوم، وكان المئات راقدين على الأرض إما موتي أو يحتضرون من الجوع, ولم يكن هناك من يدفن الموتي. وأخيراً حل الليل. وكما علمت فيما بعد فقد ظل غردون جالساً يكتب حتى منتصف الليل ثم رقد لينام. إستيقظ في وقت ما بين الثانية والثالثة صباحاً فقد كانت صيحات الحرب الوحشية للعرب تسمع من مكان قريب. فقد زحف عدد ضخم من العرب المتمردين، أثناء الظلام, خلال المتراس المحطم والخندق المملوء بالطين، بين النيل الأبيض وبوابة المسلمية، والتي كانت تحت قيادة حسن بك البهنساوي. لم يعلم الجنود بأقتراب العدو منهم إلا قبل حوالي عشرين دقيقة من هجومهم الفعلي وذلك عندما سمعوا صوت الأقدام وأطلقت صفارات الإنذار لكنهم كانوا في أشد حالات التعب حتى أنهم لم يهبوا منزعجين إلا بعد أن أطلق الحراس النار فوجدوا أمواجاً من العرب مندفعة على الخندق وعلى المتراس وهم يصرخون ويطلقون صيحات الحرب. لم تواجههم إلا مقاومة ضعيفة، فقد كان معظم الجنود متباعدين أربعه أو خمسة خطوات عن بعضهم البعض وكانوا أضعف من أن يواجهوا مثل هذا التيهور المندفع نحوهم. وسرعان ما كان العرب وسط الخطوط وبالتالي تمكنوا من مهاجمه بقيه الجنود من خلفهم. جرت مقاومه في بعض النقاط لكن سرعان ما إنتهى كل شئ. كان فرج باشا القائد العام لكل قوا ت الدفاع في بري عندما بدأ الهجوم. ركب في الحال عبر الخطوط مشجعاً الجميع للقتال، لكنه عندما إقترب من بوابه المسلمية شاهد العدو عند اختراقه للخندق وهو مندفع عبر الخطوط وكان المئات منهم قد وصلوا قبل ذلك للجزء الجنوبي الغربي للمدينة. ظن إن المقاومة لم تعد ذات جدوى فتناول بذلة مدنيه وغطى بها بدلته الرسمية

وتوجه نحو بوابه المسلمية وأمر الحارس بفتحها. لكن الحارس، والذي كان جندياً سودانياً، رفض الأمر وقال له "لن أخالف أوامر غردون باشا ولن أتسلم منك أي أوامر وأنت في ملابس مدنية) مزق فرج باشا الحارس وفتح البوابة بنفسه ولاذ بالفرار. لم يكن لفتح تلك البوابة أي أهميه تذكر فقد كانت المدينة قد سقطت في تلك الأثناء وكان سيل العرب المتدفق قد وصل بعيداً إلى الغرب.

سلم فرج باشا نفسه للثوار ولكن تم قتله بعد ثلاثة أيام على يد مكين ود النور* إنتقاماً لمقتل أخيه عبد الله ود النور، والذي كان أحد رجال فرج باشا قد أطلق عليه النار أثناء إشتباكات الأسابيع الماضية. أما محمد بك إبراهيم، والذي كان وقتها قائداً لقوات بوابة المسلمية، ومسئولاً عن كل المدنيين، فقد شكل مربعاً من جنوده وقاتل الثوار بشجاعة حتى قتل هو ورجاله جميعاً. كما قاتل بخيت بك بطراكي، قمندان بري، الثوار بشجاعة حتى قتل مع رجاله جميعاً. أما الجنود الذين كانوا على ظهر القوارب والصنادل المحصنة على النيل الأبيض فلم يبدوا إلا مقاومة ضعيفة. وباستيلاء الثوار على المدينة إندفعوا نحو القصر.

في تلك الأثناء توجه غردون باشا، الذي أيقظته الضجة. إلى سطح القصر وهو بملابس النوم وسرعان ما إكتشف دخول الثوار للمدينة وظل لمدة تزيد على الساعة يقذف نيراناً حامية باتجاه الهجوم ولقد سمعت (فيما بعد) بأنه أرسل لتجهيز الباخرة وإدارة محركاتها لكن المهندس لم يكن بها، فقد كان خائفاً لدرجة أنه لم يبارح منزله. وعندما لاح الفجر تمكن غردون من رؤية رايات العرب فوق المدينة. وسرعان ما لم يعد للمدفع أي أثر، لأنه لم يتمكن من خفض ماسورته للدرجة التي تمكنه من رمي العدو. وخلال ذلك كان العرب قد تجمعوا حول القصر بالآلاف، ولكن لم يجرؤ أحد منهم، لبعض الوقت، على دخوله ظناً منهم بأن ألغاماً قد وضعت لنسفهم جميعاً. غادر غردون باشا سطح القصر وتوجه إلى غرفة نومه، الملاصقة للديوان، وهناك إرتدي بزة بيضاء معلق بها سيفه، الذي لم يشرعه، وحمل مسدساً في يده اليمنى وعبر إلى الممر المواجه لمدخل المكتب والذي يقع أمام أعلى الدرج. أثناء ذلك شق أربعة رجال، أكثر شجاعة من الباقين، طريقهم بالقوة لداخل القصر. وفور دخولهم دخل وراءهم مئات الآخرين والذين اندفع معظمهم عبر الدرج حتى السطح حيث، وبعد مقاومة قصيرة، تم قتل كل حرس القصر والخدم والقواصين. أما الرجال الأربعة: طه شاهين وهو رجل دنقلاوي كان والده يعمل في خدمتي من قبل، وإبراهيم أبو شنب وهو خادم لجورج أنقلتو، وحمد ود أحمد جار النبي الحسني، ورجل دنقلاوي رابع كان خادماً لفتح الله الجهمي* والذين كانوا يعرفون مكان غرفة غردون باشا، فقد إندفعوا نحوها وتبعهم حشد من الآخرين. كان طه شاهين أول من واجه غردون بجانب باب الديوان، وكان واضحاً أنه واقف في انتظار العرب بهدوء، وكبرياء وواضعاً يده اليسري على مقبض سيفه. إندفع شاهين نحوه صائحاً:" يا ملعون! اليوم يومك!" وغرز حربته في جسمه. ويقال أن غردون أشار بيده بازدراء وأدار ظهره له، حيث تلقى طعنة أخرى من رمح تسببت

---

* مات هذا الأمير بعد يوم من معركة توشكي من جراء الجراح التي أصيب بها وقد تم دفنه في التلال المطلة على أبي سمبل.

* هؤلاء الرجال الأربعة كانوا من أتباع المهدي منذ وقت طويل، ومن بداية عهده.

في سقوطه إلى الأمام وغالباً ما تكون هي الطعنة القاتلة. ثم اندفع الرجال الثلاثة الآخرين، الذين كانوا وراء شاهين، ومزقوا الجسد الممدد بسيوفهم ولابد أن يكونوا قد قتلوه من بضع ثوان. حدث موته قبل شروق الشمس، ولم يكن قد بذل أي جهد للمقاومة ولم يطلق رصاصة من مسدسه. لكنني مقتنع، لكل ما أعرفه عنه، أنه لم ينوي الاستسلام أبداً. ويمكن القول بأنه كان ينوي استخدام مسدسه فقط إذا ما رأى أن العرب سيأسرونه حياً. لكنه رأى الرجال مندفعين نحوه مشرعين سيوفهم ورماحهم، ولم يكن بينهم أي أمير مهم، وكان لابد له أن يعلم بأنهم لا يريدون الإبقاء على حياته وهذا هو الذي كان يريده غالباً. إضافة لذلك، فأنه حتى لو أطلق النار فلن يؤخر ذلك موته إلا للحظات. فأولئك العرب المتوحشون المتعصبون لن توقفهم بضع رصاصات من مسدس أبداً.

تم قطع رأس غردون باشا في الحال وأرسل للمهدي في أم درمان. أما جسمه فقد تم جره على الأرض عبر سلالم الدرج وترك مكشوفاً لبعض الوقت في الحديقة حيث قام كثيرون من العرب بغمس حرابهم فيه. ولقد سمعت بأن المهدي قد أصدر أوامره بالإبقاء على حياة غردون, ولكن ما ذكرته أنفا سمعته من الرجال الأربعة الذين ذكرتهم من قبل, وأظن أن المهدي قد عفا عنهم عدم طاعتهم لأوامره.

وعندما هربت من أم درمان كانوا لا يزالون يعيشون بين الأنصار. أما أنا فقد شاهدت قليلاً مما حدث. فبعد الهجوم مباشرة دخل عدد من العرب منزلي وأخذوني أسيراً وأخرجوني عارياً من المدينة. عوملت لبعض الوقت معاملة سيئة ولكن بعد ذلك بقليل حزت على رضاء المهدي, عن طريق أبنة أخي, التي اتخذها كأحدى زوجاته.

ورأيت رأس غردون باشا معروضاً في أم درمان. كان قد علق بين فرعي شجرة وكان كل من يمر بجواره يقذفه بحجر وكان أول من قذفه بحجر يوسف منصور, مأمور البوليس السابق بالأبيض, والذي كان غردون باشا قد فصله من الخدمة لسوء سلوكه, والذي بعد ذلك صار قائداً لمدفعية المهدي.

تم قتل عدد كبير من سكان الخرطوم ومن الجنود. واستمر العرب في القتل والنهب لحوالي ستة ساعات حتى جاءهم أمر المهدي بالتوقف عن ذلك.

وكان هذا ما أفاد به واحد من الذين كانوا بالمدينة.*

* * *

ونعود الآن إلى تحركات حملة الإنقاذ. ففي السابع عشر من يناير ١٨٨٥ حدثت المعركة، المنسية ولكن الحاسمة، بين العرب والحملة في أبو طليح, وناضلت القوة البريطانية، التي هدها التعب وقتل أو جرح عدد من قادتها، حتى شقت طريقها إلى النيل، ودحرت في طريقها، في أبو طليح، ومرة أخرى، قسماً من جيوش الثوار يقوده النور عنقرة. ثم تركوا المتمة على يسارهم، والتي كانت في ذلك الوقت ذات قوة ضعيفة تسيطر عليها، ومضوا نحو النهر والذي وصلوا إليه بالقرب من القبة، التي تبعد بحوالي ميلين جنوب المتمة، وذلك في مساء التاسع عشر. وفي الحادي والعشرين

* طابقت هذه الإفادة ما ذكره كثيرون ممن كانوا بالخرطوم أثناء الحصار.

من يناير التقوا ببواخر غردون. كانت تلك البواخر الأربعة مسلحة حتى اسنانها ومموّنة جيداً لدرجة أنهم صمدوا في مكانهم على النيل لمدة ١١٢ يوماً.

كانت الماكينات بحالة جيدة وكان قادة الدفة يعرفون كل بوصة في النهر تأخروا في القبة لثلاثة أيام كانوا خلالها يقومون بصيانة البواخر, وبإبعاد المصريين وغيرهم من الذين أصر غردون على ألا يعودوا والخرطوم أبداً، كما قاموا باستطلاع النهر باتجاه المتمة، والتي كان العرب قد أعادوا إحتلالها بالقوة عندما لاحظوا أن البريطانيين قد عسكروا في القبة، وقاموا أيضاً بإعادة الأستطلاع بالبواخر باتجاه شندي.

ولم يصعدوا على البواخر ويتحركون بحذر تجاه الخرطوم إلا يوم ٢٤ يناير حيث وصلوها بعد أربعة أيام ليجدوا أنها قد سقطت قبل يومين فقط من وصولهم.

وهنا، فأن ما جاء بالتاريخ الرسمي لحملة السودان، والذي يسرد أحداث هذه الرحلة الجديرة بأن تذكر, والمحفوفة بالمخاطر, هو الأفضل لمواصلة الرواية:

الرحلة إلى الخرطوم :

في الثامنة من صباح الرابع والعشرين من يناير ١٨٨٥، تحرك السير س. ولسون نحو الخرطوم على البوردين. وكان بصحبته خشم الموس بك، والكابت ر. ف .ت. قاسكويني، وعشرة من ضباط الصف، ورجال من كتيبة الرويال سسكس، وضابط صغير، وأحد الفنيين المهرة من الأسطول الملكي و ١١٠من الجنود السودانيين.

وقد رافقت البوردين الباخرة تل حوين والتي كان على ظهرها الكابتن ل.ج. ترافورد وعشرة من قوات كتيبة الرويال سسكس بمن فيهم أحد رجال الإشارة، والملازم ستيوارت ورتلي، وأحد فنيي البحرية الملكية، وعبد الحميد بك وثمانين من الجنود السودانيين. وكانت تقطر وراءها زورقاً كبيراً محملاً بالذرة للخرطوم وثمانين جندياً سودانياً.

تلك البواخر كانت كالمراكب الخشبية الصغيرة وحجمها يعادل تقريباً حجم بواخر نهر الثيمس المسماة بال (Penny steamers). وقد تم تصفيحهم ضد الرصاص بعمل طبقة مغلفة لها مع متراس مرتجل من الحديد الصلب الذي كسيت به جوانبها كما ذودت أيضاً بأبراج مضادة للرصاص في مقدمتها ووسطها. ولكن لا تلك الأبراج ولا الجوانب المصفحة كانت مقاومة لقذائف المدافع. وسلحت البواخر بمدافع هاوتزر عيار تسعة أرطال وكان بكل باخرة مدفعين منها.

وطبقاً لرجاء من غردون ثم أبعاد كل المصريين، وكانت القوات بالتالي، وأيضاً البحارة، تتكون كلها من الجنود السودانيين والشايقية.

وعندما كانوا في مقابل الضفة اليسري، لاحظوا قسماً من قوات الفكي مصطفى على الضفة. ولكن وباستثناء بعض طلقات طائشة, فأنها لم تشكل عقبة أمام مرور البواخر. كانت تلك القوات قد غادرت أم درمان بعد يومين من مغادرة قوات النور عنقرة لها، والتي تمت مواجهتها يوم ١٩ يناير. وعندما سمعوا بنتائج تلك المواجهة توقفوا عن المضي قدماً واتخذوا من ود الحبشي موقعاً لهم.

بعد ذلك إستمرت الرحلة في طريقها بدون أي حادث حتى حلول الظلام، حيث أرست البواخر على الضفة الشرقية بالقرب من قوز البسابير.

وعند الصباح بدأوا التحرك من جديد لكنهم إضطروا للتوقف لبعض الوقت قبل الظهر لإحضار (حطب) الوقود. والذي كانت تلك البواخر ذات المحركات العتيقة تستهلك كميات كبيرة منه. وكان توقفهم يتكرر كثيراً حيث كان عليهم الحصول على الوقود بتحطيم بيوت الأهالي واستخدام أخشابها. وكان كل توقف من هذا القبيل يستغرق وقتاً كبيراً منهم.

وحوالي الرابعة والنصف بعد ظهر يوم ٢٥ تم تجاوزهم لحصون العدو في ود الحبشي. وكانوا قد إستعدوا لمواجهة حامية ونيران ثقيلة أثناء مرورهم ولكن أتضح أن الحصون كانت خاوية من المدافعين. وواصلت البواخر إبحارها بدون صعوبة حتي حوالي السادسة بعد الظهر عندما اصطدمت البوردين بقوة بصخرة. ورغم أن كل البحارة ظلوا يعملون حتى منتصف الليل لتحريكها، إلا أنهم لم يفلحوا في ذلك.

يحتوي الشلال السادس على شبكة من القنوات والمجاري التي تمر بين عدة جزائر تتناثر بالنهر. ومن بين تلك القنوات كانت لا تصلح للمرور منها إلا قناتان، واحدة على الضفة اليمنى أثناء ارتفاع منسوب النيل وأخرى وسط النهر عند انخفاضه. ولما كانت البواخر تبحر على القناة اليمنى، أو الشرقية، فقد تخيل الريس أن بأمكانه المرور عبرها. وقد فعل ذلك بدون مشقة إلى أن اصطدمت البوردين بالصخرة. أما تل حوين فقد أتمت المرور بدون حدث يذكر.

وصباح اليوم التالي تم تفريغ شحنه البوردين من المخزونات والذخائر وغيرها حتى تمكنوا من تحركها حيث أعيدت الشحنات لها وواصلت طريقها في المجرى.

ومرة أخرى توقفت بسبب دخولها في جرف رملي وذلك قبل قطعها لمسافة قصيرة. وبعد جهد عظيم تم تحريكها مرة أخرى. تحدث ربابنة الباخرتين وقالا أنه نظراً لصعوبات الملاحة فأن من الضروري توحيد جهد يهما لتعدية كل باخرة على حدة. وبالتالي توجه ريس البوردين إلى تل حوين وتوجه بها إلى فم المجرى ثم قال بعد ذلك أن من المستحيل عليه أخذ سفينته ومرورها بنفس المجرى. وطبقاً لذلك ابتعدت البوردين إلى مسافة معينة وتوجهت نحو الممر الأوسط ووصلت إلى قمته قبل غروب الشمس بقليل.

ترتب على تلك الأحداث أن ضاعت منهم أربعة وعشرين ساعة، وكانت البواخر ليلة السادس والعشرين من يناير أقرب للخرطوم بثلاثة أميال فقط عما كانت عليه في ليلة الخامس والعشرين. وتحركوا عند شروق شمس اليوم التالي وتم عبور مضيق السبلوقة بدون صعوبة. هذا المضيق، والذي يتراوح طوله ما بين ثلاثة إلى أربعة أميال، محاط على كل من جانبيه بصخور شاهقة شديدة الانحدار لا تبتعد عن بعضها إلا بحوالي ٣٠٠ ياردة. وهذا الموضع هو واحد من المواضع التي يمكن حمايتها بسهولة بحفنة من مهرة الرماة. لذلك فقد أستغرب الجميع ودهشوا لعدم مواجهتهم لأي مقاومة هنا.

وفي قوز نفيسة، عند مدخل الممر، توقفوا للحصول على الوقود. وبينما كان جمع الحطب جارياً تم إطلاق النار عليهم من أهالي القرية المحاطة بالجبال. ومع هذا الإستثناء لم يواجهوا أي مقاومة تذكر حتى الثانية بعد الظهر حيث أصبحت نيران العدو. المنصبة عليهم من الضفة اليسرى، أشد سخونة واستمرت كذلك حتى الغروب. وأثناء فترة العصر صاح فيهم رجل من على الشاطئ بأن الخرطوم قد سقطت, وأن الجنرال غردون قد قتل. لكن الذين كانوا على ظهر البواخر لم يصدقوا ما صاح به الرجل.

وعند ما حل الظلام أسرعوا بالبواخر لترسو على الشاطئ بالقرب من قرية تمانيات، وحيث شحنوا البواخر بأقصى ما تستطيعان حمله من وقود.

وفي السادسة من صباح اليوم التالي، ٢٨ يناير، واصلت البواخر طريقها والذي كان يظن أنه المرحلة الأخيرة قبل الوصول للخرطوم. وكانت التعليمات المتعلقة باختراق الحصار هو أن تقود البوردين الطريق، على أن تتبعها تل حوين على مسافة قريبة، وتتحرك تبعاً لتحركها، وكان على الباخرتين الإسراع في الحركة قدماً. وكان على فصيل الرويال سسكس التعامل مع بطاريات العدو خاصة، إضافة إلى تدميرها بالمدفعية. أما القوات السودانية فكان عليها إطلاق النار المستمر على العدو. أما الملازم ستيوارت ورتلي، ومعه جندي الإشارة، فكان عليهما لفت إنتباه الجنرال غردون باستخدام الإشارة الضوئية الشمسية (أو الهليوجراف).

وتم عبور الجبل المنحدر القريب من النهر والمطل على الشيخ الطيب، وحيث كان العدو قد نصب بطارية وبعض المدافع من قبل، بدون مقاومة في السابعة والنصف صباحاً. وهنا صاح أحد الأهالي الآخرين معلناً لركاب تل حوين سقوط الخرطوم.

وحوالي الحادية عشرة صباحاً اطل عليهم أول مشهد للخرطوم، والتي لا زالت على بعد بضعة أميال منهم، وكان المشهد مغطى جزئياً بجزيرة توتي.

وفي ذلك الوقت صاح مواطن آخر فيهم بأن الخرطوم قد سقطت وأن الجنرال غردون قد قتل. وعندما اقتربوا من الفجيجة أنهال عليهم العدو بقذائف عنيفة من الشاطئ. وبعد نصف ميل من ذلك واجهت البواخر منطقة الحلفاية وواجهت نيراناً عنيفة من أربعة مدافع وعدد كبير من البنادق.

وردوا على النيران بالمثل، بالمدافع والبنادق، ولكن لم يؤثروا عليهم إلا قليلاً، فقد كان العدو يصليهم من وراء غطاء جيد. وقاد السير تشالس ولسون العمليات من برج السفينة المدرع، والذي ساعده ارتفاعه وموقعه على إدارة العمليات بسهولة والاتصال مباشرة بالريس وبالمهندسين.

ولا حظوا مقابل الحلفاية بأن المدينة مدمرة تماماً وأن بعض الزوارق الكبيرة كانت ملقاة بعيدة عن الشاطئ. ولمعرفتهم بأن المهدي لا يمتلك زوارقاً، فقد أفترضوا بأن قواتاً للجنرال غردون لابد أن تكون هنا. وهو افتراض سرعان ما إتضح عدم صحته وذلك عندما فتحت النيران بشراسة على البواخر.

وعند ما وصلوا لأسفل جزيرة توتي توقف إطلاق النار عليهم تقريباً. وعندما تلاشي الدخان شاهدوا من فوق الأشجار، وبوضوح، قصر الحكومة بالخرطوم. ولما كان من المعروف أن الجنرال

غردون كان يرفع العلم المصري دائماً فوق هذا المبني، فقد أمعنوا النظر خلال المناظير المعظمة بحثاً عن ذلك العلم لكنهم لم يشاهدوا أي أثر له. وعند وصولهم للركن الجنوبي للجزيرة واجهتهم نيران حامية من ضفتي النهر وفي نفس الوقت قامت أربعة مدافع بقصفهم من قلعة أم درمان.

كانت قذائف الضفة اليمنى ذات مدى يلغ ما بين ٦٠ - ٢٠٠ ياردة، أما قذائف الضفة اليسري فتراوح مداها لما بين ١٠٠٠ - ١٢٠٠ ياردة. ونظراً لانحدار الضفة، وخاصة من جانب أم درمان، فلم يتاح للعدو إلا ساتراً ضعيفاً ولابد أن نيران البواخر قد قامت بتنفيذ مذبحة عظيمة وسط الجماهير المحتشدة التي كانت مصطفة علي الشاطئ.

أتضح الآن أن جزيرة توتي هي بيد العدو، ولكن لما كان هناك احتمال بأن الخرطوم قد لا تزال صامدة، فقد تقدم السير تشارلس ولسون للأمام. ولما دار حول الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة، شاهد أمامه منظراً كاملاً للخرطوم. وهنا لاحظ عدم وجود أي علم مصري يرفرف على أي مكان بالمدنية، وذلك رغم تدقيق البحث بالمناظير المكبرة، وأيضاً لاقتراب البواخر للدرجة التي يمكن مشاهدة أي علم، إذا وجد، بالعين المجردة.

وقد شاهدوا عدداً من الزوارق الكبيرة وناقلات الجنود النهرية متجمعة على الضفة اليسري للنيل بأم درمان. وكان من المعروف أن الجنرال غردون كان يحتفظ بها دائماً راسية تحت حصون مدفعيته التي علي النهر بالخرطوم.

لم تأت لهم أي باخرة من التي كان غردون قد أحتفظ بها هنا. بل أن الخرطوم نفسها كانت تطلق النار على بواخر السير تشارلس ولسون.

وشوهدت أعداد من رجال العدو، حاملين الرماح والأعلام، يتجمعون على شاطئ النيل الأبيض، من ناحية الخرطوم، وهم علي استعداد لمواجهة أي محاولة للهبوط على الشاطئ. ولم يسمع أي إطلاق للنار من الخرطوم نفسها وكان القصر الحكومي والمباني المجاورة له مدمرة تماماً.

أقنعت تلك الحقائق، مع القصف الثقيل من جانب جزيرة توتي، السير تشارلس ولسون بأن الخرطوم فعلاً قد سقطت. وقد قدر أن أي محاولة للنزول قد تؤدي لإضاعة الأرواح بدون طائل. لذلك أمر البوردين للعودة وإنطلق في الحال باتجاه مجرى النهر.

ولكن تل حوين، في هذه الأثناء، كانت قد جنحت. ولفترة من الزمن كانت في وضع شديد الخطر. ولكن بعد لحظات من مرور البوردين تمكنت من الخروج من مأزقها واستدارت ولحقت بدرب أختها. وعندما استدارت البواخر تضاعفت نيران العدو عليها بينما هي لائذة بالإسراع لأسفل النهر وسط تيهور من القذائف والرصاص المنطلق عليها. أصيبت كلتا الباخرتين لكن إصابتيهما لم تكن بالخطيرة. وأثناء استدارتهما شاهدوا رجلاً ممتطياً جملاً، من ناحية أم درمان، وهو يلوح لهم بعلم أبيض. ولما كانت نيران العدو لازالت منصبة عليهم فقد رؤى أن من غير المناسب التوقف لمعرفة ما يريد إيصاله لهم.

وفي الرابعة من بعد ظهر الثامن والعشرين من يناير، وبعد أن كـانوا مشـتبكين لأربعـة ساعات مع العدو، تمكنت البواخر من الوصول لمسافة بعيدة عن بطاريات العدو. وكان فرارهم ذاك لا يقل عن كونه أعجوبة من الأعاجيب.

ثم جاء الخطر الكبير المتمثل الآن في سخط واستياء البحارة السودانيين والذين كانوا فـي أشد حالات الإحباط من جراء فقدان عوائلهم التي بالخرطوم. وفي أحسن حالاتهم كانوا غير راغبـين في بذل المزيد من الجهود والمعاناة بعد ذلك، كما أظهر كثيرون منهم، بعد أن عرفـوا بـأن جانـب المهدي قد أصبح الجانب الرابح، ميلاً واضحاً للإنضمام للعدو.

واستمرت البواخر في سيرها بدون مواجهة حتى حلول الظلام حيث أسرعوا للرسو علـى جزيرة تبعد بحوالي ١٢ ميل جنوب جبل الرويان. ومن هذا المكان قاموا بإرسال من يأتيهم بـالخبر اليقين عن مصير غردون. وعند عودة الرسل ذكروا بأن المدينة قد سقطت صباح يـوم ٢٦ ينـاير بسبب خيانة فرج باشا، وأن الجنرال غردون قد قتل. وذكروا أن المدينة ظلت مستباحة لثلاثة أيام.

كان هناك الكثير ليقوموا بعمله ذلك المساء، وفي صباح اليوم التالي، حيث يجـب العنايـة بالجرحى، وقفل الثقوب التي أحدثها الرصاص، وإصلاح أحد بدالات باخرة. وفوق كل شئ يجب وضع الخطط لعبور الشلال والإتفاق عليها. لم يكن ذلك بالأمر السهل. فقد كانت البوردين وتل حوين أكبـر في الحجم من البواخر التي ترسل عادة على النيل في مثل ذلك الوقت. كما كانتا ثقيلتين بما عليهمـا من تصفيح بالحديد ومن المدافع التي بها إضافة إلى شحنهما بكميات كبيرة من الذرة والتـي كـانوا ينوون تسليمها للحامية.

وكان النيل يهبط بأستمرار وسرعة. وقد لاحظوا هبوطاً في منسوبه بلغ ثلاثة أقدام في ليلة واحدة بالقبة. ومن المحتمل أن الريسين لم ينتبها لذلك فقد ذكرا في مبدأ الأمر أن مـن المسـتحيل إنجاز المهمة الموكولة إليهما. ولكن وعداً بحافز قدره ١٠٠ جنيه لكل قبطان ونصف ذلك المبلغ لكل ريس. إذا نجحوا في المرور بسلام من تلك المنطقة، عملت على تعديل رأيهم. تم إلقاء كل الذرة في النهر وعملوا على تخفيف حمولة الباخرتين بشكل كبير وفي السابعة صباحاً يوم ٢٩ يناير بدأ التوجه نحو الشمال.

وبعد حوالي ساعة ونصف من إبحار البوردين اصطدمت بجرف رملي وتم إخراجهـا منـه بدون صعوبة. ووصلوا إلى بداية الشلال في الثانية عشرة والنصف نهاراً وتم الاتفاق علي تركيز كل المهارات الملاحية على باخرة واحدة في كل مرة. بالتالي إنصرفوا عـن البـوردين وقـام قبطانهـا وريسها بأخذ تل حوين عبر المخل الأول للشلال. وقد تم أنجاز هذه المهمـة بسـلام ثـم جـاء دور البوردين للإلتحاق بأختها وتم ذلك.

وعند نهاية المنحدر العلوي وصلوا لمياه مفتوحة. وكان كل شئ يسير، كما يبدو، على ما يرام عندما اصطدمت تل حوين، في الرابعة والنصف عصراً، بعنف بصـخرة غاطسـة، أمـام جبـل الرويان، وبدأت في الغرق في الحال.

أوصلوا البوردين فوراً لترسو على جزيرة قريبة وبدأوا في إرسال المساعدة للباخرة المحطمة. لكنهم لم يحتاجوا لذلك، إذ أن الكابتن قاسكويني عندما وصل لمسرح الحطام، على متن أحد قوارب البوردين، وجد أن الكابتن ترافورد والملازم ستيوارت ورتلي قد أخليا كل الرجال والمدفعين ومعظم المخزونات إلى القارب الكبير المقطور بها. أما كل ذخيرة المدافع وذخائر الأسلحة الصغيرة فقد فقدت.

كانت بضعة طلقات قد أطلقت علي الباخرتين أثناء النهار لكن لم يؤد ذلك إلى أي ضرر كما لم يتم الرد على تلك النيران. وعند المساء ظهر أحد رسل المهدي على ضفة النهر وتم إستقباله على ظهر البوردين. وقام المبعوث بتسليم السير تشارلس ولسن خطاباً هذه ترجمته: "بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم. من العبد المفتقر إلى الله والمعتمد عليه، محمد المهدي بن عبد الله إلى ضباط الإنجليز والشايقية وأتباعهم: هداهم الله إلى الحق. سلموا ولن تمس أرواحكم، ولا تكونوا من العاصين حتى لا تحل بكم الندامة، وها أنا أحذركم الآن. وإذا شاء الله فسيهديكم إلى طريق الرشاد.

وليكن في علمكم أن مدينة الخرطوم وما حولها، والتي كانت تعتز بحاميتها القوية، فأن الله دمرها مع غيرها من الأماكن بأيدينا، إذ لا شئ يمكن أن يقف أمام قوته وقدرته. وبفضل الله فقد أمسكنا بكل شئ بأيدينا. لقد صرتم الآن بقايا صغيرة كوريقة الشجرة في قبضتنا. وها أنا أعرض عليكم خيارين: فأن استسلمتم وحقنتم دماءكم ودماء خلق الله الذين تحت قيادتكم فهذا شئ حسن طيب. وستجدون التقدير والأمن من الله ورسوله، والأمن منا سينالكم. ولكن، إن لم تصدقوا ما قلته لكم وأردتم التأكد من (قتل) الخرطوم (غردون) فأرسلوا مبعوثاً مخصوصاً من جانبكم ليرى بنفسه حقيقة ما ذكرته لكم. وسيلقي مبعوثكم أمان الله ورسوله حتى يحضر إلينا ويرى ثم يعود محروساً إليكم بعد ذلك. وقد قال الله:" وإن أحداً من المشركين استجارك فأجره حني يسمع كلام الله". وأمامكم الخيار إما بالقتال أو التسليم لأمر الله والرجوع إليه. ولولا الشفقة عليكم ما كنت أكتب لكم عن هذا الأمر. أما إذا إستجبتم لما قلته لكم في خطابي هذا فلا تخشوا شيئاً، إذ لن يحدث لكم أي شئ بعد (منحكم) أمان الله ورسوله. أما إن رفضتم فستذوقون شر ما صنعتم لأنكم بذلك تبتعدون عن طريق الله إلى عذاب الآخرة. فالمعلوم أن النصر للمؤمنين كما وعدهم الله في كتابه العزيز. لا تخدعوا أنفسكم وتضعوا ثقتكم في بواخركم وغيرها وتؤخروا قراركم حتي تحل بكم الندامة، بل سارعوا لمنفعتكم ولصالحكم قبل قص جناحكم. وكثرة الكلام لن تجدي فالله (يهدي من يشاء) ويضل من يشاء (ولا حكم فوق حكمه). وفي ما قلت الكفاية لمن أراد الله هدايته.

(ختم المهدي)

لا إله آلا الله.

محمد رسول الله.

محمد المهدي بن عبد الله

١٢٩٣

كان حامل هذا الخطاب رجلاً دنقلاوياً يسمى الفكي عبد الرحمن، وهو نفس الرجل الذي شوهد على ضفة النيل بأم درمان حاملاً علماً أبيضاً (علم الهدنة).

لم يرغب السير تشارلس ولسون في إرسال إجابة للخطاب. لكن خشم الموس أشار إلى أن الباخرة ستكون تحت رحمة العدو تماماً إثناء عبورها لمضيق الشلال. ورجاه أن يأذن له في كسب الوقت وذلك بكتابة خطاب يحمل ما معناه بأنه لن يجرؤ على تسليم نفسه إلا إذا ضمن جوازاً للمرور حيث أنه في تلك الحالة فسيقوم بتسليم الباخرة والإنجليز إلى الفكي مصطفى، الذي كان في ذلك الوقت في ود الحبشي مع قوة عسكرية. وقد أذن السير تشارلس وسون, بعد أن أخذ في الاعتبار الوضع الخطير لهم، لخشم الموسى أن يكتب تلك الرسالة، مع الاهتمام والحرص على ألا يصدر منه أو من الضباط الإنجليز أي وعد أو التزام بشئ.

كان للنقاش الذي دار بين الفكي عبد الرحمن وضباط الشايقية وجنودهم تأثير سيء للغاية. وإتضح ذلك على الفور بفرار أول واحد من الوطنيين.

وعند إنبلاج صبح الثلاثين من يناير تحركت البوردين، وتبعتها الزوارق الكبيرة، وأمكنهما عبور مختلف الشلالات بسلام. ولم يواجهوا، لدهشة كل من كان على السطوح، أي مقاومة في المضيق الوعر للسبلوقة.

ولكن لازال أمامهم الممر المعقد والصعب بين الجزر، والذي كان هو السبب في تعطيلهم من قبل، في يوم ٢٥ يناير، والذي لابد من اجتيازه الآن.

لن يتم ذلك إلا إذا تم خفض وإحناء السفينة للأسفل، بدءاً بالدفة، وذلك باستخدام حبال ضخمة تثبت بقوة على المراسي، وهو عمل مرهق يكاد يكون إنجازه في حكم المستحيل إذا ما تصادف ووجد بالمنطقة أي عدد من رجال العدو. وبالرغم مما اتخذ من إحتياطات فقد دفعت الرياح بالبوردين إلى مياه ضحلة وما تم إخراجها منها إلا بعد جهود كبيرة. وقد تسبب ذلك في إضاعة الوقت حتى أنهم أوقفوها، عند حلول الليل، عند الشلال.

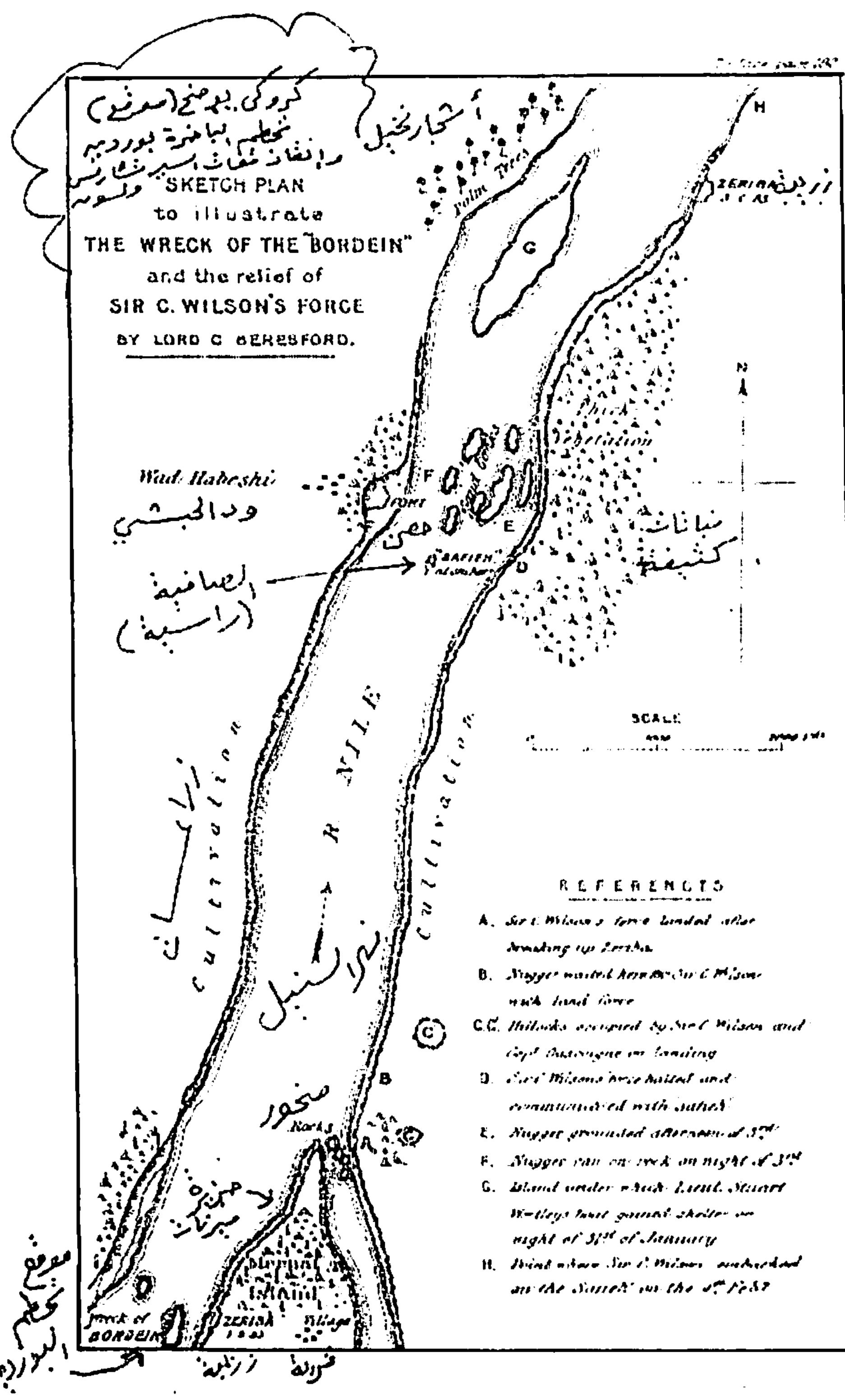
وبدأت مظاهر الململة والسخط تزداد شيئاً فشيئاً عند الشايقية وكانت تصرفات عبد الحميد بك خاصة مثيرة للشبهات. وأثناء الليل أفيد السير تشارلس ولسن بأنه كان مشتركاً في مؤامرة لإغراق السفينة والتي لم يوقفها إلا تدخل خشم الموس. ولحسن الحظ، نما إلى السودانيين في غمرة هذه الأزمة، خبر كاذب جاء في وقته، بأن الإنجليز قد احتلو المتمة، والتي كانت تعزيزاتهم تتدفق عليها عبر الصحراء. وكان تأثير هذه الأنباء عليهم واضحاً وعمل، بلاشك، في دفع الشايقية المترددين للإبقاء على ولائهم.

وعند شروق شمس اليوم التالي (٣١ يناير) تم البدء في دخول المنحدرات الأخيرة وعند العاشرة صباحاً تم ذلك بنجاح تاركاً أمامهم مياهاً منبسطة خالية من العوائق على كل الطريق إلى المتمة. وكانت العقبة الوحيدة التي ستواجههم هي في كيفية اختراقهم للتحدي الذي بود الحبشي، حيث كان من المعلوم أن لدى الفكي مصطفى قوة كبيرة هناك وبطارية مدفعية. وتم اتخاذ كل الإجراءات اللازمة لحماية المراجل من القذائف. وكانوا يأملون بأنهم إذا ما أسرعوا عند مرورهم

بالحصن، بأقصى ما يمكنهم، فسيتجنبون قذائف العدو التي لن تكون دقيقة بما فيه الكفاية لإلحاق الضرر بهم. كما كان السير تشارلس ولسون يعتقد بأن الحوافز الضخمة التي وعد بها الريسين، في حالة النجاح في العبور، ستوفر لهما دافعاً قوياً لبذل أقصى ما في وسعهما. وقد تم توفير مخزون كبير من الحطب حتى يمكن الباخرة من الانطلاق بأقصى سرعة، ولساعة على الأقل، بعد تجاوزهم للحصن.

وكما كان الحال بالنسبة للباخرة عباس، كان كل شئ يسير بصورة طيبة ظاهرياً، وظنوا أنهم قد تجاوزوا أسوأ المخاطر، عندما اصطدمت البوردين في تمام الثالثة والنصف بعد الظهر، عندما كانت تمخر في مياه ناعمة أثناء هبوطها من الممر المائي على الغرب من جزيرة ميرنات، بقوة وعنف بصخرة غارقة وبدأت المياه تتسرب إليها في الحال. أمر السير تشارلس ولسون في الحال بطرحها أمام شاطئ رملي ممتد من جزيرة تقع على مسافة خمسين ياردة من الجزيرة الأضخم منها، ميرنات. وقد تم ذلك بنجاح وشرعوا في اتخاذ كل الخطوات الممكنة لإصلاح الضرر. ولكن بدون جدوى. وكانت كل الأيدي تعمل بالطلمبات والدلاء (في نزح المياه) بينما عمل النجارون في فحص الفتحة، والتي أتضح بأنها ذات حجم كبير. وسرعان ما أصبحت المياه على ارتفاع عدة إقدام من خط مياه الباخرة. (وتوضح الخريطة التالية عمليات السير تشارلس ولسون، بعد تحطم البوردين، وموقع جزيرة ميرنات بالنسبة لود الحبشي).

تم الإسراع بأنزال المدافع والذخائر والمؤن إلى الشاطئ وتم تكليف الكابتن قاسكويني لإختيار موقع مناسب لإقامة زريبة على جزيرة ميرنات، والتي تطل على الجزيرة الصغيرة التي جنحت على جرفها الرملي الباخرة البوردين.



SKETCH PLAN
to illustrate
THE WRECK OF THE "BORDEIN"
and the relief of
SIR C. WILSON'S FORCE
BY LORD C BERESFORD.
Wad Habeshi
ود الحبشي
FORT
"SAFIEH"
الصافية (راسية)
Thick Vegetation
نباتات كثيفة
Palm Trees
أشجار نخيل
ZERIBA
R. NILE
نهر النيل
Cultivation
Cultivation
SCALE
REFERENCES
Rocks
صخور
Wreck of BORDEIN
موقع تحطم البوردين
Village
قرية

يبلغ عرض جزيرة ميرنات حوالي ثلاثة أرباع الميل بينما يصل طولها لحوالي ميلين، وتغطيها الأشجار والحشائش الطويلة. ووجد أن القناة أو المجرى المائي على الشرق منها لا يزيد عرضه على ٣٠٠ ياردة. أما النقطة المواجهة للموقع الذي تحطمت فيه البوردين فتبعد بحوالي ثلاثة أرباع الميل من أقصي الجزء الشمالي للجزيرة. وقدر السير تشارلس ولسون أن هذا الموقع يستحيل الدفاع عنه. لذلك قرر في البداية التقدم بقوة أثناء الليل علي طريق الشاطئ الشرقي حتى يواجه القبة ومنها يرسل الملازم ستيوارت ورتلي إليها، على المركب الصغيرة، ليخبر حاميتها عن الكارثة التي ألمت بهم وليرجو منهم إرسال باخرة لحماية جانبهم الأيمن. لكنه وجد علي أية حال أن من المستحيل القيام بأي شئ مع الجنود الوطنيين وكان يعتقد أنهم سيكونون عديمي الجدوى في حالة حدوث إشتباك أو هجوم عليهم وبالتالي فأن البديل الذي إضطر للجوء إليه كان في تأمين نفسه بقدر ما تسمح الظروف الماثلة وأن يظل في مكانه في انتظار وصول النجدة لمسرح الباخرة المحطمة. وفي الساعة السابعة إلا ربعاً من مساء ٣١ يناير توجه الملازم ستيوارت ورتلي على زورق السفينة، ليجدف حتى القبة، وقد توجه معه أربعة جنود إنجليز، أحدهم جندي أشارة، وثمانية من الوطنيين. تم توقيت قيامه حتى يتمكن من تجاوز حصن العدو في ود الحبشي أثناء الظلام الذي يعقب غروب الشمس وقبل بزوغ القمر. أخذوا يجدفون حتى مسافة نصف ميل من الحصن وبعدها أنزل المجاديف وأمر البحارة بالانبطاح علي قاع الزورق والذي كان طافياً نحو أسفل النهر. أقترب تدريجياً من موقع العدو والذي صار قريباً لدرجة أنهم استطاعوا تمييز وجوه رجاله الجالسين حول نيران المعسكر. سمعوهم وهم يتناقشون عن ماهية الشئ الأسود الذي شاهدوه طافياً على النهر. وهل هو قارب أم لا. وفجأة تبددت شكوكهم عندما ظهر القمر بازغاً من الأفق الشرقي وفي خط مستقيم خلف القارب الذي أصبح واضحاً مرئياً. وقد نبهت الصيحة، التي تلت اكتشافهم، البحارة بأن مزيداً من التخفي لم يعد مجدياً فنهضوا واتخذوا مواقعهم وأسرعوا بعزيمة وقوة إرادة وسط عاصفة من الرصاص الذي أنهال على النهر من حولهم. لكنه لم يسبب لهم ضرراً لحسن الحظ. وبعد بضعة مئات من الياردات وصلوا إلى جزيرة أخرى. وباتخاذهم للجانب الأيمن من النهر استطاعوا مواصلة رحلتهم لمسافة معقولة حتى وصلوا للمجرى الرئيسي عندما شاهدوا أن بعض راكبي الجمال قد تتبعوهم لكنهم لم يكونوا، علي ما يبدو، مسلحين بالبنادق. وفي الثالثة من صباح الأول من فبراير وصلوا للقبة. وعندما تسلم اللفتنانت كولونيل م. ولسون، من الحرس الاسكتلندي، والذي كان قائداً لمعسكر القبة في مكان اللفتنانت كولونيل بوسكاون، المريض بالمستشفي، تقرير الملازم ستيوارت ورتلي أمر في الحال بإرسال النجدة للسير تشارلس ولسون.

وفي الساعة الثانية ظهراً في نفس يوم الأول من فبراير توجه اللورد تشارلس بيرسفورد، على ظهر الصافية، إلى ميرنات. كان السير تشارلس ولسون في تلك الفترة قد أقام محطة صغيرة على جزيرة ميرنات بينما ترك المؤن والذخائر ومعظم رجاله بالجزيرة الصغيرة لفترة الليل. وصباح اليوم التالي تم نقل المؤن ومعظم الجنود إلى زريبة قوية أقاموها في الجانب الغربي لميرنات، مقابل البوردين. وبقى في الجزيرة الصغيرة الجنود الوطنيين لمنع حدوث أي مضايقة من حملة البنادق من العدو، والذين قد يتوجهون إليها إذا ما تركت خاليه.

أقاموا الزريبة على شكل نصف دائرة على الضفة المرتفعة، التي كانت بارتفاع حوالي ٢٥ – ٣٠ قدم، وشديدة الإنحدار. حول هذه الضفة انتشرت أحزمة من الأشجار، التي، بينما تعوق رؤية العدو لهم، فأنها لا تعطل نيرانهم عند اقتراب أي عدو باتجاههم. نصبت المدافع الأربعة في مواقع جيدة بالزريبة. كانت النهاية الشمالية لجزيرة ميرنات تبعد بحوالي ٣ أميال من ود الحبشي. وباستثناء بعض الشايقية الذين زاروهم وأكدوا لهم نبأ سقوط الخرطوم، والذين ذكروا لهم بأن الملازم ستيوارت ورتلي قد عبر بسلام بطاريات العدو، فقد مر ذلك اليوم واليوم الذي تلاه بدون أي حادث.

وفي صباح اليوم التالي حدث ما يوضح الظروف الاستثنائية التي عاشت فيها القوة الصغيرة للسير تشارلس ولسن. تمثل ذلك في زيارة لميرنات من الفكي مصطفى، قائد قوات العدو في ود الحبشي، حيث دار نقاش بينه وبين خشم الموس حاول فيه إغراءه بالفرار. لكن خشم الموس رفض هجرنا أما عبد الحميد بك ومن معه من الشايقية فقد إنضموا للعدو.

ومضى الليل بدون حوادث ولكن ما أن ظهرت شمس صباح الثالث من فبراير حتى سمعوا صوت قذيفة مدفع من أسفل النهر منبئة لهم بأن النجدة المرتقبة هي في طريقها إليهم من القبة. وبعد برهة قصيرة أعلن جندي الاستطلاع، من على قمة شجرة قريبة، بأن الباخرة الإنجليزية قد ظهرت للعيان. كان تأثير وقع هذا النبأ على الجنود الوطنيين المكتئبين كوقع السحر في الحال. وتحول الرجال, والذين كانوا قبل لحظات لا مبالين ومحبطين ولا يتحركون حتى لو ضربوا, إلى كتلة من النشاط والحيوية والرغبة في إرضاء رؤسائهم. أرسل السير تشارلس ولسون فوراً إشارة للباخرة لتوضيح مكانهم ولكن سرعان ما جاء رد الفعل من نيران العدو الحامية المنطلقة من الشاطئ المقابل. ولما تنبه السير تشارلس ولسن إلى أن نيران الباخرة ظلت صامته لفترة مريبة من الزمن، فقد قام بإرسال الكابتن ترافورد للتأكد مما حدث. وعندما عاد ذلك الضابط أبلغ بأنه قد شاهد الدخان يغطي الباخرة وأنه يبدو بأنها قد تعرضت لحادث خطير. توجه السير تشارلس ولسن بنفسه لمعاينة الموقف ورأى الباخرة تتأرجح وهي راسية مقابل بطاريات العدو ويبدو أنها كانت مشتبكة بقوة مع البطاريات.

صمم السير تشارلس ولسون في هذا الظرف, على محاولة الإتصال مع بحارة الباخرة. وقام بالتالي بإصدار أوامره لتفكيك الزريبة ونقل المؤن والمدافع والجرحى إلى ظهر الزورق الكبير والذي أوكل قيادته للكابتن قاسكويني، مع أوامر بالتوجه شمالاً وانتظار وصول باقي قوات السير تشارلس ولسن على طول الشاطئ الأيمن، مقابل النهاية الشمالية من الجزيرة. وفي نفس الوقت تم إرسال القارب الصغير لنقل السير تشارلس ولسن والقوات إلى الضفة اليمنى من النهاية الشمالية للجزيرة.

وبالرغم من نيران العدو الحامية فقد تم تفكيك الزريبة ونقل المؤن والمخزونات بدون أي خسائر كبيرة. كما تم النزول على الضفة اليمني بدون أي مقاومة. بعدها تقدمت القوات للأمام وعسكرت في مقابل الباخرة المعطلة، والتي كانت تبعد بحوالي ٥٠٠ ياردة من الضفة اليمني، بينما توجه القارب الكبير إلى نفس الموقع. قابلتهم بعض الصعوبات، نظراً لعدم وجود أشرجي كفء، لكنهم تمكنوا من الاتصال بالإشارة أخيراً بالباخرة وتأكدوا الآن من أن مرجلها قد أصيب بقذيفة لكنهم كانوا يأملون في إصلاحه. ومع أن الشك في دقة المعلومات، التي جاءت بالإشارة, قد راودهم، فقد تطوع الكابتن قاسكويني للتوجه إليها على القارب الصغير، ونجح في ذلك ورجع إليهم بدون أي خسائر.

أحضر معه رسالة من اللورد بيرسفورد يرجو فيها من السير تشارلس ولسن أن يواصل إطلاق نيران حامية على الحصن ليصرف إنتباه العدو عن الباخرة ريثما يتم إصلاح عطب المرجل ثم يتحركوا في الصباح لميلين أو ثلاثة نحو مكان معين بالشاطئ يمكن الرسو فيه بسهولة وهناك ينتظرون قدوم الباخرة مع ترحيل المرضى والجرحى، وعددهم خمسة وعشرين، أثناء الليل بالزورق.

على هذا تم إرسال جزء من قوات السير تشارلس ولسون، بقيادة الكابتن ترافورد، لإختيار وتجهيز مكان مناسب للمعسكر. أما السير تشارلس ولسون بنفسه فقد بقى، بعد أن حصل على مدفع واحد من الزورق (لم تكن لديه سوى ذخيرة بسيطة لأن معظمها قد فقد عند تحطم باخرتهم) مع جنود المدفعية الوطنيين مقابل ود الحبشي. وظل مدفعه هذا مشتبكاً مع حصن العدو حتى حلول الظلام وبعدها، ونظراً لشدة إرهاق رجاله، تم تعطيله وإلقاؤه في النيل. كما تمت محاولة لتحويل الزورق نحو الضفة اليمنى للنهر وراء غطاء من حاجز رملي، حيث يمكن إخفاؤه عن العدو. لكن الزورق جنح وفشلت المحاولة. وكان لابد من إنزال أي شيء منه ما عدا الجرحى لدرجة كبيرة. وعاودوا المحاولة حتى نجحوا أخيراً, وبعد غروب الشمس.في تعويمه. وبعد أن رأى السير تشارلس ولسون أنه لن يقدم بعد ذلك شيئاً مفيداً لهم، غادر المكان المواجه للحصن والتحق بالكابتن ترافورد بالزريبة التي تمت إقامتها على مسافة ميلين للشمال منهم.

ويبدو مهماً الآن الرجوع للوراء بضع ساعات لنروي مغامرات الصافية. فقد كان مع اللورد س. بيرسفورد قسماً من لواء البحرية تحت قيادة الملازم فان كوجنت، وعشرين من ضباط الصف ورجال المشاة الراكبة مع مدفعين من طراز قاردنر ومدفعين عيار أربعة أرطال. وكان قد أصطحب معه الملازم ستيوارت ورتلي. وبعد مغادرة القبة لم يحدث لهم أي شيء ذا بال في يومي الأول والثاني من فبراير. ولكن في السابعة من صباح يوم ٣ فبراير شاهدوا تحصينات العدو الأرضية في ود الحبشي ووراءهم كانت البوردين جانحة بالقرب من جزيرة ميرنات. وعندما وصلوا لبعد ١٢٠٠ ياردة من الحصن فتح اللورد بيرسفورد النار من مدفعه، وبعد قليل من ذلك رد عليه العدو. عندها أمر بفتح نيران كل الأسلحة وتصويبها على مزاغل المدافع بالحصن بينما شرع في الإسراع لتجاوز حصون العدو، حتى أنه أضطر للمرور على مسافة ثمانين ياردة منهم، نظراً لضحالة المياه. كانت نيران أسلحته رهيبة، مستخدمين كل ما بالباخرة من مدافع الماكينة والبنادق، لدرجة أن العدو لم يتمكن من إطلاق نيران المدفعين الموجودين وسط دشمة الحصن، ورغم أنهما كانا يواجهان الباخرة الممتدة بطولها أمامهما. وعند ما عبرت الباخرة الحصن بحوالي ٢٠٠ ياردة أصبحت زاوية الرمي حادة لدرجة منعت الباخرة من مواصلة إطلاق النار. ومن هنا تمكن العدو من تعديل إتجاه مدفعيه ونجح في إرسال قذيفة اخترقت مرجل الصافية. ورأى اللورد بيرسفورد أن بدالات الباخرة كانت مستمرة في الدوارة فوجهها نحو الضفة اليمنى للنهر وأرساها هناك على بعد ٥٠٠ ياردة من العدو، والذي واصل إطلاق نيرانه بكثافة. أصبحت الصافية جاثمة الآن مقابل الحصن, في مكان رغم أنه يتيح هدفاً أصغر أمام العدو, إلا أنه عمل أيضاً على تقليص قوة نيرانها لدرجة كبيرة لبعض الوقت. وبعد أن أزالوا مؤخرة أحد مدافع الأربعة رطل، وقطعوا ثقباً كبيراً على جانب الباخرة كان مدفع واحد مع مدفع ماكينة آخر قد بدءا في الضرب بشدة على الحصن.

ومن السابعة والنصف من صباح الثالث من فبراير وحتى بعد غروب الشمس لـم يتوقـف إطلاق النيران من الباخرة لدرجة أن العدو لم يتمكن أبداً من الرد عليها بالمدافع. لكن إطلاق نيرانـه من البنادق لم يتوقف طيلة تلك الساعات الإثنتي عشر، على الرغم من تشتت الطلقات وعدم إحداثها إلا لأضرار طفيفة. ولما كان من المتوقع أن يستغل العدو فترة الظلام ليقوم بتحريك مدافعه إلى موقع آخر يمكنهم من تسديد نيران قاتلة نحو الباخرة فقد رأى اللورد بيرسفورد أن من الضروري أن يـتم إصلاح المرجل المعطوب قبل حلول الصباح وأن يحاول بقدر الإمكان، إيهام العدو بأنه بالفعل قد هجر باخرته. وبهذا قد يرون ألا داعي لتغيير مواقع مدافعهم. ولتنفيذ هذه الفكرة قام بصف قواربه الأربعة بطول الباخرة وكأنه يجهزها للفرار عليها بينما عمل على وقف إطلاق النار أثناء الليل تماماً وظل في حالة سكون تام طوال فترة الليل.

وقد قام كبير المهندسين، المستر بنبو، وفور أن أصبح المرجل بارداً نسـبياً، أي حـوالي الحادية عشر صباحاً، بالشروع في إصلاحه. ولما كان الفنيون، وكل من كان بحوض المرجل، لتلقيمه بالحطب، قد أصابتهم حروق شديدة من جراء البخار المندفع من خارج المرجل عند قذفه بالمـدفع، فقد كان على المستر بنبو فان يقوم تقريباً بكل العمل بيديه، وتحت النيران. وكـان المـلازم فـأن كوجنت قد جرح بينما قتل ضابط صغير أثناء الحادث.

وبحلول التاسعة من مساء نفس الليلة اكتمل العمل. ومن الخامسة من صباح اليوم التالي أصدر اللورد بيرسفورد أوامره بإيقاد النيران ولكن بعد اتخاذ الحذر والحيطة لمنع تسـرب الشـرر، والذي قد يكشف وجوده للعدو.

ولم يكتشف الذين كانوا بالحصن أن الباخرة لم تهجر، وأن فرصة الإسـتيلاء عليهـا قـد ضاعت، إلا عند إنبلاج الصبح. وقد عبروا عن هذا الإكتشاف بإطلاق صيحات التحدي مـن العـرب وبعاصفة من رصاص بنادقهم. لكن اللورد بيرسفورد كان مستعداً لمواجهة ذلك الحدث. وقبل أن يعاد تصويب مدافع العدو للضرب المحكم علي الباخرة، كان قد رفع المرساة وأنطلق بأقصى سرعة. وبعد أن وصل لمسافة ٢٠٠ ياردة باتجاه أعلى النهر، وفي منطقة مفتوحة المياه بهـا مجـال واسـع للمناورة، قام بالاستدارة وأخترق متحدياً منطقة الحصن مركزاً كل نيرانه علي مزاغل مدفعية العـدو أثناء ذلك. تم هذا الأجراء بدون حوادث. وكان من علي ظهر البـاخرة يهنئـون أنفسـهم بانتهـاء مصاعبهم أخيراً. عندما شاهدوا في ضوء عتمة الفجر أن قاربهم قد أصطدم بعنف على صخرة تبعـد بأربعمائة ياردة وراء بطاريات العدو. كان على ظهر القارب الكابتن فاسـكويني وبعـض المرضـي والجرحي. كانوا في مساء اليوم السابق قد قطروا القارب لبعض المسافة أعلى النهر من المكان الذي كان قد جنح فيه ثم تركوه ليمضي مع التيار. ولكن، وبعد أن مضي بسلام متجاوزاً للحصن، إصـطدم بتلك الصخرة ولم تنجح محاولاتهم لإبعاده عنها.

ومرة أخرى أرسى اللورد بيرسفورد الباخرة بالقرب ما أمكن من موقع القارب وأرسل فوراً نائب الملازم كيبل ومجموعة من الرجال، على الزورق الصغير، لنجدة الكابتن فاسكويني. وبعـــد أن أخرجوا معظم المخزونات والمؤن تمكنوا من تحريك الزورق، وتحت نيران شديدة من العدو، ومن ثم توجه الجميع نحو الزريبة بأدنى النهر. وكان السير تشارلس ولسون قد نزل في موقع مناسب، هـــو وجماعته، يبعد بحوالي ميل عنهم. وفي الساعة الخامسة وخمسة وأربعين دقيقة عصراً، وفي نفـــس اليوم، وصل الجميع سالمين للقبة. لم يفقد السير تشارلس سوى جنديين ســـودانيين قـــتلا وخمســـة وعشرين جرحى. وخلال عمليات اللورد بيرسفورد تم إطلاق ٥٤٠٠ قذيفة من مـــدفع الجـــاردنر، و٢١٥٠ طلقة من المارتيني هنري و ١٢٦ قذيفة من الهاوتزر.

***

القسم السادس (ب)
سقوط الخرطوم
(بقية)

الملخص:

الإفادة الثالثة – سقوط الخرطوم من وجهة نظر أحد رجال الحصار – رواية الأمير الفكي مضوي – المراحل الأولى للحصار– هزيمة سعيد بك وحسن بك ابراهيم – أبو قرجة وود البصير يهزمان صالح بك – تنظيم قوات العرب المحاصرة للخرطوم – أبو قرجة، أمير الأمراء – وصول ود النجومي– وصول المهدي – إرسال أبو صفية لمهاجمة الإنجليز في أبو طليح – تأثير الهزيمة على المهدي – رأي رؤيا يخبره فيها النبي للذهاب لكردفان – ابن عمه، عبد الكريم، يلح على ضرورة مهاجمة الخرطوم – المهدي يوافق – تنظيم الهجوم – تعليمات النجومي – وصول نبأ تحرك البواخر من المتمة – أوامر المهدي بالإبقاء على حياة غردون – المهدي يخاطب أنصاره – قوات النجومي تعبر المتراس المهدم والخندق المليء بالطمي – الهجوم – قيام فرج باشا بفتح البوابة وتسليم نفسه – موت الجنرال غردون – المذبحة – ظهور البواخر للعيان – مقتل فرج باشا– الإفادة الرابعة – المحكمة العسكرية التي عقدت لمحاكمة حسن بك بهنساوي, الذي كان قائداً لذلك الجزء من الدفاعات التي دخل منها العرب – ملاحظات على المحكمة العسكرية – خطتين للخرطوم – خطة الادعاء وخطة الدفاع – تبرئة حسن بك بشرف – سقوط التهم بالخيانة – التساؤل حول وضع حصن المقرن – أهميته للمحاكمة – عرض للإفادات المختلفة – المجاعة تكسب السباق – العمليات التالية لطابور النهر وطابور الصحراء – الجنرال بولر يتجه للمتمة – خطط اللورد ولسلي – معركة كربكان – مقتل الجنرال إيرل – تدمير ممتلكات سليمان ود قمر – أوامر للجنرال براكنبري للإنسحاب لمروي – إنسحاب الجنرال بولر لأبو طليح – انهيار حملة النقل بالجمال – تغيير الخطط – السير إفلين وود يرجع طابور الصحراء – توزيع قوات حملة الإنقاذ على نقاط بوادي النيل – الإستعدادات لإرسال حملة إلى سواكن.

***

سنتناول الآن الأحداث (في الخرطوم) كما رآها شاهد عيان من الذين إشتركوا في الحصار.

كان هذا العربي الذي يدلي بالإفادة التالية أميراً مهماً وقائداً من قواد المهدي. وكان أول من ألقي الحصار على الخرطوم، وكان حاضراً خلال ما حدث من إشتباكات مبكرة، وقد لعب دوراً هاماً في الهجوم على الخرطوم والإستيلاء عليها. وعند موت محمد أحمد، بعد بضعة أشهر، كان من المعارضين لخلافة الخليفة عبد الله التعايشي ومن المشاركين في النزاع الذي دار وقتها وأضطر للفرار من البلاد. هرب للحبشة حيث مكث بها حوالي ثلاثة سنوات وكان واحداً من الذين بذل الخليفة جهداً لاسترداده بالذات، وكتب في عدة مناسبات للملك يوحنا طالباً تسليمه له. لكن الملك يوحنا (لم

يستجيب لذلك) ووفر له حماية مع القافلة التي توجه بها، بعد ثلاثة سنوات إلى القاهرة. الرجل هـو الفكي مضوي (عبد الرحمن) والذي، بعد وصوله لمصر، نال العفو من سمو الخـديوي، وهـو الآن أستاذ محترم في جامعة الأزهر. وقد أفاد بالآتي:بعد هزيمة هكس باشا في شيكان أيقن كـل أهـالي السودان تقريباً، وأنا منهم، بأن محمد أحمد هو المهدي. وقد كتب لي في نفس الوقت الذي كتب فيه للشيخ العبيد (ود بدر) شيخ الطريقة القادرية طالباً منا تجميع كل أتباعنا والقيام بحصار الخرطوم من جهة القبة. وفي نفس الوقت عين المهدي نسيبه محمد ود البصير، من قبيلة الحلاوين، لجمع الرجال والاشتراك في الحصار. والتقي ود البصير بصالح بك، الذي كان قادماً من سنار. في مكـان أسـمه فداسي وحاصره (وقطع عند المدد). ولما ضاق به الحال من ناحية الطعام خاصة كتب للمهدي معلناً استعداده للتسليم لأي أمير يرسله إليه بخلاف ود البصير لذا أرسل المهدي أبو قرجـة إليـه حيـث استسلم له صالح بك في مايو ١٨٨٤.

قبل هذا، في مارس. كان الشيخ العبيد قد تقدم بقوة من ٣٠٠٠٠. رجل لإلقاء الحصار على الخرطوم. وكان غردون باشا قد وصل إليها قبل ذلك وكتب خطابات رقيقة لكل القبائل بغرض تهدئتها ولكن بدون طائل.. لقد جاء ذلك متأخراً، فقد انتشرت المهدية في كل البلاد، وكان كل الناس متشوقين للقتال والجهاد في سبيل الله ورسوله.

انضممت لشيخ العبيد بكل قواتي، في القبة شرق الخرطوم *وبعد ثلاثة أيام من وصـولنا قـام خشم الموس بك وحسن إبراهيم الشلالي وسعيد بك بعبور النيل الأزرق، ومعهم حـوالي ٤٠٠٠ رجـل، وتقدموا نحونا. تقدمنا نحوهم بدورنا وبعد قتال قصير الأمد طردناهم بعد فقدهم لأربعمائة رجـل تعـرض سعيد بك وحسن بك إبراهيم، عند وصولهما إلى الخرطوم، لمحكمة عسكرية وتم رميهما بالرصاص لأنهما أصدرا أمراً بالانسحاب للجنود. كان من الطبيعي أن يخشوننا لأننا كنا نقاتل مجاهدين (في سبيل الله) ولا نخشى الموت.

أثناء ذلك قام أبو قرجة وود البصير، بعد إستسلام صالح بك المك، بالتقدم بقواتهما نحـو الجريف وضربا الحصار على الخرطوم من ناحية النيل الأزرق. كما ضرب الأمير فضول والشيخ عبد القادر (ود أم مريوم) الحصار على الخرطوم من جهة الكلاكلة على النيل الأبيض، بعـد أن وصـلاها بقوات كبيرة وكذلك إشترك الأمير مصطفى إبن الفكي الأمين ومعه حوالي ٥٠٠٠ رجل في حصارها من ضفة النيل الأبيض الغربية وهكذا تم حصار الخرطوم من كافة الجهات.

كانت بواخر غردون باشا تهاجمنا باستمرار ومن كافة الاتجاهات ، وتهاجم خاصة قـوات أبي قرجة. وبعد فتره من الزمن تم طردنا جميعاً ونظفوا ضواحي الخرطوم منا وتمكنوا من إيصـال مؤن جديدة لها.

كان أبو قرجة أميراً للأمراء المحاصرين. ولما كنت على خلاف في الرأي مع شيخ العبيـد فقد قام بإرسالي لمقابلة المهدي والذي كان مشغولاً وقتها بإخماد ثورة في جبـل الـداير. صـحبت المهدي (عند تقدمه للخرطوم) حتى شات وبعدها عدت حاملاً خطاباً لأبي قرجة لعـدم التـدخل فـي شئوني ولذلك تمت المصالحة بيني وبين شيخ العبيد.

---

* القبة شمال الخرطوم وجنوب شرق جزيرة توتي (المعرب).

أثناء ذلك كانت قواتنا قد تراجعت من عدة مواقع. قواتي إلى أم ضبان، وقوات أبو قرجة وفضول إلى ود شكر الله (جنوب الخرطوم بأربعة وعشرين ميلاً)، وقوات الفكي مصطفى إلى إسلانج، شمال الخرطوم.

وقبل عودتي تم إرسال محمد علي باشا لمهاجمة قرى الجريف والعيلفون. ثم توجه لأم ضبان حيث أشتبك رجالي معه وهزموه بعد مذبحة فظيعة. وقتل هو نفسه ولم يرجع للخرطوم سوي بقايا ضئيلة من قواته.

وعندما علم محمد أحمد، المهدي، بأن المحاصرين قد تراجعوا عن الخرطوم، قام بإرسال قوة من ٢٠٠٠٠ رجل بقيادة ود النجومي، ومعه تعليمات بتولي قيادة كل قوات الحصار. وقد صحبه الأميران ود جبارة وعبد الله ود النور.

وعند وصوله أخذ النجومي رجاله لمكان بين الكلاكلة والجريف حيث انضم له فيه كل من أبي قرجة وود البصير وفضول وعبد القادر.

وسرعان ما وصل المهدي بعدها، كما عاد الفكي مصطفى أيضاً من إسلانج. ثم عاد شيخ العبيد أو بالأحرى إبنه ود شيخ العبيد (لأن والده كان متقدماً جداً في السن) وأنا إلى موقعنا السابق في القبة. وصارت الخرطوم بهذا محاصره بشدة من كل الجهات وقطع الإتصال بينها وبين أم درمان. ثم استسلمت حامية قلعة أم درمان بعد ذلك, في الخامس من يناير, لانعدام الطعام. أما الخرطوم فكانت صامدة بقوة وأنتوي المهدي إرغامها على الإستسلام بالتجويع.

وعندما سمع بقدوم الإنجليز للمتمة, لنجدة الخرطوم, أرسل قوة كبيرة من أفضل رجاله، بقيادة موسى ود حلو وأبو صفية، لمهاجمتهم. ودارت معركة كبري في أبي طليح وأخرى في أبي كرو هزم فيها النور عنقرة ثم تمكن الإنجليز من الوصول للنهر في القبة بعد أن دحروا العرب أمامهم. وصلت أنباء الهزيمة للمهدي في العشرين من يناير وسببت ذعراً عظيماً في معسكره. فأمر في الحال بإطلاق ١٠١ قذيفة مدفع تحية، إشارة للنصر، وبغية تضليل حامية الخرطوم. كان المهدي مهتماً بسلامته الشخصية، وبعد صلاة العصر عقد إجتماعاً مع خلفائه عبد الله التعايشي وعلي ود حلو ومحمد شريف، ومع المقربين من الأمراء (وكانوا جميعهم من أقاربه) وبالذات محمد عبد الكريم والسيد عبد القادر وود ساتي وأحمد شرفي ويعقوب (أخو الخليفة عبد الله) وأخبرهم سراً بأنه رأى في حضرة أن النبي يخبره بالهجرة إلي الأبيض، لأنه، كما جادل " إذا كان رجل إنجليزي وأحد هو غردون، استطاع أن يقود الجنود السودانيين والمصريين ويبقينا في أماكننا لعام كامل: فماذا سيلحق بنا أولئك الآلاف من الإنجليز، الذين هزموا أشجع رجالنا في أبو طليح، وإلى أي حد سيقدرون على سحقنا أو أبعادنا؟". ثم سأل خلفاءه وأمراءه إبداء رأيهم. وقد وافقوا جميعاً علي رؤية المهدي ما عدا محمد عبد الكريم والذي أقترح القيام بمحاولة لإقتحام الخرطوم. إذ أننا، كما قال"لو نجحنا ودخلنا الخرطوم فأن الإنجليز لن يتجرؤا على القدوم. أما إذا فشلنا فسيكون أمامنا الوقت الكافي للإنسحاب".لم أكن حاضراً لذلك الإجتماع, لكن عبد الكريم كان صديقاً حميماً لي وحدثني بما دار كلمة بكلمة.تم بعد ذلك عقد عدة إجتماعات. وكان المهدي يعلم تماماً بأي حركة للإنجليز. وقد أعطانا تأخرهم في القدوم شجاعة جديدة حيث كنا نعلم بأن حامية الخرطوم كانت في يأس شديد يزداد يوماً

بعد يوم لعدم وصول البواخر لنجدتهم. ولو جاءت البواخر في ذلك الوقت الذي كان القلق والانزعاج يخيمان علينا بعد هزيمة أبو طليح، فربما كان المهدي قد نفذ ما نوى عليه من الهجرة جنوباً. لكـن تأخرهم قوي من عزم عبد الكريم، وعندما حل يوم الأحد الخامس والعشرين جاء رسول مـن القبـة حاملاً نبأ تحرك البواخر منذ صباح السبت الرابع والعشرين. تم عقد اجتماع آخر تقرر فيه أخيراً قبول رأي عبد الكريم والهجوم على الخرطوم صباح اليوم التالي قبل وصول البـواخر. تبعـاً لـذلك قـام المهدي، عقب نهاية الإجتماع، بإبلاغ جميع جيوشه بأنه في رؤيا بشره النبي بأن الله قد وضع أرواح جميع جنود الحامية في قبضة يده، وأن الهجوم سيبدأ صباح يوم الاثنين (٢٦ يناير) الباكر، وأن على قوات الهجوم ألا تخاف شيئاً إذ لن يلحق بهم أي أذي.

ثم أرسل لإستدعاء كبار الأمراء على الجانب الجنوبي: ود ألنجومي وأبو قرجة، وأخبـرهم بما تقرر القيام به. أما أنا فقد كلفت بإرسـال بعـض قواتي لمواجهـة البـواخر إذا مـا حضـرت وضربها، كما كلفت قوات الفكي مصطفـى أيضاً للتقدم باتجاه التيار، وأمر كل الرجـال المتواجـدين هناك لضرب أي بواخر قادمة بالرصاص فور ظهورها. كما تسلمنا نحن أيضاً أوامر بـالهجوم علـى توتي وراس راسخ من موقعنا بالقبة، على أن يتم ذلك في نفس الوقت الذي يقـوم النجـومي فيـه بالهجوم من الجنوب.

وفي ليلة الخامس والعشرين تلك، عبر المهدي النيل من أم درمان ومعـه كـل مـن أراد المشاركة في الجهاد، وتوجه إلى معسكر النجومي، وهناك خاطب كل قواته ووجههم للهجـوم بقـوة وعزم وألا يخافوا من شئ إذ أن من يقتل منهم ستكون الجنة مأوى له. وطلب منهم القيام بـالهجوم في باكورة الفجر، وعدم قتل غردون مهما كان السبب. ثم عاد (مع بعض رجاله)* لام درمان.

وصباح اليوم التالي، أو بالأخرى بعد ساعة ونصف من منتصف الليل، غادرت قـوات ود النجومي الكلاكلة. تم تقسيمها لقسمين: القسم الأول يقوم بمهاجمة الخطوط (الدفاعية) بـين النيـل الأبيض وبوابة المسلمية، والتي كان معروفاً بأن النيل قد دمر جزءاً منها، أما القسم الآخر فعليه شن الهجوم باتجاه بري. أما إذا نجح الهجوم على النيل الأبيض فقد اتفق على تعديل اتجاه هجومه ليقوم بالاندفاع وراء القسم الأول من القوات والاشتراك معه. وهذا ما حدث بالفعل. فقد تقدم بعـض مـن المسلحين بالبنادق لمناوشة المدافعين وشغلهم بينما اندفع وراءهم عدد ضخم مـن حملـة الرمـاح والسيوف وتلاهم، من خلفهم، بقية حملة البنادق. أما الفرسان على الخيول والهجـن فكـانوا علـى الأجنحة الخلفية وبالمؤخرة.

كانت الأوامر قد صدرت بأن يتم الزحف في صمت وسكون بقدر الإمكان حتى يقتربون تماماً من التحصينات، وألا يبادروا بالهجوم إلا بعد إطلاق الجنود النار عليهم من وراء الخطوط. حمل كثير من العرب معهم حزماً من القش أو العناقريب لإستخدامها، بإلقائها في الخندق إذا ما كان أعمق مـن أن يعبروه بيسر. استمر الزحف في صمت عميق حتى اقتربوا من الدفاعات، فقد كانت الأرض هشـة وأقدامهم حافية. ثم وصلوا للخندق أخيراً. وعندما رأوا أنه ممتلئ جزئياً (بـالطين) وأن المتـاريس

* (مع كل قواته). هكذا كتب المؤلف، وقد صححناه (المعرب).

الدفاعية محطمة، لم يتردد العرب للحظة بل أطلقوا صيحات الحرب وإندفعوا مقتحمين للخندق وللمتاريس وسقط كثيرون منهم تحت الإقدام عندما تعثروا. أطلق عليهم المدافعون بضع طلقات ولكن، وفي ظرف دقائق معدودة، كان كل شئ قد إنتهي. وعندما رأى الجنود انقضاض العرب عليهم بذلوا مقاومة ضئيلة وقتل البعض منهم بينما فر الباقون. وبعد أن أحكم العرب قبضتهم على هذا الجزء من الخطوط، إندفعوا على طول الخطوط الدفاعية، من الداخل، ولاقوا بعض المقاومة من أماكن مختلفة، في الوقت الذي تدفق فيه سيل من العرب الذين لازالوا منصبين من نفس المكان الذي تم فيه الهجوم الأول. واندفعوا نحو داخل المدينة. وعندما رأى فرج باشا، الذي كان ببوابة المسلمية، ألا فائدة من القتال- فقد كان الآلاف من رجالنا قد اخترقوا الخطوط في ذلك الوقت - أصدر أوامره لرجاله لإيقاف إطلاق النار ثم قام بفتح بوابة المسلمية وسلم نفسه. دخل عدد من العرب من خلال البوابة المفتوحة كما هرب من خلالها عدد كبير من الجنود وسلموا أنفسهم. عند ذلك الوقت لم تكن للمقاومة أية جدوى لأن هجوم النجومي على الجزء المدمر من المتراس كان ناجحاً تماماً. وأصبحت الخرطوم بعدها في قبضتنا، وإقتحم العرب المنازل وكانوا يقتلون وينهبون ويسلبون أي مكان. ووصلت مجموعة صغيرة من العرب للقصر واقتحموه ثم إندفعوا على الدرج المؤدي لغرفة غردون باشا ووجدوه واقفاً على جانب باب المكتب الموجود في أعلى السلم. سألهم عمن يكون قائدهم، لكنهم لم يعيروا إهتماماً لسؤاله. وأندفع واحد منهم نحوه وطعنه بحربة ثم تلاه الآخرون وسرعان ما قتل. حدث قتله قبل شروق الشمس مباشرة وكان من قتله مجموعة من رجال ود النجومي، لكن النجومي لم يكن معهم في ذلك الوقت، بل جاء بعد وقت قصير وغضب غضباً شديداً عندما رأى أن رجاله هم الذين قتلوا غردون، وأمر بجرجرته إلى الحديقة حيث تم قطع رأسه ولفه في منديل وأحضروه للمهدي. ولقد رأيت الرأس عندما أحضر للمهدي بعد حوالي ساعة ونصف من شروق الشمس. وظل جسد غردون ممدداً بالحديقة طيلة ذلك اليوم وقد جاء عدد كبير من العرب وطعنوا الجثة بحرابهم. وسمعت في اليوم التالي أن الجثة قد ألقيت في أحد الآبار. أما جثث الذين قتلوا بالقرب من النهر فقد رمي بها في النيل الأزرق ولكن الذين قتلوا بعيداً عنه فقد ألقيت جثثهم في الآبار.

وبعد قطع رأس غردون، جمع النجومي رجاله على شاطئ النهر بالقرب من القصر وسألهم عمن قتل غردون. خرج أحد العرب من الصفوف وقال:" إنه أنا" فقد ظن أنه سيكافأ. لكنه عاد فأنكر ما قال عندما علم بأن مقتل غردون هو عصيان لأوامر المهدي. مع ذلك أخذ ذلك الرجل للمثول أمام المهدي ودافع عن نفسه بأنه كان مجرد واحد من عدد من الرجال الذين هاجموا غردون في أعلى السلم. وقد عفي المهدي عنه* وبقدر ما أعلم فأن غردون قد قتل من جراء طعنات الرماح والسيوف فقط. ولم أسمع أبداً أنه بذل أي مقاومة.لقد فوجئ بالهجوم عليه من قبل رجال متوحشين لا يعرفون الإنضباط. وقد قتل كل خدمه وأهل قصره بنفس الطريقة.لم تكن المقاومة مجدية. وإضافة لذلك فقد

* أحد العائدين من الخرطوم أفاد بأن غردون قد قتل بواسطة أولاد ملك السعداب، الذين تقطن قبيلتهم(الجزان) على شاطئ النيل الأبيض، جنوب أم درمان مباشرة، وذلك انتقاماً لمقتل أحد رجال قبيلتهم الذي كان غردون قد أمر بإعدامه باعتباره جاسوساً. كما أفاد آخرون بأن من قتله هم موسي أغا تاي الله وعلي ود رحمة،من قبيلة الجميعاب، وأنهم قتلوا غردون انتقاماً منه لمقتل سليمان الزبير. إبن الزبير باشا. لكن الإفادات المؤيدة لما ذكره الأمير مضوى هي الغالبة.

كان الظلام حالكاً وقتها ويبدو أنه لم يتم سوي قتال بسيط لأنه لم يقتل في القصر من العرب إلا رجل واحد. لم تبد حاميات توتي ورأس راسخ أي مقاومة، عندما شاهدوا احتلال الخرطوم واستسلموا كلهم.

إستمرت المذابح في المدينة لحوالي ستة ساعات ويبدو أن حوالي أربعة ألف شخص قد قتلوا فيها. وقتل القنصل هانزل في منزله لكن القنصل نيكولو وإبراهيم بك فوزي، سكرتير غردون باشا، أخذا أسيرين.

وبعد يومين من ذلك (يوم ٢٨) رأينا البواخر مقتربة من الخرطوم وفتحنا النار عليهم. لكنهم واصلوا إبحارهم حتى الركن الجنوبي الغربي لجزيرة توتي، وذلك في حوالي الحادية عشرة صباحاً, وعادوا أدراجهم بعد أن شاهدوا الخرطوم في قبضتنا. لقد أنتوي المهدي أن يرغم غردون على الاستسلام من خلال الجوع – فقد كان يخشى الهجوم على الخرطوم بعد فشله من قبل في اقتحام الأبيض – ولو لا نصيحة عبد الكريم لكان قد قام بفك الحصار، فقد كان يعلم بأن مجرد وصول باخرة واحدة، عليها جند الإنجليز، سيعمل على إستعادة رجال الحامية لشجاعتهم مما سيسبب فشل هجومه.

أما فرج باشا فقد أخذ أسيراً إلي خارج المعسكر. وبعد ثلاثة أيام قام أحد خدمه السابقين بقتله إنتقاماً لشئ كان قد فعله له قبل زمن طويل. لم يقتل بأمر من المهدي ولم يكن قد خان المدينة أو فتح بوابة المسلمية إلا بعد أن صارت الخرطوم في قبضتنا بالفعل.

هذا ما جاء في إفادة أحد المحاصرين البارزين، وهي مطابقة حتى في أدق تفاصيلها تقريباً بما جاء في أقوال الكثيرين من الأسرى العرب وغيرهم من الذين وصلوا لمصر قادمين من السودان*.

نعود الآن للأحداث التي جرت في ذلك اليوم المشئوم من صباح الإثنين السادس والعشرين من يناير، حيث نتابع وصفاً دقيقاً لما جرى وذلك من واقع الشهادة التي تم الحصول عليها من وقائع المحكمة العسكرية التي إنعقدت في القاهرة في يونيه ١٨٨٧، والتي أضفنا بعض ما جاء بها إلى ما سبق سرده من إفادات (شهود العيان).**

---

* الأسلوب الذي استخدم للحصول على إفادات الذين كانوا بداخل الخرطوم، والذين كانوا يحاصرونها, قد يساعد القارئ، كما نأمل، في تكوين فكرة عن مدي دقة التفاصيل التي تم وصفها. تم وضع كل إفادة باسم شخص واحد فقط – بورديني بك والأمير مضوي – ولاشك في أن النقد المحتمل القائل بأن من غير الممكن لأي واحد منهما أن يكون في موقف يصف فيه بطريقة موثوقة كل الأحداث المذكورة في إفاداتهم المتعددة، هو أمر صحيح تماماً, لقد تم إختيار هذين الشخصين لأنهما، بشهادة الجميع، أكثر الرجال معرفة بالوقائع ومن أكثر من يعتمد علي مصداقية أقوالهم من الرجال الذين وصلوا لمصر حتى وقتنا هذا. لقد تم تدوين إفاداتهما عن التجارب الشخصية التي مرابها بدقة في المقام الأول. أما تفاصيل الأحداث التي لم يشارك فيها الراويان بنفسيهما فقد تم تأييدها أو نفيها، في حضورهما، بواسطة اللاجئين أو أساري العرب الذين يدعون بأنهم كانوا شهود عيان لها. من هنا تم الحصول علي ما نعتقد، على نتائج دقيقة وصحيحة لحد كبير. وحتى نتجنب الخلط أو الإستطراد الذي ينجم عن تعدد الآفادات ومقارناتها وفحصها، التي حصلنا عليها من العديد من الأفراد، فقد أجمل الكاتب إفادات المحاصرين والمحاصرين كلها في شخصين فقط علماً بأن الذين دونا إفاداتهم لا يقلون عن الخمسين شخصاً. وفي نفس الوقت يجب أن يكون واضحاً بأن الشخصين الذين ظهرت الإفادات تحت اسميهما قد اتفقا على صحة ودقة كل ما جاء بهما.

** الوقائع الكاملة للجلسات، ذات الأهمية الكبرى، والتي توضح الظروف الحرجة التي سقطت فيها الخرطوم، وأحوالها عند ما هوجمت، مرفقة كاملة في الملحق المدرج بآخر القسم السادس من الكتاب.

فقد هرب حسن بك بهنساوي، قائمقام وقائد الكتيبة الخامسة، من السجن بعد سقوط الخرطوم. وبعد أن مر بسلسلة من المغامرات المحفوفة بالمخاطر وصل للقاهرة. وهنا تم تقديمه لمحكمة عسكرية، لأن كتيبته هي التي كانت تسيطر على النصف الغربي من خطوط الدفاع، أي ذلك الجزء من الإستحكامات التي كانت أول ما أقتحمه العدو.

تم توجيه ثلاثة تهم إليه، لكن التهمة الرنيسية كانت تتلخص في قيامه بتسليم موقعه للعدو بخيانة.

كانت الشهادة التي سجلت أمام هذه المحكمة ممتازة حقاً. فقد صورت مجرى الأمور داخل القلعة بوضوح وأضافت مصداقية لوصف الأمراء لما حدث وراء الخطوط. كانت لهذه المحكمة العسكرية أهمية لا توجد في بعض المحاكمات العسكرية الأخرى. فهي لم تكن محكمة من ضباط كرماء، يحققون في أداء ضابط زميل، في ظروف بالغة الصعوبة. لأن مبالغ ضخمة معلقة على ما ستتوصل إليه المحكمة. فالموقف كان كالآتي: فإذا ما كان الضباط والجنود الذين يصلون يومياً من السودان قد قاموا بواجبهم، فأنهم يستحقون المعاشات والدفعيات المقسطة طويلاً. أما إذا ثبتت تهم الخيانة أو الإهمال عليهم فلن يصبحوا من المستحقين لأي تعويض أو معاش. حرص كبار موظفي وزارة المالية على حماية (أموالهم) من أي تحيز (من جانب المحكمة العسكرية لصالح زميلهم الضابط). وضماناً بأن الأمر سيتم إنزاله للحد الأدنى، بل كانت لديهم حماسة غير عادية في وقوفهم ضد الضباط والجنود. بل إن واحداً من المرؤوسين بالوزارة، ممن يتميزون بالكفاءة، وبخ توبيخاً قاسياً، لاستماتته في الدفاع عن خزينة وزارته المجهدة، وذلك من المحكمة التي كانت تنظر في مطالبة نصحي باشا، قمندان بواخر غردون، بالتعويض.

وضعت خريطتان للخرطوم أمام المحكمة العسكرية التي حاكمت حسن بك بهنساوي. ولم يتردد المدعي العام، عند وضع خطة الادعاء، من تحريك موقع قلعة المقرن من مكانها الأصلي على الشرق من أم درمان، وذلك بزحزحة الموقع لميلين جنوباً ووضعها، في الخريطة المقدمة للمحكمة، في الطريق الذي دخل منه العرب (في مدخل الخندق الغربي)، وعلى اتصال مع القوارب الموجودة على نهر كان ينحسر يومياً لعدة ياردات. بل أن أحد الأقوال التي جاءت معززة لتهمة الخيانة ذكرها كاتب سابق في خزينة الخرطوم. لقد ذكر الكاتب بأن حسن بك بهنساوي قد تلقي مخصصاتاً (مالية) من المهدي. لكن الدليل الحاسم على عكس ما ذكره الكاتب تمثل في أن حسن بك قد ضرب ضرباً مبرحاً،مثلما تم الاستيلاء علي نسائه وبناته ووزعن كجواري للمهدي وضباطه.

وخلص الميجر أوين كيرك إلى أن ممثل الادعاء قد فشل في تقديم أي دليل، أو إثبات صحة أي كلمة ضد المتهم. لذلك برأت المحكمة المتهم ووصفته بأنه جدير بالاحترام. والملاحظات التالية ستلقي الضوء على أقوال الشهود أمام المحكمة العسكرية. وسنوردها كما جاءت في الوقائع الرسمية للمداولات:

فالخطأ الذي جاء في واجهة (يوميات الجنرال غردون في الخرطوم) هو خطأ متعلق بموقع قلعة المقرن. ورغم أنه خطأ واحد إلا أنه ذو أهمية بالغة وهو ما كان كافياً تقريباً لاثبات تهمة الخيانة (علي حسن بك). لأن من المعروف أن العرب قد دخلوا الخرطوم من نهاية الخط الدفاعي (الخندق)، حيث تقع قلعة المقرن (المجرم) كما جاء بالخارطة التي إستخدمها الإدعاء، ولابد أن العرب قد إخترقوها أو دخلوا من مكان قريب أو ملاصق لها. فهذه الخارطة تظهر قلعة المجرم في مكان سنشير إليه بالموقع (أ). لكن الموقع الحقيقي لقلعة المجرم سنشير إليه بالموقع (ب).

لم يتمكن ناشر "يوميات غردون"، بعد وفاة السير هنري غردون، من الحصول على أي معلومات خاصة بصحة ودقة تلك الخارطة التي ربما تم رسمها من خارطة مصغرة كانت بغرفة الخرائط الحربية، تحت الرقم ٣٨١، وعليها ملحوظة "روجعت في يونيه ١٨٨٥." لم يقم أحد بالتدقيق في تلك الخارطة المصغرة لأن تصنيف الكتاب تم في عجلة درجة عدم وجود أي قائمة للمادة المستخدمة (المراجع) فهنا نجد أن قلعة المجرم تحتل موقعها تماماً كما جاء في صدر الكتاب، وقد وضعت على حافة النيل، وعند ارتفاع النيل فستكون داخل عدة أقدام من المياه ولابد أن تكون كجزيرة على النيل. لاشك إذن في أن هذا الموقع مستحيل الحدوث. ولقد تم استجواب عدة شهود عما إذا كانت هناك قلعة تسمى "المجرم" بخلاف قلعة "المقرن" وقام كل من خشم الموس ونصحي والأمير مضوي ومصطفى باشا ياور وإبراهيم بورديني بك برسم، ليس واحدة، بل عدة خرائط وفي عدة مرات. وكانت أقوالهم كاسحة بأن ليس هناك سوى قلعة واحدة تسمى قلعة المقرن ومكانها في الموقع (ب)، وأنه لم تشيد أبداً قلعة في الموقع (أ).

ولقد أوضح مصطفى باشا ياور في أقواله، التي شرح فيها أصول الكلمات من ناحية لغوية، ساخراً من نظرية أن المقرن قد يكون في مكان آخر بخلاف الموقع (ب). فجذر الكلمة "قرن" تعني وصل شئ بآخر، أو "هو ربط" فالمقرن هو مكان الإرتباط، والمقرن هو العود الذي يوضع على عنقي ثورين، ومقرن البحرين هو مصطلح شائع في جغرافيا العرب ويعني اقتران أو التحام نهرين سوياً. وتظهر الخارطة المصرية لتحصينات الخرطوم، التي وضعها عبد القادر باشا والمؤرخة ١٨٨١, الموقع (ب) بأسم المقرن. وليس هناك أي قلعة في الموقع (أ) والذي جاء في تعليق عليه بالخارطة "بأنه عرضة للغمر بالمياه". وهناك خارطة أخرى لمكتب الحرب بالنمرة ٣٣٢ مؤرخة ديسمبر ١٨٨٣ بها خارطة مصغرة مرفقة بها عن الخرطوم موضحاً عليها أقساماً من التحصينات والإرتفاعات والأبعاد. ولم تظهر قلعة "المجرم" تماماً في هذه الخارطة كما لم تظهر بها قلعة المقرن أيضاً. وقد وصف الشهود الذين ذكرناهم من قبل المقرن بأنه يبعد بحوالي عشرة دقائق مشياً من النيل الأزرق وأن فيضان النيل الأبيض عند قمته يغمره. بالتالي لاشك في أن تلك القلعة تقف على موقع " مقرن البحرين" أو مقرن النيلين. ويمكن تأييد هذا القول من يوميات غردون. ففي صفحة ٣٤٠, من الطبعة الأصلية، ذكر بأن "الحسينية راسية بالضبط بين النيل الأبيض والأزرق". وفي صفحة ٣١٨, أبرق غردون من قصره إلى "المجرم" ليعرف حالة الحسينية.

أما خشم الموسى فقد وصف وصوله مع السير تشارلس ولسون في ٢٨ يناير بقوله: "استمر العدو في رمينا بالنيران حتى وصلنا للحلفاية. كما تم ضربنا أيضاً من توتي والمقرن*.

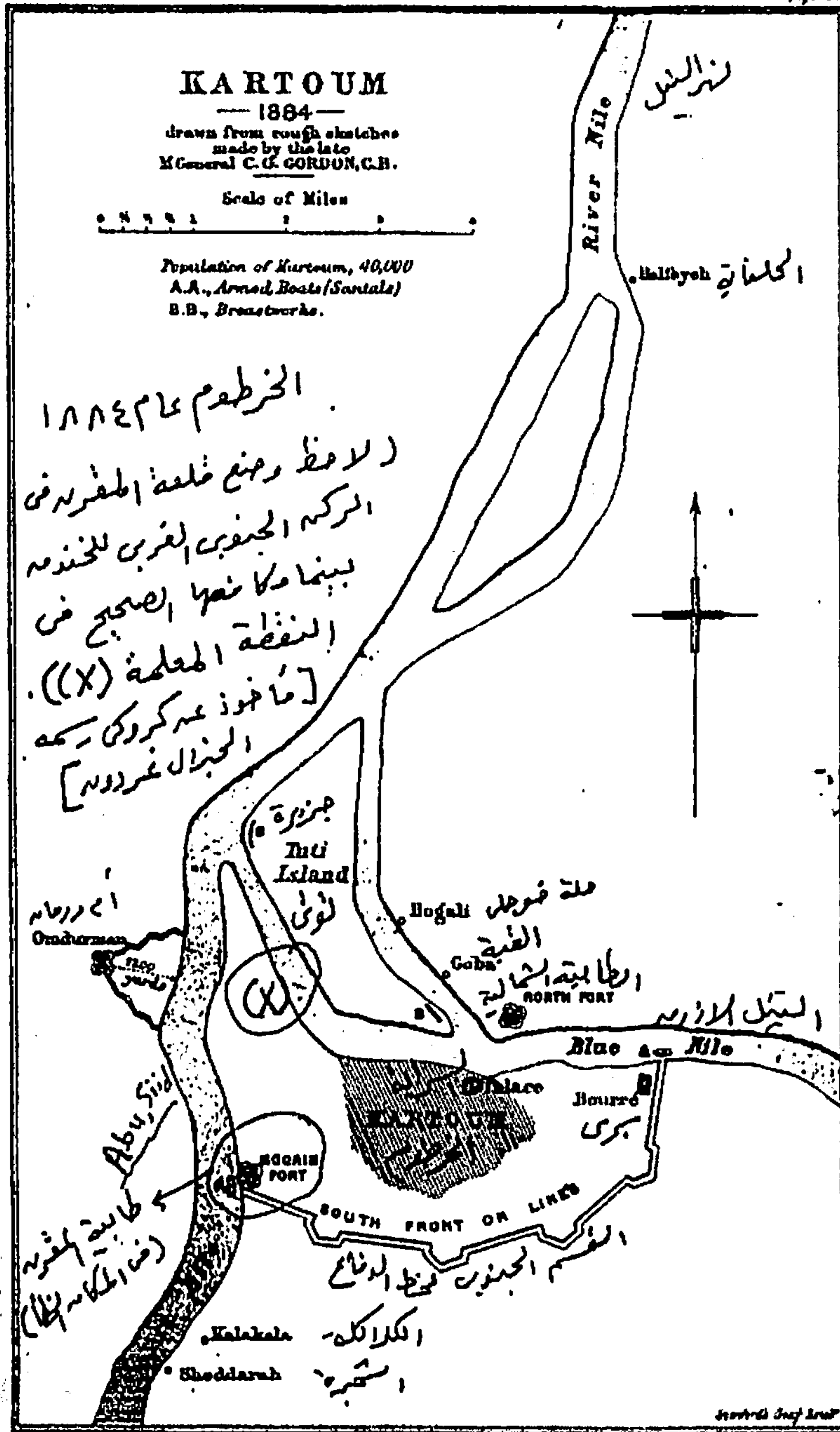
---

* لقد جاءنا للتو تأكيد لافت للنظر خاص بهذه النظرية وذلك في شكل رسالة، لم تبرق، من المستر باور، مراسل التايمس بالخرطوم ، إلي المستر موبرلي بل، مراسل التايمس في مصر، وفحواها كالتالي:

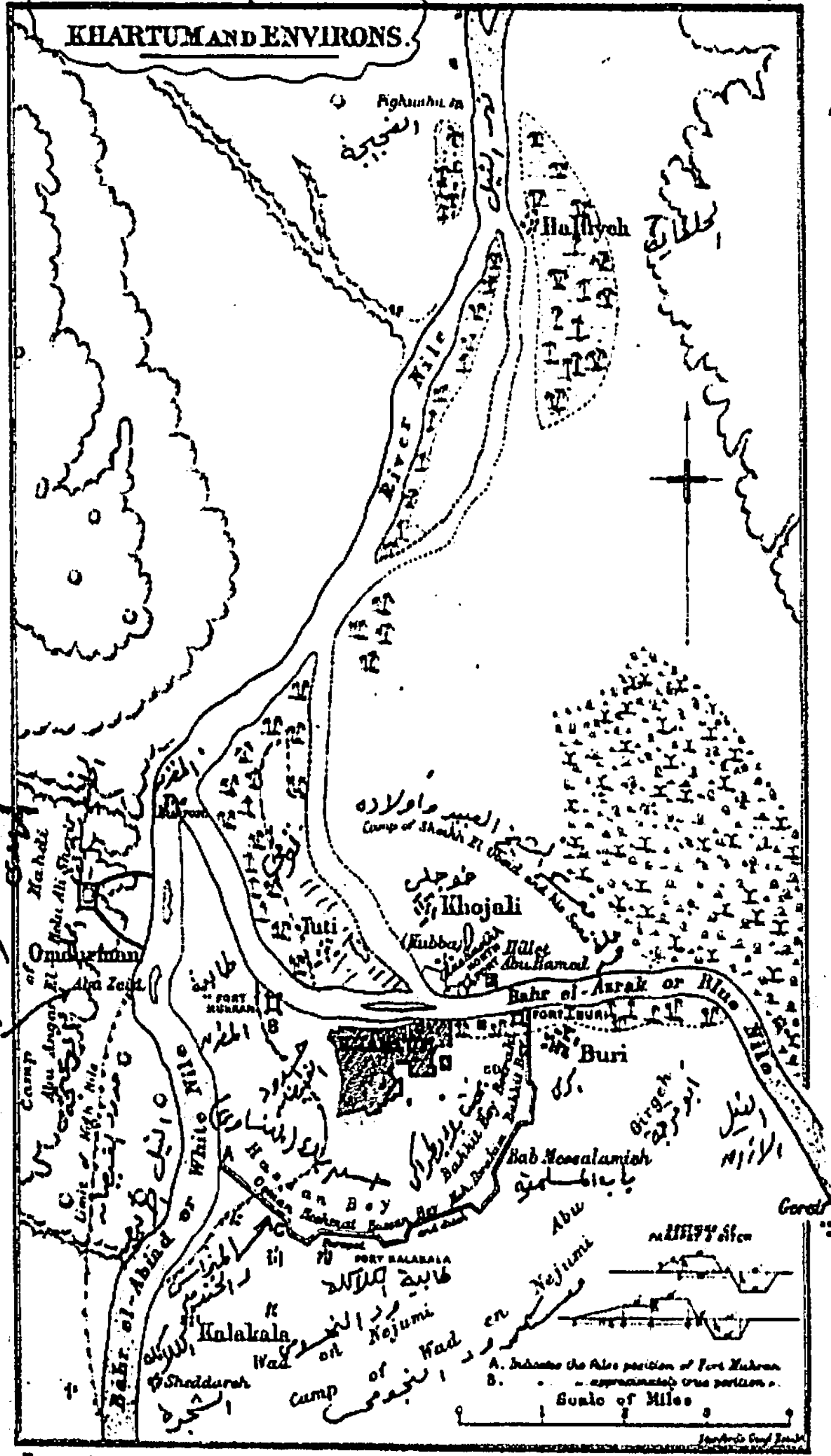
"..... ولدينا، إضافة لخطوط التحصينات، أربعة مراكز محصنة هي: المقرن، في مقرن النيلين، وأم درمان، في مقابلها – علي الشاطئ المقابل –، ومنزل محصن بالنيل الأزرق في مواجهة القصر، وبري، وهي قرية محصنة علي أقصي يسار** خطوط التحصينات........". وتشكل هذه الرسالة جزءاً من المراسلات التي لم تصل إلي القاهرة إلا في عام ١٨٩٠.

** الصحيح أقصي يمين خطوط التحصينات (المعرب).

To face page 196



This map was used by the "Prosecution" in the General Court Martial on Hassan Bey Bahnasawi.



This map is partly compiled from W.O. maps 332 and 381, showing the true position of Fort Mukran. The space between A. & C. indicates the broken down parapet which the Arabs crossed in the assault on Khartum.

وهناك خارطة أخرى، في الصفحة التالية، هي صورة طبق الأصل من الخارطة التي استخدمها "الدفاع" في تلك المحاكمة.

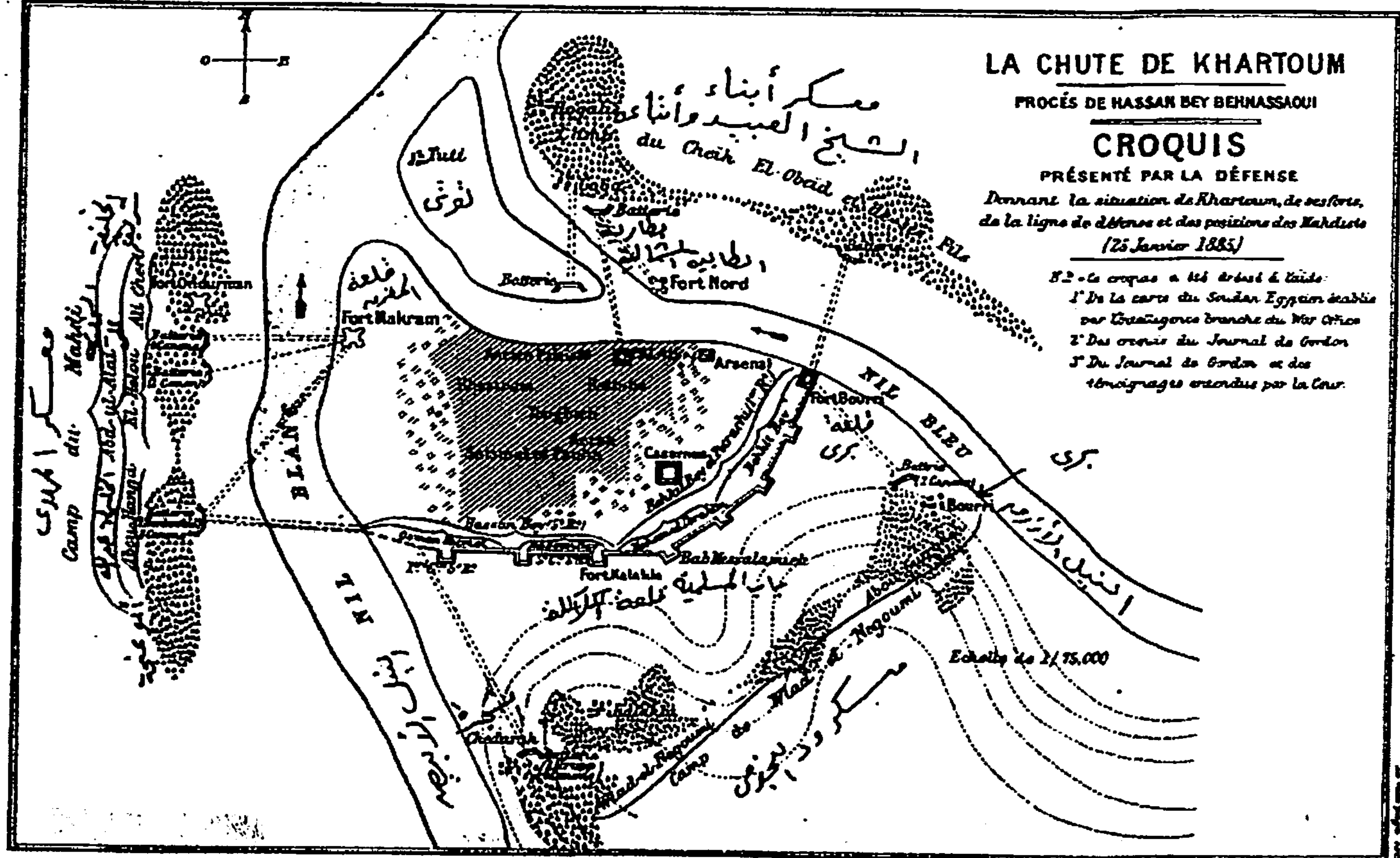
ومن تفحص مداولات المحاكمة العسكرية تلك، سنجد أن قصة كل الأحداث التي رويت فيها ستقودنا، فيما يبدو، إلى إستنتاج واحد يمكن تلخيصه في كلمات قليلة ليس غير.

فنحن نعرف تأثير معركة أبو طليح علي أولئك الذين كانوا داخل الخرطوم وخارجها، حيث عرفت أخبار إنتصار الإنجليز في العشرين من يناير. وعم الإحباط العرب على ضفة النيل الغربية من جراء طول فترة الحصار الذي ضربوه وعدم جدواه وقلة المؤن وتطلعوا للانسحاب بعيداً. لقد سحقتهم معركة أبو طليح. وانعقد مجلس للأمراء وكان أول قرار توصلوا إليه هو إعلان تحقيقهم النصر. وأطلقت ١٠١ طلقة مدفع. قرر محمد أحمد الإنسحاب فوراً لكردفان وكان القرار أن يحصل على إجماع من حضر المجلس خاصة بعد أن أشار المهدي إلى أن إستلام مدينة متضورة من الجوع بعد نصراً فارغ المحتوى. فأن تحتلها اليوم وتصمد فيها ثم يتم حصارك بداخلها، بدون مؤن، بواسطة الإنجليز، سيكون عملاً إنتحارياً وأخرق.

ثم وصل الرسل من القبة وأعلنوا أن الإنجليز لم يغادروا المنطقة بعد. نسيت هزيمة أبو طليح في الحال وعادت الثقة إلى النفوس. إذ أن الإنجليز هم الذين هزموا. لذلك تم الاتفاق أخيراً على أن الذين في الجنوب، وهم أبو قرجة والنجومي، أن يقوموا بمحاولة أخيرة. فإذا ما نجحت فهذه مشيئة الله. أما إذا ما فشلت فيجب رفع الحصار. فقد كان النجومي يرصد هبوط منسوب النيل شيئاً فشيئاً، وتصلب الطمي (الناجم عن انحسار النيل) تدريجياً، ويعرف حالة العساكر المنتشرين على الخطوط بأرجلهم المتورمة وأجسامهم المنتفخة من أكل الصمغ وشرب الماء.

وداخل المدينة كان الناس يحملقون عبر النهر محاولين قراءة ما يشاهدونه من علامات. فمن جهة تحية النصر (بإطلاق ١٠١ طلقة مدفع) ومع ذلك فهناك حشود من النسوة المنتحبات حول أم درمان لكن تلك التحية لم تعني الكثير. ففي ذلكالحصار الطويل تمت تجربة أي حيلة أو خدعة لدرجة بالغة التكرار. فلعدة شهور كانت تطل من استحكامات غردون دمي تشبه الجنود، وهي خدعة فتحت باب الحديث عن قبعات عسكرية بريطانية مرفوعة على رؤوس الحراب. لكن الذي كان واضحاً هو أن معركة قد تم خوضها. وأن غردون، الذي لم يخدع رعاياه أبداً قال يوم الثلاثاء "سيكون البريطانيون هنا غداً". ولم يحضر أي إنجليزي. وقال يوم الجمعة "لابد أن يكونوا هنا غداً" أما يوم السبت فقد قال الناس" أن غردون نفسه يائس. إنه يكذب علينا". وجاء يوم الأحد ومضى. وقال الناس" لقد إنتصر العرب في أبو طليح وإلا لكان الإنجليز هنا ".

وظلت صلوات غدرون تنصب علي تلك البواخر والتي بدأت الآن الزحف ببطء للأمام. ثم جاءت النهاية.


LA CHUTE DE KHARTOUM
PROCÉS DE HASSAN BEY BEHNASSAOUI
CROQUIS
PRÉSENTÉ PAR LA DÉFENSE
Donnant la situation de Khartoum, de ses forts, de la ligne de défense et des positions des Mahdiste
(25 Janvier 1885)
N.B. Le croquis a été dressé à l'aide:
1° De la carte du Soudan Egyptien établie par l'Intelligence branche du War Office
2° Des croquis du Journal de Gordon
3° Du Journal de Gordon et des témoignages entendus par la Cour.
معسكر المهدى
Camp du Mahdi
معسكر أبناء الشيخ العبيد وأتباعه
du Cheik El-Obeid
NIL BLANC
النيل الأبيض
NIL BLEU
النيل الأزرق
Fort Makram
قلعة المقرن
Fort Omdurman
Abd-ul-Alat
Abou Hanga
El-Helou
Ali Cheri
Tutti
توتى
Batterie
بطارية
Fort Nord
الطابية الشمالية
Arsenal
Caserne
Fort Bourri
قلعة برى
برى
Bourri
Fort Kalakla
قلعة الكلاكلة
Bab Messalamieh
باب المسلمية
Camp de Wad el Negoumi
معسكر ود النجومى
Echelle de 1/75,000

وبدأ النيل الأزرق يأكل ضفته الغربية والتي قويت حافتها صناعياً. أما النيل الأبيض فبـدأ يلتهم ضفته الشرقية. وعلى نواحي الخرطوم فأن الضفة عبارة عن منحدر منبسط يتراجع عنه النيل، أو يغمره، مثلما يحدث بالسهول الرملية على شواطي أسوان. ويفصل ما بين الخرطوم والاستحكامات سهل منبسط تتناثر عليه المقابر ومخازن البارود والسلخانات. وكان هذا السهل بالذات هـو الـذي امتلأ، في عتمة فجر السادس والعشرين، بالعرب والذين لم يكن معظمهم يحمل من السـلاح سـوي الحديد العاري، والذين اندفعوا عبر الطين والوحل الذي ملأ الضفة المتراجعة والخندق المسدود الذي كان قد حفره دي كوتلوجون. لم يواجهوا سوي مقاومة خفيفة عند نقطة الهجـوم وبعـدها تـدفقت جموعهم من خلف الجنود المتضورين والذين كانوا يرمقونهم بعيون مرهقة من فوق المتراس. فـي بعض المناطق تم بالفعل عمل مربعات عسكرية لكن سرعان ما توقفت كل أنواع المقاومـة. وأنـدفع العرب المتوحشون نحو المدينة يذبحون وينهبون ويغنمون لساعات ستة ثم انتهي بعدها كل شـيء. ومن بين الأمراء الذين حاصروا الخرطوم النجومي، الذي قتل (فيما بعد في توشكي)، وأبـو قرجـة، الموجود الآن بطوكر، والأمير مضوي، الذي كان أول من بدأ ضرب الحصار وقاد قوات (الثوار) في الضفة الشرقية (للنيل الأزرق) حتى النهاية، وهو الآن في القاهرة.

لقد إنتهت الرواية الآن. فعن الخيانة، لم تكن هناك خيانة. الذي حدث هو أن ذلـك النهـر المتوحش قد ملأ الخندق بالطين ثم تراجع. كان السباق شريفاً. وكانت النجدة في متنـاول اليـد، لا تفصلها عنهم سوي مائة من الأميال. لكن الجوع واليأس المخيم هما اللذان حسما الأمر.

وقال الشاعر تنيسون في قصيدته بعنوات "إلى قبر غردون"، والتي صدرها بعبارة لغردون يقول فيها:" من الأفضل أن أموت عن أن يتم إطرائي":

"لقد مات بجانب الذين عاش من أجلهم. "وبلاده، التي صحيت بعد فوات الأوان. "توجـت جبينها الميت بالثناء. "وهو، تحت الأزرق الذي يحترق فوق الصحراء الليبية، "تخلص مـن عـبء أمجاده السالفة. وهناك صارقوياً بموته، ممجداً لفشله. "أوه! أبداً لم يكن فخوراً في حياته، " لكنه رقد في قبره مكللاً بالفخار".

تنيسون*

* ألفرد تنيسون، شاعر من شعراء الإمبراطورية البريطانية المرموقين. وقد مات في سن الثالثة والثمانين من عمره، عـام ١٨٩٢، بعد أن كتب الآلاف من القصائد ونشر عشرات الدواوين. وقد نال رتبة البارونية عام ١٨٨٤(المعرب).

وعندما بلغت أنباء سقوط الخرطوم اللورد ولسلي في كورتي، تقــرر أن يقــوم طــابور الصحراء في القبة، والذي يقوده الأن الجنرال بولر (الذي أرسل ليحل محل السير هيربرت ستيوارت الذي كان قد جرح جراحاً خطرة) بالاستيلاء علي المتمة ومنها التقدم نحو بربر، ليتم تنسيق الجهود بينه وبين طابور النهر الذي يقوده الجنرال إيرل، ومن ثم يقومان بتأمين الإســتيلاء على ذلك المركز الاستراتيجي الهام. كانت المهمة الرئيســية الموكلة للطابور الأخير – قبل أن يعــرف نبــأ ســقوط الخرطوم – هي في الإندفاع إلى أبو حمد لفتح طريق الإمدادات بينها وبين كروســكو، والتــي كــان منتظراً فيها الملازم رندل ومعه قافلة من الجمال الجاهزة لنقله متى تم الإستيلاء على أبي حمد.

وكان علي إيرل بعد ذلك التقدم نحو بربر ليعمل على الإسراع بقدر المستطاع في دفع المؤن والإمدادات لطابور الصحراء المتجه للخرطوم. ولكن، وبوصول أخبار سقوط الخرطوم، توقف طابور النهر، الذي كان وقتها في منتصف الطريق إليها، في بلاد المناصير، حتى يتم اتخاذ قرار بخصــوص العمليات القادمة. وفي السابع من فبراير أرسل القرار بالإطاحة بسلطة المهدي في الخرطــوم إلــى اللورد وولسلي، ومن ثم أرسلت التعليمات للجنرال إيرل للتقدم نحو أبو حمد وينتظر هناك تعليمــات جديدة. وفي العاشر من فبراير نشبت معركة كيربكان الناجحة، ولكن التي فقد فيها اللورد إيرل حياته. من ثم تحولت القيادة إلى الجنرال براكنبري.

ثم تقدم الطابور نحو أبي حمد، ودمر في طريقه إليها ممتلكات سليمان ود قمر وفكري ود عثمان، قتلة الكولونيل ستيوارت. ولكن، وفي الرابع والعشرين من الشهر، عندما كانوا علــي بعــد ثلاثين ميلا من أبي حمد، وصلتهم تعليمات من اللورد وولسلي، تفيد بأنه نظــراً لانســحاب طــابور الصحراء من القبة باتجاه الجقدول، فأنه قد ألغي كل الخطط للوصول لبربر قبل الخريف. وأن عليهم الرجوع إلى مروي بكل القوات. قام الجنرال براكنبري بتنفيذ هذا الإنسحاب في الخامس من مارس.

وبعد أن ترك حامية صغيرة في مروي تحت قياد الكولونيل بتلر. إنسحب مع بقيــة قــوات الطابور إلى كورتي والتي وصلها في الثامن من مارس. وأثناء ذلك ظل طابور الصحراء، الذي كــان مقرراً له التقدم نحو بربر، بعد احتلال المتمة، في القبة لعشرة أيام بعد عودة السير تشارلس ولســن لها. وتم إرسال السير آر.بولر إفلين وود إلى القبة لسحب النقاط الصحراوية بعد مغادرة السير. بولر ولكن بعد عودة الأخير إلى الجقدول جاءت معلومات من الجنرال بولر بأنه نظراً لورود معلومات تفيد بأن جيشاً قادماً من الخرطوم نحوهم، والتي إن صحت فستجعل الوضع بالنسبة له في غاية الصعوبة وبالذات من ناحية قدرته على الحفاظ على خطوط إمداده واتصاله، وأنه قد إضطر للإنســحاب لأبــي طليح والتي وصلها في ا لخامس عشر من فبراير. ومن هنا فأنه كان يأمل في التقدم نحــو بربــر أو الإنسحاب إلى مروي حسب الأوامر. ولكن الإنهيار التام للجمال ولحملة النقل، بسبب الضغط الرهيــب الذي وقع عليهم في العمليات الأخيرة، جعلت عملية زحفه نحو بربر أمــراً غيــر وارد. لــذلك تقــرر الإنسحاب الشامل صوب النهر إلى كورتي أو مروي. ومن موقعه بالجقدول، أرسل السير إفلــين وود قوافل من الجمال لتمكين الجنرال بولر للقيام بالإنسحاب من أبي طليح. والتي كانت في ذلك الوقت تحت حصار جزئي ضربه العدو عليها. وفي الثالث والعشرين من فبراير غادر الطابور أبو طليح ووصل إلى الجقدول يوم السادس والعشرين. ثم توجه السيرر. بولر الآن إلى كورتي وأوكلت مهمة سحب الطابور

إلي السير إفلين وود. ولكن نظراً للإنهيار الكامل لحملة النقل فأن كل القوات لم تصل إلى كورتي إلا في السادس عشر من مارس.

ثم تم توزيع طابور النيل الآن بين مروي وتاني والدبة وكروت ودنقلا حيث تم اختيار معسكرات مناسبة لهم واتخذت كل الترتيبات لحماية القوات من الفصل الحار القادم.

وأثناء ذلك تم التخطيط لحملة أخري لسواكن, بهدف القضاء على عثمان دقنة، واحتلال ديار الهدندوة، وإنشاء خط للسكة حديد يمتد حتى أرياب، ثم بعد ذلك التجهيز لفتح طريق بربر - سواكن والذي سيبدأ الشروع فيه بعد إحتلال طابور النهر لبربر.

هذا وسنتحدث عن عمليات قوات سواكن الميدانية، بقيادة السير ج. جراهام، في الباب الخاص بأحداث تلك المنطقة وما حولها التي جرت في عام ١٨٨٥، أما عن التحركات التي قام بها طابور النهر بعد ذلك فسترد عند وصف الأحداث على الحدود المصرية خلال تلك السنة.

***

ملحق القسم السادس
(سقوط الخرطوم)
وقائع محاكمة

الأميرالاي حسن بك بهنساوي، قائد اللواء الخامس، أمام المحكمة العسكرية العامة، التي إنعقدت في القاهرة بتاريخ يونيه ١٨٨٧. والأميرالاي حسن بك كان قائد تلك المنطقة من تحصينات (خندق) الخرطوم، والتي كانت أول ما دخل منها الثوار للخرطوم. وقد إتهم بأنه إرتكب خيانة بتسليمه تلك المنطقة للعدو.

شاهد الإدعاء الأول عبد القادر بك حسن:

بعد أن أدي القسم، بدأ المدعي العام باستجوابه. وكان قد ذكر بأنه كان بالخرطوم، بالتحصينات المقامة على النيل الأبيض. وأن الكتيبة الأولي كانت بالجهة الغربية منه، وطابية المقرن من خلفه، وكان بها بعض الجنود

ثم بدأ المدعي العام في استجوابه:

س – كم عددهم؟

ج – حوالي عشرين أو خمسة وعشرين من الباشبوزوق معهم مدفع واحد.

س – هل كانت هناك أي زوارق علي النيل الأزرق؟

ج – لم يكن هناك أي زوارق بالنيل الأزرق. ولكن بالنيل الأبيض كانت هنالك بعض الزوارق والجنود المسلحين ببنادق رمنجتون.

س – كم عدد العرب الذين إقتحموا المدينة؟

ج – ربما كانوا ٥٠٠٠٠.

س – هل قتل من رجالنا عدد كبير فوق التحصينات؟

ج – نعم كثيرون ولا أذكر العدد بالضبط.

س – كم بقي منهم أحياء؟

ج – حوالي ١٠٠٠.

س – كم كان عدد القوات بالتحصينات؟

ج – كانوا ٩٠٠٠ في المبدأ. وفي النهاية لم يبق منهم سوي ٥٠٠٠

س – كم بلغ عدد المدافع التي علي التحصينات؟

ج – حوالي ستة بين النهرين. بعضها جبلي وواحد كروب وواحد ميداني.

س – في أي يوم سقطت الخرطوم؟

ج – يوم الإثنين ٢٦ يناير ١٨٨٥، الساعة التاسعة صباحاً، وبالتوقيت العربي الثالثة صباحاً.

س – في أي مكان من التحصينات قتل أغلب الجنود؟

ج – في الجانب الغربي، مكان الكتيبة الأولي، الفوج الخامس.

س – من كان القائد المسئول؟

ج – فرج باشا.

س – ماذا كان يقوده حسن بك بهنساوي؟

ج – كان يقود الفوج الخامس. أما الفوج الأول فيقوده بخيت بك.

س– أي كتائب، سرايا .. إلخ كانت تحت قيادته؟

ج– لقد كان قائداً عاماً.

س – من أين دخل العرب؟

ج – من مكان خال بين الكتيبة الأولي والزوارق التي علي النيل الأبيض.

س – من كان الضابط الذي يقود الكتيبة الأولي – الفوج الخامس؟

ج – يوسف أفندي عرفت.

س – ماذا فعلت الزوارق عندما دخل العدو بينها وبين الكتيبة؟

ج – أطلقوا النار علي العدو.

س – وماذا فعلت طابية المقرن؟

ج – أطلقت النار.

س – كم كان العدو يبعد عنكم حينما شرع في الهجوم؟

ج – لم أشاهد شيئاً. فالوقت كان ليلاً.

س – هل هاجمكم العدو بالحديد (السلاح الأبيض) أم بدأوا بإطلاق النار؟

ج – أطلقوا النار قليلاً. أما الباقون فهجموا بالسلاح الأبيض.

س – وماذا حدث للأسلحة والذخيرة عندما دخل العدو؟.

ج – لقد إستلموها كما هي.

س – ألم تكن لديكم أوامر بالتجمع في أماكن الخطر؟

ج – لا.

س – من الذي يقال بأنه تسبب في سقوط الخرطوم؟ (ورفضت المحكمة هذا السؤال).

س – من الذي أمر بفتح بوابات الخرطوم؟

ح – لا أدري. لكنني سمعت بأن فرج باشا فعل ذلك، وكذلك بهنساوي بك.

س – كم بوابة كانت بالتحصينات؟

ج – بوابة واحدة تحت إمرة فرج باشا. ولكن علي النيل الأبيض كانت المنطقة مفتوحة.

س – هل تم أي إتصال أو تراسل مع العدو؟

ج – نعم بعض الشيء.

س – ممن؟ وإلي من؟

ج – من عثمان الملتزم وعبد الله ود الصليح والقاضي والمدير أحمد علي الجلاب – ١٨ شخص في مجموعهم.

س – هل ظلوا بالمدينة؟

ج – دخلوا السجن لفترة ثم أطلق سراحهم.

س – هل شاهدت بأم عينك حسن بك بهنساوي وهو يقفز خارج التحصينات تاركاً رجاله؟

ج – عندما اندفع العدو من ناحية الغرب وهو يقتلنا، يقال بأن حسن بك قد قفز من فـوق الخنـدق. لكنني لم أره.

س – يوم سقوط الخرطوم: هل كان بها عدد كبير من الأهالي؟

ج – نعم كثير. ربما حوالي ٣٠٠٠٠ شخص.

س – هل رأيت حسن بك بهنساوي بعد ذلك كسجين؟

ج – نعم.

س – هل رأيت آخرين؟

ج – نعم.

س – هل كان حسن بك بهنساوي يعمل معاملة حسنة أم سيئة من قبل العدو؟

ج – لا أدري

س – هل تعلم من كان يعامل معاملة حسنة؟

ج – لا اعلم.

س – هل تعرف السنجق عمر أغا إبراهيم؟

ج – نعم أعرفه. وهو يعيش الآن مع العرب. ولقد كان بالتحصينات. لكنه غادرها قبل السقوط.

س – من كان في مكانه؟.

ج لا أدري.

س – هل فرج باشا حياً أم ميتاً الأن؟

ج– ميت.

•••

ثم قام المتهم باستجواب الشاهد:

س – كيف كانت إستحكامات الخرطوم الجنوبية مقسمة؟

ج – الجزء الغربي كان تحت قيادة حسن بك بهنساوي . أما الجزء الشرقي فيقوده بخيت بك بطراكي. والجميع تحت قيادة فرج باشا.

س – هل تعلم بأن غردون باشا كان قد أمر في شهر صفر (نوفمبر – ديسمبر). بتقسيم الخط إلـى أربعة أقسام؟

ج – لم أعلم بذلك.

س – هل تعلم من كان قائد النقطة التي دخل منها العدو, بالنيل الأبيض؟

ج – يوسف أفندي عرفت.

س – أين الموقع الذي كان يقوده عثمان بك حشمت؟

ج – لا أذكر

س – ماذا كان وضعه؟

ج – لا أعرف.
س – أين كنت لحظة إندفاع العدو وإقتحامه؟
ج – بالاستحكامات.
س – وماذا فعلت؟
ج – دافعت عن نفسي بقدر المستطاع حتى تم أسري.
س – ما المدة التي قاومت فيها؟
ج – لا أتذكر لكم ساعة قاومت.
س – ما نوع السلاح الذي دافعت به عن نفسك؟
ج – بالسيف.
س – (وسلاح) جنودك؟
ج – بنادق رمنجتون وأسلحة نارية أخري.
س – عندما هاجم العدو نقطتك. هل دافعت عن نفسك من جميع الجهات أم من جهة واحدة؟
ج – من جميع الجهات.
س – أين كان موقعك بالضبط؟
ج – في القسم الذي علي النيل الأبيض.
س – عندما تم أسرك. إلي أين قادوك؟.
ج – إلي منزلي.

•••

ثم قام الإدعاء باستجواب الشاهد:
س- أين يقع منزلك؟
ج- في الخرطوم نفسها. لقد أخذوني لاستلام متعلقاتي ثم أرسلوني بعدها إلى الديم بالخرطوم وبعد ذلك إلى أم درمان.
تم استجوبته المحكمة:
س – عندما تم أسرك: هل كنت في خطوط الدفاع؟
ج – نعم. في خط الدفاع.
س – هل قام العدو بمهاجمة كل الخط. أم هاجم نقطة معينة؟
ج – هاجم كل خطوط الإستحكامات.
س – هل كانت كتائب الفوج الخامس متفرقة أم متجمعة؟
ج – كانت متفرقة.
س – أين كانت منطقة حسن بك البهنساوي؟
ج – منطقة الكلاكلة.
س – أين تقع الكلاكلة؟ أفي منتصف الخطوط أم أين؟
ج – في الثلث الأقرب للنيل الأبيض.

س – عند ما كان حسن بك في السجن: كيف كان يعامل؟

ج – مثل الأخرين. بقدر ما شاهدت بنفسي.

س – تحت قيادة من يقع ذلك الجزء من الإستحكامات التي دخل منها العدو؟

ج – تحت حسن بك كقائد عام للمنطقة ولكن القائد المباشر هو عرفت أفندي.

س – تلك الفصيلة من الجنود التي علي يسارك بالنيل الأزرق، من رجالك ومن الباشبوزوق، والكتيبة التي علي يمينك: لمن كانت تتبع؟

ج – لحسن بك بهنساوي.

س – ألم تتلق أي أوامر منه في تلك الليلة؟

ج – لم أتسلم أوامر محددة.

س – هل كانت هناك أي ترتيبات خاصة في قيادة حسن بك؟

ج – نفس الترتيبات المعتادة.

س – من الذي أخبرك بأن حسن بك أو فرج (باشا) قد فتح البوابات؟

ج – سمعت ذلك من العرب (الأنصار).

س – من أي جانب هاجم العرب منطقتك؟

ج – من النيل الأبيض، وليس من البوابة التي سمعت بأن فرج باشا قد فتحها.

س – كم كان عرض الجزء المفتوح الذي دخل منه العرب؟

ج – حوالي ١٥٠ ياردة.

س – لماذا لم تجر عليه أي تحوطات خاصة؟

ج – لأن العدو إعتاد علي رمي (فرق الأشغال) بالنار.

س – هل كان غردون باشا يعلم بهذا الجزء (المفتوح)؟

ح – نعم. فطوله كان يعتمد علي إرتفاع النيل.

س – ما نوع التعيينات اليومية التي كانت تصرف للجندي قبل دخول العدو مباشرة؟

ج – الصمغ في الأيام الخمسة الأخيرة. وقبل ذلك كان يصرف قليل من الخبز الذي يحضرونه من توتي، ويبلغ حوالي ثلث التعيين المقرر.

س – ألم يكن هناك أي لحوم؟

ج – أي حيوان حي تم أكله قبل عشرة أيام.

س – هل كان لرجالك قدراً من القوة للقتال في اليوم الأخير؟

ج – لا. بسبب الجوع.

س – هل كنتم تعلمون بقدوم الجيش الإنجليزي لنجدتكم؟

ج – نعم

س – ألم تر أبداً حسن بك خلال الدفاع في الليلة الأخيرة؟

ج – لم أره.

س – ألم يكن هناك ضباط ميدانيون يطوفون أثناء الليل عليكم؟

ج – نعم. كل ليلة.
س – هل طافوا ليلة سقوط الخرطوم؟
ج – نعم وقد رأيتهم.
س – من كانوا؟
ج – لا أدري
س – هل إعتاد حسن بك بهنساوي على تفتيش خطوطه؟
ج – نعم ليلاً ونهاراً.
س – هل قام بالتفتيش ليلة سقوط الخرطوم.
ج – نعم.
س – ما هو التاريخ العربي ليوم سقوط الخرطوم.
ج – ٩ ربيع الآخر(١٨٨٥/١/٢٦).
س – هل ظهر ضوء القمر ساعة الهجوم؟
ج – لا
س – هل كانت هناك ألغام حول الخرطوم؟
ج – لقد تم تدميرها. ولم تعمل عندما دخل العرب.
س – كيف يتم إشعالها؟
ج– ميكانيكياً.
س– هل كان هناك أي ضوء كهربائي؟
ج – لا.

ثم قرئت إفادته للشاهد لتصحيحها.

وبعدها إنسحب الشاهد.

ثم إنفضت المحكمة في الساعة الواحدة والربع ظهراً لتعاود الانعقاد في الثامنة والنصف من صباح الخامس عشر من الشهر.

كما كانت المحكمة قد اتخذت قراراً بألا يتم توجيه أسئلة للشهود إلا إذا كانت متعلقة مباشرة بالتهم.

وفي التاسعة والربع من صباح ١٨٨٧/٦/١٥, عاودت المحكمة إنعقادها وإستدعت شاهد الادعاء الثاني، الملازم أول على أفندي حسن، من الكتيبة الرابعة، الفوج الخامس. وبعد أن أدي القسم أفاد بالتالي:- " كنت موجوداً، أثناء سقوط الخرطوم، في خط القتال. وأقتحم العرب (الخطوط) عند الفجر".

ولما كان هذا الشاهد بحالة غير طيبة فقد أذن له بالإنسحاب.

***

شاهد الادعاء الثالث.

ميخائيل بك داود، بعد أن أدي القسم أفاد بالتالي:

كنت بالخرطوم يوم سقوطها، ولكن ليس في خطوط القتال. وفي الليلة السابقة لذلك كنت في منزل القنصل الأمريكي. وفي التاسعة بالتوقيت العربي، ليلة الإثنين ٢٦/يناير ١٨٨٥، سمعت أصوات العرب. صعدت للسطح ورأيت العرب يدخلون المدينة. وسألوا، أين منزل غردون باشا؟ وجري معظمهم نحو منزله. نزلت وعدت للمنزل وأقفلت الأبواب ومكثت هناك حتى شروق الشمس. ثم جاء اثنان من العرب إلينا وقالا: لقد قتلنا غردون باشا ونريد قتلك أيضاً". طلبنا منهم الرحمة فمنحونا إياها. وبعد ذلك عاد ثمانية منهم وقتلوا القنصل وأخيه.. الخ، لكنني اختبأت في حديقة المنزل لأربعة ساعات. بعد ذلك عاد المزيد من العرب يبحثون عن المدعو عثمان هندوك وشاهدونني وأرادوا قتلي وأثناء ما كانوا معي في طريقهم لمنزلي، لأريهم ممتلكاتي قبل أن أقتل، جاءت أوامر المهدي بألا يقتل أي شخص بعد ذلك. فسجنوني في منزلي لمدة خمسة أيام، بعد أن أخذوا ممتلكاتي، ثم أبعدوني لخارج الخرطوم".

س – عندما كنت بسطح المنزل تنظر للعرب هل شاهدت حسن بك بهنساوي؟

ج – لا.

س – في اليوم الذي سبق سقوط الخرطوم، ماذا أكلت؟

ج – رطلين من القمح.

س – هل قال لكم غردون باشا أي شئ خاص بالسقوط؟

ج – لا.

س – هل سمعت بأنه كان مستاء من أي ضابط أو رجل؟

ج – لا.

س – ألم تسمع بأي أحد تسبب في سقوط الخرطوم؟

ج – بعد مغادرتي للمدينة سمعت بأن العدو قد إقتحم الخرطوم عن طريق النيل الأبيض، من الجزء الذي كان يتولى قيادته حسن بك بهنساوي.

س – عندما كنت في سطح المنزل: هل شاهدت أي إطلاق نار من طابية المقرن أو من النيل الأبيض؟

ج – لا. لأن منزل القنصل كان بعيداً عنهما، في وسط المدينة.

س – هل شاهدت الجنود في منطقة التحصينات المجاورة للمنزل وهم يطلقون النار؟

ج – الذين بالقرب من بري أطلقوا نيراناً كثيفة. لكن الذين بالجانب الآخر لم يطلقوا سوي مدفعين. وبعد ذلك كان هناك إضطراباً في إطلاق النيران؟

***

ثم قام السجين باستجواب الشاهد:

س – كم من الزمن مكثت مختبئاً بين أغصان شجرة الليمون؟

ح – لأربعة ساعات.

س – عندما كنت بالمنزل: هل تستطيع تحديد من أي مكان كانت تطلق النيران؟

ج – لم أستطع أن أري، بل كنت أسمع فقط.

س – أيمكنك تحديد إن كان إطلاق النار يأتي من جانب الجنود أم العرب؟

ج – لا.

س – ماذا أكل الجنود قبل سقوط الخرطوم؟

ج – قبل ستة أيام (من السقوط) كان كل شئ قد تم أكله. القطط والكلاب وغيرها.

س – ألم تقم بزيارة أي من الضباط في إستحكاماتهم؟

ج – نعم. لقد أمر غردون باشا المجلس للقيام بذلك.

س – هل كنت تعلم بأقسام خطوط الدفاع؟

ج – لا.

س- هل كنت تعلم بأن الأقسام كانت محددة وموزعة تماماً؟

ج- نعم.

س – ألم تسمع بأن الجنود كانوا يأكلون الصمغ؟

ج – نعم. كانوا كذلك. وتم شراؤه من التجار لهم. كذلك أكلوا جمار النخل.

س – لكم يوم كانوا يعيشون على أكل الصمغ العربي؟

ج – لحوالي سبعة أيام.

س – هل رأيت أو سمعت بتأثير (أكل) الصمغ على الجنود؟

ج – سبب لهم إسهالاً.

س – هل تعرف حسن بك بهنساوي؟

ج – عرفته منذ بداية الحصار

س – هل تعتبره رجلاً شريفاً؟

ج – نعم.

•••

ثم قام الإدعاء باستجواب الشاهد:

س – هل أكل الجنود جمار النخل قبل أكلهم للصمغ؟

ج – لا. أكلوا الصمغ أولاً . وعندما انتهي أكلوا الجمار.

س – لكم يوم كانوا يأكلون الجمار؟

ج – ليومين. وسقطت الخرطوم في اليوم الثالث. وقبل يوم من السقوط ذبحت كل أبقـار السـواقي ووزع لحمها على الجنود. كان عددها حوالي ١٠٠ بقرة أو أكثر.

س – كيف إستطعت الحصول علي القمح؟

ج – أنا تاجر. وكنت أحتفظ ببعض المؤونة الخاصة.

س – هل رأيت حسن بك ليلة السقوط؟

ج- لا.

•••

ثم استجوبت المحكمة الشاهد:

س – هل رأيت حسن بك في السجن؟

ج – رأيته بعد خمسة عشر يوماً من ذلك.

س – كيف كان حاله؟

ج – مثل حالنا. يلبس جبة قذرة. وقال لي بأن المهدي قد أخذ أبنته.

س – عندما أقتحم العرب المدينة. هل سمعت بأن أحداً قد فر نحوهم؟

ج – لا.

س – هل كنتم تتوقعون (هجوم) العرب في تلك الليلة بالذات؟

ج – لا. كان كل شئ عادياً

س – ماذا سمعت عن إبنة حسن بك؟

ج – لقد أمر المهدي بجمع البنات وإختار لنفسه أولاً. أخذ الحسناوات لنفسه ثم قسم الباقيات على العرب.

س – كم بوابة بالخرطوم؟

ج – ثلاثة: باب المسلمية وباب بري وباب الكلاكلة.

س– من هو الضابط المسئول عن خط القتال؟

ج – فرج باشا.

س – من كان الضباط المسئولون عن الأقسام؟

ج – بخيت بك وحسن بك وبهنساي بك وإثنان آخران.

س – من الذي قام بعمل تحصينات الخرطوم؟

ج – عبد القادر باشا.

س – هل قام غردون باشا بصيانتها؟

ج – نعم وقام ببناء حائط وسطهم وثكنات أيضاً.

س – هل ذاد غردون باشا في الخندق؟

ج – نعم. وسعه بجوالي نصف متر.

س – هل جرب عبد القادر باشا الخندق بحيث لا يقفز فوقه العرب؟

ج – نعم لقد قام بتوسيعه حتي أن أحداً لم يستطع القفز عليه.

س – ما نوع تربة النيل الأبيض بين النهر ونهاية التحصينات؟

ج – طمي لين. يغطس فيه الرجل حتى ركبتيه.

س – من أي ضفة جاءت مجموعة الهجوم؟

ج – من جزيرة سنار، بين فرعي النيل.

س – كم عدد الذين قاموا بالهجوم تلك الليلة، من وجهة نظرك؟

ج – خمسون ألفاً وقال البعض بأنهم ثلاثين ألفاً.

س – كم كان عدد رجال الحامية؟

ج – أكثر من ٨٠٠٠ بمن فيهم الذين ذهبوا للمتمة مع نصحي باشا. وفي ليلة الهجوم ربمـــا كـــانوا ٧٠٠٠ أو أكثر.

س – من أي جزء دخل العرب. ومن كان الضباط المسئولون؟

ج – من البحر الأبيض، حسن بهنساوي.

س – ماذا تم بشأن الأسلحة والذخائر؟

ج – وضع العدو حرساً عليهم.

س – من كان الضباط الآخرون المسئولون بجانب حسن بك وبطراكي بك؟

ج – لا أعلم.

س – هل كانت مسئولياتهم مثل هؤلاء الإثنين؟

ج – كانوا من البكوات، مثل الآخرين.

س – أين كان الإثنان اللذان لا تعرف أسماءهما؟

ج – لا أدري.

س – هل تعرف قيادة حسن بك؟

ج – لا.

س – أين كانت رئاسته؟

ج – كانت خيمته شرق باب الكلاكلة.

س – أين يقع باب الكلاكلة؟

في القسم الخامس بالقرب من الضفة الغربية

•••

وقرئت إفادته للشاهد. ثم إنسحب الشاهد.

•••

شاهد الادعاء الرابع:

اليمباشي سعيد أفندي أمين، من الفوج الخامس، الكتيبة الرابعة، وبعد أن أدي القسم أدلي بإفادته قائلاً:-

"كنت في الخرطوم يوم سقوطها، في غرفة ملحقة بالتحصينات، وكنت مريضاً. كنـــت قـــد مكثت بها لأربعة وعشرين يوماً. وقبل ذلك كنت قائد الكتيبة الرابعة".

س – عندما كنت مريضاً، هل كنت مستمراً في عملك قائداً للكتيبة؟

ج – نعم. لكنني لا أقوم بمهام في الخارج. وقام الأميرالاي حسن بك بتكليف اليمباشي فـــرج أفنـــدي على للقيام بذلك بدلاً عني.

س – أين تمركزت كتيبتك؟

ج – على يسار الفوج الخامس، لليمين من باب الكلاكلة.

س – من كان على يمين كتيبتك؟

ج – الأردي (سرية) محمد بك الشايقي، ربما كانوا ١٢٠ رجلاً.

س – ما هي قوة كتيبتك؟

ج – ٤٢٠ من الضباط والجنود.

س – من كان قائدكم؟

ج – الأميرالاي حسن بك بهنساوي.

س – من ماذا كانت تتكون قيادته؟

ج – من فوجه وبعض الأرادي (السرايا) من الباشبوزوق. فإلي اليسار هناك ثلاثة كتائب. الأولي والثانية والرابعة، لكن الثانية كانت في أم درمان كما كان لديه ١٢ سرية أيضاً.

س – هل كانت طابية المقرن تابعة له؟

ج – لا.

س – لكم تمتد قيادته على طول التحصينات؟

ج – تمتد من بحر أبيض إلي باب الكلاكلة. الكتيبة الأولي من بحر أبيض ثم سرية من الباشبوزوق، ثم الكتيبة الرابعة والتي تنتشر حتى طابية باب الكلاكلة، ثم سرية السنجق محمد أحمد حتى باب الكلاكلة.

س – كم طول التحصينات من قيادته حتى باب الكلاكلة؟

ج – سبعة ألف متر من طابية المقرن. وكان يقطعها على ظهر جواده في حوالي الساعة، بسرعة السير العادي للجواد.

س – هل كان الجنود يقفون في صف واحد أم صفين على الاستحكامات؟

ج – رجل واحد في كل أربعة خطوات.

س – هل إمتدت الاستحكامات حتى النيل؟

ج – امتدت فقط حتى مستوي أدني انخفاض للنيل. وعندما يرتفع منسوب النيل فأنها تنهار. وعندما تفرق كنا ننشئ أخرى.

س – إذن فالمتراس كان يصل لحافة الماء؟

ج– نعم

س– ارسم ذلك الخط على قطعة من الورق.

ج – حاضر.

س – في شهر يناير، الذي سقطت فيه المدينة، هل حطم النهر المتراس؟

ج – نعم، ورجع عنه كثيراً. وكان العمل جارياً لإصلاحه.

س – كم ياردة دمرت بالمتراس؟

ج – حوالي ١٠٠٠ ياردة.

س – هل تعلم عدد الرجال المدافعين عن التحصينات يوم سقوط الخرطوم؟.

ج – لا أدري.

س – ماذا كانت تعيينات الجنود خلال يناير؟

ج – لم تصرف لهم أي تعيينات.

س – ألم يصرف لهم الأرز؟

ج – لا – لا أدري – كنت مريضاً وقتها.

س – ألم توضع ألغام أمام التحصينات؟

ج – نعم. كانت هناك، لكن النيل أفسدها.

س – هل وضعت أي عوائق صناعية؟

ج – نعم كان هناك السلك (الشائك؟) والحفر المليئة بالقنابل المتفجرة.

س – في أي وقت دخل العرب؟

ج – في الثامنة والنصف أو التاسعة بالتوقيت العربي وقبل الفجر.

س – عندما إقتحم العدو (التحصينات). ألم تطلق المدافع؟

ج – لا أدري – لم أسمع قصفاً.

س – ماذا شاهدت من تقدم العدو؟

ج – لا شئ. كنت نائماً.

س – ألم تتسلم أوامر من الأميرالاي للالتقاء به في حالة تحطيم خط الدفاع الأول؟

ج – لا. إذ لم نتوقع أن يتحطم.

س – ألم يكن معكم رجال من المدينة أو أهاليها لمساعدتكم؟

ج – نعم. كان هناك عدد من المتطوعين. أحياناً كثيرون، وأحياناً بضع أناس منهم.

س – هل تعرف المدعو عمر إبراهيم؟

ج – لا أعرفه، بل سمعت به فقط.

س – من كان القائد العام؟

ج – فرج باشا.

س – هل كنتم تقومون بالطواف في دوريات؟

ج – نعم. كل ليلة.

س – هل كانت هناك عدة أطواف؟

ج – نعم. فكل ضابط كان يطوف علي قسمه.

س – هل إعتاد حسن بك التفتيش عليكم أثناء الليل؟

ج – نعم.

س – متي رأيت حسن بك قبل السقوط؟

ج– بالليل، في الواحدة عربي. وقد حضر مع فرج باشا

س– متى أكل جنودك اللحوم لأخر مرة قبل السقوط؟

ج – في الأول من يناير.

س – متي بدأوا يأكلون الجمار؟

ج – خلال يناير، وكذلك الصمغ.

س – ما الذي أكلوه قبل الآخر؟

ج – الصمغ.

س – هل كان هنالك مجلساً للدفاع؟

ج – لا أدري.

س – هل تعلم من إتهم بالخيانة؟

ج – على جلاب وآخرين من التجار.

س – هل أتي أحد منهم إلى هنا؟

ج – لا.

س– هل شاهدت حسن بك وهو في السجن؟

ج– نعم.

س– هل كان ود الأحد هناك؟

ج– لا.

س – من الذي كان يعامل معاملة حسنة هناك؟

ج – كلهم يتلقون نفس المعاملة.

س – هل كان أغلب من قتل من الجنود من المصريين أم السودانيين؟

ج – من المصريين.

س– كم عدد السودانيين في كتيبتك، وفي الكتيبة الأولى؟

ج– لا أحد.

س – هل قتل عدد كبير من سرية الشايقية؟

ج – ليس كثيراً. لأن معظمهم فروا.

س – ماذا كنت تفعل إذا شاهدت أحد الفارين؟

ج – كنت أرميه بالرصاص.

س – كم ضربتم منهم بالرصاص؟

ج – ثلاثة أو أربعة، وذلك قبل وقت من المعركة.

س – هل هرب كثير من الجنود النظاميين؟

ج – واحد فقط. وقد قبض عليه ورمي بالرصاص.

***

ثم قام السجين باستجواب الشاهد:

س – ألم يتغير نظام توزيع الدفاعات؟

ج – كان هناك رجل يدعي عثمان بك حشمت، قائمقام، مسئول عن الكتيبة الأولى وعن سرية الشايقية القريبة من النيل الأبيض. ثم إبراهيم بك صالح إلي اليسار. وقد إعتاد حسن بك التفتيش علي الجميع.

س – هل كان ذلك بأوامر مكتوبة من غردون؟

ج – نعم

س – هل كان الفوج الأول مقسماً أيضاً؟.
ج – لا أدري.
س – هل كان عثمان بك تحت قيادة حسن بك أم مساوله؟
ج – تحته، رغم أنه مسئول عن قسمه الخاص.
س – ماذا فعل الدراويش بزوجة حسن بك وأولاده؟
ج – سمعت أن محمد أحمد قد أخذ إبنته، وأخذ العرب بقية النساء.
س – هل أخذها بالقوة؟
ج – بالقوة. لقد أخذ كل البنات الجميلات.
س – هل كانت كتائب حسن بك قوية في يوم السقوط؟.
ج – لا. كانت قد أنقصت كثيراً.
س – كم عدد الجنود الذين أخذوا من كتيبته؟
ج – لقد سحب نصحي باشا سريتين من الكتيبة الأولي وسرية من الرابعة وثمانين رجلاً لمقر الحكومة وثمانين رجلاً للبواخر.
س – ألم يكن مع حسين أفندي أي جنود؟
ج – نعم. لكننا تسلمنا عدداً من الرجال بدلاً عنهم وذلك من الكتيبة الثانية.
س – هل يمكن أن تخبرنا بعدد الجنود المقاتلين الذين كانوا هناك يوم السقوط؟
ج – أبداً. لأنهم مختلفون. كما أنني كنت مريضاً.
س – هل تعلم بعدد المرضي في قسم حسن بك؟
ج – يكادون أن يكونوا جميعاً من المرضى لجوعهم وأكلهم الصمغ.
س – هل تعلم بما حدث عن دخول العرب؟
ج – لم أسمع شيئاً وقتها إلا عندما حضروا لغرفتي. ولقد سألت فيما بعد. لقد أطلقوا النار قليلاً وكذلك فعل الجنود.
س– هل كان بمقدور الجنود الدفاع عن أنفسهم يوم السقوط؟.
ج– لا. فقد كانوا في غاية المرض.
س – هل كان باب الكلاكلة بحالة جيدة؟
ج – لا. فقد كان مهملاً، وقد نزع الكبرى الذي أمامه وظلت البوابة مفتوحة. لكن الخندق لم يكن من السهل عبوره.
س – هل كانت هناك بوابة في بري؟
ج – كانت مقفولة مثل باب الكلاكلة. والباب الوحيد المستعمل هو باب المسلمية.
س – ما المسافة بين باب المسلمية وباب الكلاكلة؟
ج – ١٥٠٠ متر.
س – من القائد الذي كان مسئولاً عن القسم الشرقي؟
ج – الأميرالاي بخيت بطراكي، الفوج الأول.
س – لمن كانت قيادة باب المسلمية؟
ج – لبخيت بك بطراكي.

***

وإنفضت المحكمة في الواحدة والنصف ظهراً على أن تعاود الانعقاد في التاسعة صباحاً يوم ١٦ من الشهر. وتواصل الاستجواب يوم ١٦:

بدأت المحكمة إستجواب الشاهد:

س – لمَ لمْ تتوقع إنهيار الخط (الدفاعي)؟

ج – كنا واثقين من أنفسنا وأقوياء.

س – من أين أتي العدو؟

ج – لم أر شيئاً ولا أعرف.

س – من كان قائد القسم المجاور للنيل الأبيض؟

ج – يوسف أفندي عرفت. وهو الضابط الذي يقود الكتيبة الأولي.

س – من كان قائد طابية المقرن؟

ج – البمباشي إبراهيم أفندي الشيخ.

س – ما نوع الجنود؟

ج – باشبوزوق.

س – كم مدفع بها؟

ج – مدفع واحد. وأحياناً يحضر مدفع آخر للمعاونة.

س – هل أي من ضباط الكتيبة الأولي موجود هنا؟

ج – سالم، وسيد أحمد أفندي.

س – كم تبعد طابية المقرن من خط النار؟

ج –٢٥٠٠ – ٣٠٠٠متر.

س – إذا إطلقت رصاصة من المقرن. هل يمكن وصولها للمكان الذي دخل منه الدراويش؟

ج – لا.

س – كم رجلاً كان هناك في الكتيبة الأولي من الفوج الخامس؟

ج – أربعة سرايا بكل منها ١٠٥ رجلاً. وكذلك عدد الرجال في الكتيبة الرابعة.

س – هلك كانت هناك أي نقاط بين طابية المقرن وخط الدفاع؟

ج – كانت هناك نقاط، وأيضاً قوارب على النهر، وكانت النقاط تتبع لقائد الطابية. أما الزوارق فكانت تتبع لحسن بك. وكان ضابط الطابية يتسلم أوامره من الحاكم العام بالتلغراف. كما كان يرسل تقاريره ومعلوماته لحسن بك والذي كان يطوف ويتفقد تلك المنطقة أيضاً.

س – كم عمق وعرض الخندق الذي أمام الاستحكامات؟

ج – عمقه ثلاثة أمتار. وعرضه أربعة أمتار وذلك في باب الكلاكلة وغرباً حتى المكان الذي دمره فيه النيل.

س – إذا ما سقط رجل في الخندق. فهل بامكانه الخروج منه دون مساعدة؟

ج – نعم. لأن الأمطار قد حطمت حافته.

س – هل كانت هناك أمطار في يناير؟

ج – نعم.

س – أمام باب الكلاكلة: هل بامكان أي رجل الخروج من الخندق دون مساعدة؟

ج – لا ؟ إلا إذا سببت الأمطار مواطئ قدم.

س – من تلك الـ ٧٠٠٠ متر: كم منها كان جيداً؟

ج – ١٠٠٠ متر. لأن ٦٠٠٠ متر كانت منهارة.

س – ليلة السقوط: هل كان بالخندق ماء؟

ج – كانت الألف متر الملاصقة للنيل مكونة من الطين اللين.

س – من تلك الألف متر: كم كان عمق الخندق؟

ج– مترين عمقاً. أما العرض فيختلف من مكان لآخر.

س – ما نوع التربة؟

ج – تربة سوداء.

س – لكم من الأيام كان بمقدور الحامية الصمود؟

ج – ربما ليوم واحد، لأننا كنا نتوقع وصول الجيش البريطاني.

س – عندما دخل العدو: هل كان هناك أي تعيينات قد تبقت؟

ج – بعض الجنود كان معهم صمغ.

وتوقف الإستجواب في الساعة ١,٢٠ دقيقة بعد الظهر. وستنعقد المحكمة يوم السبت التـالي في التاسعة صباحاً.

***

وعاودت المحكمة جلساتها في التاسعة والنصف من صباح يوم ١٨ يونيه.

وبعد نقاش حول صلة الشهادة بالموضوع، تواصل استجواب الشاهد:

س – كتيبتك كانت من ٤٢٠ رجلاً. كم مات منهم قبل السقوط؟

ج – لا أعرف.

س – هل مات منهم أي أحد؟

ج – نعم. قتل بعضهم ومات البعض منهم جوعاً.

س – كم متراً تشغله كتيبتك من المتراس؟

ج – ٦٠٠ متر، لكل سرية ١٥٠ متراً.

س – هل رجالك الأربعمائة والعشرين يضمون الذين بالبواخر؟

ج – نعم.

س – هل كان بعض الأهالي يحضرون لمساعدة كتيبتك؟

ج – نعم.

س – كيف أخذ المهدي إبنة حسن بك؟ كخليلة أم كزوجة؟

ج – لا أدري. وأعتقد أنها أخذت كخليلة.

س – هل أخذ الأمراء زوجات حسن بك، بعد طلاقهن، كزوجات أم كخليلات؟

ج- كخليلات.

س – منطقة حسن بك كانت باب الكلاكلة. هل كان البك يقود أيضاً جنود عثمان بك حشمت أم لا؟

ج – نعم. فقد كان مسئولاً عن كل ذلك الخط.

س – لقد ذكرت أن المسافة بين بحر أبيض وباب الكلاكلة هي ٧٠٠٠ متراً. وكانت الحامية مكونة من كتيبتين وبعض الباشبوزوق. وقلت الآن بأن الكتيبة كانت تسيطر علي ٦٠٠ متراً فقط. من الذي كان يسيطر علي بقية المسافة؟

ج – قلعة المقرن كانت تبعد ٣٠٠٠ متر عن ركن المتراس الذي بالنيل الأبيض. تحتل القوات النظامية منها ١٢٠٠ متراً بينما يتولى الباشبوزوق مسئولية أل ٢٨٠٠ متراً الأخرى.

س – كيف شغل الجزء المنهار من المتراس؟

ج – بالكتيبة الأولى من الفوج الخامس. وكان النيل على يمين تلك الكتيبة.

س – كم من سرايا الباشبوزوق كانت بين الكتيبة الأولى والرابعة؟

ج – لا أدري. إذ يعتمد كل شئ علي ارتفاع النيل.

س – وكيف يتغير (منسوب) النيل؟

ج – مثلما يحدث هنا (في مصر).

س – عند سقوط الخرطوم كان النيل في أدني مستوياته. كم كان هناك من السرايا؟

ج – إثني عشر على ما أعتقد.

س – كم دخل خيمتك من أفراد. العدو؟

ج – أربعة. وضربوني بحربتين ورموني بطلقتين أحداهما أصابتني. ثم أخذوني معهم عبر النيل.

س – هل تعلم شيئاً عن أن العدو. قد دخل عن طريق بوابة المسلمية؟

ج – لا أعلم.

س – كم تبعد طابية المقرن عن نهاية التحصينات؟

ح – حوالي ٣٠٠٠ متر.

س – ومن نهاية التحصينات حتى باب الكلاكلة؟

ج – ٤٠٠٠ متر.

س – ومن باب الكلاكلة حتى باب المسلمية؟

ج – ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ متر.

س- ومن باب المسلمية لبحر أزرق؟

ج- ٣٠٠٠ متر.

س – إذا مشيت على قدميك من النيل الأبيض إلي النيل الأزرق: كم ساعة يستغرق هذا المشوار؟

ج – أربعة ساعات.

س – هل كنت تعلم باقتراب موعد قدوم الجيش الإنجليزي؟

ج – نعم.

س – هل كان بطابيتك خط للتلغراف؟

ج – نعم. في الرئاسة, وفي مقر كل فوج أو محطة.

س – إلي السراية وبين بعضها البعض؟

ج – نعم.

س – ألم تصلك أوامر للإبلاغ عن إقتراب العدو؟

ج – نعم. وعليـــنا إبلاغ الجميـــع وهناك أيضاً رجال من (القوات) الأخرى لمساعدتنا في ذلك.

س – هل لديكم نظام للإنذار الليلي (من هجمات العدو)؟

ج– كان العدو يهاجمنا كل ليلة. ولم تكن هناك ضرورة، بالتالي، لذلك.

س – عندما هاجمكم العدو: هل قام الضابط المسئول بأخذ الدعم والتوجه إليهم؟

ج – نعم.

س – هل أخذ حسن بك دعماً تلك الليلة وتوجه للمنطقة المهددة؟

ج – لا أعرف.

س – من الذي كان عليه الإستعانة بالدعم والتوجه به للمنطقة المهددة؟

ج – لا أعرف. لم يتم أخطار أي أحد.

س – وكيف ذلك؟

ح – لم يكن هناك دعماً صحيحاً. بل كان يتم إرسال قليل من الرجال، يؤخذون من كل ســرية، إلــي المناطق المهددة.

س – قبل أن تمرض: هل كنت على المتراس؟ ألم يتم هجوم عليك أبداً؟

ج – أبداً. كانوا فقط يطلقون النار من على البعد.

س – ألم تتح لك أي فرصة للإبلاغ عن تقدم العدو نحوك؟

ج– لا.

س– هل تقدم العدو من قبل إلى المدينة؟

ج – نعم.

س – من أي جهة دخلوا؟

ج – من النيل الأبيض.

س – هل كنت بالمتراس أم لا؟

ج – كنت بالمتراس.

س – كيف عرفت بأنهم هجموا من قبل؟

ح – رأيتهم.

س – متي تقدموا إليكم؟ في أي وقت؟

ح – بالنهار.

س – هل أرسلت دعماً من سريتك؟

ج – نعم أرست سرية بقيادة اليوزباشي إمام أفندي، وهو ميت الآن.

س– من الذي أخبرت اليوزباشي لآن يبلغ له؟

ج – للضباط قائد المنطقة.

س – هل توجه حسن بك بهنساوي لدعمهم؟

ج – نعم.

س – من كان القائد في ذلك الوقت؟

ج – لا أعرف.

س – متي كان يوم ذلك الهجوم. هل هو بعد أن حضر محمد أحمد من كردفان؟

ج – في ٤محرم (٢٤أكتوبر١٨٨٤).

س – من الذي شاهدك في السجن في اليوم الأول؟

ج – سيد أحمد أفندي وعبد الرازق، الملازم أول بالفوج الخامس، ومحمد أفندي إمام ، ملازم ثاني بالفوج الخامس وحسن أفندي على، ملازم ثاني بالفوج الخامس.

س – هل كان فرج أفندي علي هناك؟

ج – لا. لأنه قتل في الطابية.

س – هل كان هناك أي واحد من الفوج الخامس؟

ج – لا. أنا لا أعرفهم. لقد كان معظمهم سودانيون.

س – هل كان بالخرطوم الفوجين الأول والخامس فقط؟

ج – لم تكن هناك قوات أخرى نظامية.

س – هل رأيت أي أحد من ضباط المدفعية في السجن؟

ج – ملازم واحد وهو محمد أفندي خليفة وكان قائداً لبطارية ملحقة بالفوج الأول.

س – هل رأيت أي ضابط من الأركان أو الإدارات؟

ج – لا.

س – أين وضعوك عندما سجنت؟

ج – تحت الشمس علي الرمال. وقد زارني الطبيب سراً.

س – هل رأيت إبراهيم بك فوزي؟

ج – نعم. ولم تصبه أي جراح عند سقوط الخرطوم.

س – كم ضابطاً من الكتيبة الأولى للفوج الخامس رأيت؟

ج – الملازم أول دسوقي والملازم أول رضوان محمد والملازم أول سيد محمد سالم والملازم ثاني أحمد رشوان لكنني لم أرى أي يوزباشي أويمباشي لأنهم قتلوا جميعاً.

س – ومن الذي أخبرك بأنهم قد قتلوا جميعاً؟

ج – الناجون.

س– هل كان أولئك الناجون من الجرحى؟

ج– لا.

س – كم عدد الأحياء، من الضباط والصف والجنود التابعين للكتيبة الأولي من الفوج الخامس الذين رايتهم؟

ج – حوالي عشرين.

س – هل وصل منهم أحد إلي هنا (مصر)؟

ج – نعم. سيد أحمد أفندي سالم.

س – ومن الجنود؟

ج – لا أعرف.

س – متي سقطت أم درمان؟

ج – حوالي الخامس من يناير.

س – متي غادرت البوردين إلي المتمة؟

ج – قبل سقوط أم درمان؟

س – كيف سقطت أم درمان؟

ج – كانوا قد استنفذوا كل الخبز. وقام الحاكم العام بإرسال بواخر لإحضار الحامية. لكنهم لم يتمكنوا من دخول البواخر لذا أمرهم غردون باشا بالإستسلام. كان فرج الله باشا هو قائدهم.

قرئت الشهادة مرة أخرى للشاهد. ثم إنسحب الشاهد. وإنفضت المحكمة في الثانية عشرة والنصف لتنعقد مرة أخرى يوم ٢٧ (يونيه).

***

شاهد الادعاء الخامس:

الجاويش حسين يوسف عجور من الكتيبة الرابعة, الفوج الخامس, وبعد أن أدى القسم أجاب على الأسئلة كالتالي:

س – من كان آخر باشجاويش لك؟

ج – أحمد، ولقد قتل في الخرطوم.

س – من كان صاغك؟

ج – سعيد أفندي أمين وفرج أفندي على، الذي مات هناك.

س – من كان يوزباشيك؟

ج –إمام أفندي أبو نور. وقد قتل هناك.

س – ما هو القسم الذي كنت فيه؟

ج – نمرة أربعة.

س – من كان ملازمك؟

ج – محرم أفندي. وقد مات هناك.

س – هل كانت سريتك بالإستحكامات يوم السقوط؟

ج – نعم.

س – أي يوم كان؟

ج – لا أذكر.

س – أين ذلك الموقع؟

ج – شرق باب الكلاكلة.

س – كم كان عدد الجنود بالسرية؟

ج – ٨٠ – ٨٥. لكن بعض الرجال من المدينة إعتادوا الحضور لمساعدتنا.

س – كيف كان (نظام) وقوفكم بالخط؟

ج – في صف واحد. كل رجل مقابل فتحة الرمي الخاصة به.

س – كم يبعد الجنود عن بعضهم البعض؟

ج – كل متر ونصف.

س – كم رجلاً بفتحة الرمي؟

ج – رجل واحد.

س – عندما دخل العدو. هل كنت بالمتراس؟

ج – نعم.

س – أخبرني عما شاهدت.

ج – كنا نطلق النار عليهم. وكانوا يطلقون علينا النار.كان الوقت ظلاماً قبل الفجر وكان حسن بك بهنساوي يقف معنا ونحن نطلق النيران. جاءنا العرب من كل ناحية وهجموا علينا بالسيوف وبالرماح, بدون بنادق. الذين انضموا للعدو تم الإبقاء على حياتهم. جمعونا في عزبة الكلاكلة وكان البك معنا ثم أخذونا وسلمونا لأمير يدعي حاج خالد, وهو جعلي، وأخذوا كل ما معنا من نقود وكنا سجناء ومعنا البك. وفي اليوم الثالث قتل فرج باشا الزيني بأمر من المهدي، كما سمعنا، لأنه خان جيشه.

س – عندما كنت بالمتراس: هل رأيت أول الفارين؟

ج – لا. لم أستطع رؤية أي شئ.

س – هل رماكم العدو بالنار قبل هجومه مباشرة؟

ج– نعم وكان هناك ضرب شديد بالنار.

س– من الضباط الآخرين الذين أخذوا معكم؟

ج – لم يجمعونا كلنا مرة واحدة. ولكن شيئاً فشيئاً. وكلما أخذوا أحداً وضعوه في العزبة.

س – عندما كنت في السجن هل عومل أي أحد معاملة أفضل من الآخرين؟

ج – لم يعامل أي أحد معاملة طيبة. ولو لا محمد أحمد (المهدي) لقتلنا جميعاً. واعتدنا على التسول.

س – هل تسول إبراهيم فوزي؟

ج – لا أدري.

س – هل تسول حسن بك؟

ج – لم أره.

س – وود الأحد: هل تسول؟

ج – لم يحدث لهم أي شئ.

س – هل سمعت بأن أحداً قد خان المدينة؟

ج – نعم. فرج باشا وحسن بك. لكنني لم أر شيئاً. فقط سمعت. كان البك معنا يوجه نيراننا ويشجعنا وكان يفعل ذلك دائماً. وحتى تحت الشمس لم يكن يستعمل مظلة لتقيه حرها. ولم يستطع الذهاب لغرفته لأنها قصفت.

س – هل كان حسن بك في غرفته ليلة الهجوم؟

ج – كان بالمتراس معنا في ذلك الوقت. وقد رأيته. وقد قدم إلينا من السرية الثالثة. جاءنا العرب من الجهة الغربية فجرينا نحو الشرق. ثم وجدنا أنهم قادمون أيضاً من الشرق، ومن المدينة، ومن كل مكان.

س – هل كان هناك طواف ليلي؟

ج – نعم. كان كل صاغ يقوم بجولة في دورية إستطلاع.

س – هل رأيت حسن بك يقوم بطواف تلك الليلة؟

ج – نعم. ووراءه أربعة من الجنود المخصصين لخدمته.

س – هل نجا كثير من زملائك بالسرية؟

ج – لم أر سوى ثلاثة أو أربعة منهم ولكنني لا أدري.

س – هل كان لديكم الكثير من الذخائر؟

ج – نعم كثير. فلكل كيس به سبعة بكتات. وبداخل فتحة الرمي عشرة أو خمسة عشرة بكته. وهناك صندوق بين كل رجلين. هذا بجانب ما كان بالخيام, ربما سبعون صندوقاً.

س – كم يوماً، قبل السقوط، كنتم تأكلون اللحوم؟

ج – منذ شهرين قبل السقوط كنا نأكل الصمغ وجلود العناقريب وجمار النخل.

س – عندما كنتم تأكلون الصمغ: ما الذي حدث لكم؟

ج – إسهالات.

س – ماذا سمعت عندما علمت بموت فرج باشا؟

ج – بأنه قتل لأنه كان خائناً. كنا مع جيش عبد الرحمن النجومي في الكلاكلة. أما فرج باشا فقد قتل في أم درمان.

س – ممن سمعت بهذا؟

ج – من الناس.

س – هل تعرف المكان الذي يدعىٰ (سلامة الباشا)؟

ج – نعم.

س – هل قتل فرج باشا فوق قبر هناك؟

ج – لا أعرف مكان قتله.

س – ألم تصرف لك ثلاثة أوقات من الأرز؟

ج – أوقة ذات مره, ومرة نصف أقة. وليس مرة واحدة.

س – ألم تصرف لك خمسة أوقات من الذرة الفترية؟

ج – كانت فرقة للبحث قد وجدت بعضاً منها في المدينة وقامت بتقسيمها، وذلك قبل شـهرين مـن السقوط.

***

ثم قام السجين باستجوابه:

س – كيف كانت حالة الجنود يوم سقوط الخرطوم؟

ج – لم يكونوا سواسية, فالبعض أقوياء والبعض غير ذلك.

س – هل يمكن لرجل جائع أن يكون قوياً؟ وكيف يمكن أن يوجد رجال أقوياء (وهم جوعي)؟

ج – أقوياء بالمقارنة بالآخرين ولكن ليس كالرجال الذين هنا.

س – هل كان بإمكانهم القتال والاستمرار فيه؟

ج – حاربوا بقدر ما إستطاعوا ودافع كل الرجال عن أنفسهم. وكنا نخرج كل ليلة ونقاتلهم ونمضي أحياناً لمسافات بعيدة.

س – هل كان بعض جنودك متورمي الجسم؟

ج – نعم, من أكل الصمغ. والبعض كان مريضاً. وكانت الأقدام متورمة.

س – هل كان بالمتراس كثير من المرضى؟

ج – لا أعرف. فالكثيرون كانوا في مراكزهم.

***

ثم قام الإدعاء باستجواب الشاهد:

س – هل أخطرتم بأن العدو قد يدخل لكم من مكان معين؟

ج – من كل مكان.

س – هل كنت جاويشاً ملحقاً بخدمة ضابط؟

ج – لا.

***

ثم إستجوبته المحكمة:

س – من أين دخل العدو؟

ج – جاء معظمهم من النيل الأبيض.

س – ما شكل المكان (الذي دخلوا منه)؟

ج – ينتهي المتراس عند حوالي ٢٠٠ – ٣٠٠ متر من الشاطئ, وكان منسوب النيل يهبط يومياً، وكنا نحاول إصلاحه, لكن تقدمنا كان بطيئاً.

س – ما سبب موت باشجاويشك؟

ج – مات من الجوع بعد السقوط.

س – وفرج أفندي؟

ج – لقد قتل في المتراس وهو يحارب.

س – أرايته.

ج لا.

س – كيف علمت بمقتله؟

ج – إعتاد بعض جنودنا (المأسورين) أن يحصلوا على قطع من القماش لعمل رقع (في جيبهم) وقـد رأوه. أنا شخصياً لم أره. أما الذين رأوه فلم أعد أذكرهم.

س – ومن الذي أخبرك بمقتل فرج أفندي؟

ج – لا أذكر.

س – عندما غادرت التحصينات لتسلم نفسك. ماذا فعلت؟

ج – قفزنا لداخل الخندق وساعدنا بعضنا البعض للخروج منه.

س – كم منكم قفز بداخل الخندق؟

ج – لم أعد أذكر.

س – هل كانت بك قوه لإخراج أحد من الخندق؟

ج – نعم.

س – في ليلة السقوط: هل حضر مساعدوك لنجدتك؟

ج – نعم، في المتراس.

س – إذن المسافة بين الجنود كانت هي نفسها على المتراس؟

ج – كنا قريبون من بعضنا لنتمكن من الوقوف وإطلاق النار

س – هل كانوا هناك لحظة الهجوم؟

ج – نعم.

س – هل أمركم حسن بك بالقفز داخل الخندق أم قمتم بذلك بأنفسكم.

ج – قمنا بذلك بأنفسنا.

س – عندما قفزت: هل كان العدو قد دخل أم لا؟

ج – كانوا كثيرين من أمامنا ومن خلفنا. تم توفير حياة الذين قفزوا. أما الذين ظلوا في أماكنهم فقد قتلوا.

س – كيف علمت بأنك ستنقذ حياتك إن قفزت؟

ج – لم نكن نعلم. لقد قفزنا هاربين من الذين كانوا وراءنا.

س – هل طلبت الرحمة؟ أم هم الذين رحموك؟

ج – لقد أخذوني وأخذوا بندقيتي وكيس (ذخيرتي) وقالوا لي:" يا كافر. لماذا لم تنضم إلينا قبل ذلك؟

س – هل تلقيتم أي أوامر بعدم الدفاع عن أنفسكم؟

ج – أبداً. كلهم شجعونا (على الصمود).

س – عندما كنتم بالسجن:هل جردوا حسن بك من ملابسه؟

ج – نعم.

س – هل سمعت بموت فرج باشا من السجناء أم من الأنصار؟

ج – من المساجين ومن الأنصار.

س – هل سمعت أو رأيت معاملة سيئة لود الأحد؟

ج – سمعت.

س – هل أكلت الصمغ وجمار النخل قبل السقوط مباشرة؟

ج – نعم.

س – هل كانت بالمخازن أي تعيينات في يوم السقوط؟

ج – كان بها صمغ يكفي ليوم أو أثنين.

س – كيف كانت تقسم التعيينات على السرية؟

ج – حسب الاحتياجات، أحياناً فقط.

س – هل شاهدت المخزن قبل السقوط مباشرة؟ وهل كان به أي شئ قد تبقي؟

ج – نعم شاهدت المخزن. لكنني لم أر إن كان به أي شئ.

س – هل الذين أسروا من الجنود وأبقي على حياتهم هم الذين قفزوا في الخندق فقط؟

ج – لا. من كافة الجنود

س – أين قبضوا على حسن بك؟

ج – لا أدري.

س – هل رأيت دخول الدراويش من باب الكلاكلة؟

ج – لا.

س – هل لبست الطاقية عندما أسرت أم بعد ذلك؟

ج – بعد ذلك.

س – هل قفزت بالبندقية وكيس الذخيرة في الخندق أم لا؟

ج – نعم. بهما.

س – كم تبلغ المسافة من طابية المقرن وخطوط الدفاع بالقرب من النيل الأبيض؟

ج – ٧٠٠ – ٨٠٠ متر.

س– ممن تكونت حاميتها؟

ج – من رجال المدفعية والشايقية.

س – ومن كان الضابط الذي يقودهم؟

ج – فرج أنفدي على، وفيما بعد إبراهيم أفندي السوداني والذي مات هناك.

س – لأي قيادة تتبع؟

ج – كانت ملحقة بفوجنا.

س – عندمـــا أودعت (الحبس) بالكلاكلة: هل كان كل الأسرى من كتيبتك أم من مختلف الوحدات؟

ج – من مختلف الوحدات وشايقية وباشبوزوق.

س – لكم من الوقت دافعت عن نفسك؟

ج – من ٩ صباحاً (عربي) حتى شروق الشمس.

س – متى علمت بأن المهدي قد قرر الإبقاء على حياتكم؟

ج – بعد أسرنا.

س – لماذا قفزت في الخندق؟

ج – رأيت رجالاً سبقوني إليه فمضيت على أثرهم.
س – هل تعرفهم؟
ج – لا. فقد كنا مشغولين بأنفسنا
س – عندما كنت في الخندق: هل كان بإمكانك الخروج منه بنفسك؟
ج – لا.
س – كم عمق الخندق؟
ج – إذا وقف رجل على كتف رجل آخر فقد يصل لحافته بالكاد.
س – عندما أقتحم العدو المتراس: هل ضرب البروجي الإنذار؟
ج – لا. لأنه لم يكن هناك ضرورة لذلك. فإطلاق النار كان مستمراً دائماً، كما أننا كنا نطلق النار طوال الليل.
س – هل تعلم في أي يوم من أيام الأسبوع سقطت بربر أو كردفان؟
ج – لا.
س – هل قتلت أي أحد أثناء دفاعك عن نفسك؟ وأي سلاح استخدمته؟
ج – لا. لم أر أحداً بسقط. كنت فقط أطلق النار.

وقرنت شهادته ثانية ثم إنسحب الشاهد.

وقد إستجوب سبعة آخرين من شهود الإدعاء، لكن شهاداتهم ليست بالقيمة التي تبرر رصدها.

***

وإنعقدت المحكمة في التاسعة والنصف من صباح ٢٩ / ٦ / ١٨٨٧. وتقدم شاهد الادعاء الثالث عشر وهو ميخائيل أفندي بقطر, باشكاتب المعاشات سابقاً بالخرطوم. تم استجوابه من قبل الادعاء، وأفاد بالتالي:

لقد كنت بالخرطوم يوم سقوطها، كما أنني كنت بها طيلة فترة الحصار.

س – ماذا رأيت يوم سقوط الخرطوم؟
ج – كنت نائماً بمنزلي حتى دخله العرب وأخذوني, كما أخذوا أموالي. وبينما كانوا يقومون بذلك وصلت الأوامر بالرحمة.
س – من أين جاء العدو؟
ج – جاء من كل الجهات – بري، توتي، أم درمان، بحر أبيض، وغير ذلك.
س – هل تعلم بأي خيانة أرتكبها أياً من الضباط بالخرطوم؟
ج – لم أر شيئاً، لكنني سمعت فيما بعد بأن فرج باشا وحسن بك بهنساوي قد قاما بذلك.
س – من أخبرك بذلك؟
ج – كل الأسرى، والعرب أيضاً.
س – ألم يحضر منهم أي أحد هنا؟
ج – لا علم لي, بل حتى لا أستطيع تعريفهم.

س – هل تعرف حسن بك؟

ج – نعم.

س – هل عومل مثل الآخرين؟

ج – نعم.

س – ألم يتلق منهم مالاً؟

ج – نعم من بيت المال. عشرة ريالات في الأسبوع. هو وإبراهيم باشا فوزي.

س – لماذا؟

ج – لنفقاتهما.

س – هل تلقيت منهم شيئاً؟

ج – لا.

س – هل تلقي أي شخص آخر مالاً؟

ج – إبراهيم بك البورديني ومحمد أبو البلد (صراف المالية).

س – ولماذا خص هؤلاء بتلك العلاوة؟

ج – لا أدري.

س – هل كان حسن بك في السجن عندما اقتادوك من منزلك إليه؟

ج – نعم. ذهب منذ اليوم الأول.

س – هل ضربوا حسن بك ليرغموه على تسليم أمواله؟

ج – لم أر ذلك.

س – هل كنت تذهب لغردون باشا؟

ج – نعم. مرتين أو ثلاثة مرات.

س – هل سمعت بأي خطابات كتبها أي ضابط للعرب؟

ج – نعم. وكذلك عدد كبير من الناس ضباطاً وتجاراً. لقد سمعت ذلك من الباش كاتب الذي قتل.

س – هل سمعت قط بأن حسن بك البهنساوي قد كتب لهم؟

ج – لا. لقد سمعت بأن غردون باشا كان غاضباً من ذلك الفوج. أما بالنسبة للفوج الأول فقد كان راضياً عنهم وضاعف مرتباتهم ثلاثة أضعاف. ولم يكن قط يرسل الفوج الخامس في أي دوريات أو غارات.

س – لماذا كره غردون هذا الفوج؟

ج – لأنهم لم يحاربوا. وبسبب من سلوك هذا الفوج كان غاضباً على كل المصريين.

س – ومن أين لك علم بذلك؟

ج – لقد سمعته.

س – ممن؟

ج – من غردون باشا بنفسه. وقد أمر رئيس الحسابات للصرف لرجال الفوج الأول وأرامل الجنود به، ولكن ليس للفوج الخامس لأنهم لا يستحقون ذلك، ولأنهم لم يقوموا بواجبهم.

س– هل قال لك أي شيء آخر، أو قاله بحضورك؟
ج– لا. لكنني سمعت شيئاً من أحد موظفي المالية.
س – ماذا سمعت منه؟
ج – سمعت عن الفوج الخامس، وأفعالهم، وبأن غردون كان غاضباً عليهم لإهمالهم لواجباتهم.
س – ما نوع إهمالهم لواجباتهم؟
ج – كان هناك سلك (شائك) خارج المتراس. وذات يوم وجده غردون باشا منزوعاً بالقرب من بحر أبيض وقد غضب الباشا غضباً شديداً وأمر بخصم قيمة سلك جديد من الضباط.
س – كم يبعد الجزء المنزوع من بحر أبيض؟
ج – بحوالي ١٢٠٠ متر
س – وكم نزع منه؟
ج – حوالي ٣٠٠ متر.
س – هل قام غردون باشا بالتحقيق في الأمر؟
ج – لا. فقد قال بأن الظروف الراهنة غير مناسبة. لكنه أصدر أمراً كتابياً لإيقاف مرتباتهم. وقد رأيت الأمر.
س – متي حدث ذلك؟
ج – حوالي منتصف ديسمبر.
س – هل رأي ذلك الأمر أي شخص آخر؟
ج – كان هناك آخرون رأوه. لكنهم قتلوا جميعاً.
س – من الذين أوقفت مرتباتهم؟
ج – كل ضباط الفوج الخامس، وضباط أوردي إسماعيل بك عبد الله.
س – هل تم إصلاح ذلك المكان؟
ج – نعم.
س – ماذا قيل بشأن من دمروا ذلك الجزء؟
ج – لقد قيل بأنهم الذين كانوا بالداخل. وقد قال غردون باشا نفس الشئ عندما تفقد المكان.
س – متي كانت آخر مرة ذهبت فيها إلى الاستحكامات؟
ج – في اليوم الذي سبق السقوط. ذهبنا لأداء عملنا هناك.
س – إلي أين توجهت؟
ج – لمعسكر الفوج الخامس.
س – أي جانب كان لإسماعيل بك عبد الله.
ج – لا أعرف.
س– هل ذهبت للمتراس؟
ج – لقد ذهبت وألقيت نظرة لكنني لم أطف عليه.
س – هل كانت هناك أي فجوة بين المتراس وبحر أبيض؟

ج – لقد قيل بأن جانباً من المتراس كان قد أنهار، وبأنه لم يعد بمقدور الجنود استخدامه. لكنني لـم أره بنفسي.

س – هل تعلم كل ما يتعلق بموضوع التعيينات؟

ج – نعم.

س – ماذا كان هناك من التعيينات قبل خمسة أيام من السقوط؟

ج – لا شئ. وقد إعتاد الجنود على جمع ما يجدونه في المدينة ابتداء من أول يناير.

س – ممن أخذ غردون باشا ١٧٨ أردب ذرة التي عثر عليها؟

ج – لا أعلم بذلك.

س – أتظن بأن غردون باشا قد أمر بصرف ذرة للأهالي؟

ج – نعم. منذ بداية الحصار وحتى الأول من يناير.

س – هل يمكن أن تقول لنا أي شئ عن أي ضابط في المتراس, بهنساوي بك مثلاً؟

ج – لا.

س – هل تعلم بأي تواطؤ مع العدو من جانب بهنساوي بك؟

ج – لا.

س – أمتأكد أنت بأنه لم يكن هناك أي إهمال في أداء الواجب؟

ج – لا أعرف شيئاً محدداً عن إهمال الواجب لأن الإهمال كان عاماً من قبل كل الفوج (الخامس). إذ أنني بعد السقوط رأيت أسلحتهم وذخائرهم (ملقاة) على المتراس، وأن معظم ضـباط الفـوج وجنوده قد بقوا أحياء. أما ضباط وجنود الفوج الأول فقد دافعوا عن أنفسهم بجدارة وقتلوا.

س – أيمكنك تقديم دليل على أن أي ضابط قد تسبب، أو أمر، رجاله بعدم إطلاق النار؟

ج – لم أر ذلك. لكننـــي سمعت بأن فـرج باشا وحسن بك بهنساوي قد أصدرا مثل ذلك الأمر.

س – هل تعلم إذا ما كان اثنان من البروجية قد فرا للعدو وأن حسن بك قد شاهد ذلك؟

ج – لا.

ثم قام السجين باستجواب الشاهد:

س – كيف علمـت بأن بعض النـاس، بمـن فيهـم حسن بك، قد تسلموا مبالغ من بيت المال؟

ج – لقد سمعت، ورأيتهم يتسلمون المال.

س – وأين كنت أنت وقتها؟

ج – كنت في بيت المال، أسالهم الصدقة.

س – لأي سبب تصرف لهم تلك الأموال؟

ج – لا أدري.

س – وكيف كانت تسلم لهم؟

ج – بعد تقديمهم إيصالاً بذلك.

س – كم كولونيلاً كانوا بالفوج الخامس؟

ج – واحد فقط. هو حسن بك البهنساوي.

س – وكم صاغاً (رائداً)؟
ج – لا أدري.
س – وكم كولونيلاً في الفوج الأول؟
ج – واحد فقط.
س – وكم لفتنانت كولونيل في الفوجين الأول والخامس؟
ج – لم أعد أذكر.
س – هل قام غردون باشا لترقية حسن بك؟
ج – نعم إلى رتب مدنية (الرتب السنية).
س – ألا يعلم أي أحد غيرك، من الذين بالخرطوم، عما إذا كان غردون باشا غاضب علـى الفـوج الخامس؟
ج – لا أعرف.
س – أتعرف أي أحد يمكن أن نسأله عن هذا الأمر؟
ج – لا أعرف. رغم أن واحداً منهم لا بد أن يعرف ذلك. وربما جاء ذلك في "يوميات غردون".
س – وأين كنت يوم سقوط الخرطوم؟
ج – في منزلي.
س – وماذا حدث لك؟
ج – أخذني الدراويش ولم يكونوا ليقتلونني حتي يتسلموا كل أموالي. وأثناء تسليمي المال لهم جاءت الأوامر بالإبقاء علي حياتنا.
س – أين يقع منزلك هناك؟
ج – بالقرب من النهر (النيل الأزرق)، مقابل جزيرة توتي، شرق المدينة، وبـالقرب مـن الكنيسـة الكاثوليكية والتي كانت مستخدمة كمستودع للذخيرة.
س – هل تعلم بأن فرج باشا قد سلم منطقته أو عمل علي تسهيل دخول العدو؟
ج – لا أعلم، لقد سمعت بذلك فقط.
س – هل تعلم بأن حسن بك قد فعل ذلك؟
ج– لا أعلم، بل سمعت فقط.
س – هل عرفت بأن أي محطة قد سلمت بواسطة أي أحد؟
ج – لا أعلم.

•••

لم يكن للإدعاء رغبة في استجواب الشاهد. لذلك استجوبته المحكمة:
س – كم يوماً احتجزت؟
ج – لثلاثة أيام.
س – وفي أي يوم رأيت المتراس؟
ج – في اليوم الثاني.

س – وأين رأيته؟

ج – بالقرب من النيل الأزرق. وفي اليوم التالي رأيت المكان الذي بالقرب من النيل الأبيض والذي كانت أسلحة الفوج الخامس مرمية به.

س – وكيف رأيت تلك الأسلحة المرمية؟

ج – كانت في المزاغل (فتحات الرمي)

س – أين كان الجنود الذين قتلوا من الفوج الخامس؟

ج – كانوا قلة، على المتراس.

س – وفيما يختص بالفوج الأول، أين كانت أسلحتهم؟

ج – كانت ملقاة بجانب (جثث) أصحابها.

س – وأين كان القتلى من الفوج الأول؟

ج – كانوا على المتراس، أسفل المنحدر. وكان البعض في القرية. لكن الجميع كانوا مكومين وكأنهم كانوا يحاربون في مجموعة مجموعة.

س – هل مررت بطول المتراس؟

ج – بعد عشرة أو خمس عشرة يوماً.

س – هل كان القتلى والسلاح لازال هناك؟

ج – القتلى فقط. أما السلاح فلا.

س – أين كان الجزء الموكل إلى الفوج الخامس؟

ج – من بحر أبيض إلى حوالي ثلث أو نصف خط الدفاع. وكان هناك سرايا باشبوزوق تتبع للضابط القائد، هذا بجانب جنوده هو.

س – هل قتلوا كلهم على الخطوط؟

ج – كان هناك عدداً قليلاً من القتلى في ذلك القسم.

س – ومن أي مكان قمت بعبور المتراس؟

ج – بالقرب من بحر أبيض.

س – هل مررت خلال بوابة أم من مكان ميسر آخر؟

ج – من مكان ميسر سهل. فالمتراس كان منهاراً.

س – ألم يكن هناك قتلي؟

ج – بعض الجثث.

س – والأسلحة؟

ج – لا.

س – كم المسافة بين الجثث؟

ج – ٢٠٠ أو ٣٠٠ (متر).

س – كم جثة رأيت؟

ج – قليلاً جداً. عشرين أو ثلاثين.

س – وفي النصف الغربي؟
ج – كانوا كثيرين جداً في مكان القوات النظامية.
س – أين كانت (مواقع) سرايا الباشبوزوق التابعين لحسن بك؟
ج – على يسار الفوج.
س – هل كان هناك كثير من قتلى الباشبوزوق بالمتراس؟
ج – لم أشاهد ذلك.
س – هل رأيت قتلى في باب الكلاكلة؟
ج – نعم. كانوا بداخل المتراس.
س – أي رجال كانوا؟
ج – من الباشبوزوق والمتطوعين.
س – هل رأيت نهاية المتراس بالقرب من بحر أبيض؟
ج – لم يكن به قتلى.
س – مم تكونت سرايا الباشبوزق؟
ج – من الشايقية والعبيد والسودانيين والمواليد الهجن.
س – وكيف كان غردون باشا يعاملهم؟
ج – كان يثق بهم ويرسلهم للقتال في الخارج.
س – هل خرج الفوج الخامس أبداً وقاتل قتالاً سيئاً؟
ج – كانوا للدعم فقط (في الخارج) وكانوا يستخدمون البواخر لكنهم لم يفلحوا.
س– لماذا لم يفلحوا؟
ج – لا أعرف.
س – هل كنت معهم (مرة) في البواخر؟
ج – لا.
س – ألم يهاجم العدو الخرطوم ذات مرة؟
ج – نعم، من بري.
س – ألم يحدث أن هجم من ناحية بحر أبيض؟
ج – كانوا قد شيدوا طابية هناك يطلقون منها النار. لكنهم لم يتقدموا.
س – ألم يرد عليهم الفوج الخامس؟
ج – نعم. وكانوا يردون عليهم من طوابي المقرن والكلاكلة.
س – ألم يشرع المتمهدى في الهجوم فور وصوله؟
ج – لقد هاجم أم درمان.
س – ألم يقوموا بهجوم سوى الأخير؟
ج – لا.
س – هل هطلت أي أمطار في ديسمبر؟

ج – لا أمطار ولا ضباب.

س – هل كان العدو في جزيرة سنار يوم أن قطع السلك؟

ج – نعم. لكن بعيداً جداً.

س – ماذا جري لزوجة حسن بك؟ج – لم أسمع شيئاً عنها. لكن سمعت بأن المهدي قد أخذ إبنته.

س – هل تعامل حسن بك في السجن أو تعاشر مع الأنصار؟

ج – لم أر ذلك.

س – هل سلموك أي شارة؟

ج – لقد صنعت شارتي بنفسي.

س – ألم يعط المهدي جبباً وخمسة ريالات لبعض السجناء؟

ج – نعم. وقد أعطي البعض ١٠٠ ريال.

س – للجميع؟

ج – للذين صادر منهم أموالاً.

س – هل تعلم شيئاً عن أخذ المهدي لأموال حسن بك؟

ح – لقد أخذ أموال الجميع.

س – هل رأيت حسن بك في السجن؟

ج – نعم. في كوخ في أم درمان وفي الخرطوم.

س – هل رأيت أي أحد من الفوج الأول؟

ج – لا. فقد قتلوا جميعاً.

س – من كان معه عندما دخلت أنت السجن لأول مرة؟

ج – إبراهيم بك فوزي.

س – هل سمعت بأن الجنود بالمتراس قد أطلقوا نيرانهم يوم الهجوم؟

ج – كان هناك ضرب بالقرب من مخازن البارود وقد سمعت أكثر الضرب قادماً من بري. لأننا كنا قريبين منهم. لكن كان بأمكاني سماع صوت الرصاص إن جاء من الجانب الآخر.

س – متي ترقي حسن بك (للسنية)؟

ج – قبل ستة أو سبعة أشهر من السقوط.

س – هل حارب رجال الفوج الخامس جيداً في أم درمان؟

ج – نعم.

ثم إنسحب الشاهد. وإنفضت المحكمة في الثانية ظهراً لتعاود الانعقاد في التاسعة من صباح ٣٠ يونيه.

***

وعاودت المحكمة جلساتها يوم ٣٠ يونيه، التاسعة صباحاً. وبعد أن قرئت إفادة الشاهد الأخير له، أستدعي الشاهد الرابع عشر، وهو شاهد الإدعاء حسن أفندي عبد الله، وكيل المديرية. وبعد أن أدى القسم قام الإدعاء باستجوابه:

س – هل كنت بالخرطوم يوم سقوطها؟
ج – نعم.
س– وأين كنت؟
ج– في منزلي.
س – هل تعرف أي شئ عن كيفية دخول العدو للخرطوم؟
ج – كان السبب الأول هو جوع الحامية. لقد كانت حالتهم في منتهى السوء.
س – هل تعرف أي شئ عن الجنود والرجال الذين كانوا يغادرون المتراس ليهربوا؟
ج – كانوا يطلقون عليهم النار ويقتلوهم.
س – هل تعرف أي شئ ضد أي ضابط؟
ج – لا أعرف إلا إشاعات، ماعدا أن فرج باشا قد فتح بوابة المسلمية، وأن العدو قد دخل من الجانب التابع لحسن بك البهنساوي.
س – هل تعرف أي شئ ضد حسن بك؟
ج – أبداً، وكان بالمتراس حتى النهاية.
ثم قام السجين باستجوابه:
س – لأي فوج يتبع عمر أغا إبراهيم؟
ج – في وقت ما كان يعمل بالفوج الخامس ولا أعرف إن ظل مستمراً به أم لا؟
س – لكم من الوقت كان يعمل بالفوج؟
ج – حسبما أعلم، حتى نوفمبر.
س – متي فر إلى العدو؟
ج – قبل أربعة أو خمسة أيام من السقوط. وكان قد فر معه أربعة جنود ومعهم مرتبات الأوردي.
س – من أي مكان فر؟
ج – لا أعرف.
س – إتعرف إن كان غردون باشا قد رقي حسن بك؟
ج – نعم، إلي قائمقام ثم أميرالاي.
س – ألم يزد غردون باشا مرتبه خمسة جنيهات في الشهر عندما كان كولونيلاً.
ج – لا أعرف.
س – ماذا حدث بعد فرار عمر أغا؟
ج – لقد سمعنا بأنه ذهب وأشار (للعدو) بالمناطق الضعيفة.
س – وماذا عملوا له؟
ج – عومل معاملة حسنة.
ثم قام المدعي باستجوابه:
س – هل علمت بأن أي ضابط كان قد سجن من قبل؟

ج – نعم. عبد الله بك إسماعيل، من الباشبوزوق، كان قد سجن حتى يوم السقوط بأمر من غـردون باشا وذلك بعد أن حقق معه فرج باشا وحسن بك بهنساوي.

س – متى؟

ج – قبل شهر أو شهرين من السقوط.

س – هل تعلم إن كان حسن بك قد رأى عمر إبراهيم أثناء فراره، أو إن كان يعلم بعزمه علي الفرار؟

ج – لا.

س – هل تعلم إذا ما تمت أي صيانة للمتراس بعد هذا الفرار؟

ج – لا أعلم. وكان غردون في اشد الغضب من الضباط لذلك.

س – ومن الذي أبلغ غردون باشا؟

ج – فرج باشا.

س – هل قام حسن بك بالإبلاغ لفرج باشا؟

ج – لا أدري. "لكنه كان يبلغه دائماً بكل شئ".

ثم استجوبته المحكمة:

س – هل تعلم جيداً تحت من كان يعمل عمر أغا إبراهيم عندما هرب للعدو؟

ج – لا أعلم. لكنني فيما بعد علمت بأنه كان بالفوج الخامس.

س – من أي فوج وأي فصيل هرب الجنود للعدو؟

ج – من الفوج الأول ومن الباشبوزوق ولكن لم يهرب أي جندي من الفوج الخـامس لـه. وقرئـت الشهادة له كاملة ثم إنسحب الشاهد.

***

أول شاهد للدفاع:

هو الملازم سيد أحمد عبد الرزاق، الكتيبة الرابعة من الفوج الخامس. وبعد أن أدى القسم أفاد بالآتي قبل أن يستجوبه المتهم: "كنت في خطوط الدفاع بالخرطوم، كملازم في الفـوج الخـامس للمشاة، الكتيبة الرابعة، تحت قيادة الصاغ سعيد أفندي أمين والذي يتبـع للأميـرالاي حسـن بـك بهنساوي. كان يقود الفوج على خطوط الدفاع. لقد رقاه غردون باشا لهذه الرتبة. كان مكاني إلـى اليمين من بوابة الكلاكلة. وحقيقة لم تكن هناك بوابة بالمعنى الحقيقي رغم أن دعامات الكبرى كانت قد أقيمت.

س: هل رأيت حسن بك في يوم السقوط؟

ج – نعم.

س – من الذي أبلغ أولاً عن الهجوم؟

ج – المجموعة التي على النيل الأبيض.

س – كيف كان دفاع الفوج الخامس.

ج – دفاعاً جيداً جداً.

س – هل قتل كثير من رجال الفوج الخامس؟

ج – كثيراً. ولكن لا أعلم العدد بالضبط.
س – عند السقوط: هل ترك العدو في ذلك اليوم السلاح مع القتلى؟
ج – لا. لقد جمعوا الأسلحة.
س – هل فر أي رجل من الفوج الخامس أثناء الحصار؟
ج – لا.
س– هل كان غردون باشا غاضباً على الفوج الخامس؟
ج– لا.
س – هل يصرف الفوج الأول أكثر مما يتسلم الفوج الخامس؟
ج – أبداً.
س – ما هي آخر مرة تسلمتم فيها تعييناتكم؟
ج – حتى نهاية ديسمبر.
س – وابتداء من أول يناير، ماذا كنتم تأكلون؟
ج – جمار النخل المطحون والصمغ. وقد تورمت أرجل الجنود وأجسامهم من جرائها.
س – وكيف كان حال الجنود؟
ج – كانوا مرضي.
س – هل كانوا بدرجة من القوة للقتال يداً بيد؟
ج – لا.
س – ماذا حدث للناجين من الكتيبة الأولى؟
ج – إستخدمهم الدراويش كجنود، وسلموهم بنادق، لأنهم كانوا من السودانيين.
س – هل كان السلك الشائك محطماً أمام الخطوط؟
ج – لا.
س – هل تعلم بأن غردون باشا قد ذاد مرتب حسن بك بخمسة جنيهات في الشهر؟
ج – عندما كان قائمقاماً.
س – وهل سحب هذه الزيادة في المرتب حتى يوم السقوط؟
ج – كان يصرفها حتى آخر دفعية.
س – لماذا زيد مرتبة؟
ج – لعمله الشاق المثابر.
س – هل رأيته في السجن؟
ج – نعم. لقد ساقونا سويا إليه.
س – هل كان مركزك بالقرب من حسن بك؟
ج – نعم. في مرأى بصره.
س – ماذا شاهدت عندما بدأ الهجوم؟

ج – رأيت العدو قادماً من خلفنا. جاء العرب صائحين بعد أن إندفعوا من بحر أبيض. أطلقنا النار في ذلك الإتجاه، وعندما رأينا العدو من خلفنا شكلت السرية الثالثة والرابعة مربعاً وظللنا نطلق النار حتى تحطم المربع. ثم تشكلنا في مجاميع وتراجعنا نحو الفوج الأول. لكن العرب اخترقوا تجمعاتنا وجرى صراع عنيف قتل فيه بعضنا وتم أسر البعض الآخر.

س – وماذا كان يفعل حسن بك؟

ج – كان يشجعنا.

س – هل كان معكم أم في مكان آخر؟

ج – كان معنا.

س – هل رأيته بأم عينيك عندما أسر؟

ج – نعم.

س – هل عومل معاملة حسنة أم سيئة؟

ج– معاملة سيئة.

س– وبعد أن ضربوه، هل كانت آثار الضرب واضحة عليه؟

ج – نعم.

س – وماذا فعلوا بزوجاته وأمواله وأبنته؟

ج – أخذ المهدي أبنته غنيمة وتزوج العرب بامرأتيه كما أخذوه إلى منزله وصادروا كل أمواله منه.

س – وكم لبثت في السجن؟

ج – سبعة أشهر.

س – وكيف عومل حسن بك؟

ج – كان مثلنا. كلنا تعودنا على الشحذة والاستجداء، لكنني شخصياً لم أره يستجدي.

س – هل سمعت أو عرفت أبداً بأي خيانة من جانبه؟

ج – لا. لم أسمع أبداً بذلك.

س – من الذي فتح بوابة المسلمية؟

ج – فتحها العدو بعد أن إحتل المدينة.

س – من هم الذين كانوا مسئولين عن باب الكلاكلة؟

ج – كانت هناك طابية، بها باشبوزوق ومدفع.

س – ألم يخرج رجال الفوج الخامس أبداً في غارة؟

ج – لقد خرجوا.

س – وهل كان الفوج الأول يرسل جنوداً أيضاً؟

ج – نعم.

س – هل كان فرج باشا قائدكم العام؟

ج – نعم.

س – هل كان فرج أو غردون باشا يفضل السودانيين على المصريين؟

ج – لا. بل يكافئ من يقوم بخدمة طبية من كلا الجانبين.

س – هل كان رجال حسن بك يطيعونه كما ينبغي؟

ج – نعم.

س– أكان غردون باشا يحبه؟

ج– نعم.

س – هل كان كل شئ يجري على ما يرام في قيادته؟

ج – نعم.

س – هل أكلتم لحماً قبل يومين أو ثلاثة من السقوط؟

ج – لا. ولكن قبل أسبوعين من السقوط أكلنا لحماً ليوم واحد.

س – أتعرف المدعو عمر أغا إبراهيم؟

ج – نعم. كان من الباشبوزوق وأعتقد بأنه سنجق. وكان ملحقاً بالفوج الأول.

س – هل الحق يوماً بالفوج الخامس؟

ج – لا أعرف.

س – وماذا تعرف عنه؟

ج – لقد صرف غردون باشا مرتب نصف شهر لرجاله، فأخذها وفر بها.

س – هل فر وحده؟

ج – نعم، وحده.

س – هل حدث أن سمعت، حتى يوم السقوط، بأن لحسن بك مراسلات مع العدو؟

ج – أبداً.

س – هل سمعت أبداً بأنه، وحتى يوم السقوط، كان قد زار كردفان أو دارفور؟

ج – لا.

س – من كان القادة بالمتراس؟

ج – بخيت بك بطراكي للفوج الأول وحسن بك للخامس.

س – هل سمعت بأن حسن بك قد تسلم مالاً أثناء سجنه من بيت المال؟

ج – لا. ماعدا أن كلاً منا كان يتسلم قرشاً في الأسبوع.

س – عند ما قام الفوج الخامس بغارة من باب المسلمية قبل السقوط، فماذا حدث؟

ج – لقد قتلوا عرباً وأمراء.

س – وماذا فعل غردون باشا لهذه القوة؟

ج – أرسل الموسيقي العسكرية، ومعها إبراهيم باشا فوزي لإستقبالهم في البوابة. كما أرسل تلغرافاً بترقية كل ضباط الفوج.

س – متي كان ذلك؟

ج – الثلاثاء الأول من يناير ١٨٨٥.

س – هل قام الفوج الخامس بغارة من بحر أبيض؟

ج – يوم الإثنين ٦ رمضان. وقتلوا أميراً وبعض العرب.

س – أخبرنا بما حدث عندما خرجوا بالبواخر وقاتلوا (العدو)؟

ج – تم ذلك بالباخرة المسماة (المنصورة) بقيادة يوسف أفندي عرفت، الأدجوتانت ميجر، وشخصي. وقد أرسلنا في دورية استكشافية لخمسة أيام على النيل الأبيض. كان ذلك عند إحتدام الحصار، وعندما وصلنا أمام شجرة محو بك أطلق العدو علينا النار. وبعد ذلك وصلنا إلى جزيرة وكان بها بعض العرب وضأن. قتلنا العرب وغنمنا الضأن. تبعد الجزيرة بأربعة ساعات من شجرة محو بك. ثم عدنا للخرطوم بالبهائم وبرؤوس وسلاح العرب. كان هذا، على ما أظن، في شعبان ١٣٠١(مايو – يونيه). وزعت البهائم مع التعيينات وأعطونا بعضها.

•••

ثم إستجوبه المدعي:

س – هل تعرف غردون باشا؟

ج – بالرؤية فقط. لأنني لم أتحدث إليه.

س – أتعرف مدى حبه لحسن بك؟

ج – كنت في نفس الفوج مع حسن بك. وكانت تصلنا ملاحظاته.

س – أي نوع من الملاحظات؟

ج – خطابات وتلغرافات.

س – هل سمعت أبداً من فم غردون بأن حسن بك كان صديقاً له؟

ج – لا. بل من المترجم.

س – ألا يتحدث غردون باشا العربية؟

ج – لم أسمعه قط.

س – هل كان غردون باشا راضياً عن الفوج الخامس؟

ج – نعم. وقد عرفت ذلك من الملاحظات التي كان يبديها المترجم عندما كان يقوم بجولاته.

س – ولكن كيف عرفت ذلك بالضبط؟

ج – من ملاحظاته في جولاته، ومن أوامره.

س – من أين دخل العدو يوم السقوط؟

ج – من بحر أبيض.

س – هل كنت مع حسن بك طوال الوقت؟

ج – لا. لأنني لم أنضم إليه إلا بعد تشكيلنا للمربع، وذلك عندما جاء إلينا قادماً من السرايا الثالثة والثانية.

س – بأمر من شكلتم المربع؟

ح – بأمر إبراهيم بك صالح.

س – هل صدر الأمر بالبوري (البروجي) أم شفوياً؟

ج – بالبوري – البوق.

س – أين كانت نقطة التجمع (للمربع)؟
ج – في المكان الذي كان به إبراهيم بك.
س – ما هي الأوامر التي تلقاها المربع؟
ج – أن نطلق النار. وقام الجانبان الغربي والشمالي بالرمي. أما الجانبان الآخران فلم يطلقا النـــار.
كان المربع في حالة"بيادة ردما". ثم أمرنا بالسير "ساغة" (لليمين در) نحو الفوج الأول.
س – في أي وقت أمرتم بتشكيل المربع؟
ج – عند الفجر، عندما جاءنا العدو من خلفنا.
س – ألم يهاجمكم العدو من الأمام؟
ج – لا
س – هل كان رجالك يطلقون النار عندما صدر الأمر (من البروجي) بتشكيل المربع؟
ج – نعم، على الجانب الأيمن.
س – هل كان بالمتراس أي مدافع؟
ج – مدفع كروب واحد بطابية الكلاكلة.
س – من كان القائد المسئول عن المدفع؟
ج –من كان القائد المسئول عن المدفع؟
ج – لا أعرف.
س – ماذا حدث للمدفع؟
ج – أطلق النار
س – هل إنضم المدفعجية إليكم؟
ج – لا.
س – عندما شرعتم لتكوين المربع: هل لازال المدفع مستمراً في الضرب؟
ج – نعم. حتى إستلمه العرب.
س – هل كنت مع حسن بك عندما أخذ؟
ج – نعم.
س – هل شاهدت كل ما جرى له؟
ج – نعم.
س – أين كان ذلك؟
ج – في المتراس، بين الكلاكلة والمسلمية.
س – هل أخذوكما وحدكما؟
ج – لا.
س – هل أخذوه لداخل الخندق؟
ج – نعم علي المتراس.
س – أين إنضم حسن بك للمربع؟

ج – عندما تشكل. وقد وقف بداخل المربع ومارس إدارته.

س – مَن من الضباط الذين كانوا بالمربع قد جاء إلى القاهرة؟

ج – لا أدري.

س –ما هو مرتب حسن بك؟

ج – أكثر من ٦٠ جنيها في الشهر.

س – وكيف عرفت بأنه نال زيادة خمسة جنيهات؟

ج – عندما تمت ترقيته، تقدم بالتماس بذلك.

س – عندما أسرتم، ماذا فعلتم بأسلحتكم وذخائركم؟

ج – أخذها العدو منا

•••

لم يرغب السجين في استجوابه. وشرعت المحكمة في ذلك:

س – أين كان سعيد أفندي أمين؟

ج – جريحاً. وظل بغرفته في بري منذ الثالث من يناير.

س – وماذا كان يفعل هناك؟

ج – قمنا بغارة من جناحهم.

س – كم سرية خرجت معكم؟

ج – أربع سرايا وباشبوزوق، بقيادة سعيد أفندي أمين، وذلك في الثالث من يناير.

س – ومن تلك السرايا الثالثة والرابعة من كتيبتك: ألم يحضر منهم أحداً إلى هنا؟

ج – نعم. محمد أفندي إمام، وهو ملازم بالسرية الرابعة.

س – هل تعرف جاويشاً يسمى يوسف عجور؟

ج – نعم. كان بالسرية الثانية.

س – عندما ضرب البروجي نوبة "شكلوا مربعاً" هل كان ذلك نداءاً عاماً؟

ج – لا. بل للسريتين فقط.

س – لماذا لم تنضم السريتين الأخريين لكم؟

ج – كان فرج أفندي على هو قائدهم؟

س – متي فتح باب المسلمية؟

ج – في منتصف اليوم. وقد أخذونا من خلاله.

س – وكيف أخذوك؟

ج – ربطوا أيدينا وراء ظهورنا.

س – هل شاهدت أياً من ضباط الفوج الأول بالسجن؟

ج – نعم. ثلاثة أو أربعة، مع نسائهم وأطفالهم. لكنني لا أذكر أسماءهم.

س – من هو عمر أغا؟

ج – رجل أسود. ولا أدري موطنه الأصلي.

س – عندما يصرف لك (راتبك): بأي عملة كان ذلك؟

ج – بعملة الورق.

س – طوال الشهرين الأخيرين؟

ج – لأكثر من شهرين. لكن الرجال تسلموا نصف مرتبهم في ديسمبر بالنقود (بخلاف العملة الورقية).

س – من كان مترجم غردون؟

ج – رجل أبيض. ويبدو من شكله أنه لم يكن مصرياً. رجل طويل القامة ونحيف. ولا أدري إن كان مسلماً أم لا.

س – من هم الضباط الذين كانوا بالمربع؟

ج – إبراهيم أفندي صالح ويوسف أفندي الديب وإبراهيم أفندي النقر والسيد أفندي الخولي، وقد قتلوا جميعاً. هذا بجانب الضباط الذين ذكرتهم من قبل.

س – وأين كان يقف عمر أغا؟

ج – بالقرب من بري، علي ما أعتقد.

س – متي ذهب فاراً للعدو؟

ج – قبل عشرة أيام من السقوط تقريباً.

س – هل كان فرج باشا معكم في السجن، وكيف قتل؟

ج – نعم. لقد أخذوه ليظهر أمواله ثم قتلوه فيما بعد. ولقد سمعت بأنهم قتلوه لخيانته.

س – عندما كنت في السجن، ألم تسمع أبداً بمن الذي كان السبب في دخول العدو؟

ج – عمر أغا.

س – كيف كنت تعلم بحالة حسن بك في السجن.

ج – لأنني كنت أبيع الماء. وقد شاهدته جالساً في صمت.

س – ما هي قوة العدو؟

ج – أكثر من ٥٠,٠٠٠ رجل.

س – أي نوع من العملة كنت تحصل عليها في السجن؟

ج – أربعة قروش نحاسية، لأننا كنا نشكو من الجوع. ويتسلم كل سجين نفس المبلغ.

س – هل شاهدته وهو يتسلم "قروشه"؟

ج – لا. لم أشاهده.

س – هل شاهدت قدوم العدو من بحر أزرق يوم السقوط؟

ج – لا. بل سمعت إطلاق النار من هناك.

س – من كان المسئول عن بحر أبيض؟

ج – عثمان حشمت، ومن تحته يوسف أفندي عرفت.

س – هل كان عثمان بك يعمل تحت حسن بك بهنساوي أم لا؟

ج – من ناحية إدارية، نعم. أما من ناحية القتال، فلا. وإنفضت المحكمة في الثانية وخمسة دقائق بعد الظهر، لتنعقد يوم الإثنين التاسعة صباحاً.

وانعقدت المحكمة في العاشرة من صباح الرابع من يوليه ١٨٨٧ لتستمع لشاهد الدفاع الثاني، وهو محمود أغا السيد، بلك باشي الخرطوم، من سرية أحمد بك عبد القاسم، والملحق بالفوج الأول. وبعد أن أدي القسم أفاد بالتالي:"إنني أعرف حسن بك بهنساوي. فقد كان كولونيلاً بعد أن رقاه غردون باشا. وكان بخيت بك بطراكي كولونيلاً للفوج الأول".

تدخل الادعاء وذكر أن موضوع رتبة حسن بك ليست بمحل خلاف، إذ أن هنالك خطاباً موقعاً من غردون باشا، ومؤرخاً بالرابع والعشرين من شوال ١٣٠١هـ، بترقية ٦١ ضابطاً من الفوج الخامس، كان من بينهم حسن بك بهنساوي، إلى رتبة كولونيل (١٦ /٨ / ١٨٨٤).

س – ما هي أول إشارة عن اقتراب العدو؟

ج – أفادني الحارس بأنه سمع صوت البوق بنداء"زنهار" كونوا يقظين – من ناحية بحر أبيض.

س – ألديك علم إن كان الفوج الخامس قد أدى واجبه؟

ج – لقد حاربوا جيداً.

س – أقتل كثير منهم؟

ج – نعم. ومات الكثيرون من كل الأفواج. ومن الفوج الخامس قتل أكثر ممن قتلوا في الفوج الأول.

س – أسمعت المدافع (تقصف) من بحر أبيض؟

ج – نعم.

س– هل ترك الأنصار السلاح بجوار القتلى.

ج– نعم.

س – وبعد اقتحامهم بيوم: هل رأيت أسلحة كثيرة مع القتلى؟

ج – لا أعلم متي جمعت أسلحة القتلى.

س – هل تعرف أي فارين من الفوج الخامس؟

ج – لا.

س – ومن الفوج الأول.

ج – نعم. كما حاول ٢٢ منهم الفرار لكنهم رموا بالرصاص.

س – هل كان كل الفوج الأول من السودانيين؟

ج – كل الجنود. أما بعض الضباط فكانوا مصريين.

س – ومن أين جاءوا بهم؟

ج – من السودان.

س – هل سمعت أبداً بغضب غردون باشا على الفوج الخامس؟

ج – أبداً.

س – هل كان يصرف للفوج الأول أكثر من رجال الفوج الخامس؟

ج – أبداً هما متساويان.

س – هل خرج الفوج الخامس وقاتل قبل سقوط الخرطوم؟

ج – نعم.

س – أتذكرهم عند ما خرجوا ثم عادوا بين التهليل والجوائز وفرق الموسيقي؟

ج – نعم. وكان ذلك في بداية شهر السقوط.

س – متى صرفت آخر تعيينات للجنود؟

ج – لم يصرف شئ خلال يناير، بعد اليوم العاشر منه، وبعد ذلك كنا نأكل ألياف النخيل.

س – ومتى أكلتم الصمغ؟

ج – بعد نفاذ المؤونة، وقبل أكل ألياف النخل.

س – وكيف كانت حالة الجنود (وقتذاك)؟

ج – ضعاف، لا قوة بهم.

س – هل عاش كثيرون من الفوج الأول؟

ج – نعم كثيرون.

س – هل كنت تعلم بأن حسن بك كان يصرف ٥٠٠ قرش زيادة على مرتبه؟

ج – نعم.

س – لماذا؟

ج – عندما كان بكباشياً تحت نصحي باشا. ولكن لا أدري لماذا.

س – هل رأيت حسن بك في السجن. ومن الذي وضع هناك أولاً؟

ج – نعم. وقد وضعنا هناك سوياً في نفس اليوم. وقد ساقوه أمامي وكان يعامل مثل معاملتنا. كـان بعض (الأنصار) يمسكون به وكانت يداه مربوطتان خلف ظهره.

س – هل كانت عليه آثار الضرب؟

ج – لا.

س – هل بقي في السجن أم أرسل للخرطوم؟

ج – أرسل للخرطوم في اليوم الثالث.

س – ومتي أعيد ثانية للسجن؟

ج – لم أره لمدة ٧–٨ يوم.

س – وكيف كانت حالته؟

ج – لقد ضرب وقد تمزق لحم وجهه من الكرباج.

س – هل عرفت ما فعلوه له؟

ج – لقد أخذوه ليريهم أمواله وقد سمعت بأنهم ألقوه في بئر وفي البالوعات وغيرها حتى يخرج لهم ماله من هناك.

س – وماذا فعلوا بالنساء؟

ج – أخذهم العرب.

س – كم لبثت في السجن؟

ج – تسعة أشهر وقد هربت منه قبله.

س – عندما كنت في السجن هل حدث أن رأيته وقد تحسن حاله؟

ج – لا.

س– هل سمعت بأنه كان خائناً؟

ج– لا.

س – هل أعطى المهدويون مالاً لأي من السجناء أو لحسن بك؟

ج – أبداً، ولا قرش واحد، أو حتى له هو.

س – أتعرف عمر إبراهيم الفكي؟

ج – كان من السناجق الملحقين بالفوج الأول الكتيبة الأولى. وقد فر ومعه حوالي ثلاثين جندياً قبل شهر من السقوط.

س – هل علم غردون وفرج باشا بفراره؟

ج – نعم.

س – وماذا حدث له؟

ج – لا شئ. فهو غير مسجون ومرتاح لوضعه.

س – هل عمل أبداً في الفوج الخامس؟

ج – لا.

س – من أين هرب؟

ج – من محطته، بين الكلاكلة والمسلمية.

س – هل تعرف كيف قسم خط الدفاع عن الخرطوم؟.

ج – إلى أربعة أقسام – (١) بري وحتى شرق المسلمية تحت بخيت بك. (٢) محمد بك إبراهيم ومسنول حتى باب الكلاكلة تقريباً. (٣) من الكلاكلة حتى باب النصر تحت حسن بك بهنساوي. (٤) من هناك حتى بحر أبيض تحت عثمان بك حشمت.

س – هل يقود حسن بك وبخيت بك القسمين الآخرين؟

ج – نعم. إلا في حالات القتال.

س – ما مدى قوة المقاتلين في الخرطوم؟

ج – ٦٠٠٠ جندي من كل الرتب بمن فيهم المتطوعون.

س – وكم رجلاً كان على المتاريس؟

ج – لا أعرف.

س – وكم عدد الأنصار المهاجمين؟

ج – أربعمائة ألف.

س – هل رأيت حسن بك وهو يشحذ؟

ج – نعم.

ثم استجوبه الادعاء:

س – ما نوع النداء الذي صوت به البروجي؟
ج – زنهار.
س – هل صوت بزنهار أم كبسة"؟
ج – زنهار.
س – وأين كنت؟
ج – بالقرب من بري
س – وكم تبعد نقطتك عن باب المسلمية؟
ج – مثل المسافة من هنا (مكتب الحربية) وحتى المالية (حوالي ٦٠٠ ياردة).
س – ومن الكلاكلة للمسلمية؟
ج – من الأزبكية حتى القلعة (٢ ميل تقريباً).
س – ومن الكلاكلة حتى باب النصر (نصر بك)؟
ج – مثل المسافة من هنا وحتى قصر عابدين (٨٠٠ ياردة).
س – ومن باب النصر حتى مكان دخول العدو؟
ج – نفس المسافة.
س – هل بأمكانك أن ترى كل هذه المسافة؟
ج – ليس بالليل.
س – أرايت القتلى بأم عينيك؟
ج – نعم. فيما بعد.
س – وهل المدافع التي أطلقت من بحر أبيض مدافعنا أم مدافع العدو؟
ج – مدافعنا.
س – ماذا تفهم عن معنى (خيانة) التي تقول أن حسن بك كان متهماً بها؟
ج – لم يقم بعمل شئ ضد الحكومة.
س – هل كانت كل أعمال حسن بك مشرفة وهل أدي واجبه المنوط به؟
ج – نعم.
س – هل أخطر حسن بك غردون بهجوم العدو؟
ج – لا. لا أدري.
س – وكيف قاتلوا؟
ج – أولاً على المتراس، وبعد ذلك في جماعات.
س – هل كنت تعمل تحت قيادة حسن بك؟
ج – لا.
س – ماذا كان حسن بك يرتدي عندما رأيته وعليه علامات الضرب المبرح؟
ج – قميص وبنطلون فضفاض.
س – هل اتصل أي أحد بالعدو قبل يومين أو ثلاثة من السقوط؟

ج – لا.

ثم استجوبته المحكمة:

س – ما كنتم تأكلون قبل الصمغ؟

ج – أحياناً تعيينات كاملة وبدأت تقل بعد ذلك.

س – هل فر عمر أغا ليلاً أم نهاراً؟

ج – ليلاً.

س – متي بدأتم إطلاق النار من بري؟

ج – بعد أن جاءونا من داخل المدينة.

س – هل سجنتم جميعاً في مكان واحد؟

ج – لثلاثة أيام، وبعد ذلك ذهبنا حيث شئنا.

س – من رأيت هناك من رجال الفوج الأول؟

ج – الكولونيل سرور بهجت، من الكتيبة الثالثة، واليوزباشي حسن حسني والملازم محمد علي وبعض الجنود. لكنني لا أعرف ضباط الفوج الخامس.

س – وكيف أدركت بأن حسن بك لم يقم بأي خيانة؟

ج – لو كانت هناك خيانة لكنت قد سمعت بها.

س – ألم تسمع بأي خيانة (من أحد) في السجن؟

ج- لا.

س- هل كانوا يعطونك قرشاً كل أسبوع في السجن؟

ج – للنساء والمدنيين، يعطونهم، ولكن ليس للجنود.

س – ألم تطلب منهم ذلك القرش؟

ج – نعم. لكنني جلدت بدلاً عنه.

قرئت إفادته له ثم إنسحب الشاهد

***

شاهد الدفاع الثالث:

هو إسماعيل أغا حسن (بروجي أو ردي السرية)، من سرية عبد الله بك إسماعيل. وبعد أن أدي القسم قال:

"لقد كنت بالخرطوم يوم سقوطها، وأعرف حسن بك بهنساوي. كان فوجه الخامس، وكنا ملحقين به فقد كنا من الباشبوزوق. كنت في خط دفاع بحر أبيض. وفي ليلة السقوط اقتحم العرب الخرطوم واستلموها. وعندما كانوا قد بدأوا الهجوم، كنا في مراكزنا في المكان الذي لم تكن به أي تحصينات. لم يستطع الجنود الدفاع عن المكان وإستلمه العرب. كان الجنود يتضورون ويموتون من الجوع ورغم هذا فقد دافعوا عن أنفسهم بقدر المستطاع.

س – لماذا لم يكن هناك خندقاً بجوار النيل الأبيض؟

ج – لقد دمره النهر. وحاول الجنود إصلاحه وبسبب نيران العدو أوقف غردون محاولتهم.

س – هل رأيت حسن بك ليلة السقوط؟

ج – نعم وكان يقوم بطوافه علينا ورأيته في قسمنا بخط الدفاع.

س – هل سمعت أبداً بأي شكوى بخصوص أداء حسن بك لواجبه؟

ج – لا. أبداً.

س – هل رأيته عندما هجم العدو؟

ج = لا.

س – هل سمعت بما قام به؟

ج – لا.

س – ألم تسمع بما فعله بالطابية؟

ج – سمعتها تطلق النار والقذائف.

س – هل خرج الفوج الخامس للقتال مرة؟

ج – نعم. وكنت معهم في معركة ود الترابي وفي معارك السبت والخميس.

س – أي خميس؟

ج – قبل شهر من السقوط.

س – وهل عدتم منتصرين في معركة ود الترابي؟

ج – نعم.

س – هل رأيت البهنساوي في السجن وكيف كان يعامل.

ج – نعم وكان يلقي معاملة سيئة. كان رأسه عارياً ويرتدي قميصاً وبنطلوناً كما رأيته يشحذ.

س – هل سمعت قط بأنه كان قد تلقي مالاً من بيت المال؟

ج – لا.

س – كم لبثت في السجن؟

ج – أربعة وعشرين شهراً.

س– وكم مكث حسن بك في السجن؟

ج – أيضاً عامين وكنت أراه عادة.

س – أرأيته يضرب يوماً؟

ج – نعم.

س – وماذا حدث لزوجاته وأبنته؟

ج – أخذهم العرب.

س – هل كان حراً في الذهاب والإياب؟

ج – لا. فقد كان هناك حارس (يراقبنا).

س – وكيف هرب؟

ج – تملص من الحارس يوم العيد الكبير

س – وقبل هروبه: هل كان حاله قد تحسن؟

ج – لا.

س – من هرب منكم قبل الآخر؟

ج – حسن بك.

س – هل سمع بذلك المهدويون؟

ج – نعم.

س – وماذا فعلوا؟

ج – أرسلوا من يطارده.

س – ومتي رأيته مرة أخرى؟

ج – في الحيشة. في مكان يدعي ولكاييت.

وتوقف الإدعاء عن الأسئلة.

ثم استجوبته المحكمة:

س – هل ضربت (الكبسة) قبل الهجوم؟

ج – نعم قبل ربع ساعة منه.

س – وعندما حدث الهجوم: هل كان الجنود في مواقعهم؟

ج – نعم: الذين استطاعوا الوقوف على أقدامهم.

س – كيف عرفت بأن غردون باشا قد أوقف إصلاح (الجزء المنهار) من بحر أبيض؟

ج – من الأمر الذي صدر.

س – هل كنتم تعملون (فيه) ليلاً؟

ج – أبداً.

س– من كان سنجقكم؟

ج – عبد الله بك إسماعيل؟

س– هل كنتم جميعاً معاً، وأين؟

ج – نعم، بين الكتيبة الأولي والكتيبة الرابعة.

س – هل سجن عبد الله بك؟

ج – نعم، بواسطة القمندان حسن بك البهنساوي. لقد حبس داخل الفوج وأفرج عنه بعد ستة أو سبعة أيام، ولا أدري من أمر بالإفراج عنه، كما لا أدري لماذا سجن. وقد كان معنا يوم السقوط.

س – في أي طابية قلت أن حسن بك كان بها؟

ج – لا أعرف أسمها، لكنها كانت بالقرب منا.

س – هل كان حسن بك يطوف ويمر عليكم كل ليلة؟

ج – نعم. في كل يوم وكل ليلة.

س – عندما خرج الفوج الخامس (للغارة)، من القائد؟
ج – سيد أفندي أمين. وقد خرجت سريتان من الكتيبة.

قرئت هذه الإفادة للشاهد ثم أنسحب.

وأنفضت المحكمة حتى التاسعة صباحاً من يوم الخامس من يوليه ١٨٨٧.

***

وفي التاسعة والنصف من صباح الخامس من يوليه إستئنفت المحاكمة:

الشاهد الرابع للدفاع :

الملازم ثاني إبراهيم أفندي حسنين، من الكتيبة الرابعة، الفوج الأول، وبعد أن أدي القسم قال:

"لقد كنت بالخرطوم يوم سقوطها، على المتراس. وأعرف حسن بك البهنساوي. لقد كان كولونيلاً للفوج الخامس. وكان قائدي هو الصاغ سليمان أفندي نشأت وقائد فوجي هو بخيت بك بطراكي. وكان موقعي بين بوابة المسلمية والكلاكلة.

س – هل كان حسن بك نشطاً في أداء واجباته؟
ج – نعم.
س – وكيف تعرف؟
ج – من مروره وطوافه وأوامره وسلوك جنوده.
س – هل كان يمر في الأسبوع مرة أو مرتين؟
ج – مرتين في الأسبوع.
س – هل كان يمر عليكم في المتراس؟
ج – لا. بل يطوف حتى نهاية منطقته.
س– كم كنت أنت من باب الكلاكلة؟
ج – بحوالي ١٠٠ مقر. وكنت أشاهده عند طوافه.
س – أين كانت رئاسته؟
ج – في باب الكلاكلة.
س – وكيف تعرف إن كان يطوف مرة أو مرتين في الإسبوع؟
ج – بمستطاعي رؤية ما يجري بخطوط الدفاع.
س – هل كان جزءاً من المتراس منهاراً؟
ج – نعم – بالقرب من بحر أبيض. كانت الأرض رملية وقد جرفتها مياه النهر. وعادة ما كان النهر يدخل في الخندق ويدمره.
س – هل كان ضمن طواف حسن بك المرور علي الجزء المنهار؟
ج – نعم. وقد أمر بإصلاحه وشرع في ذلك.
س – وكيف عرفت؟
ج – كانت ترسل من فوجنا فرقاً للصيانة، وكنت أراها.

س – لماذا لم يتم إصلاح الجزء المنهار؟
ج – لقد كان العدو يواصل إطلاق النار (علي فرق الصيانة).
س – أذلك هو السبب الرئيسي؟
ج – كان ذلك.
س – كم قتل من الرجال هناك؟
ج – ثلاثة في يوم واحد.
س – هل كان الجزء الذي يرمم يغرق مرة أخرى بعد حفره؟
ج – نعم.
س – لكم من الزمن استمرت عمليات الصيانة؟
ج – حتى قبل شهر من السقوط.
س – ومن أصدر الأمر بإيقاف الصيانة؟
ج – بأمر من غردون باشا.
س – وكيف عرفت؟
ج – من الأوامر.
س – عندما بدأ الهجوم: هل كنت في موقعك؟
ج – نعم. وكان حسن بك في خط الدفاع، من طابية باب الكلاكلة.
س – أخبرنا بما تعرف.
ج – سمعنا البوق ينادي (زنهار) من باب الكلاكلة، وبعد نصف ساعة سمعنا صوت مدفعين من الطابية ثم تلي ذلك صاروخ وبدأت الخطوط في إطلاق النار.

واستمرت نيران باب الكلاكلة تطلق مائلة باتجاه العدو الذي جاءنا من جهة النيل الأبيض وجاءونا من خلفنا.

س – ألم يهاجم العرب المتراس من الأمام؟
ج – لا.
س – ماذا فعل جنود حسن بك عندما وصل العرب لمنطقته؟
ج – شكلوا مربعاً وأطلقوا النيران.
س – متى رأيتهم يشكلون المربع؟
ج – حوالي العاشرة صباحاً عربي.
س – أهجم العدو أثناء الظلام؟
ج – نعم. وكان القمر قد غاب قبلها بحوالي ساعة.
س – وكيف رأيت المربع؟
ج – كان بالقرب منا، ورأيتهم يتشكلون ويطلقون النار ثم يتراجعون نحونا.
س – وهل وصلوا إليكم؟
ج – ليس تماماً، بل إلى عشرة أو خمسة عشر متراً منا.

س – هل رأيته مربعاً مكتمل التكوين؟

ج – نعم وقد كان به حوالي أربعين رجلاً وكان حسن بك في وسطه. كان أطول من جنوده ويرتـدي شاراته (العسكرية) ولهذا عرفته.

س – كم الزمن الذي مضي منذ إنطلاق أول مدفع وحتى سقوط المدينة؟

ج – ثلاثة ساعات.

س – هل تعرف ما جري للمربع؟

ج – لا أعرف، وبسبب من اندفاع العدو لم أرشيئاً.

س – هل كان غردون باشا يتفقد الخطوط بنفسه؟

ج – نعم وكان يوجه الضباط عادة.

س – هل سمعت أبداً بغضب غردون باشا من أي ضباط أو قوات أو أقسام؟

ج – لا.

س – أتعرف إن كان يحب حسن بك؟

ج – نعم. وقد كانوا يمرون سوياً.

س – هل رأيته في السجن؟

ج – نعم. لقد كنا قد جمعنا في بوابة المسلمية، ثم فتحت وأخرجنا منها وقد ربطت يدي حسن بك من خلفه. أما أنا فلم تربط يدي. بعد ذلك أخذ العرب زوجاته وإبنته. وكان يعامل بالسجن نفـس معاملتنا.

س – هل تسلم مالاً من بيت المال؟

ج – لا.

ثم قام الادعاء باستجوابه:

س – ما هو أول ما سمعت عند هجوم العدو؟

ج – "زنهار"، وبعد ذلك المدافع.

س – هل سمعت شيئاً من بحر أبيض؟

ج – لا.

س – هل كنت تنام في المتراس؟

ج – نعم

س – أشاهدت إطلاق نار من المقرن؟

ج – لا. لأنها بعيدة جداً.

س – هل شاهدت إطلاق نار من جهة المتراس المنهار؟

ج – لا.

س – هل رأيته (حسن بك) في الليلة السابقة للسقوط؟

ج – نعم، وكان يطوف على الخطوط.

س – من الجنود الذين شكلوا المربع؟

ج – مصريون، لم يكن معهم شايقية ولا سودانيين.

س – أخضر أحد منهم إلى هنا؟

ج – لا أعرف.

س – إلى أي اتجاه تحرك المربع؟

ح – شرقاً.

س – عندما أسر العرب حسن بك. كم كان يبعد عن بوابة المسلمية؟

ج – ٢٥٠ متراً.

س – هل كان التلغراف قريباً منك؟

ح – لا. كان بجوار الكتيبة الأولى.

س – هل تعلم إن كان حسن بك قد أبلغ بالهجوم؟

ج – نعم أرسل جاويشاً لفرج باشا.

س – هل تعلم إن كان غردون باشا قد أرسل أي أوامر لحسن بك ساعة السقوط؟

ج – لا. لا أعرف.

تم إستجوبت المحكمة الشاهد:

س – هل ظهر أي رجل من العدو، يوم الهجوم، من أمامكم؟

ج – لا.

س – هل إنسحب المربع نحوكم في ضوء النهار؟

ج – نعم.

س – أكانوا وسط العدو يحاربون؟

ج – نعم.

س – وماذا فعلتم أنتم؟

ج – شكلنا مربعاً بدورنا.

س – ومتي شكلتموه؟

ج – عندما كانوا علي بعد ١٥ ياردة مننا؟

س – ومن الذي أمر بتشكيل المربع؟

ج – أمرت أنا بتشكـيل مربعنا، من حوالي عشرين رجلاً، وكان معي ضابط واحد لكنه قتل.

س – هل يتسلم رجال الفوج الأول مرتبات أعلي من الفوج الخامس؟

ج – لا أعلم. لكن الجندي يتسلم ٤٠ قرشاً.

س – هل حدث أن كافأكم غردون باشا؟

ج – لقد أمر لنا بمرتب سنة لكننا لم نتسلمه أبداً.

س – هل أتي إلى هنا أي أحد من أفراد مربعك؟

ج – لا أحد، رغم أنه كان من بينهم بعض الناجين.

س – ماذا سمعت، فيما بعد، عن حسن بك؟

ج – بأنه كان يشجع رجاله...الخ.

س – كيف علمت بأن الجاويش قد ذهب لفرج باشا؟

ج – لأنه مر بنا أثناء سيره.

س – وأين كان مربع بهنساوي بك؟

ج – خلف المتراس مباشره.

ثم قرئت الإفادة على الشاهد كاملة:

وعبرت له المحكمة عن رأيها في أنه لم يقم بواجبة في تلك المناسبة (سقوط الخرطوم).

***

شاهد الدفاع الخامس :

سعادة مصطفى باشا ياور، مدير دنقلا السابق

رفض لأسباب دينية أن يؤدي القسم، وقد سمح له بدلاً عن ذلك بالتعهد الصارم الملتزم بما سيقوله:

"لقد عرفت حسن بك بهنساوي منذ أن كان بسنار، وحتى نقل لدارفور.

وأنني أثق في أنه رجل غير قادر علي الخيانة. لقد كان يعمل (يوماً) تحت إمرتي كيوزباشي وصاغ معاون وصاغ مساعد لأربعة سنوات وهو رجل طيب الخصال من كافة النواحي.

ثم إنسحب الشاهد.

***

شاهد الدفاع السادس

سعادة محمد نصحي باشا، قائد البحرية بالخرطوم. وبعد أن أدي القسم قال:

"عندما كان حسن بك بهنساوي معي بالخرطوم، وحتى مغادرتي لها، كنت أعتبره رجلاً أميناً ومستقيماً، وضابطاً جيداً نشطاً ولم يقم قط بأي عمل يضر بالحكومة".

وسأله الإدعاء:

س – لكم من الزمن كنت تعرفه؟

ج – من فبراير ١٨٨٤ حتى أول أكتوبر ١٨٨٤. وكان معي في نفس الفوج.

قرئت إفادته له ثم أنصرف.

***

شاهد الدفاع السابع:

عثمان حمدوك ملتزم. وبعد أن أدي القسم أفاد بالتالي:

لقد كنت في الخرطوم. وفي ليلة سقوطها كنت نائماً في جنينتي. صعدت فوق شجرة ورأيت العدو وهو قادم من ناحيتي بحر أبيض وبري وكان إبن أختي يعمل مترجماً لغردون باشا، وإعتاد أن يحضر لي ويخبرني بما يحدث.

س – هل حدث أن سمعت منه رأياً لغردون يتعلق بحسن بك؟

ج – سمعت بأن غردون قد أستعار من حسن بك مبلغ ١٥٠ جنيهاً وذلك في بداية يناير.
س – إذن كانت صلاتهما ودية وشخصية؟
ج – نعم
س – هل غضب عليه غردون فيما بعد؟
ج – لم أسمع بذلك أبداً.
س – هل قابلت إبن أختك قبل السقوط مباشرة؟
ج – في الليلة التي قبلها.
س – هل حدثك بأنهم كانوا يخشون من الخيانة؟
ج – لا.
س – كم مترجماً يعمل مع غردون؟
ج – إثنين، أحدهما إبن أختي.
س – هل سجنت؟
ج – نعم.
س – هل سمعت أبداً، فيما بعد، من أحد مرافقي غردون، بأنه كانت هنالك خيانة.
ج – لا.
س – هل رأيت حسن بك في السجن؟
ج – نعم. وقد ضربوه وأدلوه في بئر ليرغموه علي إخراج أمواله منها. وبعد ذلك رأيته يستجدي، وقد كنت حاضراً عندما ضرب. ولقد عذبوني أيضاً ووضعوا النار علي رأسي.
س – وكيف يشحذ حسن بك في حين أن بيت المال كان يعطيه عشرة ريالات في الأسبوع.
ج – لم يعطه بيت المال أي مبلغ أبداً.
س – ماذا جرى لإبنته؟
ج – لقد أخذها المهدي كخادم رقيق له وكذلك زوجته بت عبد السلام الشامي.
ثم أستجوبه المدعي:
س – هل كان بالخندق ماء؟
ج – لا. بل كان هناك طين في القطعة المجاورة لبحر أبيض.
ثم أستجوبته المحكمة:
س – متي رأيت حسن بك بعد السقوط؟
ج – في اليوم الثالث، وكان يضرب في بيت المال.
س – هل أطلقت المدافع؟
ج – أطلقت علي باخرة كانت قادمة.
س – في أي وقت دخل العدو؟
ج – حوالي التاسعة والنصف صباحاً (عربي).
س – هل رأيته في تلك الساعة؟

ج – نعم.

س – هل كان بمقدورك رؤية النيل الأزرق والنيل الأبيض وبري؟

ج – نعم.

س – وكيف عرفت بأنهم قدموا من ذلك الاتجاه؟

ج – رأيتهم وقد دخلوا المدينة في التاسعة والنصف. لكنني لم أرهم يعبرون المتراس.

***

وقد أوضح مجلس (دفاع) المتهم بأن (الشاهد) هو نفس الرجل الذي قال عنه ميخائيل أفندي بقطر بأن العرب كانوا يبحثون عنه ليقتلوه، لأنه كان واحداً من أكثر الرجال إخلاصاً لغردون. قرئت الشهادة له ثم أنسحب.

***

*وإنفضت المحكمة في الواحدة وعشرة دقائق وحتى الخميس التاسعة صباحاً. ثم أنفضت بناء علي طلب الدفاع حتى التاسعة من صباح يوم ١١ يوليه ١٨٨٧.

***

* ذكر المؤلف بأنه حذف بقية أحداث المحاكمة لأنها أصبحت شكلية لا أهمية لها. هذا وننوه بأن الحكم قد صدر (مثل ما جاء في القسم السادس) بتبرئة المتهم بشرف (المعرب).

القسم السابع
تنظيم الجيش المصري الجديد

الملخص:

الجيوش الوطنية التي أنشأها البريطانيون منذ ١٧٥٧ - مقارنة بين الفلاح المصري والبنغالي - الضباط الأمريكيون في الجيش المصري - الجيش المصري القديم - الجيش المصري لعرابي باشا - نظام التجنيد للجيش القديم - أثر ذلك علي الفلاحين - التجنيد للجيش الجديد - الهلع من الخدمة في السودان - تعيين السير أفلين وود سرداراً للجيش المصري الجديد - أول من التحق به من الضباط - تكوين الجيش وهياكله - بداية التجنيد - مدة الخدمة في الجيش والشرطة والاحتياطي - بداية التدريبات - الرتب المصرية وما يعادلها من الرتب الإنجليزية - منشأ وأصل الرتب المصرية (التركية) - الباشا - البك - الأفندي - التنظيم - أول لواء أنشأه الكولونيل جرنفل - اللواء الثاني الذي أنشأه اللواء شهدي باشا - حالة الجيش المصري في يناير ١٨٨٣ - وباء الكوليرا - إنشاء المصلحة الطبية - التجنيد الإلزامي، موجز لسيرة عمل جندي مصري - مقارنة بين الخدمة في الجيش وفي الشرطة - اختيار الضباط الوطنيين - رتبة الضابط البريطاني عند تعيينه - صاحب السمو الخديوي، القائد الأعلى - وزير حربيته - السر دار ومهامه - هيئة الرئاسة - مساعد القائد العام ومدير الإمدادات والتموين ومدير عام المساحة - المصالح والإدارة المركزية - المدرسة الحربية - أسلوب السير إفلين ود في التدريب - الكارثة التي حلت بهكس باشا وأثرها علي الجيش - الفشل في تكوين لواء تركي - انضمام ضباط بريطانيين جدد - أول كتيبة سودانية تنشأ عام ١٨٨٤ - تفاصيل تنظيمها - الفرق بين نظام الكتائب السودانية والمصرية - أعمال الجيش المصري التي قام بها في حملة النيل وفي سواكن - إستقاله السير إفلين وود وإحلال الجنرال جرنفل محله كسردار - عدة زيادات في حجم القوات المصرية - قوة الجيش المصري في أوائل عام ١٨٨٦ - الكولونيل هالام بار يصبح نائباً للقائد العام - تقريره عن مدي التقدم الذي حدث - قوة الجيش المصري عام ١٨٩٠.

***

للإنجليز قدرة على تنظيم وتوظيف وتطوير قوات مجندة من أجناس كانت، بدون مساعدتهم - تعتبر من الأجناس غير المحاربة. ولقد تمثل ذلك في أنحاء الشرق بقائمة طويلة من الأفواج والكتائب والقوات التي يفتخر جنودها بأنها قد سميت بأسماء قادتها.

فمن الأفواج الإثني عشر لمشاة البنغال الوطنيين، التي أنشئت ما بين عامي ١٧٥٧ - ١٧٩٦، إلى قوات وود غير النظامية في جنوب إفريقيا، فأن حقبة تصل إلى ١٥٠ عاماً قد حفلت بإنجازات مثل تلك القوات ومن بينها قوات لاي بولتان وهدسون هورس، وسكنرس هورس وبيكرس هورس وحملة بنادق جاكوب وغيرها.

ولعل السر في ذلك النجاح يكمن فيما ذكره أحد رجال الدولة المرموقين حيث قال إن "السبب لنجاحنا في كافة الأمور يرجع لقدرة الرجل الإنجليزي على إلهام الآخرين وبث الثقة في نفوسهم".

فالرجل الألماني يدرب علي الثقة في نظامه، والفرنسي على نجاحه، أما الإنجليزي فعلـي الثقة بنفسه. وعندما يكون على كل منهم أن يعلم الآخرين ما يعلم، فلا شك في أن الأخير هو الـذي يحقق أفضل النتائج العملية.

فالطقس المعين، والتربة المعينة، تنتجان جنساً له نفس الخصائص. وربما لا تكون هنـاك مفارقة عندما نقارن سكان وديان نهر الجانج الخصيبة بسكان دلتا النيل الغنية. فمثلما بدأت إنجلتـرا في البنغال، فهي الآن ماضية في مصر. ومثلما كانت كلمة بنغالي مرادفة للرقة والحكمة، فأن كلمـة مصري كان يعتقد بأنها رديف لعدم القدرة على الدفاع عن النفس.

وقبل عام ١٨٨٢ كان الجيش (المصري) يتدرب بواسطة ضباط وعسكريين أمريكيين، وهم جنود ذوي خبرات متفاوتة، لكنهم في حقيقة الأمر لم يكن يسمح لهم إلا نادراً بالقيام بالتدريب الفعلي لهم، بل إنحصر عملهم في مهام هيئة القيادة الخاصة بالمسوحات الطبوغرافية وما إلي ذلـك، وفـي مهام الكشوف (الجغرافية) في السودان وفي الصحاري الواقعة بين النيل والبحر الأحمر.

لقد أفسد عرابي نظام الجيش، وأضاف إليه جماعات مجندة من الجهلة والدهماء قبـل أن تحل به كارثة التل الكبير. ولقد ذهل الذين كانوا في كفر الدوار، في صباح اليوم الذي تلي المعركـة، عندما شاهدوا صفوف الخيام الأنيقة والمنتظمة وبين كل صف من الخيام كومت البنادق بعناية ورفع العلم المصري في مكانه المعتاد. كان ذلك يحتل عدة أفدنة من الأرض ولكن... لم يشاهد أي جنـدي واحد هناك. فقد تخلصوا على عجل من أي شئ يشير للعسكرية، وتجمعوا في حشود سعيدة مبتهجة، على طول خط السكة حديد، ليمضي كل منهم إلي قريته.

ومع ذلك فقد جاء في آخر اليوم فوج من المحاربين المتمرسين، قادمين من قلعة أبو قير، من الذين كانوا يعتقدون بأن بمقدور مدافعهم تدمير الأسطول الإنجليزي. لقد نزل الفرنسيون من قبل، عام ١٧٩٨، في أبو قير. ونزل فيها الإنجليز عام ١٨٠١. وهنا بالتأكيد سينزل اللورد ولسلي.

تقدم أولئك الجنود المحنكين، في صمت، حتى صلوا للصف الطويل مـن عربـات السـكة الحديد. وتوقفوا في صمت مهيب أمام كتائب سسكس وشر وبشير. وهناك.... نزعوا أسلحتهم وألقوا ببنادقهم داخل عربات القطـار ثم خلعوا ملابسهم العسكرية ورموها وراءها ثم اسـتداروا ومضـوا بعيداً بدون أن ينبسوا ببنت شفة. كان السير إفلين وود هناك، وربما لاحظ وسـجل سـلوك أولئـك الرجال. وسواء فعل ذلك أم لم يفعل، فأنه لم يشك قط في أية نوعية من الجنود كان عليه أن يقـوم بإنتاجهم مستقبلاً.

ولما كان الجيش يدين بنجاحه إلى الثقة التي بثها الضباط الإنجليز في نفسه، فقد كان هذا الجيش بدوره الوسيلة الفعالة ليبث في أنحاء البلاد ثقته في أمانة وعدل الضباط الإنجليز العاملين في خدمة صاحب السمو الخديوي. وكان المجند في الجيش الجديد عندما يعود إلى قريتـه فـي إجازتـه السنوية يعتبر واحداً من أنجع الوسائل لغرز هذه القيم وسط طبقة الفلاحين المصريين.

فقد كان الجندي في السابق لا يتسلم مرتبه إلا بعد فترات طويلة وربما لا يتسـلمه أبـداً. وعندما كان يتم تجنيده في الجيش فأن الناس ينظرون إليه وكأنما كتب عليه ألا يعود أبداً لهم مـرة

أخرى. وكانوا يمضون معه حتى أطراف القرية وسط نحيب وبكاء أصدقائه وأقاربه ليودعونه وداعاً طويلاً نهائياً. فقد كانوا يعلمون حق العلم أنه سيرسل في كافة الأحوال إلى السودان الرهيب، الذي ذهب إليه من قبل أبوه وأعمامه وأبناء العمومة والخئولة وربما أخوته، إلى النفي مدى الحياة إن لم يكن للموت الحاضر. فبالنسبة للفلاح البسيط، والذي ربما كان أكثر مخلوقات الله إستكانة، فان مجرد التفكير في أنه سيقتلع من قريته الحبيبة وغيطانه ومواشيه، ظل مثل سيف داموكليس معلقاً للأبد فوق رأسه. لذلك كان لا يتردد في ارتكاب أي جرم أو أن يعرض نفسه لأي عذاب حتى يهرب من هذا النداء لخدمة العلم.

وفي الأيام السالفة تكررت حالات التشويه الجسدي المتعمد حتى يتجنب الفلاح الخدمة العسكرية. ولم يكن من غير المعتاد علي رجل أن تجده قد بتر إصبعه السبابة حتى لا يتمكن من جذب زناد البندقية. وأكثر من ذلك تكراراً أن ترى من يفقأ عينه أو حتى كلتا العينين. وحتى يومنا هذا نجد شيوع هذه الممارسات لكن بأعداد أقل مما كان في السابق. ولاشك في أن النظام الحالي، إذا ما استمر لبضع سنوات أخرى، فأن تلك الممارسات ستنتهي للأبد.

وصار المجند الآن، عند ما يعود إلى قريته التي غادرها قبل عام، يعود إليها حسن الزى والهندام ومعه بضعة جنيهات في جيبه تكفي لشغل مقهى القرية وجعله مفتوحاً، على نفقته، لأيام عدة. وكان هذا شيء يجل عن التصديق! فسيحيط به أصدقاوه وأهله ويسألونه عن كل شيء وأي شيء. والعجب العجاب في أنه يخبرهم بارتياحه للعمل في الكتيبة أو الفيلق. وهو ينعم بالكساء الجيد والطعام، ويتسلم راتبه بانتظام، ويعامل بعدل من قادته الضباط. وعندما تنتهي إجازته لا يندب حظه التعس الذي يجرجره مره أخرى بعيداً، بل يعود مليئاً بالسعادة وربما في دخيلة نفسه يكون مسروراً لتخلصه من قذارة الريف وعودته إلي المعسكر أو الثكنة النظيفة النقية الهواء. مثل هذا التغيير كان لابد له أن يزيل ما علق بذهن الفلاح البائس من نظرة للعسكرية. وشيئاً فشيئاً أخذت روح الكراهية التي كان ينظر بها لها تتلاشى. ولكن الأمر، مع هذا، يحتاج إلي سنوات طويلة من الإدارة الحريصة والعادلة حتى تزيل تماماً ذكرياته عن الأيام الشريرة المشئومة التي سبقت النظام الجديد، عندما كانت أسر بأكملها يقبض عليها بدون رحمة وبغض النظر عن القوانيين المنظمة للخدمة العسكرية، ويؤخذون لمراكز التدريب مكبلين بالسلاسل، ثم يقذفون بهم للسودان ليبقوا هناك إلى ما لا نهاية أو ليسقطوا ضحايا للطقس أو للحروب الصغيرة والتي كانت القوات بالسودان متورطة فيها باستمرار. ومن الغريب أن نلاحظ مدي الرعب الذي كان يصيب الفلاحين المجندين لمجرد سماعهم بذكر أسم السودان أمامهم. ففي تلك الأيام كان للتهديد بإرسال أي كتيبة أو فوج إلى السودان، عند تكرار أي خطأ من جانبهم، ضمان بألا يتكرر ذلك أبداً مرة أخرى.

•••

وحتى لا نخرج عن الموضوع، ففي العشرين من ديسمبر ١٨٨٢ صدرت المراسيم الخديوية الخاصة بحل الجيش القديم، وتعيين السير إفلين وود سرداراً للجيش الجديد. وصدر الإذن الملكي لتعيين ضباط (بريطانيين)، بمرتب كامل، في خدمة الجيش الملكي ومن ثم تم تعيين الضباط الآتية أسماؤهم:

الرتبة في الجيش الإنجليزي	الاسم	الفوج	الرتبة والمركز في الجيش المصري
ميجر جنوال	سير إفلين وود	هيئة الأركان	سردار ورئيس هيئة أركان الجيش
لفتتانت	ستيوارت ورتلي	جملة البنادق الملكية	ميجر، وياور صاحب السعادة السردار
لفتنانت كولونيل	ت. فريزر	أركان، المهندسين الملكيين	كولونيل، أدجوتانت ومدير امدادات الجيش
كابتن	ف.ج. سليد	أركان، المدفعية الملكية	لفتنانت كولونيل، مساعد الأدجو تانت و م. امدادات الجيش
كولونيل	ف. جرنفل	أركان، البنادق الملكية	بريقادير جنرال وقائد لواء للمشاة
لفتنانت كولونيل	ف. دنكان	المدفعية الملكية	كولونيل، قائد المدفعية
لفتنانت كولونيل	أ.م. تايلور	الهوسار التاسعة عشر	لفتنانت كولونيل وقائد فوج للفرسان
ميجر	هـ. س. شيرمسايد	أركان، المهندسين الملكيين	لفتنانت كولونيل وقائد كتيبة
ميجر	هـ هـ. بار	أركان، مشاة سمر ستشير الخفيفة	لفتنانت كولونيل وقائد كتيبة
ميجر	س. م. واطسن	أركان، المهندسين الملكيين	كولونيل، مدير عام المساحة
ميجر	أ. س. وين	مشاة الملك الخاصة الخفيفة	لفتنانت كولونيل وقائد كتيبة
ميجر	س. هـ سمث	البنادق الملكية	لفتنانت كولونيل وقائد كتيبة
كابتن	ج. ودهاوس	المدفعية الملكية	ميجر، قائد بطارية مدفعية
كابتن	ج. و. كيرك	فوج ويلز	ميجر وقائد ثاني كتيبة
كابتن	أ.ب شكسبير	مدفعية البحرية الملكية	ميجر وقائد ثاني كتيبة
كابتن	هـ. كتشنر	المهندسين الملكيين	ميجور وقائد ثاني فوج للفرسان

لفتنانت	س.س. بارسونز	مدفعية الخيول الملكية	ميجور وقائد بطارية مدفعية
لفتنانت	س. س. تيرنر	مشاة شروبشير الخفيفة	ميجر، أعمال عامة
لفتنانت	س. ب. بيجوت	البنادق الملكية	ميجر، مساعد قائد كتيبة
لفتنانت	س. ف. ديفدسون	كمرون هايلاندرز	ميجر للأعمال العامة
لفتنانت	أز سنكلير	فوج البيلوش الأول	ميجر للأعمال العامة
لفتنانت	أ. س. هاجرد	حرس الحدود الملكي	ميجر للأعمال العامة
لفتنانت	هـ.م. رندل	المدفعية الملكية	ميجر للأعمال العامة
لفتنانت	د. كارتر	المدفعية الملكية	ميجر للأعمال العامة
لفتنانت	ر. أ. ماريوت	مدفعية البحرية الملكية	ميجر للأعمال العامة

كان تكوين الجيش ونظامه وهيئاته مثار نقاش وجدل حار بين السير إفلين وود واللورد دوفرين. وربما كان رأي الأخير مثار إهتمام للأول فقد وجد سعادة اللورد يقول بكل وضوح أن "أناساً كثيرون يتشككون في هل تحتاج مصر حقاً إلي جيش؟".

ثم الاتفاق علي أن يكون عدد أفراد الجيش ٦٠٠٠ وقد أشار اللورد دوفرين بحصافة، ثبت صحتها فيما بعد، إلي أن هذا يتم بغض النظر عن الأحداث في السودان. وسيتكون الجيش من الفلاحين، ولكن ونظراً للسمعة الطيبة للجنود الأتراك فقد تقرر أن من الحكمة"إستخدام كمية من عمدان الظهر الفقرية المتمرسة وإدخالها في الهيكل الرخو للجنود الفلاحين، وذلك عن طريق إستخدام أولئك المنحدرين من سلالة المحاربين الأشاوس، الذين حملوا رايات محمد علي من القاهرة حتى قونية، وسطهم"

وكثيراً ما لاحظ الناس كيف أن كثيراً من الأشياء، وبعضهم يقول كل الأشياء، تتم في مصر على العكس تماماً مما يجري في أي بلد آخر. وكمثال لذلك نجد أن الجيش الجديد قد تم تجنيده أولاً، ثم وضعت نظم التجنيد وأسس الخدمة العسكرية بعد عدة سنوات من ذلك. وهكذا كان الحال بعد أن تم تحديد العدد المطلوب. وتم تكليف حكام المديريات الأربعة عشر ليقوم كل منهم بإرسال عدد من الرجال يتناسب مع عدد سكان مديرياتهم وقد جاء ذلك في مصلحة البلد، لأن الرجال الذين تم الحصول عليهم بهذه الوسيلة كانوا من نوعية أفضل وأكثر ملاءمة للغرض بالمقارنة بما كانوا يحصلون عليهم في السابق.

كانت شروط الخدمة الأصلية تتضمن خدمة العلم لأربعة سنوات. لكن تم بعد ذلك تغييرها لتكون أربعة سنوات في الجيش وأربعة سنوات في البوليس وأربعة سنوات في الاحتياطي. وفي عام

١٨٨٨، وبعد أن وجدوا أن من عدم الحكمة التخلي، بعد انتهاء المدة، عن الذين خدموا في الميدان وتمرسوا في القيام بواجباتهم المختلفة من قدامي الجنود المتدربين، تم تغيير سنوات الخدمة مرة أخري لتصبح ستة سنوات في الجيش وخمسة في البوليس وأربعة في الإحتياط..

تم جمع الرجال في مركز التدريب بالقناطر* ومنها تم تحويلهم، بعد تطبيق الإجراءات الصحبة عليهم، إلي المعسكرات الضخمة في طرة والعباسية بالقرب من القاهرة. تم إنشاء لواءين وبكل لواء أربعة كتائب. قاد اللواء الأول ضباط إنجليز بينما قاد الثاني ضباط مصريون.

قام البريغادير جنرال قرنفل بقيادة اللواء الأول والذي كانت كتائبه بقيادة الضباط التالية أسماؤهم:

- الميجر شيرمسايد مع كابتن كيرك للكتيبة الأولى.
- الميجر هولد سمث مع كابتن شكسبير والملازم ماريوت للثانية.
- الميجر هالام بار مع الملازم بيجوت للثالثة.
- الميجر وين مع الكابتن هاجرد للرابعة.

وظل الضباط الإنجليز يستخدمون الألقاب العسكرية الإنجليزية، لفترة من الوقت، بداخل الجيش المصري. ولكن أتضح بعد ذلك أن خلطاً قد نشأ عندما تداخلت أعمالهم مع أعمال زملائهم من قوات الملكة. ومن ثم منحوا الرتب التركية والتي تعادل الرتب الإنجليزية التالية:

الرتبة الإنجليزية	المقابل في الرتب المصرية
القائد العام	السردار
لفتنانت جنرال	فريق
ميجر جنرال	لواء
كولونيل	أميرالاي
لفتنانت كولونيل	قائمقام
ميجور	بمباشي
أدجوتانت ميجور	صاغكولا قاشي
كابتن	يوزباشي
لفتنانت	ملازم أول
سكند لفتنانت	ملازم ثاني

* القناطر Barrage عبارة عن سد عريض أقيم عبر النيل عند نقطة تفرعه للفرعين المكونين للدلتا (المصرية). كان بناؤه متخلفاً ولذلك ظل حتى وقت قريب عديم الفائدة حتى أوكل أمره في السنوات الأخيرة للسير كولن سكوت مونكريف ومعه مهندسو ري إنجليز والذين قاموا بنجاح بأعمال هندسية واسعة أدت إلى تحسين وسائل الري المصري، وتم حماية مدخل السد بمتراس ترابي ضخم استخدم، عند بداية إنشاء الجيش المصري الجديد، كمركز للتجنيد.

وتحظي رتب السردار والفريق واللواء بلقب "الباشا" بينما ينال الأميرالاي والقائمقام لقب "بك" أما باقي الرتب دون ذلك وحتى درجة الملازم فتلقب "بالأفندي". ولكن تم ترك لقب "افندي" وعدم استخدامه مصحوباً برتب الضباط الإنجليز العاملين في الجيش المصري.

ولا بأس في هذا المجال أن نتعرض لأصول هذه الألقاب التركية:

فكلمة "باشا" يقال أنها مشتقه من الكلمة الفارسية (با) وتعني القدم أو الدعامة، أما كلمة (شاه) أو الملك، فلقب يطلق على القادة العسكريين الأتراك من ذوي الرتب الرفيعة وعلي حكام المديريات. وهو لقب تشريفي فقط كان يطلق علي الأمراء من ذوي الدماء الملكية، لكنه استخدم بعدها علي رئيس الوزراء وأعضاء الديوان وعلي سر العسكر (القائد العام) وعلي القبطان – باشا (وزير البحرية) وعلي (بك البكوات) وغيرهم من المتنفذين من مدنيين أو عسكريين.

والإشارة المميزة للباشا عبارة عن ذيل حصان يتدلى من طرف رمح علي رأسه كرة من ذهب أو فضة. تحمل هذه الشارة أمام الباشا أثناء الحرب عندما يتوجه إلى ساحتها. وأمام أبواب منازلهم تنصب كرة أو كرتين أو ثلاثة من الذهب أو الفضة محاطة بريشة بيضاء أو قرمزية. وتتميز الدرجات الثلاثة للباشوات عن بعضها بعدد ذيول الحصان أو الكرات. فثلاثة مثلاً تعني أن صاحبها من درجة عالية الرفعة، وكلهم من الذين لديهم لقب الوزير. أما الباشوات ممن لهم ذيلين فهم عادة حكام أكثر المديريات أهمية. والرتبة الأدنى، ذات الذيل الواحد، تملأ عادة بالسناجق أو حكام المديريات الثانوية. والباشا في مديريته هو القائد العسكري والمسئول العدلي ويتولى المنصب طالما رضي السلطان عنه. كانت سلطاتهم مطلقة، من قبل، خلال مناطقهم وكانوا يمارسونها بصرامة وإستبداد، ولكن تم الآن ضباط هذه الممارسات لحد ما. وإذا ما أثارت ثروة الباشا أو نفوذه المتصاعد مخاوف السلطان أو جشعه فأن الباشا سيئ الحظ سرعان ما يبعد من منصبه، وغالباً ما يتم ذلك على يد الجلاد، وتصادر أمواله وممتلكاته، والتي غالباً، جاءت نتيجة للاغتصاب والظلم.

هذه كانت سمات الباشا ومهامه. لكن جري بعد ذلك تقسيم هذه الرتبة إلي درجات عشر. الأولي خاصة برئيس الوزراء أو الوزير الأعظم، والثانية للوزراء، والثالثة لأصهار الأسرة الحاكمة، والرابعة للوزراء والمستشارين عموماً، والخامسة لحملة لقب "المشير"، بدون أن يكونوا وزراء، مثل حكام المديريات الكبيرة وقواد الجيش والمدنيين ذوي المراكز المماثلة، والرتبة السادسة تعطي للولاة (حكام العموم)، والسابعة لمن يحمل رتبة الفريق في الجيش، والثامنة لبك البكوات، والتاسعة للميرمران (أو أمير الأمراء) وهم المدنيون الذين يتولون مناصب الحكام للمديريات الصغيرة، والرتبة العاشرة لأمير اللواء، وهو لقب يعادل الرتبة الإنجليزية للميجر جنرال أو البريجادير جنرال والتي تختصر باسم لواء – باشا.

أما البي أو البك، وهي كلمة تركية، فتعني "الأمير"، أو إبن الملك. وفي الأيام الأولي للإمبراطورية التركية كان هذا اللقب أعلي مقاماً من الباشا وكان لا يطلق أبداً إلا علي أبناء السلاطين والملوك، وهو معادل للقب الفارسي خان أو شاه. ثم أطلق على حكام المديريات (والولايات) ومنذ القرن السابع عشر كان حاكم تونس يلقب به دائماً.

أما الآن فأصبح يطلق، من باب الاحترام، على أبناء الباشوات ولكبار الموظفين ولضباط البحرية والعسكريين من رتبة كولونيل ولفتنانت كولونيل (أميرالاي وقائمقام).

ورتبة "الأميرالاى" المعادلة للرتبة الإنجليزية "كولونيل" اسم مشتق من "مير"، وهو تحريف لاسم أمير، ويعني الزعيم أيضاً، واسم ألاى (كتيبة باللغة التركية) وبالتالي يعني "قائد الكتيبة".

أما القائمقام فهو المقابل التركي للفتنانت كولونيل الإنجليزي. وهو مشتق من الكلمة العربية "قائم" وتعني الشخص الواقف وكلمة "مقام" أو "مكان". من هنا فأن القائم مقام يعني الشخص الذي يقف في مكان الأميرالاي، أي نائبه في قيادة الكتيبة.

بنباشي أو بمباشي مشتقة من كلمة (بن) التركية بمعني ١٠٠٠ وباش (الرئيس أو القائد). أي أن الاسم يعني قائد ١٠٠٠ رجل وهو ما يعادل رتبة الميجور الإنجليزية.

يوزباشي هو المعادل للكابتن، ويعني قائد المائة. لأن (يوز) هي التركية للمائة وباش هو القائد أو الزعيم.

الصاغكولا غاشي هي رتبة وسيطة بين الميجور والكابتن وتم إدخالها للغة الإنجليزية للرتبة المسماة أدجوتانت ميجور. وهي مشتقة من كلمة (صاغ) أي اليد اليمني بالتركية و "كول" أو الطابور بالتركية وأغا (التي تعني أفندي بالتركية). أي أن هذا اللقب يعني "قائد الجناح الأيمن".*

ملازم أول هو المعادل التركي لرتبة لفتنانت مع إضافة "أول" لها.

ملازم ثاني " " " " "ثاني" لها.

أما رتبة صول كولاغاسي، أو قائد الجناح الأيسر فتعطي لمساعد الضابط الذي يأتي بعد الملازم ثاني، ويعادل رتبة كوارتر ماستر الإنجليزية.

باشجاويش تعادل رتبة سيرجنت ميجر الإنجليزية وهي كلمة مشتقة من (باشي)، أي رئيس، وجاويش (أو شاويش) المقابل التركي للسيرجنت.

بلك أمين تعادل رتبة كوارتر ماستر سيرجنت، وهي مشتقة من كلمة (بلك) التركية للفصيل وأمين العربية. أي أنه الرجل الموكل إليه العناية بالفصيل. هذا ويعمل البلك أمين مباشرة تحت الصول.

أنباشي أو أمباشي تشير إلى رتبة كوربورال. وتعني بالتركية رئيس العشرة (أون تعني عشرة بالتركية، وباشي تعني الرئيسي).

***

اللواء الثاني، أو اللواء الوطني، كان يقوده اللواء شهدي باشا. وتتبعه الكتائب المشكلة التالية:

- الكتيبة الخامسة بقيادة القائم مقام عبدالرحمن بك سالم.
- الكتيبة السادسة بقيادة القائم مقام خورشيد بك بسمي.
- الكتيبة السابعة بقيادة القائم مقام إبراهيم بك خليل.
- الكتيبة الثامنة بقيادة القائمقام على بك يوسف.

---

* أغا تعني في الأصل "الأخ الأكبر". وهي تستخدم الان للموظفين المدنيين والعسكريين الذين لم ينالوا التعليم المناسب. وفي هذا الصدد فأن كلمة "أفندي" لاتطلق إلا على الذين نالوا حظاً معقولاً من التعليم.

أما المدفعية فكان يقودها اللفتنانت كولونيل دنكان، ومعه الكابتن ودهاوس والملازمين بارسونز ورندل وكارتر. أما اللفتنانت كولونيل تايلور، من الهوسار التاسعة عشر، فكان قائداً للخيالة ومعه الكابتن كتشنر، من المهندسين الملكيين، كنائبه في القيادة، ومعه الملازم سنكلير. كما تم تشكيل وحدة للهجانة بقيادة الملازم تشاملي تيرنر.

وكان اللفتنانت كولونيل فريزر (من المهندسين الملكيين) يقوم بعمل الأدجوتانت جنرال ويساعده في ذلك الكابتن سليد. أما وظيفة مدير المساحة فتولاها الميجور واطسن من المهندسين الملكيين.

وقد أنضم اللفتنانت مانتل (من المهندسين الملكيين) إلي الجيش المصري بعد شهر من ذلك وقام، من المكتب الطبوغرافي للكونت دللا سالا باشا، بالعمل الهام جداً بترجمة كتاب "التدريب العسكري"الإنجليزي وغيره من الكتب إلي اللغة العربية.

ولقد أدهش حماسهم للتدريب العسكري للمجندين كل من شاهدهم. فقد كانوا يمضون الكثير من وقت راحتهم وسط الرجال يمرنونهم ويعيدون التمرين والتدريب. وكانت قدرات المتدربين عالية في تقليد معلميهم وبرعوا في تمارين السنكي. لكنهم واجهوا صعوبة في استخدام البنادق. وكانت وسائل الإمساك بالبندقية، واستخدام جهاز التسديد، وأهمية الزناد، كالبدع والغرائب بالنسبة لهم ولفترة طويلة. ولما جاء دور الحسابات الدقيقة للتعامل مع درجة سرعة الرياح الجانبية، ثم حسم الأمر بواسطة الضابط المسئول لعد أن قام بتقديم مجموعة إطلاق النار لستة ياردات باتجاه الريح. ومن المثير للإهتمام أن نتذكر فشل التدريبات على استخدام البندقية قبل سبعة سنوات مقارنة بالذي يحدث الآن من كفاءة الجنود، في جيش صاحب السمو، من دقة في التصويب والذي وصل إلي مستويات لا تختلف كثيراً عن مستويات القوات الأوروبية. وهذا مثل جيد للطاعة والرغبة في التعليم التي غرسها السير إفلين وود في قواته.

كانت الأوامر العسكرية تصدر أساساً باللغة التركية لكن واحداً من الأوامر المبكرة التي صدرت للجنود، عندما لم يكونوا يتحركون بسرعة عند سماع الأمر "يورو"، هي إستخدام كلمة "مارش". وهي الحالة الوحيدة التي دخلت فيها كلمة أجنبية ضمن الأوامر المعروفة.

وفي يناير ١٨٨٣ حدد السير إفلين وود التشكيل التالي لهيكل الجيش المصري:

البيان	الضباط الإنجليز	الضباط الوطنيون والأطباء والوعاظ	ضباط الصف	الانفار، بما فيهم السقايين	الخيول	الكتبة والموظفون	ضاربوا الطبول ونافخو الأبواق
هيئة مكتب وزير الحربية	١	١١	٦	١١	١٤	٤٤	–
هيئة الأركان	٤	١٠	١	٥	١٠	٢	–
الضباط الافيون	٤	–	–	–	–	–	–
أركان حرب المدفعية	١	١	–	–	٣	١	–
أركان حرب المشاة: اللواء الأول	١	٢	–	–	٤	١	–
اللواء الثاني	–	٣	–	–	٤	١	–
الخيالة: فوج واحد	٢	٢٣	٧٥	٤١٧	٥٣٠	١	١٢
المدفعية: بطاريتين من ستة مدافع	٤	٨	٤٠	٢٢٠	١٨٦	–	٤
بطاريتين من أربعة مدافع	–	٨	٣٠	١٤٤	١٣٠	–	٤
المشاة اللواء الأول (٤ كتائب)	٨	٨٤	٣٤٣	١٨٢٤	٢٦	٤	٩٦

اللواء الثني (٤ كتائب)	-	٨٨	٣٤٣	١٨٢٤	٢٤	٤	٩٦
موسيقى المدفعية والخيالة	-	١	٧	٢٣	٢١	-	-
موسيقى الألوية (اثنين)	-	٢	٢٢	٦٨	-	-	-
إدارة المعسكرات		٣	-	-	٢	١	-
مقترحات للزيادة: فصائل الهجانة	١	٤	٢٠*	١٧٨	٦	١	٢
فرقة المهندسين	١	٣	١٠	٨٨	١	١	٢
مدفعية السواحل	-	٢	١٠	٩٠	١	١	-
التشكيل المقترح	٢٧*	٢٥٢	٨٩٦	٤٨٥٨**	٩٧٢	٦٢	٢١٦
الموجود في ٢٨ يناير	١٨	٢٢٧	٨٠٨	١٦٣٩	٥٥٢	٥٦	٢٦
العجز الواجب إكماله	٩	٢٥	٨٨	٣٢١٩	٤٢٠	٦	١٩٠

* عشرون جملاً عربياً.
* تم فتح باب الطلبات، أو سيفتح، لاستخدام هؤلاء الضباط.
** هذا المجموع يتضمن الممرضين بالمستشفيات العسكرية وجنود حملة النقل والترحيل.

لكن النظام وسير عمليات التدريب العسكري لم تمض بدون عقبات. ففي أغسطس ١٨٨٣ هجمت الكوليرا على القطر المصري وتم إنشاء مصلحة طبية علي عجل[****] وتم تأمين خدمات الدكتور أكلاند والذي، بفضل جهوده ومهارته، كانت الخسائر من جراء ذلك المرض قليلة نسبياً. كما تم الإنتداب المؤقت للسير جن ميجر (الجراح) روجرز[*] للجيش المصري. وتم عن طريق عونه ومساعدته إنشاء المستشفيات وتطبيق اللوائح.

أوكلت الترتيبات لمنع انتشار المرض للعناية الشخصية للجنرال فرنفل وقد تم القيام بكل ما هو مستطاع عمله. لكنه كان يوماً حزيناً لسعادة القائد العام، عندما مر وسط الصف الطويل للأسرة التي رقد فيها جنوده المصابين بالكوليرا. وربما تذكر (فيما بعد) ذلك المنظر عندما ركب مع صاحب السمو الملكي أمير ويلز وعرض عليه القوات التي قامت بالهجوم علي توشكي، والتي حملت علي راياتها أسماء أكثر من معركة مشرفة خاضتها.

وفي الحادي والثلاثين من مارس قام سعادة القائد العام باستعراض جيشه الفتي، وتلقى التهاني الحارة من اللورد دو فرين على التقدم الذي تم. فقد كان هناك ٣٥٠٠ من الضباط والجنود وبطارية من ستة مدافع، أمامه في أرض الطابور.

ولا بأس الآن في عرض صورة لسيرة جندي مصري بدءاً من دخوله سلك المجندين وحتى اكتمال جاهزيته:

ففي مختلف المديريات توجد مراكز للجان التجنيد، فتألف من ضباط وطنيين، بأشراف مفتشين طبيين من الضباط الإنجليز، يتولون فحص كل الشبان الذين بلغوا سن التجنيد، أي تسعة عشر عاماً. وقبل وصول اللجنة للمركز يقوم الشيوخ بتحضير قائمة (المرشحين) طبقاً "لدفتر الأرنيك" أو دفتر المواليد. والذي يقدم للجنة. تقوم اللجنة بدراسة كل الحالات ثم تتم القرعة للذين تثبت صلاحيتهم الصحية، من الذين لا تنطبق عليهم شروط الإعفاء.[**]

ويتم الاحتفاظ بسجلات للمجندين من كل مديرية، في المكتب الرئيسي للتجنيد بالقاهرة, حيث ترقم الأسماء وتحفظ. ولا يتم إستدعاء المجندين للخدمة حتى بلوغهم سن الثالثة والعشرين. وبهذه الطريقة فهناك دائماً حوالي ١٥٠,٠٠٠ إسم بالقوائم تتفاوت أعمارهم ما بين التاسعة عشر إلي ثلاثة وعشرين عاماً.

وعدد الذين يحتاجون إليهم للخدمة سنوياً، للإحلال محل (الخسائر) في جيش مكون من ١٢٠٠٠ رجل، لا يتجاوز ١٢٠٠ – ١٥٠٠ رجل. وبالتالي فأن عبء التجنيد لا يكون ثقيلاً بالمرة. وهناك عدة إدارات أخرى تحصل على مجنديها بهذه الطريقة، لكن طلباتهم السنوية قليلة جداً لدرجة إنها قد لا تكون جديرة بالاعتبار.

[****] خلال الأيام الأولي لإنفجار المرض، شعر الجميع بمدي الحوجة لوجود إدارة طبية منتظمة. لكن عدداً من الضباط البريطانيين، أبرزهم اللفتنانت تشاملي تيرنر، بذلوا كل ما في وسعهم لرعاية الجنود الذين أصيبوا بالكوليرا. ومن الغريب أن اللفتنانت تيرنر أصيب نفسه بالمرض، ثم تعافي، ليلقي مصرعه بعد شهور غرقاً من النيل في قنا.

[*] إنضم فيما بعد للجيش المصري وأصبح بعد ذلك كبير الأطباء العسكريين. وتحت رعايته إتشكلت إدارة طبية ذات كفاءة ونظام.

[**] ربماتكون القوانين المنظمة للإعفاء من الخدمة العسكرية هنا أكثر ليبرالية من غيرها من الدول. فحوالي ٤٥% من الشبان الذين يمثلون أمام اللجان يتم إعفاؤهم بسبب من الدين أو الظروف العائلية وغير ذلك.

ويمكن للرجل، قبل وبعد التجنيد، التمتع بامتياز "شراء نفسه وإعفائها. لكنه إذا ما دخل بالفعل في خدمة العلم، فلا شئ يمكن أن يعفيه إلا بعد أثبات أنه (وحداني)، أو أنه العائل الوحيد لأسرته، وفي هذه الحالة يعفي من الخدمة*.

وفور إستدعاء المجند للخدمة، فأنه يحول لكتيبة المستودعات بالقاهرة حيث يمر لفترة ثلاثة أشهر من التدريب الميدني وبعدها ينقل لأحدي الكتائب العاملة أما في الحدود أو في سواكن أو في القاهرة. وعند بداية إلتحاقه بالخدمة فأنه يتلقى راتباً سنوياً قدرة ثلاثة جنيهات وستين قرشاً مصرياً**، بخلاف التعيينات وغيرها.

وعندما تتم ترقيته:

- إلى أمباشي يتلقى ٤ جنيهات و ٨٠٠ مليم في السنة.
- إلى شاويش يتلقى ٦ جنيهات في السنة.
- إلى باسجاويش يتلقى ٨ جنيهات و ٠٤٠ مليماً في السنة.
- إلى صف ضابط يتلقى ١٨ جنيهاً في السنة.

ويزداد مرتبه إذا ما تطوع للإستمرار في الخدمة، بعد إنتهاء مدته الأولى في الجيش. أما إذا لم يرغب في التجديد فإنه يحول للعمل في البوليس، حيث يمضي مدة خدمته الثانية. هذا وتلقى الخدمة في البوليس قبولاً أكثر من الخدمة العسكرية وذلك لأسباب عدة أهمها أن المجند عادة ما يرسل للخدمة في بلده أو مديريته، كما أنه يتلقي راتباً أكبر، إضافة لوجود فرصة لإنشاء أسرة له أو لممارسة حياة عادية طبيعية.

أمامي الجيش، فلا توجد "مؤسسة للزواج" للجنود رغم أن معظنهم متزوج بالطبع، لكن زوجاتهم نادراً ما يغادرون القرية.

وعند إنتهاء مدة الخدمة في البوليس فأن المجند يعتبر من الاحتياطي من الدرجة الأولى، وهذا قد يعني صرفه من الخدمة نهائياً لأن الاحتياطي نادراً ما يتم استدعاؤه.

والبوليس***. هو الاحتياطي الأول للجيش. وفي حالة الطوارئ، وعندما يستدعي الأمر زيادة عدد أفراد الجيش من المدربين، فأن مثل هذه الزيادة تؤخذ من صفوف البوليس، والذي بدوره يملأ أماكنه الشاغرة من احتياطي الدرجة الأولى.

ولقد تم أختيار الضباط الوطنيين للجيش الجديد بعناية فائقة من بين صفوف الجيش المحلول. وتم الإسراع في تحديث المدرسة الحربية وسرعان ما خرج منها كوادر جيدة التدريب إنضمت للجيش. وإذا ما أظهر أحدهم كفاءة ومقدرة فسرعان ما يدفعه قادته الضباط للأمام (مترقياً) وكانت النتيجة أن معظم من التحقوا بالجيش عام ١٨٨٣ أصبحوا الآن من الكباتن الموثوق بهم لقيادة وحداتهم، وخاصة بعد أن تلقوا تدريباً متماشياً مع النظم العسكرية الإنجليزية، وأصبحوا من ناحية

---

* بعد بضع سنولت من استدعاء أول مجندين للخدمة، إكتشف أن أكثر من ٥٠٠ منهم جندوا خطأ. كانوا أبناء وحيدين، لذلك تم إعفاؤهم من المزيد من مدة الخدمة، وكان هذا إجراءاً يتسم بالعدل وكانت له ردود فعل ممتازة في أنحاء البلاد.

** الجنيه المصري به ١٠٠٠مليم. وكانت قيمته تزيد على الجنيه الإنجليزي بحوالي ٢٥ مليماً.

*** كانت قيادة البوليس موكلة إلي المرحوم الجنرال فالنتين بيكر باشا، وقد خلفه في منصبه الجنرال تشارلس بيكر باشا.

عامة على معرفة تامة بنظم الطابور والتدريب العسكري البريطاني للمشاة، وبعد أن استوعبوا عدداً ضخماً من الكتب والمراجع العسكرية والتي ترجمت بسرعة للغة العربية.

أما الضابط الإنجليزي فكان يمنح، عند إلتحاقه بالجيش المصري، الرتبة العسكرية الأعلى التالية لرتبته. هذا كقاعدة عامة. ولكن في بعض الحالات كان يترقى لدرجتين أعلى من التي كان عليها في الجيش البريطاني.

وعلى سبيل المثال، فأن السردار، والذي قد يكون في درجة اللواء، قد منح رتبة الفريق باشا، والكولونيل يرقي لرتبة لواء باشا، واللفتنانت كولونيل إلى رتبة الأميـر الاي بـك، والصاغ (الميجر) لرتبة القائمقام بك. أما الكباتن والملازمون الأوائل (صب أو لترن) فينالون رتبة الميجور أو اليمباشي. هذا وهناك بعض الاستثناءات لهذا القانون.

وبداخل الكتائب التي يقودها ضباط إنجليز لا يوجد أي ضباط وطنـي تزيـد رتبتـه علـى صاغكولاغاسي (أو أدجوتانت ميجر). لكن ترقيات هؤلاء إلى الرتب الأعلى فأنها تتم من خلال الكتائب الوطنية وجيوشها، وأيضاً من خلال العمل في الأركان، وهو التنظيم الذي سنصفه فيما يلي باختصار.

والقائد الأعلى للجيش هو سمو الخديوي ووزير حربيته الحالي هو سعادة مصطفي باشا فهمي. من بعده يأتي الوكيل أو وكيل الوزارة للحربية. أما القائد العام التنفيذي للجيش فهو السردار والذي يساعده رؤساء هيئة الأركان وهم الأدجوتانت جنرال والكوارتر ماستر جنرال. والأخير يعمل أيضاً كمدير للمساحة (المساح العام). أما الأدجوتانت جنرال فهو الرجل الثاني في قيادة الجيش (وهو في الوقت الحالي الكولونيل كتشنر، من المهندسين الملكيين). ويقسم مكتبه إلى:

- مكتب الأدجوتانت جنرال (والذي له بدوره فرعين أحدهما إنجليزي والآخر عربي).
- مكتب مساعد السكرتير الحربي
- مكتب مساعد الأوجوتانت جنرال للتجنيد
- مكتب مساعد الأدجوتانت جنرال للمخابرات.

أما الكوارتر ماستر ومدير المساحة (وهو حالياً اللفتنانت كولونيل سـتل، مـن المهندسـين الملكيين)، فيساعده ضابط يسمى مساعد الكوارتر ماستر جنرال، ومساعد لمدير المساحة. وتخضـع لإشرافه مختلف مكاتب الإدارات مثل الكومساريات (إدارة أطعمة الجيش)، والمخـازن والإمـدادات، والدفعيات، والقسم الهندسي، وأقسام أخري ذات أهمية للبلاد. والمكاتب الثلاثة الأخيرة كلهـا تحـت إشراف ضباط إنجليز، بينما القسم الهندسي، والذي يضم الترسانات والمصانع وغيرهـا هـو تحـت مسئولية ضابط فرنسي (جينو باشا). وكل تلك المكاتب، بما فيها مكاتـب كبيـر الضـباط الطبيـين (السيرجون ميجور روجرز). يطلق عليها إسم مكتب الحرب* أما وظائف الدرجات الدنيا، إضافة إلى التي ذكرناها من قبل، فيتولاها ضباط وطنيون. أما الأعمال الكتابية فتجري فـي القسـم الإنجليـزي بواسطة كتبة عسكريين بريطانيين وهيئة من ضباط الصف والذين يبلغ عددهم ٣٣ في مجملهم. أمـا في الأقسام الوطنية فتتم الأعمال الكتابية بواسطة كتبة وطنيين ومترجمين.

---

* كان هناك أيضاً "مكتب السودان". الذي يقوم بكل الأعمال المتصلة بالسودان، ولكن تدريجياً، وبعد أن توقفت تلك البلاد من كونها جزءاً من الممتلكات المصرية، فقد تلاشي هذا المكتب وتم تعيين مديره محمد مختار باشـا مسـاعداً للأدجوتانـت جنرال بالقسم العربي.

وإضافة لمكتب الحرب، فهناك المدرسة الحربية التي يشرف عليها ضابط فرنسي (لا رمي باشا) مع قمندان إنجليزي، وبها الآن ١٠٠ طالب حربي من الذين مروا باختبارات المنافسة لدخولها والذين سيتم إستيعابهم، بعد عامين من الدراسة والتدريب، في مختلف فروع الأسلحة. هـذا وتبلـغ الإحتياجات السنوية لهم حوالي خمسين رجلاً.

ومعظم القوات تتمركز حالياً علي الحدود. وهناك كتيبتان, مع بعض قوات الأسلحة الأخرى، تشكل حامية سواكن. أما البقية فيتمركزون في القاهرة والإسكندرية.

أما أعمال الأمن العام فيتولاها جميعاً رجال الشرطة.

***

فيما سبق تم تقديم وصف مختصر عن التنظيم، كما هو عليه اليوم، لأن الهياكـل القائمـة الآن تعطي فكرة أكثر دقة عن الأحوال العادية للجيش أكثر مما يمكن إذا ما وصفنا حالته عند بدايـة تكوينه. لكن علينا أن نتذكر أن التنظيم العسكري القائم الآن، والذي اكتملت هياكله بدرجة طيبة، لم يصل لهذا المستوى العالي الكفاءة إلا منذ عهد قريب. فعند بداية التنظيم ومراحله الأولى لم يكن هناك سوي بضع ضباط بريطانيين ولم يكن من بينهم إلا القليل الذي يعرف اللغة (العربيـة). لقـد نهـض الجيش على أنقاض جيش محلول، وكانت ثورة السودان قد بدأت. وكان من المستحيل القـول متـى يمكن لهذا الجيش المشاركة في الدفاع عن البلاد. لذلك قام السير إفلين وود بتركيز أقصي جهد ممكن له لتدريب الجيش للمستوى الذي يؤهله لتسلم واجباته الميدانية. وابتداء من رئيسهم وحتى أقلهم رتبة، كابد الضباط البريطانيون الأمرين للوصول لهذه الغاية.

وقد مـر الجيـش المصري الجديد، في عامة الأول، بمرحلة من التـدريب الشـاق لكـل المناشط العسكرية حتى أصبح قوة ذات كفاءة. ورغم ذلك، كان هناك الـبعض مـن ذوي التجـارب (المريرة) الذين كانت لهم كل الأسباب لعدم نسيان الكوارث السابقة، والذين تشـككوا فـي القـدرات القتالية للجنود الفلاحين.

فلقد أقنعت الإبادة الشاملة لقوات هكس باشا، حتى أكثر الناس تفاؤلاً، بأن مـن الخطـورة بمكان الإعتماد التام على القوات المصرية في الحروب اللهم إلا إذا ما خضعت لتدريبات شاملة أوسع مما أحرزته حتى الآن. فالجيش المصري الجديد, والذي تم تدريبه بعناية بأشراف ضباط بريطانيين، لا يمكن أبداً مقارنته بالشراذم غير المدربة التي شكلت غالبية قوات هكس باشا وبيكر باشـا. ولازال تاريخ الثورة، حتى الآن، يميل لتأييد أقوال الذين تنبأوا بحلول كارثة إذا ما أرسل الجيش المصـري الفتي للميدان. أكثر من هذا، فأن ذلك يتعارض مع المخطط الأصلي الذي حدد للجيش المصري الجديد بألا يوجه للتقدم نحو السودان. فلقد خصص له الدفاع عن أرض مصر الأصلية فقط. ولذلك، ومهمـا كانت مناشدة الضباط البريطانيين الحارة للسماح لهم بتجربة قواتهم التي دربوها، فقد كانت الإجابـة دائماً سلبية لندائهم.

واستمرت الثورة في الإنتشار بالسودان. وتم التفكير، في بواكير عام ١٨٨٤، بإضافة لواء تركي للجيش المصري. وتم إرسال زهراب بك لألبانيا في مهمة لتجنيد قوات من شبابها، ولكن وقفت في وجهه المشاكل الدبلوماسية. وحتى النواة التي شكلت منهم لتكوين كتيبة سرعان ما تمردت وتـم

حلها بعد جهد بطولي من قائدها، الميجر جرانت، والذي تتبع المتمردين بمفرده حتى الساحة التي تجمعوا فيها، وأفلح في جعل رجالها يلقون بالسلاح، رغم عدة محاولات منهم لطعنه بالسناكي مما دعاه لإستخدام مسدسه دفاعاً عن نفسه.

وأثناء ذلك أخذت أحوال السودان تزداد خطورة يوماً بعد يوم وصار لابد من اقتراح زيادة في أعداد الجيش المصري وتم إضافة الضباط الآتية أسماؤهم إليه:

الرتبة	الاسم	الرتبة	الاسم
ميجور	هير	لفتنانت	تيرنان
ميجور	تروتر	لفتنانت	جب
ميجور	جرانت	لفتنانت	جريجوري
كابتن	هنتر	لفتنانت	بورو
كابتن	مولينو	لفتنانت	دوبني
كابتن	لويد	لفتنانت	مبين
لفتنانت	ايجر	لفتنانت	سورتيز
لفتنانت	هاوتين	لفتنانت	براي
لفتنانت	هكمان	لفتنانت	كولس
لفتنانت	بارتيلو	لفتنانت	لا تيريير
لفتنانت	لوفات	لفتنانت	كراومورد
لفتنانت	ليسونس		

وتغير الموقف العسكري عموماً بدرجة بالغة السرعة. ولما كانت محاولة تشكيل لواء تركي قد فشلت، فقد تقرر تشكيل كتيبة سودانية للخدمة بسواكن.

سميت هذه الكتيبة، والتي أنشئت في أول مايو ١٨٨٤، وكان يقودها الميجر بار، بالكتيبة السودانية التاسعة. ومنذ بداية تشكيلها وحتى وقتنا الحالي فأن الثقة التي وضعها فيها الضباط البريطانيون لم تهتز. لقد قام الدور الرائد لهذه الكتيبة بمهام "العمود الفقري" الذي تفتقده الكتائب المصرية والتي، باشتراكها مع القوات السودانية، تمكنت من إحراز أكثر من نصر مشرف واحد.

ولا ننوي أن نكرر الأحداث المختلفة التي جرت، والتي ستجيء بالتفصيل في أجزاء أخرى من هذا الكتاب، والتي شاركت فيها الكتائب المصرية والسودانية بالجيش الجديد، بل سنتناول بإيجاز ما هو ضروري لربط حلقات السلسلة للتاريخ المبكر لهذا الجيش الفتي، والذي لم يتجاوز عمره الآن السنوات الثمان، مع الأحداث التي سنتناولها، ولنظهر كيف كان أداؤه مرضياً بدءاً من إنشائه بواسطة السير إفلين وود، وحتى الهزيمة الشاملة التي ألحقها هذا الجيش، بقيادة السير فرانسس قرنفل، بود النجومي المشهور. لقد كان ذلك النصر نتيجة للصبر الإنجليزي والمثابرة والدأب، وبرهان على أن الخصال الطيبة الكامنة في نفوس الشرقيين، يمكن تطويرها تحت أشراف البريطانيين، وبدون أن يتوقع أحد ذلك.

يختلف تنظيم الكتائب السودانية لدرجة كبيرة عن تنظيم الكتائب المصرية. فرجال الكتائب السودانية هم في الغالب من الفارين من العدو (البازنقر الذين أشرنا إليهم كثيراً من قبل) وهم جميعاً من المتطوعين. ولأنهم غير مستقرين، فقد سمح لعدد كبير مهم بالزواج ونالوا علاوة إضافية لتلبية إحتياجات زوجاتهم* وهم لا يستوعبون الدروس والتمارين بالسرعة التي يستوعبها المصريون. ولكن، ومن ناحية أخرى، فأنهم يتسمون بالإقدام وبغريزة الدفاع عن النفس. وكثير منهم، وبخاصة الشلك والدينكا، همجيون لحد بالغ وقد أثبتت التجارب أنهم يحتاجون لدرجة كبيرة من السيطرة عليهم خلال المعارك، إذ أن كل ما يرغبون فيه هو "النهوض والقفز إلى" حلوق الإعداء". من هنا فقد كان ضرورياً تنظيمهم في ستة بدلاً عن أربعة فرق، وتخصيص أربعة ضباط إنجليز لكل كتيبة، من ٧٥٩ رجلاً، بدلاً عن ثلاثة ضباط.

وعندما بدأت حملة الإنقاذ عام ١٨٨٤تحركها لنجدة الخرطوم، كانت معظم القوات موزعة علي خطوط الإمداد الطويلة، وقدمت خدمات جليلة، أشار إليها اللورد ولسلي في تقريره الختامي للعمليات بالآتي:

"لقد عمل الضباط والجنود بالجيش المصري، تحت قيادة الجنرال وود وتعليماته المباشرة، على طول تلك الخطوط وبحماس وطاقات لا تعرف الكلل وأحرزوا أفضل النتائج الممكنة لمصلحة الحملة".

وبرز تميز رجال المدفعية المصريين في هذه الحملة وأداءهم، بقيادة ضابط وطني ملحق ببطاريات المدفعية البريطانية، خاصة في معركة أبو طليح. وجاء في تقرير الأداء (أنهم ثابتون وجيدون). وفيما بعد، وفي معركة كربكان كتب الجنرال برا كنبري في تقريره الإضافي الرسمي:

"في تقريري للعاشر من الشهر الحالي (فبراير ١٨٨٥) حول معركة كربكان قمت بدون قصد بإسقاط ذكر الدور الذي لعبته قوات الهجانة المصرية، بقيادة الميجور ماريوت، والذين قاموا، تحت نيران من أمامهم ومن أجنحتهم، بإبقاء صفوفهم في حافة الجبل، الذي استلمه فيما بعد جماعة ستا فورد، وشغلوا العدو وصرفوا انتباهه عن المقدمة.

إنني أعتذر من جانبي على عدم ذكر هذا الدور لأن التصرف الشجاع لفصائل الهجانة، الذين سقط منهم قتيلان وجريح واحد، كان موضوعاً للثناء العام بعد هذه المعركة".

وقامت القوات المصرية أيضاً بواجبها خير قيام وذلك في مختلف الإشتباكات التي جرت حول سواكن وكانت هناك عدة شواهد للشجاعة الشخصية من قبل الجنود المصريين. وهنا يمكن ذكر أحدهم على الخصوص. فقد قام أحد الأنفار بالخيالة المصرية، والذي كان ضمن تشكيلة للاستطلاع مكونة من قوات بريطانية ومصرية في الثالث من فبراير ١٨٨٥، والذين كانوا تحت ضغط شديد من العدو، قام بالترجل والتقط شاويشاً جريحاً من الهوسار التاسعة عشر، والذي كان معرضاً للموت

---

* كل السودانيين المقيمين في مصر خاضعون لقوانين التجنيد. وكقاعدة عامة، فأن هؤلاء الرجال، وبعد طول إقامة في مصر، اعتبروا أقل كفاءة، ولا يعتمد عليهم بنفس الدرجة التي تميز الذين قدموا مباشرة من السودان. وبالتالين وما عدا حالة الكتيبة الثانية عشر، التي كونت في ظروف طوارئ صعبة، فأن الكتائب السودانية لم تتكون من أولئك المجندين (المتمصرين).

حتماً، وأخرجه من ميدان المعركة. وتقديراً لهذا العمل الفردي، قامت صاحبة الجلالة الملكة، والتي سرت سروراً عظيماً، بالإنعام عليه بوسام الخدمة الممتازة الميدانية.

وحتى قبل ذلك التاريخ وبعده، كانت هناك حالات متعددة للبطولات الشخصية للجنود، ويمكن للضباط والقادة أن يوردوا الكثير من الروايات المثيرة عن البطولات الفردية التي أبداها جنودهم في المعارك الأخيرة بأرقين وتوشكي.

تخلي السير إفلين وود عن موقعه كسردار للجيش المصري في مارس ١٨٨٥، وخلفه البريفادير جنرال قرنفل. كما ترك موقعه أيضاً الكولونيل فريزر، وخلفه في مركزه كأدجوتانت جنرال اللفتنانت كولونيل بار. وأثناء ذلك تمت زيادات كبيرة للأفراد بالجيش.

وفي الثاني من يناير ١٨٨٦.أنشئت الكتيبة السودانية العاشرة وأوكلت قيادتها للكابتن دون. وبنهاية فبراير ١٨٨٦، بلغ تعداد الجيش المصري ١٠,٠٠٠ رجل وأصبح يشتمل علي عشرة كتائب مشاة وخمسة بطاريات مدفعية وفرقة للخيالة مكونة من سريتين، وثلاثة أفواج للهجانة. وأصبح جل هذه القوات الآن مكون من جنود متمرسين للدرجة التي تتيح لهم، بالإحتكاك المباشر والمستمر مع القوات البريطانية، الوصول تدرجياً إلي المستوي المرغوب ألا وهو الإعتماد علي النفس.

والمقتطفات التالية من تقرير الكولونيل بار، الذي قدمه إلى المعتمد السامي البريطاني في مصر أوائل عام ١٨٨٦، مثيرة للإهتمام لأنها تظهر مدي التقدم الذي تم إحرازه خلال السنوات الثلاثة السابقة:

" أحدى النتائج المرضية للقتال الأخير هو البرهان على أن درجة العناية والإهتمام التي اتبعت لاختيار الضباط الوطنيين ولتحسين أوضاعهم ولرفع معنوياتهم، قد أثمرت أفضل النتائج. فقد كان أداؤهم مرضياً للغاية وأثبت عدد منهم بطولات فذة.

ومتوسط مدة خدمة ضباط الصف المصريين والجنود، الذين هم الآن بالجبهة، هي حوالي عامين ونصف العام.

وبعودة إلى العلاقات بين الضباط الإنجليز والضباط والجنود المصريين، ولأنني قدت من قبل كتيبة مصرية لحوالي عامين، وكنت على صلة حميمة ومعرفة بمشاعر وأحاسيس كل الرتب في فوجي، لا أجد نفسي إلا متحدثاً عنهم وعن أدائهم بايجابية تامة.

فخلال الشهور الأربعة الأولى بعد تكوين الجيش قمنا بعمل شاق لكسب ثقة الضباط، والذين كان أسوأهم وأكثرهم عجزاً عن القيام بأي شئ حسن، قادراً على أتيان كل الشرور التي يمكن تصورها. ولكن قليلاً قليلاً بدأ الضباط المصريون والإنجليز بفهم أساليب بعضهم البعض وطريقة تفكيرهم.

تم استئصال الضباط الرديئين وحل محلهم الشبان الذين تدربوا في المدارس الحربية. وسرعان ما تلاشي الضباط الذين صعدوا من بين الصفوف، والذين تعودوا على الشرور والعادات الرديئة للجيش القديم، وتم التخلص منهم.

وفيما يختص برجال الجيش، فأن المعاملة العادلة الصارمة، والكساء والتعيينات التي لا تلاعب بها، والمرتبات غير الناقصة، سرعان ما جعلتهم راضين وسعداء بعملهم وساد الشعور الطيب بين الضباط الإنجليز وجنودهم وهو الأمر الذي أصبح واضحاً في عدة مجالات.

ولما كانت كتيبتي قد كونت قبل عام، وبعد الكارثة التي حلت بالجنرال بيكر في فبراير ١٨٨٤، وعندما كان الذهاب للسودان يعني الذهاب للموت المؤكد، فقد طلبت ستة متطوعين للذهاب معي لسواكن كمدربين عسكريين. وما أن عرفوا بأنني وميجر إنجليزي من كتيبتي ذاهبان، حتى تطوع ١٥٠ رجلاً وكان بإمكاني إصطحاب كل الكتيبة إذا ما تطلب الأمر ذلك.

وحالياً، وبعد ثلاثة سنوات، أصبح الشعور السائد بين جميع الرتب مرضياً للغاية. وبالنسبة للضباط الإنجليز فقد أصبح الكثيرون منهم ملتصقين بزملائهم الجدد حتى أن هذا الأمر أصبح موضوعاً للتندر والتعليقات الطريفة من جانب زملائهم الضباط في جيش الإحتلال. وهذه المشاعر نفسها إنعكست على الضباط الوطنيين وجنودهم.

ولم تكن هذه المشاعر الدافئة، بين الضباط الإنجليز بالجيش المصري والضباط الوطنيين وجنودهم فقط، بل صار هناك تقارب واضح وإلفة بين الجيش الإنجليزي والضباط المصريين وجنودهم.

وحديث عن الجنرال فريمانتل. فقد كان محبوباً لدي قواته المصرية في سواكن لدرجة أنه، عند ما غادر القاهرة في الشهر الماضي قام عدد ضخم من الضباط والجنود، الذين كانوا تحت قيادته، بوداعه رغم أن ساعة مغادرته لم تكن متوقعة بدرجة أو بأخرى.

كما أن عدداً من الضباط المصريين حضروا من تلقاء أنفسهم جنازة المرحوم الكولونيل بارو، والذي حدثت وفاته غير المتوقعة هذه الأيام. ربما كان أولئك المعزون قشاً، لكنهم أظهروا إلى أي اتجاه كانت تهب الريح.

لكن بداخل القرى، كانت للمشاعر الدافئة بين المصريين ضباطاً وجنوداً، وبين ضباطهم الإنجليز، أكبر الأثر وأوضحه. فقد كان الرجال يعودون، في أجازاتهم، إلى قراهم وجيوبهم مكتظة بالمال، وعلي سيماهم طيب التغذية والهندام الحسن، ويروون الحكايات الطويلة لأهلهم عن الضباط الإنجليز. وقد قال أحد الجنود لضابطه الإنجليزي ذات يوم:" عندما كان يعود جندي من الجيش القديم لقريته فأنه يتسلل منها هارباً كالكلب، وهو سعيد لأن شيخ القرية لم يضربه. لكنني عندما عدت للقرية فقد سألني الشيخ إن كان معي بعض البن، ورجاني أن أحدثه بالأخبار".

وحتى التغيير الذي حدث للمجندين كان واضحاً للعيان. ففي المقام الأول كان لاستخدام نظام القرعة العادلة أثر علي الطبقات الثرية من الفلاحين وصغار التجار. ولم يعد الناس يخشون نداء التجنيد وكأنه حكم بالإعدام. وقبل بضعة أيام ذهبت إلى العباسية فوجدت جماعة من الفلاحين جالسين على مرتفع صغير وهم يدخنون ويتبادلون الحديث أثناء مشاهدتهم لكتيبة تحت التدريب. فقلت لهم:" ماذا تفعلون هنا؟" فأجابوني:" نعم. إننا من الجنود الجدد ونحن نراقب تدريبات الجنود هناك". فقلت لهم:" أظن أن هذا وقت سيء لكم لتركم قراكم وحقولكم" فقالوا:" حسناً. إن البعض منا غير سعيد لكننا، على أية حال، يجب أن نأخذ دورنا أيضاً ولا نرى على وجوه هؤلاء الجنود سوى الإرتياح والسرور".

نعم. هذا تغيير واضح لما كان عليه الحال من قبل عندما كان المجند للجيش المصري يقاد مكبلاً بالجنازير بواسطة البوليس ووراءه جمع من المنتحبين والباكين والثكلى.

ومن المدهش أيضاً سلوك النساء وأقارب الجنود الذي أبدوه عندما غادرت آخر الأفواج للجهبة. فبدلاً من النسوة اللاتي يلقين بأنفسهن على الأرض، بكل ما في أحزان الشرق من هياج وانفعال، لم نجد إلا القليل منهن يبكين في صمت. ورغم هذا لم يسلمن من تقريع رفيقاتهن لهن:" تمنوا لهم الحظ السعيد، فعلي رجالكن الذهاب للحرب، وسيعودون إليكن قريباً".

مثل هذه اللهجة لم تسمع منذ أن غادر المتطوعون، الذين يقال بأنهم قدموا أنفسهم صيف ١٨٨٢، متطوعين، عندما كان عرابي باشا في السلطة، القاهرة. وحتى اليوم لا يخلو الجيش المصري الجديد من الرجال الذين يتطوعون بمحض إرادتهم للخدمة. ونادراً ما يمر يوم ولا نجد فيه من يتطوع للتجنيد من الرجال، بينما رأينا قسماً كبيراً من الرجال" الذين عملوا في حملة النقل للقوات البريطانية بسواكن عام ١٨٨٤، والذين كوفئوا بصرفهم عن الخدمة" يعملون على أعادة التطوع من تلقاء أنفسهم.

وفي الختام لدي تعليق خاص بالخدمة الإلزامية في مصر مقارنة بما يحدث في أوروبا. ففي مصر فأن القانون الخاص بها يعتبر متسامحاً متساهلاً بالنسبة للمصريين. ففي جيش تعداده ٨٠٠٠ رجل فأن قوائم التجنيد تورد أكثر من ٧٠٠٠٠ شاب من المعتبرين صالحين تماماً للتجنيد، بعد إجراء الكشف الطبي عليهم بواسطة طبيب القرعة، وتم تطبيق كل ما يمكن من إعفاءات عليهم (وإعادة معظمهم إلي قراهم)... انتهى تقرير الكولونيل بار.

***

وليس هناك إلا القليل الذي يمكن إضافته الآن. فقد أثبتت أحداث أعوام ١٨٨٧، ١٨٨٨، ١٨٨٩، بأن تقدماً مضطرداً قد أحرز. وكلما هبط تعداد جيش الاحتلال البريطاني، إذداد تعداد الجيش الوطني.

وعندما تم إعادة تنظيم قوات الشرطة عام ١٨٨٧، تم تحويل جنود الاحتياط السودانيين إلي الجيش وأصبحوا يشكلون الكتيبة السودانية الحادية عشر، تحت قيادة الكابتن مكدونالد. وتم تشكيل الكتيبة السودانية الثانية عشر في ١٣ نوفمبر ١٨٨٨ بقيادة الكابتن بيسانت، بينما شكلت كتيبة سودانية أخري (الثالثة عشر) في ٢١ يونيه ١٨٨٦، تحت قيادة الكابتن سميث دورين. وتمت زيادات كبيرة في عدد أفراد مختلف الأسلحة وصار عدد القوات جميعاً الآن ١٢٦٣٣ ضابطاً وصف ضابط وجندي، يشكلون ١٤ كتيبة للمشاة (بما فيها كتيبة المخازن والإمدادات) و ٥ أفواج للخيالة و ٦ بطاريات مدفعية وفصيلين للهجانة، إضافة لهيئات العاملين والإدارات المختلفة وغيرها. وجميعهم موزعون بين سواكن والحدود وفي القاهرة والاسكندرية*. وإذداد عدد الضباط البريطانيين كثيراً ليصل عددهم الآن إلي ٦٤ ضابطاً**. وإضافة لهؤلاء فهناك أكثر من ٥٠٠ من (الضباط) العاملين في الخدمة النشطة***. وحوالي ١٥٠ يتناولون نصف مرتب وأكثر من ١١٤٢ ضابطاً في المعاش.

---

* قوة الكتيبة المصرية ٦٦٨ رجلاً لكل منها.
قوة الكتيبة السودانية ٧٥٩ رجلاً لكل منها.
قوة بطاريات الخيول ١٣٧ رجلاً.
قوة بطاريتي الميدان ١١٣ رجلاً لكل بطارية.
٣ بطاريات للحاميات قوة كل منها ١٦٦.
قوة الخيالة ٧٧٣ رجلاً.
قوة كل فصيل هجانة ١٥٢ رجلاً.

** من بين هؤلاء ٦ يحملون رتبة الباشا و٤ رتبة أمير الاي بك و ١٦ قائمقام بك و ٣٨ بمباشي.

*** من بين هؤلاء ٤ يحملون رتبة الباشوية و ٢ رتبة أمير الاي بك و ١٣ قائمقام بك و٢٣ بمباشي و ٣٨ صاغكولاغاسي و ١٢٧ يوزباشي و ١٥٠ ملازم أول و ١٥٠ ملازم ثاني.

القسم الثامن
أحداث عام (١٨٨٥)

الملخص:

الخرطوم بعد سقوطها – المهدي يجعلها رئاسة له – عصر الإرهاب – المهدي ينقل رئاسته لأم درمان – وفاة محمد أحمد – منشوره الخاص بعبد الله التعايشي – الخليفة عبد الله التعايشي يخلف المهدي – الرؤيا التي رآها – قصة الشعرة – الأمر بالحج إلي قبر المهدي – وصية المهدي – منشور الخليفة لأهالي دارفور – أثر وفاة المهدي علي السودان عموماً – حاميات سنار وكسلا – دور المرآة في ثورة السودان – حصار وسقوط سنار – صورة وصفية لسيرة ود النجومي – خطاب الخليفة إليه – حصار كسلا – حصار الجيرة – حصار القلابات – خطاب من مديرها لغردون – الكولونيل شيرمسايد يبحث مع الملك يوحنا إنقاذ الحاميات المصرية التي علي حدود الحبشة – إنقاذ حامية القلابات – وصول حاميتي أماديب وسنهيت لمصوع – حملة الجنرال جراهام إلي سواكن – معركة هشين – زريبة مانيل – موقف القبائل في شرق السودان – محاولات كسب الحباب للمهدية – حصار كسلا – السيد (محمد) عثمان الميرغني – تدهور نفوذ المهدية على مشارف سواكن – تأثير وفاة المهدي علي كسلا – الصراعات بين القبائل – مدير كسلا يوافق علي وقف العدائيات لثلاثة شهور – وصول عثمان دقنة لكسلا – الراس ألولا يصمم على محاولة إنقاذ كسلا – العرب يتحدون الحبش – معركة كوفيت – هزيمة عثمان دقنة – الأحباش يحررون الجيرة – سفينة صاحبة الجلالة الحربية"جرابلر" تشتت شمل البشاريين في خور شيناب – كنتباي، شيخ الحباب – الحالة في أم درمان والخرطوم – وفي كردفان – ثورة القوات المصرية (النوبة في الأبيض)- موت الأمير الشريف محمود. عثمان ود آدم (جانو) يخلفه – حملة أبو عنجة – الملك أدم ملك تقلي – دارفور وبحر الغزال – ثورة مادبو – كرم الله يرسل كتمبور للقبض عليه – الاستوائية – رسالة كرم الله لأمين – حصار بور – الهجوم من أمادي – مجلس من الضباط يقرر سحب الحاميات الشمالية والتركيو باتجاه الجنوب – إعادة تنظيم وتوزيع الحامية – أمين يتوجه لقندكورو – كرم الله يغادر أمادى للشمال- رؤية أمين وتصوره للوضع الراهن- مباحثات مع كباريقا – الثورة المحلية في اللادو- ثورة الباريا – دكتور ينكر يتوجه إلى كباريقا – تقلص الأستوائية – غزو مصر – الخطة – الخليفة يصف متاع الجنة ومباهجها – تفكك طابور النيل – قوات الحدود الميدانية بقيادة الجنرال قرنفل – الجنرال بتلر يقود اللواء المتقدم ويتخذ إنهيار حكومة دنقلا المحلية – تقدم العرب – تنظيم الباخرة المدرعة لوتس ذات البدال الخلفي – الهجوم على مقراكة – العدو يستولى على قرية كوشة – الصخرة السوداء وأجمة النخيل – هجوم الكمرون – هايلاندرس (والكتيبة) السودانية التاسعة – قيام الجنرال بتلر بالإستطلاع – وصول الجنرال السير إف. ستيفنسون وتسلمه للقيادة – تركيز القوات في فركة – خطة الهجوم – معركة جنس.

***

وظلت المدينة المستباحة والجائعة ليومين تحت النهب والسلب من قبل ١٠٠,٠٠٠ من العرب. ثم، كما جاء في قول لأحد أبنائها، " وفي اليوم الثالث (يوم المصريين يبدأ بالليل) من سقوط الخرطوم، وفي تمام الثانية ظهراً, جاءت باخرتان تقلان علي ظهرهما رجالاً من الإنجليز. رماهم الثوار بالنار من كل جانب، لكنهم بعد أن وجدوا أن الخرطوم أصبحت في أيدي العرب، تراجعوا وإختفوا".

وكان المهدي قد أصدر منشوراً يوم السابع والعشرين يهدد فيه بأنه لن يترك أي تركي على قيد الحياة. لكنه في الوقت الحالي انشغل بتأمين قبضته علي الجموع الهائجة الذين كان إنضباطهم، غير الحسن أبداً، قد أختفي في فورة النهب والسلب. وبمساعدة خليفته الأكبر عبد الله تمكن سريعاً من إستعادة النظام. وقام باستدعاء جميع التجار وقدم لهم الخيارات التالية:

"إما أن تحرق ممتلكاتهم (المنقولة) وبضائعهم، أو يلقي بها في النيل، أو توضع في بيت المال".

وقد تم قبول الخيار الأخير بالطبع. وأوكل إلي أحمد سليمان (جعلي) بأستلام تلك البضائع الهائلة المحتوية علي كل نوع وصنف، ما عدا المؤن والأطعمة، وإدارتها. وسرعان ما دارت عجلة العمل في ترسانة السفن ودار صناعة الأسلحة وباقي الورش. ولم يتم تجاهل دور الطباعة وما أسرع ما أعيد تشغيل مطبعة الحجر. تمت صيانة ما تعطل من البواخر، وضربت العملة أو سبكت (سنناقش أمر العملة فيما بعد) في دار مرتجلة لضرب العملة، كما كان مصنع الذخيرة أكثرهم نشاطاً.

وبهذا تم استخدام عدد كبير من العمال المصريين، وكانت أحوالهم طيبة لحسن المرتبات التي يتسلمونها. واستعادت المدينة شيئاً من طبيعتها وأنشطتها السابقة.

ثم بدأ عهد من الرعب يسود بين العرب. ونشطت لجان التفتيش ليلاً ونهاراً بينهم، تحقق وتدقق، ولم يعد يجرؤ أي رجل على ادعاء أن روحه هي ملك له. كانت نفس الضرورات التي تدفع السلطان الشرقي لقتل أقاربه عند توليه العرش هي التي تدفع جهود محمد أحمد الآن لتوطيد سلطانه. وكانت المحكمة تنعقد ليلاً ونهاراً، تستمع إلي التهم الملفقة ولشهود الزور الذين يشهدون ضد صغار الزعماء والشيوخ والذين فقد معظمهم رؤوسهم وحل محلهم في السلطة والنفوذ عبيدهم السابقون. وفي هذه الإثناء حل المرض بالآلاف من الناس وقتلهم وكانت حصيلة الموتى من جراء الجدري، المنتشر في السودان*، قد صعدت إلى الرقم المذهل، وهو موت ٤٠٠ – ٥٠٠ (مواطن) يومياً.

في باكورة فبراير ١٨٨٥، تم تحويل الرئاسة لأم درمان، إذ لا تتيح الخرطوم للرجل المكروه، الذي يخشاه الناس، مكاناً أمناً يخلو فيه لملذاته. أما الغموض، وهو عنصر هام في تكوين

---

*تعليق من المعرب:-

يقول المؤرخ السوداني الأستاذ / عبد المحمود أبو شامة: أن غردون، بمساعدة من إبراهيم فوزي باشا والدكتور نيكولا، قام بتصنيع وإنتاج كمية كبيرة من السوائل المحتوية على ميكروب الجدري ووضعها بداخل الجلل التي تقذفها المدافع على جموع الأنصار المحاصرين للخرطوم.

وكانت النتيجة هي ما تحدث عنها ونجت، بعد أن أخفي المصدر الشرير لها وهو غردون. هذا وقد استخدمت حملة الإنقاذ البريطانية أيضاً علب اللحوم المحفوظة، والملوثة عمداً بميكروب التيفويد، لتتركها في معسكراتها المهجورة حتى يأكلها الأنصار. أنظر كتاب الأستاذ عبد المحمود"من أبا إلى تسلهاى، المطبعة العسكرية، ١٩٨٧" صفحة ١٦٥ – ١٦٨ للجدري وصفحة ٣١٦ للتيفويد.. والشكر أجزله للسيدة رباح الصادق المهدي التي تكرمت بإهدائي الكتاب. (المعرب)

المدعي، فمن السهل الحفاظ عليه في أم درمان. وهنا كانت تحضر إليها سراً صناديق الذخيرة التي كانت تنتج كل يوم.

وأخيراً شعر المهدي وخليفته بالأمان التام الذي يتيح لهما الاستمتاع بالراحة وانتظار السقوط السريع لكسلا وسنار بكل ثقة. لكن هذه الراحة هي التي كانت القاتلة لمحمد أحمد. فقد جرت القصة كما يلي:

"إن أحدى النساء، وهي إبنة لتاجر من المدينة كان قد فقد أطفاله ونساءه وثروته وكل شئ أثناء الحصار الطويل، استسلمت لنوبة من الإنفعال الشديد والغضب وإنتقمت منه إنتقاماً رهيباً. وفي ليلة الرابع عشر من يونيه دست للنبي الفاجر وزير النساء سماً زعافاً. وبعد أيام من معاناة سكرة الموت توفي في الثاني والعشرين من الشهر"*

والآن جاءت الفرصة التي أنتظرها عبد الله طويلاً، ولم يتأخر عن الإمساك بها. وتمت مطابقة سابقة تولي الخليفة أبو بكر الصديق من كافة نواحيها عند تولي الخليفة عبد الله التعايشي للقيادة العليا. فمنذ وقت طويل كان عبد الله، الشديد الذكاء، قد أقنع المهدي لإصدار المنشور التالي، والذي أصبحت عقوبة الموت تنزل على أي من يتشكك في صحة توليه للخلافة:

منشور

من محمد أحمد المهدي إلى كافة أتباعه

بسم الله الرحمن الرحيم...الخ.

أعلموا أيها الأحباب، أن الخليفة عبد الله خليفة الصديق المقلد بقلائد الصدق والتصديق، فهو خليفة الخلفاء وأمير جيش المهدية المشار إليه في الحضرة النبوية، فذلك السيد عبد الله بن محمد حمد الله عاقبته في الدارين.* فهو مني وأنا منه. فتأدبوا معه كتأدبكم معي وسلموا إليه كتسليمكم لي وصدقوه كما تصدقوني ولا تتهموه في فعله. فجميع ما يفعله بأمر من النبي أو بأذن مني. وهو وكيلي لتنفيذ إرادة النبي. وإذا أراد الله ورسوله قضاء أي شيء فعلينا الاستسلام لقضائهم. وإذا أبدي أي أحد أدني شك فيه فقد كفر وهو من غير المؤمنين بالله. والخليفة عبد الله هو خليفة الصديق وانتم تعلمون حب الله ورسوله للصديق. لذا عليكم أن تفهموا المكان السامي الذي يحتله الخليفة. وهو مؤيد من الخضر ويتقوى بالله وبرسوله. وإذا ما تحدث أحدكم عنه بسوء، أو فكر في ذلك، فأن الدمار سيحل به وسيخسر الدنيا والآخرة.

---

* تعليق من المعرب

أجمعت كل المصادر المنصفة تقريباً علي أن المهدي قد دخل في خلوة للعبادة والتفرغ لله تعالي عند حلول شهر رمضان الذي توفي فيه، وبعد أن أوكل الشئون الدنيوية لخلفائه عامة وللخليفة عبد الله، خاصة. وفي اليوم الرابع من رمضان (١٧ يونيه) أصابته حمي أودت بحياته بعد خمسة أيام. ويقال أن سبب الحمي هو مرض التيفويد الذي انتشر بين سكان أم درمان عقب سقوط الخرطوم والذي ربما كان بسبب علب اللحم المحفوظ، الملوثة عمداً بالميكروب، والتي خلفها وراءهم عمداً المنسحبون الإنجليز في جيش الإنقاذ الذي حاول نجدة غردون.

انظر مكي شبيكة، السودان عبر القرون، ص ٣٦٧ وانظر: HOLT,P.M.(1958): The Mahdist State in The Sudan, Oxford University Press, P. 96. وحتى غير المنصفين، مثل سلاطين، والذي كان شاهد عيان في أم درمان ويسكن بجوار المهدي قد ذكر بأنه "أصيب بحمى التيفوس القاتلة ومات بعدها بستة أيام" انظر سلاطين: النار والسيف في السودان، دار عزة للنشر بالخرطوم.

* كتبها ونجت كالآتي"فذلك السيد عبد الله بن السيد حمد الله" (المعرب).

وأعلموا أن جميع أفعاله وأقواله محمولة علي الصواب فقد أعطي الحكمة وفصل الخطاب في كل شيء. ولو كان حكمه علي قتل نفس منكم أو سلب أموالكم فهذا لمصلحتكم ولذلك عليكم ألا تعصوه. وقد قال الرسول: أن أفضل من عاش تحت الشمس بعد الرسول هو أبو بكر وهو أصدقهم. والخليفة عبد الله هو خليفة الصديق وهو خليفتي بأمر من الرسول. فمن كان يؤمن بالله وبي فأن عليه أن يؤمن به وإذا رأيتم منه أمراً مخالفاً في الظاهر فاحملوه علي التفويض بعلم الله والتأويل الحسن الذي قد لا يفهمونه.

وليبلغ الشاهد منكم الغائب حتى تنقادوا إليه ولا تنسبوا إليه أي ظلم أو خطأ. واحذروا أذية أولياء الله فقد لعن الله ذلك في كتابه.

والخليفة عبد الله هو قائد المسلمين وخليفتنا النائب عنا في جميع أمور الدين. لذلك أختتم كما بدأت:"آمنوا به، وأطيعوا أوامره، ولا تشكوا فيما يقول ولكن ثقوا به وأوكلوا إليه كل أمركم.

كان الله في عونكم جميعاً – آمين"*.

ولإضفاء المزيد من التأثير على أتباعه السذج سريعي التصديق، بأن خلافته قد بنيت على تفويض إلهي، فقد أصدر عبد الله المنشور الغريب التالي** وهو عبارة عن رؤيا ذكر أنه رآها بعد وقت قصير من وفاة المهدي:

من عبد ربه خليفة المهدي، الخليفة عبد الله، خليفة الصديق إلى أحبابه وأتباعه وأنصار الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم.... الخ.

يا إخواني: منذ وفاة المهدي ظللت أفكر في نعمة الله الذي فضلني على كل هؤلاء الأنصار الكرام وذلك بتعييني لخلافة المهدي.

ولقد شاهدت رؤيا صباح هذا اليوم أثناء تفكيري فيما جرى.***.

لقد ظهر أمامي أحد الجن وبايعني بالولاء لله ولرسوله وللمهدي ولي، ثم ذكر أنه يحب الله والرسول والجهاد والشهادة**** وبعد ذلك ذهب لرؤية أهله ولدعوتهم للدين بعد أن ودعني.

ثم ظهر أمامي بعد ذلك جنى آخر من عجائزهم وطلب مني البيعة فبايعته ثم إنصرف. وبعد ذلك جاءت جماعة من الجن تهتف"لا إله ألا الله، محمد رسول الله" ويكررون النداء" في شأن الله، في شان الله". ثم بايعتهم هم ونساءهم وحددت لهم مكاناً للإقامة به بالمعسكر وذلك في الجزء من (المسجد) الذي يأتي إليه المتأخرون عن أداء الصلوات. أما عن إقامتهم الدائمة فقد حددت لهم مناطق الجبال المجاورة.

---

* النص الكامل في "الآثار الكاملة". المجلد الأول، الصفحات ٢٣٧ – ٢٤١ وقد حذف منه ونجت الآيات القرءانية المستشهد بها (المعرب).

** وهو المشهور باسم "منشور الشعرة" (المعرب).

*** لطول المنشور وتكرار معظم ما جاء به، سنورد ملخصاً لأهم نقاطه (المعرب).

**** ترجم ونجت معني الشهادة بأنها"شهادة ألا إله آلا الله، محمد رسول الله" وهذا عكس المقصود بها خاصة وأنها قرنت بالجهاد أي بمعني الاستشهاد (المعرب).

ثم سألني أحدهم عما سأفعل إن حضر لنا الكفرة بأعداد ضخمة. فقلت له بأنهم لو حضروا بأعداد كرمل البحر أو شجر الغابة فلن أخشاهم لأن كل ثقتي بالله تعالي وتوكلي عليه.

ثم صحوت من نومي وقلت (توكلت علي الله) ثلاثة مرات ثم توضأت وصليت ورقدت على العنقريب. ظهر أمامي النبي الخضر وصلي على فروتي ثم سلم على وأبلغني بسلام الله والملائكة والنبي والمهدي وأن الأخير خاصة قام بمباركة كل ما أقوم به.. أوصاني بنصح الأحباب على المواظبة على الصلاة.

ثم سألت الخضر عن أسباب إنقطاعه عني منذ وفاة المهدي فذكر أنه كان يحرس شعرة للمهدي، كان قد أودعها لأحمد سليمان لتسليمها لي، إلى أن ابتلعتها. ولأنه كان أميناً عليها فستتم مكافأته على ذلك. وأكد لي الخضر بأن القلب الذي دخلته هذه الشعرة سيكون خالياً من النفاق وسيغمره الضياء.

ثم سلمني عموداً من الضوء، جاء من الله ثم جبريل ثم الرسول ثم المهدي وأمرني بابتلاع ربعه وغسل وجهي بربع ثاني وغرز ربع ثالث على الراية الزرقاء ثم تقسيم الربع الأخير على الأنصار. كما أمرني المهدي بعدم الإستماع للذين يريدون مني متابعتهم وقال إن السلامة في أتباعي الذين يقفون معي ويتبعوا سبيلي. وأنه في ساعة الحرب فأن الرسول بنفسه سيكون معي وكذلك المهدي والملائكة ميكائيل وجبريل ورقيب وعتيد ومالك ورضوان، وكذلك أرواح المؤمنين من لدن آدم إلى يومنا هذا. وقال أن الله سينصرني على كافة أعدائي. كما كرر المهدي ألا يسكن سنار أياً من الإخوان. أما جبل الضباب وكاكا وجبل مرة ودار التعايشة فيجب ألا يسكنها أحد إلا إذا دخلها الأنصار للغنائم. أما سنار فلا يسكنون بها ولا يتوجهون إليها حتى للغنيمة.

هذا وكانت تلك الشعرة بيد أحمد سليمان عندما فتح العلبة التي كانت تحتويها فشممت رائحة عجيبة وعندما ظهر طرف منها غمرني شعور عارم بالبهجة لا يفهمها سوى الله. وعندما أردت شمها دخلت إلى فمي وابتلعتها وهذا ما حدث... آمين".

***

وبعد أن تم دفن المهدي بوقار وسكينة، بدأ تشييد مسجد فوق قبره* وطلب من الناس الحج إليه، وتم توجيه الناس لإظهار الأسى والحزن العام مهرجان ضخم، وإستدعي كل رجل وامرأة وطفل للتوجه للميدان الواسع في بشرق النيل وخصص للعبابدة، المتهمين بالميول الشيعية، مكاناً جلياً في أرض المهرجان.

وأثناء ذلك قام فريق من البقارة المخلصين بتفتيش الخرطوم والأكواخ، وفتشوا مخازن الذخيرة والترسانة. وبكل هدوء تم جمع أي سلاح وجد ووضعوه في مخزن تحت حراسة قوية. وبذا تم التغلب علي أي مصاعب (محتملة). وتمت السيطرة علي حزب علي النامي ولم يعد يخشى منه، وأصبح البقارة هم المسيطرون (علي كافة الشئون). ودارت بعض المناوشات وفقد أحمد سليمان،

---

* لم يتم الشروع في بناء المسجد إلا بعد أكثر من سنتين من وفاة المهدي وذلك في ٢٠ نوفمبر ١٨٨٧. أنظر "سعادة المستهدي بسيرة الأمام المهدي"، تحقيق الدكتور أبو سليم، إصدار الدار السودانية للكتب، صفحة٣٩٣ (المعرب).

خازن المهدي، حياته. وتم تجنب أي شقاق خطير، وأجبر الشريف وعلي إبن محمد حلو [**]، بعد مقاومة قصيرة، على إصدار المنشور التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم...الخ.

"من عبيد الله، الخليفة على إبن محمد حلو، خليفة الفاروق، والخليفة محمد شريف إبن أحمد [*]، خليفة الكرار، إلى كافة الأشراف: وإلي أحبابهما محمد الخير وكل المقاديم والرؤساء الذين تحت إمرته:

بعد السلام. لا يخفي علي علمكم أن الله ما خلق هذا الكون إلا ليكون جسراً للعبور للعالم الأخر. وكل واحد منا سيعبر يوماً إلى ذلك العالم الآخر عاجلاً أم آجلاً مثل الرسول والأولياء والورعين والجميع.

ونبينا نفسه، وهو رسول الله وصفيه، وعندما إنتهت أيامه في هذه الدنيا، أرسل الله ملائكته المسئولين عن أرواح العباد، وأخذوا روحه الطاهرة إلى دار البقاء بالقرب من الله جل جلاله. ولم يشفع له حب الله له من إعفائه من هذا القرار الثابت المقرر.

وقبل وفاته، وعندما تطور مرضه لدرجة الخطورة، نادي الرسول صحابته وأمرهم بالعمل على دعم دين الله، وعين أبابكر خليفة له وقائداً للمؤمنين.

وبعد وفاته، وطبقاً لأوامر رسولهم، أوكل الصحابة كل شئونهم لأبي بكر والذي مضي في طريق الرسول وأحرز إنتصارات كبيرة ووسع في نفوذ الإسلام ومد نفوذه لأراضي بعيدة. واستمر الإسلام في الإذدهار لقرون عديدة حتى أصاب الوهن قلوب المؤمنين وبدأوا في الشقاق والتدهور. وظلوا في حالهم هذا إلى أن ظهر المهدي خليفة رسول الله والذي أعاد الروح للإسلام وأضاء قلوب المسلمين وقادهم إلى الطريق القويم وأعادهم للحالة التي كان عليها الإسلام في أيام الرسول. وكان الله معه في كل شئونه وكان منتصراً دائماً.

وعندما إنتهت أيامه في هذه الحياة الدنيا إختاره الله لجواره في الثامن من رمضان (٢٢ يونيه ١٨٨٥).

كانت الحمي قد أصابته يوم الأربعاء الثالث من رمضان (١٧ يونيه).ولما عرف خطورة مرضه أمر الخليفة لتوجيه خطاب إلى رجاله وغادر الدنيا يوم الإثنين التالي من التاريخ المذكور آنفاً.

فليساعدنا الله لنكون من المخلصين له وللسير في أثره إلى أن نلاقيه في العلى مع الرسول.

وفي ليلة وفاته رأى المهدي في الحلم رؤيا حدث بها خليفته كالتالي: "ظهر لي الليلة، في رؤيا، الشيخ القرشي مع عدد من أتباعه، بعد أن أرسله رسول الله ليخبرني بأنه يستعجل فراقي لهذه الدنيا، ويطلب مني تعيين خليفتي قبل رحيلي".

لذلك نصب المهدي عبد الله بن محمد ليكون خليفته من بعده ووافقنا جميعاً على ذلك وبايعناه وإلتزمنا بدعمه كخليفة للمهدي. وعليكم أيضاً يا إخوتي أن تبايعوا الخليفة بالولاء، ولنكون

[**] لم يكن الخليفة علي ود حلو جزءاً من تجمع الأشراف أو ثورتهم ضد الخليفة عبد الله، بل كان وسيطاً للصلح بينهم. أنظر سلاطين، الطبعة الإنجليزية ص ٢٨٦ (إصدار عام ١٨٩٨) المعرب.

[*] الصحيح محمد شريف بن السيد حامد (المعرب).

بذلك قد أتبعنا خطي أصحاب رسول الله، والذين إستجابوا في الحال لأمر الرسول، ورضوا بأبي بكر قائداً وخليفة للرسول. وحاربوا تحت قيادته بمثل الروح التي كانوا يحاربون بها تحت قيادة الرسول، وأحرزوا عدة إنتصارات وضموا أقاليم واسعة بحماسهم وتضامنهم ووسعوا أراضي الإسلام من كافة الجهات.

فلنتبع مثالهم ولا نتردد أبداً حتى لا يجد العدو فرصة لسحقكم وعليكم بالحفاظ علي معنوياتكم وزيادة قوتكم حتى تنتصروا دائماً، لأنكم جنود الله والله يقول "وإن جندنا لهم الغالبون".

كان الله معكم دائماً وأن يمدكم بالقوة وأن يجعلكم من أحبابه في شأن الرسول والمهدي. آمين".

أما المنشور الذي حرره الخليفة، المعين حديثاً، والموجه إلي أهالي دارفور، فهو منشور جدير بالإهتمام لأنه يظهر مدي الجهل والخرافة التي غرسها المدعي على جموع أهالي الغرب:

منشور

من خليفة المهدي لجميع أحبابه في الله،

أهالي دارفور.

"بسم الله الرحمن الرحيم...الخ.

بعد السلام عليكم أيها الأصحاب. لا شك أنكم تعلمون جيداً، وكأناس عاقلين، بأن علينا أن نعمل على الاقتراب من الله يوماً بعد يوم حتى نجازي بنعيم الجنة بعد مماتنا. فما هذه الدنيا إلا مكان الإستعداد للعالم القادم.

إذ لم تر العين، ولم تسمع الأذن، ولا خطر بقلب بشر، النعيم الذي أعده المولي للمتوكلين عليه وللذين أتبعوا ما جاء به الرسول وصحابته.

ولقد رضي الله بتثبيت خلافتي للمهدي، والذي أنتم علي علم تام بأعماله المجيدة وإنتصاراته التي أحرزها. وسأخبركم فيما يلي بأختصار بقصة تعييني للخلافة. ففي ذات يوم من أيام شهر رجب من العام الحالي، جاءني المهدي، قبل وقت من وفاته، وتحادثنا طويلاً حيث قال لي أن كل الأسرار الإلهية تكمن في الحرف (ب). وكتب بإصبعه المقدس هذا الحرف المقدس. وقال أن الرجل الذي اختاره الله لحمل هذا الحرف هو المستقبل لكل الأسرار القدسية. وعندما سأله أحد الحاضرين ليشير إليهم للرجل الذي أختاره الله، قام بالإشارة إلي. ثم نظروا نحوي وشاهدوا نفس الحرف مطبوعاً علي خدي الأيمن، وسترون ذلك عند قدومكم لي.

ومره أخرى، ليلة وفاة المهدي، رأيت في ما يشبه الحلم يداً باهرة الضياء تمتد نحوي من السماء، وأمسكت بيدي اليمني، وأنا أنطق بالتزامي بالدفاع عن دين الله المقدس وعن سبيل الله. وفي نفس الليلة ظهرت لي أشياء عجيبة لم أستطع فهمها.

والكثيرون منكم أيضاً كانوا على علم، من أحاديث المهدي أثناء حياته. بأنني سأكون خليفته. لذا فلتعلموا بأن يد الله التي تدعمنا لم تسحب عنا بوفاة المهدي. فلا زال عزرائيل يمسك براية النصر ولازال الرسول محمد على رأس جيشنا. وقد سلمني المهدي سيف النصر وهو الآن

بحوزتي. وهذا ما سيجعل كل أتباع الدين المخلصين من المنتصرين دائماً، حتى أن الجن والعفاريت لن تقدر على إخضاعهم.

والآن يا أحبابي، وعند وصول هذا الخطاب، أريد منكم الحضور إلينا هنا. وعليكم طاعة أوامر رؤسائكم وولاتكم، والذين كتبت لهم من قبل بهذا الخصوص. لذا أقبلوا إلينا يا أخوتي وكونوا مخلصين لدينكم ومطيعين لرؤسائكم".

•••

وجاءت أنباء وفاة المهدي، على الحاميات المنهكة في كسلا وسنار، كخبر مشجع لهم. وظهر أثر ذلك عليهم في الحال.

وحتى الآن لم تكن حاميات كسلا وسنار قد تعرضت لما تعرضت له الخرطوم. وكانت كل منهما تحصل على دعم، في كفاحها ومقاومتها، وفي فترات متقطعة غير ثابتة، من أحدى القبائل البدوية. لقد وصلت المملكة العريقة لسنار إلي المجد والشهرة، لا بوسائل صناعية بل بسبب من خصوبة أراضيها ولطقسها. وكان من المستحيل تقريباً تجويع سنار أو إفقارها.

أما المناطق التي حول كسلا فكانت تستقبل الفيضانات القادمة من جبال الحبشة وكانت لا تقل أراضيها خصوبة عن تلك التي بسنار.

رغم ذلك، فقد حلت على تلك الحاميات، مثلهما مثل حامية الأبيض من قبل، نكبات لا حصر لها من قبل الأعداء وعانت الحاميتان لشهور عدة من ويلات الجوع القارص والبؤس. وكان أربعون من الجنود يموتون يومياً في كسلا، ورغم ذلك لم تستسلم. وساد بينهم شعور بألا سبيل أمامهم إلا الصمود لأن العرب لا يعرفون الرحمة. لكن ذلك الشعور لم يكن صحيحاً. ففي الأبيض، وفي أم درمان، ومناطق كثيرة أخري، لم يتم ذبح الحاميات بها، ومعظم الذين فروا من وجه الموت أو الجوع منها لا يزالون أحياء حتى اليوم.

ففي الأبيض تم إرغام محمد باشا سعيد، مثله مثل غردون، على الإستسلام بسبب التجويع. لكن عبد النور، في سنار، لم يستسلم إلا بعد قتال ضار وكذلك فعل أحمد بك عفت، والذي كان له اثنان من إخوانه يقودون البواخر تحت قيادة نصحي باشا. وكذلك فعل توفيق في سنكات ولم يستسلم.

وخلال تلك المقاومة وصل نفوذ النساء السودانيات إلى مستوى لا يمكن حصره بدقة. ولما كان لوفاء المهدي للنساء أثر كبير في شعبيته، نرى من الجانب الآخر أن السبب الرئيسي للمقاومة العنيفة والطويلة للجنود كانت لأنهم يدافعون عن نسائهم وبناتهم.

وقد ذكر الأدميرال هيوت بأن الجنود الذين هربوا من سنكات كانوا يحملون نساءهم على ظهورهم. ويبدو أن السبب في هذه الظاهرة، التي لا يتميز بها المسلمون في الأمم الأخرى، هو أن نساءهم لا يتعرضن لهذه الدرجة من المصاعب (مثل نساء السودانيين). ويقال أن للمرأة في الشرق مركزاً متواضعاً، ولكن يبدو أن لنساء الشرق نفوذاً أكثر من غيرهن في الأمم الأخرى. فالمرأة المصرية هي قطعاً خدومة وصبورة علي العمل الشاق، وغالباً ما تتميز بالشجاعة.

لقد تعجل غردون كثيراً في حديثه عن جنوده الفلاحين. والكلمات التالية، من يومياته، نوردها لكم كما هي:

"ستكون غلطة جسيمة إذا ظننا أن القوات مثبطة العزيمة. لقد فقدنا بالطبع عدداً كبيراً، لكن لا زال الرجال علي تصميمهم كما كانوا دائماً. وسيزداد عزمهم إذا تمت مساعدتهم.

"يتحدث ستيوارت عن جبنهم، لكنني أعزو ذلك الجبن إلي خطأ في حساباته. ومن الخطأ الجسيم أن تظن الحملة العسكرية المكلفة بسحب الحاميات، عندما تأتي هنا، أن جنودنا سيقولون لهم أنهم في ضيق شديد، وسأتغاضى هنا عن الجنود القاهريين والجنود من الباشبوزوق".

وعلى كل حال كان هناك وسط تلك الحاميات ثلاثون ألفاً من الجنود. القاهريين والباشبوزوق، يعانون من نفس مشكلة الجوع، ومن بينهم حاميات الجيرة والقلابات وأماديب التي تم أنقاذها. لكن من المستحيل أن نشكك في حقيقة أن كل الحاميات الأخرى تضورت جوعاً لدرجة الموت تقريباً.

والمصري يفتقد المبادرة. والمصري يفتقد القدرة على القرار (الصائب) وإذا كان في وضع عليه أن يقرر بسرعة في مسألة حياة أو موت فأنه، وبغير ثقة سواء في نفسه أم في ضباطه، سيفشل حتماً. لكنه إذا كان في وضع، يكون البديل والخيار فيه بعيداً، فأنه سيصمد بعناد وثبات.

وماذا يمكن أن يكون أكثر وحشة وكآبة من تاريخ جيش هكس، والذي جمع رجاله، وهم في الأغلال مكبلين، من بقايا جيش عرابي المنحل والمهزوم، والذي قادوه إلى بلاد كانوا يعتبرونها دائماً كالقبر الحي، بواسطة ضباط لم يرونهم من قبل، ثم هوجموا من كافة الجهات وذبحوا؟

نفس القول ينطبق على حملة بيكر، التي قتل فيها رجاله. ومن الناحية الأخرى يمكن أن نرى تلك المقاومة العنيدة التي أظهرها نفس أولئك الرجال عندما كانوا (محصنين) وراء جدران الأبيض وطوكر وكسلا وسنار والقلابات والجيرة.

***

سنار، ١٨٨٥

عودة الآن للأحداث التي جرت في ضواحي سنار. كانت المدينة قد تعرضت أوائل العام إلي حصار شديد من (الأمير)المرضي، والذي ألح عليهم للإستسلام. وعندما بلغتهم أنباء سقوط الخرطوم عقدوا اجتماعاً لمناقشة الوضع.

كان المدير لا زال سجيناً في منزله، وتم استدعاؤه للإدلاء برأيه. ذكر لهم بأنه إذا ما أعيد لمكانه ثانية في قيادة القوات، فأنه سيقوم بطرد قوات الثوار حالاً. ولإثبات صدق نواياه، عرض عليهم تقديم مخزونه الضخم من الذرة لرجال الحامية. قبل عرضه في الحال وأعيد حسن صادق مرة أخرى إلى منصبه.

وفي أوائل فبراير قام بغارة طرد فيها المرضي من كبوش* لكنه أثناء عودته للمدينة نزل للراحة تحت شجرة جميز ضخمة، ومعه ثلاثون من رجاله، حينما تعرض لهجوم من جماعة صغيرة

---

* كبوش هي قرية صغيرة تقع على مسافة ميلين شمال مدينة سنار الحالية وأصبحت اليوم جزءاً من المدينة. لكنها في العهد التركي كانت تقع وسط غابة كثيفة على بعد ميل تقريباً جنوبي سنار القديمة، والتي أصبحت اليوم جزءاً من سنار

من الثوار. قتل في الهجوم عدد من الضباط، بمن فيهم حسن صادق، ولكن النور بك تمكن من الفرار وقام بتجميع قوة من الجنود عاود بهم الهجوم على الثوار وتمكن من استعادة الجثث وعاد بها إلى سنار.

أثناء ذلك. وعندما استقرت الأوضاع في الخرطوم، قام المهدي بإرسال قوة من الأنصار، بقيادة إبن عمه (محمد) عبد الكريم والأمير مضوي لإخضاع سنار ووصلت هذه القوة أمام المدينة في ١٨ أبريل. ولما رفضت حاميتها الإنصياع لأمر بالتسليم قاموا بشن هجوم ضار عليها في السادس عشر من يونيه. كادت المدينة أن تسقط لولا أن قامت الباخرة بإطلاق نيران متقاطعة على الثوار وعزلت ١٥٠٠ رجل منهم أبادتهم الحامية بنيرانها.

بعد تلك الهزيمة قرر عبد الكريم أن يتم تجويع المدينة تمهيداً لاستلامها وشرع في الحال في تشديد الحصار عليها.

وفي الثامن عشر من يوليه قام النور بك بغارة ناجحة وانقض على الثوار المحاصرين له وأوقع بهم خسائر جسيمة واستولى على ٥٠٠ بندقية ومدفعين جبليين، لكنه أصيب في الغارة بجراح بليغة.

وقام (المصريون) بغارة ناجحة أخرى بعد بضعة أيام، كما قام النور بك بإرسال خطابات للبريطانيين، الذين بدنقلا الآن، توسل إليهم فيها لتعزيزه بالإمدادات، لكن تم إعتراض تلك الخطابات ولم تصل أبداً لمقصدها.

والآن، وبعد أن جمع عبد الكريم كل القبائل التي بالجوار، قام بقطع كافة الإتصالات عن سنار ودخلت الحامية، التي أنهكها القتال المتواصل، إلى المراحل الأخيرة للمجاعة والتضور. وقام النور بك بمجهود أخير في الثامن عشر من أغسطس ١٨٨٥ عندما أمر بشن غارة على الثوار، قام بها ١٥٠٠ من الجنود بقيادة حسن بك عثمان، لكن الثوار إنقضوا عليهم في كساب* وكادوا أن يستأصلوهم ولم يرجع منهم إلى المدينة، بعد مقتل قائدهم حسن بك، إلا بقايا صغيرة من القوات. وفي اليوم التالي، وبعد أن أستهلك كل ما بالمدينة من طعام يؤكل، أضطر النور بك للإستسلام. ولم يتبق من حاميتها الأصلية، المكونة من ٣٠٠٠ جندي، إلا سبعمائة رجل فقط – وهذا دليل واضح علي ضراوة القتال والحصار.

وتعرضت المدينة يومين للنهب والسلب والقتل ولم تتوقف تلك المأسي إلا بعد وصول النجومي، والذي أرسل، ومعه ود جبارة، لدعم عبد الكريم مع قوة من ١٣٠٠٠ مقاتل. لكنه لم يصل لسنار إلا بعد سقوطها.

***

التقاطع. هذا ولازالت شجرة الجميز قائمة بداخل جنينة السيد / عبد الوهاب الشيخ، وهو أحد قدامي البرلمانيين السودانيين (المعرب).

* كساب تقع علي الضفة الشرقية للنيل الأزرق، إلي الجنوب الشرقي من مدينة سنار الحالية وتمتد من مشارف خزان سنار جنوبا لبضعة أميال. بها الآن مشروع زراعي كبير وثلاثة قرى مشهورة هي كساب الدناقلة وكساب الجعليين وكساب قربي (فلاته). أما في العهد التركي فكانت منطقة غابات وزراعات واسعة (المعرب).

وربما لا نخرج عن الموضوع إذا تحدثنا قليلاً عن هذا المتعصب الشهير عبد الرحمن ود النجومي.

لقد انتهت حياته العملية في توشكي، عندما باع حرسه الشخصي حياتهم رخيصة دفاعاً عن جسده الموقر. كان رجلاً جعلياً من تلك القبيلة غير كثيرة العدد، لكنه واحد من الذين عرف البقارة فيه صفات للمحارب لا تختلف عن صفاتهم ولذلك ظلوا على وفاق معه. كان في باكورة حياته فكياً، مثل المهدي، وصديقاً وفياً له. وكان صارماً حازماً زاهداً بجسمه النحيل ولونه الداكن. كان تجسيداً للولاء الأعمى لمعتقداته. ولم يحدث أبداً أن تجاوز الصرامة والحزم التي فرضها على نفسه وإلتزم بها في كل تصرفاته وكان ميالاً للاندفاع والإقدام. لم يوجد من لا يثق فيه وفي قوله وكان ينظر لآفاق بعيدة ومكانه دائماً كان في المقدمة عند مواجهة الخطر. كانت المهدية بالنسبة له المتنفس الطبيعي لروحه ولطبعه المتوحش. كان ه هو كخالد في حروب الرسول. لقد كان هو الذي وضع الخطط والأحابيل التي دمر بها جيش هكس. وكان هو الذي زحف بصمت شديد خلال الطين الضحل وراء إستحكامات الخرطوم. وفيه تنطبق العبارة التي تقول"هؤلاء متيمون بالمهدي لدرجة أن المرء قد يقول بأنهم هم الجسم له وأنه هو الروح".

لقد كان ألنجومي أكثر تقشفاً وزهداً، وأكثر براعة وحيلة، من أي من الذين ذكروا في تاريخ الأديان. وعندما مات مهديه رأي تشابهاً في الوضع بما حدث بعد وفاة الرسول: رأي بداية ظهور الشقاق والخلاف. ولكن تم كل شئ طبقاً لمقتضيات الحال. ورأي (الخليفة) أنه من الأجدر القيام بإرسال المنشور التالي إليه:

"بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وعلي آله مع التسليم.

من العبد لله الخليفة عبد الله بن محمد، خليفة الصديق، إلي عبد الرحمن ألنجومي وكل الرؤساء والمقاديم والأتباع. بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عليكم، بصفتكم أصحاب خليفة رسول الله الراحل وقادة المؤمنين أن تتبعوا النهج الذي انتهجه أصحاب رسول الله وأن تكونوا جميعاً كرجل واحد. وأن تعملوا في سبيل نفس القضية، وأن تشاوروا بعضكم البعض في كافة تصرفاتكم كإخوة في الله. فالله تعالي قد قال في كتابه بأن الذين يتحدون في الله ويحبون ويساعدون بعضهم بعضاً يستحقون حب الله لهم.

كما قال الرسول بأن الذين يحبهم الله أكثر الحب هم الذين يتضامنون ويدفعون الآخرين للتضامن. وبأن الذين يبغضهم الله هم المفترين الذي يشيعون الفرقة والشقاق بين الإخوة المؤمنين.

وقال الرسول أيضاً أن للمتحابين في الله سبعين ألف غرفة مقامة على عمود من الياقوت الأحمر في الجنة حيث يشرقون على سكان الفردوس كما تشرق الشمس على سكان الأرض، ويلبسون أردية من القصب الأخضر وعلى جباههم مكتوب:"هؤلاء المتحابون في الله".

لذا أحبوا بعضكم البعض. وعلى الأتباع أن يطيعوا زعماءهم، وعلى الزعماء إطاعة الأمراء. وعلى الزعماء والأمراء أن يتسموا بالتواضع وأن يعاملوا أتباعهم بالعطف والمساواة بهم. ولقد درج النبي على الجلوس جنباً إلى جنب مع رجاله وخاصة الفقراء منهم والضعفاء ويقول لهم:"

إنما أنا عبد الله وكعبد يجب على أن أجلس". ويقول لهم إذا ما خيرني الله بين شيئين، أن أكون رجلاً رسولاً أو نبياً وملاكاً، فأنني أرفع عيني إلى ملاكه جبريل لأسأله عمـا أختـار. وأجـابني جبريـل بقوله"تواضع لله". لذا اخترت أن أكون رجلاً رسولاً.

ويقول الرسول مرة أخرى أن هنالك فضائل أربعة لا يعطيها الله إلا لمن يحبهم أكثر الحب. هذه الفضائل هي: الأولي: الوقار أمام الله، والثانية: الثقة بالله، والثالثة: التواضع، والرابعة: الزهـد في الدنيا والإخلاص لله.

ويقول عيسي صلي الله عليه وسلم: مباركون الفقراء في الـروح لأن جـزاءهم ملكـوت السماء. ومباركون المتصفون بالمسكنة في الدنيا لأنهم سيجلسون على المنبر يوم القيامة. مباركون فقراء القلوب لأنهم سيرون الله. مباركون صانعوا السلام لأنهم سيرثون الجنة.

وقد كلم الله موسي عليه السلام وقال له:" إنني لا أتقبل إلا صلوات المسـاكين، الـذين لا يظنون أنهم أنهم أعظم مقاماً ن بقية الناس، والذين يخشوني بقلوبهم وينبذون الشهوات من أجلي".

ويقول الرسول مرة أخرى في نفس الموضوع: يرفع الله الذين يتواضـعون أمامـه إلـى السماء السابعة".

لذا عليكم يا أحبابي إعتبار ما قلت. وعليك كقادة للمؤمنين ألا تسمحوا بالخلاف بينكم. ولكن كونوا كرجل واحد في معاملاتكم، وأن تكونوا عطوفين على أتباعكم، وأن تسامحوا بعضكم الـبعض. جعلكم الله ممن يتبع أمر الله كما جاء في كتابه وفي السنة.

كسلا، ١٨٨٥

من الضروري أن نعود الآن لأحداث شرق السودان، ولنرى كيف أثرت الحوادث التي جرت بالخرطوم، ومناطق أخرى، على الوضع هناك وعلى ساحل البحر الأحمر أيضاً.

فبنهاية عام ١٨٨٤، كان الكولونيل تشير مسايد بسواكن يعمل ما في وسعه لإنقاذ الحاميات المطوقة, عن طريق تدخل ملك الحبشة، بينما كان عثمان دقنة قد نجح في ذلك الوقت في أحياء روح التعصب والحماس الشديد بين القبائل الساخطة في إقليم سواكن.

كان كل الهدندوة معه وكذلك قسماً من الأمرأر، رغم أن الأخيرين لم يدخلوا فـي الثـورة بنفس الروح والحماس الذي أبداه الهدندوة.

وقد امتدت أمواج الثورة وأنتشرت بين البشاريين الذين على الساحل والمجاورين للأمرأر. وانتشرت بين البشاريين الذين على الساحل والمجاورين للأمرأر. ولكن ربما بسبب موقعهم النائي فقد انهارت حركتهم سريعاً ووطنوا أنفسهم علي العمل بتجارة المهربات والمواد المحظورة رغم أن قلـة من زعمائهم قد أعلنت ولاءها للمهدي.

وحتى هذا الوقت إستطاعت كسلا، رغم الحصار اللصيق المضروب عليها، التواصـل مـن وقت لآخر مع مصوع، والتي كان الطليان قد إحتلوها في فبراير، وعادت حاميتها المصرية إلى مصر بينما إستمرت حاميتي الجيرة والقلابات في الصمود.

والخطاب التالي، من قائد حامية الجيرة، والمؤرخ ٢٣ / ١١ / ١٨٨٤، يعطي صورة واضحة للوضع فيها:

"قبل حين من الزمن قام المتمرد حسن عبد الواحد مع ٨٠٠٠ رجل بالاحاطة بهذه المدينة وطلب من الحامية الاستسلام: لكننا صددناهم. وبعد بضعة أيام تفرقوا. كنت قد أبلغتكم بذلك من قبل. وكنت أتصور أن التعزيزات التي طلبتها ستصلني وأنني سأكون بعدها جاهزاً لملاقاة العدو إن عاد ثانية. لكن لم يصلني أي دعم. قام زعماء الثوار بالكتابة للمهدي وأخبروه بحصارهم السابق للجيرة فطلب مني المهدي تسليم الممتلكات الحكومية لأحد خلفائه القريبين منا، إما لعبد الله أحمد أبو سن أو لمحمود زايد. كما وصلت خطابات من الثوار للجيرة بلغت في جملتها ٣٥ خطاباً. لكنني لما كنت غير مستعد تماماً للدفاع فقد لجأت للتحايل ريثما تصلني التعزيزات.

وفي السابع من نوفمبر وصل بالقرب منا أربعة من خلصاء المهدي هم حسن عبد الواحد والطاهر التاتاى وعبد الله شريفي والسماني أحمد، وكان معهم محمود زايد، وكرروا طلبهم منا بالتسليم والإنضمام إليهم في هجومهم المزمع على القلابات.

طلبت منهم إمهالي شهراً للإجابة وأرسلت (وفداً) لمعسكرهم لإقناعهم بذلك وللتجسس عليهم. لكن الوفد لم ينجح في مهمته وعاد لي الضابط الذي أرسلته بخطاب يفيد بأن الجيرة إما أن تستسلم أو سيتم تدمير حاميتها.

(ورغم) أنني طلبت مهلة شهر، آملاً أن تصلني التعزيزات بأذن الله، إلا أننا كلنا الآن تحت السلاح ومستعدون للصمود. ويحاول الثوار يومياً مفاجأتنا لكنهم دائماً ما يجدوننا في يقظة تامة وينسحبون. وقد كتبت لقائد الثوار مهدداً لكن الثوار منقسمون عل أنفسهم: فئة تريد الحرب والأخرى ترىى أن الحصار أجدى.

الوضع الآن حرج والحامية دائماً تحت السلاح وتحصيناتنا جيدة عموماً. لكنكم تعلمون قلة عدد رجالنا. من هنا فأنني أترجاكم للإسراع في إرسال التعزيزات لنا، ولو بفصيلين، ويمكن للنجدة الحضور عن طريق الحمران وتفك عنا الحصار.

(ختم) قائد الجيرة

القلابات

عند بداية الثورة كانت الإضطرابات تسود ضواحي القلابات، ولكن سرعان ما يتم إخمادها.

وبنهاية ١٨٨٤ حدثت مواجهة عنيفة لعب فيها صالح بك شنقة دوراً رئيسياً. فهذا الموظف، كما نذكر، هو رجل تكرورى الأصل* وظل على ولائه طيلة الأحداث المثيرة التي جرت. وكان قد تحالف مع زعماء الحبش في الجهة المقابلة لحدوده.

وفي ٢٦ نوفمبر ١٨٨٤، اصطدمت القوات المشتركة للحبش والمصريين بجموع ضخمة لعرب الجعليين والضباينة في منطقة جدبة وهزمتهم تماماً لكنهم أعادوا تجمعهم في قوة

* تكروري أو تكروني هم الحجاج المسلمون من مناطق دارفور ووداى والذين غالباً ما يستقرون، بعد رحلتهم لسنوات طويلة للحج للأماكن المقدسة، في شرق السودان. ويقال أنهم شديدو التعصب وأذكياء ونشطون ولهم ملامح زنجية بارزة. ومعني الاسم باللغة العربية هو "النقاء" أو إبراز قوة مشاعرهم الدينية بالحج إلى مكة.

ضخمة بعـد بضعة أيام وقام العدو بالإطباق على المدينة وصارت القلابات في بواكير عـام ١٨٨٥ تحت حصار محكم.

والخطاب التالي، الذي كتبه صالح بك للجنرال غردون في الخرطوم فـي أكتـوبر ١٨٨٤، يوضح الحالة العامة بالجوار في ذلك الوقت:

"من صالح بك، مدير القلابات،، إلي صاحب السعادة حاكم عام السودان:

يا سيدى:

إن خادمكم، الذي يقف جاهزاً لخدمتم، يسال الله من صميم فؤاده أن يمنحه طلبه وأن يشمله بعطفه وأن يقوي سعادتكم ويحفظه ويظله بظله من أجل العاملين في خدمة الحكومة ورعاياهـا، وأن يغير الحالة التي هم فيها، وأن يمنحني شرف رؤية سعادتكم وتقبيل أياديكم الكريمـة التـي غمرتنـا بالعطف والبركات. فأنت الذي دمر أعداء الحكومة والثوار الخبثاء الذين أضاعوا ديـنهم وأرواحهـم وحرموا أنفسهم من منافع الحكومة التي طالما غمرتهم بالرفعة والشرف، والذين تحولوا رغم كل ذلك من طريق الحق إلي طريق الخطيئة. فليحفظ الله حكومتنا السنية حتى تتمكن، بوجود سـعاتكم علـي رأسها، من تدمير أولئك التعساء وتحطيمهم تماماً وهم محمد أحمد وأتباعه.

لقد سمعنا اليـوم أيضـاً ما جاءنا من أنحاء دوكة وأبو ستي وأبو حـراز عمـا أثمـرت طاقاتكم في ضرب الثوار وتشتيت شمل رجالهم وقواتهم الذين ما تجمعوا إلا من أجل التحريض على الفتنة والعصيان.

وأنني أرجو الله العلي القدير بأن يطيل من سيف الحكومة أكثر فأكثر ليتم تدمير المـدعي الكاذب محمد أحمد ويشتت شمل جموعه الخبيثة.

وإذا ما توجهتم بفكركم نحو خادمكم الخاضع لكم، فأنني أفيدكم بأنني في أحسن حال الآن، أنعم بحمايتكم، وأنني لا زلت مستمراً في خدمة الحكومة. ويا لها من حكومة! فكم وكم غمرتنا بعطفها ورحمتها ومنافعها والتي لا ينكرها أحد. إنني أسأل الله ورسوله ألا ينحرف خادمكم عن طريق الواجب وإبداء الطاعة الواضحة للحكومة بدون أي تردد أو مماطلة، وتحت رعايتكم.

وبخصوص رعايا الحكومة الموكل أمرهم لخادمكم، فأنهم لم يتهاونوا في إبـداء طـاعتهم وتسليمهم لكم ولن يسيروا أبداً في طريق الثورة والتمرد بإذن الله تعالي ورحمته وما ذلك إلا من ثمار كونهم تحت سلطتكم.

ولكن، يا صاحب السعادة، فأن الأعداء يحيطون بنا من كل جانب، من جهة دوكـة ومـن الشكرية ومن الضباينة ومن الجلابة، وأيضاً من جانب النهر بالرحبار، وأيضاً من البوكـادي ومـن الثوار الذين تبعوهم.

ولكن، وبنفوذ سعادتكم، فلن يصلنا أذي من جانبهم. كما إننا لا نعيره إهتماماً (المهـدي). وسينصرنا الله عليه بقوة الحكومة وسمعتها ورهبتها التي نستمد منها فخرنا وشرفنا، عـن طريـق سعادتكم وإنعامات الخديوي.

وبخصوص مكاشفتنا هذه لكم، فأننا واثقون من ورود الإجابة ونصلي من أجل ذلك. وفـي هذه المرة التي نكتب لكم فيها، سيقوم مبعوثنا بأخذ الخطابات من هنا، وعندما يصل إلى القضارف أو

دوكة يفاجأ بمن في انتظاره لأن الثوار سيقومون بتعذيبه عندما يلاقونه في الطريق. هذا هو الـذي منعنا من الكتابة لكم مؤخراً لكننا، رغم ذلك، على اتصال دائم بالمديرية. وفي الطريق إليهـا فقـدنا رجلين بأيدي المتمردين من مناطق الضانية والبوكاد على طريق تُمْرُك.

(إمضاء) صالح إبراهيم
مأمور، وناظر القلابات،
مفتش مركز، وضابط.
ذو الحجة ١٣٠١
(٢٢ سبتمبر ١٨٨٤)

وقد نذكر بأنه قد تم حث الملك يوحنا ليرسل نجدة للقلابات. وقد قام الكولونيل تشيرمسايد أيضاً، في أغسطس ١٨٨٤، بإرسال الصاغ سعد رفعت، كمفوض مصري لدى الحبشة، للمساعدة في العمليات القادمة والجاري الإستعداد لها بنشاط شديد الآن.

غادر سعد أفندي رفعت عدوة، ومعه قوة حبشية كبيرة، فـي ٢٧ ينـاير ١٨٨٥ ووصـل بالقرب من القلابات حيث تمكن من تحذير صالح بك (وتنبيهه لما سيتم).

وبحركة تم الإعداد لها جيداً قامت القوات المشتركة بالهجوم علـى العـرب المحاصـرين (للمدينة) وهزمتهـم ونجحـت في إخراج الحامية والسكان البالغ عددهم حوالي ٣٠٠٠ رجل وأمرأة وطفل. ونجح الأخيـرون، تحـت حراسة الحبش، في الإنسحاب عـن طريـق غونـدار، واقـدي، والموضة، ووصلوا مصوع بنهاية مايـو. وهنا مكث معظم غير النظاميين بعوائلهم بينما عاد إلـى مصر ٦٧٠ فرداً.

كما وصلت قوات أماديب بسلام إلي مصوع في العاشر من أبريل ووصلتها حامية سـنهيت يوم التاسع عشر.

وفي أوائل ١٨٨٥ بدأت المؤن الغذائية في كسلا في الهبوط بشدة بينمـا قامـت القبائـل المعادية باعتراض الواردات من الذرة من الجهات المجاورة. ومرة أخرى توسل المدير أحمد بك عفت للإسراع بتعزيزه، وأبلغ هو وقائد القوات على حدود الحبشة، خور سو باشا، بـأن مخـزونهم مـن الطعام لا يكفي لأكثر من شهرين.

وبنهاية فبراير تقرر إرسال قوة بريطانية أخري لسواكن وكان في تخطيطهم أنـه عنـدما تسقط بربر بيد حملة الإنقاذ النيلية، فأن القوتين البريطانيتين ستكونان قد إلتقتا وستعملان سوياً على إسقاط المهدي. وعندما وجد أن من المستحيل إحتلال بربر قبل الخريف، ثم تعـديل خطـة الحملـة المقررة من سواكن وتم إستبدالها هذه المرة لتعمل على سحق عثمان دقنة، واحتلال بلاد الهدنـدوة وإقامة خط للسكة الحديد يمتد حتى أرياب، ريثما يتمكنون فيما بعد من توصيله إلي بربر.

وطبقاً لهذه الخطة ثم تعيين الجنرال السير جرالد جراهام مرة أخرى قائداً للقوات (بسواكن) ووصل إليها في ١٢ مارس.

وتم تعزيز القوات البريطانية بلواء من القوات الهندية بقيادة البريجادير جنرال ج. هدسون، من أركان قوات البنغال، إضافة لفرقة أسترالية. بلغ تعداد كل القوات أكثر من ١٣٠٠٠ رجل. وعين الميجر جنرال جريفز رئيساً لهيئة الأركان للقوات.

أصبحت عمليات هذه القوات جزءاً من التاريخ ولا ننوي الاستطراد فيها. ويكفي أن نقول بأن معركة ناجحة قد جرت في هشين في العشرين من مارس وأخري في توفريك في ٢٢ مارس وفيها ألحق العدو، عندما هاجم زريبة ماتيل فجأة، خسائر جسيمة بالبريطانيين. ورغم ذلك تم صدهم بعد مذبحة عظيمة حيث قامت القوات (البريطانية) بعد ذلك باحتلال طماي، الموقع الحصين لعثمان دقنة، في الثالث من أبريل وأحرقت قريته.

وبعد وصول اللورد ولسلي في ٢ مايو تقدمت القوات نحو أوتاو وتهاكول وتم تشتيت العدو في السادس من مايو وتغنيم عدد كبير من المواشي.

وبدأت حمله الإنقاذ الإنسحاب من سواكن يوم ١٧ مايو وبقي في سواكن الجنرال هدسون قائداً عاماً لقوات مختلطة من البريطانيين والهنود والمصريين. وبعد بضع شهور تم استبدال تلك القوات بحامية مصرية عادية.

وفي تلك الأثناء أخطر الكولونيل تشير مسايد مدير كسلا بأن الخرطوم قد سقطت، وبأن حملة الإنقاذ البريطانية المزمع إرسالها لسواكن قد تعمل علي جذب اهتمام القبائل المعادية عن حصار كسلا، وأن عليه بالتالي التشاور مع الشخصيات القيادية والعمل على تقرير مصير المدينة سواء بإخلائها أم بالصمود فيها. وفي نفس الوقت تم تفويض المدير ليطلب المساعدة من الملك يوحنا، إذا ما تقرر الإخلاء، وأن يعده بتسليمه ١٠٠٠٠ بندقية، وربما يقدم للقبائل المجاورة ٥٠,٠٠٠ قطعة أخري مقابل مساعدتهم في تنفيذ إخلاء كسلا بسلام من كل رجال الحامية وكل الذين يرغبون في مغادرتها كذلك.

ومن المشكوك فيه أن تكون الحملة الأخيرة قد نجحت في صرف انتباه قبائل منطقة القاش عن حصار كسلا، لأن عثمان دقنة كان قد أخذ قواته المحاربة، لمقاومة البريطانيين، من قبائل الجنوب.

وحتى ذلك الوقت كان استنفار الثوار في تلك القبائل أو من قبائل القاش محلياً وظاهراً. ولم يتأثر أي منهم بما يصيب الآخر من نكسات، ولم يطلب قسم منهم المساعدة من القسم الآخر. وكان الإقليمان بعيدين عن النيل بمسافات شاسعة لدرجة عدم مجرد التفكير في طلب الدعم أو المساعدة من تلك الجهات ولم تدخل في حساباتهم. بل كانا يعتبران بأنهم ليسوا فقط قادرين علي النهوض بالحرب المقدسة في مناطقهم فقط، بل يعتبرون بأن هذا من واجبهم وبدون الإستعانة بالأخرين. لهذا السبب كان لسقوط الخرطوم أثر ضئيل علي أحداث شرق السودان لا يزيد عن أبتهاجهم بما يعتبرونه تحقيقاً لنبوءات المهدي.

وبدأ العرب يتململون. فبعد أن عادت لهم ثقتهم في أنفسهم في السنة الماضية، بعد أن أكد لهم عثمان دقنة بكل اعتداد، وهو ما لا يشكون في قوله، بأنه ورغم الهزائم المؤقتة التي لحقت به إلا أنه قد تمكن من طرد الإنجليز من بلادهم، إلا أنهم رأوا في عودة الإنجليز ثانية تكراراً لما حدث من

قبل، علي الرغم من أنهم كانوا ينظرون لتحركات الإنجليز التكتيكية علي أنها دليل على الخور وقلـة الشجاعة. فسرعان ما علم العرب بأن هجماتهم الضارية، وثقتهم في النصر، وإحتقارهم للموت لم يعد مجدياً كما كان من قبل. وأنهم، وعندما كان يبدو أنهم على وشك تدمير الكفرة، إلا أن نفس قـوتهم النارية التي لا تفتر كانت تجبرهم علي التراجع محطمين ومهزومين. وعندما بدأت الحملة البريطانية في الانسحاب لم يكن مع عثمان دقنة في طماي أكثر من ١٠٠٠ مقاتل. لكنه مرة أخري كان قـادراً على إقناع القبائل، بنفس قوة ثقته في القضية، بأن المهدية هي التي أجبرت الغزاة علـى التراجـع، وللمرة الثانية.

لكن هذه الحرب المتصلة صارت مرهقة حتى علي غلاة المتعصبين منهم، فالطعام كان نادراً وعانوا كثيراً من جراء الجوع. وربما يقال أن إنسحاب الأمرأر بدأ من هذه النقطة، وعـاد كثيـرون منهم لأوطانهم. وربما قام الباقون بكل سرور بنفس العمل، وما منعهم من ذلك ألا خوفهم من إنتقـام الشيخ محمد صدام، من العبد الرحمناب، وهو أقوي شيوخ الأمرأر في تلك المنطقة وأكثرهم إخلاصاً وولاءاً لعثمان.

ثم شرع عثمان في تدمير خط السكة الحديد، بادئاً من هندوب. وقام بتعيين حامد محمـود، كبير شيوخ الأمرأر، للعمل مرة أخرى على تجميع أفراد قبيلته. أتخذ حامد رئاسته بين أوتاو وتمبوك ونجح في حشد عدد كبير منهم من حوله، رغم أن معظمهم كان يحمل مشاعر غيرودية لعثمان دقنة. من هنا فقد رفض عثمان أن يضيف لقواته الخمسمائة رجل الذين أرسلهم حمد له في طماي.

وفي أبريل بعث عثمان بعبد القادر حسين، قاضي سواكن السابق، ليحل محل الأمير عمـر* والذي لم يكن عمله مرضياً له، ولحث الحباب** لتوحيد جهودهم معه. وقد أفلح في الوصـول لنهـر لبكا، رغم أنه قوبل بدون حماس هناك.

وفي هذه الأثناء وصل الوضع بكسلا إلى حالة حرجة للغاية. وفي خطاب حرره المدير يوم ١٣ أبريل ذكر بأن كل الحمير قد أكلت، وأنهم لازالوا في انتظار النجدة، وأنه لن يغادر موقعه أبـداً. وفي ٢٣ مايو قام العرب بهجوم ضار علي الختمية، ضاحية بكسلا، ونجحوا في احتلالهـا وذبحـوا سكانها وجرحوا السيد بكري المرغني جراحاً بالغة. وكان الكولونيل تشير مسايد قد كتب من قبل، في ١١ أبريل، خطاباً عاجلاً إلي الملك يوحنا بأن كسلا ستسقط حتماً ما لم تتم نجدتها علي وجه السرعة. ووعده في خطابه بتسليمه ١٠٠٠٠بندقية إذا ما نجح في أنقاذها.

وفي ١٥ يونيـة قام الثوار بهجوم جرئ على حصون كسلا. وكانوا قد حاصـروها خـلال الليل وهجموا عليها بضراوة في الفجر. لكن الحامية، التي كانت قد أنذرت بالهجوم عليهـا، فتحـت النيران على المهاجمين وصدتهم بعد أن كبدتهم خسائر جسيمة. بعد ذلك خرجت الحامية من حصونها وأكملت مهمتها وألحقت الهزيمة بباقي الثوار وقتلت منهم حوالي ٣٠٠٠ و غنمت منهم ألـف ثـور و١٠٠٠ خروف.

---

* تحقق السيد (محمد) عثمان المرغني عن عمر هذا للحاكم. ووصل هذا لأذني عثمان.

** الحباب قبيلة هامة تقع أراضيها بين محطة رارات، ١٧٠ ميلاً جنوبي سواكن، وبين نهر لبكا. وتمتد أراضـيها للـداخل لحوالي٦٠ ميلاً حتى بداية مناطق البني عامر.

وكانت الحامية حتى هذا الوقت تعيش على الصمغ والجلود. ومن ثم مكنتهم غنيمتهم تلك من الصمود لبضع أسابيع بعدها.

وقبـــل نهاية يونيه تلقي العرب هزيمة أخرى بالقرب من القلابات والتي كان الملك يوحنا، بعد أن أفلح في إنقـــاذ حاميتها، قد ترك فيها قوة كبيرة وعندما وصل ذلك الخبر لعثمان قـــام علـــى الفور بإرسال كل من وجده من رجال إلى كسلا، بقيادة الخضر، شيخ الحسناب، ولم يترك بطماي إلا قوة صغيرة.

وبدأت معالم تدهور قوة المهدية في ضواحي سواكن في الظهور. فقد كان الطعام نادراً منذ وقت طويل، وأهملت الزراعة في طوكر لاستنفار كل الرجال باتجاه كسلا. وأخذت روح التذمر وعدم الرضي تتفشي بين القبائل والتي شعرت بأنها لم تحصل على شي يذكر بعد كل الخسائر التي تكبدتها وأن أحوالهم لم تتحسن إطلاقاً.

وبوصول نبأ وفاة المهدي إليهم في أوائل يوليه إذدادت مشاعرهم ضد عثمان دقنة قـــوة. ولم يفلح عثمان في الحفاظ علي تحالفهم معه إلا بعد جهود جبارة وبعد إقناعهم وتذكيرهم بنجاحاتـــه السابقة وإنتصاراته. رغم ذلك فقد أعلن كثير منهم بأنهم خدعوا، ومع ذلك فقد فلح عثمان دقنة، بقوة حجته ونفوذه الشخصي عليهم، في الحفاظ على قضية المهدية في هذا الإقليم.

ووصلت أنباء وفاة المهدي إلي كسلا أيضاً في أوائل يوليه. ووضح أثر ذلك علـــى الثـــوار المحاصرين فوراً. وكان صراع حول توزيع الغنائم والمؤن قد نشب بينهم منذ بعض الوقت، ومن ذلك صراع بين مصطفي هدل، أمير هدندوة العطبرة* وبين ود حوشي، أمير هدندوة القـــاش، والحلنقـــة والجعليين. وإنضم الشكرية أيضاً لهذا الصراع وإتحدوا مع الأخيرين. وكانت هذه القبيلة قد إنضـــمت للمهدية لأنها لم تجد أي قوة مهيمنه أخرى تستند عليها.

ودارت معارك طاحنة بين الفئات المتناحرة في أبي ليل إنتصر فيهـــا ود حوشـــي وطـــرد الهدندوة إلي فيليك على بعد أربعين ميلاً من كسلا. ثم عاد إلى الختمية وقد أنتوي أن يصل مع مدير كسلا إلى تسوية واتفاق.

لكن الوضع في كسلا إذداد يأساً واستهلكت حتى كميات الصمغ والجلود وصـــار واضـــحاً للمدير عدم قدرته على الصمود أكثر من ذلك. طبقاً لذلك وافق علـــى (التفـــاوض) مـــع مناديـــب ود حوشي، والذين إنضم إليهم في تلك الفترة إثنان من المناديب المخصوصين الذان حضرا من الخرطوم وهما إدريس الجعلي وود جهرة (جارة) الدنقلاوي وخرج المدير بنفسه ومعه عدد من كبـــار رجـــال المدينة، يوم ٣٠ يوليه، وجلس الجميع تحت أجمة من شجر الجميز وتم إقتراح بهدنة تستمر لثلاثـــة أشهر. كان هذا يعني في الواقع الإستسلام. فقد تم الاتفاق علي الحفاظ على أرواح الســـكان ورجـــال الحامية. ولكن، وفور أن تم تسليم السلاح فقد بدأت المعاملة تسوء وكان من المعتقد أن الأهالي قـــد خبأوا أموالهم ولهذا تفشت كل أنواع المعاملة السيئة والتعذيب والقسوة والسرقة.

---

*وهو البحر الأسود، كما يسميه العرب، هو مجري مائي متقطع، بالرغم ن أن طوله يبلغ حوالي ٥٥٠ ميلاً. وخلال شهور فبراير ومارس وأبريل ومايو يجف تماماً وخاصة في أدني المجري ولا توجد مياهه إلا في المنخفضات المنعزلة. وعندما تهطل الأمطار فأن عمق مجراه يتراوح بين ٢٥ – ٣٠ قدماً بينما يصل عرضه في بعض الأماكن إلي ٥٥٠ ياردة. هـــذا وينتهي العطبرة (بالجبل) بالدامر وراء بربر ومياهه تمد مصر بالطمي الشديد الخصوبة.

وأثناء ذلك علم عثمان دقنة بالصراعات بين القبائل وبما وصل إليه الحال بكسلا، فقام بجمع عدد من أتباعه الأشداء وتوجه للمدينة ووصل إليها في منتصف أغسطس. وبعد أن اطلع علي مجمل الأوضاع بكسلا، قام بتعيين الأمير عبد الله أبو بكر للقيادة بكسلا ثم أنصرف لمقابلة القبائل المجاورة والهدندوة المشتتين ورفع معنوياتها وشرع في الإستعداد لمواجهة رأس ألولا الذي قيل أنه زاحف الآن لنجدة كسلا.

وكان الكولونيل تشير مسايد، أثناء فترة عدم معرفة مصير كسلا أو ما جرى لها، قد استخدم كل طاقته وأعصابه وجهوده لدفع الحبش للتقدم نحو كسلا. وفي اليوم الخامس من أغسطس بعث ماركو بولي بك، مساعد مأمور مصوع، إلى أسمرا ومعه هدية مكونة من ١٠٠٠ بندقية و٥٠٠٠٠ دولار يسلمها للرأس ألولا مع رجاء حار وعاجل بألا يضيع أي وقت لبدء تحركه. وفي العشرين من أغسطس كتب رأس ألولا عدة خطابات للكولونيل تشير مسايد مضمونها أنه سيتحرك بعد الأحتفالات بعيد القديس يوحنا (١٣ سبتمبر)، وأنه الآن يقوم بجمع المواشي لنجدة حامية كسلا بها.

وقد إزدادت قوة الراس ألولا بانضمام قوة كبيرة من البني عامر، بقيادة شيخ موسى محمد (الذي حل محل بخيت بك*)، والذي كان يعمل بتوافق مع السيد بكري المرغني، رجل كسلا. وبهذا ارتفعت قوات الرأس ألولا لتصل إلى عشرة الف رجل.

وعند نهاية أغسطس قام عثمان دقنة، مصحوباً بالأمير مصطفى هدل، ومعهم قوة عسكرية تقدر لما بين ٨٠٠٠ - ١٠٠٠٠ رجل، بالتقدم من كسلا نحو كوفيت (وهي محطة صغيري في إقليم باريا كانت القوات المصرية قد احتلتها من قبل وأعتبرتها (حامية حدود) وذلك حتى استسلمت باريا وبازي لمصر وعندها تم تقديم خط الحدود للأمام حتى حدود حماسين).

وهنا توقف الجيش العربي بعد أن عزز نفسه بما استطاع حشده من رجال وظل في انتظار هجوم الرأس ألولا. كان مصطفي هدل واثقاً من النصر لدرجة أنه أرسل التحدي الآتي لعدوه:

"من العبد المخلص لله مصطفى هدل

إلى ملك الكفرة، وإلي شيطانه راس ألولا، وإلى موسى محمد زعيم قبيلة البني عامر، وإلى كل الزعماء، وإلى كل رجل منكم:

بسم الله الرحمن الرحيم......... الخ.

أكتب لكم لأفيدكم بأنني أعلم بقولكم بأنكم ستحضرون قوات إنجليزية لتشنوا الحرب على أتباع الرسول. لكن ما تقولونه كله عبارة عن أوهام، لأنهم لم يحضروا. وتقولون الآن بأنكم ستحاربونني بجيش حبشي، لكنكم في هذا الصدد لن تفلحوا.

لقد قرر أمير الأمراء، عثمان أبوبكر دقنة، أن يغزو كل المديريات. وقد وصل لكسلا حيث انضم إليه كل المواطنين، وقد وصلنا نحن الآن إلى الجبال المجاورة لكم. عليكم أن تقدموا لملاقاتنا، ولا تتأخروا! أما إذا لم تتمكنوا من الحضور وخفتم منا، فعليكم أخطاري عن طريق حامل هذه الرسالة

---

* هذا الشيخ المخلص توفي في ديسمبر ١٨٨٤.

وسأتقدم نحوكم بأنصاري وسأنقض عليكم وأزيلكم من الوجود وأحطمكم أنتم وكل الذين لا يؤمنـون بالله ورسوله لتلحق أرواحكم وتصطلي بنيران الجحيم.

١٨ ذو القعدة

٢٩ أغسطس ١٨٨٥

غادر رأس ألولا أسمرا في ١٥ سبتمبر ووصل إلى كوفيت مساء الثاني والعشرين من سبتمبر، حيث وج أن عثمان دقنة قد أحتل الحصن ومعه قوة تقدر بحوالي ٨٠٠٠ من العرب.

وأرسلت الخيالة الحبشية صباح اليوم التالي للإستطلاع ولكن إطلقت عليهم نيران حامية. قام ألولا بإرسال نائبه في القيادة، بلاتا قبرو[*] بقوات المشاة وبدأت المعركة الشاملة. فعند اقتراب الحبش قام الحرابة من العرب بمغادرة تحصيناتهم وهجموا عليهم ودخلوا معهم في إشتباكات يداً بيد إنتهت بقتل بلاتو قبرو وسبعة آخرين من زعمائه وعدد من الحبش.

شاهد راس ألولا النكسة التي حلت بهم. فوضع نفسه في قيادة الجيش الاحتياطي وصاح قائلاً: وأما إن ننتصر أو نموت

وهجم على العدو. قتل فرسه من تحته وظل يقاتل راجلاً لبعض الوقت. قاتل علي نورين، زعيم السبدرات، بشجاعة ضارية وشيئاً فشيئاً بدأ العرب في التراجع. في هذه الأثناء إندفعت أجنحة الجيش الحبشي نحو المنطقة التي بين العرب والتحصينات ومن ثم منعت العرب من التراجع وقام البني عامر وخيالة الجدين بمساندتهم في الهجوم وهزموهم وطاردوا العرب لمسافة بعيدة.

كانت المذبحة فظيعة وقتل في الميدان أكثر من ٣٠٠٠ من العرب بمن فيهم كبار الأمراء، ما عدا عثمان[*] إضافة للذين قتلوا أثناء المطاردة. أما الأحباش ففقدوا حوالي أربعين ضابطاً و ١٥٠٠ من رجالهم إضافة لأعداد كبيرة من الجرحى.

وبقي رأس ألولا ليومين في كوفيت ثم عاد لاسمرا. وقد أوردت عدة أسباب عن عدم مواصلة تقدمه نحو كسلا، منها أن الأمطار عاقته عن مواصلة إندفاعه نحوها، لكن المعتقد غالباً هو أنه ظن أن هذا النصر الواضح الذي أحرزه سيمكن الحامية من الإنسحاب بدون عون أضافي منه. ولم يكن يعلم بأن كسلا، قبل هذه الحرب الأخيرة، قد أستسلمت وأن كل سلاح الحامية أنتقل لأيدي العرب.

وفي ٢٢ أكتوبر دخل راس ألولا أسمرا دخول الفاتحين ، وهو علي رأس جيشه ويتقدمه القساوسة بكامل أزيائهم الكهنوتية، أما جنوده المنتصرون فقد ساروا وراءه يحملون غنائمهم من الأسلحة والبوارق وينشدون أغاني النصر وأهازيجه. وكان ألولا، في مقدمتهم، تسبقه منصة عالية نصبت فيها راية عثمان دقنة.

---

[*] عم ألولا وحاكم سنهيت.

[*] لوقت طويل كانوا يعتقدون بأن عثمان دقنة قد قتل أيضاً بعد أن تواترت الأنباء بذلك . ولكن لم يمض طويل وقت حتي عاد ذلك الزعيم الجسور إلي الميدان مرة أخري.

أما الزعيم المهزوم، والذي يوجد في كل مكان، فقد توجه نحو كسلا حيث أنزل نقمته وانتقامه على الأسري التعساء. وفي العاشرة من صباح اليوم الذي تلي وصوله لكسلا ثم قطع رأس المدير، الذي صمد للحصار المحكم لثمانية عشر شهراً. وقتل معه أيضاً حسن أغا. سر سواري الباشبوزوق، وإبراهيم أفندي شوقي، الباشمعاون، وإثنين من التجار هما ستيلو أبوستوليدي وتادرس منسي. وبعدها تلاشت الحامية.

ثم إلحاق بعضهم برايات الأمراء بينما أرسل البعض الآخر للخرطوم مثلما أرسلت لها حمولة ٦٠٠٠ جمل من الغنائم وعاد الزعيم المنتعش دائماً، عثمان دقنة، مرة أخرى زعيماً بلا منازع علي شرق السودان.

الجيرة

ظلت حامية الجيرة ورجالها تحت الحصار الشديد لعدة أشهر حتى تمكن الأحباش من إخراجهم بسلام وتوجهوا بهم في الثاني والعشرين من يوليه ١٨٨٥ إلى غبتة في مديرية وولكايت. وهنا تم إطعامهم وكسوتهم بأمر من الملك يوحنا، والذي أخطر الحكومة بأنه سيرسلهم إلي أسمرا عقب إنتهاء موسم الأمطار.

قدر عدد الحامية بحوالي ٥٠٠٠ رجل وإمرأة وطفل ولم يتمكن القسم الأول منهم من الوصول لمصوع إلا في أوائل فبراير ١٨٨٦، ومنها أرسلوا للقاهرة.

وفي تلك الأثناء اتخذت الأمور منحي طيباً في منطقة سواكن بعد مغادرة عثمان لها وتوجهه لكسلا. فبعد ثلاثة أيام من مغادرته لطماي، قام الشيخ حامد محمود بإرسال وفد من شيوخ الأمرأر إلي المدير، وإلي الميرغني، وإلى محمد بك علي، بغرض إعادة ترسيخ العلاقات الحميمية بين الحكومة والأمرأر. وكانت النتيجة مرضية تماماً. ومنذ ذلك الوقت توقف الأمرأر عن تقديم أي مساعدة لعثمان دقنة.

وظهرت أولى علامات إنهيار سلطة المهدية هنا وسط الهدندوة. فقد ترك عثمان إبن أخيه فاي دقنه في القيادة أثناء غيابه. وقبل شهرين من ذلك كانت (مشاعية الملكية) التي كانت ممارسة بين القبائل، في غمرة ولائهم لقضية المهدية، قد توقفت. لذلك كان فاي مضطراً لفرض الضرائب على القبائل المجاورة حتى يتمكن من تموين قواته الصغيرة المحدودة. وكانت فئة الضريبة ثلاثة دولارات (ريالات) علي كل خمسة وعشرين رأساً من الغنم. ونفس المبلغ علي كل جمل.

وكان أول من أعترض على هذه الضريبة الشيخ موسى قديف، من الحامداب، والذي كان حتى ذلك الوقت من غلاة أتباع عثمان دقنة، لكن فاي، رغم حتفه علي ذلك التغيير في المواقف، كان عاجزاً عن فرض الضريبة.

لكن إمدادات الذرة، والتي كانت غير مضمونة لحد ما، بدأت الآن في التدفق بكميات كبيرة عن طريق البشاريين، الذين أقاموا معسكرهم في خور شيناب، علي بعد ١٦٠ ميلاً علي الشمال من سواكن، حيث احتفظوا بتجارة مزدهرة مع جدة وغيرها، وخاصة تجارة الرقيق والممنوعات.

وقريباً من نهاية أغسطس تم إرسال السفينة الحربية البريطانية (جرابلر) والسفينة (مخبر) لتشتيت شمل ذلك المعسكر. قامت السفينتان بقصف المعسكر بالمدافع قبل نزول رجالهما للساحل حيث شتتوا شمل العرب وأسرزا عدداً منهم وصادروا كميات من البضائع. وقتل منهم بحار واحد واثنان من العرب العاملين في السفينة مخبر. ثم رجعت السفينتان رغم أن الثوار ظلوا بالمناطق المجاورة ولم يبارحوها.

***

(الأحباش والإيطاليين)

وحتى هذا الوقت لم يتعكر صفو العلاقات الحميمة التي نشأت بين الأحباش والإيطاليين. وكان الأحباش قد إدعوا دائماً السيادة علي الحباب ودرجوا على طلب الجزية السنوية منهم. هذه القبيلة هي حقاً من أصول حبشية، لكنها منذ وقت طويل قد امتزجت مع القبائل العربية بالجوار، بل أنها دفعت الجزية لمصر منذ إحتلالها لمصوع، وذلك قبل حوالي ثمانين عاماً. لذلك السبب فقد قوبل طلب الأحباش بالرفض من جانب الحباب مما دعي بالأحباش، لتدعيم مطالبتهم، بإرسال قوة عسكرية إلى مناطقهم.

وفي العاشر من أكتوبر وصل كنتباي، شيخ الحباب، إلى مصوع وطلب من السلطات الإيطالية أن يمدوه بالسلاح والذخيرة بزعم أنهم يريدون إستخدامها ضد الثوار. قوبل الشيخ باستقبال حافل مما أثار حتف الراس ألو لا، والذي كان يستشعر وخذ الندم والغضب المرير علي تقدم الإيطاليين إلي سهاتي، مما دفعه لطرد الطبيبين الإيطاليين الذين أرسلا له لمعالجة جرحي معركة كوفيت. أكثر من ذلك فقد طالب الإيطاليين بارسال كنتباي إليه. رد عليه الجنرال ساليتا بأنه أعتبر أستقباله الحافل لكنتباي مجاملة كبيرة للأحباش وإرضاء لهم. لكن راس ألولا رفض التهدئة بل أوقف كل برامجه القادمة لإخراج الحاميات المصرية وإنقاذها.

وفي سبتمبر عاد القاضي السابق عبد القادر حسين من مهمته الفاشلة إلى الحباب ولم يوفق أبداً في إعادة ولائهم للمهدية.

ظل عثمان دقنة في كسلا. وكان قد قام بجهود لتجميع قوات كبيرة للهجوم علي الأحباش إنتقاماً لهزيمته الأخيرة. لكن الخليفة أمره بوقف إستعداداته تلك، والإلتفات مرة أخرى لسواكن.

أما طوكر فقد كانت بها حامية صغيرة للعدو. وقامت وفود من شيوخها بالتوجه لسواكن بغرض أن تتحرك الحكومة نحوها قبل أن ينتهي الحصاد ويمنعوا عثمان دقنة من التمركز فيها. لكن لم يكن في النية تغيير (الحالة الدفاعية) إلي حالة هجومية. وعندما تحقق (الثوار) من ذلك أشاعوا بأن الحكومة خائفة من مغبة التوجه إليهم. بل أعلن عثمان بأنه سيعود قريباً من كسلا لفرض الحصار على سواكن. وعادت الثقة إلي نفوس القبائل وأرسلت كميات كبيرة من الذرة لطماي وأتخذت كل الإستعدادات توقعاً لوصول عثمان.

وفي ديسمبر إذدادت جموع الثوار في طماي وقاموا بشن غارات متكررة علي ضواحي سواكن وغنموا عدداً من الجمال، بل أن أحد جنود الفرقة البريطانية الراكبة قد قتل.

وبنهاية الشهر أرسل عثمان تعليمات للأمراء للتجمع في خور شيناب وأرسل الشيخ محدد آدم سعدون إلي هشين للتجهيز لبدء الحصار. وفي هذه الفترة إذدادت قوة العرب كثيراً بانضمام قسم من البني عامر، بقيادة أحمد الجير، والذي، وبعد أن ساعد الأحباش ضد عثمان من قبل، تشاجر مع الرأس ألولا وعاد للإنضمام غلي الثوار مرة أخرى.

أما في الخرطوم، فقد كان عبد الله التعايشي يحكم جموع الأهالي المشاغبين بيد من حديد. وصارت مدينة أم درمان تمتد الآن لحوالي خمسة أميال بطول نهر النيل، وقد بنيت أساساً بأكواخ القش والتكول، بينما أقيم مبني أنيق من الطوب الأحمر، مزين بأشكال هندسية بديعة، فوق قبر المهدي وهناك أخذ أبناؤه الثلاثة الصغار يستقبلون أعداداً لا تحصي من الحجاج ويقدمون لهم مسبحة والدهم الراحل لتقبيلها. وقد أقيم غار بجوار القبر، لأن مصاعب (الأنبياء) تكمن دائماً في أنهم عرضة للموت ولذلك كانوا كثيراً ما يختفون ثم يرجعون أثناء حياتهم. وللأنبياء دائماً غارهم. لذلك فأنهم إن كانوا مختفين في الغار فلا أحد يعلم إن كانوا موتي أم لا. وإذا ماتوا فلا أحد يعلم إن كانوا مختفين في الغار أم ماتوا. ورغم الإعلان الرسمي عن موته، إلا أن الإعتقاد ظل سائداً، ويتم تشجيعه، بأن محمد أحمد قد يظهر مرة أخرى*.

***

وظلت الباخرة الإسماعيلية تعمل بين الخرطوم (وأم درمان) جيئة وذهاباً. وهناك في الخرطوم أخذ لبتن، بعد أن تزود بسيف وصار له مرتب نقدي، يعمل كمشرف علي المخبز والصيدلية ثم علي المصنع الذي يقوم فيه الإغريق بصنع البارود. وعادت الترسانة للعمل في إصلاح البواخر، والتي كانت أربعة منها راسية أمام المقرن لاستخدام الأمراء. وأصبح الصمغ وريش النعام يباع من بيت المال وأقيم نوع من الحكومة الآن (في السودان).

كردفان، ١٨٨٥

ظل سكان الجبال مصدراً مستمراً للمشاكل (للمهدية). وعندما غادر محمد أحمد الأبيض، في طريقه لحصار الخرطوم، ترك ابن عمه الشريف محمود عبد القادر أميراً عليها. كان لدي الأخير قوة من ٤٠٠٠ رجل لكن من بينهم كان حوالي ١٠٠٠ من قدامي الجنود النظاميين بالجيش المصري.

ولم يطرأ أي جديد علي الموقف حتى وفاة محمد أحمد حينما تم استدعاء الشريف محمود، ومعه عدد آخر من الأمراء، للحضور لأم درمان لتقديم البيعة للخليفة عبد الله. وبعد بضع أسابيع من سفره، حوالي منتصف أكتوبر، حصل اضطراب خطير بالأبيض. فقد تمرد قدامي الجنود النظاميين، وقادوا ثورة ضد العرب، وقتلوا الأمير الذي كان يقوم مقام الشريف محمود أثناء غيابه، وبد أن نهبوا المدينة اتخذوا مقراً لهم بجبل النيما، أحد سلسلة جبال النوبة، بعد أن تمكنوا من الحصول علي كميات كبيرة من السلاح والذخيرة.

* لخذ ونجت مره أخرى: يهدف بما لا يعرف، ويخلط بين مفهوم الإمام الغائب عند الشيعة وحالات الدخول في الغار المنتشرة بين المتصوفة السنة، وبنى حديثه أعلاه على هذا الأساس (المعرب).

وعندما وصلت هذه الأنباء لأم درمان، أسرع محمود عائداً للأبيض وجمع قوة عسكرية وتوجه بها نحو جبل النيما. لكن الجنود النظاميين كانوا مستعدين له. وعند هجومه عليهم يوم ٢٠ ديسمبر ١٨٨٥، تم صده بعد خسائر جسيمة. أما هو، وعندما شاهد رجاله وهم يهربون، فقد ترجل من حصانة ورفع رايته ونادي أنصار المهدية المخلصين ليتبعوه ثم أندفع بهم وسط معمعة القتال. كان قد إتبعه عدد قليل من الرجال وسرعان ما قتلوا جميعاً.

وعادت ما تبقت من قوات محمود إلي الأبيض. وقام الخليفة بأرسال إبن عمه عثمان ودآدم* إليها من أم درمان ومعه قوة كبيرة أما بقايا جيش محمود المنهزم فقد أرسل للالتحاق بالنجومي في دنقلا.

وأثناء ذلك نشبت ثورة أخري بين عرب الكواليب وتم إرسال أبو عنجنة** إليهم من أم درمان. وعند أقترابه منهم فرت القبيلة المتمردة إلى جبل الدينكا وتشتت شملها.

ووجه أبو عنجة جهوده الآن لإخضاع المك آدم ملك تقلي*** وكخطوة أولي توجه نحو جبل التمام، التابع لمجموعة جبال تقلي، ونهب وسلب المنطقة وغنم كمية كبيرة من الرقيق ومن الماشية وأجبر عدداً كبيراً من الثوار للإنضمام لحبشه. ثم توجه لجبل الداير وحاصر مك كمبو. وعندما علم بالكارثة التي حلت بقوات محمود توجه نحو جبل النيما وهاجم الجنود النظاميين المتمردين وشتت شملهم ثم عاد مرة أخرى لحصار جبل الداير.

دارفور وبحر الغزال عام ١٨٨٥

بعد إخماده للثورة بجبل مرة، بقي زقل بالفاشر بدون إزعاج لعض الوقت. أما في جنوب وجنوب شرق دارفور فقد نشبت الإضطرابات فيها وأنتشرت.

---

* هذا الأمير، والذي لعب دوراً هاماً في مقبل أحداث دارفور، يعرف غالباً باسم عثمان جانو، وهو لقب يطلق علي الرجل محمر اللون.

** هذا الأمير المهيب، والذي سيتكرر ظهور اسمه في الصفحات التاليه، كان في الأصل من عبيد الخليفة عبد الله. فإثناء حملة الزبير باشا ضد التعايشة تم أسر أبو عنجة ومكث بعض الوقت مع الزبير باشا. وعند استدعاء الأخير للقاهرة، سمح له بالعودة إلي سيده. وقد برز في باكورة أيام الثورة وتميز بشجاعته وسرعان ما صعد لرتبة الأمير. يوصف بأنه رجل قوي فارع الطول، من أصول زنجية، وكرجل له قدرات خارقة ومكرودهاء .

*** ربما نذكر بأن آدم، ملك تقلي، ظل لوقت طويل مصدر قلق للحكومة المصرية. وظل في معقله المنيع بالجبال مما استحال (علي المصريين) إخضاعه. لذلك قام المهدي في هجرته المبكرة لجبل قدير باستمالته كحليف قوي له. وقد زاره وأخطره سراً بأنه المهدي المنتظر، وأنه يسعى للحصول علي دعمه عندما يحين وقت إعلان الدعوة.
وعند بداية الثورة كتب المهدي له لمساعدته. فقام عند استلام الخطاب باستشارة قاضيه والذي لم يتردد في وصف النبي الجديد بالمدعي وبالتالي رفض آدم الإنضمام إليه. وعقب احتلال الأبيض كتب له المهدي ثانية، وفي هذه المرة قبل الدعوة وتوجه مع القاضي له لأداء البيعة. لكنه عند وصوله ألقي عليه القبض ورمى بالسجن. لكن تعلل بأن قاضيه قد ضلله. وعندما سئل القاضي عما إذا كان بالفعل قد أذنب ذكر بشجاعة أنه قد قام بذلك، وبأنه لا يزال غير مصدق بالمهدية، وبأنه يفضل الموت على الاعتراف بها. وقد تم إعدامه فوراً. وبعد وقت قصير توفى المك آدم عندما كان في طريقه أسيراً للخرطوم. وبقيت أسرته تحت الحراسة بأم درمان حتى عام ١٨٨٥ عندما نجح إبنه على المك في الهرب. وبعد ملكاً وجمع عدداً من أتباعه وتحول بعدها ليكون أعدى أعداء المهدية.

وعقب وفاة المهدي أبدي عدد من كبار الأمراء عدم رضاهم للخضوع لنداء الخليفة لهم بالحضور بأموالهم وعوائلهم لأمدرمان. وكان من بين هؤلاء الأمير مادبو، والذي كان قد لعب دوراً بارزاً عند بداية اندلاع الثورة (المهدية). وقام هو وقبيلته- الرزيقات - بتحدي سلطة الخليفة علناً. فقام الأخير بإرسال كرم الله، الذي كان أميراً علي بحر الغزال، لإخضاع هذا الأمير المتمرد وللعمل مع الأمير كركساوي، الذي كان أميراً علي شكا، لإحضاره بالقوة لأم درمان.

استخدم كرم الله في مبدأ الأمر الأسلوب الهادئ المسالم لكنه لم ينجح فقام بإرسال الأمير كتنبور إلى شكا ومعه ٦٠٠ من حملة البنادق وفي الطريق ضم إليه عدداً من العرب وفاجأ مادبو بهجوم عليه في الضعين، على بعد أربعين ميلاً إلى الشمال الغربي من شكا، والحق به خسائر جسيمة وأسر حوالي ٢٠٠٠ رجل وعدداً كبيراً من الأبقار. حاول مادبو في اليوم التالي استعادة ما فقد منه، لكنه هزم مرة أخرى. ثم أرسل كتنبور قسماً من قواته لمهاجمة معسكرات مادبو على بحر العرب، بينما قام بنفسه، مع ما تبقي من جيشه، ليعمل على أسر مادبو. لكن الأخير نجح في الفرار، عن طريق دارا، إلي عرب البني هلبه.

وخشية من كتنبور أن يهاجم تلك القبيلة القوية، قام بطلب تعزيزات من بحر الغزال، ووافق كرم الله، بعد الحصول على إذن من الخليفة، على أن يمده بها.

وفي ديسمبر ١٨٨٥، كان كتنبور لا يزال في دارا، عاجزاً عن اتخاذ أي إجراء ضد مادبو.

وفي تلك الفترة كان زقل قد تلقي أوامر متكررة للحضور لأم درمان. لكنه، وربما خوفاً وتشككاً من نوايا سيده الجديد، تلكأ في التوجه لأم درمان متعللاً بكل ما يمكن تخيله من أعذار، وعندما اقترب عام ١٨٨٥ من نهايته كان لا يزال مقيماً بالفاشر

•••

الاستوائية في عام ١٨٨٥

أما في الاستوائية، فقد كان أمين بك لا يزال في اللادو بينما كانت نقطته المتقدمة في أمادي تحت الحصار. وفي السادس من يناير تسلم خطاباً من كاتبه عثمان أرباب، والذي، كما نذكر، كان أحد أعضاء وفد التسليم لكرم الله، أفاده فيه بأنه قد وصل لمشارف أمادي ومعه قوة قدرها ٤٠٠ رجل، وأنه لا زال في انتظار وصول تعزيزات له من برنجي زبير، وأن المقاومة لا جدوى منها وأن كل السودان قد أنضم الآن للمهدي والذي وصل نفوذه حتى مشارف سواكن. وأكثر من ذلك، فأن كرم الله قد أخبره بسقوط الخرطوم. وأرفق مع خطابه عدة رسائل من كرم الله تشتمل على منشورات من المهدي وعلي طلب بالانضمام إليه. وأجاب أمين على تلك الرسائل بأنه في انتظار قدوم عثمان أرباب إلي عاصمته قبل الوصول إلى إتفاق. وفي نفس الوقت اتخذ كل الترتيبات للعمل على سحب مختلف الحاميات أكثر إلي الجنوب. وفي ٢٣ يناير توجه دكتور يونكر نحو أنفينا* ليعمل ما في وسعه للإتصال مع المبعوثين اليوغنديين، والذين أمل من خلالهم إرسال رسائل، عن طريق زنجبار، إلى

---

* زعيم المقاونقو والشيقالو وجزء من إقليم اللاتقو

الحكومة المصرية وليوضح لهم أحوال المديرية التي يحكمها أمين. كما عاد الآن الكابتن كاساتي إلى اللادو قادماً من مكراكا.

وفي الثلاثين من الشهر عادت الصنادل التي كانت قد أرسلت لبور بدون أي نتيجة. فقد رفض الضباط، الذين لهم عوائل كبيرة، التحرك براً معهم لأن الصنادل المتاحة لهم كانت قليلة وأصغر من أن تكون ذات فائدة لهم.

وقام أمين مرة أخرى بإرسال ذرة لهم وكرر أوامره للقمندان بالانسحاب. وأثناء تلك الفترة وصلتهم أخبار عدة من أمادي، التي تقلصت حاميتها لدرجة خطيرة من جراء قلة الطعام. وفي ١٤ فبراير تمت غارة ناجحة تمكن فيها الجنود من إخراج المحاصرين لهم من خنادقهم وأحرقوا أكواخهم واستولوا علي بعض الذخائر وقتلوا الأمير عبد الله عبد الصمد وأخيه. لكنهم بدلاً عن الاستفادة من هذا النجاح، أمر الضابط المسئول جنوده بالتراجع. ورغم أن الضباط والجنود ألحوا عليه بضرورة إكمال مابدأوه إلى أن شيئاً لم يتم. وعاد الضباط إلى أمادي ليغرقوا أنفسهم في الخمر بينما جنودهم يعانون من الجوع الشديد. وكان أمين قد كرر أوامره للقائد مرجان أغا للإنسحاب إلي اللادو أو مكراكا، إذا وجد أن الوضع لا يحتمل هناك. لكن أوامره لم تطع وقام أمين يائساً بتوجيه زعيم المكاراكا للقيام لأمادي مع نجدة من الرجال والمؤن. لكن هذا الأمر أيضا لم يستجب له وأصبح أمر إنقاذ الحامية يصبح يوماً بعد يوم ميئوساً منه.

وفي الحادي والعشرين من فبراير وصلت إلى اللادو معلومات بأن كرم الله، بعد أن تعزز بإمدادات كبيرة، قد بلغ ضواحي أمادي حيث طلب من مرجان الإستسلام. لكن الأخير رفض ذلك وبعدها شدد الحصار علي المدينة أكثر من ذي قبل وقطعت كل الإتصالات بها. حاول زعيم المكاراكا نجدة الحامية المحاصرة، ووصل إلى مسافة قريبة من المدينة، لكنه لم يتمكن من إحراز أي نتيجة ومن ثم تراجع إلي مكاراكا. واقتربت النهاية بسرعة الآن. وقد حاول الجنود مراراً دفع ضباطهم للقيام بغارة (على الأعداء) لكن الضباط رفضوا وبدأ عليهم الرغبة في الإستسلام. وأخيراً غمر الجنود يأس شديد وقاموا، برئاسة ستة من الضباط الشجعان بغرة من أمادي وشقوا طريقهم من بين المحاصرين واتخذوا طريق وكاراكا. ولما رأى القمندان أنه صار وحيداً، بعد أن هجره الجنود، قام بمتابعتهم ومعه الملازم رابح أغا. لكن الثوار إعترضوا طريقهم وقتلوهما وقطعوا رأسيهما وأرسلاهما لكرم الله. أما الذين بقوا في أمادي من البازنجر والمترجمين وبقية الجنود فقد أستسلموا وتولي الثوار زمام الأمور بنهاية مارس.

هذا ومن بين الذين قاموا بتلك الغارة الناجحة فقد وصل ٢٦٠ رجلاً منهم سالمين غلي واندي بمكراكا، وفي نفس الوقت تقريباً الذي وصلت فيه حامية مونبوتو، التي كانت قد أمرت من قبل بالتجمع هناك، ولكن استغرق ذلك منهم وقتاً طويلاً. وفيما بعد أتضح، وقبل سقوط أمادي، بأن القمندان مع إثنين من ضباطه قد خططوا لتسليم المدينة وأنهم كتبوا لكرم الله بهذا الخصوص، لكن بقية الضباط ظلوا موالين لشرف المهنة وخاصة الجنود والذين تصرفوا بطريقة تجل عن كل إطراء وثناء. فقد ظلوا العشرين يوماً يعيشون علي أكل جلود البقر وانتهي بهم الأمر لأكل صنادلهم الجلدية بينما كان رؤساؤهم غارقين في الفحش والفساد.

وقد شخص أمين الوضع بقوله: "كان العصيان هو الأمر السائد اليوم. وكان كل واحد لا يبحث إلا عن حماية مصالحة الشخصية فقط".

وللمزيد من المشاكل، فقد قام الضباط المدنيون والعسكريون في اللادو، وفي الأول من أبريل، بتقديم عريضة لأمين بك طلبوا منه فيها إخلاء المناطق الجنوبية وهجرها والعمل علي تركيز القوات في خط لا دو/ كيري. ورغم أن أمين كان يعارض تماماً هذا الرأي إلا أنه أضطر للخضوع للرأي الذي أجمعوا عليه كلهم وقام بإصدار الأوامر اللازمة لتنفيذ ذلك.

وفي الثالث من أبريل وصلت خطابات أخري من كرم الله وعثمان أرباب جاء فيها إخطارهم لأمين بأن أمادي قد سقطت وفيها أمرهما له للحضور إلي ذلك المكان في الخامس من أبريل وإلا فأنه (كرم الله) سيزحف على اللادو. ولا داعي للقول بأن هذا الإستدعاء لم يلتفت له. وسرعان ما تم تحريك المحطات الخارجية للثوار ودفعها للأمام حتى صارت على مسافة ثلاثة أيام من العاصمة، كما ظهرت مجاميع أخرى بضواحي مكاراكا وما جاورها. وصدرت تعليمات لقمندان تلك المحطة بالصمود لأطول مدة ممكنة، أما إذا وجد أن الوضع قد يفلت من يده فأن عليه الإنسحاب إلى اللادو.

وبعد ذلك بقليل قام فصيل من العدو بتشتيت شمل الحامية الصغيرة في كماري، بجوار واندي، وأجبروا القوات التي بها على التراجع إلى ريمو حيث إعتزموا التوجه منها صوب طريق الرجاف، لكنهم قبل أن يبلغوا الطريق هاجمهم الثوار بضراوة لكنهم تمكنوا من صدهم ووصلت القوات سالمة إلى بدين. وبحلول يوم التاسع عشر كانت كل حامية مكراكا قد وصلت بسلام إما إلى بدين أو إلى الرجاف. وقبل ذلك بيوم وصلت خطابات أخرى من كرم الله تحمل الأنباء المفزعة بأن الخرطوم قد سقطت وأن غردون قد قتل. وقام أمين في الرابع والعشرين من الشهر بعقد إجتماع ضم كل الضباط لمناقشة الحالة العامة ولإتخاذ التدابير اللازمة لإنقاذ قواتهم من الجوع. وتعمد أمين الإنسحاب من الاجتماع حتى لا يكون قرار المجلس متحيزاً لرأيه. وفي حضور الكابتن كاساتي اتخذ القرار التالي:" نظراً لعدم وجود ما يكفي من الذرة، باللادو أو الرجاف أو بدين وغيرها، لإمداد الرجال الذين جاءوا من مكراكا بها أو لإمداد رجالنا أنفسهم، ونظرا لأن الحصاد القادم لا يزال بعيداً، ولأننا حتى لو أرسلنا قواتنا في غارات بحثاً عن الطعام فأننا سنستنفذ ما تبقي لدينا من ذخيرة قليلة ونضع أنفسنا بالتالي تحت رحمة الزنوج:

وبينما نجد أنه، من الناحية الأخرى، من المستحيل الحصول علي العيوش بأي وسيلة أخري، وبالنظر لكل الإعتبارات التي جاءت أعلاه: فقد تقرر:

- إرسال النساء والأطفال للمناطق الجنوبية.
- كل المحطات لن يكون بها سوى الجنود فقط مع إبعاد كافة المدنيين عنها وتركيز كل قدراتنا علي الجنوب.
- أن خط إنسحابنا سيكون باتجاه الجنوب لأن الطريق الشمالي، وخاصة بعد بور، لا يمكن المرور منه.ولأننا لا نعلم حقيقة سقوط الخرطوم من عدمه، ولأن لنا نقاطاً قوية تدعمنا بالجنوب في دوفيللي ووادلاي حيث تتوفر لديهم الذرة والعيوش مثلما تتوفر الأراضي الخصبة هناك: فأننا نعمل علي الحصول علي فرصة مواتية نرسل فيها الخطابات والرجال لزنجبارو لمصر. أما إذا سارت الأمور بعكس ما نريد فقد نلقي بأنفسنا بين ذراعي كباريقا أو إبن موتيسا.

وشرع علي الفور في إصدار القرارات اللازمة. وتقرر الإبقاء على ثلاثة سرايا من الجنود في اللادو بقيادة الصاغ ريحان أغا أما معظم الوجهاء وكبار المدنيين فقد غادروا للجنوب من قبل.

وفي اليوم التالي توجه أمين إلى غندوكرو للإشراف على ترحيل كل ما تقرر إرساله للجنوب. ثم شرع في إعادة توزيع القوات النظامية وقسمها إلى كتيبتين تتكون كل منهما من ثمانية سرايا. كانت الكتيبة الأولي، بقيادة الصاغ ريحان أغا، مسئولة عن اللادو والرجاف وبدين وكيرى، بينما الكتيبة الثانية، بقيادة الصاغ حواش منتصر، تحمي الخط من دوفيلي وحتى وادلاي. وبعد برهة قصيرة من تحركه جنوباً، بدأ أمين في التأكد بأن تنفيذ هذا المشروع، بالانسحاب للمحطات الجنوبية، لم يتم تنفيذه إلا بفتور شديد وبعد تردد، وجاءته إشاعات تقول بأن مخططاً قد وضع للتوجه شمالاً. لذلك أرسل رسالة مستعجلة لقمندان الجنود حثه فيها علي ضرورة تنفيذ أوامره.

وقد تلقى أمين ردوداً، من جانب كل الضباط، تحمل في ظاهرها الولاء والإخلاص ولكن أمين ظل في شكوكه بأن جواً من التمرد أصبح يسود أوساط الكتيبة الأولي، وهذا ما أكدته الأحداث اللاحقة.

وبعد إقامته لبضع أسابيع في غندوكرو، والتي كانت العيوش نادرة بها، تحرك أمين جنوباً بعد أن أعطى أوامر مشددة بضرورة حسن معاملة الباريا حتى لا يجدوا مبرراً للثورة. وفي نفس الوقت أصدر تعليمات بإرسال أكبر قوة ممكنة لبور لتقوم بإخراج حاميتها من هناك.

وأثناء غياب كرم الله من بحر الغزال حدثت بعض المشاكل المحلية مع الزنوج هناك، فأسرع عائداً بمعظم قواته تاركاً المديرية لبعض الوقت خالية من الدناقله المرعبين. وعلم أمين بتلك الأخبار في أبريل وبعدها بقليل توجه نحو موجي والتي أرسل منها كميات كبيرة من الذرة إلى اللادو.. لكنه لم يتأكد تماماً من مغادرة كرم الله للمديرية إلا بعد أن ذهب إلى لابوريه. وهنا إنضم إليه الكابتن كاساتي وتحركا سوياً نحو دوفيللي، ومنها توجه كاساتي إلى وادلاي ولحقه أمين بعد ذلك ووصلها في العاشر من يولية.

كان قصد أمين من الإبتعاد كل البعد عن عاصمته هو أن يعمل على فتح قنوات الصداقة مع كباريقا، لأن دكتور يونكر كان قد فشل في الوصول لأي إتفاق مرض مع أنفينا وكاميسوا* وكان يعلم بأن كباريقا كان ودوداً دائماً معهم، وكان يأمل أن يرسل عن طريقه رسائل إلى يوغندا. لذلك أوفد رسولاً إلى كباريقا يحمل عدة خطابات له ولمسعودي في ٢٢ أغسطس.

والمقتطفات التالية من يوميات أمين تعطي صورة عن الوضع كما هو الآن:

"من المؤكد أن منطقتنا صارت الآن خالية من الدناقلة. ولكن: هل تحسن حالنا بذلك؟ ولا أحد يستطيع الجزم بأنهم، ربما، يتركزون الآن في ديم سليمان، ليعودوا في يناير ١٨٨٦م بعد إنتهاء موسم الأمطار وبعد أن يزدادون قوة بانضمام كل المتوحشين البقارة لهم. وإذا افترضنا بأنهم لن يعودوا، فنحن لا نزيد علي حفنة من الرجال، ليس معنا إلا كمية ضئيلة من الذخائر، وبدون مؤن، وبدون إتصالات من أي جهة كانت، ووسط الألاف من الزنوج المتحرشين للقتال والذين إذا ما ثاروا

---

* كاميسوا هو إبن ريونقا، زعيم الشيفالو، وخليفته.

ضدنا فلن نتمكن من الحصول علي أي نجدة من الخرطوم، قلت أم كثرت، إلا إذا ما وصلت خطاباتنا لمصر. لذا علينا أن نبعث بالخطابات مهما كلفنا ذلك من ثمن".

وفي العشرين من فبراير وصلت جوابات شفوية من كباريقا، والذي أبلغ تحياته لأمين وشدد في دعوته له بالحضور لرؤيته. رد عليه أمين بخطاب أخر مصحوباً بالهدايا. وبعد شهر وصل مندوب آخر حاملاً معه تعليمات مشددة للتأكد من أن أمين هذا هو بعينه الذي زاره قبل عدة سنوات.

بدا على المندوب التأكد من هذه النقطة، لأنهم سلموه في الحال رسائل وهدايا من كباريقا. احتوت الخطابات على شكاوى مرة من الأتراك، ومع رجاء لامين ليقوم بقتل كاميسوا وأنفينا لأنهما يسدان الطريق بينه وبين أمين، ثم علي توبيخ لأمين لعدم إخباره منذ زمن طويل بالخطر المحدق به، مما يدل على ضعف شعوره بالصداقة تجاهه.

كانت الهدايا ذات وقع طيب عليهم. وقد أشتملت علي ملبوسات أمريكية ومناديل وتباكو وقهوة. كانت كلها من الأشياء المترفة، والتي افتقدوها منذ زمن بالإستوائية. وقام أمين بتوزيعها على كبار ضباطه معلقا على ذلك بقوله:" في هذه الأيام يجب أن تكون جميعاً متساوين".

***

والآن عودة إلى الأحداث التي جرت في المناطق الشمالية: إذ لم يتم تنفيذ الأوامر بإرسال أعداد من القوات إلى بور. وبعد لأي، وعندما بدأت الحامية التحرك والتوجه إلى لا دو، أنقض عليهم الزنوج وذبحوهم تماماً. ولما سمع ريحان أغا بهذه الكارثة أرسل مئتين من الرجال إلى بور وتمكنوا من إستعادة الذخيرة المفقودة ثم توجهوا شمالاً لكنهم هزموا وتشتت شملهم على يد زنوج بحر الزراف وبدون إطلاق أي رصاصة. ولم يصل منهم إلى اللادو سوى ٤٣ رجلاً.

كان الأثر المباشر الذي ترتب على ذلك هو الثورة العارمة لقبيلة الباريا*. وفي الرابع من أكتوبر قامت مجاميع مشتركة من محاربي الباريا والدينكا والشير والنيام نيام بالهجوم على لا دو من كافة الجهات لكن تم صدهم. لكن المدينة حوصرت وصار من الضروري إرسال تعزيزات لنجدتها.

وانقطعت الإتصالات بين غندوكرو واللادو وفر معظم الأهالي من الرجاف. وقد يعزي سبب ثورة الباريا لغارات قواد المحطات باللادو والرجاف وغندوكرو، والتي يشنونها لنهب أبقارهم. وقد أضافت الهزيمة التامة للقوات في بور، والمثال الذي أوضحه تصرف الدينكا، الذين أثروا الآن من الذخيرة والبنادق التي غنموها، مزيداً من الوقود إلى اللهب. وصار على الحاميات الشمالية الآن، ورغم تحررهم من هجمات العرب وجموعهم، أن تتعامل مع الإضطرابات المحلية والتي كانت لا تقل خطورة بحال عن تحركات الدناقلة من قبل.

وشرع أمين، بعد أن رسخ وشائج الصداقة مع كباريقا، في وصف أحواله في رسائل عديدة موجهة لقناصل الدول في زنجبار وأوضح فيها خطورة أوضاعه وآماله في قيام القناصل بالإتصال بالحكومة المصرية ووضعها في الصورة. سلمت الرسائل لمندوبي كباريقا في الأول من نوفمبر مع رجاء إرسالها عن طريق المبشرين في يوغندا. وتوسل أمين للمبشرين ليرسلوا له كل المعلومات الخاصة بالأحداث التي جرت في مصر وفي شمال السودان والتي ظلت مقطوعة عنهم منذ عام ١٨٨٣.

---

* يقسم أمين باشا الباريا إلى ثمانية أقسام كبيرة هي : ١) الباري (شرق وغرب بحر الجبل). ٢) الفجولو (٣) الكاكوا ٤) المارشيا ٥) نيام براس ٦) ليجي ٧) المندراي ٨) الشير.

وفي أواخر السنة هوجمت الرجاف هجوماً ضارياً من قبل الباريا والدينكا لكنهم صدوا بعد خسارة ٥٠٠ رجل منهم قتلوا.

واستمر الحصار على اللادو. وأرسل أمين مرة أخري بأوامر مشددة لحاميتها للإنسحاب جنوباً. ولأنه كان مقتنعاً بأن أوامره لن تنفذ، فقد أرسل إمداداتاً للرجاف، والتي كانت حاميتها قد صـــدت بنجـــاح هجمات الباريا. وشرع أيضاً في الإستعداد لنجدة اللادو.

وفي ٢٣ نوفمبر وصل مندوبون من كباريقا ومعهم سبعة من الصبية مهمتهم الإسراع في نقل الرسائل ظاهرياً ولكن كان الغرض الأصلي منهم هو إفادة كباريقا بكل الأحـــداث وتوصـــيل تلـــك الأخبار له بأسرع ما يمكن. كما أرسل كباريقا أيضاً رسالة مفادها بأن حملة رسائل أمين قد توجهوا بالفعل إلى زنجبار. كانت تلك أنباء طيبة بدون شك وقرر دكتور ينكر الآن أن يحاول الوصـــول إلـــى زنجبار عن طريق بلاد كباريقا، أما أمين فقد قرر أن يرسل الصيدلي، فيتا حسن، كمندوب منه إلـــى ملك أنيورو العظيم. وفي الثاني من يناير ١٨٨٦ غادر ينكر وحسن وادلاي، على ظهر باخرة، إلـــى كبيرو على البحيرة حيث سيتوجهان منها براً نحو وجهتهما.

وبنهاية عام ١٨٨٥، كانت مديرية أمين تمتد لحوالى ١٨٠ ميلاً بشكل شريط ضيق يمتـــد من البحيرة وحتى اللادو، وهي مساحة تقدر بسبع المساحة الأصلية لمديريته قبل نشوب الثورة.

***

الغـــزو

ونعود الآن لمشاريع الخليفة لغزو مصر. إذ لم تؤثر الأحداث المثيرة التـــي جـــرت فـــي مختلف أنحاء السودان، ورغم خطورتها البالغة، على عزم الخليفة في المضي في مشروعه القديم للزحف شمالاً.

وفي عقول العرب، فهناك دائماً مشروعاً عظيماً يلازمهم. وكما فعل جنـــرالات الرســـول محمد من قبل، لحد ما، فعلي جنرالات المهدي أن يقوموا به، ألا وهو إجتياح كـــل العـــالم. كانـــت النسوة ينشدن الأغاني وكان مضمونها هو:" إلى القاهرة". وبعضهن كن يصـــفن خيانـــة القـــواد الإنجليز: فغردون، كما يؤكدن دائماً، هجر جنوده وفر إلى سنار. وكان المهدي قد ترك خطة كبري للغزو، بخط يده، وما كان تنفيذها ينتظر إلا عودة النجومي من سنار.

ولم يبعد النجومي كثيراً بسنار. إذ أن الحامية التي بقيت بعد تقدمها الكـــارثي نحـــو ود مدني قد استسلمت قبل ذلك لعبد الكريم.

وعم الفرح والسرور الجميع عند عودة جيش النجومي المظفر، يوم ١٢ سبتمبر، ومعه أبو قرجة وجبارة، ولم يعد هناك الآن ما يعطل الزحف العظيم نحو الشمال والذي، إن نجح، كـــان سيثبت ويؤكد صحة مشاريع المهدي الطموحة، ويدعم موقف عبد الله، كخليفة له، ويمحق كل نقد يوجه إليه.

ولقد مضي سيده الآن إلى الجنة وصار يأتي لخليفته المخلص في الرؤى المنامية ويخبره فيها بالنعيم السرمدي الذي ينتظر أتباعه المخلصين بعد وفاتهم. وخطابه إلى محمد الخير، الـــذي سيرد فيما يلي، هو نموذج مثير للإهتمام:

"من خليفة المهدي، وقائد جيشه، إلى كافة" الأمراء والأتباع الذين تحت إمرة محمد الخير عبد الله خوجلي"*

بسم الله الرحمن الرحيم.الخ.

تعلمون يا إخوتي بأن المهدي ما جاءنا إلا لإحياء الدين وليبيد أعداء الله والكفرة ويهدي الناس إلى الإيمان بالله وينير قلوبهم بنور اليقين. فأنتم محظوظـــون لأنكـــم عشـــتم تلكـــم الأيـــام وانضممتم إلى جيشه.

لقد شاهدتم نبذه للدنيا وتطلعه لنعيم الآخرة وكنتم العقلاء حينما بايعتموه وحاربتم معه أعداء الله نصرة للدين. والله يسر بهذا وبأولئك الذين يضحون بأرواحهم في هـــذا الســـبيل...... فالجنة هي نصيب الشهداء والذين سينعمون بصحبة الملائكة ولن يعانوا مرة أخـــرى مـــن الفقـــر والحوجة أو من البؤس والضعف والأحزان أو أرذل العمر وسيعيشون في النعيم السرمدي........

فإذا فهمتم هذا يا إخوتي فأنني أريد منكم أن تنهضوا وتضموا صفوفكم لمقاتلـــة أعـــداء الله. حاربوا في سبيل دينه علي هذه الأرض. ولهذا الغرض فأن صاحبنا محمد الخير في طريقـــه

---

* النقط............ هي أوصاف نعيم الجنة. والخطاب تم إختصاره ما عدا الفقرات التي لها أهمية خاصة (المعرب).

لدنقلا وعليكم الإنضمام إليه والتوجه معه بدون تأخير أو أعذار إذا ما كنتم مؤمنين بالله ورسوله ومهديه وخليفته.

إنني أعلم حماسكم لدين الله. أنشطوا وتقدموا باسم الله. وقد أمركم المهدي لمتابعة الخير والتوجه معه إلى المكان الذي يشير إليه ولا تترددوا وتجنبوا العصيان وقاتلوا معه أعداء الله بعزم وتصميم. كان الله معكم جميعاً. آمين".

والتالي منشور مثير للاهتمام:

"يا أحبابي: أعبدوا الله وفكروا دائماً في الحرب المقدسة ولا تفكروا في الدنيا الفانية، بل فقط في الآخرة. وواظبوا على قراءة الراتب صباحاً ومساء. فلقد رأيت الرسول وقام بتقبيلي على وجهي وخدي وفمي وأخبرني بسروره مني ومن أتباعي وأمرني بنصح أصحابي بالمواظبة على الصلاة وتلاوة الراتب وعدم الالتفات للكاذبين الذين يحسدوننا على صلواتنا وتلاوتنا ثم قال لي: أرسل إلى النجومي وأخبره بهذا وبأن يأمر أتباعه بالمواظبة على الصلاة والراتب حتى يكونوا مثالاً يحتذي للجميع".

•••

في هذه الفترة لم تلق نداءات اللورد وولسلي للسماح له بتدمير المهدية بالخرطوم أذناً صاغية. فقد قررت الحكومة نهائياً إخلاء السودان وصدرت الأوامر بإنسحاب قوات حملة النيل والتي مكثت، بعد عودة طابوري الصحراء والنهر، بمروي وتاني والدبة وكورتي ودنقلا لحوالي ثلاثة شهور.

صدرت الأوامر. ولكن ليس قبل أن يتنبأ اللورد وولسلي في رسالة له بتاريخ ١٦ / ٤ / ١٨٨٥، بأنه لو تم إخلاء مديرية دنقلا:" فأن علينا أن نقوم بسلسلة من العمليات على الحدود، مرهقة للقوات ومزعجة لها، ومكلفة لنا في الرجال والمال....... وفي النهاية فأن علينا أن نواجه جيشاً لجباً على حدودنا".

وبينما أسرعت عمليات إخلاء دنقلا، فقد ترددت الحكومة الجديدة لبعض الوقت حول إذا كان من الحكمة التخلي عن هذه المديرية الغنية والتي كانت، منذ الإستيلاء عليها، مصدراً لجلب الإيرادات لمصر. ولكن السير ردفيرس بولر، الذي كان قائداً لطابور النهر، أبلغ بأن المؤن والمعدات والذخائر الحربية قد تم إرسالها بالفعل للشمال وإنه من الضروري أن يتم تنظيم قوة جديدة للدفاع عن المديرية ضد العدو الذي بدأ زحفه الآن عليها. لذلك تقرر الاستمرار في التراجع وأن يتم الوقوف جنوبي حلفا، حسبما كان ذلك ضرورياً، بغرض حماية خط السكة الحديد الذي يمتد من حلفا إلي عكاشة علي ضفة النيل الشرقية.

غادرت آخر القوات البريطانية دنقلا، متجهة شمالاً، تحت قيادة الجنرال برا براكنبري وبذلك سحبت الحماية البريطانية من ذلك المكان في ١٥ يونيه ١٨٨٥.

إنحلت حملة النيل. وحل محلها قوة مشتركة من القوات الإنجليزية والمصرية، سميت (بقوات الحدود الميدانية) واتخذت من أسوان رئاستها، بقيادة الميجر جنرال قرنفل. أما البريقادير جنرال بتلر فتسلم قيادة اللواء المتقدم في وادي حلفا، مع نقاط خارجية تمتد جنوباً حتى كوشة،

على بعد ٤٢ ميل جنوب نهاية خط السكة الحديد في عكاشة. وأثناء العمليات التالية التي جـرت، وقع عبء المسئولية علي هذا الضابط والذي كان، نتيجة للتصرفات الحريصة الممتازة التي قـام بها، أن توقف المد المندفع للعدو، وتوفر له الوقت لتركيز القوات والتي ألحقت، بعد ذلك بقليـل، ضربة قاصمة بجموع العرب.

وربما لا يفهم السبب في إختيار موقع بعيد كهذا في كوشة ليكون محطة خارجية. ولكن إذا نظرنا للطبيعة الخاصة بهذه المنطقة فسنجد أن هذا الإختيار كان ضرورياً.

فقد تقرر أن تتم حماية خط السكة الحديد. وكانت عكاشة، وهي نهايـة الخـط، موقعـاً عسكرياً مستحيلاً. فالجبال تحيط بها من كافة جوانبها وبالتالي كان الدفاع عنهـا متعـذراً. ومـن عكاشة، ولحوالي أربعين ميلاً، نجد أن المنطقة عبارة عن كتل من الأحجـار المتنـاثرة والجبـال المتفرقة والتي استحقت اسمها (بطن الحجر). لذلك وقع الإختيار علي كوشة كأول محطة تشـرف علي منطقة مفتوحة. فهي تسيطر على النيل شمالاً وجنوباً ولذلك أنشئت بها قلعة قوية من الطين تمركزت بها قوات الكاميرون هايلاندرز مع قسم من الكتيبة السودانية التاسعة.

***

ونعود الآن إلي العرب. فقد استوعبت ودرست الخطة التي وضع ملامحها محمد أحمـد لغزو مصر. وكان المهدي قد أعلن عن خطة التقدم نحوها في أوامره يوم ٢٦ / مايـــو ١٨٨٥. تتلخص الخطة بتقدم طابورين نهريين وثالث صحراوي (ويستحق اللورد وولسلي التحيـة لتقليـد خطته). وكان علي عبد الماجد ومحمد الخير حصار حامية حلفا وعزلها وبعد ذلك كـان علـي ود النجومي الزحف علي مصر والإستيلاء عليها. أما طابور الصحراء، والذي لم يتم تحديد قائده أبداً، فكان عليه أن يتقدم من أبو حمد نحو كروسكو وأن يعاون النجومي في غزوه لمصر.

كانت تلك ملامح الخطة التي وضعها المهدي قبل موته والتي شرع خليفتـه بإصـرار، محاولة بعد أخرى، على تنفيذها. ولكن مرت أربعة سنوات قبل أن يتمكن الأمير الشهير النجـومي من اختراق الحدود المصرية والتقدم لمسافة ستين ميلاً داخلها وقد ملأه التصميم الأعمـى لتنفيـذ مشيئة سيده الراحل.

ويعزي لوفاة المهدي إنخفاض حدة التعصب لدي المهدويين لدرجة ما. ولكـن السـبب الأساسي كان يرجع لوفرة المؤن، ولمحاولات الخليفة للتصالح والتـي رأى الآن أن مـن حسـن السياسة إتباعها في الأراضي الجديدة التي أصبحت في حوزته. لكن بدأت الغيرة تنشب بين القادة. فمحمد الخير والنجومي لن يعملا سوياً وربما كان لوجود أموال ضخمة، لا يحوزها أي من الأفراد ذوي النفوذ، أثر علي مخططاتهم.

فقد ترك غردون في بربر، مثلاً، ٥٥٠٠٠ جنيه. وعند سقوط تلك المدينة تسلم محمـد الخير ذلك المبلغ وكان كارهاً لإرساله للخرطوم، للمهدي. وإحتج بأنه طبقاً للسوابق فـأن الـذين احتلوا المدينة يستحقون أربعة أخماس الغنائم وأن يرسل لبيت المال الخمس الباقي. لكن المهـدي كان يرى غير ذلك واضطر محمد الخير لإرسال عشرين ألف جنيه إلى أم درمان. أما ما حدث لباقي المبلغ فلم يتم التأكيد عليه، على الرغم من الإعتقاد الشائع بأن محمد الخير إحتفظ بجزء كبير منه.

ومن المؤكد أن قليلاً من ذلك المال، أو لاشئ منه على الإطلاق، هو الذي وصل للمقاتلين. وعندما مر عبد الماجد ببربر، وهو في طريقه لدنقلا، دخل في مناقشات واسعة مع محمد الخير خاصة بكفيفة التصرف في مبلغ ٦٨٠٠٠ ريال كانت مودعة في بيت المال ببربر. ووصل عبد الماجد لدنقلا يوم ٢٦ أغسطس لكن محمد الخير بقي في بربر لبعض الوقت ولم يصل إلى الدبة إلا في السادس من أكتوبر.

وبارح ود النجومي أم درمان في ٢٦ نوفمبر وأخذ في جمع التعزيزات ووصل بربر في العشرين من ديسمبر. هذا وقد أنضمت فرقة من كردفان، تحت قيادة مرغني سوار الذهب، إلى قوات عبد الماجد.

ومن دنقلا، أخذ التيار غير المنتظم من الأنصار طريقه شمالاً على طول ضفة النهر، بينما تجمع قسم آخر في أبو حمد، أما محمد الخير ، مع قوة كبيرة، فتبعهم في المؤخرة.

وواجهت القوة الصحراوية المتجهة من أبي حمد نحو كروسكو عقبة كئود، ألا وهي مدى ولاء شيوخ العبابدة لهم. فقبل حين من الزمن كانوا قد حملوا مسئولية سلامة الجناح الشرقي. ورغم أن علاقاتهم مع العرب كانت غالباً مصدر تساؤل، إلا أنه لا شك، وفي ضوء الأحداث التي تلت، بأن المحصلة النهائية لنشاطهم كان في منع التحركات المعادية، على نطاق واسع، التي جرت في الصحراء من عرب أبو حمد.

***

وكانت عدة اقتراحات قد قدمت من قبل لتأسيس نوع من الحكومات المحلية بعد مغادرة البريطانيين لدنقلا. لكنها فشلت كلها واحدة بعد الأخرى.

وكان أحد أهم الزعماء الوراثيين، وهو الملك طمبل بجزيرة أرقو، قد عين مديراً مع سعيد أغا في الدبة، وعين الشيخ محجوب إدريس علي إقليم السكوت والمحس ليقوم بدعمه ومساندته. ولكن كان من الواضح أن هؤلاء الرجال لن يتمكنوا من الصمود أمام تقدم العرب. وبالتالي انحصر دورهم في الحكم حتى وصول قوات المهدية لهم. ولم يتردد سعيد أغا في الإنضمام للمهدويين. أما الباقين من الحكام فكان حالهم يدعو للرثاء ويزداد سوءاً كلما قارب العرب الإطباق عليهم.

وعندما وصل الأمراء شرعوا في تجنيد الأهالي فكانوا يأخذون من كل ساقيه رجلاً أو أثنين. لكنهم لم يسيئوا معاملتهم لأنهم كانوا مصدراً للمؤن وللمعلومات.

وفر الملك طمبل مع خشم الموس باشا، الذي كان حاكماً على أقصي الجزء الجنوبي لإقليم دنقلا، إلى عكاشة تاركين محجوب محتفظاً بالمنطقة حتى حنك جنوباً. كان ولاء هذا الشيخ يمثل نقطة مضيئة وسط جموع الدناقلة المتذبذبين. فقد أنحدر من سلالة العباسيين وكان والده شيخاً شديد المهابة والتوقير، وكان أيضاً من كبار الأعضاء في الطائفة الميرغنية.

وقد استطاع محجوب من المحافظة على ولاء إقليمه كله. ولم يستسلم إلى عندما حاصر العرب منزله بالفعل. أخذ أسيراً إلى أم درمان حيث أدت المعاملة القاسية التي تلقاها إلى وفاته بعد وقت قصير.

وكان وضع زعماء وشيوخ المناطق النهرية، بين المحطات الحكومية وفرق العرب المتقدمة، وضعاً صعباً للغاية وأخذت الاتهامات تتطاير من كل مكان وامتلأ الجو بالتجسس والتجسس المضاد وبلغت الإشاعات ذروتها. وقد وصل مندوبو العرب للشمال وأصاب الهلع سكان أسوان عندما وصلتهم إشاعة بأن الحدود سيتم تغييرها من حلفا إلى أسوان، وبأن الإنجليز في سبيلهم لمغادرة مصر نظراً لنشوب ثورة ضدهم في الهند*.

وإنشغلت قوات الحدود بالاستعداد لمقابلة الهجوم الوشيك عليها. وتم توزيع القوات المقاتلة كما يلي حتى السابع والعشرين من نوفمبر:

المنطقة	بريطانيون*	مصريون
كوشة	٦٠٠	٣٠٠
مقراكة		٢٦٦
سركمتو ودال**		٢٠٠
عكاشة	٦٠٠	٣٥٠
حلفا	٥٠٠	٣٥٠

هذا بجانب فصائل صغيرة في طريق تنجور وأم بكول (الآبار) وآبار المرات وفي سرس.

وفي ٢٩ نوفمبر تمت لأول مرة مشاهدة العدو المتقدم، بواسطة الكابتن هنتر، ضابط استخبارات القوات، والذي أبرق بأن في الوسع مشاهدة مشاة العرب بأعداد ضخمة علي قمم الجبال علي الشرق من العمارة***. وفي اليوم التالي تبادلت الباخرة المدرعة لوتس النيران معهم. وجرت أول محاولة (لقطع) خطوط الإمداد في أبار أم بكول، وهي محطة صحراوية علي طريق السكة الحديد وتبعد عن عكاشة بعشرين ميلاً شمالاً. فقد قامت فرقة من العرب، بقيادة الأمير الزين، محمولين على الخيول والإبل، ومعهم بعض المشاة ومدفع واحد، بمغادرة العمارة يوم ٢٩ نوفمبر بعد أن دمروا ميلاً من خطوط السكة الحديدية.

وهاجموا في الثاني من ديسمبر نقطة أم بكول والتي كانت بها حامية من ثلاثين رجلاً تحت قيادة الكابتن فريير، من المهندسين الملكيين، والمكونة من جماعات من كتائب بيركشير ووست كنت تحت قيادة الملازمين فيتون وأنسلي. تم طردهم متكبدين بعض الخسائر. لكنهم عاودوا الهجوم في اليوم التالي وحطموا قسماً من الخط الشمالي. وتجدد الهجوم مرة أخرى في الرابع من الشهر، وكان البريطانيون قد أفلحوا في الفترات ما بين الهجمة والأخرى في إقامة ساتر قوي ليحمي مدخل الخندق وشنوا عدة هجمات بدورهم، ووسط نيران متبادلة أفلحوا في إحضار معدات التلغراف والذخائر والأغطية وغيرها وإدخالها في الحصن. كما نجحت في الدخول إلى الحصن

* انظر الكتاب الأزرق لعام ١٨٨٦ – تقرير المخابرات.
* تفاصيل القوات البريطانية ستأتي في الكروكي المرفق والذي يوضح نظام تحركها في جنس
** سركمتو في الضفة المقابلة لدال.
*** علي الشرق من ساقية العبد.

دورية من الهجانة المصرية بقيادة الملازم سعيد رضوان ومشاة راكبة بقيادة الملازم دلسلي. وكان لهذا المدد، إضافة لوصول قطار من حلفا، في الوقت المناسب، يحمل جنوداً، مع طلائع لقوة كبيرة تحت قيادة الجنرال بتلر، دوراً في دفع المحاصرين للانسحاب والتراجع وساد الارتياح العظيم رجال تلك الحامية الصغيرة والتي صمدت لثلاثة أيام بشجاعة أمام عدو جاءهم بأعداد ضخمة.

في نفس الوقت قامت الباخرة لوتس بعمل طيب، وبالتعاون مع القوات الراكبة أرهقوا العدو، والذي كان في تلك الفترة قد احتل بالقوة قري جنس وكوشة.

وفي فجر الثاني عشر من الشهر قامت مجموعة من العرب، بقيادة الأمير الكردفاني سوار الذهب، بالاستدارة حول قلعة كوشة وهاجمت قلعة مقراكة من الشمال. وهنا قام الكابتن بيسانت، وكانت تحت إمرته قوة من الكتيبة الثالثة من الجيش المصري قدرها ٢٠٠ رجل، بمواجهة الموقف، وقام بعدة هجمات مضادة على العرب ووصل حتى مسافة أربعين ياردة من موقعهم وأصابهم ببعض الخسائر.

وأثناء هذا الهجوم قام الأمير الزين بغارة علي قرية فركه واستولى على بعض الماشية والمال منها ثم إنسحب منها أثناء الليل.

وبينما تم إرهاق خطوط الاتصال وشل فاعليتها فأن العدو، على الجانب الآخر، كان يزداد قوة في كوشة وتتوالي عليه الأمداد وأصبحت قلعة كوشة الآن محاصرة تماماً من ناحيتها الجنوبية.

وهنا لابد من إشارة لمعالم هذه المنطقة، حتى يتسني لنا معرفة الوضع فيها. فمن قرية جنس وحتى مسافة قصيرة من قلعة كوشة يوجد شريط ضيق من المزروعات يمتد بطول الضفة الشرقية للنيل وتكثر فيه أشجار النخيل. وعلى هذا الشريط الضيق، وخاصة بالقرب من النيل، نجد صفوفاً طويلة من المنازل الطينية المتينة منفصلة عن بعضها البعض غالباً ولكن في بعض أنحائها نجدها ملتصقة ببعضها بكثافة، مع بعض المنافذ، مما يعطي مظهراً لقرية من قري التيه القديمة.

صارت قرية كوشة الآن في أيدي العدو تماماً. ورغم أن الأرض الواقعة جنوب القلعة مباشرة قد نظفت لمسافة ٥٠٠ ياردة، إلا أن هذا لم يمنع العدو من احتلال صخرة عظيمة سوداء اللون بارزة من طرف الشاطئ الأمامي. ومن هذه الصخرة أخذ العدو يصب نيراناً متصلة على القلعة. ولولا متانة بنائها، والحواجز والمصدات القوية، التي لا حصر لها، والتي أقيمت فيها لكانت الخسائر، طوال شهر الحصار، جسيمة جداً. وبالقرب من الصخرة عملت مجموعة متشابكة من أشجار النخيل علي إعطاء العدو وقناصيه تغطية ممتازة مما مكنه من إلحاق الخسائر يومياً علي من بالقلعة. وفي اليوم الخامس عشر من ديسمبر كانت النيران المنصبة من الصخرة السوداء ومن أجمة النخيل رهيبة على غير العادة لدرجة أضطر فيها اللفتنانت كولونيل إفريت، مع مجموعة من جنود وضباط الكاميرون هايلاندرز، للقيام بغارة مفاجئة على العدو تمكنوا فيها من طعن أربعة عشر رجلاً منهم بالسناكي، ولكن بعد أن خسروا خسارة فادحة بمجرح الملازم كاميرون جراحاً قاتلة وكذلك الكابتن هنتر كما جرح الميجر كالمرز جرحاً خفيفاً وقتل جندي وجرح ثلاثة آخرين.

وبدأ خلال ذلك تعزيز ودعم كل المحطات بسرعة ووصل الجنرال قرنفل إلى وادي حلفا في الرابع من ديسمبر ولحقه في التاسع عشر من الشهر الجنرال السير ف. ستيفنسون، القائد الأعلى للقوات بمصر، والذي كان الجنرال قرنفل رئيساً لهيئة الأركان لها.

ثم صارت نيران مدافع العدو أكثر دقة. ومن العشرين من ديسمبر اخترقت قذيفة من مدفعهم أحد مزاغل قلعة كوشة وانتزعت مدفع قاردنر من مكانه وأصابت الصاغ حسن رضوان بجراح بالغة كما جرحت شاويشاً بريطانياً وجندي آخر من الكمرون هايلاندرز.

وفي الثاني والعشرين من ديسمبر قام الجنرال بتلر ومعه ثلة من المشاة الراكبة وفصيل من الهجانة المصريين وآخر من فرقة الهوسار العشرين بجولة استكشافية من مقراكة باتجاه جنس للتأكد من مواقع العدو ومدى قوته. وقبل أن يصلوا للأرض المرتفعة تقدم العدو من جنس بقوة وتحولت العملية الاستكشافية إلى قتال بينهم. كانت خسائر الجنرال بتلر خفيفة جداً لكن العدو تكبد خمسة قتلى كان من بينهم أمير مهم من كردفان يسمي بدوي الأزرق، والذي كان يحظى، كما تأكد لاحقاً، باحترام كبير وسط العرب لما أشتهر به من شجاعة خارقة. فقد قام بمفرده، متقدماً أمام فريقه من الفرسان، بالهجوم ونجح في الاقتراب من المشاة الراكبة قبل أن يصيبه الرصاص في مقتل. وقد غنم حصانه.

واتخذت كافة الترتيبات الآن للقيام بضربة موجعة للعرب، والذين ارتفعت معنوياتهم للسهولة التي واكبت تقدمهم حتى الآن. فقد قاموا بجسارة بدفع قواتهم المتقدمة شمالاً من قرية جنس والتي كانت رئاسة قواتهم الرئيسية. وفي نفس الوقت قام ١٠٠٠ رجل منهم، مع مدفع واحد، بتهديد الزريبة الواقعة على الضفة الغربية والتي كان يسيطر عليها قسم من الكتيبة السودانية التاسعة والمصرية الثالثة. ولم يكن العرب على علم بالهجوم الذي يوشك أن يقع عليهم، كما كان أمراؤهم قد أكدوا لهم بأن الأعداد الواردة يومياً، من جمال الحمل والنقل للمواقع الحكومية، ما هي إلا للاستعداد للتراجع والإنسحاب.

وفي التاسع والعشرين من ديسمبر تقدم اللفتنانت جنرال سير ف. ستيفنسون، والميجر جنرال قرنفل، وأركان حربهما من فركه إلى كوشة واتخذوا معسكراً لهم على الضفة الشرقية. أسفل قلعة كوشة، حيث تجمعت كل قواتهم المقاتلة وكالآتي:

القوات الراكبة:

القائد: لفتنانت كولونيل بليك، من الهوسار العشرين ضابط الأركان: الكابتن إي. أر. كورتني، من الهوسار العشرين. المشاة البريطانية الراكبة: القائد اللفتنانت كولونيل س. بارو. الهجانة البريطانية: القائد الكابتن مونسل من وست كنت. الخيالة المصرية: القائد الصاغ بكر كامل. الهجانة المصرية: القائد الملازم ماريوت

المدفعية:

القائد: اللفتنانت كولونيل هيربرت، من المدفعية الملكية ملازمه: الملازم وار، من المدفعية الملكية. البطارية نمرة (٢)، اللواء الأول، قسم ساوث أيرش، المدفعية الملكية – والميجر

واتلي من المدفعية الملكية. البطارية المصرية التي تجرها الجمال: الميجر وود هـاوس. مـدافع القاردنر: الملازم ميرسر من فوج يوركشير.

المهندسون:

الميجر هبر، قائد المهندسين الملكيين، قسم قوات الحدود الميدانية، الفرقة الحادية عشر ومعه الكابتن بلاكبرن.

لواء المشاة الأول:

القائد: البريجادير جنرال بتلر

ضابط اللواء: لفتنانت كولونيل كروفتون، من فوج ساوث ستافو ردشير. ضابط الأركان: الملازم دونبي، من فوج ساوث ستا فورد شير كتيبة بيركشير: الميجر تمبل.

كتيبة وست كنت الفتنانت كولونيل تويدي.

كتيبة درم: كولونيل كوكر

لواء المشاة الثاني:

القائد: الكولونيل هويش، من فوج بيركشير. ميجر اللواء: الميجـر دكسـون، مـن فـوج بيركشير. الضابط المعاون: الملازم فيثام، من فوج بيركشير.

الكمرون هايلاندرز: لفتنانت كولونيل إفريت، في قلعة كوشة. كتيبـة يوركشـير: لفتنانـت كولونيل بنيت. فصيل من الكتيبة الأولى، من الجيش المصري. فصيل من الكتيبة التاسـعة، مـن الجيش المصري. السلاح الطبي الإنجليزي: الجراح الميجر بارو

القوات المصرية:

القائد: الميجر وودهاوس

ضابط الأركان: الكابتن سمث دورين

السلاح الطبي المصري: الجراح كيتنج

من قلعة كوشة: الكولونيل سانت ليجر، من الكاميرون هايلاندرز.

من قلعة مقراكة: الكابتن تاب

من قلعة فركة: الملازم أور، من فوج يوركشير

زريبة بورو: المالزم جب

قائد الباخرة لوتس: الميجر لويد

وفي يومي ٢٨و ٢٩ (ديسمبر) شرعت المدفعية في القصف المتواصل لموقع العدو. وفـي الخامسة من صباح الثلاثين من الشهر بدأت كل القوات في التحرك مثلما يوضح الكروكي المرفق.

وتتلخص خطة الهجوم، باختصار، كما يلي:

يتسلق اللواء الثاني المرتفعات المطلة علي جنس. وباستخدام المدفعية ونيران البنادق يقوم اللواء بالتمهيد لهجوم الكاميرون هايلاندرز والكتيبة السودانية التاسعة علي الطرف الشمالي مـن قرية جنس.

ويقوم اللواء الأول بالانحدار من حول الطرف الجنوبي للقرية ويهاجم معسكر العدو.

أما الفرسان والقوات الراكبة فعليها حراسة الجناح الأيسر للوائين وأن تندفع جنوبا عندما يتم احتلال القرية والمعسكر

وسيكون تحرك القوات على النحو التالي مفصلاً:

فالقوات الراكبة، المكونة من الهوسار العشرين، والمشاة الراكبة، والفرسان المصريين والهجانة المصرين، ستزحف خلف لواء المشاة الأول، ومن ثم تتحول شرقاً مستطلعة المنطقة خلال التقدم للقوات.

ويقوم الهجانة البريطانيون بدعم اللواء الثاني ويظل قريباً منه.

أما الهجوم على جنس فيقوم به اللواء الأول مع دعم بطاريات المدفعية المصرية والهجانة المصريين.

ويقوم لواء المشاة الثاني، مع المدفعية المصرية، بالهجوم في اللحظة الأولي علي موقع العدو بين قلعتي كوشة وجنس.

أما كتيبة اليوركشير والكتيبة الأولى للجيش المصري فعليهما التكيف والتوافق مع تحركات بطارية المدفعية اللولبية، بينما تقوم ستة أفواج من الكمرون هايلاندرز وفوجين من الكتيبة التاسعة السودانية بالتقدم بحذاء النهر لتحتل قرية كوشة والتي يفترض أن يكون قد تم قصفها ببطاريات المدفعية اللولبية.

وتقوم الباخرة المدرعة لوتس بالإبحار ببطء أمام الكمرون (هايلاندرز) وتطلق نيرانها على الشاطئ والشاطئ الأمامي.

وخلال ضوء النهار اتخذ اللواء الثاني موقعاً قوياً يبعد بمسافة ١٢٠٠ ياردة من، ومقابل، قرية كوشة. وفي تمام الساعة السادسة وعشرة دقائق صباحاً بدأت المدفعية الإنجليزية في قصف القرية. وبعد ربع ساعة من ذلك اندفعت قوات الكمرون هايلاندرز وفصيلين من الكتيبة السودانيةالتاسعة نحو المنازل بشجاعة متناهية. وتم الإستيلاء علي هذه القرية في السابعة إلا عشرة دقائق صباحاً كما تم الإستيلاء على مدفع نحاسي.

وتعاونت الباخرة لوتس في هذه العملية وأوقعت خسائر كبيرة بالعرب المتراجعين.

وفي هذه الأثناء قام اللواء الأول، بقيادة الجنرال بتلر، الذي يعرف المنطقة جيداً، بالتقدم في الصحراء المليئة بالحجارة والتلال، بعد أن وقع اختياره على قمة جبل بارز، بدافي الأفق، كخط لتقدمه. وعندما طلع النهار كان اللواء قد وصل إلى موقع بالجبال على بعد ميل جنوبي النهر وميل ونصف على الجنوب الشرقي للطرف الغربي لقرية جنس، والتي كانت بمثابة رناسة للعدو.

وحتى ذلك الوقت لم يتم إكتشاف تقدم القوات على جناح العدو. ولكن عندما أصبح الأفق الشرقي يمور بالضياء من وراء القوات المتقدمة قام العرب، بعد أن علموا بأنهم فوجئوا بالهجوم، بالاندفاع في صفوف طويلة كثيفة من القرى والأراضي المنخفضة على طول الشاطئ متوجهين للأمام. وسرعان ما إصطفت الألوية وقام حملة البنادق بفتح نيران غير منتظمة لحوالي أربعين دقيقة.

وخلال ذلك بدأت المدفعية المصرية بالاشتراك في العملية من الجانب الأيمن بينما إنتشرت قوات البيركشير إلى اليسار متقدمة بحوالي ٢٠٠ ياردة أمام المدافع. أما مشاة درم الخفيفة فقد مدت خطوطها بعيداً إلى اليسار واحتلت قوات وست كنت موقعها على الجانب الأيمن من المدافع، والهجانة المصريون على يسار مشاة درم الخفيفة. وعندما تطور هجوم العرب تم تحويل قوات الوست كنت إلى الجناح الأيسر لمشاة درم، وواكبت الخيالة التحركات العامة على مسافة من الجناح الأيسر للمشاة.

ورغم قوة النيران، إلا أنها لم توقف العدو. فقد قام عدد كبير من حملة الرماح، بعد أن زحفوا بخفية خلال خور عميق أمام خطوط المشاة، بالإندفاع فجأة نحو جدول منخفض كانت تتمركز فيه قوات الهجانة المصرية المترجلين. كان إندفاع الحرابة سريعاً لدرجة أن العساكر لم يتمكنوا من أمتطاء جمالهم وأجبروا علي التراجع ببطء أمام العرب، الذين ضغطوا عليهم بشدة وجرت بينهم عدة اشتباكات يداً بيد.

لكن عدداً من رجال العدو أصيبوا بالرصاص من القوات التي كانت على يمين الهجانة ومن فصيل وست كنت علي اليسار وتفرق باقي العرب وانتشروا بين الجبال. استدار اللواء إلى اليسار وإتجه نحو قرية جنس. وأمام تقدمهم هجر العرب قمة بعد قمة رغم عدة محاولات منهم للصمود إلا أنها فشلت كلها. وأثناء ذلك إندفع العرب خارجين من القرية باتجاه الجنوب نحو عطب. وفي تمام التاسعة والربع صباحاً تم إحتلال جنس بينما قامت القوات الراكبة بمتابعة العدو المتراجع بطول ضفة النهر. ووصل اللواء الثاني، الذي واصل تقدمه نحو جنس، إليها بعد ربع ساعة من وصول اللواء الأول. وإستمرت المطاردة حتى العاشرة صباحاً وبعدها تحول جيش العرب إلى مجاميع من الهاربين. تم احتلال معسكرهم والاستيلاء على خزينتهم وعلى أربعة مدافع وعشرين راية، كلها سقطت في أيدي القوات البريطانية والمصرية.

وتظاهرت قوات العرب علي الضفة الغربية بأنها تهاجم القلعة لكنهم عندما لاحظوا الإنسحاب من جانب الضفة الشرقية تراجعوا بدورهم بينما طاردتهم حامية القلعة ودمرت بطارياتهم وخنادقهم.

ووصف الجنرال قرنفل، في تقديره للسير ف. ستيفنسون:

"أن سلوك كل الرتب، خلال المعارك، كان راسخاً. وكان أداء القوات المصرية كلها جدير بالثناء".

ويجدر القول بأن حالة من الإخاء الرفاقي قد برزت بين الكمرون هايلاندرز والكتيبة السودانية التاسعة والتي تم التعبير عنها بأن قام الأولون بإهداء الأخيرين علماً نقشت فيه كلمة (جنس) وكانوا يرفعونها دائماً عند قيامهم بالاستعراض جنباً إلى جنب مع علم الخديوي.

وفي نفس اليوم تقدم اللواء الأول نحو عطب* بينما واصل الخيالة مطاردة العدو حتى عبري**. وفي اليوم التالي أحتل لواء الجنرال بتلر عبري. ومن هنا قامت الباخرة اللوتس،

* علي بعد خمسة أميال غرب جنس.
** في مقابلة ساقية العبد.

بمساندة من الخيالة المصرية والإنجليزية بقيادة الكابتن سمث دورين، بمواصلة المطاردة جنوباً حتى أبسرات*** واستولوا علي تسعة مراكب كبيرة ورايتين ومجموعة متنوعة من الغنائم.

بلغت جملة الخسائر المصرية والبريطانية سبعة من القتلى، من بينهم ضابط واحد شاب هو الملازم سولتاو، وأربعة وثلاثين من الجرحى.

وعلم بعد وقت قصير أن جماعة صغيرة من العدو لا تزال تحتل منزلاً في قرية كوشة، والتي كلف إحتلالها قبل ذلك حياة ضابط مصري. ورغم تكرار النداءات لهم بالخروج إلا أن الجماعة رفضت الخضوع حتى تم إحضار المدافع وقصف المنزل وتم قتلهم جميعاً.

يقدر عدد القوات العربية التي اشتبكت (مع قوات الحكومة) بحوالي ٦٠٠٠ رجل قتل منهم نحو ٥٠٠ وجرح ٣٠٠. وقد جرح الأمير عبد الماجد، قائدهم، بينما قتل نائبه عبد المجيد (عبد) الخالق، إضافة لثمانية عشرة من الزعماء.

أما بقية القوات التي تم تشتيتها فقد تجمعت في كرمة حيث كان الأمير محمد الخير في انتظار تعزيزات من بربر والتي لم يتمكن النجومي، أو لم يرد، من إرسالها له.

وقد إنتاب الغضب الشديد عبد الله التعايشي، كما قيل، على عبد الماجد، لدخوله في معركة بدلاً من أن يقوم بحصار قوات الحكومة بكل يسر كما أمره. وكانت معركة جنس ضربة قاسية على الخليفة.

***

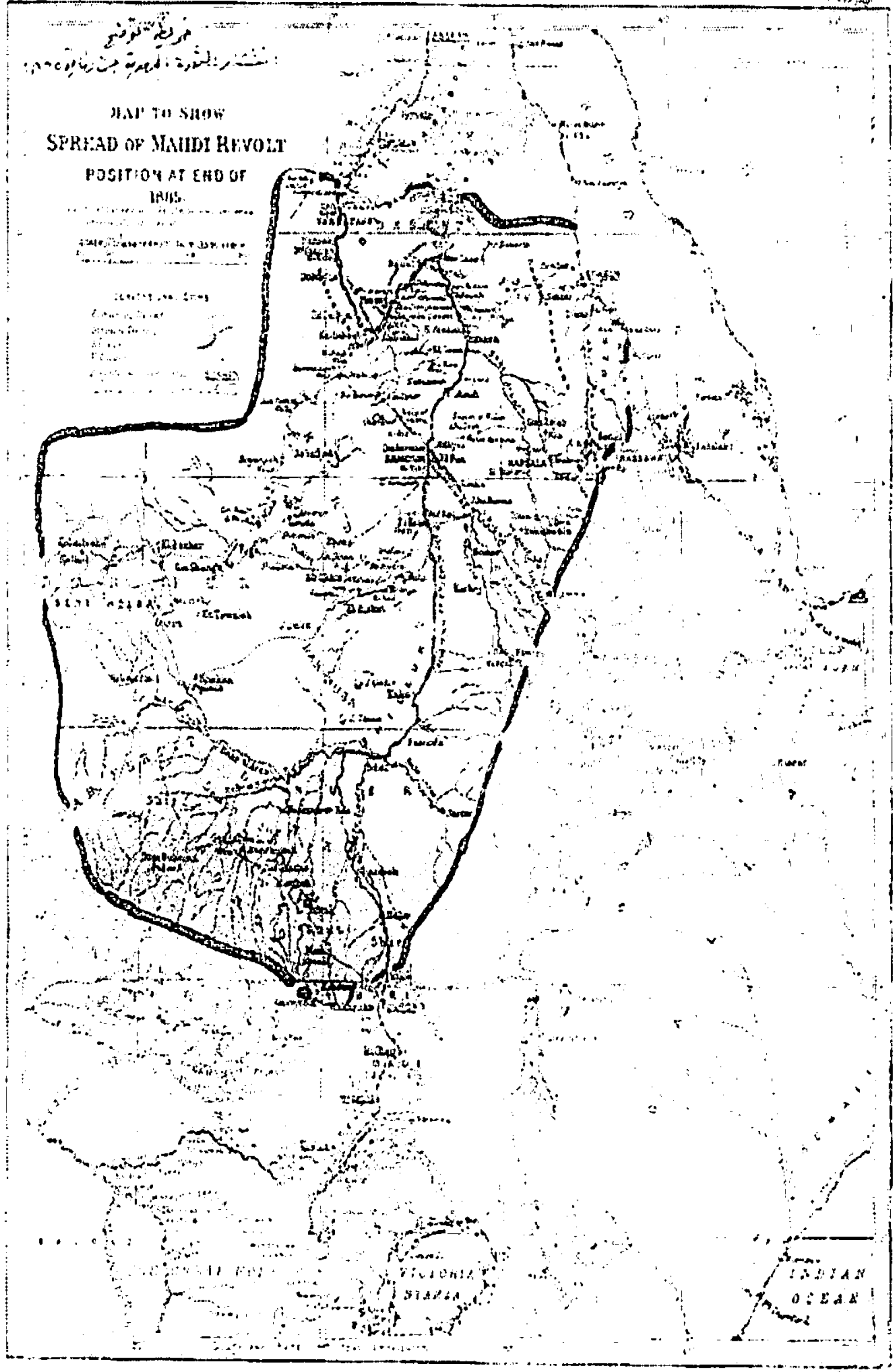
*** مقابل كوشة.

كروكي يوضح موضع القوات عند الهجوم على جنس في ٣٠/١٢/١٨٨٥

EYE SKETCH SHOWING POSITION OF TROOPS IN ATTACK ON GINNIS
30th December, 1885

British & Egyptians
Enemy
Range of Low Sandhills along River
Flat Sandy Desert
Ginnis
جنس
Kosheh
كوشة
اتجاه انسحاب العدو
سرايا البلوك الثاني
الفرسان الإنكليز
الهجانة

SKETCH SHOWING ORDER OF MARCH ATTACK UPON GINISS. 30 12 1885


MAP TO SHOW
SPREAD OF MAHDI REVOLT
POSITION AT END OF
1885.
INDIAN
OCEAN

القسم التاسع – ١٨٨٦م

الملخص:

وصف محمد الخير لمعركة جنس – لم تتغير خطة العرب للحملة (علي مصر)- القرار باعتبار وادي حلفا حدوداً لمصر – تعسكر القوات المصرية في حلفا – البريطانيون في أسوان – تأثير الإنسحاب على خطط الخليفة – النجومي يغادر أم درمان – منشور الخليفة لأهالي مصر – مجلس الأمراء بأم درمان – تعيين الأمراء الأربعة الرئيسيين – خطابات النجومي لعثمان دقنة – الأمير الزين يتقدم شمالاً – بعثة شهدي باشا – الوضع في السودان – عثمان أزرق قائداً للمحطات الأمامية – توزيع قوات العدو – النور الكنزي يحتل جماي – الجنرال مونتمورنسي يتقدم نحوه وإنسحاب العرب لصواردة- قبيلة الكبابيش – شيخ صالح – إنهاكه لجناح النجومي – تجميع قبيلته في جبل عين – كردفان – ثورة القبائل العربية ومهاجمتهم أبي عنجة – وصول الأمير زقل للأبيض قادماً من الفاشر – دارفور- أسر مادبو – كرم الله في شكا – الإستوائية، وأمين في وادلاي يتسلم خطابات من مصر – مبرراته لعدم إخلاء المديرية – الحرب بين أونيورو ويوغندة – أسباب التنافر بين الكتيبتين الأولى والثانية – رأى أمين في الأحداث بمديريته – وصول الدكتور يونكر ليوغندة – سواكن – عثمان دقنة في طماي – إنشقاق الأمرار – تغييرات في قيادة سواكن – عثمان يعمل علي أجبار القبائل للخضوع- القبائل المعارضة للمهدية تشرع في محاصرة طماي – عثمان يتسلم أوامر من الخليفة – الوضع في سواكن كما يراه التجار والأعيان- الأمرار يشددون الحصار علي طماي – خطاب مندوبي الخليفة لطماي – الهجوم علي طماي واحتلالها – العرب الموالين يعملون باتجاه طوكر – لكنهم ينسحبون ثم يتم حلهم – الغيرة بين القبائل وخلافاتهم – عثمان يتوجه لأم درمان – محاولاته لاستنفار الشكرية – الإيطاليون والأحباش – ميناء رارات.

الحدود النيلية عام ١٨٨٦:

وصف محمد الخير موقعة جنس، في خطابه المؤرخ ٤ يناير ١٨٨٦، والذي أرسله للخليفة عبد الله من كرمه. وقال:

"عندما كان جنودك يحاصرون الكفرة في مقراكة، وأرهقتهم قواتنا وأتعبتهم، جاءتهم فجأة إمدادات ضخمة للغاية ولم يكن الأحباب الأنصار علي علم بهذه الإمدادات. وصباح يوم ٢٣ ربيع الأول الباكر (٣٠ ديسمبر ١٨٨٥) فتح العدو النيران علي أحبابنا المجاهدين من كل الاتجاهات. واستمر الضرب لفترة طويلة قتل أثناءها بعض رجالنا كما قتل أيضاً بعض الأعداء.

وقد جاء اليوم بعض رجالنا من مقراكة وذكروا أن هناك عدد كبير من الكفرة، وأن الكفرة قد أصلحوا خط السكة الحديد في وقت قصير مثير للدهشة وقبل وصول هذه الأخبار لي، كنت قد أرسلت عيوناً لكروسكو. وقد وصلوا إلى آبار المرات. وعندما علموا بما حل بقواتنا المحبوبة عادوا وأخبروني بأن الكفرة قد إنتووا التقدم إلى هذا الجزء من المنطقة في أعداد كبيرة. كتبت اليوم إلى النجومي للحضور في الحال إلينا. أرجو منكم إرسال تعزيزات لنا فوراً قبل وصول

الكفرة، وإنني علي ثقة من أن المؤمنين سيحققون النصر. لكننا إذا تأخرنا فستضيع مننا هذه الفرصة. وقد أخبرت الأحباب الذين حضروا من مقراكة ليطلعوك علي كل ما شاهدوه. الدناقلة لا فائدة منهم ولا يعتمد عليهم، أما الأهالي المحس والسكوت فلا هم يكترثون بالمهدي ولا بالدين، ولم يقدموا لنا أي مساعدة مهما كانت".

ورغم أن العرب قد تم كبحهم بعد هزيمة جنس، إلا أنهم لم يتخلوا للحظة عن خطتهم الأصلية للغزو. وأخذوا يدفعون بمجاميع صغيرة إلى الشمال. وفي فبراير قاموا بغارة على قرية كوية، وتم تعيين أمير جديد هو الأمير ود الريس على دنقلا، كما تم تحويل قسم من قوات النجومي، تحت قيادة حاج أحمد إلى الضفة الغربية في بربر مع تعليمات لهم للمضي نحو مروي. كما تم تعيين الأمير الكردفاني المولع بالحرب، مرغني سوار الذهب ليحل محل (عبد) الخالق، الزعيم المهزوم في جنس. وبنهاية مارس كان محمد الخير لا يزال بكرمة مع قوة كبيرة موزعة ما بين كرمة ودنقلا أما بقايا جيش جنس فظل في دنقلا العجوز تحت قيادة عثمان أزرق بينما كان معظم قوات الغزو لا يزال ببربر، تحت قيادة النجومي.

وفي هذه الأثناء تقرر نهائياً تثبيت الحدود المصرية في وادي حلفا وتم سحب كل القوات من جنوب حلفا. وصلت القوات إليها في ١٣ أبريل وبحلول السابع من مايو كانت القوات البريطانية التي بقيت قد رحلت إلى كانتونات بأسوان تاركين وادي حلفا لعناية القوات المصرية.

وقد علمت أم درمان بهذا الإنسحاب في الخامس والعشرين من ابريل عندما كتب محمد الخير إلى مجلس الأمراء المنعقد هناك " بأن الحكومة قد أخلت كل المحطات جنوبي حلفا، وأن الإنجليز قد عادوا لأسوان".

وكانت هذه إشارة البدء لفرح عام وأعطاهم دافعاً جديداً للتحرك نحو الشمال. وكان ود جبارة قد توجه للشمال قبل ذلك بعد أن غادر بربر بقواته. وتم تعيين أمير جديد على أبوحمد، وهو الأمير أبو حجل، كما عاد النجومي بعد انفضاض مجلس الأمراء يوم ١٥ مايو مسرعاً إلى بربر.

وقد وصف أحد الذين حضروا اجتماع المجلس وصفاً حياً مغادرة النجومي لام درمان فقال:

"حرق النجومي منزله بأم درمان بالنار بعد أن أقسم ألا يعود حتى يغزو مصر. وعند مغادرته أستدعي الخليفة الخلفاء الأربعة* وكل الأمراء ومد الجميع أيديهم باتجاه (مصر). القاهرة وهتفوا "الله أكبر" ثلاثة مرات. ثم نادي الخليفة عبد الله بصوت عال:"أيها الأنصار، لا تخافوا من قتال جزيرة مصر. إنكم ستقاسون كثيراً في معركة أسوان، ولكن بعدها ستسقط كل الأراضي المصرية في أيديكم. أيها الأنصار، إنكم ستقاسون أيضاً كثيراً في معركة مكة، وبعدها ستكون كل البلاد لكم".

وأعطيت أوامر لمحمد الخير للبقاء حيث هو حتى يحل محله النجومي، والذي قام الآن بتعيين الأميرين ود جبارة ومكين النور مساعدين له.

---

* الخلفاء إثنين هما الخليفة – محمد شريف والخليفة على الحلو (المعرب).

وعقب مغادرة النجومي قام الخليفة بإرسال محررات مكتوبة إلى مصر بأيدي مبعـوثين مخصوصين. هذه المحررات كانت معنونة "إلي كل أهالي شمال مصر وجنوبها" وتدعوهم للنهوض كنفس واحدة ضد الترك وكل من نهج نهجهم في عدم الإيمان بالله، وتحثهم على تحطـيمهم حتـى آخر رجل منهم. فإذا ما قاموا بتنفيذ أوامره فأنهم سيثبتون أنهم حقاً من أتباع المهدي المخلصين، وهو الذي دعي كل الأمم لعباده الله.

ثم أستـمر في إيضاح أنه ليس بالضـرورة أن يعـيش المهـدي حتـى يتسـلم زمـام القسطنطينية ومكة، فقد مات لأنه كان متشوقاً للقاء الله، مثله مثل النبي الذي توفي قبله. فالرسول كان من المفترض أن يتسلم زمام سوريا وكل أنحاء العالم، لكنه توفي قبل أن يجد الوقت لإكمـال هدفه. وبالتالي كان على خلفائه من بعده أن يقوموا بتلك المهمة، وكـذلك كـان الحـال بالنسـبة للمهدي، فأن خلفاءه سيكملون مهمته وسيأخذون القسطنطينية ومكة وكل العالم وبالتالي سيخضع كل العالم للمهدي.

واستعان بعدة آيات من القرءان ثم أنهي رسالته بحثهم على تدمير الترك والكفرة بدون أي تأخير.

وكان الخليفة، قبل أن ينفض مجلس الأمراء قد أعلن بحزم تعيين أربعة أمـراء: الخيـر كان أولهم، ومنذ وقت طويل – أميراً للأمراء – وقد تم تفضيله على (رجل الناس) وهو النجـومي المنتصر أبداً. لكن كل هذا انتهي الآن. فاستحالة دفع الخير للقيام من بربر ودنقلا، والتي كانت في نظره تابعة له، وقفت ضده بشدة. لقد كانت رغبته دائماً أن يحكم قبضته على هـاتين المـديريتين وأن يقوم النجومي بالذهاب لغزو تلك المناطق بالشمال. تمسك الخير بالنصوص التي جاءت فـي فرمان المهدي الأصلي (الخاص بتعيينه). لكن تم الآن تعيين النجومي أميراً للأمـراء، يليـه فـي المرتبة عثمان دقنة، وكان الثالث حمدان أبو عنجة* ثم جاء الخير رابعاً. وفي هذا المجلـس تـم تسوية آخر الخلافات المتعلقة (بحقوق ووضع) أبناء محمد أحمد وتم تأكيد خلافة الخليفة عبد الله بكل حزم والذي كان عليه، مع الخليفتين الآخرين ودحلو ومحمد شريف – الصهر الشاب للنبي – العيش والبقاء بأم درمان.

ولكن حدث مرة أخرى ما أوقف خطة الغزو الجديدة. فقد أصبحت ثورة دارفـور أكثـر خطورة وهزم محمد الشريف هزيمة قاسية.وقد كتب النجومي من بربر، في أواخـر ينـاير، إلـى عثمان دقنة قائلاً بأنه "وصل إلى رباط بربر، حيث أمره الخليفة بالبقاء هنـاك لمراقبـة تحركـات الكفرة في كروسكو، ولدعم الأنصار بدنقلا تحت قيادة محمد الخير. وأنه قام بإرسال عيون لتحديد مكان الكفرة بالضبط، وأن هؤلاء عادوا وذكروا أنهم كانوا قد غادروا كروسكو وتوجهوا لأسوان. وهناك علموا بأن الإنجليز وآخرين كانوا قد إشتبكوا مع أنصارنا وأن عدداً من الجانبين قد قتـل. وأن الكفرة قد إنسحبوا إلى كروسكو وأن الجزء الرئيسي من قواتهم قد رجع إلـى أسـوان، وأن لديهم بعض القوات في حلفا ودراو وقنا وسوهاج (المقابلة لأخميم). وكان من بين الذين قتلوا أحد قادتنا (جنرالاتنا) وهو حسن عثمان الأزرق وبعض القادة الآخرين. وأفاد جواسيسنا أيضـاً بـأن

---

* سماه ونجت "حامد أبو عنقر" (المعرب).

السلطان قد أوفد لجنتين للتحقيق في أحداث السودان، وأن الميرغني قد كلف بالتوجه للخرطوم لمقابلة الخليفة، وأنه قد وصل بالفعل إلى أسوان، وأنه الآن في انتظار الأوامر من المجلس المكون من مختار وأحد المفوضين الإنجليز.

ويضيف بقوله بأن حاج علي، أمير بربر ودنقلا، مستعد تماماً لقتال الكفرة، وبأن الإمدادات تصل يومياً إلى بربر بأوامر من الخليفة، وتوقع أيضاً بأن قوات الخرطوم سنضم إليه في بربر.

تم رجال عثمان دقنة إعلامه بتحركات الكفرة في نواحي سواكن".

وفي خطاب آخر أخطر النجومي عثمان دقنة بأن:

"الخليفة عبد الله قد أمره بالحضور للخرطوم للمزيد من التعليمات، وأنه بارح معسكره في ١٢ رجب وعندما وصل للخرطوم استقبل استقبالاً طيباً من الجميع. وأنه التقي هناك بخليفة الفاروق وبخليفة الكرار، وأنه سيعود قريباً لبربر ليعمل، حسب أوامر الخليفة، لإعداد جيش لدنقلا لقتال الكفرة. وبخصوص الكفرة أخبره بأنهم كونوا جيشاً من ١٨٠٠٠ رجل تحت قيادة مختار باشا للتقدم (نحونا) عن طريق دنقلا بينما يقوم ٥٠٠٠ رجل آخر، تحت قيادة عبد القادر باشا، للتقدم (نحونا) عن طريق دنقلا بينما يقوم ٥٠٠٠ رجل آخر، بقيادة عبدالقادر باشا، بالتقدم نحونا عن طريق أبو حمد. وأن الأنصار جاهزون للقتال: دمر الله الكفرة. ثم يرسل تحياته للطاهر. وأرفق له خطابات من محمد الخير إلي الخليفة عبد الله ذكر فيها بأن الأنصار بمقراكة قد فوجئوا (بهجوم) الكفرة الذين جاءوا بأعداد ضخمة من الشمال. وأن الكثيرين قد قتلوا وأنهم اضطروا للإنسحاب نحو محمد الخير لأن الكفرة كانوا بعدد النجوم في كثرتهم، وأن الكفرة يقومون بإصلاح خط السكك الحديدية ويقال أن لديهم مالا يقل عن ٥٠٠٠٠ رجل. وقبل نشوب المعركة كان الخير قد أرسل جواسيساً للشمال وعندما كانوا بالقرب من كروسكو سمعوا بنشوب المعركة فعادوا وأبلغوا بأن الكفرة هم بأعداد تفوق ما ذكروه من قبل. طلب الخير منه (من النجومي) أن يوقف ترحيل العوائل وأن يحضر لمساعدته بكل الرجال المقاتلين الذين يستطيع جمعهم.والخير الآن بدنقلا وقد طلب مرة أخرى إرسال التعزيزات له قبل وصول الكفرة. والخير يلعن الكفرة ويقول بأن أسباب هزيمة الأنصار في مقراكة تعود لتخذيل فصائل المحس والسكوت لهم وإنسحابهم ومساعدتهم للكفرة في إصلاح خط السكة الحديد".

وفي أواخر مايو سمح لمحمد الخير بإرسال مقاتلين شمالاً حتى خور موسي باشا ولم يتأخر في تنفيذ هذا الأمر. ويدأ تحرك مقاتليه في يونيه وبحلول منتصف الشهر كان الأمير الزين قد احتل عكاشة ودمر الخط الحديدي بين عكاشة وأبار أم بكول ثم عاد إلى كرمة بينما تقدم ود جبارة في تلك الأثناء إلى حنك (بالقرب من أبو فسي) مع قوة كبيرة. وأصبحت دوريات العرب الآن تجوب الصحراء الشرقية بين أبو حمد والمرات أسبوعياً.

خلال ذلك، وباقتراح من مختار باشا، تم إرسال المندوب السامي التركي في القاهرة، وأحد كبار المصريين، وهو شهدي باشا، إلى حلفا بأمل إستشفاف أي إشارات قد تصدر من السودانيين لإقامة سلام بينهما. وجاءت تقاريرها بما مفاده أن أهالي السودان كانوا غير راضين بالمرة بحكم العرب بسبب عبء الضرائب العشوائية المفروضة عليهم مضافاً إليها الخدمة الإجبارية. وأن السودانيين سيرحبون بعودة الحكم المصري، وهو الأمر الذي لاشك فيه.

فعند قيام الثورة، وأثناء مراحلها الأولي، فأن الأهالي قد إنضموا حقاً للحركة، بكل صدق وإيمان، ولكن سرعان ما تبين لهم بأن الوعود الخلابة للبقارة كانت نادراً ما تنفذ، هذا إن نفـذت أصلاً. ورأوا أن زعماءهم، والرجال الذين اعتادوا علي طاعتهم، يلقي بهم الواحد بعد الآخر فـي السجون بلا رحمة، أو يقتلون في بعض الأحيان بينما يحل أحد البقارة*القساة محلهم، وأن أملاكهم صارت من أملاك بيت المال، وأن نساءهم وخدمهم صاروا نساء وخدماً لمخلصيهم المدعين. كانت حالتهم كحالة بني إسرائيل في العهود الغابرة والذين يقال أن حكامهم السابقين كـانوا يسـوقونهم بالسياط، لكنهم الآن صاروا يطاردون ويساقون بالعقارب.

كانت الثورة ضد ظالميهم تعتبر من المستحيلات، فقد حطمت التقاليـد القبليـة بقسـوة وفظاعة وتبادل العبيد وسادتهم الأماكن وأصبح التعاضد بين القبائل مستحيلاً. وصـلت صـرخات البؤس والقهر إلى مصر قبل ذلك لكن أي مساعدة كانت غيـر ممكنـة. وكانـت الإجابـة دائمـاً هي:"عليهم أن يتحدوا ضد عدوهم المشترك"، واستمر البقارة سادة للموقف وساقوا بالقوة الأهالي، رغم أنفهم، للقتال ودفعوهم للنهب والسلب.

سوء الحكم هذا لا يمكنه الاستمرار طويلاً بدون أن يلقي بآثارة السالبة المـدمرة علـي البلاد. فبعد إزالة أي أثر للحكومة وبتناقص عدد السكان باستمرار بسبب نظام الخدمة الإجباريـة، تدهورت الأراضي الزراعية شيئاً فشيئاً وهجرت وبدأ وخز الحوجة يظهر للعيان، ليس على البقارة ولكن علي السكان بالريف والقرويين والذين، لارهاقهم من جراء تلك الحروب المتواصلة، صاروا يتطلعون لعودة الحكم الذي، على الرغم من كل مثالبه، أعطاهم على الأقل ما يكفي لسد جـوعتهم. وبنهاية يونيه تضاعف سعر الذرة لثلاثة أضاف سعره الأصلي في أم درمان وانعـدمت الكماليـات مثل السكر والأرز وغيرها تماماً.

أثناء ذلك صدرت أوامر للنجومي للعودة لأم درمان للتباحث مع الخليفـة حـول خطـة الحملة. وفي أواخر الشهر عاد ثانية إلى بربر حيث تم تعزيزه براية الأمير عبد الحلـيم ورجالـه النشطين بعد نجاحاتهم في العطبرة. وتم تعيينه وكيلاً للنجومي. وإنقضت الشهور القليلة التالية في حشد القوات ودفعهم لمختلف النقاط. لكن التأخير، بالنسبة لجيش غير نظامي، كان أمراً حتميـاً – فالمشاكل على الحدود الحبشية، وفي كردفان ودارفور، منعت الخليفـة مـن إرسـال التعزيـزات للنجومي التي كان قد طلبها. وكان الجناح الأيسر، عند تقدمه، مهدداً باستمرار من قبـل الشـيخ صالح، شيخ الكبابيش الذي لا يهدأ. تسبب كل ذلك في تأخير وتعطيل النجومي ونفاذ صبره ولم يبدأ تحركه عبر الصحراء من بربر إلى مروي إلا في الرابع عشر من أكتوبر، حيث تأخر مرة أخـرى في مروي ليعمل على تجنيد الأهالي منها. لكن نقاطه المتقدمة ظلت نشطة وربما يعود ذلـك إلـى إستدعاء محمد الخير لأم درمان ومع تحول قيادة المنطقة من كرمة وشمالاً لعثمان أزرق والذي قام في أكتوبر بإرسال قوات محدودة لصواردة وفركة تحت إمرة النور الكنزى*

تم سحب المحطة المصرية الأمامية في جماى، التي تبعد مسافة إثنين وعشرين ميلاً من حلفا، إلى خور موسي، على بعد حوالي خمسة أميال من حلفا. وكانت قيادة كل قوات الحدود قـد

* عم أحمد أبو كشوة، دليل هكس باشا.

أوكلت للبريجادير جنرال، الشريف مونتمو رنسي بينما تولي اللفتنانت كولونيل تشير مسايد، الذي وصل لحلفا في العشرين من أكتوبر، قيادة كل القوات في تلك المحطة.

وأتخذ النجومي الآن اللقب الطنان "قائد السرية المصرية"، وعاد محمد الخير إلي بربر وأصبح توزيع قوات العرب تقريباً كما يلي:

في أم درمان	مع الخليفة	١٣٠٠٠ رجل	
في بربر	مع محمد الخير	١٢٠٠٠ رجل	
في أبو حراز	مع النجومي	٢٠٠٠ رجل	و٣ مدافع
في صنم (دار الشايقية)	ـــــــ	٥٠٠ رجل	و٣ مدافع
في دنقلا	مع جبارة	٢٠٠٠ رجل	و٣ مدافع
في كرمة	مع مرغني (سوار) الذهب	٥٠٠ رجل	و٤ مدافع
في دلقو (دار محس)	مع محمد هاشمي	٥٠٠ رجل	
في صواردة	مع عثمان أزرق	٧٠٠ رجل	
في فركه	مع النور الكنزي	٤٠٠ رجل	

ومن بين تلك الأعداد حوالي ٢٠٠٠ – ٣٠٠٠ من البازنقر، وهو الاسم الذي يطلق علي حملة البنادق من الجنود السود العاملين مع الثوار.

لكن مشاعرهم لم تكن أبداً مع العرب وتم بذل كل جهد ممكن لإغرائهم لهجر العرب والرجوع للحكومة. وقد أضطر العرب في حالات عديدة لنزع سلاح البازنقر أو إرسالهم للجنوب مرة أخرى. أما الشيخ صالح الكباشي فقد وعد بمنحة قدرها عشرة ريالات لكل بازنقر يتمكن من إرساله للحكومة. وقد فر كثيرون منهم بالفعل ووجدوا طريقهم إلي حلفا حيث كان، كقاعدة عامة، يعاد إلحاقهم بالكتائب السودانية. وقد أثبتوا لاحقاً كفاءتهم القتالية العالية تحت قيادة الإنجليز، مثلما أثبتوها من قبل مع غردون وبيكر وآخرين.

وأصدر القائد العربي الآن منشورات لكل الزعماء والشيوخ في الأقاليم الشمالية، حتى حلفا، طالباً منهم جمع رجالهم والإستعداد للمعاونة على غزو مصر. وبنهاية أكتوبر وصل النور الكنزي مع محمد هاشمي إلي عكاشة ومعهم قوة من ١٥٠٠ رجل و٤ مدافع

لم يكن في نيتهم، بمثل هذه القوة، مهاجمة حلفا. ولكن هجوماً منهم على دبيرة أو أرقين، على بعد بضع أميال من حلفا، كان مرجحاً، لأنهم في هذه الحالة سيقطعون خطوط المواصلات في حين تقوم القوة الرئيسية للعرب بمحاصرة الحامية هناك. استمر النور ألكنزي في تقدمه. وفي التاسع من نوفمبر وجدت طليعة إستكشاف للجيش المصري أنه قد أحتل سرس بكامل قواته ودمر ميلاً من الخط الحديدي. وفي نفس اليوم وصل النجومي لدنقلا مع تعزيزات كبيرة.

لم يضع النور الكنزي وقتاً، واحتل المحطة المتقدمة في جماي والتي كانت القوات المصرية قد أخلتها. ومن اليوم الثالث عشر من الشهر كان قد وضع فيها قسماً كبيراً من قواته

بينما تقدم القسم الأخر حتى خور موسى وحاول تدمير قنطرة للسكة الحديدية. وقام الكولونيل تشيرمسايد علي الفور بمواجهتهم مستخدماً فصائل الخيالة والهجانة، المدعومين بقطار مدرع، وتراجعت قوات العرب بعد أن أتلفت حوالي ١٢٠ ياردة من الخط الحديدي. ولعدة أيام لم يحدث تقدم آخر من جانبهم. وأثناء ذلك وصل الجنرال مونتمورنسي وشرع فوراً في اتخاذ الإجراءات لتأمين سلامة الأهالي في حلفا ودبروسة والذين يصل عددهم لحوالي ١٧٠٠٠ نسمة.

وقد تم جمع هؤلاء، مع بهائمهم وغلالهم، في ثلاثة جزر نيليه وقامت بحمايتهم البواخر المدرعة وفصائل من الجنود. ويوم ٢٤ من الشهر جرت محاول لتخريب الخط الحديدي شمال خور موسى بخمسمائة ياردة، لكن العرب تراجعوا عندما تم اكتشافهم كما قاموا بتحركات علي الضفة الغربية، عندما اقتربت جماعة منهم من معقل صغير للجنود. ولكن، وبعد تبادل بضع طلقات نارية مع الجنود، تم طردهم.

ويوم ٢٧ نوفمبر حرك النور الكنزي قواته الأمامية إلى عبكة، علي بعد ٨ أميال جنوبي حلفا، وظل مترقباً بقلق وصول الإمدادات من مرغني (سوار) الذهب والتي كانت قد وصلت دال قبل أربعة أيام. ويوم ٢٩ تقدمت فرقة استطلاعية للفرسان نحو عبكة وعند ما شاهدهم العدو إنسحب للجبال المجاورة. وفي اليوم التالي تم إرسال القطار المدرع مع عمال الصيانة لإصلاح الخط، وتقدم الكولونيل تشيرمسايد، مع قوات محمولة، نحو معسكر العدو ووجده مهجوراً ثم توجه لسرس.

وعند شروق شمس الأول من ديسمبر تقدم الجنرال دي مونتمورنسي مع القوات الرئيسية، المكونة من كتيبتين ونصف ومدفعين، نحو جماي ومنها لسرس حيث إنضم للكولونيل تشيرمسايد في مساء نفس اليوم. رفض العدو المواجهة في أي مكان وانسحب عبر الصحراء للمرات. ثم هبطوا علي عكمة بالنهر، على بعد بضعة أميال شمالي عكاشة، ومالبثوا أن عادوا لصوارده.

تم إصلاح الخط الحديدي حي مسافة ميل ونصف من معسكر العدو في عبكة وبدأت فترة من الهدوء تسود جبهة الحدود مرة أخرى.

***

قبيلة الكبابيش

من المهم الآن أن نعود، باختصار، لتحركات صالح بك فضل الله ود السالم، زعيم الكبابيش، والذي، كما رأينا، قد أبدي نشاطاً ملحوظاً في مديرية دنقلا وعطل لحد ما تحركات قوات النجومي وتوجهها للشمال.

فالكبابيش، الذين يسكنون الصحراء غرب دنقلا، كانوا تواقين دائماً لحيازة المديرية التي اعتادوا على التجارة بها والتي كانت حقاً ميناءهم. وقد عرضوا أكثر من مرة استلام دنقلا (وإدارة شئونها) ولكن بشروط، مثل تسليمهم آلاف البنادق، وهو الأمر الذي لم توافق عليه الحكومة.

ومن معركة جنس عام ١٨٨٥، وحتى اقتحام التحصينات حول سواكن في ديسمبر ١٨٨٨، لم يدخل العرب في صدام جدي مع الجيش المصري والذي كان قد تولي، منذ بداية هذه الفترة ولمدة ثلاثة سنوات، المسئولية وحده للدفاع عن مصر. وذلك على الرغم من أن العلم

البريطاني، المدعوم بفصيل واحد من فوج ويلز، لم يسحب نهائياً من أسوان إلا في يولية ١٨٨٨. نعم كانت هناك إشتباكات، وغارات، مما شكل تدريباً ممتازاً للجيش الذي لازال شاباً، وهذا ما سنذكره في حينه. ولكن تلك السنوات الثلاثة كانت عموماً مرحلة إختبار واضح لتحديد إذا ما كانت القبائل ستتمكن من القيام بأي خطوة، ضد نفوذ المهدي وقوته، من عدمه، مع أن كل التقارير كانت تشير باستمرار بأن النظام يترنح تمهيداً لسقوطه.

وكان أول عمل تم القيام به في تلك الفترة هو إرسال صالح الكباشي في مغامرة خطيرة تتبادل فيها النصر والهزيمة، والاستنفار والردة، عبر مئات الأميال من صحاري تكاد تكون غير معروفة، لينتهي كل ذلك بموت هذا الزعيم الشجاع في تخوم كردفان، على بعد ٩٠٠ ميل من نقطة بداية تحركه، وتشتيت شمل من تبقي من هذه القبيلة التي كانت يوماً في منتهي القوة والكثرة العددية.

وقد نتذكر بأن صالح الكباشي قد إرتبط من قبل بحملة النيل عام ١٨٨٤وذلك عندما قام بتوريد الجمال للورد وولسلي، والتي كان لها دور عظيم في تسهيل مهمة القوافل في صحراء بيوضة وغيرها. ومع هذا فلم يتبعه (أخيراً) إلا قسم ضئيل من قبيلته الضخمة لأن معظم رجالها قد انضموا للمهدي.

تمتد مناطق الكبابيش عبر المنطقة الغربية للنيل ثم تلتف في قوس غرباً عبر شمال كردفان ودارفور. من هنا كان بامكان شيخ معاد واحد أن يخلق حالة من البلبلة تكفي لإرهاق أجنحة (قوات) النجومي أو محمد الخير عند أي تقدم منهم عبر النيل.

وبعد معركة جنس، جدد صالح ولاءه وكتب للسردار قائلاً بأن كردفان ودارفور في حالة ثورة ضد الخليفة وأنه إذا تلقي الدعم منه فيمكنه السيطرة على دنقلا.

أجابه السردار بأن الخطوط السياسية حول السودان وما ينبغي عمله هو الآن موضع نقاش جاد بواسطة وزراء صاحب السمو (الخديوي)، وأنه طالما كانت هناك ثورات للقبائل حول القلابات وسنار وكردفان ضد المهدية فأن بامكانه الانضمام بقواته مع أي قوى معارضة للمهدية للقيام سوياً بتدمير أعداء الله والناس.

كما كتب إليه لسير فرانسس قرنفل خطاباً يوم ٢١ مارس. وفي الأول من مايو انقض علي جماعة صغيرة من العرب في أبو قس ومزقهم.

وفي الثالث من يونيه هزم قوة أخري في دنقلا. ويقال أنه قتل عبد الماجد، الذي كان قائد المهدية في جنس. وبعد هذين النجاحين عاد إليه كثيرون من أقاربه وانضموا إليه وأصبح هناك تجمعاً عاماً للعشائر في رئاسته التي أقامها بجبل عين، على مسافة ستة أيام من السفر من غرب دنقلا.

لكنه تلقي نكسة في السابع والعشرين من يوليه ظل بعدها، ولفترة طويلة، عديم النشاط قابعاً في جبال أودون وبقى هناك حتى نهاية العام.

وقد يقال عن الأسباب الثلاثة التي شلت قوة الخليفة وعطلته من اتخاذ المبادرة والعدوان، أنها تمثلت في ثورة كردفان، وفي هجمات الأحباش، وغارات الكبابيش على طول الضفة

الغربية للنيل. وأنها كانت العامل الرئيسي لتعويق تنفيذ خطة الغزو الأصلية ضد مصر. كانت القبيلة الكبرى بشرق النيل هي قبيلة العبابدة وكانوا أكثر تمدناً ومعرفة بسبل الحياة العصرية من الكبابيش. ومعهم كان من السهل الوصول إلى تفاهم. كان ثلاثة من كبار رجالهم موظفون لدى الحكومة ولاشك في أنهم كانوا يقدمون المعلومات أحياناً للسلطة المهدية مثلما يقدمون معلومات للحكومة. لكن المعلومات المقدمة للحكومة كانت تتفوق على أي أذى يسببه ما يقدمونه للعدو من تقارير وهذا ما أدى بدفاعات الحدود لأن تعزو سبب كفاءتها، لأقل القليل، للتموية الذي قامت به.

لم يتم القيام بأي تحركات عدوانية. ومن الناحية الأخرى كانت الحدود تعلم جيداً بأي تحركات مهمة قبل حدوثها، حتى عن الغارات المزمع القيام بها والتي صارت، ومنذ أوائل ١٨٨٧، معلماً من المعالم لهجمات العرب علي الحدود الجنوبية لمصر.

•••

كردفان في ١٨٨٦

كان حمدان أبو عنجة، في سبتمبر ١٨٨٥، لا يزال محاصراً المك كمبو في جبل الداير. ولما وجد أنه ليس بالإمكان أن يخلف إنطباعاً يذكر على من بهذا الحصن الجبلي القوي، أقام مخيمه في خور تلودي حيث منه قام بغارات واسعة على المناطق المجاورة وأسر عدداً كبيراً من الزنوج قام بإرسالهم في قوافل إلي أم درمان. قادت تحركاته هذه قبائل الحمر والمسيرية والحوازمة العرب الذين يسكنون في تلك المناطق للثورة وقام عدد منهم بمهاجمة وإبادة رجال أبو عنجة، الذين يقومون بالغارات تلك، وذلك بين جبل قدير وتلودي. ثم تجمعوا في أعداد أكبر وتقدموا لمهاجمة موقع أبو عنجة. لكنهم هزموا بعد مذبحة عظيمة ويقال أن عدداً لا يقل عن ١٠٠٠٠ رجل منهم قد قتل في تلك الموقعة.

أدى هذا الانتصار الأخير لتحطيم أي مقاومة لأبو عنجة والذي واصل الآن غاراته للسلب بنشاط وهمة وذلك حتى مارس ١٨٨٦ عندما أمره الخليفة بإخلاء المناطق الجبلية والعودة للأبيض. ولفهم أسباب هذا الأمر فلابد من العودة للأحداث في دارفور.

فعند نهاية ١٨٨٥، كان الأمير زقل لازال مقيماً بالفاشر. وكان قد تلقي عدة نداءات من الخليفة للعودة لأم درمان. لكن اعتذاراته المتكررة للبقاء حيث هو أصابت الخليفة عبد الله، لحد ما، بالقلق عما يمكن القيام به في ذلك الإقليم النائي. وتواترت الإشاعات بأن زقل ينتوي إقامة مملكة مستقلة في دارفور، وأنه حشد جيشاً ضخماً هناك. تلك الإشاعات، إذا ما صحت، ربما تهدد سلامة كردفان، وبالقطع سلامة أم درمان نفسها. ولكن لم يكن لتلك الإشاعات أي أساس في الواقع. فقد كان زقل مشغولاً بصفة أساسية في جمع المال. وعندما وصله أخيراً نداء قاطع من الخليفة للحضور أمامه في أم درمان، شرع علي الفور في القيام والتوجه إلي الأبيض، وذلك في مارس ١٨٨٦، مصطحباً القسم الأكبر من جيشه وترك ممثلاً له في الفاشر السلطان يوسف إبن أخ السلطان دود بنجة.

وعندما علم الخليفة بأن زقل قد تحرك بعد لأي مصطحباً جيشه أرسل في الحال بتعليماته إلى حمدان أبو عنجة لملاقاته بجيشه في الأبيض، تحوطا من أن يكون لزقل أي نوايا غير

مرغوبة. كان زقل قد أرسل معظم جيشه أمامه. وعندما وصل ذلك الجيش للأبيض تم دمجه في قوات أبو عنجة. ولما وصل زقل إلي بارا وجد نفسه أسيراً وأمواله مصادرة وحياته مهددة بالخطر. وتم التحفظ عليه سجيناً بالأبيض لبضع شهور بعدها أرسل لأم درمان تحت الحراسة. وعندما أوضح موقفه للخليفة تم إطلاق سراحه مع عدم السماح له بمغادرة أم درمان*. وبقي أبو عنجة في الأبيض طوال عام ١٨٨٦ وعاد لأم درمان في أوائل عام ١٨٨٧. أما عثمان آدم فكان لا يزال أميراً وعاملاً على كردفان والتي أصبحت الآن، باستثناء جبل الداير وماحوله، تنعم بالهدوء ولفترة طويلة.

•••

دارفور في ١٨٨٦

بنهاية ١٨٨٥، وصل كرم الله بنفسه من المديريات الاستوائية إلي دارا ومعه تعزيزات كبيرة لكتنبور. وفي الحال قام بحملة ضد مادبو وعرب البني هلبه. وعندما علم الأخيرون بوصول كرم الله هجروا مادبو والذي بقي وحيداً مع خمسمائة من رجاله. وبعد بضعة أيام هاجمه كرم الله وأباد قواته لكنه تمكن، مع قلة من رجاله، من الفرار إلى جبل مرة. لكنه أسر وسلم إلى خليفة زقل، السلطان يوسف، في الفاشر والذي أرسله بدوره سجيناً إلى كرم الله والذي كان وقتها في الطويشة. رسله الأخير بدوره إلى الأبيض حيث قطع رأسه فيما بعد.

ثم عاد كرم الله إلي شكا حيث تلقي ولاء عرب المعالية وخضوعهم له وذلك بعد أن أغري شيخهم، محمد بك أبو سلامة، للحضور لزيارته. وعند وصول الشيخ إلى شكا قطع رأسه هو وأبناءه الثلاثة. وفي تلك الأثناء كانت القوة التي أرسلت لإخضاع الرزيقات في بحر العرب قد نجحت في مهمتها. وبهذا تمكن كرم الله من إعادة تثبيت سلطة المهدية في كل المناطق الثائرة وقام، مثل زملائه في السلاح بكردفان، بإطلاق يده في الإغارة على مختلف المناطق من أجل الرقيق والمواشي. وبنهاية السنة أرسل قوات إلى دارا للإغارة على المناطق الشمالية بها، وهي الخطوة التي أدت إلى أوخم العواقب التي سنتناولها في أبواب تالية.

•••

الاستوائية في عام ١٨٨٦م

في فبراير ١٨٨٦م، تلقي أمين بودلاي أخباراً تفيد بأن يونكر وفيتا حسن قد وصلا بسلام إلى كباريقا. وعلم بأن خطابات قد جاءت من يوغندا كان قد أحضرها مبعوث خاص تنكر في زى تاجر. ولم يوضع وقتاً لإيفاد رسول خاص يثق فيه والذي عاد في ٢٦ فبراير حاملاً رسائل من القاهرة وزنجبار تحتوي على كل ما جرى من أحداث طوال تلك السنوات التي انقطعت فيها الاستوائية عن العالم الخارجي. كانت رسائل القاهرة موقعة بواسطة نوبار باشا، رئيس مجلس الوزراء، ومؤرخة في الثاني من نوفمبر ١٨٨٥م، وكان مضمونها أن الحكومة المصرية غير

---

* تم إرساله عام ١٨٨٩ إلى طوكر للعمل علي تسوية بعض الخلافات بين عثمان دقنة وأبو قرجة. وتم تعيينه أخيراً أميراً على دنقلا بعد أن استعاد ثقة الخليفة فيه.

قادرة على مساعدة أمين بك، لأن السودان قد إخلاؤه، لكنهم فوضوه لاتخاذ أي إجـراءات يراهـا ضرورية إذا ما قرر ترك البلاد. وعلم أمين الآن، وللمرة الأولى، بتفاصيل سقوط الخرطوم وموت غردون. وكانت ملاحظاته عن هذا الوضع الجديد مثيرة للإهتمام لأنها تظهر الأسباب التي يراها هو لعدم التنازل عن المديرية التي دافع عنها طويلا ويقول:

(معظم رجالي وبخاصة الضباط، لا يرغبون في ترك هذه المنطقة. ولقد قمت مراراً بلفت نظر الحكومة بالخرطوم بضرورة تغيير الضباط هنا واستبدالهم كل سنتين وكذلك بعض الرجال حتى لا تعطل تحركاتنا أثناء الإضطرابات تلك العقبات التي لا تحصى. لكنني لم أتلق أي إجابة. فمعظـم جنودنا قد جاءوا من مديرياتنا نحن(مكراكا ودينكا وغيرهم) ولم يروا مصر أبداً. لهذا فمن الطبيعي أن يفضلوا البقاء هنا وللعيش كما عاش آباؤهم. أما الجندي الزنجي الذي أرسل لنا مـن مصـر، سواء كان ضابطاً أم نفراً، فقد نسي بمرور الزمن معني الانضباط الصارم. بل أكثر من ذلك، أقلـم نفسه على علي الحياة بالإقليم للدرجة التي جعلته يستبدله بوطنه الأصلي. فكل منهم لـه عائلتـه الخاصة وهي غالباً ما تكون عائلة كبيرة إذا أدرجنا فيها كل الذين يعتمدون عليه في حياتهم، ولكل منهم معيزه أو أبقاره. وكل واحد منهم يعلم بأن رحلة السفر ستكون طويلة والمعاناة عظيمة وأن أياماً طويلة من الجوع والمصاعب تنتظرهم. وأنهم عندما يصـلون لمصـر فـان الإنحـلال فـي إنضباطهم سينتهي ويعود لصرامة النظم العسكرية ثانية، وأنهم سيودعون كئوس المريسة للأبـد، وأن ما تعودوا عليه من "تعالى ياولد وروح ياولد" ستنتهي).

ثم يضيف قائلاً:

(وحتى الآن لازالت أخبار هزيمة الجنرال هكس معتبرة كانها من الخيـال. ولـم تفلـح جهودي طوال الشهور الإثنى عشرة الماضية لتركيز وجود رجالي وتجميعهم في أمـاكن محـددة بالجنوب أكثر من سحب بعضهم من الكتيبة الأولى، المعسكرة في لادو وما جاورها، أو من الضباط والذين يعلنون بصراحة ووضوح بأنهم لن يتخلوا أبداً عن لادو).

وبعد ذلك بوقت قصير نشبت الحرب بين أنيورو ويوغندا مما أجبر دكتور يونكر لمحاولة الوصول للمكان الأخير، بينما إضطر مندوب أمين لدى كباريقا، فيتا حسن، للإنسحاب نحو البحيرة ريثما تنتهي المشاكل.

وأثناء ذلك كانت الأحوال في لادو تزداد سوءاً أكثر فأكثر ولكن، ولتتبع أصل ما يمكـن تسميته بالتمرد، والذي وقع بالفعل فيما بعد، فمن الضروري الرجوع للوراء بعض الشيء. إذ يبدو أن قائد الكتيبة الثانية، الصاغ حواش أفندي، كان قد قام بمصادرة ممتلكات أحـد ضـباط الكتيبـة الأولى، المدعو بخيت أغا، عند غياب الأخير من دوفلي. وعندما عاد هذا الضابط إلى الرجاف قادما من أمادي علم لأول مرة بما قام به حواش أفندي وصمم على الانتقام لنفسه. بدأ بالإستيلاء علـى بعض أنواع الأطعمة والتي كان يعلم بأنها تخص حواش أفندي. وعندما وصل هذا الأمـر لأمـين أرسل أوامر للصاغ ريحان أغا للتحري في ذلك. لم يتردد الأخير في الشكوى بمرارة مـن سـلوك الصاغ حواش وصار واضحاً الآن بأن الخلافات الشخصية بين الضباط قد إنعكسـت علـى رجـال الكتيبتين. ودبرت مؤامرة للقبض على حواش أفندي وإحضاره إلى لادو لكن ريحان تـوفي قبـل تنفيذها وحل محله الصاغ حمد اغا.

ولم تفلح الإنباء التي جاءت في رسائل نوبار باشا، والتي كان أمين قد أرسلها لمختلف الحاميات، في تحسين الأمور وإتفق رجال الكتيبة الأولى بين بعضهم البعض بألا يتوجهوا جنوبا، بذريعة أن الخرطوم لازالت هي رئاسة الحكومة، ولأنهم يفضلون أن يتم تسريحهم وتوجههم لمناطقهم بدلاً عن توجههم إلى ودلاي. كما دبرت مؤامرة أخرى من بعض البرنو والادماوا لقتل كل ضباطهم، من سودانيين وغيرهم، وإنشاء ولاية حرة مستقلة. لكن تم اكتشاف المؤامرة. ورغم أن قادتها قد كبلوا بالحديد إلا أنهم إطلقوا فيما بعد. وفي دوفيللي قام باشجاويش بإطلاق النار على ضابطه. كل تلك الأحداث للتمرد كانت تحمل معني واضحاً لا شك فيه. وقد كتب أمين في نهاية مايو قائلاً:

"لازلنا نحن كما كنا. لن يتحرك الرجال وحتى القليلون منهم الذين يميلون للقيام بالرحلة لا يجرؤون على التحدث بهذا علناً. وإضافة لذلك أصبحت الخلافات بين السودانيين والمصريين تتضح يوماً بعد يوم والكراهية نحو الأخيرين أصبح التصريح بها علناً ما عدا قلة منهم من ذوي السمعة الحسنة فلم يتعرضوا لشئ من ذلك. لكن ذلك لم يأت من فراغ لأن بعض السادة المصريين كانوا يعاملون السودانيين دائماً كرعاع رغم تحذيراتي لهم. ولكن الموائد إنقلبت الآن. أحاول التوسط بقدر الإمكان ولكن هل يستمر ذلك طويلاً؟ لقد حاولت بذل جهد جديد ليثوب الرجال إلى رشدهم. وإذا ما فشلت تلك المحاولة فلا بد أن أجاري الظرف والمحافظة على مظاهر السلطة والتي لازلت أتمتع بها بقدر المستطاع. ولكن إذا ساءت الأمور فالشئ الوحيد الذي يمكنني القيام به هو تسليم الزمام لأيدي قدامي الضباط السودانيين ثم أنسحب إذا أمكن إلي كباريقا وأبقى معه في إنتظار أن يعود الرجال إلي صوابهم ثم يتبعوني، وهم سيتبعوني إن عاجلاً أم أجلاً. وعلى كل حال سأطلع الحكومة، في هذا البريد، بكل ما يجري هنا".

ثم يكرر عدم عزمه على إخلائه مديريته بالكلمات التالية:

"سأبقي هنا، وأمسك بقدر الإمكان، بما تبقي من السنوات العشرة الأخيرة بها. وإذا جاءتني نجدة من أي جهة فهذا شئ جيد. أما إذا لم تجئ فأنني علي الأقل سأسقط في الميدان الذي أنجزت فيه مهمتي. إنني أسف للاضطرار لمناقضة الأفكار التي عبر عنها المستر ستانلي وشفاينفورث (والتي قالا فيها) بأن تجار الرقيق قد أجتاحوا هذه المناطق وأن الزنوج يعانون أكثر مما عانوه من قبل.

فمنذ مغادرة كرم الله وإنسحابه ثم تدمير نفسه ورجاله علي تخوم كردفان فقد ظل كل شئ في أمن وسلام تأمين. ولا شك في أن الحرب قد أفادتنا خيراً لأن كل إقليم بحر الغزال قد تحرر تماماً من تجار الرقيق والذين يقال، كما جاء أعلاه، بأنهم يتابعون تجارتهم الكريهة بدون عوائق. وفي كل بحر الغزال لا يوجد اليوم أي خرطومي. لكن لا يزال بها بعض من قدامي جنود لبتن الزنوج وهم يعيشون بسلام وسط الأهالي. أما في مديريتي فلم يبق بها سوى اثنين وستين دنقلاوياً وأنا قادر تماماً من منعهم من إرتكاب أي تجاوزات. إن إعادة احتلال هذه الأقاليم، والتي أخليت مؤقتاً، يمكن أن تتم بمنتهي السهوله. وإذا ما أمكن الحصول على بضعة قوافل فقط، ترسل عن طريق ممباسا أو المساي أو واكوري، ومن هناك ترسل لنا أو إلى كباريقا، فأن هذا هو كل مرادنا".

أثناء ذلك نجح الدكتور يونكر، عن طريق المجهود القيم للمستر ماكـاي، المبشـر فـي يوغندا، وتوسطه، للوصول إلى ذلك المكان بسلام. ومن هناك، وقبل أن يتوجه إلى زنجبار، أرسل قافلة إلى أمين، استلمها الأخير في أكتوبر. كانت الحرب بين يوغندا وأنيورو قد انتهت. وأرسـل أمين كاستلا إلى كباريقا ليمكث معه، وليعمل على أبقاء الإتصالات مستمرة، وهي التي كانـت قـد بدأت بصورة طيبة مع يوغندا.

***

سواكن في ١٨٨٦

انتهى عام ١٨٨٥ وسواكن تتوقع عوده سريعة لعثمان دقنة إليها ، وموسما" من تجديد العمليات العسكرية. وبنهاية يناير ١٨٨٦ وصل الأمير ذائع الصيت إلـى طمـاى ولكـن بـدون التعزيزات الكبيرة التي كان من المتوقع إحضارها معه. لم يكن لديه على كل حال، من المقـاتلين، مالا يزيد عن ألف رجل. وبهؤلاء، وبمساعدة من الأمير سعدون في هشين، تعرضت المنطقة التي حول سواكن إلي دوريات نشطة وغارات متكررة وتغنيم عدد من المواشي. أما إلى الجنوب منهـا فكانت المنطقة هادئة نسبيا وكان البني عامر لا زالوا منقسمين، فبعضهم كان مع الثوار رغـم أن ذلك كان بالاسم أكثر من الفعل. وكان الحباب في حالة من التمزق وخاصة أثناء غياب كنتباي فـي مصوع، واخذ شقيقه حداد، وعينه على إغتصاب السلطة والزعامة من أخيه، يتصل بعثمان دقنـة ويراسله مما تمخض عنه أن عدداً من أفراد قبيلته، شأنهم شان البني عامر، وصلوا إلى طوكر.

أما الأشراف، وهم قبيلة تمتد تقريباً بطول خور بركة وإلى الغرب من البني عامر، فقـد أعلنوا تركهم للمهدية رغم أن تصرفات هؤلاء الأشراف، مثلهم مثل معظم القبائـل بـين طـوكر وكسلا، كانت تتسم بشيء من التراخي وعدم اليقين.

استمر الانقسام وسط البني عامر. وفي مايو أرسل عثمان سعدون مع ٩٠٠ رجل لجمع الضرائب منهم ولإعادتهم إلى صوابهم. وفي هذا الوقت كان قد تم القبض علي أونور، من فـرع العبد الرحمانـاب من الأمرأر، وأحد الشيوخ القليلين الذين يعادون المهدية وسط القبيلة، وإحضاره إلى سواكن. وقد تسبب ذلك الحدث في دفع الشيخ المخلص على حمد، من فرع الكرباب، للضـغط على قادة الأمرأر الآخرين للتمسك بقرارهم بنبذ قضية الثوار ومفارقتهم. أثمر هذا النداء. ووجـد سعدون عند تقدمه أن قوة كبيرة من الأمرأر المعادين له قد سدت الطريق إلى أربعات* من أمامه. فقام بمناشدة عثمان دقنة لتعزيزه بالمدد، لكن عثمان لم يتمكن من نجدته. ولكن بعد وقت من ذلك إنضم إليه مصطفي هدل، الذي أشتهر في كسلا، فتوجها نحو أربعات مع قوة صـغيرة. وقبـل أن يصلها كان كثير من رجاله قد هجروه بسبب من ندرة الطعام. ثم هجم عليهم الأمرأر, وهزمـوهم هزيمة ما حقه، وكان سعدون نفسه من بين القتلى.

وقد حدثت أثناء ذلك تغييرات في سواكن. كان الكولونيل تشيرمسايد قد غادرها منذ بعض الوقت: والجنرال هدسون وآخر من تبقي من القوات الهندية قد أبحـروا عائـدين فـي السـادس

---

* علي بعد ستين ميلاً شمالي سواكن.

والعشرين من يناير: والسير تشارلس وارن وصل في الثامن من فبراير ورجع ثانية في ١٥ مارس. وفي الثالث من مايو وصل إلى سواكن الميجر واطسون كحاكم عام لها.

وفي تلك الفترة أيضاً عبرت بعض أقسام الأمرأر، الذين كانوا مؤخراً مع عثمان دقنة، عن رغبتهم في العودة لولائهم للحكومة لكنهم لم يجرؤا علي الحضور لسواكن علناً. كما أبحرت السفينة الملكية كوندور إلى دارا حيث عقد اجتماع للشيوخ هناك وقد أخبروا بأن الحكومة لا ترغب أساساً إلا في تأمين السلم بالمنطقة حول سواكن. كان لهذا الاجتماع نتائج طيبة، فبعد ذلك بقليل قامت القبائل الصديقة بالقرب من الشيخ بارود**، وعددهم حوالي ٦٠٠ رجل، بمهاجمة قوة أخري للثوار، بقيادة الفكي مدني، وقتلوه مع أميرين آخرين وعدد من رجاله، إضافة للاستيلاء على كمية من الذخيرة والجمال. لم يغب كل هذا الارتداد عن عين عثمان دقنة وعمل علـى إجبـار القبائـل المتمردة (للعودة إليه) عن طريق سجن شيوخهم والذين كان أهمهم شيوخ أقسام الهمباب والقرياب وعمر هسياب. وجنوباً أيضاً قرر الحباب، الذين يعتمد عليهم عثمان، الوقوف ضـده بينمـا تبـرأ كنتباي، عند عودته من مصوع، تماماً من أخيه.

أيضاً قام عثمان أثناء ذلك بإرسال بعثة للأشراف لإعادتهم للطاعة. لكـن زعـيم تلـك القبيلة، محمد أبو فاطمة، جاهر بعدائه لعثمان وعادت البعثة بدون أي نتيجة.

وفي يونيه حاول عثمان استنفار الهدندوة لقتال الأمرأر، الذين كانوا يتجمعون في الشيخ بارود. لكن هذه المحاولة فشلت أيضاً وبعد ذلك بقليل تم تأسيس مأمورية في الشيخ بـارود ممـا أضاف مزيداً من الثقة في نفوس الأمرأر.

وظلت سواكن طوال تلك الفترة في حالة من الحصار الجزئي. وكان الثوار يطوفون فـي دوريات بضواحيها نهاراً ويطلقون النار على المدينة ليلاً. ثم حدث تغير هام. فقد أمسك الأمـرأر بزمام المبادرة وقاموا في السابع عشر من يونيه بالهجوم وطرد جماعة من العـرب فـي هشـين يقودهم الأمير علي شراي وبعد يومين من ذلك تجمع ١٥٠٠ رجل من الأمرأر في هندوب حيث تم إرسال بروستر بك ومحمود بك على للاجتماع معهم يوم ٢١ يونيه. تم استقبال الموفدين بحـرارة وإنعقد الاجتماع الذي أعلن الأمرأر فيه عداءهم الواضح لعثمان. وعندما سمع الأخير بذلك, وعلم أنه عاجز عن إخضاعهم، قدم لهم وعوداً في محاولة لترضيتهم بأن أرسل جيلاني، وهـو وكيـل الشيخ حامد محمود، السجين بطماي، يخبرهم بأنهم إذا ما تفرقوا وعادوا لديارهم فأنه لن يسـبب لهم أي متاعب أخرى. لكن جيلاني كان قد وجه من قبل سيده لحث الأمرأر علي القتال وهـذا مـا وافقوا عليه بالإجماع. وقاموا في الثاني والعشرين من الشهر بالتوجه نحو هشـين وإسـتطلعوا طماي. لكنهم هوجموا في الرابع والعشرين من قبل الثوار فصدوهم بعد خسـائر كبيـرة. وهكـذا إنعكس الوضع بين المهدويين والقبائل الموالية حيث ظل الأولون شبه مقفولين فـي طمـاي. ثـم هجرت قبيلة الجميلاب عثمان الآن.

وفي الشهر التالي أرسل الخليفة من أم درمان رسولاً هو الفكي علي حـاملاً تعليمـات لعثمان دقنة لإستخدام أي وسيلة لمصالحة القبائل وكسب ولائهم. ويبدو أن عثمان لم يهتم كثيـراً

** علي بعد ثلاثين ميلاً شمالي سواكن

لتلك الأوامر وقام بعد ذلك بقليل بقطع رأسي حامد محمود وود حساب (من فرع النوراب) مما زاد من كراهية الأمرأر له ونفورهم منه. وبعد أيام من ذلك قام علي بن محمد سعدون، وهو الوحيد من الأمرأر الذي إستمر مع المهدية، بالحضور إلى سواكن وأعلن خضوعه (للحكومة).

وفي العاشر من يوليه أنشئت مأمورية أخرى في محمد قول. وما لبث أن جاء لها شيوخ البشاريين في تلك المنطقة معلنين ولاءهم للحكومة.

وفي أوائل الشهر التالي وصل خمسة عشر من شيوخ البني عامر من عقيق وأعلنوا ولاءهم للحكومة المصرية وتمنوا أن يروا سلطتها راسخة مرة أخرى في البلاد.

واستمر الحصار الجزئي حول طماي وبدأت الإمدادات تعجز عن الوصول لها وقام كثيرون بهجرها بينما توجه آخرون إلى طوكر للإشراف على محاصيلهم. وعندما وصلت تلك الأنباء لمسامع الخليفة، والخاصة بالأحوال غير المطمئنة في المنطقة، قام بإستدعاء عثمان دقنة لأم درمان مع وعد بأنه سيرسل قريباً مدداً لطماي. وبارح عثمان طماي في ١٣ أغسطس، وفي الثالث والعشرين من الشهر اجتمع وجهاء سواكن ورجال الدين والتجار والعرب ليعبروا للحاكم العام عن وجهة نظرهم للوضع الراهن وكانت خلاصة ما وصلوا إليه الآتي:

- أوضحوا أن العرب قد فقدوا عدداً كبيراً من رجالهم.
- أنهم تحققوا أخيراً أن المهدي مدعي وليس مهدياً حقيقياً.
- أن التمرد لم يثمر إلا عن تعظيم عدد من المهيجين الحمقى من معدومي الضمير.
- وأنه من العبث أن يأملوا في السلام وإعادة التجارة لما كانت عليه بدون وجود سلطة يمكنها فرض القانون والنظام في البلاد.
- وأنهم بالتالي يسألون الله أن يمكن المسئولين من اتخاذ خطوات إيجابية للإسراع في تحقيق هدفهم. وأن الوقت الراهن مناسب تماماً لاتخاذ هذه الخطوات.

وقالوا أن الهدندوة هم المسئولون عن هذه الحالة. لكنهم أيضاً عانوا أشد المعاناة من جراء عملهم الأحمق مما يمكن معه سحقهم بأقل مجهود، وتدمير طماي، واحتلال طوكر*

ما جاء أعلاه مثير حقاً للإهتمام، لأنه لم يكن فقط مجرد عرض لآراء اجتماع لرجال مسئولين يمثلون الأهالي وتجار سواكن، لكنه، وإلى اليوم، يقدم لنا الإجابة الواضحة من العرب وهي أنهم قد تركوا المهدية قولاً وفعلاً ويكررون ذلك كلما جاءت سيرة المهدية وحتمية طردها من المنطقة. لكنهم كما يبدو لم يفهموا تماماً بأن السودان قد أخلي رسمياً، وأن تصرفات الحكومة أصبحت دفاعية بحتة. ومع ذلك ظلوا يأملون دائماً باعادة إحتلال السودان وفرض النظام والقانون عليه. وفي نفس الوقت، ورغم أن بإمكانهم وحدهم، إذا ما حاولوا، تحطيم نفوذ المهدية في شرق السودان، إلا أنهم يقولون دائماً ويكررون عدم قدرتهم على ذلك إلا بدعم من القوات الحكومية. ويجادلون بأن النظم والتركيب القبلي، رغم أنه صعب دائماً، قد إزداد صعوبة من جراء تدخل المهدية في شئونهم مما أدي لتدهور نفوذ الشيوخ وسلطاتهم لدرجة كبيرة. ثم أنهم دائماً كانوا يخشون من انتقام المهدية منهم إذا ما فشلوا في محاولاتهم للخروج من قبضتهم وتغيير ولائهم.

* أثبتت الأحداث صحة توصياتهم، بعد أن تم هذا الكتاب. والفقرة التالية ستبين ذلك بوضوح.

وكانوا لا يعلمون إلا القليل عما يجري في المناطق البعيدة من البلاد، وكانوا يخشون أنهم حتى لو أفلحوا في طرد المهدويين من مناطقهم فأن من المحتمل أن يرسل الخليفة لهم جيشاً عرمرماً ليخضعهم مرة أخرى لسلطته. لذا فمن المفهوم تماماً مدى صعوبة تكوين تحالف كونفدرالي بين القبائل بدون منحهم أي شيء، عند قيامهم بالمحاولة، سوى الدعم المعنوي، وهو الأمر الذي لابد أن يهدد حتى حياتهم نفسها.

***

وبعودة لما يجري حول طماي فسنجد أن الأمرأر يشددون الحصار عليها بقوة لدرجة أصبح الخروج منها مستحيلاً. وفي سبتمبر إنضم إليهم بعض الهدندوة. وفي السابع من أكتوبر هاجموا طماى واكتسحوها وقتلوا ٢٠٠ من الأعداء واستولوا على سبعة عشر مدفعاً وكمية ضخمة من البنادق والذخائر وأسروا خمسين رجلاً. أما الذين فروا فتوجهوا إلى طوكر.

وقام اللفتنانت كولونيل كتشنر، الذي خلف الميجر واطسون كحاكم لسواكن، بزيارة طماى في اليوم التالي للمعركة ووصف الموقع بأنه "موقع قوي للغاية مكون من أرض واطية متموجة تخفي المعسكرات التي بالوادي تماماً. أما الحصن نفسه فكان متين البنيان وقد بني من الحجارة بشكل مربع مع برجين كرويين نصبت بهما المدافع والتي تحمي مداخل الحصن. يحتوي الحصن أيضاً على عدة غرف مكدسة بالذخائر والمواد الأخرى. وعلى بعد مئة ياردة جنوباً، وباتجاه الوادي الرئيسي الذي يحصلون منه على المياه، وضعت كميات من جوالات السعف مليئة بالرمل في الأماكن المسيطرة على الموقع، وكان المعسكر نفسه واسعاً يكفي لإيواء ٣٠٠٠ رجل على الأقل".

ويبدو أن هجوم الأمرأر، الذي قاده أحمد، إبن محمود بك علي، من الأمرأر الفاضلاب، بألف رجل كان مفاجئاً تماماً ولم يكن بالحامية وقتها في طماي سوى خمسمائة من الثوار.

وتم الاستيلاء أيضاً على كمية من الرسائل. والخطاب التالي سيقدم أوضح صورة لما كان عليه الوضع قبل المعركة. وكان الكاتب وزميله، الذان كانا مبعوثين إلى الأراضي الحجازية للدعوة للمهدية، قد قتلا في الهجوم:

"من الحاج علي إسماعيل الخير وأحمد موسى، المبعوثين إلى مكة والمدينة، إلى الخليفة عبد الله:

بعد السلام. نرجو أن نفيدكم بأننا قد وصلنا لبربر، واستقبلنا حاكمها (عاملها) حاج أحمد خوجلي باحترام كبير، وبعد ذلك بوقت قصير أعطانا جملين مع دليل ليقودنا في الطريق إلى سواكن. ووصلنا كوكريب وهناك علمنا لأول مرة بأن عثمان دقنة هو في طريقه للخرطوم وعلمنا أن العرب غير الموالين يحاصرون قلعة طماي ويقطعون الطريق. لكننا لم نصدق ذلك رغم أن الدليل، ويسمي موسي ود عيسي، ويتحدث لغتهم، أخبرنا بأنه يعتقد بصحة ما سمعناه وأن المكان محاصر بالفعل.

وعلى الرغم من تلك الأنباء السيئة توكلنا علي الله وواصلنا رحلتنا. وبعد ذلك بقليل أخبرنا رعاة الإبل بأن الكفار لا يبعدون عنا بأكثر من نصف ساعة، وأن عددهم حوالي ٣٠٠ رجل لكن الله أعماهم عنا ووصلنا إلي حصن عثمان دقنة بدون أن يروننا. وهنا وجدنا محمد أحمد دقنه

وأعوانه المخلصين للدين جميعهم، والذين يقاتلون أعداء الله ليلاً ونهاراً. بادلناهم التحية وسلمناهم الخطاب الذي معنا. استلم (أحمد دقنة) الخطاب ووضعه على جبهته وأمر بإنزالنا في أفضل مسكن وقال: "يمكنكم الآن أن تروا بأعينكم ما يفعله هؤلاء الكفرة، وكيف أنهم يحاصروننا من كل جانب ويهاجمون المكان. لكن الله، وبركة المهدي والخليفة، حفظنا). وأخبرناهم بعد ذلك بما حدث لنا أثناء الطريق وحمدنا الله جميعنا على عطفه علينا. لم نر أبداً رجالاً مثلهم. فهم يقاتلون كالأبطال، جازاهم الله خير الجزاء. ورأينا كيف أن خبز يومهم يصلهم من حيث لا نعلم. فأرضهم جرداء لا زرع فيها ولا شجر ولا شيء بها سوى الأحجار.

كل العرب قد تركوا الدين. ولم يبق الآن في هذا المكان سوى أشجع الرجال والذين لا يزيد عددهم عن ٣٠٠ رجل. بجانب ذلك، فأن الكفرة عندما رأوا ضعف المؤمنين قالوا لإخوتهم:"فلنذهب لنهاجم الحصن ونستولى على كل ما به" ثم اقتربوا جداً من الحصن وفر الكثيرون للانضمام للمحاصرين.

وفور انضمام أحد العرب غير الموالين للكفرة فأنهم يحولونهم لجنود ويسمونهم (البوليس) ويسلمونهم قطعة من قماش أحمر يرتدونها حتى يعرفوا. قتل رجالنا بعضاً منهم ووجدوا القماش الأحمر حول أعناقهم. وكان رجلان هما سعيد جعفر وشنقة، واللذان كانا في الحصن، قد أخبرا الكفرة بكل ما يجري فيه.

ومنذ وصولنا شاركنا في صد ستة هجمات شنها الكفرة على الحصن. ولكن بعون الله كان المؤمنون منتصرين دائماً. ثم بدأوا الآن في مهاجمتنا من الخلف وقطعوا كل سبل الإتصال. قلنا لأخينا محمد أحمد دقنه بأننا لا نستطيع البقاء هنا أكثر من ذلك، ولابد لنا من إتمام مهمتنا، وأن الموت قد يجيئنا في البر أو في البحر، وأننا لا بد أن نتوجه لطوكر حيث قد نجد سمبوكاً لعبورنا البحر.

أحضر الإخوة دليلاً لنا، لكننا لم نكن نعلم بأن الرجال الذين في الحصن قد ذهبوا مباشرة للكفرة وأخبروهم بأن رجلين قد حضرا من الخرطوم، وأنهم في طريقهم لطوكر، ونصحوهم بالقبض علينا.

كنا قد غادرنا الحصن وسرنا لأربعة ساعات عندما جاء من يخبرنا بأن الكفرة يسدون الطريق أمامنا بأعداد كبيرة. فقررنا بالتالي العودة للحصن وانتظار قدوم الليل. وأثناء عودتنا هوجمت القافلة التي كنا معها من قبل الكفرة واستولوا عليها لكننا تمكنا من الهرب والعودة للحصن. وعندما رآنا الأصحاب قلوا لنا:" لقد كان الله رحيماً بكم حقاً، لأن الهجوم كان موجهاً أساساً للقبض عليكم لأنكما تحملان رسائل الخليفة التي أوكل إليكم توصيلها".

الأصحاب يعانون كثيراً لكنهم يعتصمون بالصبر. وأفضل رجالهم هو الطاهر المجذوب وولده عبد الرحمن. إننا منتظرون هنا الآن ونسأل الله أن يرسل لنا سمبوكاً نبحر به إلى وجهتنا".

تم الآن تدمير المعسكر وتفجير الحصن. وتسلم القادة المنتصرون الرتب والأوسمة من صاحب السمو الخديوي. انتهز الحاكم العام هذه الفرصة السانحة ليرسل خطابات يطلب فيها استسلام طوكر، حيث كان معروفاً بأن مشاعر قوية، في مصلحة الحكومة، توجد بين سكانها. لكن

تأكد بعد ذلك بأن أولئك الموالين يخشون من إظهار ذلك. وكان للأخبار الخاصة بقرب عودة عثمان دقنة مصحوباً بقوات كبيرة أثر في كبت أي نوايا من جانبهم. أما المنتصـرون فـي طمـاى فلـم ينزعجوا، بل شرعوا في ترتيبات التقدم نحو طوكر. وإنضم لهم الآن. شـيخ الإشـراف، محمـد أبوفاطمة، والذي كتب لمن في طوكر من أفراد قبيلته حاثاً لهم للإنضمام للعرب الموالين. وانتهـز عدد من شيوخ البني عامر هذه الفرصة لتأكيد ولائهم للحكومة، وقابل وفد منهم، يضم قادتهم مـا عدا واحد هو عكود موسي، الحاكم العام في عقيق.

وفي أوائل نوفمبر ثبت العرب الموالون أقدامهم في التيب وبدأ أن كل شيء بعد بـالخير عندما تقدم الأمير موسي فكي، في التاسع من نوفمبر، من طوكر مصحوباً بقوة كبيرة. لـم يبـذل العرب الموالون أي جهد للصمود، بل أنسحبوا لترنكتات حيث بدا واضحاً عدم إهتمامهم للاستمرار في المواجهات ضد قوة متفوقة كثيراً عليهم. وبعد ذلك بوقت قصير تم إحضارهم لسواكن وتخلـوا عن محاولاتهم.

وبدأ موسم طويل من الهدوء لم يشاهد منذ سنوات. وما عدا طوكر فيبـدو أن القبائـل بالقنوب قد تركت المهدية. وكانت المحاصيل في دلتا طوكر طيبة بشكل خاص مما أجتذب عدداً من العرب للحضور بالقرب منها. ونتج عن ذلك أن قائد طوكر، موسي الفكي، تمكن من مضاعفة عدد أتباعه قبل إنتهاء السنة. أما الأمير الخضر فلم تتوقف جهوده لإثارة العداء للحكومة قط.

وإلى الشمال، عم الهدوء كل المنطقة بينما شرع عدد كبير من الشيوخ، مـن المنـاطق الغربية المجاورة، في الحضور لسواكن. أما في الجنوب فقد انقضت سـنة ١٨٨٦ فـي نزاعـات متصلة بين العرب المحليين وبين الأمراء الذين عينهم عثمان دقنة. وتخلل ذلك غارات من وقـت لآخر على القبائل المجاورة مثل الباريا والبني عامر الذين لم يخضعوا لحكم المهدية. ولعلنا نـذكر أن أحمد الجير، شيخ البني عامر، كان قد أنضم من قبل للمهدية وربما كان هذا هو السبب في أن لنفوذه دور في عدم القيام بمحاولات جادة لإجبار البني عامر على الخضـوع. لكـن المهـدويون عموماً ألحقوا بعض الخسائر على الباريا والبازي في الرجال والمواشـي مـع أن تلـك القبائـل الحدودية الشرسة قد ألحقت بالعدو من الخسائر مثلما لحق بها. أمـا فـي كسـلا فـلا يبـدو أن الانشقاقات التي حدثت بها كانت بسبب العداء أو الشعور المعارض للمهدية، ولكن بسبب من رغبة القبائل المتمردة، وبخاصة الهدندوة، لرؤية أحد أفراد قبيلتهم في منصب الأمير لتلك الجهات. ولقد تولي فاي وأحمد دقنة وعبد الله أبو بكر وغيرهم من عائلة دقنة أو أقاربهم الأمارة واحـداً بعـد الآخر أثناء السنة. لكن أحداً منهم لم يفلح في احتواء عدم الرضي بين القبائل. وفي أوائـل العـام كان عدداً من الشيخ من ذوي النفوذ قد إنفصل عن دقنه. وفي يوليه رفض شيخ محمـد موسـي الاعتراف بهم، وفي نوفمبر فقد محمد فاى دقنة، الذي كان أميراً وقتها، كل نفوده وسيطرته وكان من المحتمل أن يتم إبعاده بالقوة لو لم يقترح القسم المعتدل منهم إحالة الأمر للخليفة. فلقد تسـلم الخليفة عدداً من الشكاوى من قبل، ضد عثمان دقنة وضد أمراء كسلا. ولما أحس بخطر ثورة قد تنشب ضد الأخير قام باستدعاء كل شيوخ الهدندوة النافذين إلى أم درمان بعد أن وعدهم بتنفيـذ مطالبهم. طبقاً لذلك أطاع الشيوخ محمد موسي وود الهداب وبلال الأمين وكثير من الرجال النافذين

أمر الإستدعاء. وعند وصولهم (لأم درمان) إقترح عليهم الخليفة فأرسال أبو قرجة أميراً عليهم بدلاً عن أمراء الدقناب الذين يكرهونهم. لكنهم اعترضوا بشدة على هذا الاقتراح مما دعي بالخليفة للحكم بإعدامهم بتهمة عدم الولاء والطاعة. وظلوا في حيرة وقلق لعدة أيام حتى أطلق الخليفة أخيراً سراحهم وسمح لهم بالعودة لديارهم على وعد منهم بالإلتزام بالطاعة المطلقة. أما الشيخ محمد موسي فقد حفظ كرهينة (في أم درمان)، وبهذا الأسلوب تمكن الخليفة بنجاح من تحطيم ما كان قد يتطور إلى ثورة عارمة على سلطته.

أما عثمان، عند وصوله لأم درمان، فقد طلب تعزيزات تمكنه من مواصلة أعماله العدائية ضد سواكن. لكن الخليفة، كما يبدو، لم يكن راضياً عن أدائه في شرق السودان الذي ترك كثير من قبائله المهدية. إضافة لذلك فقد أتهمه الموسياب بأغتيال زعيمهم حامد محمود مما أدى إلى سجن عثمان لبعض الوقت، لكنه سرعان ما أطلق سراحه. وفي نوفمبر أمده الخليفة بعدد قليل من الرجال وأخبره بضرورة ضم الشكرية إلى رايته. توجه بالتالي إلى ديارهم. وبعد شهر من المحاولات الفاشلة إضطر إلى الرجوع بدون أن ينضم إليه منهم أحد.

هذه القبيلة، رغم أنها من القبائل غير الميالة للحرب، لم تخضع أبداً للمهدية بكاملها. وكانوا في مرحلة من المراحل قد تحالفوا مع الحمران – وهي قبيلة محبة للقتال تقطن في المنطقة من جنوب كسلا وحتى الحدود الحبشية – الذين كان زعيمهم هو الشيخ عجيل المشهور. وقامت القبيلتان بمقاومة تمدد المهدية باتجاههم، ولكن بعد سجن زعيمهم الشهير والمخلص (للحكومة) عوض الكريم باشا أبو سن في أم درمان، خضع عدد من القبائل للمهدية. وبعد موته، في الخامس العشرين من ديسمبر، في الحبس مكبلاً بالقيود، توقفت كل مقاومة.

وحتى هذا الوقت لم يبد أن الملك يوحنا والراس ألولا قد أدركا المصاعب الوشيكة التي ستترتب على الاحتلال الإيطالي لمصوع وحولا كل إنتباههما إلى حدودهما الشمالية والغربية حيث تم إلحاق بعض الخسائر بالمهدويين من قبلهم. وفي أكتوبر عمل الراس ألولا على الاستعداد لاقتحام كسلا كما يقال. وفي نوفمبر تقدم خلال أراضي الباريا والبازي مسبباً رعباً وفزعاً عظيماً في كسلا. لكنه عندما كان على بعد مسيرة يومين أو ثلاثة من تلك المدينة جاءته الأنباء المفزعة، فجأة، بأن الإيطاليين زاحفون. تخلي بسرعة عن مشروعه الحالي وأسرع عائداً لمراقبة تحركاتهم.

في هذا الشهر أفلح الإيطاليون في فتح ميناء رارات للتجارة تحت حمايتهم، وهي عملية سببت كما يبدو بعض البلبلة للشيوخ المحليين الذين توجهوا لعقيق راجين الحصول على تفسير لما حدث، لأن الحكومة الوحيدة التي عرفوها من قبل هي الحكومة المصرية.

ملحق القسم التاسع

العملة التي أصدرها (كل من*)

محمد احمد، مهدي السودان (وخليفته*)

مقال كتبه:

يعقوب باشا أرتين

(وقد ترجم من اللغة الفرنسية)

منذ بداية العصر الإسلامي، كانت قراءة خطبة الجمعة، باسم العاهل، تعتبر من حقوق الملكية (السيادية). وفي القرن الأول (للإسلام) أضيف حق إصدار العملة لإمتيازاته.

وكلا العادتين، والتي اختص بها الحكام أنفسهم كرمز لإمتيازات الولاية، وللوحدة الروحية للإمبراطورية الإسلامية، السياسية والدولية، يبدو أنهما نالا إعترافا" وقبولا" منذ بواكير العهد الإسلامي، كامتياز للعاهل، من قبل المفكرين المسلمين ومن المسلمين عموما".

وبمرور الوقت، وعندما يكون أحد الثوار، ضد سلطة الخليفة، محظوظاً للدرجة التي تمكنه من خلع تبعته للخليفة، ويرغب بالتالي في تثبيت وترسيخ سلطته الجديدة، حسبما تتيح له الظروف، فإن أول ما يبدأ به هو ضرب عملته الخاصة به ثم تعميم الدعاء له في خطب الجمعة من منابر المساجد.

وعندما أدخل عبد الملك بن مروان عادة ضرب العملة بشكل معين، في العهد الأموي، حوالي عام ٧٥ للهجرة (٦٩٤) لم يضع اسمه اطلاقاً " منقوشا" على العملة. وفيما بعد، وفي العصر العباسي، شرع الوزراء أو حكام الأقاليم في نقش عملاتهم بأسماء مدن الإقليم التي كانت أول ما صكت العملة فيها، وأحيانا كانوا ينقشون أسمائهم عليها.

ولم يفكر الخلفاء في نقش أسمائهم على عملاتهم إلا بنهاية القرن الثالث الهجري أو بداية الرابع، وذلك عندما تكررت الثورات وشاعت وبدأت الوحدة الإسلامية تتهدد من جراءتها.

وحتى ذلك الوقت كان من الواضح أن امتياز ضرب النقود موكل بالخلافة فقط. ولكن عندما ذهب بعض حكام الأقاليم بعيدا لدرجة كادوا يعلنون فيها استقلالهم، فقد أصر الخلفاء على الاحتفاظ، ولو اسميا على الأقل، بمظاهر سلطتهم علي الأقاليم المتمردة والتي كانت أبعد من أن تطالها أيديهم. وبالتالي فقد ألزموا هؤلاء الحكام، الذين اغتصبوا أياً من حقوق الخلافة، بالمزيد من الجباية، كما أصروا عليهم بضرورة نقش أسماء الخلفاء مع أسمائهم بالنقود، وعلى أن تقرأ الخطبة بأسمائهم جنباً إلي جنب مع أسماء الأمراء الذين كانوا في واقع الأمر مستقلين بالفعل، والذين كانوا يحكمون أقاليمهم كملوك متوجين. وقبل معظم هؤلاء الأمراء السيادة الروحية، وحتى السيادة السياسية، للخلفاء العباسيين، وذلك طالما لم تأخذ ثورتهم (الإنفصالية) الطابع الديني.

---

* إضافة من المعرب.

وفي مصر قامت أسر الطولونيين والإخشيديين والأيوبيين والمماليك، والذين توالوا على حكم مصر، بضرب عملتهم بأسماء خلفاء بني العباسي في بغداد. وبعد تدمير هولاكو خان لبغـداد في القرن الثالث عشر الميلادي وإنتقال الخلافة للقاهرة قام المماليك بضرب العملة التـي تحمـل أسماء أولئك الخلفاء، وذلك بعد أن تمكن المماليك من السيطرة على مصر، وعاملوهم كخلفاء من النواحي السياسية والدينية، ولكن بدون السماح لهم بممارسة الحكم أو تحمل أي مسئوليات دنيوية سلطوية. وكان هؤلاء الخلفاء في حقيقة الأمر شبه سجناء بأيدي سلاطين المماليك، وكانوا رغـم احتفاظهم بلقب الخلافة قد أرغموا على تفويض كل سلطاتهم الدينية والمدنية والسياسية والعسكرية لسلاطين المماليك، والذين اتخذوا لقب "السلطان الظاهر" أو ما يعني "السلطان حسب الأمر الواقع"أو "السلطان الزمني أو المفوض".

ولم يكن هناك إستثناء لتلك القاعدة إلا في حالة الأمراء العبيديين، والمعـروفين باسـم الفاطميين، والذين إتخذوا "الخلافة العالمية" كمبدأ لهم. وكان عبيد الله المهدي، الذي أسس نفـوذ هذه الأسرة في إفريقيا، قد ثار على خلفاء العباسيين في بغداد في القرن العاشر الميلادي. وقـام خلفاؤه بغزو مصر وسوريا والجزيرة العربية وفصلوها من الخلافة العباسية دينياً وسياسياً. وظلت سيادتهم على تل البلاد مطلقة لقرنين من الزمان، وضربوا النقود وقرئت الخطب بأسمهم بدون أي ذكر لأسماء الخلفاء العباسيين. وبهذا أكدوا سلطاتهم المطلقة المضادة تماماً لخلفاء بني العباس.

وفي واقع الأمر لم تستمر تلك الفترة لأكثر من قرنين إنفصلت فيهما مصر عـن سـلطة الخلافة، بعدها عاد أمراؤها الجدد لضرب النقود وقراءة الخطبة بأسمائهم في توافق مـع خلفـاء بغداد والذين كانوا من السنة عموماً. كانت لهم السيادة الفعلية لكنهم، بعكس الفـاطميين، أيـدوا سيادة الخليفة ووحدة قوة الإمبراطورية الإسلامية ولم يعارضوا حقوقه المقررة.

وعندما إفتتح السلطان سليم مصر في عام ٩٢٦ هجرية (١٥٢٠ ميلادية)، قام بإرغـام آخر خلفاء بني العباس، محمد المتوكل علي الله، والذي كان آخر الخلفـاء الـروحيين المقيمـين بمصر، على التنازل له عن كل حقوق الخلافة وأعلن نفسه الخليفة الوحيد لرسول الله وأيده فـي ذلك كل الناس الذين حكمهم مثلما أيدوا من قبل وريث البيت العباسي السني.

ومنذ ذلك الوقت، وفي مصر، كانت خطبة الجمعة تقرأ باسم سلاطين آل عثمان،وكـذلك كانت النقود تضرب باسمهم. وحتى يومنا هذا، لم يجرؤ أي حاكم لمصر، سواء كان ثـائراً علـى السلطان، أو حتى في حرب معه، على انتهاك هذا القانون الأساسي للإمبراطورية العثمانية. ولكن، وبنهاية القرن الماضي، نجد خرقاً نسبياً لهذا التقليد، وذلك أمر شبيه بما فعله الأمـراء التـابعين للخلافة العباسية من قبل. فبينما قام أولئك الأمراء بنقش أسماءهم كاملة بجانب أسم الخليفة، إلا أن على بك اكتفي منذ عام ١١٨٣هـ (١٧٦٩م) بكتابة الحرفين الأوليين من أسم (على) تحت أسـم السلطان (التركي) مصطفي الثالث، إبن السلطان أحمد الثالث، وذلك علي عملته الذهبية. وهنالـك نموذج لتلك العملة بالمتحف البريطاني، وضعت تحت الرقم ٦٤٥ من المجلد الثامن كتالوج العملات الشرقية بمتحف لندن عام ١٨٨٣. وفي عملتين ذهبيتين أخريين، من نفس المجموعة، ضربت عام ١١٨٦هـ نجد أنه، حتى تلك المحاولة لتأكيد السيادة، قد إختفت تماماً.

وعند ضرب عملته الفضية، ويبدو أن علي بـك قـد إزداد جـرأة، نجـد أن القطعتـين الموجودتين بالمتحف البريطاني تحملان على ظهرهما اسم (علي) كاملاً، وقد ضـربتا فـي العـام ١١٨٣. ولكن نقش علي وجه القطعتين (طغرة) السلطان مصطفي الثالث.

وبالإضافة لتلك القطع، والتي كان قد وصفها أصلاً المستر ستانلي لين بول فـي كتابـه المصور (كتالوج) عن العملات الشرقية، الموجود بالمتحف البريطاني، فأن فرنسياً آخر هو ج.ج. مارسيل قد وضع كتالوجاً سمي "المجموعة العالمية "للعملات" جاء في مجلد بعنوان "مصـر، بعـد عودة العرب للحكم، بعد انتهاء السيادة الفرنسية" وفيه يبرز صوراً للعملتـين الفضـيتين التـين وصفناهما أعلاه.

إن مقصدي مما أوضحته أعلاه هو بيان أن الأمير، ومهما كان قوياً ومسـيطراً علـى إقليمه، لم يكن ليجرؤ على نقش اسمه فقط على العملة التي يصكها. نفس الحال مع الخطبة والتي لا يذكر فيها اسمه إلا بعد اسم السلطان العثماني والذي هو، بحكم القـانون، السـلطان الشـرعي لمصر، والخليفة العالمي للإمبراطورية الإسلامية السنية التي لا تنقسم.

أما في وادي النيل، وبخلاف القاهرة والإسكندرية،فأنني لا أعرف بأن عملة قد ضربت قط منذ الفتح الإسلامي.ومنذ الغزو العثماني لمصر كانت كل العملات التي تصك هنا تحمل كلمة مصر – أو القاهرة.

***

أما في السودان، وقبل فتحه بواسطة محمد علي باشا (١٨٢١) ودمجه في مصر، فقـد كانت كل المعاملات تتم إما بالمقايضة أو بعملات معدنيـة ألمانيـة أو أسـبانية أو مكسـيكية (أو نمساوية) أو قروش أخرى. ولم تكن العملات الذهبية معروفة لحد ما. ولكن كانت هنالـك تجـارة مزدهرة في (برادة أو تراب الذهب)، والسبايك، أو الذهب المشكل بصور الحيوانات وبوزن محدد. لكن هذا الذهب لم يكن يحل محل النقود وإنما كان سلعة تدخل في التجارة. ولم ينتشـر إسـتخدام النقود الذهبية والفضية في السودان والنيل الأعلى إلا بعد ضم الحكومة المصرية له ولساحل البحر الأحمر. ورغم ذلك كان للعملات الذهبية قيمة ضعيفة حتى أنه، وقبل خمسة عشر عاماً فقط وأثناء الحرب الحبشية – (المصرية)، فأن جنودنا كانوا يبادلون الأحباش العملة الذهبية المصـرية فـي مقابل الريالات الفضية الألمانية. وذلك بواقع خمسة أو ستة جنيهات لكل ثيلر ألماني فضي.

وفي الوقت الراهن، وفي شمال السودان المصري على كـل حـال، وبـالرغم مـن أن المعاملات التجارية تتم في معظمها بالمقايضة، إلا أن النقود الذهبيـة والفضـية معروفـة هنـاك ومحتفظة بقيمتها الفعلية.

ومنذ ثورة محمد أحمد المهدي، سمعت بأن هذا (الرجل) قد صاغ نقوداً ذهبية وفضـية باسمه شخصياً. ولقد ذهلت لهذا النبأ، الذي يتجاوز كل العادات والتقاليد، وبدا الأمر بالنسبة لـي عملاً جريئاً للغاية، وظللت أشك فيما سمعت لفترة طويلة حتى تفضلت علي مكارم الجنرال السـير جرنفل، سردار الجيش المصري، بإعطائي قطعة (نقد) ذهبية وقطعتـين فضـيتين مـن (ضـرب) السودان. وفيما بعد أعارني أباظة باشا قطعة فضية أخرى كانت تخصه. تلك القطع هي التي سأقوم بوصفها الآن:

القطعة الذهبية (السودانية):

تشبه القطعة الذهبية المصرية التي تعادل قيمتها ١٠٠ قرش مصري ما عدا أنها ليست كبيرة الحجم ولكنها أكثر سمكاً من مثيلتها التي ضربت في القاهرة.

وهي تزن ٨ جرام و٢١ حبة وقطرها يبلغ ٢,٣ سنتمتر. وعلى وجهها طغرة السلطان عبد المجيد غير كاملة وسيئة النقش. وعلي ظهرها كتب تاريخ ١٢٥٥هـ (خلافة ذلك السلطان) ثم الرقم (٢) الذي يشير إلى أن القطعة قد ضربت في السنة الثانية الخلافته. وأخيراً نقش على العملة كلمة (مصر) بمعني أنها ضربت في القاهرة.

من هنا فأننا لا نجد شيئاً ملفتاً حول تلك القطعة. وربما يمكن اعتبارها من عمل مزيف غير ماهر للنقود.

ويبدو أن تلك القطعة قد ألغيت ولم تضرب. وعندما تمت معايرتها بحجر النار سجلت ٢٣ قيراطاً بدلاً عن ٢١ قيراط مما يدل على جودة السبيكة وتفوقها على السبيكة المصرية*. وباختصار فليس في تلك القطعة ما يجعلها مميزة لادعاءات المهدي بأنه الزعيم العالمي والفريد للعالم الإسلامي وباقي العالم**.

القطع الفضية:

تشبه الأخريات من ناحية النقوش التي عليها. وقد قلدت بعناية فيما يختص بالطغرة وكذلك زخرفة القطعة ذات العشرين قرشاً المعروفة باسم (المجيدية) الإسطنبولية. ويبدو أن السبيكة هي نفس سبيكة المجيدية. وعلي وجهه نقش الطغراء تقليداً لطغرة السلاطين العثمانيين، ولكن بدلاً عن النقوش المعتادة لسلاطين العثمانيين فقد نقشوا علي (راحة اليد)*** التي تكون الشعار النقش التالي:

---

* لقد قام زملاؤنا العلماء فرانز باشا وجيجنود بك بفحص القطع الذهبية والفضية تلك وأعلنا بأنهما قد ضربا ولم يتم إلغاؤها. وقد قمت يوم ١١ ديسمبر ١٨٨٧ باخذ تلك القطع للفحص في (مصنع) سك النقود بالقلعة. وقام المختصون هنا، من ذوي الخبرة والمهارة في مثل تلك الأمور، بافادتى بأن القطع الذهبية والفضية قد ضربت ولم تلغي.

** تلك القطعة الذهبية والقطع الفضية كان قد حصل عليها الكولونيل تشير مسايد، والذي إشتراها خصيصاً لي بناء على رجاء من الجنرال السير فرانسس جرنفل، سردار الجيش المصري.....

تعليق من الكولونيل تشيرمسايد"

"لقد صك المهدي نوعين من العملة: الريال المجيدى باسمه الخاص، والجنيه المصري الذي يشبه الجنيه المصري الذي تصدره الحكومة. لكنه يختلف في النقش والسمك والمحيط. وذهبه من النوع السنارى، وهو أنقي أنواع الذهب ولا يصدر عنه رنين عندما يختلط مع قطع العملات الأخرى....... وفيما بعد ضرب الجنيه المصري باسمه، لكن هذا الجنيه نادر جداً رغم إمكانية الحصول عليه.

*** الطغراء هي في حقيقة الأمر تمثل سمة أو بصمة باطن اليد عند وضعها على ورقة. فالأصبع الصغير يوضع منفرداً على الناحية اليسرى باتجاه الجزء العلوي، وبعده الأصابع الثلاثة التالية والتي توجد مضمومة ومتجهة للأعلى أيضاً. أما الإبهام فيميل إلي اليمين باتجاه الأسفل. أما المكان الذي يمثل راحة اليد فهو في الجزء السفلي رابطاً بين الإصبع الصغير والإبهام، وفي ذلك المكان يكتب إسم السلاطين وإما أباءهم أو أجدادهم حسب مقتضي الحال. أما الأصابع فتلعب دور الحروف المتطاولة التي تكون النقش نفسه وبهذا تتكون مجموعة متشابكة من الحروف، منتظمة لدرجة مدهشة، وبخط جميل يشبه كتابة الخطاطين بالحروف اللاتينية أو القوطية الأوروبية.

"بأمر المهدي"

أما على الوجه الآخر (الظهر) فقد كتب النقش في أربعة أسطر:

٥

ضرب

في

الهجرة

١٣٠٢

والرقم"٥" فوق كلمة "ضرب" تشير إلى عدد السنوات التي إنقضت على بداية البعثة (الثورة) الدينية والملكية (السيادية) التي عزاها محمد أحمد لنفسه.

وكانت القطعة الأولى منهما تزن ٢٣ جرام و ٥٥ حبة ويبلغ قطرها ٣ سنتمترات و٠,٧٨.

القطعة الثانية تزن ٢٣ جرام و ٤٠ حبة ويبلغ قطرها ٣ سنتمترات و ٠,٦ وتلك القطع الثلاثة، الذهبية والفضية، هي الآن من ضمن مقتنياتي للعملات العربية وقد حصل لي عليها مشكوراً الجنرال السير جرنفل، كما سبق أن أوضحت.

وهناك قطعة ثالثة يمتلكها الدكتور أباظة باشا، وقد أذن لي مشكوراً بفحصها. وهي قطعة فضية تشبه تماماً القطعتين اللتين بحوزتي. وهى تزن ٢٣جرام و٥ حبة وقطرها ٣سنتمترات و٧٥. وكما أوضحنا مقبل، فان هذه هي المرة الأولى منذ الفتح العثماني التي تجرأ فيها أي أحد من وادى النيل، بالإشهار علنا" لادعاءاته بأن له مطلق السيادة والسلطة العالمية، وذلك بضرب عملة باسمه. وهي المرة الثانية منذ دخول الإسلام لمصر التي يقوم فيها فاتح محظوظ بالتحدي المباشر للخلافة السنية المعترف بها عالمياً في هذا الوادي. فالأول كان عبد الله المهدي ابن عبيد لله والذي رفع عام ٩٠٩ راية الثورة على الخليفة العباسي والذي قام خليفتة الرابع، المعز لدين الله (الفاطمي) بفتح مصر وبناء مدينة القاهرة في عام ٩٦٩ للميلاد.

أما الثاني فهو محمد أحمد المهدي، والذي رفع عام ١٨٨٠* راية الثورة في السودان وإنتزع من الخليفة العثماني كل تلك البلاد التي تمتد (شمالاً) إلي وادي حلفا.

وكما هو الحال مع مهدي القرن العاشر، فأن هذا الزعيم الديني، المهدي، وليؤكد ادعاءاته، قد قام بالمعارضة والتحدي العلني للسلطة المعترف بها عالمياً لرئيس الطائفة السنية الإسلامية وألزم (المساجد) بقراءة الخطبة باسمه. وقد أقنعتني كل تلك الأحداث بأن دراويش السودان وأتباع المهدي لا يفكرون مثلما نفكر نحن هنا. ولا أظن أن تلك الحركة موجهة أو مدفوعة فقط ضد الغرباء النصارى، ولكن ضد أي غريب أو مواطن، مهما كان، يرفض الاعتراف بسلطة المهدي أو لا يعترف بحقيقة رسالته التي بترهن علني قد سيته. فالمهدي الذي توفي منذ عهد قريب كان مصلحاً دينياً مثل مهدي الفاطميين في القرن العاشر. ولكن بينما كان الأخير يحظى

* الصحيح اغسطس ١٨٨١م (المعرب).

بأن جدوده هما على وفاطمة، إبن عم* وإبنة الرسول، فأن الأول، مهدي السودان، يقـدم نفسـه كسلف للمسيح، وآخر رسل الله** وبهذه الطريقة فهو يمثل السلطتين الروحيـة والدنيويـة علـى الأرض. وقد أصر على أنه يجسد في شخصه العقيدة الدينية، والقوة الكهنوتيـة ووحـدة العـالم الدنيوي. لقد كان، باختصار، أميراً للمؤمنين في عين أتباعه، والذي يمكنـه عـن طريـق قـواه الروحية أن يغزو كل العالم، وأن يدخل كل الجنس البشري في الإسلام. وهذا ما وضح لـي جليـاً وبما لا يقبل الشك، لأن خليفته عبد الله لم يتردد بعد وفاته في إتخاذ لقب الخليفة لنفسـه. ومـن الممكن، بسبب من الحرب أو غيرها، عودة السودان مرة أخرى إلـى حظيـرة الخلافـة السـنية للإمبراطورية العثمانية مثلما فعل ذلك (صلاح الدين الأيوبي) في القرن الثاني عشر عنـدما أعـاد مصر مرة أخرى لحظيرة الخلافة السنية في بغداد، وذلك عندما أستولي علي الحكـم مـن آخـر الخلفاء الفاطميين الذين كانوا، ولقرنين كاملين، المنافسين الروحيين في مصر للخلفاء (من بنـي العباس). فمن الممكن، وأكرر هذا، أن يعود السودان المصري ثانية لحكم المصريين، والذين عملوا علي مدي خمسين عاماً على نشر السلم والحكم المنظم في أنحاء مديرياته وذلك بكبحهم التدريجي للقبائل المتوحشة وتعويدهم على اختيار الاستقرار بدلاً عن حياة النزوح والتجوال. ولكم برغم ذلك فمن الحق أن نقول بأنه، وخلال فترة طويلة نسبياً استمرت منذ عام ١٨٨٠، فأن كيانـاً سـيادياً مستقلاً، مضاداً للسيادة العثمانية، قد حكم السودان ومكن سلطته ونفوذه عليه بدرجة مطلقة، ومنها ادعاؤهم الخلافة. وقد سكوا النقود وقرأوا خطبة الجمعة باسمهم عند إقامتهم للصلوات.

ملحوظة:

بغض النظر عن الملاحظة التي أبديتها أعلاه، والتي تتناول مسألة إن كان المهدي قد ضرب تلك العملة، أم قام بسكها، فأنني أعتقد بأن المذكرة التالية التي كتبها زميلنا العالم دكتور بونـولا، سكرتير الجمعية الجغرافية الخديوية، والخاصة بمعلومات تمكن من الحصول عليهـا، ذات أهميـة تبرر إيرادها في هذا المجال:

نبذه عن العملات النقدية لمهدي السودان

" بعد يومين من النقاش الذي دار بخصوص عملات المهدي، وصل للقاهرة، قادماً مـن سنار، أحد الجنود. أرسلت إليه وسألته إن كان بحوزته أي عملات للمهدي. فأجابني بقوله:" لا لأنه لم يعد في سنار أي قطع منها. وأن القطع القليلة التي كانت متداولة قد إنتهـت، لأنـه لـم يكـن بحوزتهم ماكينات لضرب النقود. بجانب ذلك، فقد رفضت تلك القطع في أي مكان لأنك يمكنـك أن تكسرها بيدك". ثم رجعت إلي المستر سانتوني، مدير البريد بأسيوط، والذي له علم واسع بشـئون السودان. فأجابني بقوله:

---

* إبن أخ الرسول كما جاء في الكتاب وصححناه (المعرب).

** لم يذكر الإمام المهدي قط بأنه سلف أو خليفة للمسيح أو أنه من رسل الله أو آخرهم (المعرب).

(فيما يختص بعملات المهدي فأنني على علم بأثنتين منهما هما ألمجيدي والجنيه، الذي يشبه الجنيه المصري لكنه يصنع من ذهب سوداني خالص. ولدي بعض قطع منه، لكني لا أشك في أنها قد إنتهت. وهذا هو أيضاً رأي المستر وايت، كبير مهندسي السادة كوك وأولادهم بأسيوط".

(وهذا المهندس قد أمضي فترة طويلة من عمره في الورش الهندسية، وله إدراك واسع بالمعادن وتركيبها. إضافة لهذا، فقد كان لي بالخرطوم تعامل واسع مع الصاغة السودانيين والذين يقومون بالعمل في إذابة المعادن وصكها ولهم مهارة عالية في ذلك. وإذا ما كان بالخرطوم آله لسك النقود فأن غردون باشا لم يكن ليلجأ للسباكين لسبك الميداليات الذهبية والفضية والبرونزية التي تحمل شعار (حصار الخرطوم) وغيرها من النقوش العربية، والتي كان قد صنعها ووزعها علي المدافعين عن المدينة)." وقد رجعت أيضاً إلى الأب بونومي والذي أشار إلى الاستعانة برأي الأب ليون هنريوت بأسوان والذي عاش طويلاً في أم درمان، وكان أيضاً مع المهدي. فاتصلت بهذا السيد بغرض الحصول على معلومات أكثر دقة. وفيما يلي أقدم نبذاً من خطابي الأب هنريوت والأب بونومي عن موضوع السؤال: "أراد المهدي بعد فتح الخرطوم أن يضرب النقود – جنيهات وريالات وقروش – لكن قروشاً قليلة هي التي ضربت. وقد ذكر بعض الناس بأنه تسلم آليات سك النقود الحكومية، وقال البعض الآخر بأنه تسلم في الأبيض، أو في ضواحيها، المعدات التي تعود إلى أحد مزيفي النقود. لكن موصلي وإسكندر شيا ما قالا بأنه قد جمع كل الصاعة بمدينة الخرطوم وحولهم إلى صناع النقود وسباكيها. وقد أنتهي كل ما وضع تحت تصرف الصياغ من ذهب وفضة. كان من بين أولئك الصناع من له مهارة كبيرة وقد تعود علي عمل السبائك المعدنية وخلطها من مختلف الأنواع. وكان الريال يزن أكثر من ريال الحكومة. ونفس الحال مع الجنيه (الذهب). وبجانب الصياغ الذين أستخدمهم الدراويش، فأن هناك بعض الذين يضربون نقوداً ألين وأخف وزناً من نقود الحكومة لتصرف كمرتبات شهرية للجنود والأنصار. ولما كان الأخيرون يغشون الأسواق، فقد كان التجار لا يقبلون إلا بدفع أربعة ونصف ريال (قديم) للجنيه بدلاً عن خمسة ريالات، وسبعة قروش (قديمة) للريال (الجديد) بدلاً عن عشرين قرشاً، مما دعي كل من الدراويش والأنصار للشكوى من هذا الأمر. وقد أصدر المهدي والخليفة – أمراً بضرورة قبول تلك النقود بقيمتها العادية وهددا بالعقاب الصارم كل من لا ينفذ هذا الأمر. ورغم تلك التهديدات فلم تسفر تلك الأوامر على أي نتائج وماتت في مهدها. وتشكك الكثيرون في تلك النقود، وكان التجار الذين يبيعون الماشية أو المؤن لبيت المال يعطون الريال مقابل عشرين قرشاً، والجنيه الذهب مقابل مائه قرش. وبهذا يحصلون علي سبعة أو تسعة قروش علي الريال ومن ٧٢ – ٧٦ قرشاً للجنيه. وكان تجار آخرون يصبون جنيهات الدراويش الذهبية ونقودهم الفضية في أشكال وقوالب ويرسلونها لسواكن أو أسوان، ودراو وكروسكو وحلفا وإلى أماكن أخري وبهذه الطريقة كانوا يربحون نصف ريال في كل جنيه ذهب، وبضع قروش لكل ريال ألماني.وأنتهي ذلك بتوقف الخليفة عن صنع النقود المهدية وعادت المعاملات التجارية تجري بمقادير ذات وزن معلوم من الذهب والفضة بدلاً عن النقود.

"وكانت تلك هي المعلومات التي تمكنت من جمعها حول هذا الموضوع". وأضاف الدكتور بونولا في ختام مذكرته: " وأعتقد بأن ما جاء في تلك المعلومات فيه الكفاية"."

ملحوظة من المؤلف:

الخطاب التالي (المأخوذ من "دفتر النجومي"، الذي غنم في توشكي يوم ٣ / ٨ / ١٨٨٩، له أهمية خاصة حيث أنه يتعلق بالموضوع الذي جاء في ورقة صاحب السعادة أرتين باشا.

والخطاب كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم...الخ.

من خليفة المهدي

إلى أحبابه في الله، وخاصة التجار والمتعاملين، وآخرين:

يا إخوتي:

لا يخفي على عقل الرجل الذكي بأن لهذا العالم رجاله، كما أن للعالم الآخر أيضاً رجاله. وقد قال الرسول إن رجال هذا العالم ليسوا كمثل رجال العالم الأخر.

فالمؤمنون حقاً هم الذين يختارون العالم الآخر ويفضلونه، ويستعدون له بفعل الخير والمشي على خطي صحابة الرسول ويتحملون الأدنى صابرين محتسبين. لكن رجال الدنيا يجمعون الثروات معاً ولا يصبرون عند الضيق والكرب. بل هم يلتفتون تماماً لملذات هذه الدنيا ومتعها. ومن المعروف لكم أن هؤلاء الذين يمتلكون الكثير من متاع الدنيا سيقطعون عن العالم القادم وسيضرب حجاب بينهم وبين ذلك العالم القادم.

لذا فأن هؤلاء الرجال يخادعون أنفسهم، إذ أن كل النعيم والسعادة إنما تأتيان من الله وحده. أما الذين يبحثون عنها في كل مكان فلن يشبعوا أبداً منها. ولقد وعظكم المهدي بهذا الصدد وأنذركم من الركون لهذه الدنيا ولنعيمها ومتاعها. فتمسكوا إذن يا إخوتي بحبل الله.

وإنكم على علم تام بأن الإمام المهدي كثيراً ما حرر لكم منشورات بضرورة قبولكم لأي نوع من النقود وألا ترفضوا أياً منها وضرب أمثلة كثيرة على ذلك، وكذلك فعلت أنا نفس الشيء.

ولا زلت أسمع منكم جدلاً حول هذا، ولاحظت بأن أوامرنا لا يعمل بها، وبأنكم لا زلتم تتشاجرون مع بعضكم البعض وتعترضون على قبول العملة.

هذه فضيحة عظيمة تمس كل المسلمين الصادقين. لذلك فأنني مرة أخري أصدر هذا المنشور وأحذركم لتتوقفوا مرة وللأبد عن ترددكم في قبول النقود من كافة أنواعها، والريالات بكافة أشكالها حتى لو لم تكن نقوشها واضحة أو ممسوحة.

وكذلك الجنيهات والقروش سواء أكانت كباشية أو سكجندية أو مصرية، سواء كانت ممسوحة أم لا. ويجب تداول تلك النقود في معاملاتكم مع عدم تغيير قيمتها الفعلية سواء كانت ممسوحة أم لا.

وإذا رفض أياً منكم قبول عملة ممسوحة، حتى لو كانت قرشاً واحداً، فسيعاقب بمصادرة كل ممتلكاته، لعدم طاعته للأوامر طبقاً لمنشوراتنا الصادرة بهذا الصدد.

والأمر التالي يجب أن يطبق فوراً: أن تباع كل أربعة ياردات من الدمور بربع ريال في كافة أنحاء السودان.

لذا أحذروا من عصيان الأوامر وما سيعقبها من عقاب شديد".

***

القسم العاشر
أحداث عام (١٨٨٧م)

الملخص:

الحدود علي النيل – تقدم النجومي شمالاً – وصول رسل الخليفة الأربعة لأسوان – خطابه لصاحبة الجلالة الملكة – ولصاحب الجلالة السلطان – ولصاحب السمو الخديوي – الطائفة والعائلة الميرغنية – خطابات غردون الخاصة بالسيدتين فاطمة ونفيسة الميرغني – خطاب الخليفة لكبير المراغنة – وصول قافلة من دارفور لأسيوط – وصول الأمير النور الكنزي لسرس مع قوة عسكرية – معركة سرس في ٢٨ أبريل – التحركات العسكرية من أبو حمد لمهاجمة الأجنحة والأطراف – الأمير بحر كرار – الغارة على العلاقي – الانقضاض علي إرمنة – شيوخ العبابدة وما قاموا به – العدو يعيد احتلال سرس – الاشتباك في عبكة – تحويل سرس لمحطة أمامية دائمة للقوات العربية – وباء الجدري – دارفور – السلطان يوسف والموقف من غارات كرم الله – المقدوم جاروت يستأصل واحداً من فصائل كرم الله التي تقوم بالغارات – المقدوم لمبو يفاجئ الطويشة بالهجوم ويطرد كرم الله من دارا – السلطان زايد يلحق هزيمة قاسية بالأمير كتنبور – الخليفة يرسل عثمان آدم (جانو) لإستعادة النظام في دارفور – ينضم لكرم الله ويهزم الدار فوريين – الاستوائية – الكتيبة الأولي تتخلي عن ولائها – الثورة في الرجاف – أمين ينسحب إلى مهاقي – التمرد – دكتور يونكر يصل لأوروبا وتعاطف الجمهور مع أمين – حملة إنقاذ أمين باشا – المستر ستانلي يتطوع لقيادة الحملة – الأمر السامي لصاحب السمو الخديوي – حملة الإنقاذ تتوجه عن طريق الكنغو وأرو ويمي – أمين يسمع بقدوم ستانلي – شرق السودان – ارتداد القبائل عن المهدية – عثمان دقنة في كسلا – قبيلة الحمران – شيخ عجول – صالح بك شنقة – العرب والحبش – موقعة مدانا – هزيمة العرب ومقتل ود أرباب – خطاب الخليفة للملك يوحنا – إرسال يونس الدكيم للقلابات –تولي حمدان أبو عنجة قيادة الجيش العربي على الحدود الحبشية – معركة دبراسن وانتصار أبو عنجة – وصوله لقندار ونهبها – عودته للقلابات – النبي (عيسي) في القلابات يستقطب عدة أمراء للمهدية – إعتقاله وقطع رأسه –رؤيا الخليفة حول تعذيب النبي عيسي بنيران جهنم – عودة أبو عنجة لأم درمان – الانقسامات في شرق السودان – ود عجول يكتب لصاحب السمو الخديوي – ثورة عرب الرفاعة بالنيل الأزرق – ثورة أبو كلام – إنتقام الخليفة – حركة صالح بك الكباشي – صاحب السمو الخديوي يكتب رسالة له – الجنرال قرنفل يرسل بنادقاً له – القبض علي تشارلس نويفلد – صالح يقاتل الأمير جريجير في أم بادر والمحبس – هزيمته ومصرعه – والدة صالح تصف المعركة – الانشقاق بين الهدندوة والأمرار – موت الملازم ستيوارت (من البحرية الملكية) –تحطيم مستعمرة حتيمة – وصول عثمان دقنة إلي هندوب – الحلف القبلي المعادي للمهدية – معركة دارا والغارة على طرة.

***

الحدود عام ١٨٨٧:

ظلت الحدود هادئة طوال الشهور الأولى من عام ١٨٨٧. وكان النجومي مشغولاً في دنقلا في جمع التعزيزات وإثارة الأهالي للانضمام للعملية التي طال الحديث عنها للتوجه للشمال. لكن عمليات صالح الكباشي جعلت من المستحيل عليه أن يتقدم كما كان يأمل. فقد كان في خوف دائم من هجوم على مؤخرته وكان كل ما أمكنه القيام به هو إستمراره في إرسال أقسام صغيرة من قواته شيئاً فشيئاً للشمال. وبنهاية مارس كانت فركة قد أعيد احتلالها من قبل العرب بقوات كبيرة بقيادة الشيخ الطاهر والنور الكنزي. وفي الخامس عشر من أبريل غادراها صوب الشمال.

وفي حوالي هذا الوقت حدث شيء مثير للإهتمام. ففي الثاني عشر من أبريل وصل حلفا أربعة رسل من العرب، أرسلهم الخليفة عبد الله من أم درمان. وسمح لهم بالتوجه نحو القاهرة لأنهم كانوا يحملون رسائل لجلالة الملكة ولجلالة سلطان تركيا ولصاحب السمو الخديوي. وفي القاهرة سلموا الرسائل للأخير. كان خطاب صاحب السمو خطاباً طويلاً حوى تفصيلاً للنجاحات التي أحرزتها قوات المهدية على قوات الحكومة، وتحضه على اعتناق المهدية، وتنصحه بألا يضيع الوقت بل يتحرك فوراً لأم درمان لإعلان خضوعه بنفسه. وأنتهى الخطاب بالتهديدات المعتادة بغزو بلاده إذا لم يستجب لتلك الأوامر! أما خطاب السلطان فكتب بنفس العبارات، كما أرفق مع الخطابين عدداً من كتب الصلوات المهدية والتي استمتع السلطانان بدراستها بعناية. أما الخطاب الموجه للملكة فسنورد ترجمته الكاملة هنا، وقد صحبه أيضاً نسخاً من خطابات المهدي لغردون، مؤرخة في التاسع من مارس ١٨٨٤* وإنذاراته لهكس باشا**، والتي نصح الخليفة صاحبة الجلالة "بقراءتها وأخذها في الاعتبار".

من الخليفة عبد الله إلي جلالة الملكة

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الوالي الكريم والصلاة علي سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم!

"من العبد المعتصم بمولاه القاهر خليفة المهدي عليه السلام عبد الله بن محمد خليفة الصديق إلي عزيزة قومها فكتوريا ملكة إنجلترا***. السلام على من اتبع (المهدي)**** أما بعد فاعلمي أن الله عز وجل هو ملك الملوك القادر المقتدر الذي ليس كمثله شئ وجميع ما في الكون فهو في حيز قبضته لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. ولو أراد أن يهلك أعداءه في أقل من خطرة بال لكن جديراً بحصول مراده ولكنه لكرمه يمهل ولا يهمل ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين. وقد أرسل الرسل الكرام لإيضاح السبل للأنام وجعل نبينا محمداً خاتمهم رسولاً عاماً إلى كافة الخلق بشيراً ونذيراً وداعياً إلي الله بإذنه وسراجاً منيراً فكان ناسخ الملل وفاسخ

---

* أدرجناه في القسم الخامس من الكتاب.

** أوردناها في القسم الرابع من الكتاب.

*** ملكة بريطانيا كما جاء في تاريخ نعوم شقير، طبعة ١٩٦٧، صفحة ١٠١٥ (المعرب).

**** السلام على من اتبع الهدي (المعرب).

الدول***** وكل من آمن به وصدق ببعثته فاز برضاء الله وأدرك من الحظ الأوفر ما تمناه. ومن كفر به وأنكر بعثته باء بخزي من الله وصار إلى النار وبئس القرار.

ولما كان المهدي المنتظر هو خليفة نبينا محمد الذي أظهره الله لدعوة الناس كافة إلى إحياء دين الإسلام وجهاد أعدائه الكفرة اللئام، وأنا خليفته القافي أثره في ذلك فأنني أدعوك إلى الإسلام. فأن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإتبعت المهدي عليه السلام وأذعنت لحكمي فأني سأقبلك وابشرك بالخير والنجاة من عذاب السعير وتكونين آمنة مطمئنة لك مالنا وعليك ما علينا وتتصل بيننا المحبة في الله ويغفر الله لك جميع ما فرط منك في زمن الكفر كما وعد بذلك في قوله تعالي قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف. وإن أبيت إلا الجحود إعتماداً على ما عندك من الإستعدادات والجنود فاعلمي أنك في غرور كبير وبعد عن السداد والتدبير إذ أن ما نحن بصدده فهو الدين الحق الذي تكفل الله الملك القادر بنصرته وتأييده ورفع منارته وتشييده، فلا طاقة لأحد بمقاومته ولا سبيل إلى مغالبته، ضرورة أن قدرة الله غالبة فلا تقاوم، وبطشه شديد فلا يصادم. وإن كنت تظنين توهماً أن جيوش المهدية القائمة بتأييد السنة المحمدية مثل عساكر أحمد باشا عرابي الذين أدخلت الغش عليهم بالدنيا حتى افتتنوا بها عن دينهم وتخذلوا عن نصرته ومكنوك من الإستحصال علي البر المصري وصاروا أذلة أسرى لا يستطيعون المدافعة عن أنفسهم فهذا توهم فاسد وغرور كاسد. فأن رجال المهدية رجال الهيون* طبعهم الله على حب الموت وجعله أشهي لهم من الماء البارد للظمآن فلذا صاروا أشداء على الكفار كأصحاب رسول الله الأبرار لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يثنيهم عما هم بصدده صدمة صادم بل لا يرون لجميع ما سوي الله التأثير، ليقينهم بربهم القدير. ولا يريدون حياة الدنيا الذاهبة الساحرة وإنما يرون أن نعيمهم الدائم وعيشهم الناعم معد لهم في الدار الآخرة. بخلاف أولئك** فأنهم لو صدقوا مع ربهم وكانوا علي حسن إسلامهم وطرحوا حب الدنيا وراء ظهورهم وحفظوا الله فيما أمرهم به لأمدهم الله بنصره ولما توصلت عساكرك غلي هزمهم والإستيلاء على بلدهم ولو نظرت بعين الإنصاف والبصيرة لعلمت الفرق. ثم مما يقضي عليك بتمني الغرور الفاسد منك*** أنك بعد أن بلغك ظهور المهدي المنتظر عليه السلام ومحاربة دول الأتراك له وظفره بهم في عدة وقائع سولت لك نفسك أن منك الكفاية لحربه والإستيلاء عليه فبادرت إلى إرسال أحد رجالك المشاهير المدعو هكس باشا ومعه جيش عرمرم مكون من أجناس شتي وعدد متنوعة وذلك من بادي أمرك بدون إمعان نظر في العواقب بلا مشورة باقي الدول في ذلك توهماً منك أنك ستظفرين بالنصر علي جند الله الغالب. فعندما حضر ذلك الجيش في ألوف مؤلفة وعدد معددة ما ثبت أمام حزب الله إلا نصف ساعة بل قضي الله عليه بالدمار والبوار عن آخره. وكان هلاك ذلك الرجل المدبر الشجاع بجيشه بأسباب سوء تدبيرك وكثرة غرورك ولم تغن عنه كثرة العدد ولا قوة العدد بل صار إلى النار

***** (ناسخ الناس) في ونجت، والصحيح ما أورده نعيم شقير (المعرب).

* في ونجت (رجال من حديد)، واعتمدنا علي نعوم شقير في التصحيح (المعرب).

** يقصد المصريين (المعرب).

*** حذف ونجت هذه العبارة التقريعية، وأوردها نعوم شقير (المعرب)

وغضب الجبار. ثم ما اعتبرت بذلك ولا دبرت حالك بل صرت تجهزين عساكرك من بـادي رأيـك جردة بعد جردة بكل فج لمحاربة الله ورسوله ومهديه تارة بسواكن وتارة بدنقلا وتارة بوادي قمر حتى أهلكت بسوء صنيعك من رجالك ما ينوف علي عدة ألوف. ومن ذلك هلك كثير من رؤسـاء رجالك المعروفين لديك بالشجاعة وحسن التدبير والثبات وقوة العزم كالجنرال غردون باشا هلـك بالخرطوم والجنرال ستيوارت هلك بأبي طليح وإستيورت الثاني ومن معه القناصل بـوادي قمـر وفلان وفلان وما يكثر عددهم من مشاهير رجالك كما هو بعلمك. ومع كثرة دعواك التقـدم فـي مجال الحروب وتفوهك بقوة الباس والشهامة، فما بال عساكرك رجعت مـن السـودان القهقـرى بالخيبة والهزيمة قانعة منها بالكلية ولاشك أن موجب ذلك الهرب محض الخوف من سطوة حزب الله الغالب كما هو بديهي. وأنهم صاروا الآن إلى أسوأ حال وأضيق مجال تائهين في أودية الحيرة لا يهتدون إلى المخلص سبيلاً. وكل هذا من سوء تدبيرك وإستبدادك برأيك عن باقي الدول. ولـو رفعت الشورة إليهم كما هو الواجب عليك لأرشدوك إلى ما يسكن روعك في الجملة وكانوا إما أن يشيروا عليك بالكف عن مصادمة حزب الله الذي لا طاقة لك بمقاومته وتكـوني مقتصـرة علـى محافظة بلدك لاغير وإما أن يمدوك بالرجال والأسلحة ويحزبوك على حرب حزب المهدية، وحينئذ لا يتوجه العار إليك وحدك عند حصول الهزيمة بل يكون ذلك بالإشتراك.

والحاصل إنك قد أخطأت الرأي وصرت إلى نقص كبير ولا مخلص لك من ذلك إلا بالإنابة إلى الله المالك والدخول في ملة الإسلام وإتباع المهدي عليه السلام. فأنك إن فعلت ذلك وسـلمت الأمر لنا تظفرين بمقصودك من السعادة التامة والراحة الحقيقية التي هي الفوز عند الله بدار النعيم المقيم الذي فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علي قلب بشر. وإن كنت لا تزالين علـى غرورك واستبدادك برأيك فأقدمي على حرب حزب الله بنفسك بجميع جيوشك واستعداداتك الحربية لترى كيف عاقبة أمرك فتهلكي بحول الله وقوته أو تعذري من مات أو فر من رجالك الذين تطفلوا علي محاربة حزب الله بمقتضي غرورك... وأعلمي يقيناً أني مؤيد من عند الله وبه قوتي ونصري لا بنفسي فأني عبد ضعيف لا قوة لي من نفسي وإنما عصمتي بالله واعتمادي علي الله وهو كفيل بنصرة من أعتمد عليه واعتصم به ومن ثم فكل من بادرنا بعداوة يقتل علي يدنا بحول الله وقوته ولو كان الثقلين.

فأعي ذلك جيداً ولا تغتري بما يلوح على نظرك من العدد والجنود فأن ناصية كل شيء بيد الله ولن يغلب الله أحد بل هو القاهر فوق عباده. وإنك إن لم تسلمي لأمر الله وتدخلي في ملـة الإسلام وإتباع المهدي عليه السلام فأحضري بنفسك وجنودك لحرب حزب الله. وإن لم تحضـري فاستعدى في محلك، فإن حزب الله سيطأ دارك بأذن الله في الوقت الذي يريده الله ويذيقك السوء بما صددت عن سبيل الله. وفي هذا كفاية لك والسلام.

الختم

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

محمد المهدي بن عبد الله

وعندما اتضحت مهمة الوفد، أعيدت الرسائل إلى من جاءوا بها* وأعيدوا لأم درمـان، بدون الترحيب الذي قوبلوا به عندما جاءوا لمصر، مع رسالة شفوية لسيدهم بأن أصحاب الجلالة أرفع مقاماً من أن يتنازلوا بالرد عليها.

وبعد ذلك بقليل تلقي الميرغني، وهو زعيم (لطائفة) للإخاء الديني، رسالة تطلـب منـه الانضمام للمهدية. وربما كان مناسباً في هذا المجال توضيح أسباب رغبة الخليفة في تعاون هـذا القائد الديني الهام:

فقبل سبعة وثمانين عاماً تقريباً (١٨٠٣) قام كبير المراغنة، وهو من أصل أفغاني وقـد أقام طويلاً بمكة باتخاذ قرار بتحويل السودان للإسلام.

عبر البحر من جدة، مع عدد كبير من أتباعه، وأسس طريقته، وأقام عدة مراكز لها في مناطق مختلفة من السودان. ومنذ ذلك الوقت ظلت الطريقة في نمو متصل. ومثلهـا مثـل بقيـة الطرق الدينية الإسلامية تشاربكت تأثيراتها الدينية والدنيوية حتى أصبح لها نفوذاً كبيراً معترفاً به. فإذا ما اعتنق زعيم هذه الطريقة المهدية فأن هذا يعني ضمناً إتباع كل من معه للمهدية وبالتـالي تزداد قوة ونفوذاً. ويمكن أن تقارن هذه الطائفة، في بعض النواحي، بالطريقة السنوسية. أما من ناحية عدد أتباعها فقد يكونون مثلهم عدداً لكن أغلبيتهم هم في السودان، وقد أجبر عـدد منـهم للقبول بالمهدية، أما السنوسية، والتي تبعد كثيراً عن مناطق الحروب والنزاعات، فقد تمكنت مـن المحافظة علي وحدتها تماماً. ولا توصف أياً من الطريقتين بالهرطقة من قبل المسلمين المتشددين. فمثل المسيحية التي نجد بها الكنائس الرومانية واليونانية والإنجليزية، فكذلك نجـد فـي الديانـة الإسلامية فرقاً ومذاهب عدة مثل المرغنية والسنوسية والشاذلية والبدوية والأحمدية وغيرها كثير. من هنا فيمكن أن نفهم مدي استعداد المهدي وجاهزيته للترحيب في صفوفه بانضمام مثـل هـذه الطائفة الميرغنية الهامة.

ويقال أن المهدي، قبل أن يعرض منصب خليفة عثمان للسنوسي، كان قد عرضه علـى الشيخ عثمان المرغني في التاكا. لكن الأخير رفض العرض بغضب، وكان سلوكه خلال الحصـار الطويل على كسلا يفوق كل ثناء.

وكان تقدير غردون للخدمات التي قدمها سيدي محمد عثمان الميرغني (عالياً) تعبر عنه الخطابات التالية التي أرسلها له من الخرطوم:

"إلى ملجـأي وملاذي المشير اللامع والأستاذ الموقر سيدي محمد عثمـان. نفعنـا الله وإياه. آمين.

بعد السلام والتحية. تسلمت خطابكم المؤرخ ٧ شوال ١٣٠١ (٣٠ يوليه ١٨٨٤) الذي أوصله لي الحاج النضيف. وأنني أحمد الله علي سلامتكم وعلي أحوال كسلا الطيبة وذلك يعود لكم لوجودكم بها. نسأل الله ألا يحرمنا منكم ولا من بركاتكم في الدنيا والآخرة.

الخرطوم بحمد الله في حالة طيبة ولا تشغلوا أنفسكم بالتفكير فينا، فأنا أبذل كل جهـدي للعناية بالموظفين والأهالي ورجال الحامية.

---

* يقول نعوم شقير في تاريخه (ص ١٠١١) بأن الكتب قرئت وأرسل كتاب جلالة الملكة إليها (المعرب).

وأرجو منكم دائماً المحافظة علي صلة الصداقة مع البني عـامر وأن تحـافظوا علـي مواصلاتكم مع مصوع حتى تتحصلوا علي الأخبار الخاصة بتقدم قوات الـدعم والتعزيـز لكسـلا وبدون إبطاء وأرجو منكم تبليغي بكل الأخبار التي تتلقونها حول هـذا الموضـوع. وبخصـوص أحوالنا بالتفصيل فسيخبركم بها الحاج النضيف شفوياً.

وقد بلغـني أن القوات القادمة لنجدة الخرطوم قد وصلت إلى دنقلا وبإذن الله سيصلونا هنا قريباً.

ولقد سمعت أيضاً بأن (السيدات الموقرات) قد غادرن شندي إلى كسلا تنفيذاً لأوامـركم، لكنني أري من الأفضل بقاءهن بشندي لأنني أعتقد بأن لبقائهن هناك دور كبير في نشـر الأمـن والسلام في المناطق المجاورة.

أرجو إبلاغ تحياتي واحترامي لكل القبائل الصديقة ولرجالك"

(إمضاء) غردون

حاكم عام السودان

إلى الشريف المبجل سيدي عثمان الميرغني حفظه الله.

بعد السلام والتحية. أرجو أن أفيدكم بأنني تلقيت خطاباً من مدير التاكا يفيد بـأن قبيلتـي الهدندوة والحلنقة يقومون بالاستعداد للهجوم علي كسلا، وأنه يحتاج لدعم عاجل.

وفي إجابتي علي خطابه، أخبرته بأن جنوداً إنجليز سيتم إرسالهم مـن سـواكن لكسـلا. وأخبرته أيضاً بأنه، إذا ما رأى ذلك ضرورياً، فيمكنه أمر حامية أماديب لتعزيز كسلا.

وأخبرني حامل (الخطاب) بأنكم قد جمعتم رجال الشكرية والبني عامر لمواجهـة الهجـوم المرتقب فلكم الشكر علي ذلك، إذ ليست هذه بالمرة الأولى التي تقدمون فيها مثل هـذه الخدمـة الغالية. وإذا ما رأيتم من الضروري أن يتم إستدعاء حامية أماديب، فأرجو مـنكم إعـلام المـدير بذلك. أما إذا كان العكس فأرجو العمل علي بقاء الحامية حيث هي".

(إمضاء) غردون

حاكم عام السودان

أول مارس ١٨٨٤

وكانت يوميات الجنرال غردون ويوميات باور، التي نشرت فـي نـوفمبر ١٨٨٤، قـد وصلت علي يد عثمان المرغني. وقد كان، بناء علي رجاء غردون، الذي جاء في الخطـاب الأول أعلاه، قد ترك زوجته وأبنته في شندي لتأثير نفوذهن علي الأهالي (وتوقيرهم لهن). وحتى اليوم فأن القادمين من السودان يشهدون على مدى احترام الأهالي للسيدتين نفيسة وفاطمة وذلك رغـم المعاملة القاسية التي تلقيتاها علي يد الخليفة. ولازلن حتى اليوم سجينتين بأم درمان وقد عانين الأمرين من سوء معاملة سجانيهن. أما سيدي محمد عثمـان الميرغنـي، وبعـد أن لاقـي أشـد الصعوبات، فقد تمكن أخيراً من الفرار من كسلا ووصل إلي سواكن ليموت فيها من جراء المعاناة الرهيبة والمشاق التي مرت به*.

---

* تعليق من المعرب: توفي السيد محمد عثمان بمصر، بعد خروجه من سواكن، بعد عامين من وصوله لها، ودفن فـي باب الوزير بالقاهرة، انظر نعوم شقير، ص ٩٠٩.

ومما جاء أعلاه يمكن إدراك مدي تلهف الخليفة ليستقطب لجانب المهدية زعيمهم الحالي سيدي محمد سر الختم الميرغني* ومن ثم أرسل إليها المناشدة التالية، والتي لا داعي للقول بأن الميرغني لم يعرها بالاً. فقد كان الميرغني دائماً يقدم أجل الخدمات للحكومة المصرية، ويرسل الرسائل لأتباعه في السودان حاثاً لهم للتمسك بعقيدتهم والابتعاد عن المهدية. ولهذا الغرض تم إرساله في مهمات إلى سواكن ووادي حلفا كانت نتيجتها طيبة دائماً:

"بسم الله الرحمن الرحيم.......الخ.

من عبد الله المؤمن بالله، خليفة المهدي عليه السلام، الخليفة عبد الله بن محمد إلى سليل النبي المختار صديقنا الموقر السيد محمد سر الختم هداه الله إلي طريق الصواب ووقاه من الشرور.

السلام عليك يا حبيبي. فلتعلم بأنك معروف لدينا كرجل يتميز بصفاء القلب والفكر. فأولئك الذين هداهم الله يتبعون تعاليمه وتعاليم الرسول محمد وكل ما سوى ذلك من تعاليم هو باطل والويل لمن ينقاد لها. وإنك يا حبيبي لعلي علم تام بما جري من أحداث مؤخراً والأذى الذي لحق بديننا الحنيف وبالتدهور الذي أصاب المسلمين وهذا مالا يرضي المؤمنين الصادقين ذوي العقول السليمة. وبالنسبة لرجل مثلك فربما يسمح بتأخير الاستماع لنداءات المهدي، الذي ما جاء إلا لأحياء تعاليم رسولنا وتدمير الذين يسعون لنشر الفساد في الأرض، أو التردد في ذلك. فأنت واحد من أكبر الأسر المتدينة وسليل رجال مقدسين ولذلك فلا يصح لك التفكير في نعيم هذه الدنيا. وأنت واحد من أوائل الذين يرغبون في إحياء دين محمد وشريعته والتي هي أصل كل حقيقة. فهل ترضي بمساعدة الذين يتبعون طريق الظلام؟ وقد أمرنا الله بعدم إتباع سبيل الظالمين حتى لا يلقي بنا في نار جهنم.

فالترك، الذين أنت معهم الآن، قد غيروا وبدلوا في دين الله الحق، وألغوا شرائعه. فلا تسلك طريق أسلافك الذين تابعوا الكفرة أعداء الله ولا تقبل بهم كحكام عليك ولا تطعهم بل عليك تركهم، وخاصة بعد ظهور المهدي الآن، فأنقذ نفسك وتب إلى الله.

ولتعلم بأنني ما أدعوك الآن إلا لرجوع إلى الله وللعمل بكتابه وبهدي المهدي وخليفته. وإذا ما أردت أن تنقذ نفسك وتنال الاحترام فلتستجب لندائي وتنضم إلى في الحال. فإما أن تأتي إلى مباشرة أو تنضم لصديقنا وأخينا عبد الرحمن ود النجومي، والذي بالقرب منك الآن. فإذا ما قمت بذلك فستكون آمناً تماماً وكذلك أملاكك وكل من يأتي معك وسيتم حينها استقبالك بكامل التشريف. فلتتحرك الآن يا حبيب في طريقك للفوز والنجاح والسعادة. ولتعلم بأننا لا ننوي إلا إحياء تعاليم جدك المختار ولنرشد الناس لإتباعها. والحمد لله الذي جاء بكل الناس في هذا الجزء من السودان إلى أنوار الدين الحقيقي وهم الذين بذلوا أرواحهم بمحض إرادتهم عالمين بما سينالونه من حسن الجزاء.

---

* يعني اللقب (سر الختم) أن الطريقة الميرغنية هي خاتمة كل الطرق وإن أي إضافة للطرق الإسلامية ما هي إلا مبالغة وتطويل لا لزوم له. وفي الحقيقة فأن الطريقة الميرغنية تشمل كل شيء يتعلق باسمي ما يمكن أن تتطور إليه ديانة المسلمين.

وكما هو مقرر باحتلال البلاد الشمالية بواسطة قوات المهدية فقد كتبت لك هذا الخطاب شفقة عليك يا صديقي ورغبه في الخير لك. فإذا استقبلته بسرور وأسرعت بالاستجابة لما جاء به فستكون عزيزاً لدينا وستنال جزاءك. إما إذا رفضت ما جاء به فلا تلومن إلا نفسك. فمن واجبنا تحذيرك وإلا فلتعلم بأنك بإذن الله ستقع في قبضتنا يوماً ما، لأن الله وعدنا بتحقيق النصر لنا. ففكر في نفسك بالتالي، يا صديقي، وأطع مشيئة الله. وإننا لا نشك في قبولك للحق فارجع لله وأطع خليفته المختار. أرسل لي ردك، هداك الله إلي صراطه المستقيم والسلام عليكم.

الختم (المعتاد)

مؤرخ ١٦ شعبان ١٣٠٤ (١ مايو ١٨٨٧).

***

ووسط هذه التحركات الواسعة في الصحراء وفي النهر حدث مشهد غير معتاد بوصول قافلة ضخمة من ١٤٠٠ جمل إلى أسيوط قادمة من دارفور، مما ملأ الجميع بالدهشة. فالقافلة التي تحركت في الرابع والعشرين من يناير، من مكان يبعد بعشرين يوماً إلى الغرب من الفاشر، والتي بدأت بألف وخمسمائة وعشرين جملاً، وصلت لأسيوط في الأول من أبريل بعد أن فقدت في الطريق ١٢٠ جملاً. جاءت القافلة عن طريق النقرة فالعقبة فسليمة وبريس والخارجة. وكان هذا الطريق للقوافل قد أنقطع منذ ١٨٨٣. وفي عام ١٨٨٤، تم مسحه جزئياً بواسطة الكولونيل كولفيل والملازم ستيوارت ورتلي مع حرس من بدو الجوازي. والآن، وربما بسبب نجاح صالح الكباشي، فقد أكملت القافلة رحلتها بسلام تام.

***

والآن وبينما كان النور الكنزي زاحفاً ببطء صوب الشمال مع فصيل الحرس الأمامي لقوات النجومي، كان الأمير عز الدين قد قام بالاستطلاع لمنطقة آبار المرات في الصحراء الشرقية. وبدا تجميع القوات في أبو حمد، والتي يبدو أنها للتمويه ولإظهار أن الهجوم سيكون على جناح كروسكو، بينما سيكون الهجوم الحقيقي موجهاً إلى وادي حلفا. كانت قوات أبو حمد تحت إمرة الأمراء علي ود سعد وود الفيل وود مصطفي وود حمزة وحسن محمد خليفة*. وبينما كانوا في انتظار الأوامر للتحرك تلقت عملياتهم على النيل نكسة مفاجئة عطلت هجمتهم على الجناح لبعض الوقت.

فقد علم الكولونيل تشير مسايد، قائد حلفا، في ظهر يوم ٢٧ أبريل، بأن النور الكنزى قد احتل بقواته سرس وأنشأ محطة متقدمة في جماي. ولما كانت ذكريات التقدم الأخير لقوات العرب لا زالت ساخنة في ذهنه، فقد قرر الكولونيل القيام فوراً بازاحة المعتدين من موقعهم. كان مدركاً بأن أي تحرك من جانبه سيبلغ للعدو ويعلم بأن عليه أن يبدأ ضربته في الحال قبل أن يتم تدعيم موقف الثوار. لذلك اتخذ قراره سراً بالقيام بهجوم جري ومفاجئ عليهم.

---

* ابن حسين باشا خليفة، المدير السابق لبربر.

كان قد قام، بعد أربعة ساعات من تلقيه أنباء وصول العدو، بإرسال حرس أمامي يسبقه، بقيادة الميجر رندل (من المهندسين الملكيين) ومعه سرية الخيالة الثانية وعدد رجالها ١٠٠ رجل يقودهم الصاغ حلمي أفندي، وفصيلة الهجانة الثانية وعدد رجالها ٤٠ رجلاً يقودهم الملازم دننج، وقوة عددها ٦٠ رجلاً من غير النظاميين بقيادة الملازم رايكروفت إضافة لمدفعين من بطاريات الجمال الثانية بقيادة الصاغ بكير أفندي.

أمرت هذه القوات بالقيام ليلاً بأسرع وسيلة ممكنة، وبسرية تامة إلى سرس مع تحوطهم إثناء الطريق من قيام أي مواطن بتحذير العدو من اقتراب الجيش نحوهم. كما قام طوف صغير بالتحرك بموازاتهم على الضفة الغربية وبتعليمات مماثلة. تجمعت أهم كتائب الحرس الأمامية، وهي الكتيبة السودانية التاسعة، بقيادة الكابتن بورو، والتي تكون الجسم الرئيسي للحرس المتقدم، وعسكرت في عبكة – ١٢ ميل من سرس – في حوالي السابعة مساء ومن هناك واصلت طريقها نحو سرس – على بعد عشرين ميلاً بالطريق الالتفافي. كما قام طابور آخر بقيادة الميجر لويد ويتشكل من الكتيبة المصرية الأولى وفصائل للإمداد وللنقل بالتحرك بالقطار، وبالسير على الأقدام براً، وتجمعوا جميعهم في عبكة في الصباح الباكر انتظارا للتعليمات الخاصة بمواصلتهم للتقدم.

تلقي الميجر رندل تعليمات بالتوقف علي بعد ثلاثة أميال من سرس وإنتظار حلول الفجر. وكان عليه عندها أن يمضي قدماً والتماس مع العدو ثم الاشتباك معه وشغله إلى أن تصل المدافع وقوات المشاة. طبقاً لذلك، وفي الفجر، قامت مفرزة راجلة باحتلال حصن صغير على التلال المطلة علي سرس بينما اندفع جنود الملازم رايكروفت غير النظاميين، المدعومين بالهجانة، مسرعين نحو سرس واستولوا على محطة السكة الحديد القديمة ومجموعة المنازل المجاورة لها.

نفذت هذه العملية وسط نيران معادية أطلقت من حصن صغير* بالتلال الشرقية، يبعد عنهم بحوالي يارده، ويحتله حملة البنادق من العدو. ثم قام الجنود غير النظاميين** باحتلال تلة تبعد بثمانين ياردة من الحصن وتمسكوا بهذا الموقع الذي كان بمأمن من نيران العدو نسبياً بينما فتحت فصائل الهجانة نيرانها على حصن العدو الصغير من أرض جبلية تواجه المحطة.

وفي الخامسة والربع صباحاً اندفع طوف من الخيالة عبر الخط الحديدي المدمر. وقبل أن يقطعوا مسافة ٤٠٠ ياردة ظهرت أمامهم قوات العدو الرئيسية، وعددها حوالي ٣٠٠ رجل، خلف أرض مرتفعة تبعد أمامهم بستمائة ياردة، بينما شوهد علي التلال الخلفية جماعات من حملة الرماح.

قام طوف الخيالة، بعد إنجاز مهمته، بالتراجع خلف المحطة ومنها أطلقت نيران كثيفة على موقع العدو. تم أخطار الكولونيل تشير مسايد (بالموقف) وقد كان في ذلك الوقت متقدما نحوهم بسرعة مع بقية الطابور ومعه الكابتن كمبستر، كبير ضباط الأركان للقوة، والملازم بالمر، من صغار ضباط الأركان.

---

* كانت هذه الحصون الصغيرة قد تركت قائمة عندما أخلت القوات المصرية والبريطانية سرس في العام الماضي..

** تم تكوين هذه القوات غير النظامية عام ١٨٨٥ ، وكانوا في معظمهم من قدامي جنود غردون – من الشايقية الذين كانوا علي ظهر بولخر نصحي باشا. وصل عددهم لأكثر من سبعين رجلاً بمتطون الإبل وقد شكلوا قوة عظيمة الفائدة.

وفي السادسة والنصف (صباحاً) وصل مدفعـان من بطاريات الجمال، بعـد أن زحفـت بطول المسافة من حلفا، التي تبعد بأربعة وثلاثين ميلاً ونصف، في أكثر قليلاً من اثنتـي عشـرة ساعة. اتخذت المدفعية موقعاً لها بالقرب من المحطة وفتحت نيرانها بالقذائف العادية على الحصن والذي، لو لم يتم إسكات نيرانه، لألحق خسائر جسيمة بالمشاة الذين كـانوا يهـاجمون الموقـع الرئيسي للعدو.

ولحسن الحظ، وبعد إطلاق واحد وعشرين قذيفة، نجحت المدافع في تحطيم الحصن ثـم تلي ذلك اقتحامه والإستيلاء عليه بواسطة الجنود غير النظاميين (الشايقية). ثم حولـت المدفعيـة صوب موقع العدو الرئيسي وتم ضربه ببعض النجاح. أثناء ذلك وصلت المشاة، وفـي السـابعة صباحاً وبعد سقوط الحصن، إندفعوا بالهجوم.

حالة الأرض التي عبرها المشاة تحتاج لبعض الإيضاح. ففي هذا الوقـت مـن السـنة يتراجع منسوب النهر كثيراً تاركاً ضفافاً مرتفعة ومنحدرة على غير العادة، وتتناثر على الشـاطئ الرملي الأمامي الحجارة التي تملأ المنطقة بين الضفة ومياه النهر. يقع الجانب الأيسر لموقع العدو على الجانب الداخلي للمنحدر، لكنه عندما تعرض لنيران المدفعية قام بإخلاء الأرض المكشوفة التي كان معسكرهم بها وإنسحب إلى واد ضيق أو خور يبعد بملتى ياردة عن النهر. تم إرسال فصيلين من الكتائب، تحت غطاء من الضفة المنحدرة بطول الشاطئ، للعمل على الإلتفاف حول موقع العدو الأيسر. أما بقية الكتيبة فتركت لدعم القسم الجنوبي من المحطة من موقعهم على الأرض المرتفعة لينما وافقت تحركات الجنود غير النظاميين والهجانة تقدم زملائهم على أقصي الجانب الأيسر.

وقبل ذلك كان الخيالة قد أرسلوا للالتفاف حول موقع العدو. وقد نجحوا في ذلـك فـي الوقت الذي بدأ فيه الهجوم من الأمام وطردوا عن الموقع جماعة من خمسين رجلاً مـن العـرب وكبدوهم خسائر كبيرة. ولما شاهد الخط الثاني من رجال العدو، والمكون أساساً من جماعة مـن الدناقلة ضعيفي التسليح، فصائل الخيالة في مؤخرتهم لم يقوموا بأي محاولة للإنضمام للخط الأول لكنهم إندفعوا مباشرة نحو النهر ونجحوا في الفرار عبره سباحة.

أثناء ذلك وعندما اقترب فصيل الجناح الأيمن من فصيل الجناح الأيسر بالموقع، نهـض حملة الحراب العرب من الخور، وهم يصرخون بتوحش، وإندفعوا تحت إمرة القادة الثلاثة الراكبين خيولهم، نحو ضفة النهر. وقعت صدمة هجومهم بكامل قوتها على الخط المصري الهـش والـذي تراجع ببطء، وهو يقاتل مهاجميه يداً بيد. ولما شاهد الكابتن بورو ذلك، قام علـى الفـور بـدعم الفصيلين. ولما أحس الفصيل الخلفي المنهك بالدعم الذي وصله شرع تدريجياً في التقدم ببطء. أما العدو، والذي تمسك بأي قدم من الأرض، فقد قاتل بشجاعة يائسة وسقط حتى آخر رجـل. قتـل الكثيرون وسط المياه. أما الآخرون الذين حاولوا الالتفاف حول الجناح الأيسر للمشـاة، بعـد أن تسلقوا الضفة المرتفعة، فقد سقطوا بنيران القوة غير النظامية، ونيران الهجانة، واحتياطي الخـط المقاتل. وفي هذا المكان قتل النور الكنزي.

وفي السابعة وخمسة وأربعين دقيقة صباحاً تم الإستيلاء على الموقع وعلـى عشـرة رايات وبوارق وكمية من الأسلحة والذخائر.

وقد قتل كل المحاربين العرب تقريباً، وعددهم ٢٠٠ رجل، بينما بلغت أعداد القتلى بين المصريين ٢١ جندياً وجرح ٣٠ بمن فيهم ضابطين جرحا جراحاً بليغة أثناء الاشتباك يداً بيد.

وتمكن الطوف على الضفة اليسرى من استعادة مركب كبيرة تعود لبعض تجار الإغريق، والتي كان العدو قد أستولى عليها من قبل. وقد قام واحد منهم بوصف ما جرى في معسكر العرب كما يلي:

"في حوالي منتصف ليلة السابع والعشرين من أبريل أيقظنا النور الكنزي من النوم قائلاً: إن الكفرة قادمون إلينا في الصبح وسيكون هناك قتال بيننا. إنني لا أريد أن يلحق بكم أي أذى، ويمكنكم الذهاب للمؤخرة، وبعد إنتهاء القتال عودوا ثانية". إنني لا أدري من أبلغهم بهذا النبأ. إستدعى النور الكنزي رجاله وأحضر أيضاً الشيخ طه (من سرس) وأمره بالذهاب إلى الجبال الخلفية على أن يعود بعد أن يهزم الترك. كما أرسل جماعة من رجاله للخلف لمنع أي أحد من الفرار. ثم شرع في صلاة طويلة وحمد الله الذي ألقي بالكفرة بين يديه. ثم أرسل أمواله بعيداً من إبن عمه على جواد. وقبل إنبلاج الصبح جمع رجاله للصلاة. وأثناء الصلاة سمعت أصوات طلقات نارية صادرة من الخفراء الذين وضعهم في الحصن الصغير فقاموا على الفور بإعادة التشكيل للقوات ووضعها خلف أحد التلال".

وبعد هذه المعركة القصيرة، و ولكن الحاسمة، عادت القوات إلى حلفا وبدأت فترة قصيرة من الهدوء بعد ذلك.*

أما الذين فروا من سرس فقد عادوا إلى فركة حاملين أنباء الهزيمة مما أثار غضب القادة العرب وحنقهم، لدرجة لا توصف، لسلوك حلفائهم الدناقلة وأيقنوا بأنهم لن يعتمدوا عليهم فيما بعد للحصول علي أي دعم مادي منهم.

لكن إبادة قوات حرسهم الأمامية لم يؤثر على تدفق التيار المستمر من التعزيزات القادمة من أم درمان وبربر ودنقلا. وبنهاية مايو كان الأمراء مرغني (سوار) الذهب وود جبارة وعبد الحليم قد وصلوا إلى فركة ومعهم المزيد من القوات.

أثناء ذلك كانت الحركة الإلتفافية من أبي حمد قد بدأت. وغادر الأمراء حسن خليفة وعلى بشير وخوجلي أبو حمد في الثاني عشر من مايو وأحتلوا آبار المرات بمائة وخمسين رجلاً كما أرسلوا جماعة صغيرة بقيادة بحر كرار باتجاه النهر. وفي ليلة السابع عشر من الشهر داهم بعضهم قرية العلاقي، وهي قرية صغيرة تبعد بحوالي خمسين ميلاً إلى الشمال من كروسكو. ورغم إطلاق بعض الرصاصات، وقطع سلك التلغراف، لم يحدث أي ضرر آخر. وفي العاشر من يونيه داهموا قرية إرمنا، التي تقع جنوب كروسكو بخمسة وأربعين ميلاً حيث قتل أحد القرويين وجرح اثنان وقطع السلك مرة أخرى.

---

* ربما كان من غير الضروري أن يتم تناول هذه المعركة الصغيرة بتلك التفاصيل التي أوردناها. ولكن يجب أن تعرف أنها كانت المعركة الأولي التي يخوضها الجيش المصري لوحده وبدون إعتماده على الدعم البريطاني أو غيره. وإذا علمنا أن قوات الهجانة والمدفعية المحمولة سارت ٣٥ ميلاً، يحمل كل رجل منهم ١٠٠ طلقة ذخيرة وعلفاً ومؤونة يومين، وأن المشاة ساروا ٢٢ ميلاً، وأنهم جميعاً وصلوا لموقع العدو في ١٤ ساعة، وهاجموه علي الفور وهزموه، فأنه لا يمكن المبالغة في أهمية هذا الحدث. ولقد رفع ذلك النصر معنويات الضباط والجنود للدرجة التي انعكست أثارها علي ما تلى ذلك من أحداث.

أثارت هذه الغارات أنزعاجا بالغاً وسط أهالي النيل هناك. وكانت باخرة مسلحة قد شرعت في الطواف من قبل في دوريات متصلة (على تلك الجهة من النيل) بينما كانت فصائل الهجانة تنتقل من محطة إلى محطة هناك. كما أثرت هذه الأحداث على مدى ثقة الحكومة من ولاء شيوخ العبابدة لها وأصابتها بالصدمة، فقد كان أولئك الشيوخ هم الذين افترضت قيامهم بمسئولية حماية هذا الجناح الشرقي الطويل والذي قامت، في مقابل ذلك، بتسليمهم كميات كبيرة من الدعم. كانت المناطق التي أوكل لهم حمايتها قد قسمت ما بين بشير بك جبران، زعيم شيوخ عرب العشيباب، وصالح بك، شيخ عرب العبابدة، ومنشنا بك، شيخ عرب أبو جن. تمتد مسئولية بشير بك إلى بعض مناطق علي الشمال والجنوب من أسوان والصحراء الشرقية التي بينها، والتي تمتد إسمياً حتى البحر الأحمر. ولكن في الواقع لم تكن سلطته تمتد إلي ما وراء آبار حيمور، والتي تبعد ١٢٥ ميلاً من نيل أسوان. أما المناطق التي تقع شرق تلك الآبار، والتي تقطنها أقسام متعددة من قبيلة البشاريين والذين، رغم أنهم موالون إسمياً للحكومة المصرية، إلا أنهم توقفوا منذ فترة طويلة من دفع الضرائب لها. وكانت تصرفات هذه القبيلة الأخيرة، ومنذ إنفجار الثورة في السودان لأول مرة، مصدراً لقلق الحكومة المصرية رغم أنهم، حتى الآن، محايدون كما يبدو. وقد أثبتت الأحداث التي تلت أنهم موالون لها ومخلصون، وأنهم قاموا بدور (العازل) ضد تسلل المهدية ووصولها لمصر.

أما صالح بك فتمتد سلته من كروسكو وإلى الصحراء الشرقية بما في ذلك آبار المرات. بينما كان منشناً بك مسئولاً عن مناطق العلاقي والسيالة وغيرها بالإضافة إلى الصحاري المجاورة.

ظلت تلك القبائل تسيطر لقرون طويلة على كافة الطرق المؤدية من السودان لمصر عن طريق الصحراء الشرقية وتكثر أعدادهم في النواحي المجاورة لأبي حمد وبربر، ونفس الحال في مناطق الحدود المصرية. وكان أولئك الذين بالجانب الآخر للصحراء باتجاه أبي حمد قد انضموا منذ وقت طويل، بإرادتهم أم بدونها، إلى رايات المهدية وكان لكثير من أولئك الرجال، الذين يقومون الآن بشن الغارات على المناطق النهرية، من آبار المرات، أقارب وأصدقاء في نفس المناطق التي يقومون بنهبها.

فبشير كان إبن العم المباشر لبحر كرار، بينما صالح بك هو إبن عم حسين باشا خليفة. وكان من الطبيعي في مثل تلك الظروف أن تشكك الحكومة في مدى ولاء هؤلاء الشيوخ، والذين تدفع لهم مبالغ طائلة، والذين لاشك في أنهم يلعبون دوراً مزدوجاً. أما إذا وضعنا في الميزان فائدتهم للحكومة أولاً في كفة ثم الضرر الذي يمكنهم الحاقة بها ثانياً في كفة أخرى فلاشك في أن الكفة الأولي سترجح. لذلك كان من الضروري القيام ببعض الإجراءات القاسية حتى يتبينوا كم هو في غير طائل محاولاتهم العبث بالحكومة أو خداعها. وهذا ما أثبت جدواه. فقد أوضحت الأحداث التي جرت بعد ذلك بأن السياسات التي أتبعتها الحكومة بخصوص علاقاتها مع أولئك البدو أصبحت طيبة عموماً، بعد أن أتضح لهم أن ولاءهم لها لم يعد مصدر شك. وبالاضافة لكونهم يشكلون حاجزاً رائعاً، كانوا في نفس الوقت قناة إتصال فيما يختص بأحداث السودان وكانت إخبارياتهم دائماً محل ثقة بعد ذلك.

ومن الواضح أن الحالة الراهنة الآن بالصحراء الشرقية قد تسببت في إيقاف كل أنـــواع التجارة مع السودان بهذا الطريق. وقد أقيمت عدة محطات عسكرية في كثير من النقاط المهـــددة بين حلفا وأسوان. وقد قامت قوات الثوار بالمرات بتهديدها لبعض الوقت لكنها عادت فيما بعد لأبي حمد حيث اعتادت دورياتهم من وقت لآخر بالمرور على الآبار بها.

لكن إيقاف العرب الذين حاولوا التقدم على النيل لم يستمر طويلاً. ففي الثامن عشر من يونيه قامة جماعة مكونة من ١٠٠ رجل منهم بالإغارة على سرس مرة أخري. وكانت سرس، منذ معركة ٢٨ أبريل، قد عاد إليها القرويون. تم نهب البيوت وحملوا معهم النساء وكل ما إستطاعت أيديهم الوصول إليه ثم إنسحبوا جنوباً مرة أخرى. أما الأهالي المذعورون فقد هربوا في طريقهم إلى حلفا.

وأصبح إعادة احتلال سرس من قبل العدو أمراً حتمياً الآن. لكن خططهم لذلك تعرضـت مرة أخرى للإحباط. إذ أصبح صالح الكباشي، على غير العادة، نشطاً متحمساً. وكانت القبائل فـي دارفور في ثورة ضد العرب. أما الأحداث على الحدود مع الحبشة فبدأت تتخذ منحي خطيراً، بينما ضج مختلف الأمراء في بربر وفي الشمال مطالبين بإبعاد محمد الخير عن (الأمارة). وكـم كـان الخليفة منزعجاً من تلك الأمور لدرجة أنه طلب من كبار أمرائه للحضور لأم درمان لإجتماع عام. وفي نفس الوقت تم تقليص الحاميات الشمالية كثيراً وذلك كي يتمكن من تعزيز قواته في دارفـور وعلي الحدود الحبشية.

وفي الثاني عشر من أغسطس حدث اشتباك بين محطة للعرب في واحة سليمة وبعـض التجار المغاربة الذين جاءوا من كردفان لشراء العطرون. وانتهي الاشتباك بهزيمة العرب.

انتهى اجتماع الأمراء بأم درمان في أوائل أغسطس. وأوضحت الأوامر التي تلت ذلـك بأنه تقرر مواصلة التقدم نحو مصر وسط حماس متجدد.

وبنهاية أغسطس وصلت إلى فركه قوة كبيرة من الجعليين والبقارة وبعدها بقليل غادرت قوة مشتركة من ٢٠٠٠ مقاتل، بقيادة الأمير محمد أحمد هاشم*، فركه إلى سمنة ووصلوها فـي الخامس عشر من سبتمبر ثم واصلوا تقدمهم بعدها وأعادوا إحتلال سرس في السابع والعشـرين من سبتمبر، بينما قام عثمان أزرق ومكين النور، في نفس اليوم، بالتوجه من دنقلا صوب الشمال ومعهما قوة كبيرة. وتوجه بحر كرار مرة أخرى من أبي حمد نحو الشمال الشرقي بعد أن أعلـن نيته في استنفار العرب الذين بتلك الجهات.

وصلت الإمـدادات من دنقلا إلى سرس في ١٩ أكتوبر وإزدادت قوتهم بالتـالي لتصـل غلي ٢٥٠٠ رجل و ٢٠٠ جواد و ١٠٠ جمل ويقودهم ثلاثة عشر أميراً. وفي الثاني والعشـرين من أكتوبر وجدت دورية مصرية راكبة أن ٢٠٠ ياردة من خط السكك الحديدية قد خرب شـمالي عبكة بثلاثة أميال. تم هذا الاكتشاف في العاشرة والنصف مساء وعلي الفـور أقامـت الدوريـة معسكراً لها بقيت فيه حتى الصبح حيث إكتشفت عند تقدمها أن عدداً من رجال العدو، يبلـغ ١٥٠ رجلاً، قد عسكروا في سهل عبكة. فتح العرب النار عليهم وتم الرد عليها بزخات متصـلة وهـم

---

* مدير الشرطة بالأبيض سابقاً.

يتراجعــون ببطء حتى وصلوا إلى جماي حيث اتخذوا موقعاً لهم في حصن صــغير. ومــا لبثــت الدورية أن عادت إلى حلفا.

وفي السادس من صباح يوم ٢٥ أكتوبر استلمت رسالة تلفونية من الحصــن الأمــامي بخور موسي – على بعد ٤,٥ ميل من حلفا – مفادها أن قوة من ١٠٠٠ من العرب قد شــوهدت ويبدو أنها في طريقها لحلفا. وقام الكولونيل وودهاوس، الذي كان قائداً لقوات حلفــا، مصــحوباً بالملازم تيرنان بالتوجه نحوهم مع القوات الراكبة ورأي العدو وهو يستقي بالقرب مــن شــعاب عبكة. وفي هذه الأثناء وصلت الكتيبة السودانية التاسعة بقطار مدرع واتخذت موقعاً لها بــالتلال على بعد ثلاثة أميال جنوبي خور موسي. كان الملازم دننج قد أرسل قبل ذلك أمامهم ليكتشف مكان العدوز فوجدهم في أعداد كبيرة بسهل عبكة. وعندما شاهدوه قام بعض رجــال العــدو الــراكبين بمتابعته. وبعد أن أكملت الدورية مهمتها أخذت في الانسحاب، مدعومة من المشاة. لكن الجمال لم تتمكن من سرعة الحركة على الأرض المغطاة بالحجارة المتناثرة مما أخــر عمليــة الإنســحاب. وسرعان ما اقتربت منهم خيالة العدو المصحوبة بالمشاة وفتحوا علــيهم نيرانــاً غيــر مصــوبة تصويباً دقيقاً. وفي الوقت الذي صدر فيه الأمر بالتخلي عن الجمال المتعثرة اندفع رجــال العــرب الراكبين وسط الدورية وسرعان ما اشتبكوا معهم بالأيدي حتى تمكنوا من الانسحاب بــبطء فــي الوقت الذي غطت الكتيبة السودانية التاسعة إنسحابهم وتمكنت من إيقاف العدو وطــرده بــبعض الخسائر. قتل من المصريين رجل واحد وجرح اثنان كما قتل أربعة من الجمال. ثم عادت القــوات جميعها إلى حلفا.

وقد أثنى الكولونيل وودهاوس، في تقريره عن هذا الإشتباك، على ما قــام بــه رجــال الهجانة المصريون والذين، رغم شدة الضغط عليهم، كرهوا التخلي عن جمالهم. كما لاحــظ هــو شخصياً عدة مظاهر للشجاعة الفردية من جانب الضباط والجنود أثناء الاشتباك الذي داريدٍاً بيد.

وبعد هذا الحدث تراجع العرب إلى جماي والتي أصبحت محطة أمامية دائمة لهم وتدعم من الضفة الغربية المقابلة لها. أما القوة الرئيسية فظلت في سرس. وبدا أن فكرة هجوم مباشــر على حلفا قد تم التخلي عنها في الوقت الراهن. وبقي عبد الحليم في فركه مع قــوة كبيــرة. ودل الاحتفاظ ببيت للمال في ذلك المكان على أن تعزيزات إضافية متوقع وصولها لهم قبل القيام بــأي تحرك، علي نطاق وأسع، ضد الحدود المصرية.

وأصبح سرس الآن في درجة من القوة لن تمكن الكولونيل تشير مســايد مــن تكــرار تكتيكاته السابقة مرة أخرى. وقد تأكد بقاء العرب الدائم في هذا المكان عندما وصل إليها بنهايــة نوفمبر عدد ضخم من النساء والأطفال جاءوا مع الأمير ود البصير. وأصبحت دوريات العدو تجوب المنطقة يومياً حتى عبكة، وأحياناً تصل لمشارف خور موسي. وعلى كلا الجانبين كان هناك قلقــاً لما يتوقع حدوثه فيما بعد. ولكن قبل مرور وقت طويل ظهرت صعوبة أمداد مثــل تلــك القــوات الضخمة في سرس بالطعام أمام قادة العرب. وكان الأهالي من السكوت والمحس قد ذاقوا الأمرين من نقص الطعام ووصلوا لمشارف المجاعة. فقد أخذت منهم محاصيلهم الهزيلة وقام البقارة الذين لا يرحمون بنهب كل ما يملكون. كما ظهر الجدري في المعسكر المزدحم بسرس وبدأ عــدد مــن الناس يموتون يومياً.

كانت تلك صورة للأحداث حتى نهاية ١٨٨٧. وقد تململ الأمراء وأظهروا ضيقهم من بقائهم على هذا الحال دون التحرك نحو هدفهم. لكن ذهن الخليفة كان مشغولاً بما يجري في مناطق أخرى من السودان. ورغم أنه تمكن من حشد قوات هائلة، بعد صعوبات بالغة، علي بعد ٣٥ ميلاً من الحدود المصرية، إلا أنه أضطر مرة أخرى لتأجيل تنفيذ مخططاته بشأنها.

***

دارفور في ١٨٨٧:

الأحداث الخطيرة التي أشرنا إليها في باب سابق، على أساس أنها على وشك الحدوث في دارفور، جاءت كما يلي:

لما علم السلطان يوسف، وهو كما تذكرون قد خلفه زقل أميراً علي الفاشر، بما يقوم به كرم الله من غارات من دارا، وفرضه الضرائب على القبائل التي يعتبرها السلطان من رعاياه، كتب (إليه) شاكياً من تعدي رجال كرم الله على الأهالي ونهب أموالهم، لكن كرم رد عليه بأن أرفق له صورة من تعليمات الخليفة له، رغم أنها تركت مسألة الحدود بينهما بدون تحديد واضح. من ثم أرسل يوسف وفداً لترسيم الحدود بين المناطق المتنازع عليها. وعند وصولهم قام كرم الله بإعتقالهم وسجنهم واستمر في غاراته بأكثر مما كانت عليه من قبل. انفعل السلطان يوسف وقرر القيام بخطوات إيجابية، فأمر المقدوم* إمام جاروت، من قبيلة البرقد، بأنه إذا وضع أي من رجال كرم الله قدمه في أي من مناطق نفوذه فعليه ذبحهم لآخر رجل.

وبعد ذلك بقليل، في مايو ١٨٨٧، قامت مجموعة من ٥٠٠ رجل من المغيرين، بقيادة الأمير ود عالم، بعبور الحدود. فقام جاروت بتنفيذ ما أمر به وأنقض عليهم وأبادهم ولم ينج منهم سوي قلة هربت ولتروي ما حدث.

وشرع كرم الله الآن بحشد كل الرجال الذين تمكن منهم في دارا، لكن يوسف، منتشياً بانتصاره الأخير، قام بإرسال قوة من ٤٠٠٠ رجل بقيادة المقدوم أبو دمبو إلى الطويشة، والتي كان يعسكر بها الأمير حسن أغا، والذي كان الحاكم السابق لإقليم ليفي، ومعه قوة من ٥٠٠ رجل. فاجأ أبو دمبو الطويشة بالهجوم في الثاني من يونيه وذبح الحامية بأكملها ثم توجه بعد ذلك إلى دارا. وكان كرم الله قد تمكن حتى ذلك الوقت من حشد قوة من ألفي رجل وقام بإرسالها من دارا تحت قيادة الأمير كتنبور.

التقت القوتان المتصارعتان بعد بضعة أيام في وادي المسرية وألحقت بنادق كتنبور الخراب وسط صفوف حملة السيوف والرماح وأجبر أبو دمبو على الانسحاب إلى جور توباك، على بعد عشرين ميلاً إلى الشرق من دارا، حيث تحصن بها وأرسل منها مبعوثاً برسالة عاجلة إلى السلطان يوسف لإرسال تعزيزات له. وقام الأخير عند تلقيه هذا الطلب برجاء للسلطان زايد* في جبل مرة للإسراع لنجدته.

---

* (المقدوم) هو لقب في دارفور يعادل الأمير أو الزعيم وهو مشتق من كلمة (مقدم).
* يقال أن زايد كان زنجياً بالغ الشجاعة. وقد ظهرت قدراته في حروب السلطان دود بنجا المبكرة وقاد، في مرحلة ما، كل قواته.

وافق زايد على ذلك الحلف المقترح ومن ثم توجه بنفسه مع قوة ضخمة إلى جور توباك، ولما سمع كتنبور في هذه الأثناء بوصول زايد، توجه إلى الطويشة وإحتلها ومكث بها ثلاثة أيام وبعدها توجه لاعتراض التعزيزات الإضافية التي علم بأنها في طريقها لدعم زايد. لكن الأخير نجح في توحيد قواته قبل وصول كتنبور. وفي التاسع والعشرين من يونيه نشبت معركة بين القوتين المتصارعتين انتهت بتدمير كل قوات كتنبور تقريباً. فر كتنبور إلى دارا حيث ألتقي بكرم الله وقاما سوياً بإخلاء دارا وتوجها نحو الإنجليلة وتحصنوا بها وكتبوا للخليفة راجين منه الدعم العاجل لهم. قام زايد بمتابعة كرم الله، بعد ذلك النصر، لكنه وجد أن دارا قد أخليت فقام بإنشاء معسكر حصين بالقرب من المدينة وترك فيه ٥٠٠ من رجاله ثم توجه إلى الفاشر بمن تبقي من جنوده.

وعندما بلغت أبناء هزيمة كتنبور أم درمان، قام الخليفة على الفور باستدعاء أمير كردفان، عثمان ود أدم (جانو)، وأرسله إلى شكا بقوة كبيرة ومعه أوامر بالانضمام لكرم الله، وتولى قيادة كل القوات وإعادة السلطة إلى دارفور.

وتحرك عثمان آدم على الفور. وعندما وصل للأبيض سمي علي ود الهاشمي أميراً على كردفان، وترك معه قوة صغيرة، ثم غادرها متوجهاً إلى شكا. وعند وصوله إليها كتب للسلطان يوسف طالباً منه القدوم إليه في شكا لوضع حل لمسألة الحدود، وهي التي كانت السبب الرئيسي للثورة. لكن السلطان يوسف، متخوفاً من الغدر، لم يأبه بالخطاب، بل قام بإرسال قوة من ١٠٠٠٠ رجل إلى دارا، بقيادة المقدوم آدم بوش والمقدوم رحمة قومو.

وفي تلك الأثناء كان عثمان آدم قد لحق بكرم الله في إنجليلا وقامت جيوشهما معاً بالزحف نحو دارا. وعند اقترابهم من خمة، القريبة من دارا، قام جيش دارفور بالهجوم عليهم. نشبت معركة ضارية بين الطرفين في السادس والعشرين من ديسمبر أجبر فيها الدارفوريين على التراجع وما لبثت جيوشهم أن تفرقت.

وانتهي عام ١٨٨٧، بالنسبة لهذه المديرية والسلطان يوسف يقوم باستعدادات كبيرة للانتقام من الهزيمة التي لحقت به. أما الخليفة عبد الله، فقد سببت له تلك الأحوال المضطربة في دارفور حالة من القلق والبلبلة مما أدى، مرة أخرى، لتأجيل مشاريعه لغزو مصر أو تجهيزه لما يتطلبه ذلك الغزو من استعدادات كبيرة وعلى نطاق واسع.

***

الاستوائية في ١٨٨٧م:

لم يطرأ تغيير يذكر على مسار الأحداث بهذه المديرية. وقد تخلت الكتيبة الأولى، عملياً، عن ولائها وذلك على الرغم من إطاعة أمر أمين بشأن الانسحاب من اللادو إلى الرجاف وإعادة احتلال مكراكا، وذلك لصعوبة إمداد تلك الحاميات الشمالية بالذرة. وقد تم الآن، إضافة لمكراكا، التمسك بالمحطات التالية وهي الرجاف وبدين وكيري وموجي ولا بوري وخور آيو ودوفيللي وفاتيكو ووادلاي وإمقا ومهاجي.

أما السلطان دود بنجة، كما نذكر، فقد استدعي لأم درمان حيث عفي عنه الخليفة لكنه ما لبث أن اشترك في معركة القلابات وقتل فيها.

وفي أبريل إشتعلت النيران صدفة في وادلاى وفقدت كميات كبيرة من المخزونات بهـا، ولكن تم إعادة بنائها ثانية وبسرعة. وفي نفس الشهر اختمرت مؤامرة أخرى بين أوساط الكتيبة الأولى وقرروا في هذه المرة إعتقال أمين نفسه، والذي كان وقتها في كيري، وذلك حتى يتمكنـوا من إيقاف أي احتمالات لانسحابهم جنوباً بأكثر مما انسحبوا. وقد أحتج المتآمرون بأن سـلامتهم رهن بوجود مديرهم المدني بينهم، فقد قالوا بأنهم لا يعرفون سوى طريق واحد، وهو الطريق الذي ينحدر مع النيل إلى الخرطوم.

لم ينزعج أمين عندما علم بأن جماعة من ١٩٠ رجلاً من الكتيبـة الأولـى، مصـحوبة بتسعمائة من الزنوج المسلحين، كانت في طريقها إلى كيري قادمة من الرجاف. ويقال بأنـه قـد صرح قائلاً:"لا بأس إن قتلوني، لأنني لا أخشي الموت. فليتقدموا نحوي وسأكون بإنتظارهم". لكنه رضخ لضغوط ضباط الكتيبة الثانية كي يغادر المحطة، وقد قام بذلك وتوجه إلى مهاجي. ثم ظهـر المتمردون بعد ذلك بالقرب من المحطة، وعندما علموا بفرار أمين منها قاموا بدخولها وضـربوا القمندان ضرباً مبرحاً بالسياط، ثم أخذوا معهم عدداً من الأسري وعادوا للرجاف. وقد علم فيما بعد أن المتمردين كانوا ينتوون أخذ أمين معهم إلي غندوكرو، ثم تركيـز القـوات التـي فـي وادلاي وتنجورو ومهاجي فيها ومن ثم يتوجهون بطول إنحدار النهر نحو الخرطوم. فإذا مـا وجـدوا أن المدينة قد سقطت بالفعل فسيتغرقون بعدها. هكذا كانت خطتهم. ولا يبدو أن قادة المتمردين كـانوا مدفوعين بأي رغبة للانضمام للمهدية ولقواتها وإنما كان الأمر هو أن رغبـة مسـيطرة علـيهم تتلخص في أن الطريق الوحيد الذي يعيدهم لمصر هو نفس الطريق الذي جاءوا عبره. في نفـس الوقت لا يبدو أن قرارهم للرحيل كان سيتم تحت أي ظرف من الظروف، فقد كانت لهم عوائل كبيرة إضافة لطول أقامتهم بالمنطقة. لذا فيبدو أن غرضهم كان في تولي زمـام الأمـور بأنفسـهم وأن يكونوا سادة أنفسهم. وكما سيظهر بعد ذلك، فقد كان ضمن أسباب هذا التمرد كثير من العناصـر التي أدت لثورة عرابي في مصر. وحقيقة فأن بعد هذه الأحداث، وما سيليها، أتضح أن كثيراً مـن قادتها كانوا من العرابيين الذين عوقبوا بالنفي للسودان لدورهم في ثورة عام ١٨٨٢.

أثناء ذلك وصل الدكتور يونكر سالماً إلى مصر، وذلك في يناير١٨٨٧. وكانت رسـائل أمين، التي بعث بها عن طريق يوغندا، قد وصلت قبل وقت من الـزمن إلـى العـالم المتمـدن. وسرعان ما انتشر التعاطف معه وتمخض عن ضرورة بذل الجهود لإنقاذ أمين وحامياته المحاصرة من هذا المأزق. وليس من الضروري أن نسرد في هذا المجال كل التفاصيل المتعلقة بتنظيم عملية الإنقاذ تلك، والتي صارت الآن شيئاً معروفاً في السير والتاريخ. ولكن يكفي القول بأن حملة تعرف بأسم "حملة إنقاذ أمين باشا" قد تم تنظيمها ووجد قائد لها في شخص المسـتر هـــم. سـتانلي، والذي تطوع بتقديم خدماته لإنجاز هذه المهمة المحفوفة بأبلغ الخطر وأعظمه. وقد وجد منظمـوا الحملة في شخص ستانلي قائداً أهلته إنجازاته الماضية لأن يشعروا بالإطمئنـان بـأنهم إن أرادوا إرسال نجدة لأمين فأنه، من دون الآخرين، الوحيد المؤهل للوصول إلي نهاية ناجحة لمسعاهم ذاك.

تقرر أن تقوم الحملة باختراق إفريقيا عن طريق الكنغو. ومن هناك يتـابعون الطريـق المائي حتى يامبيو، التي تبعد بحوالي ١٣٠٠ ميل من المحيط الأطلسي. ومن هناك يـتم التوغـل بداخل المناطق غير المستكشفة، والتي تقع بين نهر أرو ويمي وبحيرة ألبرت.

إنتهت الترتيبات الأولية للحملة وغادر المستر ستانلي لندن يوم ٢١ / ١ / ١٨٨٧، متوجهاً إلى مصر، حيث تلقي منها التعليمات الرسمية ودعمته الحكومة المصرية بالأمر التالي الذي وقّع عليه صاحب السمو الخديوي ومعه الأمر السامي (بترقية) أمين باشا المؤرخ ٨ جمادى الأول ١٣٠٤ (١ / ٢ / ١٨٨٧) نمرة ٣:

"لقد أثنينا من قبل عليكم وعلى ضباطكم لشجاعتكم وحمايتكم الناجحة للمديريات الإستوائية المصرية ودفاعكم عنها، وهي المديريات التي أوكلت (إدارتها) لكم، وكذلك للحزم الذي أظهر تموه وضباطكم الذين يعملون تحت إمرتكم.

بالتالي فقد قررنا مكافأتك بترفيع رتبتك إلى لواء باشا (بريجادير جنرال). كما صدقنا على الترقيات التي رأيتم ضرورة منحها للضباط تحت قيادتك والتي جاءت في مكاتباتي لكم بتاريخ ٢٩ / ١١ / ١٨٨٦، بالنمرة ٣١، والتي أعتقد بأنها وصلت إليكم، مع وثائق أخرى كان قد أرسلها لكم نوبار باشا، رئيس مجلس الوزراء.

ولما كانت لنا الرغبة الصادقة في إنقاذكم وضباطكم وجنودكم من الحالة الصعبة التي أنتم فيها، فقد اتخذت حكومتنا الوسائل اللازمة التي يمكن بها إنقاذكم وضباطكم وجنودكم من المصاعب التي تعانون منها.

ولأنه قد تكونت بعثة (حملة) للإنقاذ بقيادة المستر ستانلي، وهو رجل مشهور بخبراته واكتشافاته الإفريقية، والذي عمت شهرته أنحاء العالم، والذي ينوي الشروع في مهمته ومعه كل الضروريات التي تحتاجون إليها، وحتى يتمكن من العودة بكم وبضباطكم وجنودكم إلى القاهرة، عبر الطريق الذي يراه المستر ستانلي مناسباً، فإننا بالتالي قد أصدرنا هذا الأمر السامي بشأنكم وسيرسل لكم على يد المستر ستانلي حتى تعرفوا ما تم القيام بعمله بشأنكم. وفور وصوله إليكم فأنني أكلفكم بنقل خالص تمنياتي للضباط والجنود. كما أن لكم مطلق الحرية في التوجه للقاهرة أو في البقاء حيث انتم مع الضباط والجنود.

وقد قررت حكومتنا صرف مرتباتكم ومرتبات الضباط والجنود.

أما الذين يودون البقاء هناك، من الضباط والجنود، فعليهم القيام بذلك علي مسئوليتهم وبالتالي عليهم ألا يتوقعوا أي مساعدة من قبل الحكومة.

أرجو أن تستوعب ما جاء في هذا الأمر بوضوح، وأن يعلم به كل الضباط والجنود حتى يكونوا على بينة من الأمر ويعرفون تماماً ما سيقومون به.

(إمضاء) محمد توفيق

وغادر (ستانلي) القاهرة في الثالث من فبراير وسافر إلى زنجبار حيث عقد إتفاقاً مع الشخصية المشهورة تيبو تيب. ثم واصل رحلته إلى الكنغو بحراً (عن طريق كيب تاون (رأس الرجاء الصالح) ووصل إلى الكنغو في ١٨ مارس. وفي السادس عشر من يونيه وصل إلى يامبيو مع مساعديه الميجر بارتلوت والكابتن نلسون والملازم ستيرس والمستر ما ونتني جفسون والطبيب الجراح بارك والسادة جيمسون وبوني ووارد. قام بترك الميجر بارتلوت والسادة جيمسون وبوني ووارد في يامبيو لانتظار بقية أعوانه، الذين لم يصلوا لها بعد، وتوجه ومعه باقي رجاله البالغ عددهم ٣٨٩ رجلاً، مسلحين ب ٣٥٧ بندقية، نحو البحيرة.

ومن المعلوم الآن ما حدث بعد ٢٨ يونيه، والتي وصفها المستر ستانلي بطريقة مثيـرة للإعجاب في كتاباته، عن الأهوال والمغامرات العاصفة التي مرت بها هذه القوة الصـغيرة خـلال الغابات العظيمة، وأنواع الحرمان التي تعرضوا لها، والاكتشافات الغريبة التي أنجزوها، ونجاحهم في الخروج من الظلام إلى الضياء بعد شهور من التيه والتجوال وسـط تلـك الغابـات المظلمـة البشعة، وحروبهم مع أهالي المازامبوني، ثم وصولهم للبحيرة، ولا أخبار عن أمـين، ثـم رحلـة العودة لإحضار المركب (أدفانس) من كيلونجا لونجا إلى البحيرة. أصبحت تلك الأحداث معروفة مما لا يدعو إلى التوسع في سردها هنا.

ولم تلتق الحملة بأمين باشا والكابتن كاساتي إلا يوم ٢٩ / ٤ / ١٨٨٨، عندما رجعـت الحملة مرة أخرى للبحيرة، ووجدتهم في ناسابي على شواطئ بحيرة ألبرت، حيث قـام سـتانلي بتسليم أمين باشا (الأمر السامي) الصادر من سمو الخديوي. ومكثوا معه هناك بالبحيرة لخمسـة وعشرين يوماً، ثم رجع ستانلي بنفس طريق الغابة اللامتناهي ليقابل رجاله المتخلفين وراءه، بينما ترك المستر ماونتني جفسون، مع حرس من ثلاثة عشر جندياً سودانياً لاصطحاب أمين باشا فـي جولة خلال مديريته حيث سيقوم بالتشاور مع ضباطه، ويخبرهم بوصول حملة الإنقاذ، وليقرروا ما سيقومون به بعد الآن.

ومن الضروري الآن إعطاء صوره بسيطة للأحداث التي جرت في المديرية قبل وصـول ستانلي مباشرة. فبعد المحاولة غير الناجحة للكتيبة الأولى التي تمرد قسم منها لاعتقال أمين لـم يحدث أمر ذو بال وجاءت فترة من الهدوء على المنطقة.

وكتب أمين في تقرير له عام ١٨٨٧ بأنه قد أرسل رسلاً منه إلى الجنوب الغربي بحثـاً عن ستانلي. وكان أمين على علم بخططه وذلك بواسطة الرسائل التي كتبت له من زنجبـار فـي يناير، والتي وصلته في مايو، وفي نوفمبر كتب مرة أخرى قائلاً: (كل شي على ما يـرام ونحـن على أحسن الصلات مع الزعماء ومع الأهالي وسأقوم قريباً إلي كبيرو شرق بحيرة ألبرت. هذا وقد أرسلت جماعة للبحث عن ستانلي لكنها عادت بدون أي خبر عنهم. لكنني أتوقع وصول ستانلي في منتصف ديسمبر).

ووصلت إلي كاساتي، المقيم مع كباريقا، أخبار أخرى عن الموضوع ومنها توصل إلـى حسابات تفيد بأن ستانلي سيصل في مارس. ولكن من الغريب القول بأن ستانلي قد وصل بالفعـل إلى شواطئ بحيرة ألبرت في نفس اليوم الذي تنبأ فيه أمين، لكنه لما لم يجد أي أخبار عنـه كـر راجعاً إلى مركبه، التي سيجر فيها إلى وادلاي وليعرف شيئاً عن مصير الحاكم الذي جاء لإنقـاذه. ولكن بقيت شهورا أربعة قادمة ليلتقي بعدها المنقذ مع الرجل الذي جاء لإنقاذه.

***

السودان الشرقي (١٨٨٧):

شهد العام ١٨٨٧، في بدايته إنديادا في درجة العلاقات الودية من جانب شيوخ الجنوب، في شرق السودان، تجاه الحكومة بسواكن.

وكان قد جاء في أثر شيوخ الهدندوة، الذي حضروا في نهاية العام الماضي، رجالاً آخرين وعلي رأسهم الأمين فقيراي – من الشيراب – وهو رجل ذو نفوذ عظيم على قبائل سنكات وأركويت. وقد صرحوا جميعاً بكراهيتهم للمهدية وأبدوا رغبتهم في مساعدة الحكومة. نفس الشعور كان عند شيوخ البني عامر، وفي يناير استقبل الحاكم العام (لسواكن) وفداً من إثنين وعشرين رجلاً، قدموا جميعهم آيات الولاء والطاعة له.

أما شيوخ طوكر، الذين كانوا يضمرون الولاء سراً في أنفسهم، فلم يتجرأوا على إعلان ولائهم للحكومة علناً وذلك خوفاً من العواقب التي تعقب حتماً مثل هذا الإعلان. ثم وصلتهم الآن أخبار بأن الخليفة قد أرسل أبو قرجة مصحوباً بقوة كبيرة ليحل محل عثمان دقنة. وفي أواخر يناير نشب نزاع غريب في طوكر بشأن حصان ملك للسيد بكري الميرغني كان قد صادره منه الأمير خضر. فقد طالب الأشراف بالحصان ووجدوا من يدعم حجتهم ضد الحسناب. ولاح شبح التمزق والخلاف، وقام أبو فاطمة، زعيم الأشراف، بمغادرة سواكن لتعزيز المطالبة بالحصان. لكن الفكي علي، الذي كان قائماً بالأمارة، حسم الأمر لصالح الخضر مما أثار اشمئزاز الأشراف والذين إنداد، بذلك، عداءهم للمهدية. ولما وصلت حالة القبائل لهذه الدرجة (من العداء للمهدية) فقد تقرر القيام بمحاولة لدفعهم للقيام بسحق المهدية في مناطقهم، وفي مارس التقى الحاكم العام بعدد كبير من الشيوخ الموالين من قبائل البني عامر والأرتيقه والشياب، وغيرهم من القبائل، في عقيق. وقد جاء هؤلاء الشيوخ مصحوبين بثلاثة ألف وخمسمائة من رجالهم، وعبروا علناً عن رغبتهم في رؤية الحكومة وقد استعادت نفوذها في مناطقهم، وعن استعدادهم للمساعدة في ذلك. وقرب نهاية الشهر، بارح الأمين فقيراى سواكن للعمل على تجميع قبائل سنكات وأركويت، بينما أخذ محمود بك على في الاستعداد لعمل نفس الشيء مع العمارة. وقد ساد الاعتقاد بأن أهالي طوكر الموالين سينضمون لهذه الحركة.

وفي يناير وصل عثمان دقنة إلى كسلا قادماً من القضارف، حيث ترك فيها عوض مولادي، الذي كان كاتباً سابقاً لدي الحكومة بكسلا، أميراً عليها. أشتهر هذا الرجل بالجشع والقسوة، وسرعان ما كان مصدراً لرعب القبائل المجاورة، وقام الشكرية مرة أخرى باللجوء إلى الحمران* الذين كانوا قد قدموا مساعدات للأحباش أثناء حملات إنقاذ الحاميات المصرية. وقام صالح بك شنقه** أيضاً، وهو الحاكم السابق للقضارف، بإلقاء ثقله مع الأحباش، وكان له، مثله مثل الشيخ عجول، ظهور واضح في كل المواجهات التي نشبت بين العرب والأحباش.

---

* اشتهرت قبيلة الشيخ عجول بأنها جنس ميال للصيد ومدربون على استخدام الأسلحة، وذلك في أوقات السلم، وقاموا، منذ بداية الثورة، بمقاومة المهدية.

** كما جاء في القسم التاسع من الكتاب، تحت عنوان قبيلة الكبابيش، فأن صالح بك، وهو أصلاً تكروري من دارفور، كان قد عين بواسطة غردون معاوناً للمديرية. لكن الأحداث التي تلت ذلك أثبتت أنه لم يوف بحق الثقة التي منحت له

ولا يوجد إلا القليل من المعلومات المؤكدة فيما يختص بالأحداث على الجبهة الحبشية بعد إخراج الحامية المصرية من القضارف ولكن يبدو بأن الملك يوحنا قد عين رجلاً من الأمهرة هو راس عدل*** ليقوم بحراسة الحدود ومعه قوة عسكرية كبيرة. وكان الخليفة في ذلك الوقت قد أرسل الأمير محمود ود أرباب لاحتلال القلابات. وقد نجح في ذلك وطرد منها صالح شنقه والذي ظل مسئولاً عنها بعد سحب القوات المصرية منها. وفي يونيه دار اشتباك رهيب بين القوات المتصارعة في سهل مدنة انتهي بمقتل ود أرباب وتحطيم جيشه وسقوط النساء ومن كان بالمعسكر في أيدي الأحباش. ولما بلغت تلك الأخبار مسامع الخليفة أوفد إبن عمه يونس الدكيم بديلاً لو دأرباب وفي نفس الوقت أرسل قوات كبيرة كان الغرض منها احتلال القلابات. وقام (الخليفة) أيضاً في يوليه، بإرسال الخطاب التالي للملك يوحنا طلب فيه منه إعادة الأسرى فوراً، كما طالبه بتسليم صالح شنقه وعجول والفكي مضوي له. وجاء الخطاب* كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم..... الخ.

من العبد لله... الخ، الخليفة عبد الله إلى عظيم الحبشة، يوحنا. فلتعلم بأن الله هو ملك الملوك، وإنه يعطي الملك لمن يشاء أو ينزعه منهم. ويعطي النصر لمن يشاء. وفي يديه الخير والشر. ولقد خلق الإنسان لعبادته وأرسل رسله لهدايتهم. وجعل السماء إرثاً للمطيعين له، والجحيم لمن يعصوه. ولقد ختمت النبوة بنبيه المختار محمد. وقد أرسله لهذا العالم ليبشر باسمه وليدعو الناس إلى الله. وقد أرسله كالضياء المنير ليصدق كل الناس بدين الإسلام. وبعد ذلك أرسل الله خليفته، المهدي المنتظر، ليعيد إحياء الإسلام وليحث الناس للحفاظ على أوامر الله.

إنني أنا خليفة المهدي الذي جاء ليفرض الدين الإسلامي وليدعوك إلى (طريق) لحق كما قال الله في كتابه الكريم مخاطباً أهل الكتاب ليؤمنوا بكلام الله والذي يماثل ما أنزل عليهم (من قبل). وهذا يعني بأن علينا عبادة الله الواحد، الذي لا شريك له في الملك وألا نصنع آلهة مع الله. فإذا ما أقررت بذلك وقلت أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإذا ما استجبت لطلبي من صميم فؤادك، وأطعت أوامري، فستتم حمايتك والترحيب بك وتشريفك. وستكون لنا بمثابة الأخ وسنكون لك كذلك. وستنشأ بيننا المودة الصادقة وستكون آمناً سالماً. ولكن إذا رفضت الاستجابة لهذا النداء ورفضت دين الحق فأن العاقبة ستقع على أم رأسك.

وحتى هذا الوقت لم أحد أبداً عن إتباع أوامر رسولنا (محمد) والذي قال (تجنبوا الحبش ما تجنبوكم) وهذا هو السبب في إنني رفضت شن الحرب عليكم. ولكن، وكما يبدو لي الآن، بأنكم السبب في تقويض السلم بعدوانكم ومعاملتكم السيئة لضعفاء المسلمين الذين يعيشون بالقرب من حدود بلادكم، مثلما قتلتم وأسرتم عدداً منهم، كما وفرتم ملاذاً للذين تركوا الدين وهجروه مثل

(المؤلف). أما الاشارة لقبيلة الكبابيش فيبدو أن المؤلف، لعدم تعمقه أو لاستعجاله، قد خلط بين صالح بك الكباشي وصالح بك التكروري (المعرب).

*** يوصف بأنه عربي متصلب وحاد المزاج (المؤلف).

وهذا خلط غريب (المعرب).

* نفس هذا الخطاب أرسله الخليفة لجلالةالملكة عام ١٨٨٩، بعد هزيمة الملك يوحنا ومقتله، وكان الغرض منه أنه بخطابه هذا كان قد أنذر الملك يوحنا بعدم جدوي محاولة الوقوف أمام أتباع المهدي.

صالح شنقه وعجول وإدريس أبو سن ومضوي وآخرين غيرهم، ولذلك أرسلت قسماً من جيوشي إلى حدودكم لتراقب تصرفاتكم. فإذا رغبتم في السلم فأن عليكم إرجاع كل الأسرى بحوزتكم، ذكوراً وإناثاً، كباراً وصغاراً، ولا تبقي على أحد منهم ببلادكم. كما أن عليكم إعادة كل الرجال الذين ذهبوا مع صالح شنقه والسماح لهم بالعودة لبلادهم. أما إذا كانوا غير راغبين في العودة واختاروا البقاء مع أعداء الله فأن عليك أخذ تعهد كتابي منهم ووضع أختامهم علي ذلك التعهد وإرسال ذلك لـي، حتى نعرف بأنهم ما عادوا من ناسنا. كما عليك أيضاً التوقف عن شن الغارات على حـدودنا وأن تعمل على أبقاء رجالك داخل حدودكم.

فإذا فعلت ما طلبته منك فسأوقف شن الحرب ضدكم، وسأمر جيشي بعدم دخول بلادكـم. كما أكرر لك مرة أخرى بأنك إذا قبلت الإسلام ديناً واتبعت تعاليم المهدية، فأنك ستكون ممن يرحب بهم جداً مثلما ستنال الشرف في الدار الآخرة. لكنك إذا أبيت ذلك فأن عليك ألا تتوقع سوي الحرب. وستقع في يدي بإذن الله، فالله ناظرنا وحامينا من أعدائنا حتى لو كانوا كرمل البحر في كثـرتهم. فالذين يريد الله نصرهم لن يهزموا أبداً. لذا فعليك ألا تنخدع بكثرة جنودك، فالله معنـا وسـيدمر أعداءنا، وعليك القيام بالرد مع حامله".

***

مؤرخ يوليه ١٨٨٧ :

وعلى ما يبدو، فأن الملك يوحنا لم يعر هذا الخطاب أي إهتمام مما ترتـب عليـه قيـام يونس بشن غارتين ناجحتين في عمق الأراضي الحبشية. فقام الراس عدل بحشد قـوات ضـخمة وشرع في الإستعدادات اللازمة لغزو السودان. وعند ما بلغ الخليفة ذلك أرسل الأمير حمدان أبـو عنجة، والمعروف بأنه أكثر قادة الخليفة براعة وحذقاً، إلى القلابات. غادر هذا الأمير أم درمان مع قوات كبيرة بقيادة الأمراء الزاكي طمل وعبد الله ود إبراهيم والنور عنقـرة وفـرج الأم درمـاني وإسماعيل دندلوك، وقام بشق طريقه (نحو القلابات) ويضم إليه القبائل في الطريق حتى وصل إلى القلابات بقوة بلغت ٨٧٠٠٠ رجل. ولما لم يجد عند الأحباش عزماً على التقدم نحوه، كتب للخليفة طالباً الإذن له للهجوم عليهم وسرعان ما جاء الرد بالموافقة. ووصل إلى علم أبو عنجة أن الرأس عدل يعسكر في سهل دبراسن، على بعد مسيرة ستة أيام من القلابات وثلاثين ميلاً مـن غنـدار، فتوغل داخل الحبشة ودمر في طريقة عدة كنائس وقرى وأخذ عدداً كبراً من الأسرى. وأخيراً وصل أمام موقع رأس عدل. ويقال أن عدد الجيش الحبشي بلغ ٢٠٠٠٠٠ رجل لكن عدداً كبراً منهم لم يكن مسلحاً. دارت معركة شرسة وطويلة بين الطرفين تمت فيها هزيمة الحبش هزيمة تامة، رغم ما أبدوه من شجاعة عظيمة، وذبحت أعداد ضخمة منهم. وقد قتل منهم معظم كبار الزعماء، أمـا الرأس عدل فقد تمكن من الفرار لكن إبنه أسر وأرسل للقلابات. سقط كل معسكر الأحبـاش ومـا حوى في يد المنتصر أبو عنجة، والذي واصل زحفه، وبعد بضعة أيام وصل إلى غنـدار ونهبهـا ودمر معظم مبانيها الهامة وكنائسها وأسر الآلاف من النساء والأطفال بمن فيهم زوجـة وابنـة الرأس عدل. وبعد أقامة استمرت لأربعة عشر يوماً في غندار، عاد أبو عنجة للقلابات ومعه أعداد كبيرة من الأسرى والغنائم ليجد أنه، أثناء فترة غيابه عن القلابات، قد نشبت حركة مضادة للمهدية

ذات قدر بالغ من الخطورة. ويبدو أن رجلاً تكرورياً من دارفور، يدعي بأنه النبي عيسى، كان متمكناً من كافة ضروب السحر والشعوذة، وقد وصل للقلابات وقام بمعجزات خارقة* ثم أعلن نفسه بأنه هو النبي عيسي. مكث هذا الرجل في قرية صغيرة خارج القلابات وسرعان ما أصبحت له رعوية كبيرة ضمت ما لا يقل عن سبعة عشر أميراً بمن فيهم يونس الدكيم. وفور وصول أبو عنجة أرسل الأمير ود إبراهيم للقبض عليه وعلي الأمراء المتمردين. تم القبض عليهم بدون صعوبة تذكر، وبعد بضع أسابيع جاءت تعليمات من الخليفة بشنقهم جميعاً باستثناء يونس، أبن عم الخليفة، والذي أمر بإعادته مهاناً إلى أم درمان. تم تنفيذ الإعدامات وأرسل رأس المدعي للخليفة، والذي علقه لمدة طويلة فوق باب المسجد. وحتى يبث الرعب في قلوب أشياعه قام في السابع من ديسمبر باصدار المنشور التالي البالغ الغرابة، والذي صيغ بصورة تحول دون مواصلة أتباعه المشبعين بالخرافات له:-"بسم الله الرحمن الرحيم.....الخ.

من عبد الله خليفة المهدي إلي كافة إخوانه. عند وصول الأخبار الخاصة بتدمير النبي الكاذب (الذي أدعى بأنه عيسى) وكل الذين صدقوا مزاعمه، امتلأ قلبي بالشفقة عليهم، لأنهم كانوا من قبل من الأصحاب لكنهم ضلوا الطريق. فسألت الله أن يعفو ويغفر لهم، وقمت بذلك سبعين مرة. وأثناء إنشغال فكري بذلك سمعت منادياً يناديني كي أستعد لتلقي رؤيا. تم ذلك في منزلي اليوم بعد صلاة الصبح. وعندما جاءني (الروح) ركعت مرتين وسألت الله مرة أخرى أن يعفو عن أولئك الرجال. وبينما أنا في صلاتي رأيتهم فجأة يعذبون بنار جهنم ولهيبها على النحو التالي:

رأيت المدعي الكاذب وهو في قعر حفرة لا يرى فيها ولكن تصدر منها أصوات وضجة عظيمة مصحوبة بالصراخ والعويل. أما ود بغداوى فكان في حفرة أعمق بقعر نار جهنم وكان عبدالله البركولي في مكان أعلى من النبي الكاذب وكذلك كان القرشي، وزيره، والطائف. وكان عذاب كل من هؤلاء الرجال بقدر مرتبتهم. لكن حنون وأبو فضالي وعبد الله الجاموس وغيرهم من الكفرة كانوا في عذابهم يظهرون ويختفون من وقت لآخر من أعماق الجحيم. كلهم كانوا في حراسة رجال سود يعذبونهم كافة أصناف العذاب. وكان كل من أولئك التعساء يعذب عذاباً شديداً ما عدا عبد الله الجاموس والذي كان عذابه أخف منهم. وفي هذه اللحظة رأيت النبي ماراً بالقرب منهم فرفعوا أصواتهم متوسلين الرحمة منه. لكنه لم يلتفت إليهم بل أشار للمهدي فسلموا عليه وقال لهم بأنهم عصوا الخليفة عبد الله وبالتالي فأن مصيرهم في يده. وعندما شاهدت حالتهم المخيفة سألت الله بحرارة لأن يعفو عنهم. فرفعوا أيديهم وشاركوني في الدعاء وظللنا لوقت طويل ندعو ونستغفر ثم سمعت صوتاً ينادي:" إن الباب الذي دخلوا منه ليس باب التوبة، لكنه باب الكفرة، لأنهم لم يموتوا في سبيل دين الإسلام" وأن من دخل من ذلك الباب لن يتم العفو عنه ولن يخفف عنه العذاب.

---

* إشتهر هذا النبي عيسى بالقيام بمعجزات خارقة للعادة ومستحيلة، منها أنه إذا رأي رجلاً يقف في العراء تحت الشمس فأنه يستدعي شجرة لتأتي وتظله بظلها، أو يخط بأصبعه خطاً على الأرض فتنبثق المياه من تحته، ولها طعم الشربات. كما كان يظهر صوراً للجنة والنار وللمعارك.....الخ.

ثم سألت لم يعاني ود بغداوي من العذاب بأكثر من عبد الله جاموس فأجبت بـأن الأول كان علي علم بفساد النبي المزيف وأنه كان رجلاً مدعياً لكن الأخير كان يعتقد فيه حقـاً. لكـنهم عموماً أنكروا كلهم المهدية ولهذا يعذبون وأستمر ذلك العذاب منذ موتهم، ولازالـوا. حتـى الآن يسقطون في قعر جهنم ولم يصلوا أخرها بعد. وقد قيدت أعناقهم بالأغلال وعندما ينهض أي منهم للسطح فأن ملائكة العذاب تضربه وتقول له:" لو كنت سلمت نفسك للخليفة لتم إنقاذك من العذاب" ورأيت أنه كلما أدار الملائكة وجوههم ونظروا إلي، كانت وجوههم بيضاء ناصعة. لكـنهم عنـدما يشرعون في تعذيب المذنبين الكفرة فتكون وجوههم سوداء كالليل.

ولما أيقنت أن هؤلاء الخطاة لن يتم العفو عنهم توقفت عن الدعاء لهم، فقد ضاقت نفسي لسوء حالهم. وسألت الله العون، وتمت الرؤيا. والله أعلم العلماء"

٢١ ربيع الأول ١٣٠٥

٧ ديسمبر ١٨٨٧.

وتم بعد ذلك استدعاء أبي عنجة لأم درمان. فتوجه إليها تاركاً معظم جيشه تحت إمـرة الأمير أحمد ود علي بالقلابات.

وإنتهت سنة ١٨٨٧ والملك يوحنا يزفر غيظاً، ويقسم على الانتقام من الخليفة وأعوانه، ويهدد بأنه سيزحف بكل جيوشه نحو الخرطوم ويدمرها.

***

والآن عودة لمتابعة سير الأحداث إلى الشمال والشرق من الحدود الحبشية. فحتى بواكير عام ١٨٨٧ كانت جيوش العرب تؤخذ من القبائل المحلية ولم يدخل شرق السودان أي رجل مقاتل من الأغراب، أي من البقارة والدناقلة والجعليين وغيرهم، وعندما جاء أبو قرجة في بداية العـام لبلاد الشكرية فإنما أرسل، كما هو مؤكد، لمعاونة عثمان دقنة لاستنفار تلك القبيلة.

وعندما حل فبراير وصل إلى كسلا بصحبة ٣٠٠٠ رجل من البقارة وعدد مـن رجـال الشكرية، الذين فر عدد كبير منهم بعد ذلك بقليل وعاد إلى دياره بسبب خلافهم مع الهدندوة. وحتى البقارة لم يكونوا على وفاق مع (الأنصار) المحليين، بل أنهم كانوا سبباً للمنازعات والقلاقل. فقـد كانوا يعتبرون أنفسهم علي أنهم هم الذين دعموا قضية المهدية المقدسة مـن البدايـة ووضـعوا أنفسهم في مقام أعلى شأناً من الآخرين. ولما كانوا في منتهي القوة فقد كانوا قادرين، من ناحية عامة، على فرض نفوذهم. لكن الهدندوة لم يكونوا على استعداد لقبول هذا الوضع أو الإستكانة له، فتواصلت حالات الإحتكاك بينهما حتى أن ود الهداب رفض، في أبريل، أن تكون له أي علاقة بأبي قرجة وتذرع بحجة أنه لا يتلقى الأوامر إلا من الخليفة نفسه. أدي هذا للجوء البقارة إلى السـلاح ولكنهم هزموا في المعركة التي نشبت وعاد الهدوء لبعض الوقت في المنطقة.

وفي هذا الشهر تسلم سمو الخديوي رسائل من ود عجول وعمارة أبو سن سرد فيهـا الأول الوقائع التي انتصر فيها وطلب من الخديوي، برجاء، الاعتراف به ومساعدته وتسلحيه، ثم أكد في رسالته ولاءه حتى الموت للحكومة. وذكر في رسالته أيضاً بأنه ما أن ظهرت المهدية حتى حاربها بكل قبيلته، وبأنه جرح عدة مرات، وفقد كثيراً من رجاله حتى أنه أضطر أخيراً للانسحاب

إلى غبتة. وفي هذا الإنسحاب فقد معظم أمواله. وذكر أنه قام، بما تبقي من أمواله، بتحصين غبتة وبعدها تمكن عدة مرات من مهاجمة العدو وتشتيته، وعمل على تقسيم الغنائم على رجاله ورجال القبائل المجاورة حتى يكسب ولاءهم، وبأنه كتب أيضاً عدة رسائل للقبائل حاثاً لهم على عدم الإلتحاق بالمهدي وأن مساعيه تلك قد نجحت في العديد من الحالات. وذكر بأن محمد بك حمدي كان معه وأن بامكان محمد بك تأكيد صحة إفاداته تلك. ثم أضاف بأن أسلحته لم تعد بذات جدوى وترجي سموه لإمداده بالسلاح والذخيرة وأن يرجو سموه من الملك يوحنا السماح له بحرية التنقل خلال أنحاء بلاده. كما استأذن في تجنيد ما بين ١٠٠٠ – ٢٠٠٠ رجل من غير النظاميين وأن يعين عمارة ود أبو سن ألشكري قائداً لهم، وأنه سيقوم شيئاً فشيئاً بإخضاع المنطقة واستلام الخرطوم. وختم رسالته بأنه على إستعداد، إذا ما رغبت حكومة سموه في ذلك، بإرسال شقيقه ليكون رهينة معهم ضماناً للسلاح والذخيرة.

***

النيل الأزرق (١٨٨٧):

مناطق النيل الأزرق أيضاً شهدت، في أوائل العام، ثورة على المهدية، تمثل نموذجاً لما آل إليه النظام القبلي من دمار، وكيف أن القبلية قد أصبحت واهنة ضعيفة من جراء الإرهاب، الذي صار الآن سمة لحكم المهدية.

فالقبيلة القوية المسماة برفاعة، والتي تقطن إلى الغرب من النيل الأزرق بجوار كركوج والتي، كما يذكر، كانت قد لعبت دوراً نشطاً في حصار سنار، قد إتهمت بأنها ذات ميول معارضة للمهدية، مما دعي الخليفة لإصدار أمره لكبير شيوخها، المرضي، وكل كبار رجال القبيلة للحضور لأم درمان. تردد المرضى في تلبية أمر الخليفة وجرت محاولة لإلقاء القبض عليه في منزله، ولكن تم إنقاذه، ومن ثم ثارت كل القبيلة ضد هذه المعاملة وقاموا في كركوج بهزيمة جماعة من ٥٠٠ رجل كانوا قد أوفدوا لتنفيذ أمر الخليفة. أرسل الخليفة بتعليمات ليونس الدكيم، الذي استعاد حظوته لديه، ليقود جيش النيل الأزرق وليعمل على إعادة القبيلة للطاعة. توجه يونس بجيشه إلى كركوج والتقي بالقبيلة، التي تجمعت في أعداد كبيرة، ودارت معركة بينهما هزمهم فيها وقتل المرضى وكل قادته وصادر إبلهم وممتلكاتهم. وهذا مثل واحد، ليس إلا، يوضح كيف أجبرت القبائل على الرضوخ التام. وفي معظم الأحداث كان أحد أمراء البقارة يحل محل زعيم الشيوخ، وباستخدام عدد محدود من قبيلته لدعم نفوذه كان يقهر ويسيء. معاملة رجال القبيلة (المعارضة) للدرجة التي يحولهم فيها إلى جماعة لا قوة لها، ومن ثم ، وبعد تدمير النظام القبلي، يتلاشى أي نوع من التحالف بين القبائل المعارضة للمهدية.

كانت هناك، بخلاف رفاعة، قبائل أخرى أدركت بعد وفاة المهدي ما سيحل بها. فهناك قبيلة هامة بالقرب من تقلي تحت قيادة ود أبو كلام، رفضت أيضاً إطاعة أوامر الخليفة لهم بالحضور لأم درمان ومبايعة الخليفة. أرسل يونس الدكيم لإخضاعهم، وتمكن بعد سفك غزير للدماء في القيام بما أوكل إليه وساق نساءهم وأطفالهم لأمدرمان. وهناك حالات أخرى لهذه المذابح الجماعية ومنها إخماد (ثورة) عرب جهينة، والذي يماثل تماماً الحالات التي وردت من قبل.

***

ولم يكن صلح الكباشي أكثر حظاً في محاولاته للثورة ضد حكم الخليفة المنيع. وكما جاء في سيرته من قبل، وكان ذلك في يوليه ١٨٨٦، تركناه خاملاً في جبال أو دون بدون نشاط يذكر، لكن ذلك الزعيم النشط حمل السلاح مرة أخرى من فبراير ١٨٨٧، وقام بتدبير ذكي محكم بأسر قافلة من ٥٠٠ جمل كانت في طريقها للإلتحاق بالنجومي، وفي مارس ١٨٨٧ هزم ذلك القائد شخصياً. وقد كتب له سمو الخديوي خطابات مشجعة، وفي أبريل إستلمت رسائل من صالح تفيد بأن ثلاثين من أقاربه قد إنضموا إليه ومع كل منهم خمسين رجلاً. وعند تلقي هذه الأنباء، أرسل له الجنرال قرنفل قافلة محملة بالسلاح والذخيرة. لكن جاء دور النجومي هذه المرة، وتمكن من الإستيلاء، في واحة سليمة، على قسم كبير من البنادق، إن لم يكن عليها كلها. يعزي ذلك إلى صفاقة تاجر ألماني مقدام يدعي تشارلس نويفلد* والذي كان قد صحب تلك القافلة. فقد أراد الحصول على إمدادات من المياه وتوجه بالتالي إلى الواحة، وهناك تم القبض عليه من قبل جماعة من العدو وأرسلوه لأم درمان. أما بقية القافلة فقد أسرت وذهبوا بها إلى دنقلا حيث تم إعدام رجالها.

أثناء ذلك، علم الخليفة بنوايا صالح. وقام في مايو بإرسال قوة من أم درمان عددها ٥٠٠ سوداني، يقودهم الأمير البقاري حمد، ومعه بعض العرب، وجماعة من البني جرار بقيادة ود نوباوى، وبعض عرب المعاليه والمجانين بقيادة الأمير جريجير** بأوامر مشددة لتدمير صالح وأتباعه المتمردين الذين تحالفوا مع الكفار.

نشبت أولى الصراعات في آبار أم بادر عندما حاول صالح منع أعدائه من الشرب. وفي اليوم الأول خرج صالح منتصراً. لكن القتال استؤنف في اليوم التالي، حيث قتل فيه شقيق صالح المدعو جمع، لكنه رغم ذلك وفق في منع العدو من إحتلال الآبار. وفي تلك الليلة فر عدد من الكبابيش الذين ذعروا لمقتل جمع وفر صالح أيضاً إلي آبار محبس. كان معه عدد كبير من نسائه والأطفال، وقبل أن يصل إلي المياه وجد أن العدو قد سبقه عليها وإحتلها، فقام بهجوم يائس، هو ومن تبقي من أعوانه، على العدو ودارت معركة شرسة بينهما، عبرت عنها أحسن تعبير والدة صالح بك، وهي إمرأة شجاعة اشتركت مع أبنتها في القتال وتم أسرها وإرسالها لأم درمان. قالت:-***

"حارب صالح بشجاعة وغير جواده عدة مرات لأننا كنا كلنا، رجالاً ونساءاً وبهائم في غاية العطش. ولما رأيت أبني وسط هذا الخطر قمت مع ابنتي بالمشاركة في القتال لكن الدائرة كانت علينا وسقط كثيرون من أتباعنا. ولما شاهد صالح شقيقة الثالث وهو يصرع ترجل من جواده، وكما هي عادة الشجعان من زعماء العرب، نزع فروته من السرج وفرشها علي الأرض وجلس عليها انتظارا للموت. أحاط به أمراء العدو وطلبوا منه الإستسلام والذهاب للخليفة عبد الله

---

* تشارلس نويفلد لا زال سجيناً في أم درمان.

** أظهر الخليفة بإرساله الأمير جريجير، كما فعل في حالات كثيرة أخري، ذكاء شديداً فقد كانت هنالك ثارات بين جريجير وصالح استمرت لوقت طويل إذ أن والد صالح كان قد قتل والد جريجير وعمه من قبل.

*** هذا القول جاء عن طريق الشيخ أحمد الفارسي، وذلك عندما تحدثت إليه والده صالح بك. والشيخ أحمد هو تاجر سوداني معروف، وقد وصل حديثاً من أم درمان (إلى القاهرة).

في أم درمان، لكنه رد عليهم قائلاً: لا أريد قط مشاهدة الخليفة فاقتلوني حيث أنا" فأشار الأمير جريجير إلى إبن عمه، والذي تقدم (نحو صالح) شاهراً سيفه وقطع رأسه إنتقاماً لأبيه وعمه. تبقي الآن شقيق واحد (لصالح) وأخذ معنا إلى الأبيض حيث تم قطع رأسه أيضاً. استولى العدو على مخيمنا وعلى النساء والأطفال والخدم وساقونا جميعاً لأم درمان".

وبعد هذه الهزيمة الماحقة لم يتبق سوى القليل من الكبابيش. وفي الوقت الراهن لم يتبق من هذه القبيلة، التي كانت يوماً قوية وكثيرة العدد، إلا الاسم في الواقع.

وأرسل رأس صالح بك إلى أم درمان، حيث ظل معلقاً لمدة شهر، أما عائلته فظلت في، ولازالت حتى اليوم، تحت الحراسة في مركز قيادة الخليفة.

***

سواكن (في عام ١٨٨٧):

تحسنت الأمور في سواكن بدرجة مرضية. واستمر الأمرأر في تأكيد ولائهم كما أفاد محمد أبو فاطمة بأنة يعتبران قبيلته ستكون جاهزة عما قريب لمواجهة عثمان. وصلت رسائل أيضا" من الشيخ واق (أوهاج) حسن في طوكر تفيد أن المهدية في انحسار في ذلك المكان.

وفي مايو طرأ حادث سيئ أدى لدرج ملموسة لخلخلة العلاقات بين قبيلتي الهدندوة والأمرأر وأثر على تحالفهما للدرجة التي توقفت فيها علاقاتهما لعدة شهور. كان الطريق إلى بربر، رغم كل شئ، مفتوحاً لعدة شهور لكن الحاكم العام رأى ألا يعلن عن ذلك لعدة أسباب كان أهمها هو أن (حقوق الطريق) كانت دائما مصدراً للخلافات والتنازع بين الأمرأر والهدندوة. فقد أعلن الأمرأر، على كل حال، وبعد أن تولوا زمام الأمر هناك، بأن الطريق مفتوح وسرعان ما تجددت الثأرات القديمة. وأعلن الهدندوة بصوت عال رفضهم لإدعاء الأمرأر وتوجه بعض شيوخهم إلى طوكر للحصول على دعم العرب ضد الأمرأر. وعمل الأمير الفكي علي، على تشجيع الصراع بالطبع وبدا لبعض الوقت ألا مناص من التصادم. ولكن، ولحسن الحظ، أعلن شيخان مهمان هما الأمين فقيراى وعبد القادر حمد معارضتهما لأي صراع وكتبا للحاكم العام بأنهما سيبذلان أقصي جهدهما للحفاظ علي السلم والهدوء تنفيذاً لرغباته. وبهذا تم تجنب شقاق خطير (كان على وشك الوقوع).

وبينما سارت الأحداث على هذا المنوال وصل إلى طوكر محمد موسي دقنة، يصحبه ١٠٠٠ رجل ذوي تسليح جيد، ومعظمهم من البقارة. كانت قوات كسلا في ذلك الوقت تصل إلى ٢١٠٠٠ رجل.

وإلى الشمال من سواكن كان تجار الرقيق يقومون بتجارة مزدهرة في ذلك الوقت. فبعد أن تم إبعادهم من خور شيناب بواسطة السفينة الحربية البريطانية (جرابلر) عام ١٨٨٥ فإنهم استقروا في ميناء حلايب، على بعد ٢٥٠ ميلا شمال سواكن ووجدو فيه ملاذا آمناً لفترة طويلة. شجعهم هذا، وخاصة مستوطنة الحتيمة، لدرجة أنهم أطلقوا النار على مركب (جانيت) التابعة للبحرية البريطانية وقتلوا الملازم ستيوارت وجرحوا بعض لابسي الجاكتات الزرقاء. وفي مايو قامت السفينة الحربية البريطانية (دولفين) بإحراق قرية الحتيمة، وفي يونيه توجه الكولونيل

كتشنر إلى حلايب ومعه فصيل من جنود الباشبوزوق وجماعة من الكتيبة السودانية العاشرة، ورافقته السفينتان الحربيتان جانيت وفالكون. تم تشتيت الحتيمة وأسر شيوخهم، وبعد ذلك بقليل غادروا المنطقة وإستقروا على الساحل المقابل. تم فتح حلايب الآن كميناء حكومي* وأنشئ فيها نقطة للشرطة وسرعان ما وجدت التجارة فيها سوقاً جاهزاً.

***

أحيا وصول البقارة لطوكر روح التعصب فيها، رغم أن ذلك لم يؤثر على قبائل الجوار والذين، عندما تم استدعاؤهم للحضور لها، رفضوا الذهاب. وفي يوليه تم إستدعاء كبار شيوخ طوكر لأم درمان، وتم إختيار محمد الأمين، شيخ الولي عالياب، وهو رجل مهم ذو نفوذ في منطقة سنكات، كممثل لهم ليصحبهم (لأم درمان).

وفي نفس الشهر تصالح الهدندوة رسمياً مع الأمرأر. ولكن سرعان ما تعكر صفو الصلح بعد أن أقام البقارة في أدوبانا محطة لجمع الضرائب من القبائل والتي رفضت دفعها لبعض الوقت. فقط كان الوحيد الذي تضافر مع البقاره هو العدو اللدود عكود موسي. إستمرت الأحوال بدون تغيير يذكر لبعض الشهور. ولم يتمكن البقارة من الإنسجام مع القبائل المحلية وأدى سلوكهم المتغطرس، مضافاً إليه الإبتزاز لكسب عداء الكثيرين الذين كانوا، عند وصولهم، علي إستعداد لمعاملتهم كأصدقاء. وفي نفس الوقت أدخل البقارة الروع والرهبة في قلوب القبائل المحلية.

وفي يوليه توجه عثمان دقنة ثانية لأم درمان لحضور مجلس الأمراء الذي يعقده الخليفة، والذي تناقش فيه شئون كل السودان. أراد الخليفة من جمع كل الشيوخ بعائلاتهم، الاحتفاظ بالعوائل كرهائن بأمدرمان بينما يعود الشيوخ ويشتركون في إدارة العمليات الحربية في كافة الأتجاهات. لكن معظم الشيوخ رفضوا إحضار عوائلهم معهم، بل أنهم رفضوا المشاركة في هذه الحملات الممتدة المتصلة، لكنهم أجمعوا علي تقديم الدعم والمساعدة للخليفة إذا ما هوجم. ترتب على ذلك الرفض إعتقال عدد من الشيوخ وسجنهم. وعندما انفض اجتماع المجلس عاد عثمان إلى كسلا، التي كثرت فيها المنازعات بين الهدندوة والبقارة، وفور وصوله هناك طلب المزيد من التعزيزات من البقارة.

وربما كانت المشاعر ضد البقارة أقوي هنا منها في أي مكان آخر. وكان المركز الرئيسي للقلاقل في منطقة أوديب والتي أظهرت فيها أقسام الشبودیناب والجميلاب العداء الواضح للبقارة ودارت بينهما عدة إشتباكات كانت نتائجها عادة لصالح الهدندوة.

وفي أكتوبر أجتمع في سواكن أربعون من أكثر شيوخ الهدندوة والأمرأر نفوذاً. وبموافقة الحاكم العام تقرر أن يتم تجمعهم في تروي* إستعداداً للزحف نحو طوكر. وفي نوفمبر تقدموا نحو ستراب. وهناك، وكما يحدث حتماً عندما تشترك قبائل قوية، لأداء مهمة، بدون قائد عام واحد، فقد نشب الشقاق والخلاف بينهم. وإتهم الأمرأر الهدندوة بعدم القدوم لدعمهم، أما الهدندوة فقد وبخوا الأمرأر وإتهموهم بالجبن والخور. وقد نجم عن ذلك الخلاف تراجع القوات مرة أخرى إلى تروي.

---

* وهو ميناء في مناطق البني عامر مقابل جزيرة بهدور.

* شمال طماي بخمسة أميال.

وهنا، وفي التاسع من ديسمبر إنقض فصيل من البقارة المشاة والفرسان على الأمـرأر وشـتتوا شملهم بالكامل.

وإثناء ذلك بلغت عثمان دقنة، في كسلا، أنباء تفيد بأن حامية سواكن قد تـم تقليصـها لدرجة كبيرة. فقد رجعت الكتيبة المصرية الخامسة في الخريف وأعقبها في نوفمبر عودة الكتيبـة السودانية العاشرة. وبانسحاب الأخيرة أبلغ عثمان بأن المدينة قد أصبحت بدون مـدافعين عنهـا سوي بعض الباشبوزوق. جمع (عثمان) كل من إستطاع من الرجال وتوجه نحو طوكر بقوة مـن ٥٠٠٠ رجل حيث وصلها بعد عشرة أيام. ومن هناك توجه نحو هندوب وأنشأ مركزاً له فيها. وي السادس عشر من ديسمبر كان قد أصبح مرة أخرى سيداً على كل المنطقة.

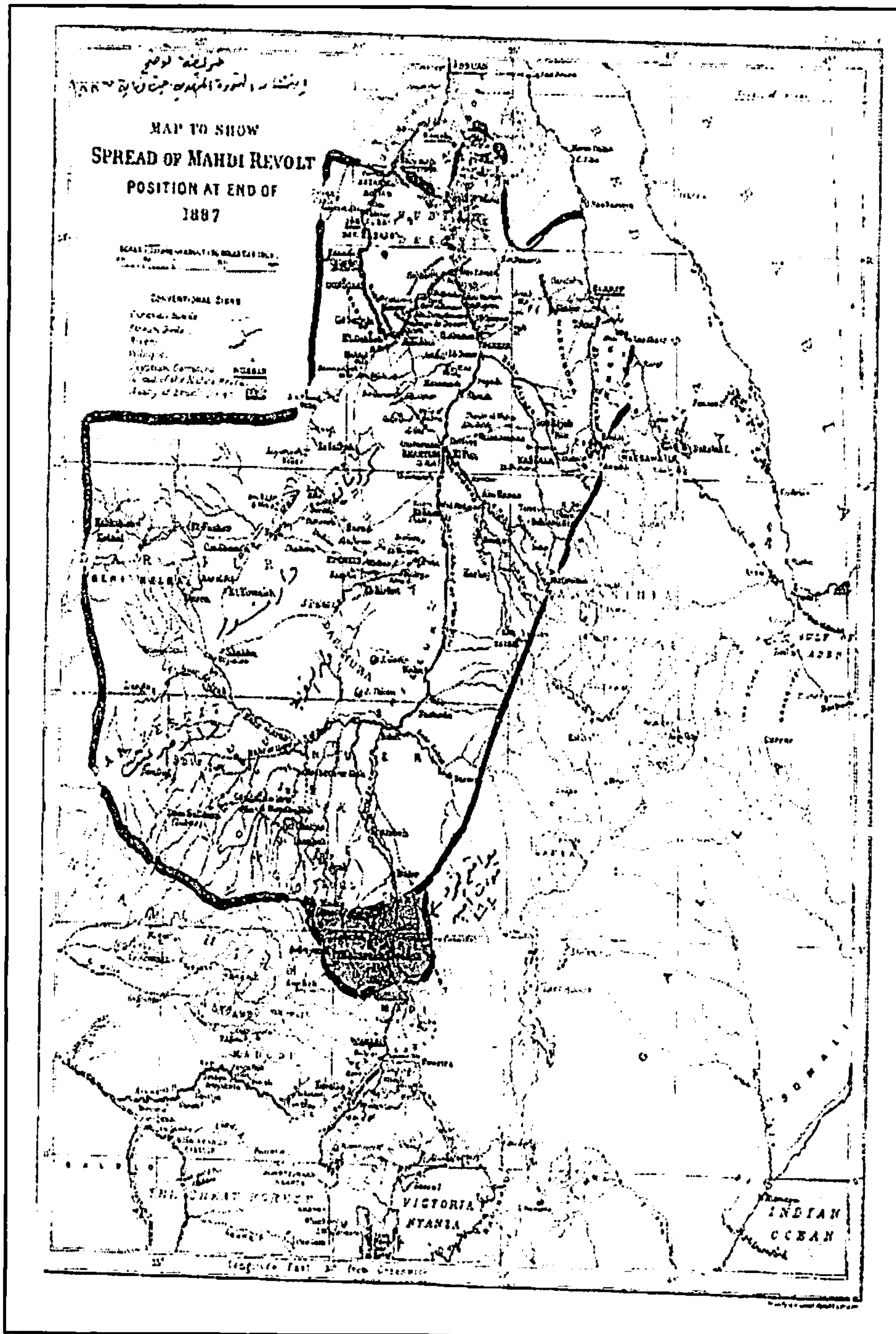
لم يخف العرب نواياهم في الهجوم على المدينة. لكن عثمان أصر على حشد كل القبائل تحت رايته قبل أن يضرب ضربته القاضية. وظلت دورياته تنشط أثناء النهار بينما تقـوم بنهـب الجنائن التي وراء جدران سواكن بالليل. وعادت سواكن مرة أخرى تحت الحصار. ولحسن الحـظ وقف التحالف المعارض للمهدية وقفة حازمة بينما لم تقدم القبائل المحلية على الإلتحاق الفـوري بعثمان دقنة. وحتى يستعجل الأمور، أرسل عثمان حملاتاً إلى الشمال والجنـوب والغـرب (مـن سواكن). كاد الأمرأر أن يستأصلوا حملة الشمال. فقد تجمعوا بقواتهم في دارا، تحت قيادة أحمـد محمود، وإلتحموا بالحملة وقتلوا منها نحو ٣٥٠ رجلاً بما فيهم دليلهم، مما ترتب عليه أن معظم الذين فروا ضلوا الطريق وماتوا جوعاً وعطشاً. أما حملتي الجنوب والغرب فقد عادتا دون تحقيق أي نتائج ذات أهمية.

وبعد يومين من معركة دارا قامت جماعة من الأمرأر ومعهم عدد من المولدين* بالخروج من سواكن وإنقضوا على النقطة العربية في تروي وشتتوا شمل من بها وإسـتولوا علـى نحـو ١٢٠٠ رأس من البقر و ١٦٠ جملاً.

وهكذا إختتم عام ١٨٨٧، وعثمان معسكر في هندوب مع قوات محطمة. ومـرة أخـرى أصيب بخيبة الأمل لعدم وصوله للضحية التي ناضل طويلاً من أجلها، والتي ظن أنه سيضع يـده عليها أخيراً بدون مصاعب تذكر.

***

* يطلق لفظ المولدين على الأهالي من ذوي الأصول المختلطة. وعموماً يكون ذلك نتيجة تزاوج بين أب مصري أو تركي مع أم سودانية.


خريطة توضح
MAP TO SHOW
SPREAD OF MAHDI REVOLT
POSITION AT END OF
1887
VICTORIA
NYANZA
INDIAN
OCEAN

القسم الحادي عشر

أحداث عام (١٨٨٨م)

الملخص:

"حماية الحدود توكل للجيش المصري – بحر كرار يقيم رئاسته في أو نجـات – الغـارة على كلابشة – الغارة على جرشة – إقامة نقاط حصينة بين كروسكو وحلفا – العدو يحتـل آبـار المرات – الغارة علي فريق – حضور النجومي لمجلس الأمراء بأم درمان – إنشاء مديرية الحدود العسكرية – تعيين الكولونيل وود هاوس حاكماً عليها – محاكمة منشتابك أمام محكمـة عسـكرية بتهمة الخيانة – منشور إلى البشاريين – وصول الإمدادات لسرس – الهجوم علـى دبروسـة – الهجوم علي قلعة خور موسي – الخليفة يقرع النجومي لتراخيه – سواكن – حملة عثمـان مـن هندوب – الكولونيل كتشنر يحاول اختطاف عثمان – معركة هندوب – جرح الكولونيل كتشـنر – العرب يتحصنون بالقرب من سواكن – معركة الرابع من مارس – موت الكابتن تـاب – عثمـان والقبائل – شهرين من توقف العدائيات مع سواكن – وصول عثمان النايب بإمدادات من أم درمان – العدو يحفر خنادقاً على بعد ١٩٠٠ ياردة من سواكن – حصار سواكن – تعيين الكولونيل هولد سمث حاكماً عاماً عليها – إمدادات لها من القاهرة – الجنرال قرنفل يكتب عـن ضـرورة زيـادة الجيش المصري – إستطلاع الثامن من أكتوبر – الجنرال قرنفل يتوجه إلى سواكن – اعتباره بأن طرد العدو من خنادقه أصبح أمراً ضرورياً – توجه القوات البريطانية لسواكن – ميول القبائـل – معركة جميزة – الهزيمة التامة للعرب – الأحداث على الحدود الحبشية – خطاب الخليفـة للملـك يوحنا – رؤيا الخليفة – حملة أبو عنجة – وصوله مرة أخرى لغندار – وفاة أبو عنجة – الأحداث في دارفور – عثمان آدم يهاجم ويهزم السلطان زايد في وادي المسرية – ومرة أخرى في بيرة – موت السلطان زايد (والسلطان) يوسف ثورة دار تاما – الشيخ أبو جميزة يقود الثورة – التماسه المساعدة من سلطان برقو – الأخير يلتمس ذلك من السنوسي – رد السنوسي عليه – تفسير لما يسمى بحركة السنوسي – رسالة الخليفة لأبي جميزة – انزعاج أم درمان – أبو جميزة يتقدم نحو الفاشر _ هزيمته لقوات المهدية في كبكابية – رجوعه لدار تاما لجمع الإمدادات – الإسـتوائية – من هو الباشا الأبيض؟ تفسير ذلك – الخليفة يرسل حملة من أم درمان لأسر الباشـا الأبـيض – جولة أمين وجفسون في أنحاء المديرية – التمرد في كيري – الثورة في دوفيللي – أمين وجفسون يسجنان – وصول جيش المهدية بقيادة عمر صالح إلى اللادو – إطلاق سراح أمين وجفسـون – توجهها إلى وادلاي – إخلاء وادلاي – إعادة إستلام دوفيللي من المهدويين – رسالة عمر صالح إلى الخليفة – الأخير يحول الرسالة إلى عثمان دقنة لتوصيلها للجنرال قرنفل في سواكن – الوضع في الاستوائية في نهاية عام ١٨٨٨".

•••

الحدود، عام ١٨٨٨:

لم يحدث شئ جديد في سرس. ففي الرابع من ينار تم سحب آخر فصيلة من القوات البريطانية (فصيل واحد من فوج ويلز) من أسوان وأوكلت حماية الحدود للجيش المصري.وفي السادس من يناير بعث الأمير ود البصير إلى دنقلا للضغط علي النجومي للأمر إما بالهجوم أو بالانسحاب، إذ أن الاحتفاظ بقوة ضخمة كهذه في سرس كان يتحول يومياً من وضع صعب إلى وضع أصعب. فالطعام صار نادراً وانتشر المرض وسط المقاتلين. وقد عاد الأمير مساعد، الذي كان قد تقدم حتى فركة، مع إمدادات لها، فجأة إلى دنقلا، كحاكم للمديرية، وذلك في أوائل فبراير، بينما كانت قيادة كل القوات تحت إمرة النجومي.

وقد وصلت إمدادات مساعد، المكونة من ٥٠٠ رجل، إلى سرس يوم ٢٠ فبراير. أثناء ذلك تمكن بحر كرار، رغم أنه فشل في مهمته لأستنفار البشاريين، من احتلال آبار حيمور وأونجات في الصحراء الشرقية، وكلاهما كان قد إحتلهما بقوة مقاتلة كان يهدف من بعدها إلى شن الغارات على النهر بين أسوان وكروسكو. وقد كان سلوك بشير بك، الذي كان مسئولاً (لدى الحكومة) عن سلامة هذا القسم من الصحراء، مصدراً للتساؤل بالطبع. لكنه دافع عن نفسه بأنه لم يتمكن من الدفاع عن الآبار أمام مثل تلك القوات المتفوقة. أما بحر فلم يضع الوقت لإثبات موقع نفوذه الجديد، بل سارع في الخامس والعشرين من فبراير بإرسال الأمير حسين أبو حمد لمهاجمة قرية كلابشة، التي تبعد بخمسين ميلاً إلى الجنوب من أسوان وبمائة ميل من أونجات. انقض العرب علي القرية في الرابعة صباحاً واندفعوا نحو نقطة البوليس حيث تم، بعد مقاومة طفيفة، تشتيت القوة الصغيرة التي كانت بها، وبعد جرح أربعة من رجالها وأسر الضابط المسئول عنها. وقد حاولت زوجة الضابط الوقوف بشجاعة أمام الهجوم وقاومته لكنها جرحت وتوفيت بعد ساعات من ذلك. وفي صباح اليوم التالي وصلت من أسوان فصيلة من القوات بقيادة الكابتن بيسانت وطاردت العدو لبعض الطريق. لكن العدو، الذي كان ممتطيا للهجن، أفلح في الفرار.

ومن الجدير بالذكر في هذه المناسبة أن نشير لحقيقة (أن العدو) لم يمس أحداً من القرويين بسوء. بل حتى أنهم لم يظهروا أي اهتمام بوجود القوات التي أرسلت خصيصاً لحمايتهم وكانوا لا مبالين تجاهها. وأتضح الآن أن الأهالي لم يتمكنوا، ولم يريدوا، القيام بأي شئ لمساعدة أنفسهم، وبالتالي أصبح ضرورياً أقامة نقاط حصينة، بكل منها ١٠٠ رجل، في المناطق المهددة المختلفة، بينما تقوم البواخر بمدفعيتها وفصائل الهجانة بدوريات نشطة على النهر والضفاف. لكن تلك الخطوات لم تكن أيضاً بالكافية لمنع جماعات العرب المغيرين من التسلل خلال الليل وقيامهم بقطع خطوط التلغراف ثم ينسحبون للصحراء أثناء النهار. وقد تأكد بأن أولئك العرب قد إحتلوا آبار القلب، علي بعد بضعة ساعات من النهر، وعلي طريق حيمور. فقد جاءت جماعة منهم إلى العلاقي في الثامن والعشرين من الشهر وهاجموا بعض السفن الشراعية الرأسية ونهبوا الذرة التي كانت محملة بها. وفي الثاني عشر من مارس جاءت مجموعة أخري مكونة من ١٥٠ رجلاً، على ظهر الهجن، وإنقضت على قرية جرشة، التي تبعد بستة أميال شمالي جبل حياتا، ودمرت ميلاً من خطوط التلغراف وأساءت معاملة السكان، لكنهم تراجعوا عندما ظهر أمام ناظريهم طوف الدوريات

الراكبة. سببت أستمرارية هذه الغارات، والرعب الذي أحدثته، إزعاجاً (للسلطات). وقد تم حتى الآن إنشاء نقاط حصينة بكل منها ١٠٠ رجل من المشاة وذلك في صبوة والسيالة والعلاقي وجبل حياتا وميرية وأبو حور وكلابشة، بينما صدرت الأوامر لبشير بك ليشرع علي الفور في تنظيم قوة من غير النظاميين للسيطرة علي آبار الصحراء. وعندما كتب السردار تقريره عن حالة الأوضاع العامة، ذكر بأن الوضع الراهن للقوات المصرية لم يكن كافياً للسيطرة على حلفا وكروسكو وأسوان، بالإضافة للمنطقة بين حلفا وأسوان، التي يبلغ طولها ٢٢٠ ميلاً، ولعدم قدرتها علىى منع الغارات عليها وحماية خطوط التلغراف.

وحتى الآن إنحصرت تلك الغارات علي مناطق شمال كروسكو. لكن الوضع الحالي فأن قوات الأعداء العرب لم تسيطر فقط علي حيمور وأونجات وجلب، بل أن آبار المرات سقطت مرة أخرى في يدهم. وفي الثالث والعشرين من مارس هبطوا علي قرية فريق، شمالي حلفا بخمسة وثلاثين ميلا، ونهبوها وقتلوا من سكانها إثني عشر شخصاً وجرحوا ثلاثين.

ويبدو أن هذه الغارة الخطيرة قد حدثت علي النحو التالي:

فقبل شروق شمس ذلك اليوم، قامت جماعة من ١٠٠ من راكبي الهجن، والمسلحين بالسيوف والحراب وبالبنادق السودانية طويلة الماسورة، بالنزول على النهر، حوالي ميل جنوب فريق، وتزودوا بالمياه وتواروا في الحال في الجبال. وبدون أن يرتاحوا إنحدروا نحو فريق بعد أن أطلقوا دفعة واحدة من القذائف ثم هاجموا القرية من كافة الاتجاهات وقتلوا وجرحوا كل من استطاعوا القبض عليه بمن فيهم زعيمي القرية. ثم توجهوا لنهب الماشية ولسلب النساء حليهن وتدمير التلغراف. ومكثوا بالقرية لحوالى خمسة ساعات ثم إنصرفوا نحو الجبال ومعهم حوالي أربعين رأساً من الماشية.

تم إنشاء محطات حصينة في فريق وتوشكي وإبريم. إثناء ذلك قام شقيق بشير بك, على مصطفي، بقوة من ٥٠٠ من العبابدة بمغادرة دراو، في الثاني والعشرين من الشهر، لاحتلال آبار الأبرق، حيث منها يمكنه بدء العمليات ضد العرب في حيمور وأونجات، بينما عسكرت الكتيبة المصرية في دراو.

وفي الثامن والعشرين من مارس بارح النجومي دنقلا متوجهاً لأم درمان، للتباحث دون شك في الخطط القادمة لغزو مصر.

وإستمرت الغارات على كل حال. وفي الخامس من أبريل تم نهب قرية إرمنا، ٥٠ ميل شمال حلفا، وأسر ثلاثة من سكانها. وقد شغل ذلك الوضع الخطير، وتلك الحالة من عدم إستقرار المنطقة، بال الحكومة وخاصة في الأراضي التي بين أسوان وحلفا. وتقرر، لتمكين السلطات العسكرية المسئولة عن حماية هذا الخط الطويل للحدود، وإعطائهم المزيد من الصلاحيات والدعم, أن يتم فصل المنطقة جنوبي أسوان من مديرية إسنا، حيث كانت تكون جزءاً دائماً منها، وإنشاء مديرية جديدة تسمي بمديرية الحدود، ولتتولى إدارة كل الشئون المدينة والعسكرية بها وأوكلت إدارتها للضابط القائد للقوات بها. طبقاً لذلك فقد تم تعيين الكولونيل وود هاوس، قائد قوات الحدود آنذاك، رسمياً كحاكم للمديرية الجديدة وذلك في السادس عشر من أبريل وتم سحب قوات البوليس

المدنية من مختلف النقاط وحل محلها البوليس الحربي. وتم تحذير الأهالي هناك بأنهم أصبحوا الآن خاضعين للحكم العرفي وبالتالي فان إكتشاف أي محاولة للاتصال بالعدو من جانب أي من الأهالي ستتم معاقبته بأقصى العقوبات.

وسرعان ما حدث ما يبرر ذلك. فقد قدم منشتا بك، وهو أحد العبابدة المدعومين، لمحكمة عسكرية في أسوان بتهمه التخابر مع العدو. حكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص ولكن سمو الخديوي خفض الحكم إلى الأشغال الشاقة مع السجن. وسرعان ما أتضح أثر ذلك الحكم فقد بدا الأهالي شيئاً فشيئاً يغيرون ما بأنفسهم وتواترت صور التعبير عن ولائهم من قبلهم. تم توزيع السلاح عليهم لحماية قراهم، وساد كل مكان شعور بالأمن والطمأنينة.ونجحت حملة بشير بك في تطهير مناطق الآبار الصحراوية من المغيرين بالقرب من نهر النيل، وفي أوائل يونيه قام باحتلال حيمور بمائتين وخمسين رجلاً.*

أما في سرس فقد أخذت أعداد قوات العدو في التناقص بدرجة ملحوظة، ويعزى ذلك جزئياً لفرار أعداد منهم بسبب ندرة الطعام، ومن الجانب الآخر لذهاب النجومى لأم درمان وعدم ورود أي أمر للقوات بالتقدم.

وشرعت الحكومة في إصدار نشرات موجهة للبشاريين تم فيها العفو عن أي أعمال قاموا بها في السابق وحثتهم على الولاء التام وليقوموا بخطوات إيجابية ضد دخول المهدويين لمناطقهم. سادت بعد ذلك فترة من الهدوء على الحدود. ولكن في الخامس عشر من يوليه وصلت أخبار عن النجومي تفيد باستئناف العمليات ضد مواقع الحدود. وفي الثامن عشر من الشهر وصلت إلى سرس قوة كبيرة من راكبي الجمال قادمة من الجنوب ومعها تعليمات بمهاجمة قرى شمال أسوان. وتلقت قوات سرس هذه الأنباء بالتهليل والتكبير، فقد طالما تطلعوا للسماح لهم بالغزو للنهب، وكان لندرة الطعام أثر في مضاعفة حماسهم للتقدم.

وفي التاسع عشر من الشهر غادرت جماعة من ٥٠٠ فارس وهجان سرس سراً، تحت قيادة الأميرين مكين النور وبلال وإتخذوا موقعاً بالجبال المشرفة على دبروسة* ومنها أرسلوا بعضاً من رجالهم للنهب. وبالرغم من ورود تحذير بهجوم محتمل، إلا أن الأهالي فوجئوا تماماً بوصول العرب، والذين أشعلوا النيران في المنازل وقتلوا حوالي خمسين رجلاً وإمرأة وطفل وجرحوا خمسة وثلاثين آخرين. فر الأهالي المذعورون إلى مراكبهم – وكان هناك حوالي عشرين منها – ولكن حدث أثناء الفوضى التي نجمت أن إنقلبت ثلاثة منها – وغرق ١٣٧ شخصاً ممن ركبوا فيها. أما الباقون فقد أفلحوا في اللجوء إلى الجزيرة المقابلة. وصلت الأنباء إلى حلفا وشرعت القوات الراكبة في التحرك بأتجاههم، لكن العدو نجح في الوصول للجبال وتراجع تحت نيران حامية جرح أثناءها الأمير الهام بلال والذي توفي بعد ذلك بقليل من جرائها.

---

* بعد ذلك بوقت قصير قام الكابتن بوشامب بزيارة لتلك الآبار مصطحباً معه طوفاً من الهجانة المصريين.

* دبروسة هي مكان تسوق أهالي حلفا وهي تقع شمال الخطوط بحوالي ميل واحد. كان يقطنها أساساً التجار المصريون والأغاريق وكانت تمد حامية حلفا بإحتياجاتها.

تكاد هذه الحادثة الخطيرة أن تكون قد جرت على أبواب حلفا. وبالرغم مــن الــدوريات والأطواف المتصلة النشطة إلا أن العرب قد أفلحوا في تحقيق المفاجأة التامة ووصلوا على بعد ميل واحد من دبروسة قبل أن يكون هناك أي إحساس أو شعور بوجودهم في الجوار.

ويبدو أنهم قاموا بالتفافة واسعة في الصحراء، وتجنبوا بذلك إكتشاف الدوريات لهم، ثم توغلوا بداخل واد عميق ينتهي بالقرب من القرية وبالتالي وصلوا للموقع بدون أن يحس بهم أحد. وقد أتضح فيما بعد بأن الذي قادهم للموقع (عبر ذلك الطريق المجهول) هو المدعو حسن الجزار، وهو رجل كان قد فر من قبل من دبروسة وعمل مع العرب وأصبح أميراً. وفي كثير من الغــارات التي تلت ذلك، والقادمة من سرس، كان ذلك الرجل ومعه فار آخر يسمى أبا يزيد، الذي كان موظفاً سابقاً في سكك حديد حلفا، هما الذان يقودان العدو في كل غاراته تلك. وبعد معركة توشكي عــام ١٨٨٩، تم إلقاء القبض على أبا يزيد ورميه بالرصاص بحضور أهالي دبروسة الذين خانهم.

وإتضح الآن أن فترة من المناشط الحربية على وشك أن تبدأ. وتواترت الإشاعات عــن توقع حدوث محاولات لقطع خطوط الاتصالات بشمال حلفا على نطاق واسع. لكن المخطط الموثوق بصحته هو أن (الأمير) عبد الحليم كان قد أنتوي تقسيم قواته لثلاثة أقسام. القسم الأول منها كان عليه القيام باحتلال دبيرة (علي بعد عشرة أميال شمالي حلفا، بالضفة الشرقية)، والثاني عليه أن يقيم متحصناً بين دبروسة وحلفا، أما الثالث فكان عليه الهجوم على أرقين (التي تبعد تسعة أميال شمال حلفا، على الضفة الغربية). ولكن لم يتوصل الأمراء إلى خطة حاسمة للعمل ممــا إضــطر عثمان أزرق للرجوع ثانية لدنقلا ليحث مساعد على إعطاء أوامر محددة واضحة.

وأثناء ذلك لم تركن قوات العرب بسرس للهدوء. وفي ليلة ٢٩ أغسطس نفذت هجومــاً جريئاً للغاية علي طابية خور موسى الخارجية، والتي كانت تحميها سريتان من الكتيبة المصــرية السابعة وفصيل من قوات الهجانة.

ولكي نفهم تفاصيل ذلك الحدث (الخطير) فمن المهم أن يتم تقديم وصــف بســيط لتلــك الطابية. فقد كانت مكونة من منزل بلدي على الشاطئ، على بعد ياردات قليلة من أعلى مســتوى للمياه بالنهر، والذي تم تحويله إلى حصن، بينما كان السور الشمالي يفصله عن حظيرة مســيجة واسعة محاطة بحوائط طينية وحول الجانب الشرقي والجنوبي أقيمت زريبة من الشــوك والســلك الشائك لحمايتها، وقد بنيت غرف الثكنات بطول الواجهة الشــرقية للحصــن وبطــول الحظيــرة المسيجة، وقد وضعت سلالم علي مسافات من بعضها البعض لتمكن الجنود من الصعود للأعلــى حيث يمكنهم إطلاق نيرانهم.

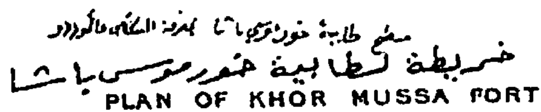
وإلى الشمال توجد حظيرة مسيجة للقوات الراكبة. واجهات الطابية كانت متعامــدة مــع ضفة النهر ويستمر ذلك حتى حد المياه. وفي المخطط التالي نجد مواقع مختلف البوابات.

كان قد تم القبض على أربعة من راكبي الهجن بالقرب من حلفا وذلك في منتصف نهــار يوم ٨/٢٩ وعند الغروب شوهد أحد فرسان العدو، بواسطة أطواف الدوريات، وهو على الجبــال إلى الشرق من دبروسة. أثارت تلك الوقائع الاشتباه في قلب الكولونيل وود هاوس، قائد القــوات، وأصدر تعليمات بأن على الباخرة المسلحة (المتمة) أن تظل محركاتها دائرة طوال الليل كما أمــر بأن يكون القطار المدرع، وعليه فصيلة من قواته، جاهزاً للتحرك فور إبلاغه بذلك.

أثناء ذلك وصل بالقرب من الطابية مجموعة من ٥٠٠ من العرب، بقيادة الأمير عبد الحافظ، ودليلهم هو إبن أخ الشيخ كوكي* متلفحين بظلام الليل. إنفصلت عنهم جماعة صغيرة وزحفت في صمت أسفل ضفة النهر بدون أن يسمعهم أو يلاحظهم أحد حتى إقتربوا من الأسوار. كان قد أقيم، على الركنين الجنوبيين للحصن، حارسان، واحد لكل ركن. ولما سمع حارس الركن الجنوبي الغربي أصواتاً بالقرب من مكانه نهض متحدياً لكنه صرع بالرصاص وفي نفس الوقت ألقيت عليه حربة. ولما سمع عريف الحراسة ضجة قريبة وصيحة عالية من الخارج، أسرع بفتح البوابة الغربية المطلة على النهر لكنه صرع أيضاً بالرصاص.

* كان ذلك الرجل يعيش بالقرب من خور موسي باشا وكان يبيع اللبن للحامية. وقد فر قبل ثلاثة أسابيع (إلى العدو) بصحبة موظف السكة الحديد أبا يزيد.

To face page 350



- Egyptian Troops
- Dervishes
- Showing Entry of Dervishes

A S W = Armed Sternwheeler

RIVER

نهر النيل

NILE

CAMEL CORPS

Officers' Tents

Barrack

Camel Battery

بطارية الجمال

To Railway 300 yds.

To Blockhouse 310 yds

To Railway Bridge 1440 yds

To Fort on Khor Island 650 yds.

Distance varied from 3 to 400 yds

H.M.S. A.S.W. Metemmeh

Course taken by A.S.W. Metemmeh

Dervish line of advance

A. Portion of Fort seized by Dervishes and subsequently retaken by 13th Sudanese.

B. Gate by which the dervishes effected their entrance and through which the 13th Sudanese subsequently charged.

SCALE

Yards

تدفق العرب من خلال البوابة وقتلوا كل من كان بالحراسة**. نهضت حاميـة الطابيـة الجنوبية فزعة، وإلتفتت لتجد أن الجزء الجنوبي من الطابية يعج بالأعداء واضطروا لشق طريقهم بالسلاح إلى القسم الشمالي. ومن ذلك المكان، ولمدة ساعتين قاموا بمقاومـة عنيـدة ويطلقـون النيران من كافة المناطق وقاموا بخرق سطوح الثكنات الجنوبية واتخذوا منهـا مواقـع لإطـلاق النيران، لكن نيرانهم كانت محدودة ولم تلحق خسائر تذكر بالعدو الذي كان محمياً بالجدران. وحتى تلك اللحظة كان يقوم بالدفاع، بشجاعة فائقة، الصاغ عبد الغني فؤاد والذي، وعند تلقيه لأول إنذار سارع بالاتصال بحلفا تلفونياً. وصلت تلك الأنباء للكولونيل وود هاوس في الحادية عشرة والنصف مساءاً، وبعدها مباشرة قطع السلك بينما سمع صوت إطلاق نار كثيف قادماً من ناحية خور موسي. تحرك القطار المدرع على الفور وعلى ظهره فصيل من خمسين جندياً، لكنه سار ببطء، خشية من أن يكون هناك عبث بالخطـوط. وقد سار مع القطار، كحراسة له، فصـيل مـن الخيالـة. تلقـت السفينة الحربية (المتمة)، بقيـادة الملازم موردو الأمر بالإبحار نحو الطابية ووصلتها في الواحدة والنصف صباحاً وعندما علم قائدهـا بالوضع فتح النار على القسم الذي إحتله العدو من الطابية. وفي الثانية وخمسة وأربعين دقيقه صباحاً وصل إلى حلفا قادماً من الطابية أربعة سعاة على متن الخيول، وعندما إطلـع الكولونيل وود هاوس على التفاصيل أوفـد ١٠٠ جنـدي، مـن الكتيبـة السودانية الثالثة عشرة بقيادة الملازم ماشيل، بقطار ثان، ووصلوا إلى مسافة ٣٠٠ يـاردة مـن الطابية في نفس الوقت تقريباً الذي وصل فيه القطار الأول، والذي كان قد تأخر لعطل في الخـط، فتوقف وتم إصلاحه.

تقدم الملازم ماشيل بنفسه، مع ثلة من الجنود، نحو النهاية الشمالية للطابيـة، بعـد أن ترك قسماً من جنوده لحراسة القطار وبعد أن أرسل الخيالة باتجاه النهر. توقف علي بعد خمسين ياردة من طرف الطابية الشمالي وأمر جنوده بالانبطاح أرضاً ثم تقدم بمفرده نحو الطابية ليتحرى الوضع هناك. وبعد عشرة دقائق أرسل لإستدعاء الجنود ووضع خمسين منهم بالقرب من البوابة الشرقية وخمسين آخرين بالقرب من بوابة القسم الغربي من الحظيرة، وكان قد لاحظ أنها تركت مفتوحة، وتوقع إمكانية هروب العدو من خلالها أثناء الليل، لذا قرر القيـام بمفاجأتـه. فأرسـل للسفينة الحربية لتوقف إطلاق النار وأمر رجاله الخمسين الذين بالجانب الشرقي لتنظيم أنفسـهم والبقاء في صمت أسفل الجدران الجنوبية والشرقية وشدد عليهم لمنع أي رجل مـن العـدو مـن الفرار. ثم قام هو, مع الخمسين جندياً الباقين، بالزحف متسللين حول السور الخارجي حتى وصلوا للبوابة. وهنا قام القسم الأمـامي من الجنود، بعد أن شكل نفسه بسـرعة، بـإطلاق دفعـة مـن الرصاص وسط تجمع العدو بداخل الطابية. فوجئ العرب بدورهم بالهجوم وحاولوا الفرار بتسـلق الجـدران ولكن واجهتهم أسنة السناكي من الجنود الآخرين، والذين كانوا في إنتظـارهم أسـفل الجدار الخارجي.

** ما جري لهذا العريف التعس أمر غير قابل للتفسير. فقد استيقظ فجأة من سباته، وربما كان ذاهلاً، أو نعساً، عنـدما سمع الضجة. لم يكن متوقعاً لأي خطر، لذا قام بفتح البوابة ليري بنفسه سبب الضجيج. ولو كانت البوابة مقفلة فربما كان من غير الممكن للعرب الدخول بتلك السهولة.

ثم إندفع الملازم ماشيل برجاله من خلال البوابة وشكلوا صفاً مرتجلاً وواجهوا العـرب بثبات. كان العرب في حالة من الحيرة والإرتباك أثناء محاولتهم الفرار. ولمـا كـان إنسـحابهم مستحيلاً عن طريق البوابة فقد قاتلوا بطاقات اليائسين الجبارة وكانوا يلقون بأنفسهم، حرفياً، علي أسنة السناكي. ولم يمض سوى وقت قصير إلا وكان جميع الذين بداخل الحظيرة موتى أو جرحـى وعادت الطابية مرة أخري لأيدي المصريين ولكن بعد خسارتهم الجسيمة لتسعة عشرة من القتلى وأربعة وثلاثين من الجرحى، كان من بينهم ثلاثة ضباط. لكن خسائر العدو كانت بالغة حقاً. فقد تم إحصاء خمسة وثمانين جثة للقتلى، معظمهم من الجعليين والبقارة، داخل وحول الطابيـة، بينمـا سقط كثيرون غيرهم أثناء الإنسحاب. جرح أميرهم عبد الحافظ جراحاً بالغة بينما قتل نائبه حسـن الطالب وتم الاستيلاء على ١٥٣ حربه و٣١ بندقية وعدد من الأسلحة الأخرى.

ثبطـت هـذه النكسة القاسيـة مـن عزيمة العرب، بينما أعادت الثقـة إلـى أهـالي المناطق النهرية.

لم يعد النجومي بعد من أم درمان. ويقال أنه قبل أن ينفض مجلس الأمراء قام الخليفـة بتوبيخه قائلاً:" إستطاع عثمان جانو إحتلال شكا، وأبو قرجة يقوم بأعمال عظيمة فـي سـواكن، وحمدان أبو عنجة قد هزم الأحباش، أما أنت فلك في دنقلا سنتين لم تفعل فيهما شيئاً. قم وإسـتلم حلفا ولا ترجع إلينا قبل أن تقوم بذلك".

ويقال أن النجومي إحتج بقوله أن حلفا منيعة غير سهل اقتحامهـا. لكنـه قـال بأنـه سيستلمها. وبعد ذلك بقليل بارح أم درمان ووصل إلى دنقلا في الخامس عشر من سبتمبر وشرع على الفور في جمع القوات والتجنيد. كان الخليفة قد وعده بمده بإمدادات ضخمة، وكانت بالفعـل في طريقها لدنقلا عندما تم إعادتها وأرسلت للقلابات لدعم الحملة ضد الأحباش. وعاد الهدوء مرة أخرى إلى الحدود وقلصت قوات سرس بسحب معظم البقارة منها وتحويلهم لمناطق القتال الأخرى بالسودان، وبدأ اللاجئون من الأقاليم الشمالية في العودة لمناطق الحدود.

***

سواكن والسودان الشرقي، في ١٨٨٨:

في أوائل يناير ١٨٨٨، شرع عثمان دقنة، بعد أن جمع من تشتت من قواته في هندوب، في تجهيز حملة ثاية لإجبار الأمرأر على الطاعة. كان أحمد محمـود لا زال فـي ضـواحي دارا بقواته. وكان كثير من أتباعه، المنتشين بما أحرزوه مؤخراً من نصر، قد عادوا لديارهم. أما مـن تبقي منهم فقد بدأوا يفقدون الثقة في أنفسهم وهبطت شجاعتهم عندما دخلهـم الخـوف مـن أن عثمان يعمل علي تجهيز حملة أخرى (ضدهم).

وفي الثالث عشر من يناير غادرت هندوب حملة قوية متجهة لقتال الأمرأر. وبعد بضـع مناوشات إلتقوا بالجيش الرئيسي للأمرأر في دارا يوم ١٧ من الشهر. قام الأمرأر بالمقاومة بقلوب واهية وعزيمة متضعضعة ثم إنسحبوا تاركين وراءهم سبعمائة من القتلى بمن فيهم محمد شـيخ، شقيق أحمد محمود، وأحد أكثر قادتهم نشاطاً وحيوية.

وفي تلك الأثناء، وبعد أن بلغت الكولونيل كتشنر أنباء مغادرة الحملة لهندوب، إختمرت في ذهنه فكرة القيام بهجوم قوي مفاجئ على هندوب والذي، إن نجح، فربما يقوده إلى أسر عثمان دقنة وربما القضاء على المهدية في ذلك الجزء من البلاد. وبعد أن أبرق القاهرة تلغرافياً بذلك، حصل على الإذن بتنفيذ ما أراد بالاستعانة بالقبائل الصديقة وقوات الشرطة والقوات غير النظامية مع دعمهم بالقوات الراكبة، قليلة العدد، التي كانت تحت تصرفه.*

غادر سواكن في الواحدة من صباح يوم ١٧ يناير بقوة من ٥٠٠ رجل ومضى على طول طريق السكة حديد القديم متجهاً لهندوب. وفي الرابعة صباحاً توقف انتظارا للفجر. ونتيجة لخطأ الأدلاء، ساد الاعتقاد بأنهم على بعد ميل واحد من معسكر المتردين.. ولكن، وبسبب الظلام الشديد، فقد أخطأوا الحساب وبالتالي إكتشفوا بأنهم لازالوا على بعد ثلاثة أميال منه. وفي الرابعة وخمسة وأربعين دقيقة صباحاً قام المشاة، المكونين من الأمرأر، والباشبوزوق، والبوليس، والمولدين، وبعض القوات السودانية، بالتقدم مسرعين نحو هندوب. كان السودانيون في معظمهم من الذين هجروا العدو قريباً، وكانوا من قبل من ضمن حامية كسلا. وقد أخذوهم معهم في هذه الحملة لمعرفتهم بالمحال هنا وبمعسكر الثوار، وقد تم بالتالي الإتفاق مسبقاً بأن على هذه المجموعة أن تندفع مباشرة نحو عثمان دقنة وتحاول أسره.

أما القوات الراكبة فقد توقفت في أول نقطة انتظار، وذلك لدعم عمليات المجموعة الأمامية المتقدمة عند الضرورة.

كان معسكر الثوار يقع بين سلسلة من الجبال يساراً، وتل منعزل صغير على يمين الطريق، ويشتمل على زريبة متينة البنيان تقع القرية من ورائها. وكانت أنحاء المنطقة المجاورة مغطاة بغابة من الشجيرات الكثيفة والمتفرقة.

وعند إنبلاج الفجر خرجت القوات التي يقودها محمد أحمد، قائد البوليس، من بين شجيرات الغابة وإنقضت على العرب المتجمعين للصلاة خارج الزريبة.

وقد فوجئ العرب تماماً بالهجوم وفروا تاركين أسلحتهم وذخيرتهم بينما شرعت القوات غير النظامية في مطاردتهم. أما القوات السودانية فهرعت نحو مكان بالقرية كانوا يعتقدون بوجود عثمان دقنة فيه. شوهد عثمان قبل عدة دقائق بعيداً عنهم مسرعاً نحو حصانه المقيد، على بعد بضع ياردات منه. أخذ الحصان غنيمة لكن عثمان المراوغ كان بقدر التحدي وأسرع بامتطاء جمل كان ماراً وفر به إلى التلال، عندما أوشك أن يقع في قبضة من يريد أسره. بدأ أن النصر كان مكتملاً وقامت كل القوات، التي إعتقدت بخلو القرية من الأعداء، بالتفرق إلى جماعات صغيرة شرعت في مطاردة الفارين من العدو المتراجع. لكن كثيراً من الأكواخ كانت لازالت مشغولة بالثوار وقام من تبقي منهم، بعد ذلك التشتت، بالتجمع من جديد. وبقيادة رجالهم الراكبين إلتفوا حول التل المعزول ودخلوا معسكرهم من وراء مطارديهم وتحصلوا على أسلحتهم وذخائرهم وتحولوا إلى مطاردة مهاجميهم. وقد فوجئ غير النظاميين بدورهم الآن، ووجدوا أنفسهم مقطوعين ومعزولين عن باقي القوات.

---

* صحب الكولونيل كتشنر الملازم برنسب والكابتن هكمان، قائد الخيالة والثاني في القيادة، والملازم موردو، قائد فصيل الهجانة، والسيرجن والسيرجن ميجر جالبريث.

في تلك اللحظة، شاهدت القوات الراكبة أول وميض للنيران من هندوب، عندما كانوا يتقدمون ببطء، للدعم وقام الكولونيل كتشنر على الفور بتحريكهم مهرولين حتى وصلوا لمسافة نصف ميل من هندوب حيث قام القمندان بإبلاغه بالوضع الحرج للقوات الأمامية المتقدمة. كانت أحدى جماعاته من الخيالة قد اشتبكت بالفعل مع خيالة العدو. فقام كتشنر بالتالي بدفع من تبقي من الجنود إلى مسافة ٥٠٠ ياردة من الثوار. وبعد أن ترجلوا من خيولهم فتحوا نيراناً حامية أجبرت الثوار. على اتخاذ ساتر لهم في القرية وفي ذلك الوقت قام السودانيون، بعد محاولتهم الفاشلة للقبض علي عثمان، بالتجمع علي هضبة صغيرة مدورة، كانت القوات غير النظامية مشتتة علي الجبال من خلفها بينما كانت جماعات العرب الصديقة قد تراجعت للغابة. وعندما تبين له الوضع، أمر الكولونيل كتشنر نافخ البوق لينادي (بالتجمع) فقد كان غرضه تجديد الهجوم على الموقع والذي أعاد العدو احتلاله الآن بقوة كبيرة. وأطاع الجنود السودانيون النداء في الحال وإنضموا إليه ثم تقدمت كل القوات لمسافة ١٥٠ ياردة من الموقع ودار بين الطرفين تراشق عنيف بالنيران. لوحظ أن الجناح الأيمن لقوة الهجوم مهدد من العدو الكامن بالغابة وتم إرسال أكبر عدد من الرجال يميناً لمنع أي حركة إلتفافية. ولكن سرعان ما لوحظ بأن مابدا لهم بأنه قوة كبيرة من العدو لم يكن في حقيقة الأمر سوى عدد من المساجين الذين هربوا، ومعهم بعض الفارين، والذين كانوا يحاولون شق طريقهم باتجاه سواكن. وبذل الكولونيل كتشنر كل ما أمكن من جهد لتغطية إنسحاب الأخيرين وبقيامه بصب نيران حامية على العدو تمكن من تسهيل إنسحاب ١٥٠ رجلاً منهم وإسراعهم بالفرار. وفي تلك اللحظة أصيب الكولونيل كتشنر برصاصة سببت له جرحاً بالغاً في وجهه تسبب في إعاقته (عن أداء عمله). وكان قد أيقن بأن ما قام به غير النظاميين والقبائل الصديقة في مبدأ القتال هو الذي أضاع عليهم أي فرصة لاحتلال المعسكر. ولما تأكد من فرار السجناء ونجاتهم أعتبر أن أي هجوم آخر سيكون عديم الفائدة. ومن ثم صدرت الأوامر بالانسحاب، والذي نفذه بجدارة الكابتن هكمان، والذي تولى الآن قيادة القوات. ولتغطية انسحاب الجرحى والسجناء لم يشرع في تنفيذ الانسحاب العام إلا بعد أن أبتعدوا لأكثر من ثلاثة أميال باتجاه سواكن وبعد ذلك شرع في الانسحاب المنظم البطئ للقوات والتي كانت تتبادل أدوارها في الانسحاب ثم التغطية قسماً قسماً. أثناء ذلك كان العدو يتابعهم عن قرب بأعداد كبيرة. جرح أيضاً الملازم ميردو في ركبته، لكنه واصل الانسحاب برجاله حتى وصل آخر فوج للمؤخرة إلى سواكن في الساعة الحادية عشرة قبل الظهر.

كانت خسائر العمليات عشرة من القتلى و ٢٢ جريحاً بينهم ثلاثة ضباط مع فقد ستة رجال (لم يعرف مصيرهم). وقدرت خسائر العدو، من إفادات المساجين وغيرهم، بأنهم فقدوا مالا يقل عن ٣٠٠ رجل.

وبعد يومين غادر الكولونيل كتشنر إلى القاهرة وكان لازال معاقاً. أما الحملة التي أرسلها عثمان دقنة للشمال فقد عادت بعد بضعة أيام لهندوب، وبعدها أرسل عثمان حملة أخرى إلى الغرب ضد قبائل الهدندوة. لكنها عادت في فبراير بدون أن تواجه أي أحد.

كروكى للحملة (الحكومية) ضد هندوب

SKETCH OF ACTION AGAINST HANDUB

17·1·88

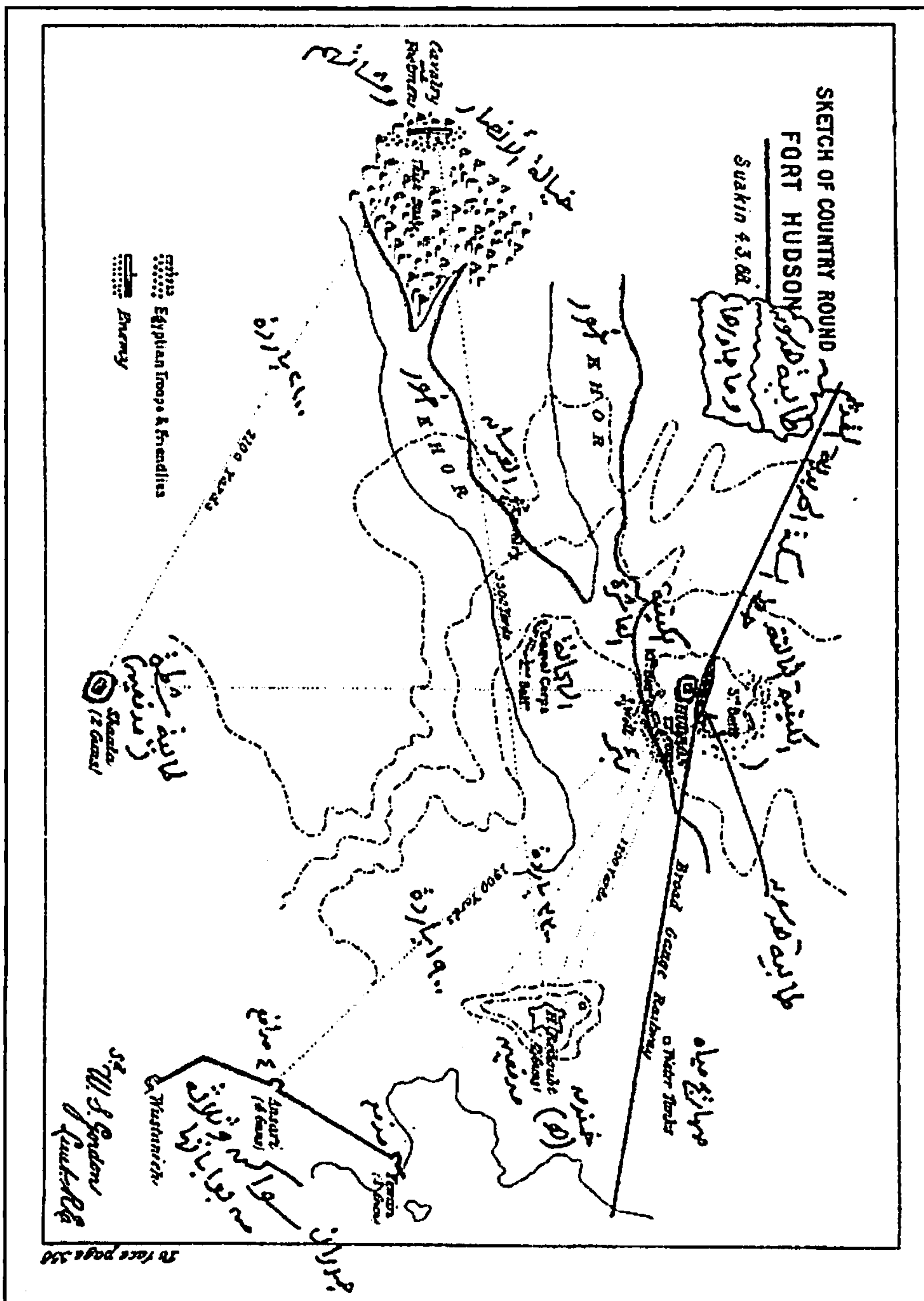
١٨٨٨/١/١٧

تشجع العرب من جراء نجاحهم الأخير وبدأوا في إظهار المزيد من نشاطاتهم وتحركاتهم حول سواكن. وفي ليلة الثالث من مارس تمكنوا من ترسيخ وجودهم في موقع طابية هدسون القديم، الذي يبعد ١٩٠٠ ياردة من أبواب سواكن. ومن هنا حافظوا على إطلاق نيران متصلة، خلال الليل، على المواقع المتقدمة لخندق طابية (هـ)، والتي تبعد بألف وثلاثمائة ياردة، وعلى المدينة. تم قصف مواقعهم بالمدافع من طوابى شطة و (هـ)، ولكن نظراً لطبيعة وأسلوب إنشاء خنادقهم لم يكن القصف فعالاً. وفي صباح اليوم التالي قام الميجر شكسبير، الذي تولى مسئولية القيادة بعد مغادرة الكولونيل كتشنر لسواكن، بمحاولة لطرد العدو. وقام بتشكيل حملة من فصيل من المتيبة المصرية الثانية، وفصيل من الكتيبة الثالثة، والقوات الراكبة، وبلغ مجموعهم ٤٥٠ رجلاً. اشتبكوا مع فريق من خيالة العدو ومشاته وأفلحوا في تثبيتهم في مكانهم أثناء تطور هجوم المشاة. وعند إقترابهم من الثوار بمسافة ١٥٠ ياردة قام المشاة بفتح نيران ثقيلة على الموقع والذي رد عليهم بالمثل أيضاً. كان الضرب المتبادل عنيفا وفشلت محاولة لاقتحام الموقع. وبعد ساعتين من ذلك تم استدعاء الاحتياطي المكون من فصيل صغير من الكتيبة السودانية العاشرة وبعض عرب الأمرأر الموالين. قام الأمرأر بالزحف نحو الجانب الأيمن بينما قامت الفصيلة السودانية باعتلاء الهضبة المقابلة تماماً لموقع العدو وفتحوا عليه نيراناً ثقيلة. ثم شوهد الآن فريق قوي من رجال العدو متقدماً ومقترباً من الجناح الأيمن، من اتجاه هندوب، لدعم زملائهم المتحصنين. وفي تلك اللحظة حدث حادث مؤسف. فقد جاءت قذيفة، من أحدى السفن الحربية بالميناء، موجهة نحو إمدادات العدو المقتربة، وسقطت وسط الأمرأر الموالين والذين أصابهم الهلع وتراجعوا مندفعين نحو القوات بذعر شديد.

وكان الكابتن تاب، قائد الجناح الأيمن، قد دفع بجماعة من الجنود لمواجهة الحركة القادمة من هندوب. لكن القوات، والتي تضعضعت معنوياتها عند فرار الأمرأر الموالين، اعتبرت أن التحركات على الجناح كانت إشارة بأن أمراً بالانسحاب قد صدر، وبالتالي تراجع كل الخط للوراء حيث قام العدو، بدون إضاعة الوقت، بمطاردته وحاول الهجوم عليهم لكنه صد من نيران الطابية (هـ). وعندما شاهد فرسان العدو تراجع القوات هجموا عليهم وأفلحوا في الوصول إلي الكابتن تاب (قائد الكتيبة المصرية الثالثة)، والذي كان آخر من إنسحب، وسقط من طعنة حربة قدفه بها أحد فرسان العدو، وبعد أن تمكن (الكابتن تاب) بدور من إفراغ مسدسه في صورة وسقطا سوياً. توجهت كل القوات بعد ذلك للمعتقل (هـ) بعد أن خسرت مرة أخرى سبعة قتلى وسبعة عشر جريحاً. أما الثوار فقد حافظوا على موقعهم بقية ذلك اليوم، تحت تبادل عنيف للنيران المتقاطعة. وعند حلول الظلام انسحبوا منه ولم يحاولوا الاحتفاظ به مرة أخرى.

وبعد تلك الأحداث لم يعد العدو يشاهد على مقربة من سواكن طيلة ما تبقي من الشهر.

وعندما سمع الكولونيل كتشنر، الذي لازال يعاني من جرحه، بما حدث في الرابع من مارس كر عائداً إلى سواكن علي الفور.


SKETCH OF COUNTRY ROUND
FORT HUDSON
Suakin 4.3.88.
Cavalry Retreat
KHOR
KHOR
Egyptian Troops & Friendlies
Enemy
2190 Yards
3300 Yards
1900 Yards
Broad Gauge Railway
Water Tanks
Shaata (12 Guns)
Water Fort
To face page 338

حاول عثمان دقنة، بدون طائل، الحصول علي تعاون القبائل الآن، وذلك على الرغم من هزيمتـــه، القريبة العهد، للأمرأر. ووجه اهتمامه الآن لمصالحة البقارة والجعليين والـــذين اشـــتكوا بـــأنهم أحضروا لهذه المنطقة العقيمة لغير هدف واضح، بينما كانوا قـــد أقنعـــوا مـــن قبـــل أن الأهـــالي سيستقبلونهم بأذرع مفتوحة. كان أهالي طوكر ايضاً غير راضين عن عثمان، إذ أن طلباتـــه مـــن إمدادات الذرة لإطعام قواته الكبيرة قد استنزفت مواردهم، وكان من المتوقع أن تنفذ كلها قبـــل أن ينتهي فصل الصيف.

ولجأ عثمان الآن للإقناع بدلاً عن القوة، وقام بإرسال الهدنـــدوى المعـــروف شـــيخ ود الهداب في مأمورية للشيوخ المحليين. ولكن الأخيرين لم يستمعوا إليه، بل بالعكس، عملوا علـــى إغراء شيخ الهداب بعدم الرجوع لهندوب. وبالرغم من ولائهم غلا أن عاملا جديـــداً دخـــل فـــي الحسبان: إذ أنهم حتى الآن لم يشعروا بدرجة ملموسة بلسعة المجاعة. لكنها كانت، بسبب اتصال العمليات الحربية، ظاهرة للعيان بدرجة أم بأخرى، وفي كل أنحاء البلاد.

ورغم أنهم كانوا لازالوا علي ولائهم المعلن، إلا أنهم قاموا في مارس بإخطـــار الحـــاكم العام بأن عثمان هو السيد الحقيقي لبلادهم، وبالتالي المسيطر علـــي إمكانياتهـــا وطعامهـــا، وأن الحوجة الشديدة قد تدفعهم للاستسلام له أخيراً، ورجوه أن يعرف بأنهم موالون له من قلوبهم رغم أنهم قد يجبرون، في أي لحظة، علي تقديم الدعم للثوار.

وفي نهاية مارس وصلت لهندوب، من كسلا، إمدادات بسيطة حضر بها مصطفى هـــدل، ثم أعقبه في أبريل أبو قرجة، والذي حضر بقوة كبيرة معه. أصبح العرب الآن أكثر عدداً وأقـــوي مركزاً في ضواحي سواكن عن أي وقت مضى.

بدأت إقامة التحصينات الجديدة بواسطة الكولونيل كتشنر عند قدومه لأول مرة وإكتمـــل إنشاؤها في شهـــر مايـــو ويبدو أن العدو قد تفهم بأن هجوماً مفاجئاً على المدينة ســـتكون لـــه عواقب خطيرة عليه، واكتفوا بالدوريات المتواصلة حول أطراف سواكن. حتى وصول أبو قرجـــة أصبح مثاراً للشقاق والخلاف. فقد كـــان أبو قرجـــة من أبكار المهدية ومن أوائل الـــذين دعمـــوا محمد أحمد وكان يحظى دائماً بمكانة عظيمة. لذلك رفض الاعتراف بعثمان دقنة كرئيس له بينما، علي الجانب الأخر، أصر عثمان علي أنه صاحب السلطة العليا في شرق السودان وأنـــه الممثـــل لسلطة الخليفة فيه.

كان من رأي أبي قرجة ومن معه من البقارة والجعليين أنه من الخطل اقتحـــام ســـواكن بالقوة. أما حزب عثمان الميال للحرب والقتال فيري عكس ذلك. ترتب على ذلك الخلاف في الرأي سلسلة من الصراعات كادت أن تتحول في حالات كثيرة إلى قتال فعلي. ودارت في ذلـــك الوقـــت مراسلات تصالحية بين أبي قرجة والحاكم العام.

لم يمنع وصول قوات ضخمة غير عادية من الثوار فـــي أراضـــيهم، العـــرب المـــوالين للحكومة من مواصلة عدائهم لهم. وفي أواخر مايو بدأ الأمرأر في قطع الإتصال ما بـــين طـــوكر وهندوب وفي نفس الوقت أرسل الجميلاب والحمداب رسائل للحكومة تؤكد ولاءهم لها. وعند مـــا سمع عثمان بذلك أنشأ محطة في سراراب لتمنع أي تعدي محتمل من تلك القبائل.

تلك كانت الأحوال عندما بارح الكولونيل كتشنر المنطقة مرة أخرى معاقاً، إلى إنجلترا هذه المرة بينما تم إرسال الميجر رندل إلى سواكن ليقوم بمقام الحاكم العام أثناء غيابه.

وفي هذه الأثناء بلغت مسامع الخليفة الشكاوى من عدم شعبية عثمان وسط القبائل. وقرر الخليفة بذل كل جهد لمصالحتهم. كان من الضروري أيضاً إمداد المخازن بالذرة، والتي قاربت النفاذ، بسبب الإضطرابات المتواصلة بالمنطقة. وكان معلوماً أن عدم الأمان في الطرق هو الذي تسبب وحده في دخول إمدادات ضخمة من الطعام عن طريق موانئ البحر الأحمر. بالتالي، وحوالي أواخر يونيه، جاءت تعليمات أم درمان لعثمان دقنة ليقوم بتعليق كل المناشط الحربية ولمدة شهرين.

***

لم يطرأ شيء يذكر في بقية أنحاء القطر، فقد كان الإهتمام كله منصب على سواكن. وقد هجر كثير من الجعليين صفوفهم وعادو لمناطقهم بالنيل. وفي السابع من يوليه عاد أبو قرجة لأم درمان ولحقه بعد بضعة أيام الشيخ محمد ود موسي بك، ومرة أخرى وجد عثمان نفسه سيداً غير منازع في هندوب.

ظلت الأحوال هادئة حتى انتهاء مهلة الشهرين من وقف العدائيات. وبحلول سبتمبر كانت مخازن عثمان قد أمتلأت ووصله المزيد من الإمدادات من أم درمان بقيادة الأمير عثمان نايب*. وقد أيقن الخليفة، منذ وقت طويل، بأن عملياته ضد مصر لن تتطور للمدى الأقصى الذي يريده طالما ظل جناحه بالشرق مهدداً من سواكن.

وكان قد عقد العزم من قبل على أن الهجوم علي مصر سيبدأ بهجوم على جناح مصر الأيمن، عبر مناطق البشاريين، إلى القصير ومنها إلى قنا. ولكنه عرف أن القيام بذلك المخطط يجب أن يسبقه الاستيلاء على سواكن أولاً.

وفي الخامس عشر من الشهر عقد مجلس للتشاور في هندوب، تقرر فيه حصار سواكن. وفي ليلة السابع عشر من الشهر، وبدون أي إعلان بالعودة إلى حالة العدائيات، قامت قوة من ٥٠٠ من الجعليين والبقارة، بقيادة عثمان نايب، ومعهم جماعة صغيرة من الخيالة، بالتخندق على بعد ٩٠٠ ياردة من حصون المياه بغرض قطع إمدادات المياه من الآبار. وبعد تلك التعزيزات وصلت قوة عثمان دقنة الآن لما يقدر بأربعة إلى خمسة ألف مقاتل موزعين ما بين هندوب وهشين والخنادق الجديدة. وإستمر إطلاق النار بعد ذلك على الطوابى والمدينة ليل نهار وتكررت حالات الإصابة والخسائر البشرية والمادية. وصبيحة يوم ٢١ من الشهر قامت فصيلة من المشاة الراكبة باستكشاف لمواقع العدو ونجحت في إخراجه من مكامنه. وعندما خرجوا تعرضوا لنيران شديدة من السفن والطوابي، ولكن، ولوجود أعداد كبيرة من الحرابة والخيالة بالغابة، وظهورهم أمام القوات (المصرية)، أجبر المشاة الراكبون علي التراجع بعد أن جرح منهم ثلاثة أفراد.

---

* أسر هذا العربي أثناء حملة النيل لعامي ١٨٨٤ / ٨٥، ولكن اطلق سراحه بعد ذلك.

وفي ليلة الثاني والعشرين وضع العرب مدفعاً صغيراً على التلال القائمة بين حصون المياه وأطلقوا بضع قذائف علي المدينة. لكن نيران المدافع على خطوط سواكن أجبرتهم علي الانسحاب.

وصار الآن واضحاً أن هجوماً عارماً قد تتم محاولته في أي وقت علي سواكن. وأسرع الكولونيل هولد سمث بالإبراق تلغرافياً طالباً تعزيزه. وفي نفس الوقت قام صاحب السمو الملكي دوق أدنبرة، وهو قائد سرايا البحر الأبيض المتوسط، وبعد إدراكه لضرورة تعزيز القوة البحرية لأسطول البحر الأحمر، قام بإرسال السفينة الحربية (ريسر) بقيادة الكوماندر ماي إلى سواكن لمساعدة السفينة الحربية (جانيت) بقيادة الكوماندر برادفورد.

أثناء ذلك إذداد العدو جرأة. وفي ليلة الخامس والعشرين من الشهر تسلل قسم منهم وأحرق الزريبة المحيطة بطابية شطة، وبعد ليلتين من ذلك دفعوا خنادقهم للأمام لمسافة ٥٠٠ ياردة من الطابية وقذفوها بنيران كثيفة هي ومداخلها.

ثم بدأت عملية تقوية حامية سواكن وأرسلت القاهرة الكتيبة المصرية الرابعة. وقدم الجنرال قرنفل في تقريره عن الأوضاع أنه، وإلى أن يتوقف صعود المهدية الحالي، فأن من الضروري العمل على تجهيز قوات أكبر بسواكن. ولكي يتم تجهيزها، ولتتمكن (القوات المصرية) من تحمل مسئولياتها في حماية الحدود وحماية سواكن، فقد شدد في الضغط علي ضرورة إضافة ثلاثة كتائب أخرى من المشاة وقوات من الفرسان والمشاة الراكبة. ونظراً لأهمية الإسراع في ذلك تم على الفور التصديق علي زيادة كل كتيبة بخمسين رجل آخر، وفي نفس الوقت بدأ النظر في الزيادات الأخرى التي أقترحها الجنرال.

وإستمر العرب في نشاطهم من الاستحكامات، معتقدين بأنهم إذا ما سيطروا علي طوابي المياه فأنهم سيكونون في وضع أفضل يمكنهم من قصف المدينة. وقد أفادت التقارير بأن تعزيزات كبيرة لهم قد وصلت لاستحكاماتهم. وقرر الكولونيل هولدسمث أن يعرف عددها وتكوينها وقام باستطلاع لمواقع العدو قامت به القوات التي تحت قيادة الكابتن لويس والمكونة من جماعات من الكتيبة الثالثة، والحادية عشرة السودانية، والمشاة الراكبة، ونجحوا في الوصول إلى مسافة ٦٠٠ ياردة من خنادق طابية جميزة. وبعد أن تأكدوا من أن قوات العدو لم يطرأ عليها تغييراً يذكر تم الأمر بالانسحاب ولم يفقد المصريون سوي قتيلين وستة وعشرين من الجرحى. وكان العدو، فور مشاهدته للقوات، قد تجمع في الخنادق التي على اليمين، متوقعاً لهجوم عليه، في حين قامت مدفعية المدينة والأسطول بقصفهم قصفاً عنيفاً عانوا منه بشدة. وفي ليلة الثالث عشر من الشهر حاولوا الانتقام وأفلحوا في دفن أحد الآبار القريبة من الطابية، لكنهم تراجعوا بعد إطلاق النار عليهم.

وإستمرت هذه الحالة بدون توقف لبعض الوقت. وفي السادس عشر من أكتوبر سحبت السفينة الحربية جانيت وحلت محلها السفينة الحربية ستارلنج (الكماندر باجيت).

وصارت نيرانهم التي تطلق من الخنادق أكثر دقة في تصويبها. ومن بين تسعة من قذائف أرمسترونج التي أطلقت علي طابية شطة ليلة السادس والعشرين، أصابت وانفجرت منها

ستة قذائف وجرح الملازم غردون جرحاً طفيفاً. ولو كانت قذائفهم تلك قد ملئت بباروز جيد لكانت النتائج أكثر خطورة وأذى. ولكن بارودهم كان يكفي بالكاد لتفجير القذائف.

وفي الثاني من نوفمبر غادر الجنرال قرنفل القاهرة متوجهاً لسواكن، ومعـــه إمـــدادات مكونة من قسمين من مدفعية الخيول وستة مدافع مورتر، والتي كان من المعتقد أن اســـتخدامهم سيعمل علي تعذر الدفاع عن خنادق العدو. وعندما وصل لسواكن أجرى استعراضاً عاماً للموقف، وقام في الثامن من الشهر بدورية استطلاعية لخنادق العدو مصطحباً معه مدفعية الخيول والمشاة المحمولة. فتحت مدفعية الخيول النار من مسافة ١٦٠٠ ياردة على الجناح الأيمن للعدو. وعنـــدما تقدم الفرسان مسرعين للأمام تراجعوا بعد أن فقدوا أربعة قتلي من صفوفهم. وفي الليلة التالية قام فريق من ٢٠٠ رجل من الكتيبة السودانية الحادية عشرة بمحاولة تعطيل أو أسر مدافع العدو. لكن اليقظة غير العادية للعرب أحبطت تلك المحاولة، بل هاجموا الكتيبة السودانية والتي إنسحبت بعـــد صدام عنيف وبعد أن فقدت خمسه قتلى من رجالها وأربعة جرحى. أما خسائر العدو فكانت كبيرة.

عاد الجنرال قرنفل إلى القاهرة في الخامس عشر من الشهر وكتب تقريراً أعتبر فيه أن طرد العرب من خنادقهم أمر ضروري للغاية، ولهذا الغرض فأنه يحتاج لتعزيز الحامية بكتيبتـــين سودانيتين هما الكتيبة التاسعة والكتيبة العاشرة.

وتقرر الاستجابة لتوصيته ولكن بشرط ألا يتم القيام بأي هجوم آخر غير الـــذي تقـــرر، وأنه، وفي فترة غياب الكتائب السودانية من الحدود يجب إرسال نصف الفوج الأيرلندي لأســـوان. وتحركت الكتائب السودانية إلى سواكن عن طريق قنا والقصير ووصلتها في أوائل ديسمبر.

وخلال تلك الفترة ساد التوجس في إنجلترا حول القوة التي خصصت لمهاجمـــة خنـــادق العدو، وأنها غير كافية، ومن ثم أمرت الكتيبة الثانية (لحرس حدود الملك الاسكتلندية الخاصـــة)، بقيادة الكولونيل تالبوت كـــوك، مع ١٠٠ رجل من المشاة المحمولة، بالتوجه إلى سواكن. وعنـــد وصولها أصبح عدد القوات هناك، في أوائل ديسمبر، ٧٥٠ جندياً بريطانياً، و ٢٠٠٠ جنـــدي ســـوداني، و٢٠٠٠ جندي مصري. وبهذه القوات كتب الجنرال قرنفل في تقريره بأنه واثق من النصر.

كانت التعليمات التي تلقاها من الحكومة، عند مغادرته للقاهرة، هي ضرورة الاســـتيلاء على إستحكامات العدو، وأن يتم طرده من مواقعه حول سواكن. ولكن كان ذلـــك يعنـــي أن هـــذه العمليات ستكون غاية ما تهدف إليه القوات، وعند إنجازها فأن على القوات الإنجليزية المصـــرية أن تبقي في سواكن وألا تقوم تحت أي ظرف من الظروف بالتقدم نحو عثمان دقنة في هندوب.

وفي الثاني من ديسمبر غادر الجنرال مع أركان حربه القاهرة ليصل سواكن في السابع من الشهر. وفي التاسع من ديسمبر قامت أطواف الخيالة المصرية، بقيـــادة الكولونيـــل كتشـــنر، باستكشاف للمنطقة حيث واجهتهم قوة ضخمة من فرسان العدو أجبرتهم على التراجع من أمامهم. وقد أثبتت هذه الحادثة ضرورة زيادة عدد الخيالة وبالتالي تم إرسال سرية من الهوسار العشرين، بقيادة الميجر اروين، من القاهرة. وحتى تتم تهدئة القلق الذي ساد إنجلترا مرة أخرى فيما يختص بمدى قوة قوات الجنرال قرنفل، فقد صحبتهم نصف كتيبة ويلز الأولى بقيادة اللفتنانـــت كولونيـــل سميث. وبحلول الثامن عشر من ديسمبر كانت تلك القوات قد وصلت واكتملت الاستعدادات الخاصة بتأكيد نجاح الهجوم المرتقب، بعد أن تم الإسراع في ذلك.

وأثناء تلك الفترة ذاد العدو من نشاطه بدرجة ملحوظة. ففي الثاني والعشرين من نوفمبر كان قد قدم أحد مدافعه للأمام حتى ٥٠٠ ياردة من طابية جميزة وفتح النيران علي المدينة، والتي سقط معظمها داخل أسوارها، ولم يترتب عليها خسائر تذكر. أيضاً واصل العدو إطلاق رصاص البنادق من داخل استحكاماته، وقتل المستر ويك، وهو رسام شاب واعد، يمثل مجلة الجرافيك، بالقرب من بوابات سواكن.

وإستمرت هذه التكتيكات أثناء الليل خاصة. ولم يتم التأكد من عدد أفراد العدو بداخل الإستحكامات أبداً، فقد كان العدد يختلف من يوم ليوم. ففي بعض الأوقات كان يهبط لأقل من ٥٠٠ وفي اليوم التالي قد يزيد على ٢٠٠٠ رجل. وكان العدو يحتفظ بفرسانه علي بعد ١٠٠٠ ياردة إلى الخلف منه، باتجاه هندوب ويحتفظ باحتياطي قواته على بعد ميل من ذلك المكان. أما القوات الرئيسية فبقيت دائماً في هندوب. ومن هنا يمكن فهم سبب اختلاف أعداد العدو في الاستحكامات.

كان من الصعب على الأمراء الحفاظ على سيطرتهم علي رجالهم ولم يتمكنوا من إبقائهم دائماً بداخل الخنادق حيث يتعرضون للنيران المتواصلة المنصبة عليهم من الطوابي، ولندرة الطعام والماء بها. وعندما يكتشف قادتهم بأن أعدادهم قلت بصورة غير عادية فأنهم يبلغون الأمر لعثمان دقنة والذي يشرع في إرسال التعزيزات لهم.

تكررت هذه الصورة كثيراً، وهي التي أدت بدون شك إلى التضارب والمفارقات الجسيمة في إفادات الأسرى وغيرهم.

***

وتحتاج توجهات القبائل المجاورة لسواكن لبعض الإيضاح. فعند بداية الحصار قام عثمان بتوجيه اهتمامه نحو الشمال. وفي اليوم التالي خرج أحمد محمود، الإبن الثاني لمحمود بك علي، من سواكن ومعه أخيه الطاهر إلى هندوب. وبنهاية الشهر أرسله عثمان دقنة لحصار مأمورية الروية. ثبت نفسه في آبار بيلا، التي اعتاد الأهالي أخذ المياه منها، وقطع عنها الإمدادات ومنع القبائل المجاورة من أي اتصال بالمأمورية. لكنه بخلاف ذلك لم يقم بأي تحركات عدائية. وفي أوائل نوفمبر تم إرسال الملازم برنسب (ضابط الاستخبارات بسواكن) بصحبة محمود بك علي لتقرير حالة الوضع هناك. وبعد تردد منه، وافق أحمد أخيراً على عقد إجتماع معهم في الصحراء، وافق فيه علي السماح بالإتصال بالمأمورية وألزم نفسه بالوعد بعدم التحرش بالقبائل. لكنه في نفس الوقت أفادهم بأنه لابد له من إظهار العداء لهم حتي يمنع عثمان من إرسال أمير في مكانه. وبعد قليل من ذلك عاد إلى هندوب، في الظاهر ليطلب مدافعاً من عثمان، لكن عثمان شك في نواياه وأرسله إلى أم درمان.

وخلال حصار سواكن كان معظم شيوخ الهدندوة يقفون بمعزل من هندوب. ورغم أن بعضهم أضطر للتوجه إليها طالباً للطعام، إلا أن هؤلاء كانوا قد أخطروا سواكن مسبقاً بالا حيلة لهم في ذلك. كانوا مضطرين للذهاب (لهندوب) وللتظاهر علناً بالعداء للحكومة. لكنهم أعلنوا كلهم بأنه ما أن تتقدم الحكومة نحو هندوب إلا وسينضمون لها لآخر رجل.

بعض الشيوخ إستمروا في تسبيب المضايقات لعثمان دقنة وذلك بـاعتراض قوافلـه أو بالغارة علي المواشي. لكن مثل تلك الأحداث كانت تتم عموماً في مناطق نائية بعيدة عنه. كانـت أكثر القبائل عداء للعرب هم الجميلاب. وقبل بضعة أيام من معركة الجميزة كان عثمان قـد أقنـع زعيم شيوخهم، علي عمر، بالقدوم إليه لبحث القضايا المعلقة بينهما. وعند وصوله لهندوب قـام بإرساله علي الفور لأم درمان.

وفي ذلك الوقت كان الشيخ عيسى برير قد عاد من أم درمان وهـدد بحصـار وتـدمير مأمورية حلايب. لكنه فشل في إثارة أي حماس لمشروعه بين قبائل الجوار.

مما سبق يمكن القول بأن توجهات تلك القبائل يمكن أن يعبر عنهـا بتعبيـر (الانتظـار والترقب بقلق). فبينما يتجنبون ولا يحبون عثمان دقنة إلا أن الظروف أجبرتهم علي الخوف منـه بصفته ممثل القوة العظمي الوحيدة في السودان، ونعني بها الخليفة. فإذا ما إنكسرت قوة عثمان، فأنهم قد نذروا أنفسهم للعمل على استئصاله مع أتباعه من المنطقة. ولكن يجب الإسـتيلاء علـي هندوب، وربما طوكر، قبل ألدخول في مثل ذلك النذر. لذلك تفشت الرغبة من جانب القبائل لحـث الحكومة على المزيد من التقدم نحوه. أما الحكومة، من جانبها، فقد كانت لهـا حسـابات أخـرى تجعلها تتمسك بسياستها الدفاعية المقررة وذلك رغم ضرورة تحرير سواكن مـن ذلـك الحصـار الطويل المنهك، الأمر الذي تعلمه الحكومة تماماً.

***

أما الآن فقد اكتملت الاستعدادات للهجوم الذي طال انتظاره. وفي مساء التاسع عشر من ديسمبر أوضح الجنرال قرنفل لقادته الضباط خطة الهجوم والذي تقرر أن يبدأ صباح الغد الباكر.

بنظرة إلى الخريطة ستتضح بها مواقع خنادق العدو والتي كانت مقامة على بعد يتراوح ما بين ٨٠٠ – ١٠٠٠ ياردة جنوب غرب طوابي مياه جميزة وَشطة. وكانـت خنـادقهم تشـق خورين، فالجناح الشمالي يقع على بعد خمسين ياردة من وراء قمة أنف الجبل، والجناح الجنوبي يقع في هضبة صغيرة مستديرة جنوب غرب طابية جميزة. وكانت هناك ثلاثة معاقل للمدافع، واحد في شمال الخور والأخريان في الجناح الجنوبي. كانت الأرض التي على الغرب من الإسـتحكامات سلسلة من البروزات التي تمتد من الشرق للغرب، ويفصل بينها خور غزير الأشـجار أمـا مـن الجانب الجنوبي الغربي فأن الأشجار الغزيرة تمتد حتى تصل إلى الجناح الجنوبي.

أما الأرض إلى الغرب من الجناح الشمالي للعدو فكانت نظيفة ومناسبة للخيالة، أما إلى الشمال من جناحهم الشمالي فكان هناك منخفض من الأرض من السهل علي القـوات أن تشـكل نفسها للهجوم قبل أن تلحقها النيران.

لتلك الاعتبارات قرر الجنرال قرنفل مهاجمة العدو من الجناح الشمالي، مع القيام بهجوم مخادع في نفس الوقت على جناحهم الجنوبي.

كان لهذه الخطة ميزة وهي أنها لن تستدعي إجراء أي تغيير للمظهر المعتـاد للقـوات، أثناء مناورتها، عندما يشاهدها العدو من خنادقه. وقبل بضعه أيام من الهجوم تم تدريب القـوات عليه في نفس الاتجاه الذي تقرر التقدم منه.

إتخذت كافة الإحتياطات لجعل الهجوم عملاً مفاجئاً تماماً. وللمزيد من التمويه فقد جري عرض بحري في مرسى كواي، علي بعد ستة أميال شمالي سواكن، ويمكن للعدو أن يشاهده بوضوح من معسكره بهندوب. وتقرر قبل بدء الهجوم أن يتم قصف الإستحكامات بشدة من كافة المدفعية المتاحة. ولهذا الغرض تم توزيع المدفعية التي على شمال وجنوب طوابي الماء إلى دفاعات على اليمين وعلى اليسار أما الأسطول فكان عليه القصف ببطاريات النورد نقلت من ستة مدافع، ومدفع سابع (٦٤ رطل) كان في موقع على السد الذي يربط بين طوابي المياه. وأقيمت دفاعات ثالثة من المدفعية بداخل السور ومدفعية طوابي هندوب وفولة وكواري، كما رست السفينة الحربية (ريسر) في موقع لها بين سواكن وجزيرة الكرنتينة، لتقوم بصب نيرانها على خنادق العدو وإستحكاماته.

وطبقاً للخطة الموضوعة، فقد صبت المدفعية بأنواعها نيراناً عنيفة، بطول خطوط العدو، في السادسة صباحاً، يوم عشرين ديسمبر، بينما خرجت القوات واتخذت مواقعها بين المدينة وخندق (هـ) في السادسة والنصف صباحاً.

جاءت القوات المحمولة، بقيادة الكولونيل بارو من الجانب الأيمن. وكان الفوج الأول، بقيادة الكولونيل كتشنر، مكوناً من الكتائب السودانية التاسعة والعاشرة والثانية عشرة. والفوج الثاني، بقيادة الكولونيل هو لدسمث، مكوناً من الكتيبتين الرابعة المصرية والحادية عشرة السودانية. أما الكتيبة الثانية لحراس الحدود الاسكتلندية الملكية الخاصة والكتيبة المصرية الثالثة، واللتان تقدمتا كل علي حدة،

فقد وقفتا خلف طوابي المياه حيث وصلتا لمواقعهما في السادسة والنصف صباحاً. وقد وضع قناصون من أفواج من حراس الحدود وويلز بطوابي المياه واتخذ الجنرال قرنفل موقعه في طابية جميزة في السابعة والنصف صباحاً ليدير العمليات.

أقامت المصلحة الطبية مناطق للتجمع بطوابي المياه، بينما تم تجهيز السفينة الحربية (شبين) كمستشفى عسكري. أما طوابير النقل، وإمدادات المياه، والاحتياطي العام، المزود بكل ما يلزم من مواد لإنشاء الخنادق المؤقتة، فقد أبقيت جاهزة وعلى استعداد.

ثم أيضاً إقامة نظام كامل للإشارة بين القيادة والقوات والطوابي والسفن الحربية.

تقدمت القوات الآن عبر الخور، وعلى رأسها القوات المحمولة، وعندما وصلوا لمكان موازي للجناح الأقصى الشمالي لاستحكامات العدو، واجهوه وتقدموا نحوه بثبات على النحو التالي:

* الخط الأول – السودانية الحادية عشر إلى اليمين مكونه ثلاثة أضلاع للمربع مع فصيل واحد احتياطي داخل المربع وفصيل واحد من الكتيبة السودانية التاسعة وفصيلين من السودانية لعاشرة.

* الخط الثاني – فصيل واحد من السودانية التاسعة وفصيلين من السودانية العاشرة يسندهما وفصيلين في طابور من الكتيبة السودانية التاسعة وفصيلين في طابور من السودانية الثانية عشرة.

* ووضع الاحتياطي في طابورين متوازيين علـى الجنـاح الخـارجي ووراءه الكتيبـة المصرية الرابعة في هيئة مربع.

وعندما وصلوا لمسافة ٦٠٠ ياردة من الاستحكامات، فتح العدو عليها النار بعد أن تجمع باتجاه الجناح الشمالي. لكن تقدم القوات استمر بثبات، بدون إطلاقهم للنار، حتى وصلوا لمسـافة ٢٠٠ ياردة وبعدها إندفعت الأفواج في قفزات سريعة متتالية وفتحت ناراً عنيفة علي العدو، والذي ظهر وكأنه علي وشك الهجوم، وسرعان ما وصلوا للإستحكامات وتم الإسـتيلاء عليهـا بأسـنة السناكي وبطريقة بالغة الشجاعة والإقدام. وقتل هنا عدد من رجال العدو، أما الباقون الذين حاولوا التجمع على الجناح الأيمن فقد شتتهم الكتيبة السودانية الحادية عشرة والذين قاموا، فـي فـورة حماسهم للقتال، بهجر مربعهم وإنتشروا مندفعين.

وأثناء الهجوم كانت القوات المحمولة تحرس الجناح في أقصى اليمين. وقامت بطاريـة مدفعية الخيول في هذا الوقت بالركض وأخذت تقصف خنادق العدو بالجناح ا لجنوبي والذي كـان يتعرض لنيران عنيفة من فصيلين من كتيبة ويلز وفصيلين من الكتيبة المصـرية الثالثـة والتـي تقدمت الآن خارجة من موقعها المحصن. أخذت الأفواج في التدفق من الشمال مطهرة كل خطـوط الاستحكامات وملحقة خسائر كبيرة بالعدو والذي أخذ الآن في التراجع العام باتجاه هنـدوب، فـي الوقت الذي كانت المشاة المحمولة، من الجناح الشمالي، تطلـق علـيهم رشـقات متصـلة مـن الرصاص، أضافت المزيد إلى خسائرهم.

وحاول فرسان العدو أن يلتفوا حول الجناح الأيمن. لكن رجال الهوسار العشرين صدوهم وقاموا بهجوم مضاد عليهم شتت شملهم ودفعهم نحو هشين باضطراب شديد.

تم الإستيـلاء الآن علي مواقع العـدو واستحكاماته ونفخ البوق إعلاناً بإيقاف إطـلاق النار في الثامنة صباحاً. لكن الخيالة والمشاة المحمولة لم تتوقف عن مطاردة العـدو المتراجـع لمسافات بعيدة.

وتحصنت القوات الآن في مواقع العدو وأقامت حولها أربعة زرائب هي:

* نمرة (١): حراس الحدود وفوج ويلز
*نمرة (٢): الكتيبة السودانية الحادية عشرة.
* نمرة (٣): الكتيبتين السودانيتين التاسعة والثاني عشرة.
* (٤): الكتيبة السودانية العاشرة.

وأقيمت مساكن من البلوكات في الزريبتين (١) و (٢) وبعد وقت قصير كانت كل القوات تنعم بغطاء وحماية تامة.

عند حصر قتلي العدو، وجدت ٥٠٠ جثة داخل وحول التحصينات وفي الطريـق الـذي طوردوا فيه. وقدرت قوات العدو قبل بدء الهجوم بحوالي ١١٠٠ رجل داخل الإستحكامات و ٥٠٠ من الحرابة بالغابة والشجيرات الكثيفة إضافة إلى عدد من الفرسان. هـذا وقـد سـاعدت كثافـة الأشجار علي تمكين عدد كبير من رجال العدو من الفرار.

كان للإستعراض البحري للأسطول في مرسي كواي دور حاسم في منع إمدادات العدو من الوصول للإستحكامات. هذا وكانت خسائر القوات المصرية والبريطانية خفيفة عموماً: ستة قتلى وضابطين وأربعة وأربعين جندياً جرحى.

كانت خنادق العدو وإستحكاماته مثيرة للإهتمام حقاً. فالخرائط توضح كيف أنهم استغلوا التضاريس على الأرض، وكيف أن إنشاءاتهم الغريبة تلك قد حمتهم من نيران المدفعية والرصاص والتي كانت، مهما بلغت دقة تصويبها، تلحق بهم أقل الخسائر. لقد حفروا التربة المكونة من الحصى الصلب وأقاموا خنادقهم أسفل المتاريس بدون انحدار من الداخل مما عمل على الحماية التامة لمن فيه. أما الحفرة العميقة ذات المدخل الضيق خلف خطوط الإستحكامات، على أقصى اليسار، فواضح أنها مجهزة للمعيشة. وقد وجد بداخل وحول الخنادق عدداً كبيراً من البنادق والذخيرة وتم الإستيلاء عليها. قتل أربعة من الأمراء البارزين بينما تم أسر ضرار موسي دقنة، إبن عم عثمان دقنة، بعد أن أصيب بجراح بالغة.*

هزم العدو هزيمة تامة. وبقيت القوات معسكرة في العراء ليلة العشرين من ديسمبر وتم تقوية الخنادق والتحصينات، واختيار مواقع جديدة لإقامة طوابي عليها وبصورة تمنع العدو من أن يتمكن مرة أخرى من التخندق والتحصن على مشارف المدينة.

وتم بناء طابية باسم طابية هشين بالقرب من موقع طابية هدسون، وطابية منصور في مكان موقع العدو المواجه لطوابي المياه. أما طابية طماي فتقرر بناؤها في مكان طابية جريفز على يسار طوابي المياه. تم سحب القوات البريطانية من سواكن بأسرع وقت ممكن. وقبل مغادرتهم أقام الجنرال قرنفل أستعراضاً في الثامن والعشرين من الشهر باتجاه هندوب. وفي اليوم التالي قام بمسح الشاطئ بعدة أميال إلى الشمال من سواكن كان تأثير ذلك النصر على القبائل المحلية بالغاً. وتوقعوا أن تقوم قوات الحكومة بمواصلة تقدمها حالاً. وصدرت منشورات تحثهم على انتهاز الفرصة وطرد العرب تماماً من ديارهم.

ولكن جاءت إجاباتهم بتأكيد ولائهم للحكومة وسرورهم بهزيمة عثمان دقنة. لكنهم تعللوا بأنه لا قدرة لهم للقيام بأي عمل ضده.

أما في هندوب فقد ساد التوقع بهجوم قادم وحث كثير من الأمراء (عثمان) على التراجع نحو طوكر. لكن عثمان، فيما يبدو، كان واثقاً بأن تقدماً نحوه لن يحدث. وعندما بلغتهم أنباء مغادرة القوات البريطانية لهندوب عادت الثقة إليهم ثانية.

وفي الرابع من يناير ١٨٨٩، غادر الجنرال السير قرنفل سواكن إلى القاهرة، تاركاً الكولونيل كتشنر قائداً للقوات. أما الكولونيل هولد سمث فقد عاود ممارسة عمله كحاكم عام، مع تعليمات ببذل كل ما في طاقته من وسع لعزل القبائل المحلية عن عثمان دقنة وإبعادها عنه.

***

* هذا الأمير، وبعد أن أخذ للعلاج بمستشفى سواكن وبقي فيه لمدة شهر حتى عوفي، تم إطلاق سراحه بعد ذلك، وسمح له بالعودة لقبيلته.

الحدود الحبشية (١٨٨٨):

سنتناول الأحداث علي الحدود الحبشية (السودانية) خلال عام ١٨٨٨، الآن. فعند نهاية عام ١٨٨٧ تركنا الملك يوحنا وهو يتميز من الغيظ من جراء حملة أبو عنجة الناجحة علي غوندار. وفي باكورة العام الجديد، ووسط دهشة العرب، وصل وفد أرسله الرأس عدل إلى القلابات، أبدي فيه خضوعه وموافقته على دفع جزية صغيرة. ترأس الوفد أحد أعيان الحبش وفي الحال أرسل إلى أبي عنجة بأم درمان. وعند وصوله لها أظهر كل ما يدل على أنه على دين المهدي. عومل رئيس الوفد، ومن معه، معاملة حسنة وتلقي كل أعتبار وتقدير. وبناء علي اقتراحه كتب الخليفة الرد التالي للملك يوحنا:

"بسم الله الرحمن الرحيم ....الخ.

من الخليفة عبد الله إلى يوحنا التعيس، عظيم الحبش. عليك أن تعلم بأن الله هو القادر, وأنه قد أعد ناراً ليخلد فيها أولئك الذين لا يؤمنون بدين الإسلام. أما أنت فعبد بائس ضعيف. إنك لا تستطيع أن تقوم بأي عمل صالح أو شرير مهما كان بسيطاً. إنك قد عشت في الزمن الذي ظهر فيه المهدي المنتظر، خليفة رسولنا محمد، ليعظ الناس ويوصلهم لله، والذي كانت كلماته كالنار الموقدة. ولقد كتب المهدي إليك وعمل علي أن يغريك بالدخول في الإسلام، لكنك رفضت. وقد كتبت لك بنفس حول نفسي الموضوع وحذرتك من المستقبل (الذي سيواجهك) إن لم تستمع لكلماتي. وقد أخبرتك بأن جيش المؤمنين سيحتل بلادك إذا ترددت في إطاعة أمرنا. ورغم كل هذا فأنك لم تتب ولذلك غزت جيوشنا بلادكم وقتلت رجالكم ودمرت كنائسكم وأحرقت مدنكم وأسرت نساءكم ويتمت أطفالكم، وعادت لنا منتصرة. لذا عليك أن تعرف أن دم البائسين من رعاياك هو في عنقك لأنك أنت راعيهم.

والآن فما فات مات ولازالت لك محبة عندي. تحول إلى الدين الحق وأتبع تعاليم المهدي.

لقد كتبت لك مرة أخرى قبل أن أعاود الهجوم عليكم حتى تأخذك الشفقة علي نفسك. عليك بتصديق ما جاء بديننا وأتبع نهجنا في الإعتراف بألا إله ألا الله وأن محمداً رسول الله. كتبت لك لتقوم بأداء فرائض الدين من صلاة وصيام وكل ما يخص الدين. فكن الآن واحداً منا ولنترك الحرب ونوقفها لنكون أصدقاء بدلاً عن ذلك.

ثم سيعفو عنك الله ويغفر خطاياك التي ارتكبتها عندما كنت كافراً. وسينعم عليك بالسعادة يوم القيامة. أما إذا رفضت الانصياع لندائي فأنني أقول لك الآن، للمرة الأخيرة، بأنني بعون الله سأهزمك وبأن جيوشي ستغزو بلادك وتدمرها تدميرا. وحتى ذلك الوقت فلتعلم بأن المهدية من دين الله وأنك لن تستطيع الوقوف أمام إرادة الله.

لا يملأك الغرور بنفسك ولا تطمئن لكثرة جنودك. وأقول لك بأنهم بأذن الله سيدمرون. وما كتبت لك كل هذا إلا من باب الشفقة عليك حتى لا تقدر علي أن تقول شيئاً لله عندما تقف أمامه يوم القيامة. فإذا آمنت وأطعت فأنك من المنقذين. أما إذا أبيت فأنك ومن معك من المدمرين

مؤرخ جمادى الآخرة ١٣٠٠

(مارس ١٨٨٨)

وعند تلقيه لهذا الخطاب، أجاب الملك يوحنا بأنه سيحضر للقلابات بجيوشه خلال بضعة أشهر، وعندما ينخفض منسوب النهر فأنه سيغزوهم ويدمرهم وبعدها يتوجه (بجيوشه) نحو الخرطوم. وأرسل مع خطابه هذا أربعة غرارات من الجلد مليئة بالرمل ومبلغاً الخليفة بأن جيوشه أكثر عدداً من حبات الرمل التي بداخلها.

تظاهر الوفد الحبشي بالدهشة لهذا التغيير في الجبهات. لكن الخليفة كان أعمى عن الحقيقة وهي أن رجال الوفد ما هم إلا جواسيس أرسلوا للتعرف علي الوضع في البلاد. لم يبد علي الخليفة أي إنزعاج من تهديدات الملك يوحنا وفكر في أن من حسن السياسة أن يتنبأ سلفاً بنتائج الصدام المرتقب. وفي أبريل أعلن الرؤيا التالية، والتي ما هي إلا واحدة من الأساليب الغريبة التي يلعب بها بعواطف ومصداقية أتباعه فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم.... الخ.

من عبد الله خليفة المهدي إلى كافة الأخوان

جاءتني رؤيا شاهدت فيها سيد الخلق أجمعين، والمهدي، وكان الخضر حاضراً، وجلس النبي على يميني وابتسم في وجهي ابتسامة عذبة. وجلس المهدي على يساري ولكن كان عليه وقار عظيم، لأنه كان في حضرة رسول الله، وجلس الخضر من ورائي. ثم إلتفت النبي إلى وقال: إذا جاء الحبش لمهاجمتك فأن أيديهم ستكون مغلولة علي أعناقهم وستنتصر عليهم. وعندما تحدث عن الترك قال لي: إنهم في رعب وخوف من المهدي. ثم صرح لي بإرسال الجيوش إلى الريف (مصر) ثم تحدث ثانية عن الحبش وقال: الله أكبر. فكررنا التكبير من ورائه. ثم كرر هذا عندما تحدث عن الترك وتوفيق والإنجليز، وكررنا كلنا من بعده الله أكبر ثلاثة مرات.

ثم بعد ذلك أبدي ارتياحه لكل خطواتنا وخاصة موت صالح الكباشي وود أبروف وعن أحداث دارفور. كما ذكر أنه مسرور لما قمت به تجاه الشكرية وعرب البطاحين وأيضاً عن أعمالي في البقعة (أم درمان) وغيرها من الأماكن.

ثم قال لي بعد ذلك:"لقد وضعت كل العالم بين يديك، فقل لي ما تريد أن تفعله بكل السكان". فأجبته بأنني أريد منهم جميعاً أن يكونوا مؤمنين مثلي. فشكرني وتمني لي الخير كله وأخبرني بأنه عندما تنتهي أيامي في هذه الدنيا فسينزل النبي عيسى إلآ الأرض. ثم أخبرني عن المدة التي سيمكثها وماذا سيحدث بعد رحيله، كما أخبرني بطول عمر الإسلام وإنه في النهاية لن يبقي على وجه الأرض مسلم. ثم أمرني بتوصيل تمنياته الطيبة لبعض من الإخوان الذين ذكرهم بالإسم.

وفي رؤيا أخرى أخبرني بأنني ضمن الذين ذكرتهم الآية القرءانية "الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الذكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور".

ثم قال لي" إنك أفضل من علي وجه الأرض من البشر، وأن أي كائن في الأرض سيكون سعيداً إذا ما رضيت عنه، وسيكون شقياً إذا لم ترض عنه.

كما بشرني بأشياء أخرى طيبة لكن الأمر سيطول إن ذكرتها كلها لكم".

مؤرخ شعبان ١٣٠٥

(أبريل ١٨٨٨)

أرسلت الآن إمدادات ضخمة للقلابات. وتوجه أبو عنجة للميدان مصطحباً معه زعيم الوفد الحبشي المرتد عن دينه. وعن هذه الحملة الثانية على الحبشة لا توجد معلومات معتمد عليها كثيراً، ولكن يبدو أن كل جانب أحرز نصراً ما. كان أبو عنجة منتصراً في المبدأ. لكنه في يوليه أو أغسطس هزم هزيمة تامة من الحبش والذين أسروا عدداً كبيراً من أتباعه. ولا يبدو أن الملك قد أشترك بنفسه في القتال لأنه كتب في سبتمبر خطاباً للخليفة أخبر فيه بأنه في غوندار وأنه سيكمل انتصاره باحتلال القلابات. أما أبو عنجنة، والذي عاد إلى أم درمان الآن ومنها أرسل لإخماد تمرد في مناطق بارا، فقد أرسل مرة أخرى للحدود الحبشية وأفلح مرة أخرى في الوصول لغندار، بدون قتال هذه المرة، لأن الملك يوحنا كان قد سحب معظم جيوشه لإخماد اضطراب في مكان ما.

وفي نوفمبر، وبعد وقت قصير من رجوعه للقلابات، أصيب أبو عنجة بالمرض والذي حاول علاجه بشرية أعدها له بعض حجاج التكرور والتي أدت إلى موته في أوائل يناير* ودار الآن بعض النقاش حول من يخلف أبي عنجة في القيادة. لكنه كان قبل وفاته قد عين الأمير الزاكي طمل. وعندما أحيل الأمر للخليفة وافق علي تعيينه.

وهكذا كانت حالة الحدود مع الحبشة حتى أوائل ١٨٨٩

***

دارفور في عام ١٨٨٨:

تركنا السلطان يوسف في أواخر ١٨٨٧، يحشد الجيوش لمواجهة عثمان آدم المنتصر.

وقام الآن بإرسال السلطان زايد مرة أخرى علي دارا مع قوات كبيرة. لكنه أثناء الطريق إليها في ١٦ ديسمبر ١٨٨٧، التقي في وادي المسرية، الذي يبعد باثني عشر ميلاً من المدينة، بقوات عثمان آدم التي كانت تتفوق عليه بمعدل ثلاثة إلى واحد وهزمته هزيمة قاسية. وفر زايد بمن تبقي من قواته إلى الفاشر، حيث أدرك السلطان يوسف، الذي لم يبق معه سوى عدد قليل من أتباعه، بأن قضيته أصبحت خاسرة. لكنه صمم علي محاولة أخيرة. وبعد أن جمع حوالي ١٠٠٠ من العرب تحصن في ود بيرة، علي بعد بضعة أميال جنوبي الفاشر وإنتظر قدوم عثمان آدم نحوه. وصل الأخير في الثامن من يناير وتمكن بدون مجهود يذكر من تشتيت قوات زايد والذين هربوا إلى جبل مرة. تقدم عثمان المنتصر نحو الفاشر ودخلها بدون مقاومة وتم أسر العديد من الأفراد وغنم كمية من الموجودات بها.

كان من المعتقد أن السلطان يوسف وزايد قد قتلا في ود بيرة، لكن أتضح أنهما فرا ولجئا إلى ود جبر الله في جبل مرة.

وعندما علم عثمان آدم بأن السلطانين لا زالا أحياء طليقين قام بإرسال قوة، برئاسة عمه أحمد الختيم، بتعليمات مؤداها ألا يعود إلا بعد أن يقتلهما أو يأسرهما.

* ساد الاعتقاد حتى وقت قريب بأن أبو عنجة مات مسموماً. لكن الذين قدموا مؤخراً (للقاهرة) من تلك المناطق أكدوا بأن سبب وفاته هو ما جاء أعلاه.

وأثناء ذلك إفترق زايد عن يوسف. وبقي زايد مع جبرا لله، الذي خان ثقته فيه. ففي مجلس للشراب قام بذبح زايد وأرسل رأسه للفاشر. أما يوسف فقد توغل في فراره إلى عمق الجبال لكن ود الختيم طارده ونجح في قتله هو ومن بقي معه من أتباعه المخلصين.

وعاد الختيم إلى الفاشر في الرابع عشر من فبراير حاملا رأس السلطان يوسف . وتم إرسال الراسين، زايد ويوسف ، لأم درمان.

أما جبر الله، والذي ظن أنه بسلوكه الشائن وخيانته قد دخل في حظوة عثمان آدم، فقد تجرأ على دخول الفاشر. لكن عثمان تشكك في سلوكه المستقبلي وقام بإرساله لأم درمان مع أبنائه الخمسة، والذين ما أن وصلوها حتى ألقي بهم في السجن حيث ماتوا فيما بعد *.

وأصبح عثمان آدم بعد الآن سيداً للموقف وبدأ عهد قصير من الهدوء بعد ذلك. لكنه كان كالهدو، الذي يسبق العاصفة التي ستغرق مرة أخرى سهول دارفور بالدماء، وتدخل الرعب في الخليفة عبد الله حتى يخشى على حياته وعلى أقاليمه التي حاز عليها.

نشبت الثورة الثانية، التي سنتناولها بعد قليل، آخذة طابعاً لحركة دينية، وهذا هو فيما يبدو سبب إنزعاج الخليفة البالغ منها. فقد بدأ الخليفة في إدراك أنه بالرغم من كل النجاحات التي تحققت، إلا أن هناك ميولاً متصاعدة من جانب أتباعه، باتخاذ المهدية وسيلة للنهب وللغنائم التي تتبع حروباتها أكثر من اتخاذهم لها بسبب غيرتها الدينية التي قاتل من أجلها الراحل محمد أحمد. فعندما تراخت قبضته الدينية فلابد أنه أدرك أن بداية النهاية للمهدية قد أزفت. ومن هنا كان قلقه وإنزعاجه عندما بلغته أنباء إنفجار الثورة المضادة للمهدية والتي يقودها زعيم كان شعاره "إسقاط مدعي المهدية وإقامة دين الإسلام الحق من جديد". لهذا فسنتابع هذه الحركة منذ بدايتها. فبعد مقتل السلطان يوسف، قام إخوته أبو الخيرات وعباس، ومعهما من تبقي من زعماء دارفور، مع قلة عددهم، أمثال المقاديم أبو دمبو، وحامد – من دار الريح – وسعيد بازوس وأبو بكر نجا– من البيقو– قاموا بالتجمع في دار تاما وعقدوا مجلساً قلقاً حول أفضل الطرق للانتقام لقادتهم القتلى. وفي هذا المجلس قرروا إلتماس الدعم من سلطان برقو وحذروه في نفس الوقت بأنه ما لم تتخذ بعض الخطوات على الفور ضد عثمان آدم فلاشك في أن الأخير سيقوم بغزو دار برقو. وهنا ظهرت الصلة الغريبة مع السنوسي المهدي، الذي أشرنا إليه في الصفحات الأولى لهذا الكتاب.

ففي برقو، مثلها مثل وداي، دخلت تعاليم السنوسية في قلوب الأهالي وترسخت بقوة، وانتشر توقير وتعظيم سنوسي جغبوب المهدي بينهم، وكان سلطان تلك المملكة الصغيرة يستشيره في كل شئونه ويعتقد بأنه معصوم من الخطأ في تصرفاته وأحكامه.

وعندما تسلم سلطان برقو خطاب الزعماء من دار تاما، أحال الأمر فوراً للسنوسي. وجاء رد الأخير بأن "يبتعدوا من الشأن السوداني، وألا يقاتلوا المهدية إلا إذا غزت مملكتهم" نموذجاً لرغبته في التمسك بقراره الأصلي بعدم التعامل مطلقاً مع هرطقة محمد أحمد، وأن يحتفظ بحريته في الحركة التامة، حتى يجئ الوقت لإعلان وصول المهدية إليه وتوليها علناً.

* يقال أن جبر الله لازال في أم درمان،ن لكنه يعاني من الفقر المدقع.

لهذا رد عليهم سلطان برقو بأنه لا يستطيع الانضمام لحركتهم لكنـه جـاهز لمسـاعدة جيرانه في تحالفهم ضد عدو مشترك.

ورغم إصابة الزعماء بدار تاما بخيبة الأمل لفشل أول إلتماس للـدعم لهـم، إلا أنهـم توجهوا لقبائل التاما والمساليت ووجدوا في زعيم المساليت، الشيخ أحمد – الملقب بأبي جميـزة، نصيراً مستعداً* متعطشاً للانتقام، لأن عثمان آدم كان عند وصوله لأول مرة للفاشر قـد أسـتدعي زعماء كل القبائل لمبايعته وتقديم الولاء له، وكان والد أبي جميزة، زعيم المساليت وقتها، قد قدم نفسه بالفاشر ولكنه أشتبه فيه، كرجل أخطر من أن يترك حراً طليقاً، وأرسل بالتـالي لام درمـان حيث سجن هناك.

أما إبنه، الذي صار شيخاً للقبيلة الآن، فقد تبنى قضية أبيه ووجد من يسـتمع لحجتـه وسط القبيلة، وقاموا جميعاً بالتعهد تعهداً جازماً باستئصال المهدويين الغزاة أو أن يموتـوا فـي سبيل ذلك. لذلك أنضموا لقوات أبي الخيرات زرافاتًا ووحدانا. وطبقاً لأتفاق تام بيـنهم قـرروا أن يكون أبو جميزة القائد العام لأنه شيخ أكبر القبائل عدداً من التي إنضمت للحركة.

وبعودة إلى الطبيعة المتدينة للفكي أبو جميزة نجد أنه كان رجلاً ذا نفوذ كبير، له قـدرة على اجتذاب العرب الذين تملؤهم الخرافات في غرب دارفور. وكان يعزي إليه القدرة علي تسخير الجن والثقلين (العفاريت). لم يكن عضواً في الطريقة السنوسية لكنه كان علي معرفة، لما سمعه، بما يختص بهذه الطريقة الدينية المشهورة وزعيمها المصلح، من (الأهـالي) بـالبلاد المجـاورة كالبرنو والبرقو والوداي والتي كانت السنوسية قد ترسخت طويلاً فيها.

إضافة لذلك كان حوالي خمسة وعشرين تاجراً من تجار طرابلس، الذين حضروا لدارفور عند دخول عثمان آدم لها، والذين عانوا مثل باقي سكان المدينة الآمرين علي يديه وفقـدوا كـل أملاكهم وبضائعهم، قد هربوا إلى أبي جميزة والذي قدم له فوراً الحماية التي كانوا ينشدونها. ومن هؤلاء التجار عرف محاولات المهدي لكسب سيدهم وشيخهم ود السنوسي إلى جانبه، وكيف أنـه قدم له كرسي الخليفة عثمان، والذي رفض نوليه بغضب وسخط. والآن خطرت فكرة باهرة لأبـي جميزة، فسيعلن نفسه خليفة عثمان، وبالتالي يؤمن لنفسه رعوية وأتباعاً بين معتنقي السنوسـية مما سيضيف الكثير إلى قوته ونفوذه.

لم يقصد أن يكون خليفة عثمان كنا أراد المهدي ذلك للسنوسي، ولكـن ليكـون خليفـة مستقلاً مما سيضعه علي قدم المساواة مع الخليفة عبد الله ألتعايشي، خليفة المهدي. لكننا للأسف لا نعلم الكثير عن الحجج التي استخدمها لإعلان نفسه باللقب الجديد. لكن رد عبـد الله ألتعايشـي علي تلك الحجج تظهر درجة العداء التي نظر بها لهذا المدعي الجديد، والذي يحاول الآن تقويض السلطة التي ما نالها إلا بتضحيات جسيمة وإراقة للدماء. وقد جاء خطابه إلى أبي جميـزة علـى النحو التالي:

---

* كان الشيخ فكياً مشهوراً وقد اعتاد علي أن يعظ أتباعه تحت شجرة جميز ضخمة. ومن هنا جاء لقبه الذي اشتهر بـه وسط أتباعه.

"بسم الله الرحمن الرحيم.....الخ.

نفيدكم بأننا تسلمنا وفهمنا ما جاء بخطابكم المؤرخ ١٣ ربيع الأول ١٣٠٦ والذي أوضحتم فيه أنكم تتبعون ما جاء بالقرآن والسنة وتتبعون طريق المهدي، وأنك خليفة عثمان، وأنك تعترف بي كخليفة بدون أن تشاهدني، وأنك مطيع للتعاليم.

لذلك أخبركم، بأن ما كتبتم هو خاطئ تماماً ولا قيمة له، لأنك قمت بما يعارض ما ذكرته، بمحاربة المدافعين عن دين الإسلام، ورجال المهدي، وقد علمنا بأنكم تقومون بأشياء مضللة وأنكم تسعون لبث الشقاق بيننا وبهذا تعملون على إطفاء نور سيد الوجود.

وفيما يختص بادعائكم الاعتراف بي كخليفة: فأن كان هذا صحيحاً فيجب أن تكونوا تحت إمرتي وأن تتصرفوا طبقا لأوامري. لذلك فأنني أمركم بأن تنبذوا أفكاركم تلك بطريقة لا رجعة فيها وأن تعودوا إلى الله وألا تقاتلوا أحداً وخاصة رجال المهدي الذين وكلنا إليهم التأليف بين الناس لإيقاف الفتنة ولدعوة العالم للإنحناء للمهدي وتنفيذ أوامر عاملنا عثمان آدم في بلاد الغرب. فإذا ما أطعتم أمري فسيتم العفو عنكم.

وأخيراً فأنني أطلب منكم حل جيوشكم والحضور بمفردكم لنا لتقديم ولائك لنا حتى نهديكم إلى طريق الحق وإلا، وبإذن الله، فسيتم القبض عليكم أينما نجدكم".

وأخذت شهرة أبي جميزة في الانتشار لأقصى مدى وأخذت الجموع تنضم لرايته. وتمكن من القيام بنظام مدهش لإطعام جيوشه المتضخمة مما أطلق الخرافة التي شاعت بأن له خيمة سحرية تصحبه في حله وترحاله، وما عليه إلا أن يأمر بالطعام حتى تقوم الجن والعفاريت بإحضاره بكميات مهولة له*.

وبالنسبة لمختلف مديريات السودان، التي أنهكتها تلك الحروب المتصلة وسفك الدماء، كانت الأنباء الخاصة بظهور حركة معادية للمهدية في أقصي الغرب، بمثابة صوت البوق الذي يعلن بأن خلاصهم قد صار قريباً ليتحرر الناس من تلك العبودية الفظيعة وطغيان المهدية وتسلطها عليهم. وقد عمت الفرحة أصقاع البلاد، شرقاً حتى سواكن وجنوباً حتى بحر الغزال وشمالاً حتى دنقلا، بالأنباء التي راجت بأن السنوسي الكبير قد أنفذ سلطته أخيراً وأنه قد أنتوي إزالة المهدي المدعي من علي وجه الأرض.

وكانت تلك الأخبار كلما تنتشر لمسافات أبعد كلما تضخمت في حجمها. فالنجاحات الأخيرة ضخمت لتكون إنتصارات باهرة تصوروا فيها أولاً أن الفاشر قد سقطت، ثم فترة من الصمت، ثم سقوط الأبيض، ثم التقدم نحو النيل وأكتساح ما في طريقهم ثم الاقتراب من الخرطوم. وقيل مرة أن الرعب والقنوط الذي أصاب الخليفة في وقت من الأوقات دفعه لتحصين نفسه في الخرطوم، وقيل في أخرى أنه فر إلى بربر، وفي ثالثة أنه هرب للجبال الجنوبية. ضج كل السودان بتلك الأنباء المثيرة، وحتى في القاهرة ساد الإعتقاد بأن نهاية المهدية قد أوشكت وأن حاكماً جديداً قد برز ليعمل أخيراً علي فتح الطريق لمكة وبأنه سيوقف شن الحروب على كل

---

* قدم شاهد عيان صورة للقوي السحرية، التي تمتع بها أبو جميزة، بكل إخلاص. ولم يتردد، وهو يحكي قصته، بأنه لا يشك إطلاقاً في مواهبه الخارقة للطبيعة.

العالم. ظنـــوا أن الأنقاذ قد أوشك، وكان كل قادم من السودان يبلغ عـــن النجاحـــات المتصـــاعدة للثورة المضادة للمهدية.

وتولدت عن تلك الأماني والرغبات أفكار وتصورات لما سيكون عليه الحـــال بعـــد زوال النظام وإمتلأت الأسواق بالإشاعات حول نوع العلاقة التي ستتم بين الحكومـــة والنظـــام الجديـــد. ووسط كل تلك الإشاعات الغريبة جاءت الأنباء من جغبوب بأن شيخ السنوسية الأكبر قد أنكـــر أي علم له بالحركة التي عملت تحت أسمه، بل أنها حتى لم تحصل علي تصديق أو تفويض منه. وفي الحقيقة فأن سلطان البرقو كان قد سأله النصح، لكنه أوصي بعدم التدخل." فقد كان قائداً مســـالماً لحركة للتجديد الديني ترفض سفك الدماء والسلب والنهب الذي يقوم به مهدي السودان المـــدعي. ولم يكن لديه أية نية أو رغبة في التدخل، وأن على محمد أحمد وخليفته العمل من أجل خلاصهما أو دمارهما، فهو ليس مسئولاً عنهما".

تلك كانت فحوى سياسة الشيخ الكبير. فهو بالقطع كان سيسر عند رؤية طريق الحج وقد فتح ثانية من الممالك الغربية إلى البحر الأحمر، حتى يقوم الأتباع المخلصون بأداء فريضة الحـــج إلى مكة المكرمة، بدون خوف من أي إزعاج أو تحرش، وربما كان قد وافق على ما أذاعـــه أبـــو جميزة بأنه ما أنكر سلطة المهدي وخليفته إلا لمنعهم من فريضة الحج التي أمر بها القرآن، كمـــا أنه يرفض السماح له بتحويل الحجاج لزيارة ضريح المهدي بأم درمان بدلاً عن زيارة قبر الرسول العظيم. إذن فمن وجهة النظر الدينية فأن السنوسي يعتبر من المناصـــرين المخلصـــين للحركـــة وبالتالي أمدها بالدعم المعنوي والأخلاقي. أما أكثر من ذلك فأنه لم يفعل لها شيئاً، بل لم تكن لديه حتى أدني رغبة بأن تنسب الحركة لأسمه.

أصبحت هذه الحقائق معروفة، وعلم الجميع للمرة الأولى بأن كل تلك التقارير الممعنـــة في تطرفها، والخاصة باقتراب سقوط دولة المهدية، يجب أن تعدل. وبخطى متهلودة، أخـــذ ذلـــك الغليان الذي صحبته تلك التوقعات القلقة يبرد شيئاً فشيئاً. وسرعان ما تم اعتبار تلـــك الحركـــة ووصفها بأنها مجرد ثورة محلية أصابت النجاح. فربما تضيع دارفور من الخليفة، وربمـــا تهـــدد الأبيض، لكن الأنباء التي تسربت تدريجياً بين القبائل المجاورة للحدود (المصرية) وسواكن، والذين كانوا يتمنون من صميم أفئدتهم كل النجاح لأبي جميزة، أظهرت أنه حتى دارفور لـــم تســـقط وأن عثمان آدم القوي لا زال يحكم من الفاشر.

وإذا ما رجعنا للعمليات التي سببت تلك الفورة من الترقب القلق، والتي عندما ننظر إليها نظرة تاريخية مجردة، فأن المرء تصيبه الحيرة بسبب الكيفية التي وصلت فيها أخبار تلك العمليات وضخمت، وكأنها حقائق، لدرجة لا تصدق، مما يدعو لملاحظة صحة المثل القائل بألا كرامة لنبي في قومه.فالسودان الذي أنهكته الحروب المتواصلة والتي غمرت أرجاءه بالدم، فأن مجيء نبـــي يعمل على تحرير الأهالي التعساء من حالهم البائس، ويدمر البقارة البالغي القوة، لهو أمر يحظى بالترحيب والقبول وكأنه مركب النجاة في سفينة غارقة. وما كان تلوين نجاحـــات أبـــي جميـــزة وإعطائها شبهاً من الحقيقة، والتي إنتهت بخيبة أمل مريرة، إلا بسبب الحنين والتوق للخلاص من جانب التعساء الذين عانوا من حكم المهدية، والبعيدين كل البعد عن مسارح العمليات.

إنضم أبو جميزة في أوائل أكتوبر إلى أبي الخيرات في دار تامـا. وأصـبحت قـواتهم المشتركة تضم الآن عدة آلاف من الرجال وشرعوا في الزحف نحو الفاشر. أرسل عثمان آدم ربع قواته إلى كبكابية، التي تبعد ثلاثين ميلاً من الفاشر، بقيادة الأمير عبد القادر دليل. وهنـا، وفـي السادس عشر من أكتوبر قام أبو جميزة بهجوم بالغ الشراسة عليه وكاد أن يدمره تمامـاً. وبعـد أسبوع من ذلك أرسل عثمان آدم قوة أخرى بقيادة الختيم إلى كبكابية. لكنها لاقت نفـس مصـير القوة الأولى، وأصبح الوضع الآن مزعجاً لحد ما. أستعد عثمان لمواجهة الحصار وجمع كل مـن أستطاع أن يضع يده عليه من العرب وصمم علي الوقوف بصلابة في الفاشر على الأقل، ضد هذه الثورة الدينية التي إتسع نطاقها.

أما أبو جميزة، فبدلاً من مواصلة إنتصاراته، فقد عاد مرة أخرى إلى دار تاما حيث إنضم عدد كبير لأتباعه متأثرين بانتصاراته الأخيرة وللهيبة التي يحظى بها. وأرسل له سـلطان برنـو مزيداً من الدعم، كما أضاف سلطان برقو دعماً له أيضاً علي الرغم من نصـيحة السنوسـي لـه بالابتعاد عن التدخل. انضمت له أيضاً قبائل البني هلبة إضافة للفور والبديات والزغـاوة وكثيـر غيرهم مما أدي في أواخر عام ١٨٨٨، إلى تضخم (جيوشه) لدرجـة مرعبـة. لكـن العمليـات العسكرية التي جرت بعد ذلك في اوائل العام التالي ستكون موضوعا لبعض أحداث العـام ١٨٨٩، التي سترد في حينه.

•••

الإستوائية، في عام ١٨٨٨:

بينما كان ستانلي للمرة الثانية يكابد، على ظهر مركبه (أدفانس)، كي يصل للبحيرة، غير كباريقا، الصديق، سلوكه (تجاهه) فجأة. وكما جاء من قبل، فأن حملة الإنقاذ عنـدما قـدمت لأول مرة للبحيرة في ديسمبر ١٨٨٧، كانت قد خاضت لمدة خمسة أيام متتالية معـارك مـع محـاربي المازامبوني. كان أولئك المحاربون من رعايا كباريقا. وعندما بلغته أنباء هزيمة رعاياه أعتقد بأن بلاده يجري غزوها بجيش لجب يقوده زعيم أبيض اللون، والذي لابد أن يكون قد استدعاه صديقه (السابق) أمين. بالتالي تغير سلوكه تجاه الأخير تماماً وصب جام غضبه على كاساتي التعس والذي وجد نفسه فجأة، في الثالث عشر من فبراير، سجيناً، وتم نهب منزله وجردوه من ملابسـه، مـع الإهانة البالغة، حتى أصبح شبه عار. أما محمد بيرى، رسول أمين الموثوق به، فقد سقط ضـحية غضب كباريقا وإنتقامة وتم قتله.

ولحسن الحظ تمكن كاساتي من الفرار، وأفلح في إيفاد مبعوث لأمين أوضح له ما حدث له ولزميله. وبعد أيام من تجواله علي غير هدى على شواطئ البحيرة، في حالـة مـن البـؤس والجوع، تمكن أمين من إنقاذه بعد بحث مضني عنه بباخرته. وهكذا التقى أمين وكاسـاتي، بعـد طول إفتراق، وذلك قبل بضعة أسابيع من وصول ستانلي للمرة الثانية إلى بحيرة ألبرت.

أثناء ذلك داعت الأنباء التي أزعجت كباريقا ذلك الإزعاج، وإنتشرت على طول ضـفاف النيل متضخمة كلما بعدت المسافة. وصلت تلك الأنباء للخرطوم حوالي شهر مايو ومنها تسـربت إلى سواكن ثم للعالم الخارجي، والذي لم تكن قد وصلته حتى تلك اللحظة أي معلومات عما قام به

ستانلي هناك. كان جوهر تلك الإشاعات هو"أن باشا أبيض اللون قد ظهر في بحر الغـزال، وأنـه يتقدم منتصراً، وأن الخليفة عبد الله انزعج كثيراً".

وكثرت الظنون عن ماهية هذا الباشا الأبيض. وقال البعض أنه لابد أن يكون ستانلي، وقال البعض الآخر أنه أمين. أما (من تطرف) فقال أنه تلك الشخصية الغامضة أبو جميزة، رجل دارفور، والذي كان يوصف بلون جسمه الفاتح، وأنه من أصل شمال إفريقي. وهناك أيضاً من زعموا بأنه لابد أن يكون الكابتن فان جيلي، والذي كان معروفاً بأنه يستكشف مناطق الولي في ذلك الوقت. ولم يتضح السر إلا بعد مرور عامين بعد ذلك. وقد كانت رواية ستانلي، بدون شك، هي الصحيحة، فقد كتب في التاسع والعشرين من مارس ١٨٩٠، إلى الجنرال جرنفل (الرسالة التالية):

" القاهرة في ٢٩ / ٣ / ١٨٩٠م

عزيزي الجنرال جرنفل

فيما يختص "بالباشا الأبيض" فأنتم تعلمون بأنني لم أسمع أي شئ خاص به إلا بعد وصولي للجزء الجنوبي من بحيرة فكتوريا. وجدت هناك (قصاصات) تتحدث عن الإشاعات المتعلقة بتلك الشخصية الغامضة، ومن الوصف الذي جاء بها فأن تلك الشخصية هي مزيج مني ومن أمين. ففي ١٤ ديسمبر، أو بالأحرى في أيام ١١ و١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦ و ١٧ ديسمبر ١٨٨٧، كنا في معارك مع حلفاء كباريقا وبلغت تلك الأنباء كباريقا في أنيورو فقام بطرد كابتن كاساتي. وسرعان ما وصلت أنباء وصولنا (للبحيرة) إلي يوغندا وأنيورو وضخمتها الإشاعات. تم إطلاق سراح ماكاي من يوغندا، وطرد كاساتي من أنيورو، وكان كابريقا قد أكتسح أخيراً كل المناطق التي تقع شرق النيل الأبيض وأصبح علي علاقة وثيقة مع المتعاطفين مع المهدية في اللادو وحتى دوفيللي والرجاف، والتي هي مركز قيادة أكثر المتطرفين كراهية لأمين. وكما ذكرت فقد وصلت أخبارنا، مصبوغة بمخاوف كباريقا، وقام الجهلة في اللادو بتضخيمها ثانية وأصبحت تنمو وتكبر كلما انحدرت مع النيل لتصبح الباشا الأبيض. وعندما بلغت الأخبار تلك الخرطوم، وعند محاولتهم تحديد تلك الشخصية، أصبح ذلك الباشا شخصاً واضحاً يحمل سمات أمين مضافاً إليه ما نسبته مخاوف كباريقا إليه. وهكذا أصبح الشخصان، المتميزان عن بعضهما، شخصاً واحداً في الخرطوم. وقد تقصينا الأمر بروية أنا وماكاي وأمين، في مسلالا، ووصلنا جميعاً لنفس النتيجة. لم أسمع أبداً عن أي شخص آخر، من أي أحد، كان في نواحي الاستوائية وما جاورها.

المخلص

(إمضاء) هنرى م . ستانلي

معنون للجنرال السير فرانسس جرنفل......الخ......الخ.

وفي سواكن حاول الميجر رندل، القائد بها، أن يتحرى عن العلاقة التي بين ذلك الباشا الأبيض وبين ستانلي. فكتب إلى عثمان دقنة يسأله إن كانت قد بلغته أي أنباء خاصة بوصول الرحالة أو أمين. وتسلم الرد بعد عدة شهور، والذي سنشير إليه فيما بعد، وهو عبارة عن نموذج

رائع للتلفيق الشرقي المبني على نتفة من الحقائق، والذي يوضح سرعة جاهزية الخليفة في إستخدام مواهبه لإرباك عدوه عندما يجد فرصة لذلك. وحقاً فقد نالت الحقائق التي ذكرها عثمان دقنة في رده الذي أرسل للجنرال قرنفل في سواكن قبل معركة جميزة مباشرة في ديسمبر ١٨٨٨، نالت قبولاً وتصديقاً واسعاً وتلاشي لبعض الوقت كل أمل في نجاح حملة إنقاذ أمين باشا.

وبالنسبة للخليفة، فعند ما وصلته أنباء إكتساح باشا أبيض للأقاليم الجنوبية من ممتلكاته، قام في يوليه ١٨٨٨ بإرسال حملة، على ثلاثة بواخر وستة صنادل، مكونة من ٤٠٠٠ رجل، للتوجه للجنوب واستلام الاستوائية وتدمير الغزاة المتطفلين. وهكذا تهيأ المسرح للفصل الأخير من دراما الاستوائية.

تركنا أمين وستانلي في نسابي في أوائل أبريل. وقام ستانلي في ٢٤ مايو بالتوجه مرة أخرى للغابة المظلمة الكئيبة بحثاً عن مؤخرة رجاله. أما أمين وجفسون فقد توجها على الباخرة (الخديوي) لإبلاغ مختلف الحاميات بالأمر السامي الذي أصدره الخديوي، ولتجميع أولئك الذين كانوا راغبين في العودة مع ستانلي إلى زنجبار ومنها إلى مصر. لقد وصف المستر ستانلي والمستر جفسون في كتبهم التي أصدروها فيما بعد تلك الأحداث المثيرة التي جرت في الإستوائية خلال الشهور التسعة التالية، وبالتالي سنشير هنا إلى أهم النقاط الخاصة بتلك الفترة العصيبة، بغرض متابعة التسلسل التاريخي لمختلف الأحداث، مع الاحتفاظ بالخطوط الأساسية التي جاءت في كتبهما، أي بمعني آخر، أن نصف بأكبر قدر من الدقة، حسب المعلومات المتاحة الآن، مختلف الأحداث التي طرأت بالسودان منذ انطلاق شرارة المهدية. وبينما لن نخوض في أي نقد لما جرى، فسنضع أمام القارئ وأمام أولئك المهتمين بتاريخ تلك البلاد الشاسعة وصفاً مجرداً غير متحيز يمكن من خلاله للقارئ أن يخرج بأستنتاجاته الخاصة.

توجه أمين وجفسون أولاً لزيارة المحطات التي في أقصي الجنوب. وبعد قراءة خطابات وأوامر صاحب السمو الخديوي وسعادة نوبار باشا للضباط المتجمعين وللجنود والموظفين في كل محطة، سئل الأخيرون عما إنتووا القيام به، وإذا ما كانوا يقبلون العرض الخاص بتوصيلهم سالمين لمصر، أم يختاروا البقاء حيث هم.

جاءت الإجابة بالإجماع، من كل محطة، وقالوا:" سنتبع حاكمنا أينما ذهب".

وعند وصولهما لكيري، المحطة الأخيرة والتي بها الكتيبة الثانية، تسلم أمين خطاباً من حمد أغا، قائد الكتيبة الأولى بالرجاف، يحذره من عدم الذهاب لأبعد من ذلك، لأن الضباط والجنود خططوا مرة أخرى لاعتقاله وقرروا أنهم بعد القيام باعتقاله سيتوجهوا إلى الخرطوم. لذلك قرر أمين وجفسون العودة للجنوب مرة أخرى. وعندما تمت قراءة الإعلانات في لابوريه خرج جندي من الصفوف صائحاً:" كل ما تقوله لنا عبارة عن أكاذيب، وتلك الخطابات والأوامر مزورة كلها، فالخرطوم لم تسقط، وهي الطريق الوحيد لمصر. لن نذهب إلا من ذلك الطريق فقط أو نبقي ونموت في هذه المنطقة".

كانت تلك حالة تمرد واضحة. ولقد ذهل المستر جفسون بعد أن فوجئ بما حدث، إذ لا يبدو أنه كان على علم بروح التمرد السائدة في المنطقة. استخدم أمين باشا سلطاته وأمر بسجن

الجندي المتمرد. وفور أمره بذلك خرج الرجال من الصفوف وأحاطوا بحاكمهم وبجفسون، وبعد أن عبأوا بنادقهم صوبوها نحوهما. ولوهلة ساد الضجيج والصخب وبدا أن مذبحة على وشك الحدوث. لكن ذلك الفوران سرعان ما خمد، بنفس السرعة التي بدأ بها. هدأ الجنود وأعتذر الضباط. وقد إتضح فيما بعد بأن كل ما جرى كان شيئاً مدبراً. وأن الرأس المدبر لم يكن إلا سرور أغا قائد المحطة.

وأثناء ذلك قامت بعض الحاميات إلى الجنوب، التي كان أمين وجفسون قد نقلا إليها فحوي الإعلانات قبل توجهها شمالاً، بالدخول في ثورة تامة. فقد قام بعض الضباط والموظفين المصريين في فابو، من الذين كانوا قد أرسلوا للسودان لاشتراكهم في عصيان عرابي المسلح عام ١٨٨٢، بتحريض جنود الحامية بزعم أن الخطابات والإعلانات التي جاء بها أمين مزورة، وأن ستانلي ومن معه ما هم إلا مجموعة من المغامرين، وأن كل العملية كانت مدبرة لإخراج الناس جميعهم من بلادهم، بنسائهم وأطفالهم، وتسليمهم عبيداً للإنجليز. وأضافوا أنهم مثلما تمردوا من قبل على الخديوي فأنهم لا يرون سبباً يمنعهم من التمرد على حاكمهم أمين، والذي ما هو إلا أداة في أيدي أولئك المغامرين. سيطرت كلمات التحريض على العصيان تلك علي رجال الحامية، وقام حاكم فابو، المدعو فضل المولي أغا، بتزعم الثورة وزحف برجاله نحو دوفيللي وقبل أن يصل أمين وجفسون للمدينة كانت في ثورة وتمرد واضحين. وعند وصولهما في الثامن عشر من أغسطس ألقي القبض عليهما وأودعا السجن. خلع أمين من منصبه، وأرسلت خطابات إلى كل المحطات تفيدهم بأسره، وتقرر بأن ينقل أمين سجيناً إلى الرجاف في الوقت الذي جرى فيه التآمر لإغراء ستانلي ورفاقه للحضور للمديرية، حتى تتم سرقة ما لديهم من بنادق وذخائر، ثم بعدها يتركونهم هائمين على غير هدى. ثم عقدوا إجتماعاً تقرر فيه طرد كل الضباط الذين عرف عنهم الولاء والصداقة مع الباشا المخلوع.

سمي حمد أغا حاكماً بدلاً عن أمين، كما حل سليم بك محل حواش أفندي. أما نائب المدير، فلكي يتجنب تعيينه رئيساً للمجلس الذي سيدين المساجين، فقد القى بنفسه في النهر، لكنه أنقذ، وتولي صالح بك مكانه في الرئاسة.

سارت الأمور على هذا المنوال لبعض الوقت حتى جاءتهم في الخامس عشر من أكتوبر الأنباء المفزعة بأن قوات المهدويين* قد وصلت لأدو في ثلاثة بواخر وتسعة صنادل ومقطورات كبيرة. وفي السابع عشر من الشهر جاء ثلاثة من رجال العدو إلى دوفيللي حاملين رسالة وعلماً للهدنة. كان الخطاب صادراً من عمر صالح**، قائد القوات المهدوية ومعنوناً إلى أمين، وطالباً منه الإستسلام، مع وعد بالعفو عن الجميع. قام المتمردون بفتح الخطاب، وبعده قرروا المواجهة والقتال، وبدأوا بقتل الرسل الثلاثة.

---

* أرسلت من أم درمان في فبراير.

** عمر صالح رجل جعلي، تربي في شكا ونشأ فيها، وتزوج إمرأة من الرزيقات. كان قد توجه لأم درمان قبل فترة من الزمن لمبايعة الخليفة، وتم إختياره للقيام بالمهمة الخاصة بأخضاع الاستوائية والقبض علي "الباشا الابيض".

وفي ٢١ / ١٠ وصلتهم أخبار، أفزعتهم بأكثر من ذي قبل، بأن المهدويين، وبعد أن إنضم إليهم عدد كبير من الباريا، قد هاجموا واحتلوا الرجاف وقتلوا ثلاثة ضباط وكاتبين وعدداً أخراً من الرجال، بينما تم أسر الباقين وكل النساء والأطفال. غمرهم الفزع بعد تلقيهم لهذه الأنباء، وفرت حاميات بدين وكيري وموجي بدون نظام إلى لابوريه. وحاول المتمردون تجميع قواتهم في موجي لوقف تقدم الأنصار، لكن هذه الخطوة قادت إلي انشقاق صفوف الضباط،، وأعلن الجنود الآن بأنهم لن يقاتلوا حتى يطلق سراح أمين باشا ويعاد لمنصبه كحاكم عليهم. وفي الخامس عشر من نوفمبر وصلهم ما يفيد بأن بعضاً من القوات قد غادرت موجي إلى الرجاف، وأنهم عندما اقتربوا منها هاجمهم عمر صالح وشتت شملهم. فهرب الرجال تاركين ضباطهم، ومن بينهم ستة من القتلى، كان أحدهم الحاكم الجديد الذي نصبوه، حامد أغا، وضابطين أسرى وأن كثيراً من الجنود الذين أنهكهم القتال قد طوردوا وقتلوا.

كان تأثير هذه الأنباء علي دوفيللي فورياً.. فقد سيطر الضباط الذين لازالوا مواليد لأمين على الباقين وأرغموهم على إطلاق سراح السجناء. وبعد ثلاثة أشهر من الحبس الشديد أفرج عن أمين وجفسون وأرسلاهما لوادلاي حيث قوبلوا بحماس شديد من قبل الأهالي والجنود، والذين تأكدوا الآن وللمرة الأولى بأن الخرطوم قد سقطت حقاً، وأن بعثة ستانلي هي فعلاً كما ذكرته، أي أنها (بعثة إنقاذ) تم تكوينها لإنقاذهم من أيدي المهدويين. وفي الرابع من ديسمبر وصل الضابط القائد لبارا، وهي محطة صغيرة بين دوفيللي وودلاي، في عجلة شديدة وأفاد بأن المهدويين قد مضوا قدماً في زحفهم وأنهم قد استولوا على دوفيللي وفابو، وأن كل المحطات الشمالية قد سقطت في أيديهم، وأن البواخر التي بها قد غنمت، وأن كل الأهالي الذين بتلك الجهات قد انضموا لرايات عمر صالح المظفرة. عقد اجتماع في ودلاى تقرر فيه إخلاء ود لاي علي الفور والتراجع براً إلى تنجورو حيث ظنوا أنهم ربما يلتقون هناك بطابور ستانلي في فورت بودو. بالتالي أرغم جفسون على تدمير قاربه (أدفانس) ليمنع سقوطه في يد العدو. وفي اليوم التالي بدأ إخلاء ود لاى ولكن، وفي اللحظة الأخيرة، قرر الجنود الذين هم في معظمهم من أهالي مقاطعة مكاراكا، العودة إلى وطنهم الأصلي. وما أن غادر أمين وجفسون، مع معظم السكان، المحطة حتى دخلها أولئك الجنود ونهبوا المنازل. وفي ٦ ديسمبر ١٨٨٨، وبينما كانت الجموع المنسحبة شاقة طريقها إلي تنجورو ببطء جاءت باخرة كانت متتبعة لهم وظنوا بأنها من بواخر المهدويين وأستعدوا لإطلاق النار عليها. لكنهم عرفوا بأنها كانت باخرة دوفيللي وقد جاءت حاملة رسائل لأمين باشا مفادها أنه، وبعد كل الذي جرى من المهدويين، إلا أن دوفيللي لم تسقط في أيديهم. وكان العدو بالفعل قد أستولى على فابو، التي تم إخلاؤها قبل ذلك ورجعت حاميتها إلى دوفيللي، ثم هاجم دوفيللي وإستولوا عليها لبعض الوقت وعلي البواخر أيضاً، إلا أن بقية رجال الحامية، وعددهم حوالي ٥٠٠ رجل، والذين كانوا قد طردوا عنها، وجدوا أنفسهم بين نارين. وبطاقة وعزيمة اليائسين، وبقيادة قائدهم سليم بك، عادوا وهاجموا المحطة واستولوا عليها وألحقوا خسائر كبيرة بالعدو مما أجبره على الانسحاب إلى الرجاف وطلب النجدة العاجلة.

في تلك الأيام الأربعة دار قتال متواصل في دوفيللي. وقد قتل أربعة عشر ضابطاً وعدد كبير من الجنود. ولما تلقت حامية ودلاي الصغيرة، والتي كانت على وشك العودة لمكاراكا، تلك الأنباء، توسلت لأمين باشا للعودة. لكن سلوكهم الذي لا يثق فيه، دفعه لأن يقرر مواصلة السير لتنجورو. ولما علم بهذا القرار في ودلاي توصلت حاميتها لنتيجة مفادها أن الأخبار السابقة الخاصة بسقوط دوفيلى قد قام بطبخها أمين وفبركتها حتى يسلم الحامية لعمر صالح بينما يتراجع هو ومن معه ويتركونهم. لذلك قرروا إعدام أمين وكاساتي وجفسون بتهمة الخيانة ولم ينقذهم إلا حظهم الحسن الذي أسعفهم بوصولهم إلى تنجورو وبالتالي لن يتمكن المتآمرون من تنفيذ حكمهم عليهم.

وبعودة إلى ما قام به عمر صالح فور وصوله للرجاف نجد أنه، وبعد هجومه واستيلائه علي تلك المحطة, وعلمه بأن أمين وجيفسون كانا سجينين لدي المتمردين، ولأنه لم يشك في أنه سيستولي على كامل المديرية في الوقت القريب، قام بإرسال أحدى بواخره للخرطوم وبها عدد من الضباط الأسرى وغنائم الرجاف، وأرسل معها الخطاب التالي إلى سيده وزعيمه الخليفة، المؤرخ في ١٥ أكتوبر ١٨٨٨: توجهنا بالباخرة والجيش ووصلنا إلى الادو حيث يقيم أمين، مدير الاستوائية، في ٥ صفر ١٣٠٦هـ (١٠/١٠/١٨٨٨)، علينا أن نشكر الضباط والجنود الذين سهلوا علينا عملية الفتح، لأنهم ألقوا القبض علي أمين وعلى رحالة كان مقيماً معه، وكبلوهما بالأغلال، ورفضوا الذهاب إلى مصر مع الترك.

"كان توفيق قد أرسل لأمين أحد الرحالة واسمه المستر ستانلي. وقد أحضر هذا المستر ستانلي رسالة من توفيق لأمين مؤرخة ٨ جمادى الأولى أخبره فيها للرجوع مع مستر ستانلي وترك الخيار لبقية القوات للرجوع معه أو البقاء هنا حسبما يرغبون.

رفضت القوات أوامر الترك واستقبلونا فرحين. ولقد وجدنا كميات كبيرة من العاج والريش. وها أنا أرسل لكم، على ظهر البوردين، الضباط والباشكاتب بقيادة محمد خير. وأرسل لكم أيضاً الخطاب الذي أرسله توفيق لأمين مع البوارق والرايات التي أخذناها من الترك.

وقد علمت بأن رحالة آخر قد جاء لأمين. وأنا أبحث الآن عن مكانه. وإذا ما عاد فأنني واثق من القبض عليه.

كل زعماء وأهالي المديرية مسرورون لرؤيتنا. ولقد استلمت كل السلاح والذخيرة. وعندما تري الضباط والباشكاتب وترشدهم (للهداية) فأرجو إعادتهم مرة أخري لأنهم سيكونون في غاية المنفعة لي".

وقد أرسل مع تلك الرسالة نسخة من الخطاب الذي يحتوي على الأمر السامي الذي أصدره الخديوي، والذي حصل عليه من الرجاف* إضافة إلى بعض ذخيرة سنا يدر.

---

* حسب علمنا، فأن وصول عمر صالح للرجاف بدون قتال لإيدع مجالاً للشك في قيام الحاميات الشمالية بالوصول إلى تفاهم معه. وفيما يختص بالحاميات بالمحطات الجنوبية فلا يوجد إلا شك قليل بأن عدداً من الضباط قد قرروا إعتناق المهدية. بالتالي كان عمر صالح، في الوقت الذي كتب فيه خطابه التاريخي، على قناعة تامة بأن الضباط يميلون إلي التسليم له. وكان يمكن أن يتم ذلك لو لا قيام الجنود بتولي زمام الأمور بأيديهم وإجبارهم للضباط في حامية الرجاف ليقودونهم ضد الغزاة.

وعند تلقي الخليفة لتلك الأخبار، ذكر نفسه بقلق سلطات سواكن لمعرفة مصير حاكم الإستوائية، وقام بإرسال الخطابات إلى عثمان دقنة مع أمر بتسليمها لسواكن. قام عثمان طبقاً لذلك بتحويلهم، مع خطاب منه، إلى الجنرال قرنفل، والذي كان في ذلك الوقت يقوم بالإستعدادات اللازمة للهجوم علي العدو المحاصر لسواكن.** وجري خطاب عثمان دقنة كالتالي:

"بسم الله العظيم.... الخ.

هذا من عثمان دقنة إلى النصراني الذي يحكم سواكن: أسمح لي أن أفيدك بأنه قبل فترة من الزمن، كان رندل قد أرسل لي خطاباً يسألني فيه عن الرجل الذي كان حاكماً علي المديريات الإستوائية. وبوصول هذه الخطاب المذكور لأيدينا أرسلته في الحال إلي الخليفة عليه السلام...... الخ.

أرسل لي الخليفة الرد وأخبرني بأن، الحاكم المذكور لخط الإستواء قد سقط في أيدينا وأصبح الآن واحداً من أتباع المهدي. وأرسل الخليفة بواخر إلى خط الإستواء يقودها أحد زعمائنا يسمي عمر صالح. وقد وصلوا اللادو. وعند وصولهم وجدوا أن قوات الحاكم المذكور، والمكونة من عسكريين وضباط،قد أسروا الحاكم، مع رحالة كان معه. وقد كبلوهما بالقيود وسلموهما ليد زعيمنا (عمر صالح). والآن صارت كل المديرية في يدنا وخضع الأهالي للمهدي. وقد تسلمنا الأسلحة والذخائر التي كانت هناك، وأيضاً أحضرنا الضباط والباشكاتب للخليفة والذي إستقبلهم بطريقه طيبة وهم الآن مقيمون معه وقد سلموا له كل راياتهم. لذلك، ولأن رندل يريد معرفة ما حل بالحاكم، فعليك أن تخبره بهذه الرسالة.

أرفق لكم نسخة من الرسالة التي بعثها زعيمنا بالإستوائية إلي الخليفة، وأيضاً نسخة من تلك التي أرسلها توفيق للحاكم المذكور.

وأرسل لك أيضاً دسته من الذخائر التي أحضرت من الإستوائية. أسأل الله هزيمة الكفرة وأسأله هزيمة المشركين".

وقد إنتهت سنة ١٨٨٨، والإستوائية تمر بفترة من الإضطرابات. وبدا أن كل مشاريع أمين للبقاء في مديريته، بدلاً من قبول العرض الخاص، الذي قدمه ستانلي، بإرجاعه سالماً إلي الشاطئ، قد خابت. فالآن وبنهاية ديسمبر نجد أن الحاكم المخلوع، مع بعض القوات المصرية وعوائلهم, في حالة مؤسفة من الورطة في تنجورو, ينتظرون بقلق وصول ستانلي، والذي وصل الآن للمرة الثالثة بالقرب من البحيرة. أصبح الجزء الشمالي من مديريته، من الرجاف، في يد المهدويين، أما من الرجاف إلي ودلاي فقد كانت الحاميات في فورة من التمرد والإضطراب.

***

** تمخضت عنها معركة جميزة، التي جرت في ٢٠ ديسمبر ١٨٨٨.

خريطة توضح
انتشار الثورة المهدية حتى نهاية ١٨٨٨

MAP TO SHOW
SPREAD OF MAHDI REVOLT
POSITION AT END OF
1888

VICTORIA NYANZA

INDIAN OCEAN

القسم الثاني عشر(أ)
(أحداث عام ١٨٨٩م)
وحملة ود النجومي

الملخص:

الإشاعات السارية بتقدم النجومي للشمال – عدم احتمال حدوث غزو من الضفة الغربية – الاستعدادات التي اتخذت بالحدود لمنع الغارات – خطابات من الخليفة للنجومي خاصة بالحملة – الصحراء الشرقية – هدية الخليفة لبشير بك – بحر كرار وبشير بك – النجومي يتلقى تعزيزات من نقلا – الأوضاع في دار فور والحبشة تؤخر تقدم النجومي – الخيانة في بمبان – النجومي ومساعد يتشاجران – وصول أعداد كبيرة من اللاجئين لحلفا – وصول عبد الحليم لسرس مع قوة عسكرية – الغارات علي دنيرة وسرا غرب – الخيالة المصرية تبيد المغيرين علي دبيرة – الإشاعات بتقدم النجومي – الغارة الثانية علي سرا – العدو في سرس ينتقل للضفة الغربية – إضطرابات في الصحراء الشرقية – مصطفى جبران يهزم العرب في جبل ميسا – تقريره الرسمي – محاولة الغارة علي أرقين – الغارة علي معتوقة – حسن خليفة يحتل آبار المرات – الكابتن سليم يمنع غارة علي قسطل – النجومي يكتب لعبد الحليم في سرس – تنظيم قوات الغزو – القوات المصرية تعتزم الإستيلاء علي سرس – أوامر النجومي ونواياه – وصوله لسرس – وصول جيشه لمعتوقة – إستكشافه لحلفا – قوات الغزو تقتحم الحدود المصرية – تنظيمات وأوضاع الكولونيل وودهاوس – تركيب جيش النجومي – معركة أرقين – مخالفة أوامر النجومي – طرد العدو من أرقين – الخلافات بين النجومي وعبد الحليم – ديم العرب فون أرقين – النجومي يخاطب الأنصار – خطة الكولونيل وودهاوس للمعركة – تدفق الإمدادات من القاهرة – توجه الجنرال قرنفل للحدود – النجومي يتوجه شمالاً – المعسكر بشمال أرقين – التوقف في سرا – الديم في أندان – النجومي يصل إلى بلانة علي رأس الطابور الطائر – خطاب النجومي لود سعد – صالح بك يتطوع لإخراج حسن خليفة من المرات – شيخ كوكي يستولى علي مدفعين في معتوقة– وصول الجنرال قرنفل إلى بلانه – استكشافه لمواقع النجومي – خطابه للنجومي – رد النجومي عليه – ندرة الطعام في معسكر العرب – عودة الجنرال قرنفل لأسوان – وصول القوات البريطانية – خطط الجنرال قرنفل وتوزيع القوات – كابتن لويس يستكشف سرس – إمدادات بقيادة مكين النور تصل للنجومي – يزحف شمالاً من بلانة – تركيز القوات في توشكي – حملة بشير بك علي أبرق – الملازم داقيلار يهاجم جماعة من العدو في عنيبة – وصول الجنرال قرنفل لتوشكي – قيامه باستطلاع مواقع العدو – النجومي أثناء تقدمه يطرد قوات الإستطلاع – إستدعاء المشاة والمدفعية من توشكي – الاشتباك بالقرب من توشكي – هزيمة العدو التامة – وفاة النجومي وكبار أمرائه – أسر أربعة ألف من العدو – توزيع الأسرى – اعتقال أبو يزيد – إعادة احتلال سرس بواسطة القوات المصرية – نتائج طيبة لحملة صالح بك في المرات – انسحاب بحر كرار من أنقات – محنة البشاريين – تأثير هزيمة توشكي علي المهدويين – تأثير الانتصار في مصر – خطابات من بعض الأمراء يطلبون العفو – وصول أعداد كبيرة من البشاريين واللاجئين الآخرين إلى الحدود – البقارة وحكم الإرهاب.

***

الحدود في ١٨٨٩*:

بدأ عام ١٨٨٩، والإشاعات تتواتر بتحرك النجومي من دنقلا (نحو الشمال). وكان محمد الخير، الذي فقد حظوته لبعض الوقت، قد أعيد تعيينه أميراً على بربر وبدأ في تنفيذ المخطط الأصلي لغزو مصر، لكنه هذه المرة فسيتم التقدم الرئيسي علي الضفة الغربية للنيل، وبالتالي يتم تجنب حلفا ومختلف المحطات العسكرية الوسيطة والطوابي المحصنة.

كان التقدم عبر الضفة الغربية، ذات الطبيعة الصحراوية الرملية القاحلة، أمراً غير معقول ولا يحتمل حدوثه من وجهة نظر العقلية العسكرية في مصر. ومع ذلك أتخذت الخطوات اللازمة لتعزيز الدفاعات لمختلف القرى على الضفة الغربية المجاورة لحلفا. وتم بناء بلوكات عسكرية في مختلف النقاط المعرضة للهجوم. ومن تجارب السنوات الماضية كان من المعتقد أن زحفاً للقوات متجهاً للشمال غير محتمل الحدوث، وأن كل الإشاعات المعتادة، التي تتحدث عن غزو علي نطاق واسع، ستنتهي بإرسال إمدادات قوية لسرس، وبعدها تتكرر نوعية الغارات السابقة في أغلب الإحتمالات. لذلك كان توزيع القوات علي الحدود مبنياً علي هذا الاعتقاد أكثر مما بني على صد هجوم وغزو واسع النطاق.

والخطابات التالية، من الخليفة إلى ود النجومي، تلقي بعض الضوء على الوضع العام خلال تلك الفترة:**

"بسم الله الرحمن الرحيم....الخ.

من عبد الله خليفة المهدي.... الخ، إلى المكرم عبد الرحمن النجومي، كان الله مرشده وعونه. عليك سلام من الله ورحمة وبركات. لقد وصلني خطابك الذي تخبرني فيه عن حاله الكرب التي تعاني منها القوات في دنقلا وسرس، وكذلك وصلني خطاب من عبد الحليم الذي يصف فيه بلواه العامة وألمه. وأخذت علماً بما ذكرته لي من عدم قدرتك علي إرسال إمدادات لعبد الحليم، وعلمت كذلك بأن كل عشرين من رجالك يشتركون في ربع من الذرة.

هذا هو حال الأنصار. ولأنك سألتني الإذن بالتقدم نحو بلاد الأعداء، فقد كتبت لك هذا الآن: عند استلامك لرسالتي هذه عليك القيام باستدعاء كل الأمراء والقادة وكل الذين تثق فيهم وتناقش معهم أمر الحملة التي أقترحتها وأرسل لي رأيهم ورأيك كن مستعداً حتى تكون علي أهبة عند وصول الإذن مني. وأرجو أن تعطي هذا الأمر غاية الأهمية، شاور الزعماء والإدلاء وأحرص علي جعلي علي علم بكل تحركاتك. أسال الله أن يبارك في عملك، على الرغم من الكفرة، وأن ينشر دينه. وأنا في انتظار الرد منك".

(إمضاء)، حسبنا الله ونعم الوكيل*

---

* هذا الفصل من الكتاب (القسم الثاني عشر أ) مخصص بأكمله لحملة ود النجومي (المعرب).

** وجدت هذه الخطابات في ميدان المعركة بتوشكي، في الثالث من أغسطس ١٨٨٩.

* ترجمها ونجت" الله وبركة ممثله كافية لنا" (المعرب).

"بسم الله الرحمن الرحيم .... الخ

من خليفة المهدي.....الخ، إلى المكرم عبد الرحمن النجومي، بارك الله فيه ونصره وأن تشمله رحمة الله وبركاته.

تسلمت خطابك والذي أبدت فيه استلامك لأمري بتعيين محمد الخير وعلي سعد وأمـراء الجعليين والبرابرة** والجميلاب والعالياب. وقد ذكرت لي في خطابك أنك تشاورت مع أخينا مساعد قيدوم والأمراء والآخرين الذين لديهم معرفة بالطرق.. الخ، وأنك قد إخترت طريق دنقلا وفضـلته علي طريق أبو حمد، لأنه صعب وعر لأسباب عديدة، وأن دنقلا أصغر من أن تأوي كل القـوات، وطلبت مني الإذن لمغادرة دنقلا فوراً حتى تجد مكاناً يتسع للتعزيزات والإمدادات.

إنني أتفق تماماً مع خططك. وسأكتب لمحمد الخير وعلي سـعد للمضـي وراءك فـوراً بقواتهما.

وفيما يختص بقيامك، فأنك ستستشير الأمراء الذين يعتمد عليهم، وكذلك مـع مسـاعد قيدوم، وأخبرني بقرارك.

كن مستعداً للتقدم فور وصول الإذن مني.

(الختم كما هو أعلاه)

١٧ ربيع الأول ١٣٠٦

(٢٢ نوفمبر ١٨٨٨)

ثم تواترت الإشاعات بحدوث إضطرابات في الصحراء الشرقية مرة أخرى. وبذل الخليفة عبد الله كل جهده لكسب شيوخ العبابده (المدعومين) إلى جانبه. وتلقي بشير بك، على يـد بحـر كرار، دعوة ملحة للإنضمام للقضية وأرفق مع الدعوة راية وكسوة أمير. لكن بشير قام علي الفور بإرسال الخطاب والهدايا إلى السردار وتمسك بالولاء للحكومة المصرية. ولابد هنـا مـن كلمـة توضيح للتعرف على العلاقة الغريبة التي كانت موجودة بين بحر كرار وإبن عمه بشـير. ونحـن نذكر أن التحرك الأخير في الصحراء الشرقية قد إنتهي باحتلال بشير لحيمور. لكن بحر كرار مـع قلة من رجاله كانوا لا يزالون بأنقات، وهي بضعة آبار على بعد أميال قليلة من حيمور، توصل إلى نوع من التفاهم المشترك مع بشير. وصلت هذه الإشاعة إلى آذان الخليفة فإستدعى بحر كرار لأم درمان وهدده بالقتل، لكن الأخير ذكر له في دفاعه عن نفسه بأنه يعرف بأن لـدي بشـير ميـول للمهدية، وأنه يوصي بكتابة خطاب إليه، والذي تسلمه بشير لاحقاً. ثم أرسل بحـر مـرة أخـرى للشمال حاملاً للرسالة الخطية، مع أوامر له ببذل ما في وسعه لإنهاك المواصلات هناك. أما بشير، والذي سر من خطاب الخليفة، فقد كتب رداً عليه وذكر بأنه سيساعد بحر في محاولاتـه. وهكـذا قامت بين الزعيمين مرة أخرى حالة من "الإتفاق رغم خلاف الآراء بينهما". هذه الحادثة الصغيرة هي نموذج واضح للمؤامرات التي كانت تحيط بالسلطات العسكرية وقتها، والتي من خلالها كـان من الصعب إتخاذ مسار واضح للعلاقات بينهما. فمن ناحية نجد أن النتائج الطيبة لما قام به بشير

** يقصد بالبرابرة سكان النيل من شمالي تخوم دنقلا وحتى أسوان، والمعروفين لدي الأوروبيين في بحري مصر بأسـم البربرين.

أمر معترف به، ومن ناحية أخرى فإن من المستحيل معرفة إلى أي مدى كان يعمل علـــى إمـــداد العدو بمعلومات عن تحركات الحكومة ونواياها حسبما يفسرها هو. فلو كانت لـــدى الحكومـــة أي قوات متوفرة فلاشك أنها كانت ستطهر بها الصحراء من كل مناديب المهدي. لكن الحكومة كانـــت محتاجة لأي رجل في الجيش المصري للدفاع عن الحدود وعن سواكن ولذا كانت مرغمـــة علـــي قبول ذلك الوضع.

وفي خلال تلك الفترة تلقي النجومي تعزيزات كبيرة من عرب البطاحين* في دنقلا. لكـــن ميولهم المعارضة للمهدية أوضحت بأنه من الصعب الإعتماد عليهم كمقاتلين. خـــلال ذلـــك كـــان النجومي، قائد القوات، ومساعد، حاكم دنقلا، في خلافات مستمرة. فكان الأول يعمل علي تجنيد أي رجل موجود بالمديرية للعمل تحت راياته. أما الأخير فكان ينصح بإبقائهم لفلاحة الأرض ولإمـــداد القوات بالغذاء.

وتعطل النجومي، الذي كان الآن على وشك مغادرة دنقلا للشمال، مـــن جـــراء الأنبـــاء المقلقة القادمة من دارفور والخاصة بسرعة نمو وإنتشار حركة السنوسي، وأنها كانت تعمل على تقويض سلطة الخليفة.

ثم جاءت الأنباء التي تتحدث عن خيانة أهالي النيل بشمال أسوان وتركزت الشبهات على إقليم بمبان والذي كان عدد كبير من تجار دنقلا واللاجئين قد إستقروا به بعد إخلاء دنقلا. وكانـــت مصالح أولئك الناس متعلقة بالطبع بالمحتلين الحاليين لأراضيهم بدنقلا، ولاشك في وجود إتصالات مستمرة بين بمبان ودنقلا. وكان من المحتمل جداً أن تجار بمبان كانوا يطلعون العرب على قـــوة القوات الحكومية وتحركاتها، وكانوا في المقابل يحصلون على تسهيلات لحركة بضائعهم. وقد تأكد فيما بعد بأنهم ساعدوا العدو من نواحي كثيرة ولكن لم يعرف قط طبيعة تلك المساعدات، رغم أنه ساد الإعتقاد بأنهم قد نصحوا النجومي بالتقدم وأنهم تطوعوا بمساعدته.

وصلت أخبار الخلافات بين النجومي ومساعد إلى أم درمان. وكان الخليفة، منـــذ وقـــت طويل، غائراً من شعبية النجومي مع العرب. لذلك رأى أن من السياسة إحلال أحد أبناء عمومته، يونس الدكيم والذي رجع لتوه من القلابات، محل مساعد. وقد وصل يونس لدنقلا في الثاني عشر من فبراير. لكن حملة الشمال تعطلت مرة أخري. فقد سببت النكسات التي واجههـــا العـــرب فـــي دارفور وبحر الغزال والحدود مع الحبشة، قلقاً بالغاً للخليفة. وبدأ مرة أخرى في سحب جزء مـــن قواته بالشمال ليرسلها إلى القتال في مناطق أخري. وفي الخامس والعشرين من فبراير غادر مكين النور سرس، مع قوة من البقارة، في طريقه للجنوب. وأصبح كل الســـودان يمـــور الآن بأخبـــار إنتصارات السنوسي (في الغرب). ووضعت الإشاعات، في سواكن، قائد (العصـــيان) علـــي رأس جيش لجب على بعد مسيرة بضعة أيام من الخرطوم. ولكن تبين فيما بعد بأن تلك الحركة لم تتعـــد حدود دارفور. ووسط كل هذا القلق وصلت أخبار هزيمة الأحباش ومقتل الملك يوحنـــا. وإلتفـــت

* هذه القبيلة، والتي تسكن علي ضفاف النيل الأبيض جنوبي الخرطوم، كانت مصدر شبهة الخليفة فـــي أن لهـــا ميـــولاً معارضة للمهدية. وقد عوملوا مثل ما عوملت قبيلة رفاعة وغيرها من القبائل غير الموالية للمهدية ولذلك تم سحبهم من مناطقهم ودفع بهم للقتال في أماكن بعيدة.

الخليفة مرة أخرى، بعد أن ارتاح من قلقه من تلك الناحية، وبعد أن أرسل حملة أخرى إلى دارفور، إلى غزو مصر. وخلال تلك الفترة من الهدوء في سرس أخذت موجات من اللاجئين تتدفق على حلفا قادمة من الجنوب ووصلت أعدادها إلى ٣٠٠ كل أسبوع، وعادت الحركة التجارية بين السودان ومصر لحد ما إلى نشاطها. ولكن عبد الحليم وصل إلى سرس في الثامن من أبريل بقوة من ١٠٠٠ رجل وعاد الشعور القديم بالتوجس القلق وترقب المزيد من الغارات المفاجئة والهجمات علي الحدود. وفي التاسع من أبريل وصل إلى سرس رأس (مقطوع) بشع الهيئة وأستعرض في سوق البلدة. وقد قيل بأنه رأس أحد كبار زعماء الأحباش الذي قتل في المعارك الأخيرة، وأن الهدف من إرساله لسرس هو إلهاب حماس المقاتلين لإحراز نصر مماثل.

تم تقديم محطات العرب الآن إلى عبكة، علي الضفة الشرقية، وإلى معتوقة، علي الضفة الغربية، وكلتا المحطتين تقعان علي بعد خمسة أميال ونصف جنوبي طابية خور موسي باشا. وفي ليلة الخامس عشر من أبريل قامت أقسام من قوات تلك المحطات الخارجية بالانقضاض على قري صحابة (بالضفة الشرقية)، على بعد ستة أميال شمالي حلفا، وأرقين (بالضفة الغربية)، والمواجهة تقريباً لصحابة، ونجحوا في الاستيلاء علي بعض المواشي وجرح بعض القرويين. وقد طاردتهم أطواف الهجانة لكنهم تمكنوا من الفرار.

أصبحت قوات سرس تتكون الآن من أكثر من ١٠٠٠ مقاتل بقيادة عبد الحليم ومعه من الأمراء مكين النور وود جبارة ومرغني (سوار) الذهب وود رحمة.

وفي التاسع والعشرين من الشهر غادرت مجموعة، بقيادة ود رحمة، المحطة الأمامية عبكة وقامت كالعادة بدورة إلتفافية طويلة في الصحراء ثم هبطت علي دبيرة عند حلول الليل. في نفس الوقت تقريباً قامت مجموعة أخرى بمغادرة معتوقة، وشوهدت في الجبال، بالقرب من أرقين، متجهة شمالاً. أبلغ شيخ أرقين أخبار إقتراب المجموعة الأخيرة للملازم دننج، والذي كان في دورية، بالباخرة التيب، قرب أرقين. ساد الاعتقاد بأن هذه المجموعة تنوي الإغارة على قرية سرا غرب، حوالي تسعة أميال شمالاً. لذلك قام الملازم دننج على الفور بالتوجه، مع إنحدار النيل، لحماية تلك القرية. لكنه عند وصوله في الساعة التاسعة إلا ربعاً مساءاً سمع إطلاق نار صادر من دبيرة (المقابلة لسرا) على الضفة الشرقية. نزل من السفينة بصحبة فصيل من ثلاثين رجلاً من الكتيبة السودانية الثالثة عشر ووجد القرويين في حالة من الإنزعاج والتوتر ويطلقون النيران في كافة الإتجاهات بهيجان شديد. وقد منعته ظلمة الليل والإضطراب والفوضى، لبعض الوقت، من اكتشاف أماكن وجود العدو، وأخيراً وجدهم في جزء من القرية يبعد بميل عن النهر، لكنهم فروا إلى الجبال عند إقتراب الفصيل منهم وقد أخذوا معهم بعض المواشي والغنائم.

كان من غير المجدي متابعتهم في الظلام. لذلك ركب الملازم دننج وفصيله السفينة، بعد أن أعاد الهدوء للقرية، وبعد أن وجد أن كل شئ على ما يرام في سرا غرب، توجه مرة ثانية لأعلي النهر حيث قام، من طابية إشكيت الحصينة، بتحذير الكولونيل وود هاوس في حلفا بما جرى، وفي نفس الوقت أرسل جماعة من الهجانة للطواف والمرور باتجاه خور موسي. أثناء ذلك أرسل الكولونيل وودهاوس تعليمات إلى فرق الهجانة بالضفة الغربية للمرور في دوريات من أرقين وحتى خور

موسي. وفي الرابعة صباحاً أرسل مائة من الفرسان بقيادة همت أفندي، ومعه الكابتن هكمان، نحو الجبال الشرقية للطابية، والتي من المحتمل أن يمر المغيرون على دبيرة بها في طريقهم لعبكة*. ثم توجه الكولونيل وودهاوس بنفسه إلى خور موسي ووصل إليها في نفس الوقت الذي شاهد فيه جماعة الهجانة مشتبكين مع المغيرين بالضفة الغربية. دار إشتباك قصير قتل فيه ثلاثة من العرب بينما تمكن الباقون من الفرار. أثناء ذلك قام الكابتن هكمان، بعد أن قسم قواته لقسمين ووضعهم على بعد ميل من بعضهم البعض، مختبئين خلف الجبال التي من المتوقع أن يمر بها العدو. وفي السابعة والنصف صباحاً شوهد العدو، المكون من حوالي أربعين رجلاً معظمهم يمتطون الخيل والأبل والباقين علي أقدامهم، ومعهم أعداد من المواشي، في طريقهم إلى عبكة. ركض هكمان في الحال مع جنوده حتى صاروا على بعد ٣٠٠ ياردة من العدو ثم ترجلوا وأطلقوا زخات من الرصاص باتجاهه ثم عاودوا الركوب وهجموا علي وسط جموع العدو ودار إشتباك عنيف بالأيدي بينهم، في الوقت الذي كان القسم الثاني من جنوده قد عبر الجبهة وارتكزوا في مكان بين العدو وخور عبكة وأبادوا من كان هارباً. لم يفلح في الفرار سوى فارسين وتم أسر ثمانية من رجال العدو بينما قتل الباقون، ومن بينهم الأمير ود رحمة. قاتل ود رحمة بضراوة يائسة لكنه سقط عندما قفز عليه أحد الجنود من حصانة، وألقى بنفسه حرفياً عليه. وبعد صراع عنيف تمكن من قتله*.

---

* تقع عبكة علي رأس الشلال الثاني بالضفة الشرقية.

* كانت هذه هي المناسبة التي، بعد أن استولت القوات المصرية على رماح أفراد العدو الذين سقطوا، ثم استخدمتها بفعالية طيبة ضد الباقين، جاءت فكرة إنشاء (قوات الرماحة) في فصائل الفرسان.

To face page 394

كروكى يوضح تحركات القوات على الباخرة التيب المدرعة ليلة ٣٠/٤/٩١م

Rough sketch of movements of Troops in ASW ELTEB on the night of the 30th April, 89

A S W = Armed Sternwheeler

(H. J. Benning) Bimb

D.A.A.G Intelligence

N

XIII Sudanese

الكتيبة السودانية الثالثة عشرة

DEBERRA FORT

طابية دبيرة

IGHKAIT FORT

طابية عشكيت

ASW ELTEB

الباخرة المدرعة التيب

ARGIN FORT

طابية أرقين

W. BANK FORT

طابية الضفة الغربية

HALFA

حلفا

Camel Corps

قوات الهجانة

KHOR MUSSA

خور موسى

Dervishes

والدراويش

Cavalry

فرسان الأنصار

Camel Corps

هجانة الأنصار

Dervishes

الدراويش

تأكد الآن، أن النجومي قد وصل الحفير بقوات كبيرة، وتبعد الحفير بثلاثين ميلاً شـمالي دنقلا، ولكن لم يتم التحقق بالضبط من مدى قوة العدو وتسليحه. فالعربي العادي أو المصري مـن الصعب عليه، أو لا فكرة لديه، عن الأعداد. وكل من قدموا من الجنوب كـانوا يقـدمون أرقامـاً وتقديراتاً متفاوتة. وقد قيل أن قواته كانت تتكون من البقارة، والجعليين، والبطاحين، والفلاتـه** وعرب البني حسين*** وبلغ مجموعهم حوالي خمسة ألف رجل، لهم سبعين راية. لكن هذا العـدد كان يشتمل على النساء والأطفال والذين كانوا دائماً يسيرون مع الجيوش العربية عند تقدمها. هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الخيول والجمال وخمسة مدافع. وكانت القوة كلما تقدمت للأمام أخذت معها من تجد من الأهالي غير الراغبين وتضمهم إليها حيث يستخدمونهم كعبيد وحمالين.

أثناء ذلك تم تعزيز قوات سرس. وقدرت أعداد القوات بها بحوالي ٢٥٠٠ رجل ومعهم ٢٥٠ جواداً و ٣٠٠ جمل و٤ مدافع، إضافة إلى عدد كبير من النساء والأطفال.

ولم يعـد هنالك الآن أي شـك بأن محاولـة لحركة على نطاق كبير، أكبـر ممـا فـي الأعوام السابقة، على وشك الحدوث وعملت كل الترتيبات اللازمة على الحـدود للحمايـة مـن الغارات أو المفاجآت.

ويوم ٧ مايو جاءت أخبار لحلفا بأن قوة من العرب قد عبرت إلى الضفة الغربية لسرس قبل يومين، وأنها شرعت في الحال في التقدم نحو معتوقة. وكان المعتقد فـي سـرس أن غـارة عسكرية ستشن إما على أرقين أو سرا. تم بالتالي إرسال مائة رجل من رجال الكتيبة الثالثة عشرة السودانية، بقيادة الملازم كننقهام إلى أرقين، بينما توجهت قوة أخرى من خمسين رجلاً من نفس الكتيبة، بقيادة الملازم جدج، علي ظهر سفينة المدفع (طماي)، إلى سرا. توجه أيضاً سبعون مـن الهجانة بقيادة الملازم دننج إلى طابية أرقين. وفي اليوم التالي قامت الطلائع بالقرب مـن خـور موسي بالإبلاغ بأن قوة كبيرة من العدو قد غادرت معتوقة متوجهة شمالاً. تم بالتالي زيادة تعزيز قوة أرقين بالكابتن كمبستر ومعه ١٥٠ رجلاً من الكتيبة السودانية الثالثة عشرة.

وفي صبيحة يوم ٥/٩ الباكر قامت دوريات الهجانة بالإفادة بأنهم شاهدوا دروباً لقـوات كبيرة، واضح أنها متجهة شمالاً على بعد خمسة أميال من النهر.

وفي تلك الأثناء وصل الملازم جدج إلى سرا، وعند الصباح الباكر أثناء طوافه مع خمسة وعشرين رجلاً على ضواحي القرية، شاهد قوة من حوالي ٦٠٠ من الحرابة وعدة رجـال علـى صهوات الإبل والجياد، على بعد ميلين ونصف، متوجهين نحو الجانب الجنوبي للقرية. عاد الملازم فوراً إلى منزل العمدة، وهو منزل كبير مربع في نهاية الجزء الشمالي للقرية، وجمع حوالي ٣٠٠ من القرويين ومواشيهم وغيرها في مكان منها، وجهز القرية للدفاع بينما أسرع بإرسال سـفينته (طماي) إلى أرقين للإسراع بنجدته.

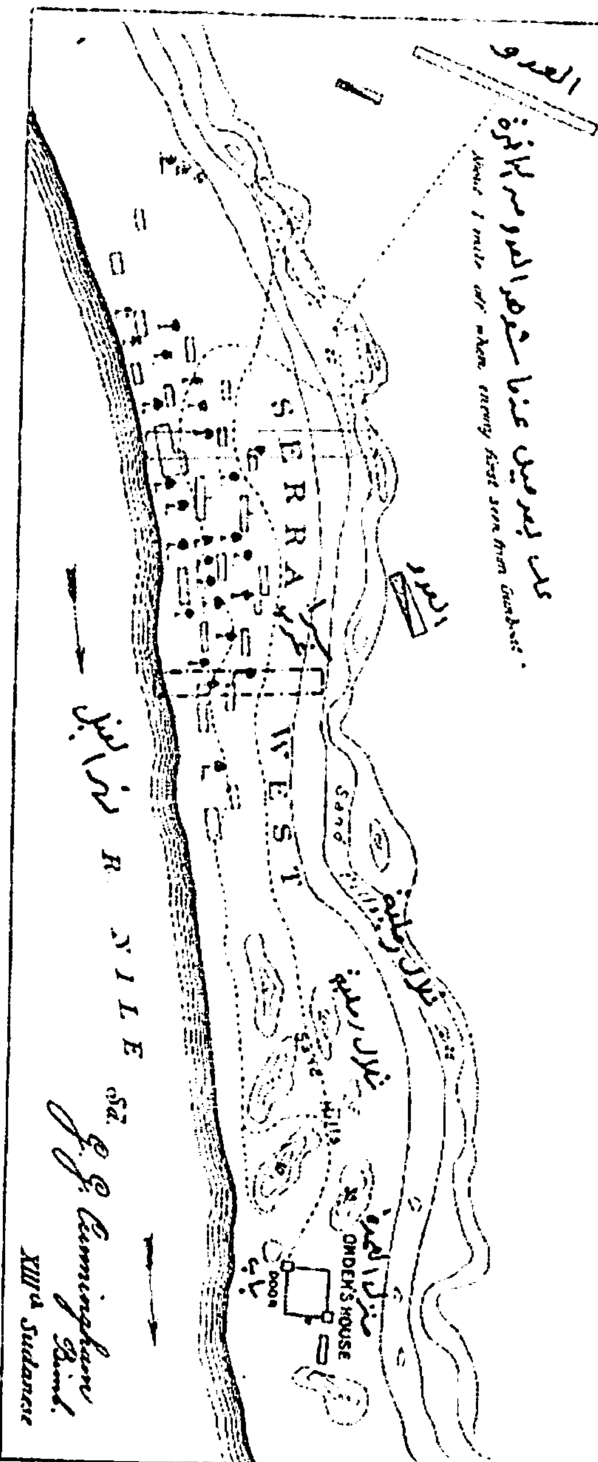
** الفلاته يوجدون في مناطق مختلفة من كردفان ودارفور.

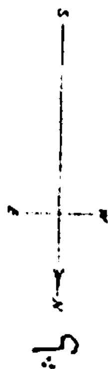
*** البني حسين يسكنون شمالي شرق الخرطوم.

دخل العرب القرية وشرعوا في نهب منازلها. وشوهد عدد قليل من الحراية والفرسان بالقرب من منزل العمدة وإستقبلوا بزخات الرصاص. وبعد إشتباكات متقطعة لحوالي نصف ساعة إنسحب العدو، وتابعه الملازم جدج ورجاله الخمسين وتابعوهم حتى التلال الرملية بجنوب غربي القرية وقتلوا منهم ثمانية من الشاردين وحرروا حوالي ٣٠ من القرويين وعدداً من المواشي. أما القسم الأكبر من العرب، وعندما علم بمطاردته، فقد استدار عائداً ووجد الملازم جدج نفسه مجبراً على التراجع ثانية نحو محطته المحصنة حيث وجد أن الملازم كننقهام قد وصلها للتو بصحبة ١٠٠ رجل من إلى الجزء الأخير أن يهاجم العدو، والذي عاد الآن بقوة أكبر إلى الجزء الجنوبي من القرية. تقدم نحوه بمائة وخمسين رجلاً وإلتقي معه في وسط القرية وفتح عليهم النار بعد أن وضع على جناحه الأيمن بعض الجنود لحمايته من هجمات خيالة العدو. لكن جماعة من الخيالة جاءت فجأة من خلف تل رملي وهاجمت جنود الجناح والذين تراجعوا نحو زملائهم. أما الملازم جرج، والذي كان، آخر من تراجع، فقد نجا بأعجوبة من حربة الأمير عبد الحفيظ والذي كان، ومعه بعض أشجع الفرسان العرب قد أندفعوا نحو الجناح الأيمن واشتبكوا في قتال بالأيدي إستطاع فيه الملازم جدج أن يلقي بنفسه على الأمير عبد الحفيظ ويرميه من جواده ويجرحه جرحاً بالغاً* تم بعد ذلك طرد خيالة العدو ولكن، وفي مواجهة قوة كاسحة أمامه، إضطر الملازم كننقهام مجبراً على التراجع نحو نقطته المحصنة. ومن هناك أرسل لسفينة المدفع لتقوم بالطواف أمام القرية، وبعد فترة تقدم مرة أخرى خلال القرية ووجد أن العدو قد هجرها. وبعد أن ترك بعض رجاله في سرا عاد مع بقية الجنود إلى أرقين.

أثناء ذلك كان الكولونيل وود هاوس قد أرسل مجموعة من الخيالة والهجانة من أرقين باتجاه سرا، بقيادة الملازم دننج والذي، بعد أن وجد أن العدو قد إنسحب بقواته، تابعه لبعض المسافة، مقترباً من مؤخرته، حتى تم استدعاؤه للتوجه لخور موسي غرب، والتي كانت بها قوة من ٥٠٠ جندي بقيادة الميجر هنتر، بعد أن عقد النية لقطع طريق إنسحاب العرب نحو معتوقة. وتم استعراض هذه القوة، باتجاه الغرب، في صباح العاشر من مايو الباكر لكنهم اكتشفوا أن العرب قد مروا، أثناء الليل، على بعد خمسة أميال من النهر وأفلحوا في الوصول لمعتوقة، وعاد الميجر هنتر بالتالي إلى حلفا.

* هذا الأمير، والذي كان قد قاد الهجوم من قبل على خور موسي، تم إنقاذه بواسطة رجاله. لكنه توفي من جراء إصابته البالغة بعد أسبوع من ذلك، في سرس.


ROUGH SKETCH
of the attempted Dervish raid on
SERRA WEST
ON 9th MAY 1889
Enemy
Intended disposition of Egyptian force
Actual
SERRA WEST
Sand
NILE
OMDEH'S HOUSE
Sd. J. J. Cunningham Bimb.
XIIIth Sudanese
To face page 396



وقد تم تقدير المسافة التي قطعها العدو، في صحراء قاحلة لا ماء فيها، بأكثر من ٧٢ ميلاً في ستين ساعة، مما يشهد لهم بقوة قدرتهم وحيويتهم عند الحركة. فقد العدو ثلاثين رجلاً لكنه نجح في تغنيم عدد من الماشية، وأسر بعض القرويين. أما الخسائر المصرية فكانت ستة جرحى وقتل أربعة قرويين وجرح ثلاثة منهم.

أثبتت الأعداد غير العادية التي إستخدمت في هذه الغارة الأخيرة، والإشاعات التي تتحدث عن تزايد قوات النجومي باستمرار، أن من المتوقع حدوث إضطرابات عظيمة على الحدود عما قريب. وأرسلت بعض الإمدادات البسيطة من القاهرة بينما تم تجهيز طابور طائر في حلفا مزود بأعداد كافية من البواخر والزوارق التي تمكنه من الحركة السريعة عند وصول أول إنذار. وفي الحادي والعشرين من مايو جاء تاجر من الجنوب وأبلغ أنه كان حاضراً عند أستعراض قوات ضخمة بدنقلا، والتى قدرها بحوالي ٨٠٠٠ مقاتل و ٢٠٠٠ من البازنجر. وقدر عدد الرايات التي توجهت للحفير بحوالي ٨٣ راية. أما يونس الدكيم فذكر أنه بقي بدنقلا ومعه ٤٠٠٠ مقاتل بينما توجه النجومي إلى الحفير. كل العرب كانوا تواقين للجهاد وقد تقرر أن يصحبهم للشمال ٧٠٠ فارس وحوالي ٥٠٠٠ – ٦٠٠٠ جمل، وقد أقيم في كرمة* مستودع ضخم للحبوب.

ويوم ٢٤ مايو نقلت قوات سرس معسكرها للضفة الغربية وكأنها تستعد للالتحاق فوراً بالنجومي، والذي قيل بأنه لا ينوي البقاء طويلاً في سرس بل سيتحرك قدماً في الحال. وفي السادس والعشرين من مايو قيل أن قوات النجومي وصلت لساقية العبد** أما النجومي نفسه فكان لا يزال بكرمة يدفع في الإمدادات للأمام. وكتب خطاباً لعبد الحليم في سرس بأنه متقدم بجيشه ومعه كميات من الزخائر والذرة.

***

وبدأت الأحداث بالصحراء الشرقية تأخذ منحي خطيراً. فالقائمون بالغارات في حلايب لم يبارحوا المناطق التي بجوارها، لكنهم أقاموا في منطقة آبار أجوا متيري، على بعد ٣٠ ميل من جبل علبة، وأجبروا البشاريين المجاورين لهم علي الإنضمام إليهم.

وعلم بشير بك بأنهم يعتزمون الهجوم على محطته بأبرق. فقام بإرسال أخيه مصطفى (لمعرفة الوضع) والذي كتب بعد وقت قصير بأن قوة العدو قد إذدادت إلى ١٠٠٠ رجل، وأنهم على بعد مسيرة خمسة أيام من أبرق، وأن الطريق تتوفر فيه المياه. وعندما قدم بشير بك هذه المعلومات علق قائلاً "بأن إنقضاضاً علي أبرك هو أمر ممكن، وأنه لو تم ذلك فأن أتباعه من العبابدة سيجبرون على الإنضمام للعدو، والذي سيستخدمهم كمرشدين وأدلاء لجماعاته المغيرة التي ترغب في الانقضاض علي مناطق بالنهر بين دراو وقنا (في صعيد مصر)، وأنه لن يكون قادراً لمنعهم من إحتلال أبرق إن أرادوا".

---

* تم استبعاد تلك الإفادة أولاً علي أساس أنها من المبالغات. لكن الأحداث التي تلت أثبتت صحة تلك الأعداد وحسن تقديرها.

** على بعد ١١٠ ميل جنوبي حلفا.

لكن مصطفى، علي كل حال، تمكن من عقد تحالف مع قسمي العالياب والعمراب التابعين لقبيلة البشاريين وحرضهم علي شن الغارات على المهدويين، الذين كانوا وقتذاك في آبار القلب. وهذا ما دعي إلى قيام الزعيم العربي حسن ود سعد البغدادي بكتابة الرسالة التالية لبشير بك، وهي مثال للعلاقات البين قبلية الغربية التي كانت سائدة آنذاك:

"أكتب إليك لأخبرك بأنه، وفي يوم الثلاثاء ٢٣ رمضان، قامت جماعة من البشاريين، يقال بأنهم عالياب وعمراب، بالحضور هنا ونهب السوق والذي يعيش به أتباع المهدي. وذكروا بأنها كانت أوامرك بالهجوم علي أتباع المهدي وسلب كل ما يملكون منهم. وأنا علي علم تام بأن هؤلاء الأشخاص لا يريدون إلا بث الفتنة والشقاق بين العبابدة والمهدويين لكنني لن أسمح بذلك وبالتالي فأنني أرجو أن أؤكد لك بأنه ولأنني من نفس القبيلة مثلك، ليس في نيتي نشوب أي قتال بيننا. إنني لا أرغب إلا في الحضور وتولي شئون قبيلتنا. أما إن لم توافق علي ذلك وتصر علي القتال، فلتعلم باستعدادي لقتالك برجالي الخمسمائة.

لكنني لا زلت أري إلا داعي لحدوث ذلك لما بيننا من صلة القربى، لذلك أتوقع أن أسمع رأيك بهذا الخصوص مثلما أتمنى أن يواكبني الحظ في هذا العالم. (إمضاء) حسن سعد محمد

ويبدو أن الكاتب لم يتلق أي إجابة. فقام بالتالي بإرسال رجاله غرباً. وفي الثالث من يونيه التقي بهم مصطفين مع حلفائه الجدد، في ميسا ونشب القتال بينهم، والذي أوضحه مصطفى في تقريره الرسمي الذي قدمه لقمندان أسوان، والذي يوضح بصورة ناصعة الأسلوب الغريب للقيام بحروب الصحراء:

"نسخة من التقرير الذي كتبه الشيخ محمد مصطفى جبران للضابط القائد لإقليم أسوان".

"سيدي – لي الشرف أن أرسل لك تفاصيل المعركة التي دارت بين رجالي وبين الثوار في ميسا.

فبينما كنت في أبرق مع رجالي، جاءنا ستة رجال من العالياب والعمراب حاملين رسائل من شيوخهم ويقترحون فيها أن يتم لقاء بيننا في ميسا، وبأن علينا أن نتحد ونهاجم الثوار معاً في علبة.

وافقت علي مقابلتهم. وفي أول شوال (٣١ مايو) غادرت أبرق ومعي ٢٠٠ من رجالي ووصلت إلى ميسا في يوم ٤ و لم أجد بها أي بشاريين، ولكن كان هناك أربعة من العالياب يحرسون ستة من المساجين وأخبروني بأنهم أسروهم" في العدالياب. تسلمتهم، وفي نفس المساء تلقيت خطاباً من الأمير حسن البغدادي معنون إلى بشير بك. كما تسلمت أيضاً خطاباً من دون بك.

وفي فجر الخامس من شوال جاءني رجل بشاري وأخبرني بأن الثوار قد عزموا علي الحضور ومهاجمة رجالي، فأمرت رجالي بالنزول من الإبل وقمت بتقييدها. وبعد نصف ساعة من ذلك هاجمني العدو. أطلقت النار عليهم، و أتمنى أن تكون الرصاصات قد أصابتهم لأن العدو تراجع وأختفي. بعد ذلك أرسلت جماعة لاحتلال الجبال التي غادروها وأمرتهم بمطاردتهم وإرهاقهم.

وعند ما اختفى العدو، تقدمت بكل قواتي للتعرف علي عدد قتلاهم. أحصيت خمسين قتيلاً وسبعة جرحى إصاباتهم بالغة. وسألتهم عن قوة العدو فأخبروني بأنهم ٢٥٠ رجلاً تحت قيادة

الأمير (أبو) جديري، والذي كان أول القتلى. تم هجومهم أساساً بغرض تحرير أسراهم السبعة الذي أسرهم البشاريون في العدالياب، وعندما علموا بأنني حضرت إتفقوا على قتلي.

غنمت أربعين حربة وخمسة بنادق وثلاثة دروع وكمية من ملابس المهدويين.

وفي اعتقادي أن الثوار لم يعودوا إلى ميسا أو إلى أي مكان مجاور لعلبة.

وأثناء الهجوم استوليت على ثمانية حمير لكنني أعطيتهم لعرب العالياب الذين كانوا يحرسون المساجين.

لم تحدث لي خسائر وسط رجالي ولكن جرح ستة من جمالي.

(ختم) محمد مصطفى جبران

لم يشارك بحر كرار، رغم وجوده في أنجات، في هذه الإضطرابات، لكنه بقي علي تعهده لبشير بك بأن يبتعد عن العدائيات. بل أنه مضي لأكثر من ذلك بتحذيره بشير من نوايا حسن خليفة حول استلامه لآبار المرات وطلب من بشير دعمه بالرجال ليحمي أنقات من حسن خليفة!

وفي ليلة الثالث من يونيه أرسلت طابية أرقين الحصينة صاروخاً بإشارة تحذير مما ترتب عليه إرسال مائة رجل لهم من حلفا علي الفور. وقبل وصولهم كان المغيرون قد تراجعوا. وقد إتضح فيما بعد بأن خمسة وعشرين رجلاً، علي ظهور الإبل، كانوا قد وصلوا، وقدموا أنفسهم علي أنهم من اللاجئين وحصلوا علي إذن بدخولهم للقرية. وعلي الفور بدأوا الإغارة عليها ولكن عندما ظهرت حامية النقطة أمامهم تراجعوا مبعثرين بعد أن قتلوا قروياً.

قرر الكولونيل وود هاوس القيام بهجوم مضاد علي نقطة العرب الأمامية في معتوقة، بالضفة الغربية على مسافة ٥,٥ ميل جنوبي خور موسي. قام بالتالي بإيفاد الميجر هنتر مع قوة من ٣٠٠ رجل من الكتيبة السودانية الثالثة عشر، و ١٠٠ من الفرسان وسرية من الهجانة، لتنفيذ هذه المهمة. وبعد أن تجمعت تلك القوات بالضفة الغربية في مواجهة خور موسي، إندفع الميجر هنتر جنوباً إلى الأرض المرتفعة في أبوسير، والتي وصلها المشاة في السابعة والنصف صباحاً، بينما كانت القوات الراكبة قد تبادلت بالفعل النيران مع العدو، والذين كان بعضهم بداخل جزيرة بالشلال، أما الباقون فكانوا بالبر. وعند إقتراب القوات منهم فر من كان بالبر إلى الجزيرة حيث قام المشاة بمهاجمتها في الوقت الذي خاضت فيه نصف قوات الهجانة، بعد أن ترجلت من الإبل، النهر، وإندفعوا في أنحاء الجزيرة وقتلوا ثمانية عشر من العرب في قتال دار يداً بيد، وأخذوا سبعة أسرى.

وصادروا بعد احتلالهم للجزيرة كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر والمواشي. أما بقية العرب فقد فروا للجزر الأخرى بالشلال وبعد ذلك تم إحراق القرية. قتل من المصريين جندي واحد وجرح آخر وقتل ثلاثة من الخيول.

وحتى ذلك الوقت لم تكن آبار المرات محتلة. ولكن في السادس من يونيه غادر حسن خليفة أبو حمد بخمسمائة رجل واستولى على الآبار في التاسع من الشهر. وكان صالح بك قد أصدر تحذيراً بهذا الصدد لحسن خليفة، والذي كتب له بأنه كان مجبراً علي الحضور للمرات بأوامر مباشرة من الخليفة، والتي عليه إطاعتها، وبأنه لم يكن لديه ما يكفي لإطعام رجاله ويجب

عليهم الحصـــول على الطعام بشن الغارات على قرى النهر. ومع هذه الرسالة تسلم صـــالح بـــك خطابات من الخليفة ومعها راية، وعـــدة متعلقـــات بزي الأنصـــار، وقام بتسليمها فوراً للسلطات العسكرية. كانت كل الرسائل تشتمل علي تأكيد نجـــاح سلاح المهدية ضـــد الأحبـــاش والثـــورات المحلية بالسودان.

وعند تسلم السلطات لتلك الأخبار تم إرسال قاربي مدفعية من حلفا، بقيادة الكابتن سليم، أحدهما لمراقبة مختلف الطرق الصحراوية المؤدية للنهر، والثاني توجه إلى كروسكو تحوطاً مـــن شن غارة عليها. وفي السادس عشر من يونيه توجه الكابتن سليم بقاربه إلى منطقة مستورة على مسافة قصيرة إلى الشمال من قسطل* ووزع طلائعه لمراقبة الخور الذي توقـــع حضـــور العـــرب عبره. وفي الصباح الباكر أبلغ الحراس عن سماعهم لأصوات الإبل، وبعد ذلك بقليـــل أبلـــغ أحـــد القرويين بأن جماعة كبيرة من العرب، مع جمال كثيرة، قد هبطت جنوب النهر بحوالي نصف ميل. وعند تلقي الكابتن سليم لتلك الأنباء أرسل فريقاً من رجاله لمراقبة مدخل الخور، بينما توجه هـــو ومن بقي من جنوده جنوباً بالقارب المسلح حيث أمل في أن يتمكن من طرد العـــرب بعيـــداً عـــن النهر، وبأنهم عندما يعودون للصحراء فسيتم إعتراضهم بالمجموعة التي إختفـــت بـــالقرب مـــن الخور. ولما كان منسوب النهر في أدنى مستوى، والملاحة فيه صعبة، ولأن قارب المدفع قد مـــر تحت صخرة مرتفعة، فقد صبت عليهم نيراناً حامية من الرماة العرب الذين بأعلى الصخرة وقتلوا أحد الجنود بالقارب. وحتى ذلك الوقت لم يكن الجسم الرئيسي للعرب قد لاحظ وجود قارب المدفع. فقد كانوا متجمعين بالقرب من صفة النهر، وجمالهم علي مسافة بعيدة عنهم، بينما جماعة أخرى منهم كانت تطلق نيرانها علي بعض المراكب الشراعية، التي كانت محملة بالتعيينات الحكوميـــة، والتي إرتطمت بحاجز رملي وأصبحت في مرمي النيران. شرع قارب المدفع بإطلاق قذائف مدفعه ٩ رطل من مسافة ٣٠٠٠ ياردة علي الجمال أما العرب فتراجعوا مندفعين وركبوا جمالهم وفروا، بعضهم مباشرة إلى الصحراء وبعضهم الآخر نحو الخور ونجوا من الكمين المعد لهم بعمل إلتفافة واسعة خلال الجبال. طاردهم كابتن سليم، بعد أن أنزل رجاله، لبعض الطريق وقتـــل أربعـــة مـــن العرب وإستولي على بضع جمال.

لقد أنقذ وصول قارب المدفع، في الوقت المناسب، قرية قسطل مما كان يمكن أن يكون غارة رهيبة عليها. بل أنه، أكثر من ذلك، منع العرب من الإســـتيلاء علـــي المراكـــب الشـــراعية المحملة بكميات كبيرة من المواد الحكومية. ترتب على ذلك أيضاً أن تمكن بشير بك من الاستيلاء على آبار جلب.

---

* خور شمال بلانة على الضفة الشرقية.

أثناء ذلك كان النجومي يتقدم ببطء نحو الشمال بقواته. وكان قد غادر ساقية العبد يوم ١٣ يونيه وعبر منطقة دال يوم ١٥ ووصل سمنة في التاسع عشر من الشهر. ومن سمنة أرسل الخطاب التالي* لعبد الحليم القائد بسرس**:

بسم الله الرحمن الرحيم...الخ.

من عبد الرحمن ود النجومي إلى حبيبه عبد الحليم مساعد بعد السلام، أرجو أن أفيدك بأن خطابك، الذي ذكرت فيه قيام الأبالة، الذين أرسلهم سيدنا خليفة المهدي، قد وصل. ووصل أيضاً الأبالة وقابلونا في صحراء سمنة. واليوم (الخميس) التاسع والعشرين من شوال هو يوم وصولنا لسمنة مع الجيش في الواحدة والنصف صباحاً بالتوقيت العربي). وبمشيئة الله سنرتاح هنا حتى يكتمل تجمع الجيش في هذه المحطة ثم نتوجه للإنضمام إليك. وكان سبب تعطلنا هو صعوبة تجميع القوات مع بعضها.

ولقد ذكرت في خطابك بأن جندياً من العدو بسرس قد حضر إليك. لذا عليك إرساله، بدون لحظة من التأخير، إلى الخليفة (إمضاء) عبد الرحمن ود النجومي كتب بخطي، لأن ختمي في الطريق ٢٠ شوال ١٣٠٦(١٩ يونيه ١٨٨٩).

كان مع النجومي في ذلك الوقت حوالي ٤٠٠٠ من المقاتلين و ٣٠٠ بندقية و٨ مدافع جبلية ومدفعي مكنة و ٣٠٠ حصان و ٥٥٠ جمل و ٣٠٠٠ حمار. وبالإضافة لهم كان معه عدد ضخم من التابعين من النساء والأطفال مما أوصل عدد من معه إلى ١١٠٠٠ نسمة.

كان الأمير يونس لا يزال بدنقلا، يرسل في التعزيزات. وكان مكين النور قد تحرك من دنقلا ومعه ٦٠٠ رجل، بينما كان على ود سعد في الحفير ومعه ٥٠٠ آخرين. وكان عثمان الدكيم، إبن أخ الخليفة، في بربر، يبذل كل ما في وسعه لجمع التعزيزات لجيش الشمال، لكنه أحتفظ لحمايته الشخصية بحوالي ٩٠٠ من البازنقر والذين رفض التخلي عنهم مهما كانت الظروف.

ظل عبد الحليم في انتظار النجومي بسرس على الضفة الغربية ومعه قوة من ١٢٠٠ رجل منهم ٣٠٠ من حملة البنادق وبعض الهجانة والخيالة وحوالي ١٠٠٠ من الأتباع (من خدم ونساء وأطفال).

وبات الآن واضحاً أن عملياتاً، على نطاق أوسع مما حدث من قبل، أصبحت متوقعة الحدوث. فكل الإشاعات السابقة تشير إلى غزو لمصر عن طريق الضفة الغربية للنيل. لكن

---

* وجد الخطاب في ميدان المعركة بتوشكي يوم ٣ / ٨ / ١٨٨٩.

** تحركات قوات ألنجومي وتواريخ وصوله ومغادرته لمختلف المحطات لم يتم تحديدها ومعرفتها إلا فيما بعد. وقد كان لصرامته في منع الهاربين من التوجه للشمال، وتشدده في إخلاء المناطق من قاطنيها, أن معرفة مكانه وتحركاته وقوة جيوشه لم تكن معروفة لدي السلطات العسكرية بحلفا وخاصة في الأسابيع التي سبقت وصوله لسمنة، مما أدي بالسلطات، بسبب ما جاء أعلاه، للفشل في الحصول على معلومات موثوق بها. وفي اليوم الذي سبق وصول ألنجومي لسمنة كان الكولونيل وود هاوس يعمل علي تجهيز قوة للتوجه لسرس، وكان من المحتمل أن تلتقي هذه القوة بقوات ألنجومي الهائلة وفي أرض غير مناسبة. ولكن لحسن الحظ فأن ألنجومي عندما اقترب من الحدود كان من المستحيل عليه أن يخفي ذلك. وعندما تم التأكد بأنه وصل بقواته إلى سمنة أوقفت كل الخطط الخاصة بهجوم مضاد انتظاراً لتطور الأحداث.

السلطات المسئولة لم تصل حتى الآن إلي قناعة بأن النجومي، بسمعته الماضية كقائد متميز، يمكنه أن يقوم بمثل هذا الأمر الغريب، بالزحف خلال مئات الأميال من صحراء قاحلة لا ماء فيها، بينما يسيطر عدوه علي مجرى النيل، وبالتالي فأن لم يكن ذلك العدو بالقوة التي تمكنه من مهاجمته إلا أن بمقدوره منعه من الحصول علي الماء وإرهاقة وإنهاك قواته العطشى. ويعرف النجومي تماماً بأنه لو توجه لاى قرية فلن يجدها إلا خالية من أي شيء يؤكل، بل قد يجدها محتلة بالقوات (المتربصة به). لذلك ساد الإعتقاد بأن قائداً مثل النجومي، وعند ما يستعرض ذلك الوضع ويمحصه بدقة، فأنه سيتخلى عن مشروع الغزو ويكتفي بغارات علي نطاق واسع. لكن الطبيعة المتعصبة للرجل لم يتم فهمها بالقدر الكافي. فالنجومي نفسه لا ينسى بأنه كان اليد اليمنى للمهدي، وأن غزو مصر كان دائماً قرار سيده الأخير، والذي لا رجعة فيه. ولقد نال تقريع الخليفة بسبب تراخيه في السنوات الأخيرة. ولأنه كان يدرك تماماً غيرة الخليفة منه، فهو يرى نفسه رجلاً لا تثبطه المصاعب والعقبات التي قد يراها أي رجل آخر، إلا إذا كان قائداً من غلاة المتعصبين، عقباتاً لا تقهر. كان لديه ثقة في رجاله وكانوا يبادلونه نفس الثقة. لقد دمر هكس واستولى على الخرطوم، فلماذا يخشى إقتحام مصر ومواجهة القوات المصرية التي لم يكن ينظر إليها إلا بالإحتقار والازدراء؟ كان أمراؤه كلهم من صفوة الأمراء الذين حققوا النجاح تلو النجاح في مواجهة قوات الحكومة.

كان قد جرد المناطق التي مر بها من كافة المؤن، وكان يعلم بأن عليه ألا يتوقع أن تصله إمدادات أخرى من الجنوب. ثم أن المنطقة التي وجد نفسه فيها كانت أفقر من أن تموِن جيشاً كجيشه، ولم يعد هناك مفر من التضحية بكثير من الخيول والجمال والحمير ليصد المجاعة عن قواته. كان عليه أن يواصل تقدمه، وبدون إبطاء، وإلا فأن جيشه، الذي سيطر علي ترابطه ككتلة واحدة، سيتفرق ويتشتت.

ووصل إلى سرس في الثاني والعشرين من الشهر حيث إنضم إليه عبد الحليم بقواته، وبحلول يوم الثامن والعشرين كانت قواتهما المشتركة قد وصلت معتوقة.

ومن هذا المكان قام النجومي وعبد الحليم وعثمان أزرق في اليوم التالي بأستطلاع للوضع، وذلك من علي تلة مرتفعة مجاورة لمرتفعات أبو سير. شاهدوا علي البعد طوابي خور موسي الأمامية، وعلي مسافة أبعد كانت ملامح حلفا واضحة للعيان. وقد قيل أن عبد الحليم عندما أشار إليها لزعيمه فأن الأخير أجابه جازماً بأن جواده، قبل مرور وقت طويل سيكون مربوطاً في إسطبلات القمندان. ومن هذا المكان أيضاً تباحث النجومي وعبد الحليم باهتمام قلق حول خططهما القادمة. فقد كانت تعليمات النجومي بأن يتم السير بموازاة ضفة النيل الغربية، ولكن علي مسافة معقولة داخل الصحراء، وألا يهبطوا إلى القرى، رغم أنه يتوقع عدم الصعوبة في الحصول على مؤن منها.

كان يعتقد بأن القرويين موالون للمهدية وبأنهم سيهرعون للإنضمام لراياته عندما تقع أبصارهم على جيشه. أما عبد الحليم فكان يرى، بما له من خبرات سابقة إكتسبها من غاراته، بأن عليهم إحتلال القرى أثناء تقدمهم. فقد كان يخشى من خطورة نقص المياه أو انعدامها (إذا ابتعدوا

عن النيل). لكن للنجومي أصر علي تنفيذ خطته. لذلك تقرر أن تستريح القوات ليومين وأن تبدأ المسيرة في الأول من يوليه باتجاه مصر. لكن تأثير تلك الإستراحة القصيرة كان قاتلاً. ففي ذينك اليومين فر جنوباً أكثر من خمسمائة من رجاله.

وفي أواخر الشهر قاموا باستكشاف باتجاه خور موسي. لكن بضعة قذائف من الطابية دفعتهم بعيداً.

في تلك الفترة كانت قوات الخيالة والهجانة المصرية تمر في دوريات نشطة علي الضفة الغربية للنيل. وفي مساء الثلاثين من يونيه وصلتهم أنباء مفادها أن العدو ربما يعاود زحفه تلك الليلة. علي هذا غادر الكولونيل وود هاوس حلفا فجر اليوم التالي ومعه زورقي مدفعية يقطران صنادل تحمل على ظهرها ٥٠٠ رجل من الكتيبة السودانية العاشرة و ٢٥٠ رجلاً من الكتيبة السودانية التاسعة وبطارية من أربعة مدافع كروب عيار (٦) سنتمترات. وفي نفس الوقت عبر الخيالة للضفة الغربية. توجه شمالاً حتى إشكيت، وهناك جاءته رسالة مفادها أن العدو لم يقم بأي تحركات، وعاد لحلفا مساء نفس اليوم. وبعد بضع ساعات جاءته إفادة أخري بأن العدو علي وشك التحرك، وأن هدفهم هو قرية أرقين. هذا وكان أهالي القرية والمنطقة المجاورة لها قد تم ترحيلهم إلى الضفة الشرقيه في وقت سابق ليكونوا بمأمن (من العدو).

يقع أقصى الطرف الجنوبي لهذه القرية علي بعد ثلاثة أميال شمال الطوابي المواجهة لحلفا علي الضفة الغربية. وكان هذا الطرف محمياً ببلوكات متينة البناء تسيطر عليه سرية الهجانة الثانية ومجموعة من المشاة. ومن ذلك المكان تمتد القرية شمالاً لمسافة أربعة أميال ونصف وتشتمل على حزام كثيف من أشجار النخيل مع مجاميع مبعثرة من بيوت الطين المتناثرة على طول القرية. وفي أقصي شمالها كان هناك مبني ضخم واسع- هو منزل العمدة – تم إعادة تقويته منذ عهد قريب ليتحول إلى نقطة دفاعية قوية يحرسها ٢٥٠ رجلاً من الكتيبة السودانية التاسعة، بقيادة الملازم متفورد، ومعهم مدفعي مكنة.

وعلي بعد ميل جنوب هذه النقطة، اتخذت الكتيبة السودانية الثالثة عشرة، بقيادة الكابتن كمبستر، موقعاً حصيناً وسط مجموعة من المنازل المتفرقة، التي عملوا علي تقويتها لتكون جاهزة للدفاع، أما زورق مدفعه (طماى). فكان راسياً علي الجانب الجنوبي الأيمن من الشاطئ الرملي الأمامي، والذي يبعد بحوالي ٢٠٠ ياردة من الضفة.

وبالضفة الشرقية، وعلى مسافة قصيرة خلف آخر منازل قرية إشكيت توجد النقطة الحصينة لها والتي يحرسها فصيل من الكتيبة السابعة ومعهم مدفع واحد.

هكذا كان توزيع القوات التي أعدت للدفاع عن قرية أرقين، والتي أشرف عليها الكولونيل وود هاوس بهدف تقوية وتعزيز أي نقطة مهددة بطول هذا الخط، المبعثرة فيه القرى والمنازل، بما تبقي معه من طابوره الطائر والذي، كما نذكر، كان قد نظمه قبل فترة سابقة في حلفاء أبقى لديه لهذا الغرض أربعة سفن مدرعة أو زوارق مدفع، مسلحة كلها بمدافع كروب ومدافع مكنة، وهي المتمة وأبو طليح والتيب و طماي، مع عدد من المقطورات والصنادل إضافة إلى مراكب بلدية ضخمة ذات شراع، والتي إذا ما ربطت علي أي جانب من جوانب زوارق المدفع فأنها تكفي تماماً لنقل ثلاثة كتائب.

كان الطابور الطائر مكوناً كما يلي:
رئاسة أركان قوات الحدود الميدانية
سريتي خيالة (٢٠٠ رجل)
المدفعية: ٦ مدفع كروب ٦ سنتمتر وبطاريتي ميدان
٢ مدفع كروب ٨ سنتمتر و ٣ مدافع للحامية
سريتين للهجانة (١٢٠ رجل)
كل كتيبة تتكون من أربعة سرايا:

الكتيبة السودانية التاسعة (٥٢٠ رجل)
الكتيبة السودانية العاشرة (٥٢٠ رجل)
الكتيبة السودانية الثالثة عشر(٥٥٠ رجل)

الفرق الطبية (٣٢ رجل).
والجملة للطابور الطائر (السريع) ١٩٤٠ رجلاً

***

وبعودة إلى العدو وتحركاته، نجد أنه في اليوم الأول من يوليه، وبعد الغروب، أنحدر تيار قوات النجومي كلها، من رجال ونساء وأطفال وخيول وجمال وحمير، متدفقاً من معتوقة في أتجاه شمالي غربي، بالتفافة واسعة حول الصحراء.
قسم جيشه إلى أربعة أقسام غير متساوية. وكانت القيادة العليا للنجومي، مع عبد الحليم كنائبه في القيادة وكالآتي:
القسم الأول كان يعرف بقسم النجومي ويتكون من ٢٤٠٠ من البقارة والجعليين والشايقية والبطاحين والبني حسين وقبائل أخرى، يقودهم حوالي خمسين أميراً ثانوياً.
القسم الثاني كان تحت قيادة إسماعيل حركة ويتكون في معظمه من البقارة العرب وعددهم حوالي ٨٠٠ منهم أربعين أميراً ثانوياً. القسم الثالث بقيادة عبد الحليم ويضم ١٢٠٠ من الجعليين والدناقلة والشايقية ورجالاً من قبائل أخرى ومعهم أربعة وعشرين أميراً.
القسم الرابع يقوده عثمان أزرق ويتألف من ٦٠٠ من الدناقلة تحت ثمانية عشر أميراً.
بلغ جملة عدد الأمراء ١٤٠ أميراً معهم ١٦٠ راية* وبلغت جملة من بالحملة ٥٠٠٠ مقاتل وحوالي ٨٠٠٠ من الأتباع والعوائل (بخلاف الذين هربوا من معتوقة)، ومعظم هؤلاء من زوجات وأطفال المقاتلين وعدد كبير من الدناقلة المتحمسين وغيرهم من الذين ساقهم الجيش معه حينما مر بمناطقهم.
كان مظهر ذلك الجيش أثناء تحركه مهيباً وكانت تحمي أجنابه ومؤخرته أطواف من الفرسان والذين كان لهم دور مزدوج هو حمايتهم أولاً، ثم منع الفرار، أو التكاسل في المضي قدما، من البعض. كانوا يسيرون قدماً أثناء الليل، مع راحة قصيرة، وشوهد العدو فجراً علي بعد ميلين، بالصحراء، من الطوابي المقابلة لحلفا وإلى الغرب منهم. وبعد ساعة من ذلك جاء بلاغ من

* للمزيد من التفاصيل أنظر للملحق في نهاية القسم الثاني عشر.

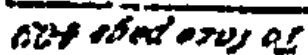
خوّر موسي بأن معتوقة قد أخليت تماماً منهم. وعند بلوغ تلك الإفادة الكولونيل وود هاوس، قــام بتكرار عملية تنظيم جنوده، مثل ما فعل بالأمس، وعبرت الخيالة للضفة الغربية ثم توجه لأرقــين مع أركانه وبنصف الكتيبة السودانية التاسعة، علي ظهر (المتمة)، وقد صحبه الميجر دون وكتيبته السودانية العاشرة على ظهر (التيب). وعندما علم عندما كان بجنوب أرقين بأن القوات المحمولة قد التحمت مع العدو قام بالإبحار حتى وازي وسط القرية وأنزل قواتــه ومدافعــه علــي الضــفة الشرقية بينما أرسل زوارق المدفعية للطواف أمام القرية وبقي هو في إنتظار تطورات الهجوم.

أثناء ذلك قام قسم من الفرسان بقيادة الملازم بيش بعبور النهر للضفة الغربية والتقــي بمؤخرة العدو في الثامنة صباحاً ونجح في قطع الطريق علي بعض التائهين أو الذين كــانوا فــي طريقهم للنهر. لكنه عند ما وجد نفسه أمام قوة تفوقه كثيراً بجمالهم وخيولهم أضطر للتراجع وبعد قليل من ذلك تم تعزيزه بقوة من الهجانة ومن تبقي من الفرسان يقودهم الكابتن دنــنج. وواصــل العدو تقدمه. وفي التاسعة صباحاً أحتل الجبال الغربية لأرقين، علي بعد ٥٠٠٠ ياردة منها، وطرد منها فصيل الهجانة الثانية التي كانت تقوم بالإستطلاع من طابية أرقين الجنوبية.

وقام الكابتن دننج وخيالته وهجانته، الذين كانوا يتابعون العدو، بتقوية هــذه المحطــة وتدعيمها. وبعد أن اتخذوا موقعاً لهم في الوادي الذي يطل علي جناح العدو أطلــق زخــات مــن الرصاص على عدة أقسام من العدو أثناء تحركه من وإلى الجزء الجنوبي من القرية.

إثناء ذلك، ومن موقع مسيطر بالضفة الشرقيَة، تأمل الكولونيــل وود هــاوس الــتلال والجبال المقابلة له في الجانب الآخر وشاهد العدو علي بعد حوالي ثلاثةُ أميــال يســيطر عليهــا تدريجياً ويغرز راياته في قمم التلال لتحديد مكانهم، ثم شرع في الهبوط بأعداد كبيرة متوجهاً نحو الجزء الشمالي من القرية. فتحت المدفعية النار عليهم من الضفة الشرقية بينما تم إرسال الكتيبــة السودانية العاشرة، بقيادة الميجر دون، ومعه الميجر هنتر، علي زورق مدفع، لتعزيز النقاط التي كان يسيطر عليها الكابتن كمبستر والملازم متفورد.

كانت تلك النقاط محتلة من قبل بواسطة جماعات صغيرة من العدو، ولوقت قصير. وفي الساعة الثامنة والنصف صباحاً قامت ثلاثة جماعات منهم، برئاسة أمرائهم، ومعهم عدد كبير من البوارق، بالاقتراب لمسافة ١٠٠٠ ياردة من موقع الكابتن كمبستر والذي استقبلهم برشقات مــن الرصاص أدت إلى تفرقهم وتغطية أنفسهم خلف أخدود طويل يجري بميلان نحو الموقع، والــذي قام رماتهم منه بصب نيران شديدة علي الموقع. التقى الميجــر دون، الــذي وصــل بتعزيزاتــه للجــهة المقابلة لموقع الكابتن كمبستر، بعدد من رجال العدو المتجهين شمالاً في الطريق لمنــزل العمدة. وقام فــوراً بإنزال الكتيبة السودانية العاشرة على الشمال من تلك النقطة ورمــي العــدو بالنيران من علي البعــد، والذي بــدأ في التراجع تحت ضغط نيران الكتيبــة الســودانية الثالثــة عشــرة. أما خيالتهم، والذين حاولوا الاستقاء أمام طابية إشكيت، فقد تم طردهم بنيران القــذائف من ذلك الموقع.



فشلت هذه المحاولة الأولى للعدو لإحتلال القرية بالقوة. ورغم ذلك فقد أفلح بعض العرب في بلوغ النهر بين موقعي كابتن كمبستر وطابية أرقين الجنوبية، وإحتلوا بعض المنازل علي ضفة النهر وفتحوا النيران علي سرايا الهجانة والفرسان والحقوا بهم أضراراً طفيفة.

كانت أوامر النجومي بعدم إحتلال القرية بالقوة قد نفذت، رغم أنه كان عاجزاً عن منع جماعات من رجاله من التوجه صوب النهر بعد مسيرتهم الليلية الطويلة. وبالتالي، وحتى هذه المرحلة، كان القتال يأخذ طابعاً متقطعاً ولم تجر أي محاولة للقيام بهجوم كبير. تمكن العدو من تحصين ذلك الجزء الذي إحتله من القرية وتقويته باستمرار. وعند الظهر تمكنوا من نصب أحد مدافعهم في موقع قرب النقطة الموضحة من الكروكى المرفق. وبعد أن أطلقوا إثنتى عشرة قذيفة علي مدفعية المصريين بالضفة الشرقية تم إسكات المدفع بواسطة الأخيرين. ثم قام الكولونيل وود هاوس بإرسال زورق مدفع بقيادة الكابتن نيسون ليطوف أمام موقع العدو ومحاولة طرده منه. ولكن وبعد ساعة من النيران العنيفة المتبادلة من كلا الطرفين إنسحبت السفينة حاملة الكابتن نيسون الذي أصيب إصابات بليغة واثنين أخرين من طواقم المدفعية الجرحى.

إثناء ذلك كان عبد الحليم يحث النجومي لإحتلال القرية بالقوة وأشار إلى أنهم بالفعل قد سيطروا على جزء منها، وأن من السهل تثبيت أقدامهم بقوة فيها. لكن النجومي كان كارهاً للعمل ضد تعليماته ورفض الموافقة على رأيه. لكن عبد الحليم أصر على رأيه، وكما قال البعض، فقد أمر بضرب النقارة إيذاناً بالهجوم.

قام بجمع رجال قسمه وأضاف إليهم جماعات من الأقسام الأخرى، ليصل العدد إلى ٣٠٠٠ مقاتل معهم عشرين راية، وأنحدر مسرعاً داخل مجرى الخور حتى وصل لوسط القرية، بينما كان جناحه الأيسر محمياً برماة كانوا قد تمركزوا في مرتفع ناتئ، كان الكابتن كمبستر قد طردهم منه في المرحلة الأولى. أما جناحه الأيمن فقد غطي بنيران البنادق التي تطلق من المنازل التي أحتلها رجاله بقوة وعزم. كانت النيران المطلقة من تلك المنازل شديدة التأثير للدرجة التي أرغمت فيها الهجانة والخيالة المصرية، والتي كانت حتى ذلك الوقت قد تمسكت بالموقع الذي احتلته في باكورة اليوم، علي التراجع حيث إنسحبت الهجانة نحو الطابية الجنوبية بينما تراجع الخيالة للتلال الخلفية.

ولما لاحظ الكولونيل وودهاوس قوات العدو متدفقة باتجاه وسط القرية، أدار مدافعه باتجاههم ويظن بأنه ألحق بهم خسائر كبيرة. لكن العرب، بشجاعة وإقدام، واصلوا تدفقهم. وعندما إقتربوا من القرية انقسموا لثلاثة فرق: الفرقة الشمالية وجهت نحو موقع الكابتن كمبستر، والثانية احتلت وسط القرية، أما الثالثة، والتي دخلت إلى البيوت التي احتلت من قبل، فقد إندفعت جنوباً وهددت طابية أرقين الجنوبية.

ولم يخف تطور هذا الهجوم علي الكولونيل وود هاوس، فأرسل أوامره في الحال للميجر هنتر لإنزال الكتيبة السودانية العاشرة وتعزيز جنوب أرقين. وكان أول من وصل إلى طابية أرقين سريتان من تلك الكتيبة بقيادة الملازم فنويك، من علي الباخرة التيب. إذ ما أن هبطوا منها حتى

إتجهوا شمالاً لتطهير القرية وللإنضمام للنصف الآخر من الكتيبة، والذي كان تحت قيادة الميجر دون، مع أوامر بالتوجه للجزء الجنوبي للقرية من خلالها. وقبل أن يتقدم الملازم فنويك بعيداً، هوجم من جانب فرسان العدو الذين كانوا كامنين وراء منازل القرية وأجبروا سرايا الكتيبة علي التقهقر نحو شاطئ النهر، بعد إنضمام عدد كبير من الحرابة إليهم. إتخذت القوات مواقعها علي الشاطئ وقامت مدفعية الزورق بدعمهم بالنيران مما مكنهم من الثبات في موقعهم أمام عدو وعوائق لا حصر لها. تمكنوا من صد الهجوم الواحد تلو الآخر وتصرفوا بمنتهي الشجاعة حتى جاءتهم النجدة من سريتين من السودانية التاسعة بقيادة الكابتن لويس وهجانة الكابتن دننج بعد أن ترجلت وأسرعت لنجدتهم. تولى الميجر هنتر قيادة تلك المفارز وشرع في التقدم نحو العدو بعد أن وضع الكتيبة العاشرة علي يمينه والهجانة في الوسط والكتيبة التاسعة علي يساره وشيئاً فشيئاً وبثبات تمكن من طرد العرب رغم أن فرسانهم وحرابتهم قد هاجموه ثلاثة مرات بشجاعة نادرة. لكنهم قتلوا حتى آخر رجل. ولما رأي الميجر هنتر أن هناك عدة رايات مرفوعة في المقدمة، وأن الفرسان والخيالة المشتتين قد عادوا للتجمع إلى اليسار، اتخذ موقعاً في ذاوية بعض المباني وبطريقة كانت فيها المنازل علي يمينه وخلفه. أما القوات والذين توجهوا للأمام ولليسار فقد شكلوا مربعاً قوياً وضعوا في وسطه قواتهم الاحتياطية.

أثناء ذلك شاهد الكابتن كمبستر تدفق العدو نحو يساره، فأستمر في إطلاق النيران عليهم من المزاغل التي فتحها داخل البيوت الطينية ورد عليه العرب نفس النيران. وعلم من أحد الفارين من العدو بأنهم أحضروا مدفعاً نصبوه في موقع بضفة النهرن علي مسافة قريبة منه، فأخذ مجموعة من أربعين جندياً، مع الملازمين كننقهام وجدج، وقرر أن يستولى عليه. لكنه إكتشف أن هناك منازل من أمامه، وزراعات غزيرة لشجيرات الخروع، وحفرة ساقية، كلها مكتظة بالأعداء المسيطرين عليها بقوة، وأن كافة الاحتمالات تشير إلى أنه أستدرج لكمين أعده ذلك الفار من العدو، فتقهقر إلى موقعه السابق بعد أن جرح سبعة من رجاله بمن فيهم الملازم كننقهام.

إثناء ذلك وصل الميجر دون لنقطة مقابلة لموقع كمبستر. وكانت إحدى سراياه قد توجهت جنوباً مع شاطئ النهر. ولما رأي قسماً من الكتيبة الثالثة عشر مشتبكة في مناوشات عنيفة أنزل سريته الأخرى (من السفينة) وجعل النهر علي يساره والسرية علي يمينه وأنحدر جنوباً وطهر كثيراً من البيوت التي تحصن بها العدو وواجه عدة هجمات من الحرابة والذين أفلحوا مرة في طرده نحو الشاطئ لكنه لم شعث رجاله ولما شاهد مدفع العدو تقدم باتجاهه. وبعد إشتباك يدوي عنيف نجح في الإستيلاء عليه. لكنه وجد أن عدداً كبيراً من مقاتلي العدو علي يمينه فأسرع إلى السفينة وتوجه بها لقلعة أرقين الجنوبية حيث أنضم إلى قوات الميجر هنتر.

وكان الكولونيل وود هاوس قد وصل أثناء ذلك إلى الضفة الغربية وأمر بإرسال الميجر هنتر، مع سريتين من الكتيبة التاسعة، لتطهير السهل علي جانبه الأيسر. ونجح هنتر في ذلك رغم تعرضه لثلاثة مرات لهجمات الحرابة والفرسان. وتمكن من دفع العدو إلى الخور الذي كانوا قد جاءوا من خلاله. ظل خمسون أو ستون من العرب مسيطرين علي ثلاثة منازل متفرقة وتمت الإحاطة بهم لكنهم قاتلوا بعزم شديد حتى تم إحراقهم وقتلهم جميعاً.

وخلال تلك المعارك تم إستخدام الفرسان بفعالية وخاصة ضد جناح العدو الأيمن وكبدوا العدو بعض الخسائر أثناء تراجعه.

في السادسة مساء تم تطهير القرية تماماً من العدو بعد أن خلف وراءه حوالي ٩٠٠ من القتلى داخل وحول القرية بمن فيهم عدد كبير من فرسانه وتم أسر ٥٠٠ رجل وإمرأة وطفل والإستيلاء علي بضع ألوف من الرماح وإثنتي عشرة راية مع أسلحة من مختلف الأنواع والأوصاف.

ومن مشاهير الأمراء الذين قتلوا في تلك المناسبة الشيخ إدريس وعبد القادر جارو وألياس وود أبو بشارة. أما الأمراء عبد الحليم وعثمان أزرق وعدة أمراء آخرين فقد جرحوا. كانت خسائر المصريين أحد عشر قتيلاً وأربعة جرحى من الضباط وخمسة وخمسين جندياً جريحاً.

ظل معسكر العدو أو الديم في مكانه بالجبال المطلة علي أرقين. وقضت القوات المصرية الليلة في طابية أرقين الجنوبية أما الكابتن كمبستر والملازم متفورد فظلا في موقعيهما السابقين.

مرت الليلة بهدوء، وجاء مستسلماً عدد من الفارين من العدو. وعند الفجر، وبعد أن قام الفرسان باستطلاع مواقع العدو، لم يجدوا فيها تغييراً يذكر وقاموا بأسر عدد من التائهين. أما الكولونيل وود هاوس فقام باستعراض قواته من المشاة باتجاه الجبال. لكن العدو لم يظهر أمامه بأعداد كبيرة. وبعد ذلك بفترة تمكن الخيالة من إعتراض أربعين من العدو كانوا في طريقهم للنهر. وكانت تلك الجماعات المبعثرة تشتمل كثيراً علي الرجال والنساء والأطفال. تم الإبقاء علي حياة من استسلم وأرسلوا مع النساء والأطفال، في صنادل مقطورة وقوارب محلية شمالاً إلي كروسكو ومنها إلى أسوان (الشلال) حيث قدمت لهم العناية الطبية والمأوي وكل وسائل المعيشة.

وخلال النهار إتخذت الكتيبة السودانية العاشرة موقعاً لها وسط القرية في مواجهة الخور، والذي كان من المحتمل أن يحاول العدو الوصول للنهر ثانية من خلاله. وبالفعل شوهدت أعداد كبيرة من العدو ليلاً تحاول ذلك لكنهم تراجعوا بعد إطلاق النار عليهم.

خلال تلك الفترة دار نقاش عنيف في معسكر العرب بين عبد الرحمن ألنجومي وعبد الحليم. فقد زار النجومي عبد الحليم الجريح ووبخه علي عصيانه لأوامره (ولكن عبد الحليم أصر علي أنه كان علي حق في كل ما قام به، وأن من غير المجدي الاحتفاظ بمثل تلك القوات في غياهب الصحراء ومحلها، وأن السبيل الوحيد للنجاح هو تأمين طريق للنهر). واستمر الأمير عبد الحليم في إثبات حجته "وقد برهنت تجربة أحداث الثاني من يونيه بأن القرى قد أخليت من سكانها وأنها تفتقد لأي نوع من المؤن، وأن القوات المصرية، بما لها من بواخر مسلحة ومواصلات نهرية تستطيع إحتلال القرى قبل أن نتمكن نحن (العرب) من الوصول إليها"*

وبالنسبة لعبد الحليم، الجريح والحزين من عواقب فشل عمليته، فأن تنفيذ خطط النجومي بدت الآن مستحيلة. وحث زعيمه علي التقهقر لمعتوقة ومنها إلى أقاليم المحس والسكوت الغنية، والتي فيها سيجدون ما يأكلونه من تمر علي أية حال، ومنها سيكتبون للخليفة ويخبرونه ألا طائل من محاولة غزو مصر بعدد غير كاف من الرجال، وإنعدام الطعام، والمصاعب التي لا حد لها للحصول علي الماء.

* من أقوال حسن أفندي حبشي، كبير كتاب الأمير عبد الحليم.

لكن النجومي لم يصغ لذلك الاقتراح، بل جمع كل قواته وخاطبهم بكلمات تثير المشاعر وأخبرهم بأنهم يخوضون حرباً مقدسة لتحقيق هدف مقدس، وأن الذين سيموتون في سبيل ذلك سيموتون كشهداء وبأنهم جميعاً يعلمون ما أعد للشهداء من نعيم في الجنة. ولم يحاول أن يخفي عليهم ما يحيط بهذا الأمر من مصاعب وخطرن وبأنه حتماً سينتهي بموت الذين سيصمدون على ولائهم حتى النهاية. ثم جرد سيفه من غمده وهزه ملوحاً به وأعلن بأنه حتى لو بقي وحيداً فأنه لن يتزحزح عن عزمه للمضي في هذا الأمر المقدس. وقال أنه قد يكون من بين أمرائنا من هو خائر العزم، واهن القلب، وأن إبامكانهم العودة لمنازلهم يجللهم الخزي والعار أمام الله وسبيله. أما الذين يرون رأيه فعليهم البقاء حيث هم وسيقودهم، إن لم يكن للنصر، فحتماً إلى نعيم وسعادة دائمة في الآخرة.

كان حديثه ملهباً مليئاً بالعزم والإصرار المتعصب، فهكذا كان الرجل. كان له قدرة عظيمة في السيطرة علي رجاله لدرجة أن كثيراً من الذين نادوا قبل قليل بالرجوع، نهضوا قدماً أمامه ليقولوا له بأنهم مستعدون لمتابعة زعيمهم إلى النهاية وإلى الموت معه.

لكن حوالي ٥٠٠ من الذين وهنت قلوبهم عن الآخرين، عادوا إلى معتوقة ومنها جنوباً. وتقلصت قوة النجومي الآن، بعد أن فقدت (بالمعارك أو الفرار أو بالرجوع) أكثر من ألفي رجل. ومع ذلك أصبح من تبقى منهم على إستعداد لمواصلة طريقه للشمال.

أثبتت تجربة أرقين بأن طابور الكولونيل وود هاوس الطائر لم يكن بالقوة الكافية لمواجهة كل قوات العدو. وبالتالي تحولت خطته إلى الإقتراب لدرجة التماس مع العدو، وإرهاقه بأستمرار وهو يسير علي خطاه حتى تصله التعزيزات الكافية من القاهرة وبعدها يمكنه إلحاق ضربة حاسمة به.

تم ترحيل أهالي القرى بالضفة الغربية، حتى توماس (٧٠ ميلاً شمالي حلفا)، بمؤنهم وممتلكاتهم إلى الضفة الشرقية وتمكن الكولونيل وود هاوس، بعد أن وزع قوارب مدفعيته أماماً وخلفاً ووسطاً من العدو المتحرك، أن يلم بكل تحركاتهم.

كان توزيع قوات الحدود في ذلك الوقت علي النحو التالي تقريباً:

- في حلفا والمحطات المجاورة لها...... ٢٠٠٠ رجل
- النقاط الحدودية الأخرى، بما فيها كروسكو وأسوان ١٤٠٠ رجل
- الطابور الطائر .... ٢٠٠٠ رجل
- غير النظاميين بالمحطات الصحراوية ....٦٠٠ رجل

الجملة لكافة القوات ٦٠٠٠ رجل

وعند مراجعة الوضع العام للقوات، لم يكن بالمستطاع تعزيز الطابور الطائر بسحب أي قوات من حاميات الحدود المختلفة. وعندما وصلت للقاهرة الأنباء المؤكدة لتقدم (النجومي) أرسلت الكتيبة المصرية الثانية لأسوان، وسرعان ما تبعتها الكتيبة المصرية الأولى، وبطارية الخيول المصرية وبطارية البغال وسريتان للفرسان.

وفي الخامس من يوليه غادر السردار، الميجر جنرال سير جرنفل، بأركان حربه، القاهرة وتقرر أن يلحقه بأسرع ما يمكن لواء بريطاني، بقيادة البريقادير جنرال الشريف المبجل دي مونتمور نسي، والمكون من سرية من الهوسار العشرين، ومفرزة من بطارية البغال وأخرى من المشاة الراكبة وكتيبتين من(حملة) البنادق الملكية الأيرلندية، والكتيبة الأولى من فوج ويلز.

ولما كانت كل الأشاعات تشير إلى بميان، على بعد خمسة وعشرين ميلاً شمالي أسوان، على أنها الهدف (الأول) للعدو، فقد تقرر للوهلة الأولى تركيز تلك التعزيزات في أسوان، ولكن، من الناحية الأخرى، فأن ثبت أن تقدم العدو كان أقل سرعة وأقل منعة مما كان يقدر من قبلن فيجب بالتالي تشكيل طابور طائر بأسرع ما يمكن في أسوان وانضمامه لطابور الكولونيل وود هاوس مما يمكن معه تحقيق مواجهة حاسمة في مكان وسيط بين حلفا وأسوان. ونظراً لتطور الأحداث فقد اعتمدت الخطة الأخيرة. وفي منتصف ليلة الرابع من يوليه شوهد معسكر العدو من أرقين والنيران تلتهمه وصباح اليوم التالي إكتشفت مجموعة للإستطلاع بان النجومي قد قدم معسكره ثلاثة أميال شمالا وعلي بعد ٣٠٠٠ ياردة من النهر. تبعاً لذلك تحرك الطابور الطائر شمالاً من أرقين بينما أرسلت الكتيبة السودانية العاشرة إلى سرا مواجهة العدو.

وفي السادس من يوليه شوهدت قوات العرب تسير في تشكيل كثيف، يمتد لحوالي ثلاثة أميال، وتندفع مسرعة شمالاً. باتجاه سرا، على مسافة خمسة أميال عنها. وقام الكولونيل وود هاوس، بعد أن عزز الكتيبة العاشرة بالثالثة عشرة السودانية، بمواصلة إبحاره في النهر، موازياً لخطي تقدم العدو.

خلافات كثيرة كانت تنشب بين أقسام صغيرة من العدو، وإذدادت خسائر العدو من جراء الهروب أو من نيران مدفعية الزوارق. توقفوا لقضاء الليلة في الجبال المجاورة لسرا وعاودوا السير شمالاً صباح اليوم التالي. وبعد مسيرة خمسة أميال وصلوا إلى فرس وقام عدد من رماتهم، بعد أن إحتلوا الطابية القديمة المواجهة للطرف الشمالي لأدندان، بإطلاق نيران حامية علي زوارق المدفعية. وقام الكولونيل وود هاوس، بعد أن اتخذ موقعاً له بالضفة الشرقية، بإرسال جزء من قواته لقرية بلانة.

وصباح اليوم التالي (الثامن من يوليه) إكتشف وجود معسكر العدو خلف قرية فرس، وعلي بعد ١٥٠٠ ياردة من النهر. تم قصفه بفعالية لمدة ساعتين بالمدفعية المنصوبة بالضفة الشرقية وتواصل إطلاق النار المتقطع أثناء ذلك اليوم واليوم التالي. وفي صبيحة العاشر من الشهر شوهد العدو مرة أخرى متحركاً. وبعد أن قطع مسافة إثنتي عشرة ميلاً، بدون توقف، إتخذوا موقعاً لهم بالجبال التي تبعد بميلين عن جنوب بلانة، وعلي بعد ٣٠٠٠ ياردة من النهر. كان طابور الكولونيل وود هاوس متجمعاً في ذلك الوقت في بلانة بينما توجهت الهجانة إلى توشكي لمراقبة أي أقسام متقدمة للعدو، الذي درج على إرسال بعض قواته أمامه للبحث عن التمر، وفي نفس الوقت احتفظت القوات ببعض جماعاتها خلف العدو لقطع الطريق علي الشاردين.

وفي اليوم الذي تلي وصوله لبلانة، أرسل النجومي الخطاب التالي للحاج علي ود سعد، والذي كان يعمل مع مكين النور في إحضار التعزيزات له:-*

"بسم الله الرحمن الرحيم......

من العبد لله، عبد الرحمن النجومي إلى صديقه وأخيه في الله ومعاونه العظيم الحاج علي سعد فرح.

بعد التحايا والتبريك، فيسرني أن أخبرك بأنني ورجالي في صحة طيبة وروح عالية.

وصلنا بلانة بالأمس وإن شاء الله فسنتوجه اليوم إلى توشكي ومنها إلى توماس*. معنويات كل رجالي مرتفعة وكلهم مستعدون لقتال العدو وتدميره، وهذا مما يسرك. فكلما شاهدنا العدو هاجمناه وهزمناه وطردناه. اللهم أنصر الأنصار ودمر أعداءهم.

هناك بعض الذين هربوا، وربما ينشرون أخباراً كاذبة عنا. لذا أرجو منك عدم تصديقهم، فقد ساقهم إيمانهم الضعيف إلى هذا العمل الشائن. وعليك أن تثق في ثبات الأنصار وفي شجاعتهم. أقبض عليهم وقيدهم بالسلاسل وأحضرهم لنا معك عند قدومك لنا.

وهناك أربعة من الرجال يدعون علي أحمد والهادي حسن والمنصور الإمام وإبراهيم السيد كانوا قد فروا ليلة أمس وأخذوا معهم جمال العباس وأحمد عبد المكرم وآخرين. وأرجو منك بذل كل الجهد للقبض عليهم. مع خالص السلام

(إمضاء) وفق يا رحمن عبدك عبد الرحمن

وأثناء ذلك وصل السر دار إلى أسوان. وبعد أن أخذ فكرة عن الاتجاه العام للأحداث، فوض كامل الصلاحيات للكولونيل وود هاوس للتصرف حسب توجيهاته ولمواصلة قيادته لطابوره الطائر وكل القوات بالجنوب، بينما أرسل الكولونيل كتشنر لتقرير وضع دفاعات بمبان وقدراتها ولمحاولة معرفة وأكتشاف نوع العلاقات التي تربط الأهالي بقوات النجومي.

وصدرت إعلانات لسكان مديريات الحدود تحذرهم بأن أي خيانة منهم ستعاقب بالموت، وأن عليهم ألا يخشوا من قوات العدو والتي سترغم على الرجوع للسودان أو ستدمر. ووعدت الإعلانات بالتعويض عن أي خسائر تلحق بالممتلكات المدمرة، وحثتهم على تقديم كل مساعدة لقوات الحكومة لكن الأحداث التي تلت برهنت على أنه، وباستثناء الشبهات القوية التي تمس سكان بمبان، فأن ولاء الأهالي هناك كان مطلقاً وفي كل أنحاء المديرية. ومن الحقائق الجديرة بالذكر أنه، وخلال كل العمليات التي جرت، لم يقع أياً من القرويين في أيدي العدو، ولم يثبت أنهم تعاونوا أبداً مع الجيش الغازي. ولو كانت الأمور قد اختلفت في هذا الصدد لواجهت قوات الحكومة صعوبات لا مزيد عليها. وبذلك حرم النجومي، الذي أعتمد كثيراً علي الدعم المتوقع من القرويين، من واحد من أهم عناصر نجاح حملته.

***

---

* وجد في ميدان المعركة بتوشكي في الثالث من أغسطس ١٨٨٩.
* علي الضفة الغربية، شمال إبريم بقليل

وفي الصحراء الشرقية سارت الأحداث سيراً مرضياً. ففي العاشر من يوليه عاد بشير بك من حيمور وأبلغ السردار بأن بحر كرار لا يزال علي سلوكه غير العدواني، وأن القوات العربية التي هزمت في جبل ميسا، محاصرة الآن، في مكان ما بالقرب من مسرح المعركة، بواسطة البشاريين (العالياب والحمران).

ثم جاء صالح بك من كروسكو وضغط للسماح له بتكوين قوة من رجاله غير النظاميين حتى يطرد حسن خليفة ومن معه من المرات، حيث كانوا لا يزالون محتفظين بمواقعهم إلا أن أعدادهم قد تقلصت كثيراً بسبب نقص الطعام، كما أن قد راتهم على شن الغارات قد نقصت كثيراً بسبب قلة عدد جمالهم التي تبقت بعد أن نحر منها عدد كبير لإنقاذ القوات من الجوع.

وفي الحدود، عادت الطمأنينة للأهالي الآن. وقد عزز وصول القوات البريطانية والمصرية يومياً لأسوان ثقتهم في أنفسهم، كما كان لوصول أعداد كبيرة من الأسرى، مرتدين جبب المهدية، وقادمين من الجبهة، دليلاً قاطعاً أمام سكان المدينة المرتابين بأن أسلحة الحكومة هي المتفوقة.

وأثناء ذلك لم تركن حامية حلفا للهدوء. وكانت دورياتها تجوب المناطق المجاورة من كافة الإتجاهات وتعترض الهاربين أو ما يرسل من تعزيزات ومدد (للنجومي). وفي الحادي عشر من يوليه نجح كوكي، شيخ الشلال الثاني المعروف، في إحضار مدفعين جبليين من معتوقة، يبدو أن النجومي قد تخلي عنها في اللحظة الأخيرة لنقص وسائل نقلها معه. وفي ١٢ يوليه وصلت إلى سرس إمدادات جاء بها مكين النور وحاج علي ود سعد حيث أعلنا بأن تعزيزات أخرى هي في الطريق. وبات الآن واضحاً أن النجومي لن يتقدم من بلانة حتى وصول مكين إليه، وعمل قمندان حلفا كل ما في وسعه بالتالي لمنع وصوله للنجومي.

وفي الثالث عشر* من يوليه توجه السردار من أسوان لبلانة للتعرف على الوضع بنفسه وللتشاور مع الكولونيل وود هاوس. وعند وصوله يوم ١٥ يوليه قام باستطلاع لمواقع العدو، والتي لم تتغير عما عليه. لم تتم رؤية قوات العدو الكلية ولازال السؤال المحير، الذي لم يجد الإجابة، هو كم يبلغ عدد قوات النجومي؟ كانت اشتباكات متقطعة تدور يومياً وفيها تم أسر عدد من الملحقين بالمعسكر من نساء وأطفال، وكانوا كلهم يعطون إفادات محزنة عن الأحوال في معسكر العرب.

كانت أعداد الجمال والخيول والحمير تتناقص بسرعة لأنها كانت تشكل الطعام الوحيد المتاح للغزاة. ويبدو أن مبدأ البقاء للأصلح هو الذي ساد، فقد كان نصيب الأسد يعطي للمقاتلين. أما الأتباع والملحقين فكانوا يقتاتون بدقيق نوي البلح وبجمار النخل، والتي عندما تطحن فأن لها قيمة غذائية كما يقال. وتحول عدد كبير من أولئك التعساء إلى حالة من المجاعة وصاروا يندفعون بأعداد كبيرة نحو شاطئ النهر حيث تتلقاهم الدوريات وزوارق المدفعية ويأخذوهم إلى معسكر المصريين حيث ينالون الرعاية والإعاشة، أما الجرحى فيؤخذون للمستشفيات. وقد بذل كل ما يمكن حقاً لإنقاذ حياتهم.

---

* (في الثلاثين من يوليه) كما جاء في الكتاب، وصححناه طبقاً لتسلسل الأحداث (المعرب).

كان وضعهم، حقيقة، يائساً لدرجة أن السردار كتب رسالة للنجومي، أوصلها له في بلانة إثنين من الرسل الموثوق بهم، في السادس عشر من يوليه. وفي نفس الوقت أرسلت نسخاً من هذا الخطاب لكبار الأمراء. وجرى الخطاب كما يلي:

"أكتب هذا الخطاب يا ود النجومي لأفيدك بأنه عندما أخبرني قائد قواتي، وود هاوس باشا، بما حدث، جئت بنفسي هنا لأري بعيني ما يحدث. إن ورائي آلاف وآلاف من الجنود الإنجليز والمصريين الذين هم في طريقهم الآن عبر النهر. وقد فكرت في إزالتك أنت ومن معك من على وجه الأرض، لأنك سلبت ممتلكات الأهالي العاجزين وأخذت نساءهم وأطفالهم ودمرت بلادهم وأراضيهم وسببت المجاعة والخراب في بلاد كانت من قبل سعيدة غنية راضية. فلتعلم إذن بأن نيتنا كانت أن ندمرك تماماً. لكنني عندما حضرت هنا وجدت أنكم جماعة من البؤساء والضعفاء، تموتون جوعاً وعطشاً.

إنني أعلم بأنك شخصياً ضحية للغيرة الدنيئة من جانب الخليفة المدعي الذي جاء بابن أخيه يونس ليحتل وظيفتك السابقة ثم، ليتخلص منك ومن العرب الذين لايثق فيهم أمرك للتوجه لغزو مصر، وهي مهمة يستحيل قيامك بها إستحالة حجب ضياء الشمس من أن ينير الأرض. وهذا ما يعلمه الخليفة المدعي، وتعلمه أنت.لكنك أعمي لإعتقادك بوجوب طاعتك لأوامره. وكنت تعلم مسبقاً ألا طائل لمحاولتك هذه وكيف أنك بدلاً عن إحراز النصر عانيت الجوع والعطش وتدهورت قواتك وأصبحت الآن في أيدينا. إنك تبغي الوصول لبمبان لأنك تظن أن الأهالي هم أصدقاء لكم. لكن بمبان تبعد بمئات الأميال عنك وبينك وبينها صحاري قاحلة لاماء فيها. وحتى لو تمكنت أبداً من الوصول إليها فأنك ستواجه جيشاً من الإنجليز والمصريين جاهزاً لإستقبالك.

أما محاولة العودة من حيث أتيت في حكم المستحيل. لأن حاميات حلفا ستقطع طريق عودتك. ولم يبق لك الآن إلا الموت جوعاً وعطشاً في الصحراء.

لكنني أكرر مرة أخرى بأنني شاهدت أحوالكم المحزنة. ولتعلم بأن حكومتنا هي حكومة إنسانية وأنها لا ترغب في موت النساء والأطفال العاجزين الذين معك. لذلك أدعوك للإستسلام وتقديم أنفسكم (لي) فأن فعلتم ذلك فأن حياتك وحياة أمرائك وحياة كل من معكم ستوفر وهذا ما أتعهد به لك وأعطيك كلمة شرف كجنرال إنجليزي. أما إذا رفضت الإستسلام فلتعلم بأنه سيتم تدميركم تماماً. من هنا أرسل لك هذا الخطاب لتختار السبيل الذي تراه.

هداك الله لإتخاذ القرار.

ولترسل لي الرد مع حامله.

بلانة في ١٦ يوليه ١٨٨٩*

إلى كل أمير:

أرسل لك نسخة من الخطاب الذي بعثت به لقائدكم ود النجومي. عليك أن تحكم بنفسك علي ما ستقوم به وليرشدك الله لاتخاذ القرار. فإذا أردت التسليم وإنقاذ حياتك وحياة من معك،

* جاء التاريخ في الكتاب (١٦ مايو)، وهذا خطأ واضح (المعرب).

فأرسل لي رداً مع حامله بأنك ستسلم. أما إذا لم تجب علي خطابي فسأفهم بأنك لا تريد التسليم وسيقع علي رأسك دم أولئك البائسين.

(إمضاء) ف. قرنفل، سردار

وفي اليوم التالي حضر بالرد أحد الرسل، أما الآخر فقد أرسل، مع خطاب السردار، إلى دنقلا وأم درمان*. (وجاء رد النجومي كالآتي):

"بسم الله الرحيم القدير والصلاة علي سيدنا محمد وآله وأصحابه. من العبد لله، المتوكل علي الله، عبد الرحمن النجومي.

إلى السردار قرنفل باشا، هداه الله إلى الصواب، والسلام علي من إتبع الهدى، الذين يخافون الله، والخالية قلوبهم من الطمع للدنيا والطموح.

نفيدكم بأن رسالتكم، التي تخبر فيها بوصولك، وبسبب حضورك إلى هنا، قد وصلتنا. وقد لاحظنا تكرارك اللا نهائي لقناعاتك ومرادك، لذلك أفيدكم بأننا قد أرسلنا من قبل سيدنا لنبشر الناس جميعاً ونعظمهم بمن فيهم المسلمين، ولندخلهم في رحمة الله وحمايته في المهدية، ولنحتل كل البلاد ونحول أهاليها (إلى الدين).

ليس هدفنا الزحف إلي بمبان، كما ذكرت، لكننا نهدف إلى إستلام كامل البلد، وبعون الله نحولهم للدين. لذلك فأن الذين يتركون الأمر لله، لنبيه صلي الله عليه وسلم ولخليفته عليه السلام، ويسلمون كافة أسلحتهم وذخائرهم فأن أموالهم وأبناءهم سيسلموا من كل أذى. وسيكون مالنا لهم وسيشاطروننا مصيرنا. أما الذين يرفضوننا ويتبعون أهواءهم وطموحاتهم ويصرون على المقاومة، فليعلموا بأن السيف هو الفيصل، وسيحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين. وليكن معلوماً لديك بأن خطاباتك المذكورة وتلك التي أرسلتها لأخواني الثلاثة قد تم إرسالها بيد رسولك، عبد الهادي، إلى سيدنا يونس ومنها إلى سيدنا ووسيلتنا خليفة المهدي عليه السلام لمعلوميته وللإفادة. وإذا ما كان لدينا السلطة للرد على مثل تلك الخطابات لأرسلنا لك رداً شافياً.

وفيما يختص بما قلته حول جيوشك الكثيرة العدد واقتراب وصولها... الخ فأن هذا لا يخيفنا أبداً. إننا لا نخشى أحداً سوى الله ولا نخاف حتى من الثقلين (الجن والإنس).

وقبل هذا كنا نتشوق لفرصة قتالكم. ولأن الله قد أراحنا من طغيان حكامكم، فلتعلم بأننا مصرون علي حربكم وتدميركم ولن نترك منكم علي وجه الأرض أحداً لا يعتنق ديننا

---

* إحتفظ بهذا الرسول في السجن بأم درمان لعدة شهور، وتمكن من الهرب قبل فترة قصيرة وعاد إلي القاهرة في يونيه١٨٩٠. وقد قال بأنه عند وصوله لأم درمان أسرعوا بإحضاره أمام الخليفة والذي أخذ يسأل بجد وإهتمام عن أحوال النجومي وقواته. رد عليه بأن جيوش الإنجليز والمصريين لا تعد ولا تحصي وأنه يعتقد بأن فرص النجومي في النجاح ضئيلة جداً ظهر الضيق والإنزعاج الشديد علي وجه الخليفة، وبعد عدة أيام أرسل إليه مرة أخرى وساقه معه إلى أستعراض لكل قواته بأم درمان. وقد خاطب الخليفة المقاتلين المتجمعين بالعرضة وقال لهم: "هذا الرجل الواقف أمامكم الآن قد جاء من معسكر النجومي بمصر ويقول أن النجومي ورجاله بحالة طيبة ويتوفر لهم الطعام بكثرة، واللبن والزبد والسكر والعسل وكل ما حتاجون إليه". ثم إلتفت للرسول وسأله: - "أليس هذا صحيحاً؟" فرد عليه الرجل التعس مذهوراً خوفاً من قطع رأسه وأجاب بالإيجاب لكن سرعان ما بلغتهم هزيمة النجومي في توشكي وصب الخليفة، الذي لم يعد قادراً علي حجب الحقيقة، جام غضبه علي الرجل وألقي به في السجن المزدحم وعذب عذاباً شديداً."

وينفــذ أوامر الله. كن علي ثقة من هذا، ولا تخدعنك كثرة جيوشك ومدافعك وقذائفك وبــارودك، لأن الله ليس معكم.

يكفي أن رؤساءك غردون وهكس والآخرين قد تم تدميرهم، مع كثرة جيوشهم وأسلحتهم ومعداتهم. بالتالي فانك إذا أستسلمت لي وسلمت مدافعك وأسلحتك وذخــائرك فســتنجو بحياتــك وسيحل عليك سلام الله ورسوله صلي الله عليه وسلم ومهديه عليه السلام وخليفته بارك الله فيه. وسيكون مالنا لكم وستقا سمنا مصيرنا. وستعيش في سعادة ويسر، وإلا فسيكون هــذا الخطــاب شاهد عليك وعلي جريمتك وسيكون دم من معك معلقاً في عنقك.

وها هو عائد إليك أحد رسلك، فضل المولي، مع هذا الخطاب. ولا حول ولا قوة إلا بالله، وعليه توكلنا.

(ختم) وفق يا رحمن عبدك عبد الرحمن

١٨ ذو القعدة ١٣٠٦هـ

كان واضحاً طبيعة الرجل المتعصبة، وقد أفاد الرسول الذي عاد برسالة النجومي. بــأن النجومي قد جمع أمراءه، وقرأ عليهم الخطاب ثم جرد سيفه وأعلن بأنه لن يسلم أبداً. سار أمراءه على نهجه وجرى مشهد صاخب وسادت أرجاء المعسكر صيحات إحتجاج حادة ضــد الاستســلام، وظهر عليهم جميعاً التشوق للقتال. ورغم كل هذه المظاهر، إلا أن النجومي لم يخفي سراً قناعتــه بأنهم سيموتون جميعاً كشهداء. كرر نفس ما قاله في أرقين، ويقال أن كثيراً من أمرائــه كــانوا سيقبلون عرض السردار بسرور لكن خوفهم من النجومي كان عظيماً لدرجة أن أحداً مــنهم لــم يجرؤ على معارضة رغباته. والآن وبعد أن ضاعت آخر فرصة لهم للنجاة، انتظروا بعناد وصــول التعزيزات التي طال إنتظارها، والتي ستكون إشارة التقدم لهم.

رجع الجنرال قرنفل لأسوان لإحضار الطوابير الشمالية والتي قرر الدفع بها لأعلي النهر بأسرع فرصة ممكنة.

أما الميجر جنرال، الشريف دورمر، القائد بمصر، فلم يضع وقتاً فــي إرســال القــوات البريطانية من القــاهرة. وشرعت المدفعية والفرسان والبنادق الملكية الأيرلنديــة فــي التحــرك ووصلت أسوان في ٢٥ يوليه، بينما جاء الجنرال دي مونتمورنسي، قائد الطابور البريطاني، بعــد هما بيومين.

كان من المقرر أن يصل الطابور البريطاني إلى الجبهة قبل الضربة القاضية ولكن، وكما ستظهر الأحداث التالية، جاءت اللحظة المناسبة للضربة قبل وصول أي من القوات (البريطانيــة)، سوى الفرسان، لمسرح المعركة.

وكانت القوات المصرية قد وصلت كلها تقريباً، وتم تشكيل طابور مكــون مــن مدفعيــة الخيول (قسم واحد) والخيالة الفرسان (سرية واحدة) ومدفعية الميدان (شعبة واحــدة) ومدفعيــة الحامية (شعبة واحدة) والكتيبة المصرية الأولى المشاة والثانية المشاة والكتيبة السودانية الحادية عشرة مشاه* ومعهم كل فصائل الإدارة ووضعت كلها تحت قيادة الكولونيل كتشنر.

* هذه الكتيبة التي سحبت من سواكن وصلت للقصير يوم ١٦ وسارت علي الأقدام من القصير حتى الأقصر (١٢٠ ميل) عبر الصحراء وذلك في زمن غير مسبوق قدره خمسة أيام ونصف يوم.

دفعت هذه القوات للأمام بأسرع وسيلة ممكنة. وفي ١٨ يوليه وصلت الكتيبة الثانية لتوشكي وبعد أن إحتلت القرية طردت منها مجموعة صغيرة متقدمة للعدو بعد اشتباك ضعيف. ثم شرعوا في تحصين تلك القرية الطويلة المنعزلة ووضعها في حالة دفاع. وفي اليوم التالي وصلت الكتيبة الأولى.

كانت الخيالة والمدفعية المصرية قد غادرت أسوان جنوباً في السادس عشر من الشهر، بعد أن سارت على طول الضفة الغربية. لكن طبيعة الأرض الوعرة أوجبت ترحيل المدافع بالسفن والبواخر.

في تلك الأثناء كان الكابتن لويس، في حلفا، نشطاً في البحث عن مكين النور. وفي الثامن عشر من يوليه قام باستطلاع سريع حتى سرس، غطى فيها كل المسافة ذهاباً وأياباً، وقدرها حوالي ٦٨ ميل في يوم واحد. ووجد هنا مجموعة من الأكواخ، تسع لحوالي ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ رجل، لكنها كانت شبه خاليه، ولكن تم إطلاق بضع رصاصات عليهم من الضفة الغربية. وعلى كل حال وصل مكين في نفس الوقت تقريباً الذي عادت فيه مجموعه استطلاع لويس. وبعد أن قام بتعدية النساء للضفة الشرقية، مع أمرهن بالبقاء هناك، توجه شمالاً بقواته المكونة من حوالي ٥٠٠ رجل و ١٠٠ جمل وبضع خيول. وفي الثاني والعشرين من الشهر شوهد بالقرب من جمى، على الضفة المقابلة، بواسطة الخيالة المصرية وشوهد عند المساء يستقي في معتوقة وبعدها أوغل في الصحراء، على بعد عشرة أميال من النهر، وتقدم بسرعة متجنباً كل الدوريات التي أرسلت لإعتراضه وإلتحق بالنجومي في بلانة في الخامس والعشرين من الشهر، بعد أن قطع خمسة وأربعين ميلاً في ثلاثين ساعة.

وفي الثاني والعشرين من الشهر أفلح حسن أفندي حبشي، كبير كتبة عبد الحليم والموظف السابق لدي حكومة السودان، في الفرار وقدم للكولونيل وود هاوس أرقاماً دقيقة لقوات النجومي المقاتلة والتي كان قد حسبها بنفسه. كان عدد المقاتلين ٢٨٢١ رجلاً و ١٣٢ حصناً و ٢٠٠جمل و ٣٠٩ بندقية بجانب حوالي ٤٠٠٠ من الأتباع.. وجاءت إمدادات مكين لتضيف لعدد المقاتلين ليصل إلى ٣٣٠٠ مقاتل وباضافة ٣٠٠ بندقية أخري لهم. كانت هذه التعزيزات، التي طال الحديث عنها، ورغم قلتها، قد رفعت معنويات وطاقات قوات النجومي. وفي الثامن والعشرين من الشهر، بعد توقف دام ثمانية عشر يوماً، شرع الجيش في تقدمه للشمال من جديد. ووصلوا في نفس اليوم لمعسكرهم الجديد، الذي يبعد بميلين عن معبد أبو سمبل المشهور، بعد أن ساروا لعشرة أميال. واصلوا سيرهم في اليوم التالي، وفي أول أغسطس أتخذوا موقعاً لهم بالجبال التي تبعد بأربعة أميال جنوب توشكي. كانوا قد غطوا كل المسافة،٣٥ ميلاً من بلانة، في ثلاثة أيام توقفوا فيها لثلاثة مرات.

وفي ذلك الوقت تم وضع إعلانات في أماكن بارزة على ضفة النهر فحواها أن الأشخاص الذين يسلمون أنفسهم بدون مقاومة ستتم معاملتهم معاملة حسنة وعليهم ألا يخشوا على أرواحهم.

وفور مبارحة النجومي لبلانة وإخلائها، قامت بعض القوات المصرية بزيـارة معسـكره المهجور وقد أعطوا وصفاً شنيعاً له. فلقد تخلف بالمعسكر كل من عجز عن المضـي قـدماً مـع النجومي سواء من جراء جروحهم أو مرضهم. تركوا تحت مظلات صغيرة بنيت بجريد النخل. ولو لا وصول النجدة المصرية لهم في الوقت المناسب لماتوا جميعاً. ثـم تـرحيلهم فـوراً لمعسـكر (المصريين) وأدخلوا المستشفى. وجد بالمعسكر أكثر من ٢٥٠ قبراً كما وجدوا عدداً من الجثث لم يتم دفنها. كان واضحاً أن القوات قد عانت من ضائقة خطيرة لدرجة أن عظام الحيوانـات التـي ذبحت تم طحنها واستخدامها كطعام. ووجدت بالمعسكر أيضاً كميات من الأسلحة والسروج والطبول والخيام. وفي المكان التالي لتوقفهم (قوات النجومي) وجدت علي الأرض أعداد كبيرة مـن دروع الزرد مبعثرة بها، وفيما بعد تم إكتشاف وجود مدفعين مدفونين تحت الرمال تخلـوا عنهـا لعـدم القدرة علي نقلها معهم.

في تلك الأثناء كان طابور الكولونيل كتشنر يتجمع بسرعة في توشـكي، بينمـا تجمـع الطابور البريطاني في أسوان.

وفي ٢٦ يوليه غادر صالح بك كروسكو إلي المرات بعد صدور تعليمات له بطرد العرب منها، وترك حامية صغيرة هناك، ثم الرجوع فوراً بباقي قواته. وفي اليوم التـالي (٢٧) جـاءت أخبار مثيرة للقلق إلى بشير بك في أسوان، بأن قوات العرب في الصحراء الشرقية قد تم تدعيمها وأنهم بصدد التقدم نحو أبرق. وبعد مسيرة خمسة أيام من أسوان، تمكن بشير بك من وضع قـوة صغيرة في محطة أبرق وترجي المسئولين للسماح له بتعزيزها بأربعمائة رجل من الجمالة. ولأن تهديداً بتحركات علي الجناح من جانب الصحراء، في هذا الوقت الحرج، قد يؤدي إلـى عواقـب وخيمة، فقد تم الإذن بشير بك لتنفيذ مخططه. ومن ثم توجه للصحراء في اليوم التالي.

وفي التاسع والعشرين من يوليه توجه الجنرال قرنفل من أسوان إلى توشكي ووصـلها في الحادي والثلاثين من الشهر، وجاءت معه سرية من الخيالة البريطانية. أثناء ذلك كانت القوات المصرية المحمولة، بقيادة الملازم داقويلار تتحرك علي الضفة الغربية (نحـو الجنـوب). وفـي الثلاثين من يوليه، وعندما كانوا علي بعد خمسة عشر ميلاً من توشكي، وصلتهم معلومـات بـأن مجموعة متقدمة من قوات العدو موجودة علي التلال المطلة علي قرية عنيبـة. دارت مراشـقات متقطعة بالنيران خلال الليل. وصباح اليوم التالي قام الملازم داقويلار، بعد أن أخذ معه مجموعتين من القوات، ونصف سرية من السودانية الحادية عشرة* وأربعين رجلاً من بطارية الخيول وبضع رجال من إدارة الرق**، بالتقدم نحو التلال. ولما أكتشف مجموعة من ١٥٠ رجلاً من العدو عليها فتح عليهم النار. كان العرب قد اتخذوا مواقعهم بين جبلين لكن القـوات المصـرية تمكنـت مـن الإحاطة بهم ومهاجمتهم ودار صدام عنيف قتل فيه سبعون من العرب وأحد أمراء البقارة المهمين، وهو الأمير ود حامد. أما الباقون، الذين قطع طريق تراجعهم كتل ضخمة مـن الصـخور، سـدت

* أرسلت لدعمه من توشكي.

** تم تكوين هذه الإدارة (مصلحة الرقيق) بعد عقد معاهدة تجارة الرقيق بين بريطانيا العظمى ومصر عام ١٨٧٧. وهي تحت إشراف وزارة الداخلية، ولها قواتها الخاصة من رجال البوليس.

المسافة بين التلال، فقد إستسلموا. لم تتجاوز خسائر المصريين في ذلك الاشتباك ثلاثة قتلى وستة جنود وضابطين جرحى.

أستؤنف السير بعد ذلك ودار اشتباك قصير آخر في قرية مسمس، ووصلت القوات إلى توشكي في الأول من أغسطس حيث كانت كل قوات الكولونيل وود هاوس قد تجمعت هناك وتم تحويل كل تلك القرية الطويلة إلى حالة دفاع.

إحتل الطابور الأول الطرف الشمالي للقرية، والطابور الثاني الطرف الجنوبي. أما الخيالة المصرية وسرية الهجانة فقد استقرتا في حوش ضخم بالقرب من وسط القرية. أما منزل العمدة فكانت به الخيالة البريطانية.

وانصبت الجهود الآن للإسراع بإحضار القوات البريطانية، والتي أبلغ الجنرال دي مونتمورنسي بأنهم سيكونون قد غادروا أسوان جميعهم قبل الرابع من الشهر. تحرك نصف الفوج الملكي الأيرلندي في الأول (من الشهر) وبعد يومين تحرك ذلك الجنرال وأركان حربه (نحو توشكي).

وباستثناء اللواء البريطاني، فأن قوات النيل الميدانية تجمعت الآن في توشكي تحت إمرة القائد الأعلى الجنرال قرنفل يساعده رئيس أركانه اللفتنانت كولونيل سيتل*.

ويوم الجمعة الثاني من أغسطس قام السر دار باستطلاع وصل فيه إلى مسافة قريبة من موقع العدو، والذي شاهده الضباط بوضوح من على تلة مرتفعة مطلة على معسكرهم. شوهد العرب وهم في إصطفافهم المعتاد للصلاة، بينما أدلى بعض الفاربين بإفادة مؤداها أن النجومي قد أنتوي مواصلة زحفه شمالاً في اليوم التالي.

وطبقاً لتلك المعلومة، وبالنظر إلى حقيقة أن الأرض التي على النجومي أن يعبرها عقب مغادرة معسكره الحالي كانت مناسبة تماماً لتحركات القوات الحكومية، أما ما بعدها إلى الشمال فأن طبيعة الأرض وعرة لحد كبير مما يلائم تكتيكات العدو المعروفة تماماً. من هنا قرر الجنرال قرنفل أن يحاول إيقاف تقدم العدو، وإذا أمكن إرغامه على البقاء في مكانه الحالي، حتى وصول الطابور البريطاني، ليقوم بتوجيه الضربة القاضية عليه. وبالتالي أمر بقيام كل القوات المحمولة الموجودة** بقيادة الكولونيل كتشنر، بدوريات كثيفة صباح يوم غد الثالث من أغسطس الباكر، وأن يتوجهوا نحو معسكر العدو، ويظهرون من أمامه جبهة متناهية في عرضها، حتى يدفعوه إلى تأخير تقدمه.

***

من الضروري هنا إعطاء وصف موجز للمنطقة وما يحيط بها. فعلى بعد أربعة أميال جنوب توشكي توجد سلسلة من الجبال الجرانيتية تمتد من النهر باتجاه غربي لحوالى ثلاثة أميال. وفي قلب النهاية القصوى لهذه السلسلة، وإلى الجنوب منها، وضع النجومي معسكره.

---

* للتفاصيل أنظر الملحق بنهاية هذا القسم.

** مكونة من سرية الهوسار العشرين، بقيادة اللفتنانت كولونيل إروين، وثلاثة سرايا للخيالة المصرية، بقيادة الملازم بيتش، وفرقة هجانه بقيادة الكابتن دننج.

وتختلف قرية توشكي قليلاً عن بقية القرى المعتادة على الضفة الغربية. فمثل أرقين، فأنها تشتمل علي مجموعات من البيوت المتلاصقة المبعثرة بطول ثلاثة أميال وسط حقول مزروعة تتناثر فيها هنا وهناك أشجار النخيل، بينما تمتد الزراعات لحوالي ١٢٠٠ ياردة من ورائها. ثم تبدأ الكثبان الرملية المعتادة والتي تنحدر تدريجياً حتي الصحراء الوعرة. ومن هنا يبدأ سهل واسع متموج يمتد بعيداً ومحاط من ناحيته الشماليه الغربية، علي بعد ستة أميال من النهر، بسلسلة من الجبال الجرانيتية المرتفعة، بينما ترتفع سلسلة أخرى مماثلة بالطرف الجنوبي الغربي. والجنوب محاط بالتلال المشار إليها، والتي يقع وراءها معسكر النجومي. أما إلى الشمال فتوجد الأراضي المليئة بالحجارة والتلال المتكسرة والتي تمتد، وهي تزداد وعورة وتكسراً، حتى مرتفعات إبريم.

تعترض هذا السهل هنا وهناك التلال وصخور ذات أشكال عجيبة وجلاميد، بعضها يرتفع لعلو كبير مما يوفر غطاءاً كافياً لإخفاء أعداد كبيرة من الرجال. وعبر ذلك السهل اندفعت صباح الثالث من أغسطس القوات البريطانية والمصرية المحمولة بسرعة. وعندما أصبحت علي بعد ميل من معسكر العدو تم أسر عدد قليل من الجمالة والذين أبلغوا (عند استجوابهم) بأن النجومي علي وشك التقدم بقواته للشمال. فقام الجنرال قرنفل، الذي كان قد رافق هذه الدورية الضخمة، بالذهاب بسرعة نحو سفح الجبال. ومن هناك، وخلال ممر ضيق، أمكنه التمعن بوضوح في معسكر العدو الذي يبعد عنه بحوالي ١٥٠٠ ياردة. كانت الساعة السابعة إلا ربعاً صباحاً وكان المعسكر يضج بالحركة وتم رفع الأمتعة والمعدات على الجمال وإتخذت كل الترتيبات للتقدم فوراً. شوهدت الدورية. وقام بعض العرب من حملة البنادق، بعد أن تقدموا نحوهم بتشكيل القتال، بفتح نيران قوية على الخيالة. تم الرد علي النيران بواسطة جنود الهجانة، بعد ما ترجلوا واتخذوا موقعاً لهم على تلة مناسبة ورموا العدو برشقات متصلة من الرصاص أثناء تقدمه نحوهم.

قام الهجانة بالتخلي عن هذا الموقع، وقامت القوات المحمولة بالتقهقر شمالاً لموقع آخر واصلوا منه إطلاق النار علي العدو، والذي لم يهن بل واصل تقدمه نحوهم بأعداد متزايدة باستمرار. أسرع الجنرال قرنفل بإرسال الميجر رندل لإحضار مدفعي بطارية الخيول.

وكانت قوات الهجانة والفرسان المترجلين قد احتلوا موقعاً ثالثاً، على بعد ٩٠٠ ياردة إلي الشمال. كان الموقع عبارة عن تلة منعزلة أمامها سهل فسيح يمتد حتى طريق تقدم العدو. وأخذت القوات به تطلق نيراناً متصلة على رماة العدو. تم إرسال الكولونيل وود هاوس إلى توشكي ومعه أوامر بإحضار لواء المشاة الأول المكون من الكتائب السودانية التاسعة والعاشرة والثالثة عشرة – ومجموعهم ١٤٥٠ جندياً. وحوالي الثامنة والنصف صباحاً أنحدر سيل من حملة حراب العدو، ومعهم عدد لا يحصي من الرايات، من خلال واديين ضيقين في سلسلة الجبال الواقعة شمال معسكرهم وتقدموا بعزم نحو الموقع، بعد أن سبقهم صف طويل من حملة البنادق الذين واصلوا إطلاق نيران حامية لكنها غير دقيقة التصويب.

ومن وراء حملة الحراب جاءت جماعات كثيفة من الأتباع، نساءاً ورجالاً وأطفالاً وجمالاً وأمتعة وغيرها.

وإندفعت كل قوات العدو مسرعة في تقدمها وكان من الضروري قيام الجنود بالمزيد من الانسحابات أمامها، وقام العدو بعد عشرة دقائق باحتلال تلتهم التي هجروها. اتخذ الجنود موقعاً جديداً لهم في سفح جبل مخروطي الشكل، يبعد بميلين من قرية توشكي في الوقت الذي وصلت فيه إليهم القوات المحمولة ومعها المدفعين.

وفي التاسعة صباحاً فتحت المدافع نيرانها، وتحول اتجاه العدو نحو الشمال غربي، مكوناً طابوراً ضخماً زاحفاً بينما حمت أجنحتهم المكشوفة جماعات من حملة البنادق.

تقدم هذا الطابور بانتظام للأمام، على بعد ٢٠٠٠ ياردة وجاء بعيداً وراءه الأعداد الضخمة للأتباع وجمال الحمل، متجهين كلهم نحو الشمال الغربي حيث أختفوا عن الأنظار خلف التلال التي تتخلله.

بدا واضحاً أن النجومي لم ينو القتال، بل كان مندفعاً في طريقه للأرض الوعرة المتكسرة بالشمال، وبهذا أضاع على القوات ما هدفت إليه بعملية الإستطلاع التي قامت بها. ولو تم السماح لهم بتنفيذ هذا المخطط، وفي وجه القوات المتجمعة في توشكي، لفسر العرب ذلك بأنه نصر لهم، إضافة لتسببه في صعوبة القيام بالضربة القاضية في أرض غير مناسبة. من ثم قام الجنرال قرنفل، بعد أن ألقي نظرة سريعة على الوضع، باتخاذ قرار بإيقاف تقدم العدو، حتى لو أدى ذلك إلى مواجهة دموية تتم علي بعد خمسة أميال من النهر وبوسائل نقل غير مكتملة، وبدون إستعدادات طبية تذكر لمقابلة الحالات الحرجة*، وبررت الأحداث اللاحقة علي صحة القرار الذي أتخذه.

من موقعه هذا أمر بسرعة إحضار اللواء الثاني من توشكي، والمكون من الكتيبة المصرية الأولى بقيادة الكابتن كولس، والكتيبة الثانية بقيادة الميجر شكسبير والسودانية الحادية عشرة بقيادة الكابتن ماكدونالد، بينما قام الملازم غردون بإحضار بطاريتي الميدان الأولى والثانية (ستة مدافع).

وبينما واصلت المدافع إطلاق قذائفها على مقدمة العرب الزاحفين، صدرت الأوامر للكولونيل كتشنر للقيام بالتفافة واسعة إلى الشمال بقواته المحمولة وأن يحاول إيقاف تقدم العدو. وبعد اتخاذ الكولونيل كتشنر لعدة مواقع على اليمين تمكن من تحقيق هدفه، وتوقفت مقدمة العرب عن مواصلة سيرها.

وبعودة إلى ما يدور في قوات ألنجومي، نجد أنه، وطبقاً لتعليماته الصادرة، لم ينزعج أبداً بوصول الطابور الشمالي إلى توشكي، والذي كان علي علم تام به، بل صمم علي مواصلة تقدمه. وعندما شاهد في الصباح الباكر القوات البريطانية والمصرية المحمولة، قال لمن حوله:" فلنقف جميعنا على إستعداد للقاء خالقنا اليوم"*.

---

* كما نتذكر، فأن الطوابير المصرية المشتركة كانت قد وصلت للتو إلي توشكي. ورغم أن خطة العمليات كانت تشتمل على ضرورة توفير وسائل النقل والترحيل، لخوض قتال بعيد عن النهر، إلا أن تجميع الجمال لهذا الغرض، في توشكي، لم يكن قد تم حتى الثالث من أغسطس.

* من أقوال عدد من الأمراء الذين تم أسرهم وإستجوابهم.

كان التراجع المستمر للقوات من أمامه قد ألهمه الثقة في نفسه، وصار يعتقد بأنه، على الأقل في ذلك اليوم، قد تجنب المعركة المرتقبة، إلى أن فتحت المدافع نيرانها عليه. وجد أن طريق تقدمه نحو الشمال قد سد. وفي كلمات أمرائه:"كانت كل قمة جبل، في اتجاه تقدمه، مجللة بهجانة وخيالة العدو". قرر أنه لابد له من خوض المعركة، وبالتالي شرع لإتخاذ أفضل المواقع التي تتيحها له طبيعة الأرض. رأي علي بعد ٨٠٠ ياردة غرباً أربعة تلال منعزلة فوق الأرض المرتفعة ولاحظ أن القوات المحمولة قد إحتلتها، فانتهز هذه الفرصة وقام، تحت غطاء من مقاتليه حملة البنادق، بتوزيع مقاتليه علي النحو التالي:

"أن يقوم عبد الحليم ورجاله بالسيطرة على التل الأيسر ويسيطر على ما حول الموقع، وأن يقتسم التل الأيمن والأوسط كل من عثمان أزرق وإسماعيل حركة بقواتهما وقوات النجومي".

إمتلأت قمم الجبال الآن بالرايات المغروزة وبحملة البنادق الذين اصطفوا فوقها. أما حملة الحراب فقد أمروا بالاختفاء عن الأنظار إلى أن يصلهم الأمر بالهجوم. ثم رجع النجومي إلى التلال التي تبعد بحوالي ١٨٠٠ ياردة إلى الخلف، وغرز رايته فوق هضبة صخرية وظل هو وحرسه الشخصي يستعد لإدارة العمليات. كان الأتباع وطابور الأمتعة قد وجدوا مكاناً مؤقتاً على التلال المرتفعة التي تطل علي موقعه. وتجمع هناك أتباعه العديدين (والخدم والنساء والأطفال) علي إستعداد للانضمام لخطوط القتال إذا ما كتب له الظفر أو لتأمين خط الرجعة لهم إذا ما انسحب المقاتلون.

وفي تلك الأثناء، وبينما كان النجومي يعمل علي توزيع مقاتليه على مختلف المواقع التي حددها، قام لواء المشاة الأول، بقيادة الميجر هنتر، تحت غطاء من الأرض المرتفعة وبدون أن يراه العدو، بالمضي في مؤخرة القوات المحمولة، وفي الساعة العاشرة صباحاً إستولى علي موقع صخري يبلغ طوله ١٥٠٠ ياردة ويواجه مباشرة، علي بعد ٨٠٠ ياردة، للجبال التي تعج الآن برايات العرب وبحملة بنادقهم*.

تلك القوات كانت موزعة كما يلي: التاسعة بقيادة الميجر للويد علي اليمين، والعاشرة تحت قيادة الميجر دون في الوسط، والثالثة عشر بقيادة الكابتن كمبستر إلى اليسار. أما المدفعية التي جمعت تحت إمرة الميجر رندل فقد إحتلت الممر الضيق بين التاسعة والعاشرة. وقامت القوات المحمولة بدعم الجناح الأيمن للمشاة، بينما قام لواء المشاة الثاني، الذي وصل بعد ذلك بقليل، بالإنتظار لدعم الجانب الجنوبي الأيسر للموقع.

ثم فتحت النار، بطول الخطوط، في وابل من الرصاص المنهمر والذي استمر لحوالي نصف ساعة. وفي نفس الوقت كان بعض العرب، المختبئين في مرتفعات أحد التلال المخروطية الشكل علي الناحية اليمنى، يصبون نيراناً منهكة من كافة أسلحتهم، ولم يتم طردهم وقتلهم بواسطة الخيالة إلا بعد أن ألحقوا خسائر بالقوات المصرية.

* عندما وصلت التعليمات للواء المشاة بتوشكي للتقدم فوراً، كانوا قد صرفوا لتوهم من طابور الصباح وإستعدوا لتناول طعام الإفطار. وبعد عشرة دقائق من وصول الأمر لهم كانوا قد شرعوا في التحرك دون افطار، حاملين معهم زجاجات صغيرة للماء، وحمل كل جندي ١٠٠ طلقة ذخيرة معه.

شمال

كروكي يوضح مواقع القوات (الحكومية) خلال معركة توشكي

SKETCH OF GROUND
SHEWING POSITIONS OF THE TROOPS
DURING ACTION OF

TOSKI.

3RD AUGUST 1889

REFERENCES

Enemy
Cavalry
Camel Corps
Artillery
Infantry

Scale

2ND BRIGADE

TOSKI VILLAGE

RIVER NILE

النيل

وحتى ذلك الوقت لم تكن القوات قد تأكدت مما كان يخبئه العدو من مقاتليه خلف التلال. وتم توجيه الكولونيل وود هاوس، الذي كان يقود الآن أقسام المشاة، بإطالة ومد خطوطه ناحية اليمين لتطهير جناح العدو الأيسر. وعندما تقدم يميناً بنحو خمسمائة ياردة، وكاد يتداخل مع موقع العدو الأيسر، شاهد الميجدر للويد عدداً كبيراً من قوات العدو على وشك الهجوم، خارجين من وراء أحد التلال، فأوقف كتيبته وعززها بقواته الاحتياطية وأطلق وأبلاً من الرصاص على العرب والذين إندفعوا، وهم يصيحون صيحات وحشية، خارجين من مخبئهم نحوهم.

واجههم الجنود بثبات عظيم وحصدوهم حصداً. وإضطر العرب، رغم هجومهم بغاية العزم والتصميم، إلى التراجع تاركين على جانب الجبل مائة وخمسين من قتلاهم ثم تقدمت الكتيبة التاسعة، وتعززت بسرية من الكتيبة المصرية الثانية بقيادة الكابتن مارتير، واستولت على الجبل الأول مكبدة مزيداً من الخسائر للعدو والذي حاول، مراراً وتكراراً، الهجوم في مجموعات تحت غطاء من دخان المعركة. تعرضت تلك القوات، إثناء إنتظارها لما يسفر عنه هجوم المشاة، لنيران حامية من التلال المجاورة.

ولما تيقن الجنرال قرنفل من صد هجوم العرب بواسطة الكتيبة التاسعة, أمر علي الفور كل الخطوط للتقدم نحو موقع العدو، والذي كانت المدفعية تقصفه الآن بفعالية كبيرة. وعندما وصلوا مقابل وسط المعسكر حاولت أعداد كبيرة من العدو، صائحة وملوحة بأعلامها وراياتها، الهجوم عليهم لكنهم ووجهوا برصاص الكتيبة العاشرة، والتي أفلحت، ومعها الكتيبة التاسعة، في احتلال الممر الرملي الذي يربط بين الجبلين ومنه واصلوا ضرب العدو الذي كان لا يزال متجمعاً خلف الموقع الأوسط.

إثناء ذلك شاهد الجنرال قرنفل، من علي قمة الجبل الأول الذي تم احتلاله، الكتيبة الثالثة عشرة، والتي كان واضحاً أنه قد تم صدها أمام التل المنعزل على أقصي اليسار، فأصدر أمره باجتياح الجبل في الحال. كانت هذه الكتيبة، والمعززة بالكتيبة الأولي من اليسار، قد تكبدت خسائر فادحة من نيران العدو المنصبة عليهم من عدد من حملة بنادقهم، المختبئين خلف أرض مرتفعة، وفقدت في بضع دقائق حوالي سبعين من القتلى والجرحى. لكن قائدهما الميجر هنتر وقائدي الكتيبتين الشجعان الكباتن كمبستر وكولز تمكنوا من التحكم في الوضع وما لبثت الكتيبتان أن تمكنتا من (رد) الهجوم والإستيلاء على الجبل بعد اشتباك عنيف بالأيدي، والذي جرح فيه الميجر هنتر بطعنة من حربة في ذراعه.

وعند استلام قمة التل، هجمت عليهم مرة أخري مجموعة من العدو، الذي كان قد تجمع علي الجانب الآخر البعيد، هجمة بالغة الشجاعة والتصميم. وحاولوا لثلاثة مرات إستعادة موقعهم المفقود حتى أن أجر رجل تبقى منهم، حاملاً رأيته وحربته، إندفع نحوهم حتى قمة التل تقريباً ليسقط ممزقاً بالرصاص علي بعد خطوات من المصريين.

تم هنا الإستيلاء علي أكثر من ثلاثين راية ولم يتبق للعدو سوي جبل واحد لازال محتفظاً به. كانت الكتيبتان التاسعة والعاشرة قد أوشكتا على الإحاطة به، بينما إستدارت الكتيبة الثالثة

عشرة نحو اليمين وأكملت عملية الإحاطة التامة بهم. إستدارت الكتيبة الثالثة عشرة نحو اليمين وأكملت عملية الأحاطة التامة بهم, وبصيحات التهليل والفرح الوحشي إندفعت الكتائب نحو الجبل علي أسة السناكي وأخرجوا العرب منه بعد أن كبدوه خسائر مريعة وأستولوا على خمسة وسبعين راية منه.

وخلال تلك العملية والعمليات السابقة كانت الكتيبتان الثانية والحادية عشرة، ومن أقصي اليسار، قد أسهمتا بفعالية في إحتلال مواقع العدو عن طريق إطلاقهم لنيران شديدة علي أجنحة العدو، المختفي وراء الصخور، حماية لنفسه من الهجوم الأمامي. وفي هذا المكان أصيب الملازم كوتون، من الكتيبة السودانية الحادية عشرة، بجراح خطيرة بعد أن أصابته قديفة في صدره. عملت المدفعية في نفس الوقت من الجناح الأيسر وكانت تقذف موقع العدو من مسافة ٦٠٠ ياردة. وفي اللحظات التي سبقت الإستيلاء علي الموقع بدأ المدفعان ببطارية الخيول، بعد أن توجهت راكضة نحو الجبهة، بقصف العدو المتراجع من مسافة قريبة. وفي الساعة الحادية عشرة والنصف كان الموقع الأول قد أستلم، وتدفقت جموع العدو منسحبة نحو الجبال، والتي يقع وراءها معسكرهم المؤقت.

وفي هذا الوقت شوهد راكب وحيد يركض بجواده نحو العدو المشتت، في محاولة واضحة لإستنفارهم. وأوضح أحد الأسرى للسر دار بأن ذلك الفارس هو النجومي. صدرت الأوامر علي الفور للخيالة، والذين كانوا أثناء إقتحام الموقع الأول قد تجمعوا خلف المشاة، للهجوم عليهم. قادت السريتان المصريتان الهجوم وتبعها الهوسار العشرين، وإلتفوا حول العدو المتراجع وهزموه بينما كانت جماعات الهجانة تطلق علي جناح العدو النار من مسافة قريبة. وسرعان ما لم يتبق عربي بالميدان، فالذين فروا من الخيالة لجأوا إلى موقع ثان بالجبال. وحتى النجومي نفسه، ورغم أن جواده قد أصيب، وأنه كان قد جرح جراحاً شديدة مرة أخرى، فقد تمكن من بلوغ الجبال*.

وأمر السردار الآن (الظهيرة) بتقدم شامل نحو موقع العدو الثاني والذي كان من المعتقد أنه سيتم الدفاع عنه بقوة. قامت الكتيبة السودانية الحادية عشرة، مع الكتيبتين الأولى والثانية، بقيادة الهجوم وسط ضربات الطبول ونفخ الأبواق، وبدعم من اللواء الأول. قامت المدفعية أثناء ذلك بقصف الموقع، بينما واكبت الفرق المحمولة، من اليمين، ذلك التقدم الشامل.

وخلال قصف المدفعية للموقع الثاني، نجحت إحدى القذائف المصوبة بدقة في إسقاط راية كبيرة، عرف فيما بعد بأنها راية النجومي. ومن المحتمل أن تكون تلك القذيفة التي حطمت عود الراية قد جرحت النجومي أيضاً.

لم تتم إلا مقاومة بسيطة عند إحتلال القمم. وكان العدو في حالة من التراجع العام بينما سقط معسكرهم، الذي كان علي الأرض المنخفضة التي إلى الخلف، في أيدي القوات المصرية.

---

* ذكر أحد أقارب النجومي ممن أسروا في توشكي بأن ألنجومي كان قد جرح جرحاً خفيفاً في المرحلة الأولى للقتال. وعند سقوط الموقع الأول جاء أحد أمرائه، الذي نجا من المذبحة، وأندفع نحوه بنفس متقطع وصاح في ألنجومي بأن كل شيء قد انتهي وأن عليه أن يهرب. وبدلاً من أن يصغي إليه فقد امتطي جواده واندفع نحو السهل، كما تم بيانه من قبل، وحاول بدون طائل إستنفار رجاله.

وهنا تم الإستيلاء علي كميات ضخمة من معدات الخيام والطبول والسيوف والرماح ودروع الزرد وغيرها. إستمرت المطاردة لبعض المسافة وتم أسر أعداد كبيرة من الرجال والنساء والأطفال.

وبدا أن القتال قد انتهي عندما شوهد جمل، محمل بما كان يعتقد في البداية بأنه مدفع، في طريق الإنسحاب ومن حوله حوالي أربعين رجلاً. فعندما شوهدت هذه المجموعة قامت جماعة من الخيالة بإطلاق النار عليها. سقط الجمل وقدر بأن معظم الرجال قد قتلوا، فتقدمت الخيالة نحوهم وطلبت ممن تبقوا منهم الإستسلام. وعندما اقتربوا منهم قفز العرب، الذين كانوا يعتقدون بأنهم قتلوا، وهجموا عليهم ودار اشتباك بالأيدي قتل فيه عدد من العرب وعاد الباقون إلى الجمل مرة أخرى. نادوهم ثانية للإستسلام لكنهم ردوا بهجمة أخرى إنتهت بقتلهم جميعاً ماعدا واحد منهم والذي قام بالقفز علي ظهر حصان كان ماراً ونجح في الفرار.

لم يجد الخيالة أي مدفع علي ظهر الجمل كما كانوا يظنون، وبالتالي عاودوا المطاردة. ثم أتضح بعد قليل بأن الجمل كان يحمل جثة لزعيم مهم. وبتوجيه من الكابتن ماكدونالد أرسلت الجثة إلى توشكي حيث عرفها الأسرى علي الفور بأنها للنجومي. وقد تبين فيما بعد بأنه بعد أن جرح جراحاً بليغة قام حرسه الشخصي وحاشيته برعايته والاعتناء ووضعوه علي نقالة، جهزت علي عجل، ورفعوه علي الجمل وحاولوا إبعاده إلى المؤخرة.

وقد وجد أحد أبناءه، وهو طفل في الخامسة من عمره، ميتاً بجوار الجمل، بينما أحضرت إحدى المربيات طفلاً آخر له، لا يتجاوز عمره العام، إلى معسكر توشكي في اليوم التالي.*

إستمرت المطاردة بعد ذلك لحوالي ميلين وبعدها، نظراً لإرهاق الخيول الشديد، إضطر الجنرال قرنفل إلى إيقافها. نفخت الأبواق معلنة وقف إطلاق النار في الساعة الثانية بعد الظهر. وشوهدت آخر جماعات العدو المتراجعة وهي داخلة في ممر ضيق بين الجبال المحيطة بالجزء الجنوبي الغربي من سهل توشكي. ولم تصل القوات، المنهكة تماماً والمحملة بكافة أصناف الغنائم، إلى معسكرها إلا في الخامسة عصراً بعد أن ظلت طيلة اليوم بدون طعام وبقليل من الماء.

كانت هزيمة العرب شاملة.** وفي الثالث (من أغسطس) وما تلاه من أيام تم القبض على أكثر من ٤٠٠٠ أسير وهارب إضافة إلى ١٤٧ راية و ٤٠٠٠ رمح وعدد كبير من السيوف والبنادق وغيرها.

وقدرت خسائر العرب بأكثر من ١٢٠٠ قتيل أما خسائر المصريين فكانت خفيفة بالمقارنة، فقد قتل ٢٥ جندياً وجرح ١٤٠ منهم.

---

* يعتني بهذا الطفل الآن في مستشفى قصر العيني بالقاهرة (المؤلف, ١٨٩٠). ويقول المعرب بأن هذا الطفل هو عبدالله عبدالرحمن النجومي، الذي ترعرع بعد ذلك في مصر ودرس العلوم العسكرية وتدرج في الرتب حتى أصبح فريقاً في الجيش المصري وياوراً للملك فاروق وصديقاً حميماً للواء محمد نجيب. وقد تزوج وأنجب عدداً من البنين والبنات، يعمل أحدهم الآن (عام ٢٠٠٥) طياراً بوقاية النباتات، وزارة الزراعة والغابات السودانية، وهو الكابتن إبراهيم عبدالله عبدالرحمن النجومي.

** لمعرفة تفاصيل قوات ألنجومي المقاتلة، أسماء وعدد الأمراء وقوائم الخسائر التي تكبدوها من أول يوليه حتى الثالث من أغسطس، أنظر للملحق.

قتل معظم كبار الأمراء، ما عدا عثمان أزرق وعلي ود سعد وحسن النجومي ومرغني سوار الذهب وشيخ العبيد والذين تمكنوا من النجاة ومعهم حوالي ١٤٠٠ نسمة معظمهم من الأتباع.[***]

فبقيامهم بالتفافة واسعة داخل الصحراء، تجنبوا كل النقاط المصرية وأفلحوا في الوصول إلى مديرية دنقلا في وقت قصير لدرجة الإعجاز. لكنهم خسروا الكثيرين من جراء الجوع والعطش أثناء ذلك الإنسحاب المريع والذي لن تنمحي ذكراه الحية أبداً في نفوس أولئك الذين شاركوا فيه.

وفي اليوم التالي لمعركة توشكي قام الكولونيل كتشنر باستطلاع بعيد المدى حتى أبو سمبل، بينما واصلت الخيالة المصرية دورياتها حتى بلانة واعترضوا في طريقهم عدداً من أفراد العدو كما أنقذوا عدداً كبيراً من اللاجئين كانوا سيموتون في تلك الصحراء لولاهم.

وخلال الأيام الثلاثة التي تلت المعركة وصل إلى مختلف المعسكرات أكثر من ٤٠٠٠ أسير ولاجئ ووصل العدد الكلي لما بين ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠ نسمة وذلك منذ عبر العدو الحدود.

وجد أسرى العدو من الضباط ورجال قوات الحدود النيلية معاملة مميزة. وفي كثير من الحالات كان الجنود المصريون، عندما يأسرون البعض أثناء دورياتهم. يقتسمون معهم الطعام والماء. وتم بذلك إنقاذ عدد كبير من الأنفس من جراء المعاملة الإنسانية التي تلقوها.

لم يكن أمراً سهلاً (التصرف) في مثل هذا العدد الكبير من الرجال والنساء والأطفال، الذين جاء معظمهم من أماكن نائية بالسودان، والذين كانت أخلاقهم وعاداتهم تختلف بدرجة واضحة عن تلك التي لأهالي مصر. تم تقديم كل عون ممكن للذين إحتاجوا لذلك، سواء فيما يختص بعلاجهم في المستشفيات والعمل علي راحتهم أو في مختلف المعسكرات التي أقيمت بطول خطوط المواصلات علي النهر.

تم توزيع أكثر من ١٠٠٠ منهم على مختلف ملاك الأراضي في مديرية الحدود (أسوان) تحت إرشاد نائب الحاكم.[*] أما الباقون فتم ترحيلهم لأسوان ومنها لأسيوط. وفي أسيوط استلمتهم السلطات المدنية ووزعتهم علي مختلف مديريات القطر المصري. لم يستثن من هذا التوزيع إلا حوالي مائة من الرجال البارزين، ومعظمهم أمير أو مقدم، وسيقوا إلى السجن الحربي بالقاهرة.

ومن ضمن السجناء الأسرى السيئ السمعة أبو اليزيد، والذي، كما نذكر، كان قد فر (من خدمة الحكومة) وقاد العدو في الكثير من الغارات وخاصة الغارة علي دبروسة والتي أدت إلى موت العديد من النساء والأطفال الذين لا حيلة لهم. تمت محاكمته وأعدم رمياً بالرصاص، كخائن، بحضور القرويين الذين خانهم.

في السادس من أغسطس تم حل قوات الحدود النيلية وعادت مختلف القوات إلى حامياتها العديدة.

[***] تأكد فيما بعد بأن مكين النور قد أفلح في الفرار والوصول إلي أبي سنبل لكنه انهار هناك من جراء جراحه ومن الإرهاق الشديد وتوفي . وقد وضع حجر بارز علي قبره في الجبال المطلة علي المعبد.

[*] من ضمن الأسري الذين وزعوا علي الفلاحين الشيخ بابكر بدري وكان عمره وقتذاك في بواكير العشرينات. وقد أفلح في الهرب والإختفاء في الجبال المجاورة للنيل حتى وصل بعد مجهود خارق لدنقلا، وليؤسس لنا هذا الصرح التعليمي الفريد وهذه الأسرة المرموقة (المعرب).

ثم تم الإلتفات لسرس. صار أمر إعادة إحتلالها ضرورياً الآن. فقد ظلت طوال العامين الماضيين موقعاً هاماً للعدو والذي أكده وجود أكثر من ٤٠٠٠ من الأكواخ الطينية الجيدة البنيان والتي بأمكانها أيواء أكثر من ١٥٠٠ شخص. وقد كانت النقطة المتقدمة للعرب والتي منها تشن الغارات علي سكان القرى النيلية إلى الشمال بسهولة ويسر. لذلك، وبالرغم من عدم صلاحيتها كموقع عسكري للقوات، لمجاورتها للتلال التي تحيط بها مما يجعلها غير صالحة للدفاع، فقد تم إحتلالها بواسطة الكتيبة الحادية عشر للجيش المصري، بقيادة كابتن سيلم، في الحادي عشر من أغسطس. لم يكن بها غير عدد قليل من العدو، وعندما اقتربت منهم القوات تراجعوا جنوباً.

واتخذت الترتيبات الآن لإصلاح خط السكة الحديد حتى جمي.

أثناء ذلك نجحت حملة صالح بك إلى المرات ولم يقم الثوار إلا بمقاومة واهية وهربوا عند وصول العبابدة بعد أن قتل منهم ثلاثة رجال. أحتل صالح معسكر المرات. وفي الثالث من أغسطس واصل تقدمه باتجاه أبو حمد واستطلع ما حولها ثم عاد إلى المرات في التاسع من الشهر. ثم توجه إلى أنقات لكنه عند وصوله وجد أن بحر كرار قد فر إلى بربر.

أيضاً كانت تحركات بشير بك في صحراء شرق أسوان ذات فعالية. فعند وصوله للمرات علم بأن قوات الأمير بغدادي قد عادت إلى وادي الجمل في منطقة أرياب، وبعد معركة توشكي جاءه أمر بالعودة لأسوان. قام بذلك بعد أن ترك قوة بقيادة شقيقة مصطفى جبران لمواصلة المطاردة.

نشط البشاريون أيضاً وقاموا بطرد القوات المعادية من بلادهم والتحموا معهم في أبو دويم* وهزموهم. ثم تراجع بغدادي جنوباً ووصل إلى أبي حمد أخيراً بعد أن هلك معظم رجاله من العطش.

أدى عدم هطول الأمطار في الصحراء الشرقية إلى بؤس عظيم بين القبائل. وبنهاية أكتوبر وصل عدد كبير من البشاريين إلى أسوان بحالة لا توصف من البؤس والمرض، وأقليم لهم مخيم هناك وقد مت لهم الإغاثة.

•••

كان أثر هزيمة توشكي على الأهالي عظيماً. فأن تأتي قوة كبيرة من العدو، وتتوغل في بلادهم وتقدم داخلها لستين ميلاً، وتظل محتلة لها لأكثر من شهر، وأنه لم يقع خلال تلك المدة أي قروي أو بهيمة في أيديهم، كان شيئاً لا يفسره العقل، وتجاوز حماسهم لدى الدمار النهائي للعدو كل الحدود. وإلى الشمال أكثر، كان أثر ذلك على السكان واضحاً وكانت كل مصر، والتي راقبت النجاح الظاهري للعدو المتقدم بقلق واضح، قد عادت الآن لتعبر عن سرورها للهزيمة التامة للقوات الغازية.

أما بالنسبة لقضية المهدية، فقد كانت الضربة قد تجاوزت في مرارتها أي نكسة واجهتها من قبل. فمن بين كل الحملات التي وجهت لكافة الجهات، فقد كان المهدي، ومن بعده الخليفة،

---

* من الصحراء النوبية بجوار جبل ميسا..

ينظران لمصر علي أنها الهدف الذي يستحق المكابدة من أجله. والآن، وبعد سنوات طويلة من التخطيط والتجهيزات فأن ذلك الجهد العظيم المبذول قد حلت به كارثة شاملة غير مسبوقة.

لقد قتل أشجع قوادهم وأشدهم تعصباً (للمهدية)، قائد لعب دوراً هاماً في هزيمة هكس وفي استلام الخرطوم.

ومن كل قواته لم ينج إلا القليل ليعود ويحكي المصاعب المرعبة التي تكبدوها عند السير في الصحراء، ووابل الرصاص الرهيب الذي واجهوه وتسبب في دمارهم أخيراً.

***

عاد الهدوء الآن لتلك المناطق، وعاد الجنرال قرنفل للقاهرة في السابع عشر من أغسطس. أما تلك التعزيزات وذلك المدد الذي شرع في التقدم للإنضمام إلى قوات الغزو فما أن سمعوا بالهزيمة في توشكي حتى عجلوا بالرجوع من حيث أتوا. ولما قام اللفتنانت كولونيل هنتر بطواف استطلاعي، في أوائل سبتمبر، لم يجد سوي الأرض الخراب والخالية من السكان تقريباً، رغم أنه مضي حتى جنس.

وأصبحت صواردة هي نقطة العدو الأمامية، وهي تبعد عن حلفا جنوباً بحوالي ١٣٠ ميل، ووضعت فيها قوة من بضع مئات من المقاتلين تحت قيادة الأمير حمودة، وكان يرسل منها دوريات تصل حتى فركه. وحاول قلة من الأمراء الإتصال بقمندان حلفا مبدين رغبتهم في الحصول علي عفو من سمو الخديوي. ولكن، وبرغم الوعود بالحماية التي بذلت لهم إلا أنهم، كما يبدو، كانوا خائفين من عواقب الفرار، ولم تتمخض المباحثات التي جرت عن شيء.

ومن بين الأمراء الذين نجوا من توشكي، وكانوا يتولون قيادات، تم استبدالهم بآخرين من القيادات المختلفة. وحل الأمير يحي محل علي ود سعد في كوية، والأمير جريجير محل حسن خليفة في أبو حمد. وقد تم إلقاء الأخير في السجن للاشتباه في وصوله لتفاهم مع صالح بك بدلاً عن مواجهته في المرات.

أما الأمير المشهور محمد الخير فقد توفي في دنقلا قبل أيام من هزيمة توشكي، بينما ظل يونس أميراً عليها، وتولى عثمان الدكيم إدارة بربر.

وفي أكتوبر، تم إرسال أحد أسرى توشكي، وهو جعلي، إلى السودان حاملاً نداء إلى قبيلته وغلي القبائل الأخرى يدعوهم إلى طاعة الحكومة (المصرية) والولاء لها. وعند وصوله للخرطوم تم إلقاؤه في السجن، ولكن ليس قبل أن يقوم بإيضاح المعاملة الطيبة التي تلقاها، إلى قبيلته، وإبلاغ الخليفة بأن من المستحيل عليه أن يفكر ثانية في الاستحواذ علي مصر.

ولا يوجد شك في أن قبائل وسط السودان وباقي أنحائه كانوا تواقين، مثل قبائل شرق السودان، لتحرير أنفسهم من نير البقارة. لكنهم كانوا مثلهم أيضاً، عاجزين عن القيام بذلك. فلقد حطم نظامهم القبلي وسجن زعماؤهم وجردوا من سلاحهم. ولم يعد لهم الآن سوي الخضوع لقوة البقارة الطاغية، والذين يحكمونهم بنوع من القسوة ربما لم تكن مسبوقة في التاريخ.

والملخص التالي للخطاب الذي جاء من زعماء إحدى القبائل المشهورة يوضح بجلاء الحالة المزرية التي وصلوا إليها الآن:

كنا دائماً من رعايا الحكومة المصرية، قانعين بحكمها، ولم نتخيل أبداً أن تجري الأحداث بمثل ما جرت لدرجة تدمير أنفسنا وما نملك. لذلك فأننا لازلنا نؤكد بأننا من أتباع الحكومة وخدمها، ومنتظرون بعون الله عونها لإنقاذنا من حالنا الراهن الذي ليس فيه سوى البؤس والخراب والجوع.

إن كل السودان يتطلع لذلك. فقد طهر الله نفوسهم من تلك الهرطقة والنبت الشيطاني التي سببت لهم الخراب والدمار".

والآن تدفقت نحو حلفا جموع اللاجئين المعوزين وغيرهم، من مديريات السكوت والمحس، وبعد أن غادرت آخر بقايا جيوش النجومي مناطقهم، باحثين عن الحماية والأمن وإنقاذهم من الجوع. وتم تخصيص حوالي ٥٠٠ فدان من الأراضي الحكومية في دبيرة (شمال أرقين) لإقامة مستوطنة لهم، ولإنشاء مشاريع إعاشية لهم. ويقدر بأنه خلال عام ١٨٨٧* تم إعاشة حوالي ٢٠٠٠٠ رجل وإمرأة وطفل، بمن فيهم الذين أسروا في توشكي، والمعوذين من البشاريين الذين أشرنا إليهم من قبل.

وإنتهت سنة ١٨٨٩، بهدوء تام ساد الحدود وبارتياح عظيم بعد سنوات من الإضطرابات المتواصلة التي أعقبت إنهاء حملة النيل في ١٨٨٤ / ٨٥. وبالرغم من الهزيمة الأخيرة إلا أن مجلس (الأمراء) بأم درمان عاد ليشغل نفسه بالتخطيط لغزو جديد. لكن صعوبة جمع الرجال لهذا الغرض، بعد الهزيمة الأخيرة، بدا أمراً غير ممكن. لكن روح المهدية، أو التبشير بالجهاد، يجب أن يظل مستمراً. وإذا ما توقف فأن انهيار المهدية لن يكون أمراً مستبعداً. وربما كان عام ١٨٨٩، عام أكبر امتحان مروايه. فقد هزموا في كافة الجبهات – الجبهة الحبشية وفي دارفور وعلى النيل – وأعتقد بأن الانهيار لن يكون بعيد الحدوث. لكن الذين تنبأوا بذلك لم يكونوا مدركين لمدي القوة التي أكتسبها البقارة، الجنس الحاكم، علي السودان.

كانت المجاعة، حقاً، أحد أعدائهم اللدودين. ولكن طالما أمكنهم التعامل مع هذا الواقع، ولم يعودوا يخشون من غزو يأتيهم من مصر أو أي جهة أخرى، فأنهم يشعرون بالأمن والسلامة. فقد علموا بأن القبائل المحلية قد صارت بحالة من الوهن لا تمكنها من معارضة سلطتهم. وأن السودان، حتى لو هددته المجاعة، فأنهم سيكونون آخر من تلسعه عضة الجوع.

***

* يبدو أن العام المقصود هو عام ١٨٨٩، أو ١٨٩٠، وهو عام معركة توشكي أو الذي تلاه (المعرب).

ملحق القسم الثاني عشر
تكوين جيش النجومي، الذي إخترق الحدود المصرية في أول يوليه ١٨٨٩،
مع أسماء الأمراء

قسم الجيش إلى أربعة أقسام كالتالي:

* القسم الأول – النجومي ٢٤٠٠ مقاتل و ٥٠٠٠ تابع
* القسم الثاني – إسماعيل حركة ٨٠٠ مقاتل و ١٢٠٠ تابع
* القسم الثالث – عبد الحليم مساعد ١٢٠٠ مقاتل و ١٠٠٠ تابع
* القسم الرابع – عثمان أزرق ٦٠٠ مقاتل و ٨٠٠ تابع

٥٠٠٠ مقاتل ٨٠٠٠ تابع

ملخص

* عدد الأمراء الذين قتلوا في أرقين ٦
* عدد الأمراء الذين قتلوا في توشكي ٦٢
* عدد الأمراء الذين تم أسرهم ١٨
* عدد الأمراء الذين تمكنوا من الفرار ٣٦

١٢٢ أميراً

إضافة إلى ٢ لم يتم التأكد منهم

الجملة ١٢٤ أميراً

•••

تقدير لقوة جيش المهدي، الذي قاده عبد الرحمن النجومي، والذي عبر الحدود المصرية في أول يوليه ١٨٨٩،

مع توضيح الخسائر التقريبية حتى السادس من أغسطس ١٨٨٩.

		الرجال المقاتلون	الأتباع (خدم ونساء وأطفال)
١	قوة الجيش في سمنة قوة جيش عبد الحليم في سرس	٤٠٠٠ ١٢٠٠	٧٠٠٠ ١٠٠٠

٢	(هذه الأرقام تتطابق مع ما أورده حسن أفندي حبشي، كبير كتاب جيش عبد الحليم) وبعد خصم عدد الذين هربوا من معتوقة يوم ٣٠ يونيه ١٨٨٩ وعددهم.......	٥٢٠٠ ٢٠٠	٨٠٠٠ ٣٠٠
	يصبح الباقي	٥٠٠٠	٧٧٠٠
٣	وبعد خصم الخسائر في أرقين والبالغة	١٠٠٠	١٠٠٠
	يصبح الباقي	٤٠٠٠	٦٧٠٠
٤	يضاف إليهم التعزيزات التي وصلت بلانة بقيادة الأميرين مكين النور والحاج علي ود سعد	٥٠٠	
	ليصير العدد	٤٥٠٠	٦٧٠٠
٥	وبعد خصم الخسائر بين ٣ يوليه و ٣ أغسطس ١٨٨٩، بمن فيهم الذين هربوا ونزحوا جنوباً	١٣٠٠	٣١٠٠
	يصبح العدد	٣٢٠٠	٣٦٠٠
٦	وبعد خصم خسائر توشكي (١٢٠٠ قتلوا و ١٢٠٠أسروا) وأسر ثلاثة ألف من التابعين	٢٤٠٠	٣٠٠٠
	يصبح العدد الذي فر جنوباً عقب توشكي	٨٠٠ رجل	٦٠٠ تابع

ومن بين الثمانية ألف من الأتباع، يقدر بأن من تمكن من الفرار جنوباً بحوالي ٢٠٠٠ تابع بينما أخذ ٦٠٠٠ أسرى بيد القوات المصرية. وقد تم توزيع الأتباع علي مختلف مديريات مصر. هذا ولم يحفظ بالسجن من الأمراء المهمين إلا حوالي مائة أمير وزعيم.

وفيما يلي تكوين قوات النيل الميدانية (التي واجهت عبر الرحمن النجومي)، والتي شكلت في ٢٣ يوليه ١٨٨٩:

هيئة أركان الرئاسة:

- الميجر جنرال السير ف. دبليو. جرنفل، سردار، القائد العام.
- الكابتن جي.جي. ماكسويل، رويال هايلاندرز، بمباشي، ضابط معاون.
- البمباشي علي بك حيدر، ضابط معاون.
- ملحم بك شكور، السكرتير العربي.
- لفتنانت كولونيل هـ. هـ. ستل، لواء، كبير ضباط الأركان.
- الميجر ف. آر. ونجت، قائمقام، مساعد الأدجوتانت جنرال، وأيضاً لشئون المخابرات.
- الميجر هـ. م. رندل، قائمقام، قائد المدفعية المصرية.
- الملازم س. جودباي، ضابط مهندس.
- كبير الجراحين إي إي هايز، السلاح الطبي، قائمقام ومؤقتاً أمير الاي، كبير الضباط الأطباء.

- الكابتن ب. أبلبي، مدير المخازن العسكرية، قائمقام.
- الكابتن ج. دبليو. هاكيت بين، فوج سري الغربية الملكي، قائمقام، كبير ضباط الترحيلات.
- كبير أمناء المخازن وملازم شرف دبليو. إتشي. دريج، قوات خدمات الجيش، بمباشي، كبير ضباط الميرة والتموين.
- الطبيب البيطريج. آر. جريفث، مصلحة البيطرة العسكرية، بمباشي، كبير البياطرة.

ضباط الخدمات الخاصة:

- الملازم هـ. و . د . هكمان، فوج يوركشير، بمباشي.
- البمباشي مصطفى أفندي رسمي.
- الصاغ قولا غاسي عبد السلام أفندي زكي.

اللواء البريطاني

هيئة أركان الرئاسة

- الميجر جنرال الشريف آر. إتش. دي مونتمورنسي، القائد.
- الميجر سكليتر، كبير ضباط الأركان.
- الكابتن ب. ف. هو لم (فوج كنت الشرقية)، ضابط أركان.
- الملازم ثاني كاروثرز (حرس الحدود الاسكتلندي الملكي الخاص). ضابط معاون.
- اللفتنانت كولونيل رودس (الدراجون الملكية)، الخدمات الخاصة.

القوات

الفرسان

- سرية الهوسار العشرين (لفتنانت كولونيل إروين).

المدفعية

- البطارية العاشرة للواء الأول، القسم الشرقي، الميجر بري

المهندسون

- قسم من السرية الرابعة والعشرين (الميجر كلايتون والكابتن فولي.

المشاة الراكبة

- ٣ فصائل من سرية (أ) – الكولونيل بارو الرماة الأسكتلنديين.
- الكتيبة الثانية بحرس الحدود الإسكتلندي الملكي الخاص (الكولونيل تالبوت كوك).
- الكتيبة الأولى من فوج ويلز – اللفتنانت كولونيل ماكوسلاند.
- الكتيبة الثانية للرماة الملكيين الأيرلنديين – الفتنانت كولونيل ويندهام.
- مفارز عسكرية من:

*السلاح الطبي – كبير الجراحين المناوب جيمسون.

* مصلحة المدفوعات الحربية – الميجر سنجر.
* مصلحة الامدادات والمخازن – الميجر دي سالس.
* المصلحة البيطرية – الجراح البيطري أندرسون.
* الشئون الدينية الأب المبجل كولنس.
الأب المبجل توومي.
الأب المبجل بيتي.

تشكيل الطابور الأول وحاميات الحدود:

- اللفتنانت كولونيل جي. إتش. ودهاوس، لواء، القائد.
- ملازم أول محمد أفندي شفيق، ضابط معاون (من المحليين).
- الكابتن ت. تيرنان، من فوج مانشستر، بمباشي وقائمقام محلي ونائب مساعد الأدجوتانت جنرال.
- الكابتن هـ. دننج، من الفوسيليير الملكي، بمباشي، نائب مساعد الأدجوتانت جنرال للمخابرات.
- الميجر أ. هنتر، من فوج لانكشير الملكي، قائمقام وأميرالاي محلي، قائد لواء المشاة.
- الكابتن ب. ماشل، فوج إسكس، بمباشي، ميجر باللواء، لواء المشاة.
- الدكتور جراح آر. مورس، السلاح الطبي، بمباشي وقائمقام محلي.
- الدكتور جراح و. لويس، السلاح الطبي، بمباشي والمسئول عن مستشفى الميدان.

لقوات:

* الفرسان سريتان
* مدفعية الميدان بطاريتان
* مدفعية الحامية بطارية واحدة
* الهجانة ٣ سرايا
* الكتيبة الثالثة المشاة المصرية
* الكتيبة الخامسة المشاة المصرية
* الكتيبة الحادية عشرة المشاة السودانيون
* ومغارز من السلاح الطبي.

أسوان:

اللواء السير زهراب باشا قائد المحطة

الملازم و. أنسلي، فوج كنت الغربية، بمباشي، ضابط أركان. الصاغ أحمد أفندي ذكي، ضابط أركان، من المحليين.

القوات:

مدفعية الحامية بطارية واحدة

الكتيبة الثامنة	المشاة المصرية

مفارز مختلفة.

كروسكو

* الميجر جي. كيرك، فوج ويلز، أمير الاي، القائد المسئول.
    * الملازم جي. بالمر، مشاة سمرست الخفيفة، بمباشي، ضابط أركان.
    * الكتيبة التاسعة سودانيون
    * الكتيبة العاشرة سودانيون
    * الكتيبة الثالثة عشرة سودانيون
    * وحدات من السلاح الطبي

* * *

الطابور الثاني للجيش المصري:

الكولونيل هـ. كتشنر، لواء، القائد المسئول

الملازم أ. موردو، مشاة هايلاند الخفيفة، بمباشي، ضابط معاون.

الكابتن ت. هكمان، فوج ورشستر، بمباشي، رائد اللواء.

الملازم و. غردون، بمباشي، قائد المدفعية.

الجراح هـ. بنشنج، السلاح الطبي، بمباشي، كبير الأطباء.

الملازم إي دنت حرس حدود الملك الأسكتلندي الخاص، ملحق. اليوزباشي محمد أفنـدي بـدري، ضابط أركان، من المحليين.

القوات:

مدفعية الخيول	مفرزة واحدة (قسم)
الفرسان	سرية واحدة
مدفعية الميدان	مفرزة واحدة (قسم)
مدفعية الحامية	مفرزة واحدة (قسم)
الكتيبة الأولي	المشاة المصرية
الكتيبة الثانية	المشاة المصرية

* * *

"مواصلة"

القسم الثاني عشر (ب)
(١٨٨٩)

الملخص:

الأحداث علي الحدود الحبشية – الموفد الحبشي يعود إلى غوندار – الملك يوحنا يتقدم، علي رأس جيشه، للهجوم علي القلابات – معركة القلابات – هزيمة العرب – الملك يوحنا يصاب بجراح قاتلة – موته أثناء الليل – أثر موته علي الجيش الحبشي – الأمير الزاكي طمل يقوم بهجوم مضاد علي الجيش المتراجع – استيلائه علي جثمان الملك يوحنا وكل متاعه – تقرير الزاكي طمل حول المعركة – ملحق للتقرير – خطاب الخليفة لعثمان دقنة – إنتقام إبنة الملك – وصول مبعوثين، بخطابات إلى جلالة الملكة وإلى سمو الخديوي وأبي وكيل بريطانيا في مصر، إلى أسوان – ترجمة الخطابات – الخليفة يرفق مع خطابه لجلالة الملكة رسالتها إلى الملك يوحنا التي كان قد حملها إليه المستر بورتال عام ١٨٨٧ – تأثير موت الملك علي بلاد الحبش – الشيخ عجول – السودان الشرقي – همة الملازم بيتش – عثمان دقنة يخلي هندوب – الخلافات بين عثمان دقنة وأبو قرجة – الهجوم علي حلايب – حملة الكولونيل هولد سمت – إعادته لسلطة الحكومة بحلايب – الحلف الهندوي، أعماله: حله – سلوك أحمد محمود – استدعاء عثمان دقنة لمجلس الأمراء بأم درمان – رفضه الحلول محل النجومي أميراً علي دنقلا – الأحداث في ضواحي كسلا – موت محمود بك علي – المجاعة في شرق السودان – دارفور – أبو جميزة يهاجم عثمان آدم في مجزون – الهزيمة الشاملة لأبي جميزة وانهيار ما تسمي بالحركة السنوسية – تقرير عثمان آدم للخليفة حول المعركة – الاستوائية – وصول ستانلي للبحيرة للمرة الثالثة – أمين باشا وسليم بك وأربعة عشر ضابطاً يصلون لمعسكر ستانلي – اجتماع تقرر فيه إخلاء المديرية تماماً بحلول العاشر من أبريل –عودة سليم بك لوادلاى – يكتب طالباً المزيد من الوقت للإخلاء – ستانلي يخاطب الضابط – قراره بعدم تأجيل موعد الرحيل – روح التمرد تسود المعسكر – ستانلي مع طابوره يتوجه لزنجبار – التوقف في ما زامبوني – اعتراض الخطابات – سليم بك ورسله – الأحداث في وادلاي – الطابور يستأنف سيره – إكتشاف منابع النيل – روينزوري – ما يشبه النهر وألبرت إدوارد نيانزا – وصول ستانلي لزنجبار – الحالة في الاستوائية.

•••

مواصلة للأحداث علي الحدود الحبشية

(١٨٨٩)

في أوائل عام ١٨٨٩م أفلح المبعوث الحبشي، الذي كان قد عاد إلى القلابات، في الفرار. ويقال أنه استولى على جواد أبي عنجة وأنطلق به مسرعاً إلى غندار، حيث كان الملك يوحنا بها آنذاك. أوضح للملك كل المعلومات الخاصة بقوة العدو وتحركاته وطرقه وغير ذلك.

---

* هذا القسم من أحداث عام ١٨٨٩ يتناول باقي السودان ما عدا حملة ود النجومي (المعرب).

قرر الملك تنفيذ اعتزامه، الذي كرره كثيراً، باحتلال القلابات ومن بعد ذلك التقدم نحـو الخرطوم. جمع جيشاً لجباً، وفي نهاية فبراير غادر غوندار وبصحبته الرأس عدل (الذي ترقي الآن ليصبح لقبه تكلي هايمنوت أو ملك الكوجام)، والرأس آريا سلاسي والرأس ميخائيل والرأس مريم والرأس ألو لا وصالح شنقة وآخرين، وتوجهوا نحو القلابات. أثناء ذلك قام الأمير الزاكي طمـل بكافة الاستعدادات لمواجهة الغزو المرتقب. ويبدو أنه عمل علـي تحصـين دفاعـات القلابـات وتقويتها، وأحاطها بخندق عميق شكل زريبة ضخمة قام بتوصيلها مع زريبة أخرى أصغر حجماً، ومحصنة بقوة.

وهنا بقي الأميران النور عنقرة وعبد الله ود إبراهيم مع جزء بسيط من القوة والذخيرة الاحتياطية، أما بقية القوات، والتي تقدر بما بين ٦٠٠٠٠ و ٧٠٠٠٠ رجل، تحت قيـادة الزاكـي طمل، فقد وقفت بداخل التحصينات وانتظرت الهجوم القادم.

كان الملك يوحنا واثقاً من النصر علي ما يبدو. وعندما وصل إلى مسافة مسيرة يومين من القلابات، كتب إلى الذاكي طمل قائلاً" بأنه سيصل إليه يوم السبت التاسع (من مـارس)، وأنـه يكتب له بذلك حتى لا يقول بأنه أخذ علي غرة".

وفي فجر التاسع من الشهر ظهر الجيش الحبشي للعيان، وتقدم عـدد لا يحصـي مـن الخيالة والراجلين بثبات نحوهم، وقاموا بتوزيع الأجنحة بالجيش وتدريجياً أحاطوا بكل تلك الزريبة الضخمة، وشنوا هجوماً ضارياً عليها. وبعد قتال شرس أستمر لحوالي خمسـة سـاعات، كانـت خسائر الجانبين فيه رهيبة، تم إختراق الزريبة بعد إشعال النار في عدة مواقع بها وإندفع الحـبش نحو المدينة. وهنا استمرت المذبحة وسرعان ما كان كل الموقع، باستثناء الزريبة الصغيرة، قـد سقط في أيدي الحبش. أحرقت المدينة وتم أسر عدة آلاف من السودانيين أما باقي العرب، الـذين تراجعوا من الزريبة الخارجيـة، فقد إندفعوا نحو الزريبة الداخلية، والتـي كـان مـن المحتمـل سقوطها، عندما أصيـب الملك يوحنا برصاصة طائشة، أثناء جلوسه وسط الزريبة المحتلة مراقباً انتصارات جيشه، وسقط مصاباً بجرح قاتل. لم يكن لمثل هذا الحادث المؤسف أن يؤثر على جيش منظم أو أن يغير من مجري أحداث اليوم، ولكن بالنسبة لجيش متوحش غير منظم فـأن الوضـع يختلف تماماً.

كان الحبش قد تفرقوا يميناً وشمالاً بحثاً عن الغنائم. وظن كثيرون منهم أن المعركة قد إنتهت وغادروا مسرح العمليات. أما إصابة الملك فيبدو أنها شلت من تبقي منهم. لم يقوموا بـأي محاولة لمتابعة نصرهم الذي أوشك أن يتم، بل قام الأحباش، للأسف، بالتدفق خارجين من القلابات حاملين معهم آلاف الأسرى، وحملوا معهم ملكهم الجريح لمكان على مسافة قريبة مـن المدينـة، وتوقفت كل عمليات القتال.

في تلك الليلة مات الملك. وخلال الفوضى التي نشبت تمكن بعض الأسرى من النساء من الهرب وأسرعن بتحذير العرب، الذين كانوا لا يزالون بداخل الزريبة الصغيرة، ينتظرون بقلق بالغ الهجوم، والذي توقعوا أن يكون قاضياً عليهم. غمرتهم راحة شديدة عندما علموا بما جرى للملك وإستوعبوا ما ذكرته النسوة من حالة الأسى والفوضى التي سادت معسكر عدوهم، فتجهزوا للقيام

بهجوم مضاد. وأثناء ذلك، وعندما ذاع خبر موت الملك، تفرق معظم جيشه واتجهوا نحو غوندار حاملين الأسري معهم، أما حاشية الملك فقد حملوا جثته في صندوق، مع كل متعلقاته ومتاعه، وتوجهوا إلى ضفاف نهر عطبرة. مضي وراءهم جماعة من مقاتلي العرب بقيادة ود إبراهيم والذي أنقض عليهم فجأة يوم الثلاثاء ١٢ مارس وأباد وهم تماماً. وإستولوا علي جثة الملك ومتعلقاته.

وبعد هذا الانقلاب الناجح للأوضاع عادوا للقلابات حيث قام الزاكي طمل بتدبيج الخطابات التالية لسيده الخليفة وأرسل مع الخطابات رأس الملك يوحنا لأمدرمان. وإذا قرنت تلك الخطابات على ضوء ما تم سرده من أحداث، لرأينا كيف تم تصوير الهزيمة وتحويلها إلى نصر. لكن سرعان ما تسربت حقائق ما حدث. والآن فأن أي وطني يصل من السودان لن يتردد في الاعتراف بأن العرب قد هزموا تماماً وكادوا أن يدمروا تماماً.

"بسم الله الرحمن الرحيم..... الخ.

من العبد الذليل الزاكي طمل إلى سيده وحاميه خليفة المهدي عليه السلام.

بعد مزيد التحية. لي الشرف أن أوضح لكم ما حدث للكفرة الأحباش مما يسر قلوب المؤمنين ويرضيهم. وأرجو أن أفيدكم بأن الأحباش قد حضروا للقلابات يوم السبت السادس من رجب (٩ مارس ١٨٨٩) يقودهم ملكهم الملعون يوحنا. كان عددهم ضخماً لدرجة لا يعلم إلا الله مداها ومعداتهم حسنة.

وقد كنا نشاهد نيرانهم قبل ثلاثة أيام من وصولهم. وعندما كانوا علي بعد ساعتين من معسكرنا، ثارت سحب من الغبار في الجو من حولهم، لكثرتهم، حتى أن رجالنا المؤمنين كانوا لا يرون بعضهم بعضاً عندما وصل غبارهم إلينا، ويتشوقون لقتال أولئك التعساء أعداء الله الذين ساقوا أمامهم الحيوانات الوحشية مثل الذئاب والثيران والغزلان. أحاطوا بنا من كل جانب وكنا مثل خاتم صغير وسطهم. كانوا يعتمدون علي قوتهم وخرافاتهم وليس علي عون من الله ، الذي هو مصدر قوة الأنصار. فجانب من يحمل الحراب منهم كان هناك ١٧٠٠٠ مسلحين بالبنادق. أما نحن فلم نكن بتلك الكثرة لأن العدو الذي جاء مسرعاً إلينا لم يقم بإنذارنا ولذلك لم يكن لدينا وقت للتجهيز المناسب. كان ملكهم يقودهم ويشجعهم بكلماته، ولأنه كان متقمصاً لروح الشيطان فقد كان يحثهم بتأثيره الشيطاني ليطفئ نور الله. فتحوا علينا أولاً النار من المدافع والبنادق ثم هجموا علينا بعنف رهيب. كانت قعقعة السلاح تسمع من مكان بعيد ولكن لم تستطع قوتهم الكبيرة ولا أعدادهم أن تهز شجاعة المؤمنين والذين حاربوا بتصميم لا مثيل له اللهم إلا في عهد الصحابة. رددنا علي نيران بنادقهم والحمد لله والشكر للعزم الذي أبداه الأنصار، الذين كانوا قلة بالمقارنة بكثرة العدو، فتمكنا من تدمير أعداء الله بعد قتال استمر لخمسة ساعات.

ولم يستطع العدو مواجهة نيراننا، وعندما قتل ملكهم الملعون ولوا الدبر هاربين بعد أن وضعوا جثته في صندوق وزعموا بأنه جريح فقط. وقتل كثير من وزراء الملك وأتباعه معه وامتلأت الأرض من أجساد الكفرة وخيولهم وبغالهم.

وعندما إنتهت المعركة قمنا بدفن أولئك الأنصار الذين ماتوا أعظم ميتة في ميدان القتال، والذين صعدت أرواحهم إلى الجنة. كان عددهم قليلاً. أما الجرحى فتم الاعتناء بهم تماماً.

وفي الثامن من رجب (صباح الاثنين) قمنا بمطاردة الأحباش والتقينا بهـم علـى نهـر عطبرة. وطردنا بعضاً من كشافيهم الذين أرسلوا لمعرفة مواقعنا. وفـي اليـوم التـالي قاتلنـاهم بشجاعة عظيمة وبسالة وقتلنا معظمهم. دامت هذه المعركة الثانية لستة ساعات وبعدها هرب من تبقي منهم. ووجدنا جثة الملك في صندوق بداخل خيمته وكان على نحره صليب من ذهب يعبـده الكفرة من دون الله. كان يرتدي كامل ملابسه الملوكية مع ياقة حول عنقة، وكان الصندوق مليئـاً بمادة للتحنيط لتحفظ جثته من التحلل. قمنا بقطع رأسه في الحال ورفعناه علي حربة. وعندما رأى المؤمنون ذلك أيقنوا بأن نصرنا كان كاملاً.

لذلك فأنني أرجو أن أرسل لكم رأس هذا الرجل الخبيث والملعون، مـع بعـض رؤوس قواده ووزرائه مثل الرأس ألو لا وغيرهم حتى يتم إقتناعكم بالنصر وبتدمير العـدو. وأرجـو أن أرسل لكم أيضاً تاج الملك مع خيامه وأواني مطبخه النحاسية.

وقمنا بدفن أولئك الشهداء الذين أرسلهم حظهم الطيب إلى الله، وقد كانت أعدادهم قليلة مقارنة بأعداد (القتلى) الضخمة من العدو.

إننا نعلم بأن النصر الذي أحرزناه هو فقط من عند الله. وأثناء القتال سمع كثيـر مـن المؤمنين صوت الأمباية* وشاهدو المهدي بنفسه قادماً لعونهم. ورأي بعض رجالنا أشخاصاً نازلين من السماء، وفي أيديهم أعلام بيضاء، وقتلوا أعداداً من العدو وشاهد أخرون معجزات عجيبة مثل خروج النار من جروح الأحباش كانت تحرق أجسادهم** وهذه بالطبع كرامة من السماء لا نقـدر علي شكرها.

ويستحق الأنصار كل ثناء وتقدير وهم علي استعداد دائم للقتـال وطلبـوا الإذن بشـن الغارات على بلاد الأحباش. ولكن أوامركم يجب أن تطاع. لذلك أرفع لكـم رجـاءهم وأرجـو أن توافقوا على ذلك.

ولما كان هذا النصر يعزي لبركتكم ولعون الله الذي مشيئته كانـت تـدمير المشـركين وتقوية الدين الحنيف، لذلك أسأل الله أن يحفظكم وأن يقع أعداءكم في أيديكم.

رسالة أخرى عن العمليات التي تلت أحداث السادس من رجب ١٣٠٦هـ

"بسم الله الرحمن الرحيم....الخ

من العبد الذليل الزاكي طمل إلى سيده خليفة المهدي... الخ بعد خالص التحايا. أرجو أن أفيدكم بأنـه، وبعد معـركة السـادس من رجب ١٣٠٦ (٩ مارس ١٨٨٩) في بطن المركز والتي هزم فيها الأحباش أعداء الله ليلاً شر هزيمة كما أبلغتكم بذلك، فقد قمنا بمطاردة أعداء الله لـيلاً حتى صرنا بالقرب منهم ثم إنتظرنا الفجر لكنهم، لعلمهم بأننا قريبون منهم، أرسلوا جماعـة مـن

* ترجم ونجت (صوت الأمباية) بكلمة (يا سيدي) المعرب.
** يمكن تفسير ذلك لارتداء الأحباش لملابس سريعة الاشتعال خاصة عند إطلاق النار عليهم من قرب وشوهدت كثيراً.

الحرس والذين إشتبكنا معهم إشتباكاً بسيطاً. ثم نقلوا معسكرهم لمكان أبعد، وعند الصباح وجدنا أنهم قد بلغوا نهر عطبرة. كانوا من الكثرة بعدد حبات رمل البحر، فهاجمناهم بمنتهى البسالة وقاومونا بشجاعة فائقة. وفي الثانية من صباح الثلاثاء ٩ رجب (٢١ مارس) إنتهت المعركة بعد إنتصارنا عليهم. وقد خسر العدو خسائر ثقيلة ثم ولي فراراً تاركاً خلفه كميات كبيرة من الخيام والخيول والبغال والحمير وغيرها والتي غنمناها. وكذلك حررنا كل السجناء الذين أسروا عند مقتل أخينا المرحوم الشهيد ود أرباب. وعندما تفحصنا أجساد القتلى وجدنا من بينهم جثة يوحنا عدو الله. كان قد قتل في معركة السبت لكنهم وضعوه في صندوق ونشروا الخبر بأنه كان قد جرح فقط. فعلوا ذلك حتى لا يصدم جيشهم بمقتل ملكهم.

أما عمه، الذي خلفه، فقد قتل أيضاً جنباً إلى جنب مع كبير الأساقفة وكذلك قتل دجاج برهاي وكثير غيرهم وكلهم قطعنا رؤوسهم. هذه أكبر معركة خضناها أبداً، وصارت الحبشة مكشوفة أمامنا الآن. ولا يوجد لديهم من يقود مقاتليهم والذين تفرقوا الآن في كل مكان.

عسكر جيشنا على ضفة النهر وقد أستفسرنا وتقصينا إلى أي مكان هرب من تبقي من الجيش المنهزم. أما عن الغنائم التي استولينا عليها فأنها تجل عن الوصف، وأرسل إليكم بعضاً منها علي يد عبد الكريم حامد، برهاناً للإخوة على إنتصارنا. وإستولينا أيضاً علي مدافع وبنادق العدو وعلي كثير من الأسرى رجالاً ونساءاً.

وسنقدم لكم لاحقاً بياناً شاملاً بالغنائم والسجناء والأسرى".

ويمكن إلتقاط بعض التفاصيل القليلة عن تلك المعركة من الرسالة التالية، التي كتبها الخليفة لعثمان دقنة، والتي تسلمها في أوائل أبريل، مصحوبة برأس قيل أنه رأس الرأس، ألولا. لكن الأخير عاد من القلابات دون أن يلحقه أي أذى.

"بسم الله الرحمن الرحيم......... الخ.

من عبد الله خليفة المهدي إلى المكرم عثمان إبن أبو بكر دقنة. بعد السلام. أكتب لأخبرك بأن الأحباش، وعلي رأسهم النقس يوحنا ووزرائه وقادته، وأحدهم كان الرأس ألو لا، قد جاءوا، بعد وفاة المكرم حمدان أبو عنجة، من كل الجهات، وفي أعداد ضخمة، إلي القلابات وهاجموا الإخوان الذين هم بذلك المكان. واجههم الإخوان ودارت معركة شرسة قاتل فيها الأنصار بثبات وبشجاعة بالغة. هزم العدو هزيمة تامة وولي الفرار. وطاردهم الإخوان إلى مسافة بعيدة وقتلوهم حتى آخر رجل. وقد قتل نقسهم يوحنا ووزيره رأس ألو لا وكل قادته الآخرين وقطعت رؤوسهم. وتم استلام كافة ذخائرهم ومدافعهم وبنادقهم وخيولهم وغيرها وكان النصر تاماً. أرفق لكم خطابات من الإخوان بوصف المعركة، ومعها رأس الرأس ألو لا حتى يراه الإخوان. أما رأس النقس يوحنا فقد أرسلناه لأخينا يونس الدكيم، قائد القوات البحرية" .

* ترجم كتبة ونجت كلمة البحرية، بمعني الشمال أو دنقلا، بكلمة الأسطول وبالتالي أطلقوا علي الأمير يونس الدكيم لقب قائد قوات الأسطول (المعرب).

خطاب آخر:

" من خليفة المهدي إلى المكرم محمد خالد وطاهر المجذوب والشفيع أحمد وإسماعيل أحمد.

أكتب لأخبركم بأن الأنصار قد أحرزوا نصراً عظيماً علي الأحباش في القلابات. وكنت قد وصفت ذلك في رسائلي للمكرم عثمان دقنة. وأود أن أضيف بأنني قد تلقيت من الزاكي طمل عدداً من السلاسل الذهبية وسرير من ذهب وألماظ وحجارة ثمينة وغنائم من كافة الأوصاف وأيضاً أحذية وملابس بأنواعها أرسل لكم عينات منها".

وهناك رواية غريبة تروي عن إنتقام إبنة الملك، عندما سمعت بمقتل أبيها والإستيلاء علي جثته، ولكن لم يتم التأكد من صدقها. فيقال بأنه عندما وصل لغندار عدد كبير من الأسرى العرب أمرت بإدخالهم في زريبة واسعة ثم أمرت بإضرام النار فيها. وقد هلك كل الأسرى وسط اللهيب. وحتى لو كانت هذه الرواية صحيحة أم لا، فأن من المؤكد أن أحداً من الأسرى الذين سيقوا هناك لم يعد ثانية إلى القلابات.

ومن بين أمتعة الملك التي غنمت في تلك المناسبة، وجدت رسائل كان قد أحضرها له المستر بورتال والمستر بيش* في أكتوبر ١٨٨٧. وكانت هذه الرسائل المهمة التي غنمت، إضافة إلى تقرير الزاكي عن المعركة تمثل السبب الأساسي لإرسال الخليفة لأربعة مبعوثين لمصر حاملين معهم ثمانية خطابات. سافر هؤلاء الأربعة إلى مصر عن طريق بربر وحيمور ووصلوا أسوان في الخامس من مايو. أصروا علي السماح لهم للتوجه للقاهرة لتسليم الخطابات بأنفسهم. ولكن، لما كانت الذاكرة لا تزال تستوعب حدثاً مماثلاً تم من قبل، فأن الخطابات ترجمت وأرسلت إلى القاهرة بالبريد. أما المبعوثون الأربعة فقد حجزوا بأسوان.

كان الخطاب الأول من الخليفة عبد الله ومعنوناً إلى صاحب السمو الخديوي. وكان كما يلي:

" بسم الله الرحمن الرحيم ......

من عبد الله خليفة المهدي، إلى محمد توفيق، وإلى مصر. هداك الله إلى الطريق القويم، الذي جاء ذكره في الكتاب الكريم. فلتعلم بأن الله قد هدانا إلى طريقه القويم بأن أرسل إلى العالم نبينا محمد والذي أرشدنا إلى الدين الصحيح وظل يقودنا بأن أرسل لنا المهدي المنتظر والذي أحيا (ما اندثر) من دين المسلمين. إنك في شرف عظيم لحضورك زمن المهدي. وقد أعطاك الله الوعي الذي يجعلك تفرق بين الحق والباطل. ولقد دعاك المهدي للمساعدة في إحياء الدين، وأنا، من بعده، أدعوك بالمثل للقيام بذلك وقد بينت لك حقائق المهدية وصدقها. لقد فعلت ذلك من باب الشفقة عليك ولرغبتي في إنقاذ روحك في العالم الآخر. فتب إلى الله. ولا أعتقد أن رجلاً عاقلاً مثلك ينضم للكفرة والمشركين ويرفض نداء الله. فأنت رجل مسلم وإبن رجل مسلم ولا يليق بك أن تختار هذه الدنيا وتفضلها علي الآخرة وأن توافق علي عيش المؤمنين مع الكفار. ألا تعلم ما قاله

* المستر بورتال، من مكتب جلالتها بالقاهرة، مصحوباً بالملازم بيش، من الجيش المصري، كان قد أرسل في أكتوبر ١٨٨٧، في مهمة إلى ملك الحبشة يوحنا، حاملاً رسالة من جلالة الملكة، ومن الحكومة البريطانية، للتوسط بين الملك يوحنا وبين الإيطاليين.

الله في كتابه الكريم عن عدم اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين، وقال أيضاً للمؤمنين ألا يعيشوا مع النصارى واليهود... الخ؟

ولأنك تعرف ما قاله الله، كما يعرفه كل المسلمين، ولأنك تؤمن بالله وبوعده ووعيده، فلماذا تعمل ضد إرادة الله بالانضمام للأشقياء من غير المتقين، وباتخاذك للمؤمنين أعداء لك؟

بماذا ستجيب الله عندما تقف أمامه ويسألك عن أعمالك وأعمال رعاياك المسلمين؟

أنظر لنفسك قبل أن تموت، وأعمل فكرك في النظر إلى المستقبل إذ ما زال لديك الوقت. ولتفهم بألا رغبة لي في الكتابة لك حول هذا الأمر إلا من باب الشفقة عليك ولتدخل في نعمة الله. فلتستمع لنصحي وإلى ما قاله رسول الله. فمن يقبل النصح الخاص بدينه فسينال رحمة الله. وإذا رفض الإستماع لإرشادات الله فأن الله سينزل غضبه عليه. فلا تغرك مملكتك ولا الحياة الطيبة التي تعيش فيها. فهذه الدنيا إلى زوال ولا قيمة لها عند الله. وقد أوضح لنا الله في كتابه بأن هذه الدنيا مثلها كمثل ماء أنزل من السماء، تسقي الزرع وتؤتي الطعام للإنسان والحيوان، وعندما تزدهر الأرض فإنه يأمرها بالزوال ويحولها لصحراء (وهنا كتب عدة آيات من القرءان).

إن لديك العقل لتعي تفاهة هذه الدنيا. فلا تعتمد علي خوالها وأقبل ندائي لك قبل فوات الأوان وتجهز للآخرة. وأعلم بأن المهدية هي الوحيدة التي يقبلها الله (من المسلمين)، لذلك أدعوك لاعتناقها وسنقبل بك ونعفو عنك وستنال التشريف والإحترام. أما إذا لم تستجب لندائي وتستمر (في علاقاتك) مع الكفرة فإن خطاياك ستقع علي رأسك، وكذلك خطايا أناسك وسيتم إحضارها أمامك يوم القيامة. ولتعلم بأن دين الله منصور دائماً، وبأن أعداءه دائماً مخذولون، وأن كل من لا يدخل في هذا الدين سيقع في قبضتنا بإذن الله.

(ختم) حسبنا الله ونعم الوكيل

مؤرخ ٥ شعبان ١٣٠٦

(٦ إبريل ١٨٨٩)

وأحتوى الخطاب الثاني علي نسخ من خطابات الخليفة إلى الملك يوحنا ملك الحبشة، مؤرخة عام ١٣٠٤ (١٨٨٧) و ١٣٠٥ (١٨٨٨).*.

كذلك هناك خطاب آخر، ستأتي ترجمته، معنون من الخليفة إلى سمو الخديوي، يبين فيه الأحداث الأخيرة على الحدود الحبشية والتي هدف منها أن تكون إنذاراً له حتى لا يحل نفس المصير بوالي مصر:

"بسم الله الرحمن الرحيم ....

من عبدالله خليفة المهدي إلى محمد توفيق وإلى مصر هذا لأعلمك بأنني كتبت خطاباً عام ١٣٠٤ إلى ملك الحبشة دعوته فيه للدخول في دين الأإسلام، وحذرته مما سيحل به إن عصى تلك الأوامر. وأخبرته بأنه إن لم ينصع لندائي فإنني سأرسل جيشاً من الأنصار لغزو بلاده.

وعندما تسلم خطابي إنتابه الغضب وأظهر الغرور، وعليه أمرت الجيش بالقلابات لغزو بلاده.

* أوردنا هذه الرسائل كاملة في أحداث عام ١٨٨٧، القسم العاشر، وأحداث عام ١٨٨٨، القسم الحادي عشر.

وطبقاً لأوامري، بارحت جيوش تلك المحطة وتوجهوا نحو الحبشة ووجدوا أن العدو قد تجمع بأعداد بالألوف بجوار غندار، بقيادة الرأس عدل. نشبت الحرب بيننا وهزمنا الحبش وقتل معظمهم تقريباً وسقطت أسلحتهم وذخائرهم وخيولهم وغيرها في أيدينا. ثم دخل جيشنا غندار وأحرق كنائسها وهاجم القرى. وهنا دمروا حوالي ٢٠٠ كنيسة واسروا عدداً كبيراً من النساء والأطفال، بمن فيهم عائلة رأس عدل، ثم عادوا، بعد أوامرنا، إلى القلابات محملين بالغنائم.

وعند عودة جيشنا كتبت مرة أخرى لملك الحبشة وأمرته بالدخول في الدين الحنيف لكنه رفض مرة أخرى. وبالتالي طلبت من الأنصار أن يعاودوا الهجوم. وعندما وصل الجيش لبلاد الحبشة وجدها خالية، لأن معظم أهاليها قبلوا بالدين الحنيف وأصبحوا من المسلمين. وتوجه الجيش لغندار لكن الجيش الحبشي كان قد أختفي. وبعد أن مكث بعض الوقت في بلادهم عاد رجالنا مرة أخرى للقلابات.

وعندما تم إخبار الملك يوحنا بما حدث غضب غضباً شديداً وإنتابه الغرور الكاذب وجمع مرة أخرى كل جيوشه وتقدم للهجوم علينا. حضر بألوف مؤلفة من جنوده إلى القلابات في شهر رجب ١٣٠٦ (مارس ١٨٨٩). وعندما بلغني نبأ قدومهم أمرت القوات – الأنصار الشجعان – للهجوم عليهم ودارت معركة شرسة بيننا إستمرت لأربعة ساعات وربع وانتهت بهزيمة تامة للأحباش وقتل يوحنا التعس هو وعدد كبير من وزرائه مثل الرأس ألو لا وكثيرين غيرهم، إلى جانب ألوف مؤلفة من أتباعهم. أما من تبقى من جيشهم فقد وضعوا ملكهم في صندوق ومضوا به بعيداً. لكن الأنصار طاردوهم حتى وجدوهم في معسكر بالقرب من النهر. كانوا قد نصبوا عم الملك ملكاً جديداً عليهم. وفي اليوم التالي نشبت معركة بيننا دامت لساعتين وهزم فيها الأحباش مرة أخرى ولم يبق منهم أحداً حياً، وحتى ملكهم الجديد قتل أيضاً هو وكل وزرائه. وأحضر الأنصار رأس الملك يوحنا ورؤوس الوزراء وأسلحتهم وذخائرهم.... الخ .... الخ، إلى في أم درمان.

ولما كان هذا هو مصير الأحباش، فأنني كتبت لك محدثاً بما جرى، وآمل أن تأخذ العبرة والإنذار منه.

(ختم) حسبنا الله ونعم الوكيل

مؤرخ ٥ شعبان ١٣٠٦

(٦ أبريل ١٨٨٩).

وكان الخطاب الثالث من الخليفة إلى سمو الخديوي مرفقاً معه أطقماً من ملابس الأنصار وأحذيتهم وسبحة وعمامة وغيرها للاستعمال عند الصلاة، وترجمته كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم.....

من خليفة المهدي، إلى محمد توفيق، وإلى مصر.

لما كنت قد كتبت لك من قبل ونصحتك بأتباع الدين الحق، دين المهدي، والذي سيكون فيه سعادتك، فأنني أرسل لك هنا جبة ومسبحة وزوج من الأردية (السراويل) وحزام وطاقية سعف وزوج من الأحذية، وهي الملابس والزي الذي يرتديه أصحاب المهدي وأتباعه. فإذا ما أردت أن ترث الحياة الأبدية في دار البقاء، فارتدي إذن هذه الملابس وأنصح رعاياك بالعمل علي منوالك".

(ختم) حسبنا الله ونعم الوكيل

مؤرخ ٦ شعبان ١٣٠٦

(٧ أبريل ١٨٨٩)

والخطاب الرابع موجه للوزير البريطاني في القاهرة، يحثه فيه على اعتناق المهدية بدون تأخير، ويرسل له معه طاقماً من ملابس الأنصار (ولا داعي للقول بأن تلك الملابس، للوزير وللخديوي، قد أعيدت إلى المبعوثين عند رحيلهم من أسوان عائدين إلى أم درمان).

"بسم الله الرحمن الرحيم.......

من خليفة المهدي إلى وكيل الإمبراطورية البريطانية في مصر. هذا الكتاب مرسل لتحذيرك بأن الله قد قال في كتابه العزيز بأن الذين يعرفهم فقط هم الذين هم مؤمنون حقاً بدين الإسلام، أما الذين يعتقدون في ديانة غيره فلن يكون لهم نصيب في الآخرة. ولأنك لم تدخل في ديننا الإسلامي فأننا ندعوك للدخول فيه فوراً. لأن الله قد قال في القرآن "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً".

فإذا آمنت بديننا، وشهدت بأن لا إله إلا الله وبأن محمداً رسول الله فأننا سنستقبلك بترحاب عظيم.

من هنا فأننا نرسل إليك جبة وحزاماً وسجادة وسراويلاً وطاقية من السعف وسبحة وصنادل، وهي الزى الذي يرتديه المؤمنون بالمهدي. ونحن نلبس هذا الزي، لأننا أمرنا بذلك، فان رفضته فعليك تحمل العواقب وستقع في يدنا (يوماً)"

(ختم) حسبنا الله ونعم الوكيل.

٥ شعبان ١٣٠٦

(٦ أبريل ١٨٨٩)

والخطاب الخامس كان مقتضباً جافاً وحاسماً، وكما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم....

من خليفة المهدي إلى القنصل البريطاني بالقاهرة.

أخبرك بأن الخطاب المرفق هنا، والمعنون إلى فكتوريا. ملكة بريطانيا، يجب أن يرسل إليها فور إستلامك له".

(مختوم كما سبق)

والخطاب المرفق المشار إليه هو الخطاب السادس، والذي كان خطاباً من جلالة الملكة إلى الملك يوحنا، والذي سلمه له المستر بورتال في أكتوبر ١٨٨٧. وعلي هامش هذا الخطاب كتب باللغة العربية "هذا خطاب وجد في حوزة الملك يوحنا عندما قتل".* أما الخطاب السابع، فهو من الخليفة عبد الله إلى صاحبة الجلالة الملكة، يعبر فيه عن استعداده لقبول جلالتها في سلك المهدية. والخطاب كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم....

من خليفة المهدي إلى فكتوريا ملكة بريطانيا

يجب علي أن أحذرك بأن الله قد قال في كتابه العزيز بأنه لا يعرف إلا الذين يؤمنون بدين الإسلام الحق، وأن أي من يعتقد في ديانة غيره لن يكون له نصيب في الآخرة. ولأنك لست

* أرسل هذا الخطاب فوراً لإنجلترا.

من أتباع دين الحق، فلذلك أدعوك لأتباع دين المهدي، لأن الله قد قال في كتابه المقدس" قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله..." وهي نفس ما جاء بدينكم. لأننا لا نعبد إلا إلهاً واحداً لا شريك له، وإن علينا أن نساعد بعضنا بعضاً لإعلاء كلمة الله. فإذا آمنت بديننا، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فسنقبل بك بكل ترحاب، أما إن رفضت الإستجابة لندائنا فلاشك في أن خطاياك وخطايا رعاياك ستكون علي رأسك وستقعين في أيدينا.

(ختم. حسبنا الله ونعم الوكيل)

وأشتمل الخطاب الثامن علي (أوراق) الاعتماد الأصلية للمستر بورتال (المقدمة) للملك يوحنا، والتي وقعها اللورد سالسبري ، والمؤرخة في ١٢ أكتوبر ١٨٨٧، وصادرة من وزارة الخارجية (بلندن).* وكانت تلك الرسائل هي الدليل الأول الموثوق به عن موت الملك يوحنا. فحتى هذا الوقت لم تكن هناك إلا إشاعات غامضة عن نشوب معركة هامة. ولأن السوابق كانت تتحدث عن أن قادة العرب يعكسون الحقائق، ويحولون الهزيمة إلى نصر، فأن تلك الإشاعات لم تلق إلا قليلاً من التصديق.

ألقى موت الملك البلاد في حالة من الفوضى. ويشاع بأنه قبل موته كان قد سمي إبن أخيه منجشا ليخلفه. لكن ملك شوا، منليك، نازعه في ذلك الأمر. كان منليك من أخلص أصدقاء الإيطاليين، وعدو مرير لمنجشا الذي كان في ذلك الوقت قد ضمن ولاء ودعم الرأس ألو لا. أدت هذه النزاعات الداخلية إلى شل كل المحاولات لتكوين قوة عسكرية للإنتقام لمقتل الملك يوحنا، حتى أن الأمير ود إبراهيم قام بغارة ناجحة وصل فيها حتى غبتة بدون أن يلقى أي مقاومة جادة. لكنه حينما حاول الهجوم علي ولكيت هزم بواسطة حبشي يدعي جرازمات وأضطره للرجوع للقلابات.

وضعفت قوة القلابات كثيراً بسبب النكسات الأخيرة وعندما طلبوا التعزيزات من أم درمان رد عليهم الخليفة للإنسحاب لعصار. ويبدو أن ذلك لم يتم أبداً. وفي أواخر عام ١٨٨٩ جاءت تقارير تفيد بأن القبائل الحبشية التي تجاور القلابات قد عقدت الصداقة مع العرب وأن تجارة مزدهرة قد نشأت بينهم.

أما الشيخ عجول* فيبدو أنه، بعد معركة التاسع من مارس، قد تشاجر مع على نورين السبدراتي. ومن ثم فقد ألقي به في السجن بواسطة الأحباش إلى أن تمكن من الكتابة إلى الحاكم العام بسواكن، في يونيه ١٨٨٩، بعد الإفراج عنه، وذكر أن دجاج تساما قد أزيح وحل محله، كحاكم لمقاطعة ولكيت، الحاكم وارقاتي وهو الذي أطلق سراحه.

وطلب الشيخ عجول من الحكومة أن تدعمه حيث أنه لا يزال يحتفظ بكامل الولاء لمصر.

***

* أرسل هذا الخطاب أيضاً للندن.
* هذا الشيخ يلقي الآن دعم السلطات الإيطالية في مصوع، والتي قام بزيارتها مؤخراً.

السودان الشرقي (١٨٨٩):

كان سلوك القبائل مرضياً بعد معركة جميزة وساد الهدوء المناطق المجاورة لسواكن. كان يشاهد أحياناً جماعات صغيرة من العدو، لكن قوة عثمان في هندوب قد ضعفت كثيراً وتقلصت العلميات العدائية إلى مستوى الغارات علي المواشي، التي كان العرب الموالون يصدونها بفعالية تامة.

وفي الثاني عشر من يناير ١٨٨٩، عاد أحمد محمود إلى هندوب من أم درمان، بعد أن نصبه الخليفة أميراً على الأمراء.

وفي الخامس والعشرين من الشهر غادر الكولونيل كتشنر سواكن وبنهاية الشهر كان آخر من تبقى من القوات البريطانية قد ذهب، وعادت الحامية مرة أخرى إلى قوتها المعتادة. وفي السابع من فبراير قام الفرسان باستطلاع طريق هندوب، ولما شاهد الملازم بيش إثنين من جماله العدو قام بمطاردتهما وأشتبك معهما في قتال يداً بيد وأسقط أحدهم ممزقاً علي الأرض، وبينما كان هو علي وشك أن يصرع من الجمال الآخر، أندفع أحد الجنود المصريين لمساعدته وتمكن من القضاء علي الجمال وبذلك أنقذ حياته.

وفي الثامن من فبراير عقد إجتماع بين أحمد محمود والملازم برنسب، والذي كان يرافقه محمود بك علي. أحتج أحمد محمود بأنه ليس في نيته الإنضمام لعثمان دقنة، وإنه أقترح أن ينضم للهدندوة ويحتل هندوب عند مغادرة عثمان لها. كان هذا مظهراً احتجاجيا لإبداء الولاء، لكنه لم يسفر عن أي نتائج.

وفي الحادي عشر من الشهر غادر عثمان هندوب متوجهاً لطوكر بعد أن أحرق معسكره. وبعد أيام تفقدت الخيالة المصرية ذلك المعسكر ووجدته مدمراً تماماً. وكانت لا تزال به بقايا ٢٠٠٠ قطية، وقدروا أن المعسكر كان يأوي في مرحلة من المراحل ما لا يقل عن ١٢٠٠٠ نسمة.

وبعد مغادرة عثمان (لهندوب) تغير الوضع تماماً. وصار العرب يدخلون ويخرجون من سواكن بحرية وساد هدوء عظيم في إنحاء الإقليم لم يعرفه الأهالي منذ وقت طويل.

وأصبحت طوكر الآن مركزاً لنفوذ الثوار في هذا الجزء من السودان. وبنهاية الشهر وصل قادماً من أم درمان الطاهر المجذوب وبصحبته أحد إخوة الخليفة، ومعهما مبلغاً كبيراً من المال، كانوا يريدون به شراء ولاء القبائل، ولتسوية الخلافات والشكاوى المتكررة بينهم وبين البقارة.

وفي أواخر شهر مارس عاد أبو قرجة لطوكر وثارت الخلافات، التي كانت محتمة مع عثمان من جديد.

كانت حالة المنطقة شمالي شواكن مرضية عموماً، ما عدا، ولبعض الوقت، ما شوهد من قوات معادية بقيادة أحمد نصراى في ضواحي حلايب. وفي الثاني عشر من مارس وصلت تعزيزات من بربر، عن طريق أبو حمد، تحت إمرة الأمير البغدادي، للإنضمام إلى قوات أحمد نصراى وساد الاعتقاد بأنهم لم يكونوا سوى تجار رقيق عرب، رغم أن مجئ البقارة والجعليين معهم قد كذب

ذلك الظن. وفي الحادي والعشرين من أبريل وصلت إلى سواكن السفينة الحربية الملكية (عجيمي) وأفادت بأنه عند إنبلاج صبح التاسع عشر من الشهر كان أحد العبيد قد فر من الثوار واندفع نحو المأمورية وقال أن حوالي ٣٠٠ من رجال العدو قادمين نحوها لمهاجمتها وبأنهم سيصلون خلال نصف ساعة. فقام المأمور علي الفور بوضع رجاله فوق الطابية، التي لم يكتمل بناءها بعد، وكانت حاميته الصغيرة لا يتجاوز عدد أفرادها ٢٧ من رجال البوليس، وفي نفس الوقت أرسل النساء والأطفال للحماية على ظهر سنبوكين كانا بالميناء. أما العرب المحليون فقد فروا إلى شبه جزيرة حيث قامت السفينة عجيمي بإنقاذهم بعد ذلك.

وبعد نصف ساعة من الإنذار هاجم العدو الطابية حيث قابلوهم بالرصاص، لكن الحامية الصغيرة سرعان ما طردت نحو سلسلة صخور على الشاطئ حيث أنقذتهم السنابيك، بعد أن قتل إثنان منهم وجرح خمسة. ثم إندفع العدو بعدها نحو القرية حلايب حيث قتلوا حوالي خمسين من النساء والأطفال معظمهم من قبيلة حمد أوراب، وهي قسم من البشاريين. لكنهم أرغموا على الإنسحاب، من جراء نيران العجيمى القوية، إلي مأوي وراء الطابية. لكن الموقع ظل تحت سيطرة العرب التامة ولم يعد مجدياً الدخول في معركة معهم، وإنطلقت العجيمي بأقصى سرعتها إلى سواكن. وعلي ضوء تلك الأحداث قام الكولونيل هولد سمث بمبارحة سواكن ومعه ٥٠٠ جندي من الكتيبة السودانية الحادية عشرة بقيادة الكابتن مكدونالد، إضافة لبعض مفارز عسكرية، بالسفينة (مخبر)، وقد صحبتهم السفينة الملكية (ستارلنج)، وكان هدفهم إعادة سلطة الحكومة (للمأمورية) وإن أمكن أن تتم معاقبة الثوار. وصلوا لحلايب صباح السابع والعشرين من الشهر. وعندما شاهد العدو السفن انسحب لبضع أميال إلى الداخل. وعندما هبطت القوات وجدت أن المكان خالياً من أي إنسان. كان عدم وجود وسائل النقل سبباً في منع القوات من مطاردة العدو لأبعد من معسكرهم* الأول، والذي وجدوه خالياً بدوره. ظلت القوات لبضعة أيام في حلايب أما العرب فقد إنسحبوا لأجوا متيري، التي تبعد ٦ ساعات من حلايب، ولم يقوموا بنشاط بعد ذلك (ضدها). وعاد الكولونيل هولد سمث إلى سواكن في الثالث عشر من الشهر، بعد أن ترك قوة صغيرة بقيادة الكابتن جاكسون لإكمال بناء الطابية الجديدة ولإعادة تأسيس سلطة الحكومة في المأمورية. ورجع الكابتن جاكسون بعد أيام قليلة إلى سواكن بعد أن ترك حامية من خمسين من رجال البوليس في موقع قوي التحصين.

خلال ذلك قام الهدندوة، باستثناء القليل منهم، بالإتحاد شيئاً فشيئاً، وباستمرار، ضد الثوار، والذين اعتبروهم من الدخلاء الأجانب. وفي أبريل قام الشبوديناب بغارة علي مناطق بشمالي بربر. وظل الأمرار مستمرين في عدائهم السلبي، رغم أن جويل أيور، إبن الشيخ علي ركاب، شيخ قسم السندراي، قد أسس وضعاً مستقلاً وقام بالإغارة بحرية علي القبائل الموالية (للحكومة)، بموافقة عثمان دقنة بدون شك.

* قوات العرب هذه هي التي عملت فيما بعد ضد البشاريين والعبابدة في ميسا، وهددت بالهجوم على أبرق فب يوليه.

وبنهاية مايو كتب على عمر، شيخ الجميلاب، للحاكم العام بأنه قد عاد الآن إلى منطقته قادماً من أم درمان، التي أرغم علي الذهاب إليها، وأنه لا يزال يكن خالص مشاعر الولاء، رغم أنه لا يستطيع إظهار ذلك خشية من عثمان دقنة.

وفي يونيه حضر لسواكن عدد من شيوخ الهدندوة الكبار ورجوا الحكومة لمساعدتهم بدعم الخطوات الإيجابية التي يعتزمون القيام بها ضد العرب. وكانت التجارب السابقة قد أوضحت، حتى الآن، بأن مثل تلك الأحلاف المعارضة للمهدية لم تنجح، فقد أتحدت كل العوامل، من التشاجر القبلي، والخوف من انتقام الثوار منهم إن فشلوا، والجهل بمدى قوة عدوهم المشترك، لتجعل من الصعب قيام تحالف قبلي بينهم. أما الآن فقد عم الإستياء من البقارة أكثر مما كان عليه من قبل. فقد كان الأخيرون ينهكون المنطقة ويحوزون علي كل المؤن لأنفسهم، كما عمت الحوجة، التي قاربت أن تكون المجاعة، كل المنطقة.

فالوقت الحاضر إذن يبدو وكأنه يتيح الفرصة المناسبة لمنح تلك القبائل بعض الدعم من المال والطعام حتى يتمكنوا من اتخاذ موقف إيجابي تجاه الوافدين.

كان محمد موسي دقنة قد عين للتو أميراً على سنكات. وتم اقتراح بأن يشن هجوم عليه في أقرب فرصة فأن نجح ذلك، يتم الألتفات بكامل الجهود نحو طوكر.

ثم تحالف الهدندوة الآن مع الأمرأر. وبعد أن تلقوا الدعم الذي طلبوه، قامت قوة منهم مكونة من ٧٠٠ رجل بمغادرة سواكن في الثاني عشر من أغسطس متجهة لسنكات. وعند وصولهم إليها وجدوا أن موسي دقنة قد فر منها بعد أن ترك وراءه، لتعجله، عدداً من المواشي التي سقطت في يد التحالف.

وطلب موسي المدد من عثمان دقنة. وسرعان ما تجمعت لديه قوة من ٦٠٠ رجل من البقارة والجعليين وقبائل المنطقة في هراساب. لكن التحالف هاجمهم في الأول من سبتمبر وطردهم من مأواهم الجديد، لكن العرب كروا عليهم في اليوم التالي وأجبروه علي التقهقر إلي تمانيب. كان الحادثان كلاهما صغيراً وغير هام، لكن النتائج النهائية لم تكن مرضية بعد فشل التحالف في تحقيق وعدة الجازم بإجلاء الأغراب أو الدخلاء. ترتب علي ذلك رفض الحكومة لدعمهم بالمزيد وسرعان ما تفكك التحالف وتم حله بعد أن حرم من دعم السلاح والطعام. وأثناء تلك الفترة تم في سواكن تشكيل كيان صغير من الخيالة غير النظاميين، عرفوا باسم الخيالة العربان، ولعب دوراً هاماً في إيقاف الغارات علي المواشي وغيرها.

ولم تتغير الأحوال في المناطق المجاورة لسواكن كثيراً إلا بعد مغادرة عثمان دقنة لطوكر في السابع من أكتوبر كان قد تلقي دعوة لحضور مجلس للأمراء بأم درمان، ستتم فيه مناقشة الأوضاع العامة بعد مقتل النجومي وتدمير القوات التي أرسلت لغزو مصر.

وتولي القيادة في طوكر الأمير أبو قرجة، وسرعان ما لوحظ تغييراً عظيماً. وأصبح عدد كبير من القبائل من دلتا طوكر يتوجه بحرية إلى سواكن. أما أحمد محمود فظل، حتى الوقت الراهن، في هندوب. ولم يكن لتأكيداته بالولاء أي أثر يذكر من ناحية عمليه وتحول تدريجياً إلى شيخ لص، يفرض الأتاوات ويبتز كل من تقع يده عليه. وكانت معظم إيراداته تذهب عادة إلى أيدي

عثمان، والذي كان يشجعه ويؤيد رغبته لتولي زعامة الأمرأر. وعندما توجه عثمان إلى أم درمان إنضم إليه أحمد محمود في الطريق وتوجها سوياً للخليفة.

وأصبح من المعتقد الآن أن بالإمكان التفاوض مع أبو قرجة. ومن ثم دارت مراسلات بينه وبين الحاكم العام (في سواكن). لكن أبو قرجة كان مراقباً مراقبة دقيقة من مناديب الخليفة مجذوب أبو بكر والطاهر المجذوب، ومهما كانت حقيقة نواياه، فأنه لم يجرؤ علي توريط نفسه. وقد أثبتت الأحداث فيما بعد بأنه لم يكن يميل إلا قليلاً لترك المهدية، وذلك علي الرغم من أنه، وفيما يختص بملابسه وطعامه، لم يكن من غلاة المتمسكين بتعاليم سيده الراحل محمد أحمد. وربما كان هذا هو ما أدي للإعتقاد بأنه كان ينوي الخضوع للحكومة المصرية.

على هذا فقد أختتم عام ١٨٨٩، في تلك المناطق بحدوث تغيير ملحوظ في العلاقات مع القبائل بها، فقد علقت حالات العدائيات النشطة مؤقتاً، وعادت التجارة للإنتعاش لحد ما، رغم أنها بحكم الواقع ظلت في أيدي القوى الحاكمة في طوكر، مما زاد من معاناة القبائل التي أضعفتها الحروب المتواصلة وجعلتها في حالة من البؤس والإدقاع. ورغم أن المعونات، بقدر الإمكان، كانت تقدم لهم إلا أنه لم ينتفع بها إلا القريبون من المدينة (سواكن).

وفي تلك الفترة تم عقد الاجتماع الهام في أم درمان. ويقال أن الخليفة قد حث عثمان علي تولي مكان النجومي في مديرية دنقلا، وليعمل علي تجهيز جيش آخر لغزو مصر. لكن عثمان أحتج بعدم قدرته علي تجميع القبائل في أقليم لا يعرفه فيه أحد. كما أوضح مدى الصعوبات التي واجهها في المناطق المجاورة لسواكن، لكنه أكد بأن نفوذه هناك كان عظيماً وإن من المتوقع أن يلقي نجاحاً أكبر هناك عنه في دنقلا. لذلك تم الإذن له بالعودة وغادر أم درمان في العشرين من ديسمبر، متخذاً طريق القلابات – القضارف – إلى كسلا والتي كان ينوي القيام بالمرور والتفتيش المطول لها وإن أمكن، أن يجمع المزيد من القوات للعمليات المستقبلية إنطلاقاً من طوكر.

أما أحمد محمود فقد وصل إلى هندوب في الثالث من يناير ١٨٩٠، وأنشغل مرة أخرى بجمع الضرائب، وهو الأمر الذي ضايق الهدندوة كثيراً وطالبوا بحقوقهم في الطريق وفي نصيب عادل من الأرباح علي أقل تقدير.

•••

كسلا في ١٨٨٩:

لم تتغير الأحوال في كسلا عام ١٨٨٩، بدرجة تذكر. وكان سعيد حامد لا يزال أميراً عليها. وفي أوائل العام قام بإرسال حملة لإخضاع قبيلة الباريا لكنه، بعد سلسلة من الإشتباكات، عاد بدون أن ينفذ غرضه.

وإستمر الجميلاب في عدائهم المعلن وكثيراً ما قاموا بقطع الاتصالات بين طوكر وكسلا. أما النبي عامر فكانوا يشنون الغارات باستمرار على المناطق المجاورة لكسلا نفسها. وفي ذلك الوقت تقريباً تلقي الشيخ كنتباي ١٠٠٠ بندقية من الإيطاليين، زعم أنه يريد بها الدفاع عن نفسه ضد غارات العرب. كما دخل في تحالف مع البني عامر ضد الثوار. ولكن يبدو أنه لم يحرز أي

نتيجة منه، رغم أن حملة قد توجهت من طوكر، بقيادة مصطفى هدل، لتأديب البني عامر وعقابهم على غاراتهم الأخيرة.

ولم تتحسن العلاقات القديمة بين العرب والهدندوة في ذلك الإقليم. وفي أواخر يونيه قامت قوة مشتركة من الهدندوة والبني عامر، بقيادة الشيخ محمود عمرن بهزيمتهم في فيليك وكبدتهم خسائر كبيرة.

وقام الأشراف أيضاً بتجميع قواهم بنهاية أكتوبر، تحت زعامة الشيخ أبو فاطمة وسببوا بعض القلق لقائد العرب بطوكر. ولكن لم تكن لتلك الحركة أثر ملموس. وبنهاية العام رحل أبو فاطمة إلى مصوع.

وخضعت قبيلة الشاياب أيضاً (للحكومة) ووصلوا مع شيخهم وعوائلهم لسواكن. وكانت تلك القبيلة الصغيرة من بين أخلص القبائل الموالية لعثمان من قبل وبالتالي كان خضوعهم أمر له بعض الأهمية.

وقام الشيخ أو نور أنوياب، من الجميلاب، بتكوين قوة صغيرة أيضاً، واستقر في ستراب وتحدي العرب علناً، وكون لنفسه كياناً مستقلاً لبعض الوقت.

وفي الثاني والعشرين من ديسمبر أصيبت الحكومة بخسارة هامة بموت محمود بك علي، والذي كان له نفوذ كبير في المناطق المجاورة والذي قدم خدمات طيبة للحكومة لعدة سنوات.

تلك كانت الأحوال العامة بالسودان الشرقي حتى نهاية ١٨٨٩ مما يمكن تلخيصه في بضع كلمات. فالمنطقة كانت لا تزال في قبضة الثوار والذين قاموا بسلوكهم القاسي غير المنضبط بتنفير القبائل المحلية وكسب بغضهم. وكانت تلك القبائل، رغم توقها لتحرير نفسها من حكم القهر هذا، إلا أنها كانت غير قادرة علي التوحد لأسباب بين قبلية وغيرها. رغم ذلك فقد واصلت عداءها لتسلط العرب. كانت قوة عثمان دقنة قد ضعفت كثيراً ولم يعد هناك ذاك التحفز والتطلع للأعمال العدائية النشطة وأصبحت المنطقة بأكملها تبدو منهكة من دوامات القتال التي لاتهدأ. وجاء غزو للجراد الصحراوي ليضيف بؤساً إلى بؤسهم وإنتشرت المجاعة في البلاد.

•••

دارفور في ١٨٨٩:

تركنا عثمان آدم، في أواخر ١٨٨٨، في الفاشر يعمل في جو من القلق الشديد على الاستعداد لمواجهة الهجوم المتوقع من أبي جميزة، والذي كان لا يزال بدار تاما لحشد القبائل (لنصرته).

وفي أوائل فبراير تقدم أبو جميزة نحو الفاشر، لكنه أصيب أثناء الطريق بالجدري فنزل في كبكابية بينما واصلت جيوشه بقيادة نائبه الفكي آدم طريقها نحو الفاشر حيث توقفت علي بعد ١٢ ميل من المدينة في المجزون، غرب الفاشر ولمدة يومين. كان الفكي آدم يتوقع أن يقوم عثمان بمهاجمته هنا، لكن الأخير رأي من غير الصواب أن يتحرك بعيداً عن قاعدته، وبالتالي أنتظر قدوم العدو نحوه بالفاشر وهو ما تم في الثاني والعشرين من فبراير.

ولا يمكن معرفة أخبار المعركة الشرسة التي دارت بينهما علي بعد ميل من الفاشر، وفي غياب المصادر الموثوقة، إلا من قراءة الخطاب التالي الذي أرسله عثمان للخليفة بعد انتهاء القتال بإمعان شديد. فقد إنتهي القتال بهزيمة تامة لقوات أبي جميزة وتشتيت شملها. وقد تـوفي ذلـك القائد المشهور في اليوم التالي للهزيمة وذابت وتلاشت تلك الحركة العظيمة التي بدأت وسط أجواء من تباشير النجاح، ولم يعد لها وجود بعد ذلك.

وجاء خطاب الأمير عثمان كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم...

من عبد ربه وأسير جرمه، عثمان آدم

إلى المثل الأعلى للمؤمنين، حامل راية الرسول الأكبر، سيدنا ولينا ووسيلتنا إلـى الله خليفة المهدي، الخليفة عبد الله بن محمد، خليفة أب بكر الصديق.

أحييك بكل تواضع. كنا قد أخبرناكم من قبل بـالأغراض الخبيثـة لأعـداء الله والـذين حرضهم قائدهم الشيطاني، وبأنهم يتجمعون من كافة الأنحاء بغرض الهجوم علينـا. وفـي هـذا الخطاب الحالي أرجو أن أفيدكم بأنهم تجمعوا جميعاً في المجزون، على بعد أربعة سـاعات مـن الفاشر، وبعد أن تلقوا إمدادات ضخمة من كل أنحاء دارفور، وأيضاً من الأماكن والبلاد البعيدة مثل دار سلا وفور وبرنو وغيرها من الأماكن.

مكثوا في المجزون ليومين في انتظار هجومنا عليهم. لكنني رأيت من الحكمة أن أقـوم بملاقاتهم مدافعاً في مكاننا، وانتظرنا قدومهم.

وفي اليوم الثالث، الجمعة ٢١ جمادى الآخرة (٢٢ فبراير ١٨٨٩) في الساعة السادسة عربي (بالظهر) توجهـوا نحونـا قادمين من جهة بيرا. كانوا في أعداد ضـخمة لدرجـة غطـت الأرض وارتفـع غبار أقدامهم لعنـان السماء. ولا عجب من كثرة جموعهم، فقد كـانوا يعملـون لذلك الحشد الضخم منذ أربعة شهور. زحفوا نحونا، ومن خلفهم نساءهم وأطفالهم وهم يضـربون الطبول والنقارة.

ولما رأيت ذلك وقفت وسط الأنصار وخاطبتهم بإيجاز وذكرتهم بالتوكل المطلق علي الله وأن يقاتلوا بضراوة بدون خشية من عدد عدوهم أبداً.

ثم قسمت قواتي إلى أربعة طوابير وأمرتهم بمتابعة بعضهم البعض مـع تـرك مسـافة قصيرة بين كل طابور والآخر. ثم وزعت الفرسان علي الجناحين كما هي العادة، ثم تقدمنا بثبـات نحو العدو حتى ضاقت المسافة بيننا ثم اندلع القتال.

التحمت القوتان مع بعضهما البعض ودار قتال شرس استخدمت فيه السيوف والرمـاح والسكاكين. وقام رجالنا الأنصار المؤمنين بالقتال بشجاعة وبسالة بالغين وفي خلال سـاعة مـن الزمن، وبعد أن لحقت به أفدح الخسائر، ولي العدو الفرار.

لكن الأنصار لم يكتفوا بما أحرزوه من نصر بل شرعوا يطاردون الأعداء الفارين حتـى مغرب الشمس. أما فرساننا فقد واصلوا مطاردتهم بعد المغيب حتى قتل جميـع الأعـداء تقريبـاً. طاردوهم حتى إلى كهوف الجبال والغابات، حيث حاولوا الاختباء فيها، لكنهم أبيدوا جميعـاً بمـن

فيهم الذين تحولوا (بسحرهم) إلى قرود وذئاب وكلاب وأرانب (لأن أهالي البلاد الغربيـة يمكـنهم التحول لتلك الاشكال) وقتلوا جميعاً حتى آخر واحد منهم.

كان عـدد قتلاهم لا يحصى ولا يعد. كما قتل معهم عدد من النساء والأطفـال وأخـذنا الباقين أسرى.

لقد كان الله معنا ورأينا العديد من المعجزات أثناء القتال. فقد أرسل الله نـاراً أحرقـت أجساد القتلى من العدو وكذلك جرحاهم مما يظهركم كان غضب الله وانتقامه منهم عظيماً.

كما رأى الإخوان ستة عشر راية بيضاء، لها حواشي خضراء، تخفق في الهواء.

وسمعوا أيضاً صوت الطبول والنحاس في الهواء ورأوا أشياء مثل الجبال تسقط فـوق رؤوس الأعداء. وكان عدة أصحاب قد رأوا الرسول قبل المعركة في رؤاهم.

كانت القبائل التي إتحدت للقتال ضدنا هم البرقو والبرنو والمساليت والتاما والتارجـان والأسناكون ودار سلا والزغاوة والبني هلبة والفزكان والبديات والفور والأرنالات....... الخ.

ومن ضمن زعمائهم القتلى: (١) خليفة الشيطان* وأخوه إساغة، والـذي غيـر إسـمه وتسمى باسمك، وإدعي أنه قد نزل من السماء، وأن لا أحد يستطيع الوقوف أمامه، وهو الذي أباح المحظور وحظر المباح. وأيضاً (٢) إبن السلطان صالح وإسمه محمد بخيت. (٣) أخوه (٤) وكيله أبو الخيرات. (٥) عبد الفكي حنفي. (٦) الوزير آدم بوش. (٧) قاضيهم إمام حارث (٨) إثنين من بلاط سلطان البرنو. وغير ذلك كثير من زعماء القبائل الأخرى.

كثير من زعماء القبائل الأخرى.

وكنت أنوي أن أرسل لكم رؤوس أولئك الزعماء لكـنهم تفسـخوا وتحللـت أجسـادهم وسيكون ذلك حملاً ثقيلاً للبريد. لكنني أكتفي بإرسال راسين فقط لكم وهما رأس وكيل الشـيطان، ورأس إبن السلطان صالح، مع بعض بوارق الأعداء وبعض أنواع الغنائم مما يؤكد نصرنا المؤزر.

أما شيطانهم أبو جميزة فقد مات بالجدرى في منزله قبل بضعة أيام ومن ثـم أصـبحت دارفور بدون رأس. أما الذين نجوا من المذبحة فقد تفرقوا في أنحاء البلاد وأبـدي كثيـر مـنهم رغبته في الإنضمام للإخوان. وسنفيدكم فيما بعد بما يستجد.

أطال الله أيامك ونصر جنودك دائماً وليعطك الله كل القوة. أمين.

مؤرخ جمادي الآخر ١٣٠٦

(فبراير ١٨٨٩)

وهذا انذار موجه لأحد الشيوخ بالسودان الشرقي، صدر بعد هزيمة أبي جميزة:

"بسم الله الرحمن الرحيم.........

من عبد ربه عبد الحميد عواض وأحمد محمد محمود وفخر الدين عمر، إلى عبد القادر محمود إيلة، شيخ جزيرة بهدور، بالقرب من سواكن.

بعد السلام. نكتب إليك لنخبرك بأن الله قد أمد أيدي المهدي ومن تبعه بـالقوة الكاملـة. ففي يوم الثلاثاء التاسع من رجب ١٣٠٦ (١٢ مارس ١٨٨٩) إلتقت (جيـوش) وكيـل المهـدي

* نظراً لطموح أبو جميزة الديني ومعارضته للمهدية فقد أطلق الأنصار عليه إسم الشيطان.

الموقر الزاكي طمل بالأحباش وهزمتهم وقتلتهم جميعاً. كما أن قبائل الأقاليم الغربية قد هزموا بواسطة الإخوان وهلك شيطانهم أبو جميزة بالجدري. والخطابات المرفقة توضح تفاصيل تلك الإنتصارات ومنها ستعرف أنه لم تعد هناك أي قوة تستطيع الوقوف أمام أتباع دين الله. لذلك فأننا ننصحك بأن تكون عاقلاً وتنضم للمهدية وإلا فستعرض نفسك للدمار).

وضعت تلك الهزيمة عثمان آدم في موضع السيد على كل المناطق الغربية حتى تخوم واداي، وشلت لبعض الوقت كل محاولات القبائل المعادية للتجمع ضده من جديد. لكن أسماء الزعماء الذين ذكر بأنهم قتلوا في المعارك لم تكن (كلها) صحيحة. فقد نجا أبو الخيرات وأخوه عباس من المذبحة، وكذلك نجا المقدوم جمعة وحامد وآدم بوش وبابكر نجا. وقام هؤلاء، مع بضع مئات من أتباعهم بالإنسحاب لأقصي الغرب وأصبحوا مصدراً مستمراً للإزعاج لعثمان أدم. ولايزالون يشكلون نواة لحركة قد تتطور في أي وقت إلى صراع دام آخر مع قوات الخليفة.

وأصبحت الممالك القوية، واداي وبرنو وبرقو، وهي مرتع قوي للسنوسية، علي تخوم حدود الخليفة وأخذ يشعر، بأنه إن عاجلاً أم آجلاً، فأن من المحتم دخوله في صراع مع المصلح الديني الآخر، السنوسي الكبير.

وعين الكولونيل كتشنر الآن في وظيفة إدجوتانت جنرال للجيش المصري، وحل محله حاكماً عاماً لسواكن اللفتنانت كولونيل (قائمقام) هولد سمث والذي، بعد وصوله لسواكن في ١٣ سبتمبر، حل محل الميجر رندل.

***

الاستوائية في عام ١٨٨٩:

للمرة الثالثة وصل ستانلي إلى البحيرة يوم ١٨ يناير ١٨٨٩، وفي هذه المرة أقام معسكره في السهل الواسع المرتفع الذي يطل على الأرض المنبسطة بالقرب من قرية كفالي. وكان قد غاب هذه المرة حوالي تسعة أشهر. كان قد وصل إلي بناليا في السابع عشر من أغسطس ١٨٨٨ ليفاجأ بأن قائد جماعاتة الخلفية، الميجر بارتلوت قد قتل غيلة وغدراً، وأن المستر جيمسون قد سقط مريضاً بالحمى، وبقية الضباط معاقين، وأن معظم رجاله من الحرس الخلفي قد مات أو هرب.

وقام ستانلي بجمع من تبقي منهم، حوالي ٣٥٠ رجلاً لا غير، بقيادة المستر بوني .وتحرك فوراً يوم ٢٣ أغسطس (في طريقه للبحيرة). لكنه ولخمسة شهور عاني الأمرين من جراء اختراقه للغابة العظيمة.

وبعد يومين من وصوله إلي كفالي بعث برسائل إلي أمين باشا والمستر جفسون في تنجورو، واستلمها الأخير في ٢٦ يناير. وتحرك جفسون في اليوم التالي حيث، من خلال ولاء شكري أغا، قائد نقطة مسوا، والذي تمكن من تجهيز قارب محلي (كنو) له، نجح في شق طريقه إلى كفالي ووصلها في ٦ فبراير.

سمع الضباط المتمردون في وادلاى بوصول ستانلي لكفالي. وقد تضخمت الأقوال حوله، لتصور أتباعه، الذين جاءوا معه، كجيش عظيم. وكان أمين قد أصدر أمراً قبل ذلك (من تنجورو)

إلى سليم بك للحضور له فوراً مع ضباطه لمقابلة ستانلي. فتوجه سليم بك وبصحبته أربعة عشر ضابطاً* بالباخرتين نيانزا والخديوي نحو تنجورو. وعند وصولهم كتبوا خطاباً، بناء علي أوامر أمين، يعتذرون فيه عن سلوكهم السابق، ويلتمسون العفو، ويرجونه معاودة القيام بدوره كحاكم للمنطقة. ويبدو أن أمين باشا قد قبل اعترافهم العلني وتوبتهم وخضوعهم وساقهم معه، سليم بك وضباطه، إلى نسابي، والتي وصلها في ١٣ فبراير. وفي السادس عشر من فبراير أرسل المستر جفسون لمرافقتهم حتى المعسكر. ووصلت كل المجموعة المكونة من أمين وكاساتي وفيتا حسن وسليم بك، مع سبعة ضباط آخرين وعدد من التابعين، إلي معسكر ستانلي في كفاللي في اليوم التالي.

خلال تلك الأثناء كان ستانلي قد جلب كل مساعديه وأتباعهم الذين كانوا في منطقة مازامبوني. والآن وبعد أن وصل كل الضباط الأوروبيين فقد تقرر أن يتم إجتماع لهم في اليوم التالي للبحث في الأوضاع كافة.

وفي ذلك المجلس اتخذ قرار بالإجماع بضرورة تنفيذ أمر إخلاء المديريات (الاستوائية)، وأنه لابد من إتاحة وقت كاف للضباط وللجنود والموظفين لإحضار عوائلهم للمعسكر. وكان قد تم كتابة إتفاق بهذا الشأن من قبل في وادلاي وقام سليم بك الآن بتقديمه إلي المستر ستانلي، والذي قام بدوره بكتابة الرد، محدداً شروط وطريقة الانسحاب، وسلمه للضباط. عاد الضباط في السادس والعشرين من الشهر إلى مناطقهم بالبواخر بهدف الشروع في إخلاء النقاط والمحطات الجنوبية، والذي كان من المتفق عليه أن يتم قبل العاشر من أبريل.

وقبل قيامهم بقليل، تلقي سليم بك خطاباً رسمياً من فضل المولي بك، الذي كان قد تركه قائداً للقوات في وادلاي أثناء غيابه، يفيد بأنه قد أقيل من منصبه في القيادة، وبأنه قد صدر حكم عليه وعلي الباشا وعلي كاساتي بالإعدام. ويبدو أن سليم بك لم يعر هذا الأمر إهتماماً جاداً، أو ربما كان ذلك جزءاً من المؤامرة المدبرة، لأنه شرع على الفور في الإبحار إلى وادلاي ولم يسمع عنه أي شئ إلا بعد شهر من ذلك، في ٢٦ مارس، حيث كتب من هناك قائلاً أنه وكل الضباط جاهزون للعودة لمصر مع المستر ستانلي وأنهم الآن يقومون بإخلاء دوفللي.

وعندما نقل أمين باشا هذه الأنباء للمستر ستانلي عبر عن وجهة نظره بأن عملية التجمع في كفاللي يجب أن تستمر لثلاثة شهور أخرى وطلب من المستر ستانلي النصح حول طبيعة الرد الذي عليه أن يرسله. قرر المستر ستانلي عند ذلك عقد اجتماع لضباطه وخاطبهم في الاجتماع، بحضور أمين باشا، بما يلي:

---

* هذا التغيير المفاجئ في سلوك سليم بك وضباطه في وادلاي أدي إلي إثارة الإشتباه فيهم. فقد كان سلوكهم في الماضي أبعد ما يكون عن الولاء لدرجة أصبح من الصعب فيها التحقق من الدوافع التي أدت لهذا التغيير المفاجئ. فمن جانب فربما إنزعجوا للإشاعات الخاصة بتضخيم قوة جيش ستانلي وبالتالي قرروا الإلقاء بثقلهم مع الجانب الأقوى، أو ربما كان، وهذا هو الرأي الراجح، في نيتهم التآمر علي ستانلي والإستيلاء علي سلاحه وذخائره. وفي كافة الأحوال فيبدو أن سليم وجماعته كانوا ميالين للتجسس ومعرفة الأحوال علي الأرض قبل أن يقرروا إتخاذ الخطوة التالية وهذا ما أثبتته الأحداث بعد ذلك.

"أيها السادة – قبل أن تقدموا لي النصح في هذه المرحلة الهامة، أسمحوا لي أن الخص بعد الحقائق كما حدثت.

كان أمين باشا قد تلقي رسائل من وادلاي. فقد كتب سليم بك، الذي غادر هذه المحطة في ٢٦ فبراير الماضي، مع وعد منه بالإسراع في إرسال أولئك الذين يرغبون في العودة لمصر، كتب من وادلاي بأن البواخر مشغولة في ترحيل بعض الناس من دوفيللي إلى وادلاي، وبأن أعمال الترحيل من وادلاي وتنجورو سيتم إستئنافها عندما ينتهون من تلك المهمة.

فعندما غادرنا (٢٦ / ٢) علمنا بعدها بأنه قد أطيح به، وأنه وأمين باشا قد حكم المتمردون عليهما بالإعدام. لكننا في هذا اليوم نعلم (جميعاً) بأن المتمردين، وهم عشرة ضباط، وكل جماعتهم، يرغبون في التوجه لمصر. لذلك نفترض عموماً بأن جماعة سليم بك قد عادت إلي الصعود مرة أخرى.

"وقد قام شكري أغا، رئيس محطة مسوا الأقرب إلينا، بزيارتنا في منتصف مارس. وتم إخطاره يوم ١٦ مارس، أي في اليوم الذي رجع فيه، بأن قيامنا لزنجبار قد يبدأ فعلاً في العاشر من أبريل، وأخذ معه خطابات عاجلة لسليم بك توضح تلك الحقيقة بصورة لا تقبل الشك".

وبعد ذلك بثمانية أيام سمعنا بأن شكري أغا لا يزال في مسوا ولم يرسل إلا بعض الرجال والأطفال إلى معسكر نيانزا. ولو كانوا ينتوون، هو ورجاله ومن معه، الذهاب بصحبتنا، لكانوا معنا الآن.

وقبل ثلاثين يوماً كان سليم بك قد فارقنا بعد أن وعدنا (بالحضور) في وقت معقول. واعتقد الباشا مرة بأن عشرين يوماً هي وقت معقول، لكننا مددنا الفترة إلى أربعة وأربعين يوماً. وبتدقيق النظر في المدة التي استغرقها سليم بك، ليصل فقط إلى تجورا مع واحد علي ستة عشر من القوة المتوقع وصولها، فأنني شخصياً مستعد تماماً الآن لأوضح للباشا قراري الذي اتخذته. إنكم تعلمون، يا سادتي، بأن الباشا قد سمع إفادة إستخبارية مشجعة جداً من سليم بك، وهو الآن يرغب في معرفة قراري لكنني فضلت أن أجمعكم لتجيبوا نيابة عني.

إنكم علي علم بأن تعليماتنا التي علينا تنفيذها هي أن نوصل النجدة لأمين باشا، ثم حراسته ومن يود القدوم معنا حتى نوصلهم لمصر.

وقد وصلنا إلى نيانزا والتقينا أمين باشا في أواخر أبريل ١٨٨٨، بالضبط قبل عام من الآن، وسلمناه رسائل الخديوي وحكومته وكذلك الدفعة الأولى من المدد، وسألناه إن كان سيمنحنا الشرف بأصطحابنا لزنجبار. فأجاب بأن رأيه يعتمد علي ما يقرره رجاله.

كانت تلك أول الأخبار السيئة التي تلقيتها. فبدلاً من لقاء عدد من الناس تواقين بشدة لمغادرة إفريقيا لم نجد إلا حفنة من الكتبة المصريين ممن يود ذلك. كان الميجر بارتلوت بعيداً عنا في المؤخرة ولم يكن بمقدورنا انتظار وصول قراره لنا في نيانزا، لأن ذلك قد يستغرق عدة أشهر، وكان من المجدي لنا أن نشرع في البحث عن طابورنا الخلفي ومساعدته. وفي الوقت الذي وصلنا هنا مرة ثانية وجدنا أن الذين يريدون الذهاب لمصر جاهزون تماماً.

لذلك قمنا، بعد أن تركنا المستر جفسون لحمل رسالتنا لقوات الباشا، بالعودة لإقليم الغابات، حيث طابورنا الخلفي. وبعد تسعة شهور عدنا إلى نيانزا ثانية. وبدلاً من أن نجد فيها

معسكراً مكتظاً بالذين هم تواقون لمغادرة إفريقيا، لم نجد أي معسكر علي الإطلاق، وسمعنا بأن الباشا والمستر جفسون في السجن، وأن حياة الباشا تتعرض لخطر داهم من قبل المتمردين، وفي مرة أخرى سمعنا أنه في خطر بتعريضه للتقييد والتكبيل وحمله علي سريره إلى أعماق مجاهل مكاراكا. وسرت الأقاويل في المديرية بأننا لسنا سوي جماعة من المتآمرين والمغامرين، وأن خطابات الخديوي ونوبار باشا ما هي إلا فبركة وتزييف قام بها المسيحيون التافهون ستانلي وكاساتي، بمساعدة من محمد أمين باشا. وقد تاه المتمردون عجباً وزهواً، لانتصارهم السهل وبدون دماء، علي الباشا والمستر جفسون لدرجة أنهم تباهوا علناً بعزمهم على الإيقاع بي، بالتودد إلي بالكلمات المعسولة المنمقة، ثم بعدها تجريدنا من أي شيء لدينا وإلقائنا وسط الأدغال حتى نموت. ولا أري داعياً للحديث عن جحود هؤلاء الرجال وعدم عرفانهم، ولا عن جهلهم المدقع أو طبعهم الشرير، بل أقدم فقط الحقائق لكم لتساعدكم علي الوصول للقرار الواضح.

لقد اعتقدنا، عندما تطوعنا للقيام بهذه المهمة، بأننا سنستقبل بأذرع مفتوحة. لكننا قوبلنا باللامبالاة حتى شككنا في صحة رغبتهم للمغادرة. لقد سجن ممثلي وهدد بالبنادق وإستخدم الوعيد والتهديد بحرية معه. ولقد أقيل الباشا ولمدة ثلاثة شهور كان سجيناً منعزلاً. ولقد علمت بأن هذا هو التمرد الثالث في المديرية. حسناً. ففي وجه كل هذا ظللنا لمدة أثني عشر شهراً في الانتظار لنحصل في النهاية علي بضع مئات من الرجال من غير حاملي السلاح ومن النساء والأطفال في هذا المعسكر. وكما وعدت سليم بك وضباطه بأنني سأعطيهم وقتاً معقولاً، فإنهم كرروا مراراً لنا بأنه لن يكون هناك أي تأخير، وقد حدد الباشا العاشر من ابريل كموعد نهائي، مما زاد من المهلة المحددة لهم حتى وصلت إلى أربعة وأربعين يوماً، وهي مدة تكفي لأن تقوم البواخر بثلاثة رحلات ذهاباً وأياباً.

لكن الأنباء التي جاءتنا اليوم ليست بأن سليم بك قد وصل إلي مكان قريب، بل أنه حتى لم يغادر وادلاي إلي الآن. وبالإضافة إلي أصدقائه المقربين، والذي يقال بأنهم موالون له ومطيعون، فأنه سيحضر معه الضباط المتمردين العشرة وحوالي ٦٠٠ أو ٧٠٠ جندي من الموالين لهم.

وإذا تذكرنا الثورات الثلاثة التي كان وراءها أولئك الضباط، ونواياهم المعلنة ضد حملتنا هذه، ومؤامراتهم ومؤآمراتهم المضادة، وحياة الإجرام والتآمر التي قادرها، وخياناتهم وهم يبتسمون، فلابد لنا من التوقف لنرى ماذا يدور بخلدهم الآن – فمن كونهم كانوا متمردين فوضويين وقفوا ضد كل السلطات المؤسسية تحولوا فجأة إلى جنود مطيعين وموالين للخديوي وللحكومة "العظيمة". لذا فعليكم أن تكونوا عارفين بأنه، وبخلاف الواحد وثلاثين صندوقاً من الذخيرة التي سلمناها للباشا في مايو ١٨٨٨، فأن المتمردين لديهم ذخائر الحكومات الإقليمية التي تعادل عشرين صندوقاً مما لدينا. وإن أعطيناهم قدراً من الذكاء تجعلهم يفهمون تماماً بأن كمية كهذه قد تطلق في ساعة واحدة من القتال مع عدد كبير من حملة البنادق، فلا شك في أنهم (بذلك القدر من الذكاء) سيظهرون الخضوع والولاء لنا حتى يؤمنوا الحصول على المزيد (من الذخائر) مننا.

"ورغم إبتهاج الباشا في كل مرة يتلقى فيها رسائل معقولة من أولئك الناس، والغرباء أيضاً مثلنا، فلابد لنا من أن نغفر له عدم ثقته بهؤلاء الرجال والذين لديهم كل ما يوحي بعدم الثقة فيهم. ولو كان لدينا أي ضمان لحسن نيتهم فربما كنا لن نعارض تسليمهم كل ما يطلبون، ولكن بعد إذن الباشا. وهل بامكاننا التأكد بأننا لو سمحنا لهم بالدخول لمعسكرنا، كأصدقاء حميمين وكجنود مخلصين لمصر، فأنهم لن يقوموا ذات ليلة فجأة ويستولون على كل ذخيرتنا ويحرموننا من القدرة على الوصول لزنجبار؟.

"سيكون ذلك أمراً سهلاً بالنسبة لهم، بعد أن عرفوا تماماً ما يدور بمعسكرنا. فعندما ندرك ونتذكر غرائب الأخبار التي ذكرها لنا المستر جفسون بالأحوال التي سادت في المديرية منذ أن قفل طريق النيل (بواسطة الأنصار)، ونري الباشا هنا أمام أعيننا، والذي كنا نفترض بأن له عدة آلاف من الرجال خاضعين له، لكنه الآن بدون أي أتباع ذوي أهمية تذكر، وعندما نضع في أذهاننا " التودد الكاذب" و "الخداع" الذي كان من المفترض أن نقع في شراكه، فأنني أطلب منكم التعقل عند النظر في مد المهلة بانتظارهم لما بعد الموعد المحدد، ألا وهو العاشر من أبريل".

كان قصد المستر ستانلي من مخاطبتهم، بهذه الصورة، واضحاً. فقد كان يخشى من قيام الضباط المتمردين مرة أخرى بالتحضير لمؤامرة للوقوع في حبائلهم. وقد أتفق جميع ضباطه معه في وجهة نظرة.

وتقرر بصورة قاطعة أن تبدأ المسيرة نحو الساحل في العاشر من أبريل وأرسلت الرسائل بهذا المعنى للقادة في وادلاي ومسوا.

وفي الرابع من أبريل جاءتهم رسائل من وادلاي تصف أحوالهم هناك بكل الصفات ما عدا أن تكون مرضية. فقد كان تجميع القوات من المحطات الشمالية يسير ببطء شديد. وكانت الخلافات بين الضباط وبين كل رموز التمرد السابقين ظاهرة للعيان في وادلاي وأصبح واضحاً أنه لا سليم بك ولا رجال الحامية سيصلون في الموعد المحدد للرحيل. وفي تلك الليلة، الرابع من أبريل، جرت محاولة لسرقة بعض بنادق الزنجباريين.

وهنا، في قلب المعسكر نفسه، بدا أن روح التمرد قد تسللت إليه. لكن ستانلي كان يقظاً للقضاء علي الفتنة بكل قوة. وفي اليوم التالي جمع قواته في مرع، وأمر كل من كان بالمعسكر ممن ينتمي للمديرية بالحضور، وأمر بطرد كل من أظهر تردداً في تنفيذ الأمر بالقوة. وعندما اكتمل التجمع خاطبهم ستانلي وشرح لهم بوضوح ما حدث، وأظهر عزمه على إنزال أقصى عقوبة علي من يقوم بأي مظهر يدل علي التردد في تنفيذ أوامره. ثم نادي الذين يودون العودة مع أمين باشا إلي الساحل ليقفوا في جانب واحد. وقد أبدوا كلهم، ما عدا واحداً منهم، رغبتهم في الذهاب بصحبته. وتم إلقاء الرجل غير الراغب في السجن فوراً. هذا التصميم والحزم للتعامل مع أول إشارة للتحريض علي العصيان أدت إلى تجنيبهم أوخم العواقب، لكنها ثبتت قرار ستانلي لعدم التأخير ولو ليوم واحد عما هو مقرر. وبالتالي، وفي العاشر من أبريل، تحركت كل الجموع والقوات، المكونة من حوالي ٦٠٠ مصري وغيرهم من المديرية الاستوائية، بمن فيهم نساءهم وأطفالهم، وطابور الإنقاذ المشترك، وعدد من الحمالين، وبلغت جملة المغادرين ١٥٠٠ نسمة، خرجوا جميعاً من كفالي ووجهوا وجوههم نحو الشرق في زحفهم الطويل باتجاه زنجبار.

وقبـــل مضي بضعة أيام علي تحركهم تعـــددت حالات الفرار وتغيير الرأي في التوجـــه للساحل. فقد رجـــع ريحان ومعه ٢٢ من أتباعه إلي البحيرة، لكن تم اعتقاله وأعيد للمعسكر حيث تم شنقه.

لكن مرض ستانلي الخطير أدي إلى تعطيل المسيرة لعدة أيام في مازا مبوني، وعندما كانوا هناك، في الثالث من مايو، تم اعتراض رسائل من وإلى وادلاي، والتي أظهرت أن شـــرارة العصيان لا زالت متوهجة في المعسكر. فقد كتب ضابط، هو إبراهيم أفندي إلهـــام، والـــذي كـــان وقتذاك بالمعسكر، خطاباً يرجو فيه عدم تأخير إرسال الرجال لهم، "لأننا لو تمكنا من الحصول علي مساعدتهم فيمكننا بعدها تعطيل المسيرة بعدة طرق. لكنك إذا جئت بنفســـك مـــع ٢٠٠ عســـكري فسنتمكن من الحصول علي كل ما تريده وأريده".

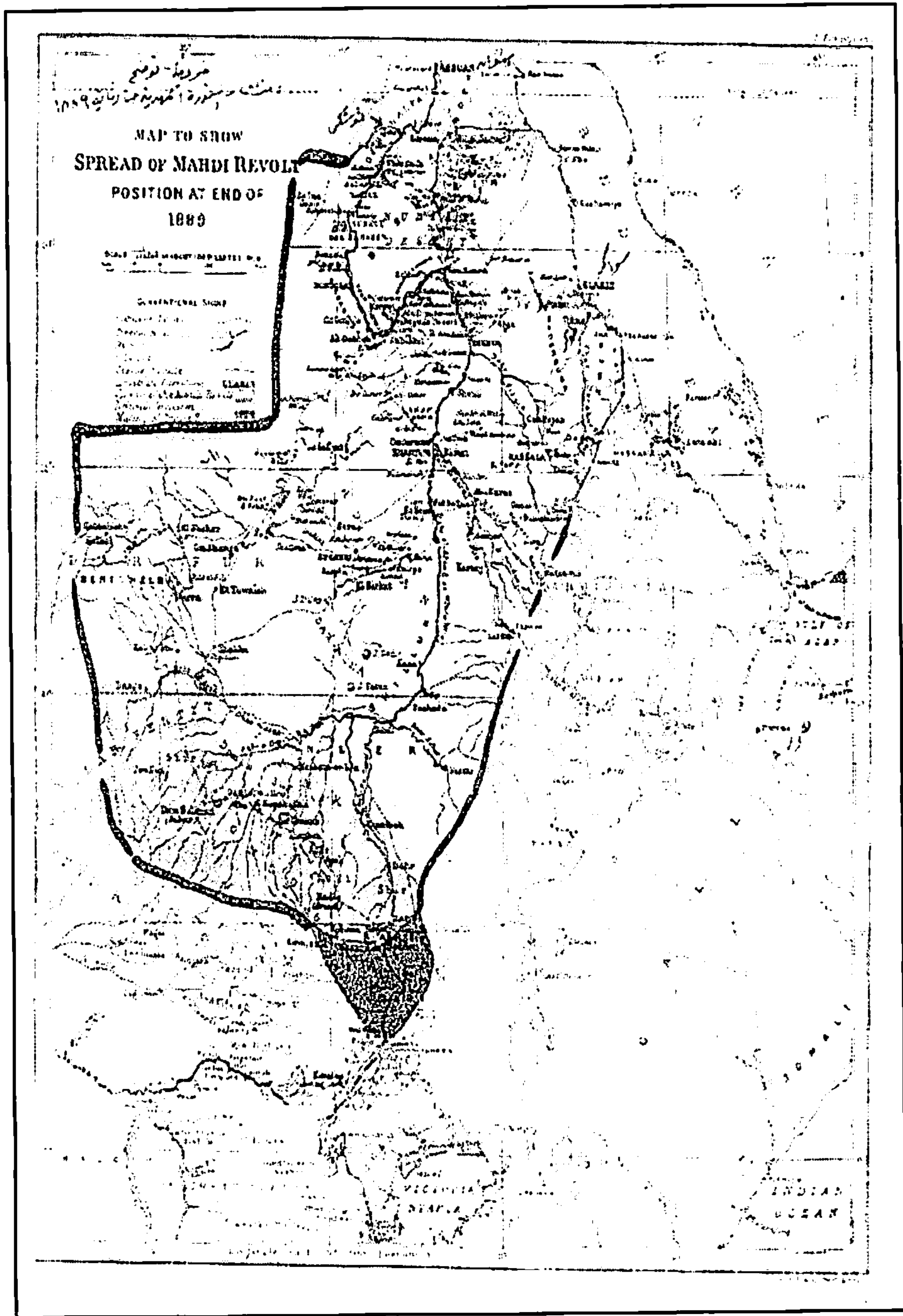
لذلك إتخذ ستانلي قراراً بأنه إذا ما وصل سليم بك بعد كل ما جري، فأنه لن يسمح له ولا لرجاله بالدخول للمعسكر بسلاحهم. لكن سليم بك لم يصل أبداً. أما شكري أغا، القائـــد المخلـــص لمسوا، فقد عاد، ولكن رجاله الذين جاءوا معه هجروه قبل أن يصل لمعسكر ستانلي.

وفي الثامن من مايو تحركت الحملة أخيراً من مازامبوني. ومنذ تاريخ صدور الأمر الأول بالانسحاب من الاستوائية، أي ٢٥ فبراير، وحتى الثامن من مايو، وجملة المدة ٩٢ يومـــاً، كـــان وقت كاف قد أتيح للحاميات للإنسحاب والإلتحاق بالحملة المتوجهة لزنجبار. لكنهم لـــم ينتهـــزوا فرصة ذلك العرض، أو بالأحرى كان الخلاف مترعرعاً بينهم لدرجة استحالة وصول الضباط لقرار محدد. بالتالي بارحت الحملة مازامبوني في الثامن من مايو وفي نفس عصر ذلك اليوم وصل رسل من سليم بك مع خطابات مفادها بأن عصياناً آخراً قد أنفجر في وادلاي مما أدى لشل كل جهـــوده لتنفيذ أوامر ستانلي. كان فضل المولي بك هو العدو اللدود له، فقد قام بتحريض معظم القوات علي العصيان، وقام معهم، في ظلمة الليل الداهم، بالتسلل إلى المخازن واستولوا علي كل ما بها مـــن ذخيرة تم غادروا وادلاي إلى مكاراكا تاركين سليم بك مع ٢٠٠ من الضـــباط والكتبـــة والجنـــود، ومخازن خاوية فارغة. وقام (سليم بك) بالتوجه مع ذلك العدد القليل من أتباعه إلى مسوا في ٢٢ أبريل. لكنه تعطل هنا مرة أخرى، وهو الآن يسأل (ستانلي) لإيقاف الحملة ريثما يصل إليه.

ومن تجاربه السابقة معه، قرر ستانلي عدم التوقف، لكنه سيتحرك ببطء وربما يتوقـــف لبضعة أيام علي الجانب الآخر لنهر سمليكي. فإذا رغب سليم بك في الحضور حقاً، فأن بمقـــدوره اللحاق بهم بسهولة. وهذا كان الرد الذي حمله الرسل معهم عائدين له، وفي نفس الوقت كان هذه آخر اتصال بين من تبقي من المصرين في الإستوائية وبين حملة الإنقـــاذ، والتـــي واصـــلت الآن مسيرتها ببطء شاقة طريقها للساحل حيث وصلوا إليه في السادس من ديسمبر بعد سلســـلة مـــن المغامرات الغريبة والإكتشافات التي كان من أهمها قاطبة إكتشاف منابع النيل ، وإكتشـــاف جبـــل رونزورى العظيم المكلل رأسه بالجليد، وبحيرة ألبرت إدوارد نيانزا ونهر سمليكي- الذي يصب في بحيرة ألبرت وهي اكتشافات لا يمكن تقدير مدى أهميتها. لكننا لا ننوي الدخول في تفاصيل رحلـــة العودة هذه لزنجبار. يكفي أن نقول بأن ذلك الطابور الضخم قد وصل لمبتغاه بنهاية العام بعـــد أن تقلص عدده كثيراً.

تم ترحيل المصريين فوراً للقاهرة. وقد أستغرق المشروع الذي قامت به حملة الإنقاذ (لإخراجهم من الإستوائية) قرابة الثلاثة سنوات قطعوا فيها عبر القارة أكثر من ٦٠٠٠ ميل. لقد كان عملاً رائعاً بالفعل، وسيدخل لحوليات التاريخ كأعظم إنجاز مسجل. أما عند سير الحوادث في الإستوائية بعد ذلك فلا يعلم أي شيء ولكن يمكن افتراض أن المديرية قد رجعت إلى ما كانت عليه من البربرية والبدائية. وربما كان المهدي قد ضم، أو لم يضم، هذه الأقاليم لمملكته الواسعة. لكن الأمر الأكثر احتمالا هو أن تعمل القبائل الزنجية، التي توجد في ذلك الإقليم الشاسع، والتي جزِبت من قبل تجار الرقيق العرب، ما في وسعها للحفاظ علي حريتها حتى يأتي اليوم الذي تصل فيه إليهم القوى الأوروبية وتسبغ عليهم الحماية وتفتح أبواب تلك الأراضي الشاسعة للتجارة والأعمال الأخرى.

***


MAP TO SHOW
SPREAD OF MAHDI REVOLT
POSITION AT END OF
1889

الخاتمة

لأسباب واضحة، فأن الوضع الحالي لمجري الأحداث في السودان، ومختلف الوسائل المتخذة لمنع حدوث غزو (آخر) لمصر، إنما تدخل في باب الخطط غير المكتملة أو المسائل السياسية الجارية، والتي لا نود الدخول فيها. إنما يتبقى لنا فقط أن نعطي صورة وصفية للظروف التي يحكم فيها السودان، ولنورد فكرة عن سير الأحداث حالياً فيه، حتى يتمكن القارئ، من المعلومات التي أوردناها في أقسام الكتاب، من متابعة مجري الأحداث الراهنة وأن يستقرئ ما سيجري فيه في المستقبل.

فلازالت سلطة الخليفة هي العليا في السودان. ولكن كم تغيرت عما كانت عليه في الأيام الأولي لمحمد أحمد!

فعندما شرع الأخير في (تنفيذ) رسالته المقدسة، كانت ظروف السودان ناضجة للثورة ومهيأة لها. كان الحكم فاسداً في كل مكان منه، إزدهرت الثورة في أرض خصبة. كانت القبائل والأهالي يعانون معاناة قاسية من طغيان حكامهم الأجانب، وبالتالي رحبوا بالمهدي المنتظر والذي كان سيحررهم ويمكنهم من أن يكونوا مرة أخرى المالكين لأراضيهم. ولحوالي سنة، على الأكثر، إزدهر المدعي وصدقت الغالبية العظمي من الناس بأن المهدي الحقيقي قد ظهر أخيراً. وبمرور الزمن رأوا قائدهم الروحي ينحدر إلي الإفراط في الغواية ويقاد مغمض العينين بواسطة كبير خلفائه، عبد الله التعايشي، والذي حكم البلاد بيد من حديد مدعوماً من البقارة البالغي القوة. وبدلاً عن مملكة دينية يعيش الناس فيها بسلام، حيث تكون الثروة مشاعة والفقر غير معروف، وجدوا أن بلادهم تنحدر نحو دولة للظلم والطغيان.وملأ السلب والنهب وسفك الدماء والرعب أرجاء البلاد.

حاولت قبيلة بعد أخرى التخلص من قميص نيسوس المعلق برقبتها، ولكن القوة التي بنوها عن جهل منهم تحولت الآن إلي شبح ضخم أرهبهم ودمرهم. وكلما حاولوا طرد ذلك الكابوس البشع كلما ازداد الضغط عليهم حتى تحولوا إلي عبيد أذلاء للنظام. وسقط زعماءهم ضحايا لقسوة ووحشية حاكم شرقي يتميز بطباع غاية في الخسة والتسلط. وتدهورت أحوال أسر بأكملها لتصبح عبيداً لأمراء البقارة القساة. ولا يجرؤ أي شخص علي إعتبار أن روحه ملك له، وإذا تجرأ وتحدث حديثاً خاصاً مع أصدقائه فدائماً ما يوجد من يراقبه وينقل ما دار إلي سيده، وتكون العقوبة هي الموت أو قطع أحد الأطراف. فما العجب في أن تحن القبائل لعودة حكومة، مع كل أخطائها، لم تعاملهم أبداً بهذه الصورة؟ لكن صرخة الكرب والأسى لم تأت منهم إلا متأخرة كثيراً، وكان الرد الثابت والصحيح للحاكم المنبوذ (مصر) كان:" عليكم تحرير أنفسكم من الحاكم الذين صعدتموه قبل أن تأملوا بأنني سأضعكم مرة أخري تحت حمايتي".

لقد كنتم مصدراً للمشاكل لي وللنفقات الباهظة، فلماذا تتوقعون مني عونكم في الوقت الذي قمتم فيه، وبكامل إرادتكم، برفضي؟". ولا يوجد رد على مثل ذلك السؤال. وبالتالي سيستمر الحال علي ما هو عليه حتى يجئ الوقت الذي يبسط (السيد القديم) حمايته مرة أخري علي عياله الجامحين.

ولازال حكم البقارة المرعب قائماً. لكن كل هذا القهر وسفك الدماء قد تسبب في إضعاف قوة الخليفة. وحتى البقارة المرعبين تعبوا من الحروب المتواصلة. وقبل بضعه شهور نشب تمرد وسطهم أدى إلي فرار ٣٠٠٠ رجل منهم وعودته لدياره. وتكررت الإشاعات بأن الخليفة أصبح يكرر حديثه عن الرؤى التي تخبره للقيام (لهجرة) إلي جزيرة أبا أو إلي جبال جنوب كردفان وذلك في وقت لم يعد فيه مستبعداً نشوب ثورة ضده. ومن الناحية الأخرى فأنه من المبكر أن نفترض بأن قوته قد ضعفت للدرجة التي تجعل من "هجرته" أمراً ضرورياً. وما عدا بعض الإشارات الواردة عن الأحوال، وحنين القبائل وتوقهم ليروا أنفسهم أحراراً مرة أخرى، فلا توجد أرضية قوية للإعتقاد بأن إنهيار المهدية قد أصبح وشيكاً. وترد (إلينا) من وقت لأخر تفاصيل تتعلق بحكم الخليفة في أم درمان مما يعطي صورة لطبيعة الطغيان والعشوائية التي تجسدها الخلافة الحالية.

ولكن وقبل الدخول في هذا الموضوع فربما يكون أمر إعطاء وصف موجز للخليفة عبد الله التعايشي، من ناحية مظهره الشخصي، مثيراً للإهتمام. فيقال بأنه رجل فارع القامة، متين الجسم وعمره حوالي خمسين سنة. بدأ لون شعره يتحول للرمادي، ويلاحظ علي وجهه أثر الجدري. له لحية كبيرة وشارب خفيف. وكان قد أصيب برصاصة في فخذه عند حصار الأبيض جعلته يعرج عرجاً خفيفاً. وهو فخور بالجرح الذي أصابه ويحكي كثيراً كيف حدث له ذلك، مثلما يتحدث عن شجاعته الشخصية. وهو يجهل القراءة والكتابة ويقال إنه شديد الجهل لكنه ذو عزيمة ومضاء ومتمكن جداً من أساليب الخداع والتحايل. وكما عبر عنه أحد الذين يعرفونه جيداً:"إنه ماكر كثعلب". وهو شديد الخيلاء والزهو بنفسه، ويشتعل غضباً عند أقل ذكر لسيرة أي شخص أقوي منه. هذا الخيلاء أدي إلي استغفاله كثيراً. وكمثال لذلك: يقال أنه كثيراً ما يلقي بالناس في السجن إذا ما أذاعوا أقاويل عن تفوق أعدائه وقوتهم. أما إذا أعترف السجين بأن قيوده وأغلاله ما هي إلا رمز للشرف الذي أسبغه الخليفة العادل عليه، فأنه يطلق سراحه فوراً. وأي معارضة لإرادته تعني الموت. لكن التماشي مع غروره، يؤمن الكثير.

وقد أشرنا كثيراً إلي النظام (الجديد) الذي بدأه المهدي، والذي واصله بدون رحمة خليفته، بتدمير أي معارضة، وتركيز كل الثروات بعملية الغنيمة*. وكمثال آخر لذلك الأمر ما حدث لقبيلة الشكرية مؤخراً، كما ذكره أثنان من قادتها المهمين الذين هربوا قريباً من السودان. فهذه القبيلة العظيمة، التي تنتشر في مناطق واسعة بين النيل ونهر عطبرة، والتي تمتد لمسافات بعيدة للشمال والجنوب من الخرطوم، تكاد أن تكون قد أندثرت الآن. ففي عام ١٨٨٠ كان عدد أفرادها يقدر بحوالي٤٠٠٠ رجل يمتلكون حوالي ١٠٠,٠٠٠ جمل. وكانوا الوسائط في نقل تجارة السودان. ولم ينضم للمهدية من رجالها المهمين سوي عدد قليل عند أول نشأتها لكن معظم رجالها أظهر فتوراً تجاهها مما ترتب عليه إستدعاء قادتها وشيوخها للخرطوم حيث تم سجنهم أو إعدامهم. أما رجالها فقد نزع سلاحهم وسيقوا بالقوة للانضمام لرايات المهدي، ودمر نظامهم القبلي وصودرت جمالهم وضمت ممتلكاتهم لبيت المال. ويقال أنه لم يتبق من رجالها الآن سوي

* رغم أن المؤلف كتبها بالحروف الإنجليزية (ghenima) إلا أن المترجم التابع له ترجمها (الغنيمة هي سوق القبائل كقطيع من الغنم)"المعرب".

١٠٠٠ رجل وبضع مئات من الجمال. وهذه ليست إلا حالة واحدة من كثير، وتشير بوضوح إلـــي استحالة قيام القبائل المعادية للمهدية بعمل مشترك، غير مدعوم، ضد حكم الخليفة. ولا شك في أن أهل السودان قد تعبوا من سوء الحكم والطغيان اللذان يسودان الآن، وقد يقومون بسرور بالترحيب بأي صورة للحكم المستقر. ولكنهم بعد تدمير نظامهم القبلي، وتهجير قبائل بأكملها وإخلاء مناطق شاسعة من سكانها، فأن من المستحيل عليهم، في الوقت الحالي، التخلص من ذلـك النيـر الـذي يقهرهم بعنف. لكنهم سيلقون بثقلهم دون شك مع أي قوات غازية (للسودان) في وقت واحد مـع نجاح تقدمها. لذلك يمكن أن نصف الخليفة عبد الله بالحاكم الطاغيـة المسـتبد، الشـديد الجهـل واللامبالي بكل النظم والقوانين المعروفة في الحكومات المنظمة.

أما حياته الشخصية فلا تقوم علي ما يظهره لأتباعه من ورع وروح عالية للتدين مـلأ بها منشوراته وإعلاناته وعظاته. فله حوالي ٣٤ زوجة أحداهن كلتوم إبنة محمـد أحمـد. وقـد خصص أحد أتباعه الموثوقين لمهمة البحث عن النساء الجميلات من أي مكان. وبعد أن يقدم لـه تقرير بذلك يتم نصح زوج المرأة المرغوبة سراً بطلاقها، ثم يتم إحضارها للخليفة. وأي محاولـة للتملص من هذا الأمر ستترتب عليها إعدام الزوج التعس فوراً. وتتم حراسة النساء فـي الحـريم بعناية ودقة ولا يسمح لهن بزيارة والديهن أو للتحرك بحرية أو أن يخرجن من المنزل إطلاقاً.
ولا يسمح لأحد بالنظر إلى وجه الخليفة. وإذا ما جاء إليه أي أحد، فأن عليه عند الدخول إليـه أن يتقدم بيديه ورجليه وعيونه مثبتة على الأرض، لا يجرؤ على رفع رأسه. وعندما يصل بالقرب منه فعليه الاحتفاظ بنفس الوضع، بعد وضع سيفه علي الأرض بجانبه. وطريقة المخاطبة تبدأ دائماً "يا سيدي". وعندما تنتهي المقابلة يسمح له بالنهوض وتناول سيفه، ولكن رأسه يكون مطاطأ وعيونه مثبتة علي الأرض عند تراجعه للخلف. وعندما يعتلي الخليفة المنبر في الجامع الكبيـر لمخاطبـة الناس فأن الجميع يجبرون علي إحناء رؤوسهم وإرخاء عيونهم أثناء حديثه.

ولعلنا نذكر كيف كاد الخليفة محمد شريف، عقب وفاة المهدي في عام ١٨٨٥، أن ينجح في ثورته التي قام بها من أجل تولي أبناء المهدي سدة الخلافة، وكيف تمكن الخليفة عبد الله سراً، وبدهاء شديد، من جمع كل الأسلحة في الخرطوم مما أدى إلى الإنهيار الكامل لتجمـع المعارضـة الوليد. ومنذ وقت قريب جرت محاولة أخري لتصعيد مطـالب أبناء المهدي ولكن في هذه المـرة كان الخليفة علي ود حلو هو الذي إستجمع شجاعته وقام بالمحاولة. وكان فشله أعظم من فشـل محمد شريف. فقد عقد اجتماعاً سرياً للتباحث في أمر الأسلوب الذي سيتخذ لتنفيذ مأربه لكن أحد الذين إئتمنهم علي السر، وهو أحمد شرفي، الذي كان مسئولاً عن رعاية أسـرة المهـدي، أبلـغ الخليفة عبد الله فوراً بمخططـات علي ود حلـو وعلي الفور قام الخليفة عبد الله بإصـدار أمـر لنزع سلاح كل رجال علي ود حلو، والذين يتكونون من أعداد كبيرة مـن رجـال دغـيم وكنانـة واللحويين والبطاحين. وبذلك تمكن عبد الله من تقليص وضع الخليفتين المنافسين له إلي مجـرد وضع رمزي. وحتى يضمن الاحتفاظ بالخلافة في أسرته، فقد قيل بأنه تلقي، في رؤيـا مقدسـة، تعليمات بالمناداة بأخيه يعقوب كخليفة له.

يعقوب محمد هو رجل قصير مربوع القامة، داكن اللون، ووجهه مبقع بآثار الجدري. وعظام وجنتيه بارزة وعيونه عميقة، وعمره الآن حوالي خمسة وأربعين سنة. وليست له سمعة عالية كمقاتل لكنه يتميز بالدهاء وقوة الحيلة. وهو القائد العام لكل قوات الأنصار رغم أنه لا يبارح أم درمان إطلاقاً. ويحظى يعقوب بثقة أخيه المطلقة وهو مسئول عن بيت المال وبيت الأمانة وفيهما يتم تخزين كل الأسلحة والذخائر.

ويقال بأن من غير الممكن الوصول إلي الخليفة عبد الله إلا عن طريق يعقوب، وهو مستشار الخليفة في كل الحملات المقررة، وكل الجواسيس الذين يرسلون لمصر وإلي مناطق البلاد المختلفة إنما يرسلون بأمره. وهو يجيد القراءة والكتابة ولا يفارق أخيه، ويصحبه، في كافة المناسبات.

من هنا فأننا نري أن عائلة المهدي، في الوقت الحالي، قد أبعدت تماماً من أي احتمال لتولي الخلافة، بالرغم من أنهم، بدون شك، مصدراً لقلق الخليفة عبد الله. لقد ترك المهدي بعد وفاته ثلاثة أبناء وثلاثة بنات* وزوجتين، بجانب عدد ممن يسمين بالزوجات والسريات. وكان عدد السريات يصل إلي ١١٠ أمرأة لكن العدد تقلص الآن إلى حوالي سبعين. يطلق علي نسائه (أمهات المؤمنين) رغم أن معظمهن لم ينجبن أطفالاً. وبعد موت المهدي فأنه لا يسمح لهن بالزواج مرة أخرى.

***

ولقد تم تناول نظام العسكرية في سودان المهدية من قبل. لكن بعض الملاحظات الإضافية قد تكون مثيرة للإهتمام. فنواة جيش الخليفة مكونة من البازنقر، أو كما يطلق عليهم في السودان"الجهادية" أو "النظاميين". وجميعهم مسلحون بالبنادق وهم في معظمهم من الزنوج. أما مقاتليه من حملة السيوف والحراب فيتكونون أساساً من العرب من مختلف القبائل. ولكن أكثرهم حظوة بالثقة هم عرب التعايشة والهبانية. وأساساً كانت جهادية المهدي تضم قدامي جنود الحكومة ولكن تم تدريجياً إحلالهم بجنود من الأقاليم الجنوبية والذين تفوقوا عدداً عليهم الآن بمعدل ثلاثة إلى واحد. ولم يسمح لأي من الجنود المصريين القدامى (الفلاحين) بالإنضمام للجيش، بل كانوا يعينون للعمل كطباخين وخدم أو حمالي مياه. ويبدو أن الخليفة كان يدرك شيئاً فشيئاً القيمة القتالية للجنود السود، وأصدر مؤخراً أمراً بألا يباع كعبد أي أسود قوى البنية، وكان يدفع حوالي

---

* تعليق للمعرب: بالطبع فأن ما ذكره ونجت بلهجة التقرير، وليس الظن أو الشك، إنما يدل علي نوع من الغرور وربما الجهل أكثر منه ضعفاً في معلوماته الإستخبارية. لقد ترك المهدي عشرة من البنين بعد وفاته هم السادة ١) محمد شهيد كرري ٢) الصديق شهيد أم دبيكرات ٣) الفاضل شهيد الشكابة ٤) البشري شهيد الشكابة ٥) عبد الله شهيد السل بالسجن ٦) الطاهر شهيد السل بالسجن ٧) نصرالدين شهيد السل بالسجن ٨) الطيب شهيد السل بالسجن ٩) علي وعاش بأم درمان وتوفي عام ١٩٤٣ ١٠) عبد الرحمن وقد ولد بعد وفاة الإمام المهدي بأسابيع قليلة وهو الذي جدد المهدية وكان قد جرح في الشكابة، وهو صبي يافع، عند مقتل أخويه. كما ترك المهدي عشرة من البنات هن السيدات زينب، أم كلثوم، نور الشام، أم سلمه، عائشة، مريم، نفيسه، زهراء، قمر، وأمنه محمد أحمد المهدي. أنظر جراهام وإزماي توماس، دار لاما للنشر بلندن، كتابه عن "صور من حياة السيد عبدالرحمن المهدي) أغسطس ١٩٨٦ باللغتين العربية والإنجليزية.

ثلاثين ريالاً عن كل واحد منهم صالح للجندية. ويتم وشم كل السود الذين جندوا حديثاً بكلمة "عبد الله" على اليد اليسرى.

وليس هناك زى خاص بالجنود. وكانوا كلهم يرتدون زياً مثل ما يرتديه الرجال الآخرين. ويتكون الزى من:

- الجبة، وهي قميص طويل يصنع من الدمور ومرقع برقع ذات ألوان مختلفة.
- السروال
- الصندل
- الكرابة (حزام من السعف)
- الطاقية
- العمة
- السبحة

ويتسلح العربي بالسيف، وحربة طويلة (الكبس)، وأربعة حراب صغيرة(طبيق)، وسكين أو خنجر صغير.

ولا يوجد تنظيم موحد للخيالة (الفرسان). فعدد معين من العرب هم ممن يمتلكون الخيول. وإذا دعت الحاجة إلي عدد من الخيالة، فأن أمراً يصدر لأصحاب الرايات بأن يوفروا عدداً معيناً منهم. وسلاحهم مثل سلاح المشاة تماماً.

وبدلاً من بناء ثكنات دائمة للجنود في المحطات العسكرية الهامة، تقام ثكنات تكفي فقط لإحتياجاتهم الأساسية بينما يسمح لأعداد كبيرة من العرب للعودة لمناطقهم، تحت الإستدعاء في أي وقت. وعندما كان يتم الحشد العام للقبائل وجمعها كانت معظم الأراضي الزراعية تترك مهجورة بدون زراعتها. وفي سنوات الكرب التي تلت، فأن عدداً كبيراً من سكان البلاد، جنوبي الخرطوم (جزيرة مروي* وجنوباً حتى فشودة) ماتوا جوعاً وتدريجياً أصبحت مناطق شاسعة من البلاد خالية من السكان. وشرع الخليفة بتهجير عدد كبير من الرجال المقاتلين قريبين من عين الخليفة. ورغم أنهم في الوقت الحالي يشغلون بالزراعة، إلا أنه يمكن إستدعاؤهم لأمدرمان إذا ما دعت الضرورة لذلك، وفي أي وقت.

ويتم تعيين مقدم، أوصف ضابط، علي كل عشرين من الجهادية. وأمير علي كل ١٠٠ رجل. ولكل أمير علم (راية). وبالتالي فأن كل ١٠٠ راية تعادل ١٠٠٠٠ رجل وهناك أمير أمراء واحد لكل الجهادية وكان يتولى هذا المنصب أبو عنجة حتى وفاته ثم حال محله فضل المولي، وهو مولد من قبيلة التعايشة.

وينبني تنظيم قوات العرب المقاتلة على نفس منوال الجهادية لكن عدد الرجال الذين تحت كل راية يختلف كثيراً. ويكون الأمير دائماً من أكثر الرجال الموثوق بهم في القبيلة أو الفرع. وهو مسئول عن جمع المقاتلين من أفراد قبيلته(عند اللزوم). ولكل أمير عدد من المقدمين. ويختلف عددهم أيضا بدرجة ملحوظة.

* جزيرة مروى هو الإسم القديم للجزيرة الحالية بالإقليم الأوسط (المعرب).

والراية الرئيسية هي بالطبع راية الخليفة، وفي الواقع راية يعقوب، وتعرف باسم الراية الزرقاء، وهو لون راية الرسول. وفي الواقع فأن أرضيتها زرقاء* وتطرز عليها بعض الجمل باللون الأبيض بينما تتكون الحواشي والأطراف من شرائط بالألوان الحمراء والخضراء والبيضاء.

وراية الخليفة علي ود حلو تعرف باسم الراية الخضراء. وكل راية تشتمل علي الجملة الآتية "محمد المهدي خليفة رسول الله"، وبالإضافة لذلك يقوم الأمراء بتطريز آيات من القرآن والتي تختلف في كل راية عن الأخرى. لكن أكثر الجمل وروداً في الرايات هي: لا إله إلا الله الملك الحق – محمد رسول الله، عبد القادر الجيلاني (ولي الله)، الله وكيلي، أومن به ولا أشرك به شيئاً"...الخ.

ويأتي أمير الأمراء في المرتبة التالية للخلفاء. ويلغ عددهم حوالي العشرين والذين كان من أشهرهم في زمان المهدي عثمان دقنة، وأبو عنجة، وود النجومي، وأبو قرجة.... الخ. لكن بعضهم قد توفي وأصبح أميروا الأمراء الآن هم عثمان دقنة في شرق السودان، وأحمد علي التعايشي في الحدود الحبشية، وعثمان ود آدم (جانو) في غرب السودان بدارفور*...... الخ. وعثمان خالد زقل في شمال السودان بدنقلا.

أميروا الأمراء كانوا هم المسيطرين علي كافة الشئون العسكرية في أقاليمهم وهم مسئولون مباشرة أمام الخليفة عبد الله وأمام يعقوب. وكان عليهم الاحتفاظ بالقوات الضرورية في أقاليمهم، ويمكن، بعد موافقة الخليفة، أن يستدعوا الرجال للأنضمام لرايات مختلف أمرائهم.

وعندما يأمر الخليفة بإرسال حملة من أم درمان، فأن رايات كل الأمراء الذين اختيروا للجهاد تستخرج من المخازن باحتفال عظيم، ثم تغرز في الأرض في أماكن محددة داخل المدينة أو بالقرب منها. فإذا ما تقرر توجه الحملة شمالاً فأن الرايات تغرز في "الهجرة". أما حملات الجنوب تغرز الرايات في "شجرة الحضرة"، وللشرق تغرز في الضفة الشرقية للنيل بالقرب من (حلة) خوجلي. ثم يبدأ الرجال تدريجياً في التجمع تحت راياتهم المحددة. وعند إكتمال قوة الراية المعينة يتم إرسالها قدماً ثم تليها الرايات الأخرى علي فترات كل بضعة أيام حتى تكتمل كل القوة ثم تبدأ تحركها نحو هدفها. وإذا كانت القوة متجهة شمالاً فأن الخليفة يصطحبها حتى كرري ويشجعهم بكلمات طيبة عند مفارقته لهم. أما الحملات المتجهة لمصر فعادة ما تكون عائلاتها بصحبتها – وعموماً فأن غير المقاتلين من النساء والأطفال يفوق عددهم أعداد المقاتلين بنسبة ثلاثة إلي واحد. أما إذا كانت الحملة متوجهة لمهمة قصيرة فأن نسبة قليلة من النساء هي التي يسمح لها بمرافقتها.

---

* الصحيح أن الأرضية سوداء اللون (المعرب).

* يشاع أن هذا الأمير قد قتل منذ عهد قريب في صراع بدارفور. (المؤلف).

*الصحيح هو أنه توفى عقب هزيمته لجيوش أبي جميزة من جراء مرض عضال وخلفه محمود ود أحمد علي الإمارة (المعرب).

والطريق المعتاد الذي تسلكه أي حملة موجهة لمصر هو طريق الخرطوم الدبــة. ولظــروف إمدادات المياه لهذا الطريق، فأن الحملات تمضي فيه علي دفعات، وليس دفعة واحدة. أما حملــة ألنجومي فقد جاءت عن طريق بربر لأنه جند عدداً كبيراً من رجاله من الجعليين، قبيلته، الذين تقع أراضيهم بين أم درمان وبربر.

•••

وللخليفة حرس شخصي مكون عموماً من حوالي خمسين رجلاً، ويعرفون "بحرس الخليفة" – وهم من السود المنتقين والذين يتميزون بأخلاصهم له – وهم دائماً ما يصاحبون الخليفــة مشــياً علي الأقدام.

وبالإضافة لهؤلاء، فأن للخليفة حوالي عشرين ملازماً. ومن بين الملازمــين مــن هــو لصيق بالخليفة، ولكن بعضهم، مثل سلاطين بك، فقد إحتلوا هذا المنصب حتي يكونوا تحت نظــر الخليفة ولئلا يحاولون الهرب. ومهمة الملازمين هي مصاحبة الخليفة في كل المناسبات. وعشرة منهم من التعايشة، وهم يصطحبونه راكبين دائماً، أما الباقون فبعضهم يركب معه وبعضهم يمشي. وهم دائماً يرافقون الخليفة عند دخوله للمسجد وعند خروجه منه. أما عند دخوله لمنزلــه فــأنهم ينتظرون في الفناء الخارجي دائماً.

ووارد الخيول لأم درمان ليس كبيراً. وبعض الخيل يستجلب من الحبشة عن طريق سوق القلابات. لكن هذا النوع من الخيل لا يتحمل ظروف السودان ومناخه ولا يزدهر فيه. ومن ضمن ما لدى الخليفة، حوالي عشرين فرساً ضخماً يقال بأنها من بقايا ما غنم من جيش هكس باشا.

وهناك حوالي ٢٠٠٠جمل ترعي بالقرب من أم درمان وتحفظ هناك والهدف منها هــو استخدامها في النقل والترحيل عند الضرورة. وعندما تخرج حملة من أم درمان ترســل أمامهــا كميات من الذرة، لأن الخليفة يهدف بهذا أن تبتعد الحملة عن أم درمــان وهــي مطمئنــة علــي تموينها، وحتى يمنع الفرار (بسبب الجوع).

والطعام، الذرة أساساً، يقدم للجنود النظاميين ولعرب التعايشة والهبانية فقط. أما بقيــة العرب فعليهم توفير طعامهم بأنفسهم. هذا وتبلغ الحصة اليومية للجندي ما يعــادل مــدين (ملــئ اليدين مرتين).

ولا تصرف أجور منتظمة للجنود ولا يوجد سلم وظيفي للتدرج اللهم إلا عند الجهاديــة. وكل رجل يتلقى إسمياً ثمــن ريال في الشــهر وغالباً ما لا يتسلم أي شئ. أما الأمير فيتلقي مــا بين ٢٠ إلي ١٠٠ ريال في الشهر، علي حسـب وضعهم ومكانتهم مما يمكــنهم مــن مســاعدة الحاجات الضرورية لمن معهم من فقراء الأتباع. لكن هذا المال عموماً يبقي في يد من صرف لــه في المقام الأول.

ويتحمل أي أمير مسئولية التأكد من توفير ما يحتاجه رجال الحملة من حمير وجمــال – من أملاكهم الشخصية – لنقل متعلقاتهم، هذا إضافة لأن الأتباع الملحقــين بــالحملات المختلفــة يعملون أيضاً كحمالين. وعلي كل رجل توفير قربه مائه. وإذا ما كان فقيراً لا يستطيع توفيرها فأن علي الأمير إمداده بقربة.

ومن المستحيل أن يتم تقدير عدد ما يمتلكه الثوار من البنادق والمدافع بدقة. ولكن يقال بأن في أم درمان وحدها حوالي ١٢٠٠٠ بندقية رمنجتون، و ٩٠٠٠بندقية من مختلف الطرز و ٣٢ مدفع جبلي و ٤ مدافع كروب و ٤ - ٥ مدافع مكنة، وبعض الصواريخ. وليس وارداً أن تكون كل هذه المدافع بحالة جيدة، بالرغم من أن تلك التي بأم درمان محفوظة في حالة من النظافة واللمعان.

وقد قلصت الحروبات المتواصلة كميات الذخيرة المتوفرة للخليفة ويلاقي صعوبات جمة للحصول علي إحتياجاته منها. وأي جندي نظامي، مسلح ببندقية، عليه أن يحمل في شريط رصاصه حوالي ٤٠ طلقة. لكن حرص المسئولين أدي إلي قيامهم بالإحتفاظ بكل البنادق والذخيرة في ترسانة أم درمان ولا يتم صرفها إلى في حالات خاصة مثل أيام الأعياد، حيث تقام عرضة عسكرية ضخمة خلالها. أما في المناسبات العادية فأن العصا تحل محل البندقية.

وصعوبة صناعة الذخيرة ترجع إلي ندرة البارود والرصاص والمفجر. والبارود القديم الوحيد المتاح هو ذلك الذي تحتويه قذائف المدافع. وهم الآن يقومون بإنتزاعه من القنابل وتنعيمه وتشحن به طلقات الرصاص. أما معدن الرصاص فقد تم تهريب كميات كبيرة منه، بنجاح، عبر ساحل البحر الأحمر، بينما يقوم الناس بالبحث في الأراضي المحيطة بالخرطوم عن الظروف الفارغة وعندما يجدونها يقومون ببيعها لبيت المال بواقع ريال للرطل. ومثل توفير المفجر صعوبة أخرى رغم أن كميات قليلة منه كانت تصل لأم درمان من وقت لآخر. وقد حاول أحد الأوروبيين الأسرى، منذ عهد قريب، صناعة بارود جديد. وتحصل علي كميات من ملح البارود من جبل أرضة بالقرب من أم درمان وقام بخلطه ببعض الكبريت ورماد الصفصاف. وقد أعطي هذا البارود نتائج طيبة في البداية لكنه تدهور بسرعة بعد ذلك بشهر. وتم تهديد الصنايعي بالموت لكنه حصل علي إرجاء لتنفيذ الحكم عند تعهده بالحصول علي المواد الضرورية لصنع البارود من جهات أخري ولهذا الغرض أرسل عدداً من الرجال لساحل البحر الأحمر.

وفي أوقات الحرب يجب علي كل أمير أن يحمل بندقية وأن يحمل كل جندي نظامي إحتياطي من ١٠٠ طلقة في حقيبته. وحمل المقدمون مسئولية التأكد من أن كل جندي يحمل ما يكفي من الذخيرة معه، كما أن عليهم صرف كميات من الإحتياطي للجنود أثناء المعارك. ويقال أن التجار قاموا في عامي ١٨٨٦، ١٨٨٧، بتجارة مذدهرة في الذخائر، كانوا يحصلون عليها من الأمراء ويبيعونها للقبائل الزنجية المتمردة في جبل الداير وتقلي وغيرها. لكن الخليفة أوقف هذه التجارة قبل فترة من الزمن.

والمسئول عن ترسانة أم درمان هو أحد عرب التعايشة. ولا زال يحتفظ هناك بكميات كبيرة من ذخيرة المدافع الجبلية ومدافع كروب.

أما ترسانة* السفن بالخرطوم فهي المنشأة الوحيدة العاملة خارج أم درمان. ولا يزال يعمل بها عدد من العمال المصريين، ويوجد بها ما لا يقل عن خمسة بواخر تعمل بصورة جيدة،

* الترسانة هي في الأصل مشتقه من (دار الصناعة). وقد تم إدخال الإسم للغات الأوروبية فأصبحت "دارسنا، دارسي، وأرسنال ثم بالعربية الترسانة.)

وهي الإسماعيلية والصافية والمنصورة والخرطوم (باخرة غردون التي كانت تسمي بمحمد علي) والطاهرة. والأخيرة تعمل ما بين دنقلا والجنوب وتستخدم أساساً لنقل المؤن. أما بقية البواخر فتستخدم في جلب الذرة من الجنوب لأم درمان.

وبالإضافة للقائد العسكري للإقليم فهناك العامل أو المدير المسئول عن الإدارة المدنية. ويساعده في عمله فريق من إثنين من القضاة وأمين (أو خازن)لبيت المال. والعامل مسئول مباشرة أمام القائد العسكري ويتولى أيضاً مهمة تحصيل العشر من الذرة وعلي الزكاة علي الإبل والبقر والأملاك والمال. ومن القضاة واحد يتولى كل الشئون القانونية والدينية أما مهمة القاضي الآخر فهي حل النزاعات بين الأهالي وبين بيت المال.

وكل من العامل والقضاة وأمين بيت المال مسئولون لدي أمين بيت المال الرئيسي بأم درمان إضافة لمسئولياتهم تجاه رؤسائهم العسكريين. ولهذا السبب فأنهم يستدعون سنوياً للحضور لأم درمان لتقديم حساباتهم. وكان من المفترض أن يتم استبدالهم كل سنة حتى لا يسلكون سبيل قبول الرشوة من الآخرين ويتسببون في إفقار بيت المال. لكن الخليفة إذا ما رضي بأداء هؤلاء الموظفين فأنه لا يقوم بتغييرهم اللهم إلا قاضي بيت المال والذي يتم إستبداله دائماً. ويتلقى أمين بيت المال بأم درمان راتباً مقداره ٥٠ ريالاً في الشهر. أما العمال بالإقاليم فيتسلمون ما بين ١٥-٣٠ ريالاً في الشهر.

وللخليفة عبد الله أربعة من الكتاب المخصوصين، بجانب كاتبين آخرين يعرفان بأسم " كتاب الحضرة" ومهمتهما تسجيل ووصف الرؤى التي انغمس سيدهم فيها كثيراً.

والزكاة التي أشرنا إليها من قبل تعني ما يقدم للفقراء من عون ، وفي إدارة دينية مثل إدارة الخليفة، فهي الضريبة المقدسة التي تبرر النهب الشامل. فهي تحسب علي الذرة والأملاك والمال وتجمع إما نقداً أو عيناً.

وهناك مصدر آخر للإيرادات هو "أرض الغنيمة"، وهي تلك الأراضي التي تقع علي بعد مرمي رصاصة من بيت المال بأي إقليم وتصبح بالتالي ملكاً لبيت المال. ولأنها قريبة من مصادر المياه، فلذا تعتبر، من ناحية عامة، من أقيم الأراضي بالمنطقة ويتم إيجارها بمبالغ طائلة. وكل المراكب النيلية تعتبر ملكاً لبيت المال، ويتم إيجارها (لمن يعمل بالترحيل بها) بواقع ريالين عن كل أردب في السنة.

والمشارع أيضاً ملكية لبيت المال وتؤجر أيضاً بأسعار عالية، وكذلك جناين الخرطوم وما حولها. نفس الحال ينطبق علي كل الغابات والأشجار.

من هنا يمكن أن نعرف أن موارد الخليفة ليست بالقليلة. أما نفقاته، فهي بالمقارنة بموارده، تعتبر قليلة لدرجة تثير السخرية. وإضافة لذلك، فقد كان من عادة الأهالي، أثناء الحكم التركي المصري، أن يقوموا مثلهم مثل الموظفين بإخفاء الأموال والمجوهرات في منازلهم ويدفنونها في باطن الأرض. وبالتالي فأن السودان عندما تحول إلي حكم المهدية، جري فيه بحث شامل عن تلك الأموال وتم توريد كل ما يوجد إلي بيت المال. وقد ذكر أرتين باشا* في كراسة

* أنظر الملحق بنهاية هذا الفصل.

كتبها بأن المهدي إستخدم الصياغ، الذين حصل عليهم من الخرطوم، لصهر كل الحلـي الفضـية وصبها في قوالب الريال ثم ختمها. وأجبر الناس علي أستخدام هذه العملة الجديدة، بينما إدخـرت العملات المصرية. وقام عبد الله منذ توليه الخلافة بأتباع نفسي النهج مع فارق بسيط هو إستبداله لكلمة (مقبول) إلي (بأمر المهدي). ويعرف رياله الآن (بالمقبول). وكل المدفوعات تتم بهذا الريال. وإذا ما جاء التجار بعملات مصرية لأم درمان فأنه يرغمون علي إستبدالها. وبهذا تمكن الخليفـة من الإستمرار في تكديس العملات المصرية. وكما لوحظ من قبل فأن البعض يقولـون بـأن تلـك الفضة قد أرسلت سراً لكردفان، ويقول البعض الآخر بثقة بأنها محفوظة فـي صـناديق الـذخيرة الفارغة ومحفوظة في خنادق عميقة ضخمة تحت منزل يعقوب. وفي أعين الرعايا فـأن الخليفـة بالطبع رجل غاية في الفقر، لكن الأسلوب المستخدم في إخفاء تلك الأموال لم يعد إلا سراً مكشوفاً. وأمين بيت المال عليه تقديم بيان يومي ليعقوب عن كل الأموال المسـتلمة والبضـائع المباعـة. وعندما تصل المبالغ لعشرة ألف ريال فأن يعقوب يحرر إيصالاً رسمياً بهذا المبلغ يسلمه لأمين بيت المال ثم يتسلم المال ليستخدم في مدفوعات الأنصار.

وقد سمح الآن بالتجارة مع السودان في نطاق معين. ويستورد التجار عادة السكر والبن وبضائع ما نشستر والعسل والزبد والزيت والعطور والبجور والجبن وغيرها، كما يستوردون سراً التبغ والحشيش والأفيون. ويتم أخذ الضرائب مرتين من التجار وقبل وصولهم لأم درمان. أما عند وصولهم فأن بيت المال يقوم من ناحية عامة، بشراء البضائع بالطريقة التي سبق وصفها.

ويقال أن تجارة الرقيق مزدهرة في السودان. ومراكز التجميع الرئيسية للعبيد، إضـافة لأم درمان، هي القلابات، وبني شنقول والفاشر، والتي بها جميعاً أسواقاً رائجة للعبيـد. فالـذين يجمعون بالقلابات هم أساساً من الحبش،. أما بالفاشر فهم عموماً العبيد الذين أمسـك بهـم فـي الغارات علي القبائل المجاورة. وبني شنقول هي محطة تجميع العبيد من دار برتى والرصـيرص ودار فازوغلي. ومن تلك المراكز الثلاثة يتم إرسال العبيد في جماعات إلى كل أنحاء السودان.

وسوق الرقيق الرئيسي هو بالطبع في أم درمان ومكانه بالقرب من بيت المال. وأسعار العبيد هي كما يلي:

- للفتاة الصغيرة والجميلة من ٥٠ – ١٠٠ ريال
- – للمرأة العادية من ٢٠ – ٤٥ ريال
- للرجل الشاب من ٢٠ – ٣٠ ريال
- للرجل متوسط العمر من ٥ – ١٠ ريال
- للغلام الصغير من ٥ – ٢٥ ريال

أما في المحطات الخارجية فتنزل الأسعار للنصف تقريباً.

ورقيق الحبش هو زهرة الأسواق. لكنهن لا يتحملن، من ناحية عامة، (ضراوة) طقـس السودان ويذبلن سريعاً.

وهناك أعداد كبيرة من العبيد يخرجون من السودان عبر موانئ البحر الأحمـر ويقـوم التجار العرب بمبادلتهم ببضائع محظورة مثل الرصاص والمفجرات.

وبأم درمان محكمة تعرف بإسم "محكمة الإسلام" ويرأسها "قاضي الإسلام" وهو الآن شخص يسمي أحمد علي، كان من قبل قاضياً في دارا أثناء الحكم المصري، ويساعده عشرة من القضاة. وجلسات المحكمة تستمر طوال اليوم حيث تحضر إليها كل القضايا. ويقوم قاضي الإسلام للخليفة كل يوم قائمة بكل المحكومين وبالعقوبات التي صدرت بحقهم لإعتمادها نهائياً. وعادة ما يقوم القاضي، قبل جلوسه بالمحكمة، بالتحقق سراً عما يرغب فيه الخليفة من حكم ومن ثم يقوم "بترتيب" العدالة طبقاً لذلك. أما عند الحالات الخطيرة مثل التمرد أو عدم إطاعة الأوامر أو السرقة فأن الخليفة ينظر فيها بنفسه حيث يتم يومياً الحكم بإعدام عدد من الرجال أو بقطع طرف، وأحياناً، طرفين من المحكوم عليه. وينفذ حكم الإعدام بعدة طرق، إما شنقاً أو بقطع الرأس عادة. أما السرقات العادية فتعاقب بقطع اليد اليمني وفي الحالات الخطيرة يتم قطع اليد اليمني والقدم اليسري. ويعقب تنفيذ الأحكام مصادرة كل أملاك المحكوم عليه.

***

وهناك عدد كبير من موظفي الحكومة السابقة وغيرهم من المحتجزين في السودان والذين تم تصنيفهم إلي قسمين هما المسلمانية أو الأوروبيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي، وأولاد الريف* أو المصريين. ومن الصعب تحديد عدد الأوروبيين بالضبط لأن أسماءهم قد غيرت بأسماء إسلامية وبالتالي أصبح مستحيلاً معرفتهم من أسمائهم الحالية. ومعظم هؤلاء من الأغاريق، ولعلنا نذكر بأن الكولونيل ستيوارت عندما غادر الخرطوم عام ١٨٨٤، كانت باخرته تقطر صنادلاً محلية وأنه إضطر إلي فصلها عن الباخرة وتركها عائمة علي غير هدي في النهر. كانت بتلك الصنادل أعداد من الأغاريق والذين تم أسرهم فيما بعد. أما عن الإرسالية النمساوية (ومعظم أفرادها من الإيطاليين) فان منهم الآن بأم درمان:

- الأب دون جيوسيبي أو رفالدر، واسمه العربي يوسف.
- الأب بول روزينولي، وأسمه العربي صباح الخير.
- الإخوة دومينيكو بوليناري وجوزيف روجنوتو وإسماهما العربيان غير معروفة.
- الأخوات تيريزا جريجوليني وكونستا كورسي وإليزا بتافنتوريني وكاترينا شينكاريني. ويقال أن هاتين الأخوات قد احتفظن بأسمائهن المسيحية.

والأبويين بول ودون يعيشان الآن في حي السوق الكبير. ويكسب الأول بضعة قروش يومياً من عمله كنساج أما أثنتين من الأخوات فيكسبن رزقهن من صناعة الخبز. ويقال أن الأخت تيريزا تعيش مع إبنة الطبيب الراحل جورج بك، في منزل تاجر إغريقي.

أما لبتن بك فكان يعمل مراقباً في مصنع البارود وأصيب في عينيه إصابة بالغة من جراء إنفجار حدث (في المصنع)، ثم ما لبث أن أصيب بالحمى وظل يعاني منها لبضع أسابيع ثم مات في ١٧ يوليه ١٨٨٨.

وبجانب سلاطين بك فأن بقية النمساويين في أم درمان هم مارتن هانزل، إبن القنصل الراحل هانزل، وأطفال المستر كلاين، الذي قتل عند سقوط الخرطوم، وأيضاً إبن ما

---

* الريف يعني الأرض المزروعة ويطلق علي ريف شمال وادي النيل بصفة خاصة.

رنو بك. ويعرف مارتن هانزل باسم عبد الله. ولا يحتل هو ولا إبن ما رنو بك أي منصب في حاشية الخليفة.

أما تشارلز نويفلد، التاجر الألماني المغامر، والذي كما نذكر كان قد أسر في (واحة) سليمة عام ١٨٨٦، فيقال بأنه لا يزال بالسجن لكنه وعد بالعفو إذا ما حفظ الراتب عن ظهر قلب. أما أدولف كلوتز، خادم البارون فون سكندورف، والذي أسر قبل وقت قصير من تدمير قوات هكس باشا، فيقال أنه قد غادر أم درمان عام ١٨٨٩، متجها نحو القلابات، حيث شوهد بها عقب المعركة التي قتل فيها الملك يوحنا*. أما الأرمني الذي يسمي أرتين، وإسمه العربي الآن عبد الله، فيعمل ساعاتي للخليفة ويكسب حوالي أربعين ريالاً في الشهر.

أما جيوسيبي كوزي، الذي إشتهر بظهوره في يوميات غردون، فيعمل الآن ملازماً للخليفة. ويعرف باسم محمد يوسف حيث يكسب حوالي ثلاثة ريالات في الإسبوع ، وله عائلة كبيرة.

وبجانب الذين ذكرناهم فهناك آخرون كثر ويلغ عددهم جميعاً من رجال ونساء وأطفال حوالي ٨٥ أوروبياً، ويعيشون في حي المسلمانية وقد عين رجل إغريقي، إسمه العربي جابر مقدماً علي ذلك الحي، وهو مسئول أمام الخليفة عن كل الأوروبيين. وخطر أي محاولة للهروب أكبر من أن يشجع أحداً علي المغامرة بذلك. إذ أن العقوبة، في حالة إعادة القبض علي الهارب، هي الموت المؤكد.

وإضافة علي موظفي الحكومة السابقة، والذين ذكرنا أسماءهم كعاملين في خدمة الخليفة عبد الله فهناك عدد كبير آخر لا يشغل أي مصب خاص. ومن هؤلاء فأن أشهرهم هو إسكندر بك، أخو زوجة عبد القادر باشا، وكان قد أسر عند سقوط الأبيض. وله دكان في سوق التجار ويكسب حوالي سبعة ريالات في الشهر. وهو يصاحب الخليفة إلي الجامع وله مكان مخصوص للصلاة في الصف الأول.

أما إبراهيم باشا فوزي، سكرتير الجنرال غردون، والذي أسر عند سقوط الخرطوم، فقد حظي لفترة بعطف الخليفة عليه، لكنه الآن مهان ذليل. وله مكان بالصف الثالث في المسجد، ويدير مقهى في دكان بسوق العيوش.

ولا زال يوسف منصور، الموظف الحكومي السابق بالأبيض، أميراً للمدفعية. في حين يتولى سعيد بك جمعة، مدير الفاشر السابق، منصب نائبه في قيادة المدفعية.

كما تولي عدد كبير من موظفي الحكومة السابقة، من كتبة وقضاة، مناصب مماثلة تحت إمرة الخليفة. أما محمد فقير، ضابط البوليس الذي كان قد أسر في الغارة علي كلابشة عام ١٨٨٨، فقد أرغم عند وصوله لأم درمان علي أن يتحدث في الجامع علناً بأن الجيش المصري جيش صغير وضعيف، وأن أهالي الحدود تواقين للانضمام للمهدية. كوفئ علي ذلك بتخصيص راتب شهري له قدرة خمسين ريالاً كما أعطي خادمين وحمار. ولكن بعد ذلك بقليل

* منذ ذلك الوقت لم يشاهد أو يسمع أي شئ عنه. وقد ذكر البعض بأنه فر إلي الحبشة ويقول البعض الآخر بأنه قد يكون قتل. كان يعمل في السابق جاويشاً في الجيش البروسي وقد سمي بمصطفي عندما (أسلم بعد فراره من جيش هكس باشا).

شوهد وهـو يدخن سجارة فصودر منه كل ما كان يمتلكه من مال ومتاع. وهو يعمل الآن طباخـاً في سوق العيوش.

أما سيدات العائلة الميرغنية، فاطمة ونفيسة، فقد رفضتا بإصرار ضمهن لحريم الخليفة وأجبرتا علي الزواج من أثنين من الأمراء. تزوج فاطمة رجل يدعي محمد الخير، المسئول عـن الباخرة بوردين التي لا تزال جانحة في السدود بالقرب من لاتوكا. أما نفيسة فقد تزوجها المـدعو محمد عبد الله.

***

وقبل وقت قصير تم إيفاد مبعوثين لأم درمان، يحملان خطاباً فيه إلتماس بإعادة ملابس الجنرال غردون وخطاباته وغيرها. وبعد مضي ثمانية أشهر رجع أحدهما حاملاً معه الخطاب الذي لا يبدو أنه قد تم فضه، مع رسالة شفوية مفادها أن الخليفة غير راغب في أي إتصالات مع مصر. كانا عند وصولها لأم درمان قد تم التحفظ عليهما تحت حراسة مشددة وهددا بالقتل. وأثناء ذلـك، وحتى يخلف في نفسيهما إنطباعاً قوياً عن جبروت جيوش الخليفة فقد أمر الأخير بعرضة عامـة للأنصار واستغرق الجمع والوصول لأم درمان حوالي خمسة أشهر. وأخيـراً تـم حشـد حـوالي ٤٥٠٠٠ رجل وأقيمت عروض عسكرية مهيبة إستمرت لثلاثة أيام شاهد فيها المصريان كل شئ. لكن أحدهما علق بقوله أن الجيوش المصرية، هي بالمقارنة، أكثر عدداً وأقوي تسـليحاً، فأحيـل للسجن لتجرئه علي الشك في قوة جيوش المهدية. أما زميله فأرسل عائداً لمصر بعد أن ألزموه بوصـف كل ما شاهده بالتفصيل (للمسئولين هناك). فالمبدأ الرئيسي للمهدية هو إدخال البشرية في الإسلام وهـو الغزو لكل العالم. أما الإتصالات (مع العدو) في الشئون العادية فأن الخليفة يعتبره من المستحيلات.

***

وكثيراً ما تجد الصحف العربية التي تطبع في القاهرة طريقهـا لأم درمـان ويدرسـها الخليفة باهتمام. وعند إطلاعه علي المباحثات الإنجليزية الإيطالية الخاصة بكسلا، يقال بأنه علـق قائلاً بأنه طالما كانت كسلا تابعة له فأنه محتار لا يفهم علي أي أرضية تستند إيطالياً أو إنجلتـرا للمطالبة بها.

***

ولا يسمح الخليفة بالحج إلي مكة علي أساس أن الأتراك الذين يتولون أمرها هـم مـن الكفار. وهذه هي أقوي ما يحتج به الخليفة للحث علي الجهاد، الذي من خلاله يأمل في فتح مكة، وبهذا يعيد للحج مكانته بعد تطهير الأماكن المقدسة من الترك البغيضين. وكان يشجع كل النـاس علي زيارة قبر المهدي، ليس كبديل للحج، ولكن كزيارة لضريح ولي عالي المقام ورجل صـاحب قداسة غير عادية.

***

وتستحق أم درمان بعض الوصف المختصر. فقد قفزت من قرية صـغيرة إلـى مدينـة شاسعة تمتد لمسافات كبيرة علي ضفة النيل الغربية وتصل حتى خور شمبات. أما طرفها الجنوبي فيحتمي بطابية غردون القديمة والتي تم توسيعها وزيادتها. هذا ويشكل خور شمبات حاجزاً طبيعياً

عند طرفها الشمالي. وقد تم بناء طابية أمامية جنوب كرري بينما يظل جانبها الغربـي، المحـاط بالصحراء، بدون حماية. وتستخدم الطابية الجنوبية الآن كثكنات للجهادية. أما قلب المدينة فيوجد به مسجد واسع يرتبط بالطابية بشارع جيد للمرور وللمركبات، ويستخدمه الخليفة من وقت لأخـر راكباً علي واحدة من العربتين المغنمتين عند سقوط الخرطوم.

وبيت المال وبيت الأمانة وسوق الرقيق.... الخ، كلها قريبة من النهر وليست بعيدة عن المسجد الكبير.

كل كبار الأمراء ملزمون ببناء بيوتهم في أم درمان، مع بقاء جـزء علـي الأقـل مـن عائلاتهم به وبهذا يتحقق للخليفة ضمان ولائهم له، لكون وجود العائلات هنا بمثابة الرهائن له.

وكل الأسواق الرئيسية والمخازن وحي المسلمانية توجد بالجزء الشمالي الغربي للمدينة. وللخليفة عبد الله عدة منازل، لكن إقامته أساساً هي في منزله المجاور للمسجد. وجزء من منـزل الخليفة يتكون من طابقين ويطل علي المدينة بكاملها والتي لا يزيد ارتفاع مبانيها علي طابق واحد أرضي. وبني منزله بالطوب الذي جلب من منازل الخرطوم. وهو مؤثث جيداً مـع وجـود نوافـذ زجاجية وستائر ومصاريع مطرزة وملونة. وفي المخطط المرفق لمنزل الخليفة، والذي رسمه رجل أقام طويلاً بأم درمان، يبدو التركيب الغريب له. فالبرج ذو الطابقين يستخدمه الخليفة في مناسبات خاصة عندما يكون منشغلاً بالصلاة أو بالحضرات، وهنا قد يعتكف أحياناً لعدة أيام. أمـا الغـرف الوسطي فهي التي يعيش عادة فيها. ويقال أن المنزل عندما أكتمل بناؤه أخذ معه عدداً من رجاله النافذين ومر بهم علي مختلف الساحات والغرف، والتي كانت كلها عارية من أي زينـة، وحتـى غرفته كانت تحتوي علي عنقريب عادي وفروة صلاته بينما فرشت أرضيتها بالرمل. ولكن، ومنذ ذلك اليوم، لم يسمح لأي أحد بالدخول. ويشاع أن الغرف الآن مؤثثة جيـداً: الـديوان والأسـرة والسجاجيد والستائر وغيرها والتي أخذت من الخرطوم، بينما نساؤه يلبسن فاخر الحراير ويتزين بكثير من الحلي والمجوهرات.

وللخليفة حوالي ثمانية من الأغوات (الخصيان) ولهم رئيس يدعي عبـد القيـوم. وقـد استبدلت كلمة (أغا)، لأنها ذات أصل تركي بغيض، بكلمة (أمين) التي تعني الرجل المخلص النزيه.

أما المسجد فهو عبارة عن ساحة واسعة علي شكل مستطيل طوله حوالي ١٠٠٠ ياردة وعرضه حوالي ٨٠٠ ياردة وغير مسقف بالمرة. وبطول جانبه الغربي توجد أشجار مـن اللـبخ* (Acacia albizzia) وهي تحدد الأماكن المخصصة للنساء ومسـقوفة جزئيـاً بـالبروش. أمـا المحراب، الذي يحدد اتجاه القبلة بمكة فأقيم بالجانب الجنوبي الشرقي، علي مسـافة مـن وسـط المسجد. والمنبر يوجد في أقصي الركن الجنوبي الشرقي. وهناك مسجد صغير يعرف باسم مسجد أو جامع الحديد يقع بالجانب الشرقي للمسجد وله سقف صنع من ألواح حديـد البـواخر، والتـي وجدت منها أعداد كبيرة في ترسانة السفن بالخرطوم. وبدلاً من أن يكون السقف مسطحاً فأنه بني بطريقة تشبه أسقف الكنائس الحديثة، بينما أقيمت حوائطه من الخشب الغليظ وكل المبني يسـنده إثني عشر عموداً حديدياً. هذا المسجد الصغير يسع حوالي ٢٠٠ مصلياً بينما يتسع المسجد الكبير

* الاسم العلمي يرمز لنوع في أشجار السنطيات الشوكية وليس للبخ المعروف (المعرب).

[ROUGH PLAN OF KHALIFA ABDULLAH'S HOUSE]

[مخطط تقريبي لمنزل الخليفة عبد الله]

MOSQUE

المسجد

ENTRANCE TO MOSQUE

المدخل للجامع

FIRST ENCLOSURE

حوش أول

LARGE TWO STORIED TOWER

برج كبير من طابقين

MAIN ENTRANCE TO KHALIFA'S HOUSE

المدخل لبيت الخليفة

SECOND ENCLOSURE

حوش ثاني

THIRD ENCLOSURE

حوش ثالث

HAREEM

الحريم

KHALIFA'S ROOMS

غرف الخليفة

STORE

مخزن

ROOMS OF EUNUCHS

غرف الخصيان

GUARD HOUSE

الحرس

GUARD HOUSE 50 MEN

منزل الحرس ٥٠ رجلاً

PRIVATE ENTRANCE

مدخل خصوصي

OPEN SPACE IN WHICH THE KHALIFA'S MULAZIMIN ARE ALWAYS IN WAITING

فناء مكشوف ينتظر به الملازمون باستمرار

To face page 483

لما لا يقل عن ١٠٠٠٠ مصلي. والخليفة عادة ما يدخل إلي المسجد الصغير يوم الجمعة فقط. أما في بقية الأيام فأنه يتخذ مجلسه علي المحراب المنصوب في المسجد الكبير ويؤم الجميع في الصلاة. ويقال أن خطبه عادية جداً وكثير من الناس لا يفهمون لغته العربية التي تمتلئ باللهجة التي يتميز بها أهل غرب السودان. ولكل أمير أو رجل مهم مكان مخصوص في المسجد وأي منهم يتغيب عن الحضور فأن الخليفة يخطر بذلك فوراً، وإذا لم يشهد رجلان بأنه كان مريضاً فأنه يرسل للسجن في الحال.

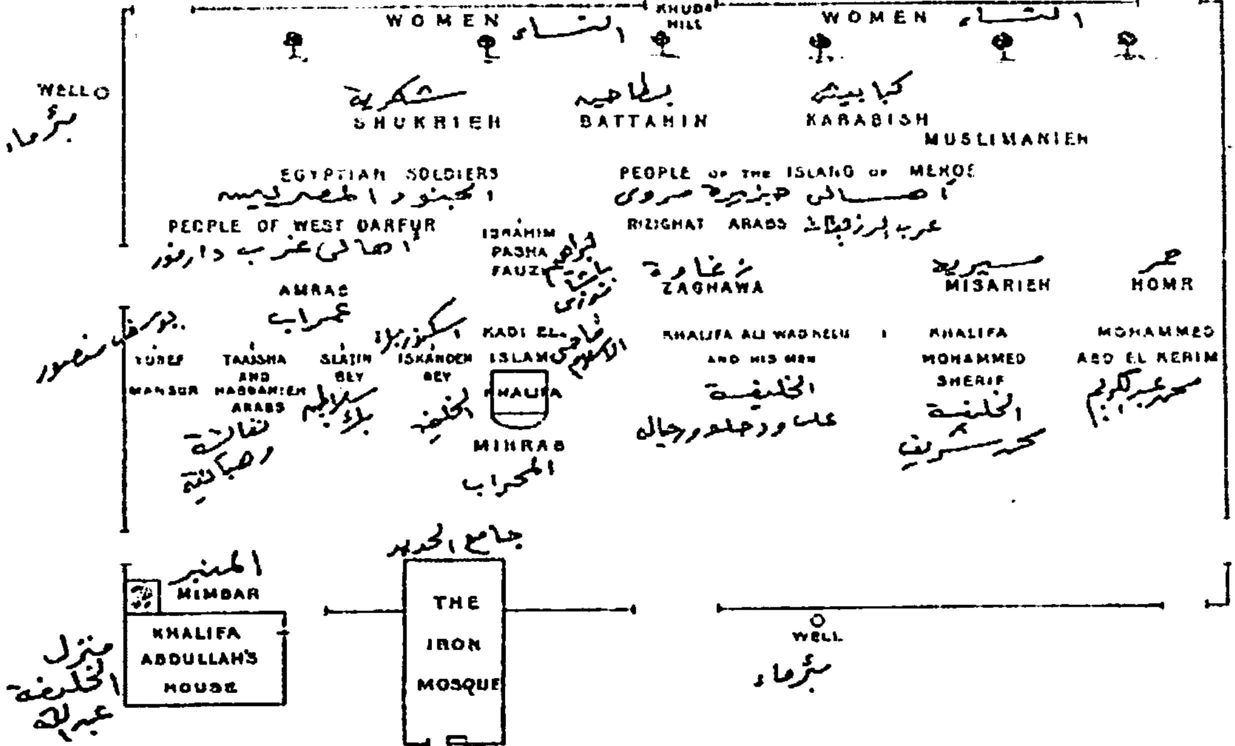
ويعفي الجهادية من حضور الصلوات في المسجد الكبير. وقليل منهم من يصلي أساساً رغم أن من المفترض أن يؤدوا الصلاة في المسجد الملحق بثكناتهم.

وهناك خط للتلغراف يربط ما بين بيت الخليفة، وبيت المال، والترسانة وحلة خوجلي بالضفة الشرقية. ويمتد كيبل عبر النهر لذلك الغرض.

ويقدر عدد سكان أم درمان، أو البقعة، في الأوقات العادية بحوالي١٥٠٠٠ – ٢٠٠٠٠ نسمة. وقد نقلت مطبعة الحجر من أم درمان إلى منزل بالقرب من بيت المال. ويعمل بها خمسة مصريين وينتجون عدداً كبيراً من المنشورات. وقد طبعت بها عدة آلاف من كتاب صلاة المهدي (الراتب) وتم تجليدها بها، كما طبع بها عدد من الكتب منها (نصيحة الإخوان) والذي يحتوي علي تاريخ الثورة العرابية عام ١٨٨٢، وقد كتبه رجل اسمه أحمد العوام، كان في السابق أحد كتبة عرابي باشا في مكتب الحربية بالقاهرة ثم نفي إلى السودان لاشتراكه في الثورة. ويبدو أن هذا الشخص قد كتب كتابه أثناء حصار الخرطوم وأرسله للمهدي. وقد إكتشف الجنرال غردون هذا الأمر وأمر بشنق الخائن في الحال.

وضريح المهدي يشبه كثيراً أضرحة الأولياء والصالحين العاديين، أي أنه عبارة عن قبة فوق القبر المحاط من الداخل والخارج بسياج من الحديد المنقوش. وارتفاع القبة حوالي خمسين قدماً ويعلوها هلال يخرج من وسطه رأس حربة ضخمة تتجه للسماء. وطليت القبة باللون الأبيض وهي من أبرز معالم أم درمان وأوضحها، وتري من أماكن بعيدة. هذا وقد دفن المهدي في المكان الذي توفي فيه.

وفيما يلي شئ عن الحياة اليومية للخليفة والتي قد تثير الاهتمام. فيقال بأنه يستيقظ في الفجر ويتوجه نحو المسجد الكبير مصحوباً بملازميه المسلحين بالسيوف التي يحملونها علي الكتف الأيمن. وعند دخوله المحراب ينتظم الملازمون علي جانبيه بينما يقوم المقدم بفرش فروة الصلاة أمامه علي الأرض. يفتتح الخليفة الصلاة والتي تستمر لحوالي ربع ساعة ثم يعود لمنزله لينام لحوالى الساعتين. بعد ذلك يتوجه نحو الحوش الخارجي لمنزله حيث يجتمع كل الأمراء وكبار العاملين ويتحادث معهم عن المواضيع الجارية ويؤدي أي عمل قد يكون. يخاطبه الجميع في كافة المناسبات (بيا سيدي). وقد قام جندي مصري قديم بمخاطبته ذات يوم قريب بكلمة (أفندم)، "وهي كلمة تركية للمخاطبة تدل علي الإحترام، ومستخدمة في الجيش المصري" فما كان من الملازمين إلا مهاجمته وضربوه بدون رحمة بقوائم رماحهم حتى أنه توفي بعد بضعة أيام. وهذا مثال علي الإصرار لإزالة أي أثر للكلمات إلي تذكرهم بالماضي البغيض لسلطة الترك.



ROUGH PLAN OF THE GREAT MOSQUE AT OMDURMAN
ROAD TO THE KHUDR HILL
WOMEN
النساء
WOMEN
النساء
WELL
بئر ماء
SHUKRIEH
BATTAHIN
KARABISH
MUSLIMANIEH
N
شمال
EGYPTIAN SOLDIERS
الجنود المصريين
PEOPLE OF THE ISLAND OF MEROE
PEOPLE OF WEST DARFUR
IBRAHIM PASHA FAUZI
RIZIGHAT ARABS
ZAGHAWA
MISARIEH
HOMR
AMRAB
YUSEF MANSUR
TAAISHA AND HABBANIEH ARABS
SLATIN BEY
ISKANDER BEY
KADI EL ISLAM
KHALIFA
MIHRAB
المحراب
KHALIFA ALI WAD HELU AND HIS MEN
KHALIFA MOHAMMED SHERIF
MOHAMMED ABD EL KERIM
المنبر
MIMBAR
KHALIFA ABDULLAH'S HOUSE
جامع الحديد
THE IRON MOSQUE
WELL
بئر ماء
To face page 468

وبعد التحادث مع الأمراء تضرب النقارات الثلاثة، وهي إشارة لإحضار الخيول لأنه ينوي تفقد ثكنات الجنود. ولا يعتلي الخليفة صهوة الجواد أو الحمار أو الجمل بنفسه أبداً، بل يقوم رجل كردفاني إسمه أبوتكة (أبجكة)، المشهور بأنه أطول وأقوي رجل في السودان، برفعع. ثم تتحـرك المسيرة كالأتي:

حوالي ٢٠٠ فارس في المقدمة، ثم أثنين من نافخي البوق ووراءهم الخليفة. وعلـي يمين الخليفة ويساره وخلفه، وفي شكل هلال، حوالي عشرين من الغلمان السود وغلمان الحـبش يحملون السيوف ثم يأتي بعدهم الحرس الشخصي المسلح بالبنادق وأخيراً يأتي الملازمـون فـي مؤخرة المسيرة. وعند وصوله للثكنات يستدعي المقدمين ويتحدث إليهم لبضعة دقائق ثم يرجـع لمنزله لتناول طعام الإفطار. وعند الظهر يتوجه للجامع للصلاة وبعدها يقوم رجل يسمي حمد عمر الباما* بقراءة بضع صفحات، بصوت مرتفع، من كتاب (السيرة الحلبية) والذي يحكي عن مختلـف حروبات الرسول وطرق القتال كما يقرأ بضع صفحات من كتاب (نصيحة الإخوان) الـذي سـبقت الإشارة إليه. ثم يتحادث الخليفة بعد ذلك مع مختلف الناس في المسجد وبعدها يعود لمنزلـه فـي حوالي الثانية ظهراً. وأحياناً يستغني عن القراءة ويتوجه إلى بيت المـال أو للهجـرة للتفتـيش. وعادة ما يخلد للراحة حتى العصر المتأخر حيث يذهب للمسجد للإستماع لقراءة الراتـب وبعـدها يقابل خلفائه وكبار أمرائه ويناقش معهم احتياجات ذلك اليوم، كما يقرأ كتبته عليه الرسائل. أما إن كانت تلك الرسائل ذات خصوصية فأنه يرجع إلي غرفته مع أخيه يعقوب. وعند الغروب يتجه مرة أخري صوب الجامع ويعتلي المنبر ويخطب ويعظ المصلين، ثم يعلن لهم أي أنباء أو أي حضـرة يري أنها مناسبة للغرض. ثم يرجع لتناول طعام العشاء وبعدها، وللمرة الخامسة، يذهب للصـلاة في الجامع وبعدها يأوي إلى فراشه.

وفي العاشرة من صباح كل جمعة يقيم الخليفة عرضاً لكافة قواته. يبـدأ ذلـك بإشـارة تنطلق معها ضربات النقارة ونفخ بوق ضخم من العاج يسمي (أم باية). ثم يقود الخليفة المسيرة، كما جاء من قبل، ووراءه الجهادية ثم حملة السيوف والحراب. ويتجهون كلهم نحو سفوح تـلال تعرف باسم جبل العرضة في مواجهة الجامع الكبير. ثم يبدأ الاصطفاف بأساليب مختلفة فمرة فـي صفين، مع وقوف الفرسان علي اليمين وبعدهم المشاة ثم النظاميين** فالمدفعية إلي يسارهم وفي مرة أخري يصطف المشاة في خط واحد طويل وتحيط بهم الخيالة. وفي تشكيل ثالث يقام صـفين للمشاة ومن خلفهم صف من النظاميين ثم صف من الجمالة، بينما تقف أرتال المدفعية والفرسـان علي الأجنحة. وهناك أيضاً تشكيل رابع للعرض يتكون من ثلاثة مربعات مجوفة من وسطها، مـن حملة الحراب (الرماحة) والجهادية، وعلي أجنحتها اليمني واليسري ومن خلفها يقف الفرسـان. يقوم الخليفة، علي مهل، بتفقد الصفوف وبعدها تعود القوات لأم درمان. وجرت العادة علي ألا تقام مناورات عسكرية.

---

* المقصود به الشيخ / محمد عمر البنا (المعرب).

** الجهادية (المعرب).

وكثيراً ما يحدث، عندما يرغب الخليفة في القيام بمشروع معين، أن يقوم باستعراض قواته في المكان المعتاد، ثم يتوجه بمفرده لمسافة قصيرة نحو بقعة معينة من الوادي، يلاحظ بها تردد غريب للصدى، ثم يصيح منادياً "يا خدرون!" ويردد الصدى صوته وتسمعه كل القوات. ثم يتظاهر باستجابة الخضر لندائه، ويجري نوع من تمثيل نقاش بينهما مما يشكل "حضرة". وفي اليوم التالي يقوم من علي المنبر بأخطار أتباعه من السذج بمضمون تلك الحضرة.

***

نعود الآن لمجريات الأحداث في أنحاء السودان المختلفة منذ توقفنا في الباب الأخير (أحداث ١٨٨٩*) وحتى الوقت الراهن. فقد ظلت حدود النيل (مع مصر) هادئة. ولازالت القيادة العسكرية في مديرية دنقلا موكلة إلي محمد خالد زقل، والذي له قوات بدنقلا وبعض المغارز العسكرية في صنم بدار الشايقية، وفي صواردة. ومن صواردة ترسل دوريات مسلحة وقوية حتى مقراكة وأحياناً يواصلون تقدمهم حتى تنجور شمال عكاشة.

وقد كان محصول التمر وفيراً في بلاد السكوت والمحس إضافة إلى حدوث ارتفاع في منسوب النيل، مع هطول أمطار غزيرة، مما أدي إلي إنتاج محصول كبير من الحبوب. وإنتهت بذلك حالة المجاعة. في حين قام الخليفة، بعد أن عرف أخيراً الأهمية الفائقة للزراعة، باتخاذ خطوات لتشجيعها وتطويرها وأصدر تعليمات لأمرائه لحث السكان في مناطقهم للإقبال بجد علي الزراعة.

وقبل بضعة شهور قام صالح بك، رجل كروسكو، بالاستطلاع حتى أبو حمد مع بعض غير النظاميين من أتباعه، وأفلح في احتلال إحدى الطوابي المتقدمة لبضع ساعات. وعند انسحابه منها دخل في اشتباك (مع الأنصار) قتل فيه سليمان ودقمر، قاتل الكولونيل الراحل ستيوارت. وبعد تلك الغارة تم تحصين أبو حمد وتقويتها ولكن، عندما لم يأت أي هجوم آخر عليها، تم سحب تلك التعزيزات وحل إدريس هارون محل الأمير جريجير كأمير عليها.

ولازالت في بربر قوة صغيرة. وقد عين أبو قرجة، بعد سحبه من طوكر، قائداً لها. لكن تم استدعاؤه لأم درمان منذ عهد قريب.

أما في سواكن فقد طرأت بعض التغييرات* فقد كان عثمان دقنة، كما نذكر، يجمع القوات لإرسالها لطوكر ولكن المجاعة التي ضربت تلك المنطقة أخرت تحركه. وبعد لأي نجح في جمع عدد كبير من الرجال والنساء والأطفال، قدرهم أحد الفارين المرموقين بأنهم أكثر من ١٠٠٠٠ نسمة، وأحضرهم لطوكر بنية التوجه بهم، عبر بلاد البشاريين، إلي طريق كرمة - القصير مما يهدد الجناح الشرقي لمصر. وكان معتمداً علي حرية استيراد الذرة من سواكن لتموين احتياجاتهم. لكن خطته تلك تسربت وأقفلت بوابات سواكن فجأة. كانت نتائج ذلك الذي حدث سريعة إذ ما لبثت قوات عثمان دقنة أن تفرقت في كافة الاتجاهات. فالبعض توجه نحو كسلا والبعض إلى بربر أما

---

* من المعرب.

* لقد جرت أحداث، بعد شهرين من كتابة هذا الباب، أدت لتغيير الوضع بصورة تامة، وأدرجناها في الملحق التالي لهذا الفصل.

الغالبية منهم فقد اختارت المأوي والطعام تحت أسوار سواكن وهذا ما توفر لهم بعد قيام الحكومة وبعض الأفراد بالتبرع لهم بمبالغ كبيرة.

ولازال عثمان دقنة بطوكر مع عدد من أمرائه ولكن قواته لم تكن إلا أسمية فقط. وكانت قد هطلت أمطار غزيرة في دلتا طوكر ترتب عليها أنتاج محاصيل ضخمة وزال شبح المجاعة عنهم أيضاً. أما الأمير أحمد محمود، الذي كان قد أنشأ سوقاً كبيراً له في هندوب كما نذكر، فقد استدعي لأم درمان قبل فترة، وعين منذ وقت قريب أميراً علي كل الإقليم الواقع شمال هندوب، مستقلاً عن عثمان دقنة. وعندما كان عائداً لأمارته من بربر، أصيب بمرض مفاجئ في آبار أوباك وتوفي بها. ولذلك فأن عثمان دقنة لا يزال الأبرز في السودان الشرقي.

ولم يتغير الوضع في القلابات كثيراً. وأستمرت العلاقات الودية بين العرب وبين قبائل الأحباش الحدودية مما ترتب عليه تقليص أعداد الحامية بها بدرجة كبيرة. وقبل فترة وعندما إندادت الحاجة إلي الطعام في المناطق المجاورة، وجه الخليفة الزاكي طمل بإرسال قوة إلي جبل تابى للإغارة علي الأهالي وإرسال المؤن له. تكونت القوة من حوالي ٢٥٠٠ من الجهادية و ١٥٠٠ من العرب بقيادة الأمير عبد الرسول وتمكنوا من إخضاع قبائل المنطقة وأرسلوا للقلابات أكثر من ١٠٠٠ رأس من الماشية. وفي نوفمبر ١٨٨٩ توجهوا لبني شنقول في دار البرتة بجنوب فازوغلي. كان حاكم ذلك الإقليم رجل يدعي ود تور القورى من الذين عينهم الجنرال غردون في هذا المنصب لكنه انضم للمهدية وتحصل علي كميات كبيرة من الأسلحة النارية في معاركه المختلفة. وعند اقتراب عبد الرسول من بني شنقول طلب من تور القوري تسليمه تلك الأسلحة لكن الأخير رفض وتحصن في منطقة وعرة بالجبال وتحدي عبد الرسول لبعض الوقت حتى أرغم أخيراً علي الفرار لبلاد الجالا. ومن هناك تمكن من الحصول على إمدادات كبيرة من الفرسان عاد بهم إلى بني شنقول ليجد أن عبد الرسول قد تلقي تعليمات من الخليفة للتوجه إلى خور الدندر والتوقف عن قتاله.

وأثناء ذلك حدثت أشياء في غاية الخطورة بالقلابات. كان بها أمير يدعي جوهر أرتفع مقامه لدرجة عالية تحت قيادة أبي عنجة، لكنه وجد نفسه وقد تدهور وضعه وهبطت مكانته بعد تولي الزاكى طمل، (الذي خلف أبي عنجة) للقيادة. كان جوهر محبوباً لدي جنود الحامية وتمكن من استقطاب حوالي ٤٠٠٠ رجل من النظاميين وخرج بهم من القلابات. وعندما سمع الخليفة بذلك أرسل بتعليمات إلي عبد الرسول بخور الدندر لأعتراض طريق جوهر. تحرك عبد الرسول والتقي به في دار الرصيرص لكن ١٠٠٠ رجل من جنوده، تركوه وانضموا إلى جوهر والذي أصبح في درجة من القوة يصعب فيها مهاجمته، ونجح في الالتحاق بود مك كمبو في جبل الداير. وسيجد الخليفة نفسه في وضع أكثر استحالة من ذي قبل من ناحية تمكنه من إخضاع هؤلاء الجبليين الصلبين، الذين تعززت قوتهم كثيراً.

•••

كان الأمير النصرى، في كسلا، علي رأس قوة محدودة. وقد حتم وضع القوات الإيطالية، في تلك المنطقة ذات الأهمية الإستراتيجية البالغة، عقد مؤتمر بين الحكومتين الإنجليزية والإيطالية

في نابولي في سبتمبر الماضي. وكان الأمر المطروح هو (رغبة) إيطاليا في احتلال كسلا. لكن الوفد الإنجليزي تحجج بأن مصر تطالب بأن يكون لها الحق الأول في استعادة إقليمها الضائع عندما يحين الوقت، وهذا ما أدي لفشل المفاوضات*. كان الأيطاليون قد حققوا نفوذا كبيراً علي قبائل البني عامر والقبائل الأخرى إلي الشمال وجندوا منهم أعداداً كبيرة وسلحوهم بأفضل الأسلحة. وأصبح هؤلاء الأهالي المجندين مصدراً للخطر الذي يهدد قوات الأنصار بكسلا، وساد فيها قلق عظيم، ونفذ حكم الإعدام مؤخراً علي أربعة من الزعماء لإتصالهم مع العدو وتبادل الرسائل معه.

وأصبحت سنهيت الآن في أيدي الإيطاليين في حين أحتل مجندوهم المحليين في أوقات متفاوتة كل من بيشة وكوفيت وخور الباشا. وتشير كل الدلائل علي أن الخليفة مصمم علي مقاومة أي اعتداء علي كسلا، لكن قدراته علي الصمود والمقاومة لمدة طويلة تبدو كمشكلة صعبة الحل.

***

أما الإستوائية ، فمن غير المعروف ما آل إليه الحال فيها منذ مغادرة حملة إنقاذ (لأمين باشا) لها. لكن كل الذين قدموا حديثاً من السودان أفادوا بأن قوات المهدية قد سحبت من تلك الأقاليم قبل فترة من الزمن، وأن الدينكا والشلك، بجانب القبائل التي بأقصى الجنوب منهما، كانوا في حالة ثورة واضحة ضد العرب، وينظرون إليهم بكراهية بالغة بافتراض أنهم من تجار الرقيق الذين أفقروا مناطقهم من السكان ودمروا أوطانهم.

وعن القوات التي تخلفت بالمديرية بعد رحيل أمين، فأن أغلب الإحتمالات تشير إلي أنهم لا يزالون يعيشون بمحطاتهم. وإلى وقتنا هذا فلابد أن تكون ذخائرهم قد نفذت. ولكن لا يوجد سبب يدعو للإفتراض بأنهم علي علاقات غير ودودة بالأهالي. فقد ولد معظمهم أو تربى معهم في بلادهم، وغالباً ما يكونوا قد إنحدروا ثانية للبربرية والبدائية السائدة هناك.

وقريباً ستقوم البعثات الاستكشافية المختلفة، البريطانية والألمانية خاصة، والتي تتوغل الآن في أواسط إفريقيا، بالكشف عن حالة تلك المناطق النائية. وليس من المستحيل أن تتحول تلك المناطق النائية من السودان وكل السودان إلي العودة للمدنية والتي كانت في تقدم ملموس قبل أن تبدأ ثورة المهدي.

وعندما توضح (البلاد) تحت إدارة أوروبية فأن التجارة الكريهة للرقيق ستتلقى الضربة القاضية المميتة لها.

ويقال أن بحر الغزال قد أخليت تماماً من المهدويين. ولم يتم أي اتصال بينها وبين أم درمان لأكثر من سنة، وذلك رغم أن البعض يقول بأن خليفة الأمير كرم الله لا يزال محتفظاً بالسلطة هناك، تدعمه قوة صغيرة من الجنود.

***

* لكنها إستؤنفت بعد ذلك وتم التوصل إلي وضع خط للحدود التي تفصل مناطق النفوذ بين القوتين، كما هو موضح بالخريطة.

أما كردفان، فيقال أنها تكون جزءاً من القيادة العسكرية لأمير دارفور عثمان آدم جانو.
ومنذ ثورة ابى جميزة نشبت حروب مستمرة ولكن علي نطاق محدود علي حدود دارفور مع دار برقو، وذلك علي رغم تعليمات الخليفة للابتعاد عن أي أعمال عدائيه ضد سلطان برقو. وفي إحدى تلك الإشتباكات يشاع بأن الأمير عثمان آدم قد قتلن وقال البعض أن الخليفة قام بالفعل بإعلان نبأ موته في المسجد.

وقد توفرت المحاصيل هذا العام في السودان. ولهذا السبب، ولغياب وانعدام أي معارك شرسة قاتلة، ولأن حياة المهدية هي في الجهاد فأن من الممكن إفتراض أن جيوش عبد الله التعايشي لن تظل ساكنة لمدة طويلة بعد الآن. هذا بالإضافة غلي صراع النفوذ بأم درمان والذي قد يؤدي إلي نوع من الشعور بعدم الأمن تزيده حدة تلك الفترة التي سادت من الهدوء مؤخراً.

مما سبق إيراده، فيمكن أن نختتم هذا الفصل بالقول بأن المهدية، ورغم أنها كحركة دينية قد فقدت ذلك الحماس المعصب الذي جعلها حركة مرعبة هائلة إلا أنها قد تحولت عموماً إلي قوة بربرية ليس لأنها في غاية من الترابط والتضامن بل أنها لازالت ذات أهمية تجعل من اتخاذ الإحتياطات الضرورية يمنع تقدمها إلي الشمال أمراً حتمياً.

ولقد ذكرنا الكثير من قبل عن الإدارة السابقة للسودان تحت الحكم المصري. فإذا ما قدر لهذا البلد أن يعود مرة أخري ليصير جزءاً من ممتلكات الخديوي، فلا شك في أن دروس السنوات العشرة الأخيرة لن يتم نسيانها أبداً. ولابد أن ينهض سودان جديد أفضل من بين رماد غردون ومن أشلاء كل أولئك الشجعان من الضباط والجنود الذين هلكوا وهم يؤدون بولاء واجبهم المناط بهم. وهذا هو الأمل العظيم الذي يحدو كل من يتمني الخير والرفاهية لمصر.

القاهرة في الأول من يناير ١٨٩١.

***

ملحق إضافي*

إستعادة طوكر (١٩ فبراير ١٨٩١)

بعد أن تمت كتابة ما سبق، أعادت قوات الحكومة إحتلال طوكر، وتم طرد عثمان دقنــة، مع عدد قليل ممن تبقي من قواته، جنوباً نحو كسلا.

وفيما يلي عرض مختصر للأحداث التي قادت لإحتلال هذا الإقليم الهام الخصيب، والذي كان يسيطر عليه في السودان السبعة الماضية الطاغية عثمان دقنة، وبسبب قسوته وسوء إدارته للحكم تعزي لحد كبير الهزيمة القاسية الأخيرة لقوات المهدية.

وكان الوضع في شرق السودان، حتى عهد قريب للغاية كما يلي:

كانت هندوب محتلة بعصابة من النهابين كــانوا منغمســين باســتمرار فــي الســرقات والإنتهاكات لمناطق سواكن المجاورة وسببوا قلقاً كبيراً للمواطنين الموالين للحكومة الذين كــانوا يمدون سواكن ببضائعهم. وكان عثمان دقنة لا يزال ممسكاً بزمام الأمور في طوكر. ورغم أن قوته قد تقلصت كثيراً إلا أن عدداً كبيراً من الأمراء كان معه، مما يشير إلى أنه كان ينتوي جمع قــوة كبيرة يعزز بها جيشه. كان العرب المحليين، الذين تركوا المهدية، يشتكون مر الشكوى مما يعانون من قهر عثمان لهم وعدم رحمته لكنهم كانوا أضعف من أن يقوموا بمواجهته بــدون دعــم مــن الحكومة. لذلك كان الوضع أبعد من أن يكون مرضياً. وفي الحقيقة كانت هناك تجارة مشروطة مع سواكن لكن كان من المستحيل ضمان ألا تقع المؤن في يد عثمان وبالتالي تساعده وتقويــه فــي إتجاهاته العدوانية المزمعة. وكان من المعروف أن أنواع التجارة المحظورة وتجارة الرقيق خاصة قد ازدهرت في ظل سيطرة عثمان علي هذا الإقليم، ولم يكن هناك إلا قليل من الشك بأن الــذخائر ومعدات الحرب كانت تجد طريقها للسودان عبر هذا الإقليم ومن خلاله.

وقد أتفق رأي الجميع على أن الطريقة الوحيدة لوضع نهاية لتلك الحالة غير المرضــية هي في طرد العدو من هندوب وطماي ومن مختلف المحطات التي تجــاور ســواكن، وأن تقــوم الحكومة باستعادة إقليم طوكر وإعادة إحتلاله. ولكن تجارب الحملات السابقة في ذلك الجوار أدت إلي نشوء حالة من التردد، من جانب السلطات، للدخول في عمليات يمكن أن تقود لحروب واسعة وباهظة التكلفة. وكان من المحتمل أن تظل الأوضاع علي ما هي عليه بدون تغيير لــولا أن طــرأ حدث غير حسابات المعارضين وتصورهم لما يمكن أن تواجهه قوات الحكومة عند تقــدمها ضــد العدو. هذا الحدث تمثل في مغادرة عثمان دقنة؛ مع كل قواته المقاتلة تقريباً، لمنطقة الحباب. لــم تكن نواياه من تلك الحركة قد اتضحت. لكن كان من المعتقد أنه كان متوجهاً فــي حملــة لجمــع الضرائب وأنه قد يتغيب فيها لبضع أسابيع.

---

* كتب ونجت هذا الملحق الإضافي بعد أن أكمل كتابه (في أول يناير ١٨٩١) وإضطرته الأحداث لإضافته (المعرب).

لذلك تبلورت لدي الحاكم العام لسواكن، الكولونيل هولد سمث، فكرة إحتلال طوكر بهجوم مفاجئ كاسح أثناء غياب عثمان – فقد كان الانطباع السائد هو أن قوات الحكومة إذا ما سيطرت على دلتا طوكر، فأن من المضمون الحصول علي ولاء كل القبائل المحيطة بها، وحتى البعيدة نسبياً عنها، وأنها ستقاوم بشدة أي محاولة من الدراويش لإستعادة المنطقة. ومما يزيد من صعوبة الأمر (بالنسبة لعثمان) هو أن الحكومة قد تسيطر على المكان الوحيد في تلك المنطقة الذي تتوفر فيه المواد الغذائية والطعام.

تلك كانت مبررات الكولونيل هولد سمث التي أبرقها تلغرافياً في الخامس عشر من يناير ١٨٩١. راجياً بشدة الإذن له بالمضي قدماً في خطته.

وكان لابد من تمحيص الأمر بدقة قبل التصديق بقيام حملة كهذه. وتبودلت العديد من التلغرافات بين سواكن والقاهرة، هذا يشرح ويوضح وذاك يستفسر ويتساءل. ولعدة أيام لم يتم اتخاذ أي قرار*.

خلال ذلك لم تتوقف محطة هندوب عن كونها مصدراً للمتاعب. وتعددت الغارات حول سواكن وارتكبت فظائع كثيرة ضد القبائل الموالية. وبالتالي، وفي ٢٦ يناير، تم توجيه فصائل الخيالة المصرية، بقيادة الكابتن بيش، للتقدم نحو هندوب. وقد نجحوا في أسر جماعة من أثنين وأربعين لصاً. لكنهم ما أن عادوا لسواكن حتى وصلتهم معلومات بأن جماعة من الفرسان والراجلين كانوا يهاجمون قطيعاً من الماشية التي كانت ترعي خارج الطوابي. وقام الفرسان مع الخيالة المحليين فوراً بمطاردتهم وإستعادوا المواشي ثم واصلوا مطاردتهم للعدو حتى هندوب وأحدثوا بهم بعض الخسائر بينما قتل من فرسان الحكومة رجل واحد وجرح آخر. ثم عادوا إلى سواكن. ثم ما لبث بعد ذلك بقليل أن قامت جماعة من الفرسان والراجلين، حاملين للرايات، بالظهور على بعد ٥٠٠٠ ياردة من الطوابي في مظهر واضح للتحدي. لذلك قرر الكولونيل هولد سمث مواجهة هذا التحدي من اللصوص بالتقدم بقواته نحو هندوب و تشتيتهم. طبقاً لذلك تقدم في صباح اليوم التالي بالتشكيل التالي:

- الخيالة في المقدمة.
- وراءهم الكتيبة السودانية الحادية عشرة.
- على مسافة منها، كاحتياطي، الكتيبة السودانية الثانية عشرة.

شوهدت جماعة من العدو متراجعة شيئاً فشيئاً. وعند اقتراب القوات أتضح لها أن هندوب، مثلها مثل الجبال التي على يسار القوات المقدمة، كانت محتلة بقوات العدو بأعلامها وراياتها الخفاقة كما كانت النقارة تضرب والجميع متهيئون. تقدمت الكتيبة الحادية عشرة، بقيادة الكابتن مكدونالد، باتجاه وسط هندوب بينما توجهت فرق الخيالة نحو الجبل الشمالي وحوله لقطع

---

* في ذلك الوقت كان الجنرال سير قرنفل بصحبة صاحب السمو الخديوي في مهمة لتفقد مديرية الحدود لكنه عاد إلى القاهرة بأسرع ما يمكن للنظر في أمر طوكر. وربما لا نخرج عن الموضوع إذا نظرنا لما أحدثته زيارة صاحب السمو من أثر على سكان الحدود. فقد كان حماس الأهالي لا حدود له عند استقباله مما قدم دليلاً لاشك فيه علي التغيير الذي حدث في ذلك الإقليم بعد أن تم تدمير قوات النجومي وطردها منه في عام ١٨٨٩.

خط الرجعة علي العدو. تم توقيت هذه الحركة الاتفاقية بدقة تامة. وعندما تراجع العدو أمام المشاة إنقض عليهم الفرسان بفعالية مدمرة وقتلوا أكثر من أربعين منهم بمن فيهم أميرهم راجـاً. أمـا الباقون فقد فروا إلى الجبال وتم إحتلال هندوب بدون مقاومة أخرى. تم تحويل مبنى بيـت المـال (المبني من الحجارة)، والواقع في مكان مناسب، إلى ثكنة قوية تتبع لحوالي خمسين رجلاً وأقيمت من حوله زريبة متينة، وبقيت بها الكتيبة الحادية عشرة مؤقتاً بينما عادت بقية القوات لسواكن.

أدى إحتـلال هذا المركز الحصين للدراويش، والذي ظل طـويلاً مصـدراً للإزعـاج الشديد لسواكن، إلى ارتيـاح كبير وعـادت القبائل المجاورة الآن لتمـارس تجارتها بحرية، إلى سواكن ومنها.

كان سكان هندوب قد إستفادوا من الخط الحديدي القديم الذي بين سواكن وبربر لبنـاء مساكنهم. فالمسجد مثلاً كان من الحديد المأخوذ من القضبان ومن الألواح التي تم طرقها وضفرها بدرجة متقنة ووفرت حماية طيبة له.

وفي الحادي والثلاثين من يناير توجه الملازم كوتون، بصـحبة عشـرة مـن الخيالـة المحليين وثلاثين من العرب الموالين وخمسة وعشرين من رجال قوة بوليس سواكن من العـرب، بحراً إلى الشيخ بارود ومنها تقدموا مشياً إلى دارور حيث كان بها أحد المهـدويين المعـروفين، وتاجر للرقيق في نفس الوقت، أسمه عمر لحاي ومعه عدد قليل من الرجال يجمعون الضرائب. تم الإحاطة بالمنزل الذي كان لحاي به وبعد ذلك تم أسره ومن معه من الرجال بدون مقاومة تذكر.

بعد ذلك تقدم الملازم كوتون إلى فجير ومنها إلى روية والتي وصلها عصر الأول مـن فبراير. نزلوا من السفينة وتوجه مع رجاله بعد ذلك بحثاً عن جماعة من المهدويين، بقيادة الأمير محمد طاهر الأمين، كانوا في مهمة لجمع الضرائب. إصطدم بهم علي مسافة ستة أميال من روية، عندما كانوا علي وشك الدخول إلى الجبال، وبعد إشتباك قصير تمكن من القبض على الأمير وعلي ستة عشر من رجاله.وفي الثاني من فبراير تقدمت جماعة من العرب الموالين نحو طماي، حيـث كان معلوماً لديهم أن بها حوالي خمسين من أفراد العدو ومعهم الشريف جـابر. هـاجم العـرب الموالون المركز ونجحوا في القبض علي الشريف وعلي معظمهم رجاله.

أدت تلك الضربات المفاجئة والناجحة إلى تدهور وضع المهدية في المناطق المجـاورة لسواكن وكانت نتائجها واضحة على علاقات الحكومة بالقبائل المجاورة لسواكن. وتدفقت الإمدادات على سواكن بحرية وعبر الشيوخ عن سرورهم لطرد الدراويش. ولكن لم يتوقع أي أحـد، رغـم ذلك، أن تستمر حالة الهدوء في المنطقة طالما ظل إقليم طوكر الخصيب فـي أيـدي المهـدويين. وظلت مسألة الحملة ضد طوكر معلقة دون قرار. أستمر ذلك حتى يوم الثامن من فبراير حينما تم إبلاغ الحاكم العام التصديق علي مقترحاته وخططه. وتم الاتفاق علي أن تتكون القوات المهاجمـة من ١٥٠٠ علي الأقل من المشاة و ١٠٠ فارس ومدفعي ميدان ومدفعين جبليين، هذا إضافة إلى إرسال قوات من كتائب القاهرة وأسوان للمساعدة على حماية سواكن وتأمينها وتقديم التعزيـزات للقوات المهاجمة إن دعت الضرورة لذلك. ولم يتأخر إرسال القوات بالبحر. وفي الحادي عشر من فبراير تم احتلال (ميناء) ترنكتات بواسطة الكتيبتين الرابعة المصرية والحادية عشرة السـودانية.

وتبع ذلك تقدم الكولونيل هولد سمت وأركان حربه نحوهم في الثالث عشر من فبراير. وفي اليــوم التالي قام الفرسان والكتيبة السودانية الثانية عشرة وسرية من الكتيبة المصرية الأولى بالوصول إلى ترنكتات وتم إحضار كميات كبيرة من المؤن لها من سواكن واتخذت كل الإجـراءات للقيــام بتقديم سريع نحو طوكر*.

وتم أيضاً تشكيل قوة من ٥٠٠ من العرب الموالين في سواكن، ووضـعوا تحـت إدارة المستر وايلد (القنصل) بعد أن وجه بالتقدم براً نحو تمرين. وبعد متابعته لتحركات القوات المصرية كان عليه أن يستعد لقطع طريق أي تراجع للعدو.

أثناء ذلك وصلت معلومات من الفارين من معسكر عثمان دقنة، مـن قريـة عفافيـت، والذين وصلوا إلى ترنكتات في الرابع عشر من الشهر بأن عثمان قد عاد بقواته من منطقة الحباب قبل بضعة أيام. وعندما علم بسقوط هندوب وطماي غادر عفافيت متوجهاً للشمال مع قـوة مـن ١٠٠ خيال ١٨٠٠من حملة السيوف والرماح و١٠٠ سوداني مسلحين بالبنـادق. كـان ينتـوي استنفار القبائل في الطريق ومن ثم إعادة احتلال هندوب . وقد وصل إلى طروي في الثالث عشـر من فبراير وغالباً ما يهاجم هندوب في الخامس عشر من الشهر. وقد ترك وراءه ود الشيخ طاهر المجذوب أميراً علي عفافيت ومعه ٥٠٠ مقاتل منهم ٣٥٠ من الأغراب ومعهـم بعـض الخيالـة والجهادية. تشكك المسئولون في صحة هذه المعلومات ولكن وفي منتصف ليلة الرابع عشر مـن فبراير شنت فرقة من فرسان العدو غارة على معسكر للعرب الموالين بالقرب من سواكن وقتلوا ثلاثة منهم وجرحوا سبعة من النساء وبهذا تأكد بأن هناك قوة (معادية) فـي مكـان غيـر بعيـد وبالتالي تقدم رجال المستر وايلد من العرب الموالين لتعزيز قوات هندوب* وقد تعززت التأكيدات الخاصة بنوايا عثمان دقنة أكثر من ذي قبل عندما فر اثنان من رجاله من طماي وأفادوا بأن قائد تلك الغارة هو عثمان نايب والذي كان قد أرسل للحصول علي المواشي لإطعام القوات التي تقـرر أن تهاجم هندوب.

وفي وقت متأخر من يوم ١٥ /٢ وصل إلى سواكن إثنان آخران من الفارين من العدو، وأفادوا بأن عثمان قد تلقي للتو رسالة من مجذوب بعفافيت أخبره فيها بوصل قوات بالبواخر إلى ترنكتات تشتمل علي ألاف من الجنود الإنجليز والمصريين. وذكر أن الجنـود المصـريين كـانوا مكبلين بالأغلال الحديدية مع بعضهم البعض حتى لا يلوذوا بالفرار من الجندية. ورجي مجذوب من عثمان العودة فوراً بقواته لمحاربة الكفرة والمشركين. ولذلك ترك عثمان أمر الهجوم علي هندوب وأسرع بالتوجه بمشقة بالغة إلي عفافيت عن طريق تروي وستراب** .

---

* وقد وصلت الأخيرة ومني تبقي من الكتيبة الأولي، مع اللفتنانت كولونيل سيتل وبعض الضباط الأخرين بأركان الحـرب المصري، إلي سواكن يوم ١٤ / ٢ قادمين من القاهرة. نزلت من السفن ثلاثة سرايا لتخدم في حامية سواكن تحـت قيادة الكابتن كولز (من فوج كنت الشرقية) بينما نزل الباقون في ترنكتات صباح يوم الخامس عشر.

* وكانت هندوب في ذلك الوقت تحت حماية قوات بسيطة من البوليس الوطني والذين كانوا قد حلوا محل القـوات التـي سحبت للإشتراك في حملة طوكر.

** نلاحظ أن تلك المعلومات قد وصلت إلي سواكن يوم الخامس عشر من الشهر لكنها لم تصل لعلم قوات الحملة إلا بعد يومين من ذلك.

أثناء ذلك اكتملت كل الاستعدادات للتقدم نحو آبار التيب، في مساء الخامس عشر من الشهر. ولما لم تصل أي أخبار جديدة عن تحركات العدو، حتى ذلك اليوم، إليهم في ترنكتات فقد تقرر أن تتقدم القوات صباح اليوم التالي الباكر، بعد أن تترك سرية واحدة من الكتيبة الأولى لحماية ترنكتات. وطبقاً لذلك، وفي الثامنة من صباح يوم السادس عشر من فبراير، غادرت القوات ترنكتات، وتقدمت على النحو التالي: الفرسان، ثم الكتيبة الحادية عشرة، ثم الكتيبة الرابعة، ثم الكتيبة الثانية عشرة، ثم السلاح الطبي وسلاح النقل والترحيل***. كانت المسيرة خلال الأميال الخمسة الأولى علي أرض رملية وعرة، ولما كان ذلك الصباح قائماً ثقيلاً علي غير العادة فقد كان من الضروري التوقف كثيراً للحصول علي بعض الراحة. يقع الطريق عبر انحناءة طويلة (بشكل قوس) لميناء ترنكتات. وكان من المزمع إقامة مستودع للمياه في أقصي طرفه الجنوبي، وبذلك يمكن توفير وإختصار دورة طويلة من الطريق مع تخفيف العبء علي وسائل النقل أيضاً. توقف طابور المعدات والأمتعة في هذه النقطة عند الظهر وتم تحصين الموقع بجماعة من المدفعجية،

*** فيما يلي تركيب وتشكيل وعدد قوات الحملة الميدانية لشرق السودان:

- القائد العام: الكولونيل هولد سمث من فرقة الرماة الملكية.
- رئيس الأركان: اللفتنانت كولونيل سيتل، من المهندسين الملكيين.
- مساعد الأجوتانت جنرال للإستخبارات: الميجر ونجت، دي إس أو/ آر إي.
- ضباط الأركان: كابتن بارو (كتيبة لانكشاير الجنوبية). الملازم كيرتس/ من المهندسين الملكيين.
- كبير الضباط الأطباء: الجراح مايلز (من السلاح الطبي)
- مسئول الإمدادات والإتصال: الكابتن ماشل (كتيبة إسكس).
- مدير قاعدة الإتصال: الصاغ مختار أفندي.
- كبير ضباط البحرية: الكوماندر ددنج (من البحرية الملكية/ على السفينة دولفين).
- ضابط البحرية الملازم كرادوك (على السفينة دولفين).
- السكرتير العربي: ملحم شكور بك.

القوات:

- الفرسان: فصيلين بقيادة كابتن بيش (الهوسار العشرين).
- المدفعية: ٥٩ رجل، مدفعي ميدان ومدفعين جبليين بقيادة الملازم بولن (آر إي).
- المشاة:- الكتيبة الرابعة المصرية/ بقيادة الكابتن هاكيت بين (من كتيبة سري ويساعده القائد الثاني الكابتن سدني (من مشاة دوق كورنوول الخفيفة).
- الكتيبة السودانية الحادية عشرة بقيادة الكابتن مكدونالد (من مشاة غردون هايلاندرز)، ويساعده القائد الثاني الملازم جاكسون (غردون هايلاندرز) والملازم كوتون (مشاة شرو بشير الخفيفة) والملازم دبلات تايلور (حرس الحدود).
- – الكتيبة السودانية الثانية عشرة بقيادة الكابتن بيسانت (من كتيبة نورفولك) ويساعده في القيادة الكابتن مارتير (مشاة دوق كورنوول الخفيفة).
- السلاح الطبي: الجراح جراهام (من السلاح الطبي).

هذا إضافة إلي مفارز من المهندسين والمفوضن والمدفعجية والبياطرة. وبلغ المجموع ١٨ ضابطاً إنجليزياً، و ٥٧ ضابطاً وطنياً، ٦ ضباط صف إنجليز، و ١٨٥٥ ضابط صف وجندي من الوطنيين، و ٥٥ مدنياً (بمن فيهم المترجمين) و ١٢ رجل من قوات بوليس سواكن الراكبين، و ٤٠ راجلاً، و ١٥٠ قائد جمل، و ١٥٠ حصاناً و ٤٥ بغلاً و ٥٠ حماراً و ٢٠٠ جمل و ٥ مدافع (أحدها مدفع مكسيم).

وقد إنضم الضباط الآتية أسماؤهم إلي الحملة في التيب يوم ١٧ / ٢ وهم اللفتنانت كولونل رندل ومساعد مدير الاتصالات الكابتن بالمر من مشاة سمرست الخفيفة والطبيب البيطري جرفث.

معها مدفعان وبقيادة الملازم بولن. بعدها جرى التقدم بتشكيل مختلف عـن السـابق لحـد مـا. فالخيالة الفرسان، الذين كانوا علي بعد ميل من الأمام، عادوا لتغطية وسط المسيرة ويسارها. وقاد تقدم المشاة أفراد الكتيبة الحادية عشرة وتلتها الكتيبة الرابعة في خط مواز لها وعلي بعـد ١٠٠ ياردة على يسارها. أما الكتيبة الثانية عشرة فمضت مباشرة خلف الكتيبة الحادية عشرة وعلى بعد ١٠٠ ياردة إلى اليمين من مؤخرة الكتيبة الرابعة. بعد هم جاءت الفرق الطبيـة ووراء الجميـع طابور صغير من الجمال والبغال التي تحمل الذخائر والمياه. أما فرسان العرب الموالين فقد عملوا كأدلاء للحملة.

ومـروا أثناء تقدمهم خـلال الموقـع الذي حدثت فيه معـركة المرحوم الجنرال بيكـر في فبراير ١٨٨٤ وكانت آثار المعركة لازالت واضحة من مشاهد أكوام العظام البيضاء المبعثـرة عبر السهل.

وكان من المعتقد أن العدو يحتل آبار التيب ولكن عند إقترابهم منها لم يشاهدوا إلا بعض الفرسان على البعد وهم يتراجعون نحو الأفق وأبلغت طلائع الخيالة بأن التيب خالية مـن العـدو، ومن ثم تحركت نحوها القوات في الثالثة ظهراً، وعسكروا، على شكل مربع، في الهـواء الطلـق جنوب الآبار. وجدوا أن الآبار قد ردمت لكن المواطنين الموالين الذين معهم قاموا بإعادة حفرها. ووصلت جمال النقل عصر ذلك اليوم قادمة من مستودعات المياه (والتي أطلق عليهـا الآن اسـم طابية دولفين) ثم عادت لترنكتات لإحضار بعض المؤن. تم إتخاذ كافة التحوطات من أي هجوم قد يشن عليهم أثناء الليل. ولما لم تكن لديهم أي أخبار عن تحركات العدو فقد قاموا بإرسال جواسيس من العرب باتجاه طوكر. وفي أثناء ذلك تم التثبت في سواكن من الأخبار السابقة الخاصة بتحركات عثمان وأرسلت خطابات للمستر وايلد تأمره بالمضي قدماً مع العرب الموالين بأسرع ما يمكنه ذلك وأن يقيم إتصالات ما بين سواكن وقوات الحملة.وأثناء الليل سلمت جماعة من حوالي ثلاثين رجلاً وإمرأة من الشايقية أنفسهم لطابية دولفين وأفادوا أنهم قد هربوا للتو من عفافيت، والتي وصفوها بأنها قرية كبيرة تقع علي بعد أربعة أميال تقريباً من جنوب شرق مأمورية طوكر المخربة. وكان من المعروف ان ذلك المكان لم يمكث به العدو منذ عام ١٨٨٤. وأفاد هؤلاء الهاربون أيضاً بأنهم سمعوا بأن عثمان كان في طريقه عائداً من هندوب، لكنهم لا يعلمون إذا كان قد وصل إلى عفافيت أم لا. وأضافوا بأن مفرزة من خيالة العدو تقيم في واديت، جنوب التيب ببضعة أميال، كمـا عـاد الجواسيس العرب صباح يوم ١٧ فبراير وذكروا بأن الطريق في ذلك الاتجاه كان مقفلاً بواسـطة أحد عشر فارساً من العدو.

وتم بناء حصن قوي يطل علي آبار التيب. وسرعان ما تدفقت عليه الإمدادات والمـؤن من ترنكتات ومن طابية دولفين. وكانت الحامية المكونة من رجال المدفعية قد وضـعت لحمايـة المكان الأخير تحت قيادة الملازم بولن، والذي كان قد أرسل لحماية حصن التيب، ثم حلت محلـه فيها مفرزة من الكتيبة الأولى.

كان قد تقرر مواصلة التقدم من التيب صباح الثامن عشر من الشهر ولكن نظراً لهبوب عاصفة شديدة، تعمي العيون، استمرت لعدة ساعات، فقد تأجل التقدم.

وفي صباح نفس اليوم تم إلقاء القبض على أحد جواسيس العدو، بواسطة قوات بوليس العرب الراكبة، وإتضح أنه كان قد غادر عفافيت في صباح نفس اليوم الباكر بتعليمات من عثمان دقنة ليعرف ويحدد له بالضبط مكان وتحركات القوة المتقدمة نحوه. وقد أدلى بأقوال مفادهـا أن عثمان قد عاد إلى عفافيت صباح يوم الاثنين (١٦ /٢) وقام في الحال بإعدام أوهاج حسن وإثنين من كبار الشيوخ الذين إشتبه في نيتهم للفرار إلى أعدائه. وكان قد جاء ومعه تعزيزات أحضـرها معه من الشمال وأمر بضرب النقارة باستمرار منذ وصوله، وهدد كل من لا يستجيب لنداء (الجمع للقتال) بالموت. وتحول يوم الثلاثاء إلى معسكر خارج عفافيت بكل قواته، والمكونة من بضع آلاف من الرجال، كان معظمهم من العرب المحليين الذين لا يرغبون في القتال والذين أرغمهم عثمـان علي الانضمام لراياته. وكان بعض أمراء عثمان، بمن فيهم عثمان نايب وموسى فكي، في مهمـة خارج المنطقة لجمع الرجال، كما استدعيت كل جماعات جمع الضرائب للحضور له لزيـادة عـدد قواته المقاتلة. وكان كل يوم يمر يشهد انضمام المزيد من الرجال إليه سواء بـرغبتهم أم غصـباً عنهم، واتخذوا لهم معسكراً بين تلين رمليين مرتفعين يعرفان بأسم شبابيت ولا يبعدان كثيراً عـن قرية كرباجيت، جنوب شرق خرائب طوكر القديمة بحوالي ميلين. كان قصد عثمان انتظار دخـول القوات إلى الغابة الكثيفة الأشجار، والتي لا بد لهم من إختراقها، ثم ينقض عليهم مـن الأجنـاب عندما تكون القوات منهكة من جراء سيرها الطويل الصعب.

من تلك المعلومات، مصحوبة بمعرفته بأن آبار طوكر قد ردمت منذ مدة طويلة أمتـدت لسنوات، وأنها تحتاج لوقت طويل وجهد بالغ لإعادة حفرها، قرر الكولونيل هولد سـمث التقـدم مباشرة نحو عفافيت عند فجر اليوم التالي (٢/١٩)، ويتوقف عند طوكر ويتـرك بهـا الـذخائر والمياه، وبهذا يكون جاهزاً لمواجهة العدو بدون أن تعيقه الجمال والبغال.

بالتالي، وعند فجر التاسع عشر من فبراير تحركت القوات المكونة مـن ٨١ ضـابطاً و ١٧٦٢ صف ضابط وجندي و ١٤٩ جواداً و ٣٦ بغلاً و ٨٣ جملاً، من التيب حيـث تـرك فيهـا حامية من ٦٠ مـن المدفعجية ونصف سرية من الكتيبة الثانية عشرة ومـدفعين، تحـت قيـادة الملازم بولن.

تحركت القوات بالتشكيل التالي: الفرسان على بعد ميل أمام القوات مغطين كل المواجهة والجناحين والمؤخرة. أما المشاة فتوزعوا كما بالشكل الأول والثاني.

كروكي يوضح الطريق
الذي سلكته قوات حملة
شرق السودان

SKETCH
SHOWING ROUTE TRAVERSED BY
THE
EASTERN SUDAN EXPEDITIONARY
FORCE
19th Feb. 1891

١٩/٢/١٨٩١

Route traversed by Fighting Force shown thus
Baggage Column

خليج ترنكتات
BAY OF TRINKITAT

ملحية سبخات وأراضي سبخة
SALT MARSH

أراضي ملحية سبخة
SALT MARSH

طابية دولفين
FORT DOLPHIN
WATER DEPOT

موقع معركة بيكر

موقع معركة جراهام

موقع المبيت من ١٦-١٨/٢/١٩١١

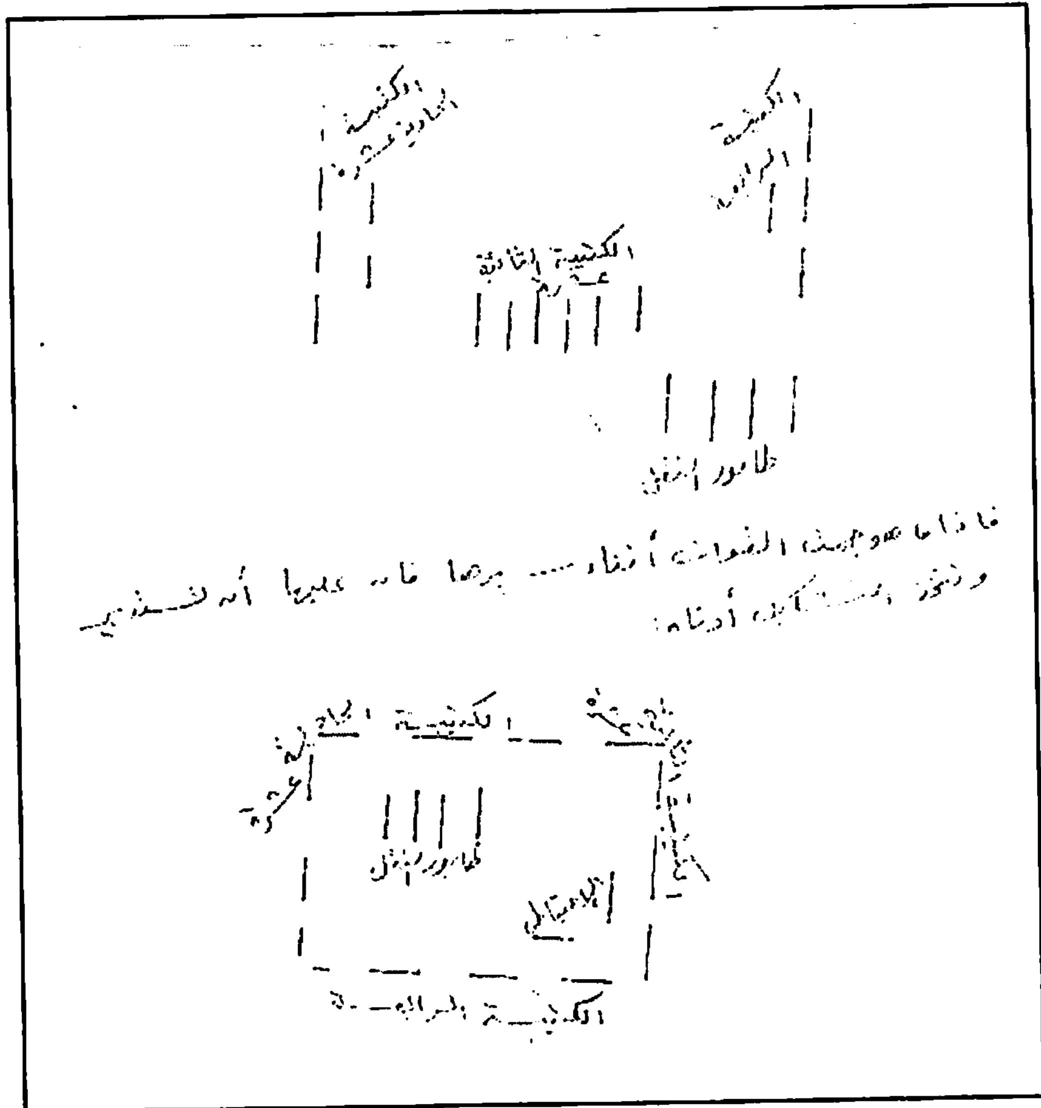
موقع المعركة

مسكر عثمان دقنة
OSMAN DIGNA'S CAMP

Scale of Miles

موقع المبيت من ١٩/٢/١٩١١

Sketched by Lieut. R. J. Curtis R.E.
attached to Egyptian Army



تحركت القوات بالتشكيل التالي: الفرسان على بعد ميل أمام القوات مغطين كل المواجهة والجناحين والمؤخرة. أما المشاة فتوزعوا كما بالشكل الأول والثاني.

وكان من المعروف أن الغابة اليسرى كانت أغزر أشجاراً من اليمني. لذلك توجهت كل القوات متخذة طريقاً جنوبي غربي حتى لاحت لهم طوكر والتلال الرملية، ثم تقرر بعد ذلك تغيير إتجاهم وتوجه الطابور مباشرة إلى طوكر.

قام الفرسان المتقدمون بطرد بعض كشافة العدو الراكبين من أمامهم. وفي التاسعة وعشرين دقيقة صباحاً شاهدوا ضرائب مأمورية طوكر، كما علموا بأن بعض طلائع العدو قد تراجعوا إلى المؤخرة اليسرى. اندفعت مفارز الخيالة التي كانت بالأجنحة نحو الخرائب واحتلتها وتبعتها بقية القوات والتي وصلت إلى الناحية الشمالية الشرقية من القرية في العاشرة صباحاً. وأثناء ذلك قامت جماعة الخيالة التي كانت علي الجناح الأيمن بالإنحراف في دورة نحو الجنوب ولاحت أمامها قوات العدو التي بداخل الغابة الكثيفة بين طوكر والتلال الرملية.

كانت قرية طوكر ومأموريتها فيما مضي مزدهرة عامرة وبيوتها ومبانيها مشيدة بالطوب اللبن، وتحيط بها الحدائق من كل جانب. لكنها وجدت الآن خراباً بلقعاً ولم يعد قائماً فيها سوي بعض الحوائط، أما السقوف فقد إنهارت منذ وقت طويل وكان كل ما شوهد فيها يمثل سلسلة من النفايات وأكوام الرمال التي ترتفع قليلاً عن مستوي الغابة الكثيفة علي غير المعتاد والتي نمت أشجارها حتى مستوى الحوائط الخربة المتهدمة. وقد ضاعت كل معالم المديرية ولم يعد يشير إليها إلا بعض الأسوار الخربة الواقعة علي بعد من القرية.

وركب الكولونيل هولد سمث ومعه الكولونيل ستل وهيئة الأركان وداروا بسرعة حول الموقع والذي كان، لأتساعه وعدم انتظامه، يمثل صعوبة في الدفاع عنه. وكان واضحاً لهم بأن العدو مدفع نحوهم بسرعة، ومن وقت لأخر كانوا يشاهدون، في لمحة عابرة، رجاله المتقدمين، بينما كانت كميات كبيرة من الرايات تتماوج في شبه دائرة من فوق أشجار الغابة الكثيفة، مما يشير إلى أن قوات العدو الأمامية لم تكن تبعد عنهم إلا ببضع مئات من الياردات، كما شوهدت التلال الرملية الخلفية مغطاة بالرجال والرايات.

لم يكن هناك أي وقت أمامهم. وأسرعت القوات بخطي مضاعفة لتتخذ مواقعها كما يلي: غطت الكتيبة الرابعة المباني الخربة علي اليمين، بينما احتلت الكتيبة الحادية عشرة الناحية اليسرى من الموقع. وتحركت الكتيبة الثانية عشرة قبل ذلك لتغطي يسار الكتيبة الرابعة. وبهذا التشكيل تم إقامة خط دفاعي شبه دائري ومترابط. لكن طبيعة ذلك الموقع جعلت من المستحيل الدفاع أو حماية المؤخرة التي تحتشد فيها جمال الحملة وبغالها بينما وضعت الخيالة قريباً منهم. وقبل أن تتخذ القوات مواقعها تقريباً كان العدو قد وصل لمسافة خمسين ياردة منهم.أندفع الكابتن مارتير، ومعه سرية من الكتيبة الثانية عشرة، للأمام وأحتل أحد المباني الخربة الواقعة وراء خط الدفاع الرئيسي، وبهذا تمكن مؤقتاً من إيقاف اندفاع العدو. ونظراً لوجود عدد كبير من رجال العدو على مسافة بضع أقدام من الأسوار، فقد تراجع هذا الفصيل شيئاً فشيئاً وإنضم لخط الدفاع العام.

أثناء ذلك بدأ إطلاق النار بطول الخط عندما رأوا العدو يتقدم نحوهم بسرعة ويحيط بالموقع تدريجياً بينما كان فرسانه، الذين إندفعوا حول الجناح الأيمن، يهددون المؤخرة. وفي هذه اللحظة إنطلقت الجمال علي غير هدي بعد أن هجرها الجمالة الوطنيين. وقام بعض ضباط هيئة الأركان بإعادة بعضها في الوقت الذي شاهد فيه فرسان العدو نقطة الضعف هذه فحاولوا الإندفاع نحوها. وقد نجح قليل منهم في الوصول وإختراق تلك النقطة لكنهم قتلوا فوراً وقتل أحد كبار أمرائهم برصاصة من مسدس الكابتن ما شل بداخل الموقع.

كان الوضع حرجاً في هذه اللحظة فقد كان واضحاً أن العدو يحاول الالتفاف حول الجناحين. لكن الكتيبة الحادية عشرة، بعد إحضار الفصيل الاحتياطي، تمكنت من إيقاف حركة الالتفاف علي الجانب الأيسر. ثم استدارت كل الكتيبة لتعاود موقعها الأصلي وسط الخرائب الخارجية وتمكنت من طرد العدو منها بأسنة السونكي وطهرت الجبهة اليسرى منهم ثم إحتلت أرضاً مرتفعة تبعد بخمسمائة ياردة أمام موقعها الأصلي. وإثناء ذلك أصيب الكابتن بارو، بينما كان يؤدي واجبه ببسالة، برصاصة قاتلة اخترقت صدره. فقدت الكتيبة ٨ قتلي و ٢٩ جريحاً بينما قتل

جوادا الكابتن مكدونالد والملازم جاكسون بالرصاص من تحتهما. وأثناء ذلك واصلت الكتيبة الثانية عشرة دفعها للعدو والذي كان، بجسارة عظيمة، هاجماً علي قلب الموقع، حتـى جـاءت الكتيبـة الرابعة وتمكنت بدفعات متواصلة من الرصاص من إيقاف إلتفاف العدو علي الناحية اليمنى.

ولوحظ أن العدو قد بدأ يتراجع بسرعة نحو الجنوب كسيراً محطمـاً، ورأى الكولونيـل هولد سمث بأن اللحظة المناسبة قد حلت، فأمر الفرسان بالهجوم وتنظيف الجانب الأيمن، والـذي أفلحوا في القيام به بعد قتال يدوي إستمر لبعض الوقت، جرح خلاله الكابتن بيش أثناء محاولتـه إنقاذ حياة ضابط مصري كان قد هاجمه ثلاثة من رجال العدو وأثخنوه بالجراح. إذ إندفع الكابتـن بيش بجواده نحوهم وقتل أحد المهاجمين بضربة من سيفه في الوقت الذي هاجمه الآخران بعنـف وكادا أن يلقياه أرضاً من علي جواده لكنه تمكن من طعن أحدهما بسيفه في قلبه عندما كاد الرجل أن يطبق عليه. ولما رأى الثالث ما حل بزميليه حاول الهرب لكن الفرسان أجهزوا عليه.

تقدمت الآن الكتيبتان الرابعة والثانية عشرة من مواقعها وبعد أن قامتا بتطهيـر الغابـة (من العدو) أنضمتا للكتيبة الحادية عشرة فوق الأرض المرتفعة. وتوقفت كل القوات هنا للاستراحة قبل التقدم إلى عفافيت. كان العدو لا يزال محتلاً للتلال الرملية العالية علي بعد ميل ويعمل علي أن يقف وقفة ثانية في مواجهة القوات. تم تشكيل مربع من القوات وواصلت تقدمها، تسبقها مفـارز الفرسان، نحو الجنوب، تاركه التلال علي يسارها. أما الجرحى السبعة والأربعين وجمال النقل فقد تركا في طوكر والتي كان بها ثلاثة فصائل لحمايتها بقيادة اللفتننانت كولونيل رندل.

وعندما تحركت القوات تفرق العدو من التلال وتمكن الفرسـان، بعـد اعتلائهـا، مـن الحصول علي منظر واضح لقرية عفافيت الضخمة التي تقع وراءهم بميلين، وأمامها مباشرة يقع معسكر عثمان دقنة.

وقد أفاد بعض الأسرى بأن الأنصار سيصمدون في القرية وبالتالي تقدم المربـع بحـذر شديد نحو الشمال الشرقي بينما أتجه الفرسان نحو الجانب الأيمن والتفوا حوله. وتقرر في حالـة وجود القرية محتلة أن يتم إحراقها بنيران أسلحتهم علي أن يقوم الفرسان بقطع طريق الإنسحاب علي العدو. وعندما أقترب المربع من القرية خرج منها عدد من الأهالي وطلبوا الأمان وذكروا أن من تبقى من القوات المهزومة قد فروا مع عثمان باتجاه تمرين وذلك قبل ساعتين، وأن من تبقى في القرية الآن جميعهم من "الأصدقاء".

لذلك أوقفت القوات خارج القرية. وفي الرابعة عصراً ركب الكولونيل هولد سمث وهيئة ضباطه إليها وقابله عدد من الأهالي بالترحاب وعبروا عن ولائهم للحكومة وسرورهم بـالتخلص من طغيان عثمان.

معركة عفافيت في ١٩/٢/١٨٩١

ACTION OF AFAFIT

19. 2. 91.

N. B. All houses were in ruins.

ملحوظة: كل المنازل كانت أطلالاً

Direction of Egy. advance

إتجاه هجوم المصريين

Egyp. Cav. Pursuit

إتجاه مطاردة الخيالة المصرية

Enemy's Cavalry

RUINS OF TOKAR

Main attack of Enemy

الهجوم الرئيسي للعدو

Egn. 2nd Position ¼ Mile from Ruins

Enemy's 2nd Position

موقع العدو الثاني

Firing Line

Egn. Cavalry

Egn. Transport

Egn. 2nd Position

Enemy's attack

To face page 500

تقدمت القوات واحتلت القسم الشمالي الشرقي من القرية والتي وصلت إليها جمال النقل والجرحى، قادمين من طوكر، في مساء نفس اليوم. وقد استغلت خيام عثمان دقنة، بعد تحويلها لمستشفى، لعلاج الجرحى والمصابين*.

بلغت جملة خسائر المصريين عشرة قتلي و ٤٨ من الجرحى** وتم الاستيلاء على خمسين من رايات العدو وعلى كميات كبيرة من مختلف أنواع الأسلحة.

ومن غرائب الصدف التي تستحق الذكر هي أن احتلال طوكر ورفع العلم المصري فوق أنقاض خرائب وأطلال مباني الحكومة صادف الذكرى السابعة لسقوطها (في يد المهدويين) بالضبط عام ١٨٨٤. والوصف التالي لما حدث، والذي قدمه اثنان من أتباع عثمان دقنة، جدير بالذكر. وقد كتبه باللغة العربية اثنان من ضباط الباشبوزوق الذان أرغما علي الانضمام لقوات عثمان دقنة المقاتلة:

"كان عثمان دقنة قد عاد إلى عفافيت يوم الاثنين قادماً من هندوب، ووافق ذلك السادس عشر من فبراير، ولما علم بقدوم الحملة باتجاه طوكر قام بإجراء كل الإستعدادات اللازمة لمواجهتهم وهزيمتهم في نفس اليوم. وقام بإعدام أوهاج حسن وشيخين آخرين عندما أشتبه في نيتهم على الفرار. وقام بإرسال جواسيس لمختلف الإتجاهات للتحري عن أخبار تحركات القوات، كما أرسل دوريات ليلية وصلت حتى إلى آبار عبد الله عربي* وأمرها بالبقاء هناك حتى الصباح.

"وأمر بضرب النقارة بدون توقف لتجميع كل الرجال للقتال. وعصر يوم الثلاثاء حدد موقعاً لمعسكر قواته جميعها خارج قرية عفافيت وأمر كل رجال القرية بالذهاب إليه مع ترك النساء والأطفال والمرضى فقط بالقرية. تم نقل السوق إلى المعسكر وكان على النسوة إحضار المياه أما الخيالة فكانت مهمتهم هي منع أي رجل من العودة للقرية. ثم نصب خيامه وخيام أمرائه الكبار.

"وعندما علم من جواسيسه أن القوات قد وصلت لآبار التيب، أمر فصيلاً من ٢٠٠ من رجاله، مسلحين ببنادق رمنجتون، ومع كل منهم خمسة طلقات بمرافقة أربعين من الخيالة برئاسة الأمير حاج يعقوب محمد، للتوجه إلى التيب والإختباء في الغابة القريبة منها. حددت خطته أن يقوم عدد قليل منهم بالتوجه نحو القوات وإطلاق النار عليها، وتوقع أن تقوم القوات بمطاردتهم، لذا عليهم في هذه الحالة أن يتراجعوا ويستدرجون القوات للدخول في الكمين المعد لهم حيث يقوم باقي المقاتلين بمفاجأتهم بالهجوم عليهم. لكن رجاله عادوا صباح الثلاثاء الباكر وأفادوا بأنهم إقتربوا من التيب لكنهم وجدوا القوات في حالة طيبة من الأستعداد وأن خيول القوات كانت مسرجة وجاهزة للتحرك في أي لحظة. ولذلك لم يتجرأوا علي تنفيذ الخطة ورجعوا بالتالي.

---

* هي نفس الخيام التي غنمها عثمان دقنة من جيش الجنرال بيكر عام ١٨٨٤.

** مات منهم إثنان في اليوم التالي.

* الآبار تقع على بعد ميلين جنوب شرق طوكر.

"وقد أفادوا أيضاً: بأن عثمان دقنة كان قد أرسل إثنين من رجاله بالإبل، في اليوم السابق، ليأتوه بالأخبار. لكن واحداً منهما هو الذي رجع إليه**".

وفي صباح الثلاثاء الباكر تم إرسال رجل آخر على بعير سريع ليحدد بالضبط مكان القوات وعاد في الثامنة صباحاً وذكر أن القوات متحركة في طريقها لمأمورية طوكر القديمة.

وشرع عثمان منذ الفجر في تشجيع رجاله وإستنفارهم للقتال وبشرهم بأن الله قد رمى بكل القوات المصرية بين أيديهم، وأن الذين يجاهدون سيجازون خير الجزاء.

وكان عثمان أثناء قدومه من هندوب قد جمع كل رجاله الذين وجدهم بالمحطات المختلفة في الطريق وأحضرهم معه. وبالتالي تكونت قوات الدراويش الآن من حوالي ٧٠٠٠ رجل. لكن من بين هؤلاء لم يكن هناك سوي ٧٠٠ – ٨٠٠ من الأغراب أما الباقون فكانوا من العرب المحليين من الأرتيقة و الجميلاب والشاياب والنوراب والحسناب والأشراف والشقلاي والدقناي والخاسة وغيرهم. وكان كثير من الأخيرين يعارضون عثمان والمهدية سراً في نفوسهم لأن قسوة عثمان كانت عظيمة وشديدة الوطأة وكان معظمهم قد عاني من ذلك وأفتقر. لكنه طالما كان بينهم فليس بمقدورهم عمل أي شيء. لقد سلب الشجاعة منهم، وفرض الضرائب غير العادلة عليهم، وصادر مواشيهم، وأعدم كثيراً من رجالهم، وقطع أيدي وأرجل البعض منهم، وقاسوا الأمرين من الطغيان والقهر علي يده. أشتاق هؤلاء الناس لرؤية الحكومة وقد إستعادت نفوذها في المنطقة وكان عثمان مدركاً تماماً أنه لن يستطيع الاعتماد عليهم. وهذا هو السبب في إرغامه لكثيرين منهم للوقوف في مقدمة المقاتلين حتى إذا حاول أحدهم الفرار فأن خيالته وعربه المخلصين سيقومون بقتلهم.

"ومن بين العرب المحليين كان عدد كبير منهم بجانب عثمان دائماً وكذلك عدد كبير من أقاربه وذوي الصلة به. كان هؤلاء من المعتنقين الخلص للمهدية من سويداء قلوبهم وكانوا مستعدين للقتال معه حتى النهاية.

" وإضافة لما جاء أعلاه كان هناك عدد من موظفي الحكومة الأسرى مثلنا، وأيضاً تجار وموظفين من كل شاكلة وتم تقسيم كل القوات إلى أربعة أقسام متساوية.بكل قسم عدد من الأغراب والعرب المحليين. قاد القسم الأول الأمير شايب أحمد – علي اليسار –، وقاد القسم الثاني الأمير حمد النيل – على يمينه –، والقسم الثالث يقوده الأمير محمد أحمد – إلي اليمين –، والقسم الرابع يقوده الأمير أحمد بدوي أبو صفية – علي اليمين أيضاً. وبكل قسم من تلك الأقسام الأربعة عدد من كبار الأمراء. من بين المقاتلين كان ٦٠٠ فقط مسلحين بالبنادق. أما باقي المقاتلين فكانوا مسلحين بالسيوف وبالحراب. وهناك أيضاً ١٢٠ فارساً بقيادة الأمير عثمان نايب.

" وعندما علم عثمان بتقدم القوات نحوه أمر كل جيوشه للتحرك قدماً بالطريقة التي حددها سلفاً، بينما بقي هو ومعه حوالي ٢٠٠ من حراسه بالقرب من خيامه. ويقال أنه كان راغباً بالاشتراك في القتال لكن أمراءه صرفوه عن ذلك. كانت أوامره هي الإسراع في التقدم حتى

** تم أسر الآخر في التيب. وعند إستجوابه أدلي بمعلومات هامة حول نوايا عثمان دقنة.

المأمورية القديمة (خرائب طوكر) وبعدها ينقض على القوات أثناء تقدمها من خلال الغابة الكثيفة، وخاصة بعد أن يكون الإرهاق والتعب قد نال منهم من جراء مسيرتهم الطويلة.

تقدم المقاتلون (الأنصار) بسرعة بالتشكيل المقرر، وقام بعض الفرسان بحراسة الأجنحة وأكثرهم كان بالمؤخرة. وعندما شاهدوا قوات الحكومة فوق أطلال طوكر قام رماة الدراويش من كل الأقسام بتشكيل واجهة هجومية في الخط الأمامي واندفعوا مسرعين حتى يحتلوا المباني الخارجية. نجح البعض منهم في الإختباء خلف الأسوار وشرع في إطلاق النار. كان قسم الأمير شايب أحمد هو أول من بدأ الهجوم من الجهة اليسرى وتقدم رجاله أمام الآخرين وحاولوا الوصول إلى الجهة اليمني لجناح القوات (المصرية)، بينما قام أحمد بدوي ورجاله بمهاجمة الموقع الأيسر. أما القسمان الآخران فقد ضغطوا على وسط القوات وقلبها. وحاول بعض فرسان العدو الاستدارة لليسار بهدف الوصول لمؤخرة القوات، التي كانت في تلك اللحظة قد اتخذت مواقعها وسط الخرائب. دارت معركة في غاية الشراسة وتطاير وابل من الرصاص وسطنا كالإعصار.

"وظل أولئك المخلصون للمهدية في إندفاعهم العنيد، بينما عمل كل العرب المحليين، وكذلك أمثالنا من الرجال، قدر مستطاعهم للاختباء وسط الأشجار الكثيفة وبقي كثيرون منهم علي التلال الرملية. وحاول بعض الفرسان الذين جاءوا من ورائنا دفعنا للأمام لكننا حاولنا الهرب منهم. ثم مر بنا الأمير شايب وهو مصاب بجراح خطيرة في طريقة إلى عفافيت ثم جاء بعض آخر وسرعان ما تحققنا بأن القوات الحكومية قد انتصرت عليهم وبدأنا جميعنا في الإنسحاب.

"وقد ظل كثير من الرجال بالتلال الرملية، لا يدرون ماذا يفعلون: راغبون في الاستسلام لكنهم يخشون من أن يتم هجوم عليهم وأبادتهم. وأخيراً شاهدنا توقف قوات الحكومة فوق تلال علي مسافة من المأمورية وبعدها توقف كل إطلاق للنار.

"وبعد وقت من ذلك أطلقت نحونا رصاصة واحدة، ولما كنا لا نزال نخشى من الهجوم علينا فقد إنسحبنا جميعنا نحو القرية وغيرنا ملابسنا وإنشغلنا بشئوننا العادية. وعندما وصل أول المنسحبين لعفافيت وعلم عثمان بأنه فقد المعركة، إمتطي حصانه وتوجه مع ملازميه إلى تيمرين. لم يتوقف حتى في القرية، بل إخترقها ومر من خلالها مسرعاً. وقد تبعه عدد كبير من الناس ثم توقفوا لأخذ بعض نسائهم وأطفالهم من القرية قبل أن يواصلوا الهروب. وعندما وصل ود طاهر مجذوب إلى خيام عثمان دقنة ووجده قد ذهب، قام بضرب النقارة مرة أخرى لجمع الرجال ولكن لم يلق أحد بالاً إليه، وأضطر هو أيضاً للفرار، لكنه كان آخر من غادر القرية، ولم يفعل ذلك إلا عندما بدأت قوات الحكومة في دخولها. عاد راجعاً كل التجار والموظفين الحكوميين السابقين، والذين كانوا يراقبون المعركة من التلال، قبل وصول القوات الحكومية، ثم توجهوا للترحيب بهم وليشكروهم علي تخليصهم من عثمان. كما عاد أيضاً عدد من العرب المحليين إلى القرية لكن البعض الآخر كان خائفاً وتبعثروا على التلال المجاورة ولم يرجعوا إلا في اليوم التالي.

" وقد كان الجميع في غاية السرور لتحررهم من قسوة وطغيان عثمان. وقد قتل من الدراويش أكثر من ٧٠٠ رجل ومن ضمنهم سبعة عشر من كبار الأمراء هم:

- عثمان النايب – دنقلاوي – قائد خيالة الدراويش.

- حمد محمد الخير – دنقلاوي – وكيل الأمير أبو قرجة.
- موسي فكي – أرتيقة.
- محمد ود فانه – دنقلاوي.
- الخضر علي – حسنابي.
- دفع الله ود خندقاوي – دنقلاوي.
- فض ود عبد الله – محسي.
- حسن ود الكندي – جعلي.
- الشريف أبو سقرة – دنقلاوي.
- الشريف عثمان – بقاري.
- الحاج فضل الله – جعلي.
- إدريس ود فانه – دنقلاوي.
- الشريف علي – بقاري.
- عثمان الشايب – دنقلاوي.
- عثمان محمد علي – دنقلاوي.
- إبراهيم عفاض – دنقلاوي.
- كرم الله – دنقلاوي.
- * وقد فر مع عثمان حوالي ٤٠٠ رجل، وضعف ذلك العدد من النساء والأطفال، ولكن كثيرون مهم فارقوه عند تيمرين وعادوا إلى عفافيت.

ويظهر الكروكي، قبل الأخير، الأتساع الكبير لقرية عفافيت والتي يصل محيطها لحوالي أربعة أميال، والتي بها ما لا يقل عن ٦٠٠٠ تكل وقطيه. والتكل عبارة عن قطيه مستديرة الشكل قطرها حوالي عشرة أقدام وتبني حوائطه من فروع الحطب ثم تملأ الفراغات بقصب الذرة. أما من الداخل فيطلي بالطين عموماً ويصنع السقف بشكل مخروط من الأغصان والفروع والقصب مما يعطي للتكل متانة وقوة تحميه من مياه الأمطار وغوائل الرياح.

وللأمراء تكول أكبر وأوسع من الباقين. وعادة ما يحاط تكل الأمير وتكول أتباعه المقربين بزريبة قوية مرتفعة. وبالإضافة لتلك القطاطي والأكواخ والتكول فهناك حوالي ثلاثين منزلاً متيناً مبنياً بالطين مبعثرة في مختلف أرجاء القرية. هذه هي بيوت التجار والذين بقي معظمهم في عفافيت ضد رغبتهم، وبناء على إرغام عثمان لهم بذلك. وهناك أيضاً بيت المال، وهو مبني قوى وشيد بالطوب والطين. وهنا يتم الاحتفاظ بالأموال وبالمخزون من الذرة وغيرها التي يجمعها عثمان وأمراؤه. لكنها وجدت فارغة تماماً عند احتلال القرية، فقد تحوط عثمان مسبقاً وقام بإبعاد كل الأشياء الثمينة (قبل المعركة).

ومن المرغوب فيه أن نتحدث بإيجاز عن أسلوب عثمان لإدارة إقليمه. فقد سمح لملاك الأراضي الأصليين بمواصلة الزراعة. لكنهم كانوا مجبرين على دفع عشر محصولهم كضريبة وربع العشر كذكاة للمساكين. ثم يسلم نصف ما يتبقى لبيت المال ويعود الباقي للمزارع. وقد وجد

أن هذا" الذي يعود للمزارع" هو في حقيقة الأمر لا شئ بينما تذهب الأموال المجموعة من بيت المال بصفة دورية إلى خزائن الخليفة في أم درمان.

ونظام العدالة لدي عثمان كان إيجازياً بطبعه. فالسرقات الصغيرة تعاقب بقطع اليد اليسرى، ويقوم بالعملية شيخ الجزارين بالسوق. أما السرقات الخطيرة فتعاقب بقطع اليد اليمنى والقدم اليسرى بينما تعاقب أي جريمة أخطر من ذلك بالإعدام شنقاً. أقيمت مشنقة كبيرة في ميدان السوق حيث تم، قبل يومين من المعركة، إعدام ثلاثة من كبار الشيوخ بتهمة الميل للحكومة. وأسلوب الإعدام يتسم بالبداية. فهو عملية خنق لا أكثر، حيث يتم رفع الضحية من الأرض ويترك معلقاً في الهواء حتى تفيض روحه. وزيارة للسوق الذي تتبعثر في أنحائه العظام الآدمية توضح قسوة حكم عثمان. أما أعداد الرجال المقطوعي الأيدي والأقدام في القرية فهي صورة حية تشهد بالطغيان والقسوة البالغة لعثمان.

المسجد عبارة عن ميدان فسيح مستطيل الشكل محاط من ثلاثة جوانب بعمدان من الحطب التي تسند السقف المبني من القصب والقش. أما من الشرق فهناك مكان صغير يمثل المحراب ويواجه القبلة في مكة، حيث يقود عثمان الصلاة. وبالقرب منه تعلق عدد من النقارات والتي تعني ضرباتها أما الدعوة للتجمع للقتال أو الدعوة لنداء الصلاة. وبالقرب من المسجد أقيم ضريح للشيخ الطاهر المجذوب والذي مات منذ سنة تقريباً. وقد كان الشيخ من قبل أستاذاً لمحمد أحمد، المهدي الراحل*. وقد عومل الشيخ منذ وفاته كولي (من أولياء الله) ويزور قبره كثير من الحجاج. أما منصبه (كعامل) فقد تولاه إبنه، الذي أفلح في الفرار مع عثمان بعد المعركة رغم جراحه الخطيرة التي أصيب بها.

ويختلف منزل عثمان دقة بعض الشئ عن باقي ا لمنازل. فهو عبارة عن مجموعة من التكول، أكثر مما لدى بقية الأمراء، لأن حريمه كان أكبر. وفي منازله، مثل منازل بقية الأمراء أنواع من الأثاث والمفروشات الغريبة مصنوعة في السودان.

وفي ضواحي القرية يوجد عدد من الجنائن التي تزرع بها كافة أنواع الخضروات. كما تزدهر زراعة القطن في تلك الأراضي الخصبة والتي تغمرها سنوياً مياه فيضان خور بركة.

وقد يقارن إقليم طوكر بدلتا النيل (في مصر) رغم أن الأخيرة أوسع منه كثيراً. فلمدة تسعة شهور يجف خور بركة والذي تنحدر مياهه من المناطق الجبلية علي الحدود الحبشية. وفي منتصف يوليه تقريباً يتحول إلى نهر كبير قد يصل عرضه في بعض المناطق إلى مئات الياردات وبعمق يبلغ كثيراً من الياردات. وفي تيمرين، علي بعد ١٥ ميلاً من عفافيت جنوبياً، يتفرق الخور إلى عدة أفرع ومجاري صغيرة ويغمر كل المنطقة حتى البحر الأحمر تقريباً، مغطياً الأرض بطبقة من الغرين والطمي مثل التي ينقلها النيل الأزرق إلى مصر. ولا تستمر المياه طيلة هذه الشهور الثلاثة علي الأرض، بل تتجه المياه، المتدفقة علي دفعات، وبسرعة لتصب في البحر ثم تجف الأرض لثلاثة أو أربعة أيام قبل أن تصلها الدفقة التالية من المياه وتستمر الأرض بهذه الطريقة

---

* لم يرد في كل مراجع تاريخ المهدي والمهدية أن المهدي قد تتلمذ علي يد الشيخ الطاهر المجذوب وربما خلط ونجت بين هذا وبين تتلمذ المهدي علي أيدي الغبش في بربر، ومعهم بعض المجاذيب(المعرب).

حتى نهاية موسم الفيضان حوالي أواخر سبتمبر. وبعد ذلك مباشرة تبدأ زراعة الذرة وبعدها بقليل زراعة الدخن (وهو نوع من الذرة). وتقدر مساحة دلتا طوكر بما لا يقل عن ٣٠٠٠٠٠ فدان ذات خصوبة عالية بدرجة غير عادية.

•••

صبيحة يوم العشرين من فبراير قامت الخيالة بأستكشاف باتجاه تيمرين وأسرت بعض الرجال والذين أبلغوا بأن عثمان، مصحوباً بحوالي ٣٠٠ رجل زضعف هذا العدد من النساء والأطفال، قد جاء ماراً خلال تيمرين، وكان مسرعاً في طريقه باتجاه كسلا، وأن معظم العرب المحليين قد هجروه وبدأوا في العودة لتسليم أنفسهم. وفي وقت متأخر من اليوم وصلت القوات المشكلة من العرب الموالين بقيادة المستر وايلد، بعد أن تتبعت أثر عثمان دقنة من هندوب – فقد سمعوا بالنصر الذي تحقق، لكنهم كانوا بعيدين جداً كي ينسحبوا ويرجعوا–.

وفتح الطريق البري إلى سواكن الآن وعاد الهدوء إلى المنطقة سريعاً وجاء عدد كبير من الزعماء والشيوخ إلى عفافيت ليعبروا عن ولائهم للحكومة وسرورهم لطرد عثمان وأتباعه من المنطقة. وتمت الترتيبات لإعادة الحكم المدني وأرسلت تعليمات إلى عبود بك، مأمور عقيق، لاحتلال مركز الأنصار في أدوبانا، والذي كان لوقت طويل أحد مراكز عثمان الرئيسية لتجارة الرقيق وللبضائع الممنوعة.

وفي الثالث والعشرين من الشهر وصل السردار الجنرال سير قرنفل إلى عفافيت* وقام باستعراض القوات في اليوم التالي وهنأهم علي ما أحرزوه من نصر كما ثمن الخدمات الجليلة التي أداها ضباط وجنود البحرية الملكية وخاصة ترحيلهم للقوات ودعمهم لعملياتها الحربية.

وتم إرسال منشورات لمختلف القبائل الهامة تفيدهم بإعادة إحتلال المنطقة وبعزم الحكومة على إعادة سلطتها ونفوذها في الإقليم. وفي نفس الوقت إستدعت كبار الشيوخ لإجتماع يعقد في سواكن في تاريخ قريب.

ثم توجه السردار مع الحاكم العام وضباطه يوم ٢٥ / ٢ إلى عقيق عن طريق البر، علي مسافة حوالي ٤٠ ميلاً من عفافيت. وعند وصولهم إليها وجدوا أن عبود بك قد تمكن من إستلام بيت المال في أدوبانا كما قبض علي أحد عشر من تجار مصوع العاملين في تهريب السلع، واستولى علي ٣٧ جملاً كان عثمان قد أرسلها لترحيل بضائعهم إلى عفافيت. وبعد بضعة أيام تم ألقاء القبض علي تاجر مشهور للرقيق كان بحوزته عدد من أسرى العبيد، من الجوار، في طريقهم إلى تكلاي. بعد ذلك عاد السردار ومن معه إلى عفافيت، في اليوم التالي، وبعد أن قام باستجواب شيخ الجميلاب وعدد من الأهالي البارزين، الذين أبدوا له الطاعة، توجه مع الفرسان إلى تيمرين في السادس والعشرين من الشهر ثم رجع إلى عفافيت في التاسع والعشرين.

وتم حل قوات شرق السودان الميدانية في الثاني من مارس وتم دمج حاميات عفافيت والتيب وترنكتات لتشكل ما سمي "تحت إدارة طوكر" وعاصمتها عفافيت.

---

* جاء مع السردار الكولونيل لين والكابتن كستانس (من البحرية) والكماندر ددنج (من البحرية) والميجر ماكسويل والملازم فلمور.

وفي هذا اليوم وصل إلى عقافيت الأدميرال السير أنطوني هوسكنز وعاد إلى ترنكتات في اليوم التالي.*

وفي ٣ مارس توجه الجنرال قرنفل والكولونيل هولد سمت**، مع حرس من الفرسان والعرب الموالين، إلى سواكن قادمين من عقافيت. استخدموا طريق ستراب – طماي – تمانيب – سنكات ثم خور أبنت. وبعد رحلة شاقة خلال أراضي جبلية ووعرة وصلت القافلة إلى سواكن يوم ٧ /٣ بعد أن تأكدت من أن المنطقة قد أصبحت خالية من الأعداء تماماً. لم يسبق لأحد من المسئولين زيارة تلك المناطق منذ عام ١٨٨٤. كانت طابية سنكات لازالت قائمة لكن المأمورية كانت مدمرة تماماً. وخلال كل الرحلة أظهرت القبائل خضوعاً وولاءاً ملموساً وأبدوا سرورهم لعودة الحكم المستقر بعد سنوات من معاناتهم من الطغيان والقهر علي يد عثمان.

وفي الثامن من الشهر عقد إجتماع في سواكن ضم كل كبار الشيوخ في المناطق المجاورة. وفي هذا الإجتماع أعلن الجنرال قرنفل، باسم صاحب السمو الخديوي، عفواً عاماً. وقد قابل الشيوخ المجتمعون هذا العفو بالتعبير عن خالص ولائهم وعن تأكيدهم بأنهم لن يسمحوا لعثمان مرة أخرى بدخول مناطقهم وفي اليوم التالي عاد الجنرال قرنفل للقاهرة.

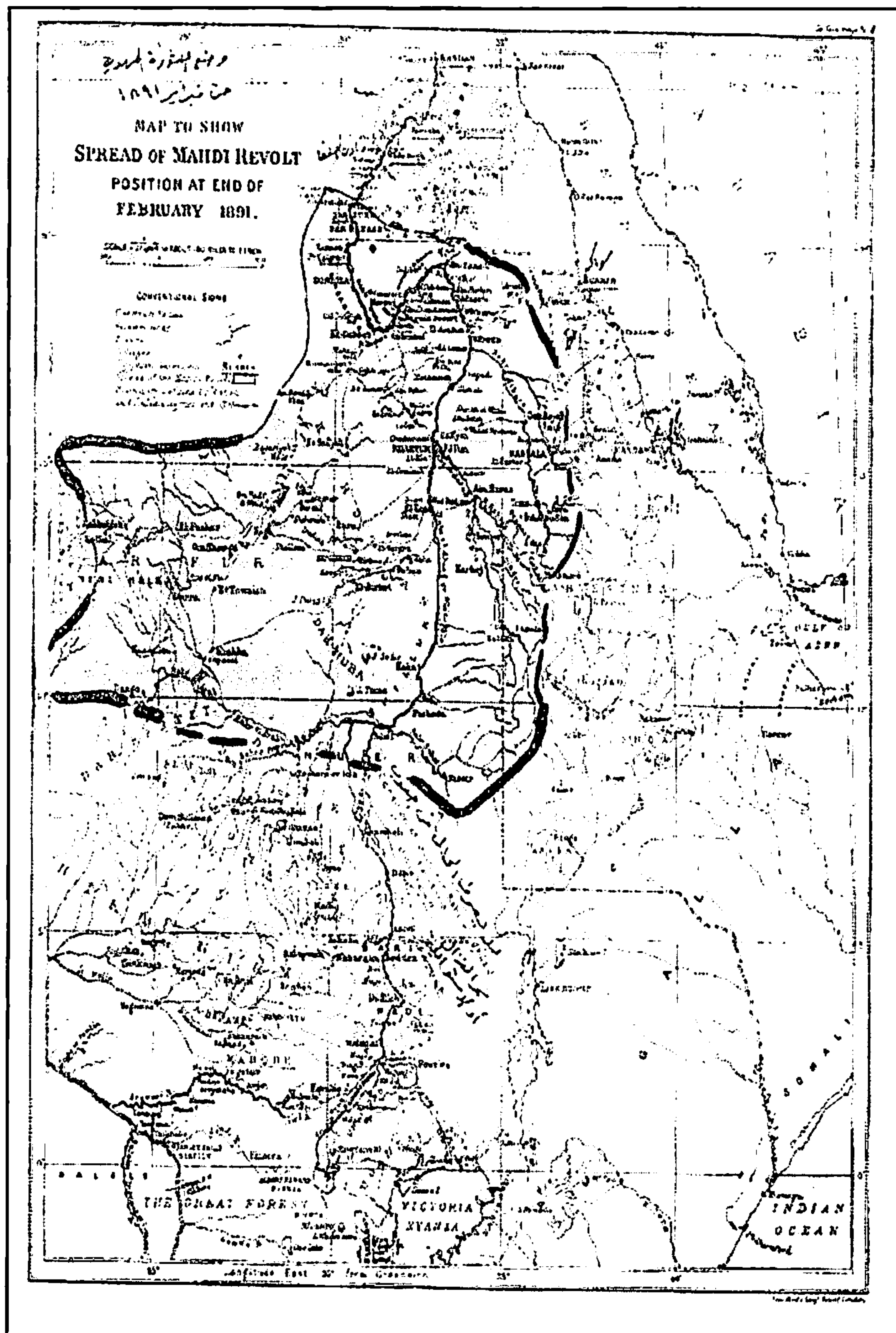
كان إحتلال طوكر، ذلك الإقليم الهام، بواسطة الحكومة المصرية يمثل ضربة قاضية لم يسبق لها مثيل لقضية المهدية فقد كانت تلك البلاد الخصبة تمثل أثمن ما أمتلكه عثمان. وقد أظهرت الدفاتر التي أخذت من بيت المال (في عقافيت) كم كانت ضخامة الأموال والبضائع المهربة التي أرسلت لخزائن الخليفة في أم درمان من جراء التجارة الواسعة وعمليات التهريب وتجارة الرقيق التي إستمرت بنشاط طيلة السنوات السابقة.

والخريطة المرفقة هي الحلقة الأخيرة من سلسلة"انتشار وتمدد المهدية". وهي توضح كيف صارت قوة المهدية مطوقة الآن. فبزوال هيبة الحركة من هذا الإقليم فقد أصبح من غير المحتمل أن يتمكن الدراويش من اكتساحها مرة أخرى، أو حتى أن يتمكن أحدهم من الدخول إليها مرة أخرى.

***

* كان الأدميرال هوسكنز مصحوباً بالكابتن بروس والكابتن تلارد(من البحرية الملكية) والملازمين مارك كير وأوسما ستون.

** أما الضباط الآتية أسماؤهم فقد صحبوا السردارز وهم اللفتنانت كولونيل ستل والطبيب الميجر روجرز والكولونيل لين والكولونيل كولفيل والميجر ماكسويل والملازم فردرك والملازم ثاني وود والسادة بروك ووايلد وشكور بك.


وضع الثورة المهدية
حتى فبراير ١٨٩١
MAP TO SHOW
SPREAD OF MAHDI REVOLT
POSITION AT END OF
FEBRUARY 1891.
INDIAN OCEAN
VICTORIA NYANZA
THE GREAT FOREST

(ملحق الملحق)

مقتطفات مأخوذة من
دفتر وقائع ومراسلات عثمان دقنة*
والتي غنمت في عفافيت في ١٩ فبراير ١٨٩١م.

ضمن الكمية الضخمة من الرسائل المتبادلة التي غنمت عقب المعركة الأخيرة، فأن الآتي الذي سنورده من بعض المراسلات له أهمية تاريخية خاصة، لأنه يوضح صعود وتقدم المهدية من وجهة نظر عثمان الخاصة.

وقد وجد معظم تلك الرسائل في منزل الحاكم المدني لعفافيت، ود طاهر مجذوب، والذي يقال أنه كان بصدد تجهيزها بشكل كتاب، يضم لأرشيف الخليفة بأم درمان. ولكن لسوء الحظ ضاع جزء كبير من هذا الكتاب وخاصة الجزء المتعلق بالحملات البريطانية عام ١٨٨٥ والعمليات التي تلت ذلك في المناطق المجاورة لسواكن.

وبدأ الكتاب بخطاب معنون لمحمد أحمد المهدي في أم درمان يقول فيه عثمان دقنة:

"بعد قيامي بوداعكم توجهت لعرب البشاريين وسلمتهم خطاباتكم ولما كان قصدي هو الوصول لسواكن علي وجه السرعة، فقد إكتفيت بإرسال المنشورات للقبائل البعيدة، مع إعطاء البيعة فقط للعرب الذين مررت خلال ديارهم بالفعل.

"وبعد مغادرتي لديار البشاريين وصلت لعرب الموسياب في أرياب وسلمتهم خطاباتكم وكان زعيمهم الأكبر، الشيخ الفكي أحمد أدم الكلحايابي هو أول من إنضم للمهدية. وهو رجل طيب وقد أصبح مهدوياً من صميم فؤاده وروحه. وهو لا زال معي وأثبت بأنه من أفضل أمرائي.

"ومن أرياب وصلت إلى كوكريب وبايعت مختلف فروع قبيلة الهدندوة، ومنهم توجهت نحو مأمورية سنكات، والتي تبعد مسافة يوم وليلة إلي الغرب من سواكن.

وعندما أصبحت قريباً من المأمورية قمت بإرسال خطاباتكم إلى خلفاء المرغنية وإلى شيوخ الهدندوة والأمرأر الذين كانوا هناك، وذلك علي يد أونور دشادة وأخيه طه، الذين أرسلتموهما لي لمساعدتي. ولقد قتل هذان الأخوان بعد ذلك في معركة قباب، والتي سأصفها لكم فيما بعد.

"وعند وصولهما للمامورية سلما الخطابات للخليفة الصافي والخليفة عبد الله ومحمد عثمان سر الختم وسألا الأخير النصح والرأي فأشار لهما بأن يسلما الخطابات للترك وقد فعلا ذلك.

" أما أنا فتوجهت لأركويت، حيث مضارب أهلي، وهي تبعد مسيرة ستة ساعات من المأمورية. قمت بإعطائهم البيعة كما بايعت كل العرب. وقد فرح الشيخ الحاج حسن بشارة كثيراً

* نشرها الدكتور أبو سليم بعنوان (مذكرات عثمان دقنة) المعرب.

بخطابكم عند قراءته له وقام هو وكل رجاله بالانضمام لسلك المهدية. وهذا الشيخ معي الآن ويقدم لي كل مساعدة ممكنة.

ثم توجهت لرؤية الشيخ الطاهر المجذوب في قباب والذي رحب بـي ترحيبـاً حـاراً. وعندما تناول خطابكم قبله ووضعه فوق رأسه وعينيه وشعر بالشرف العظيم الذي أسـبغ عليـه. وكما تعلمون فأن هذا الشيخ مؤمن بالمهدية منذ ظهورها، ومن أجل ذلك فأنني أحمد الله، لأنه أكثر الناس نفوذاً بين العرب وأهالي سواكن وقد كان معروفاً بينهم منذ عهد بعيد بأنه مهدوي مخلص. ولهذا السبب فأن علاء الدين الملعون* عندما كان في طريقه للخرطوم، أمر بإلقاء القبض عليـه، وقد ظن أنه بهذا يوقف مد العصيان. لكن الله حفظه. وهو معي الآن يقدم لي كل مساعدة ممكنـة. ولا أستطيع أن أصف بكلماتي مدي حماسه وخدماته الجليلة والتي تثمر يومياً في تقويـة قضـيتنا وتزيد من عدد الأنصار المنضمين لنا، وهذا ما عرفه الملعون علاء الـدين وأبلغـه (لرؤسـائه) تلغرافياً. ومن بين أتباعه الشيخ عبد الرحمن المجذوب، وإبنه محمد مجذوب وإبن عمه حاج عمر قمر الدين، وأيضاً الأمير مدني مجذوب وهو أمير من أقدر رجالي وأكفأهم. وكذلك محمد الأمـين وأبناء الشيخ ياسين وعبد القادر، قاضي سواكن. وأخوه محمد النور خطيب والمفتي الصادق. وكل هؤلاء الرجال يستحقون الثناء لأنهم تركوا وظائفهم ونذروا أنفسهم لخدمة الله ورسالته.

* ووصلت لأركويت يوم ٢٧ رمضان (أول أغسطس ١٨٨٣)، ومساء نفس اليوم سمعت بأن الترك قادمون للبحث عني مع أوامر بالقبض علي، وإن لم يجدونني فأن عليهم إلقاء القـبض علي أخي أحمد دقنة وأخذه معهم للمأمورية. فقد تلقي الترك تلغرافاً من بربر يفيدهم بوصولي إلى الدامر وبإعطائي البيعة للعرب أثناء الطريق. كما أثارت خطاباتكم للميرغنـي إشـتباههم وأرادوا إفساد مهمتي.

*ولما سمعت بكل هذا قضيت الليلة في الجبال بينما قام أخي أحمد دقنـة، بعـد أن علـم بنواياهم، بجمع رجالنا واستعد لمحاربتهم. وعندما علم الترك بذلك أصـابهم الانزعـاج الشـديد ورجعوا للمأمورية. وفي صباح اليوم التالي الباكر انضممت لرجالي وسلمتهم كافة خطاباتكم والتي قابلوها لفرح عظيم مثلما فعل كل المنتمين لسواكن وغيرهم مـن العـرب. وقـد فرحـوا جميعـاً بأنضمامهم للمهدية وخاصـة إخـواني أحمـد دقنـة والفكـي محمـد دقنـة ومحمـد الأمـين وأخوه.....الخ..... الخ. وكان الإثنان الأولان، أحمد و الفكي، قد قتلا في معركة سـنكات والتـي سأصفها لكم بعد قليل. أما الباقون فلا زالوا معي يقدمون لي كل مساعدة ويؤدون واجباتهم ببسالة لنصرة دين الله. جزاهم الله خير الجزاء لما قاموا به. آمين.

* وقضيت كل ذلك اليوم لمبايعة العرب.

*وسأصف لكم الآن معركة سنكات والتي أسميها بالمعركة الأولي:

* ففي صباح التاسع والعشرين من رمضان (٣ / ٨ / ١٨٨٣) تسلم الشـيخان الطـاهر المجذوب وأحمد دقنة رسائل من الحاكم، الذي كان بسواكن، وهو شخص يدعي توفيق، وواحد من أكفأ رجال الملعون علاء الدين، ومشهور بالشجاعة وحسن إدارته. إستدعتهما الرسالة للحضـور

* يشير إلي علاء الدين باشا، زميل هكس باشا.

فوراً للمأمورية، لترتيب أمر القبض على. ووكان توفيق قد وصل للمامورية في اليوم السابق قادماً من سواكن.

"قاما بتمزيق الرسالتين مزقاً وألقيا القبض على حاملي الرسائل. ثم أرسل لي الشيخ الطاهر يسألني عما يفعل فأجبته للقيام بمقابلتي في طواى، وهي مكان قريب من المأمورية، مع الإستعداد للقتال. وبالتالي، وفي صباح اليوم التالي، الأول من شوال (٥ أغسطس) إلتقينا في ذلك المكان وتقدمنا نحو المأمورية حتى صرنا على مسافة الرمي من المأمورية. وعند اقترابنا جاء كل القرويين والسواكنية والعرب لأخذ البيعة مني، ما عدا خلفاء الميرغنية والذين إكتفوا بحمل رسالتكم للمأمور والحاكم وعادوا بعد ساعة طالبين هدنة مدتها ثلاثة أيام. وقد رفضت ذلك في البداية لكنني بعد لأي وافقت على تأخير القتال حتى الظهر حتى يتوفر لهم الوقت للإستسلام. لكنني لم أسمح للخلفاء بالرجوع إلا بعد أخذهم البيعة. وقد قاموا بذلك بعد كثير من التردد والهمس المتبادل بينهم. ثم عادوا بعد أن قالوا بأنهم سيتوسطون بيني وبين الأتراك. وسرعان ما رجعوا إلينا ثانية طالبين مد الهدنة حتى الرابعة بعد الظهر. لكنني قلت لهم بأنني لن أمهلهم سوى بضع دقائق فقط. كان الوقت ظهراً وشاهدت الترك وهم يستعدون للقتال، وكان بعضهم يخرق الأسوار لعمل مزاغيل للبنادق بها، والبعض يقوم بتجميع النساء والأطفال وإدخالهم في الطابية، والبعض الأخر يمكن رؤيته وهو يستعد لإطلاق النار (علينا) من أسطح المنازل أما بقية الأتراك فقد خرجوا من الطابية. عند ذلك أدركت بأن الخلفاء يخدعوننا، فاستعددنا للقتال على الفور. وعندما شاهد الخلفاء استعدادنا وقفوا جانباً بينما قمنا نحن بهجوم مباغت ودخلنا الطابية وقتلنا كل الترك الذين وجدناهم بها. ولما كان رجالنا بالداخل لم يتمكن الترك الذين كانوا بالخارج من الدخول إليهم. لكن بعض الآخرين كان قد لجأ إلى المنازل الصغيرة بداخل الطابية وقاموا، مثلهم مثل من كانوا على الأسطح، بإطلاق النار على رجالنا وألحقوا بنا بعض الخسائر. وقد جرحت في يدي ورأسي وجنبي وحملني رجالي لخارج الطابية ثم قمنا بالإنسحاب جميعنا. لقد واجهتنا صعوبات جمة عند دخول الطابية، فقد كان هناك عدد كبير من الترك، وأيضاً كانوا بالبوابات، وقد قتل عدد كبير من رجالنا.

"وقد تقدم أخي الفكي محمد دقنة الصفوف وقاد الهجوم، بناء على أوامري، بقلب من حديد وأقتحم مدخل الحصن وقتل عدداً كبيراً من الترك بسيفه. وحاول أحد الترك أن يصرعه ببندقيته لكن أخي ضربها بسيفه وقطعها لنصفين وقتل التركي أيضاً. ثم سقط هو نفسه قتيلاً.

" أما أنا فوضعوني على عنقريب ورفعوني على جمل حتى أوصلوني لأركويت. وكانت خسائرنا ٦٠ رجلاً أما الترك ففقدوا ٥٧ من رجالهم.

" والآن أحدثكم عن المعركة الثانية أو معركة قباب.

" فبعد معركة سنكات، شرع حاكمها توفيق في الإستعداد لمعركة أخرى وطلب التعزيزات من سواكن ومن مصر. قمت بدوري بحشد رجالي والتجهيز لحصار سنكات. وكنت أنوي التوجه إليهم يوم ١٢ ذو القعدة (١٤ سبتمبر)، ولكن عندما تلقى أعداء الله التعزيزات التي طلبوها توجهوا نحونا في التاسع من ذي العقدة (١١ سبتمبر) فوجهت أخي محمد موسي دقنة، مع قوة من رجالنا، لملاقاتهم. وعندما وصل الترك لخور قباب وسمعوا بتقدمنا توقفوا وشيدوا زريبة لقضاء الليل فيها.

وقبل أن ينبلج صباح اليوم التالي كان رجالنا قد طوقوهم من كل جانب. ولقد تضعضعت نفوس الترك عندما رأوا أنفسهم محاصرين بقوات كبيرة، وفي مكان لا شئ فيه يقيهم من شر الشمس الحارقة، ولأن ما لديهم من طعام لا يكفيهم إلا ليوم ونصف اليوم. وأخذوا يلقون اللوم على قائدهم الذي أحضرهم لمثل هذا المكان وعرضهم للخطر الجسيم. وقالوا له: "لقد أخبرتنا بأن عثمان دقنة والطاهر المجذوب بلا أتباع وأنهما وحيدان. فلماذا أحضرتنا لتقتلنا هنا؟". كان قائدهم من المراغنة العرب، واسمه محمود علي، وهو شيخ الأمرأر ويسكن بالقرب من سواكن. أراد الترك الرجوع للمأمورية لكن ذلك كان مستحيلاً بدون قتال. لذلك قاموا بتشكيل طابورين وضعوهما على جانبي الزريبة بينما وضعوا على الجانبين الآخرين مدفعين لحمايتهما، ثم شرعوا في إطلاق النار على كل الإتجاهات. قام الأنصار بالهجوم على الزريبة لكنها كانت منيعة ولم يتمكنوا من اختراقها ودخولها رغم أن ثلاثة من رجالنا قد دخلوها بالفعل لكنهم قتلوا جميعاً، وكان أحدهم طه والذي جاءني من قبلكم.

" وفي ذلك القتال فقدنا ٢٧ رجلاً، كما جرح منا عدد كبير كان من بينهم الرجل المقدام محمد موسى.

" أما الترك فقد قتل قائدهم محمود علي وستة جنود وواحد صاغقول أغاسي. وبعد المعركة تمكنوا من العودة للمأمورية وبدأوا في حفر خندق مع تقوية أنفسهم بداخل الطابية. كانوا في غاية الانزعاج والرعب وأخذوا في وضع أكياس مليئة بالرمل بطول الخندق لحماية أنفسهم – وكأننا نمتلك المدافع! – مما يظهر مدى خوفهم منا. كما قاموا أيضاً بقطع الشوك وشيدوا سياجاً منه حول الزريبة ووضعوا مدفعاً في كل ركن منها وعملوا على تقويتها بكل وسيلة ممكنة.

" وفي هذه الفترة أرسلت خطابكم إلى الجميلاب، والذين كانوا وقتها في مديرية كسلا. وقد فرحوا كثيراً عند قراءة الخطاب وإهتدوا بما جاء فيه. وقد ذبحوا أحد السناجك وبعض الجنود المعسكرين في مناطقهم عندما رفضوا الإنضمام للمهدية وحاولوا حرب دعاة الدين الحق. وأمير الجميلاب الذي قام بهذه العملية، وكذلك عملية طوكر، هو حاج إبن حسن أبو زينب، والذي هو حقاً وصدقاً أحد أكفأ أمرائي وأنشطهم، وهو ثابت صارم في معتقده وتستحق خدماته كل الثناء.

كما وجهت العرب أيضاً بقطع سلك التلغراف بين كسلا وسواكن، وهذا ما تم سريعاً، كما تم إقتلاع كل الأعمدة. كما أمكن أيضاً قتل كل الجنود الذين كانوا بالمحطات المختلفة أو أسرهم.

"وأثناء ذلك عينت الخضر أبن علي أميراً على طوكر، وهو مكان في غاية الأهمية للترك عن سنكات، لأن طوكر منطقة كثيفة المزروعات. وقد قام هذا الأمير، وبسيفه، بقطع الحبال التي كان الترك يخنقوننا بها وأبادهم وأستأصل شأفتهم، كما سيرد فيما بعد.

وسأصف لكم الآن المعركة الثالثة أو معركة أبينت.

" ففي الثالث والعشرين من ذي الحجة (٢٥ / ١٠ / ١٨٨٣) أرسلت قوة من الأنصار بقيادة الأمير الطالب إبن محمد – وهو رجل طيب نشيط – لحصار سنكات. وقد قتل هذا الأمير فيما بعد في المعركة ضد الإنجليز، والتي سأصفها لكم في حينه.

"توقف الأمير الطالب في مكان يدعي أبينت، بين سواكن وسنكات. وفي نفس اليوم: إشتبك مع مفرزة من ٢٠٠ جندي تركي كانوا في طريقهم من سواكن إلى سنكات لتعزيز حاميتها. انقض عليهم الأمير وأنصاره وقتلهم جميعاً وإستولى على أسلحتهم وأمتعتهم. ولم يقتل منا في تلك المعركة سوى ثلاثة من رجالنا.

"وفيما يلي سرد لأحداث حصار وسقوط سنكات:

"بعد معركة أبينت عملت علي دعم وتقوية رجالنا المحاصرين لسنكات حتى بلغ عددهم ٧٥٠ مقاتلاً بقيادة الأمير الفكي على إبن حامد، المعروف بأمير سنكات، لأنه هو الذي إحتلها. وهو رجل ورع ناذر نفسه لله ويخشاه أتراك تلك الجهات بشدة. وهو لا يزال معي ويقدم لي عوناً عظيماً. وجهت ذلك الأمير للتقدم مع رجاله حتى يصل إلى مسافة الرمي من سنكات ثم يحاصرها حصاراً شديداً.

"وكانت المأمورية في ذلك الوقت مليئة بأتباع الميرغنية والسواكنية.

"شدد الأنصار الحصار علي المأمورية، وبنهاية ذي الحجة أصبحت الحامية في حالة رهيبة من الضيق وسلم خلفاء الميرغني أنفسهم للفكي علي مع جميع أتباعهم وتوسلوا للسماح لهم بمقابلتي. وكنت في ذلك الوقت محاصراً لسواكن حتى أقطع كل إتصال بينها وبين سنكات. سمح الفكي علي لهم بالحضور لمقابلتي.لكنهم قبل أن يصلوا لي سمعوا بأن الملعون علاء الدين قد إنتصر ولذلك، بدلاً عن الحضور لي، توجهوا مباشرة لسواكن حيث هم مقيمون بها الآن، وحيث عينهم الإنجليز في وظائف الحكومة مثل القضاء والإفتاء والكتبة في المكان الذي كان يشغله أتباع شيخنا المبارك الطاهر المجذوب قبل هجرهم لوظائفهم والإنضمام إليه.

"وكان كبير شيوخ الميرغنية، محمد عثمان (الميرغني) قد ذهب لسواكن قبل تشديدنا للحصار. وهو الآن بمصوع يعمل ما في وسعه لصد العرب عن المهدية.

" وأصبح الترك الآن وحيدين بالمأمورية. وظلوا يطلقون قذائف مدافعهم علي الأنصار المحاصرين لهم ولكن لم يلحقوا بهم أي أذي. وبعد فترة تم تشديد الحصار بدرجة أكبر وقطع كل إتصال بهم ولم تعد تصلهم أي رسائل من الترك بسواكن وقد نضبت كل مؤنهم وغذاءاتهم. لذلك قام الحاكم، ومعه سنجق يدعي أحمد إبن المزين، بغارة لكن الأنصار واجهوهم بقلوب من صوان وطردوهم عائدين إلى حصنهم وقتلوا منهم حوالي عشرين جندياً بمن فيهم السنجق.

"وأصبحت الحامية في بؤس شديد من جراء انعدام الطعام وإضطروا لأكل حميرهم وبغالهم، كما أكلوا أيضاً أوراق الهجليج والأراك والنباتات التي تنمو بالجوار لكن الأنصار منعوهم حتى من أكلها.

"وأخيراً قرر الترك القيام بهجوم أخير لفك الحصار عنهم. وتقدموا يوم الجمعة ١٠ ربيع الآخر (٨ /٢ / ١٨٨٤) خارجين من الطابية بهيئة مربع وضعوا النساء في وسطه. لكن مقاتلينا الشجعان أحاطوا بهم من كل الجهات وشنوا عليهم هجوماً مباغتاً وجللوهم بالسيف ولم يتركوا منهم أحداً. وقتل منهم حوالي ٦٠٠ رجل بمن فيهم حاكمهم. أما خسائرنا فكانت ٥٧ رجلاً فقط.

" وبعد ذلك إنضم الأمير الفكي علي لي في حصار سواكن.

"وسأصف لكم الآن حصار طوكر بواسطة الأمير الخضر.

"وكما أوضحت لكم من قبل، فقد أرسلت الأمير خضر لحصار طوكر وذلك في نهاية ذي القعدة.

" وعندما إقترب من المامورية استقبله كل الأهالي والأرتيقه وغيرهم بالترحاب، لأن شيخنا الطاهر كان قد سلمه رسائل لأتباعه تأمرهم بالإنضمام لهذا الأمير. ولهذا كانوا مسرورين برؤيته وبخاصة أميرهم موسى إبن الفكي، والذي قدم له كل المساعدة. وهو أمير ممتاز يستحق كل ثناء. كما قام قاضي المامورية أيضاً، القاضي صالح، بترك وظيفته الحكومية وإنضم للأنصار من تلقاء نفسه، مفضلاً الجهاد في سبيل الله عن الخدمة تحت إمرة الترك.

" وكان الترك قد حفروا الخنادق وتحصنوا في قفرتهم (الطابية) قبل وصول الأمير الخضر. وعندما وصل طلب منهم التسليم والإنضمام للمهدية لكنهم رفضوا وقالوا بأنهم سيقاتلون، وبأنهم بصدد تلقي تعزيزات من سواكن، لأن طوكر أقرب إلى البحر من سنكات. فقام الخضر بإرسال جزء من قواته بإمرة الأمير عبد الله إبن حامد – الذي قتل فيما بعد في المعركة ضد الإنجليز – وهو أمير ممتاز، لقطع طرق إتصالاتهم ومنع أي إمدادات من الوصول إليهم. أما الأمير خضر فقد بقي مع قواته الرئيسية التي تحاصر طوكر".

"وفيما يلي بيان ب:

المعركة الأولى بالقرب من البحر:

"ففي الرابع من محرم (٥ نوفمبر ١٨٨٣)، أي في نفس اليوم الذي حطم الله فيه الملعون علاء الدين*، خرجت من سواكن مفرزة من الجنود، بصحبة أحد الباشوات وقنصل نصراني** عازمة التوجه إلى طوكر. ولما شاهدهم الأنصار هجموا عليهم بغتة وقتلوهم جميعاً، وعددهم حوالي ٤٠٠ رجل، ولم يفقد الأنصار سوى ٢٧ قتيلاً.

"وفي نفس اليوم ألتقي مأمور، كان في طريقه من كسلا إلى طوكر بصحبة عدد من الجنود، بأمير الجميلاب، الحاج إبن حسن، والذي دعاه للإستسلام والدخول في سلك المهدية. ولما رفض الأول ذلك تم قتله هو ومن معه ولم يفقد الأنصار سوي رجل واحد في هذا القتال.

"وأثناء ذلك خرج الترك من طوكر ليشنون غارة علينا. لكن الأنصار صدوهم عائدين إلي حصنهم بعد أن قتلوا عدداً منهم بمن فيهم بلك باشي".

والتالي بيان عن:

المعركة الثانية بالقرب من البحر***

"وسرعان ما تلي ذلك وصول قوة من ٥٠٨ جندياً، مع عدد من الخيالة والمدافع، قادمة بالبحر من سواكن. ونزلت تلك القوة في (ميناء) ترنكتات بهدف نجدة طوكر. التقي بهم الأمير عبد الله ومن معه من الأنصار. وعندما رأهم الجنود أطلقوا عليهم قذائف مدافعهم. لكن الأنصار قاموا

---

* هذا يشير إلي تدمير جيش هكس باشا في شيكان.

** يقصد الكوماندر ليندوخ مونكريف، من البحرية الملكية.

*** إشارة إلي معركة الجنرال فلانتين بيكر في التيب.

بهجوم قاتل عليهم وحاربوهم ببسالة لساعة أو ساعتين حتى قتلوا منهم ٤٥٠ رجلاً وفر الباقون إلى بواخرهم، التي كانت راسية بالقرب منهم، وعادوا إلى سواكن.

"وفي تلك المعركة فقد الأنصار ٣٠٠ رجل كان من بينهم الأمير الفكي محمود، شقيق الأمير الخضر، والذي كان متين العقيدة، صلباً في المعارك ويخشاه الأعداء.

"وقد نشبت هذه المعركة في الخامس من ربيع الآخر ٤ فبراير ١٨٨٤ وبعد هذه الهزيمة اعترفت الحكومة المصرية بعدم قدرتها علي الحرب ضد السودان وسلمت حكومة سواكن للإنجليز أي أن سواكن الآن هي تحت الحكم الإنجليزي".

سقوط طوكر:

" في المعركة الأخيرة غنم الأنصار مدافع الترك. كانت تلك مدافع ضخمة للغاية وتستطيع قذيفتها إختراق ثلاثة أو أربعة أسوار. أخذ الأنصار تلك المدافع إلى طوكر وقام الأمير خضر بتشديد الحصار عليها بقوة. كان لدى الترك من المئونة ما يكفيهم لسنتين أو ثلاثة. لكنهم عندما سمعوا بتدمير القوات التي كانت قادمة لنجدتهم. وأنه لم يعد لهم أي أمل في وصول قوات أخرى لمساعدتهم، وأنهم أصبحوا معزولين تماماً من العالم الخارجي، قاموا بالإستسلام. وأحتل رجالنا طوكر.

" تم هذا في شهر ربيع الأخر قبل أربعة ايام من نهايته.

معركة البحر الثالثة، أو معركة الإنجليز*

"بعد ثلاثة أيام من سقوط طوكر، إمتلأ كل ساحل البحر بالبواخر وأشيع بأن الحكومة المصرية، بعد أن أيقنت بعجزها عن الدفاع عن البلد، أوكلت شئونها للحكومة الإنجليزية. كانت البواخر مكتظة بالجنود الإنجليز والذين جاءوا لإعادة إحتلال طوكر. وعندما علمت بذلك أرسلت إبن أخي مدني، وهو رجل قوي وشجاع، لمساعدة الأنصار بطوكر للوقوف ضدهم.

"وقد بلغ عدد الجنود الإنجليز، كما علمت، حوالي ٢٤٠٠ رجل وأنتظرهم الأنصار حتى نزلوا للبر، إذ أنهم لم يهاجموهم أثناء نزولهم خشية فرار البعض منهم وعودته للبواخر وأخيراً، وعندما هبطوا جميعاً، إنقض الأنصار عليهم ودارت معركة حامية إستمرت حتى حلول الظلام ثم تراجعت القوتان. تم توجه الجنود نحو المأمورية.

كانت خسائر الأنصار ثقيلة في هذه المعركة. وعندما علمت بهذا قمت بإرسال كل قواتي، ما عدا قلة منهم، لقتال الجنود في المأمورية وأرسلت أفضل قائدين من رجالي لهم، وهم حامد، إبن أخي أحمد دقنة، وإدريس. وأمرت هذان الأميران بمهاجمة الإنجليز في أي وقت سواء بالليل أم بالنهار وفي أي ساعة كانت. لكن الإنجليز لم يمكثوا هناك طويلاً فقد ضرب الله على قلوبهم الرعب، ورجعوا في اليوم التالي بعد أن مكثوا بالمأمورية ليلة واحدة، وبعدها ركبوا بواخرهم عائدين.

---

* يشير هذا إلى معركة الجنرال جراهام في التيب، ٢٩ فبراير ١٨٨٤.

"وعند مشاهدة الأنصار للمأمورية التي أخلاها الإنجليز عادوا لي. لكن الأمير خضر لازال مع رجاله هناك يراقب الشاطئ.

"وفي هذه المعركة فقد الأنصار حوالي ١٥٠٠ رجل بمن فيهم أمير الشاطئ عبد الله والأمير مدني والأمير الطاهر إبن الحاج عمر قمر الدين المجذوب، وهو إبن أخ الشيخ الطاهر المجذوب. وكان هذا الرجل صادقاً وشجاعاً لا يخشى الموت عندما يقاتل أعداء الله.

ويقال أنه أخبر أحد أصدقائه قبل المعركة بقوله: "إذا ما أصبت بجراح قبل أن أصل للكفرة فجروني من رجلي حتى توصلونني لهم فلعلني أشفي غليلي بغمس حربتي في أعداء الله حتى لو كنت في النزع الأخير قبل موتي لألقي الله شهيداً وأدخل الجنة"

"ومن ضمن موتانا أيضاً الأمير موسى قلاي، والذي يعدل ١٠٠٠ رجل والذي هو مثل سيف الله المسلول لحرب الكفرة.

"وقد جرح منا مثل عدد قتلانا. أما أعداء الله ففقدوا أكثر من ٣٠٠٠ رجل".

معركة الأمير مصطفى هدل في كسلا:

"وبالقرب من نهاية شهر محرم (نوفمبر ١٨٨٣)* قمت بإرسال الأمير مصطفي هدل، أميراً علي كسلا، لحصار تلك المدينة. وهو رجل جيد وتقي ودائماً علي إستعداد للقتال في سبيل الله. وكنت قد أرسلت من قبل خطاباتكم إلى أهالي تلك المديرية. وبالتالي، وعندما وصلها مصطفي هدل، أستقبل استقبالا طيباً وسرعان ما إنضم إليه عدد كبير من الرجال المستعدين للقتال. ثم تقدم ناحية مدينة كسلا وقد إعتزم فرض الحصار عليها، لكن الجنود ما أن سمعوا بذلك حتى توجهوا نحوه بقوة من ١٥٠٠ جندي وذلك في ٣ ربيع الآخرة (١ / ٢ / ١٨٨٤).

" ودارت معركة بينهما إنتهت بهزيمة تامة للترك والذين فقدوا ١١٠٠ رجل وأنسحب بقية جنودهم إلى الطابية والتي ألقي مصطفي هدل حولها حصاراً شديداً. ويقال بأن الترك قد اعتزموا الإستسلام، لكن السيد محمد عثمان الميرغني منعهم من ذلك وهذا الرجل شديد المعارضة للمهدية وقد ساق معه عدداً كبيراً من الرجال قبل وبعد وصول مصطفى هدل".

معركة عطبرة:

" وفي محرم (نوفمبر ١٨٨٣) طلبت من الأميرين قوليابي وطاهر قيلاي، من البشاريين، التوجه برجالهم نحو عطبرة ومهاجمة سنجك كان معسكراً هناك مع عدد كبير من الجنود، وبعد أبادتهم فأن عليهما التوجه إلى بربر وضرب الحصار عليها. نشب القتال بالقرب من النهر وانتهي بقتل ١١٤ جندياً و ٨٠ من رجالنا. وفر الناجون من العساكر إلى بربر بينما عاد إلينا الأميران. أبقيت معي الأمير قوليابي لكنني أعدت طاهر إلى حصار بربر. وهو هناك الآن مع الفكي محمد الخير، أمير ذلك المكان".

* في الكتاب نوفمبر ١٧٨٣ وصححناه (المعرب).

المعركة مع الترك في تمانيب:

" عندما بدأ رجالي أول حصار لهم حول سواكن، قامت حاميتها بشن غارة عليهم وذلك في أول صفر (١ / ١٢ / ١٨٨٣) بقيادة شخص يدعي قاسم، وهو أحد رجال علاء الدين الموثوقين ومتمكن من فنون الحرب مثل توفيق. وكان معه ١١٠٠ رجل، وقد قام بوعد الحاكم بإحضاري والشيخ الطاهر المجذوب له أحياء في سواكن أو أن يقتلنا. ولاشك في أنه يجهل قوة العمل في سبيل الله ويضع ثقته في رجاله فقط، والذين إختارهم من الجهادية المدربين.

" تحرك من سواكن في منتصف الليل بدون أن يحس به أحد من الأهالي حتى بياغتنا بدون إنذار. التقوا بنا في أول صفر وشرعوا في إطلاق النار علينا بينما رئيسهم يسخر منا ويستهزئ بنا. لكن الأنصار سرعان ما طوقوه من كل جانب وأنقضوا عليهم فجأة وقتلوا كل الترك بمن فيهم رئيسهم وسنجك يدعي المزين، وهو أخو المزين الذي قتل مع توفيق. أما الأنصار ففقدوا ٨٠ رجلاً.

"ومرة أخرى في العشرين من يناير ١٨٨٤ خرج ١٠٠ فارس من سواكن لشن الغارة علينا. ولكنهم عندما اقتربوا منا أدخل الله الرعب في قلوبهم وفروا عائدين إلى سواكن. وقد طاردهم الأنصار. لكنهم لم يتمكنوا منهم، لأنهم كانوا علي صهوات الخيل، ولم يتمكنوا إلا من قتل سبعة من رجالهم. هذا وعند وصولهم لسواكن هلك كثير من خيولهم من شدة الإجهاد.

"وفي ربيع الآخر (فبراير ١٨٨٤) ألتقي مائة من الأنصار بجماعة من العرب بقيادة محمود علي. ولما رأى محمود قلة عدد الأنصار أنقض عليهم وقتل منهم ٢٢ رجلاً بينما لم يخسر هو سوى رجل واحد. وهو نفس محمود علي الذي كان قائد (الإعداء) في معركة قباب. وهو كثيراً ما يحشد الرجال لقتالنا ويتحمس لذلك أكثر من حماسة الترك والإنجليز كان الأمير الذي قاد الأنصار في تلك المعركة محمود أدم سادوب، من الأمرار، وهو أحد أفضل أمرائي وقد جرح جراحاً بليغة (في المعركة).

معارك الإنجليز في تمانيب*:

"وفي ١٤ جمادى الأول (١٢ مارس ١٨٨٤) وصل بالقرب مناجيش من الإنجليز، يقال أنه بلغ ٢٠٠٠٠جندياً من بينهم ٦٠٠٠ فارس، وشيدوا زريبة متينة قضوا فيها ليلتهم. فأحاط بهم الأنصار وأصلوهم ناراً متصلة طوال تلك الليلة ومنعوا الإنجليز من النوم وكبدوهم بعض الخسائر.

"وعند الصباح بدأ الإنجليز إطلاق نيران بنادقهم ومدافعهم. فهاجمهم الأنصار وإستمرت المعارك طيلة اليوم ثم تراجعت القوتان. عاد الإنجليز لسواكن بعد أن فقدوا ٨٠٠٠ رجل. أما الأنصار فقد فقدوا ٢٠٠٠ رجل كما جرح منهم عدد مماثل.

"وعند نهاية جمادى الأول عاد الإنجليز بقوة من ١٣٠٠٠ رجل ولكنهم قبل أن يصلوا إلينا ضرب الله الرعب في قلوبهم ورجعوا لسواكن بدون قتال. لكن من وصل منهم لسواكن لم يتعد ٥٠٠٠ - ٦٠٠٠ رجل منهم ودمر الباقون منهم أثناء الطريق. ولا يعرف نوع الطامة التي دمرتهم اللهم إلا إذا كانت الأرض قد فتحت فمها وإبتلعتهم.

---

* أشارة إلي المعركة التي إنتصر فيها الجنرال جراهام في طماي يوم ١٣ / ٣ / ١٨٨٤م

"وباختصار، فأن الجيش الإنجليزي قد دمر تماماً ما عدا ٥٠٠٠ –٦٠٠٠ رجل منهم. وكان لديهم حوالي ٢٨ باخرة في إنتظارهم بالميناء. لكنهم عند عودتهم لم يملأوا سوى خمسة منهم وعادت بقية البواخر لبلادها خاوية. وقد تحطمت أحدى بواخرهم تلك في الطريق. وقبل ذلك كانت الحكومة المصرية قد خسرت عدة بواخر كانت تحمل الجنود والخيول والبغال والمال".

معركة هشين:

"وفي شهر رجب (مايو ١٨٨٤) جمع محمود علي عدداً من العرب، من الذين لم يعتنقوا المهدية، علي بئر يدعي هشين وحاولوا طردنا من الجوار ورفع الحصار عن سواكن. قام بكل هذا دعماً للإنجليز. وأرسل عدداً قليلاً من الفرسان مسلحين بالبنادق نحونا وشرعوا يذهبون ويجيئون طوال الليل مرتين أو ثلاثة مرات وأسروا سبعة من أنصارنا وأرسلوهم للإنجليز بسواكن فزودوه بالخيول والسلاح والمال والزخيرة.

"علي ذلك قمت بإرسال قوة من الأنصار بقيادة أمير سنكات، الفكي علي، والذي، عندما إقترب منهم، طلب منهم الدخول في سلك المهدية. وفي ذلك الوقت كان محمود علي بسواكن. فأرسل له أتباعه خبراً بوصول الأنصار. فجمع عدداً من الرجال من سواكن وتوجه نحونا. وأثناء ذلك كان الفكي علي يحاول استمالتهم لجانبه، وعندما وصل محمود علي حرضهم علي القتال لكنهم عندما إقتربوا من الأنصار ملأهم الرعب ولاذوا بالفرار.

طاردهم الأنصار وقتلوا ستة عشر رجلاً منهم وجرحوا عدداً آخر. ولم يفقد الأنصار أي رجل منهم وقام عدد كبير من العرب الآخرين بإعلان توبته وإنضموا للمهدية. كما إستولينا علي عدد من الإبل والحمير و ٤٩ امرأة.

"وكان محمود علي يمتطي جملاً أثناء القتال ويقف بعيداً جداً في المؤخرة. وعندما رأي رجاله وهم يفرون أسرع ناجياً بنفسه إلى سواكن بقدر ما حمله بعيره، ولازال هنالك حتى الآن مع الإنجليز.

"وفي الأول من ربيع الأول (٣٠ ديسمبر ١٨٨٣) وصل إلى سواكن، قادماً من القاهرة، أحد شيوخ الختمية ويدعي محمد سر الختم الميرغني – شقيق محمد عثمان الذي أشرنا إليه من قبل – وكان غرضه إطفاء نور الله. وقبل وصوله، كان أهل سواكن قد إعتنقوا دعوة الحق بأعداد كبيرة. لكنه عند وصوله قام هو وخلفاؤه بالكتابة للعرب قائلين لهم أنه مهدي كاذب (الذي إعتنقوا دعوته) وبأنهم رجال أشرار ضعاف العقول. ثم دعاهم لنبذ المهدية والعودة لطاعة الحكومة. وهذا الرجل يعتبر من الكفرة ويضلل كثيراً من الناس.

"ولا أعتقد أن هناك أناساً في هذا الكون لا يصدقون بالمهدية بمثله أو مثل أخيه عثمان أو خلفائهم أو إبن عمهم الذي بكسلا.

" وأنه يصر على كل من يحضر إليه أن يغتسل لثلاثة أيام، وأن يتبخروا بالبخور لتطهير أنفسهم، ثم يجعلهم يحلفون كل يوم بالقرءان بأنك لست بالمهدي وأن أي مهدي لم يظهر بعد أو حتى ولد. ويقول للناس بأن الرسول قد أوكل إليه إخماد تلك الإضطرابات، وأن ما عليهم إلا إتباعه وبأنه سيكون (بعد ذلك) مسئولاً أمام الله عن أعمالهم. وإذا أعتزم أياً من الترك أو الإنجليز أو

العرب محاربتنا، فأنه يعطيهم راية يسميها راية النصر. ويقوم كل شهر بالتنبؤ بأنني (عثمان دقنة) سأموت خلال ذلك الشهر. وفي بعض الحملات التي يقوم بها الإنجليز اعتاد أن يخرج معهـم. وإذا ما جاءه أحد من (ضعاف العقول) من العرب الذين يتبعوننا فأنه يطلب منهم البقاء فـي منـازلهم لأربعين يوماً لأنهم تلقوا البيعة من عثمان. وهو يكتب دائماً خطابات التهديد ويقول فيها بأن كـل أوروبا ستتجمع وتحاربنا. وهو لا يزال في سواكن ماضياً في طريقه وضلل كثيـراً مـن النـاس وأبعدهم عن طريق الله ونوره ويقول أشياء غريبة لا تعليل أو تفسير لها.

" وهناك رجل آخر في سواكن يسمى الشنقيطي أحمد ضلل كثيراً من الناس. وعندما تـم إرسال خطابكم إليه أعاده بإجابة كتبها علي ظهر الخطاب وفيها، كما سترون، يقول كلاماً يدل علي أنه لا إيمان له. وقد كتب لي أيضاً ليقول بأنه عندما يري أي رجال من الذين يحاربوننا فأنه يقبـل أيديهم قائلاً:" ناولني يدك التي قاتلت بها عثمان وشيعته حتى أقبلها".

ولازال خلفاء الميرغني يحذرون الأهالي من المهدية وكذلك يفعل العمد بسواكن. ويقوم أحدهم – يدعي الشناوي – بدفع مال من جيبه الخاص حتى يضلل الناس ويبعدهم عن طريق الله.

"وتقوم الحكومة بتقوية حصونها وتضع المدافع في المواقع (المختلفـة) منـذ أن جئنـا لحصارهم. وقد قاموا ببناء خمسة طوابي بالجنوب والغرب والشمال منهم طابيتان بالقرب من آبار المياه. وقد أوصلوا المنازل ببعضها بجدران من الطين والحجارة وأقاموا بوابة واحدة لكل المدينة. ويشرب الجنود الماء، وهو ماء البحر، بعد تحليته بوابورات بخارية." ونحن حالياً نحاصر المدينة حصاراً مشدداً ونقوم باستمرار بمضايقة السكان بالليل وبالنهار. وهم يطلقون مدافعهم علينا، سواء من الطوابي أو من سفنهم بالبحر.

"هذه هي حقيقة الأحوال الآن. وسأقوم بإخطاركم بأي تغيير قد يطرأ".

العمليات بعد معركة هشين:

"بعد معركة هشين التي وصفتها من قبل، أمرت الأنصار بالعودة إلى البئر التي بـالقرب من سواكن والمسماة هندوب. وهو أقرب مكان لسواكن تتوفر فيه المياه وأفضل مكـان لضـرب الحصار علي سواكن منه. "وقد إستقر الأنصار في ذلك المكان في منتصف شعبان (يونيه ١٨٨٤) وسرعان ما أخذ رجال علي ركاب وفاضلاب محمود علي بالإستعداد لطرد الأنصار بعيداً عن البئر وفتح الطريق إلي سواكن حتى يتمكن الأهالي من إحضار مواشيهم وألبانهم لبيعها في سواكن. وقد أرسلوا كشافيهم وكذلك فعل الأنصار مثلهم. ألتقي الفريقان. وكان لدينا ثلاثة رجال فقط بينما كـان كشافوا العدو يتجاوزون الثلاثين.

وقتل من كشافينا إثنان وعاد الثالث. كما قتل أحد كشافي العدو. فقام الأنصار بالتقدم نحو المعسكر الذي تجمع فيه العرب وهاجموه وقتلوا منهم ٢٢ رجلاً بينما فر الباقون. وكان من بـين القتلى خمسة سواكنية أحدهم من خلفاء الميرغني. وقد أحرقت جثثهم بالنار وهو جزاء الكافرين. أما الأنصار فلم يخسروا أي رجل بل استولوا أيضاً على عدد من المواشـي و ٤٠ امـرأة. ومـن ضمن ما استولوا عليه علماً للسلام تابع للترك. دارت هذه المعركة في الأول من رمضان. ثم عاد الأنصار بعدها إلى هندوب وقطعوا الطريق إلى سواكن مرة أخرى وإضطر العرب لدخول سـواكن عن طريق مرسي برغوت (بارود).

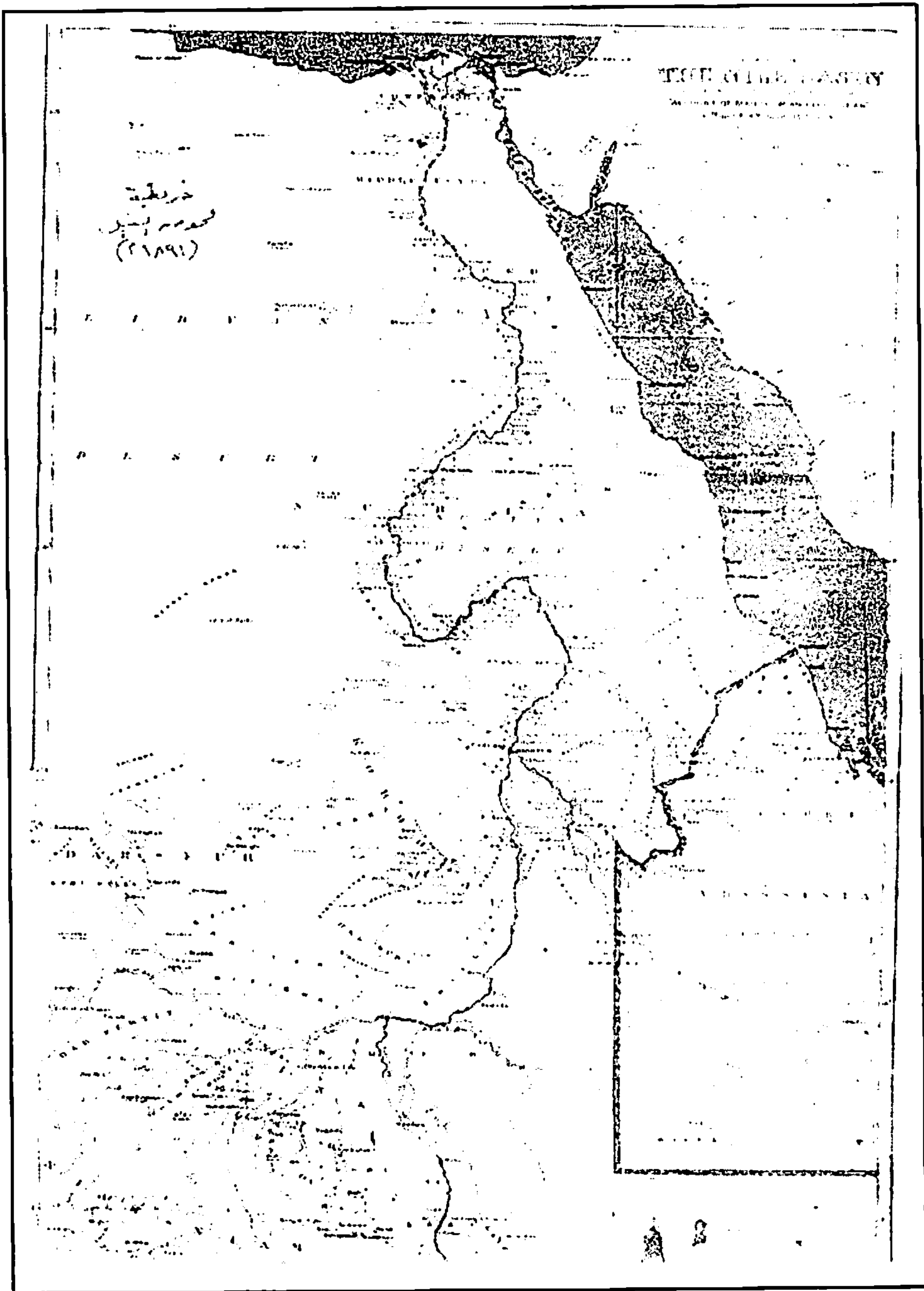
"وشاهد الأنصار جماعة من العرب يقودون مواشي لهذا المرسى، وليوصلوها لسـواكن عن طريق السنابيك، فهاجموهم وقتلوا خمسة منهم وأسروا سبعين وحازوا على كـل المواشـي والجمال والبقر والضان والحمير. حدث ذلك في منتصف رمضان.

***

وقد سقط من هنا عدد من صفحات الكتاب. ثم تلي ذلك بيانات عن مختلف الإشـتباكات التي جرت بين قوات عثمان دقنة ومحمود علي، والتي لا داعي لتكرارها هنا نظراً لإيرادنا لها من قبل في هذا الكتاب.

***

أنتهى،،،


خريطة
لحوض النيل
(١٨٩١م)

تم بحمد الله